

القتربنات السّادس عَشر وَالْسِيَالِع عَشر

> منشر رات هريدات كيت د جاريد



تارييخ الحضارات العام

موسوعة في سَبِعَة بجلدات باشراف موريس كروزية

الشرق واليوبنان القتديمة

جانين أوبواسيه أمينة مخف نيمة

أبندوبيه البيماو أستاذ في السوريون

رومتا وأمبراطوربيهك

جانين ا وبواسه أمينة متحف عيمة

اندربيه اسيعار أهتاذ في البيربون

القروب الوسطى

إداود سبروى أستاذني السربون

القربشان السسادس عشر والسكابع عكشر

أستاذ لميدالييربين

رولات موسنيه

القرن النشامن عشر

رولان موسينيه و أرنست لابروس أبتاذ فيالسيه أبتناذ فيالسربيك

القرن الت اسع عشر روبيرشنيرب أبتاذ فزي فالدابات العليا

العهشدالمعاصس موريس كروزبيه مفتئ المارن العام فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف موريس كروزييه منتش الميارف العام في لأنسيا

التعوّل الفِيح ي العَظيم الذي طلّ عسَلَى البشريّة طلبوع انحسَركة العلمية انحديثة سيطع أودوبسَا

ستاريخ الحضارات العسام الفرا ما نفاذ الما المنفر الفرا ما ن الساهس و السالي

ستاليف رولات موسسنييه أسستاذيف السودبود

نقله الى العربية. يوسف أسعد داغِر فرييدم . داغِر

منتنورات عويدات سيروت - ساريس جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار منشورات عويدات بيروت ـ باريس بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية Presses Universitaires de France

مــدخل

لو قيض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيريوس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألاً ؟ نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في اواخر القرن الخامس عشر ؟ لأخذته الحيرة واضطرب لبه لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها بما قام من امثالها . فالمجتمعات الاميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لعمري مجتمعات لم يعرف عنها العمالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من اوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجاعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشغي غليلا ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيالو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف المتباينة عاشات الاخرى ، اذا مساعرف ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ما تم من منهجية آسرة ومعلومات موسوعية في الصمع .

فقد تكشفت اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في نواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من على على اطراف كرتنا الارضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المرس للأمطار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عسارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً لذرائع ووسائل عرفتها اوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكدن الحصان في رقبته ، والثور بعسد أن استميض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضفطاً متزايداً من جراء غاء الناس وتزايدهم ، بعد أن ارتفع عددهم إلى اربعة أضماف مسا كانوا عليه في السنة الآلف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتاد الدفة الحمورية المائقة بمفصلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استمال الأبرة المغنطيسية بعد أن اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منسذ أواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفتجة اساساً

والاعتاد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به ايطاليا أول من اخذت وجرت على اعتاده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد السحيرى وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية بما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكاترا والمانيا الجنوبية والمانيا الرينانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقسل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطا وثيقا بالسفتجة وارتكز عليهسا . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينسا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وئيداً في إيطاليا الشمالية والمانيا الرينانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائسم تقنية ، المنافخ المائية في الافران الصناعية ، وذراع الدافعة في مقبض الحمول الآلي والتوصل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بناء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر الحيطات هي الكرافيل ، والتعويل ، اكثر الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهاجرة للوصول الى تحديد نقطة المرض ، فاكثر في تسنيم الريف والصناعة اليدوية .

وقد تفرد الاوروبيون دون سواجم بالقدرة على عبور الحبيطات. واجتيازها في اواشر اللان الحامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضـــارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقي وتصادم وتفاعسل وانفمال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا. وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان أطاح بالمدنيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية عسملي الحضارات الافريقية ٬ وعاد بالرفء والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يغظة ووعياكا ادى ، من سبهة اخرى ، الى بعث النشاط في الخضارات الآسيوية ، اقسسله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا أصبح في الوسع أن نتيكم ، عن والعوالم ، التي أقامها الالسان وعن هذه الجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، و عوالم » اصبحر مسسن ان تستوعب أ العالم ؛ ﴿ عَالَم ﴾ البحر المتوسط ؛ و ﴿ عَالُم ﴾ العدين . فعنذ الآن ؛ ومع أنه لا يؤال يرجسد في ا العالم ؛ مناطق منعزلة كجزر الحميط الهادي والمناطق القطبية ؛ والاصقاع الواقعيسة في قلب اقريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جمل من الحيط الاطلسي محوراً له قضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل نم في النصف الثاني من القرن السادس حشر ٤ عبر الحيط الحسسادي ٤ ارخبيل الفيلبين ، ليبلغ مشارف اليابان والمسين وماليزيا ، ثم قام المسسالم البرتفالي الذي اتخسد عوراً له افريقيا والهند ، وتحكم بمداعل بس الهند وعارجه ، وسيطر عسمل جزر الاقاويه والطيب . وهكذا اصبح في مقدورنا ان نمتبر العالم الارضي ، واقما إنسانيا متحيزًا ، وارت

تاريخ اوروبا وتاريخ الكرة الارضيــة كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب اوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقسسع الحادث الفصل في تاريخ الاجيال الطالعة ؛ الا وهو نشأة العلم الحديث ؛ علم اوروبا بالذات ؛ عند ما تم لفاليليو ؟ عام ١٦٠٤ ؟ اكتشاف قاموس الجاذبية ؟ اول قانون الحركة ؟ باب العلم الحديث وعمرابه ، كما وضع ، في الوقت ذائه ، اسس الفيزياء الرياضي ومبسساده الاساسية . وبذلك اثبت أن افلاطُون كان على حق عندما راح يؤكد ، بمكس أرسطو ، أن الواقع المتحيز في الزمان والمسكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وان تحت الظواهر الحسية يكن نظام خفى يخضع للفكر الرياضي ؛ وأن كل شيء يتكشّف عن معادلات هندسية وعن حركات في غائبة الانضباط والدقة ، وان كل شيء هو موضوع قابل للتياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها الى ما لاحد له . أن هذا التحول بطرأ على الذهن البشرى ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطميسة من فيزياء المناقبيسسة الى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية الى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، إلى الدقـــة والتام، كل هذا ومـــا اليه يكورّن في تاريخ الانسانية ، حدثًا له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي او يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن امام اعظم تحول فكري عرفته الانسانية مروراً بمؤسس الميكانيكا وروادها الكبار امثال : ديسكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الانوار كأوغست كونت و دارون و كارل ماركس وكوري و انشتاين العالم الحديث ، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد ان تهيأت اسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منسذ والاهتام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، أن نضفي على المادة ، ماليسمن صفاتها ولامن خصائصها، والرفض باعتباره واقعياً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما البه مها نصت علمه مُخلَّفات القرن السادس عشر الفكرية فكان اسِّاساً لهذ الجدل العنيف الذي أثارته هـــــــدُّه الاهاجي البروتستانتية التي قذفوا بها المقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السبد المسيح تحت اعراض الخبز والحتر بعد استحالتهماء هذه الاهاجي التي هيأت ومهدت السبيل امام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجذور ابعد من ذلك بكثير . هل يجوز ان نرد التحول الفكرى الى هـــذا الازدهار الذي عرفته التقلية التي تفترض ، لتعمل ذهنا الجابياً وعقلانياً خاضماً لمبدأ السببية الذائبة؛ هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتاد المالي والسفتجة؛ هذا النظام الذي كان يفترهن دوماً المد والحساب وتحويل كل شيء الى معسادلات حسابة ، باستثناء تلك النرائم التقنية التي تتملق بالبناء والصناعة مها لا بد منه لتأمين نجاح اعمالها على اساس من الاعمال الحسابية والهندسية ؟ ايه لعمري ، الى حد ما ؛ أقله كعامل إثارة واغراء النضول المقلى . وها هو غاليليو نفسه يدعونا الى ذلك ، في مباحثه التي اظهرت عمام ١٦٣٨ ، اذ نراه يؤكد لنا بانه 'دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعسد الذي طالعه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الرافعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه المخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسميسة والرجحان الوقتي الذي حقد الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع ولم او كهام عندما استقر في خلاهما أن المساني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقسة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر. وهذا أنما يعني ان المفاهم العامة إنما هي اسماء او مسميات لا احتار ولا أقل . فعملوماتنا ، والحالة هذه ، أنما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق النهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار. ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة وازيس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هسذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للامحات التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفة حاسمة من عطفاته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بعصر جديد وحياة جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتنمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطيمة او تباعداً من قبل رجل او بضمة رجال ، لهذه الاعراف التي سار عليها الناس او لمادات ومراسم اعتمدوها او اعتمدها مجتمع قائم بذاتـــه ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمها . صحيح ان الانسان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسم عشر . فهو كايزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط. القيلية والمهنية والمجتمعية. ولكن ما عسى ان تكون هسذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسان ؛ في الحند ؛ مثلًا ؛ في هذا النظام الطبقي الذي أرزح الجمتمسع ؛ أو في : الصِّين حـث برى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يرزح تحت ضاغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المعيقة بازاء استعالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخانقة والمراسم الضيقة بما رسمه الجسدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينمم بها اهل هذا العصر ? قادًا ما توفرت البعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد أو التأمسل ، تحتم عليهم الانصهار مم المطلق والإعراض عن المــالم الحارجي ومفرياته هذا العالم ذي المظاهر الحداعة الزائلة . وعلى عكس ذلك فالفردية الاوروبية ازدادت رسوخًا تحت تأثير عامــل المبيحية . فالثنائية، مذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصمع الفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

السمع والكل الكال ، خليفته التي برآ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في شيطة موصولة بمشاهدة كمالات الله . فهي روح المازت بالفردية يتوجب خلاصها وتفادي ذهابها الى جينم والدخول بها الى الفرُّدوس ، حيث تنعم ، وجها لوجه بشاهدة الله . فالمسيع بذل دمه وقاسي عذاب الصليب فداء "لجيم البشر ولسان حاله يردد : ﴿ هذه النقطة من دمي بذلتها ا وجُنُدتٌ بِهَا لِلْجَلَكُ ﴾. فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ؛ وهي صراج مستمر بينه وبين أركون الطللام . فالحقبة القائمة تنضع بالدن والتقوى ؛ وفيها بلغت مراسم.الإبتهال الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع كمشيئته ، والاتصال به ، غامهـــا الاكمل وكالها الأتهر بمم العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مشسل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصبيروا فيها بعد أن تطهروا من أدران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبعثت من العلماء الروحانيين ، اصحاب و التقية الحديثة ، في القرن الرابع عشر امتسال : رويزبروك وطولر ، واخوة الحياة المشاركة والكهنة القانونين في وندشهاج ، جاءت تماماً ، وفاقاً لمراسم العبادة الق قال بها وعلم فزيق من أولياء الله ٤ أمثال القديس اغناطيوس ده لوايولا والقديسة تريزيا دافيلا" والقديس برحنا مع لاحروا والقديس فرنسيس الساليزي وبابيرول Bérule والرهبان السلبوسيين والمدرسسة الفرنسية في القرن السابع عشر. ففي مثل هذا ألحيط من الزُّهاد الهجم والمتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد الهادف الى تجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبار وديكارت . كبار هذا الذي خيل اليه يرما انه توصل بنعمة الله الكشف عسن مقاصد الله في خلقه والأسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نراميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه أن يرسى الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ؛ ويخزي ، ال الابد ، الكفار والملاحدة والمطلق • وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع، كالفارس الجاهد في حسلة صليبية ، المتاضل في سبيل ربه مرضاة لوجهب الكري ، فاسكر ده غاما وفرناند كوربس. فقبل أن يقلم فاسكو بجراً في رحة طوية ؛ نراه يقضى ليه الطويل ضارعها الى الله ؛ متوسلاً الله في كنسة السبدة ؛ في بلدة بيث لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتها؟ اليه تسديد · خطاه . وكنتيجة للاعتفاد باله فيوم ؟ متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من المسدم ؟ وعلى ضوء حلاقة النفس بربها وقسد الأطتُ به كل أملها ، والفارس المسيحي بسيده، ومحاولة الفرد يهنو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة أو الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هــذه الامور وما اليها ٤ غانج واضعة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ؛ والنَّطور .

هكذا تولت اوروبا مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحيسة وتحدين العالم وايلاءه طابعاً اوروبياً . فجاءت النتائج على غيير استواء . فاذا ما ضربنا صفحاً عن القارة المعوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود محدودة الاثر واستعمارها كمين لهم لا ينجب لمدهم عا محتاجون اليه من الارقاء لاستثباراتهم الطائلة في اميركا ، فقيد حققوا بعض النجاح في هدده المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولا وحكومات نأت عن الحضارة الاوروبيسسة لتكون بنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم، مع ذلك ، لتقبس منها ما وغب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الاوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبـــاثل يتعاطى القوامها جني الانمسار ويمترفون الصيد والقنص والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فت في عضد تلك السيادات الحلية . أما في كسيا وافريقيسا حيث وجد الاوروبيون حضارات تمود للمصر الحديدي ، تختلف كليًا عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الاسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلا ؛ عرفت 'نظئم الملككية' واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف حما تم لأوروباً منسه ٬ او كانت على مستوى حضاري لم كشعر معه بتفوق الاوروبيين الظاهر، فقد جاء انتشار المسيحية فيهاوتغلغل الحضارة الاوروبية بين ارجاعًا ،سطحياً. فلم تدخل هذه الحضارات تغييراً جدرياً على اوضاعها القائمة. فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشمر على الخصوص ، يوطأة الطبيعسة المرزحسسة ، ويئن من جشع بعض الجتمعات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يهمها الا المطلق ؛ وتستنكف بازدراء وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حسد لمظاهر غرّارة متغيرة دوماً ، فكان اخذهبا باسباب التطور والتحول ؛ دون ما كان علمه في اوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن أن القدرة على التطور والاستعداد للأخذ باسبابه ومسببات لم تكن لتنقصهم قط : فقعد أرتفع بعضهم وسها فريق منهم الى افكار ونظريات ؟ سجل الوصول اليها تحرراً الفردكا ثم لطبقة السَّيخ في ألحنسه بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحتى المتجلية باحمال البر والتقى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرزحة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالمسيني وأنغ – يأنغ – منغ رأى ائ كل انسان عالما كان ام جاملا ، وياكان او فعيراً ، ذكياً او متبله الذهن ، يملك في رأيه في قيمة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وجكذا يجد نفسه في النهاية متحزراً من التقاليد والاعراف العائلية ٬ ومن "تعالج قدامي الكتاب ووصايام ٬ ومــــن ضواخط العادات المستبدة ، كذلك مؤلاء اليابانيون مسن اتباع بوذية زن قهم يتوقعون كلهشيء من التفكير الشخصي في العالم وفي الجنبع ٬ بعد ان يتطلقوا من ترهات مذَّه الدنيا وامورها ليصلوا بأنفسهم الى معرفة المطلق امدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر المها كانت إفرادية ومحدودة تثبت بوضوح وجلاء بالرغ من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك تانوية ، هذه الفوارق التي تعوم على المرف والمناخ وحدثان الثاريخ ومجرياته ووحدة الجنس البشري. غير أن آسيا باعراضها الموقت عن المسحمة وضربها كشحا عن المدنية الغربية وهما يكنانه في واقعها المتحيز من. شعول وقيهم صالحة ابدأ للناس اجم ، في كل زمان ومكان، تكون قد تخلت لاوروبا عن مهمة قيادة البشرية كا تكون تخلت لما ايضًا ؛ عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ؛ وفتحت أمامهما على مصراعيها ، ابراب السيطرة والسؤدد على العالم ، وألتحكم بالتالي ، بقد رالله ومصافره .

ومسم وهودك أوروب الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر (۱۲۹۲ – ۱۵۹۸)

المؤسسات الجدسيدة

الفصل الكأوال

المساني الفكرية الجديدة النهضة الكبري

مشكلة النيضة وعدرتها

100/169 والمقد 100 / 100 التي بلغت فيها النهضة الفكرية الآوج من الازدهار؛ والذّر و من الانتشار . ولا يتالك المؤرخ اليوم ، عن الشعور بشيء من الرّجل والقلق عندما يدعى التيحدث عن والنهضة ، فمنذ خسة قرون ، حثل المؤرخون هذه اللفظة مدلولاً عنى علم المؤتائع وبحراً من الافكار والمذاهب ، وقع عليها اختياره . ليس لانها فرضت ذاتها عليهم فرضاً ، بل لانه كان لهذه الوقائع وما اليها من حدثان وماجريات ، ولهـــذه الافكار والمذاهب حد القدرة على تركيز نظريات فلسفية ارتضاها الناس وعلقت بها خواطره . فلا عجب، والمالة هذه ، أن يقوم حول مفهوم النهضة عقدة ، وأن ترتفع بصددها مشكلة لم تلبث ان استبحالت الى شيء هو اقرب الى الغوضى .

يتبنى المؤرخون اليوم صورة لعصر النهضة والانبعاث رسم خطوطها الكبرى المؤرخ المفرنسي ميشليه ، سنة ١٨٥٥ وبور كههاردت السويسري سنة ١٨٦٩ . فقد جعل هذا وذاك عصر النهضة ، سقدة من سقب التاريخ البشري لها خصافهها المبيزة ، انطلقت عند ميشليه المنبي كان يضع نصب عينيه تاريخ فرنساء من عهد الملك فرنسيس الاول ، بينا رأى بوركهاردت النبي الخد من إيطاليا قاعدة الحكه ان النهضة امتدت سحابتها ، في نظره ، من سنة ١٧٥٠ النبي الخد من إيطاليا قاعدة الحكه ان النهضة امتدت سحابتها ، في نظره ، من سنة ١٧٥٠ المنبي المنبي المنبية المذا الدسر بالذات . فالمصر يختلف في نظرها ، اختلافا عندما راحا يحددان الخصائص المبيزة لهذا المعر بالذات . فالمصر يختلف في نظرها ، اختلافا كليا هن مصور الاجيال الوسطى ، اذ كان يحتضن ، ولو بصورة كامنة ، الحصائص التي تفرد

العالم الحديث وتميزه . فني نظر بوركهارت الذي بدا اكثر منهجية من زميله الفرنسي ؟ الاهلنا العصر جاء حصية الوضع الفكري الذي كان عليه الشعب الايطالي بعد ان استفاق ووعى ذاته وفهو اذا ؟ عصر النهضة الذي جاء حصية تبدل جدري في الذهنية ومناحي التفكير . فقيد تميزت النهضة بطابع الطغيان ؟ سمة الدولة اذ ذاك ؟ هذه الدولة التي قامت ؟ كما تقتضي الشكليات على القوة ؟ بجلى الفرد وبجلى استعلائه ؟ وجلى فردية الانسان ؟ هذا الفرد الواحد ؟ ومسن ثم استفحال مذهب الفردية التي تقوم على شهوة المجد والتطلغ الى المظمة . اما المثالية الجديدة التي أطلت على العصر فتحقيقها موقوف على تحييز هذه المعطيات من الحقائق الوضعية الجديدة التي أطلت على العمر فتحقيقها والتاريخ القديم والتي بواسطتها فقط يستطاع الوصول الى ما المجديدة التي ألم حقاً الى العالم الخارجي والى الانسان ؟ هذه المعطيات المفترى عليها والمزدراة مسن هو قائم حقاً الى العالم الخارجي والى الانسان ؟ هذه المعطيات المفترى عليها والمزدراة مسن قبل كتاب الاجبال الوسطى ؟ هذه الاجبال التي غامت بين النصوص والآيات المقدمة ؟ وبين قبل كتاب الاجبال الوسطى ؟ هذه الاجبال التي غامت بين النصوص والآيات المقدمة ؟ وبين ألفاز المصطلحات ومعمياتها . ومن هذا العصر أطلت علينا الرغبة في العلم واحترام الشخصية البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل علها في البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل علها في تكوين الجمتم .

فالذي يرفع من قيمة الانسان ويجمل له شأنا ، ويقيم له وزنا بمد نبوغه وقوة الابسداع فيه ، وما يتحلى به من ثقافة وما حققه له من يُسر وغنى : نشاطه الخلاق ، وليس كرم الاصل الموروث وشرف المحتد وامجاد الحروب . فالطبقة المسيطرة نصفها من النبلاء والنصف الثاني من البورجوازية ، كا ان طبقة الاشراف هي التي تتألف من كبار رجال المال والاعمال ، امسا هذا النمط من الحياة الذي يحياه هؤلاء الاشراف الذين يحترفون مهنة الحرب والحدمة العسكرية فهو مضفة في الالسن وموضوع ازدراء الجيسع . والطبقة المتحكة التي تملي على الطبقات الدنيا ، الصورة التي ترسمها عن العالم وتلقنها سر اذواقها في الثقافة والغنون والحلاقيتها في التسككية والسلوك المتحرر . اذ ان الفرد هو ولي امره يستن لنفسه ما يلائم مزاجه ويغذي فيه التشككية الدينية ، اذ كثيراً ما يجمل المرء علياً من نفسه عور العالم ، ويقف ، بوصفه واحداً من هؤلاء الاتمة الصغار ، موقفاً معادياً لرجال الدين ويصبح ملحداً . هذه الذهنية الايطالية لم تلبث ان سيطرت هي نفسها على اوروبا وانتشرت في جميع ارجائها .

يبدو هذا الوصف صحيحاً واقعياً في القسم الاكبر منه باستثناء ما جاء منه خاصاً بالدين . فالامور النظرية هي وحدها موضوع تحفظ وجدل . ولذا راح مؤرخون محدثون يؤكدون اليوم ان عصر الانبعاث هذا لم يكن ليتعارض في الصميم مع الاجيال الوسطى ، اذ ان الخصائص المديزة التي تطبعه هي ، بالفعل ، من بعض مخلفات الإجيال الوسطى بالذات ، وانه اذا كان لا مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الثاني عشر ، في هذا الجزء مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الدائرة وقطب الحضارة بالذات الواقع الى ما وراء جبال الآلب ، ولاسيا في فرنسا محور الدائرة وقطب الحضارة

الاوروبية . ولكن ، ماذا من الفردية ، ومن هذا الاهتام البـــالغ بالروابط التي تنتظم القوة والخيرات المادية وشهوة الفنى والبذخ ؟ كل هذه تغمر اوروبا وتعشَّعش في كل زاوية منها ؟ منذ نهاية الحروب الصليبية وحركة الحراية البلدية حتى ان الراهبـــة هياويز معشوقة ابيلار الاسبق ، البائسة ، التي تعيش كال الفضيلة الايطالية كا غثلتها هي ، يكن اعتبارها من شخصيات عصر النهضة ولو عاشت في القرن الثاني عشر . وماذا من التاريخ القـــديم اليوناني واللاتيني ? ولكن معرفة فرنسا لمكنونات هذا التاريخ ولمقوماته لم تكن لتقل قط عن معرفة ايطاليا لها . فلقد كان لهذا التاريخ ، في فرنسا ، من رفعة الشأن والاكبار ما تم لايطاليا منه في القرر السادس عشر . فالمدارس الفرنسية التي قامت الى جانب كاتدرائيات باريس وريمس ، وشارتر كانت المحور الرئيسي للدراءات اللاتينية في اوروبا جماء . ومثلو الادب الكملاسيكي من شعراء وخطباء ومؤرخين كأحيطوا فيها بكل مظاهر الاكبار والتقدير اذنظر اليهم الناس نظرتهم الى جبابرة الفكر في التاريخ القديم لا بد من دراستهم دراسة تدبر ، لكل من تشرقب نفسه الى الرفعة والتجلي في حياة متجددة مشرقة . فالفرنسيون مطلعون كل الاطـــــلاع ، على الآثار الفكرية روالمخلفات الادبية التي عرفها فيما بعد ؛ عصر النهضة في ايطاليا . فاعلام الكتتاب من فرجيل الى أوفيد ، الى شيشرون ، الى كونتليانوس ، الى سنيكا فبليني القديم،وغيرهم كثيرون، هم موضوع عبادة الجميم يحيطونهم بكل اكرام واجلال . فاللاتينية فيها ولا اصفى ولا انقى ، كا سيصبح أمرها في أيطاليا ، خــلال القرن السادس عشر ، والآداب الشمبية والرومانسية في هذه المنطقة انبثقت كلما عن اللاتينية . فالاحتام بمحاورات افلاطون ومباحث ارسطو ، على أشده ، وقد ترجمت هذه الآثار من اليونانية الى اللاتنسة ترجمة دقيقة ، امينة ، مجيث لم يبق ا لعاماء النهضة في ايطاليا من مهمة سوى تجديد او تصويب بعض التراكيب فيها . و ليس بفريب ، البتة أن تطالمك ؛ حتى في مثل هذا الموقت ؛ بعض الافكار والعصرية ، ؛ كفكرة الطبيعة الخيرة المعطاء والفلسفة الطبيعية التي تؤكد ذاتية الطبيعة والعقل الفصل . فالكل متمل من الاقتناع بان الطبيعة هي عمل الله على الارض ومجلى ارادته ، جميلة ، عظيمة ، خيسّرة في ذاتها ، افسدتها الخطيئة الاصلية ، ومع ذلك تبقى اداة النعمة ومساعدة الحالق وخادمته الطواع في كل ما يؤول الى تجديد المالم . فنعمة الله رفيقة بالطبيعة ؛ بار ة بها ؛ كما أن الطبيعة هي الاخرى : رفيقة ، بار"ة بالنعمة . فغي الاجيال الوسطى كما نرى ، مذهب فلسفى طبيعي جعل من الطبيعة . محور اهتمامه اكثر بكثير نما تصوره بوركهاردت ، وبلغ البه ظنه .

وبمكس ذلك تماماً هنالك مؤرخون بشددون على كل ما اقتبسته النهضة الايطاليبة من الاجيال الوسطى وعرفت ان تنقله الينا وتصونه سالماً ، فني الرياضيات نرى الايطالبين ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، يعولون كثيراً على جامعات باريس واكسفور دوتماليمها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كا نراهم مدينين كثيراً لحذا النابغة الباريسي المظام

نيقولا أوريسم الذي تم له ان يكشف ، قبل ديكاوت نفسه ، عن اصول الهندسة التحليلة ، كا انه توصل الكشف عن نظرية الاستمرار ونظريات : اللانهاية بالقوة واللانهاية بالفصل ، ونظرية المسلسلة المتناهية الصفر ، ويظرية الأسس الكبرى والتفاير الوظائفي . وعن باريس صدرت دورة الشمس النهارية ونظرية تعدد العوالم ، وكلها نظريات علية جرى بحثها والنظر فيها منسند القرن الثالث عشر . وها هو ليناردو ده فنشي ذاته ، يتمل ويتشبع من كتابات ومباحث كبار الفيزيائيين الذين علموا في جامعة باريس ، امتسال البرت ده ساكس وتيمون اليهودي ، وجان بوريدان ، بعد ان طبعت هذه الآثار وأعيد طبعها مراراً في ايطاليا ، منذ منتصف الترن الخامس عشر ومطلم القرن السادس عشر . وعلى هذا قس باقي الامور .

بعد هذا ٤ ما عسى أن يبقى من صفة التفردالق يقصرونها على عصر النهضة ويصفونه بها ؟ بالطبع تتبخر وتتطاير هباء". فعصر النهضة ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التبار الجارف المتمثل في الحضارة الاوروبية ، نبعث من و اجيال الوسطى ، المؤرخين ، وبلغت أشدهـــا في « عصورهم الحديثة » ، هذا التيار المتدافع باستمرار ، والمتواثب بلا انقطاع . فالمؤرخون امثال بوركهاردت راحوا فريسة الروح الوطنية الايطالية وفلسفتهم العرقية بعدان ارمدت عيونهم من تفوق و الغالبين ۽ وسبقهم لهم ، فعزموا امرهم على تجاهـــل هذا التفوق وتناسي امره ، وضربوا صفحًا عن كل ما اقتبسوه منهم ، كارهين ان يعترفوا بأي فضل او قيمة ، الا ما لميكن يد من الاعتراف به ، بعد ان عجزوا عن تجاهله واهمساله ، ثم راحوا ينسبون لأنفسهم سبق التجلي وحق الصدارة والتقدم. فحركة النهضة عندهم انطلقت من بترارك ، في القرن الرابيع عشرٌ ﴾ ومن نقطة الانطلاق هذه إستمد بوركهاردت الاسس الأولى النظريته ؟ نظرية النهضة الشمبية الايطالية . فقد إزدري بترارك الباريسيين . بسل كل الفرنسيين ، ونظر اليهم نظره الى برابرة ، اجلاف. فالمتمدين في نظره، هو من تكلم الايطالية باصفى صيفها وانقى قوالبها ، وهو من تجمل باللاتينية مصدر القم وينبوع الفضائل كلها . ولكن هذه اللاتينية او بالاحرى الحضارة اللاتينية توارث من العالم وزالت عام ٤٢٥ مع بويتيوس ، وهو التاريخ الذي انتهى فيه العسالم اللاتيني وبرز فيه عالم البرابرة. فالفرنسيون ٬ سلالة الغالبين وحفدتهم لن يستطيعوا٬ يوماً امتلاك اللاتينية وتجويدها . فالايطاليون وحدم هم الذين يجري في عروقهم الدم اللاتيني٬ وهم وحدم يستطيمون بمث اللاتينية من جديد ، مرضمة العلوم والفنون والآداب . فقسمة تاريخ البشرية الى ثلاثة ادوار ، اوسطها تغشاه الظلمات والبريرية ، ثم إنبيسات اساسه الاداب الايطالية ، ثم الاجيال القديمة ٤. فالتفوق الايطالي في مجــالات الفكر هو العنصر الجلي. هــذه هي لعمري ٢ المؤرخين الذن ذهبوا فريسة اسطورة من هذا الميار الضخم .

لا كنا نتناول بالبحث عهداً تداخل قسم منه ، على زعم بعض المؤرخسين ، في المعلم المبديد النهضة ، كان لا بسبد لنا من ان نشير ولو بإيجاز ، الى اهم النظريات

التاريخية حول هذه النقطة نما لا يزال يحتج به دون ان نتمرض بالتفصيل لهذا الجدل. والذي يهمنا هنا هو ان نعرف ما إذا كان جد من جديد في مطلع القرن السادس عشر.

نلاحظ ، بادى، ذى بدء ، ان فكرة النهضة بالذات تراود ، مجق او ببطل، وسواء اكان لها ما يسوغها ام لا ؛ كل الخواطر والضمائر اذ ذاك . ولعل اول من اطلق هذه اللفظة تعبيراً عن قيام مثل هذا الوضع الحضاري الذي يختلف كلياً عن وضع الاجبال الوسطى ؟ هو على ما نعتقد الايطالبين منذ سمابو الى يومنا هذاه، في طبعته الاولى التي صدرت في مدينة فاورنسا عام ١٥٥٠، وللمؤلف من العمر أذ ذاك ، ٣٩ سنة . وقد لخص لنا في مجال حديث عن الفنون خواطر بترارك بهذا الشأن ولا سياما جاء منها بالادوار الثلاثة التي مرت تباعاً على الانسانية ، ويصور لنا جلياً أن إعراض الأذواق عن الفنون وضعف أهمّام الناس بها مرتبط الى حد بميد ، بعوامل شتى ، تتصل في الصميم ، بالقوانين والشرائع المدنية المعمول بها ، والاعراف الاجتاعية المتحكمة بالاذواق؛وما للاخلاق عند الناس من قيم ، والمستوى الحضاري المتحيز على الاجمال ، فراح على هذا الاساس يقسم عصر النهضة الى ثلاثة اقسام وهو تقسيم لا يزال مرعي الجانب تتناقله كتب الفنانون ينهجون نهج جيوتو ويسيرون على منواله ويستنكفون بالتاني ، من الاساليب الغوطية والميز نظية ويحاربونها ٠٠ويتناول الثاني القسم الاكبر من سحابة القرن الخامس عشر حيث اخذ عدد الفنانين يكبر ويتضخم بعد ان اخذوا يتقيدون ، اكثر فاكثر ، بالواقعية ، وان على شيء من الجفاف والفجاجة في الاسلوب الفني. واخيراً هذه الفترة التي وضعت فيها صورة ﴿ العذراء على الصخور ، ، من سنة ١٤٨٣ الى سنة ١٥٥٠ ، اي الى مطلع العصر الحديث في مقدمة القسم الثالث ٤ اي عصر الكمال والممّام . وهكذا رسم فاساري صورة موجزة لهذه التيارات الفكرية التي طلعت مع بترارك وترعرعت معه وبعده ، والتي عاشها فاساري نفسه وشب بينها الا وهي افكار اليقظة والبحث والتجـــدد والانتقال من الظلمة الى النور ، وهي افكار دخلت الآداب والفنون والملوم وتفلفلت عميقاً بين رجال السيف والقلم ، فكرة الانبماث أو النهضة .

من ايطاليا إنتقلت هذه الفكرة الى اوروربا على السنة واقلام اعلام الفكر والثقافة امثال العالم الهولاندي ايراسموس والالماني روشلين ، باعث الدراسات العبرية في المعاهد الاوروبية . اما الفرنسيون فيكفي ، تنويها بالشهور الذي ساورهم ، ان نردد هنا ، انشودة غرغنتويا الجبار الحاسية ، عندما يكتب ، كا يقول رابليه (١٥٣٢) الى ابنه بَنتَكُمْرُ و يَل قائلاً . ومرت حداثتي في عصر غشاه الظلام وفاحت منه رباح البؤس واختلج بالكبائر التي اتاها الغوط الذين لم يتورعوا عن دك معالم اطرف واطيب وامثل ماخلفته الآداب والفنون ، ولكن الله في تحننسه ورجمته اعاد الكرامة والنور الى الاداب ، في عهدي . والآن بعد ان عاد الاعتبار الى العلام ،

واللغات حلت محلما اللائق من النقدير كالميونانية التي لا يمكن للمرء ان يعتبر عالمي بدونها ، والعبرية والكلدانية واللاتينية. وتجلى ذلك كله في هذه الطبعات المؤنقة التي رفات فيها المؤلفات والآثار الفكرية التي رأت المور بوحي إلهي ، .

كذلك لا يمكن ان نتجاهل واقعا تاريخياً له الهميته وهو اعتقاد رجال العصر بأنهم يعيشون بالعمل نهضة جديدة . فان لم يكن ثمة ما يبرر تماماً مثل هذا الاعتقاد ويزكّب فمجرد شمور المرء انه انسان من نوع آخر وانه سليل مدنية تقع في مرحلة زمنية دعيت بالاجيال الوسطى (وهي تسمية اطلقها اول من اطلقها ابناء هذه النهضة ٤ منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر رغم استمالها في القرن السادس عشر) ، ادى ولا شك ، الى سلسلة من الاعمال وتسبب في ظهور اساليب من التصرف والسلوك والتفكير ، وساعد في ظهور نمط من التفكير وعقلة جديدة تختلف تماماً عما تم مــن مثل هذا للعهد الماضي المقمت . الا أن هذا الشعور له ما يبرره ولو بصورة جزئية . فبين العقد ١٤٨٠ / ١٤٩٠ والعقد ١٥٤٠/١٥٤٠ ، طلعت علينا تغييرات جذرية ، واطلت نظم ومؤسسات لم يقم مثلها من قبل ، كما يتضح ذلك جلبًا من الامثلة الثلاثة التي نوردهـــــا لك . منها تحقيق المثالمة الافلاطونية الحديثة وتحييزها في روما ، سنة ١٦٠٠، في صوغ انسان مثالي ، تناهد على رسم كسهاته كل من ميكالو انجلو ورفائيل وكستبغلبوني وبراكمنت ، فبرز في خطوطـــه الجديدة نصف اله ؛ بما تم له من نظر ثاقب يلتقط بلمحة عين أرجاء العضاء والاشكال في صور وصيغ فرضت نفسها على الحضارة الاوروبية مدة استطالت ثلاثمائة سنة ؛ من ذلك ايضاً كشف كون جديد على يد كوبرنكوس ، عام ١٥٠٦ ، وهي السنة التي انجز فيها وضع كتابه الفصل المعنون : • حول دوران الافلاك السياوية ، • وخلالها طرح في التداول كتيباً بعنوان : ﴿ تعليقات ﴾ بسط فيه بايجاز الخطوط الكبرى للنظرية الجديدة التي قال بها وعسلم ، والتي لم يبلسغ البلاط البابوي خبرها إلا في عام ١٥٣٢ ؟ العالم المتوسطي ونقلتها بعيداً لتجعل منهـــا حدوداً لكوكبنا الأرضى ، وهي كشوف تمت على يد مردة مغامرين امثال كولمبوس وفاسكو ده غاما ؛ وألبوكرك ؛ وكورتبس ؛ فرسبوا . بذلك مسبقاً اول صورة للاقتصاد العالمي ولتساقط المعادن الثمينة والسلع التجارية على اوروبا. فان سمُّوا هذه الحركة نهضة او انبِماثاً او شيئاً آخر ، فالامر عندنا سيان، ويبقى بعد هذا شنء واحد هو انه تم في بضعة عقود من السنين تحييز لعالم جديد وتركيز له .

بعد ان وضع ميكالو المجلو اثره الخالد: « الأم الحزينسة Piela ، في روما بعد ان استغرق انجازه من سنة ١٤٧٩ الى ٢٠٠١ ووضع برامنت تحفته: المعبد الصغير Tempietto بعد

الانسسان والكون حسب الافلاطونية الحديثة ان قضى في عمله سنتين من ١٥٠٠ - ١٥٠٠ تعقق الحيز الامثل واطل عالم الاشكال والصيغ وظهرت الصورة المثالية فتم بذلك حلم الافلاطونية الحديثة ، الذي رآه مارسل فتشينو همذا الراهب الفلورني ، رئيس كهنة كاندرائية فلورنسا، واحد اصدقاء لورنتيوس العظيم الاوفياء روح اكاديمية كاريجي الفلورنتية وراحها - همذا الراهب الذي عاد يجتر من جديد ويفكر عيقاً ، فكرة او سطية عاشها طويلا وطالمار اودته ، تهدف الى التجديد المسيحي وبعث المسيحية لتمود الى نقائها الاول فتهتم ، من قريب بدخيلة النفس وذلك في سبيل إصدلاح الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه ، وقد 'خيل اليه وهو الفيلسوف انه أنيطت به رسالة الهية ، الا وهي تحقيق هذا الانبماث الديني وذلك عن طريق احياء الافكار التي قالت بها الافلاطونية الحديثة بحيث تتم عملية مزج او افراغ الفكرة الدينية : الوثنية والمسيحية في قالب واحد فيتم لقماء زرادشت وهرمس وتريسمجيست ، وفيثاغوراس مع الدياتات الاخرى ذات الاسرار ، مسن زرادشت وهرمس وتريسمجيست ، وفيثاغوراس مع الدياتات الاخرى ذات الاسرار ، مسن الاكويني ، الى اوريجسانس ، الى لكتانسيوس ، الى اوصابيوس ، الى اوغسطينيوس ، الى توما الاكويني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثله افلاطون ، والخروج من ذلك كله بدورة الاكويني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثل الما المسيحية .

فقد بدا فتشيئيو ، وهو الذي تتلف على افلاطون وتخرج في مدرسته متوهما ان الله خالق الكائنسيات هو الذي اوحي ، منذ الارل بالافكار فتأتي قوالب مثالية وصيناً في غايسة الكال والاتقان والجال ، بعد ان رقب الله هذه الافكار والصور والاشياء وناسب بينها في نظام اسر يأخذ بمجامع القلب والعقل ، فنستى بينها على احسن ما يكون التنسيق والتبويب والتسلسل فتكتسب الحلائق معه قيمة فنية في غاية التسامي . و فالكون اجمع ، في جزئياته وكلياته ، ينطلق في طس ن من الثناغي والإيقاع كاللحن المنطلق من اوتار القيثارة الشاكية ترتقص في لمس ناعم كمر النسم ، بالرغم مما يطرق السمع احياناً من نشوز او شدوف . فالحليقة بجاءت على شاكلة المائن حيث لا نوافسل ، وفاقاً لعمل فني كل ما فيه يتناغى جمالاً مع توافق المدف النهائي . . . وهكذا فعضل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسهات الكون وجمالاته المدف النهائي . . . وهكذا فعضل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسهات الكون وجمالاته بحدث لا يستطيع الانسان ان يطرح بميداً او يزيد عليه اي شيء » .

وهكذا يبدر لنا الله اسمى الفنانين واكملهم طرا ، بل هو الفنان الاوحد . و قالعالم ، بما له من قائدة وبما فيه من نظام بديم وحسن انتظام ، وبما يبدو عليه من حلية وجمال ، يشهد عالياً لهذا الفنسان الالهي الذي ابدعه وبرأه . ففيه الدليسل القاطع على الله هو مهندس الكون الا ذبر . فهمله صورة عنه . و قالحالتي قدر وعرف واستطاع ان يجمل عمله يشبهه الى اقدس حد . والله نفسه علا هذا العالم الذي ابدع لانه دائرة روحية ، قلبها في كل مكان ولا عيط لها البتة ، فالكون كله ينطبق بمجد الله ويشهد له عالياً في ما تم له من نظام دائري وبما فيه من موسيات و مله من عليه الحركة فيفيض عليه الحركة موسيات و مله من عليه الحركة

والحياة كالبنيان الهندسي بالنسبة للشكل العام ، وكينبوع الحير اللامتناهي الذي يغمر الكائنات والاشياء وكمركز للجال : صورة الحير وبلورته ، يشع على الكائنات والاشياء ويملؤها وسامة وملاحة كالشمس تملًا البلور بانواها .

وهذا الانسان القلق الذي لا يرى في الخلوقات كلها ما 'يشبع نهمه ويشفي غليله ؟ لا يجـــد سمادته الاكمل المثلى الا في ذات الله مجتمع الكبالات والفضائل . وباستطاعــة هذا الانسان ان يبلغ الى الله بذرائم ثلاث لا رابع لها . بالعقل اولاً ، هذا العقل الذي يريه ما تمثله الكائنات والاشبَّاء من افكار ؟ وما في عوالم الافكار من فِكَر الله ومقاصده ، وفي مقدور الله أذا ما شاء ان يجود عليه برؤيته بمشاهدته، بنفحة واحدة من انواره البهية وبمعزل عـن كل فكر وعـن الحلوقات اجم . واذ ذاك فقط ، تتحد النفس بذات الله لتنصهر فيسه وتصبح الها ، فتستحيل ويستطيع الانسان ، من جهة اخرى ، ان يتقرب من الله بالحبــة . ان جمَّال الكائنات هو مجلى للجهال الالهي . فكل حب او تعلق بالجمال يفيض على الحب جمالاً؛ اذا ما ادركنا جيداً وايقتّنا . ان ما نحمه في الحموب هو ، بالفعل ، الجمال المطلق ، الشامل ، اي الله . و فالنفس البشرية تضطرم بالمنور الالهي والسناء الالهي ، فتتلألأ صورته تلألؤ المرآة بالكائن الجميل ، فيجتذبه الله الله بطريقة سرية كا يجتذب الشص السمكة العالقة مجيث يصبح إلماً ، يستطيع الانسان ، بعسد هذه كله ان يزداد شبهاً بالله اولا ، ثم ينسكب في ذات الله اذا ما اراد الله ان يكرمه بهذه النعمة . وذلك عن طريق الخلق . فالانسان ، كالله نفسه ، فنان شامل ... و فقد أوتي هــذه الانسان ادراك ما في السهاوات من نظام وما في العوالم من حركات ، وما هي عليه هذه العوالم للانسان من القدرة ما يشبه الخالق ، وأن في مكنتسه أن يبسط السهاوات وينشر العوالم أذا ما تمت له مستازمات البسط والنشر والمادة الفلكمة اللازمة ؟ ٤ . فالانسان هو د إله ، هـــو رب الكائنات المادية ، يجرى فيها ، كيفها يشاء ، تبديلا وتحويلا وتغييراً ، . ففي الحين الذي يجرى فيها تحويلًا عن طريق خلق الاثر الغني وابداعه بالصورة التي ارادها ، ملتقياً بذلك مع التصميم الالهي في الصمع ، مشاركا في تحقيق هذا التصميم وتحييزه ، يدخل ، اذ ذاك ، اكثر فاكثر في فكرة الله ويتحد بالله اكثر فاكثر . فالمعرفة العلمية والفلسفية تتحقق بالخلق الفني . فالمهندس والرسام والحفار والشاعر كيجدون انفسهم عندما ينزل عليهم الوحى والالهام وكأنهم على اتصال فالفن ولا سيما الشعر هو الطريق الحق للمعرفة والاكتناه ، وهو اسمى واعلى من اي فن آخر . فها الفنون الاحالات خاصة وصور من الصلاة والتنبؤ والاتحاد الرمزي بالله .

روما والافلاطونية الحديثة في عهد لورنتيوس العظيم ، اعطى فتشينو اهم آثاره الفكرية ، مع ان الكتب الاخرى التي صدرت له فيا بعد تتفق تماماً مع ترتيبــنا

الزمني (١). فقد تخلت عنه فلورنسا وخانته في نقطة حساسة ، اذ عجز الفنانون الفلورنسيون عن ان يعبروا ، مانجازاتهم الفنية ، عن تعالم الفيلسوف ونظرياته وان يتمثلوها . ويتبين من رسائله العديدة انه كان على اتصال واسع مع الكثيرين من رواد النهضة في روما والبندقيسة والمانيا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وهنفاريا . فالحديقة التي اقامهسا في كاريجي كانت ملتقى الادباء الانسانيين ، يفدون اليها من جميع انحاء اوروبا . فروما عاصمة المسيحية شهدت وحدها تحقيق فكرته ، بعد ان كان توارى هنو عن هذا العالم ، وذلك في اشكال وصيغ اصبحت ، لاجيال عديدة ، موضوع الهام الكثيرين في جميع انحاء اوروبا .

فبعد موت لورنتيوس العظم ، عام ١٤٩٢ ، والثورة التي اندلعت نير انها في فلورنسا ، بعد ذلك بسنتين ؟ اي في عام ١٤٩٤ ، وقيام الحسكم الثيوقراطي على يد سافونارولا ، والجمهورية الفلورنسية ، فيا بعد ، وعلى اثر قدوم عدد غفير من رجال الفن نزحوا من فلورنسا الى روما ، اصبحت هذه ، المركز الاول للافكار والنظريات الافلاطونية الحديثة التي تشبع بها الفنانون والادباء وشاعت بين الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة الذبن وجدوا في تلاقي مشاربهم وتوافق ميولهم مع مثالية البابوات ، وسيلة لتحقيق الاحلام التي راودت خواطرهم . فمنذ عهد البسابا نىقولا الخامس؛ على الاقل ، في منتصف القرن الخامس عشر، والمابوات يحلمون بتشهد الكنائس والمعابد والقصور الفخمة وغير ذلك من الانجازات الفنيه الجيلة ، في روما ، ليجعلوا منها مجق القياصرة بحيث يستشعر المسيحيون في روما ، والحجاج الذين يغدون اليها من جميسم اطراف الارض ؛ العظمة والضخامة والقوة والغنى المتمثلة بهذه المباني فيحمدوا الله على هذا كله وعلى المسيح ، كما إنها ستذيع عالياً ، بوصفها عاصمة البابا الملك ، ما للبابوات من شأن عظم . فقد صرح البابا سكستوس الرابع ، في رقيم له صدر عام ١٤٧٢ قائلًا : د اذا كان ثمة من مدينة في المالم تشم نظافة ، وجمالاً ، فيجب ان تكون بالطبع ، المدينة المعروفة بكونها عــاصمة العالم ، ولها شرف احتواء كرسي بطرس الرسول ، بما يجعلها ولا شك ، في الصف الاول بين مدن الارض ، . وعندما رام البابا جول الثاني يبرر تشييد كنيسة القديس بطرس خاطب الكرادلة بقوله : « كما ان الطوباوي بطرس هو هامة الرسل والمتقدم بينهم ، وجب ان تبز الكنيسة التي تحمل اسمه ، كنائس روما والعالم اجمع . وبما ان الخراب يتهددها اذ انها تتداعى للسقوط ، كان من المترتب علينا توسيعها باعادة بنائها لنسلمها الى الخلف عروساً تدلُّ بجمالها على جمسم كنائس الارض ، .

⁽١) منها : الرسائل (١٤٩٥) ــ شروح افلاطون وتعليقات عليه (١٥٥٦) ؛ قضىنحبه في ١/٠١/٩ ١٤٩ قبل ان يفرغ من تفسير لرسالة بولس الرسول الى اهل رومة .

ققد كان تحت تصرف البابوات موارد ماليه طائلة : كالضرائب التي كان الكرسي الرسولي يفرضها ويجبيها بكل دقة ؟ واحتكارات الملح والشب المستخرج من مناجم 'طلنفا ، هذا الشب الذي لم يكن لاوروبا قط غنى عنه لاستماله قاصراً في صبغ الانسجة ودباغة الجلود ؟ وما تدره الرسوم الجباة في اوروبا جماء و كرسوم روحية » ؟ وبيسع وظائف الدولة ومناصبها الرئيسية ونجاح القروض الداخلية . والى جانب الموارد الطائلة الخاصة بالبابوات لتفطية تكاليف الابنية والانشاءات الفنية التي يوصور عليها ، يجب ان نشير هنا ، الى الثروات الاسطورية والموارد الواسمة الموضوعة تحت تصرف الكرادلة اذكانوا يقيمون لهم بطانات واسعة الى جانب البلاط البابوي ؟ والموارد التي ينعم بها اشراف الرومان ونبلاؤهم ، واصحاب المصارف الكبرى الموجودة في روما . وقد كانت الافكار والاقتراحات المقدمة او المقترحة ابعد من ان تأللف فنانون تشبعوا بافكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتها يحاولون تحييزها بانشاء مبان وعمائر جاءت فنانون تشبعوا بافكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتها يحاولون تحييزها بانشاء مبان وعمائر جاءت عن نسبة المباني الو مانية القديمة عظمة وفيخامة ، تحييزاً منهم لاذواق بهرها بهرج القوة والمظمة ، هذه المباني التي اخذت تنتشر في انحاء المدينسة ، في نهاية بابوية اسكندر السادس بورجيا (۱۵۲۸ ۱۵۲۱) وليون الماشر ، البابالفلورنديني الاصل والمديتشي المرتد (۱۵۲۱ ۱۵۲۱) .

فبدلاً من ان نتلهى بوصف امور بجردة وفي عدمًا لا حدله من المباني والفنسسانين الذين الشرفوا على تصميمها او انجازها ، رأينا من الانسب ان نقسوم بنظرة تحليلية لبنض هسدله الانجازات المنبة وامثلها .

ثلاثة من بين هؤلاء الفنانين اللامعين م : برامنت وميكالو انجلو ورفائيل هملوا في روما لحساب البابا جول الثاني وتوصلوا ، بعد أن كشفوا عن خرائب روما الامبريالية ، إلى تحديد شكل ونوع المباني والانشاءات الهندسية التي تعبر أثم تعبير عسن مثل الافلاطونية الحديثة التي يمكن أن تفوز برضى البابا الخيف .

عندما رغب البابا جول الثاني عسسام ١٩٥٥ في ان يستبدل كنيسة القديس مطرس في ان يستبدل كنيسة القديس مطرس القديمة التي يعسود بناؤها الى عهد قسطمطين بكنيسة حديدة تتوفر فيها عناصر المظمة والنخامة ، رضي كل الرضى عن التساهيم الهندسية التي وضعها برامنت وعهد اليه بتعقيقها وتنفيذها ، جاء برامنت روما متأخوا) هام ١٤٩٩ ولد من المعر اذ ذاك ، ٥٥ سنة تتقدمه شهرة واسعة كمهندس معاري ممتساز ، إلى الانجازات الهندسية العظيمة التي سعقها في فاورنسا ، فهد ان وقع ، في رومسا ، محت تأثير الجال الروماني الافلاطوني الحديث ، وبعد ان تحول تحولا كلياً عن النهج الميلاني الذي يوسمه

وحدا المحدوه وانتهج نهجا فنيا جديداً. تولى تشييد مبنى المعبد الصغير Tempielo. فقتب وغب برامنت ان يشيد على اسم القديس بطرس وشرفه المبنى الذي سبق لمارسل فتشينو ان رسم تصميمه وفقاً لنظرية الانلاطونية الحديثة ، إعلاه منه لمجد إله المسيحيين. فقيد وضع اول ما وضع تصميماً لبناء ضخم مساحته ٢٥٢٠٠ متر مربع بدلاً مسن ١٤٥٠٠ متر مربع التسمت لها كنيسة القديس بطرس القائمة اذ ذاك . وحرص على ان يوحي كل شيء في المبنى المجديد ، الملاقة القائمة بين الله و مخلوقاته ، مبنى لا يمكن الاستفناء قط عن اي جزء منه الا ويشعر المرء بفراغه ونقصه ، كا لا يمكن اضافة اي شيء اليه الا وتقعض الدين لهذه الزيادة ، ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويدود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويدود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد شكلا هندسياً عاماً للمبنى شكل الصليب الدوناني . فيرى الناظر ، من الحارج صلبها ضخماً يدهب عالياً في الجو يرمز الى اتحاد الهيكل مع الالوهية . وترتفع تحت هذا الصليب قبة ضخمة ترمذ الى المكنيسة ، وفي الاسفل ، تنبيط اذرعية الصليب للربعة المتناسقة ، في طرف كل منها قباب صغيرة نسبياً مع انها كبيرة تنتصب فوق المسددة وقائم المكنيسة تجاه الخور صقاماً .

وكا أن المسيحي يتدرج من الخلائق إلى ربه محمولاً على أجنحة الجال ليصل إلى الافكار الني تفضي به إلى الاوهية ، هكذا عر الزائر بهذه السطور من الاعدة ضمن الكنيسة الرامزة إلى المخلوقات ليبلغ في مسيرته إلى النور الشهاف الهابط من القباب الصغرى ، وهذا النور الحافت من شأنه أن يحمل النفس على الحشوع بعد أن تكون انثنت على ذاتها واعتكفت لتنمم بمشاهدة الافكار ، والمسيحي الذي يبلغ قبر هامة الرسل بعد أن يكون اجتاز الاعدة التي ترتفع عليها اللهبة الكبرى ، في غمرة النور التي تغشاه وخشعة النفس ، يسير قدما نحو عالم زاد نقاء ليبلغ النور السماوي الذي يجلبب الافكار وبعد أن يصل على مقربة من القبر الذي يفيض نوراً تبرز له المقبة الجبسارة التي ترتفع فرق رأسه رامزة الى المضور الإلهي والاتجاد بالالوهية .

و من هذا التصميم الفخم و تمبيراً عن الوحدة في أندس معانيها و كل شيء ارتبط بالفكرة الرقيسية وفاقاً لنظرية الافلاطونية الحديثة والنظرية التي ستتحكم و بعد قل و بالفن الكلاسيكي وقد جاء هذا التصميم معبراً عن مشاعر المعاصرين واحاسيسهم فراحوا يتحدثون عنه ماعجاب تجاوز كل حد و كا راح الشعراء الذين يتفنون به ويعتبرونه اعجوبة الدنيا التاسعة وقد ارسى البابا الحجر الاساسي نهار الاحد الجديد وهو الاحد الأول بعد عيد الفصح والواقد في المدين الممل انتهى من نصب الاعسدة الفائمة اليوم في كنيسة في ١٨ نيسان ١٩٠١ والتي ترتكن عليها القبة والعقود التي تحملها وقد اضطروا فيا بعسد المتخلي عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقسد هنسة الكنيسة كثيراً من عناصر عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقسد هنسة الكنيسة كثيراً من عناصر

كان البابا جول الثاني تخلى عن السكنى في الجناح المعروف بجناح بورجيسا غرفة الترقيعات ليقم في عدد من الغرف والصالات ليقم في عدد من الغرف والصالات

اشتهر فيا بعد باسم « stanze » > وراح منذ تشرين الاول ١٥٠٨ عدد من الرسامين يعمـــل في تحلية هذه الشقة وتزيينها . غير الن رفائيل لم يلبث أن أصبح الأول بين هذا الفريق فأختص عقائدية . فقد حرص رفائيل على أن يجمل من غرفة التوقيمات ممبداً ينطق عالياً بالافلاطونية الحديثة ، قرسم على الجدران اربعة رسوم ضغمة تمور بالماجريات والوقائع اليومية ، تبدو بينهسا من خلال غلالة ، الافكار الافلاطونية التي قصد الفنان التمبير عنها الا وهي : المفة والفلسفة والبرناس وخناقة القربان الأقدس . ويأخذ الانسان بالانتقال تدريجياً من هذه الجسبات المادية كل غَلَق من أغلاق هذه العقود يطالعك طفل صغير على ظهره جناحان في كل واحد منها ومز يتألف من وعاء وحمامة وكرة ؟ اذ أن كل طفل هـــو عنصر من هذه العناصر الاربعــة الق يتكون منها المالم . فالماء فوق مدرسة اثينا ، والسار فوق خناقة القربان الأقدس ، والهواء فوقُّ نَاخَذُ بِالْارِتْفَاعِ نَحُو الْافْكَارِ . الا انه بِالْأَمَكَانُ أَنْ نَرْتُهُمْ وَنَمَادٍ أَكُثُرُ فَأَكُثُر ، عن طريق المشاهد المرسومة في وسط الدوائر القائمة في زوايا للمةود. فكلُّ مشهد من هذه المشاهد يحيلنا الى صورة العقد الذي يليه ، وهي تتوبج ابولو ، واقتصاص مرسياس من الشمر، والخطيئة الاولى للاهوت، وقضاء سليان الحكيم للعدل ، وعلم العلك يربط الفلسفة بالنجوم . وهكذا في كل عقد تطالمنا الحركة الدائرية حركة الكون الارلية ، احد الاسس التي قامت عليها نظريات فتشينو ، واخيراً . فيلغ الافكار الجردة في عليين التي 'ير مز اليها في المقسد بالشعر فوق البرناس ، والفلسفة فوق مدرسة اثينًا ، والعدل فوق الفقه واللاهوت فوق خناقة القربان الاقدس . ويرُمز الى آلهة الشعر وفقًا لافكار فتشينو كما يلي : باكليل الفار واجنحة قرية وحولها منطقة مزركشة بالنجوم وقسد التمعت عيناها حماسة وحيوية . وعلى مقربة منهن جميعاً طفلان مجنحان يحمسلان إطاراً كتبت عليه كلمتان مستمارتان من فرجيل (١) هما : « Numine uflutur » اي نفحة الهيه تحرك. . فالالومية يجري اعلاتها على لسان الشاعر ، ولذا نرى صورة الشعر في العقد ، تعدل كل العسادم النقلية : المدالة وهي معرفة الحق والنَّصَّفَّة ؛ الفلسفة وهي معرفة الطبيعةواللاهوت وهومعرفة المالم الالهي . وهكذا نرى ان كل الاجزاء المقومة لهذه الصورة هي مسن وحي الافلاطونية الحديثة وفيها الضانة بايصال المسيحي ، في هذا العالم ، الى الافكار ، والافكار توصل الى الله .

١ الاناييد ، الحتاب السادس ٠٠

ولكي ييسر للمتفرس في الصورة الوصول الى الفكرة المملن عنها ضمنا ؟ ادخيل رفائيل ؟ بضربة معلم ؟ فراعاً جديداً لا يلبث ان يصبح ؟ فيا بعد ؟ الفضاء المفضل في القرون الثلاثة التالية ؟ وهو المعروف بفضاء القرون الثلاثة في التاريخ و الحديث ؟ أو فضاء المؤرخيين الفرنسيين . صحيح ان الفلورنتيين اكتشدوا ؟ منذ عهد بعيد الرسم المناظر وعرفوا ان يستفيدوا منه في هذه الالواح التي رسموها خطوطا متتابعة بحيث تتجه جميعها الى نقطة تقع تماما في الوسط محيث تبدو اللوحة ؟ في مجملها ؟ كتلة هندسية . الا انهم لم يتوفقوا الى الكشف عن احسن طريقة للانتفاع اعلى الوجه الاكمل ؟ من الشكل المنظوري . فقد فاتهم استخدامه لابراز الموضوع الاساسي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص الموضوع الاساسي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص طريقة للانتفاع من رسم المناظر والحجم الهندسي ؟ بعد ان عرف كيف يوزع ؟ بفن واصول الاشكال القاختارها على الرسم الذي تلتقي فيه نقطة الانسراب مع الفكرة الاساسية التي يجب ابرازها .

فلننظر ملياً هنا في رسم خناقة القربان الاقدس ، وهو رسم معروف ومشهور لكثرة ما اخذ عنه من نسخ . نجد في الاعلى الكنيسة الظافرة ، وي الاسفل الكنيسة المجاهدة ، ويفصل بين الاثنتين فراغ كبير يمثل السهاء . ففي الفسم العلوي يبرز الله الاب ، ثم يأتي بعده السيد المسيح ، وعلى يمينه العذراء مريم ومن اليسار يوحنا الممداني ، ومن هنا وهناك مسن كلا الجانبين المختارون او المصطفون بشكل سحابة نصف دائرية ، يتخللها رؤوس ملائكة تفصل بين العالم المنظور والعالم غير المنظور . وعند قدمي السيد المسيح نرى روح القدس بالشكن التقليدي المعروف ، اي بهيئة حمامة تشع منها اشعة من ذهب ، رمز النعمة . وهي اشعة تند الى الاسفل ، نحو الافخارستيا . وفي الاسفل ، يبرز من السهاء للميان ، شماع القربان الاقدس وقد نوضع على هيكل بسيط للغاية ، بينا نجد من كلا جانبي الهيكل ، الكنيسة المجاهدة اي : البابوات والكرادلة والاحبار والاساقفة والشعراء ورجال الفن والعلماء . وهكذا نرى انفسنا وجها لوجه مع مدينة الله التي تجمع او توحد ما بين الارض والسهاء ، في ما يحاكي بناء مثالياً ظاهراً على الارض ، لا يرى في السهاء ، وان كان قائماً فيها بالفعل .

في هذه الصورة الجدرانية ، كل شيء يتوقف على الاشعاع النوراني المنبثق مسن القربان الاقدس القائم على الهيكل والذي يبرز الميان بواسطة تلاقي الابصار . ففي الاسفل تظهر خطوط التبليط ، ودرجات الهيكل وطبقات الكنيسة الجماهدة بينا تظهر ، في الملو ، السحابة نصف الدائرية والاشمة الذهبية المنطلقة من الروح القدس . والى هذا كله يطالمك ، في هذه الصورة الجدارية ، الجبارة شماع القربان الاقدس الذي اشير اليه بنقطة تكاد العين لا تلتقطها ، ومع ذلك فالانظار تتجه اليه ، الى هذا القربان الاقدس الذي يضفى على الموحة كلها ، كل ما فيها

من معنى ومدلول . فالفراغ ، والحالة هذه ، يساعد ليس فقط على تحريك الفهم واثارة القوة اللاحظة ، بل ان رسم الابعاد يمتزج بالمرموز اليه ، وينشأ مسن ذلك كله رمزية تشير رأساً الى المالم الروحاني ، وهكذا يصبح الفراغ عنصراً من المناصر المساعدة كثيراً على الفهم .

ومن جهة اخرى ، في هذا الفضاء وتحت تأثير الحرص في التركسيز على ما هو اساسي ، يجب ان تتوفر الواحدة عن طريق التمرية والاطراح جانباً كل ما لا يؤول الى الفهم او لا يتركبهده أثراً ، اي كل هذه التفاصيل وكل هذه المستملحات واللطائف والنكات الغريبة عن الموضوع ، مها كانت طريفة مغرية ، والتي من شأنها ان تشتت الانتباه ، وهي هسده الامور نفسها التي وجدت فيها نهضة فلورنسا الفنية مسرتها ، اما هذا فكل شيء يتجه الى سر القربان الاقدس المنعكس على الفرد الذي تختلف حركاته وسكناته عن حركات وسكنات الآخرين والتي لم تعد تعبر الاعن ردة الفعل التي يحدثها الاقدوم الثاني من اقانيم الثالوث الاقدس في كل من هذه الشخصيات ، وهو تأثير وسيد موحد في الصميم .

أطل فراغ جديد كا أطل ايضا نموذج جديد للاسانية يختلف اختلافا بينا عن هد ألا جسام النحيلة والاعضاء الدقية المساقة المارزة عظامها ، والحركات الطارئة المنية اوالمشية الخفيفة الحديثة الخفيفة الحركة النطناطة ، والاشكال المنية التي اثارتها النهضة الفلورنتية ، بحيث لا يستطيع المرء ان يتالك عن التساؤل ما اذا كان جنس بشري زال وتوارى عن الرجود لجنس اشر بحيد ، وسر ذلك هو ان الافلاطونية الحديثة عادت من جهة الى فكرة المسيحية للانسان مذا الانسان الذي هو خير ما صنع الله وبرأ ، كا حاوات ، منجهة اخرى ، ان تبر ظهور الانسان الجديد ، هذا الانسان الذي عند الانسان الذي يمد الله فيه ، لا يمكن يمثل ، في ذاته الجال الامثل والاكل ، هذا الانسان ابن الله ، والذي تجسد الله فيه ، لا يمكن الا ويكون عظيما قديراً ، جليلاً ، وقوراً ، ولهذا نرى السيد المسيع ، في لوحة رفائيل ، وقد تمرسي بحسل المثل عافية ، تفيض اعضاؤه قوة ، وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المتارين وسواعسدهم ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة ، وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المتارين وسواعسده ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة ، وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المتارين وسواعسده ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة ، وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المتارين وسواعسده ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة ، وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المتارين وسواعسده ومناكبهم ، فوية عامرة ، ملانة ، اما وقفتهم ، قشيم ، وقسد ارتسمت على وجوههم وقساتهم امارات النبل والرضى ،

وهذه الرغبة في التركيز عن طريق التجريد والتمرية ؛ والاستفادة الى اقصى حد ؛ مسن الفراغ لتحقيق غرض واحد وهدف واحد الا وهو التكثيف عن طريق التشديسد على بمض الخطوط الاساسية ؛ سنصادفها في مذا التمارض المنهجي الذي نراه قائماً بين الانجازات الفنيسة للنهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولكن أ اين التركيز ، اين الحياة الداخلية بواسطة التجربة ?

لنضرب مثلاً على ذلك ، هذا الحفرالبارز في صورة الأنطونيو روسلينو ، ولنعارضه برسم آخر لميكالو انجلو يختاف عنه اختلافا كليا ، هو صورة العذراء مع الطفل . نرى ان روسلينو يبرز في إطاره ، عالما آخرو طبيعة الحرى وشعبا آخر. نرى عند حاشية النقش صفاً من الرؤوس يحيط بها أجنحة مرفرفة وفي العسف الاول العذراء مريم جاثية تضرع الى يسوع الطفل المتمدد امامها . ويأتي و راء العذراء مريم القديس يوسف غارقاً في التفكير ويسده تعبث بلحيت ، وو راء القديس يوسف يأتي الاسطبل وفيه الثور والحار ، والى يمين العذراء مريم والطفل ، خط يقسم العدورة قسمين متميزين : رعاة قادمون يحملون الهدايا ، وقل لا الى فوق بعض الاشجار ، ثم الحلى قليلا ، السياء وما فيها من غيوم . اما في لوحة المجلو ، فلا تجد تقريباً شيئاً مسن هذا من على المذراء مريم جالسة وعلى ركبتيها كتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متخيء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متخيء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها على اليسار ، متخيء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، والطفل يسوع كلف كتف العذراء مسن على اليسار ، متخيء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، في الوراء ، خلف كتف العذراء مسن على اليمين على صورة غير واضعة ، هذا هو المنظر كله .

في رسم روسليد كل شيء صفسير ، فنه تراكم اشيساء صفيرة ، فالعذراء التي تبدر ، الى الامام لا تشغل الاثر من خس اللوحة ، اما الطفل يسوع ، فصفير ، فالعين في حيرة مسن لو احظها تتبعاديها أرضية الصورة والمنظر ، اما عند ميكالو انجلو فالعذراء مريم تحتل ثلاثة ارباع اللوحة حتى ان هندام شعرها يطفطف على الحاشية ، فلا تقع عين الرائي الاعلى العذراء وبالكاد تقيم العين على الطفل ، اما الشخص الثالث ، الشبح ، فيجب ان نحملق جيداً لنلحظه . فالنظر يتبعه بشكل لا يقاوم ، الى العذراء التي اصبحت ، بلا مراء ، عسور الصورة ومركز الثقل فيها .

فعي لوسه روسلينو كل شيء رسم بالنفصيل وعلى قياس صغير، قبدا نحيفا، دقيقا، منمنما، فتبدر اصابه اليد واضعة الراحد جنب الآخر وقد صفف الشعر، خصلة خصلة ، واللباس على الآء ، لا ينقصه زر ولا شريط ، هذا الحياة اليومية بكل تفاصيلها ، الحياة العائلية : قالطفل يدوع يضع سبابته على فه ،

اما عند مين طاو انجلو ، فه لأشياء تتم وتوضع جملة . فيدا المدراء بدتا كثلة تكاد لا تتميز عن المادة ، ورداؤها بناية البساطة تثنى والتف ، وشعرها رتب على مألوف العسادة : في الوسط فرس الشعر قسمين على جانبي الوجه ، والطفل يسوع يبدو وكأنه قطعة واحدة ، على المحنساء شفيف لطيف ، ملاعمه الرئيسية بارزة ، توحي وتلهم ،

عند روسلينو ، كل ما في لوحته الحركة : فاجنحة رؤوس الملائكة ترفرف ، والرعيات في سيرهم جادون ، والقديس يوسف يلعب بلحيته وقد بدا على وجهه التفكير وحواجبه مقطبة والثور والحار يميلان برأسيها متناولين علفها ، ومنخارا العذراء يختلجان وقد ارتسم على شفتيها بسمة الرضى والتسليم بيها ترتفع يداها . اما الطفل يسوع فتكاد الاذن تلتقط تفريده بيها هو يمتص طرف إصبعه بحركا رجليه الصغيرتين . اما في لوحة مسيكالو انجلو فالحياة تبدو وكأنها واقفة . فالاشخاص يكادون لا يتنفسون والعذراء جالسة بوقار عيناها مسمرتان في البعيد كأنها تحاول قراءة المستقبل الخيفواكتناه سره ، والطفل يسوع يتناول شيئاً وهو يتكىء الى امه . فالمنظر يبدو وكأنه يتحدى الزمن ، وكأن ميكالو انجلو يهتم ليس بها يجري بسل بما هو باق ، مستقر الى الابد . فهو يضفي الخلود على اللمحة الهاربة .

هذا التجريد ، هذا التركيز على بعض نقاط اساسية لفتاً للانتباه وإمعد. اناً في التشديد ، نجده في كل مكان، فهو في صورة ميلاد يوحنا الممدان بريشة غير لانداخو حيث نرى الوصيفة تدخل وعلى رأسها أخمومة من الزهر . قارن هذه اللوحة بلوحة اخرى بريشة رفائيسل ، في صورة الساقية او حاملة الماء . فغير لانداخو لا يهمل شيئا ، مهاكان طفيفا ، عندما يرسم لنا ذراع الوصيفة اما رفائيل ، فهاذا تراه يعمل ? فهو يشدد كثيراً على المضل الدالي والعضل ذي الرأسين بمحيث يتكوز الكتف ويتكوز الساعد ملتفا فيرسمه بشطحة ريشة ويضفي على هذا الذراع : قوة باع ، وشدة ساعد ، اين منه فن غير لانداخو .

وهذا الفراغ الجديد ، فراغ المفهومية ، اين هو ؟ لنقارن في مسذا ، الجمال ، بين صورة المذراء مع الملائكة والقديسين السنة ، بريشة بوتيشللي ، وصورة المذراء مع القديسين الثانية بريشة أندريا دل سارتو. يفهم بوتيشللي ، حق الفهم ما لرسم المناظر من قيمة وشأن. ومع ذلك فهو يضع جميع شخوصه على خطين . ففي الصف الاول ، نرى على سطر واحد ، ثلاثة قديسين الى اليمين وثلاثسة غيرهم الى اليسار ، بينا تقع الدين ، في وسط الصف الثاني على المذراء مريم والطفل على شيء ما يشبه المسطبة يحيط بها الملاكان يملق احدهما ستاثر بينا يقدم الثاني الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينها . أما لوصة اندريا دل سارتو ، فعلى عكس ذلك تما ، الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينها . أما لوصة اندريا دل سارتو ، فعلى عكس ذلك تما ، فهي تنفسع على الابعاد وتوغل في التعميق ، فالفراغ بنفرج وينبسط : يطادل قبل كل شيء درج وفي الاسفل ملاكا ينظران الى الملاء سيث تطالمك شرفة عليها ، من كل جانب ، ثلاثة قديسين ، اولها راكع والاخران واقفان ليس على صراط واحد بل الواحد خاف الآخر . والى الوراء ، تجد على قاعدة ، المذراء مريم والطفل يسوع على ركبتيها . فكل خطوط اللوحة تتجه من المذراء وابنها .

غفي لوحة بوتيشللي ، يبدو الشخص وكأنه مسمر ويقوم باشارات وحركات تبقى في نطاق المسطح المتوازي لنظر المشاهد . اما عند اندريا دل سارتو ، فالاشارات والحركات تجري في اعماق الفراغ . وسواء أكان القديسون في موقف المتحدث أو الكاتب ، فحركاتهم تقسم دوماً على خط المشاهد ، باللسبة الممذراء ؟

وهكذا ؟ قالفراغ عند يرتيشللي يبقى لا شأن له ؟ بينا هو ؟ عند اندريا دل سارتو ؟ ليس

مجرد مجال يقع فيه المشهد فحسب ، بل ان الجال ينطق عالياً ويصرخ كيف اننسا بواسطة القديسين ، صورة السيد المسيح ومثاله ، نصل الى المذراء مريم طاقـــة السيد المسيح النقية وبشفاعتها الى السيد المسيح .

وهذا النموذج الجديد للانسان ، هذا البطل ، ماذا من امره ؟ لنتمل النظر مليا ، قبل كل شيء ، في صورة ، معمودية السيد ، بريشة فيروكيو Verrochio . فالمسيح فيها يبدو على شاكلة شاب نحيل الجسم ، نحيف البنية ، نتأت عظام وجهه ونفرت عضلات جيده كالحبال ، وبررت ترقو ته محدثة تجويفا في الجلد . اما ساعداه فأكثر نحولاً ما هو عليه جسمه ، وقد جفت عضلاتها ، فظهرت تحت أديم الجلد 'عقد ، والمرفقان نفرت عظامها واحدوديت أطرافها ، والمجرد قفاه وجفت ساقاه ، وقد تغضن وجهه وبرزت اخاديده وهو مع ذلك يشع رقة وخشمة ، والمجرد قفاه وجفت ساقاه ، وقد تغضن وجهه وبرزت اخاديده وهو مع ذلك يشع رقة وخشمة ، عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد المحنى وانثنى قليلا ، الى الامام ، لتلقي عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد المحنى وانثنى قليلا ، الى الامام ، لتلقي المهاد ، يداه مضمومتان الى بعض . اما يوحنا المعمدان ، فيظهر شاحب اللورف ليبادر بهيكله المعظمي الى سكب الماء على رأس السيد المسيح ، متمماً بذلك ، الرسالة التي أعد لها وعهد الله المعلم الهواليه .

فلمنفظر الآن ، كيف ان الحفار اندريا سنسوفينو عالج الموضوع ذاته ولكن باسلوب فني آخر . فليس في المسيح ولا في يوحنـــا المعمدان شيء بعد من مظاهر قنوت الزهـاد المتعمين ولا شيء من هذه الحركة العصبية التي تدفعها للعمل بشيء من القلق تنفيذاً لرغبة الله تعــــالي . فللمسيح في هذه اللوحة جسم رياضي جميل ، مفتول العضلات ، مستدير الاكتاف ملآن ، مرن الحركات ، تكاد خطوط الجسم وتقاطيمه تستبين للرائي على نمومة ورقة . واعضاؤه مشبعة ، ملاَنة تأخذ في الصمور عند الاطراف . كل ذلك وفاقاً للجهال المثالي في الرجل . وعلى هذا قس ايضاً طمأنينة النفس . فالوجه بيضاوي الشكل؛ قساته في غاية الاستواء؛ ينم عن هدوء كامل؛ والمسيح ، في طمأنينة هادئة ، ينتظر دونما تسرع او عصبية ، بانحناء قليل الى الامام ، في وقفة تشف عن ملاحة وقسامة والسجام . ويوحنا المعمدان نفسه يبدو على نحول وضمور جسم اكثر بما هوعليه السيد المسيح.ومع ذلك فله جسم رياضي ٬ ملآن مشبع هادىء ٬ يسكب الماء وثيداً بينما هو في اللوحة الآخري لوحة فيروكيو كأنه يسترق السانحة الهاربة . هذالك يهوديان تبدو عليهما امارات القلق والاضطراب بعد الذي خبراه من خشونة الجيش الروماني وفظاظته ٠ يفيضان رجاء بالمسيح المنظر ، اما سنسوفينو ، فيرسم لنا صورة شخصين مثاليين تنزها عسن المادة ﴾ أذ أن ما يرمي إلى أبرازه هو هذه العملية المتجددة إلى الآبد ؛ التي لها قيمة ذاتية دائمة ؛ اذ ان عماد السيد المسيح له قيمة خالدة خلود الدهر، لتمم جميم المسيحيين الذين سيتتابعون على هذه الغانية ، حتى انقضاء المالم .

بعد هذا ؟ هل من موجب لمعارضة لوحة ميلاد يوحنا المعمدان من بريشة غيرلانداخمو ؟

بلوحة ميلاد العدراء مريم بريشة اندريا دل سارتو. فالنساء في لوحة غير لابداخو تبدين خفيفات الحركة ، يسرن وكأنهن يرقصن ، يقمن بحركات متاجئة . لباسهن مشدود قصير الهن جيد نحيف نحيل ، ونهودهن صغيرة واعضاؤهن نحيلة ، بينا تبدو النساء ، لدى اندريا دل سارتر اسيدات تمشين الهويناء ، متزنة الخطى اغير مباليات ، حركاتهن مطمئنة ينثنين بلطف ورقة . اما ارديتهن فكثيرة الشبيم بالتوغا الروماني اوقد تثنت تحت معاطف فضفاضة ، وفساتين تكنس الارض بإذيالها المطفطفة ، فتوحي قدودهن القوة والضخامة . اما رقابهن ، فقصيرة ، قوية ، وبرزت نهودهن كا انفتلت منهن السواعد القوية وبرزت جحورهن . فليس من الصعب على القارىء بعد هذا ، ان يجد امثلة اخرى يرجع اليها .

رجل البلاط هو هذ النموذج الاتم ، الأمثل الذي يرغب ابن العصر في تحقيقه رجل البلاط وتحمزه ؛ على خير ما يبدو من قوة الجسم واستدارة في الاعضاء وامتلاء ؟ عندما يبلغ المرء ذروة النضج والرجولة ، إلى شي، من الكبر والعظمة ، على اعتدال في التعبير عن المشاهر والاحاسيس ، ورباطة الجئاش والرواء وضبط النفس ، على شيء من « الوقار المطمئن ، ، باقل قدر من الحركات ، على نبل في الحركة والرصانـــة ، وانسجام في الاوضــــاع والمواقف ، ونفس نقية ، متطهرة ، سيدة ذاتها . كل هذه الماقبية والاوصاف تطالعـــك اينا سرت وانما اتجهت ، ولن تلبث ان تصبح الصفات المثلى التي يجب ان تتوفر لابن العصر ، وهي هذه الاوصاف التي يلهج بذكرها ويحنو على جمها واستكالها في النفس، الانسان الثقيف ٣ المتمدين، ورجل البلاط . ويضع رفائيل امامنا وتحت انظارنا رجلًا من هذا الطراز وعلى هذه الشاكلة في اللوحة الجميلة التي رسمها للكونت بلطازار كستغليونى احـــد نبلاء دوقيـــة أوربــين (Urbin) الذي تشبع بالافلاطونية الحديثة ، والذي كثيراً ما اختسلف الىالبلاط البابوي اثناء تردده على روما ، بين ١٥١٥ ـ ١٥١٨ ، وهي الفترة التي وضع خلالها كتابه المعروف بكتاب «رجل البلاط» هذا الكتاب الذي صدر مطبوعاً بعد ذلك بكثير ، اي عام ١٥٢٣ فقد وبطت. برفائيل صداقة متينة ، بعد ان تشبيع هذا الاخير هو ايضاً ، بتعاليم الافلاطونية الحديثة التي قال بها صديقه و تخد ينه ٢ فوضع له ، عام ١٥١٦ ، لوحة فنية . فهو يرينساه ما كان عليسه من 'ظرف وكياسة واناقة ، هذه الصفات التي تحتم على كل افلاطوني حديث ، ان يتحلى بهـــا ، انما اناقة معتدلة على وقار . تشهد لصاحبها بالاتزان والاعتدال وقهر النفس . ثيابه غائمـة اللون . رداؤه اطلس الملمس وسرواله مخرجة بالابيض النقى ٬ وعلى رأسه قبعة خاصة هي شعار النبيلاء وكبار الحكام . ويشدد رفائيل على الافلاطوني الحديث المثالي وهو الذي تمت له الثقـــافة الانسانية بمصاحبة كبار الكتاب وملازمتهم ، ويثق الثقة كلها بالطبيعة البشرية ، الطيبسة الخيرة في الصميم ، أذ أنها من صنع يد الله وتدبيره وعمله ، حر في الاساس لانه صورة الله ، هذا الرجل المثالي الذي اشتهر بدقة الظرف وعرف بالكياسة ولين العريكسة وحسن التصرف مع الغبر ، وتوفرت فمه : الطمية وحب الخير ، وصنع الجيل ومكارم الاخلاق واخــــــيراً التقى . ولهذا حرص رفائيل الحرص كله فأضفى على لوحة كستغليوني نواظر تطفح بالذكاء والفهم وسرعة الخاطر كأنها بذلك تعكس نوراً علوياً ·

كان رفائيل يعبر بريشة الفنان عن الأوصاف التي رسمها وأتى على تبيانها ﴿ رَجُلُ الْبِلَاطُ ﴾ . والكتاب المذكور مو سلسلة من الحوار والاحاديث تجاذب اطرافها فريق من الاصحاب على شاكلة افلاطون عاماً ، اجتمعوا في بلاط دوقية أوربين ، وتحت رئاسة الدوقة نفيها واشرافها. يصف لنا كستغليوني في كتابه هذا ، المعارف والآداب التي يجب ان يتحلى بها رجــل البلاط ، كالآداب اللاتينية واليونانية ، قبل كل شيء ، اذ يترتب عليه ان يكون حسن الاطلاع ، كثير الالمام بآثار الشمراء والخطباء والمؤرخين ، يحسن الكتابة والتعبير جيداً عن مكنونات النفس وسرائرها ، شعراً وناثراً ، ملماً باصولُ الموسيقي، يجيد الانشاء والترتيل واستعال آلات الطرب على الوانها ، والرسم وكل صنوف الرياضة ولا سياً الفروسية ؛ وان يقوم بذلك كله على احسن وجه . ويمضى كستغلبوني في تعداد ووصف ما يجب ان يتحلى به رجل البلاط من صفات خلقية : عليه بضبط النفس ورباطـــة الجأش وان يتئد في مشيته فيسير متزر الخطى ، تنم قسهات وجهه عن الرضى والطمأنينة ، لا يظهر على محياه شيء من امارًات الانفعال والتأثر يتفادى كل ما يشتم منه الغلظة والفظاظة والكلام القهذع والالفاظ النابعة التي تحمر النساء استعمال النكتة الفكمة ويروي الحكايات التي تدخل البهجة على النفس دون ان يتعمدي حدود الحشمة . وينتقل بنا ، بعد هذا الى تبيان المناقب والصفات الحيــدة التي يجب ان تتم لسيدة البلاط وما يجب ان تكون عليه من وقفة هادئة ، محتشمة ، والانزان في حركانها وسكناتها ، والايناس واللطف ؛ واخيراً استعداد طبيعي للدعة والرقة تبدر معه على مستوى واحد مــن الفطنة والخفر والحشمة والكياسة والرصانة . طبيعي جداً أن تكون متضلعة من الآداب؛ تجيد الموسيقي والرسم ، وتحسن الرقص والمخاصرة وتتحدث بايناس . كل هذا كيس سوى إعداد او المدخل للكتاب. امّا لب الكتاب وسره ، فيأتي في الاخير ، في الخطاب الذي يضعه على لسان الانساني بيترو بمبو P. Bembo كاتم سر البابا الخامس الذي اصبح افيهابعد كردينالاً: فكل ما يفعله رجل البلاط والسيدة المثلي ليس سوى تطهير وتنقية وسلوك وفقاً للانلاطونية الحديثة ، لبلوغ الله والرصول المه . فلرجل الملاط وسمدته المتكاملة الصفات أن يفعلا كل ما من شأنه أن يق موقماً حسناً في اعين الآخرين وان يتحابا اذ ان الحب ليس سوى الرغبـــة الشديدة للاستمت بالجمال الذي يتألف من نسبة مقدورة من تناغي العلاقات وانسجامها وفقاً لطبيمة الأشياء . و: المتحابين أن يمرفا كمف يتجنب الواحد الاغضاء بالآخر وأن يتبينا ما في شخص المحبوب مــ الجال ، إي من هذا الشعاع الالهي المصفى ، ليهم بالجال المجرد الشامل الذي يقود الانسان الى هذا الجمال الملائسكي والالهي ، الى محبة الله .

فالانسان اذاً هو كائن المي ، بطل تنتظره كل الامجاد .

قرجل البلاط هذا ؛ البطل المجد ؛ يهوى في الادب وفي الفنون ؛ العنصر الجمالي كا تفهمه الافلاطونية الحديثة . وقد جاء في الكتاب الذي وضعه بجبو ؛ عام ١٥١٣ ؛ بعنوان : وحول الاقتداء ، ما يلي : و وكا يوجد في ذات الله ، شكل الهي للعمد والاعتدال وغير ذلك من الفضائل ؛ يوجد ايضاً شكل الهي للنموذج الكامل ، نموذج مسن الكمال المطلق ، فعلينا ان نحاول الاقتراب ، ما استطعنا ، من هذه الصورة المثلي والاكمل للجمال . ولذا كان علينا استعدى بشيشرون الذي حقق على الوجه الاكمل النموذج المنهجي ، مجلى الله وشعاعه .

يبدو رجل البلاط ، هــذا البطل المتسربل بالمجد في الصورة التي قصر فارنيز ومصلى تشيبي منافعة القدامي للمالم ، اشد ما يكون بالملم للصورة التي رسمتها

المسيحية له، وهما في الاساس واحد . فآلهة التاريخ القديم هم د الأبالسة ، الذين يضبطون حركة الكواكب في افلاكما ويشرفون بذلك على مقدرات الناس ومصائرهم . أن اخذ الناس بالنجامة وتعويلهم عليها في معرفة طوالعهم ، عبر عنه رقائيل ، لمن كان في آن واحد ، من أخص زبائنه ومن اوني اوفياء اصدقائه ، الصراف اوغستينو تشيجي ، الذي اخذ على نطاق واسع ، بنظريات الافلاطونية الحديثة وتحمس لها . نرى اول ما نرى ، في قصر تشبحي أو قصر فارنيز ، في هذه الصالة المديعة المشهورة بصالة غلاطمة ، احدى الحوريات المشهورة في الميثولوجيا اليونانيسة بمفامراتها العاطفية الصاخبة. فسقف القبة تغشاه وسوم بديمة لمعظم الآلهة تحت اسماء الكواكب السيارة : المريخ ، والزهرة والمشتري ، السخ . فالمواقع التي لهم في القبة الزرقاء ، تتواقق وتتلام مع جدول يشير الى مواقع هذه الكواكب السيارة وابراجها بتاريخ اول كالون الأول ١٤٦٠ وهو الدوم الذي رأى فمه اوغستينو تشيجي بالذات النور، وتفتحت فيه عيناه على الحياة فجاءت بنيته ومزاجه وسحابة حياته وفقاأ للطوالع التي تعطيها مواقسم هذه الكواكب والابراج في الفلك ، من فأل ومصير . وما كان تشيجي يفتح عينيه كل صباح حتى يقرأ في سقف القبة الموقع الذي كان لمطارد في اليوم الذي ولد فيه ، في الدور الأول من برج القوس مما يعني تاجراً مرحاً موفقاً ، بينا كانت الزهرة في مثل هذا اليوم ، في الدور الأول من برج الدلو مـــا يرمز الى تاجر واقمي يفهم الامور التجارية ويقدرها . ونرى في هــــذا السقف دواڤر (Toneli) ترسم فيها حوريات الهواء كما نرى اخرى ترسم چوريات الماء... وأذ ذلك ، تظهر غلاطية واقفة في مركبها يجرها دلفيلان جميلان تحيط بها آلهة البحر وقد ُجاشت قيهم الشهوة فراحوا يتخاطفون حوريات ملؤها السحر والفتنة , أما غلاطية النقية ، فهي في حالة من الذهول والانخطاف بالحب الالمي تحملق بعينيها الدعج بسهاء الافكار.

عاش تشيجي وفقا لطالعه ورغب في ان يقع اجله المحتوم تحت تأثير النجوم التي سيرت حياته بينها هي تتحرك وفقا لمشيئة الشتستمد منه ما لها من حركات وما فيها من انضباط وهذه الرغبة يبديها له صديقه الحميم اصبحت محور التصميم الذي الذي وضعه رفائيل لكنيسة تشيجي المعروفة بكنيسة المذراء مريم الشعبية ، التي باشر ببنائها ، عام ١٥١٥ . فعلى القبة ترى وسوم

T لجمة الكواكب التي لها مثل هذا التأثير البالغ على مصائر الكائنات والمخلوقات ، فيلطنف الملائكة من تأثيرها ، وفي القمة ، الله الذي يضفي على الكواكب ، في الاسفل ، وهو باسط ذراعيه ، القوة التي تحركها والنظام الذي يضبط سيرها فتنتظم في حركاتها وسكناتها ، كا يرتب للخليقة ادوارها واطوارها ، ويرعى قبر تشيجي القائم تجاه مدخل الكنيسة تماماً .

الكنيسة السكستسة منتقاة . من يمن النظر في التيارات الفنيّــة يركيف أن المقود الاولى من القرن السادس عِشر تفادت الموضوعات التي استوحتها الايقونوغرافيا في الدور الاول مسن عصر الانبعاث الذي يرينا الديانة اكثر اتصالاً بالحياة اليومية، واكثر واقمية تسير معالارضيات وتعايش الزمنيات . فقد اعاد القرن السادس عشر الى الدين والموضوعات الدينية ، الحرمات التي يَجِب أنْ تَكُونُ لَهَا وَالْوَقَارِ ، وَارْتَفَعَ بِهَا دَفَعَةَ وَاحْدَةً ، إلى العَلُو ، إلى الاسمى الذي يضفيه ما فوق الطبيعة . فلنتمل النظر طويلا في هذه الانجازات الق حققها رفائيل عـــام ١٥١٦ في الكنيسة السكستينية التابعة للرهبان البندكتيين في مدينة بليز انس. ونهوضاً منه بالعاطفة الدينية التي جاشت بها نفسه بوصف، من اتباع الافلاطونية الحديثة ، فقد ادى به المطاف الفني الي مريم. ام الله ، وعروس الله ، والى يسوع المسيح الفادي . والذي حاول رفائيل ابرازه عندمــــــا رسم صورة العذراء السكستينية هو الممنى الذي تزخر به الترتيلة الممروفة : ﴿ السلام عليــكُ يا سلطانة « Salve Regina » انت يا شفيمتنا حولي الينا انظارك التي تفيض رحمة وحناناً وأطلي علينًا بعد هذه الغربة مع يسوع ثمرة احشائك المباركة. فنلاحظ فيالرسم قبل كلشيء ٬ ستاراً مزدوجاً انتنت اطرافه من كلا الجانبين ، المكشف لنا ، من هنا وهنالك ، شداً من تلك الدار ، دار البقاء . وفي اسفل اللوحة ، من جهة هذا العالم السفلي، جاثيًا مكشوف الرأس بجنب تابوت البابا سكتس الرابع ؛ الغديس سكتس شفيم الاسرة البابوية ؛ اسرة دلا روفير واسرة البابا جول الثاني ٬ يبرز المذراء مريم ٬ للمعتضرين والاموات على هذه الأرض . ونرى امامــــــــ ٬ القديسـة تقلا ، شفيمة ساعة الموت الاخيرة ، جاثية ، هي الاخرى . وفي العالم الباقي نرى العذراء مريم تسير فوق كرتنا الارضية تظللها سحابة تمد الطفل يسوع نحو المحتضرينوالاموات، أسيغة النظر، قلقة المظهر أذ أنها تخشى قضاء الله المادل . ويبدو الطفل يسوع نفسه في وضع جد رصين حتى حدود الجفوة والقسوة كأن به برى بنظره الثاقب ، كل آلام البشر ماثلة امامه . هؤلاء الناس الذين لاجلهم ثجرع العذابات الواناً وفي سبيلهم بذل حياتــــــ حتى الوت ، وكأنه يخشى ، هو الآخر ٬ قضاء الله الذي لا ُيرد ٬ والحكم الذي يصدره بوصفه الديان الأخير .

في هذه الصورة ، لا أثر البتة لماجريات يومية ، او لأي شيء ارضي آخر. كل ما فيها تسام لتبلغ العالم الآخر . وهكذا حققت الافلاطونية الحديثة تصاعدها المتسامي طالما انها وصلت الى السيد المسيح . في هذا الوقت بالذات ، أطلت علينا صورة جديدة للمالم كان لها المقلانية البدوانية .. ببرنازي شأن عظيم في اوروبا تجلت في مدينة بادوا التي قامت فيها جامعة البندقية وفي غيرها من الجامعات الاخرى الواقعة تحت تأثيرها او المرتبطة بها بنهج واحد ، حيث كان يتولى التعليم والتدريس ، هنا وهنالك ، نفس الاساتذة ، في مدينة بولونيا والبندقية وحيث اخذت تسيطر روح عملية يشتم منها الاتجار والتكسب والافرة ، وروح واقعية قوامها الوطنية تردد مثل هذه الأقوال : و انا اولا مسن ابناء البندقية ، ثم انا مسيحي ، وهي شعارات تتلام تماماً مع الذهنية السائدة اذ ذاك .

وكان لا يزال قائماً في مدينة بادوا اتباع لابن رشد مفسر ارسطو وشارحه . فقد قالوا ان النفس البشرية تتألف من عنصرين : العقـــل السلبي الذي تصله ، عن طريق الحواس ، صورة الاشياء المرئية فينقلها بدوره الى الفهم ، هذا المقل الايجابي الذي يمالج هذه الصور ويجملهـــا قابلة للادراك . اما العقل السلبي فهو بجاجة للحواس ولذا تراه مشدوداً الى جسم الانسان ويختفي باختفائه . ولذا ليس ثمة خاود شخصي او جنماني بين الناس .

يخضع الكون عندم لحتميسة آسرة ، ويوجد في كل جرم سماوي عقسل في مكنته الحروج على نواميس الطبيعة ولذلك تجري احداث غير متوقعة البتة . فالمعجزة ، اذاً عادث مستمر يجب رده لتفاعل القوى الطبيعية ، و لهذا السبب فمعجزات الكتاب المقدس لم تعسد بالدليل القاطع على الوحى الالهى .

قام بين البدرانيين قريق لا ينهج نهج تماليم ابن رشد نفسه بل يتبع مذهب احد شارسيسه المشهورين ، ظهر في القرن الثالث للهيسلاد ، هو اسكندر الافرودياسي الذي رأى في النفس حصيلة من حصائل الجسم البشري ، وهو تمليم يستتبع القول ، بفضاء الجسم البشري ، فها عسى ان يكون بعد هذا ، امر الجمعيم والسياء والحشر والمنشر والميماد ، في مثل هذا الاحتال ? وبقي لكل من فلسفة ابن رشد واسكندر الافرودياسي اتباع في اوروبا حتى في القرن السادس عشر ، ولمل اهم من هذه النظريات التي ألمنا اليها ، النظريات الجديدة التي قال بها وعسلم بجونازي وسفه من علماء النهضة ، بنصوص دقيقة ، موثقة لمؤلفات ارسطو اخرجتها مطابع الناشر المشهور آلد مانوس الماوس في البندقية ، ضرب بمرض الحائط الشروح والتعليقات الناشر المشهور آلد مانوس وابن رشد نفسه ، ففي كتابه الممنون : و حول خاود النفس ، المطبوع عام ١٥٠١ ، وفي كتابه الأخر و حول اسباب ومسببات كل ما يجرى في الطبيعة والسعر ،

الذي وضمه عام ١٥٢٠ / راح يدرس هــذه المشكلات و بمنزل عن الوحي والمعجزات ضمن حدود الطبيعة ، مستميناً بالمقل وحده الذي جعــل منه ، في الاساس ، الحكم الوحيد . فهو من المقلمين .

والحال عماله والحقل تكتشف عن طاقة يستحيل عليها العمل بمنزل عن الجسم والحي يعمل المعقل ويتحرك وينشط فهو بحاجة ماسة للحواس اذن ، فالنفس تبتدى مع الجسم وتنتهي بانتهائه طريق الغرد وهي عملية تتم عن طريق الحواس اذن ، فالنفس تبتدى مع الجسم وتنتهي بانتهائه فلا مجال ، والحالة هذه ، الظن بخلود النفس او القول به . ومضى بمبونازي في تهديم فكرة البطولة والفكرة المميزة التي طلعت بها الافلاطونية الحديثة عن الانسان ، المدعو ابن الله . فالانسان ، في نظر بمبونازي ، ليس كائنا متميزاً من كاننات الطبيعة . فهو لا يخرج عن كونه حلقة بسيطة فيها ، احد الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احيانا ، دورن الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احيانا ، دورن الحيوانات المتقدمة في تطورها . هنالك اناس اقل خبرة ودراية من القندوس الذي اشتهر بمهارته ومنهم من لا اخلاق مدنية لهم كا نجد عند النحل مثلا ، ومنهم من تجردوا من كل اخلاق ادبية عا توفر بعضه للكلب مثلا ، اذ نراه يأتي ليموت على قبر سيده . هنالك قلة من الناس تمت لها ملكة المقل الحدى بميزات الإنسان ، فالانسان والحالة هذه ، ليس على صورة الله ولا هو ، بعد ، بالبطل الخليق بكل بحد و وخر ، ولمن كانوا يردون عليه متهمينه بقتسل الاخلاق بعد ، بالبطل الخليق بكل بحد و وخر ، ولمن كانوا يردون عليه متهمينه بقتسل الاخلاق واستباحة الآداب بعد ان الكر الايمان والجلل عقيدة المثوبة والجزاء في الحيساة الاخرى ، كان يجيب ان مكافأة المفضيلة هي الفضيلة ذاتها .

فقد هدم ، في الوقت ذاته ، اسس الايان والادلة المؤيدة له في الكتاب المقدس الناطقة بالوحي . فالمعجزة ، في نظر بجونازي ، ليست سوى احدى النتائج المدهشة لبعض المسببات الطبيعية التي نجهل اسر ارها تهام الجهل . فالاسباب الطبيعية تكفي وحدها لتفسير هذه الظاهرة ... من المضحك وايم الحق ، ومن الغرابة بمكن ، ان يضرب الانسان عرض الحسائط بما يقع تحت الحسل وبما يقوم العقل الطبيعي بالدليل عليه فيلجأ الى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل ... ومثل هذا القول يكن اطلاقه على المعجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد ومثل هذا القول يكن اطلاقه على المعجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد الكنيسة بصحتها والتي سلم بمونازي بالقول والايان بها تجاوزاً لاحكام المقل ، وكمجرد فعل ايان ليس ما يؤيده .

من الطبيمي ان ترذل الكنيسة مثل هذه التماليم الكفرية الضالة ؛ المضلة التي راجت حوالي هام ١٩٥١ ، اي عند التئام مجمع لاتران ؛ اذ ان الكثلكة تعليم انه لا بد من اسباب قوية تدعو للايمان وان المثل هو من الاسس التي ينهض عليها الايمان وان كان مجاجة ماسة لمساعدة الوحي وتأييده .

ومع ذلك فلاد تمتع عبونازي بتفوذ قوي وكان له تأثير بالغ في النفوس ؟ اذ أم الوف من

الاوروبيين مدينة بادوا ليتلقوا تحصيلهم العالي في جامعتها . . وهذا ما ساعد بالفعسل على شر تعاليم بمبونازي والترويج لها في جميع انحاء اوروبا . فمن تلاميذه النبهاء : رابليه ، واتيان . وليه ، وجان بودين ومونتاني وغيرهم من احرار الفكر في القرن السابع عشر ومن اليهم من و فلاسفة ، عصر الانوار .

وهكذا نرى ان الافلاطونية الحديثة والفلسفة الطبيعية يتمارضان في الاساس ويقوم الواحد ضد الآخر. ومع ذلك فهما يتازجان ويجتمعان بالفعل لدى الكثيرين. وعلى كل ان معظم المقليين البدوانيين قالوا بالفراغ والصور والصيغ والمواقف البشرية التي قال بها اصحاب الافلاطونية الحديثة.

العلم ونظرته الجديدة على العالم فتشينو ركوبرنيكوس

مها يكن من هذه المفارقات ، فقد التقى فتشيئو وبمبونازي والبدوانيون واصحاب الافلاطونية الحديثة على صميد واحد وجمهم معدود مشترك واحد ، الا وهو الهدف الذي رضعه

الانسان نصب عينيه الا وهو السيطرة على المالم والتحكم به ؟ وذلك بما تم له من مهارة وصنعة. وقد راح فتشينو يستشهد بمثل ارخيدس الذي في سبيل تفهمه لاسرار الطبيعة ، وإفهامسه تلاميذه كيف يسير الكون ، خمد الى صنع كرات من البرونز تمثل الاجرام السهارية . فمند ما اعاد على هذا الشكل العملي تركيب الكون استطاع ان ينغذ الى اسراره ويدرك مقساييسه وبذلك اصبح وكانه مبدع السماوات ، وبعبارات اخرى ، شبيها بالله . وفي رأي فتشينو ، فالانسان ، بعد ان يجري في الكائنات من تعديلات بما يدخل عليها من تحسينات، وباستكاله لعمل الطبيعة ، بالآلة التي يصطنعها له ، وبالانشاءات والمصانع والمسالك وممامل الزجاج التي ينشئها ، يحدث في العالم تفييراً تهاما كالتغيير الذي يتناوله هو فيتحول معهويتكامل. فبمعرفته لاسرار الكون وباحداثه عالما لنفسه ، يلتقي مع تصميم الله ويصبح ، بالتالي ، شبيها به ، هو كله حرية والحرية البشرية هي تغيير متصل وتطور موصول. وهكذاففكرةالنقدم بواسطة العلم ، وبواسطة العلم ،

وهذا الشمور بقوة الانسان المظيمة التى لا حد لها) يبدر على اتمه في هذا التبدل والتطور الذي طرأ على الرمز الذي رمزوا به تباعاً الى الحظ. فقد سبق الانسان ورمز اليه قديما بمبكل او دولاب يدور بسرعة يرفع الناس الى عليين طوراً ، وطوراً يبهط بهم الى أسفل الساعلين ، وقد أسقط بيدم امام هذه القوة الممياء التي لا يدركون من امرها شيئاً بل انها تهزأ بهم اسياناً ، وحيناً تسحقهم تحت وطأتها . . اما في زماننا ، فطريقة الرمز ، الى الحظ قد تنهرت تماماً . فالحظ اليوم كن يشبه راكب سفينة يمسك بالقارع وينفخ فيها بينمسا يكون الانسان بمسكا بالدفة يوجهها ويستممل في تسييرها ما لديه من قوة وظروف مساعدة وغير ذلك من المسمفات . وليس من باب الصدفة والتوافق قط ان نرى بين الآثار اللكرية التى وصلت الينا ، نموتاً

واوصافاً مثل : « بطولي » « بطل » ٬ « الهي »٬ « نصف الهي » وغير ذلك من نعوت التعظيم والتفخيم ٬ وما شاكل من الفاظ ٬ كعظيم وفخم وفوق البشر .

في الصورة التي اثبتها ترتغليا (Tarlaglia) في صدر كتاب الموسوم (Nuova scienza) المنشور عام ١٥٣٧ ، تنويه والمحاء يصوران الطريقة التي تخيلها معاصرو ذلك العهب للنفاذ الى اسرار الطبيعة والتحكم بها . فهي تمثل ساحة تقع ضمن جدران عالية من الصعب جداً ان لم نقل من المستحيل عبورها وتخطيها . وفي آخر الساحة او الفسحة معبد قبعت فيه الفلسفة ، اذاً ؟ السبيل هو المرور من باب ضيق عبوره او اجتيازه بيد اقليدس ، امير الهندسة وربها . فيفضي الجاز بالباحث الى الساحة ليستقبله فيها عدد من العلماء يتجهون به الى باب الهيكل حيث يقف ارسطو ويسهل له الولوج ، ليجد ، في الداخل ، افلاطون واقفاً امام الفلسفة ، فيقدمه لها ويتم بذلك التعارف بينها . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي. فالرياضيات هي مفتاح المعرفة اوالمدخل بذلك التعارف بينها . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي. فالرياضيات هي مفتاح المعرفة اوالمدخل ما هو واقعي يخضع حتماً للعمليات الرياضية ، وان المعرفة الحقة هي بالفعل بناء رياضي خفي ، فارسطو وما يمثل من العام الطبيعية والاجتماعية المتمدة على الحواس ، يستطيع القيام بعملية بحرد للظواهر الطبيعية وتسنيعها ، والقيام بعملية تقيم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم جرد للظواهر الطبيعية وتسنيعها ، والقيام بعملية تقيم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم بحرد للظواهر الطبيعية وتسنيعها ، والقيام بعملية تقيم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم بحرد للظواهر الطبيعية وتسنيعها ، والقيام بعملية تقيم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم بحرد للظواهر الطبيعية وتسنيعها ، والقيام بعملية تقيم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم بحرد المناه بنان الملاء عن اسرار المركبات وعن الحركات الفعلية التي تخفي عنا الحقيقة .

هذه الصورة الرياضية ، الكمية ، للمالم التي اخذت تحل تدريجيًا محل الصورة النوعية التي رسمها ارسطو وتهز فيزياءه النوعية ونظامه العالمي الذي يجعل من الارض محور الكائنات ٬ قد تم إعدادها منذ عهد بعيد . أن تغلب الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية جعل عقول الناس تسلم بثلاث معطيات اساسية : العلم التجريبي، واقصاء ارسطو وتنحيته جانباً ، وفكرةالوظيفة الرياضية . كل من فكر قليلا لا بد من ان يجد نفسه بالفعل امام المشكلة التالية ، ان معرفتي للمالم الحارجي ، والتفسير الذي ارتضيته يتوقفان ، الى حد بعيد ، على تفهمي لما هو واقعي ، قائم ، وللاحكام التي أتوصل اليها والاستسدلالات التي اقوم بها . وهذه الاعسال الفكرية أو المقلية التي اقوم بها ، هل استطيع ان اثق بها واعول عليها ? نعم ، كان جواب اتباع الفلسفة الواقمية ، وفي مقدمتهم القديس توما الاكويني . فبامكاننا ، والحق يقال ، أن نتفهم ، بىسورة معقولة ، العالم . نعم ، في مقدورنا ان نتوصل بعلم ومعرفة ، الى الحقيقة بان الله موجود هو . هنالك واقع قائم متحيز ، بمكن تفهمه حتى الفهم . من رؤية الاشياء الفردية بستطيع ان نتوصل بصورة معةولة ومقبولة ، في كل فئة من هذه الغثات ، الى صورة عامة هي بالغمال ، جوهر هذه الاشياء وقوامها . وهذا ما كان افلاطون يسميه الفكر ؛ النمط ؛ النموذج المثالي . من ذلك مثلًا أن رؤية ومعرفة الناس تمكننا من أن نكو"ن لانفسنا ، فكرة مقبولة عن الجنس البشري ، عن الانسان قائمًا بذاته ، عن الانسانية التي تكبُّو"ن حقيقة واقعية خارجة عنا هي جوهر الانسان ، وفي نظر افلاطون : فكرة الانسان ·

فكيف يعمل العقل هنا ، وما هو سبيله الى ذلك ؟ لنأخذ مثلا ، النساس الذين نعرفهم جيداً . فمن كل واحد منهم نرسم او نصوغ صورة ذهنية تخطر او تسبح في الهواء ، وهذا ما يعرف به والانواع الفكرية ، وهي صورة اخذت تتخفف كثيراً من مقوماتها المادية المحسوسة . ثم تدخل هذه الصورة الى حواسنا الخارجية لتخفف ، اكثر فأكثر بما لا يزال عالقا بها من مادية بحيث تستطيع ولوج اجهزتنا وقوانا الداخسلية فتكتسب شيئاً من اللطافة تصبح معها قادرة على دخول جهاز الخيلة ، مع الاحتفاظ ، حتى في هذا الدور ، بشيء من ماديتها . وعندئذ يستطيع المقل الفاعل ، احدى القوى الماقلة التي تملك بصورة فطرية ، المبادىء الاولى التي تقوي فينا ملكة المحاكمة المعقلية والتي نستطيع معها ان نحول هذه المعلومات (تخيلات) الى انواع قابلة للادراك ، خالصة من كل مادية . وبهذا الانصال تجد النفس الفكرة العامسة للانساذية ، والممثلة في ذات كل انسان . وهذه الصورة هي صورة كائن تتمثل ، بذات الوقت في صورة ذهنية عامة في النفس وفي صورة فرد ، في كل شخص . ولكل صورة ذهنية عامة مصطلح او كلمة تعبر عنها . وكان افلاطون يقول ان لكل فكرة ، صورة ذهنية عامة او فكرة الدسورة توجد بكيفية مستقلة ، في ذات الله .

فالانسان هو جوهر في ذاته . فالجوهر هو الذي يعطي المادة صورتها اي قوامها وكيانها وهو الذي يوليها ما لها من صفات محسوسة كالشكل والحرارة والعمر واللون وغير ذلك. وهذه الصفات الحفية التي لا تقع مباشرة تحت الحواس ، هي التي تولي المادة بعض اعراضها المحسوسة كالثقل والحفة ، والقوة المعنطيسية وغير ذلك . فالجوهر مع المادة يكون بشراً يختلف الواحد منهم عن الآخر ، عرضاً او خاصة ، انما هم متاثلون ، متشابهون من حيث الجوهر .

ويرى ارسطو في هذه الصفات أعراضاً يمكن ان تقوم بالفعل في ذات الجوهر ، كالليونة في اعضاء الجسم ، او ان تقوم فيها بالقوة كالشعرة البيضاء في الشيوخ . هنالك حالة ثالثة همي الحركة كالشعر الذي وخطه الشيب . فالحركة لا تقتصر على تبدل في المكان ، بل هي تحتمل الاستحالة والتغير . غير ان الحركة تحدث تغييراً في الأعراض وليس في الجوهر . فسواء أشاخ الانسان او اقتطع منه عضو من اعضائه فهو يبقى انساناً ، فإن كان ابيض او اسود او اصفر فهو يبقى دوماً رجلا ، لان له جوهر الرجل . فهو من نوع الرجل ، سواء اكان من المرق الابيض او الاسود او الاسفر ، فهو واحد من هذه الانسانية الواحدة .

والتعليل العلمي للاشياء يقوم ، والحالة هذه ، في المرحلة الاولى ، بالتساؤل عسن النوع او الجنس الذي تنتمي اليه المخلوقات ، وهي معرفة تتم بعد درس ما لها من صفات محسوسة وما يقوم بينها من روابط وعلائق ، وبطائفة من الاسئلة تعاون على توجيهها سقراط وافلاطون واكملها ارسطو في كتابه الموسوم « Organon » هذه الاسئلة التي تكون الطريقة الشاملة اللازمة للمقل البشري ، التي من شأنها ان تساعد على : التثبت من ان الشيء موجود بالفعل ،

وان لم يكن بمن يقع تحت الحواس ومعرفة ما اذا كان بمكن الوجود او بمتنع الوجود ، وما فيه من جوهر وعارض او دائم وزائل ، سبب ونتيجة ، والغاية منه اي الفرض من وجوده على هذه الارض ، وما هو جوهره ، اي مادته المقومة . وما هو عليه بالفعيل او بالقوة او بالصيرورة وغير ذلك . وعندما تتم لنا معرفة هذه الاشياء نكون توصلنا الى معرفة النموذج الخالد لهذا الكائن ، نكون توصلنا الى معرفة سره او وجوده . خذ مثلا الحديد او المغنطيس . فعندما يكون الحديد امام المغنطيس ، يتلبس جوهره صفة خفية هي الصفة المغنطيسية التي من خصائصها المديزة ان يجتذب المغنطيس الحديد اليه . فالقوة المغنطيسية هي السبب الحقيقي او الاخير للظ هرة التي تجلت لنا. اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الاخير للظ هرة التي تجلت لنا. اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الى تعليل كامل ، جذري، المكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المرئيات الى تعليل كامل ، حذري، المكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المرئيات الى تعليل كامل ، خدري، المكون اجمع ، وذلك بسلسة من التراكيب الذهنية المنه المرئيات الى نشما عنها خير تعبير . وهكذا الهنشا عندنا علم كامل تام ، نصل به الى ذات الكائن وحقيقته الاولى .

وهذا النظام المنطقي يرتكز ، بدءاً ، على فكرة : الزائل المنتهي ، العالم المنتهي في الفضاء حيث الانواع تبقى هي هي بالرغم من التغيرات التي تطرأ على الفرد ، وحيث عسدد الانواع محدود ، هسده الانواع التي تتألف من اجناس وفوارق محدودة المدد ، وعالم مطبق ، موحد ، محدود .

وجدت الفلسفة الواقعية خصمها اللدود في الفلسفة الاسمية بمثلة خير تمثيل بشخص وليم الركهام ، هذا الراهب الفرنسيسكاني ، استاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد ثم في جامعة باريس ، والذي عاش من ١٣٨٠ الى ١٣٤٠ ، فكان الرائد الجليل (Tenerabilis incepkor) الذي مهد لطلوع العصر الجديد .

أنكر اوكهام ارف يكون للصور الذهنية العامة وجود في الكائنات الفردية او الخاصة . فاذا كان العام قائماً او موجوداً بذاته وجب ان يكون من الوجهة العددية وحدة . فان كان وحدة ، ألتف والحالة هذه ، فرداً . فكيف يستطيع الكائن الفرد ان يكون معاً وفي عسده كبير من الكائنات البشرية في البشر الفلوكانت البشرية شيئاً يختلف عن الافراد العاكم كانت استوجبت ان يحكم عليها في آن واحد بشخص يهوذا الاسخريوطي وان تخلص في المسيح ؟ ان مثل هذا التول مضاد للعقل والمنطق وهو امر مستحيل . فالفكرة العامة اذاً لا وجود لها البتة .

فالافكار ليست سوى اشارات او علامات تدل على وجود كاثنات في الخارج دون ان تمثلها على الاطلاق ، فالنية التي بها اسمع الناس ليست سوى اشارة طبيعية تعني الانسان ، لها كل ما للطبيعة من صفة ، كالآمة التي تنم عن المرض او الألم ، فالتنهد هو علامة او اشارة تدل على المرض ، انما لا تفيدنا شيئا قط عن طبيعة هذا المرض ، ولا عن نوعه ، ولا تسدعو للقيام بأي علية تشخيص او سحد س او تطبيب ، فلكل فرد من هؤلاء الناس الذين تقع عليهم العدين علامة او دالة ذهنية في ادراكنا تقوم مقام الفرد نفسه وتمثله في الحاكات والتصديقات المقلية

التي نقوم بها. فاذا ما استعرضنا ذهنيا هذه الاشارات وعارضناها بعضاً ببعض ، خرجنا من هذه العملية بفكرة او صورة تعبر عن هذه الاشارات او الدلامات مجتمعة ، تمثل رجلاً قائماً بذاته . فالجنس البشري ، هذه الصورة العامة ، صغناها بطريقة التجريد ، من الافراد انفسهم . ولذا فهي ليست شيئا خارجا ، بل كائنا عقلياً لا وجود له الا في الذهب ، ليس الا . اما الكلمات والمصطلحات فهي الاشارات التي تعبز عن هذة الصور الذهنية . فهي لا قيمة لها البتة بذاتها .

وعلى هذا ، فنحن لا نعرف اية حقيقة او شيء واقعي . فنحن لا نعرف الا ظواهر الاشياء ومدلولاتها . اما الكائن ، فلا سبيل لنا الى معرفته . غير انه اذا كنا نشاهد علامات متتابعة مستمرة تقع دوماً حسب الترتيب ذاته ، امكننا ان نستنتج ، بالتالي ، انه او وجدنا علامة واحدة من هذه العلامات ، كان ذلك داعياً لظهور باقي العلامات . فهنالك إذا امكانية علم تجريبي يتيح لنا ان نتصرف ونعمل . فلن نتوصل ابداً الى معرفة حقيقة الاشياء الا ما اراد الله ان يعلنه لنا . فامامنا إمكانيات لا تحد للعمل والتصرف .

المراقب المستقل وكأنهم يرددون : لا لزوم بعد لننهج نهج ارسطو ٬ ولا الأخذ بترابط الكلمات وتداعيها قبل مراقبة الظواهر والبحث عن التراكب المستمرة . كان هذا موقف بعض اساتذة جامعة باريس ، في القرن الرابع عشر امثال الدير ده ساكس وتيمون اليهودي وجان بوريدان في ما يتعلق بناموس الحركة . كل حركة ، تستوجب في نظر ارسطو ، فعل محرك دائم يتميز تمامًا ، عن الشيء المتحرك ، كالسهم الذي انطاق من القوس مثلًا ، والذي يستمر سائراً مع انه انفصل عن محركه . فوتر القوس ، في نظر ارسطو ، سبّب اضطراباً في كنلة الهواء المحيطّ ـــة بالسهم ، نقلت بدورها الاضطراب او الحركة الى كتلة اخرى ملاجقة بها ، وهكذا راح السهم يطير سابحًا بفضل حركة الهواء :لمحيط به . اما عند الفلاسفة الباريسيين ، ولا سيما عند بوريدان الذي كان يعلم الفلسفة في باريس بين ١٢٢٧ – ١٢٥٨ ، فالواقع يماكس تماماً ، نظرية ارسطو. لناخذ مثلاً على ذلك سفينة بجرها البحارة في ترعمة او قناة ثم يتركها البحارة فجأة فتسير هي لوحدها بضع خطوات بقوة الدفع. ففي نظر ارسطو هي تسير بفعل الهواء المنحرك المحيط بها ، فتسوقها حركته الى الامام بضع خطوات . فاذا ما غطّينا قعر السفينة بغطاء من جلد أو نسيج ونزعنا فجأة هذا الفطاء في ذات الوقت الذي يتوقف البحارة عن جر السفينة ، نكون عزلنا طبقة الهواء التي تتصل مباشرة بالسفينة المتحركة . فالسفينة تمضي ، مع ذلك ، في سيرها الى الامام ، ولو لبضمة امتار . فليس الهواء، والحالة هذه ، هو الذي يسبب لها الحركة . فالتعليل الوحيد ، المقنع هو ان البحارة (المحر"ك) أو لوا السفينة (الشيء المتحرك) قوة ما تحركها ، وهذه القوة هي ما نسميه الدفع Impelus . وراح بوريدان يضع لنا ، في هذا المضهار ، قواعد ومبادىء لا تزال ، لليوم ،اساساً لبعض اقسام الميكانيكا،منها ان قوة الدفع توازي سرعة المحرك ومنها أن الدفع معادل للججم أو للثقل النوعي . وقد ذهب في تعليلاته ألى أبعد من هذا واعمق أذ قال أن الدفع يولي الأجرام السياوية حركة دائمة ، فرسم لنا بذلك أوليات حركة الفلك على أساس مبدأ القصور الذاتي (Inertie) هذه المبادىء بالذات التي كشف عن نواحيها ، فيا بعد غالبليو وكبلر .

واخيراً اوجد علماء الرياضيات من الباريسين ، ولا سيا اوريسم بينهم واضع علم الهندسة التحليلية ، بعد ان ادخلوا تحسينات ملحوظة على فكرة الدّالة الرياضية ، نطوراً كبيراً على العلم التجربي كأداة للبحث العلمي ، وبها امكن استنطاق الطبيعة وتسجيل الكثير من المعلومات التي جادت يها . وعلى شاكلة الفلورنتيين الذين عجزوا عن الانتفاع بالشكل المنظوري ، استخداماً صحيحاً ، هكذا عجز الباريسيون عن ان يكونوا لهم فكرة صحيحة عن الدور الذي يمكن ان تلعبه الرياضيات . فالفيزياء عندهم ، بقيت نوعية او كيفية لا رموز او صيغة لها تقريباً ، والزلوا ، بالتالي ، الدفع منزلة النوع . « من المحتمل جداً ، يقول بوريدان ، ان يكون هذا الدفع صفة من طبيعتها تحريك الجسم الذي تم دفعه ». والظاهر انمن جاء بعده من علماء الرياضيات ، قنع بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس من علماء الرياضيات ، قنع بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس نشاطها الخلاق ، خلال حرب المائة سنة وراحت فريسة جدل بيزنطي معطل .

بقي اذاً ، شيء لا بد من تحقيقه الا وهو اعتبار الطبيمة باجلها ، قائمة على تركيب رياضي خفي ، والاهتام ، قبل كل شيء ، بالكم او الحركة . هذا التبدل في الذهنية والتفكير ، لم يتم على ايدي البدوانيين ، لانهم آثروا البقاء الى جائب ارسطو ، ارسطو التاريخي بعد ان اعتنقوا مقالته وارتضوها سنة لهم ، ارسطو هذا الذي اكتشفه إنسانيو النهضة ، واخسدوا يالتالي يهزؤون من الباريسيين ومن لاتينيتهم العرجاء . فلو عرف الباريسيون ارسطو معرفة صحيحة لاقتنعوا بتعاليمه ، ولما كان البدوانيون من تلاميذ ارسطو الاحيائي ، راحوا ، فرق ذلك ، يعلمون انه من الافضل بكثير ، التعويل على الحواس منه على القياس ، وراحوا ينتقسدون الباريسيين التحاليل الدقيقة الصحيحة التي قاموا بها . فلا عجب قط الا يجري البدوانيون ، في الباريسيين النكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليم الاعتقساد بالعجائب والمعجزات ، في النفس ، الفكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليم الاعتقساد بالعجائب والمعجزات ، والحالة هذه ، ان تذرف التأثيل دمنا ، او ان تنضع بالعرق أو ان تنتقل ، من تلقاء ففسها والجالة هذه ، ان تذرف التأثيل دمنا ، او ان تنضع بالعرق أو ان تنتقل ، من تلقاء ففسها وبعومة الذاتية ، من على الم المنورة ، والاستسلام الخاطسة الارواح عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطاق ، والاستسلام الخاطسة الارواح عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطاق ، والاستسلام الخاطسة الارواح عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم ، وغير ذلك .

فبمبونازي ومن وقعواً تحت تأثيره المباشر ٤ امثال باراسلوس وفانيتي وبرونو وكمبانيلا ؟

ساهوا على اقدار متفاوتة ، في الترويج لشروح ارسطوو تفسيره تفسيراً ابطانيا Immanentiste فبدلاً من دالله المتعالى، المتسامي المتميز كلياعن هذا العالم الذي برأه من العدم، قالوا باله إبطاني المسامة التي رأى فيها ارسطو تسلسلا آسراً للسباب ومسبباتها ، ومجموعاً ساكناً من الظواهر المعروفة ، تصورها اشبه ما تكون بكائن حي يغمره الله بروحه ويفيض عليه من ذاته . وهكذا تبدت لنا ، هذه الطبيعة ، في كل لجظة، قوة خفية مجهولة لا يمكن حصرها او كبتها كا لا يمكن التنبؤ بها . هنالك قوة متوزعة محرك الاشياء . فالطبيعة ملاى بقوى خفية ، واصبحت مجالاً السحر والسعرة يسرحون فيسه ويرحون .

المعجزات دائمة ، قائمة باستمرار . أفلا تتنبأ الحيوانات ؟ ، والتاثيل الا تنضع عرقاً منفرة بالأحداث الجسام ؟ والعذراء مريم ام النعم به ألم تفتح عينيها وتطبقهما ، في مدينة بريشيا ، يوم عيد المنصرة بالذات عام ١٥١٤ ؟ أو لم ير الناس ، في كنيسة القديس مكسيمينس ، في مقاطعة بروفانس ، خاصة الاخوة الواعظين ، حجارة صغيرة تتلطخ بدم السيد ، بعد ان تلقفته مريم المحدلية وهي جاثية عند الصليب ؟ كان الناس يمتقدون ، وطيداً ، ان هذا الدم كان ينفصل عن هذه الحجارة ، نهار الجمعة الحزينة ، وذلك من الساعة ١٦ الىالساعة الواحدة بعد الظهر ، ويأخذ مرات في السنة : اما اذا سال في غير هذه الاوقات ، فلا يتم ذلك ابداً في درجة حرارة تقل عن ١٩ درجة مثوية . وكثيراً ما استعملوا درجة الحرارة التي يسيل فيها الدم لاغراض ساسة .

أدى بعث الفلسفة القديمة الى بعث النجامة والتنجيم . فبينما اجزاء العالم في النجامة النجامة والتنجيم . فبينما اجزاء العالم في النجوم بالكائنات الحية . فكل جزء من اجزاء الجسم البشري ، وكل حالة من حالات النفس البشرية يرتبط ويتماطف مع الاوضاع السائدة في الفلك . فالمريخ يؤثر على الكبد ، وزحل على الرئة ، والشمس لها تأثيرها العميق على المحدة . وكل مزاج من الامزجة الاربعة الصفراوي والدموي والبلغمي والدواوي مرتبط ،هو الآخر ، ارتباطاً وثيقاً ، باحد الاجرام السماوية . وعندما يقم القمر في قران برج الاسد او برج القوس يستحب القيام بعملية فصد صاحب المزاج الصفراوي . فالنجامة الطبيعية جعلت من الانسان نقطة الدائرة ومركز الثقل في العالم . وهو قول اخذت ، فالكنسة ورعته واحترمته .

هنالك ضرب من النجامة 'يعرف بقراءة الطالع البشري ، شجبته الكنيسة وحرمته عام

1040. فالكوكب السيار الذي سيطر في الساء يضفي على الانسان الذي يولد تحته ، سمة لا تمحى . فهو يعطي المولود الجديد مزاجه الخاص ويحدد منه المصير المحتوم بشكل لا يتسدل . فليس من عجب والحالة هذه ان يقوموا بكشف الطالع يوم مولد الطفل . وفي هذا السيل ، قسموا القبة الزرقاء مثلثاث ومستطيلات حددت فيها المواقع التي تحتلها النجوم ومواقع البروج كا حددت فيها المواقع التي يجري فيها الكوكب تأثيره عندما يتفق وقوعه في المحل الممين له . وبذلك كانوا يستطلمون من خلال بعض العلامات والاشارات ، الصفات المرتقبة الشخص وما عسى ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر، وتاريخ الرحلات والأسفار المتوقع له ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر، وتاريخ الرحلات والأسفار المتوقع له ان يقوم بها ، وعدد البنين الذين سيرزق ، وغير ذلك من طوارىء الحماة المنتظرة .

خاطبة الارواح التقاليد اليهودية ، وهي تقاليد تغلغلت ، الى حد بعيد ببين اوساط عصر التهابة الارواح وجتمعاتها . فالرموز التي تضفي على الأشياء مدلولها ، وتمين لهسا المراتب والمواقع ، النهضة ومجتمعاتها . فالرموز التي تضفي على الأشياء مدلولها ، وتمين لهسا المراتب والمواقع ، تتكون من اشارات وقدرات . فالاسماء الواردة في التوراة كتاب الله ، وما تتألف كتابتها من احرف تتلبس قدرة خاصة . وبواسطة هذه الدلائل يظهر الله قدرته وهي دلائل يمكن لنا ضبط بعضها . فالارقام يشار اليها بالاحرف ، ولذا قامت علاقة تماطف او تداع بين بعض الحروف وبين بعض الحروف وبين بعض الحروف التي يتألف منها اسم معين ، وبين بعض الارقام . فاذا ما جمعنا الاعداد التي تنجم عن الحروف التي يتألف منها اسم معين ، نصل الى مثل هذا العدد الذي يخرج من جمع حروف اسم آخر ، اذ يوجد تماثل بين هذين الاسمين وبالتالي بين ما لها من مدلول . وبواسطة الاساء يمكن ان تؤثر الاشخاص والاشياء التي لهمدلولات خاصة بعضها ببعض .

السعر والجوسية هذه الأعمال والمراسم التي كانوا يتومون بها الدعاوي امام الحماكم التي راحت هذه الأعمال والمراسم التي كانوا يتومون بها الدعاوي امام الحماكم التي راحت تضبط الكثير من اعترافاتهم وتسجل بكل اسهاب ، التفاصيل التي تصف اعرافهم واعمالهم وكان ينظر في دعاوي السعر والسعرة ، قضاة متخصصون . فالسحرة على حسب اعتقاد الناس هم سبب كل الامراض الحفية او المستعصبة كالتدرن ، وذبول الصحة ، والعته والخباط الصرعي ، والاضطرابات التشنجية والحستيريا فيصفون للمشاق والمتحابين شراباً يلهب فيهم الشوق والغلة ، وينفثون في الجو ربحا خبيثاً ساحراً ، موبوءاً ينشر بين الناس الحمات والعمه والشلل والجنون ، ويستمطرون المطر في غير اوانه والبرد ويثيرون الضباب الناشف المؤذي فيسبب الجفاف والعمى ويفتك بالناس كا يسمدرون رشوشاً مؤذية . ويتلبس السعرة ، في نظرهم الشكالا ومنوعة فيظهرون تارة بشكل بهائم مخيفة ، أو عناكب وذباب وأفاع وثعمايين وجراد ، وعيكة وهررة وذئاب متلبسة بهيئة بشر ، فيم بقاء اجسامهم في مكان معين ، ينفثون رياحسا وطيوقاً تخترق الايواب الموصدة وتنفذ من خلال الجدران ، وتتصدى النيسام في أسرتهم ،

ويدخلون كما زحموا ، في اجسام ضحاياهم شياطين يجعلون منها مسكناً لهم ، ويجتمعون ليلا في نواد خاصة بالسحرة حيث يظهر. لهم الشيطان بهيئة تيس اسود يأخية في التحدث اليهم ، ثم يحترق ويستحيل امامهم رماداً فيأخذ منه الحضور ما يساعدهم على الفتك بجيرانهم .

وكان الناس يردون هذه الظواهر كلها الى المذهب الروحاني (Animisme) هذا المذهب القديم الذي قال بوجود ارواح في كل الاجسام ، وعليه قامت المجوسية التعاطفية والنجامية ومخاطبة الأرواح . وعملاً بقانون المشاكلة (الشبه يولد الشبه) يتساقط المطر اذ ما رحت تقييل صوت المطر المتساقط بضربك اديم الماء بمقرطة فيتساقط المطر ، واذا ما نخست بابرة شخصا من الشمع يمثيل ضحية واطلقت عليه اسم الضحية ، اصيبت نفسها بالنخس في المكان الموافق للمكان الذي تم فيه نخس تمثيال الشمع . وبموجب قانون سريان القوة او استمرار الاثر ، يبقى شخصان او شيئان يؤثر احدهما على الآخر ، بعد انفصالها طالما كانا على اتصال ببعضها ، مين قبل . فاذا ما سقيت فتاة عصت الحب وتمردت على شريعته ، شراباً فيه شيء من اثر الحبيب ، لن تلبث هذه الفتاة ان تلتهب عاطفة نحوه وتشتعل غراماً به بعد برودتها الاولى .

وكان المماصرون ؛ اذ ذاك ؛ يعتقدون بتأثير هذه القوة الخفية التي تدعى عنسدهم Mana ؛ وهي عبارة عن اثر غازي او روحي ينبعث من اجسام السحرة .

اما علماء اللاهوت ، فكانوا يسقطون من حسابهم هذه التعليلات الخرقاء ويعزونها بدورهم بالاحرى ، الى عسل ابليس الذي كان يتلاعب كا يشاء بارادة السحرة الشريرة . وقد عكس بعض هؤلاء السحرة من بعض خفاف العقول ، المراسم الدينية المعمول بها في طقوس العبادة . ساعدهم على هذا ما يقوم من شبه بين بعض طقوس الاسرار الكنسية وعادات السحرة واعرافهم من حركات وسكنات واشكال رمزية اناطوا بها قدرة على إتيان النتائج المتوخاة من هذه المراسم . فابتلاع رشوش الابالسة ، عادة عكست تناول القربان المقدس . والمناولة الشيطانية التي يحاول معها الساحر ان يحمل اعداءه او خصومه على تناول جسد الشيطان ، من شأنها ان تسبب المرض او الموت ، تشبها او محاكاة لتناول جسد المسبح ودمه ، فيسكب في المرء حياة النعمة غزيرة ومحفظ النفس نقية جديرة بالحباة الابدية .

كل الناس اعتقدوا بقوة السحرة وتأثيرهم البعيد بعد الذي استقر في اذهانهم من صفاتية هذه الطبيعة الساحرة المسحورة ، وراحوا يفسرون مظاهرها تفسيراً مغلوطاً. فحبات الفول تسوده بعد انقضاض الصاعقة ، والهواء المؤين يكتسب رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، بما يبعث على الاعتقاد ، وبالتالي على القول ، بان شحنة الصاعقة كانت مسحورة ، مؤذية او ان صديقي خالداً الذي كان متخفياً في الشجرة عند سقوط الصاعقة ، كان السبب الحقيقي ، مثلا ، لهذا الحادث المؤسف . والكاب الذي كان محمولاً على عربة تراه اختفى ، بلمحة طرف ، وهو بلون السود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جارتي ، السود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جارتي ، الملا تصاب بالقرح ، فقد راحت ولا شك فريسة ساحر .

وكان السحرة، هم على مثل ما وصفنا من عقيدة واعتقاد ، اناسا قسدت ضمائرهم ـ تر مد الهين من رؤيتهم للاذى الذي ينضحون به . و كثيراً ما كانوا مرضى لسبب من الاسباب ، تعود عليهم مسؤوليته . ومن الحالات التي تلبسها السحرة حالة من راحوا فريسة الهستيريا . وكثيراً ما راحوا بتأثير من الايحاء والقضاة الذي ينظرون في الدعاوي المقامسة عليهم ، والعذابات التي يسيعونهم اياها، يروون، وقد اخذالمياء والضعف منهم كل مأخذ ، الغرائب والمجائب المدهشة عن تصرفاتهم ، وهي تصرفات كثيراً ما كانت بالفعل اقل بكثير بما أنوا وفعلوا . وهنالك حالات كان فيها المتهمون بالسحر بالفعل ابرياء ، فيضطرون ، تفاديا منهم لما يستهدفون له في حالة اعتصامهم بالصمت والامتناع عن الاعتراف ، من عذابات يخضعون لها لحلهم على الاقرار ، لاختراع اشياء لم يقترفوها قط ، او لسرد وقائم يستنبطها الخيال ، تجنب منهم لهذه الاشراك ينصبها لهم اعداء بيتوا لهم الشر ، فكانوا يعترفون ، وبذلك يحملون المشتكين عليهم الاشراك ينصبها لهم اعداء بيتوا لهم الشر ، فكانوا يعترفون ، وبذلك يحملون المشتكين عليهم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر ، كان عليهم هم ايضا ان يعترفوا بها والا استهدفوا لعذاب ألم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر يغذي في الناس استمرار الاخذ بعادة السحرة . فالسحر ومخاطبة وهكذا كان الاعتقاد بالمناهب الروحانية كل هذه وما شاكلها ،حالات مرضية تقرب من الجنون ، تبدو على الاجسام الضعيفة البنية او الضعيفة العقل .

لا شك أن القائلين بالافلاطونية الحديثة واتباعهـــا هم الذين هيأوا لظهور الووح الوياضية هذه الذهنية ، الجيديدة . قد يكون مثل هذا الوضع نشأ عين تلاقي النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذه الفترة بالذات التي انكمشت فيها الحركة الاقتصادية ولا سيا اسمار المواد وقامت فيها صموبات عديدة في وجه المشروعات التجارية ، والصناعية . فليوناردو ده فنشي الذي اخذ بمبادىء الافلاطونية الحديثة ، تدرب في مشغل او مرسم اندرم فيروكيو ، هذا المرسم الذي كان كغيره من مراسم الرسامين الفساورنتيين ، في ذلك العصر ، ضرباً من ممهد للصنائع والفنون ؛ تدرس فيه الرياضيات وعلم المناظر ، ونحت الحجـــارة وتقصيبها وصب البرونز وافراغه ، وفن التخطيط الهندسي ، وتحصين المدن وبناء الطرقات ، وحفر الترع والاقنية ، تلتقي فيها الوان من طوائف الفنانين . عاش ليوناردر دم فنشي ردحاً من الزمن ، في مدينة ميلانو حيث احتشد الى جانب لودوفك لو مور ، عدد من المندسين يتماطون تشييد الحصون وبناء الترع . وقد رسم بيده عدداً كبيراً من هذه الآلات التي اقتضاها القيام بهذه الاعماله . وقد كون هذا الفريق من رجال الفن ، على اختلاف مناصبهم ٤ صورة عن الكون ٤ تختلف كلياً عن الصورة التي وضعها له الكلاسيكمون أو أو البدوانيون . فالواقع المتحيز القائم ، هو حقيقة رياضية . • لبتنكب عن قراءة ممادئي هذه من لم يؤت روحاً رياضية ۽ .

فليس في العالم من معرفة موثوقة لعلم من العاوم الطبيعية ، ولا لهذه العاوم التي لا تعول

على الرياضيات، و و ليس من بحث علمي يستحق ان يدعى علماً ان لم يقم على تجربة رياضية ، . فالنسبة لا توجد فقط بين الاعداد والمقاييس ، بل ايضاً بين الاصوات والاوزان ، والاوقات والمواقع ، بشكل ما او على قدر ما . . . فالعالم كله ، والحالة هذه ، يقوم عـلى الحساب ، ومبـدؤه القياس والوزن ويمكن تعليله وشرحه برده الى سلسلة من النسب الرياضية .

حاول ليوناردو ده فنشي تحطيم العالم الارسطاطاليسي فقد رفض رفضاً باتاً التسليم بالقول ان الارض هي محور الكون و . . . فالارض ليست نقطة الدائرة في نظامنا الشمسي كما انهسا ليست في منتصف الكون . انها هي تقع بين هذه الاحجام الحيطة بها والمتحدة معها » . فقد قال بمجانسة الاجرام السهاوية مؤكداً ان القمر مشابه للارض وليس فرقداً الفرض منه انارة الارض و وقعب الى اكثر من ذلك قائلا : و لو قام في القمر من نظر الى الارض لوجد ان الارض لرجد ان الارض لرجد الله بان المسب الدور الذي يلعبه القمر بالنسبة لها > فهي بدورها تضيئه وتنيره » . وقد يكون قال بان الشمس هي محور الكون > بعد ان شهد : و ان الشمس ثابتة » .

كذلك هدم ده فنشي نظرية الجوهر والنوع . فاساوبه في التفتكير ، اسلوب العامساء الذين جاؤوا بعده ، امثال غاليليو ، في كل ما يتصل بالزمان والفراغ والكتلة والطاقة . فالثقل ، في رأيه ، ليس جوهرا بل هو نتيجة الحركة . كذلك رأى انه ليس من عناصر ثقيلة او خفيفة بذاتها . فالوزن او الثقل والخفة ليسا جوهرا ، ولا من صفات داخلة في صميم الجوهر ، بل بجرد قوى عارضة ، سببها التجاذب او دفع العناصر بعضها لبعض . فهي نتيجة ترابط وعسلاقات . هذا هو بعينه نظر العلم الحديث اليوم .

فني الوقت الذي كان فيه ليوناردو ده فنشي يدون شواطره العلمية هذه ، كان طالب من اصل بولوني او الماني يدعى نيقولا كوبرنيكوس يسجل اسمه ، عام ١٤٩٧ ، في جامعة بولونيا. لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فر اره (١٥٠٣) فالى بادوا ، (١٥٠٤ سر لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فر اره (١٥٠٣) فالى بادوا ، (١٥٠٤ سر ١٥٠٠) وقد عرف عنه تبحره بعلم الحيثة بحيث تمين مساعداً تعنياً لدومنيكو ماريا ده نوفارا استاذ القانون اذ ذاك ، والطب وعلم الفلك . وقد درس كوبرنيكوس تحت ادارته وتوجيهاته افلاطون وتضلع ، على الاخص ، من كتابه : طياوس ٢iméa سوي يتناول بالدرس الطبية في مظاهرها المتنوعة . ففي الحوار الذي تدور عليه مادة الكتاب، نرى افلاطون كا رأى الفلاسفة الفيثاغوريون من قبل ، ان العلم هو عبارة عن اعداد ، كا ان الرياضيات في نظرهم ، ليست سوى حسين هندسية . فالحساب، وهذه المادلات النسبية التي نعبر عنها اليوم بطريقة جبرية ، الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ . ومن اعداد الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ . ومعادلات وعلمت ان العالم باسره يتركب من اعداد هنا أطلت الفكرة الفيثاغورية والافلاطونية التي قالت وعلمت ان العالم باسره يتركب من اعداد ومعادلات وهكذا توصلوا الى النزعة الذرية المندسة .

يجم من هذا كله امور في غاية الأهمية . أن أحسن برهان لاثبات صمعة قضية ما ، في نظر

المهندس ، هو ما كان في غاية البساطة اي ما يمكن التعبير عنه باصغر عدد من المقدمات ، وباقل عدد من الكلمات . ان ابسط هذه الادلة هو اجملها على الاطلاق . والحال ، فالمدى الهندسي هو ، في نظر الفيشاغوريين والافلاطونيين ، المدى الحقيقي وليس المدى المثالي او الذهني . وعلاوة على ذلك ، ان الاجسام تسقط على خط مستقيم كما ان الاشعة الضوئيسة ، تنتشر هي الاخرى ، بخط مستقيم . ولذا راح الفثياغوريون والافلاطونيون يعتقدون ان الطبيعة اساسها مبدأ البساطة . كذلك نجد عند هؤلاء المفكرين جميماً الاوليات التالية : « الطبيعة تتبع دوماً اقصر الطرق» « الطبيعة لا تأتي شيئًا عبثاً » . « الطبيعة لا حشو فيها ولا نافل ، ولا هي بحاجة الى ما هو ضروري لها » . كل هذه الحقائق اثبتها بحرفيتها الفلاسفة والعلماء الطبيعيون في مساعلوا وكتبوا ، كما نجدها عند اتباع الفيثاغورية الحديثة والافلاطونية الحديثة . فقد يكون فوفارا على علم بنها ، كا ان كوبرنيكوس تشبع منها ، ولا شك في ذلك .

قد يكون نوفارا لقن كوبرنيكوس نظرية الكون الفلكي الذي يسوده ويتحكم به تناسق رياضي وانسجام كلي، اذان تركيب العالم انما هو تركيب رياضي، وبين تركيبين رياضيين اصحها هو اجملها . وعن طريق نوفارا ، وصلل الى كوبرنيكوس تأثير نيقولا ده كوس الذي كان كردينال مدينة بركسن كا تأثر به ايضاً ليوناردو ده فنشي . ويرى نقولا ده كوس ان نظرية الاعداد هي العنصر الاساسي لفلسفة افلاطون . فالكون كله انسجام متنساغ لا نهاية له ، الكائنات فيه نسبها الرياضية . « فالمعرفة هي ابداً مقاييس ، والعدد هو ، في خلد الخالق ، الصورة الاولى للكائنات » .

قد يكون كوبرنيكوس وضع خطوط نظريته العلمية ، منذ عام ١٥٠٦ كا يستدل على ذلك من مقدمة كتابه الممنون De Revolutionibus اي حول دوران الفلك ، وهي رسالة وجهها الى البابا بولس الثالث، وقد تعهدها بالتعديل والتطوير بيناكان يعمل رئيس كهنة فرونبورغ. فرغ كوبرنيكوس من وضع كتابه و حول دوران الفلك ، عام ١٥٠٣ ، وخسلال هذه الفترة كان كوبرنيكوس قد وضع في التداول ، بين ايدي بعض الخاصة من اصدقائه ، كراساً صغيراً بعنوان و Commentariolus ، بسط فيه الخطوط الكبرى لنظريته العلمية. وقد بلغ خبر هذا الكراس، مسامع البابا، منذ عام ١٥٣٣ ، بينا كتابه De Revolutionibus orbium Cee Les tium بينا كتابه العملية . وقد بلغ خبر هذا الكراس، مسامع البابا، منذ عام ١٥٠٣ ، بينا كتابه العلمية . المادول الكبرى لنظرية العلمية .

ويروي لنا كوبرنيكوس بالحرف الواحد، قائلاً: واخذت اشعر بشيء من الانزعاج كيف ان الفلاسفة درسوا ، حتى درجة الاتقان ، كل ما يتصل بادق مخلوقات ارضا ، بينا نرام لا يمرفون شيئاً يذكر عن الحركات التي يقوم بها جهاز هذا الكون الذي ابدعه اقدر المهندسين وامثلهم طراً » . والحال وان اجمل الامور واجدرها بمعرفتنا ، أليست حقاً ، هذه العلوم التي تتعلق بحركات هذا الكون الالهي ، وبحركات النجوم السابحة في القبة الزرقاء وما لها من مقاييس وابعاد وشروق وغروب ، والاسباب الحقية التي تقوم وراء الظواهر الساوية الاخرى

فترسم لنا عنها صورة كاملة . وهل اجمل من هذه الساء التي تحتوي اجمل ما في الكون ? وهذا ما تعلنه عالياً اسماء الساء والأرض ؛ اذ تعني هذه ؛ النقاء والزينة ؛ وتلك كال الصورة . فعسل الفلك ؛ هو ؛ والحالة هذه طليعة فنون الفكر ؛ وهو اخلق العلوم طراً بالرجل الحر » . فهو يكاد يكون موضوع كل انواع الرياضيات: كالحساب والهندسة والبصريات وعلم هيئة الارض ومساحتها ؛ والميكانيكا . وكما انه من خصائص العلوم النافعة ان تؤدي بالعقل البشري الى ما هو احسن وافضل وان تجنبه الشر والرذيلة ؛ كذلك باستطاعة عسلم الهيئة ان يحقق اكثر من سواه ؛ كل هذا ؛ بالاضافة الى المتعة التي يوفرها للمقل من من الناس لعمري ؛ اذا ما نظر بالفكر الى هذه الامور التي جاءت على خير نظام واحسن ترتيب ؛ وفقاً لما رسمته العناية الالهية ودبرته ؛ لا يرى نفسه ؛ بعد مراقبتها مراقبة مستمرة ؛ محمولاً الى الخير ، وبعد الاقصال الطويل بها ؛ لا يرى نفسه ؛ بعد مراقبتها مراقبة مستمرة ؛

ومع هذا فبطليموس الاسكندري ، صاحب النظرية الفلسفية المشهور ، لم يستطبع التحليق الى هذا العاد ، والارتفاع بفكره الى هذا النظام الالهي . فبالرغم من هذه التمقيدات الغريبة التي تفضي اليها هذه الدوائر الثمانين التي يرسمها الكوكب الدائر على نفسه بينا محور الدائرة يبقى دائراً حول الارض قطب العالم الثابت ، فهنالك حركات ودوران كشف عنها العلم منذ وفاته ، لا تتفق والنِّظام الذي وضعه . فغي الوقت الذي ثبت فيه ان العـــالم مستدير كهذه الاجرام السماوية التي تتحرك فيه ، وان هذا الشكل هو اكمل الاشكال طراً ، اذ انه حجم لا يحتاج الي وصلة و وبمَّا أن الارض ، هي ولا شك في ذلك ، على هذا الشمكل ، كا يظهر من وضع السفينة الآخذة بالابتعاد عن الارض ، فيرى الناظر اليها كيف انهسما تتوارى شيئًا فشيئًا الى أن تختفي تمامًا ، كأنها غابت في الم ع، بينا « حركة الاجرام السهاوية هي حركة دا ثرية بحورية ، اذ ان من خاصية الحركة التي ترسمها الكواكب المستديرة هي ان تدور على نفسها يه. و و بهذه الحركسية بالذات ، وبينا هي تتحرك على نفسها بشحكل سوي ، ترسم الشكل الذي لها ، شكل ابسط الاجسام ؛ حيث لا بداية ولا نهاية » مم أن هنالك على ما يبدر ؛ سركات تخالف ظاهراً هذه الحقائق، لم يتوصل العلم بعد إلى تعليلها وتفسيرها كا يجب. ﴿ وَبِالْعَمَلُ ۚ فَالْسُمَسُ وَالْقَمَرُ يَبِدُوعَلِيهِا أنها يدوران تارة ببطء اكبر ؛ وطوراً بسرعة اكبر . اما الكواكب السمارة الحنسة الاخرى ، فيبدو لنا منها في حركتها وكأنها تعود القهقرى ٬ وتمر بفترة توقف بسين دورتين ، ٬ مل منالك ٬ لعمري اي زينغ او عدم انتظامهن اي شكل في قدرتها على الحركة ، اواي تنبير ماني الكوكب المتحرك على نفسه ? و فالمقل يأراجع مرتمداً أمام هول هذين الفرضين ، لانه ، ليس مسسن اللائق قط ان نذهب بالظن الى شيء من هذا في هذه الاجرام السياوية التي جاء تكوينها عسل احسن ما يكون من نظام وترتيب ۽ .

« ولذا كان لا بد ان نفارض « بان حركاتها الملساوية تبدر لنا وكأنها غير متساوية » لارخ « الارض ليست محور هذه الدوائر التي ترسمها الكواكب في دورانها ». « وهكذا ، فالكواكب تبدو لنا احياناً على مسافة قريبة من الارض وطوراً على مسافة بعيدة ، وتظهر لنا حركاتها هذه على هذا الشكل عندما تكون قريبة جداً منا اكثر منها بعيدة . فالحركات المتعادلة التي ترسمها هذه الاجرام السهاوية ، تظهر اذا ما نظرنا اليها من ابعاد مختلفة ، وكأنها حركات غير متساوية في اوقاتها » .

ليس ما يؤكد قط ، بعد هذا ، ان الارض هي ثابتة في وسط هذا الكون، وذلك و لأن كل حركة محلية ظاهرة تنجم اما عن حركة الجسم ، موضوع الرؤية ، واما عن الحركة التي يخضع لها الرائي او المشاهد او عن حركة متفاوتة لدى الطرفين » .

و * الحال ، ان هذه الحركة المحورية او الدائرية تبدو لنا رؤيتها وتتمثل على احسن وجه ، الذا ما نظر اليها من الارض؛ فاذا كان للارض شيء من هذه ، بدت الحركة في الاجرام الواقعة خارج الارض فتسير هي وراءها بالسرعة ذاتها ، الما باتجاه معاكس ؛ وهذه هي في الدرجية الاولى حركة الارض اليومية . وهذه الحركة تبدو وكأنها تجر معها الدنيا بكاملها ، باستثناء الارض والاجرام الواقعة على مقربة منها . والحال فلو سلمنا جدلاً ان الفلك ليس على شيء من هذه الحركة على الاطلاق، وان حركة الارض تتم من الغرب الى الشرق، واذا ما دققنا النظر مليا في ما ينتج عن ذلك بالنسبة لما يبدو لنا من شروق الشمس ومغيبها والقمر والكواكب الاخر، نجد ان الامور هي على مثل هذا الوضع ، . وهذا هو بالذات ما ذهب اليه بالفعل ، من قبل ، الفيثاغوريون ، امثال : هير اقليديس وأكفانتوس ونيكاتوس السيراقوزي .

كذلك و اذا ما راح احدهم ينفي ان تكون الارض تحتل مركز الدائرة في هذا الكون ... وراح يمتقد ومن جهة اخرى وان حركات الكواكب تبدو وكأنها غير سوية ومع انها منتظمة غاية الانتظام بالنسبة الى محور آخر غير محور الأرض امكنه والحالة هذه و ان بأتينا بتفسير لما يرى من عدم انتظام وعدم استواء هذه الحركة ولا يكون غير معقول وهذا هو رأي الفيلسوف الفيثاغوري فياولوس الذي قال بان للارض حركة رحوية لانها تدور على نفسها وهي بالتالي كوكب من هذه الكواكب

والحال ، فكل هذه الشواذات التي تبدو لنا في حركات النجوم يمكن تعليلها وتفسيرها بشكل اقرب الى الطبيعة تبدو معها الاشياء اكثر وضوحاً وانتظاماً وانسجاماً، اذا ما سلمنا بان الشمس هي الثابتة في وسط هذا الكون الشاسع الذي يحده ، مع ذلك ، انما على ابعاد لا تقاس ، سجوم نجوم ثابتة تتسعلكلشيء كا تتسعلنفسها، دوان ابتداء من هذه الكرة الارضية هنالك اجرام تدور حول الشمس هي الكواكب السيارة، فترسم الاولى من هذه السيارات ، وهي زحل ، دورة حول الشمس تتم في من سنة ويليه المشتري الذي يتم دورته في ١٢ سنة ، ثم المريخ في سنتين، وتأتي في المرتبة المرتبة الرابعة من هذه السلسة ، الدورة السنوية التي تعم خمنها الارض والشمس. وتأتي في المرتبة الخامسة

الزهرة التي تكل دورتها في ٩ اشهر ، والمرتبة السادسة هي لعطارد الذي يتم دورته في ٨٠ يرماً . وفي وسط كل هذه الكواكب تقوم الشمس . وبالفعل ، في هذا الهيكل البديم ، من يكن ان يقيم او ان يركز هذا الفرقد في محسل آخر اجمل من هذا الموضع الذي يمكن ان يشع بانواره الى كل مكان ويستضيء الجميع بنوره ? وهذه الشمس ، وكأنها ترتكز الى المرش الملوكي ، هي التي تتحكم بهذه الاسرة من الكواكب المحيطة بها ... ونجد في هذا النظام البديم، هذا الانسجام الذي تبيناه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة، وحجم الكوكب ، هذا الانسجام الذي تبيناه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة، وحجم الكوكب ، وهي نسبة لا يمكن ان نجدها على مثل هذا النحو ، في مكان آخر . . . فليس اكمل واتم لممري، من هذا العمل الالهي الذي خرج من يد المهندس الاكبر ، احذق المهندسين طرا ، وابرعهم » .

بهذه الصورة الجمالية التي رسمها كوبرنيكوس بعد ان قال بتماليم الافلاطونية الحديثة ، وجد نفسه مخالفاً للشعور المام ، ومتعارضاً مع حرفية التوراة ومستع النظرية الجامعية التي احتضنتها الكنيسة . فبنيانه هذا يرسم صورة علمية جديدة للعالم ؛ ويستبدل ؛ اينها استطاع ذلك ، صورة الجوهر بالصورة الهندسية . فالصورة الجوهر هو المبدأ او الاسل الذي يجمل من الماء ماء ، والماء الصافي سلسبيلا ، وليس مجرد التقاء ذرتين من الهيدروجين مع ذرة مـــن الاوكسجين . فقد علسّم ارسطو ان لكل كائن «صورة جوهر » ، مبدءًا ، حيث توجد روح . فالماء له شكل جوهري يعطيه سمته المفرّدة. كذلك لكل من الكواكب صورته الجوهر ، هذا المبدأ الروسي الذي يحمل من الكائن٬ ماهوعليه٬ ويعطي كل فرد الحركة التي تعمركه. والحال٬ نری کوبرنیکوس بجدثنًا ، فی کل لحظة ، عن «صورة ، ولکن ، حیث کان تلامیذ ارسطو والباعه يتصدون « الصورة الجوهر» كان هو يتصد دوماً؛ بهذا التمبير ؛ و الصورة المندسسة » . فلم تعد عنده ، طبيعة الكواكب النوعية ، ولا ما لها من مادة وهيولي ، هي التي تجملها موضوعاً قابلًا للحركة وتوليها هذا الشكل الكروي. فالكواكب هي كرات ،وهذه الصيغة او الشكل هي اكمل الاشكال واتمها ، وهي التي تجمل الكواكب قابلة لتقبُّل الحركة ، اي الحركة الدائرية او الحمورية . ففي الصورة التي وضمها كوبرنيكوس لنواميس الكون العامة ، نرى العسوراكب لتحرك وتدور على نفسها بكل بساطة ، بقضالما لها من شكل هندسي ، وليس بفضل ما هي عليه طبيعتها . فالاجرام السهاوية هيعلى مثل هذا الوضع: فهي تدور وتتحرك فقط لانها كروية الشكل ، كل شي يتحرك من نفسه بسبب ما له من شكل هندسي . فتفهم العالم اساسه القياس والمدد .

ولكن اذا كانت الاموركا رصفنا وقدمنا و فلا حاجة بعد هذا ، وللمحرك الثابت ، الذي يفرض ارسطو وجوده ، وبالتالي لله الذي يولي و الدفع ، الاساسي ، هذا الدفع الذي ظن به فلاسفة جامعة باريس. فلا لزوم ، بعد هذا و لعقول الاجرام السياوية ، وبذلك تفقد الاره الى الابد ، ما ميزها به عقل الانسان مجانا ، من خسائص ، ولم يَعدُد لها ، بعد هذا ، من كيان ذاتي ، مستقل، ينتصب في وجه الاجرام السياوية ، كمالم قائم لذاته ، فلها ما للكواكب الاخرى من حركة رسوية ، وتخضع مثلها للقوانين ذاتها ، فهي تواف مع الكون كلا متجانساً . فالارحل لم

تعد مجور الكون ونقطة الثقل فيه ، وهذا الكون لم يعد يتحرك لها ومن اجلها . وهكذا حطتم كوبونيكوس هذا الكون الارسطاطاليسي الذي كان يوماً ما السر المقلق كا تبدئ من خسلال التوراة . فبهذه الصورة الرياضية التي رسمها للكون وطلع بها على العالم ، قلب بها ظهر الجن ، لهذه التراكيب الكوسموغرافية القديمة وضرب بها عرض الحائط ، وبذلك مهد السبيل لظهور كبار علماء الفلك في المصر الحديث ، امثال : كبار وغاليليو ونيون ولا بلاس ، فاطل علينا المفهوم الجديد للرياضيات . فالكون لم يعد سوى مجال هندسي فسيح الارجساء والرياضيات مفتاحه . والشيء الوحيد الذي بقي على الانسان الكشف عنه والظفر به هو ان يتوصل الى ما د للوظيفة » من مفهوم ، فيصل منها الى نواميس الحركة .

السياسة ومنهومها الجديد؛ مكيافلي اخضع الفلاسفة المدرسيون السياسة ، لاحكام الدين ، فسموا جاهدين ، للوصول الى نظام سياسي حر عن طريق عسالم مسيحي ، واشتراع خير القونين الزمنية لتأمين رقي الفرد وضمان تقدمه الروحي في مدينسة الله هذه ، خاضعة لناموس الانجيل ولمقتضيات اخلاقياته . امسا الفلاسفة و الانسانيون ، في ايطاليا ، خلال القرن الخامس عشر ، فقد جعلوا السياسة في خدمة اخلاقية تعمل لخير الانسان وتتهض بالمثل التي يتشوق اليها . فقد راحوا يبحثون عن خير الرسائل التي تمكنهم من اقامة مدينة مثالية كما تمثلها فلاسفة ذلك العصر ، قوامها العدل والمساواة ، واحترام التي الانسانية ؟ فقتح مام الفرد بجال الارتقاء والتطور . وراح مكيافلي و هذا الفيزيائي الضال الذي طلع به التاريخ ، يشيد السياسة على تقييم الروابط التي تشد ، يعضا الى بعض ، القوى المادية والادبية ، والمقدرة على التحكم بهذه القوى وتوجيهها ، وصولاً للسيطرة وبسط النفوذ . وهكذا اصبحت السياسة علما الجابيا يقوم على المادية التاريخية غير الاقتصادية .

وهذا التطور يطرأ على التفكير ، نحن مدينون به لرجل أوتي القدرة على دالجم والتوفيق بين حاضر عامر بالتجرية الحية وبين ما تم له من ثقافة معرفة من خلال مطالعاته وقراءاته المتصلة » . فقد عمل مدة طويلة سكرتيراً لدائرة الشؤون الخارجية في الجهورية الفلورنتية التي مسن اختصاصها الاشراف على الشؤون الادارية للموظفين والحكام المتمرسين بالوظائف المامة ، في هذه المدن الخاضعة للجمهورية منذ غسام ١٥٠٨ ، كا تولى ، في هذه السنة بالذات ، سكرتيرية لجنة وحراس الحرية واللامراف عسلي المفترة » الممنية بتنظيم شؤون الدفاع عن الحرية والاشراف عسلي سفراعا وعمليها . كذلك عمل في الوقت ذاته ، منذ عام ٥٥٠٠ سكرتيراً « للجنة الميليشيا التي تتألف من تسعة اعضاء » كا كان، منذ عام ١٥٠٠ المناص للحاكم الاول Gonfalonnier تتألف من تسعة اعضاء » كا كان، منذ عام ٢٥٠٠ المستشار الخاص للحاكم الاول من من عديد .

فبمد ان جرت تنحيته عن هذه الوظائف الرئيسية التي كان يضطلع بهـــــا ، وفرضت عليه

الاقامة الجبرية في قرية صغيرة تدعى سان كسيانو ، انصرف للدرس والتأميل والمطالعة . فقرأ تاريخ تيت ليف وآثار شيشرون التي تبحث في السياسة ، وكتاب السياسة لارسطو ، وكتاب التاريخ لبوليب . وفي عزلته هذه اخذ يهيء لكتابه المشهور : « الامير ، الذين انتهى من وضمه عام ١٥٦٣ كما انتهى من وضع بحث آخر بعنوان : « خطبة حول المرحاة الاولى من مراحل حياة تيت ليف، . وهدف بوصفه من كبار النافحين في الروح الوطنية في ايطاليسا ، الى الناهاء دولة تمثل الشعب الايطالي برمته وتتكلم باسمه وتتولى عنه شؤون الدفاع ومعالجة الشقاء الذي يتسكم فيه .

وأخذ يطيل النظر ملياً في التاريخ كا وصل الينا عبر المؤرخين . و فاذا مسا راح الناس يسيرون مع التيار عندما تتعلق الامور بادارة الدول ونظام الحكم فيها ، او عندما ينظر في امر تعبئة الجيوش وقضايا الدفاع ، فذلك لانهم لا يفتهون للتاريخ ممنى ولا معرفة لهم باصوله كا يجهلون تماماً اتخاذ السبر منه وتذوق طعم ما يقدم لهم من عظات بالغة (خطبة ـ جزء ١) المقدمة) . ويأخذ مكيافلي باستمراض الاسس التي تبنى عليها الدول والدساتير التي تنهض عليها المالك وتتطور وتبلغ اشدها الى ان يماريها الحرم والوهن فتحاول التخلص من الضعف الذي ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن الدهور ، كالجمورية الرومانية والجموريات الاغريقية ، والمدن سالدول الايطالية التي قامت الدهور ، كالجمورية الرومانية والجموريات الاغريقية ، والمدن سالدول الايطالية التي يقامت المدور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة المصور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة ما يتملق بالناحية الاقتصادية والاجتاعية . ولما كان جمهوريا في الصميم ، فقد مر مرور الكرام ما يتملق بالناحية الاقتصادية والاجتاعية . ولما كان جمهوريا في الصميم ، فقد مر مرور الكرام بتجربة الامراطورية الرومانية وبامبر بالة البندقية الاستعمارية .

ولما كان قد وقع تحت تأثير جامعة بادوا واستلهم الكثير بين نظرياتها التقدمية كا فقد رأى المجتمعات البشرية تتبيع خطأ المجتمعات البشرية تتبيع خطأ سويا في تطورها الساعد وتكاملهسما المعلرد . فالناس يعيشون في اول امرهم ، متفرقين ، في عزاة بعضهم عن بعض . ثم يأخذون دفاعاً عن انفسهم ضد الاعسداء الذين يتربسون لهم الشر ، ودرءاً منهم المخاطر والاوبئة التي تتهددهم الطبيعة بها ، وهي كار ، يلمون شعثهم كشك متراصة ، ويحمون شعلهم صفا واحداً . واذ ذاك ، تطسل عليهم مشكلة القيادة ، فيختارون من بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيهم :اناسا اشداء عرفوا بالشجاعة وألاقدام . وبعد ان يطلع عليهم بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيهم :اناسا اشداء عرفوا بالشجاعة وألاقدام . وبعد ان يطلع عليهم اخلاقيات و فيصدرون شر انعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحيائية . وفي سبيل العمل اخلاقيات و فيصدرون شر انعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحيائية . وفي سبيل العمل

لهذه الغوانين وتطبيقها بعدل، يختارون لهم جماعة اتصف اصحابها بجصافة الرأي والحجى وحسن التدبير . وبدلاً من رجال حرب ، يختارون لهم ملكاً يشرع لهم نظاماً ملكياً ، شوري. وما تكاد تمر بضع عقود حتى يشتط الملك فتأخذه الرغبة باستدامة الحكم في ذربته ، فيخرج على الشوري ويحيل نظام الملك نظاماً وراثياً يعمل بدء ذي بدء ، في سبيل خير المجموع . وبعسد لاي من الزمن يتوالى على الحكم فيه بضعة اجيال يأخذ الملك بالتفكير بمصالحه الحاصة ويمضى في استغلال الرعية على ابشيع وجه ، ويصبح فيها طاغية جباراً يسيمها الواناً من الضغط البغيض في سبيل ابتزاز اموال الناس . وإذ ذاك يشمر زعماء الاسر الكبيرة في البلاد عن ساعد الجد وقد المتف الشعب سولهم ، فيعلنون الثورة ويعتنقون معها النظام الديمقراطي ، فيسير هذا النظسام في بدء امره ، ونصب عينيه المملحة العامة ، الا أنه لا يلبث حتى يدب اليه الفساد باسرع بمسأ دب في النظم السياسية الاخرى التي تعاقبت عسلى الدولة ، من قبل ، فيستحيل الى نظام ديماغوجي بغيض يضرب بحقوق الخاصة عرض الحائط . ويسخر الحكام في سبيل اشباع شهوته في الحكم و يُعدّر عن عن المصلحة العامة مؤثراً عليها مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية المباشرة لا يبالي بالستقبل ولا يلوي على مصير . واذ ذاك ، تطل على الحكم شعوب الدم الحار ينبض قوياً في عروقها ، فلا تلبث ان تستأثر بالامر ، بعد ان تكون طهرت الارض بقوة السلاح ، من هذه الاشباح الحنيفة التي روعت الشعب واقلقت راحته . ولعل الوسيلة الوحيدة لايقافالانحدار فالانهيار الحتوم او أقله لتأخير ساعته ، هي في قيام رجل له من العبقرية الادارية والمقدرة ما يستطيع ممه وضع حد للانزلاق الفتال وذلك بإنشائه، في البلاد، نظاماً يشترك فيه دعاة الملكية وبمثلو الارستوقراطية ونواب عن الشعب ، والسبيل الوحيد لرد المقدور والحؤول دون غزو اجنبي البلاد يأكل فيها الاخضر واليابس ، هو قيام رجل مبدع، خلاق ، يعيد نظام الملكية الى الملاد ، من جديد . وهكذا دوالبك .

في هذه الدورة لنظم الحكم في الدول يستمرض لها مكيافلي، لا بد من الوقوف لدى وضعين متميزين ، عنتلفين هما : حكومة شرعية ، وحكومة قائمة فعلا بقوة السلاح . فالحكومة الشرعية ، هي التي تقوم على تواطن و تعاقد ضمني بدين الحكام والحكومين . يترتب على هذا النوع من نظم الحسكرية والاعتاد على بيت المال في النظام الملكي الفرنسي ، ان يترك المملك ، حق استخدام المقوة ، المسكرية والاعتاد على بيت المال في توطيد اسباب الأمن في البلاد. ويجب ان تسن كا منها ، في قرنسا ، مثلا ، قوانين تجمل الملكية الشخصية والحرية الفردية بحمى القسانون . كذلك يجب ان تقوم هيئة تشريعية ، كمجلس ممثلي البلاد في باريس ، يسهر على احترام تطبيق مضمون هذا المقد بروحه ، ويترتب على دين الدولة الرسمي ان يكيل الى من يعهد اليهم القيام بالخدمة الروحية من الكهنة وخدام الهيكل ، العمل لدى المواطنين لحملهم على القيام بواجب تهم المدنية خيم على القيام بواجب تهم المدنية خيم الميثات المنتخبة ، يجب ان تكون مدن نصيب فريق من افرياء البورجوازية المعتر في من الميثات المنتخبة ، يجب ان تكون مدن نصيب فريق من افرياء البورجوازية

ولا سيا التجار بينهم ، بحيث ، يحال دون الاتراء غير المشروع من قبل البعض فيصبحون بما لهم - نفوذ ، خطراً على النظام . كذلك يتوجب ان تقوم هيئة تتمتع بصلاحيات خاصة يمهد اليها النظر في الجرائم التي تهدف المس من الدستور . فاذا ما استهدفت الدولة خطر الوقوع في قبضة احزاب يهما حمل احد انصارها الى الحكم ، كان لا بد لها اذ ذاك من قيام دكتاتور يضطلسم بهمة اصلاح الدولة وفقاً لروح دستور البلاد والقوانين الممول بها ، فيحدد بصورة واضحة ، طبيمة الدولة ، ويهيء لها الظروف المؤاتية العيش السلم الكريم . اما اذا اشتدت المنازعات وتماظم شأن الغوضى واضطرب حبل الامن في الداخل ، ترتب على الهيئات المنتخبة ان تعيد وتماظم شأن المكرة ، المالكية ، القادر وحده ان يفرض احترام الحريات المامة ويصون حرمة القانون.

اما انظمة الحكم التي قامت على اغتصاب السلطة قسراً وعنوة عملى الملك الا يتورع قط من رد الامور الى نصابها ، مها كلفه الامر من تضحيات عزيزة ، ومها اقتضاه من ثمن غالي ، والا اضطر فيا بعد لمواجهة ما هو ادهى من ذلك . عليه مع هذا ان يحترم حقوق الملكية الفردية وان يحافظ على ما للمرأة من حرمة بين المواطنين . و فالناس يهون عليهم تنساسي موت آبائهم واعزائهم ولا يتناسون ضياع الملاكهم الموروثة » . من الضروري اصطناع الفضيلة والاعتصام بالمكر . ثم ، بعد هذا كله ، هل من غضاضة قط ان يعتصم المرء ، عند الاقتضاء ، بالكذب والافتراء والحنداع والحنث بالقسم المفلظة ، والتجاوز عن الوعد المقطوع ? فالغاية وحدها تبور الواسطة ، ومنفعة الدولة يجب ان تأتي فوق كل شيء وقبل كل شيء . ومن هنا اخذ الفلاسفة النظريون الذين فلسفوا وضع المجتمع ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فكرة مصلحة الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الامير ان يعمل بما فيه خير المصلحة العامة ، والاكان طاغية الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الاغتيال والاغتيال وهنا اخذ مكيافلي يفضل قضية الاغتيال الساسي ويزكسها .

فالملاقات بين الدول ، سواء أكانت شرعية او حكومات بالقوة وعلى المنف ، سداها المنافسة ولحتها الحرب . فالحرب وضع طبيعي في المجتمع ، جد نافعة ، اذ تفضي في النهاية ، الى المختيار الافضل بين الدول ، تلك الدولة التي تقوم فيها خير النظم السياسية ، فتعمر طويلا ، وتحتب لها الغلبة والسيطرة . فالفرض من المجتمعات البشرية هوتاً مين ما يُفضي بها الى تحقيق القوة ، اداة الفتح المثل ، والوسيلة الكبرى التوسع ، وهي هذه الاهداف بالذات التي يترتب على السياسي ان يضعها دوماً نصب عينيه . فعلى الدولة ان تتصرف بسرعة في حروبها مع الخارج ، وان تعتمد سياسة المجوم الرادع ، وان تتنكب عن الحيساد . يجب ان تتوفر لها بجيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية ، فعلى رئيس جيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية ، فعلى رئيس عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء

على قوى العدر ، بكل الوسائل المكنة لديها . ان توازن القوى منصوص عنسه في العهود و المواثق المعاددة . وعلى رؤساء الدول الايتورعوا قط ، والايترددوا ابدأ ، بتجاهل الوعد · المقطوع ، وان يلحسوا تواقيمهم اذا ما اقتضتهم مصلحة دولهم ذلك .

وهذه السياسة التي جمل منها مكيافلي علماً باصول ، تمرضت للنقد والتجريح ، ولو عمل بها وتبنى الاخذ بها كثيرون وعملوا بمقتضياتها . فالاسمساء والحوادث لا تفوت احداً لكثرتها ووفرتها . وقد جاءت هذه السياسة الجديدة تكمل الذهنية او العقلية الجديدة ، وهذه التيارات الفكرية التي جمالت في خواطر المناس ، وهذه الصورة الجديدة التي برزت لهم عمن همذا الكون ، وتبلورت ، على أتمها في مظاهر العقل البشري على اختلاف مناحيها ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لتنتقل ، في خطوطها الكبرى ، الى اوروبا فتنتشر في جميع ارجائها وتسيطر عليها فترة لا تقل عن ثلاثة قرون . وقد تم وضع هذه النظم في القوالب التي استقرت عليها ، على يد الايطالين ، قبل غيرهم ، بعد ان عو للواعل التليد من تراث التاريخ القديم . عليها ، على يد الايطالين ، قبل غيرهم ، بعد ان عو للواعل التليد من تراث التاريخ القديم . فليس من الجالة بشيء ، بعد هذا ، ان نسمي هذا كاللهضة او عصر الانبعاث .

الارضاع الاجهاعية نرى أنفسنا مسوقين بصورة لا تقاوم ، للخوض بحثا في الاسباب والجاري الفكرية الجديدة التي ادت الى ظهور مثل هذه التيارات الفكرية الجديدة . ليس بالمقسود هذا النظر في الحوافز ولا التحري عن الاسباب والدوافع التي أدت الى خلق مثل هذه الاوضاع مما من ظاهرة تستطيع ان تكون سبباً لظاهرة الحرى الا اذا سبقتها وقتت قبلها وكان لها من التفيير والتبديل ما يتفتى تماماً وطبيعة التطور الذي احدثته الظاهرة الثانية ، فجاء تأثيرهما واحداً وتم في المخط ذاته . قلما عثرفا خلال دراستنا للمجتمعات البشرية على حدوث مثل هذا الامر بحيث نستطيع التحدث بمعرفة وتفهم عن اسبابه . فالبحث المزعوم عن الاسباب في التاريح ليس ، في الفالب ، سوى عملية ابدال الاحكام والتصديقات الفلسفية ، كالحكم المثالي الذي يقول بان كل التبدلات انما تصدر عن المقل الانساني الذي يتبدل ويتاون فجأة مع الرقت ، وكالحكم المادي الذي يقرر ، بمعكس الاول ، ان وسائل الانتاج والصراع الطبقي كان عسبر التاريخ الحرك الاول ، والدافع الاكبر . يبقى ان كل هذه الآراء هي احكام عقلية ليس الا .

ولكي نحدد المؤفرات في إيطاليا النهضة ، يجب أن نطبق على الاقتصاد والمجتمعات البشرية والنظم السياسية ، شيئا شبيها بما تم في بعض حقب القرنين الرابع عشر والحنامس عشر في الفنون والمفلسفة والملوم ، هذه المفارنة المنهجية ذاتها ، بشأن هذه الانشاءات والموضوعات التي وقعت خلال المقود ، ١٤٨٠ ... ١٤٩٠ ... ١٥٣٠ ... وقد قادتنا هذه العملية الى التأكيد بان عالما جديدا ظهر في دنيا الافكار والحساسية ، وهل يكن التأكيد ايضا بانه أطل كذلك عالم جديد في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ? نرى معظم المؤرخين الإيطاليين لا يسلمون فعالا بهذا القول . فالذين ركزوا منهم اهتمامهم على الجانب الاقتصادي يتكرون ظهور اي طابع أصيسل او اي

تجدد من هذا القبيل ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، اذ نراهم يملنون انهم لم يمثروا خلال التقصيات التي قاموا بها ، على اي طابع او اسلوب جديد . فها هو النظام الاقتصادي نفسه يستمر على وتيرة واحدة ، مع بعض فوارق كمية لا يؤبه بها . وعلى هذا يجب ان نقيس اليشا السياسة . فالمؤرخون الايطاليون يشماون في فقرة واحدة كل هذه الامارات (signorie) التي طلعت بين ١٣١٣ الو ١٩٢٣ الى ١٥٥٦ وحتى الى ١٥٥٩ . وبما انهم تبينوا صفات جديدة واضحة بدت على الفن والعلم ، والصورة الجديدة التي رسموها للمسالم ، وجب ان نستنتج ان همالك فراغاً شاغراً بين هذه النشاطات على اختلاف الوانها والنشاطات الاخرى التي المنا اليها . هذا شيءله اهميته الخاصة ، اذ ان المؤرخين يعملون على اساس شيء مسكلتم به وهو ان النشاطات البشرية المختلفة تتفاعل بعض وتنفيل مما بحيث تؤثر الواحدة بالاخرى . فنحن مسع كل هذا امام حدس اولي مسلم به ، تؤيده بعض الوقائع كا تدحضه وتنفيه وقائع اخرى ، من حجهة ثانية . قد يكون وقع شيء من الانقملاع وعدم الاستمرار بين المجتمعات البشرية ، الا انه يتمذر ، مع ذلك ، اصدار حكم نهائي حتى في ما يتملق بايطاليا نفسها ، في مطلسم القرن السادس عشر ، اذان علية المقارنة المنهجية هذه بين الاقتصاديات والمجتمع ، والنظم السياسية يتمدر ، مع ذلك ، وبين ما تم منها في الماضي وما طلع منها في المصور التالية ، لم تستخصل

فكل ما يمكن عمله الآن هو ان نكتفي بتسجيل الوقائع التي يصبح اعتبارها ، بصورة معقولة ، ظاهرات رافقت هذا التبدل الحاصل في المقلية واساليب التفكير ، وان نتبين فيا اذا كانت هذه المفارقات السياسية والاجتاعية والاقتصادية التي نشاهدها بدين المهالك والامارات الايطالية ، لا تنم عن تباين وفوارق في مناحي التفكير ، تنبيء برجودها ، هذه الانجازات التي تمت وظهرت في مجالات الفن والادب والملم .

فغي مطلع القرن السادس عشر ، نرى روما تحل على فاورنسا وتأخذ منها مر كز العدارة في حركة النهضة ، فتصبح بحور البعث الغني والذرقي في البسلاد . فالمن الروماني والإنسان الروماني اصبحا الناذج التي يحتذى حذوها في إيطاليا باسرها ، كها أن أيطاليا اصبحت بدورها الغرار الذي سارت عليه أوروبا . ومئذ ذلك الحين تصبح روما قبلة الفنانين ، وملتقى الادباء الايطليين فيفد عليها رفائيل من مدينة أوربين ، وببيو من البندقية ، وكستفليوني من أوربين أيضا ، وميكالو أنجلو من فلورنسا ، مجيث نسكاد لا نرى بينهم فعانين وأدباء طلموا من أوروبا نفسها ، فها هو سبب توافدهم على مثل هسمذا النحو يا ترى الاشك أن الثورات المتكررة التي تضرست بها فلورنسا أدت إلى اضمافها وأيهانها . أما السبب الأول ، فهدو ولا مراء بذلك ، التطور العظيم الذي شهدته الدولة البابوية في عهدا ل بورجيا ، مع البابا جول الثاني . من هذه الدولة المفرية ومن عاصمتها روما ، التي أحاط بها من كل صوب ، أمراء مشاغبون وبلديات تسودها الفوضي ، أراد البابوات ، ولاسها البابا جول الثاني منهم ، أن ينشئوا منها دولة اقليمية تسودها الفوضي ، أراد البابوات ، ولاسها البابا جول الثاني منهم ، أن ينشئوا منها دولة اقليمية تسودها الفوضي ، أراد البابوات ، ولاسها البابا جول الثاني منهم ، أن ينشئوا منها دولة اقليمية تسودها الفوضي ، أراد البابوات ، ولاسها البابا جول الثاني منهم ، أن ينشئوا منها دولة اقليمية

مو حدة ، مطلقة الحكم ، عصرية الطابع . وفي هذا السبيل، قضى البابا جول الثاني صدراً كبيراً من حبريته يؤدب ، داعياً ايام للطاعة والولاء ، البسارونات الرومانيين ، كا سعى لاستعادة ما المتزعه من الممتلكات الحاضعة للدولة البابوية ، سمان البندقية ومسلانو وغيرهم من الامراء المحليين . وفي هذا السبيل ، بذل البابا جول الثاني نشاطاً جماً لجمل ابطاليا برمتها وحدة متراصة ضعد الاجنبي المحتل المنتصب لخيراتها . وليجمع الإيطاليين صفا واحداً ويوجههم متحدين ضد البيرابرة . فشل مسعاه بالطبع ولم ينجح الا باخراج الفرنسيين وتوطيد نفوذ الاسبان ، على كره منه . وهذه الجهود الكبيرة والمحاولة الجريئة يبذلها جول الثاني لاعطاء البابوية دوراً وطنياً شاملاً وامبريالياً ، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مضن ، يبذلها البابا جول رغبة منه شاملاً وامبرياليا ، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مضن ، يبذلها البابا جول رغبة منه المحلم السوبرمان ، او بطلاً وطنياً . جاشت نفسه بالعظمة قراح يسعى ما وسعته المحلية لتحقيق الفكرة التي راودت خياله بجمل البابوية الرومانية تبز روميا القدية ، روميا المحلية لتحقيق الفكرة التي راودت خياله بجمل البابوية الرومانية تبز روميا القدية ، روميا المحلية المجمل البابوية المبيرة ، بما تم لها من عظمة وسؤدد ومهابة يضفيها عليها السيد المسيح ونائبه على الارض . ههذا الجهد ، وهذا البذل، وهذا النمطش للمظمة البشرية ، هو من بعض ما جاشت به الافلاطونية الحديثة ، التي ميزت هذه النهضة الانسانية الشاملة .

ضرب جول الثاني بتصرفه هذا تقليداً ذهب بعيداً في التقاليد الايطالية . انتقل الى تموي " أكاداب والفنون البابا ليون العاشر الذي عرف ، بالمعاهدة التي عقدها عام ١٥١٦ ، ان يبعث منتشاط الملكية البابوية في الكنيسة ، كما نزعت نفسه الى إقامة الحكم الالهي او حكومة ظل الله .

وفي هذا السبيل ، استطاع البابا ان يستخدم كل ما في الدولة البابية من طاقات وقدرات ، حمد الدولة التي تألفت قبل كل شيء من البلاط الذي يضم نحوا من ٧٠٠ شخص ، يو منوب تصحت سلطة البابا الشخصية ، المطلقة ، الخدمات العامة ومسؤوليات الحكم ، بما لها من منظمات وحيثات . فالى جانب اولاد اشقائه واعضاء اسرته ، وكتبة سره والموظفين ، هنالك طفمة من رجال الدين ، والاشراف والفنانين والصناع ، دوماً على استعداد كلي لتنفيذ ما يعهد اليهم من مهات وخدمات وتعليات . أوليست روما جنة غناء تفيض نعمى وثراء ، يقصدها العديد من الاغراب النوابغ ، طلبا للعيش الرغيد والثراء السريع ، يتحرقون شوقاً لشرف العمل في الميلاط البابوي ، او تصيداً لامتيازات واعفاءات كنسية في اي صقع مسن اصقاع الارض ؟ والمعسن في هذا البلاط عيد دائم . والى هذا ، فلكل كردينال من كرادلة الكيسة هو الآخر يطانة الكردينال فارنيز ، حوالي عام ٢٠١٣ – ١٥٢٧ من ٥٠٠ اشخاص ، وحاشية الكردينال يعلى من ١٥٧ شخص . كذلك لكل من هؤلاء سيزاريني من ٢٠٥ شخصا ، والكردينال اورسيني من ٢٠٠ شخص . كذلك لكل من هؤلاء على مثل هذه الشخامة من الاتباع والحشم والحدم التي توفرت الكرادلة . ومع هذا ، فحاشية على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والحدم التي توفرت الكرادلة . ومع هذا ، فحاشية على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والحدم التي توفرت الكرادلة . ومع هذا ، فحاشية حو منيكو مستيمي لم تكن لتقل عن ١٧٠ شخصاً ، بقطع النظر عن الضيوف الطارئين .

والبابا الذي يحكم روما بواسطة الحكردينال نائبه ، والذي يؤمن لها الحياة بواسطة بلاطه ، عده يجد في الرومانيين خير عضد لسياسة العظمة والابهة التي ينهجها . و فالشعب الروماني ، هذه الفئة الصغيرة من النبلاء المسجلة اسماؤهم في سجل الجلس العام ، بعد استثناء هؤلاء الاشراف الاقطاعيين القدامي منهم ، يعتبر نفسه الوريث الشرعي لروما القدية ، ولذا حمل كل عضو من اعضاء بجلسها البلدي و لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هـنه الحروف الرمزية : عضاء بجلسها البلدي و لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هـنه الحروف الرمزية : كل ان الشعب التي تختصر العبارة Senatus Populusque Romanus اي بجلس الشعب الروماني كها ان الشعب اعتبر دوما روما و المدينة » كان بالشعب اجمع يهفو للمسلى والعظائم . والعالم المسيحي نفسه يغذي هذا الشعور العارم ويزيده تأججاً واضطراماً. فالحجاج والسياح وكل من جاشت نفسه من الفنانين بالطموح ، يتوافدون على روما التي تعيش عسلى استغلال الوافدين واعتصارهم ، مدينة تحفل بالنبلاء واصحاب الوظائف الكنسية والحسدم والحشم ، تكاد العين لا تقع على اي ممثل للبورجوازية بينهم .

والآثار القديمة تمثل جانباً هاماً من الدور الذي تلعبه روما . فهي مسن اغنى بقاع الله والماديات، ومن اوقعها اثراً في النفوس طراً . وقد ازداد الاهتام البالغ بالتنقيب عن هذه الآثار منذ حبرية البابا اسكندر السادس حيث عثر المنقبون في رابية البلاتين ، على و المهرجين، Grotesques . وفي عهد البابا جول الثاني قامت حفريات علمية، منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال و لاوكون Laocoon » و « زهرة » الفاتيكان ، وتمثال كليوبطرا . ومند ذلك الحين ، اخد الامراء الكرادلة يحرصون جهدهم ، على تكوين مجوعات أثرية لهم بلغت شهرتها ارجاء اوروبا جماء . وفي سنة ١٥٥٥ ، بلغ عدد هذه المجاميس الفنية ٥٥ مجموعة في رومسا وحدها ، توافد الفنانون من جميع الاطراف ليمتموا الانظار برؤيتها والتفرج عليها واستلهام وحدها .

وفي سبيل تقوية سلطانه كملك لدولة اقليمية بدلا من دولة مدينة ، راح البسابا ينمي موارده المالية ، ويزيد من دخله . و فالرسوم الروحية ، التي كان يفرضها على العالم المسيحي خفت مداخيلها جداً منسنة الانفصال الكبير (١٣٧٨ – ١٤٢٩) والواردات الرئيسية التي امكن للبابا التعويل عليها ، لم تمد التبرعات التي تجود بها المسيحية جماء ، بل واردات الدولة البابرات . ولذا كانت الضرائب المباشرة وغير المباشرة منها تتضاعف باستمرار . واخذ البابرات يعورون ، اكثر فأكثر ، على الرسوم التي كانوا يستوفونها من بيع وظائف الدولة ومس نظام التعويل النقدي العام . فبيع المناصب الكنسية والاعتاد على اصحاب المسارف ، ثم انشاء نظام المسارف ، ثم انشاء واسعاب المسارف ، ثم انشاء واسعاب المسارف ، ثم انشاء واسعاب المسارف ، ثم المال المال واسعاب المسارف ، تلك كانت اهم الموارد التي كانت تغذي صندوق الدولة البسابوية ، الى جسانب بعض الاحتكارات الرسمية كاحتكار الملح ، مثلاً والشب المستخرج من مناجم تولفا العنية ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع كقاصر في صناعات النسيج ، في اوروبا .

الا ان الاعباء الباهظة التي اقتضاها تشييد الابنية الضخمة التي ارتفعت في روما إذ ذاك و و و و الادب و حملته ، والدفاع عن المسيحية ضد تهجمات الاتراك و تعمدياتهم ، والحد من تمرد اللوئزيين وعصيانهم الديني ، كل هذه الامور فرضت على الدولة البابوية اعبساءً مالية باهظة ارزحتها .

لعبت البندقية ، بعد روما ، الدور الاكبر ، في رعاية الفنون والعلوم والحركة الفكرية ، في جميع أرجاء أيطاليا. فدولة البندقية هي عبارة عن مدينة _ دولة ، الدولة المسيطرة قوامها اصلاً ٢٠٠٠ من سراة القوم واشرافهم ، المولودين من زيجات شرعية ، كلهم اعضاء في الجلس الاعلى Grund Conseil الذين من بينهم ينتقى معظم الحكام وكبار الموظفين. وهؤلاء الاشراف هم من رجال الاعمال ؛ تجار ؛ في الاصل؛ نظروا الى الصنائع والمهن الحرة نظرة انتقاص ؛ ملؤما الهزء والسخرية ، فانزلهم الناس في اوروبا ، منزلة النبل وألحسب والنسب . فالامراء وعظياء الارض في اوروما جماء ، سعوا دوماً ليكونوا اعضاء شرف بين طبقة النبلاء في البندقيـــة . وبالغمل فقد اقتصرت هذه الدولة على عدد اصغر من الرعايا الذين تألفوا من بضع مثات مسن كبار الاغنياء وأثرياء القوم ، سيطروا على الوظائف الكبرى واحتكروها في صلبهم ، بعد ان أمنوا لها منافع مادية سنية لمن كان دونهم مرتبة " في مصاف النبل. ففي نظر هؤلاء النبلاء ، عز دولتهم جهورية البندقية ، ان تكون في الذروة من العظمة والفخامة والسلطان، بحيث تفردر احترامها على الطبقة البورجوازية وعلى هذا اللميم من سواد الشعب في الداخل ، كما تفرضه على اعداء وخصوم و صاحبة الشوكة » Sérénissime في الخارج . من هنا هذه الحفاوة ، وهــــنـا الاهتام البالغ الذي احاطت به مجالي الحياة الفكرية والعقلية . فجامعة بادوا اصبحت فعملاً ، جامعة الدولة ، بين اساتذتها اشهر وألمع اسماء الارستوقراطية في البندقية . ولكن رجسال الاعمال ، هؤلاء التجار ذوو التفكير الواقمي ، الشفوفون بالامور العملية ، المهتمون ، قبل كل شيء آخر ، بالقوة والامور المالية ، المعروفون بفتورهم الديني ، المتحرزون،منالكنيسةورجالها، الآبخذون بالشك والتشكيك كانوا اقل اهتاما بالافلاطونية الحديثةمنهم بتماليم ابزرشد وفلسفة بمبونازي . اما الفن افقد نظروا اليه نظرتهم الى مصلحة عامة الى مرفق من مرافق الدولة يجب ان يذيع عالياً امجاد و صاحبة الشوكة ، وقوتها التي لا تقاوم . ومع ان العاملين عندها في حقل الفن جاؤوها من اوروبا ؟ فقد سيطر عليها ؟ مع ذلك طابع في خاص ؛ هو طراز البندقية ، فن الوطن البندقي ، فن يشعشع بالانوار والالوان ، في مدينة البطائح والغيــاص والرياص . قالرسامون منهم يقتصرون ٬ في بدء الامر ٬ على مدينة البندقية ٬ فيضعون رسوماً متنوعـــة للدوغا ، ولمظاهر الحياة العامة في الاسواق ، والجازات والمعابر ولسفن البندقية وأرصفتها . اما في قصر الدوغا ﴾ الجمل العقائدي لسياسة البندقية ، فكنت ترى الدوغا يحاول التوفيق بين البابا والامبراطور بربروسا ، وهو مشهد ، ان دل على شيء ، فعلى دخول البندقية سياسة أوروبا العليا ٤ هذه السياسة التي اتسمت دوماً بالحفاظ على التوازن بين البابا والامبراطور .

ففي السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، في هذه الآثار الفنية التي وضعها جيوفاني بليني ؛ عام ١٥١٦ ؛ اي في اواخر حياته ، وفي صورة ﴿ العاصفة ﴾ بريشة جيورجيــوني ، وفي صورة و زهرة درسدن ، تطل علينا نماذج جديدة ، للانسان المدى الجديد ، الصورة الجديدة ، وصورة المسيح ، بريشة لوتيتيان في مدينة بريشيا ، وفي صورة والقيامة ، التي وضعها عمام ١٥٢٢ ، يطلع علينا رياضي اولمبي كأنه جوبتير طائراً . فالرسامون يعملون عَـــلى الاخص للخارج ؛ لفريق من الامراء ؛ يسكنون على مقربة من البندقية ؛ امراء آل أستسبه ؛ وامراء آل غونزاغا . ولعل من احرج الازمنة التي مرت بها البندقية ، هــذه الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ – •١٥٣٠ ، هذه الفترة التي تم فسها للبرتغالمين اكتشاف طريق الافاويه والتوابل ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند . ولكن بعد سنة ١٥٣٠ ، نرى الفن يعود الى التجلي والازدهار من جديد في البندقية ، مع جاكوبو سنسوفينو الذي شيدوالمكتبة المرقصية، والهيكل الذي اقامه في مدرسة القديس مرقص وقصر كوريز ، ومع الحقبة التي أشع فيها لو تيتيان. فقد عرفت البندقية بالطبع ان تستغل قدوم الفنانين الرومانيين اليها ٬ وقد توافدوا عليها هربـــاً من الحصار الذي تعرضت له روما عام ١٥٢٧ ، فجاءهـــا جاكوبو سنسوفينو ، عام ١٥٣٠ ، كا جاءها ، لمدة وجيزة ٬ ميكالو انجاو ٬ اثر الهلم الذي نزل بمدينة فلورنسا ٬ فزود بارشاداتــــــــــ وتعليماته الفنية فريقاً من الفنانين البنادقة . فقد تم البندقية أن تتغلب على الأزمة الاقتصادية التي ألمت بهسا ؟ فعرفت كيف تفيد من التوسم الذي طرأ على الاسواق الاوروبية ؛ فياعت اوروبا من الافاويه ؛ بقدر ما كانت تبيمها من هذه التوابل قبل ان يكتشف فاسكو ده غاما المسالك التجارية الجديدة الى الهند والشرق الاقصى؛ بحراً ، بحيث بلغت صادراتها منهـــا مدينتي روان وأنفرس. كذلك. انشأت لها صناعات جديدة . فهي بعد أزَّمة ١٥٣٠ ، اغنى واوفر قوة ، وامنع جانبـــًا ، وأشد بأساً، واطول باعاً ، منها في اواخر القرن الخامس عشر ، وان كان لحق بنفوذهـــــا بعض الغضاضة بعد ان برزت في اوروبا دول لها شأنها . وبما لا شك فيه قط ان البندقية اصبحت بمد السطو الذي تعرضت له روما ، وعلى افر احتلال ميــــــلانو على يد جيش شارل الخامس،وفرض الاسبان حمايتهم على فلورنسا ، الدولة الحرة الوحيدة في كل انحاء ايطاليا ، توافد اليها كل من نجوا بانفسهم من الطغيان الاسباني الذي عانت منه المدن الايطالية الآثمرَين . ويروي كنا شاهد عيان من ذلك العصر : • ان البندقية برزت ؛ اذ ذاك ؛ صورة عن الجهورية الرومانية . . ففي هذا العصر القاتم الذي يكتنفه الظلام ، بقيت البندقية وحدها مشملًا مشماً في كل ايطاليـــا ، والشاعرة الايطالية فكتوريا كولونا تصرح عاليًا وتعلن للهلاً في في احدى منظوماتها الشعرية : وأن أَسَد القديس مرقص وحده يحافظ ، في كل ايطاليا على الحرية العربــقة ، والامبراطورية المادلة » . فهل من عجب ، بمد هذا ، ان يعتري سكان المدينة عاطفة من الزهو وشمور بالمباهاة والفخر ، وان تجيش في صدورهم هزة شعورية لما تم لمدينتهم من قوة ومنعة وعظمــة ، تجلت في هذه الانجازات الفخمة ألق تنبض بالعظمة الرومانية .

بمد روما والبندقية ، نرى دوقية فر"اره تلعب ابرز دور ، بين المدن والامارات الايطالية في مجال الآداب والفنون والعلوم . فدولة فراره هي الامارة التي آلت مقاليـــــــــــ الحكم فيها الى اسرة أستيه Este . فهي عبارة عن مقاطعة صغيرة القَتْسُطِعَت من ممثلكات الدولة البابوية ، ووقعت ضمن الممتلكات النابعة لمدينة البندقية ؛ على اليابسة ؛ فكانت ملتقى الطرقات التي تجتاز سهل بادوا ، هذا السهل الذي اتخذت منه الجيوش الضاربة بمرآ لها . فطلوع الدول وبقاؤهــــا مرتبط بالطُّبع الى حد بعيد ، بلعبة سياسية لبقة ، لحنها سلسلة من المصاهرات، وسداها توازن القوى بين مملكة البابا والبندقيـــة وميلانو ومنتبُو ا وحلفائهم في الحارج: كفرنسا واسبانــا والامبراطور . ولكن هذه اللعبة تنقى ابداً دونما اثر وتذهب هباء " منثوراً، اذا لم تعضدهــــــا " قوة عاضدة ، تمثلت على خير وجه وعلى أمثل صورة ، في هذه التقنيات الحربية التي عرف أمراءً أستيه ان يحققوها ، فجعلوا منها عدة حربية هي خير ما طلع من امثالها في هذه الحقبة . فقد تم للدون الفونسو الاول (١٥٠٥ – ١٥٣٤) اقوى وادق مدفعية في كل ايطاليا ؛ حاول الجميـم ان يستمينوا بها ويفيدوا من فعاليتها . فليس من عجب والحالة هذه ، ان تكون حرفة السلاح في فراره ، خير الحرف وامثل الفنون واجداها . اما الفريق الاجتماعي الذي تحكم بهذه الامارة فقد كان طبقة من النبلاء احترفوا الحرب ، عرف امراء أستيه ان يؤلبوهم حولهم ، كاعرفوا ان يستدنوا منهم ، العشرات من الأ'سر والعوائـــل النبيلة المحتد ، ذات التقاليد المسكرية ، يجلو اعضاؤها عن الريف ليملوا في بلاط هؤلاء الامراء. وبالاضافة الى هذا كله ، وقد الى فر"اره من من جميع اطراف ايطاليا ومن غيرها من الدول الاوروبية ، عدد كبر من فتبان النبلاء يتخرجون في بلاط آل أستيه على مراسم البلاط وشؤون الحرب ، وقد زاد هذا البلاط ألقــا عندما تمين أحد انناء هذه الامارة ، هو هيبوليت أستيه ، عام ١٤٩٣ ، كردينالاً وله من العمر. ١٢ سنة ، فأخذ يؤلب حواليه مجموعة طيبة من الاحيار بين رؤساء أساقفـــة واساقفة ، فاذا ببلاط الأمير يضم ٬ عام ١٥١٦ ٬ اكثر من مائة نبيل يعملون كلهم في خدمته وسبيل مرضاته . وهؤلاء النبلاء المقيمون في البلاط ، هم سمرا ، الامير ، ملازمون له يعملون في خدمته والنهوض بشؤون الامارة فيجري عليهم الارزاق إقطاعات كنسية وامتيازات. فاذا ما عرفوا ان يلقوا حظوة" لديه ، نالوا وظائف عالية في الدوقية ، فيرقى بمضهم الى مرتبة قائد في قلمة او حاكم ولاية ، ولن يلبثوا ان يثروا اثناء تضلعهم بمهام الوظيفة ، فيشترون العقارات ويبتاعون الاراضي ويسهمون في مشروعات تجارية او مالية مع فريق من اصحاب المصارف ورجال المال والاعمال ويشتركون مع اليهود باعمال الربا ٤ وهم على اتصال مباشر بالطبقة اليورجوازية هذه الطبقة التي كِثيراً ما رأوا فيها النور وطلعو من بين صفوفها .

وجامعة فر"اره هي الاداة المثلى بيد امراء أستيه والنبلاء . يتولى تميين الاساتذة فيها لجنسة خاصة تتألف من اثني عشر مستشاراً كلهم من النبلاء > وتحدد لهم المرتبات والاجور . ازدهرت هذه الجامعة وارتفع لكلية الحقوق فيها اسم وشهرة > معظم طلابها من ابناء النبلاء كا

اشتهرت مدرسة الفنون فيها . وعلى عكس البندقية راجت فيها التعاليم والمثل الفيشاغورية والافلاطونية . اما رجال البلاط فكانوا يستجيبون بالاحرى ، لشعارات الافلاطونية الحديثة فيا يتملق بالانسان . كل شي، يتغنى بأعجاد بلاط فر اره . وفي فراره يزدهر على الاخص الشعر الفروسي ، كا نرى ذلك جيداً في ملحمة : و رولان العاشق ، التي وضعها بوياردو ، احد رجال البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ – ١٤٨١ ، ولا سيا البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ – ١٤٨١ ، ولا سيا في المنظومة الشعرية المصاء التي وضعها ار يوست بعنوان : و رولان الثائر ، شكان احد النبلاء التحق ببطانة عبيوليت أستيه ، منذ عام ١٥٠٣ ، كا عمل في بطانـة الدوق الفونسو من سنة ١٥١٨ – ١٥٣٣ معندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، يذبحة مريعة لفرقة المشاة الحقيرة التي يتندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، يذبحة مريعة لفرقة المشاة الحقيرة التي تندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، يذبحة مريعة لفرقة المشاة الحقيرة التي يكفيسه عندما يقوم لوحده ، والذي يخترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لوفاقه مجـال العبور أن يمد اليد لينتزع الظفر ، والذي يخترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لوفاقه مجـال العبور تتوجاً لهذه الله بن صفوف العدو مفسحاً لوفاقه مجـال العبور تتوجاً لهذه المدالة التي كثيراً ما انتهت بانتصار امراء آل أستيه ونبلائم .

أثر بلاط فراره تأثيراً بالفاعلى فن الرسم بنوع خاص ، من خلال هذه الطلبات والتواصي التي عهد بصنعها ، الى الرسامين في البندقية ، بحيث امكن تحقيق ما طالما حلم به هؤلاء الامراء ورجال بطانتهم ، وما راود خيالهم ، الا وهو تثيل حياة آلمة الاولمب الخالدين ، وهذه الجالية المدائمة ، هذا الشباب الباقي ، القدرة الكلية ، اللذة التي لا انقطاع لها ولا انفصام ، هذه الحياة المادية المثلى ، الرثنية . وجل ما تنساه هؤلاء الامراء والنبلاء على المصورين رسمه لهم ، هي صورة الفونسو أستيه في ربعان شبابه النفس ، صورة لوكريس بورجيا ، وصور كل من زوجته ومعشوقته لورا ديانتي . وبعد هذا كله ، هذه المشاهد الرثنية التي تمثل لنا آلهة اليونان القدامي وآلهامم وهكذا مطلب الى الرسام جيوفاني بليني ؛ في كهولته ، ان يرسم ، عام ١٥١٤ ، لالفونسو وكثيراً ما تمنشي على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرة تتحرق شهوة ، تحساكي صورة و كثيراً ما تمنشي على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرة تتحرق شهوة ، تحساكي صورة وغير ذلك . وعلى درجة اقل نجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غونزاغا ، وفي نطاق دوقية وغير ذلك . وعلى درجة اقل نجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غونزاغا ، وفي نطاق دوقية اوربين ايضا ، طلمات على هذا الشكل ، هي ايضا .

اما فاورنسا ، فقد فقدت ، دونما رجمة ، حق الصدارة ، في هذه الثورة اللاهبة التي نشبت فيها عام ١٤٩٤ ، فالآثار الوحيدة التي فيها عام ١٤٩٤ ، فالآثار الوحيدة التي امتازت بشيء من الاصالة بما ظهر عندها في تلك الحقية ، هي هذه البحوث السياسيسة التي

وضعها مكيافلي وغيشاردين . وهذا الوضع الذي صارت اليه وتردّت فيه ، يجب رده بالاحرى الى هذه الاضطرابات التي قامت فيها باستمرار ، والى هذه الازمة الاقتصادية التي اخذت بخناق المدينة في إفر حركة الشغب التي كار الحرض الاكبر عليها سافونارولا ، والنظام الجهوري الذي عاشت في ظه حتى سنة ١٥١٢ . وقسد جاشت الجهورية من جهة ثانية بروح لم نجد في كل الله المالاتخذة باسباب الافلاطونية الحديثة ، من يستطيع التعبير عنها تعبيراً صحيحاً . وعندما راح حاكم المدينة ورئيس جمهوريتها بيرو سوديريني يعهد الى ميكالو انجلو برسم صورة الملك داوود كما حلا للجمهوريين في فاورنسا تخيله ، فالراعي الذي برز من بين يديه ، رمزاً لفلورنسا المستضعفة والمهيضة الجناح التي لم يفارقها الامل بالاستظهار يوماً على اعدائها بنضل ما رجت من عون إلمي ، فقد رأوا شبها بالفعل ، بين هذه الصورة والصورة الاخرى بريشه فيروكيو. فالمهد ولى وزال ، وراح ميكالو انجلو يضع رسماً لداوود الملك ، بعكس المقصود ، ظهر معه داوود سويرمان ، اى جاء وفقاً لذهنية العصر .

ويطل آل مديتشي من جديد مع اعادة الامارة اليهم ، فيشدون من امر هذه الدولة التي تحاول الانتقال من وضع مدينة ـ دولة الى وضع دولة اقليمية ، موحدة ، ذات نظام مطلق . ولم تلبث فلورنسا ان شعرت بتثاقل قبضة الاسبان عليها ، لتقع ، بعد حين ، تحت النفوذ الروماني ، ففارقها كل نشاط فني ، لمدة طويلة ، الى ان اعاد اليها بابوات آل مديتشي ، شيئاً من النشاط ، بفضل ما ارسلوا اليها من مال وفنانين تشبعوا بالمثل الرومانية . ويبدو ان الفلورنتين فقدوا كل قدرة لهم على الحلق والابداع ، بعد ان فقدوا نعمة الاستقلال التي رتعوا فيها .

والظاهر ان ميلانو كانت تحاول ؛ هي الاخرى في اواخر القرن الخامس عشر السير في النهج الذي جلت فيه روما . فغي عام ١٤٩٠ ، شرع ليوناردو ده فنشي ، في نحت الجواد الخاص بفرنسوا سفورزا . وفي سنة ١٤٩٦ ، اخذ برسم صورة دالمشاء السري ، فجاء عمله هذا تحديداً ومحاولة جريئة كتب لها ان تعرف الازدهار في روما .

من الغريب جداً ان تقع هذا المحاولة في الوقت الذي اصبح فيه لودوفيك لو مور ، بعد ان اقطعه الامبراطور الولاية على هذه الدوقية ، اميراً تابعاً ، من الوجهة الاقطاعية ، للامبراطور، يعمل بمعزل عن كل تدخل من قبل الشعب في شؤون الادارة ، اميراً مطاق السلطية له حرية التصرف، حاكماً له كل حقوق الولاية من الآن فصاعداً في هذه الفترة التي بلفت فيها سلطته القمة من القدرة والبطش ، اذ كان يحلو له ان يتبجح قائلاً : بان الامبراطور قائده ، وان البابا كاهنه الحاص يؤمن خدمته الروحية ، وملك فرنسا ساعي بريده ، والبندقية حاجبه . في هذا الوقت بالذات ، ظهرت في بلاط لودوفيك لو مور ، اولى المحاولات لحذا الفن الجديد ، فسن الرجل السوبرمان ، الفن البطولي .

ومنذ ايلول ١٤٩٩ ، اصبحت ميلانو خاضعة للنفوذ الاجنبي يتوالى على حكمها تباعـــــاً

الفرنسيون والسويسريون والاسبان. ويتلقى ليوناردوده فنشي طلبات فنية من قبل الفرنسيين. واخمه الفن الجديد يطل رويدا و يَمْكُنُن. ولكن منذ عام ١٥٢٥ ، اخذ النفوذ الاسباني يسيطر. غير ان الاسبان كانوا دوما في عسر مالي ، فرزحت الدوقية تحت وطأة الرسوم والضرائب التي فرضت عليها ، والحروب التي تضرّست بها والازمة الاقتصادية التي اخذت بتلابيبها ، فأخذ النبلاء يتجهون بانظارهم وجهة الوظائف المامة . فالدراسات الفقية ، وحدها ، يبدو عليها طابع الخلق والاصالة ، كا يظهر لنا ذلك من الانجازات الفنية التي وضعها ألسيات (١٤٩٢ - ١٤٩٠) .

بعد الحروب الدامية الطويلة التي وقعت بين أسِرة أنجو واسرة أراغون (١٣٤٣ – ١٤٤٢)٠ استتب الأمر ، في مملكة نابولي، لنظام حكومي قوامه فريق من البارونات اصحاب الاقطان الواسعة في الريف ، واصحاب الامسلاك السيادية الذين كادوا يتمتعون باستقلالهم ومعظمهم يتصرف بسلطات ملكية ، ومن كبار المفامرين من رجال الحرب المعادين للملك وفي عصيات موصول ضده . فالحياة الفكرة اسم بلا مسمى ، لا ظل لها قط . والاراغونيون الذين جاء منهم ملك نابولي منذ سنة ١٤٤٢ ، كانوا قد حاولوا أن يحكموا بالاشتراك مع نبلاء مدينة نابولي ، هذه الطبقة الارستوقراطية القائرت بوظائف الدولة فجعلت منهااحتكارات تصرفت بهاعلى هواها. وطبقة النبلاء هذه، كانت تشعر في داخلها انها قريبة جداً من البارونات فاولتهم ثقتها وولاءها. ولهذه الاسباب راح فردينان داراغون يبذل جهداً كبيراً ليخلق بورجوازية من رجال الاعسال والصناعة ، ورام الفونس داراغون الذي خرج ، عام ١٤٤٢ ، من هذه الحرب ظافراً ، 'يدخل على مدينة نابولي الحياة الفكرية ، ويفرضها عليها فرضاً. وهكذا بدت طلائم النهضة الفكرية ، في البلاط ، وأخذت تنطور بسرعة لا سيا بين الطبقة الارستوقراطية والادارية ، فاصبحت عنصراً قوياً في هذا التبار الجديد ؛ راحت تنفتح للآداب لما رأت فيها من منافع وفوائد جمة . من ابرز رجال النهضة في اواخر القرن الخامس عشر ، في مملكة نابولي : بونتانوس وجينارو وكاريتابر فكانوا خير من تمثلت فيهم طبقة النبلاء من اصحاب الوظائف الادارية العليا . اما لون الآدب الذي سيطر على البلاط ، أذ ذاك ، فقد كان الشعر ولا سيا الشعر الغرامي . كذلك أطل الفن التشكيلي بعدد وافر من الآثار معظمها من الدرجية الثانية .

ومنذ ١٤٩٤ نرى بملكة نابولي يتجاذبها الفرنسيون والاسبان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بها سنة ١٥٠٣ ، واصبحت بسين ١٥١٦ - ١٥١٩ ، جزءاً من امبراطورية آل هبسبورج بشخص شارل كانت أوشارل الخامس الذي كان يحلم بان يجمل منها اداة طيعة بين يديه ، في ايطاليا . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملحة نابولي خاضعة ، مبدئياً ، لامبراطور يحكم حكماً مطلقاً ، ومخليبت طبقة البارونات على امرها وراحت تتخذ لها ، اكثر فأكثر ، موقفاً سياسياً ، تعد شرقاً لهسان خلص معه الولاء للامبراطور وان تقوم بخدمة السلاح في جيوشه ، نازعة ، من وراء ذلك ، لتصبح طبقة تجمع بين يديها كبار قادة الجيش وضباطه الاعلين ، ونزع البارونات من جهسة

ثانية ، للانصهار في طبقة نبلاء مدينة نابولي . فلم يكتفوا بأن قدموا الى المدينة وسكنوا فيها ، بل راحوا يبنون لهم فيها صروحاً وقصوراً شاهقة ، واخذوا يسجلون نفوسهم بين الطبقة سكان تابولي باعتبارهم من نبلاء المدينة وشرفائها . وعلى عكس ذلك تماماً ، رأت الطبقة الارستوقراطية في المدينة ان شرفها يحتم عليها التخلي عن الوظائف الادارية والعيش ، اسوة بطبقة البارونات في البطانة لا يأتون عملا ما، أما الامبراطور فأخذ يشدد على طبع مملكة نابولي بطابع بلاد مستمرة اذ فكر بان يجعل منها سوقاً لتنفيق المنتوجات الصناعية التي كان ينتجها هذا المضلق الرباعي الذي تكون من جنوى وميلانو وفلورنسا والبندقية ، الذي كان يد مقاطعات ايطاليا الجنوبية بحاجاتها من المحاصيل الزراعية والحبوب والزيوت ، والخامات ، وغزول الحرير والصوف الخام ، ووضع البلاد تحت تصرف ارباب الاعسال والمال الاغراب من المان وجنوبين ، بعد عام ١٥٣٦ ، وهدر هدراً الصناعات القائمة في مملكة نابولي فخيم عليها الفقر بسرادقه .أبسبب اخضاع هذه المملكة للاسبان وللامبراطور ، وزوال مملك كان ينعم ، بالامس الغابر ، باستقلاله الناجز ويعيش كرياً مكرماً في بلاطه وبين بطانته وحاشيته ، وهسذا التفتت والانسياح ينزل بطبقة النبلاء من كبار الموظفين ، اخذت الفنون ، في نابولي بالتأخر والقهقرى، والسب سكانها بالعقم الفكري ، فيفقدون كل طاقة لهم على الخلق والابداع ، سوى بقية باقية من الشعر الركيك باللاتينية ، والايطالية ، فخيم السكون على نابولى ؟

وهكذا وفي مثل هذه الظروف والارضاع المؤاتية لطاوع آثار فكرية جديدة ، نجد دولاً مستقلة ، سيدة امرها، تنزع للحكم المطلق وللسيطرة الامبريالية ، دولاً – مدينة ، تطمح في ان تصبح دولاً اقليمية ، وامراء ذوي نزعة ظاهرة للحكم المطلق لهم بطانات يتالف بعضها من نبلاء بيدهم الادارة يؤلفون طبقة وسطى بين طبقة النبلاء الاقطاعيين وبين الطبقة البورجوازية ، دولا بمقدورها ان تؤمن لذاتها موارد مهمة بالامكان إنماءها وتضعيفها باقامة علاقات لها مسم الحارج ، واستدراج النقد عن طريق المصارف والاعمال التجارية الضخمية وتسهيل معاملات الترانزيت ، والسياحة والمفامرات الحربية وتحريك الكفاءات وتشجيعها ، دولا تقوم الفئات الحربية فيها بمختلف النشاطات السياسية ، والاجتاعية ، تنطلق كلها من الاعمال الفكريسة والروحية .

وبهذه الصورة التقريبية التي نرسمها نستطيع ان نتبين الخطوط الكبرى لهذا النهج الواجب انتهاجه في تحديد الوظائف والخدمات المنوطة بهذه المنظهات الفكرية التي أطلت علينا ، وهو لممري نهج 'عمل به باستمرار ، نهج يتصل اتصالا صميماً بالعقل البشري ، هو اسلوب المقارنة للكشف عن النظم الجديدة . وفي هذا السبيل نستعين كذلك بالاحصاء والمقايسة ، اذ لا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة ما لم نقم بعمليات احصاء وقياسات ؛ ولا يمكن ان نطمع بالمسلم ونطعع بالحصول عليه الا اذا توصلنا للكشف عن المعادلات الرياضية . فالتقنيات والماسوم

الاساسية توفر لنا ، وايم الحق عدداً متزايداً من الاجهزة والاعتدة الحاسبة والكاشفة وبينها ما يصلح تماماً للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته الىاقمة .

فالصورة الافلاطونية الحديثة الكلاسبكية تركت كثيراً لجهد الانسان الحر في سبره نحو الله . إن ما تعرضت له روما عام ١٥٢٧ من أعمال النهب والاستباحة ؛ وبسط اسانيا سيطرتها على ايطاليا مع الامبراطور شارل الخامس ، والدقع الذي انطلق من هذه الدول الرئيسية النازعة للوحدة والحكم المطلق مع ما تخبئه من ارهاق وارهاص للفرد ، كل ذلك وما إليه، ساعد كثيراً على تبيَّـن الحدود التي تحد من هذه المثالية وعلى لفت النظر ؛ اكثر فاكثر ؛ الى ما رسف بــــه الانسان ، بعد ، من ضعف وعبودية ، هذا الانسان الصعلوك المتصيِّد الذي افتداه السيد المسيح باذلا حياته لاجله حتى عذاب الصلب . وميكالو انجلو ، هذا الافلاطوني الحــــديث الأتم ، كما قبد"ى لنا من خلال هذه الزخارف والنقوش الجدارية التي حلس بها الكنيسة السكستينية ، والذي سيبقى دوماً هذا الافلاطوني الذي كان ، عرف ان يتجاوز بعيداً 'مثـــل الافلاطونية الحديثة ويتعداها ، اذ شدد ، اكثر فأكثر ، على السيد المسيح ، وعلى سر فداء المسيح الذي به قبرر الأنسان . ان صورة الدينونة الاخيرة (١٥٣٣ – ١٥٤١) ، ترينا منجرفة مم دوامة الصاخبة اللاهية الجبارة ، المتكونة من صيادين براح بهم القلق كل مبرح ، يقفون متوسلين ، مم الرسل والقديسين ، وربما العذراء مريم نفسها . والرسام لوتيتيان ، يدع جانباً المسيح الهادي ، الظافر ٬ ليضم تحت انظارنا التحفة الرائمة : ﴿ هُوذًا الرَّجِلِ ﴾ التي وضعها عام ١٦٤٢ ، وقد استمان بالحركة العاصفة تلف هذه الجماهير المهتاجة ، الجياشة بالحقد والمفضاء ، تتألب عــــلي السيد المسيح ، الآله المتجسد ، الذي يرزح تحت ضغط الامبراطورية العاتيسة وتحت هيجان الجماهير المزَّمِرة ، يكفر عن خطايا البشر . وفي قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما التي اعتبيض بها عن تلك الى خطط لها برامنت ، نرى ميكالو انجلو يحتفظ بالصيغ والاشكال ذاتها التي ظهرت في الدور الأول من النهضة الا انه 'عط" في القبة بإضافة التضليع ، بعد ان ركب ، في الاسفل ، مصباحاً شفافاً . وهكذا يربطنا ، من فوق الاجبال ، بالطراز الفني النوطي الذي يرمز الى اندفاع المسيحي المتحس ، وقد شعر بضعفه متجهما نحو الله مخلصه ، فقبة ميكالو انجلو ، لم تعد تظهر كأنها تاج ، بسل هي تسبح و « تطير » . فهذه الجمامير ، وهذه التجاوزات المغالية ، وهذه الاندفاعية .والمفارقات والمتناقضات ، كل هذا أنما يدل على أن الناس ينزعون إلى نقطة من نقطتي التوازن التي سيحوم حولها الفكر البشري ، لمدة قرون ، متأرجها بين هذه الانظمة الاساسية : الاتباعسة الكلاسكمة ، ربين الغريب الشاذ.

وه و المن المن المن المن المن المنابعة المنابعة

الناس في هذا العصر يعيشون عرفاً وقانوناً في عالم مسيحي تنقضي المهم

حفاف الشمور الديني

وفقاً لتقويم وتوقيت ومراسم دينية واعراف معينة . فمحاكم القضاء لا تستأنف جلساتها في الثالث عشر من تشرين الثاني بل في اليوم التالي لميد والسيد القديس مرتينوس، وايام العمل القصيرة ، لا تبتدى ، عند اصحاب الحرف في التاسع من تشرين الاول ، بسل في اليوم الذي يقع فيه عيد القديس ريمي . ونقابات اصحاب الحرف تعطل ٢٠ يوماً في السنة ، ما عدا ايام الآحاد . ويطرح من ايام العمل يوم السبت وبرامون الاعيساد الكبرى لتستعمل في الاستعداد للاحتفالات الدينية التي تقام في اليوم التالي . والجامعات تجري الامتحانات ، في صحن الكنيسة على انفام الارغن ، في هذه الفترة بالذات التي تقع بين القداس وفعل الشكر . وكتب التعليم والنصوص المدرسية ، تبتدى ، دوماً بالمبارة التالية : و لجد الله الخالق ومسرته ، والوصايا الارثية تحمل الترويسة : و باسم الثالوث الاقدس غير المنفصل ، وكوز شراب النفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في محل بارز منه الجمسلة التالية : و فكر بالموت ايها المسكين النفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في معل بارز منه الجمسلة التالية : و فكر بالموت ايها المسكين تكاثر عدد السكان ، المديد من الكتائس والمابد والمزارات الدينية القائمة منفردة عند بعض عطفات الطرقات . كذلك يطل علينا فيض من الكتب التقوية : ككتاب القسداس والفرض وكتب عجائب المذراء والقديسين وكتاب الصلوات ، وكلسات يسوع الخالدة ، وكتب السواعيات ، وافراح السيد المسيح بعدد لا يحصى من النسخ .

غير ان هذه الروح الدينية المتأصلة في النفوس المحلصة الصادقة تبقى مظهراً جامداً من هذه المظاهر التي ارتدتها او تكشفت عنها طقوس العبادة والاحتفسالات الدينية . فالنفوس لم تكن

لتميش هذه الطقوس في صميم حياتها الداخلية ، ولا أثر لها في اعمال الناس وتصرفاتهم وسكناتهم وحركاتهم ، اذ الكل غافل ، لاه عما له طابع مكرس او مقدس . فيتجاهلون هذا كله ولا تتنزى ماجريات الحياة اليومية بشيء من العاطفة الدينية . قد يكون سبب هذا الوضع الحاجة الشديدة الى رجال الدين وخدام الكنائس الغيورين . كم من الكهنة والعاملين في خدمة الدين والنفوس ، زرعوا الشك والتشكك في النفوس لعدم امتناهم المطاعة المتوجبة عليهم نحو الكنيسة ولرؤسائهم ، ولفظاظة نصرفاتهم المقيتة . فكهنة كاندرائية نوتردام القانونيون ، في باريس يتبجعون انهم معفون من الخضوع السلطة القانونية التي يتبعون لها . اي لرئيس اساقفة سانس ، المطران تريستان ده سالازار . وبتاريخ الثاني من شباط ١٤٩٢ ، بعد ان فرغ رئيس الاساقفة من الاحتفال بالقداس محضور الملك شارل الثامن ، وبينها هو يهم في الانصراف وهسو يبارك الشعب يتقدمه الصليب وعلى شماسة المطران الشعب يتقدمه الصليب وعلى شماسة المطران كرامتها اثناء قيامه بالطقوس الدينية ، ثم يأخذان بشعر احد خدام المطران ، وعنسدما م الاسقف بالتدخل في الامر . لكه احدهما في بطنه ، بينا نزع الثاني قبعته الاسقفية وطرحها الاسقف وفوع حوادث من هذا النوع .

وهذا الفتور الديني كان الطابع الذي ميز ، على الاجمال ، رجال الدين ، اذ كان همم ، في الدرجة الاولى ، السهر على مصالحم المادية . وجماعة الكهنة القانونيين في كنيسة نوتردام ، كانت تنتقيهم تنتخب اعضاءها من بين الطبقة العليا في البورجوازية ، وبين طبقة الاشراف . كاكانت تنتقيهم من بين مشاهير رجال اللاهوت والحق القانوني . وكان يهمها ان يشعر الناس بانها مهتمة بادارة الملاك الكنيسة ، وانها تحرص على الدفاع عن حقوقها وامتيازاتها . فلا عجب ان يحذو حذوها كهنة الرعايا في باريس . وعلى هذا قس رجال الاكليروس في المدن الواقعة في الاوساط الريفية الذين كان يهمهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين مصالحهم المادية ، واستيفاء الرسوم المسائدة لهم وتحصيل النذور .

اما الكهنة المكلفون بخدمة الرعويات في الارياف ، وهم على الفالب مسن ابناء القرويين الطيبين ، فكانوا يقومون بالحدمة الروحية . فقد كانت مرتباتهم ضئزى للغاية تكاد لا تقوم يأو دهم لو لم يكن يردهم من عوائد الحدمة الروحية شيء زهيد . ولذا وجدوا انفسهم في جدال مستمر واختلاف مزمن مع ملتزم الوقف لعلهم ينالون منسه بعض دريهات ، بما كانوا يدخلون مع رعاياهم في مجادلات لا تنتهي حول حقوقهم المكتسبة بغثمر من الحصيد أو اجرة قداس ، أو الرسوم المستحقة لهم من عقود الزواج والقيام بمراسم العاد والجنائز . فلا عجب ، ان نراهم يديرون ، احياناً ، بمساعدة احد اعضاء الاسرة ، دكاناً أو نزلا صغيراً ، أو يقبلون بوظيفة « خولي » عند احد نبلاء المقاطمة أو كبار الاقطاعيين فيها ، يؤمنون له جباية الرسوم المتوجبة على المزارعين والمرابعين وهم ، في ذلك كله ، حريصون على الاخذ بالاعراف والعادات

المرعية ، يحافظون عليها ويستمسكون بها بشدة ، فيتلهون احياناً باللعب والنردكا اعتــــادوا معاقرة الحرة ، وكثيراً ما استعملوا سواعدهم ، وكالوا اللكم والضرب واحياناً استعمال الدبوس والنبوت ، كما كانوا كيميدُون ترغيب ربات البيوت بالرقص ايام الاعياد .

من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية ، اذ ذاك ، تعاتره المدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة . فالسكر والعربدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات. وضرب السكين والخنجر لم يكن تادراً قط . وكم من الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات او شابات مشكوك بفضائلهن ! أفلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعسة لبلدية باريس بالسرقة ؟

والرهبان لم يكن وضعهم باحسن حال من وضع الكهنة العلمانيين اذ كثيراً مانواهم يتركون الحياة والمعيشة المشتركة ، ويتحللون تماماً من عادة تناول الطعام او النوم في قاعات مشتركة ، المانرتبة عليهم ، فاصبح لكل منهم حجرة خاصة يستقبل فيها الراهب، دونما حسيب او رقيب. اصدقاءه واقاربه . ونذر الفقر ، والاحوال المشتركة ، كل هذا وما اليه ، اصبح اثراً بعد عين . لكل راهب كيسه الخاص ومذخراته الخاصة وحاجياته المنزلية الخاصة .وحياة العزلة والانفراد. في الدير ، لم يبتى من يكترث لها . هنالك رهبان يقطعون اوقات فراغهم يتمخطرون في الازقة والشوارع ، او الساحات العامة ، او يتلهون بالتفرج على اعمال الممخرقين ، او البصبصة عبى والشوارع ، والراهبات كم اثرن من الشكوك حولهن بما أتين من فظاظات وموبقات ؟

هذا الوضع الذي تسكت فيه الاكليروس وبعض رجال الدين الوضع الذي تسكت فيه الاكليروس وبعض رجال الدين الوضع الماء الفلسفة والدين يجب رده ، في كثير من مظاهره ، الأسباب سياسية ، فقسه احتفظ ، البابا ، في اماكن وحالات كثيرة ، بحق اختيار المطارنة وتعيين الاساقفة واصحاب الوظائف الكنسية . وكثيراً ما وقع اختياره لملء هذه المراكز والوظائف على ايطاليين او الماس خبراء قد يكونون احياناً ، خلية بن بكل تقدير واحترام ، كما كانت هده الوظائف والمراقب قدهب لمن يتقدم من الادارة الرومانية ، بأحسن الاسعار ، أو لمن يتنازل بعضهم لهم عما ينعمون به من اعفاءات وامتيازات لقاء مبالغ طائلة . وكثيراً ما كان اصحاب هذه الوظائف لا يستقرون في مراكز وظائفهم ، فتعتى هذه المراكز من اسقفيات واديار ، بلا رئيس أو مدبسر ، ولا ادارة ، فتذهب امورها ووارداتها فريسة للفوضى ، يستغلها من أوتي الحدق والشطارة . وكان من حق الملوك وبعض الامراء ان يعينوا ، هم أيضاً ، اساقفة ورؤساء اديار ، كا انهم كثيراً ما قدخلوا في عملية انتخاب المرشحين الى هذه الوظائف ، الصلحة المرشحين من

رجالهم وازلامهم وخاصتهم ، أو بمن لقوا حظوة عندهم ، وهم في غالب الاحيان مسن رجال بطانتهم أو من عمال الملك أو الامير بمن عهد اليهم تدبير الامور المتملقة بادارتهم أو مصالحهم ، فاذا بهذا الفريق من أصحاب الحظوظ ، من كبار رجال الدين دون أن يأنسوا بأي ميل أو نزعة داخلية ، لهذه الخدمة ، أو ان يهيأوا لها بشكل من الاشكال . وهكذا أخذنا نرى أساقفة ورؤساء أديار يحسنون امور الدنيا ، ينهجون في عيشهم نهج الامراء فينصرفون لاعمال الصيد والقنص ، ويستسلمون للهو والقصف ولصيد الغواني، أو يكونون من نصراء الملم والفنون فيولبون حولهم الادباء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إيالتهم مسن مطرانيات فيؤلبون حولهم الادباء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إيالتهم مسن مطرانيات واسقفيات وديارات ، فنظرتهم الى اقطاعات وموارد رزق يجب ان تدر عليهم الاعطيات والمداخيل الطيبة والثراء الوافر ، لا يهمهم قط ان يمكثوا فيها او أن يقيموا بين ظهرانيها أو ان يقوموا بما تقتضيهم الواجبات الدينية التي يضطلعون بها من وعظ وارشاد ، وتعسلم الدين المسيحي ، واعداد كهنة لائقين وخد مة للهيكل عترمين ، والحفاظ على الآداب والأخلاق الكنسية .

لهذا الفتور في الدين ، ولهذا النشوز في الاخلاق في من يجب ان يكونوا حفاظاً عليها ومثالاً يحتذى بها ، يكن ان نجد اسباباً اعمق وابعد تكن في سيطرة الفلسفة الاسمية وتحكمها اذ ذاك ، بعد او كهام ، في المقول والاذهان . فاذا ما اخذنا باقوال الفلسفة الواقعية ، اصبحت المقائد المسيحية ، لا اقول ، اوضح واظهر ، اذ انها سلسلة من الاسرار المفلقة ، الغامضة ، متصلة الحلقات ، أوحى بها الله تمالى ، وكشف عنها هو نفسه ، بل امست هذه المقائد أكثر قابلية للتفهم والافهام ، اقله من الوجهة المجازية او الرمزية . فقد اصبح لله مفهوماً او مدلولاً يستطيع الفهم البشري محاولة تفهمه ، ولو بصورة بحازأة ، غير كاملة انما اكيدة ، ثابتة . وعا ان نفس الانسان ، لا مادية هي ، وتستطيع الن تتفهم والكليات ، بثقة ، اصبح في مقدورها ، اذ ذاك ، ان تستخلص بما في هذه الكليات من حقائق اولية عدداً من المفاهم والمدلولات المسلمة ، المترابطة ، منها مثلا : مفهوم اللامتناهي ، ومفهوم العلم الكلي ، ومفهوم المحل الكلي ، ومفهوم الى مفهوم لله الكلي ، وغير ذلك . فاذا ما استعانت افهامنا بالمجاز ، استطاعت ان تصل الحكلي العلم ، الكائن الخالد ، الازلي ، السرمدي ، اللامتناهي ، المالىء الكل ، الكلي القدرة الحكل العلم ، الكامل ، الكلي العلم ، الكامل .

كذلك في مقدورنا الآن ان نعرف معرفة مرضية ، لماذا كل الناس يولدون ملطخين بالخطيئة الاصلية ، خطيئة ابيهم آدم ، لان ما لطخه آدم في ذاته ، هو المفهوم العام للانسان ، هو الجنس البشري ، الانسانية جماء ، هذه الانسانية التي احتواها كاملة كا محتويها كل انسان ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كل الناس محملون في ذواتهم هذه اللطخة او اللوثة ، لانهم محملون في ذواتهم المفهوم العام للانسان .

وعلى هذه ، قس أيضاً ، الاستحالة . فعلى المسيحي أن يؤمن أنه عندما يلفظ الكاهن ، على

الخبر والخر الكلمات ذاتها التي قالها السيد المسيح في عشائه السري الأخير: «هذا هو جسدي و هذا هو دمي و فالمسيح يحل فعلا وحقيقة في القربان ويوجد فيه تحت الاعراض الحسية . وهنالك ما هو اكثر من ذلك . فتحت هذه الاعراض و تحت ظواهر الخبر والخر و يوجد بالفعل جوهر جسد المسيح ودمه ، مع بقاء الاعراض الحسية على ما هي من مظهر ملموس . والى هذا و فالمسيح يجلس و بمجد ، على عرشه السهاوي بعد قيامته وصعوده ، عن يمين الله الآب . نحن امام سبحة من الاسرار المطبقة ، وهي ، مع دلك ، اسرار بمكن تفهمها اذا تصورنا ان ما هو موجود في الوقت ذاته في السهاء وفي هذه البرشانات التي لا حد لها ، منتشرة بين اطراف العالم احم ، ليسجسداً او جسماً خاصا ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم ليسجسداً او جسماً خاصا ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم في عدد لا يحصى من الافراد ، يمكن ان يوجد تحت اعراض مشتركا مع جواهر اخرى .

كل هذا ليس بالواضح قط ، ولا بالجلي . فمن غير المعقول والقبول ان ما يخص الله الخالق ، القادر على كل شيء ، يستطيع الانسان ان يفهمه او يدركه ، هذا الانسان المخلوق ، المساجز المستضعف ، يبدو على الاقل ، ان هنالك تعليلا او تفسيراً ، مع العلم ان الايمان ، اذا لم يكن تحت الفهم ، فهو لا يصدمه .

وعلى عكس ذلك ؟ فاذا ماتجاهلنا الفلسفة الاسمية ، واذا ما انكرنا وجود فكرة الكلي ؟ واذا لم يبق لنا سوى رموز مادية تخفي وراءها حقيقة صعبة المنال ، عدمنا كل وسيلة تساعدنا على تقريب الدين من أفهامنا . فكيف نستطيع ان نفهم او ندرك سر استحالة الخبز والخر الى جسد ودم السيد المسيح ؟ هذا شيء محال . فالامر يمني في نظر اصحاب الفلسفة الاسمية ، ان جسد المسيح مع ما له من محسوسية وتحييز ، يحل محل الخبز المحسوس المتحيز ، دون ان تتغير منه الاعراض . هذا شيء مضاد للعقل ، مناف المنطق فكيف لنا ان نفهم الخطيئة الأصلية ؟ هذا شيء غير ممكن . فاذا لم يكن سوى افراد نسمهم بهذه العلاقة او الاسم : الانسان ، فاي مسؤولية علينا من خطيئة فرد ، هذا الفرد المسمى آدم ؟ ، أوليس من الحيف والظلم ان 'نؤخذ بجريرته هو ؟ فكيف نفهم الله ؟ . هذا شيء محال . نحن ندرك الاشياء بواسطة هذه الاحكام سهلة ، ليست بالفعل سوى علامات مادية تشير الى شيء لا يرى ، خفي ، لا يمكن ادراكه او تفهمه ، فكيف نستطيع ، مع ذلك ، الصعود او الارتفاع من الاشياء المحسوسة الى الله ؟ فكل حقائق الايان تستحيل احاجي والغاز الا تدرك ولا لها حل بالنظر الفلسفة الاسمية .

فكات على اتباع هذه الفلسفة وعلى الآخذين بمقالتها ان يفصلوا او يقطموا بسين العقل والدين ، وبين التصريح بوجوب الايمان والاعتقاد بناء لتماليم الكنيسة وشهادتها ، القيمة على الكتب المقدسة والمفسرة لها، وتَمَني الاقوال والاعمال التي تفرض الكتب المقدسة والكنيسة معا ، تردادها والقول بها دون اي امل قط بان نفهم يوما ، او نصل الى الله الله المحتجب عن كل حقيقة اخرى ، وراء محجب لا يمكن شقها والنفاذ منها . ولكن

ماذا يبقى من الدين ، بعد هذا ، في نظر الكثيرين من الكهنة والمؤمنين ؟ سلسلة من الطقوس الآلية والصلوات الشفهية ومزامير ، واصطلاحات وعبارات برددها آليا ، ميكانيكيا ، ونحن موقنون . عن طيب نية وحسن قصد ، ان لهذه الرموز قيمة في ذاتها ، دون اي اكتراث او اهتمام بوجود اله لا يُيدرك ، ودون الن نحيي او نعيش هذه الحقائق الايمانية في نفوسنا ، ودون الن تحمل معها شيئا الى القلب ، ودون ان تحرك منا النفس او ان تصبح حافزاً لنا على العيش والحياة عيشاً وحياة مسيحية حقة . فالديانة اصبحت جافة ، يابسة ، جامدة ، كا اصبحت النفوس شبه منة .

كان هنالك جماعة استحال عليها قبول هذا الوضع أو تعذر عليهم النقاش معه، روح الاصلاح قوم تحسسوا في دواخلهم ؛ الحاجة الى حياة اسمى تتمثــل في الحب الروحاني ؛ هفت نفوسهم قوقاً إلى هذه العذوبة الساوية التي تلف النفس لفــــاً وإلى هذا الفيض من الحب الروحي الجياش . وراح هذا الفريق من المتصوفة والانسانيين يحاولون الوصول الى الله بالرغم من هــــذه الصعاب التي لثارتها امامهم الفلسفة الاسمية. وهذا الجهد الجاهد ، وهذا الشوق المبرسح المطلب الاكبر والقصيد الاعظم الذي جاشت به نفوس الجيم ، أذ ذاك . وقد بدت للجميم الأخطار التي تتهدد الكنيسة بشر مستطير . وكان الناس يرددون ما يسمعون من حكاية ظهور علامات وامرات لايمكن ان تخدع احداً لما علقوا عليها من دلالة . أفسَلم يشاهد الناس يوماً ، عام ١٤٩٩ ، ثلاث شموس ظهرت مماً وفي وقت واحد ، كما شاهدوا في احدى الليالي ، ثلاثــة اقمار معاً ؟ أَفَــَامُ 'تَمْطِر السهاء دماً ؟ وفي بلاد الاغريق ؛ ألم يشاهد الناس ؛ سيوفـــــــا نارية تتلألأ في القبة الزرقاء ؟ وفي ٢٩ حزيران ، ألم تسقط الصاعقة ، نار السهاء ، على الفاتيكان نفسه ؟ والبابا لجان اوتون ان يعلق عليها شارحًا، متبقـّــظًا في كتابه: « تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر ». « هكذا بدا حال الراعي الصالح وعلى هذا الشكل كان وضعه ؛ افلا يكون ذلك نذراً بتشتت الغنم او بما سيستهدف له القطيم من مآسى واضطهادات ؟ ، ومن جهة ثانية فقيد تطورت قوة الانسان المادية تطوراً مخيفاً . فقد استطاع الملك شارل الثامن ان يدك ٌ ، بما تم له من مدفعية ، قوية / القلاع والحصون الايطالية . وهذه القوة الهدامة هل يجوز للانسان استخدامها للشر والحراب؟ كذلك ، ان الفتور الديني الذي سيطر على الانسان ، واندفساع الناس وراء البذخ واشباع شهواتهم و وهذه الهرطقات التي طلعت على الناس فمزقتهم كل ممزق ٬ كفلسفة ان رشد٬ تملًا القلب خوفًا وهلمًا . والى هذا؛ راح الناس يتحدثون عن بلاد اصحابها كفَرة ؛ تقع ما وراء المحطات ، يجب حمل بشارة الانجبل المها .

ففي هذه الظروف بالذات ، وفي مثل هذا الجو العابق بمثل هذه الهواجس والاضفاث ، وفي مثل هذه الدهنيات التي عشعشت فيها مثل هذه الترهات ،

طلعت علينا ، في غرة القرن السادس عشر ، المُشكُل التي جاش بها الفارس المسيحي - جندي المسيح Miles Christi ، المستعد دوماً للجهاد الروحى . عدَّته المثلى ، الصلاة وهذه الانسانية التي صقلتها ثقافة العصر ٬ وكل العاوم التي خلفتها لنا العصور الخوالي ٬ بعد ان 'نفيض عنها غبار النسيان وارتكضت في جنباتها الحياة ناشطة زاخرة ، وفوق هذا كله روح الله الحقية. ولكى الفرنسي لوفيفر ديتابل ، المولود عام ١٥٤٠ ، وأحد اساتذة كلية الكردينال لوموان ، يبحث ويتحرّى عن هذه الفِكر والافكار القديمة التي جاء بهاكل من ارسطو وافلاطون والمتصوفون . فقد حاول الافلات او التملص من هــذا الطوق ، مــن هذه البراهين والاقيسة الدقيقة ، التي طلعت بها الفلسفة الاسمية . فقد جاه في المقدمة التي و"طأ بها الكتابة و المدخـــل الى المنطق ، المنشور عام ١٤٩٦ ، بالحرف الواحســـد: و كَيْكَتَّـن قبل كل شيء أن الحدَّسيات ، وهذه الاستقراءات والحصريات ؛ والاستثناءات والجمازات والالفاز ؛ التي لا حل لها ؛ كلها المور لا طائل تحتها ، ولا خير منها ولا فائدة لها ، تكاد لا يؤبه لها ، وان الاحكام التي تبني عليها لا تمت بصلة قط للمنطق الحقيقي او الفلسفة الحقة ، . يجب ان نكف عن اقتطاع بعض نتف من ارسطو والاجتزاء ببعض مختارات او مقتطفات من آثاره لنتخذ منها دون النص الكامــــل ؟ اساساً لنظام او مذهب فلسفى . علينا ان نطالع هــــذه الآثار مطالعة كاملة وان نقرأها قراءة تدبر وتفهم ، بنصها وفصها ، وان نستخلص منها المعنى الحرفي ، قبل كل شيء . ان مؤلفسات ارسطو وافلاطون هي خير الوسائل التي تفضي بنا عن طريق تفهم الاشياء الواهية والزائلة في هذا العالم الحسي؟ الى الامور الالهية . فالله عز وعلا ؛اقام من هؤلاء الفلاسفة ؛ كهنة له وجمل منهم انبياء وجعل منهم مشاعل تهدينا الصراط القويم . لا شك بان الله الذي ينسير كل انسان وارد الى هـــــــذا العالم ، لم يكن بعد ، أعلن ذاته للبشر ، انما أطلُّ عليهم من عليائه لانه النور الساطم الذي لا حد لاشعاعه ولا نهاية ، والذي تضيء انواره الاجبال كلها ۽ . فاذا ما اخذنا 'تنعيم النظر في هذا كله وجدنا إن ارسطو ، بما وضع من نظريات كليــة وبما فــَـلسف مكنونات الاشياء وجوهر الكائنات ٬ واكثر منه افلاطون الذي رأى في الكليات وما لها من مفهوم عام صورة او نموذجاً او المثال الاعلى الذي يتحيز ، ليس فقط في الكائنات الفردية ، بل على حدة ، مستقلًا في الله ، فقلل بذلك من الصعوبات التي نلاقيها في شرح العقيدة المسيحية وتفسير هسا . يمد هذا كم يخف الغموض الذي يحفُّ بمقيدة السليئة الاصلية ، اذ ان ما لطَّيْخه آدم في ذاته هو فكرة الانسان نفسه . هذا المثالي النموذجي؟ الحالد الذي مر في خلد الله وخاطره ، والذي على أ شاكلته ومثاله جاء البشر اجم . الا أن المرفة الحقة العميقة الغور ، البعيدة الجذر ، تتعسدى بكثير ؛ قدرتنا على تفهم الامور ؛ كما تجاوز كثيراً طاقــــة العقل البشري . فالمعرفة تحصل باكتناه الشعراء ، باكتناه الله في هذه الشطحات الصوفية وانخطافهم الروحي .وفي هــذا السبيل هبط لوفيفر ديتابل ايطاليا عام ١٤٩١ و ١٤٩٢ حيث تم له الاتصــال بمارسل فشينو والهمولا

بربارو الذي كان أخذ على نفسه ان يكشف عن حقيقة تعاليم ارسطو ، عندما راح يهاجم اتباع فلسفة ابن رشد . وتردد لوفيفر ديتابل ، بين ١٤٩٩ و ١٥٠١ ، على الصتحاف المشهور ألد مانوس ، في البندقية وصاحب اكبر دار نشر فيها ، واشهر هذه الدور طراً ، في جميع المحساء اوروبا بمطبوعاتها . وقصد عام ١٥١٠ ، المانيا الرينانية ، جاء مدينة كولوني ، موطن المتصوفة ومعقلهم الاكبر ، ونزل ضيفا على جمعية اخوة الحياة المشتركة ، فزودوه بكتب وابحاث تبحث في التصوف والمتصوفين . نشر بين ١٤٩٤ – ١٥١٥ شارحاً ومعلقا ، مؤلفات نقولا دوكوس ، والمؤلفات الرمزية التي وضعها تريسمجيست Trismégiste ودنيس الاربوباجسي ، والقديسة اليصابات . كذلك نشر عام ١٥٠٠ ، الطبعة التي اعدها لسفر المزامير كما نشر عام ١٥١٧ وهكذا اسهم فعلا" في إيقاظ روح التقوى ، في النفوس .

وقد جاءت اعمق اثراً وابعد مدى ، الآثار الفكرية التي وضعها الفيلسوف ايراميوس والكاتب الهولوندي ايراسموس ٢ هذا الراهب والكاهن الذي ولد عام ١٤٦٦. والذي تخرج من جامعة باريس حيث اقام من سنة ١٤٩٥ – ١٥٠٠ . فقد كان من رواد النهضة الانسانية . ومن اضلع رجال العصر معرفة باللغة اللاتينية ، مجيث كان يخدش اذنه ما يسمعـــه ويشاهده من هذه اللاتينية المكسرة التي وردت على اقلام الكتاب السكولاستيكيين . جاء انكلترا عام ١٥٠٠واقام في جامعة اكسفورد حيث لقي جون كوليت، اثر رجوعهمن إيطاليا وهو على اشد ما يكون اعجابــــا بشيشرون وافلاطون ، والذي التحق ، عام ١٤٩٦ بكلية الجدلية ، فكان اول من طبق ، في دراسة رسائل القديس بولس، مناهج النقد الحديث التي طبقها العلماء الايطاليون ، في درس مخلفات قدامي الاغريق الفكرية ، هذا النهج الذي كان لوفيفر ديتابسل بالذات شرع بتطبيقه في دراسة ارسطو . وراح كوليت، يشرح رسائل بولس ويفسرها كا يفسر ويشرح اي رسائل وجهها كاتب ما لاصدقائه ، محاولًا ان يلتقط في بساطتها وتجريداتهم. فأفاض كوليت من انواره على ايراسموس الذي كان وقع تحت تأثير جان فسترييه ، رئيس دير الاخوة المرشدين في سانت اومير ، بفرنسا . فقد حفظ هذا الاخير عن ظهر قلبه ، رسائل بولس الرسول وخرج منها بصورة جلية واضحة ، متحررة تماماً بالروح والحق ، ضارباً بعرض الحائط ، هذه الاحتفالات وهذه المراسم والطقوس النافلة التي لا طائل تحتها .

نشر ايراسموس ، عام ١٥٠٠ كتابه : « الامثال » وهي حكم وأمثال انتقاها من الكتتاب القدامي ومأثور كلامهم وشوارد الحكمة التي تساعدنا على تفهم المقاصد الالهية . كذلك نشر كتاب شيشرون: « حول الوظائف » . فالمثال البشري الذي رسمه الاقدمون يساعد على توجيه الانسانية نحو أهدافها السامية ، غير ان يسوع وجده هو الذي يحقق فينا المثال الاسمى والاكمل

وراح ايراسموس ينشر عام ١٥٠٣ ، كتابه المشهور المعنون : « رفيق المناضل المسيحي – Enchiridion militis christiani وهو كتاب صغير الحجم كتب بلغة لاتينية ناصعة ، جزلة ، اراده صاحبه سلاحاً للروح ، شبيها بالخنجر حلاح الجسد .

واخذ أيراسموس يقنع قارئه بأنه مسيحي كآذب لأنه لا يتصرف كالمسيحي الحقيقي . و ترى قريبك تتحالف عليه الآلام والاوصاب فلا تهتم لامره ولا تكترث لوضعه ؟ كل ما يهمك أنت ، ان يسلم رأسك ، لا تأخذك فيه شفقة ولا رأفة ، فالامر لديك سيان . هل تستطيع أن تقول لي لماذا لا تشعر نفسك نحوه باي عاطفة ؟ الجواب بسيط للغاية ، يا أخي ، فأنت لا تشعر بشيء نحوه لأن نفسك ميتة فيك — نعم ميتة هي — لانها لا تنعم بالحياة الحقيقية التي هي الله ، أذ حيث يكون الله تكون الحبة ، لأن الله محبة هو » .

ولكن تتجدد فيك الحياة المسيحية ، حياة النعمة، لا تذهب للرهبان، أذ انهم قوم إستسلموا للخرافات ، فهم قوم ظلام ، قساة ، خطفة حقودون ، نمسامون ، نفسائون ، همهم الشجار والنكايات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق ، يتباهون بما تم لهم من خير ، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور ، يخيل اليهم أنهم على صدلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون ، فهم مراؤون، ومسيحيون زائفون اذلا يهمهم الا ان يلمعوا، او ان يبزوا سواهم في مجادلاتهم الدينية .

اما المون الذي انت مجاجة اليه ، فسيأتيك من المسيح نفسه ، اذ يعلمنا بولس الرسول ان المسيحيين يؤلفون ممسع السيد المسيح جسدا واحداك المسيحيون الاعضاء والمسيح منسه الرأس . فالجسد يحييه المسيح ، في كل لحظة بدمه الذي بذله على الصليب وبنعمة الروح القدس . نحن بذاتنا ضعفاء ولكن بوصفنا اعضاء في جسد السيد السيح السري ، نستطيع ان نعمل كل شيء . وبصفتنا اعضاء في جسد المسيح ، هو يحررنا من الخطيئة ويعطينا الحرية الحقيقية ، ويسكب علينا الاطمئنان والرجاء والفرح ، على شرط ان نخصه بجبنا ونقف هــذا الحب عليه وحده . كل شيء حسن : المعرفة والصحة والةوة حتى والمال ، اذا ما ساعدنا على الازدياء حبًا وتملقاً بالسيد المسيح . والذي يبعدنا عنب هو الشر والاثم . فاذا كنت تتصرف بالمال تصرف الحازن أو امين الصندوق ، فيمر بين يديه بر"اقًا في طريقه نحو الفقراء والمساكين ، اما اذا كنت تختزن المال لذاته ، فالاوفق ان تطرح به الى البحر اذ يبعدك عن السيد المسيح ويسبب هلاكك . كل مناسك العبادة ومراسم الطقوس الدينية ، هي حسنة بحسد ذاتها ، اذا كانت تعبر فعسلًا عن الحبة ، وإلا فشر هي ووبال . انت تصوم لتكون الى جنب السيد المسيح على الصليب ولتتألم معه بعض الشيء . هذا شيء حسن جداً . أما أن تصوم لأن غيرك يصوم ، القديس روكس أو القديسة بربارة. فاذا كنت تقصد بعملك هذا تكريم صورة السيد المسيح التي يحملونها في نفوسهم والحصول بشفاعتهم على نعمة التشبه بهم والسير على نهجهم لتصل الى محبسة يسوع ، 'عد" عملك هذا برأ وصلاحا ، اما ان كنت تستشفعهم ليحرسوك من كل ضمير واذي

ان الله يحب ان نعبده بالروح والحق ، والقلب الطاهر والاستقامة . أما ما يبغضه الله فهو هذه الحركات والتصرفات التي لا تتم قط عن شعور حقيقي ولا تفيد شيئاً بما هو لله . ما معنى السجود والركوع في الكنيسة ، والقلب يعج بالحقد ويغلي ضفينة . ومسا نفع انشاد المزامير والتسابيح، والفكر تائه مشتت . المهم هو تنقية القلب وتطهيره من كل رجس . المطلوب تحقيقه هو ما جاء في خطاب السيد المسيح على الجبل ، اي ان تحول خدك الايسر لمن ضربك على خدك الايمن ، اذ ردة الفعل المثلى في المسيحي هي ان تحمل الشرير على رمي سلاحه وطرحه بعيداً لشدة ما يرى من كرم نفسك وطول اناتك ،

ولكي نساعد السيد المسيح ليبني فينا الحياة الداخلية علينا ان نعتصم بالتأمل و صلاة القلب الحقيقية . و خمس كانت تتفجر من اعماق القلب خير من عشرة آلاف كانة تكرج على طرف اللسان وتذهب في الهواء هباء و دالشوق الشديد الذي تجيش به اعماق النفس هو الذي يجمل الله يصيخ باذنه الينا و الشميط عمثل موسى النبي : فهو لا ينبت ببنت شفة وهو في حضرة الله العلى ؟ اما قلبة فيلهج صارخاً : لماذا دعوتني يارب?

اما الوسيلة الثانية فهي معرفة شريعة الله ، و غذائنا الروسي » . ثق يا اخي الحبيب ، أنه ليس من تجربة ، مها اشتدت وطأتها ومها خطر شأنها الا وتستطيع ان تنغلب عليها بقراءتك الكتاب المقدس قراءة تدبر وتفهم . علينا ان نفتش عن الروح تحت الحرف ، عند هؤلاء المعلين الرمزيين الكبار ، امشال : بولس الرسول و دنيس الاربوباجي ، والقديس اوغسطينس واوريجينيس ، والن نستعد لفهم هذه الامور بالاستعانة بمؤلفات دنوية كتلك التي وضعها افلاطون . علينا ان نربي فينا قوة التمييز ، وان ننمي في ذراتنا ملكة المحاحمة المقلية ، وان غكم على الاشياء بانفسنا ، أذ يتحتم علينا الانحدد مبادىء سلوكنا على المألوف من أعراف الناس وعاداتهم حتى ولو لقيت استحسان البابا وحازت على موافقة الملوك ، بل علينا ان نزن هذه الاعراف ونقيسها وفقاً لتعاليم السيد المسيح . وهل من ضر علينا اذا ما كان قليلاً عديدنا او كنا فئة صغيرة ? ويكفي ان تنال قضية ما أو ان تحوز رضى المدد الاحبر حتى تصبح موضوع ظنه وارتياب . كانوا ابداً قلة وسيكونون دوماً فئة صغيرة ، هؤلاء الذين سيحافظون على نقاء القلب والضعير ، ويتحلون بالسداجة والفقر الروحي والتجرد ، ونكران الذات ، ويستمسكون بالحقية التي عليها السيد المسيح . وهكذا نرى كيف ان الامر ينتهي عند ايراسموس الى حرية الفكر ، والى فردية المرء التي اكثر ما تليق بالحركة الانسانية ، وبالاحرى ، حركة و الانسانية ، والاحرى ، حركة و الانسانية .

فلا تسل ، بعد هذا عن الدوي الذي احدثه كتابه و رفيق المناضـــل ، الذي اتبعه ، عام

١٥١١ ، بكتاب آخر عنوانه : ‹ د تقريظ الجنون الذي جساء صورة عن الاول ، انما باسلوب تهكمي ، لاذع . فاشتهر بذلك اسم ايراسموس وامتد صيته في كل من ايطاليــــــــــا واسبانيا ، والبلاد الواطئة ، وراح يعلم في جامعة كمبريدج ، في انكلترا ، في كلية كريستي ، حيث اخـــذ يعد طبعة جديدة للعهد الجديد / باليونانية نشرهـا في مدينة بال ، عام ١٥١٦ ، في دار النشر المعروفة بدار قروبن Froben . وقدم لهذه الطبعة بخطبة حث فيها الناس على درس الفلسفة ؟ المسيحية ، عنوانها و Paraclésis ad philosophiae christianae studium ، دعوة الى در اسة الفلسفة المسيحية » . يجب الا يجهل احد بعد و فلسفة المسيح ، والمعلم الوحيد المرسل من السهاء و هذه الفلسفة التي هي في متناول الجميع، لان في مقدور اي كان ان يُرِد َ وِر ْدَهذا المعين الصافي، في بضمة كتب سهلة المأخذ : كانجيل القديس يوحنا وبعض رسائل القديس بولس الرسول ونبؤة اشعيا النبي ، أذ باستطاعة أي كان أن يتفهم جيداً ﴿ لأَنِ العقول تُعتبس والنفس تستسيغ بيسر ما يتلاءم مع الطبيعة ، . والحال ان فلسفة السيد المسيح، هذه الفلسفة التي يسميها هـــو نفسه الميلاد الثاني ، هي تجدد الطبيعة البشرية التي خلقت طيبة . وسيصادف القارىء ، باسرع ما يمكن ، معلمًا ومرشدًا هو الروح القدس الذي يحــــل بكل مسرة ، في النفوس الساذجة . و فالشمس التي تشرق علينا ليست باكثر التصافأ بالناس ولا ايسر تناولاً من تعالم السيد المسيح ... واني لاتمنى من الصميم ان تتمكن أوضع السيدات من قراءة الانجيل ، ومن قراءة رسائل القديس بولس . وعسى أن تجود الساء بمن يقوم بترجمة الكتب المقدسة الى جميع لغات الارض مجيث تصبح في متناول الجميع وتيسر مطالعتها ليس فقط لسكان اسكتلندا ، وايرلندا ، بل ايضاً للمجم والعرب . صحيح أن البعض سيمدون لها طرف اللسان هازئين ولكن لا بد من الكتاب المقدس ويلهج بها ويده على الحراث ، وأن يطلع من بين الحاكة والنساجين من يتغنسى يبعض نصوص الكتاب المقدس بينا تتعاور يداه الوشيعة ذهابا وإياباء وان يجد المسافر فيعزلته ما فيه سلواه وتعزيته في سيره الرتيب، بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع احاديثهم وحديث سمرهم ، . وهكذا نرى المسيحية تغذي جميع نشاطات الانسان وتسيطر على كل علاقاتــــه الاجتماعية ، وتملُّذ كل حياته « فاللاهوتي الحق ، ليس هذا الذِّي يمضي في استخلاص البراهــــين والادلة ويسوقها حججا متصلة الحلقات ٬ آسره في بلاغتها دامغة في مدلولها٬ بل اللاهوتي الحق هو هذا الذي يعلم ويرشد بكل ما فيه من اقتناع وايمان حي ، وحسن سلوك ، وحياة مثالية ، ويحتقر الماديات ويعرض عنها . . هو الذي امتلأ منروح المسيح ويعلم تعاليمه وبنشر مبادئه . . هو هذا الذي يحرص على غرس هذه التعاليم في قريبه ويحرضه على العمل بها ، ويأخذ بيده الى مرابض الايمان . هذا هو اللاهوتي الحق ، سواء اكانت يده على الحراث أو وراء منسجه ».

كل هذا يتفتى كل الاتفاق وتعاليم الكنيسة . فايراسموس هو هنا، في صميم الصراط القويم ، في صميم المختها الخطيئة الاصلية في صميم الارثوذكسية المستقيمة الرأي . فالقول بالطبيعة البشرية ، التي لطختها الخطيئة الاصلية

ودنستها دون ان تفسدها كليا ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابه ودنستها دون ان تفسدها كليا ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابه و paruclesis ميلي، بالمواد السريعة الانفجار . فاذا ما راح قارى، يمضي ، مثلا في استخلاص النتائج المترتبة على القول ان الروح القدس هو الممل ، ومضى في استنتاجه هذا الى الحد الأقصى، انتهى حتما الى وضع ، اضطر معه امام المنطق الآسر ان يسلم بان أقل وبئة منزل واية مسكينة ، تطالع الكتاب المقدس ، مستضيئة بالوار الروح القدس ، قسد تطلع برأي او تفسير ، يناقض تما جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة . واذا مضى القارىء على مثل هذا النحو ، وبيده مثل هذا القياس ، انتهى الى التشليم بان اللاهوي الحق هو هذا الفلاح ، أو هسذا الحائك الذي يثل في سيرته وسريرته ، قول السيد المسيح : أفلا ينتهي بسه المطاف الى استنتاج آخر ، الى نكران كل صفة كهنوتية في الكاهن ، فيضرب بعرض ألحائط ، السلطة في تسلسلها المترابط ، وينكر بالتالي الكنيسة ؟

بعد نشر كتابه الاخير الذي اشرنا اليه أعلاه ١٠ صبح ايراسموس زعــــ الانسانيين الانجيليين، في جميع انحاء اوروبا . فنشر ، بالاتفاق مع الراهب الدومنيكي جـــان فابر ، في خريف عام ١٥٢٠ ، رسالة طالب فيها بوجوب عقد مجمع مسكوني . وبما يلفت النظر في هــذا الامر ويدعو الى شيء من الغرابة والدهش ، هو اشتراك هذا الراهب الدومنيكي باعداد هذه حزيران السابق براءتــــــه المشهورة Exsurge الذي حرم فيها الراهب المتمرد لوثير وقطعه من عضوية الكنيسة وشراكتها ، حتى ان اللوثريين الالمان استهولوا الامر ، وراحوا يقترحون بوضع انفسهم تحت تصرف ايراسموس ، حتى ان لوثير نفسه عرض عليه ، عام ١٥١٩ ، ترأس الحركة الانتفاضية التي قام بها ، فرفض . وقد ُخيتل للجميــ . بين ١٥١٦ – ١٥٢١ ، ات الكنيسة ستةوم ، هي نفسها باصلاح نفسها ، وذلك باتفاق على نصوص معينة يتفتى عليهسا الاطراف المعنيون ؛ يُقره مجمع مسكوني يُعقد لهذا الغرض ؛ اساسه مسبحية تتمتع بحرية واسعة بعد تحديد القضايا الايمانية الاساسية ، وفافاً للمنهج الذي فصله الراسموس في رسالة له إلى يول فولز ، رئيس دير هوغشوفن ، مؤرخة ١٤ آب ١٥١٨ ، هذه الرسالة التي جاءت مقدمة الطبعة الثانية لكتابه : درفيق الفارس المسيحي ، التي ضمنها الامور التالية : صرف النظر عـن أي جدل او مناقشة مع اتباع الفلسفة الاسمية ، الاقتداء بالسيد المسيح ، تحديد بعض قضايا الايمان والآداب بكُلمات مقتضبة ؟ الكمال المسيحي حسبا يستطيع المسيحي تحقيقه في حياته الخاصة ، لان و الكمال المسيحي يتمثل ، قبل كل شيء في ما يختلج في النفس من احاسيس ومشاعر وليس في نهج الحياة ، ؟ إذا الغاء طغمة الرهبان بالتالي ؛ ونسخ الفرائض التي الزموا الناس الاخذ بها.

ما كادت هذه الانتفاضة الدينية على الكنيسة ان طلعت حتى ظهرت اختلافسات لوثير ومفارقات اساسية بين المؤازرين لهسا والناهضين بها ، لم يكن من السهل قط حلها

او كبتها ، فأدت بالتالي الى التباعد بين لوثير وايراسموس والانفصال عنه ولا سيما عندما اثيرت قضية التوفيق بين قدرة الله المكلية وبين الحرية التي يتمتع بها الانسان في ارادته . فبينا كان لوثير يسمى بكل قواه ، ولكن دونما جدوى ، أن يكيف نفسه ، وهو بعد راهب تابع للرهبنة الاوغسطينية ، ليسير حسب مشيئة الله وان يتصرف بما فيه مسرته تعالى ، ظهر له ، والالم يحز في نفسه ، ان الانسان اعجز من ان يتمم وصايا الله واعجز من ان ينال، بالتالي ، مثوبة عنده . فقد شعر، في الصميم مدده الشهوة التي تلازم طبيعة الانسان وتتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملًا الى الشر ، إلى الأثم والرديلة ، إلى الشره ، إلى السيطرة على الآخرين ، مجيث يصبح الانسان غارقاً في خضم الخطيئة . فقد عاش لوثير بنفسه، هذه الحالات التي تحسّيل اليه فيها أن الانسان يتملكه فجأة ، شعور عارم لا يقاوم يطبح امامه كالسيل الجارف، ، بمقاصده ونواياه ، ويغرق ضميره ، ويسير به الى دوامة تجره الى الشر . كثيراً مسا فكر بهذا الاشمئزاز يحسه نحو الاعمال الحسنة ، هذه الاعمال التي ، مهما تجاهــــل الانسان الخطيئة وتعامى عنها ، تخالطها ، في احسن الحالات التي يكون فيها الانسان صادق العزم والارادة ، افكار دنيئة ، واهمة، رجسة، تتنزى بالأثرة والمنفعة الخاصة ، وحب الظهور والجسد الباطل، بحيث يشعر المرء ان كل ما يأتيه او يصدر عنه او يفعله ، لا يكن ان يكون صالحًا ، او حسنًا او خيرًا . فقيد تخييرهوهذه الحالات النادرة جداً التي يشمر الانسان فيها وكأن قوة تهبط عليه فجأة منفوق، من العلو ، فيرى نفسه محمولًا الى الامام ، نحو العمل الخير ، البـــار ، فتنبض نفسه ، بصورة نشأ عنده الاقتناع التام بعجز الارادة البشرية الجذري، الذي لا حيلة فيه ، وبقوة النعمة الالهية التي لا تقاوم. وعلى هذا اليقين الذي رسخ فيه ، نهض تفسيره للكتاب المقدس وشرحه له .

وقد توضعت افكاره وتباورت خواطره بهذا الشأن منذ ان وضع شروحه على رسائل بولس الى اهل روما ، عام ١٥١٥ – ١٥١٦ ، ووضع مبادئه العامة في وتنبرغ ؛ ونقده للاهوت السكولستيكيين وتفنيده له ، عام ١٥١٧ . و فالطبيعة البشرية ، بحكم جوهرها ، فاسدة هي وعاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد . ، فحرية الارادة فسدت من جراء خطيئة آدم . وبواسطة الخطيئة الاصلية ، يرى الانسان نفسة مسوقاً الى الشر بصورة لا معدى له عنها . فلا يمكن للانسان ان يريد او يرغب غير الاثم والشر ، ولا يمكنه ان يصنع الا الاثم . غير ان الله القادر على كل شيء ، والذي يعرف منذ الازل ، بما له من سابق علم ، من هم الخالصون ومن هم الهالكون ، يرسل بمطف الهي منه ، نعمته وأيده السياوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى يوسل بمطف الهي منه ، نعمته وأيده السياوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى المسلم بدمه وبذل لاجلهم آخر نقطة مسمراً على الصليب . فالله يعطي هؤلاء ، بعنا ، ويزم فيهم ويسكب عليهم حب يسوع ، والخضوع لارادة الله . والنعمة به وحده يتم الخلاص ، كما ويزرع فيهم ويسكب عليهم حب يسوع ، والخضوع لارادة الله . والنعمة الالهية هي التي تجعل الانسان يرغب في الخيرويسمى اليه ، بعد ان كان زهدفيه و اعرض عنه و تذكر

له ، فتحمله حالاً وتقسره قسراً على النزوع اليه . فالانسان هو ألعوبة بيد الله . و نحن لسنا اسياد علنا ، انما نحن عبيد من المهد الى اللحد ، من البداية الى النهاية » . و و نحن لا دتبرر قط ، مها كان سلوكنا باراً ، واذا كنا نعمل اعمالاً بارة ، فلأننا تزكينا بنعمة الله » (١١. فالمعمة ، والحالة هذه الا تشفي الخاطىء ، فهي تدعه درنساً ، رجساً ، غير طاهر ، غسير ان الله ، بنعمة منه بجانية ، ينجيه من هذا الفساد ويخلصه من هذا النتن الذي يملاً كيانه ، وذلك بفضل استحقاقات السيد المسيح التي يجربها على الخاطىء بالايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي تفيضه النعمة يعليه . ولذا كانت اعمالنا وتصرفاتنا لا شأن لها ولا قيمة البتة لعمل الحلاص . فالايمان وحده ، النعمة تملاً الوحى الله لسيا بهذا ، بواسطة الروح القدس الذي يأتي الينا ويطمئننا بان خطايانا النعمة تملاً انها أنسر الله ، مع الذي يأتي النا ويطمئننا بان خطايانا النعمة تعفرت لنا ، مها كانت اعمالنات اعمالنات الذي تعمل الاعمال الشريرة » . فالله هو الذي يعمل كل عبدون ان يسهم الانسان بشيء . وهكذا نرى ان حرية الارادة وهم هي وخيال .

من هو الذي أدخل في روعنا واقنعنا ان باستطاعة ارادتنا ان تعمل شيئا ، وان في مكنتنا ان نكسب أجراً ومثوبة امسام الله ؟ هم الفلاسفة القدامى الذين بواسطتهم استطاع اصحاب الفلسفة المدرسية ان يفسدوا الكتب المقدسة . فما الذي يعلمه الاهوتيو الفلسفة الكلامية ؟ انهم يرون في من لا يحسن المنطق من رجال اللاهوت هرطوقياً خطيراً ، هذه العبارة التي ينعتها لوثير بكونها هرطوقية مخيفة . وما الذي يعلمه اللاهوتيون من اصحاب الفلسفة الكلامية ? هم يرون انه بدون معرفة ارسطو لا يمكن لانسان ما ان يصبح لاهوتياً . أما لوثير ، فيؤكد عكس ذلك تماما ، فهو يعلم ان الانسان لا يصبح لاهوتياً الا اذا ابتمن عن هوميروس وتجاهله تماما ، و وان نسبة ارسطو للاهوت هي نسبة الظلام الى النور » . «كل ما جاء به ارسطو عن الاخلاق هو عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً ، مناقضاً لهم عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً ، مناقضاً لهم

التصادم بين الانسانية وقع هذا الاصطدام عندما راح ايراسموس ينشر عسام ١٥٢٤، كتابه: الانجيلية والاصلاح وحول حريسة الارادة ، فحرية الارادة ، في نظر ايراسموس ، هي ملكة من ملكات الحرية البشرية ، وصفة من صفاتها الملازمة ، بها يستطيع الانسان ان مأتي كل ما يفضي به الى الخلاص او الى الهلاك الابدي ، وفي هذا السبيل، ونهوضا منسه بهذا الهول، راح أيراسموس يجمع النصوص الكتابية التي تشير او تماسع الى حرية الانسان باختيار الخير أو الشرع على هواه ، فتولى بالتدقيق والتمحيص بعض النصوص التي يبدو عليها انها تدني عكس ذلك ،

⁽ ١) من كتابه : مناقشة لاهوت السكولستيكيين - القضية ٣٩ ، ١٠ ، و ٤١ .

وأخذ يدلل انها ضرب من المجاز ألحق بعض الغموض وأدخـــل شيئاً من الله بس على المعنى الحقيقي لهذه النصوص التي تعني حقيقة ، حرية الارادة في الانسان . وهكذا ، فالنفس البشرية لها القدرة على ان تحكم وتقضي وتقرر ، كا لها القدرة على الاختيار . صحيح ان الخطيئة الاصلية ألحقت بعض الغموض بهذه كا سببت بعض الضعف في تلك ، انما لم تقض عليهما البتة . ولما كانت الخطيئة قد رُفعت عن الانسان بنعمة الله وتحننه ، فقد عادت الى هذه القوى حريتهــا بساوك الصراط المستقم والمضي في غراره ، بمؤازرة النعمة الالهية ومساعدتها .

حتى بدون النعمة ، بقيت حرية الارادة فينا ، قائمة ، ولو ان الخطيئة اضعفتها . بدور النعمة الالهية ، كان باستطاعتنا ان نتجه من الخير والعسلاح ، وان نأتي ، اعمالاً صالحة بارة نستحق بها نعمة الله المبررة . فاذا لم يكن للانسان حريته ، لأنتفت عنه بالتالي كل مسؤولية . فها الفائدة ، والحالة هذه من عدل الله ورحمته ؟ ان الواقع فعلا هو ان نعمة الله وارادة الانسان تعملان معا بالتعاون : فالنعمة تطهر حرية الارادة وتنقيها بما علق بها من شوائب ، كما ان حرية الارادة تعمل هي الاخرى من جهتها .

جاشت حفيظة لوثير لهذه التعالم، وراح يرد على ايراسموس بكتابه و De Servo arbitrio ـ حول عبودية الارادة ،الذي نشره عام ١٥٢٥٠ والذي جمع فيه زبدة تعاليمه بهذا الشأن؛ كاراح يقذف ايراسموس باقذع الكلام ، ويدعوه : « خنزيراً » و « نفاثاً للسموم » كما رأى في كتابــه الاخير : « قيامة اوساخ » ومطـّر - « الاوحال والقاذورات ». واذ ذاك ، أخذ لوثير يهاجمه بهذا القياس ذي الحدين : اما ان تكون لحرية الارادة القدرة على السير بنسا الى الخلاص ، فتصبح النعمة ، أذ ذاك ، لا طائل تحتمها البتة ، ويصبح من التجديف على الله نكران القدرة الالهيمة ، واما ان لا تكون لحرية الارادة اى قوة او فعالية ، فلا تستطيم بالتالي ان تأتى اى عمل او ان تنتج شيئًا ، واذ ذاك تصبح كلامًا مكرورًا باطلًا وهباء منثورًا . والحال فانت تقرر وتعترف بأن حرية الارادة كثيراً ما تحتاج للنعمة ، في كل تصرفاتها وسكناتها ، وبذلك تعترف ضمنـــاً انها لا شيء قط . وراح لوثير ، بوصفه تلميذاً للفيلسوف الاسمى ببيل ، يفكر ويعلم ان جـل ما يمكن لنا أن نتوقعه من مصير هو أن نبقى ، إلى الابد ، مفمورين ، نكرة ، ليس فينا ما يستحق الذكر او يلفت النظر . فحيث لا توجد ظواهر تنم عن شيء ما ، فليس هنالك شيء قط . ما عساك ان تقول لو اني استخدمت اقوالك وتأكيداتك بوجود حرية الارادة ، فاثبت لك منها ان لا وجود لهذه الحرية الستة ؟ فأنت تعترف لحرية الارادة ، يقوة هزيلة ، وان هـــذه القوة تبقى عاجزة ، لا تأتى شيئًا بدون نعمة الله . والحال ، فاذا ما غابت نعمة الله عن هــذه القوة التي لا أثر لها ولا حول؛ أو اذا لم تبلغها نعمة الله وتتصل بها، فما يكنها ان تفعل؟ستقول، ولا شك ، إنها لا تعمل شمئًا صالحًا أذ لا تأثير لها . أذاً هي لا تفعل ما بريده الله أو نعمته أن تفعل... وما لا يتم بنعمة الله٬وما لا تعمله نعمة الله ٬ لا خير فيه . ومن هنا يستنتج ان الارادة لا حرية لها المنتة بدون نعمة الله ، يل انها تبقى ، ابد الدهر ، أسيرة للشر وعبدة له ، أذ تبقى

عاجزة عن الاتجاه وحدها نحو الخير . . وما عسى ان تكون هذه القوة التي لا تأثير لها سوى انها قوة لا وجود لها ? ولهذا ؟ فالقول ان حرية الارادة موجودة ، وان لها قوة ، انما هي قوة لا تأثير لهما ولا فعالية ، اشبه بالقول ان حرية الارادة موجودة لانها لا توجد بالفعل ، وكأنك بذلك تقول : والنار البرد » . فالارادة البشرية تقع ، والحالة هذه ، بين الله والشيطان، وهي ، كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يوجهها ، اتجهت كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هي الاتجاه الذي يريده لها ، وحسبا يريده لها . واذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هذه الارادة حيث يريد لها الشيطان ، وسارت كيفها يريد . والحال ، فالارادة البشرية ، في هذا كله ، ليست حرة قط ، باختيار سيد لها . فهي ستتبع من من الفارسين المتصارعين ، او من من القوتين المتصادمتين ، يتغلب على الثاني » . وهنا نرى ان لوثير اشتط كثيراً وذهب بعيدا ، اذ وجد نفسه وجها لوجه مع مبدأي الخير والشر اللذين كانا يتنازعان السيطرة على العالم . اي وجد نفسه وجها لوجه مع مبدأي الخير والشر اللذين كانا يتنازعان السيطرة على العالم . اي انه لامس هرطقة المانوية باعتناقه مقالتهم فلا عجب ان يتهمه ايراسموس رسميا بالهرطقة ، بين ١٥٢١ – ١٥٢٧ .

هذا الجدل الفلسفي بين لوثير وايراسموس كانالفاصل بينهما والقطيعة بينالاصلاح والانسانية الانجيلية بل كان ابعد من ذلك اذ اصبح القطيعة بين الاصلاح البروتستانتي وعصر النهضة . فغي و الحوار ، الذي نشره سنة ١٥٢٤ ، تصور ايراسموس ، شيشرون كانه شخص ملهم من الله ، فراح احد الذين شاركوا في هذا الحوار وشهدوه يصرح قائلا : تفليت على نفسي بكل صعوبة لامنعها من ان تنطلتي بالصراخ : « يا قديس سقراط ، صل لاجلنا». اما لوثير فانه حكم بالهلاك الابدي لسقراط كما انه سفة كل كبار العقول الذين لمعوا في عهد الوثنية ، بعد ان رأى في فضائلهم سفاهات ، وفي اعمالهم الخيرة الصالحة خطايا ، لانهم عطاوا الله ، في نظره ، من القدرة على ان يؤمن لوحده خلاصنا . « فقد انحدروا الى ادنى دركات الحقارة وانحطوا الى اقصى درجات للبغضاء ، في بلوغ فضائلهم الذروة من التسامي » ، لأنهم نزعوا ، على ابشع صورة من السرقة والاختلاس ، مجد الله ليتباهوا هم به » .

وهذه الخصومة العنيفه بين المذهبين الدينيين الجديدين ، برزت على أشدها ، هي ايضا ، بين النظم الكنسية الاخرى . آثر ايراسموس ان يبقى ضمن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد تحررها واصلاحها . ففي الحين الذي اشتد فيه الجدل وحمي وطيس النقاش ، برزت الوجود كنائس لوثيرية اخرى. فعمد لوثير ، بين ١٥٢٠ – ١٥٢٨ الى تنظيم كنيسة ساكس البروتستانتية ، فجاء تنظيمها نموذجا نسجت على منواله الكنائس الانجيلية الاخرى التي قامت في مقاطعات : همس وبروسيا وأسوج والدانمارك . فقد رأى لوثير ، معتمداً في ذلك على بولس الرسول ، في رسالته الى الروماديين (إصحاح ١٣ العدد الاول) وعلى رسالة بطرس الثانية (اصحاح ١٣) ان السلطة هي رسالة الهيسة ، تقوم على خدمة الله » ، وعلى المسيحي ان يخضع لهذه السلطة . فالأمير أو الملك ، بقطع النظر عما له من سلطة مدنية مطلقة ، يراقب ، بما له من حسق الهي

معطى له ، الكنيسة ويتولى ادارتها . فالاملاك والوقوفات الكنسية التي جاءت هبات من جماعة المسيحيين ، تخضع للسلطة التي عهد الله اليها بتدبير امورهـــا ، للامراء والحكام . فالامراء اللوثريون ، هم مدعوون ، والحالة هذه ، لان مُعلقوا البابا في ما له من سلطة أدبيــــــة ، وبذلك يزيدون ، بواسطة مصادرة الاوقاف الكنسية ، ما تم لهم من ثروة وسلطان. فصاحب السلطة هو الذي يختار الوعاظ وشيوخ الكنيسة ويعين المراقبين الماليين الذين يتولون مراقبة الكنائس ويحرصون على بقاء نقاء مراسم المبادة والطقوس ، باستطاعة رعاة الكنائس ال يتزوجوا . وتكريم صورهم المرسومة بالبيد أو المنقوشة في الحشب أو الحجر . أما الاسرار فلم يبق منها الا السران اللذان رسمها السيد المسيح صراحة ، وهما : سر العهاد وسر الافخارستيا . ولكن تعالم لوثير عن المسيح طلمت علينا بالكثير من الاسرار . فقد راح ، رغبة منه في تعظيم السيد المسيح ، يشدد ليس على وحدة الابن فحسب ، بل ايضاً على طبيعة المسيح الالهية بجيث أوشك ان يلامس الهرطقة القديمة التي قالت بطبيعة واحدة في السيد المسيح.فقد رأى ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح أضفت على الطبيعة البشرية فيه شيئًا من خصائصها وملكاتها الجوهرية ، ولا سيما ، خاصية الوجود في كل مكان او خاصية كلية الحضور . فالمسيح الله هو في كل مكان ، والمسيح الله يمكن ان يوجد في كل مكان . فالمسيح يوجد بالفعــل في الخبز والخر بعـــد ان يتم تقديسها ، اذا ما توفرت لمتناولها ؟ الشروط اللازمة . فقد رفض لوثير الاعتراف او الايمان بالاستحالة الجوهرية التي يستحيل فهمها من وجهة نظر الفلسفة الاسمية ،غير انه يؤمن بالحضور الجوهري . فالمبادة على هذا النحو من المفهوم يمكن تبسيطها ، اذ تقتصر ، في ايام الاسبوع العادية ، على التعليم والوعظ وترتيل المزامير . أما يوم الأحد فيتحتفل فيه بالقداس . فالمذبح والشموع والالبسة الكهنوتية ، يمكن ان يحتفظ بها . فالكاهن يقرأ ، بالألمانية ، الرسائل والانجيل ، وجهور المؤمنين يتلو بالألمانية أيضا ٬ قانون الايمان ، كما ان الكاهن يشرح موضوع انجيل النهار ويفسره، ويتلو بالألمانية كلام التقديس ، ويوزع الفربان تحت اعراض الحبّز والخمر. أما الاعتراف فليس بضروري ولا ما يوجب له . وفي ظل كنيسة الدولة الرسمية يَبْطل كل حَبدَل ديني ، و يُقسَّطَعُ من شراكتها المخالفون لها بالرأي ، كما ان الكنيسة الحــق بالحد مــن حرية الفكر ، وتفرض على الجميع. الطاعة السلبية . فبين هذه الصورة والصورة الاخرى التي تمثلها ايراسموس للكنيسة ، طرفا النقيض.

ففي الوقت الذي كان فيه لوثير يقطع كل علاقة له مع الانسانية الانجيلية ، كان البعض من أتباعه يقطمون معه كل علاقة .

لم يلبث القول بحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد وبالفردية ان اعطى كل نتائجه المنطقية. فالراهب السويسري زونكلي الذي كان يخـــدم منذ عام ١٥١٨ ، الكنيسة الكبرى في مدينة زوريخ والذي عرف عنه اولاً ميله الظاهر الى ايراسموس والتعاطف معه ، ثم أخذ يقع ، اكثر

فاكثر ، تحت تأثير لوثير ، لم يلبث ان تمدّاه سنة ١٥٢٢ ، وتجاوز بميداً تماليمه ، فرذل حق فكرة الاسرار التي حافظ لوثير على بمضها. فالعهاد والمشاء ؛ السري ليسا سوى رمز . فالمناولة لم تعد سوى رمز لرابطة روحية مع روح المسيح ، ليس الا . والعبـــادة اقتصرت على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشتراك . فالشعب أو جمهور المؤمنين هذو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها ، كما أنه هو الذي يمكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة ، من هذا التفسير ، اما الكنيسة فليست سوى ديموقراطيسة تذوب في الدولة الديموقراطيسة. وفي سنة ١٩٣٤ ، تبنى المجلس البلدي في زوريخ ، رسميك ، هـــذه الحركة الاصلاحية التي لم تلبث ان امتدت منها الى مدينة بال ، ثم الى مدينة برن . وقد شعر الكثيرون ان الله بعيــدكل البعد عنهم ، في نطاق المفهوم الذي أعطاه للاسرار الكنسية .

اللاممدانيون

كذلك راح احد تلاميذ لوثير واتباعه هو مونزر يؤسس ، عام ١٥٢١ ، في بلدة زويكان ، من اعمال ساكس ، حركة ، دينيسة اصلاحية ، جديدة ، عرفت مجركة منكري المعمودية او المطالبين باعادة المعمودية . انطلق في حركته هذه منالمبدأ الذي قال به لوثير وعلم أن ما يجعل للسر قيمة هو الأيان الذي ينتقل إلى المنمئد عند المتبساله سر المهاد . اذاً فممودية الاطفال لا تحدث فيهم اي تبرير قط ، ولذا كان من المتوجب إعادة عماد هؤلاء الاشخاص عندما يبلغون سن المراهلة ﴾ اذ يصبح في مقدورهم ، اذ ذاك ، ان يقوموا بعمل الايمان المطاوب . ك حد ذلك علتم مونزر ان كل انسان يتلقى الالمام من الروح القدس مباشرة اذا ما تمنى ذلك ؛ هو نفسه ؟كما يتلقى منه معرفة اية حقيقة حتى انه يتلقى منه اوامر وذو اهي خاصة . يمد هذا ؛ لا لزوم بالطبع ؛ للكنيسة ولا لطقوس المبادة ؛ ولا للقوانسيين والشهر اثم ، ولا لاي سلطة مها كان شكلها . قالروح القدس يخلق عند كل من نزل عليهم الالهام مساواة كاملة : و فالكل هم ماوك و كهنة ، فلا ساجة بمد لاي نظام اجتماعي ولا لاي منظمة او هيئة من هذا النوع ، اذ كان من الواجب العودة بالحياة الى ما كانت جماعة المؤمنسي الاولى ، في مطلع الكنيسة ، من بساطة ، حيث كان كل شيء مشاركا بين المؤمنين ، وهكسلدا نرى ان التمليم الجديد كان من شأنه ان يقضي حتماً الى الشيوعية . وانتشر دعاة هذا المذهب الديني الجديد في جميهم أرجاء المانيا الجنوبية ، وموراقيا وبولونيا ، ولم يمتموا أن أنشقوا على أنفسهم طائفة ين ، متباينتين : طائفة المسالمين منهم ، وطائفة المنادين منهم بالمنف والشدة التي انضم اليها مونزر . فقامت بينها حروب شديدة دامية >طاحنة عرفت بمعروب الفلاحين (١٥٢٩ ـ ١٥٢٩)

الحلم الذي راود ليلا ، خيال ايراسموس بطاوع كنيسة جمعسماء الاصلاح الطائرايين .. البابا الجمداد من شبابها واتصللح من شأنها على يسد مجمع مسكوني ، هذا الحلم الذي ساول الامبراطور شارل الخامس طيلة حكمه ، تحقيقه والخروج به الى حيز الواقع ، تبخر وراح هباءً منثوراً . وشرعت الكنيسة الكاثوليكية تممل من جهتها على تمتين تنظيمها وتقوية كل ما من شأنه ان يباعد بين الكثلكة وجهاعة الانسانيسين الانجيليين والاصلاح البروتستاني . وقد بوشر بالاصلاح الكاثوليكي في الوقت الذي تتتابع فيه مساعي الانجيليسين والاصلاحيين للقيام بعمل مزدوج ، مشترك تسام فيه السلطة الشرعية : البابا والكنيسة مسن جهة ، ومن جهة ثانية ، النفوس المشبعة بروح الدين الحق ، السلطة الكنسية التي راحت تتقصى الهراطقة ، وتلاحقهم ، وتحدد قضايا الايمان ، والرهبان ورجال الاكليروس والعلمانيين الذين يقومون بمناسك العبادة ، ويحيون في نفوسهم حقيقة ايمانهم .

فالبابا قد تخلص نهائياً من النتائج والمقررات الاخيرة التي افضى اليها مجمع كونستانس وبال. فعقد البابا ليون العاشر اتفاق الكونكورداتو مع الملك فرنسوا الاول · أقر". `ووافق عليــــه مجمع لاتران ، عام ١٥١٦ . فقد أهملت هذه المعاهدة في نصهـ النهائي ، الفصلين الاولين من الاتفاقية الدينية التي عقد ما الملك شارل السابع ، عام ١٤٣٩ ، مع الكنيسة والتي تعرف ب: La Pragmatique Sanction de Bourge : هـذه الاتفاقية التي ضمت بين ما تضمنته من نصوص ، قرارات مجمع كونستانس التي نصت على وجوب انقضاء فترة عشر سنوات ، بين عقد مجمع مسكوني وآخر كما نصت على ان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا . ومن جهة ثانية ، فابرام البابا لهذه المعاهدة الدينية جاء دليلاً على سلطته العليا ، كما انه باصداره البراءة « الراعى الابدي Pastor ælernis ، عام ١٥١٦ ، ألغى ، من تلقاء نفسه ، معاهـدة بورج الدينية معللاً عمله هذا : « بانه من الضروري جداً للخلاص إن يخضع جميع المسيحيين لرئيس الاحبار الروماني ١٠ كما جدد دستور الكنيسة حسما وضعه البابا بونيفاسيو الثامن في براءتـــه: و Unam Sanctam) . فالكنيسة لها رئيس واحد هو السيد المسيح ، وممثل المسيح على الارض ، خليفة القديس بطرس . فالكنيسة تجمم في يدها السيفين : الروحي والزمــني . فالبابا يحتفظ بالسيف الروحي (السلطة) ويعهد بالسيف الزمني الى الماوك الذبن لا يجوز لهم استعماله الا وفاقًا لارادة البابا ، الذي يقرر سلوكهم لما فيه خير الكنيسة . وهكذا فالجدل الذي وقع لاستبدال جعل من الكنيسة نظاماً ملكياً ينزع الى الحكم المطاق.

علاء اللاموت ورمس على اصدار امره بالقاء الحجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت وحراس على اصدار امره بالقاء الحجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت تعاليم ايراسموس ثالت بعض الحظوة في البلاط البابوي ، فقد وجد علماء اللاهوت الكاثوليكي ان دفياع ايراسموس عن حرية الارادة وتعاليمه حول هذا الموضوع ، ليس واهياً ولا يفي بالفرض ، فحسب ، بل ايضاً فيه الكثير من الشوائب التي تعتوره والمفالط التي تشوه وجه الحقيقة . فراحوا يجرحونه وينقدونه في سلسلة من الرسائل والردود المفحمة ، منها الرسالة التي وضعها الاسباني سبولفيدا ، عام ١٥٣٦ ، بهذا العنوان ١٠٥٤ ملاهوت ، على لادوت على اللاهوت ، على اللاهوت ، على الدادوس على اللاهوت ، على الماهوت ، على المناهون القدر وحرية الارادة رداً على لوثير ، . فقد أخبذ علماء اللاهوت ، على المناهون المناهون المناهون المناهون ، فقد أخبذ علماء اللاهوت ، على المناهون المناهون ، فقد أخبذ علماء اللاهوت ، على المناهون المن

أيراسموس الغاية الاولى التي وضعها نصب عينيه ، الا وهي معطيات الوحي ، اي الكتـــاب المقدس ، وهي النقطة التي انطلق منها اللاهوتيون ، بالذات . فقد رغب الراسموس ، وفي هــذا قناعته واقتناعه ، أن يشدد ، من الوجهة التاريخية ، على ما في معطيات الوحســي ، من القيهُم الروحية والادبية في الكتاب المقدس ، بما لفت نظره ووقف عنده ، ليجمل منها محور الحماة الروحية الداخلية . كَان من الممكن ان تتم الو أخذ برأيه ، تجربة دينية شخصية ليس من ينكر قيمتها ، وهي تجربة لم يكن لتجيز التفاضي او التنكر لطريقة اخرى ، كرستها الاجمال للوصول الى المعرفة ، هي علم اللاهوت ، كانت تبز الاولى سمواً وتفوقها تمالياً الى حد بعيـــد ، فعلم اللاهوت ؟ لم يكن ليرضى فعلا ؟ بالتوقف عند هذا الحد ؛ بل اراد أن ينطلق من معطسات الوحي ، من الكتاب المقدس ، ليصل عن طريق العقل والاستعانة به ، الى تفهم اكبر لهــــذه المعطيات . وللقيام بهذه العملية ؛ رأى علماء اللاهوت ان لهم كل الحق ان يأخذوا من كل فلسفة . او نظام فلسفي ، ما تضمّنه من تعالم شاملة ، كلية ، يصح تطبيقها في كل زمان ومكان و ويمكن الاخذيها في كل أ"بن وآن ؛ وان يتنتوها وان كيالوها ويحتصوها ؛ على اضـــواء الايمان ، في مجهود تعاوني مشترك يتصف بالواقعية والعلم ، يسمو بكثير ويتعالى ، دونما قياس ، فوق كل تجربة ذاتية ؛ فردية ؛ داخلية ؛ ولا يسدع مجالًا ؛ بشكل من الاشكال ؛ لاتشهام الكنيسة المسيحية ، بالانزلاق نحو الفكر الوثني او التعويل عليه بنقل شيء منه . وهذا القول يصح بالطبع ، ضد لوثير نفسه .

ومما أخذه علماء اللاهوت على ايراسموس انزلاقه هو وانحداره الى نصف المرطقة البيلاجيانية ، فاتهموه انه اقترب كثيراً ، ان لم يكن شارك ، من مقالة بيلاج الذي علتم انه عندما تسقط الخطيئة عن الانسان ، بنعمة الله ، ويصبح حراً بالتالي ، فهو لا يعود بحاجة الى نعمة جديدة ، فيستطيع ان يؤمّن خلاصه بما فيه من قوى كامنة ضمن ارادته الحرة . فايراسموس وغلطته يقوم بتنازلات كثيرة للحرية البشرية وللارادة البنسرية . فقد كانت زلة ايراسموس وغلطته الكبرى ان يضع ، على مستوى واحد ، ارادة الانسان وارادة الله ، كأنها شخصان يجرّان مما سفينة في وقت واحد . ففي وضع كهذا ، اذا ما شدّ احدهما اكثر من الآخر قليلاً ، جسذب السفينة اليه اكثر من التساني . فاذا ما تصور المرء نشاط الله ونشاط الانسان وفعالية كل منها على مثل هذا النحو اوالشكل ، كانالتسليم لواحددون الآخر ، اكثر من اللازم ، فيه انتقاص من على الثاني ، فيجب الا يفرب عن البال قط ان الله تعالى هو العلة الاولى ، وان ارادة الانسان مي يمر الثاني ، فيجب الا يفرب عن البال قط ان الله تعالى هو العلة الاولى ، وان ارادة الانسان والسبب الاول الذي يحركها او يدها بالحركة . فالله هو الذي يحرك الارادة في الانسان ، والكن ودن ان ينتزع شيئاً من حريته ، اذا ، ما الذي خلقه الله ؟هو بالذات ارادة حرة ، ارادة شامها حرة وعندما يوليها بنعمته ، حركة او دفعاً ، فهي تصبح اكثر حرية لانه هويمطي الحركة الدافعة حرة وعندما يوليها بنعمته ، حركة او دفعاً ، فهي تصبح اكثر حرية لانه هويمطي الحركة الدافعة خدة الحرة وعندما يوليها بنعمته ، حركة او دفعاً ، فهي تصبح اكثر حرية لانه هويمطي الحركة الدافعة خدة الحرية .

الانسان اكثر ما يجب، بنا جرده لوثير، من كل شيء .

أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس ايضاً عدم تفهمه الحياة الرهبانية؛ هذه الحياة التي ترمي الى مشاركة الله عن طريق التشبه به . أفليست الندور التي يقطعها الراهب على نفسه ، بالدليل القاطع على اختصاصه بالله وحده والعمل في سبيل مرضاته . فالتقييد باحكام هياضدق وشروطها اعلان عنها وعن فوائدها امام الناس . فالندور ومظاهر التقيد بهيا هي اصدق الوسائل وأمثلها لمن ينقطع كلياً الى الله ، عند من أنس ميلاً لهذه الدعوة واستجاب لها . فقيد تجاهل ايراسموس الدعوة الكهنوتية واسقط مسن حسابه النعمة التي ترسخها في نفس من استجاب لها .

الجامع بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعالم لوثير وحكمت عليها بالزين بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعالم لوثير وحكمت عليها بالزين والفساد . والجمع المعروف بمجمع و سانس ، التام في باريس، عام ١٥٢٨ و بقصد شجب تعالم اللوثريين الهرطوقية ولاصلاح الكنيسة » . فقد كان هذا الجمع بالفعل ، مجمعاً اقليمياً ترأسه الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا المانية تتعلق بالكنيسة جماء . فالجمع قام يناضل في الجال ذاته الذي ناضل فيه ، الانسانيون الانجيليون وجماعة الاصلاح ، اي الكتاب المقدس نفسه . وضد ادعياء المصلحين هؤلاء الذين يزعمون انهم يعتمدون نصوص الكتاب لا غير ويرفضون التقليد الكنسي باعتباره مسن وضع بشري ، قرر المجمع وجوب الاعتقاد بقضية ما من قضايا الايمان بمجرد ما تؤكد ذلك الكنيسة السكائوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقدسة . وعندما راح يؤكد ان السكائوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقليد المتواتر عبر الاجيال ، اشياء كثيرة لم تدوّن في الكتاب المقدس ، أما وصلت الينا بالتقليد المتواتر عبر الاجيال ، أمان نسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يَقتُل السيد المسيح ان الروح القدس سأقي فيا بعد ليتم أهل نسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يَقتُل السيد المسيح ان الروح القدس سأقي فيا بعد ليتم استنارة الرسل ويكل اعلان الوحي الالهي؟ . والروح القدس يكل الوحي على مر الاجيال .

وقد اعلن المجمع حرية الارادة ، اما عمل النعمة فيتم على مرحلتين . فالاردة البشرية ، اذ تكون تحركت بمراحم الله ، تحاول تنفيذ ارادة الله ، واذ ذاك ، يعطيها الله نعمته الفاعلة ، فاذا ما استجاب الانسان ، كا يجب ، فذه البادرة وقام بالاعمال الصالحة التي يترتب عليه القيام بها ، استحق بعمله هذا ، ما يؤهم للحياة الابدية . والنعمة هي ضرورية ، وهي لا تلحق اي اذى او اي ضعف بحرية الارادة . فهي ليست مازمة او قاسرة (لوقا، اصحاح ٢٢)عدد ٢٢ – ومق اصحاح ٢٧ ، عدد ٣٧) . و فالله ، ، كما يصرح المجمع ، و يقف امام الباب ويقرع ، فاذا ما فتحوا له الياب دخل على صاحب الدار وتناول معه الطعام » .

سبق للوثير ولزونكلي واعلنا ، ان بالايان وحده يخلص الانسان ، يؤكسد الجمع ، ولكن ، حذار من إلحاق اي تعسشف بنصوص الكتاب المقدس. فنحن نخلص بالرجاء والحبة . فاسمع ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنئس (اصحاح ١٣ ، عدد ٢) : وقد تخفير واذاكان لي كل الايان الذي ينقل الجبال ولم تكن لي الحبة ، فأنا لست شيئًا » . وقد تخفير حثيراً لمريم المجدلية لانها احبت كثيراً ، فالاب والابن يأتيان لدى الانسان ويقيان عنده ، اذا ما احب السيد المسيح (يوحنا ، اصحاح ١٥ ، عدد ٣٣) . من هنا نستنتج ضرورة الاحمال لان الحب والصلاح لا يظهران الا بالاعمال (انجيل يوحنا ، اصحاح ١٤ ، عدد ٢١ – وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١ – وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١) ، هي الاعمال التي تحسب على الانسان والله يجازي كلا " بحسب اعماله . سنندان على اعمال الخير التي عملناها ، وعلى الطريقة التي نكون اسرعنا معها لاطعام الجيساع وإرواء العطاش ، وبذل الكساء لمن كان عرياناً (متى ، أصحاح ٢٥ ، عدد ٣١ – ٢١) .

الصلاة الباطنية - القديس كان لابد من هذه التحديدات وابرازها للعيان وللاذهان . الا انه اغناطيوس ده لوبولا كان يخشى ان تبقى حرفا ميتا لو اقتيصر عليها فقط . فلكي ينتقل المؤمن الى العمل ، وجب ان تتحرك نفسه بعواطف قوية ، كمحبة الله ، وكره الخطيئة . يجب ان نعجب يسوع المسيح ، و والمقياس الوحيد لحبة الله هو ان نحبه فوق كل قياس ، ولكي نحرك فينا هذا الحب اللامتناهي بعد الذي قاساه وعانى من جفاف الفلسفة الاسمية ، راح اخوة الحياة المشتركة ، منذ القرن الرابع عشر ، في البلاد الواطية ورهبان دير وندشهايم ، يحاولون صرف حياتهم ، في اقتداء السيد المسيح ، في عشرة موصولة مع الله ، وذلك باعتادهم النهج ذات الذي سار عليه المتصوفة ، امثال رويزبروك وطول ، وادخال تحسينات على وسائل التأميل والصلاة الداخلة .

سنة ١٤٩٤ ، نشر جان 'مبرت كتابه الموسوم :

والتأملات الروحية ، الذي اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعية من التارين المعمول بها والتأملات الروحية ، الذي اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعية من التارين المعمول بها لدى اخوة الحياة المشتركة وكهنة دير وندشهايم القانونيين لترويض النفس على التأمل والتجريسة لكل يوم من ايام الاسبوع . وراح غارسيا ده سيسنروس يستوحي الكثير بمساجاء في هذه المجموعة عندما وضع كتابه : و تمارين الحياة الروحية ، الذي نشره مطبوعاعام ١٥٠٠ ، متخذا منه اداة لاصلاح رهبان مونتسرات. وعلى هذا الكتاب عول اغناطيوس ده لويولا عندما وضع كتابه : و الرياضة الروحية ، الذي ابتدأ بكتابته عندما اقام في بلدة منو ر من اعمال اسبانيا،

عام ١٥٢٢. وهكذا نرى ترابطاً متسلسلاً بين رمزيي الاجيال الوسطى حتى القديس اغناطيوس ده لويولا ، وهو ترابط يشابه ، الى حد بعيد ، هذا التفاعل الذي قام بين الفنانين الفلورنتيين ، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر وبيع فناني القرن السادس ، مشابها في الكثير من خطوطه ، للترابط الذي قام بين علماء الطبيعة الباريسيين في القرن الرابع عشر ، والعلما الايطاليين في مطلع القرن السادس عشر . فالانجازات التي تحققت في السنوات الثلاثين الاولى من هذا القرن أوقت على التام ، مجيث اصبح في مقدورنا التأكيد بان شيئا جديدا ، وان نظاما جديدا ، قد أطل علينا . فكل المجاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من جديدا ، قد أطل علينا . فكل المجاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من بعيد ، كتابه ، الرياضة الروحية ، ويرى مؤرخو الرهبنة اليسوعية ان هذا الحتاب انما بعيد ، كتابه ، الرياضة الروحية ، ويرى مؤرخو الرهبنة اليسوعية ان هذا البيان عمل الروح القدس اذ ان اغناطيوس باشر بوضعه ، وهو في بلدة منريز ، قبل اي عمل ادبي آخر صدر له . فجاءت هذه الرياضة وما فيها من تمارين روحية ، إشراقة المنبوغ الخلاق .

فبعد وصول ده لويولا الى باريس بقليل ، عام ١٥٢٨ ليتابيع فيهــــا دراسته ، تولى تدريس الفنون ؛ عام ١٥٣٤ ثم ادخل على تمارينه الروحية ؛ اللمسات الاخيرة ؛ واخذ يوجه بنجساح صغيراً جافاً ، بشكل قانون عسكري ، يحبب الى التائب المنقطع عن المالم ، ترويض نفسه ترويضًا روسيًا ويعمله على اهتماده مرشداً له طوال الشهر الذي ينقطع فيه للارتياض الروحي . فالتأملات موزعة فيه على أربعة اسابيع ، تدور قارين الاسبوع الاولى على التأملات الاساسية : الله هو الذي خلفنا ، وخلفنا لنخدمه ونمبده – وخلق العالم لخدمتنا . ولذا وجب علينا ان نكرس حياتنا لله وان نستمين بالمالم لما يؤول لمجد الله الاعلى . ثم على المتروض ان يتأمسل في الحنطيثة ، وفي جهنم ليثير في نفسه الندامة والاسف واستنكار الماضي من حياته ، والسخط على هذا المالم ؟ عالم الخطيئة . هذا هو الطريق و المطهّر ، أو المنقي . أما في الاسبوع الثاني؛ فعلى التائب المنسحق القلب أن يسلك الطريق و الأشراق ، . عليه أن يتأمل بحياة السيد المسيح في تأنسه › وتقديمه الى الهيكل › وغير ذلك من وقائم حياة السيد المسيح . اما في اليوم الرابع › فمليه أن يقوم بالتأمل الاساسي الثاني ، هذا التأمل الخاص باللوائين . في هذا التأمسل يطلب اليه ان يختار فيه بين زعيمين أو رئيسين : المسيح والشيطان . اما الاسبوع الثالث ، فهو اسبوع الطريق الاتمادي ٬ اي اتماد النفس بالله ٬ طريق آلام السيد المسيح . واخيراً الاسبوع الرابسع ٬ الخمسص للتأمل ، في قيامة المسيح من القبر ، وفي محبة الله .

فهي كل يوم ، على التائب ان يقوم بخمسة تأملات ، مدة الواحدة ساعة على الاقل ، مبتدئاً تأمله الاول عند منتصف الليل ، فهي الاسبوع الأول ، يجري تأمل واحد ، حول الخطيئة الاولى والثانية والثالثة ، هذه الخطايا الموجهة ضد الله رأساً ، أي الوسايا الثلاث الاولى من وصايا الله المسر ، ثم تأمل آخر حول الخطايا السبع الاخرى ، هذه الخطايا الخاصة الموجهة ضد الذات ، والتأمل الثالث هو تكرار للاول والثاني ، أما التأمل الرابع فهو بمثابة اعادة الثالث الما الخامس

هو التأمل الخاص بجهنم قيجب ان يتم قبل مغيب الشمس .

يختلف اسلوب التأمل عند اغناطيوس ده لويولا ، عنه بما لدى غيره من الاساليب الاخرى ويتميز بخمس بميزات . تقوم الاولى منها في تركيز الانتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة ان ايقن ده لويولا انه يترتب على التائب ان يحصر انتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة المتوخاة . ولذا كان على التائب ان يقوم برياضته الروحية لمدة شهر كامل ينقطع معه عن كل مشاغله ويعرض عن كل مصالحه بحيث يحصر انتباهه بهذه القضية : وقضية علاقاتي مع الله ». شم يترتب عليه ان بهتم بنقطة واحدة في كل تأمل ، ولا يترك موضوع تأمله هذا الا بعد ان يكون انتج واثمر ما يرجى منه ، اي عندما ما يكون ايقظ فيه الماطفة المطلوبة والشعور المرتجى بحيث تصبح هذه الماطفة لا تقاوم ولا تغلب . فلكي يصل الى الله عليه اولا بالتوبة ، وان يشعر في صيم نفسه بالاسف والحزن العميةين ، ويشمر بتأنيب ضميره لما بدر منه في حياته السالفة من الماصي . ولذا كان عليه ان يتأمل لمدة اسبوع ، والنوافذ مفلقة ، في عزلة تامية ، تكون تكدنفه الظلمة ، بحيث يدور تأمله على الخطيئة وجهم . ونلحظ هنا اختلاف ابينا بينه وبين التأمل لمدة شهر ، في الصباح ، الموت والدينونة الاخيرة ، وغير ذلك ، وفي المساء ، عيث يكون المخون ، بحيث تغمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينا نشمر في المساء ، البهجة والفرح محونا ، بحيث تغمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينا نشمر في المساء ، البهجة والفرح على المقورة عناه .

اما الميزة الثانية ، لتأميلات اغناطيوس ده لويولا فتقوم في البحث عن النور الفكري او الذهني ، اي ان نعي وعيا تاما كل قضية من قضايا الدين والايمان بحيث نجري على كل قضية من هذه القضايا ، تباعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ميا اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، هذه القضايا ، تباعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ميا اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، مثلا ، عينا ان نستمرض في خواطرنا ، كيف ان الله تعالى خلقهم عيلى وضرته ومثاله ، في حالتي البرارة والسمادة ، وجعلهم خداماً له يكونون على مقربة منه ، وكيف فضلوا ، عيلى خدمة الله وطاعته ، التمرد والعصيان على اوامره ، ثم كيف زج بهم من عليين في اسافل الجحيم . فاذا ما فكرنا ملياً بهذه الامور ادركنا على نور المقل ، بصورة جلية واضحة ، عور هيد الخلوقات التي خصها الله بهذه الامتيازات الخارقة ، والمصير الذي آل امرهم اليه ، وهو مصير لا حول فيه ولا حيلة ، اذ انه حيكم عليهم بالهلاك الابدي ، لجرد اقترافهم خطيئة واحدة ؛ واخيراً الاخطار المحيقة بنا من كل جانب وتهددنا باستمرار ، وتحنن الله علينا ورحمت لنا ، اذ بالرغم مما اقترفنا في حقه من الوف الذنوب والخطايا ، نواه يهيء لنا دوما الوسائل التي تساعدها بالرغم مما اقترفنا في حقه من الوف الذنوب والخطايا ، نواه يهيء لنا دوما الوسائل التي تساعدها على الخلاص ، واذ ذاك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وببشاعتها ، وثارت على الخلاص ، واذ ذاك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وببشائل لمشيئته تعالى . ولكي نصل الى ما نرجو من وضوع وجلاء ، يترتب علينا ان ننهي كل تأمل برسم ساعة ، نفحص فيها ضميرنا حول الطريقة التي التبعناها في نأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد ذكور فيها ضميرنا حول الطريقة التي التبعناها في نأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد ذكور في المي المنورة ولكور المدورة ولكور الميارة ولكور في الميرا الميلورة ولكور في الميرا ال

اقترفناها خلال التأمل . وهذا الجهد يبدله الضمير ٤ كان من شأنه ان يفوز برضى الانجيليين من التباع ايراسيوس .

والميزة الثالثة التي تميز كتاب والرياضة الروحية ، هي ان مؤلفه القديس اغتاطيوس ده لويولا ، يستنجد بكل ما في الانسان من شعور كريم واحساس نبيل . هو يرغب في تحريك اعاق النفس البشرية ليصل الى نزعات السكائن الصميمة . كل الحواس يجب ان تعمل الوصول بنا الى هذه النتيجة : فكل تأمل يبتدىء بمقدمة او استهلال يستعرض التائب خلالها ، في ذهنه : المسكان ، والاشخاص في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ويجب ان نخصص تأملا واحداً كل يوم على الاقل ، لتوجيه الخواس : النظر والسمع ، واللهس والحس وفقاً لمرضوع التأمل ، الى يسوع والعذراء مريم ، والرسل . وعندما يتأمل التائب في جهنم ، عليه ان يرى النفوس تتضور ألما وتتلظى في النار المتأججة ، وان يشم رائحة الكبريت المتصاعدة ورائحة اللحم الذي يحترق ، ويشعر في نفسه بألم الحريق ، ويلمس قضم دودة الضمير مجيث يستحيل الخوف هلما يفضتل المتروض معه كل شيء على النار .

والميزة الرابعة لهذه التأملات هي الاهتام بارادة الانسان ولا سيا ما يعود منها إلى حرية الارادة . فالتمهيد الثاني في التأمل يرمي الى تساؤل المتروض : « ما الذي أريد الحصول عليه من الله ، وبعبارة اخرى، ما هو الشيء الذي يريده هو المواول . كل تأمل يجب ان يفضي الى مقاصد معينة يتحتم تنفذها في اليوم ذاته . وتنتهي الرياضة باختيار نهج معين أو مسلك معين للحياة . فما من قصد من هذه المقاصد المنبثةة عن هدذه المواطف والمشاعر التي اثيرت خلال الرياضة يجوز ان يذهب جزافاً ، بل يجب ان يتحول كل شيء الى قرارات واضحة تنتظم حياة المتروس اليومية والتي يترتب علمه العمل بوجبها .

والصفة الخامسة لهذه التأملات هي التشديد على الاخذ بكل المسادات ومراسم الطقوس والاعراف التي تقوم بها الكنيسة من : تكريم القديسين ، والحياة الروحية ، والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة والحج اليها ، وذخائر القديسين ، والنذور ، وغير ذلك .

فكيف يحافظ المؤمنون على الاخذ بالرياضات الروحية بعد انقضاء الثلاثين يوماً ? قبل كل شيء بالصلاة المستمرة طبلة النهار . فالمؤمسن يرى الله الاب ويسوع المسيح متمثلين في كل المخلوقات وفي هذه الكائنات الحيطة به ، والأشياء الواقعة على مقربة منه ، بحيث ان كل مساتم عليه العين يذكره بالله ، أو انه يشاهد الله فيه .

ثم بالصلاة الصباحية ؟ اليومية ؟ المنظمة . فقد كان القديس اغناطيوس يصرف ساعتين كل يوم في الصلاة ، بلا انقطاع . كا كان تلاميذه يصرفون ساعة في الصلاة على الاقل .

ثم عن طريق قحص الضمير فحما عاماً وفعصا خاصاً ؟ ثلاثة فحوصات خاصة للضمير ، كل

يوم ، حول الخطيئة الرئيسية التي يرغب المؤمن في استئصال شأفتها من نفسه ، احدهما صباحاً في بيجدد المؤمن مقاصده ونياته الحسنة ويستمرض الظروف التي قد يتمرض فيها السقوط في الخطيئة ، بحيث يتمكن من تفاديها ، وآخر عند الظهر محاسباً نفسه عما فعلت في الصباح ، والآخر في المساء يستعرض معه حوادث بعد الظهر ، مسع الحرص على ان يدون في مفكرته الخطايا التي اقترفها . وعندما ينصرف النوم مساء ، يقوم بفحص عام الضمير يستعرض فيه احمسال النهار وتصرفاته بالنسبة لوصايا الله والخطايا الاخرى .

واخيراً يمكن للانسان أن يصلي طوال النهار . وهنا يقتزح أغناطيوس أن يتلو ألمره الصلاة الربانية و أبانا الذي ، بتمهل فينظر ملياً عند كل كلمة من كلهاتها ليتشبع جيداً من معناها ومداولها ، أو أنه يصلي كا يصلي المسلم: كلمة بعد كل تنفس مجيث يعي تماماً مدلول الصلاة ، فينفض من كلمات و أبانا ، كل ما لها من معنى . وهكذا يصرف أسابيع في التأمل بماني الصلاة الربانية ، أو والسلام المريمي ، أو قانون القداس ، والمزامير واستخلاص ما فيها من عدوبة المعنى .

وهذه الطريقة المثلى في استجلاء الامور، وتحديد المعاني واشاعة الافكار النافعة اوالخواطر المفيدة في الضمير وتحريك المواطف الكريمة في القلب ، وتوجيه كل نشاط فينا للعمل المشمر، حساءت باطيب واشهى النتائج ، اذ انها ساعدت كثيراً على اعادة عدد كبير من المسيحيين الى حضن الكثلكة .

وهكذا تبخر هباء هذا الامل المسول الذي راود ، حوالي عام ١٥٣٠ ، خيال الانسانية الانجيلية . والذي بدا تحقيقه وشيك الوقوع لاصحاب هذا الرأي ، بين ١٥٦١ – ١٥٢١ . كان لا بد من الاختيار بين الانسانية الانجلية والاصلاح البروتستانق والكثلكة المتجددة . فقدعاد عدد كبير من الانسانيين الانجيليين الى الكثلكة او انحازوا الى الدعوة التي نهض بها زونكلي مفضلين هذا على الدعوه التي قام بها لوثير . وانتهى كل شيء مع لوفيفر ديتابل ومع ابراسموس ، حوالي عام ١٥٣٦ ، بعد ما اقترب الاول كثيراً من تعالم زونكلي بينها بقي ايراسموس امينا لنظرياته واراثه ، وقد تخلى عنه مريدوه والمعجبون به واصبح لا شأن له . وهكذا فحوالي المقد الرابع من القرن السادس عشر اي من سنة ١٩٥٠ – ١٥٤١ ، كانت طلعت علينا اهم النظم والمذاهب الدينية الجديدة التي كان من شأنها ان تتقاسم العالم الحديث في المغرب . هنا في امور الدين ، وهنالك في عالم العام وفي عالم الفنون ، هذه الجالات التي برز فيها الدقل البشري و فحت لنا صوراً جديدة للانسان والكون – فقد طلعت علينا السنوات الثلاثون الاولى من القرن السادس عشر بعالم جديد .

على مثل هذه الصورة التي رسمنا كانت الاوضاع قد برزت واتضحت وقبلورت. كلسنين غير ان التيار الاصلاحي ، هذه الحركة التي اصبح في مقدورة الان ، منسند عام ١٥٢٩ بان نسميها الحركة البروتستانتية لم تتوقف عن التطور والتحول . ففي سنة ١٥٣٣٠ اصدر الملك هنري الثامن ، ملك انكلترا : « قانون السلطة العليا » فوضع بسذلك الاسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية ، في انكلترا ، هي الكنيسة الانكليكانية . فالملك هو الرئيس الاعلى الاوحد لهذه الكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية . وقد بسدا لهؤلاء القوم الذين رأوا انهم يستطيعون الاستمرار في الكثلكة ان لوثير وزونكسلي لم يعودا بكافيين : كذلك بدا لبعضعهم ، ان لوثير انتقص ، بشكل من الاشكال ، من سلطسة الله المطلقة ، عندما راح يعلم بانه يبدو وكأن علم الله الكلي حتم عليه إعداد غتاريه منذ الازل، وهكذا محدت فيه سبحانه وتعالى ، حريته وسيادته . كذلك سلم لوثير ان الطبيعة الالهية ، في السيد المسيح ، أضفت على الطبيعة البشرية فيه مما له من كلية الحضور والوجود ، محافظة في السيد المسيح ، أضفت على الطبيعة البشرية فيه مما له من كلية التواصل بين هاتين الطبيعتين ، فألس بإمكان الطبيعة البشرية ان تؤثر ، بشكل ما ، على الطبيعة الالهية ، فتنتقص بالتائي منها ؟ وهكذا لامس لوثير الهرطقة المونوفيزية ، هذه الهرطقة التي قالت بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح ، وهو قول لا يمكن لاحد ان يطبقه او يقبل به .

أما زونكلي ، فقد عرف ان يتفادى المشكلة بنكرانه الحضور الحقيقي في القربان المقدس ، فالسر عنده ، هو مجرد رمز لا غير أو احياء ذكرى و هو صورة مجازية جوفاء ، خواء ، ولكن الا يقضي هذا القول والتسليم به الى ديانة باردة جافة ؟ اذ ان مجرد تناول خبز التقدمة وشرب خمر المكأس فيه تعبير عن ايمان المرء وعقيدته ، ولكن دون ان يتم بينه وبين الله أي اتصال أو تقاس . والله يبقى نائيا ، بعيداً ، ضائعاً في سمائه . هذا ، لعمري ، كلام مؤلم ، موجع ، يحز في النفس ، ويصعب سماعه على القلب والاذن . وبالاضافة الى ذلك ، راح زونكلي أينزل الخطيئة الاصلية منزلة مرض موروث وبذلك هو"ن كثيراً من تبيعة الخاطىء ومسؤولياته ، همذه المسؤوليات التي ارادها الغيش المتشددون ، كاملة غير منقوصة إظهاراً منه لفعل النعمة . واخيراً راح زونكلي يمزو ما قد يكون لدى الوثنيين من الفضائل ، إلى موهبة خاصــة من الله . وراح زونكلي يمزو ما قد يكون لدى الوثنيين من الفضائل ، إلى موهبة خاصــة من الله .

ومن جهة اخرى ، شعر بعض البروتستانت ، بشيء من القلق من جراء المحاولات الايرينية Irénisme التي بذلت بكثرة بين ١٥٣٥ – ١٥٣٥ الملقريب بينالكاثوليك واللوثرين بالرغم من كل الفوارق التي تباعد بينهم ، بشأن القداس ، هذه المحاولات التي بدت المشددين المفالين منهم ، لا تحتمل ولا تطاق . وكان البروتستانت يتبرمون جهداً ويستشيطون غيظاً ضد من ينزلهم منزلة اللامعمدانيين الذين نظروا اليهم نظرهم الى فوضويين اجتاعيين . ولكي يقطموا الطريق على كل التباس ويحددوا اقصى ما يمكن ان تصل اليه تنازلاتهم بهذا الشأن، وضعوا بشكل نهائي ، وثيقتين بروتستانتيتين هما : و الاهاجي Les Placards ، التي ظهرت عام ١٥٣٤، و المؤسسة المسيحية ، التي هي من وضع كلفين نفسه ١٥٣٦ ، التي ظهرت عام ١٥٣٤، و المؤسسة

اما ﴿ الاهاجي؟ التي أعدها فريق من الفرنسيين البروتستانت لجأوا الى مدينة نيوشائل ؛

في سويسرا ، فهي تتنزى بتماليم زونكلي ونظرياته . فقد رموا دوماً ، الى مـا يثير الشكوك ويزيد من القطيعة ، وذلك بماجمتهم قطب العبادة لدى الكاثوليك : القداس الالهي . و بــذل يسوع المسيح جسده وروحه وحياته ودمه لاجل تقديسنا في ذبيحة كاملة ، نهائية ، لا يمكن ان تعاد او تتمثل بذبيحة حية اخرى، . . فالزعم بتجديد ذبيحة السيد المسيح كل يوم ، كا يدعي الكاثوليك ، هو التجديف بعينه على السيد المسيح، وهو زعم لا يختلف بشيء عن القول بوجوب اضافة شيء ما على ذبيحته. والزعم الكاثوليكي بالقول ان يسوع المسيح موجود فعلا ،حقيقة، ذاتيًا وشخصيًا ، بجسده ودمه ، تحت اعراض الخبز والخر ، هو كفر فاضح وخديمـــة علنية ، السهاء وجلس عن يمين الله الآب . و « يستنتج من هذا القول انهاذا كان المسيح موجوداً بجسده في السهاء ، فلا يمكن له أن يكون ، في الوقت ذاتـــه ، على الارض ؛ وأذا كان موجوداً على الارض ؟ فلا يكون موجوداً في السهاء ؟ اذ انه من الثابت ان جسداً حقيقياً لا يحتل الاحيزاً واحداً ، ولمرة واحدة » . وعلى هذا قس كلامهم حول الاستحالة الجوهرية ، وحول رجـــال الاكليروس ، وغير ذلك من القضايا . وهذه د الاهاجي ، تمثل نصاً اساسياً فظا ، املته روح القطيعة البغيض ؛ بما اثار بالفعل شكوكا هائلة . ولعل أروع وانكى من هذا كله ، هو هذه الروح العقلانية التي جاشت فيها. والثابت ان كل البروتستانت ، في هذه الحقبة كانوا يتنكرون لهذه العقلانية ، لأن العقل ، بعد أن أفسدته الخطيئة الاصلية ، أصبح عاجزاً عن الوصول إلى أية حقيقة . وبما يلفت النظر بالاكثر ويحدث مثل هذا الدهش؛ هو ان نلاحظ كيفانِ الذين قامو بوضع هذا النصوص ، رفضوا القول بالحضور الحقيقي ، لمناقضته ، في رأيهم ، مبدأ الذاتية ، كما يناقض الظواهر الحسية الماموسة القابلة للقياس ، اذ يخلط خلط عشواء ، بين ما هو للروح وبين ما هو للمادة . نص كل ما فيه يتنزى بالروح الديكارتية ، روح هذا العصر .

اما كلفين الذي كان في صغره ، سادنا لاحدى الكنائس وله من العمر اذ ذاك ١٢ سنة ، والذي سم كاهنا وهو ابن ١٨ سنة ، فقد اثار من جديد ، ومن الاساس ، مطالب الاسسلاح البروتستانتي ، مزيداً عليها ما رغب في اضافته من نظريات جديدة ، بعد ان عرف كيف يتجافى على الاخص ، المساوى التي وقع فيها كل من لوثير وزونكلي . كان همه الاولوالاخير الحفاظ على سلطان الله وسيادته ، وراح بوصفه من اتباع الفلسفة الاسمية ، يؤكد ان الله تتعذر معرفته ، كا انه يستحيل على العقل البشري تفهمه وادراكه ، حتى ولو بالمجاز . فالصورة التي نقيمها له وننحتها عنه في ضمائرنا ، حماقة هي ، لا اكثر ولا اقل ، فالكتاب المقدس وحده ، يوحي لنا ، على قدر ما نستطيع ان نفهم ونستوعب ، بما يتوجب علينا معرفته ، وما فيه الكفاية ليثير فينا الحوف والمحبة . وبواسطة الكتاب المقدس وحدده ، نتمرف الى الله ، عن طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح ، مرآة الله ، ولكن أنى لنا ان نعرف الله نفسه معرفة حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر

لا بد من ألرُ هيئة الابن اساساً للايمان به . ولذا كان لا بد من التسليم بالقول ان الخليقة هي من عمل الثالوث الأقدس كله ، اي هي على السواء من فعل الابن ، كلمة الله الذي يطبق عليه كل ما جاء عن الله في العهد القديم . فالثالوث الأقدس يخلق العالم في كل ثانية ويتدخل بخلقه ، في كل لحظة . هذه هي العناية الربانية التي هي علة او سبب اختيار الله لمن اصطفام ، منسند الازل . وفالله هو الذي يدبر المؤمنين ، يعيش فيهم ويملك عليهم بواسطة الروح القدس ، . فكل ما يأتيه المؤمنون يأتيه الله هو نفسه فيهم . فالله هو الذي يتصرف في الانسان ، وهو الذي يفكر في الانسان ، وهو الذي يتكم بلسان الانسان، هذا الانسان الذي لا يفعل شيئًا، مجمر المعنى ، فني قضائه الحر الذي الخذته ارادة حرة موجودة منسند الأزل ، يتصرف الله في من نفسه . ففي قضائه الحر الذي الخذته ارادة حرة موجودة منسند الأزل ، يتصرف الله في مصيير كل انسان . وهكذا فسلطانه كامل ، مطلق هو .

فآدم الذي يمثل البشرية جماء في شخصه ؟ قد لطخ بخطيئته كل البشر. فالخطيئة الأصلية ؟ عطلت الى الأبد ؟ كل ما في الانسان من مواهب فائقة الطبيعة بالايمان ؟ وعبة الله والقريب ؟ والتتوق إلى القدامة . والمواهب الطبيعية نفسها اصببت هي الاخرى ؟ في الصميم ؟ بحيث لا يستطيع الانسان الا ان يريد الشر . فاذا ما اراد الشر ورغب فيه ؟ فهو يتحمل كل مسؤولية ارادته ؟ ولذا استوجب القصاص المترتب على معصيته . ومع ذلك ؟ فتحننا من الله وعطفا من منه عليه ؟ أعطاء الله الناموس ؟ هذا المربي ؟ المرشد الذي يقود الانسان الى الله . وعطفا من الله وبمجرد نعمته الالهية ؟ تذلل الله وتجسد وصار انسانا وأخذ جسد آدم . وبوصفه انسانا تأم ؟ كفتر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ؟ فقد قدم تاما ؟ كفتر عن خطيئة آدم كما كفتر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ؟ فقد قدم مرضاة وكفارة خليقة بالله العلي ؟ كل هذا والله يبقى نقيا ؟ منزها عن كل عيب ؟ في عظمت مرضاة وكفارة خليقة بالله العلي ؟ كل هذا والله يبقى نقيا ؟ منزها عن كل عيب ؟ في عظمت الالهية . والطبيعتان تلبثان متميزتين الواحدة عن الاخرى ؟ ليس في الطبيعة البشرية ما يلطن أو ما يحط من كرامة الله . والحال فإذا لم تستطع الطبيعة البشرية ان تتلبس صفة الوجد في الكي التي للطبيعة الالهية ؟ فجسد السيد المسيح لا يمكن ؟ والحسالة هذه ؟ ان يوجد في الافخارستيا ؟ وبالتالي ليس من حضور ذاتي في القربان المقدس .

باستحقاقات السيد المسيح، تأثمن الخلاص لبني البشر واصبح هذا الخلاص في متنساول كل واحد منا بواسطة و المناولة الروحية » رمز الاتحاد مع المسيح بالايمان ، بواسطة الروح القدس ، الذي ارسله المسيح وأعطاه مجاناً ، للمختارين . و بالايمان جرى تطميمنا بجسد المسيح » . و همكذا ثم لنا الايمان الحقيقي ، والرجاء والثقة ، بارادة الله الحيرة ، تجاه كل واحد منا . فالمسيح باتي ويسكن في قلب من اختارهم الله ، وفيه يعمل الروح القدس . والمسيح يتجدد في قلب كل من

اختاره ، كما انه 'يحكرة في قلب كل مختاريه ، صورة الله التي افسدتها الخطيئة الاصلية وشوهتها ؛ فيحل فينا الانسان الجديد ويأخذ في محاربة الانسان القديم القائم في قلب كل واحد منا ، انسان - آدم الذي افسدته الخطيئة ، ويخرجه خارجا ، وتحل محله ، هسنده الحرب التي ستطول فينا وتستمر في داخلنا ما امتد فينا أمد الحياة . هذا التجدد الذي لن يتم باكمله الا في السهاء بعد الموت . اما علامة او دليل الاصطفاء هذه ، فهي الحرب الداخلية ، هذه القوة التي تحملنا على احترام وصايا الله ، والامتثال لها بالرغم من جميع الاوصاب والآلام التي سنتغلب عليها في المورع بالرغم من تكرار عثراتنا وسقطاتنا في الخطيئة . هذه هي العلامة التي تشير الى على الوح القدس في كل واحد من مختاريه .

قالاعمال التي يفعلها المختار تأتي مطابقة لناموس الله ، ولكن هذا الناموس لا يولي المختار اي استحقاق قط ، لان هذه الاعمال لسنا نحن الذين نعملها ونأتيها ، انما الله هـــو الذي يعملها فينا .

وفي الوقت ذاته يغفر الله للمختار خطاياه و'يسربله بسربال بر المسيح الذي يؤلف معـــه شخصاً واحداً . فالمحتار ليس باراً ولكن الله يراه باراً ، لان المسيح دخل الى قلبــــه بواسطة الايمان به .

وقد اعطى الله ، في تحننه للبشر ، الكنيسة . فالكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر . فهي شراكة كل الذين يممل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته ، هي شراكة المعدين منذ الازل ، و لاننا لا نستطيع النفاذ الى دخائل الناس للتعرف الى حقيقة ضمائرهم، ولن نعرف ابداً ، ونحن على هذه الارض، من هم الذين يعمل فيهم الروح القدس عمله الخلاصي .

اما الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين ، هؤلاء الذين يؤلفون رغبة واحدة تحت ادارة القس او الواعظ . وتضم الكنيسة المنظورة ، في الحين ذاته ، الختارين والمعدّين منذ الازل ، مجتمعين ، بعضاً الى بعض في التقاء الحنطة والزؤان . فالكنيسة تقوم ، في كل مكان ، بكرازة كلام الله ، وتصيخ اليه في كل مكان تعطى فيه الاسرار وتوزّع فيه وفقاً لما رسمه يسوع المسيح .

والكنيسة يفرض وجودها وقيامها نظاماً معيناً افتحول بذلك دون عمل الهراطقة والمنفصلين عنها وتأثيرهم على المؤمنين و وقيامها نظاماً والرديثة . فهي تقدوم باربع وظائف أو خدمات رئيسية امنها اعمال الحبة . اما الوعظ وخدمة الاسرار وفيناط امرها بالقسيس والما التعليم وفامزه متروك لمعلي الايمان والمحافظة على النظام يقوم به الشيوخ والقيام باعمال الحجبة يؤمنه الشهامسة . كل هؤلاء يجري تقديمهم بواسطة القسس والقضاة الذين يقومون بالوظائف الموكولة اليهم ويتم انتخابهم من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة وقعمين الجميع انما يجري من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة وتعمين الجميع انما يجري من قبل المروح القدس وفقاً للمواهب التي أعطيت لهم .

على الكنيسة ان تتقيد ، حرفيا ، بالكتاب المقدس الذي هو وحده معصوم عن النلط . يجب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، يكفي الكنيسة عملاً، تفسير كلام الله وشرحه للقضاة ، وعلى هؤلاء ان يحرصوا على تطبيقه وفقاً للشرائع والقوانين المدنية . اما القاضي فواجبه يقوم بالدفاع عن الكنيسة وتأمين حرية الكرازة بالانجيل .

فالله هو المعطي الكنيسة الإسرار . أما السر فهو و علامة أو طابع خاص يَسِم الله بــه نفوسنا اشارة منه للنعم والمواهب التي جادت بها علينا مراحمه ». وخلافاً لتعالم زونكلي المعافظ كلفين على الاسرار بعد ان رأى فيها ليس مجرد ذكرى او تذكار ، بل شهادة حق على نعمة الله . وعلى عكس الكاثوليك ، هو يرفض التسلم بالقول ان السر يعمل مسىن ذاته ، اي بدون تدخل مباشر من قبل الله ، كما ان السريضيف شيئاً جديداً على عمل الله . فالله له كل سلطان وسيادة . فهو يستخدم الاسرار كأية اداة اخرى ؛ دون ان يوليها شيئاً من قدرته .

اما الافخارسيا أو العشاء السري ، فكلفين يرفض التسليم هنا أيضا ، بالحضور الحقيقي في القربان المقدس ، كما يرفض التسليم بالطبع ، باستحالة الجوهر ... وخلافاً لزونكلي ، فهو يقر ويعترف ان جسد المسيح ودمه يوزعسان تحت اعراض الخبز والخر ، وكل الاشياء تجري عندما نتناول الخبز والخر كان المسيح حاضر فعلا انما بشكل سري ، لا 'يرى ، وكأن المسيح يضم جسده ودمه الى جسدنا ودمنا ، ويسكب علينا روحه ونعمسه السهاوية . وهكذا نرى كفين يقرّب المؤمن من الله يسوع الذي يفيض عبة للانسان القريب منه ، يسمع و 'يشعر به ، ويذاق ويوزع على المؤمنين ، مع بقائه متميزاً عنه ، متميزاً تماماً متسامياً فوقه بكثير ، حسبا توجبه طبيعته الالهية . ومما يشهد على هذا النجاح يصيبه كلفين هو ان القرار الذي اصدره بريان باريس ، بتاريخ ، تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل على بث ونشر بريان باريس ، بتاريخ ، تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل على بث ونشر للمناه وعنوانه هو كتاب : « المؤسسة المسيحية ، الذي وضعه جان كلفين .

وفي سنة ١٥٣٩ اعيد طبع كتاب و المؤسسة المسيحية باللاتينية . اما اول طبعة فرنسية له افقد ظهرت عام ١٥٤١ ومنذ هذا التاريخ توالت طبعات الكتاب ، مزيدة ، ومنقحة ، طبعة بعد طبعة ، بالفرنسية ، وباللاتينية . وقد جعل كلفين من مدينة جنيف ، منذ عام ١٥٤١ ، و روما السكفينية ، وانتشرت كتب كلفين بين القرى ، متنقلة مسن قرية الى اخرى بواسطة الباعة المتجولين . وقد عرف المرسلون الذين ارسلهم التبشير بدعوته ، بالنشاط الجم ، اذ استطاعوا ان يتسللوا الى كل مكان ، حاملين معهم علماً وثقافة ونشاطا ، واستعداداً ليجودوا بدمائهم شهداء ايمانهم . وكانت رسائله تحمل التشجيع والنصح لكل الكنائس الجديدة التي تنشأ في البسلاد . وهكذا دخلت الكلفينية اسكتلاندا وبوهيميا وهنفارها وبولونيا والبلاد الواطية وفرنسا .

في هذا الوقت بالذات توفر للبابا كتيبة دينيسة جديدة ، هي ديران التفتيش والرهبنة اليسوعية الرهبنة السوعية . نشأت هذه الرهبنة في ١٥٣٠ آب ١٥٣٤ ،

على مقربة من باريس في هضبة مونتارتر ، في كنيسة القديس دنيس ، شفيع ملوك فرنسا ، على يد اغناطيوس ده لويولا ورفاقه الستة . وفي خلال صوم ١٥٣٩ ، وضع مؤسس هذه الرهبنة ذظامها النهائي: رئيس منتخب مدى الحياة ، يتمتع بسلطات لا حد لها " يقطع اعضاؤها من الرهبان نذرآ خاصاً هو الطاعة التامة لاوامر البابا وينتظم هذه الرهبنة نظام عسكري مسلسل السلطة ، وتنعم بروح انضباطية بجربة . فاليسوعي يطيع الاوامر الصادرة اليه ولو في الامتثال لها هلاكه وموته ، كما يمتاز اعضاؤها بثقافة شاملة ، مُمْرقة . وفي ٢٧ ايلول ١٥٤٠ أقر البابا بولس الثالث بالبراءة البابوية التي اصدرها بعنوان « Regimini militantis - الفرقة المحاربة لنظام هذه الرهبنة وقانونها الاساسي . وفي سنة ١٥٤١ ، تم انتخاب اغناطيوس ده لويولا رئيساً عاماً للرهبنة اليسوعية ، واقسم يمين الولاء بين يدى الباما . ومنذ ذلك الحين، باشر اليسوعيون حربهم المتصلة وجهادهم المرير ضد جماعة الاصلاح ، في كل من ايطاليا واسبانيا، وفرنسا والمانيا . وكان البابا ، في الوقت ذاته ، بعث من جديد ، الى الوجود ، ديوان التفتيش ، باسم جديد حسو « الديوان المقدس » وذلك بموجب البراءة التي أصدرها بتاريخ ٢١ تموز ١٥٤٢ ، بعنوان Licet ab initio ، ارتبطت ادارته رأساً بالآب الاقدس. وبعد ان أعد عداته على هذا الشكل وأوتر قوسه على هذا النحو٬ امر البابا ٬ بتاريخ ٢٣ أيار ١٥٤٢ ٬ بالتثام الجمسم المسكوني الذي اجتمع في مدينة تريدانتي ، وانتهت اعماله عام ١٥٦٣ ، بذات الروح التي تجلت ، عام ١٥٢٨، في مجمع سانس .

مراطعة وملحدون خاص الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض حروباً شديدة مراطعة وملحدون المواعدة الفسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطت في هذه ضدجمة من الهرطقات والحركات المضادة للمسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطت في هذه الفترة بالذات ، الواقعة بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ . وقد جاء ظهور هذه الحركات الدينية بمثابية ودة فعل طبيعية ضيد رسوخ موقف الكاثوليك والبروتستانت . ونحب ان نرى في قيام هذه الحركات ، بالاحرى ، نتيجة طبيعية ، لحرية الضمير والفكر ولهذه العقلانية الكامنة ، في حركة الجاعات التي سارت مع تيار الاصلاح والتي ساعد على نشرها والترويج لها ، هذه الجادلات الدينية ، التي شجرت اذ ذاك وتصادمت فيا بينها . فبعد ان رأى هؤلاء الناس كيف عبثوا بالتقاليد وهزئوا من قضايا الايان المتوارئة جيلا بعد جيل ، وسخير وا من الطقوس الدينية ومراسم العبادة ، راحوا يقيسون كل شيء ويحكون على كل شيء بمقاييسهم الخاصة ومداركهم ، متوهين ان لهم من الفهم والمقل ما يكنهم من الحكم على كل شيء . وقد رأينا تطل علنا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في تطل علنا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في تطل علنا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في تطل علنا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في

الناس ؛ أذ دعاهم و الدّعار ، أو خالمي العسدار . فمنذ سنة ١٥٤٢ ؛ دخلت اللغات اللاتينية ؛

واليونانية والفرنسية ، مصطلحات جديـــدة امثال : « ملحد » Athée و « ناكر السيح » Achriste ، كما ان خريجي جامعة بادوا القدامي (ومعظمهم حكام ومن رجال الدين) الشفوا فيها بينهم جمعية ٢ اشبه ما تكون بجمعية البنائين الاحرار (الماسون) لا قانون اساسي لها،تعمل على نشر النُر شدية (فلسفة ابن رشد) التي جرى توطين تدريسها ، في جامعة باريس ، بين الحاضرين الملكيين الذين تألَّف منهم، فيا بعدالمهد المسمى ، كوليج ده فرانس ، امثال الايطال فيكومير كاتو الذي نشر بحثه الاول عام ١٥٤٣ . وقد أطل من جديد فجور ذهني إنبَجَس من تعالم فرنسوا كسُوت أريجين أحد مفكري القرن التاسع للميلاد ااو من الالماني أ كارث في القرن الثالث عشر . كان البعض من هذا الفريق حلوليين ؛ على المكشوف ؛ فعساموا ان الله الكائن الاوحد ، لا شخصيةله ، ولا وجودية له في ذاته بلهو مختلط بالعالم ممتزج به ، وانروح علمة تأمل وتجريد ؛ القصد منها التعرف إلى ذات النفس الفردية ؛ مسم الكل الاعظم . أذ ذاك تلفى الشخصانية البشرية تهاماً ، اذ يذوب الانسان وتنسهر ذاته في الله . اما الباقون من هؤلاء الدعَّار ، فقد سلموا بوجود الثالوث الاقدس ، انما كانوا يقولون بوجود مسيحين : مسيح حسب الجسد ، ممثل الانسان على الارض و أوذجه الاكمل ، هذا المسبح التاريخيي الذي عاش مع الرسل وعاشرهم ، والمسيح الحقيقي ، مخلسِّص الانسان الذي لم يكن غير الروح القدس نفسه اما الروح القدس فكان يحل في شخص المتأمل ، بروح الايمان ويؤلمه . وقد اعترف الحلوليون ومن لف لفهم ، للانسان ، بالذات الالهية ، وجعلوه بمعزل عن كل اثم ، وبمنأى عن كل خطيئة. . فهو لا يزيل ولا يغلط . فكل ما يشعر به في ذاته من غرائز وشهوات ورغائب ، هو مظهر من مظاهر الله . ولذا كانت كل نوازع الانسان خيرة ، جيدة حتى ما ادّى منهــــا الى الفسق ١٥٣٠ ، ولا سيا بين الطبقات الاجتماعية الدنيا ، في مقاطمـــة الفلاندر ومدينة لياج والمانيا السفلي . وفي سنة ١٥٣٤ ، قام احد الطبيعيين من مقاطعة هينو ، يدعى كوانتين ، بادخالها الى فرنسا حيث تكاثر عدد اتباعه ، في مقاطعة نورمنديا . وفي سنة ١٥٤٧ ، راح احدهم بمن خلعوا الثوب الرهباني يكرز بهــذه التعاليم في مدينة روان . اما كوانتين فقد ُحكم عليه بالموت في مدينة تورنمه ، عام ١٥٤٦ ، لانه حرض بعض الحصنات على خلع العذار والاستسلام للرذيلة .

كان عدد من الانسانيين قد تأثروا بالكنتاب القدامى . فالكاتب اليوناني لوقيسانوس لم يفتر يوماً عن الهزء بإلدين والتهكم على رجاله . ويرى الابيقوري لوكريس في كتابه : «حول طبيمة الاشياء والعرافة De natura rerum et de divinatione » ان النفس البشرية تتسالف اصلاً من ذرات تنفت في وقت ما وتتناثر التختفي من الوجود لانها مائنة كالجسد . اما شيشرون فيضع على لسان شخوصه ، في « محاوراته » " وفي كتابه : « طبيعة الآلهة والعرافة » اقوالاً

وخواطر زعوا فيها ان الله ، اذا صح وجوده ، تتعذر معرفته كا يستحيل ادراكه ، وإن الحلق فكرة خواء ، باطلة ، لا ترتكز على شيء ، اذ لو كان الله موجوداً وخالداً ، فلماذا نراه فجاً ه يشعر بالحاجة الى الخلق والابداع . ويرى آخرون ان الآلهة ليسوا سوى رجال عظام ، أنهم الناس لمآتيهم وصنائعهم : فالدين هو من صنع السياسين جاؤوا به ذريعة تمكنهم من التحكم بالناس كا يرغبون » . ويذهب آخرون الى نكران المجائب والمعجزات ، وهذه الاعمال التي تثير الدهش والاستغراب بما ينسبون فمله الى القدرة الالهية التي يجهلونها : وكل ما يحدث هو مسبب عن علة طبيعية ، والذي يبدو عليه انه وراء النواميس العادية ، لا يمكن له الطبيعي » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر الطبيعي » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر الحالله ، نرى صاحبه يخلط خلط عشواء والعالم المادي . فالله هو « المسالم الواسع ، الشاسع ، الخالد ، الذي لا بداية له ولا نهاية » . فهو ينكر العناية الربانية : من غير اللائق قط ان نتصور الله كمعنيا بنا ، مهتماً بشؤوننا البشرية الحقيرة . ليس في الانسان نفس خالدة : «كل النساس سيان هم . فهم سواء في يومهم الأخير وقبل يومهم الاول . بعد الموت : لا شعور ولا احساس ، لا في الجسد ولا في الروح ، تهاماً كاكان وضعهم قبل ان يولدوا » (كتاب ٧ : ٢٥) .

كل من الادباء المثقفين الطلع على الردود البليغة التي وضعها اوريجينس والقديس كيرالس ، وهي ردود طبعت مراراً وتكراراً ، وقعوا منها على اقوال وتعاليم بعض مشاهدير الكتاب القدامي من خصوم الكنيسة واعدائها ، امثال سلس (١) ويوليانوس الجاحد ، فاسمع ما يقوله سلس بهدنا الصدد : اي شيء عمله يسوع المسيح هذا ? . فقد ضلل بعض المساكين البائسين وشفي بعض المرضى . ولكن ،أسكولاب والسحرة المصريون عملوا اكثر من ذلك . تجسد" ه؟ هذه فكرة شعراء الاغريق . أفكم 'يرسل جو بتير ، عطارد الى الاثينين ، والى اللقذمونيين (السبرطيين) ? . قيامته ؟ أفلم يبلغكم ان عشرين يونانيا اقاموا الموتى قبله ، على اساس مسن المصحة يقل او ينقص ، لا يتوفر له ? . موته ، ولكن أبكتيتس ، ولكن انا كسارخوس، قاسا اكثر منه واحسن منه ، العذابات المبرحة . فقد 'رض" اناكسارخوس وضاً في جرن ، ومسع ذلك سمعوه يردد لجلاديه : وحطتموا ، كستروا غيند اناكسارخوس، فستبقون عاجزين عن ان تمسوه باذى ، او ان تنالوا منه شيئاً ، هذه عظمة خليقة بالآلهة ، بينا نرى هذا المسكين يسوع ينتحب قائلا : « ايلي ا ايلي ، لم تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « ايلي ا ايلي ، لم تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « ايل اليل ا ايلي ، لم تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « ايل اليل ا ايلي ، لم تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « ايل الناس قدراً وشأناً . يسوع ينتحب قائلاً : « ايلي ا ايلي ، لم تركتني » ، وهكذا انتهى نهاية اقل الناس قدراً وشأناً . يعاتم مؤدياً واجبه بكل بساطة ، وبين مهرج ممخرق ، الا انه كان على استعداد كلي ليأخذ

⁽١) فيلسوف افلاطوني المذهب عاش في روما في عهد الاسوة الانطونية ، في القون الاول الميسسلاد . عوف يخصومته للمسبحية ومهاجته لحا .

بهذه الترهات التي طالما رددها اعداء المسيح من اليهود ؛ بان يسوع هو ابن طبيعي لجندي جلف هو بنثيروس ، الذي قضى حياته في شظف الجندية ، وانه ابن بغي طردها زوجها ، ذهب الى مصر حيث أتيح له ان يطلع على فن صنع المخرقات ثم استمان بما تم له من هذا الفنون ومن هذه الصنعة ، ليصنع ، فيا بعد المجانب ، وليتزعم فيا بعد وهو في الجليل واليهودية ، عصابة لصوص من فجاج الآفاق ، عدده ١٢ ، خانه احدهم وسلمه تسليم البد الى اعدائه .

تحملت هذه التيارات الدينية في عبابها الصاخب ، هرطقات وتعاليم مضايرة كا حملت في ثناماها نفياً للسبحية ونكراناً لها . فالصحاف والناشر الانساني الذائم الصيت اتسان دوليه ، قاده الجرى الفكرى ٤ اذ ذاك ٢ الى مذهب الطبيعين الاعلى انه احتفظ بعقيدة خاود النفس. غير ان معاصريه نظروا اليه نظرهم الى ملحد معطل كافر ، ولذا صدر الامر باحراقـــه حياً في ميدان موبرت – في باريس . وبونافنتورا ده برييه ردد في كنابه وصنوج العالم ، الذي صدر له ، عام ١٥٣٧ أو ١٥٣٨ ، بطريقة فكمة ، هذه الاهاجي والطعون التي وجهها سَلْسُ ضد ألوهيّة السيد المسيح وضد الوحي الالهي للانجيل . والاسباني ميشال سرفيه هاجم عقيدة الثالوث الأقدس سنة ١٥٣١ ، وذلك في كتابه الموسوم : « مغالط الثالوث ، ولا سيا في كتابـــه الآخر الضخم : والعودة بالمسيحية الى جذورها الاولى ، الذي وضعه عام ١٥٤١ ونشره مطبوعاً عام ١٥٥٣ . فقد رأى في الاقانم الثلاثة : الاب والابن والروح والقدس : ثلاثـــة مظاهر مختلفة للنشاط الالهي . وليس ثلاثة اقانيم متميز الواحد منها عن الآخر . فيسوع ، صاحب الانجيل ، ليس سوى انسان ، هو ابن الله حقاً ، مولود من الاب بالروح القدس ، وممسوح من الله . ولكن يسوع هذا ليس بالكلمة الابدي ، الخالد ، الاقنوم الثـاني ، من الثالوث الاقدس. وإلا وجب التسلم، انصح القول، ان يكون الابولد له ولدان، وهو ظن أو قول مناقض للكتاب الذي يذكر : ابن الله الوحيد ، ثم ان السيد المسيح نفسه يقول عن نفسه أنه أبن الانسان ، وليس الله والذات. وهكذا نفث سرفيه نفوثه في محنطات الهرطقات القديمة المضادة للبِّالوث الأقدس ، فبعثها حية ، ولو الى حين ، كالاربوسية . وقد لاقى اتباعاً له بسين الكاثوليك ، واكثر منهم بين البروتستانت . ولذا لاحقه كلفين امام القضاء الكاثوليكي الفرنسي ٬ ففر سرفيه وقدم لاجئـــاً الى جنيف حيث جرى توقيفه بامر من كلفين ، وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت حرقك ، عام ١٥٥٣ .

وفي الاتجاه الذي سار فيه سرفيه ، سارا ايضاً فقيه سيني ، هو لاليوس سوسين ، المولود عام ١٥٧٥. فقد علم هو ايضاً ان الله واحد هو ، وان الكلة والروح القدس ليسا سوى مظهرين من مظاهر نشاطات الله ، وان السيد المسيح هو انسان لا غير ، ابن الله ، انما لا طبيعية الهية له، وان المسيح افتدانا بكرازته وتعاليمه يوصفه حاملا اكلام الله ، وان لا اسرار في الكنيسة قط، وان العشاء السري ليس سوى تذكار بذكرنا بموت السيد المسيح ، وان لا فائدة من النعمة وليس لها اي جدوى، وان الانسان يتمتع تماسا بحريته واستقلاله، يملك في ذاته الدوافع التي تحفزه

للامتثال لارادة الله . وقام لاليوس سوسين ينشر تعاليمه هو نفسه منذ عام ١٥٤٧ ، في زوريخ وجنيف ، وحملها الى بولونيا ، بعد عام ١٥٥٦ ، ثم صارت رسالته الى ابن اخيه ، كا صارت اليه مخطوطات الكتب التي كان وضعها ، ومذكراته ومفكراته ، كا انتقل اليه نشاط عمه الداعية . وتكاثر عدد السوسندين في بولونيا ومنها أشعوا في اتجاهات عدة .

فالهرطقات وما هو انكى منها وأشق : نكران خلود النفس وربما نكران الله نفسه ، كل هذه التماليم المتطرفة وما اليها تغلغلت عميقاً بين الاوساط الشعبية . وحدث يوماً ان قامت سيدة من نموشاتل ، من طبقة الشعب ، تذكر بين ١٥٣٨ - ١٥٤٢ ، قيامة السيد المسيح، وبالتالي ، قيامة الموتى ، مدعية : و إن نفس الانسان تموت بموت الجسد ، وإنه لا يعود من فرق قط بسين روح حيوان ونفس انسان ، . وقد بلغ من شدة قلق القوم واضطرابهم لهذه التعالم أن قسمام القسس بجملة شعواء يدافعون٬ بألسنتهم واقلامهم ٬ عن عقيدة خلود النفس وقيامة الموتى. وقد ظن لوسمان فيفر أن في القرن السادس عشر، عصر الايمان الحي، لا يمكن أن يظهر فيه ملحدون حقىقىون . واخذ يسرد النصوص التي لا تعني فيها كلمة « ملحد » - Athée ما يفهم منه : « لا اله » بل « لا دن » ، او « من لا يعرف للاله الحقيقي » . فبعد ان عودًا في هـذا الموضوع على كشف ضم بيان المصطلحات والتعابير التي شاعت على ألسنة رجال القرن السادس عشر ، راح يلاحظ أن هؤلاء الناس لم تتوفر لهم ، أذ ذاك ، مصطلحات وأوضاع علمية تتبح لهم الاخسة بالحتمية العلمية ، وبالمادية، وهي كلمات دخلت المعجمية في القرن الثامن عشر ، من خلال كتاب امثال فولتيروكننت.أماهنري بوتسون، فقد رجع ظهور ملحدين فيالقرن السادس عشر، وبروزهم هو ظاهرة اجتماعية تجلت في كل العصور . واتخذا يرهاناً على ذلك ، رهبان الاجيال الوسطى بذلك ، انفسهم في فراغ 'مطبَّق وصمت مطلق ، وجها لوجه مع عـــالم ميت عديم القدرة على الايمان بالله . فالكفر أو الجحود بالايمان عِلة أو داء نحمله في اجسادنا كما نحمل تماماً ، التدري الرئوي . ﴿ فَهُو فِي حَالَةً كُمُونُ فِي مَعْظُمُ النَّاسُ ﴾ . وقد توصل الناس فعلاً ، في القرن السادس (فلسفة ابن رشد) ﴾ ونظرية بمبونازي لم تكوّن ، بالفعل ، فلسفة مـادية وحتمية ، لأن الصيغتين الاخيرتين كانتا تفتقران كلياً ، وفي الصميم ، الى إقامة الحد بين الروح والمسادة ، كما افتقرتًا ، في الاساس ، الى صورة ذهنية لعالم ، يتألف اصلا ، من مادة جــامدة متحركة . فاذ كان التمييز قائمًا ، بصورة غافية ، في تعاليم الزُّو نَـٰكلية والكلفينية المتعلقة بالحضور الذاتي ، فالفكرة لم تتضح وتبرز بجلاء ، الا مع ظهور ديكارت . ومنذ ديكارت توفر للمسالم المعاصر صورة تامة ، مترابطة ، للحتمية وللمادية ولكن ، كل فلسفة مادية غير مترابطة، ألــــيْست لعمرى ، بعد هذا ، يا ترى ، فلسفة مادية ؟ فاى شيء كانت فكرة سيدة نيوشاتل لعمري ؟ من الحتمل جداً ان تكون فكرة نكرانها خاود النفس ؛ ارتبطت في ذهنها ؛ بفكرة نكران الله ؛

مع أن الفرق وأضح بين الفكرتين ، ولكن ، أنى لنا أن نمرف عامساً ، ماذا عنت ، وماذا أرادت . وهكذا سيبقى الجدّل والنبحث حول الموضوع قائماً ، لما فيه فرحة المؤرخين و مَسرتهم مع أنه من المحتمل جداً إن يكون ظهر ، في القرن السادس عشر ، ملحدون حقيقيون . ومهما يكن من الامر ، فالطواهر الرئيسية الاخرى التي طلعت علينا في القرون المماصرة ، للمقلانية وللامسيحية ، والهرطقة ، بنوع عام ، كان سبق لها وتباورت مسمن قبل، وبرزت واضعة للمناب .

الارضاع الاجتاعية التي احاطت بالنظم الدينية الجديدة

قام مؤرخون عديدون يتساءلون ، بحق ، عما اذا كانت هذه التيارات الفكرية والجماري الدينية التي استعرضنا لها هنا ، لم

تجد دافعًا لها ؛ وحافزًا عليها ؛ في هذه الظروف الاقتصادية والاجتاعية والسياسية التي تحكمت بالتطور الحضارى٬ في ذلك العصر. وقد طلعت علينا بهذا الصدد ٌ ثلاث نظريات متباينة النزعة. ﴿ فقد مُخيتل لبعضهم ان الحركة البروتستانتية لم تكن ، في الصميم ، سوى ثورة قسام بها الامراء وطبقة النبلاء شد سلطة البابا والامبراطور والماوك . وهذه النظرية اخسذ بها في عهدنا المؤرخ الفرنسي ميشليه . وقد خطر ليمض هؤلاء الذين فلسفوا التاريخ، أن يروا فيهـــا محاولة قام بها ايناء الطبقة الدنما ومعلمو النقابات المهنمة ، ونظار الورَّش ، والفلاحون وكل من عــاني من اضطهاد الامراء وضفط رجال المال والاعمال . وهي نظرية راجت في عهود هوسر وقـــد ظن لوسمان فيفر بوما انحركة الاصلاح الديني جاءت تعبيراً عن الحاجات التي جاشت بها البورجوزاية الرأسمالية . ففي التاريخ وقائم تؤيد كلا من هذه الحدسيات. كلالناس يذكرون اليوم موقف الامراء اللوثريين ، في المانيا ، حكام مقاطعات : هس وساكس ، والرئيس الاعلى لفرقة التموتونيين : البرت ده براند بورج ، وغيرهم كثيرين ، ومصادراتهم الاوقاف وعبثهم بالامــلاك الكنسية ﴾ وخصومتهم مع شارل الخامس ، كما يتذكرون قصة الملك هنري الثامن في انكلترا ، والدور الذي لمنه ، في فرنسا امراء من الاسرة اللكمة ، وبعض كبار الامراء، في الاقبال على الحركات الجديدة وتبني الآراء والتعلليم الجديدة ، ونصرتهم لها والدفاع عنها ، والاستقبال الحار الذي لقيه لدى شقيقة الملك بالذات مارغريت ، دنغولي التي اصبحت ، فيا بعد ، ملكة نافار في لملذي رسمته استفاً لمدينة أولسُّرون، والدور الذي لعبه فرنسوا ده كوليني في مقاطعة بريتانياً ، وفي ابطالما بالذات ؛ الدور الذي مثلته رينه ده فرانس التي اصبحت فيا بعد ؛ درقة ؛ فراره ؛ المن ساندت مساندة ظاهرة حركة الاصلاح ؛ كما يذكر الكل تواطئ بعض المطارنة ، من ذوي الحسب والنسب ، وغضهم الطرف عن التماليم الجديدة ، وتساعهم عنها . أما المؤيدون النظرية المثانية ، فهم يشددون على ثورة الفلاحين الالمان في مقاطعة الغابة السوداء ، وفي النمسا ، عسام ١٥٧٤ -- ١٥٢٥ ؟ كا يشددون على ظهور جهورية اللامعمدانيين الشيوعية التي أعلنت في مونستر، كا يلمعطون ؟ بالتباء كلى ؟ هذا العدد الضخم من أهل الحرف والندافين، والنساجين، والقصارين

والاسكافين والزجاجين والجلدين وغيرهم كثيرين بمن ترددت اسماؤهم وجيء على ذكرهم في هسده المدعاوى المقامة على الهراطقة الذين صدرت بحقهم احكام قضائية ، في فرنسا ، ولا سيا في مدينة يو بين ١٥٤٥ – ١٥٤٦ ، وفي باريس ، سنة ١٥٥٧ . والنظرية الثالثة يؤيدها ما نرى وما نلس من الاقبال على حركة الاصلاح ، هذا العدد العديد من التجار ورجال الاهسال في كل من : انفرس وبروج وروان ، وليون وفي غيرها من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، كما لاقوه من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، كما لاقوه من التشجيع الادبي في اللوثيرية والكلفينية ، في مشروعاتهم الاستثارية .

كل هذه الحوادث وقائده حية ، عاشها الناس ، اذ ذاك وتصلح كل واحدة منها ، بالرغم ما بينها من مفارقات، حجة لكل من هذه النظريات ، ودليلاً لها . فلننظر الى ما هو ابعد من ذلك واعتى لنرى ماذا من حقيقة الامر .

لعله من المنيد ، ان نقيم ، بادى، ذي بدم ، الحد بين ظهور او نشأة الاصلاح البروتستاني وبين الترويج البادئه ، والدعاية لها والعمل على نشرها . انطلقت الحركة كقضية دينية من هذه المقضايا الكنسية . فقد ود رينودو الا يكون انطلق الاصلاح البروتستاني من حادث اختلاف بين الرهبان . وماذا يضير الامر ? أفلا نرى الرهبان ورجال الدين عند منطلق هذه الحركة وانفجارها ? ألم يكن ايراسيوس ولوثير رهبانا وكهنة ، كما كان لوفيفر ديتابل وكلفين هسا ايضا من رجال الدين ؟ فها هي لعمري الدوافع الدفينة لهذه الحركة التي قاموا بها ? بالطبع حوافز دينية بحتة . علينا ان نقبل وان نسلم بان هنالك أناساً يرون ان علاقتنا بالله هي قضية رئيسية ، مصيرية او بالاحرى هي القضية الكبرى في هذه الحياة .

وفي الترويج لمبادى، هذا الاصلاح والعمل على نشرها بين الله ، من أخذ المبادرة وقام بالجهد الأكبر ? الرهبان اولاً ورعاة الكنائس ، فيا بعد ، ورؤساء المعاهد والمنظمات التربية (كلهم رهبان ، اذ ذاك)، ومعلو المدارس . كل هؤلاء لعبوا الدور الاكبر في نشر هسذه النظريات الدينية الجديدة. ثم ، من هم الذين حماوهم على اعتناق مقالتهم ؟ - رجالاً ونساء من كل لون وجلس وطبقة من طبقات المجتمع الانساني : اشراف ، وعامون ، وقضاة ، وموظفون في خدمة الملك، ومن رجال المال والاعمال في التجارة والصرافة ، ومعلو العثر في واصحاب المهن الحرة وسكان الريف ، من غتلف المستويات . هنالك من يعترض أن السواد الاكبر من أتباع الاصلاح المبروتستانتي كانوا من السوقة . صحيح هذا ، والاصح منه أن السوقة ألفوا السواد الاعظم من المجتمع . والمهم اثباته هنا هو أن نعرف بشيء من الدقة ، ما أذا كان عددهم يؤلف ، نسبياً ، المعدد الاوفى من هذه الطبقات التي تألف منها المجتمع ، أذ ذاك . الا أننسا نرى ، مع الاسف الشديد أن دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يحكن اعتادها الشديد أن دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يحكن اعتادها نحسب حساب المجتمعات القومية الجانب ، والافراد الذين يتمتمون بنفوذ قوي ، الذين يفرضون نصب على المند من المقدم ، اذذك ، يستحيل علينا أن يستحيل على الغير 'مثلهم ووجهة نظرهم في الحياة ، ففي الوضع الاجتاعي القائم ، اذذك ، يستحيل علينا

ان نرد كل محاولة اصلاح ، أو حركة اصلاحية ، الى طبقة اجتاعية معينة ، أو الى فئة اجتاعية خاصة ، مهما كان لها من حول وطول . ولما كان الدين يغمر الفرد باكله، في معايشه ، فليس من يعتقد ان المشاعر الدينية التي حملها القوم ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لم تتأثر بما جاشت به نفوس الناس من عواطف ولواعج ، وخواطر ، ومصالح شخصية ، ومسادية . ولكل وضع من هذه الاوضاع والحالات دوافع ونوازع خاصة ، ومسببات تشدها بعضا الى بعض . فالاصلاح هو قبل كل شيء — كان قصة دين وحكاية ديانة .

عن لبعضهم أن يرى في الاصلاح سبباً من الاسباب التي هبأت لطلوع الاصلاح والرأسماليون الرأسمالية . ان الكنيسة شجبت بالفعل وتشجب باستمرار ، الرباعلى اشكاله والوانه . فمجمع اللاتران الذي انعقد عام ١٥١٥ ، وكلمة اللاهوت في باريس ، حددا ، نزولًا عند اقتراح ابداه عام ١٥٣٢ ، تجار اسبانيون في انفرس ، الحرم الذي صدر من قبسل بحق الربا . فغي نظر اللاموتيين المدرسيين : « سمادة الانسان الاتم لا تتم الا بشاهـــدة الذات الالهية، فمقتنيات هذه الارض ليست سوى ذرائع أو ادوات يجب ان تساعدنا على الميش بحيث نحيا حياة روحية تؤهلنا بدورها للحياة الابدية . فالسمي وراء هذه الخيرات الارضية والعمل على توفيرها ، يجب أن يتم باعتدال كلي . فالملكية شر لا بدمنه ، والشيوعية قد تكون أفضل الحاول. والسمي الدؤوب ؛ المتكالب على ادّخار المال وجمع الثروة خطبيَّة هو. فالممل في هذا السبيل يجب ان يستهدف ، قبل كل شيء ، تلبية حاجاتنا الضرورية . فالانتاج ضروري ، وهو محمود الغاية . والتجارة أمر لازم ، وان كانت لا تخلو من خطر . فالنقد قـــد عِسي مفسدة للاخلاق والآداب ، ومحط من شأن الانسان . فمن اشترى للتصنيع والبيع عمل جيداً . ومن يشتري ليبيع ما اشتراه في سبيل تأمين بعض الربع يسيء التصرف . يجب ان يتم البيع بثمن مثل هذه المبادىء قامت النظرية التي تتلاءم مع نظام زراعي يتفق مع سناعة ضعيفة في مجتمع يتألف من فلاحين ومزارعين ومعلى 'حر'ف . والمعروف ان النظام الرأسمالي نشأ قبل الاصلاح بزمن طويل ٬ فهو نظام 'عمل به منذ القرن الثالث عشر ٬ في ايطاليا والبلاد الواطية، وفي مدن فلورنسا والبندقية ، وبروج ولياج وغنت. فاصحاب السوتات المالية الكبرى، فيذلك العصر من ايطاليين والمان ، كانوا يقومون بمضاربات مالية قبل ان ينشر لوثير تعاليمه . والمعروف اس كيار اصحاب هذه البيونات المالية امثال بحر ووكزر وهوشستار ، كانوا من ألد" خصوم لوثير والاصلاح الديني الذي قام به . فاك المكاثوليكية نفسها كانت تبرر تشفيل رؤوس الاموال عندما يكون الدائن نفسه مساهما في ارة المشروعات، هذا إن لم يكن يتحمل هو وحده نتائج كل خطر ينجم عن هذه المشروعات ، كما انها كانت تجيز قيام شركات مساهمة للمضاربات المالية . كذلك أجازت تسليف مبلغ من المال لقاء ربح دائم بفائدة صغيرة . والفلاسفة انفسهم من اتباع مدرسة توما الاكوبني استجابوا ، بشيء من التماطف المقتضيات النظمام الرأسمالي .

فالمال هو من هده الوسائل المشروعة في خدمة الله .

اما لوثير ، فقد ناصب رأس المال العداء العنيف لانه من عمل ابليس. فسمه يقول:

« اكبر مصيبة نزلت بالامة الالمانية ، هي ، لا شك بذلك ، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدها هذه الاحمال التي جرت عل العالم ويلات لا يمكن حصوها ولا تصورها . فالاتجار مع الحارج في سبيل استيراد الحماصيل من كالكيوت ومن الهند واماكن نائية اخرى ، تسبب أذى للبلاد بتسرب نقدها الى الحارج. ومثل هذه التجارة لم يمكن من الجائز السباح بها . عندي الحكثير عن هسذه الشركات التجارية حيث لا تقع العين الاعل الجشع وعل امور مخالفة لابسط قواعد المدالة » .

وهاهو كلفين يتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر؛ هذا الشرط الاساسي لكل حياة مسيحية حقة : « يكفينا ان تتوفر لنا وسائل العيش واللبس ... »

فاذا كان لوثير وكلفين لم يكونا وراء ظهور نظام الرأسمالية ، فقــد ساعدا ، من حيث لا يدريان ، على الترويج له والتمكين لاصوله .

شجب لوثير الرأسمالية ، ونظام المضاربات المالية . وقد تصح بالدين الجماني ، بل أوصىبه ، والبيع بسعر منخفض يؤمن مع ذلك اسباب العيش للبائع . الا انه امتنع عن سن اي قانور ... أو تشريع ، رغبة منه في اطلاق الحرية الكاملة أمام الناس ، في هذا الجال .

قعلى التاجر ان يرجع ، في ذلك ، الى ما جاء في المنجيل والى صوت خميره ، على اننا نرى اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسيين ، فاللوثيرية ، اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسيين ، فاللوثير ، الى انتشار الرأسمالية ، تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد .

اما كلفين الذي كان اصغر سناً من لوثير ، فقد شر تعاليمه في اوساط تتعامل كثيراً بالنقد بعد ان جعل مقره الدائم في مدينة جنيف التي اصبحت، اثر انهيسار مدينة ليون الاقتصادي في اعقاب الحروب الاهلية الدينية ، مركزاً مالياً كبيراً ، وذلك بوصفه زعيساً لحركا مدنية ساعد على نشرها عمال مهاجرون وتجار . فهو اكثر تحرراً من لوثير في ما يتعلق بالربا . ومن جهة اخرى ، لم يتقاعس قط بوصفه رجلا فقيها متشرعاً ، عن فرض نظام شديد بعد ان اقتنع في الصمع ، بضرورة ضبط الامور لاستتباب الامر .

فهو يرى : « أن الله هيأ الأشياء لتأتي وفاقاً لما حددته أرادته الألهية » . فالرأس المال ؛ أذا والاعتاد المالي ؛ والمصرف ، وحركة الاعمال التجارية ، والنقد كل ذلك ومسا اليه ، هو من ترتيبات الله ، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها ، واحترامها احترامنا لحق العامل باجره ، ودفع الجار عقار مستثمر »، ودفع فائدة عن مبلغ جرى تسليفه يكون متناسباً مسم المبلغ المدفوع عن قطعة أرض "تستغل بالحصة . قائله أعد كل واحد منسا لدعوة خاصة يؤول الاضطلاع بها إلى تجيده تعالى . فالتاجر الذي يسعى لتأمين ربح له يقتضه نجاح مشروعه ومتجره على قدر ما يأتيه من جهد وقناعة واقتصاد ونظام ، يتفق تماماً مع مقاصد الله ،

ويساعد على تقديس العالم بالجهد المبذول ، فيتصف عمله هذا بالقداسة. ﴿ فالعامل هو اكثر مسا يكون شبها بالله » . ﴿ فالرجل الذي يرفض أن يعمل يجب ألا يا كل » . قد يكون فقر المرء ناتجاً عن الكسل وهذا يعتبر أهانة موجهة ضد الله تعالى. أما الصدقات فيجب أن تعطى بتحفظ كلى ، بعد روية ونظر .

نرى مما تقدم ؛ ان كلفين وقف الى جانب الاعراف والتقاليد البورجوازية يؤيدها ويشد من ازرها ؛ وهذا ما يفسر النجاح الذي صادفته دعوته لدى هسده الطبقة التي كان ابناؤها ينصرفون عادة لاعال التجارة والصناعة ؛ في أنفرس ولندن وامستردام؛ وهم واتقون انهم انما يعملون وفقاً للترتيب الالهي ويسيرون على النهج الذي رسمه الله لهم، ولذا قست قلوب ابناء هذه الطبقة قسوة الحديد لا تعرف الشفقة الى قلوبهم سبيلاً .

الاصلاح والدولة سايرت حركة الاصلاح النزعات القومية وماشتها وفالعقيدة الدينية من شأنها الن توحد الشعوب وان تلهب ممثلها القومية المشتركة ، وكرص صفوفها لتقف كالبنيان المرصوص ضد الاجنبي ، فتنتصب في وجه مليك لا يشاطرها ايمانها ، فهل من عجب ان تصبح اللوثيرية ، في السويد مثلا ، ومزاً للقومية السويدية تحمل السويديين على امتشاق الحسام واعلان الثورة في وجه المستعمر الدانماري (١٥٢٣ – ١٥٢٩) . اما في الامبراطورية ، فالانضام الى اللوثيرية بدا مظهراً من مظاهر صراع الامارات الصغيرة للحد من اطباع الامبراطور ومنعه من التحول الى نظام ملكي مستبد ، مطلق التصرف ، وبذلك يصونون الحريات التي كانوا يتمتمون بها ويحققون الاستقلال التام الذي طالما راود خواطرهم . امسا الكلفينية ، فقد ساعدت من جهتها على تكوين دولة جديدة هي الولايات المتحدة التي اصبحت الخير الذي حسر عجين الامة الاسكتلاندية .

الاصلاح والتسامع المنظر لتعذر اجبار رجال الاصلاح والمعتنقين لحركته على الارتداد أو استئصال شافتهم من الارض بقوة السلاح ، فقد رأى من بيدهم الامر ان يعتصموا بالتسامع وحل الامور بالتي هي احسن ، عن طريق عقد اتفاقات او معاهدات دينية ، تكاثر عددها في هذه الحقية بالذات . ومن ابرز هذه المعاهدات وأيسرها ذكرا ، معاهدة او اعتراف اوغسبورج ، التي أبرمت عام ١٥٥٥ . وفرمان نانت ، الذي اصدره الملك هنري الرابع في فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورت ، اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورت ، اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف رسميا باللوثيرية ، كا اعترف للامراء الذين اعتنقوا الاصلاح و فاروا عليه ان مختاروا الايمان او الديانة التي يرغبون في اتباعها ، مع الحتى باجبار رعايام على اعتناق دين الامير عسالا بالقول المأثور : الناس على دين ملوكهم Cujus regioejus réligio . كذلك سلم الامبراطور بالاعتراف بشرعية مصادرات الاوقاف والاملاك الكنسية التي سبقت عام ١٥٥٧ ، شريطة ان أيازم كل من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضهام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضهام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضهام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضهام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانفراء ، الما المراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي المناء ، المن الامراء ، الما المناء ، الما المناء ، ال

يكون صادرها ، الى الكنيسة . وعيلى هذا الاساس استنب السلام . قالاتفاقات المعقودة في اوغسبورج عنت اللوثيريين وحدم دون الكلفينين ، كما ان هذه الاتفاقات سرى مفعو لهيا على الامراء وليس على الافراد . اما هنري الرابع ، فقد ذهب الى ابعد من ذلك بكثير ، كما نص عليه منطوق فرمان نانت ، اذ عرف ان يتخذ من التدابير والوسائل ما سهل التمايش السلمي ، في قلب الدولة الواحدة ، لرعايا اختلفوا عقيدة وتباينوا ايمانا ، وربما كانوا على مستويات حضارية متفاوتة ايضا . فالديانة الكاثوليكية كانت الديانة الرسمية . امسا الكلفينيون ، فقد نعموا ، هم ايضا بحريتهم الدينية وبحرية العبادة، مقتصرة على المقاطمة التي يوجد فيها بروتستانت وعلى عدد من المدن والقرى . وتمتع اتباع الاصلاح بحريات عريضة ، فكان لهم محاكم مختلطة ومدن ملاجىء محصنة يقيمون فيها حاميات لهم . وتمن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار ومدن ملاجىء محصنة يقيمون فيها حاميات لهم . وتمن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار ولاول مرة في التاريخ ، بوجود ديانتين وبتساوى الحقوق تقريبا بين اتباعها رعايا الدولة الواحدة تحت حكم ملك واحد ادارة واحدة .

لانعصى لانشائق

النظم الاقنصادية الجديدة

قد تكون دنيا الاقتصاد الجال الاكبر الذي تصارعت فيه النظم الجديدة التي طلعت علينا في عصر النهضة . فالرأسمالية التجارية التي قامت على اساس الاعتاد المالي والسفتجة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر ، في فاورنسا والبندقية وجنوي ، وان الاساليب او النظم التجارية على اختلاف انواعها : كالمضاربات المالمة وتحويل المدفوعات وكتب الاعتاد ، وهو المحور الذي استقطب حوله بالاكثر المعاملات التجارية والتبادل الدولي الس ما يدل انها تطورت كثيراً خلال القرن السادس عشر . علينا ان نلاحظ هنا، قبل كل شيء ، ان أي تقدم يطرأ في الجال التقف، يحمل بين طياته نتائج لا تقدر ، وان لم تردد الوثائق التاريخية التي وصلتنا من ذلك العصر ، أي صدى" بارز لها . مثال ذلك ، فرنسا ، مثلا ، حيث نجدان الايراد أو الدخل لم يكن ليعتبر فيها من وسائل الاعتاد المالي . فالريسم الناشيء عن مبلغ من المال ع يصلح بيعه من دائن لقاء مبلغ يقرضه او يسلفه ، على ان يستوفي دينه تباعاً من ايجار عقار معين ، بموجب عقـــــــــد يمتبر المعاملة بيمًا نهائيكًا مجيث لا يعود من المتوجب على المدين أن يدفيه . ففي الريسم الدائم لا يستطيم الدائن ، ان يسترجم عيناً المال الذي دفعه نقداً وعداً . وقد حاول بعض الخاصة ـ ان ينزلوا ، بصفة عفوية وبالرغم من معارضة القضاء ، الايراد الدائم أو الريسم ، منزلة الدن مفائدة . فمنذ أواخر القرن الخامس عشر حاول المتماقدون ، في باريس ، ان يدخلوا عــــلى ـ • ١٥٤ ، شرطاً اضافياً آخر يحدد بصورة واضحة حتى الدائن باستيفاء جميم حقوقه ، من جميم املاك المدين ، أن لم يسدد هذا الاخير ما تبقى عليه من حساب ، غير مكتف بريسم المقسسار المرتهن لديه والذي كان يستوفى ربعه . وهكذا فالربع اصبح الزاماً شخصياً مع رهن ، وهي معاملة تقرب جداً من التسليف بفائدة ويمكن ان تكو"ن اداة طيمة في التحويل المالى. امسا معرفة ما اذا كان هذا النظام قد أدى عمله بالفعل ؛ فأمر آخر . فهل عمد هذا ؛ نحن مقتنمون

باننا كشفنا النقاب عن كل التغميرات التي عرفتها المعاملات المصرفية والتجارية ?

ومهما يكن من الامر ، فاتساع محال الحركة التجارية وانقشاع مداهــــا ، وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقها ، كل ذلك يعتبر بحتى تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي. فبامتداد الحركة التجارية الى العالم الاسباني ، في العالم الجديد والى المحيط الهندي البرتعالي ، ادخل عـــــــلى الحركة الاقتصادية تفيرات جذرية. فالفترة الاخبرة من القرن الخامس عشر اتتفق منع ما يسميه فرنسوا سمياند بطور « B » اي نهاية الحقبة التي وَفلتت فيها المعادن الثمينة وندرت الفساية وُهبطت فيها الاسعار هبوطاً عظيماً ، وانكمشت فيها المبادلات التجارية كما صُوُّلت فيها حركة الانتاج. فالصعوبات التي اصطدمت بها الحركة الاقتصادية العالمية شجعت الناس على البحث للخروج من الازمة وراح جبل جديد من التقنيين ورجال الاعمال المغامرين يحاول ابتداع شيء حديد فالدقة التي حققوها في بناء سفينة الكرافيل هذا النوع من السفن الذي عو"ل عليه المستكشفون الجغرافيون والتي يمكن بحركة بسبطة في قلوعها أن تصبح بستوى الدرجة ٢٥من خطالسير لتسير مع تيار الربح الذي يهب من جهة اليمين ؟ ثم الاتجاء في طريق بحري يرسم زاوية معينة ،مع الابرة المفنطيسية، وتحديد الموقع الجغرافي للسفينة، بالاعتماد علىزيج الزوايا اللرجوع الى الخط والاتجاء السوي، اذ ما حادث عنه السفينة ، ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الصدد المطلوب ، كل هذه التحسينات الفنية ادت الى تطور عظم في وسائل النقل البحري . فالثورة التي تمت في الجال الجغراني ، وتسهيل ايصال التوابل والافاويه الى الاسواق الانكليزية والفرنسية والغلمنكية والالمانية ، وتحويل سبائك الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية باتجاه البندقية ومنها الى انفرس ولشونة ، ووصول المواد الصباغية ، من الهند وخليج كمباي ومقاطعة بيغو ، او من البرازيل، كالبقم والقرمز والنيلة ، والانقلاب المفاجىء في صناعة النسيج من جراء ورود القطن مســن السوس ومن جزر الرأس الاخضر﴾ والبرازيل والهند ، وتطور صناعة السكر في كل من جزر ماديرا والازور والجزر الخالدات ، على أثر اختراع مطاحن السكر ، وبروز صناعــــة صيد الاسهاك على شواطىء جزيرة الارض الجديدة ، واشتداد الطلب ، بالمقابل ، عسل مقاطعات البلطيق وأوروبا الفربية ، لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية وأجواخ وغير ذلك مسن مصنوعات الحديد والنجاس ؛ والزئيق ؛ والمدافع ؛ وانسجة القلوع ؛ والبــــارود ؛ وتصدير هذه المواد نحو لشبونة وأشبيلية ، كل هذه الجاري التجارية ، وهذه الاسواق الجديدة، ساعدت على طلوع عالم رأسهالي ، وتسببت في ارتفاع مستمر في الاسمار ، وفي ازدياد الانتساج والمبادلات التجارية . هذا الوضع كله حل" في مرتبه و 4 ، من نظام سيمياند .

فالحركة التجارية التي نشطت وازدهرت بين أشبيلية ومرافى، اميركا الاسبانيسة ، فكانت الحور الرئيسي لهذه الحركة الاقتصادية التي جاءت بها اوروبا ، اذ ذاك ، ملا نشاطها الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ و١٦٠/١٦٠٨ . وقسد ارتفعت حركة النقل البحري ذهاباً واياباً ،

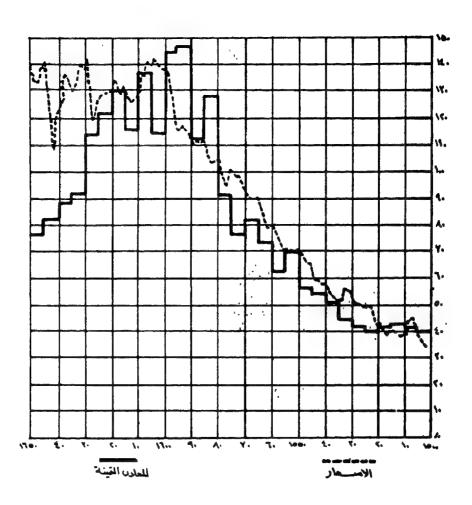
بين الطرفين ، من ١٥٦٨٠ برميلا ، سعة البرميل الواحد ٢٠٨ متر مكعب ، في فترة السنوات الخس ١٥٠٦ - ١٥١٠ ، الى ٢٣٧٥٣٠ برميسلا في فترة السنوات الحس ١٦٠٦ - ١٦١٠. وهكذا نرى ان معدل الزيادة في حركة النقل ارتفعت من ١ -- ٢٠. وقد مرت حركـة النقل خلال هذه الحقبة المئدة بين الحدود المذكورة بتقلبات عديدة تناوحت بين صعود وهبوط ، وتقدم وتأخر ، تتفق ، الى حد بعيد ، مع هذه الدورات الزمنيـــة التي عرفتها الحركـــة الاقتصادية ، ومربها الرأسمال الدولي ، في القرنين التـــاسع عشر والعشرين ، والتي راح يحدد ميزات كل منها والخصائص التي تلبستها ، كبار علماء الاقتصاد وخبرائس. وهذه الدورات الزمنية يختلف مداها بحسب آراء ، هؤلاء الخسبراء : فهي تدوم من ٥٠ – ٦٠ سنسة في نظر كوندراتييف ، او من ٧ - ١١ سنة في نظر جوكلر ، او من ٣ - ٤ سنوات في نظر كِتشين . أليَست دورة كونـــدراتييف ؛ توازي تــلك الدورة التي ابتدأت في اواخرالقرن الخامس عشر فتميزت بهذا النشاط العارم تزخر به حركة الاعمال التجارية والنقسل اثر الاكتشافات الجغرافية وطرق المواصلات المحيطية الجديدة ، وانتهت هذ، الازمة التي اشتدت بين ١٥٥٠ ــ ١٥٥٩ بعد أن ظهرت بوادرها عام ١٥٤٧ / ١٥٤٨ ، والتي عاد اليها رسيس من النشاط ، حوالي عام ١٥٦٢-١٥٦٣ ? فاذا ما حسبنا معدل سعسةالبرميسسل ٢٠٨ متر مكعب ، واذا ما أخذنا اساساً لتقديراتنا ، فترة خمس سنوات ، في هذه الازمة المالية الكبرى ، بلم وزن البضاعة التي تم نقلها من اشبيلية الى اميركا ، في نصف المقدمن السنين ١٥٤١ - ١٥٤٦ ، ما قيمته ع٢٥٦ برميلاً". ارتفع هذا المعدل في الفترة ع١٥٥ -١٥٥٠ ؛ الى ٥٠٤٠٠ ثم هبط الى ٢٧٠٧٢ برمىلا خلال الفترة ٢٥٥١ ـ ١٥٦٠ .

وقد حدث في الفترة الواقعة بين ١٥١٧ - ١٥٦٠ هزة مالية شديدة تأثرت من جرائها اشهر البيوتات التجارية التي عرفت في النصف الاول من همذا القرن ، لدى الفلورنتيين ولدى اسرة فوجر « Fugger ». فقد ارغمت الحروب التي وقعت اذ ذاك ، الملوك على استلاف مبالغ طائلة وجدوا انفسهم عاجزين ، فيا بعد ، عن ايفائها ، كا استعملت مبالغ ضخمة في مشروعات غير بجدية ، كان مع ذلك ، لا بد من القيام بها ، هي هذه المبالغ الخاصة بالحروب وتكاليف حياة البذخ في بلاطات الملوك ، ونشأ من جراء ذلك أزمة مالية حادة هز ت اوروبا بين ١٥٥٧ ميان دوقا نما المفطرها لاعلان افلاسها ، وفي سنة ١٥٥٧ توقفوا عن الدفع وحظروا اخراج الذهب من البلاد، ولا سيا مبلغ ٥٠٠٠ مود لحسلات فوجر في انفرس ، وحولوا ما لديم مسن juros بسعر يتراوح بين ٥٠ – ، عن قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ه / لم تلبث ان فقدت يتراوح بين ٥٠ – ، عن قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ه / لم تلبث ان فقدت قيمتها الاسمية ، في البورصة . ولما كانت لمحلات فوجر استحقاقات على اسبانيا بقيمة مليون دوقا ، اي ما يوازي ضعف رأسمالهم التجاري ، فقد اشتروا ، عام ١٥٦٣ ، اسهما لم تلبث ان هبطت ، ه و ما بالمائة من قيمتها الاسمية . وملك فرنسا نفسه بعد انكساره في موقعة سان .

كنتين في ١٠ آب ١٥٥٧ ، لم يستطع ان يدفع سوى قسم ضئيل من أصل الفوائد المستحقة عليه للمبالغ التي سبق واقترضها ، وعندما توفي عام ١٥٤٧ ، خلسف وراءه ديناً يتراوح بين ٣٦-٤٤ مليون ليرة في الوقت الذي خسرت هملة الدوقا التي اصدرها ٥٠ – ٤ بالمائة من قيمتها الاسمية . وهكذا نرى ان كل البيوتات المالية التي كانت تتولى الاهمال المصرفية ، والتعويل ، وجدت نفسها مهتزة . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتكاثر الافلاسات في انفرس والمانيا الجنوبية . وانهارت مؤسسة فوجر نفسها بعد ان فاقت الديون المستحقة عليها ، موجوداتها ، وذلك اثر فقدانها حرية الاتجار بالمضاربات التجارية ، الامر الذي اضطر معه بعض اعضاء الاسرة ، للانسحاب من الشركة .

وقد ظن بعضهم أن هذه الازمة التي استحكت حلقاتها في منتصف القرن السادس عشر ، مهدت السبيل لازمة مالية اخرى ألمست بالرأسال وضعضمته طيلة النصف الشسساني من القرن السادس عشر ، فمنسبل سنة ١٥٦٣/١٥٦٢ التي عقدت فيها معاهدة كاتو . كبرسيس فاعادت السلام الى أوروبا ، راحت الحركة التجارية تسجل نشاطاً جديداً ، فارتفع معدل الرحلات التجارية بين اشبيلية واميركا ، وارتفعت نسبة المشحونات التي 'صدّرت ، في الفارة ١٥٦٦ ــ ١٠٥٠ الى ١٠٤٠٤٢٥ برميلا" . ومدينة لاروشيل التي لم يسجل مرفؤها سوى ١٨ سفينة عام ١٥٦٣ ، وه سفن عام ١٥٥٨ غادرت مينامها ، اذ بها تسجل ٢١ سفينسة عام ١٥٦٣ ، و ٩١ سفينة سنة ١٥٦٤ . ومدينة فِئتريه مـن اعمال قرنسا> صدَّرت وحدها ٢ بالرَّغم من الحروب الدينية التي خلخلت حركة الاعال والاشغال ٢ ٧٣٢٠٦٦٢ ذراعاً من المنسوجات كمدلسنوي للتصدير ، كما سجلت سركة التصدير فيها ٢٠١٥٣٬٨٩٠ ذراعا كمسدل وسط للسنوات ١٥٧٠ ــ م١٥٧ ، و ٤٠٠ ، ه ١٣ ، ١ ذراعاً عمام ١٥٧٥ . ماذا ما تدهورت بيوتات تجارية ومصرفية كبيرة كمحلات فوجر وغيرها ، فقد حلت محلها بيونات مالية ضخمسة ﴿ في جنوى ، ﴾ نتيجة للحرب التي وقمت بين الملك فيلب الثاني وبين البلاد الواطية وانكلاا >والاضطرابات التي وقمت في فرنسا وانقطـــاع المواصلات الحيطية ، وطرق المواصلات الفرنسية ، كما يعود ذلك للموقع المتناز الذي تحتله جنوى اذ انها واسطة العقد وعقدة المواصلات الكبرى التي تمر بها الممادن الثمينة في طريقها من اسبانيا الى البلاد الواطية عبر ممرات جبال الألب ومجازاتها . فاذا ما سببت حركة ارتفاع الاسمار تأخر بيوتات مالية خاصة ، فقد نشأت مصارف وطنية تباعاً في كل من باليرمو وجنوى (١٥٨٦)و في البندقية (١٥٨٧)وميلانو وروما (١٥٩٣)وتولت هذه المصارف التيام بمثليسات تسليف على المكشوف دون أيداع سندات تنطية موازية لها ٢ وتستعمل حملات ورق فتضمن للمودع دفع دراهمهالعملةذاتها التي دفعها كا تكفل المبالغالمودعة قيها ضد اي هبوط يطرأ على النقد . وهكذا نرى ان المبالغ الضخمة التي استخدمت في القرن السادس عشر جاءت دليلاً يشهد عاليساً على ما كان لرأس المال ، اذ ذاك ، من تأنسير بنين .

منالك عنصر هام نهض بهذه الحركة التجارية يتمثل على أتمه في هذه المادن الثمينة .



شكل ١ ـ الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٥٠٠ ـ ١٦٥٠ (عن هاملتون)

المعادن الثبيئة وارتضاع الاسعبار

اشتدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر حاجة اوروبا الى المعادن الثمينة . فالنقد المتداول ، لم يكن

وقفت حائلاً فون الانتاج وتطوره. والرغبة في ترفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت وقفت حائلاً فون الانتاج وتطوره. والرغبة في ترفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت من هسنه الحوافز الشديدة التي ادت الى تحقيق الكشوف الجغرافية في المحيطات الكبرى. وقد امكن ترفير بعض هذه المعادن الكريمة عن طريق استبار مناجم الفضة في اوروبا بعد ان تم تجميز المعد نين بالمعدات الفنية والمعاد اللازم فادخل على الاستثبار تحسينات ملوسة. وقسد كانت هذه الناحية موضوع اهتام اصحاب المصارف بنوع خاص لما كان لهذا المعسدن من قوة شهرائية عالية جعلت من عملية استثبار مناجم الفضة عملية رائجة. فقد سدّت الفضة المستخرجة من المناجم الالمائية بين ١١٤٧٠-١٥٤٥ حاجة اوروبا منه. ودخل هذا المعدن التكريم الى البلدان المحدود من السودان لصعوبسة الجماورة الميمور عليه وبلغ استثبار مناجم الفضة في المائيا الذروة ، بين ١٥٣٦ – ١٥٣٥.

ومنذ ان احتلت اسبانيا جزر الانتيل ، اخذ الذهب الاميركي يجري كالنهر ، نحو اسبانيا ويليه متعدن الفضة . وازدادت الكيات المستوردة من هذه المعادن الثمينة بعسد ان تم فتح المكسيك ، على يد فرناندو كورتيس (١٥١٩ – ١٥٢٢) والبيرو على يد الفاتح بيزار (١٥٢٠ – ١٥٢٥) ، واخيراً بعد ان اكتشفت ، عام ١٥٤٥ ، مناجم الفضة الفنيسة في بوتوزي ، في جيال البيرو، على أو استعالم ، بين ١٥٥١ – ١٥٥١ ، الزئبق في استخراج الفضة من مناجه . واذ ذاك ، اخذ هذه المعدن الثمين يجري كالنهر ، نحو اسبانيا (١٠) .

فهذه القناطير المقنطرة من المعادن الثمينة ؟ ما لبثت ان خرجت من اسبانيا بسرعة ؟ ثمناً لما استوردته من الحبوب والحور والمعادن والبارود والمدافع ؟ من فرنسا وابطاليا والبلاد الواطية والماتيا وانكلترا والعضاريات التي قام بها رجال المال واصحاب المصارف من الالمان والإيطالين فيها ؟ والعديد من الصناع المهرة الذين توافدوا عليها للعمل فيها ؟ من فرنسيين والمان وايطالين؟ فتشروا عدم المعادن الثمينة ووزعوها في جميع الحاء اوروبا .

قهذه المادن الثمينة ، سواء منها ما استخرج من مناجم اوروبا الوسطى او ماجاء مسن اميركا ، تسببت في ارتفاع باهظ للاسعار . ومع ذلك فلم تكسن بالسبب الوحيد . فبلاطات

واردات المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا بالبيزوس من عيار ٥٠٠ مارافادس			 (١) الانتاج العالمي من الفضة والذهب بالكياد 	
		فضة	ذهب	النترة
*****	منذ ۲۰۰۴ –	£ Y	• * •	104 1544
« 1701 - 3301 - 6741-FF111		4	¥77•	1066 - 1041
ه ۱۵۶۵ سـ ۱۵۲۰ سـ ۳۲٬۴۲۸٬۳۲۰ عن هاملتون		*11.7	A • Y •	1103 - 1080

الملوك ، ونفقات الجيوش ، وارتفاع مستوى العيش ، وازدياد عدد السكان ، كل هذه المرافق زادت من الطلب . فاحتكارات التجار ، والحروب التي انفجرت تباعاً في كل من ابطاليسا وفرنسا والبلاد الواطية والمانيا ، والحرب ضد الاتراك ، خففت احياناً من المرض . فالتعويل المتزايد على نظام الاعتاد المالي ، مع انه ضاعف من وسائل الدفع ويسر لها ، لم يبق ، مع ذلك بدون تأثير على حركة ارتفاع الاسمار . الاان ازدياد كمية الممادن الثمينة في الاسواق بقسي السبب الاقوى لهذا الارتفاع والحداث عركة الرتفاع الارتفاع من مقاطمة الاندلس حيث كانت تصل الى اشبيلية الشحنات المتتابعة من اميركا، ومن الاندلس امتدت الحباق بلدان اوروباعل نسبة ما تتصل باسبانيا .

لم يدرك المعاصرون سر حركة ارتفاع الاسعار هذه ، فراح اعضاء الكورتيس، في اسبانيا ؛ ينمون عام ٢٥١ه ١ هدرالثروة بمثلابكميةالمجول التي ذبحت والرسومالباهظة التي 'فرضت عام ١٥٣٧٠' على حق استمال المراعي وعلى تصدير البضائع الى اميركا ، كا نمدوا ، عام ١٥٥١ ، المضاربات التي يقوم بها الاجانب في الاراضي الاسبانية . وتخفيفاً من حدة الارتفاع؛ اخذت الحكومات والبلديات تفرض الرسوم ، وتحظر التلاعب بالاسعار ، وتصادر البضائم : زجراً للتجار وتأديباً لهم أنما بدون نتيجة محسوسة ، والظاهر أن الفرنسي جان بودن أدرك وحسيده الاسباب السكامنة وراء ارتفاع الاسمار؛ وراح يشرح الاسباب الدافعة الى ذلك ؛ كل هذا لم يأت بنتيجة حتى اواخر القرن . فقد فاته ان يذكر سبباً آخر لهذا الارتفاع تبينه جيداً بعض موظفي غرفة التجارة ٬ في باريس ٬ اذ ذاك ٬ ولا سيما السيد مالستروا من بينهم . وكان ارتفاع الاسمار يشتد اكاثر فاكثر ؟ بالنسبة لقدمة النقد الفعلمة ؟ التي كان الجهور يضفها على العملات المعسدة للتحويل . وقد سبب هذا الامر المضاربات على العملات وفقاً لاوزانها وعياراتهــــا في مختلف البلدان وبنسبة الفرق الرسمي بين الذهب والفضة . فقد حل تجار اجانب معهم الى البلدان الق يتقدمون لشراء هذه العملات القوية ويدفعون فيها اسعاراً ويد على سعرها الرسمي بالتحويل ٢ ثم يممدون الى تحويل هذه العملات الى سبائك من الذهب ، اذ كان سعرها اعلى بكشير مما دفعوا ثمناً للعملة الذهبية بالنقد الاجنبي الذي حملوه معهم . وهكذا كانوا يسمشرون العملات العين اعلى من العملات الررق المسدة المتداول والتي كان سمرها الاسمي في نزول مستمر بينا اسمار الحاجيات في ارتفاع دائم . وهنالك طرق ووسائل اخرى يتبعونها لتخفيض اسعار النقد المد التعويل ، انما النتيجة النهائية كانت دوماً واحدة هي ارتفاع مستمر بالاسعار نتيجة محتومة لازدياد كبات المهادن الثمينة في الاسواق .

وهذا الارتفاع سبب ارتباكا للماصرين بسبب المشاكل والصعوبات التي أنارها في الدول > وبسبب هذه الاضطرابات الاجتاعية التي سركها فيها . فقد رأوا فيه شراً لم يكولوا مطمئنين اليه .ومن سبهة نانية > كان لا بد من ارتفاع وازدياد كمية النقد المتداول لتأمين التبادل التجاري.> بالتالي لتشجيع الانتاج وتقريته . الا ان الاسعار ارتفعت ، بين ١٥٠١ - ١٦٠١ ، اربعة ضعاف . وقد كتب للقرن العشرين ان يرى ويشهد ما هو أدهى وأشد من هذا بكثير . وقد رتفعت الاسعار ، في اسبانيا ، بين ١٥٠١ - ١٥٢٥ ، خسين بالمائة ، وبلغ معدل هذا الارتفاع ، بين ١٥٥٠ - ١٥٥٠ حوالي ، ٣٧٪ ، وهي زيادة لم تحصل لعمري ، بسرعة كبيرة جداً حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار ، اقل امكانية عرضت في ذلك العصر لمضاعفة الانتاج . واخيراً وليس آخراً ليس ما يشير قط الى ان هذا الارتفاع بدا مترجرجاً أو متارجحاً ، وقد كان على الاجمسال ، حافزاً اكبرعلى زيادة الانتاج منه سبباً للاضطراب الاقتصادي ، وذلك طمعاً او استهوا ماربح متزايد .

أدى النشاط المتزايد في الاعال التجارية وحركة المبادلات الى بعث النشاط الاقتصادي في جميع المحاء اوروبا ؟ كا يظهر من الارقام التي نضعها هنا تحت الانظار . فمشحونات الخور مسن مرفأ نانت فقط باتجاه مقاطعة بريتانيسا وشمالي المملكة الفرنسية ، وانكلترا وايكوسيا ، والولايات المتحدة ، والبلاد الواطية ، ومناطق البلطيق ، واسبانيا والبرتفال احيانا ، بلغ معدلها والولايات المتحدة برميلا بين ١٠٤٧ ، وارتفع هذا المعدل الى ١٠٥٧ ، برميلا ، بسين ١٥٥١ – على المن الازمة المالية التي استحكت حلقاتها اذ ذاك . وقد حافظت حركة التصدير على هذا المعدل لمدة ثلاثة قرون ، مع العلم ان حركة الشحن بلفت الذروة في القرن الثامن عشر اذ ان الكية التي صدرت عنها اذ ذاك ، بلغت ٤٤٠ ، ١٣٥ برميلا . وقد استمار هوسر كلة و البعث الاقتصادي المتعبر عن النشاط الاقتصادي الذي ميز السنوات الاربعين الاولى من القرن السادس عشر . بعد هذا حان لنا ان نتكلم عن العالم الجديد .

ان اشتداد الطلب ، في كل من اسبانيا والبرتغال على الانتاج الصناعي وعلى المواد الغذائية ، من كل اوروبا ، تلبية منها الطلبات الملحة الواردة من اصقاع ما وراء الحيط ، ساعد كثيراً على تطوير وسائل الانتاج واساليبه ، والتركيز التجاري الصناعي عمت حركته مناطق واسعة . وهنالك بوادر تنم بوضوح على ظهور رأسمالية صناعية حتى في صناعات النسيج ، حيث كانوا يعتمدون بالاكثر على الصنباع اليدويين ، فيجدون لهم فيها مورد رزق اكثر بماكان يتوفر لهم لو علموا في المناجم والمطابع ودور النشر . فاذا كنا نجد دوما في مراكز صناعة النسيج : حلاجين وند افين ، وحاكة وقصارين ، ومعلي كار ، واصحاب ورش لهم عنادهم الفني واعتدتهم يعملون لحسابهم الخاص ، وعدداً اكبر منه بكثير يعملون لحساب كبار التجار ويؤمنون لهم كل وسائل العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يعملون عسلى العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يعملون عسلى تنفيتي الانتاج ، نرى ، من جهة ثانية ، ترتفع في طول البلاد وعرضها ، اكثر فاكثر ، مصامل ومصانع لنسج الاصواف والاجواخ ينشؤونها في منازلهم وبيوت سكنام بعسد ان يجهزوا يكل ما تحتاج اليه صناعة النسيج من أدوات ، ويُستخدم فيها ٨ أو ١٠ أو ١٨ حتى و ١٩ يكل نول فريقه الخاص من العال ، حتى انهم كانوا يستأجرون ، تأميناً العمل ليل نهار ، عالا ، اضافيين وبعض اصحاب هؤلاء المسانع ، حولوا منازلهم الى معامل و تموج بالناس وتسج بإلمركة ، كاجاء في احدى الوثائق البلاية ، الله كنا ترى الندافين والملاجين يشطون الصوف في بإطركة ، كاجاء في احدى الوثائق البلاية ، الله كنا ترى الندافين والملاجين يشطون الصوف في بالمون الصوف في

غرف المنزل وحجراته ، ويركب النساجون مفازلهم وانوالهم في مستودعـــات المونة ، وبرى الحاكة والفازلات في كل الفرف ، يعملون على مقربة من غرفة نوم ربة المنزل ، الى جانب العال يقضون لياليهم في المنزل . حركة موصولة من عال يفدون ويروحون ، صبحاً وأصيــــالا ، من قصــّارين ودباغين وصباغين أنهوا أو في سبيل الانتهاء من اعبال أو اشفال عهد بها اليهم في بيوتهم أو يعمدون ما انتهوا من انجازه ليستلموا غيره من الاعبال .

والمدن تتضخم وتكبر وتتسم اكثر فاكثر ، وتلحف في طلب المواد الغذائمة والخامات الق تحتاج اليها من الريف ، بما سبنب انقلابًا في نشاط الفلاحين والمزارعين وسكان الريف ، حتى في هذه المناطق المعزولة حبث تخف الحركة وتتعثر المواصلات ان لم تمتنع . وحرى بالملاحظة هنا ما نشاهده مثلاً ، في بعض انحاء ولاية بواتو من توبة كتيم تكثر فيها الغياض والمستنقعات. فقد كانت الارض القابلة للزراعة ، في اواخر القرن الخامس عشر ، موزعة الى قطع صغيرة ، يعزقها الفلاحون بايديهم ، أو يكتريها مرابعون ، بالواحق استثار الارض والانتفاع بثارها ، بينا تبقى ملكية الارض لصاحبها الذي يبقى له عليها حق فرض الرسوم واستيفاء بعض المداخيل والفلال وتأمين بعض الخدمات الاخرى ٬ وهو وضع ٬ لم يكن بالطبع ٬ ليؤمن لسيد الارض ٬ مردوداً يذكر. ولذا راح اسياد الارض يحاولون شراء هذه القطع الصغيرة الملاصقة أو الجحاورة لاراضيهم فنجعاون منها وحدات ضخمة تصلح للاستثار على نطاق اوسم، تؤلف في مجموعها مزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين ١٥ - ٥٠ هكتاراً ٤ لم تعمُّد تعزق أو تخرق تربتها باليد ، كاكانت من قبل ؛ بل بالحراث وافدنة من البقر . وقد جهزت كل مزرعة من هذه المزارع باربعة أو خسة فدادين كا جهزت باربعة الى ستة محاريث؛ وكان بوسع صاحب المزرعة ان يعنى بتربيسة الايقار الحاوب والغنم ، وبذلك نتوفر للمزرعة ، اكثر فاكثر ، امكانات اكبر للاستثار، وتسميد الارض ، وانتاج اوفر ، ولم يعد بحاجة الى اكثر من ٨ - ١٠ اشخاص لتأمين الاعمال ، يؤلفون عادة ، اسرة المزارع ، بينا كان يعمل في هذه القطع قبل توحيدهـــا من ٧ - ١٠ اسر يتراوح عدد افرادها بين ٣٠ - ٣٥ شخصاً . وهكذا استطاعت الارض الدتعطى غهلة أوفر ، بلغ معدلها احداثاً ٩ قناطير من الحبوب في الحكتار الواحد ، وصار في امكان المزارع أن يبيع في السنة ، زوجاً من البقر المسمنة وزوجاً من الثيران الصغيرة وزوجاً من العجول ودزينة صــن رؤوس الغنم . كذلك صار باستطاعته ان يورد الى القرى والمدن الجاورة محصول مزرعته من الصوف الضروري في حياكة الاصواف والاجواخ التي تصدُّر للخارج . وهكذا رأينا أن حياة المزرعة ونشاطها يتوقفان ٤ إلى حد بعيد ٤ على الطلبات التي تنهال عليها من القرى والمدن التي تحرص الحرص كله على تلبية المروض المفرية التي تردها من الحارج وتلبي بالتالي، مطلب النجارة الدولية . وهكذا نرى أن تطور طرق استثار الارض ، وتغيير مظهر الريف ، بتوفير المراعي الحضراء للماشية ، واقامة مسينا تحتاج اليه الساغة من يسيّر وسياجات وزرائب ومغروسات وحدائق وغير ذلك بما يضني على الآرض حلة سندسية، كل هذا اقتضى بالطبيع رأسمالًا كبيراً.

لتأمين نفقاته والنهوض به . وقد تمت هذه التغييرات على يسد اسياد الارض والاشراف والبورجوازيين والتجار بفضل حركة تسليف زراعي ناشطة ، استندت الى رأس مسال كبير اقتضاه القيام باعيال واشغال متنوعة : من توسيع المزارع وتجهيزها ، وصيانة المباني الموضوعة تحت تصرف الشركاء والمرابعين العاملين في استثار الارض ، والخنازن ، ونقب الارض وعزقها واحيانها وتقديم البزار ، واحيانا توفير نصف ثمن حيوانات الجر . وهكذا تمكن المزارع من تأمين غلة اوفر ، من هذه الاستثارات التي اخذ يقوم بها بفنية وتقنية اكبر . فبين المقد الاخير من القرن الخامس عشر (١٤٩٠ – ١٥٠٠) وبين المقد الرابع من الفرن السادس عشر (١٤٩٠ – ١٥٠٠) وبين المقد الرابع من الفرن السادس عشر (١٥٠٠) في المالم الجديد ، التي اصبحت مجالاً واسعاً لحركة تجارية عارمة واسواقاً تجارية جديدة لتصريف في المالم الجديد ، وبقيت هذه الاوضاع التي اطلت علينا ؛ في المجال الاقتصادي ، في الرئيسية ، حتى منتصف القرن الثامن عشر ، كذلك اطل علينا ؛ في المجال الاقتصادي ، في الحارز في النشاط البشري .

فلننظر الآن ما عسى ان تكون عليه الخصائص المميزة لهذا الوضع العام .

ازدهار حركة الاحمال سجل النظام الرأسمالي تطوراً عظيماً اثر بروز التجارة البعيدة المدي. التجارية الفخمة ان انشاء البلاطات الملكية وما كان لها من أثر بالغ في اشاعة البنخ والترف في غتلف طبقات المجتمع، وقيام هذه الجيوش الضخمة من المرتزقة ، وفو المدن الكبرى السريع ، وازدياد السكان ، وتوفر الفنى والثروة في جميع انحاء اوروبا ، وكلها عوامل انفعلت وتفاعلت بعضها ببعض بحيث اصبحت مما ، اسباباً ومسببات ، كل هذا وما اليه ، زاد كثيراً ليس من معدل استهلاك المواد النادرة الفالية الثمن فحسب ، بل ايضاً المواد العادية اللازمــة للاستهلاك اليومي . وقد دخل في التداول التجاري الدولي عدد كبير من المحاصيل والمنتوجات كا اصبحت هذه الفلال والمحاصيل مجالاً جديداً لتشغيل واستثار مبالغ طائلة من الاموال الدولية ، وفرنسا منها مثلاً : الحرير والمصنوعات الفنية الإيطالية الصنع ، واصواف البسلدان الواطية ، وفرنسا واختان والقائب وخشب البناء ، والماشية في البلدان المحيطــة بالبحر البلطيقي ، واطبوب والكتان والقائب ، واصبحت هذه المواد المجال الاكبر والحقل الاوسع الذي تجلت فيه النجارة والمركا . واصبحت أمامها طرق المواصلات المحيطية الكبرى التي تفضي بسالكيها الى آسيا والمركا .

ورأت اوروبا نفسها بحاجة الى عدد كبير من المحاصيل الآسيوية منها ، في الدرجــة الاولى ، التوابل والافاويه التي دخلت انواع كثيرة منها ، في صناعة الافراباذين وتركيب العلاجــات ،

أوكانت تستهلك؛ بمقادير طائلة في المطبخ ؛ وفي وقت وظروف كانت فيهــــا النباتات العلفية . والمراعي الاصطناعية ، تضطر الاهلين ، في اواخر فصل الخريف ؛ الى ذبـــــــ جانب كبير من الماشية يحفظون لحومها ، لفصل الشتاء البارد ، بين سافين من الملح ، كما كان يقتضى حفظهـــــا واستهلاكها مقادير طائلة من التوابل ، في وقت لم تكن توفرت له بعد ، مثل هذه القائمة الطويلة من الخور والمشروبات المشهِّسية التي يحفل بها عصرنا اليوم ، فتطلعت فيه الاذراق الى 'مقبِّلات ومشهات جديدة . فالفلفل الاسود الذي تفلته سواحــــل الملابار في الهند وجزيرة سرنديب (فَيُسْتَخَدُمُ تَابِلًا او لَبُحْهُ ۚ أَو لَصُوقًا أَو لَعُوقًا)؛ وزنجبيل الهند او الجزيرة العربية ، وجوز الطبيب من جزر موليسك (الصنع المرق المقبيل وتطبيب اوجاع وامراض المعدة) ، والقرفة من الصين او من جزيرة سرنديب(علاج مقو" ، او مقبل أو قابض)، وكبش القرنفل(لتعطير الاطعمة وتطرية المشروبات الروحية) كل هذه المواد ، اشتد الطلب عليها بعد ان سمى اليها القوم باحثين عنها . ونزلت منزلة التوابل ، هذه الملطـتـفات والمسهلات التي طالما جيء على ذكرها ووصفها في طريقة ممالجة جالينوس الطبية : ا"مليلج الهند ، وراوند الصين او الهند ، وسمقونيا او المحمودة من سوريا ، وطارد الديدان المستورد من بلاد اليهودية أو من بلاد فارس ، وأصناف كثيرة مسن الاعاشب والحشائش ذات مفاعل وخصائص مختلفة كالكافور من صومطرة والصين (يستعمل. منشطأ او ضد التشنج) وجوز العفص من الصين ، (قابض) ، ويشلش غالنغا المستورد مـن الصين (ضد حفر الاسنان) والافيون من وادي النطرون ، وصمغ الكثيراء لسد الحبوب ، وتوتماء الهند والصين (للائمد والكعل ؛ والقطرة) ؛ وسكر سوريا أو مصر أو الهند ؛ والى قائمة التوابل ، يجب ان نضيف الاصباغ الضرورية لصباغ الانسجة والملبوسات.: كالأحمر القساني والازرق والنيل من بغداد او من البنغال؛ والاصفر كالصعفران من الشرق الادنى أو من الحند ؛ والحنتاء من الجزيرة العربية ، والعطور والطيوب ، كالمسك من التيبت او من الصين ، والعنبر الاسمر من 'عبَّان ، والناردين من الهند ، والنباتات النسيجية ذات الالياف، كالقطن من مصر ، والحرير من المجم والمراق وسوريا ، والاقمشة والمصنوعات الزجاجيسة ، والاسلحة السورية ، والياقوت الاحمر من الخليج الفارسي، والماس من الحند، (النوع المعروف اذ ذاك من انواع الماس) والياقوت والجذع من سرنديب ، وغير ذلك .

كانت هذا الاصناف والمواد تصل الى اوروبا عن طريق بلدان البحر الابيض المتوسط . الا الفتوسات المثانية لم تمد تترك التجار الفربيين القادمين من البندقية ، او من جنوى او مسن مقاطعي البروفانس واللانفدوق ان يتسوقوا هذه المواد الا من مرفساي بيروت والاسكندرية حيث كانت تصل الافاويه قادمة من الخليج الفارسي والبحر الاحمر . اما المواد والاصناف التي كانت تصل من الموانىء الواقعة الى الشيال من البحر الابيض المتوسط ، قادمة من آسيا ، فكانت تتعل من الموانىء المواد الواطية ، او تمر حبال الالب لينتهي بهسسا المطاف الى

المدن الالمانية ، الجنوبية ، مثل : اوغسبورج ونورمبرغ اللتان ازدهرتا بفضل هذه التجارة ، ومنها تصل الى البلاد الواطية ومدينة بروج حتى مدن الهانس ولا سيا ستاتين ولوبيك، وكانت سفن البندقية تحمل جانباً من هذه المواد الى المدن الشهالية ولا سيا الى مدينة بروج . ومن هذه المراكز التجارية واسواقها كانت توزع فتبلغ جميع انحاء اوروبا . وبالمقابل ، كان التجار الالمان وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ينقلون معهم كميات كبيرة من النقود والعملات والمعادن والمصنوعات ، كالاجواخ الحقيفة المصنوعة في انكلترا ، والاصواف والسجاد واقعشة بسلاد الفلاندر ، والنحاس والفضة من اوروبا الوسطى .

احدثت الاكتشافات الجفرافية الكبرى انقلاباً عظيماً. فقد استطاع البحار البرتفايي فاسكوده غاما ، بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقيا، عام ١٤٩٨) ان يصل الى مدينة كلكوت في الهند . واستطاع البرتغاليون ان يسيطروا تمامساً على تجارة التوابل في الهيط الهندي وان يضربوا حول التمامل بها ونقلها الى اوروبا شبه احتكار ، لا ينازههم فيسه منازع . وفي سنة ١٥٥١ ، اضطرت سفن البندقية ان تعود خاوية الوفاض من مرافىء بيروت والاسكندرية . وقد اصبحت لشبونة ، السوق الاكبر والاهم لتجارة الافاويسه . وفي سنة والسائنيون ، من بعده ، يستكلون عمليات الاستكشاف والفتح ، فعثروا و اسبانيولا » وراح الاسبانيون ، من بعده ، يستكلون عمليات الاستكشاف والفتح ، فعثروا على قناطير من الذهب والفضة ، واضطروا الى تموين مستعمراتهم الجديدة بما يحتاج اليه الاهلون فيها من وسائل الفذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشبيلية المرفساً الاساسي لتمتين فيها من وسائل الفذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشبيلية المرفساً الاساسي لتمتين عبال جديد وحلية جديدة ، هما مجال وحلبة الهيط ، الذي حل محل البحر الابيض المتوسط ، بعد ان بقي الوفا من السنين ، المحور الاساسي للتجارة العالمية في التاريخ القديم .

الا انه لم يكن للبرتفاليين من وسائل النقل ما يسمح لهم بنشر التوابسل في اوروبا ، ولا كانت لهم القدرة او الطاقة لتجهيز عمارات السفن اللازمة للنهوه بهذا النشاط ، ولا لتأمسين حاجة البلدان الاسيوية من البضائع التي كانوا يرغبون فيها ولا التعويض على السودان لقاء مسحوق الذهب ، كانوا ينقلونه الى بلدان آسيا .

اما الاسبان ، فقد توفرت لهم ، بمكس البرتغاليين ، صناعات ناهضة من الاجواخ والحرائر والاسلحة ، ولكن لم تكن من الوفرة وسعة الانتاج بحيث تفي بحاجة البسلدان الجديدة التي يشرفون عليها . ولذا توافد عدد من التجار قدموا من البلاد الواطبة والمانيسسا وفرنسا لشراء عاصيل آسيا واميركا من اسواق اشبيلية ولشبونة التي زخرت بها، وذلك لقاء مايحماونه معهم من انسجة القلوع ومصنوعات النحاس ، والقنابل والمدافع والخرضاوات ، والقسسح والسمك والخور والنحاس ، وغير ذلك من المواد المضرورية . وقد تحولت مدينتا اوغسبورج ونورمبرغ عن البندقية ووجهتا نشاطهما التجاري شطر الحيط الاطلسي بما زادهما فراء وازدهاراً . الاان

المركز الرئيسي التجارة الاوروبية تمثل في مدينة أنشرس على مصب نهر الاسكو، وهي النقطة التي انتهت اليها مجاري نهري الرين والموز ، مستشرفة مجار الشهال الضيقة ، والتي اغدق عليها الامبراطور مكسيمليان ، عام ١٤٨٨ ، لاسباب سياسية لا محل لذكرها هنا ، الامتيازات والاعفاءات الملكية ، التي تمتعت بها مدينة بروج ، من قبل . ولم يلبث ان نقل البرتفاليون والاسبانيون والالمان والايطاليون والانكليز وكالاتهم التجارية الى انفرس التي اصبحت ، الفعل بندر اوروبا الاكبر ، كا اصبحت مع منافستها مدينة ليون في الجنوب ، اكبر مركز مالي في اوروبا جماء .

وهكذا رأت القواعد الايطالية للتجارة ومحاورها الكبرى نفسها من يبزها نشاطب ويتجاوزها حركة ، دون ان يليم" بها بالفعل اي وهن او ان تسجل اي هبوط . فقد عرفت حركة الانتاج والمبادلات التجارية في المدن الايطالية الكبرى ان تحافظ على مستواها من حسث الكم والنوع أو من حيث الحجم والقيمة؛ وذلك بعد ان ضربت نوعاً منالاحتكار على التوابل الموجودة في اسواق لشبونة لتبقى اسعارها مرتفعة . واستطاعت البندقية أن تبعث النشاط من جديد في حركة الاعمال والتجارة ، أذ تمكنت من استبراد الافاريه عن الطرق القديمة المألوفة، وبأرباح منشَّطة؛ بالرغم من الوسطاء العديدين الذين عولت عليهم واعتمدتهم في عمليات الشراء والتنفيق والترويج ٬ بما ادّى الى رفع الرسوم والتسكاليف ٬ فالفلفل الذي استوردته رأساً لم يكن له من الجودة ما للجنس الممتاز الذي توفر في اسواق البرتغاليين ، ومع ذلك فقد راجت تجارته في الاسواق . ومن جهة ثانية ٢ كورَف البنادقة والفلورنتيون والجنويون والميلانيون ان يفيدوا كثيراً بما تم لهم من قبل ، من خبرة وتجربة عريضتين من تقاليدهم المرعية. ومن سبقهم التقنى والفني ٬ فاتجهوا بالاكثر ٬ الى الاعمال المصرفية وصناعة ادرات الترفيه ٬ والبدّخ ، ولا سيا صناعة الحرائر منها التي لم يكن بد منها لمن ينخرط في حياة البــــلاط او يعيش بصحبة الملوك وبرفقة الامراء ككا تاقت نفوسهم وشرهت الى صنائع المرمر واللوحات الفنية والرسوم الجبيلة باقلام كبار رجال الغن والنقوش الجدارية التي تحسسلي قصورهم وصروحهم . فعرفت ايطاليا ، بذلك ان تحافظ على ازدمارها وان قام في الغرب من بز"ها وتقدمها في مجـــالي رأس المال والتجارة الدولية .

وهذه الحركة التجارية التي استشرت على نطاق واسع بعد ان قامت اركانها عسلى نظام رأسهالي ضخم ، عرفت ان تتغلغل عن طريق عدد كبير من التجار المفامرين ، فسرت سريان النار في الحشيم حتى بلغت هذه المجتمعات الريفية التي تعمل في الزراعة ، وراح الفسلاح الثري يرتدي ، ايام الآحاد والاعياد ، الثياب الفنية التي يرتديها ابناء المدينسة ، فنشطت الحركة الانتاجية وحركة الاشغال والاعمال . الا ان الاقتصاد بقي على طابعه الخاص المدني الاقليمي . واخذت مدن كبيرة باسباب النمو والتطور والتوسع على حساب مدن اقل شأناً منها ، تقع في جوارها . هنالك المديد من المدن كالبندقية ، وفلورنسا ، وانفرس وباريس ، وليسون جوارها . هنالك المديد من المدن كالبندقية ، وفلورنسا ، وانفرس وباريس ، وليسون

ولندن ، ونورمبرج واوغسبورج ، ولوبيك ، زاد عدد سكانها فتراوح بين ١٠ - ١٠ الفا حتى بلغ في بعضها مائة الف. وقد كانت هذه المدن محوراً لصناعات عديدة كا كانت مراكز هامة للاستهلاك الحلي والمواصلات والتوزيع ، اقتضاها الكثير من الحركة كا احتاجت لمقادير هائلة من المواد الفذائية والحامات عرفت ان تؤمنها في المنطقة او الاقليم نفسه. وهنالك بعض الاصناف اللازمة لمن محيون حياة الترف والبنخ ، وغيرها من المواد الضرورية ، كالشب مثلا الذي لا بد منه لصباغ الاجواع ولدباغة الجلود ، ولابراز الالوان الزاهية ، وغير ذلك من هذه المواد التي المنطار الملك الزرع والفيرع ، وكلها مواد وخامات كان يمول في استيرادها ، على الاسواق الدولية الاسواق الدولية الاسواق الالواق الاتهادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكاترا ، تنزع في الصميم ، الى تكوين بمالك ، لما المتناه الاقتصادية المستخدة اللاتهادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكاترا ، تنزع في الصميم ، الى تكوين بمالك ، لما المتناه المنتخذة الاركان ، فهي المدينة الكبرى : حواضر البلاد الرئيسية وقواعدها المورية . فالملكة المست بعد ببوى عدد من الولايات والمدن المتواضعة ، تحلم بان يتم لما يوما استقلال اقتصادي المستوات الموات ، متراص المرافق .

لا بد من التنويه عالياً هذا بأهمية المرى الوثيقة التي شدّت ما بين كبار رجال المال ، اذ ذاك ، والملكيات المطلقة ذات الحكم المستبد . اق تأمين أو د الجيوش المرتزقة ومقتضيات العيش الكريم الرفيه في البلاطات الملكية والانتهزية ولكبار القادة والموظفين ، حل الملوك على فرض ضرائب ورسوم جديدة لتأمين ما يلامهم من الموظفين الاكفاء . ومن جهة ثانية فالمشاريع والانشاءات الدولية ، كثيراً ما اقتضى تحقيقها المقاجىء ، مبالغ طائلة لم يكن بمقدور الضرائب تفطيتها أو مواجهتها الا ببطء كلي . ويقد راح الملوك يعتمدون ، لتوفير ما هم مجاجة واسة لتوفيره من نقد ، على كبار رجال المال المنين يقومون بالاحمال المصرفية وحمليات التسليف على نطاق واسع، فيناز مونهم جباية الضرائب، ويعتدون معهم قروضاً ويدفعون لهم بالمقابل فوائد باهظة ، متنازلين لهم عسن حق استثبار الاملاك الملكية الخاصة ، ولا سيا المناجم ، ويحمونهم من القوانين الكنسية ومسن انتفاضات الرأي العام الذي كان يأبي التسليم او القبول بمبدأ الدين بفائدة ، مها كانت طفيفة ، او الانخراط في المضاربات المالية .

ولعل الدور الكبير في هذا الجال هو الدور الذي لعبه كبار رجال المال من الايطاليين ، في فلورنسا وجنوى ، ومن الالمان في مدينتي اوغسبورج ونورمبرغ ، ومسن هؤلاء المتعولين الكبار ، اعضاء اسرة فوجر ، في اوغسبورج ، الذين صار اسمهم مرادفاً للربا الفاحش ، ولذا الحت الناس كلة « Fuggere » يعبّرون فيها عن المرابين، وكان يضرب بهم المثل في جميع الحماء اوروبا ، فعد ان أثر و ا من الاتجار بالحرب والتوابل والاصواف عن طريق البندقيسة ،

ربطوا مصيرهم بعجة اسرة هبسبورج الامبراطورية وبمصيرها . وبفضل السلفات الماليسة التي قدموها للامبراطور مكسميليان > النهوض بحروب ايطاليا > بين ١٥٠٨ – ١٥١٧ ومصاهرة الاسرة المالكة في هنفاريا > عام ١٥١٥ > وبفضل نفوذهم العريض > أمنوا انتخساب شارل الحامس امبراطوراً * عام ١٥١٩ > ضد خصمه فرنسوا الاول > وتحمساوا نفقات الحرب التي خاصها ضد فرنسا > وحرب سمالكالد ضد البروتستانت > سنة ١٥٤٦ > وعاصرة مدينة متز > عام ١٥٥٧ > كذلك عضدت اسرة فوجر > العكرسي الرسولي مالياً > فسلسفته مبالغ طائلة > فعهد بالقابل > الى اعضائها > بجباية الرسوم الباوية > في كل من هنفاريا > وبولونيا > والمانيا والبلاد الواطية . كذلك عهد اليهم ببيع د الغفرانات > في ألمانيا .

مقابل خدماتهم المالية المتنوعة هذه ، عهد اليهم الامبراطور مكسميليان باستنار مناجم المفضة والنحاس التابعة له ، كا انهم استثمروا ، باسمه ، ملاحات التيرول . كذلك ، اسمن لهم شارل الخامس مرافق مهمة في املاك التاج في نابولي والبلاد الواطية وعهد اليهم ، بجباية ريسع املاك التاج ، في اسبانيا ، وعهد اليهم باستثار معادن الزئبتي في مدينة و المسادن ، ومناجم المفضة في وادي القنال . وخوالم حتى انشاء اتحادات تجارية من متمولين : المان وايطالين ، وان يجتكروا باسمهم تجارة البهاوات والنحاس والفضة في انفرس ، وان يجيعوا مسن الماوك والامراء ، باغان مرتفعة جدا ، ما كانوا بحاجة اليه مسن المعادن الضرورية لسك عملاتهم ولتجهيزاتهم الحربية .

وقد سلهم الامبراطوران المذكوران و فرمانات ملكية ، كرفع عنهم كل مسؤولية عندما يعقدون بصورة غير شرعية او غير قانونية المعقود التي تخوطم حق اقامة الاحتسكارات. وكان في مقدورهم أن يبطلوا مفعول الملاحقات القضائية التي يستهدفون لها ، ويقترحون هم انفسهم اصدار القوانين التي يرغبون فيها كالقانون الذي صدر عام ٥٢٥ (في مدريد وتوليدو) مثلا ، هذا القانون الذي يترك بالفعل ، لهنسؤلاء المتعولين الكبار ، كل حربة في المضاربات التي يقومون بها .

قبل من عجب ، بعد هذا ، ان يتمتع ، آل فوجر بنفوذ سياسي عظيم ? فهم يطلمون الملاعاً وثيقاً على الوضع السياسي في اوروبا عامة ، بفضل ما كان لهم من عيرون وارصاد مبثوقة ، ورسل ومفوضون ومعتبدون واصدقاء وعاسيب ، بين طبقة النبسلاء ، يغرقونهم بالمدايا والاعطيات من كل نوع ولون : من خواتم ذهب ، وحلى وبجوهرات ، وعقود ، والاقشة المزركشة الفاخرة كالديباج . فهم وراء كل المفامرات التي قام بها آل هيسبورج .

اما ملوك فرنسا ، فكنا نرى الى جانبهم ، جملة من كبار رجال المال الايطاليين يقيمون في ليون ، ولهم وكالات وفروع في باريس وممثلون معتمدون لدى البلاط الملكي في فرنسا ، المثلل : ساولي ، وغواداني ، وألبيزي وسلفياتي ، وسواهم من كبار المتمولين الالمان في

نورمبرغ ، امثال هانز كليبرجر الذي طالما عمل وسيطاً بين الرأس المال الالماني في نورمبرغ ، وبين الملك فرنسوا الاول ، فلمبوا جيماً الدور ذاته الذي لعبه آل فوجـــر ، لدى الاباطرة الالمار . . .

وهذا النشاط يحيش في صدر ارباب المال ممن ذكرة اوكان من شأنه ان يدر عليهم بالطبع ، ارباحاً طائلة ، تقصر عن تأمين مثلها او بعضها ، الاعمال والنشاطات التجارية البحتة . ابتدأ لل فوجر ، عام ١٥٢٧ ، برأس مال قدره ١٩٦ ، ١٩٦ فلورين ، فاستطاعوا في مدة ١٧ سنة ان يجعلوا رأس مالهم ٢١٤ ، ٢٦٤ فلورين ، اي انه زاد بنسبة هواه ، في السنة الواحدة ، بينها لم يستطع منافسوهم من آل فيلرز الذي انصرفوا ، هم ، بالاحرى للتجارة وامتنعوا عسن القيام بعمليات التسليف ، ان يؤمنوا ربحاً غير هوه / في السنة .

وهكذا نرى ان الملكية المطلقة ورأس المال هما عون للواحد مع الآخر . فالملكية المطلقة ، عالها من ممتلكات طائلة خاصة ، وبما تفرضه من رسوم على الزراعة وبما تقيمه من احتكارات تجارية واسعة ، أصبحت وكأنها ورشة رأسمالية ، الفنيون فيها والمساهمون والمتمهدون هم رجال المال أنفسهم .

اما النتيجة المكسية التي تنط المعين فهي عجز المواد الغذائية عن الوقاء بحاجة السكات فينشأ عن هذا التقصير بجاعات دورية تروح ضحيتها مناطق برمتها بمن فيها من سكان وبما فيها من زرع وضرع . فالجماعة التي نشبت عام ١٥٢١ ، زرعت الرعب والحول بين سكان المدت والارياف ، في فشتيلية والبرتغال . فالجفاف ثم القحط الخيف الذي وقع عسام ١٥٢٥ ، سمسر الهلع في قاوب الناس في كل أرجاء الاندلس ، والجماعة التي نزلت بايطاليسا ، عام ١٥٨٣ ، حصد فيها منجل الموت الناس حصداً .

وهذه الجماعات الغاشمة ، كثيراً ما حملت في طياتها الاوبئة على انواعهـــا، وجرّت ورائها وافدة الطاعون الذي يجرف الناس جرفاً بالعشرات والمثات ، فيذهب بربسع سكانب المدينة أو بثلثهم احياناً . فقد فقدت مدينة راغوز ، في سنة واحدة ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، وفقدت البندقيسة ما بين ١٥٧٥ - ١٥٧٧ - ١٥٧١ ، اكثر من خمسين الفاً .

وهذه الشوارع والممرات التي افترشها موات الناس في المدن ، وهسنده الجثث الملقاة على جوانب الطرقات باعداد لا تحسى وبكيات هائلة كان دفنها ومواراتها الثرى يكو"ن مشكلة حادة ، وهذه العربات تشكدس فوقها رمم الموتى يفح منها النتن والفساد ، زرعت في القلوب الهلع والفزع ، فاضطربت الخواطر وقلقت القلوب ، ألم يبلغ مسامع الجميع ان ثمانيسة اعشار سكان مدينة روما ونابولي حصدهم منجل الموت حصداً ، عام ١٥٢٥ وان مدينة مرسيليا لم تمد "تعدف عام ١٥٨١ وان مدينة مرسيليا لم تعدف "تعدف عام ١٥٨١ مدى خسة الآف نسمة لاغير ? وهل بعد هذا وجسه للاستفراب ، اذا ما راح الجار يقتل جاره ، انتزاعاً منه لرغيف يلتهمه ، يسد هو به رمق الحياة ؟

في كل مكان وزمان ، كان فجاج الآفاق يجوبون البلاد يسرحون ويرحون حائمسين، منهم من ينقطع للمبث والعيث والصخب ، بينهم : المستعطي واللشال ، وساري الليل ، والمتصيد والمغامر ، وقاطع الطريق ، والهائم على وجهه لا يلوي الاعلى مهابط الرذيلة ، فيزرعون الهول في قلب المدينة التي كانت تقوم عبثا / من حين الى آخر ، بعملية تنظيف وتطهير ، تجتث ، منهسا بالطرد والنفي ، والاجلاء والابعاد والسجن ، هسله المهوام البشرية التي لن تعتم فتعود الى ما شبت عليه ورسخت عليه من غل الطباع وفاسده . اما الاماكن المزولة في الجبسال ، أو في مناطق الحدود ، فكانت مسرحاً لمصابات من شذاذ الآفاق واهل الخطف والسطو ، فتنهب ما طاب لها من اطيب الفلال ونتاج الارض ، وتقطع الطريق على السابلة ، وتقتل المسافرين الذين قدر لهم حظهم العائر ، ان يقموا بين ايديم ، أو انهم ينتهكون حرمة المسابد والكنائس فيدنسوها بموبقاتهم ، او يهاجمون القصور والصروح ، ويغزون القرى الآمنة والدساكر الهادة، والمدن المفرية ، يشجمهم احيانا في ايطاليا واسبانيا ، نصراء لهم من علية القوم وبعض السراة .

ولمله من سسن الطالع واليُمن مما ان نشهد تجديداً مستمراً بين السكان وحركة تبادل لا تنعطم بين قوم قابمين مستقرين واقوام قادمين .

لم يسكن رأس المال اذ ذاك ، يتخصص بمشاريس معينة ، عددة . فهسذا شركات ردور البورسة المتمول يتماطى هو نفسه التجارة او اي شكل اولون من اشكال الحركة التجارية والصناعية واحمال الصرافة . فالتاجر الحق هو من قام بشيء من النشاط في هذا كله . نجد قبل كل شيء شركات عائلية ، اي قائمة طمن افراد الاسرة الواحدة ، اذ ينهض احسسه افرادها المعروف بنشاطه ، كالاب او العم مثلا ، ويؤلف رأس مال يشترك جميع افراد الاسرة بتقديمه . ويتولى ادارة الشركة ويفتح لها فروعساً ووكالات في اماكن عدة ، في اوروبا يعهد بنشاطاتها للابناء او لافراد الاسرة كممثلين وحملاء ، على مثل هسذا النهج سارت الشركات

الالمانية ، من آل فوجر وآل ولزر ، والشركات الايطالية ، من آل أفيتاتي وغويتشيارديني ، والشركات الاسبانية من آل بيريس وآل لوبيز . ولما كان يعقوب فوجر لم يعقب فقد أشرك معه أولاد اخوته : ايرونميوس واولريخ وريون وانطون ، وعملت الشركة بالعنوان التجاري : ويعقوب فوجر وابناء اخوته » (١٤٧٣ – ١٥٢٥) . وعندما جاءت منيته أوصى بأن يخلفه في ادارة الشركة ، اصغر ابناء اخيه انطون . وقد اشرك انطون تباعاً معه ابناء اخوت وريون الى ان وافاء الأجل المحتوم عام ١٥٦٠ .

وتكاثرت الشركات من نوع شركة توصية Commundite وهي شركة تجارية برئاسة تاجر يستودعها بعض الافراد قسماً من رأسمالهم شريطة انيتقاسموا الارباح فيابينهم كل مجسب سهمه.

وهنالك شركات مساهمة: 'ompugnie' تحمل اسم تاجر معين ' مضاف السه : و وشركاه " وهسبي عبارة عن جمعية او شركة من التجار ' ترمي الى الحصول على احتكار صنف معين كالشركة التي تألفت من البيوتات التجارية الكبرى ' في اوغسبورج عام ١٤٩٨ ' بحيث تحتكر الاتجار بالنحاس (في البندقية) او كالشركة التي تشكلت من ايطاليين والمان ' في لشبونة لاحتكار تجارة التوابل ' او شركة من هذة الشركات التي تتجر بمادة دقيقة 'خطرة' منها مثلا الشركة الانكليزية 'المعروفة به والتجار المغامرون " او والشركة الشرقية " (١٥٧٩) او والشركة النوع الاخير مسن الشركات عرف انتشاراً كبيراً بعد عام ١٥٦٠ .

ونجد في آخر المطاف ، احتكارات ملكية برتفالية واسبانية . من هذه الاحتكارات مثلا ، ان ملك البرتفال احتكر لنفسه تجارة الافاريه والتوابيل . فكان وكيه او بمشله في أنفرس يفاوض باسمه ، نقابة رجال المال التي تألفت من بمثلين عن شركات ولزر وأفيتياتي وغوالتسيروتي الذين يشترون ، في مسواق واحد ، او صفقة واحدة ، كل مالديه من شحنات التوابل ومخزونها لقاء ، ه و او ، و قنطار من معدن النحاس والزئبتي والزنجفر، وكلها مواد لازمة لسفن البرتفال التي تتجر مع الهند فكان ملك البرتفال يدفع قيمة الفواتير المسحوبة عليه ، كميات من التوابيل ، كاكان يقترح مشيلا ، ان يدفع بهذه العملة ما يوازي ثمنه بائنة البضائع والاصناف المستوردة من الهند، حيث كنت ترى مثلا : وكالمة الهند Cras India المناف المستوردة من الهند، حيث كنت ترى مثلا : وكالمة الهند مراقبون البضائع والاصناف المستوردة من الهند، حيث كنت ترى مثلا : وكالمة الهند مراقبون ملكيون ، بعد ان يستوفوا ما يترتب على البضاغة من رسوم ومكوس وضرائب ملكية ، ومعد ان يحددوا ، منها الاسمار . كذلك كان لملك اسبانيا ، هو الآخر في مدينة اشبيلية ، مركز خاص او دائرة خاصة بإحماله التجارية ، هي و مصلحة المقود التجارية » و وهذه المسلحة تستوني ما يحود العرش الاسباني ، من رسوم وعوائد على المصارف الثمينة ، المستوردة مسن اميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكرية ، كا ان الامبراطور شاول الخامس فرض رسما الميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكرية ، كا ان الامبراطور شاول الخامس فرض رسما الميركا ، كالذهب والقضة والحجارة الكرية ، كا ان الامبراطور شاول الخامس فرض رسما

جديداً سياه : رسم البضائع المستوردة من الهند ، كانت الرسوم الجمباة عليها تستخصدم في تسليح الاساطيل ومراقبة حركة التصدير والاستيراد .

وفي سبيل تشجيع المقايضات والحركة التجــــارية على جميع نشاطاتها قامت دوماً معارض واسواق لهذه الغاية بالذات. فقد اقيمت اسواق خاصة للبضائع والاسهم عرفت باسم و مصفّق ، او « بورصة » ، لم تلبث هذه الاسواق ان لعبت دوراً هاماً في المضاربات المالية والتجارية .

ولعل اهم هذه المصافق او الاسواق المالية هي مصفق أنفرس الذي انشيء عام ١٤٠٠ واعيد تجديد هذه السوق سنة ١٩٣١ . فقد كان عبارة عن مبنى فخم مستطيل قائم الزوايا ، تقوم من الداخل أروقة مرتفعة على اعمدة عالية ، تطل على فناء او ساحة فسيحة الارجاء حيث كانت تجري المفاوضات والمداولات التمهيدية لعقد الصفقات التجارية ابتداء مسن الساعة ١١ صباحا . وكان محظوراً القيام بالالعاب او السياح لتجار المباذل والمفروشات العتيقة ، الدخول الى المصفق ، كما حظر الدخول اليه ايضا على باعة الكتب المتجولين ، ومنعت الجماهير من الاحتشاد او التجمهر في الاسواق والاحياء المجاورة . وبالرغم من هذه الاحتياطات كلما ، كثيراً ما شجرت المشاحنات وقامت الخناقات بين الانكليز والاسبان ، يتضاربون ويقتتلون بعضهم مع بعض ، وكثيراً ما كان المتخاصون يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيوف الطويلة ويتبادلون بعضهم مع بعض ، وكثيراً ما كان المتخاصون يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيوف الطويلة ويتبادلون الطعن بالخناجر ، او يتربصون لبعضهم البعض في المنعطفات ، وكم حدث من المعارك استمان يها كلا الفريقين ، بما عندهم من خدم وحشم وأتباع . وكان الدم الذي ينغي في المروق كثيراً ما تحدر في هؤلاء التجار من دم اشراف او قدامي الجنود او المبارزين .

من المتبع ومألوف العمادة عند القوم ، أن تعقب بين السندات والاعتادات المالية الصفقات التجارية امام كاتب المدل ، بعد أن يهد لها

سياسرة وعملاء. من المعروف ايضاً ان الكنيسة كانت تحظر الدين بفائدة. فمن وجد نفسه بحاجة الى مبلغ ما ، عمد الى شراء المبلغ الذي هو بحاجة اليه بعد تقديم ضمانة او كفالة تتألف من ريسع دائم ، على شاكلة ما كان يجري مثلا عند شراء عقار بضيان دخل دائم ، وهو ترخيب تعارف عليه الناس ونهجوا على منواله . وهذا النوع من الدين بفائدة كان تدبيراً عملياً عندما يكون الامر متملقاً بمبالغ صغيرة يستعملها المزارع او الصناعي مثلا، لشراء ما هو بحاجة اليه من بزار وتقارى وحتاد وخامات ومواد غذائية له ولمزرعته او مصنعه ولكن الصعوبة كالصعوبة عندما كان الدائن يريد استيفاء رأس مال وضعه تحت تصرف الغير الى امد طويل القاء شروط وضوابط معينة الامر الذي جمل المعاملات في غاية التعقيد ، ولذا لجأ التنجر الى المعاملات التي تؤخف بصدد شركة توصية ، فيا لو كان احد الدائنين سلتفه مبلغاً من المال لتشغيله في عمليسة تجارية معينة على مسؤوليت ، اي انه يتحمل ما في العملية من خساطر واحتالات . الا ان الذين لم يحكونوا يرضون الاستهداف لاي خطر محتمل ، راحوا يدورورت حول القانون ويداورن

بانتهاج طريقة عرفت عندهم ب trinus contractus ، وهي طريقة لقبت رواجياً عظيماً في المانيا الجنوبية ، والتي شجعتها الكنيسة بالبراءة الرسولية : ، Detestabilis ، التي اصدرهـــــا البابا سنة ١٥٨٦ . والطريقة المذكورة تقوم بان يقرض دائن تاجراً مبلغاً من المال على شرط ان يقاسمه جزءاً من الارباح قد يبلغ احياناً ١٥ ./٠ من المبلغ الذي سلَّفه اياه ؟ ثم يعقد مع التاجر المذكور عقد ضمان ينص على أن يتخلى له الدائن عن ثلث المبلغ العائد له مــن الارباح المرتقبة اذا ما رضي التاجر ان يعيد المبلغ الذي اقترضه كاملا ، حتى في حال خسارة رأس مال الشركة ، ثم يعقد معه اتفاقاً ثالثاً يبيع بموجبه من الناجر ربحه المرجّع لقاء فائدة ٥ ٪ مـن المال المقروض او المسلسّف ، وهي فائدة مضمونة مازمة مها كان مصير العملة التجــــارية . فشركة التوصية استحالت ، في مثل هذا الوضم ، ديناً بفائدة بسبطة ، بعسدل ه / تصبح بالطريقة التي أقرَّت بها ، بمأمــن من تدخل القانون . ثم كان هنالك عدد كبير من الدائنين يسلسَّفون بفائدة ،بحرِر"ية تامة، دونما وَجَل او خجل ، بالرغم مما يستهدفون له من ملاحقات قانونية اسام المحاكم ، اذا ما رأى المدين ان يرفع ظلامته امام القضاء . مثال ذلك ، ان المتمول الالماني المبروسيوس هوشستتتر من مدينة اوغسبورج ، رغب يوماً في احتكار الخشب والخور والحبوب والنحـــاس والزئبق ، فعمد حوالي سنة ١٥٢٦ الى الدين بفائدة ٥ ٪ يستـــلف بهذا المعدل من الامراء والنبلاء والكونتية واصحاب الطبقة البورجوازية والحدّام والخادمات. وبينًا هو في وهمه غارق يعتقد انه يتصرف لوحده بصنف الزئبق ، اذ بمناجم الزئبق التي ظهرتُ في مدينة المادن الاسبانية ، التي دخلت تحت احتكار آل فوجر ، تسبب له الافلاس ، وهسي هزة دوَّت بعيداً في كل ارجاء اوروبا.وهذا الافلاس الداوي كان يجب ان يلقى فيه كل مضارب. درساً له وعظة ، ولكن اني من يرعوي ويتسمط .

وراحت الدول تعتمد في معاملاتها التجارية نظام الاعتاد المالي أو السند ، اعتاداً كلياً ، عا عاد على هذه الطريقة بالازدهار فانتظمت اسمه واستقرت على وجه دقيق نظيم . ققد اصدر الامبراطور شارل الخامس ، سندات أو اسهماً على الخزينة بقيمة اسمية تتراوح بسين ٧ - ١٠ بالمائة . وفي سنة ١٥٢٢ ، باع الملك فرنسوا الاول مدينة باريس ريماً له قدره ٢٥٠٠٠٠ ليرة ذهب ، يعود عليه من رأس مال ، تبلغ قيمته ٢٠٠٠٠٠٠ ليرة . وراحت بسلاية مدينة باريس تستدين هذا المبلغ من احد البورجوازيين ، ثم راحت توزع على سكان الحملة التي يوجد فيها هذا الربع ، سندات بالقيمة المذكورة . وهكذا ظهرت السندات الدائمة المترتبة على الجملس البلدي في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديم من اواني موائد الطمام الغضية لوفاء قيمة في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديم من اواني موائد الطمام الغضية لوفاء قيمة هذه السندات . وكانت مدينة ليون المركز الرئيسي ، مع مدينة انفرس ، للاتجار بالغضة . وفي سنة ١٩٤٢ - ١٥٤٣ ، راح الكردينال ده فرزنون ، حساكم المدينة اذ ذاك ، يستممل الطرق والاساليب ذاتها التي ركن اليها هوشتة ، وألف ، بالاتفاق مع صيارفة ايطالين ، اتحاداً من فرنسا كبار المتموليين تولى ادارته هانز كليبرجر، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحيانا ١٩٪ من فرنسا كبار المتموليين تولى ادارته هانز كليبرجر، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحيانا ١٩٪ من فرنسا

والمانيا وايطاليا ، ومن الارامل واولياء اليتامى، حتى ان ملك اسبانيا كان يتمذر عليه وجود من يقرضه أو يسلفه ما هو مجاجة اليه. وفي سنة ١٥٥٥ اعاد ده تورنون الكرة باسم د حزب ليون الكبير ، هذه المرة ، وراح الخدم يقدمون له المبالغ الصغيرة التي وفروها ، حتى ان النساء بمن حليهن وبجوهراتهن وسرت المدوى وشاعت بسين الناس ، وراح السويسريون والالمان والباشوات والتجار الاتراك يدينون بفائدة .

المفاريات الجنوى ، الوانا واشكالاً من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والعاب وجنوى ، الوانا واشكالاً من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والعاب الحظ . فقد كانت البضائع بجالاً تمقد حولها اتفاقات وعقود محددة الآجال . مثال ذلك ان يشتري تأجر ما ، كمية من التوابل يستلمها بعد ثلاثة اشهر من تاريخ المقد بسعر البضاعة يوم الاستلام . فاذا ما كان سعر البضاعة يوم الاستلام اعلى من سعرها يوم البيع ، يكون حقق ربحاً اما اذا ما قصر السعر يوم الاستلام عن سعر البضاعة يوم الشراء يكون البائع هو الرابع . وهكذا تبدو المعاملة اشبه ما تكون رهانا ، على شيء من التأمين او الضان . ويسلم البائع أو المشتري ، عقداً موقعاً منه ، يتمهد له فيه بتسليمه كمية معينة من صنف ممين من التوابل بمواصفاته ، في مدة يجري تحديدها بين الطرفين المتعاقدين . وللمشتري ، مثلا ، ملء الحق ببييع هذا الصك أو السند ، من شخص آخر ، وهذا من شخص ثالث ، وهكذا دواليك ، الى ان يحين الاستحقاق وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتبنوه في وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتبنوه في الصفقات التي عقدوها ، اذ يجنبهم متاعب ومضايقات كانوا بغنى عنها كالاهمام بالبضاعة مشلا ، ويخفف عنهم أعباء الانشفال بها .

ومنذ ذلك الحين جرى التمامل بهذا الصك 'سنة "بين الناس لقيمته المالية وسهولة تداوله .

هب ان تاجراً من تجار ليون يترتب عليه دفع مبلغ يستحق عليه لعميل له في انفرس ، ولم يكن له على احد من تجار انفرس او رجال المال فيها ، اى تحويل أو سند . فقد كان من السهل عنده ان يشتري تحويلاً مالياً لتاجر من تجار ليون على تاجر من تجار انفرس بدلاً من ان يرسل لعميله في هذه المدينة المال عيناً . وعلى هذا قس ايضاً تاجراً من تجار انفرس يرغب في تحويسل دراهم لعميل له في مدينة ليون ، فيشتري علياً من تاجر انفرس تحويلاً يرسله لدائنه في ليون وفاء الدينه بدلاً من ان يرسل له المبلغ عيناً . وقد انتشرت عادة استمال هذه السندات او الصكوك الورقية بعد ان اصبحت نوعاً من العملات لها قيمتها المهنة ، وهي قيمة تتأرجح صعوداً أو هبوطاً وفقاً لناموس العرض والطلب في سوق المضاربات او المسفق (البورصة) . وكثيراً مساكات هذه السندات موضوع صفقات مالية لاجل معين أو نوعاً من الرهان على قيمتها الفعلية ، كانت هذه السندات كثيراً ما قكافرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا في المستقبل ، وهي سندات كثيراً ما قكافرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا ما دخلت الجوش الفرنسة ، مثلا ، ايطالها الشهالية الخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات ما دخلت الجوش الفرنسة ، مثلا ، ايطالها الشهالية الخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات

الصادرة عن البيوتات المالية في المنطقة . اما اذا لم تقم الجيوش الفرنسية ، كما حدث معها قبل معركة بافي ، باعمال السلب والنهب ، كانت قيمة السندات وسعرها يرتفع . وقد راحت الشوائع والاخبار المصطنعة او الملفقة تفعل فعلها للتأثير على قيمة سندات معينة لاجبارها على الهبوط والنزول ، فيقبل الناس على بيعها أو شرائها ، حسبا تكون الاوضاع ، حتى اذا ما بان بطلان الخبر وانكشف التلفيق ارتفعت اسعارها ، فيربح الناس .

وبناء لقانون الطلب والعرض ، كانت هذه السندات ، حتى الدملة النقدية نفسها ، تختلف قيمتها باختلاف الأمكنة وتبدل الظروف . هب مثلا ان الذهب قسل وجوده في انفرس ، بينا توفرت منه في ليون كميات كبيرة ، فيرى المضاربون ، في مثل هذا الظرف بالذات فرصة أمامهم المقيام بالمضاربات ، اذ يسارعون لشراء الذهب المتوفر في اسواق ليون ليبيموه في اسواق انفرس بارباح طيبة . ومضاربات من هذا النوع يمكن ان تتناول سندات الد Juros التي اصدرها الامبراطور شارل الخامس في اسبانيا ، كها تتناول اي نوع آخر من السندات المالية . وكم من مرة عدوا احيانا الى خلق ازمة نقدية في مكان ما ، وذلك عن طريق جمع او لم كل السندات والاستحقاقات والتقدم فجأة بطلب استيفاء المستحق منها . وقد اختصت مدينة انفرس بهذا النوع من التلاعب بالاسهم والمضاربات ، في الفترة الواقعة بين ١٥٤٢ – ١٥٥١ . وهسذه المضاربات تفرد بالقيام بها عيل البلاط المالي غسبار دوتشي من هؤلاء المتمولين الدي لم يكن يتورع من تسليف الملك فرنسوا الاول حاجته من المال، وهو يعرف انه الخصم الازرق والعدو الدود لسيده ورئيسه المباشر شارل الخامس .

والاقبال على المراهنات ساعد كثيراً على التأمين ضد أخطار البحر والملاحة ، هذه الاخطار التي تهدد مشحونات البضائع ، او التي تقوم في تعرض القرصيان في عرض البحر ، للسفن ، او تكن في احتال مصادرة السفينة ، من قبل الملوك والامراء ، والسرقة والغرق وغير ذلك من الخاطر التي تستهدف لها الاسفار البحرية ، اذ ذاك. وقد راح بعضهم يؤمن على سفنهم ، عدة مرات او عند شركات مختلفة ، ثم يفتعلون الحوادث مجيث يقبضون مبالغ طائلة تعويضاً لسفنهم عما ألم عن معاطب واضرار وعوار .

وراحوا يؤمنون على الحياة ضد الحوادث والاخطار ، فكنت ترى شيوخاً يؤمنون عليهم بدون علمهم ، ثم يجري اختطافهم من حيث لا يدرون ويسومونهم الواناً من المذابات حتى اذا ما فقدوا الحياة قبض المؤمنون عليهم قيمة التأمسين . كذلك راح الناس يراهنون على وقوع الحرب ومصير الممارك القائمة كما يراهنون على جنس الولد المنتظر ، وينظمون احسال يانصيب ، والكل اقبل على اللعب واحمال الرهان ،

وكان التجار يستعلمون مسك الدفاتر واعمال المحاسبة المركبة ، وهي طريقة قديمة استنبطها لوقة فتشيولي ونقلت طريقته هذه الى الفلمنكية، ثم الىالفرنسية عام ١٥٤٣، فإلى الانكليزية، عام

٧٤٤٧ ، والى الالمانية عام ١٥٥٠ ، عهادها الجردة ودفاتر اليومية ، والجورنال والدفاتر الكبير .

ادى التطور العظيم الذي أد رخل على تداول النقد بفضل مؤازرة الملاك المواصلات المواصلات ازدهار التجارة الدولية . فقد توطدت اسباب الآمن واستلب النظام في البلاد ببنوج الاجمال و ومع ذلك فقد أوجب بعسد النظر وحسن الفطن الا يسافر التجار عز لا من الممالاح ومن الاسلم لهم ولما يحملون من نقود ان يسافروا بصحبة فريق من الناس . وقد نظم التنجار و تسهيلاً لايصال الاخبار والرسائل و نوعاً من البريد الحاص الذي كان يقطع المسافة بين بروكسل وباريس و عام ١٩١٦ في ٢٩ ساعة صيفاً و و الماعة شتاء و كا استفرقت الرحلة بين بروكسل وليون و ثلاثة أيام ونصف أو اربعة أيام و ومن بروكسل الى رومسا و عشرة أيام ونصف أو البعة أو البعة أو البعة أو البعة أو النبي فرنسا والبريد الملكي وفي متلكات الامبراطور ببريد السرة تابولي الملكية الذي اصبح بريداً حكومياً ومنذ سنة ١٥٠١ ومنا البريد كان يقطع المسافة و بين أيطاليا وبروكسل ومدوراً بالتيرول وإيفسل مجمدل ونصف ونصف ومدرسد وموراً والمنسا ومدرسد ومراً والمنسا و قيقتضي لها ١٥٥ كياومتراً في اليوم . أما المسافة بين بروكسل ومدرسد و مروراً والمنسا و قيقتضي لها ١٥٥ يوماً .

كانت البضائع والمشحونات ؟ تنقل ؟ براً بعربات تقطع من ٣٠ – ٤٠ كلم . في اليوم ؟ تسير بالاحرى مع مجاري الانهر . وقد قامت البلايات ؟ في هــــذا الجال ؟ ببعض الاشغال لتحسين المسئالك والمعابر الصعبـــة المرتقى بالتعـــاون مع الشركات التجارية او بساعدة الملوك والقضاء الملكي . واعيد بناء الجسور والطرقات ؟ كما ادخلت تحسينات عـــلى بعض المسئالك النهرية ؟ وبذلك تفادت التجارة دفع رسوم معينة ؟ والقيام باجراءات وترتيبات فرضهـــا من قبل اسياد المقاطعات دون اي مبرر لها سوى ابتزاز المال ؟ فالغيت .

اما في البحر ، فقد كانت سفن مدينة البندقية حتى عام ١٥٢٥ ، تصل الى إنفرس ، الا ان المجدة في كانوا يتقاضون اجوراً عالية ، كا ان الشحن كان عرضة شخاطر عديدة على سفن من نوع الدومة في الجورا عالية ، كا ان الشحن كان عرضة شخاطر عديدة على سفن من نوع الدومة في البحر الابيض المتوسط ، فقد استميض اكثر فاكثر ، عن السفن المناملة بالجاذيف ، بسفن تعمل على القساوع والشراع ، كسفينة الكرافيل التي لها عدة صواركا ان حافتها تعاو جداً فوق سطح البحر ، وسعتها كبيرة تقسم لى و ٢٠٠ - ٥٠٠ برميل ، وهي سفن سريعة السير انما سريعة العطب ، كان عليها ان تعمل الشتاء في الموانىء التي ترسو فيها . ومن انواع السفن المستعملة اذ ذاك سفينة العالمية المعالمية ، فطساء ، ثقيلة ، بطيئة ، الا إنها اقوى من الاولى، لها عدة قاوع ، صافحة لركوب البحر في كل الفصول ، تحمل من ه ٤ -- ١٠ اطنان ويأتي بعد هذا النوع ، نوع آخر من السفن يدعى يعمامية ، نعمل عدداً اكبراً ، ملومة ، تحمل في مؤخرها برجا كبيراً ، السفن يدعى عمل عدداً اكبراً ، ملومة ، تحمل في مؤخرها برجا كبيراً ، المتعملها وسقاً كبيراً ، كثيراً ما استعملها

الاسبان في شحنهم المعادن الثمينة من ممتلكاتهم في احسيركا عبر الاطلسي . وبقيت المواصلات بطيئة ، تحف بها المخاطر لقلة الخرائط الجغرافية الدقيقة الرسم ، ولافتقار الملاحسة البحرية للمعلومات التقنية الدقيقة وللربابنسة ذوي الخبرات الواسعة . وكانت سرعة سير السفينة في انفرس بمعدل ميل واحد في الساعة ، وكان المسافر يقطع المسافة من انفرس الى لشبونة ، في احسن الحالات ، بخمسة عشر يوماً . اما في البحر الابيض المتوسط ، فالاستثناءات ، وعسم الاطراد ، كان القاعدة ، في الفالب ، اذ ان المسافة بين البندقية والقسطنطينية كانت تستغرق من ٢٩ يوماً الى ٢٧ يوماً ومن البندقية الى يافا ، من ٥٠ - ٥٠ يوما ، ومن تونس الى ليفورنو ، من ٢ - ٠٠ يوما . فالبحر المتوسط كان له من الاتساع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، ما لدنيا العشرين . وهذا ما يفسر لذا تفوق الاقتصاد المدني او بالاحرى المديني .

كثيراً ما يجد التاجر الذي يهبط بلداً نائياً ، زبائن عديدين هم على النظام الرأسمالي والصناعة

استعداد كلي لابتياع ما يحمله من محاصيسل ومنتوجات ، يتوقون لرفع مستوى حياتهم ، كاكانوا على اتم استعداد ايضاً لشراء محاصيل من اصناف ادنى على ان تكون حسنة المظهر وارخص سعراً . والحال ، فقد كانت قوانين نقابات الحرف وجمعاتهما في المدن القديمة امثــال : بروج وغنت وبروكسل وروان، تحظر على معلمي المهن تجهيز مصنوعاتهم بمقادير كافية ومن النوع المحدد . ولذا امّ التجار القرى والمدن الصغيرة في الارياف يشترون منها الخامات التي يرغبون في الحصول عليها والادوات الصناعية اللازمة لهم والناذج أو العينسات التي تروقهم ، كما كانوا يقبلون على شراء المحاصيل وانتاج الصناعة ويعملون على تنفيقها. وهكذا ادخلوا على المهنة عدة ادوات صناعية واصناف جديدة رفضت النقابات قبو لهــــا والتسليم بها ، كالمكابس لضغط الاجواخ بدلاً من ضغطها بالقدم ، وهي طريقة كانت تخفض الكلفة وتضاعف الانتاج ، وان جاء الصنف اقل جودة اذ كانت عملية ضغط ثوب جوخ واحسد تقتضي من ٤ – ه ايام بينا يضغط المكبس في المدة ذاتها من ٩ – ١٠ قطع ، والمغزل الذي يدور بحركة الرجل بينا تبقى اليدان حرتين تعمل في الغزل ، والآلة الناسخة التي اخترعها ، عام ١٥٨٩ ، الراهب وليم لي والتي لم تلبث ان عم استمالها في جميع انحاء انكلترا ، فزادت سرعة النسيج من ١٠ – ١٥ ضَعْفًا مَنْ نَاسَخَة باليد، ويكن لولد عمره ١٢ سنة ، ان يديرها بسهولة . واذا لم يعد الصناعي مالكاً لأدوات الانتاج واجهزته ، فقد تحول تدريجياً من معلم حرفة الى عامل . وهكذا رأينا مراكز صفيرة للصناعة تقوم وتنتشر في انحاء عدة من البلاد الا انها كانت تاتركز تجارياً وادارياً بيد بعض المولين الذين يتعهدون الاشغال . وكان الوضع على مثل هذا الشكل في مقاطعة الفلاندر . مثلًا حيث راح بعض رجال المال الذين يرغبون في الصمود في وجه الاجواخ الانكليزية الحنفيفة ، الممدة للاستهلاك اليومي وباسعار معتدلة ، ينشئون لهم معامل نسيج ، من هذا النوع ، في مدن إيبر وبيتول ، في ضواحي بروكسل وليل،وفي بلدة 'مندشوت وأر مَنسُديار، وعلى الأثر

توافد على هذه المعامل الجديدة المحتاجون للعمل والعاطلون الذين لا عمل معين لهم ، ولم تلبث هذه القرى ان اصبحت مدناً ، وراجت بها المنسوجات الحقيقة التي تخرجها فباركها وتتغلب على الاجواخ الانكليزية الصنم . وقد عرفت مناطق اخرى مثل هذا التطور السريم ، منهــا مثلا: منطقة روان واللانفدوق، وبورج وبيري، ومدن وادى نهر اللوار ، ولانكشير وغيرها . وهكذا اضطرت النقابات المهنية القديمة أن تؤمن تموين المدن والارض الواقعة في نطاقها. ورغبة منها في الإحتفاظ بزبائنها ، رأت نفسها مضطرة لتمديل قوانينها الدقيقة بحيث تستطيع الصمود في وجه المنافسة التي تقوم بين معلمي الحرف ، وهي رتبة لا يستحقهــــا الا من توفرت لانجازاته الفنية بعض المواصفات والشروط الدقيقة : كانجاز اشغال عالية الكلفة تعد روائسم صناعية بما تعتضيه من فن ومهارة ، وبين عدد قليل من المهنيين الناشئين ، وتخصص أضيق ، واساليب فنية ، اساسها نماذج محددة اوصافها بكل دقة ، وقام العمال حيث لا تقوم مثل هذه النقابات المهنية ، يسعون لانشائها فيلتمسون من الملك الترخيص لهم بذلك ، تسميعاً لهم حول مصلحتهم من المنافسة الشديدة التي يتمرضون لها من قبل عال طارئين او دخسلاء او من قسل زملاء قدامي لهم راحوا يعملون احراراً لحسابهم الخاص . ولعل ما هو اهم من هـذه التدابير بكثير، فساعد على بقاء هذه النقابات ، هو هذا النمو السريع الذي طرأ عسلى المدن فأدى الى تطورها تطوراً عظيماً ، وهي ظاهرة جاءت نتيجـة للنظام الرأسهالي الذي وفر للمهال زبائن اخذ عددهم بزداد شانا يرما بمد يرم .

قام التجار بتجميع او تركيز صناعي في الانشاءات والمشاريم الصناعية الكبرى اذ اس ازدياد الطلبات واحياناً واحياناً واحياناً واحياناً والمات بالذات قضت من نفسها الاخذ باسباب التصنيع والطباعة وقوضيب المعادن وصناعة التعدين وصناعة المدافع وغير ذلك . وقد تمت رغبتهم هذه بالتعاون التام لانسجامها مع رغبة الملوك والامراء الذين تنازلوا لهم عن احتكاراتهم . وقد اصطدموا احياناً بمنافسة الرؤساء البعلسانيين او رجال الاكليروس الذين شغلوا اموالهم في بعض المشاريع الانشائية . وهذا امر اصبح عادة مرعية في جميع انحاء المانيا والبلاد الواطية ومند عام ١٩٤٠ ووثورة الاديان وفي انكلترا ويث بلغت الحركة حدود ثورة صناعية . فبدلاً مسن الاكتفاء بالنزول الى عمق بضعة امتار في المناجم وهماليز وسراديب تحت الارض . وهي اعمال المنشرقت وتستفرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احيانيا عشرات الالوف من الليرات وكالستفرقت وتستفرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احيانيا عشرات الالوف من الليرات ومناهنات اغرقت المنجم أو سببت انفجاراً للغاز وكما اقتضى مضاعفة المتاد والاجهزة ومعظمها من المدن عندما من المعشع بعضها ببعض وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من المعربي القطع بعضها ببعض وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من المتوى القطع بعضها ببعض وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من القوى القطيعة وتركيب اجهزة لنضع المساء المتسرب الى الداخل وسلاسل لا تنتهى من المقوى القطيعة وتركيب اجهزة لنضع المساء المتسرب الى الداخل وسلاسل لا تنتهى من المعرب المهزة لنضع المساء المتسرب الى الداخل وسلاسل لا تنتهى من

القواهيس ، وبراغ من نوع براغي ارخمذس ، ومضخات جاذبة ذات كيَّاس . وأخذوا ، منذ عام ١٥٤٦ ، ينشؤون في المناجم العميقة سلسلة عمودية من المضخات الجاذب. أن والاحواض الماتراكية الواحد منها فوق الآخر ، وهي مضخات تحركها عجلات ضخمة يسير علمها رجال أو يتساقط علنها شلال الماء من حوض ، واجهزة التهوية كهذه المفاتيح الضخمة ، وهده البراميل الجهزة بفر وات مثقوبة في الوسط يخترقها الهواء ، وتنتهى باسورة او انبوب لتفريخ الهواء ، ومراوح كبيرة يدخل منها الهواء بشدة في انبوب للتهوية ركبت في طرفه شفرات ضخمة يحركها جِناح مطحمة هواء ، قركبوا ، لجهلهم ناموس القوة المبعدة عن المركز ، الانبوب عنسد طرف الطبط بدلاً من أن يكون قريباً من المركز ، وبكرات ضخمة لرفع الاثقال الكبيرة تأتيهـــــا الحركة من عراد يدور على عجلة ؟ على وجهي الارض ؟ بواسطة آسطوانة شاقولية الوضع ؟ طويلة ومسننة من الخشب ، وكسارات ضخمة مجهزة بطرقة تتحرك بدرة الماء لتكسير فازأت المادة ، ومصاهر ضخمة الحديد تعمل على فحم الحطب أو تم اختراعها في المانيـــــا ، ثم دخل استمالها مقاطعة سوسكس ، في انكلترا ، في اواخر القرن ، ومنها شع استمالها في كل مكان حوالي ١٥٥٠ . وقبل اختراع هذه المصاهر ، كانوا يحصلون على الحديد المشغول من الفازات هيئها بواسطة كور حدادة صغير . وكان زهاء ١٢ ملتزماً أو متمهداً يخرجون نحواً من ٢٥ طناً في السنة . ومنذ سنة م ١٥٤ ، انشئت مصاهر للحديد علو الواحد منها ٣٠ قدماً ، يعرض ٢٠ قدماً مربعاً من تحت، معمنافخ من الجلد ، علو الواحد منها ٢٠ قدماً يحركها دولاب يعمل بالماء يأتيه من سد قريب بواسطة انابيب من الخشب كينتج في السنة كلها من ١٠٠ - ٥٠٠ طن مسن الصب، وكانوا يستعملون في تطريق الحديد والنحاس والقصدير مطارق ضخمة تتحرك على عجلات ركزوها في بنايات كبيرة يعمل فيها عشرات من العبال . ولتوفير ما يلزم من الملح، لجأوا ، في انكلترا اللي تبخير ماء البحر ، وهكذا استغنوا عن فريق من العال كانوا يستخدمون من ٦ - ١٢ دستًا صغيرًا ، بينا ركب بعض المتمولين ، في ابنية كبيرة وعلى وجافسات ضغمة ، خلاقين سعة الواحدة ٢٠ قدماً مربعاً وعملها لحواً من ٦ أقدام.. ونرى في سنة -١٥٨ ، احسد رجال المال يستعمل نحواً من ٣٠٠ عامل ، وينفق في هـــذا السبيل اكثر من ٢٠٠٠ ليرة انسكليزية ذهب ، في تجييز ورشة له . فاشتد من جراء ذلك الطلب على معلى الحرف والصناع المهرة يقدون من الفلاندر لصنع الاجواخ ٬ كما كانوا يستقدمون٬ من المانيا٬ ممدَّنين المعمل في استخراج فلزات الحديد وشغل الحديد .

تغلغل النظام الرأسالي والحياة في الريف عسلى اثر ظهور النظام الرأسالي في حياة الريف عسلى اثر ظهور النظام الرأسالي والحياة في الروبا ، الاسواق الدولية ، وطاوع عصر الصناعة في اوروبا ، وتزايد عدد السكان في المدن ، واخذم اكثر فاكثر ، باسباب الحضارة ، فو بحد في هذا كلر أمرافق للاستهلاك والانفاق . ففي اواسط انكلترا ، راح اصحاب الاقطان يستخلصون اراضيهم من مستأجرها ومكارها ويدبجون بها الاراضي الصالحة الفلاحة من المشاعات البلاية ، وتحويلها

الى مراع خضراء تنتجعها قطعان الغنم طمعاً بصوفها الذي يذهب لمصانع النسيج الانكليزية ؟ كا ان قسماً منه كان 'يصدر للخارج . وفي هذه المدة بالذات أخذت تظهر طلائع حركة اقامة السياجات حول الاراضي و المزارع ؟ هذه الحركة التي استحالت انقلاباً وارتدت شكل ثورة عارمة في القرن الثامن عشر . وانتقل استثار الارض من مرابعين الى أيدي مزارعين تحت تصرفهم ما يلزم من المال السكافي لاستفلالها بروح بورجوازية يفيدون من نتاجها وغلاله في مقايضاتهم التجارية .

اما في فرنسا * فقد كان جانب كبير من الاراضي الزراعية بيد مرابعين ومزارعين توارثوا استثارها اباً عن جد ؛ كان من الصعب جداً على مالك الارض الاصيل انتزاع هذا الحق منهم ، وكانت حصته من الغلال التي حددت قدمتها ٤ لمرة واحدة ٢ ببلغ من المال يضؤل على مر السنين لارتفاع الاسعار المستمر ، ولكن منذ أن وضعت حرب المائة سنة أوزارها بعيد أن افقرت الازض ، وأجدبتها وحرمتها من البد العاملة ، راح بعض المتمولين من البورجوازيين ، في المدن الجاورة ، يتعهدون الاراضي الزراعية بعد توسيعها فيؤجرون ، من خمنهم ، لفلاح او مزاوع او ومرابع ، شقة منها ، يدفع ما يترتب عليها من عوائد ورسوم ، نقداً وعداً ، وفقاً لمقود ايمار قابلة للتعديل في انتهاء الاجل المضروب ، أو يتناول قسماً من غلة الارض ، ومـــا تبغى مكون حصة المزارع ؛ يتصرف به وفقاً للاسمار الدارجة ؛ أذ ذاك . أما البورجوازيوت ؛ فسكان بعضهم يؤجر اراضيه الحرة لسيد الارض او يعمدون الى شراء الاراضي ٤ اذا ما توفرت لهم اسباب الأواء ؛ بمن لهم عليها حتى السيادة ، ثم يؤجرون القسم الاوفى من هسذه الاراضي لمرابعين يستغلشونها وفقاً لشروط محددة . وسار على نهج البورجوازيين عدد كبير من اصحاب الاملاك ، فسكان الواحد منهم يعمل على استثار اراضيه ويراقب بنفسه اعمال مزرعتسم باذلا أقصى جهده لتحسين ريمها . وقد برز في هذه الحقبة هذا النموذج من الفلاحين الذين عرفوا قيمة التماون مع الغير ، فيتولى ، هو بنفسه ، بيسع بقرة ، ويشرف على بناء ما تحتاجه ارضه مسسن اسوار وسياجات ، ويراقب عملية قطع الحشيش وقطـــاف العنب ، وهو ، في الغالب ، من ذراري أحد البورجوازيين . وكثيراً ما كان أسياد الارض يشترون من الفلاح ، بعد ان يكون هذا الآخير ، ارهقه الدن ، اثر بوار المواسم او لتغييه عنها للخدمة العسكرية ، أو لمجزه عن الفاء ما ثمقي علمه من متأخر دَينه، أو مطالبته فجأة المتأخر المتراكم من عدة سنين ، بعد ان مكون تناسى امرها . وكثيراً مَا يكون عرف هؤلاء البورجوازيون الذين حرصوا على شراء الاملاك السيادية، أو هؤلاء الملاكون الذين تطبعوا بطباع البورجوازيين ، أن يراقبوا ، بعين يقظة ، وضم الاسواق التجارية ، وأن يحتفظوا ، في منازلهم ، يبعض الحاصيل المنخرة ، بانتظار الفرصة المناسبة ، ليبيعوا ما احتفظوا به من غلال ، باسمار مرتفعة . وقد اعتنوا ، على الاخص بالاصناف الصالحة للاعمال او المضاربات التجارية ، كالقمح والحر ، وفي مقاطعــة بروفانس كشحرة الزيتون والفورة ، وفي مقاطعة اللانفدوق بنبات العَظلم المستعمل في الصباغة ، وشجرة

الزيتون وشجرة التوت وهكذا نرى ان حياة الريف تغيرت كثيراً وتطورت مظاهر الحيساة فيها: فاتسعت القرى وغت ، واكتظت بالسكان والعال والصناع ، وباليد العاملة من دباغين وبيطريين ، وزجاجين ، وصانعي القرميد والبلاط ، والحبالين ، والعاملين في صب الحسديد ، وغيرهم . ويأخذ السيد ببناء مكبس هوائي لضغط الجوخ وكبسه، ومدقة آلية تتحرك بواسطة دولاب لجرش فازات المعادن ، دون ان يشعر المرء دائماً ما اذا كان المعمل يعمل لخير المنطقة او نعمل لتاجر يقوم بنشاط صناعي .

وقد وقع مثل هذا التطور في بلدان اخرى : في الفلاندر والمانيا الغربية والجنوبيـــة ، وفي ايطاليا .

اما في البلدان الواقعة الى ما وراء نهر الايلب كألمانيا الشرقية وبولونيا ، فقد حمل اشتداد الطلب على القمع ، من قبل التجار التابعين لاتحاد الهانز ، والبلاد الواطية لشحنه الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، اصحاب الاراضي ومالكيها ، على استخلاصها بالقوة من ايدي المرابعين او المستثمرين لها ، فيكو تون منها مزارع استثار ، ويجبرون الفلاحين على تأمين الخدمات اللازمة عاناً ، دون مقابل ، وهكذا يصبح هو نفسه منتجاً للقمح ومتجراً بسه . ان الاتساع المتزايد لهذه المزارع واعطائها كمية صغيرة نسبياً من الحبوب اللازمة للتجارة ، ساعد كثيراً على دمج نظام الراساتي ، في هذه المناطق الواقعة على أطراف الحضارة الاوروبية .

فالتقنيات الزراعية فيها لم تتغير ، ولم تتبدل كثيراً . وعلينا ان ننتظر نهاية القرن ، لنشهد في البلاد الواطية ، دفعاً جديداً نحو الزراعة ، على نطاق واسم .

ان ازدهار النظام الرأسمالي وارتفاع الاسمار، ساعدا كثيراً على النتائج الاجتاعية للنظام الرأسمالي التقريب بين الطبقة البورجوازية والطبقة المتملكة للارض، وابراز الفوارق بين ماتين الطبقتين وبين الطبقات الشمبية وتفتيتها الى طبقات فرعية ثانوية.

اضطر عدد من الاسياد ، عرفوا باهمالهم وعدم درايتهم ، او افقرتهم حياة البسنخ التي عاشوها ، وارتفاع الاسعار المتنابع ، ان يبيعوا اراضيهم وممتلكاتهم ، فسآل امرها الى فريق يعمل في التجارة ، فشيدوا لهم فيها نزولا ومساكن جيلة ، واقاموا لهم صلات مع الانسانيين ، فنهجوا نهج السراة . وبفضل النمط الجديد لحياتهم هذه ، ولتمرسهم بالوظائف المسامة التي عرفوا ان يستأثروا بها ، تحولت أشرم تدريحيا ، الى طبقة النبلاء وأصبحت بدورها ارومة المطبقة جديدة من الاشراف، لمع ابناؤها من رجال الدين والدنيا ، عملوا في الجيش او موظفين كباراً في خدمة البلاط . الا ان أهل الحسب والنسب لم ينزلوهم منهم منزلة العرق الاصيل .

ويليهم منزلة ومرتبة ، هذا الجانب من البورجوازيين يتمثل برؤساء الحرف والمهن الذين كانوا كيمدون ، من قبل ، زهرة هذه الطبقة ، فاذا بهم ، المحدوا اليوم ، الى المرتبة الثانية ان

لم نقل الى ما هو ادنى . اما رؤساء نقب ابات الحرف ، ذات الشأن كالجواخين . والجزارين والعطارين ، والبزازين والبقالين ، فقد عرفوا ان يحافظوا على ما حققوا من مستوى محترم ، بفضل ازدهار حياة المدن ، وعمرانها وازدياد عدد السكان فيها . واستطاع فريق منهم ان يوجهوا أبناءهم شطر المهن الحرة أو الوظائف العليا . الا ان دخيلة هذه الطبقة او بالاحرى . هذه الفثة ، ما زال يعتلج بالحقد ويتنزى بالبغضاء ضد طبقة التجار.

ويلي هذه الفئة درجة ، معلمو الحرف الدنيا : كا لاسكافي وتاجر الاسمال والثياب العتيقــة وغيرهم ممن يشغلون بعض الصنّائع العادية او يديرون دكان بقالة .

وجاء في الدرك الاسفل من السلم الاجتاعي ، طبقة البروليتاريا وهي طبقة اعتاد افرادها ان يعيشوا من عمل يدري ، مأجورين يوماً فيوماً ، او عمالاً احراراً يعملون عندما يجاو لهمالعمل او يعملون في ورش يشرف عليها احد رجال المال ، او ينتمون الى حرف منتظمة تقابات ، مشدودين ابداً الى اوضاعهم ، الا ما تندر ، في بعض الحسالات ، اذ ان رؤساء الحرف كانوا يحتفظون بوظائفهم لاولادهم او لاصهرتهم ، وكانت اجورهم الاسمية لاترتفع او لاتوداد الا ببطه ، وذلك بالنظر لما يلاقونه من مقاومة لدى عميلي الطبقة البرجوازية ، الاقوياء الجانب لاعتبادهم على مؤازرة الامراء ونصرتهم ، اما اجورهم الفعلية فكانت تهبط باستمرار ، وفي هذا ما فيه من بوادر المراع الطبقي، وابناء المهنة الواحدة يؤلفون جميات خاصة بهم تؤلف فيها بينها اتحادات عامة ، لها رئيسها الاعلى، وصندوق مشارك ، يتسلحون بالسيوف والخناجر ويقومون باضرابات عامة ، لها رئيسها الاعلى، وصندوق مشارك ، يتسلحون بالسيوف والخناجر ويقومون باضرابات وحركات تمرد ، كها حدث مثلا في مدينة أرفكورت ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينسة ، أولم وكولوني ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينسة ، أولم

اما في الريف ، فاذا ما ألثف المزارعون فيه طبقة على شيء من اليسر المادي وعقليسة بررجوازية ارفع من عقلية المرابعين ، فهنالك ، مع ذلك ، فئة من الفلاحين والسكادحين في الارض لامال عند اصحابها 'يحسنون به من احوالهم واوضاعهم ، رضخوا يائسين العيش على ما يحف بهم من وضع زري ، عجزوا او جهاوا ان يبيعوا ، في الفرصة السائحة ، محصولهم ، وهم يرون اوضاعهم تسوء وتتدهور امام ارتفاع الاسعار المستمر ، فقسام بين الفلاحين ثورة لم تكن دوما من حمل الصحاليك بينهم ، اذ كثيراً ما نفخ في نارها فلاحون ومزارعون ميسورون ، هالهم استمرار ارتفاع ثن المواد والبضائع المستوردة ، كما هالهم ، من جهة ثانية ، توسع الملكيسة الرأسمالية واستبطار المقوق الاقطاعية .

وهكذا شهدنا المزيد من الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض وتباعد بينها ٬ مما ادّى الى صراح طبقي عنيف كان له نتائج ديلية وسياسية خطيرة .

بهاءت الثورة الرأسمالية نتيجة منطقية لمسلك جيل او فريق من الناس البررجوازي الرأسمالية نشيل، بهذا البورجوازي من الناس ضلع بسهم كبير بالنهضة الانسانية يتمثل ، خير تمثيل، بهذا البورجوازي

الرأسمالي الذي عرف ان يعبر عما 'طبيع عليه من فردية بميزة ، وما جاش في نفسه من رغبسة السيطرة وتوق الى السلطان ، وما نزعت اليه نفسه من تفتشح وإشراقسة ، سواء في العمل او في الخلق والابداع ، والتطلع الى حياة متفتحة ، رغيدة ، باذخة ، والضلوع بهسسنده المشاريسع وانشاءات الاقتصادية من نوع معين .

حاول البورجوازي المتمول ان يطفىء ما في قرارة نفسه وسويداء قلبه من شهوة صاخبة للربح والكسب جعلته يتهافت بل يتكالب على جمع المال ، مستعيناً على ذلك بما 'ركسز فيه من إدراك واقعى ، عقلاني ، لاصول المغامرات المالية والمجازفات الاقتصادية .

فقد أوتي ، قبل كل شيء ، حب المفامرة ، وتسذو"ق الجرأة في المخاطرة واشرأبت نفسه الى الفتح والخلق . فهو رجل اداري يعرف من اين تؤتى الامور ، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس ادرك بما فيه من زكانة ، ما هم عليه من 'خلسُق واستعداد معين لتدبير امر معين ، فسميد الى كل واحد منهم بالعمل الذي هيء له ؟ فينسق ويناسب بين اعمالهم وتصرفاتهم بجيث يحصل على اكبر قدر من الفعالية والطاقة . فهو مفاوض لبق ، ساحر الحركات والنظرات والايمامة ، يعرف اصول البحث ويجيد المناقشة ويأتي الامور من ابوابها ليفضي منها الى مخارجها الطبيعة ، أعطبي موهبة عظيمة على الايحاء والاقناع وحمل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية . كل هذه الصفات تحلى بها البورجوازي الثري تركت في نفسه شيئًا من الانطباع واليقينان شيئًا من الاشراف انتهى اليه وان 'نستيات من هؤلاء العسكريين او رجال الحرب الذين تمرسوا بإحمال الحرب وما اليها من صنوف السلب وألوان النهب ، بمن تركنوا احمال القرصنة ٤ استقر في نفسه ٤ واستشرى في عروقه في وقت كانت روح الفروسية بعد هي المثال الافضل المجتمع الامثل. وهل نمجب ، بعد ، كيف أن بعض الانكليز والإيطالين من نيضت في نفوسهم روح الفروسية قاموا ٤ في حميم القرن السادس عشر يمارسون بالفعل احمال القرصنة ٢ كفيكل اليهم كثيرون من الرياء القوم، بجانب من اموالهم المدخرة لاستثبارها في هذه المغامرات التي يماو لهم القيام بها ؟ أَ فَمْ تَتَضَاعِفُ أُولَى الأسفار الطويلة عبر الحيطـــات وأولى الشركات التجارية ، الكبرى التي قامت ، بمغامرات مسلحة من الكر والفركان لهم الحظ فيها نصيرا ؟

وقد يبدو على هذا البورجوازي الرأسمالي، بما امتاز به من روح التنظيم وروح والاقتصاد انه
قد على شاكلة معلى الحرف والمهن القدامى . وهذا بالفعل ما لفت الانظار الى هذه الروح التي
نبضت فيه ، وهي روح منافسة ، في الصميم ، لهذا الشريف . فيينا نراه يرغب صادقاً ان
يصير هو الى مثله و نوضح نفسه كا يستدل من المدورات وسجلات التجارة و اذ ذاله ما يباعد
بينه وبين هذا الشريف الذي لا يهمه من الحياة الا الظهور بمظهر الحر الباذخ: وان اقتصدت غنيت ،
فمن انفتى قليلا لن يلبث ان يصبح غنياً ، فالاقتصاد هو اولى الفضائل واولى المقدسات » . وهي
ملكة يجب ان تمم وتنتشر لتماثر القدرات والاوقات والأزمنسة ، على ان يستعملها الانسان
ملكة يجب ان تمم وتنتشر لتماثر القدرات والاوقات والأزمنسة ، على ان يستعملها الانسان
مشكل منطقي ، معقول بما فيه نقمه ورجمه . طيئا ان نهرب من البطالة وان نحسن قريس

اوقاتنا على الوجه الاكمل ، كما يترتب علينا ان نتفادى الاعياء ، ونبتمد ، مسا امكن ، عن الملاهي ، والصيد والقنص والقصف والولائم ومضيعة الوقت بالاستقبالات الفارغة وان نحاسب انفسنا في المساء حساباً عسيراً على وجوه استمال ساعات النهار. علينا ان ننظم حياتنا تنظيماً منطقياً لتأمين المنافع التي تؤمنها لنا التجارة . ولهذا البورجوازي ناموسه او قانونه الاخلاقي الا وهو المحافظة ، قبل كل شيء ، على المهود المقطوعة والاتفاقات التي ابرمها بملء حريته ، كا عليه ان يحافظ على المظاهر الخارجية ، وان يراعي ما يعود عليه بطيب الاحدوثة وان يعيش عيشاً نظيماً ، بعيداً عن الخر والميسر والتسري ، كا عليه بحضور القداس بانتظام والاستهاع الى الوعظ والارشاد ، وان يحتفظ وقاره ومشيته المازنة .

للبورجوازي الرأسمالي عقلانية نموذجية ، منهجية . كل شيء عنده يجري او يجب ان يجري بدقة الحساب . وكل ما يأتيه هو تعبير بالارقام لهذا النشاط البشري الذي يجيش فيه ، هذه الارقام التي تضبط كل حساباته من مدخول ومصروف . فالقلم دوماً بيده ليضع على الورقة ويدون تفاصيل مفاوضاته ومعاملاته ، وكل ما يتوصل الى عقده من ارتباكات واتفاقات ، وما يأتيه من شاردة وواردة . فالرأسمالية اسوة بالفيثاغورية الحديثة ، تحمل الحكثير من طبيعة الذهنية الكمة .

وهذا البورجوازي الرأسمالي وقع تحت تأثير الانسانيين فهو ينتقي من الحكم ، ويختسار من الحكم المؤود وكاتون وكولوميل ، الكلم المأثور بما جاء في كتب الاقدمين من أقوال الفلاسفة الكلبيين وفينوفون وكاتون وكولوميل ، ما يبدي قسيات الصورة المثالية التي هام بها. فقد ربط نفسه بعجلة الانسانيين امثال : بوتنجر ، أحد رجال الفكر في مدينة اوغسبورج ، الذين يدافعون بقلهم ولسانهم ، عن شرعية وجدوى المشروعات التي تضطلم بها الرأسمالية ، وعن شرعية الدس بفائدة .

فكبار الفكرين ، في هذا العصر ، لا يختلف تفكيرهم بشيء عن تفكير روكفار وكارنجي وكروب وتيسن ، في زماننا هذا . فقد هاموا بالتطور وراحوا يترسمونه ويحاولون تحييزه ، الى اقصى حد ، في هذه القصور والصروح ومعارض الوحوش التي انشاؤها ، وهده الجاميح الفنية التي لا تثمن من الانسجة والاقمشة والديباج ، والسجاجيب والطنافس والمجوهرات ، والحلي والآثار القديمة ، التي وفق الى جمها ، وهذه التواصي الفنية التي اوصى عليها لدى مشاهير الرسامين وكبار الفنانين ، في رحايته للادباء ونصرته للانسانيين صائمي الرأي العام . كل هذه الوسائل والذرائع ادوات بين يديه حققت له الكثيرين من الاصدقاء والزبائيس. الا ان معظم رجال المال ودوي الثراء نظروا دوماً الى الفن نظرهم الى وسيلة تساعد على العيش الكريم الرغيد والرفه في الحياة ، فنكانوا يلطفون من حدة نشاطهم بالاستمتاع بالراحة والاستجمام ، وكان عدد كبير منهم انضوى تحت لواء الانسانية والخرط بين اتباع الابيقورية جزلوا للمقاكها والمباسطة ، والحيث ، ولذا كانوا ينسجون باكراً من المغل لينصرفوا لاملاكهم ومقتنياتهم وعونها ناهين با تم لهم من ووة عريضة وغنى "بعيد .

والمنصلي والروابيع

الدولة ونظمها الاقتصادية

اوروبا حضارة هي وليست وحدة سياسية . فالصورة التي راودت بين دول كبيرة و صغيرة خيال الناس ، في الاجيال الوسطى ، والحلم الذي جال في خياطرهم بان يروا جهورية مسيحية يتولى زمنياتها الامبراطور والروحانيات فيها البابا ، في تعاون بينها ، نزيه ، متبادل ، بقيت ترقص في الاذهان، وان أعوزتها القوة وخلت من قوام وكيان . فالبابا يتجاهل سلطته الكثير من الناس وبعضهم يهاجها، حتى في الدول الكاثوليكية بالذات، وينكر عليها حتى الاهتام بالله بلا وخود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه الجرمانية المقدسة ، لا وجود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه الرئيس الاعلى أو العاهل . وهذه الفردية ، التي طبعت عصر النهضة تتجلى في المجال السياسي ، بهذه الدول أو الدويلات التي انتظمت سلك اوروبا ، فجاء ظهورها تعبيراً عن هذه القوميات المختلفة التي جاشت بها القارة على شيء من التوازن . وفكرة المساواة في الحقوق التي اعتلجت بها هذه الدول والافراد الاحرار ، فيا يتعلق بالاخلاق والمشل الواحدة المتشابهة ، حلت على مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لهما قاسما مشتركا ، بالرغم مما باعد بين مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لهما قاسما مشتركا ، بالرغم مما باعد بين مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لهما قاسما مشتركا ، بالرغم مما باعد بين مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لهما قاسما مشتركا ، بالرغم مما باعد بين مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضته الاجيال الوسطى فيا قاسما مشتركا ، بالرغم مما باعد بين مبدأ السلطة المسلسة الذي ارتضامات وخصومات .

والنزعة التي جاشت في الضائر بانشاء دول كبرى تبنت حركة ترمي الى اعسادة تشكيل اوروبا وفقاً لهذه الصورة التي تباورت في الاجيال الوسطى والتي أوشكت ان تتحقق وتتخيز بالغمل على اساس من التوازن النسبي . واستطاعت بعض الدول كفرنسا مثلا ان تفرض سلطة الملك وحده ، على هذه الامارات المرتبطة بالتاج بالولاء له ، والتي حاولت ان تنشيء من ذاتها قوميات مستقلة ، كدوقية بورغونيا ودوقية بريتانيا ، فاعلنت اولاهما اندماجها بالتاج عام ١٤٩٣ والثانية عام ١٥٣٧ . وهنالك بجوار فرنسا ، دول كاسبانيا مثلا أنجزت وحدتها القومية بضم عالكها بعضاً الى بعض ، كمملكة اراغون وفشتيليه ، او زواج فردينان وايزابيل عام ١٤٦٩ ومن بعدهما في عهد شارل الكبير الذي سيُعترف ، في المستقبل ، باسم شارل الجامس ، عسام

١٥٦٦ ، وفي الجزر البريطانية حيث انضمت امارة ويلز الى انكلترا فغضمتا مماً ، منذ عام ١٥٣٦ ، لحكم واحد وادارة واحدة . اما في الامبراطورية المقدسة فقد حوّل الامراء فيها الماراتهم الى دول فعلية . بينا بقيت ايطاليا منقسمة على ذاتها ، الى دويلات قوية الدعسائم . متحررة من كل تبعية أو من كل رابطة ولاء الواحدة نحو الاخرى ، على اساس من توازرت القوى فيا بينها ، قبل ان تجرفها من الوجود الضرورة القاضية بانشاء دولة كبرى فيها ، اسوة بغيرها من البلدان الجماورة .

الجنوافية السياسية رزوال المدينة _ الدولة ما منها اليوم (١١) تبدر ، بالفعل ، اكبر ايضاً اذا ما

اخذنا بعين الاعتبار ، بطء المواصلات وضعف كثافة السكان . وتبدو شاسعة جدا ، اذ تتألف من مدن ومنطقتها الجاورة ، او من مدن منعزلة تنعم بضاحية ، خصبة ، مكتظة بالسكان ، تفصل بينها مسافات شبه صحراوية ، وغابات واراضي براح . وضمن الولايات وهذه الدول نرى حدودا وقوماً منتصبة بميزة ، امثال فرانش كونتية وسويسرا ، وغابات الصنوبر الكبيرة المؤبدة وهؤلاء المعترون في مقاطعة فرانش كونتية ، قدموا من الشال ، متدثرين بجاود الحيوانات محرثون الارض بايديهم ليخلقوا منها اراضي مزروعة بالقمع ، المتموج مع النسم . ويأخذ سكان مقاطعة فو بقطع الاحراش لتوسيع المناطق الزاعية باتجاه جيرانهم ، يقيمون فيها المزارع والدساكر ، الى ان يقع التصادم بين الفريقين . وهو صدام عنيف استعمل فيه الطرفان الغزو والنهب والسلب ونصب الشبأك والاحابيل ، امعاناً في الوقيعة ، كا استعانوا بالخناجر يعندون طعناً عجزت عن ان تضع حداً له ، هذه الاتفاقات المعقودة ، ولا تحديد التخوم وتعيين المدى الجيوي بين الفريقين .

وهذه الجغرافية السياسية التي جاءت صورة حتمية لهذا التاريح البشري ، بدت على دويلاتها مع ذلك ، نزعة تتفاوت قدراً ونسبة ، نحو الاندماج والانصهار ، وان بدت غامضة ، غائمة . فالولايات التي انصهرت حديثاً مع املاك التاج في فرنسا ، اعترفت بمبدأ الولاء والتبعية المملك ، وفقاً لمهود نصت من جهة ثانية ، على احترام اعرافها وعاداتها وتقاليدها المرعية ، وعلى حقها بان يتولى الادارة فيها موظفون مخليون من سكانها وتربتها . وفي اسبانيا ، احتفظت مملكة اراغون بمؤسساتها و نظمه و با هما من شخصية مفردة . وهذه الدول الكسبرى ، تستطيع ، وحدها ، بما تم لها من اتساع الرقمة وانبساط المدى ، ان تتحمل اي صدمة حربية تتمرض لها دون ان تحسب حساباً لاي احتال تصدع او تفكك ، بعد ان امتنت ما هي بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تغي با ود الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تغي با ود الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن السادس عشر ، زوال هذه الدول او الكيانات الدولية المتوسطة التي نستطيع ان نسميها

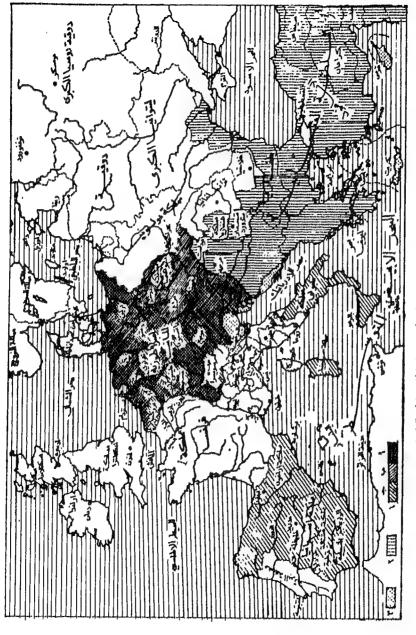
⁽١) كانت مناحة فرنسا عام ١٤٩٧ نحوا من ٥٠٠٠٠٠ كلم٦ . بينها هي اليوم (١٩٥٠) ٥٦٠٠٠٠ م كلم٦

بالنسبة للدول الاخرى ، دولاً اقليمية او محلية ، منها مثلاً : الفرانش كونتية ، او هذه الدول التي كانت نواتها الاولى او قام مجورها الاساسي ، على مدن تجارية ، كالبندقية ، مثلا التي تصح قسميتها بالدول - المدن، وهي هذه الدول التي تكون فيها المدينة ، هي الحاكمة والمضطلمة بالادارة عن طريق ابنائها ، وهذه الدويلات صار امرها الى كيانات لا شأن لها ، او انها راحت فريسة فتع اجنبي قاندمجت مع دولة كبيرة ، كا حدث القسطنطينية عام ١٤٥٧ وكا حسدت لنوفغورود الكبرى عام ١٤٥٧ ، ولفرناطة ، عام ١٤٩٧ . ومن الطبيعي جداً الا ترضى بمسل هذا المصير المشؤوم وان تتنكر له في هذه الثورات والانتفاضات التي قسامت بها . ولم ينج من هذا المصير سوى البندقية التي لاتزال تلعب بعد ، دوراً بارزاً في الحروب الإيطالية ، ولا سيا في الحرب ضد الاتراك العثمانيين ، مع انها مجلت هبوطاً نسبياً في الميزان الدولي ، اذذاك .

١ - تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

معظم هذه الدول تتجه في تطورها وفي تطلعها الى التكامل ، نحو المطلقة او الحكم الاستبدادي. ويكون النظام الملكي مطلقا او مستبداً ، عندما يجستم الملك ، في شخصه ، المنشل الوطنية ويتمتع ، قانونا وفعلا ، بكل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها ي كحتى التشريع وسن القوانين ، وحق اقامة العدل واشاعته بين الناس ، وفرض الضرائب وجبايتها ، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية ، وتعيين الموظفيين ، وانزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المسلحة العامة ، ولا سيا من يتعرض منهم السلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع بسه من ولاية وصلاحية ، صادرتين عن سلطانه كقاض اعلى . وقد جاءت فكرة الملكية المطلقة تر فد ون ان قسها او تنتقص منها بشيء ، مفهوم المواثيق والاعراف التي تحدد الزوابط التي شدت المنطاعات ورعايام الى الملك .

حب الرطن وهذه الدول الكبرى تجيش بحب الوطن الذي يبعث قيها الحيوية والنشاط ويحملها على تحقيق وحدتها . وهذا الحب مصدره التعلق بالاقليم او المنطقة والولاء المملك صاحب السلطة الاولى في البلاد . ويشحذ الروح الوطنية في النفس الجهاد ضد الاجنبي الغازي المستبيح فيعمل على ايقاظ النفوس وعلى الاهتمام بالمصالح العامة المشتركة وذلك بفضل ما المعوظفين الملكيين من تأثير وتوحيد في هذا الجال والروابط الاقتصادية المشتركة التي تشد الاهليين بعضا الى بعض ولا سيا بغضل تأثير الانسانيين على حجيد جال البلاط والحاشية الملكية وعلى كبار معثلي الطبقة البورجوازية الذين يشار اليهم بالبنان اويسير الناس في خطام . فالحرية تبعث في الانسان هذا الشعور الذي يصدر عناعماق النفس ووضوحا ودقة وتوليه بالتالي مزيداً من القوة والدقع يشمر معه غليوم بوديه G.Budé في



ئكل ٣ ـــ اوروبا في عبد شارل الخامس والسلطان ملجان القانوني

أ ــ الامبراطررية القدمة ب. عتلكات فردينان ، غفين شاول الخامس ج ــ عتلكات شاول الخامس في الترسط المحتلكات المباولية المترسط . ــ عتلكات المبتدقية . - البلاان الخاضة لسلطان آل ميسيورج :

قرارة نفسه بان روحاً مشتركة واحدة ؛ كأنما تجيش في صدر فرنسا وتضفي عليها شخصية واحدة . ولهذا السبب بعينه راح يقدم كتابه : De Asse الى دشيطان فرنسا ، اي الى النبوغ الفرنسي ..والانسانيون الفرنسيون يعلنون عالماً ؛ وعلى الملاً الاكبر ؛ أولوية فرنسا . وهاهو غافن Gaguin يدافع عن الوطن ، هذا الام الحنون ، فيمدد لنا الفضائل والمناقب التي يتحلى نها هذا الوطن : شجاعة الفرسان، حب العمل والاستمساك بروح الاقتصاد وهناء العبش الرغيد، وهذه الانسانية في الاخلاق السامية. ويجلو لـ Valerun de Valerannes ان يرى ، في فرنسا ، الدولة الرائدة ، الزعيمة . ألم يفتح الغاليون اليونان ومقاطمة إيونيا ، ومقدونيا ? أو لم يستولوا حل روما ، ويحملوا الحضارة الى ما وراء الالب ? أو لم ينتج تحفدتهم جرمانيا ، وينقسلوا الكوسي الرسولي ، ويستخلصوا الشرق من قبضة المسلمين ? وفي هذه الفتوحات المريضة الق قامت بها قرنسا ناشرة ممها الافسكار الجديدة ، ألم تبق أمينة لما السم به نبوغها الحلاق من تجرد ومثالية ? (١٥٠٨) ويتغنى دانغُلسَتير بالانتصار الباهر يحققه شارل ده مارتل على العرب والمسلمين ﴾ هذا النصر المبين الذي جاء خير هدية من قرنسا لاوروبا جماء ﴾ اذا أتمن لها الحرية ﴾ هذه الحرية التي لا تقدر بثمن ، ويتشبع الفرنسيون من هذه المساتي والانجازات التي جـــاء التاريخ بيجاوها على مثل مذا النحو من سطوح الصورة وسناها ، في حده المشاعر المدينة التي تمور في أهماق النفس ؛ حيث تستحيل حباً الوطن ؛ على مثال الاقدمين ؛ هذه المثالسة التي وضعهما . القارس المسيحي تصب عينيه . وعندما راح الملك فرانسوا الاول يحمل الى قائده المام غالبو ه جنويًا لا . نبأ مقتل ابنه واستشهاده في معركة سريزول ٢٠صرخ غالبو هانفا بكل بساطة: و شكراً لك يا المي عمدًا الولد الذي يُجدَّت به على في تعنانك الالمي ، قد راق في عينيك ان تأخذه اليك ، ، ثم التفت إلى الملك وقال : و إني لسميد ، مولاي أن يكن لي ولد على هــــــذا الشكل يجود بنفسه ويبذل دماءه فداء للكه والوطن ، . وهل من عجب ، بعد ، اذا مسلما حرفتا ان خاليو أولع بالثقافة القديمة ، وانه كان عين لابنه ، مهذبسا انسانيسما من بين أهباء النهضة ؟ ولم يكن سكان قشتيليسة والانكليز والفلمنك ليتلشوا عن الغرنسيين تعلقها باوطائهم وهياماً مجبها . فلي ايطاليا المنقسمة على نفسها دويلات وجهوريات ِ تلناسر فيا بينها ، كانت هويلاتها ممئلة بالبندقية وفلورنسا ونابرلي ، وبفريق الانسانيين فيهسا بن فيهم مكيافلي يتمنون ٬ بالسنتهم واقلامهم ٬ ان يروا ايطاليا ٬ تنعم بوسدتها واستغلالها الناجز التام . وهذه الامم والشموب التي جاشت في قلب الامبراطورية المعدسة ، وكل فريق الانساسي فيهسا ، امثال ويعتلينغ من سكان ستراسبورج ؟ كانت صدورهم تلهج بالوحدة الالمانية . وهذه الروح الوطنية لم تكن لتغل بشيء عن الروح الغومية .

مبادة البطل المفضل فيه اساساً عمده الرغبة الطبيعية التي جاشت في صدور الماوك بعيث

يزدادون سلطانا وسؤدداً. فالحق الروماني هو الذي طلع علينا ، في القرن الثالث عشر ، بفكرة الملك المستبد الذي يجمع في شخصه كل السلطات ، هذا الملك الذي كانت مشيئته هي القانون . ان اقبال القرن السادس عشر على احياء التاريخ القديم ، اضفى على الحق الروماني قوة جديدة بالنظرة الجديدة التي نظر بها الى الملك و البطل ، ، هذا النصف الاله المسطر الحير . فليس الأمر بجرد صورة ذهنية او فكرية تستبد بالفرد او تعبث به وتحفز به الى العمل والتصرف . فالحق الروماني مدين بالنجاح الذي لقيه ، لهذه الاصطلاحات والتمابير السهلة التي عبرت عن خلجات الناس ونزعاتهم الدينية واحاسيسهم الدفينة في هذا العصر الذي وضيع فيه . فالمطل هو النموذج الذي ترغب الشعوب باحتذائه ، والنسج على منواله . فنظرية الحكم المطلق او المستبد تعبر قاماً عن هذه النزعات الفياضة التي تحيش بها هذه المجتمعات فكانت تعبيراً صادقياً عن رغبات المجتمع البشري .

فالحاجة الى سلطان قوي ، هي من هذه المتطلبات التي يقتضيها صراع الامم . مراع الامم فمن بروز الدول الكبرى التي لها من القوة والبطش ما يجعل ملوكها يسيطرون على المنارعات الداخلية ويجزمون امرهم لبسط سيطرتهم في الخاارج ، ومن هذه النجاحات التي سجلتها الدول المذكورة في سبيل تحقيق وحدتها الاقتصادية ، انطلقت هذه الحروب المظيمة ، الطويلة الأمد التي خاضتها في سبيل توطيد تفوقها الاقتصادي والسياسي . فالحرب تستدعي حمّا تقوية السلطة وتعزيزها ، وتتطلب حكومة قوية تأخسة بمنتهى السرعة قرارات يسهر على تنفيذها الجميم ، انى واينا كانوا .

النزعات الاقليمية قيام سلطة قوية في الدولة هو من مقتضيات الامم ومتنطلبات كيانها النزعات الاقليمية فالامم هي عبارة عن مجتمعات جغرافية قائمة جنبا الى جنب ، كهسذه الولايات والمقاطعات والبلديات والحيشات والمؤسسات البلدية والقروية ، والمنظيات المعترف بها الممثلة بهذه الطبقات الثلاث الاكليروس ، والنبلاء والشعب ، وهيأة موظفي الدولة ، والجامعات والنقابات المهنية . وقد قام بين هذه المالك وبين هذه المجتمعات ، على اختلاف مسمياتها ، عقود وعهود ، اعترفت رسميا لكل منها بما لها من ممتلكات ورئاسات وممثلين بحيث تتألف مسن هذا المجموع ، وحدة تتمتع بقوة وسلطان . وقد انتصبت هذه الهيئات والمنظيات في وجه بعضها البعض لتضارب المصالح وتباين المشارب والاهداف . ولذا كان لا بدمن ان يكون جانب الملك قوياً ليقضي في اختلافاتها ، على السواء ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، بحيث يؤمن الانسجام التام بين اعمالها وتصرفاتها ، لما فيه الحير العام . وكثيراً ما رأى من مصلحة التاج ان يفيد من هذه الانقسامات بما فيه خير البلاد والامة جماء .

على هذا ؛ قس ايضاً المنافسات التي شجرت بين ممثلي البيوتات الكبيرة من المنافسات السيادية لل البولي ؛ وألب ؛ في اسبانيا ؛ وآل شالون ؛ وآل فرجيز ؛ وآل هورن . وآل اغونت ، في البلاد الواطية ، وفي الفرانش كونتيسه ، وآل شالون ، وآل بوربون ،

وآل موغورنسي وآل ده غيز ، وآل كونديه ، في فرنسا ، وغيرهم كثيرين . وفي هسده المنافسات ما فيها من مخاطر لانها تجيش باعراف الاجيال الوسطى وعاداتها . وقد شدها بمضا الى بمض : وشائج الدم ، واواصر التبعية ، وروابط المصاهرات والتزاوج ومن التف لفتهم من الحدم والحكثم ، والازلام والاتباع ، والفدائيين والمتعيشين ، من يبذل دمه ويستعد لارتكاب المطاقم لاجلهم . وقد بلغ من حدة المنافسة بين هذه العوائل ومتانة الروابط التي جمعت بينها انه لو اتفق لاحدهم واقترن بنسيبة سيد من هؤلاء الاسياد السند ، مهما كانت القرابة بميسدة بينها ، فيكون الصهر الجديد قد أمن لنفسه حماية هذا السيد الكبير وتمتع بعطفه وحمايته ، بينها يقطع الصهر الجديد على نفسه عهداً بالذود عنه والتجند لخدمته ، ولو ضد الملك بالذات . وكثيراً ما كان الملك يجد في بطانة هؤلاء الامراء وفي معيتهم ، اتباعاً له وانصاراً ومريدينهم على اتم استعداد لشد ازره اذا ما حدثت احدهم النفس الامارة بالسوء ، بالعصيان والتمرد » كاكان واثقاً من جهة اخرى ، من ولاء خصوم هؤلاء الامراء له .

الصراع الطبقي الصراع الطبقى الذي تجلى على اتمه بين الطبقات ، ولا سيا بين البورجوازية منها والنبلاء . فالملك الذي كان يشمر عميقاً بحاجته للطبقة البورجوازية التي كانت بالفعـــل ، عهاد الدولة بما فيها من اموال طائلة ، وبما تقدمه للادارة الملكية من موظفين وعمال ، وبموقفهــــا الممارض ضدالاقطاعيين ، كان من السهل عليه جداً تأمين ولائها ومساندتها لقضايا التاج. فالسلطة الملكية ساعدت كثيراً على تيسير الاثراء وانماء الثروة لدى التجار البورجوازيين بما ا'ستكلفته منهم من قروض وبما رهنته لديهم من ممتلكات لقاء سلفات ، وبميا عهدت اليهم من تكليف جباية الرسوم والعوائد الملكية ، وبما اولتهم من حقوق فرض الاحتكارات، ومجمايتهـــا لهم من مفعول القوانين الكنسية ضد الربا ، وبوقوفهم الى جانبها ضد العراقيل والمصاعب التي كثيراً ما السلطة الملكية رؤساء الحرف وسيجتت حولهم باعترافها بهسما وباقرارها للانظمة والقوانين الاساسية التي سنتها لنفسها، وبما المنته لها من حماية قانونية تعديهم بالتالي الى زبالتهم، كا صانت ارباحهم من جشع المتمولين وكبار الاغنياء . وقد عطفت السلطة الملكية عسلي البورجوازيين العاملين في القطاع التجاري او في المهن والحرف وحتهم ضـــــــ تعديات البروليتاريا الجديدة . وبذلك هيَّاتُ لَمِم الظروف التي تساعدهم على الاثراء؛ وان يحققوا ما حلوابه من ان يكونوا؛ يرماً من أصحاب اليسار. فالملك وحده يستطيع ان يحقق لهم هذه الاحلام التي راودتهم وهذا الرقي الاجتماعي، وذلك بايلائهم الوظائف العامة التي في توليها شرف لهم، وبايلائهم إقطاعاتلا تسمطي الا للنبلاء.وهكذاارتفع كثيرون من بين البورجوازيين الى طبقة النبلاء.الا انهؤلاءالبورجوازيين المتأثَّلين عرفوا ان يحافظوا ،مع ذلك، على الكثير من أعرافهم وعاداتهم ،وعلى ما 'عرفِوا به من روحالفطنة والاعتدال والتروسي . فالسيد برنو ، كونت ده غرانفيل ، اسقف اراس ، ومستشار الامبراطورية وسل بتعلياته ونصائحه وحتى في احلك الظروف وأقسى الحالات التي مرت بها سياستها والم فيه خير الامبراطور ومنفعته الخاصة . ونراه يعلق على ما يرده ويقرر بنفسه الظروف تقارير يبعث بها اليه مفتشوه وابشأن موسم القمسح وحالة الاسواق ويقرر بنفسه الظروف الملاغة المبيع باحسن الاسعار وأطيبها ويخطط للامور باحسن ما يفعل العاملون على خدمته ويرسل بتحارير ورسائل من اربع صفحات يحشوها بالنصح والارشادات يحث فيها عملاه على ان يتغلوا لاحد وعن أي رهن ومها كان طفيفا ويوجههم بان يرفعوا اليه التقارير المفصلة عن فرائه ويشكر الله على انها خالية من كل ما يعبث بها ويعيث فيهسا ويشدد عليهم بألا يقراطوا باي كمية من الزبدة بدون اذن خاص منسه . وهكذا نرى كيف ان الارستقراطية على والنسب والمحتد الرفيع بهذه الطباع واذا ما تسربت بعض هذه الاعراف الى أسر نبيلة عن طريق زوجاتهم ونسائهم من الطبقة البرجوازية وفيا فيا زلنا نجد ومع ذلك وعين او صنفين من النبلاء : نبلاء النسب القدامى والمغروث وترفع والنبلاء الحديثي العهد الذين ارتقوا الى هذه المرتبة وبعد وجهود مريرة و وبعد ان احترف عدد كبير من اعضاء الاسرة والى هذه المرتبة والحرب والمورث وبعد الله الشرف الاثيل .

ولم يكن في وسع طبقة النبلاء أن تتحامى من استعلاء الطبقة البورجوازية ، الا أذا لقييت حظوةٌ في عين الملكُ . ولما كانت ترى ، في نهاية الامر أن ليس من مهنة أرفع وأسمى وأشرف من مهنة السلاح ؛ فقد اهملت المناية بممثلكاتها ؛ وبحقوقها الاقطاعية . ومن جهة أخرى ؛ فان هبوط قيمة النقد الشرائية ، احدث هبوطا ذريما في قيمة عائداتها النقدية . فبإمكانها أن تعيش عساً كريماً على ممتلكاتها مكتفية بوارداتها ومداخيلها العينية وبالخدمات التي يؤمنها لها مسلا عندها من "خدَّم وحشم . إلا ان "مغريات العيش في البلاط الملكي والدِّلَّ بالقابها وأوسمتها في الابهاء والجنمعات ؛ والاستقبالات في المدن ؛ والاشتراك في التجريدات الحربية البعيسدة ؛ كل مذا يجتذبها ويستغويها . ولذا نراما تمن في انهاك نفسها وتنهالك ، اكثر فأكثر ، على هــذا كله . فعياة البذخ هي من مستازمات حياة النبل والشرف . فالجود والكرم والسخاء هدف بعض اخلاقية النبيل؛ لا يمكن اغفالها او التخلي عنها ، بينا الرقي البورجوازي يقتضي له، اكثر فاكثر ؛ وفقاً للشعور النيتشي ؛ ان يمكسوا الى فضائـــل ؛ عورات الاشراف ومساوئهم ؛ تمييزًا لهم عن البورجوازيين . فقصور النبلاء تمور يجيش من الحدم والحشم ، والاعياد والحفلات المرائعة التي تفام بمناسبة الاعراس تفتح الجبال واسعاً للمراقص واحمسسال الفروسية ٬ والمسارح ٬ ومراسم الجنائز تقتضي المئات من القداديس ؟ ومن الشموع المضاءة ؟ ومسسن أرتال الفقراء والارامل مرتدين ثياب الحداد ، حاملين الشموع ، ومبالغ طائلة 'توزُّع صَدَّقات وحسنات ، كل هذا يستهلك مدخول اسرة بررجوازية عترمة لمدة سنة . فني حفة رقص وعناصرة يقيمها البلاط ، مثلا ، يرتدي النبيل الذي يحضرها - ولا بدله من حضورها - بزة ، يتمثل فــوق

كواهله، ثمن قطيع كامل. وهكذا يرى هذا النبيل نفسه مضطراً ليضع ذاته بخدمة الملك ، وان يلتمس منه ، وفقا لمرتبته في سلم النبل والشرف ، وظيفة حاكم في ولاية أو مقاطمة أو ناحية ، أو وظيفة قائد موقع في قلمة حسينة ، أو رتبة زعيم في الجيش ، او عريفاً بسيطاً في فرقسة صنيرة أو في الحرس الملكي ، او ريعا ثابتاً أو بائنة لابنه المتزوج ، او رثاسة دير ، او درجة اسقف أو سبر لابنائه الآخرين . وهو لا يستطيع ان يقف بوجه البورجوازي ويحسافظ على مركزه في الجمتم ، الا بوضع نفسه تحت جناح الملك . فقد خف والحق يقال ، كثيراً شأن هذه الاقطاعات التي قامت الى الغرب من نهر الايلب وجبال الألب الدينارية ، كا نجسد أكثر فاكثر ، من جهة ثانية ، النبلاء ، وعدداً اقل من إلاسياه ، يستخدمون ما لهم من سلطة وسلطان في اقطاعاتهم ، مع ولاثهم للرئيس الاعلى ، كا نرى ، اكثر فاكثر ، هيئات ومنظهات استاعية ، في اقطاعاتهم ، مع ولاثهم للرئيس الدولة ، بصفة وراثية ، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها، في الحرب أو في يضفي عليها رئيس الدولة ، بصفة وراثية ، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها، في الحرب أو في ذلك من الالقاب المريضة كا يوليها ؛ أوسمة وشارات "شر" فية ، ويفدق عليا من مقومات ذلك من الاكريم ، وغير ذلك من النمم ، وهو مرتبط بالدولة وحدها وما هو متوقف على ادارة ملكها العليا .

ولمل هذا السراع الطبقي هو اهم عامل يساعد على تطوير الملكيات المستبدة .

رمم ذلك فقد كانت الغوة الغملية لهذه الملكية المستبدة اقل تأثيراً على حدرد السلطة الطلقة سير الحياةاليومية لرعاياها مماتم منها للحكومات الديوقر اطية الق طلمت في القرن التاسع عشر . فالشريعة الالهية المسيحية، والغوانين الاساسية التي قام عليها النظام الملككي والقمددتالارضاع السياسية لكيان الملكية ووجودهاء وقانون الحق المام الذي نص على حق التملك ٬ ووضع حدوداً لحريات الفرد والجماعات وبيتن ما لها من سعوق وواجبات والتزامات ٬ وأعراف وهادأت ٤ كل هذه الموامل وما النها ٤ نجاءت تحد من سلطة الملك وسلطانه . كذلك يحد من طاقة هذه السلطة ٤ هذا العدد الشئيل من الموظفين وصموية المواصلات ونست درة وسائلها . فاذا إقتتُمسَّرُ الله فله في المدنيين وسدهم في فرنسا ، وفيها أذ ذاك أكبر هيشسة للموظفين في اية دولة من دول اوروبا ، جماء ، نرى ان عددهم لم يكن ليتجسماوز ، سوالي هام ١٥٠٥ ، بشمة عشر الف مولخف في دولة تضم زهاء ١٥ مليسسون نسمة ، وبلغت مساحتها نحواً من ٥٠٠٠ كلم؟ علي بمدل ١ لكل ٥٥٠ لسمة وبنسبة او بمعدل موظف واسد الكل وَ عَ كُلِّهُ (قَلَى سَنْدُ ١٩٣٤ رقي عِبْسُم اكثر تعقيداً وتداخلًا في تركيبه وتنظيمه > كانت النسبة بمدل موظف واحد لكل ٧٠ شغماً ، و ٥٠ موظفاً لحكل ١٠ كم٢) اما نفوذ الادارة المركزية وتأثيرها ٬ فسكان ٬ بالطبيع ٬ اقل بروزاً واستثراراً وفعالية" منه اليوم . فالامراء ٬ والهيئات المنتظمة والمؤسسات كانت تغوم كلها ، تحت اشراف الملك ورهايته ، بمهام كثيرة هي اليوم من اختصاص الدولة وصلاحياتها الاساسية . أتاح مبدأ السلطة المطلقة بالفعل ، لهذه الهيئات والمنظهات التي تشكلت من فرقاء متباينين السلا وفصلا وأوضاعا ، ان تعمل مما في هذه العنظشة من التاريخ ، يتوقف عليها مسألة موتها او سياتها . فقد اتاح هذا المبدأ ، عملا بداعي الترابط والاعراف ، ان يحقى، بعد ان عرف كيف يتفادى التطرف والمفالاة التي تجنح اليها نظام ثيو ذوسيوس ويوستنيانوس ، هذا التوازن الذي يتفادى التطرف والمفالاة التي تجنح اليها نظام ثيو ذوسيوس ويوستنيانوس ، هذا التوازن الذي نراه ، بالرغم مها أساق به من عوامل قومية و و ثرات مختلفة ساعدت على التشتيت والانقسام ، وان يحافظ في وسط هذا المصطرع ، على بقاء هذه الملكيات ، ويؤمن عوامل رقيها وتطورها الصاعد نحو دولة نموذجية ، اكثر مركزية وأكثر وحدة ، لا بد منها لتأمين الازدهار والنجاح .

٢ ــ الملكية الفرنسية اكثر هذه النماذج تطورا

حققت فرنسا اكثر من أي ملكية اخرى في اوروبا ، شروط الملكية المطلقة ، ولذا كان شارل الثامن عشر (١٤٩٨ – ١٥٩٨) وفرنسوا الاول الثامن عشر (١٥١٩ – ١٥٤٨) وهنري الثاني (١٥٤٧ – ١٥٥٩) من هؤلاء الماوك الذين قبضوا بيسد من حديد ، على السلطة في البلاد ، فالسلطة المطلقة التي تتم بها ملك فرنسا ، اعتشرف له بها قانونا، فهي هبة من حق إلهي ، ولذا كان الملك مسؤولاً امام الله وحده ، ويتمتع بالتالي، وحده بكل السلطات العليا والعسلاحيات ، كحق اعلان الحرب ، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام الى البلاد، ويفرح ارادته على رعاياه ، فهو وحده يملك سلطة التشريع واصدار القوانين لانه عدره لا ويفرح أراجمة أو نظر من أي يقضي ، لانه وحده القاضي الاعلى ، والحكم الذي يصدره لا يقبل أية مراجمة أو نظر من أي مرجع آخر ، عليه ، مع ذلك ، أن يحسلام المواثيق ويراعي الاعراف والمادات المرعية الاجراء ، وقوانين البلاد الاساسية التي ينصاو لهاعلى أن يتوارث الملك الحد أفراد اسرة هوغ كابت ، ماجد عن ماجد عثل بالابن البكر في الاسرة ، دون أن يكون الحد أفراد اسرة هوغ كابت ، ماجد عن ماجد عثل بالابن البكر في الاسرة ، دون أن يكون للملك أي حتى بأن يوصي بخلاف ذلك أو أن يقرر ما يتمارض مع المرف والتقليد المتبع ، كما الملك أي حتى بان يحترم الذي المناب المناب عليه ان يحترم الفسم الذي اذاه يوم تكريسه ، هذا القسم الذي يلغي عليسه مسؤولية الدفاع عن الكنيسة ضد المرطقة .

وسائل المسل المنتوفرة الملك الله الله عام ١٤٨٤ اجتماع البرلمان (عثلي العقوف برجه الملك او خاصة هناك في وسمها الوقوف برجه الملك او الحد من سلطته . فهو السيد المطلق في البلاد ، المتصرف بالضرائب على هواه ، حتى في هذه الولايات التي تحدد فيها الجالس العامة (البرلمان) هذه الفرائب كسولاية بورغونيا ، ونورمنديا وبروفانس . فتحديدها لها ليس مجتى تتمتع به ، بل مجرد هبة او انعام او تسامع من ساسب الجلالة ، يمكن له الفاؤه عندما يريد . وهذا الانسام ، لا تتعدى سدوده ، سرية المناقشة القيمة الضريبة ومبلغها النهائي .

فالملك هو رأس القضاء الاعلى. فالجالس التمثيلية ، البرلمان ، التي كان فيها عثاد الطبقات الثلاث. يحفُّون بمثل الملك عملًا بالاعراف المتبعة ، حل محلها المجلس القضائي الذي يترأسه قاض اعلى أو ناظر العدلية او من ينوب عنهما ، مع عدد من المستشارين الملكيين . وقد جرى إلغاء هذه البرلمانات او الجالس العامة ، بعد فرنسوا الاول . وللملك جيش دائم ، معترّف ، لجب ، يرتفع عدده الى ٨٠٠٠٠ كما حصل سنة ١٥١٣ ، تد فع مرتبات افراده وضباطه من خزينة الملك . كما تدفيع لهؤلاء الضباط والقادة المشرفين على امن البلاد . وتوزع وحدات الجيش على ٣٠٠ مركز أو قلعةً حصنة : بين مدينة او حصن . وللملك موظفوه ، يزداد عددهم ويرتفع ، سنة بعد سنة ، وفقاً لحاجة الادارة . فكل خدمة عامة هي وظيفة ، وكل وظيفة هي هِبة من لدُن الملك . فكل المأمورين العاملين في الحندمة العامة يعملون بوصفهم معثلين للملك. اما عددهم فيتراوح بين ١٠–١٢ الف موظف يؤلفون اكبر هنئة ادارية تمسَّت لملك في اوروبا ، يسهرون على تنفيذ رغبات الملسك وارادته السنية . ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين ضم بين اعضائه بعض الخساصة الجربين ، يبذلون له النصح المعلل ويساعدونه بآرائهم ، على اتخاذ القرارات السياسية ، كما يوجد مجلس أوسع يضم فيمن يضمهم ، مستشار التاج ، وصاحب الالتماسات للسنظر في ما خص امور القضاء والادارة . وهنالك مجلس اعلى للمدل ينظر ، باسم الملك ، في مراجمة القضايا ، والقضايا و المحفوظة ، الملك. ويقوم في باريس ، وفي هذه الولايات التي جرى دبجها حديثاًمع املاك التاج يقوم برلمان او عجلس ممثلين يتألف من قضاة يعملون في اعداد القوانين ووضمهـــا وتهيئة القرارات التي يجب اتخاذها ؟ كا انه يقضي في الناس ويتولى النظر في الامور الادارية . وعلى رأسالولايات حكام عامون يتمتمون بصلاحيات وسلطات واسعة . وكان الملك يتحسّب كثيرًا لتصرف هؤلاء الحكام الذين كثيراً ما وقفوا الى جانب مجلس التمثيل ، وهذا ما حمله في سنة ١٥٤٥ على اصدار رسوم بالمناء وظيفة حاكم الولاية ، الا في هذه الولايات الواقعة على الحدود . ويلى الجلس التمثيلي او البرلمان شأناً، القاضى او ناظر المدل Senéchal او من اليهم في المجلس ، لهم صلاحيات القضاة والنظر في امور الناس. اما امور المملكة المالية ، فكانت من اختصاص مجلس مستشارى الملك ويتولى امر مراقبتها مجلس الحاسبة الذي ادخل عليه الملك فرنسوا الاول، عام ١٥٢٣ تعديلات جديدة حسنت كثيراً من فعاليته ، وذلك بإنشائه صندوق التوفير ، وهو صندوق يمثل الادارة · المركزية ويشرف على واردات الدولة ومصروفاتها . ويشرف المفتشون الماليون على صناديق بيت المال في الولايات . وفي سنة ١٥٤٣ ، انشىء في البلاد ١٦ مركزاً عاماً للمحاسبة المالية في طول البلاد وعرضها . وهكذا كان يتسم نطياق العمل وتتشعب الادارة الملكية في كل مرفق من مرافق البلاد الرئسية.

استطاعت الملكية ، يفضل ما تم ها من وسائل الممسل المسكم المطلق والمحنيسة والتصوف ، ان تسيطر بالفعل على الكنيسة . فسالاساقفة ورؤساء الاديار مازمون بالولاء للبلك والطاعة له وبالدفاع عنه . فالمسلك هو الرئيس الزمني

الكنيسة ، وهو الذي يقرر ما تصدره الكنيسة من قوانين وتنخذ من اجراءات . وللملك وحده بطق بدعوة الجامع المسكونية للانعقاد، وعليه تقع مهمة المحافظة على الوقف واملاك الكنيسة . وهذه المعاهدة الكنسية التي عقدها ملك فرنسا عام ١٥١٦ ، تعترف له بحسق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سيامتهم ، من قبل البابا ، وفقا للمراسم المتبعة ، فجاء هذا الحق فريعة بين يديه ، لاجتذاب ولاء الاسر النبيلة ، طمعاً منها بالاحتفاظ الصغارمن ابنائها ، بالمناصب الكنسية المغابية الموارد . وباستطاعة الملسك ان يرغم الكنيسة ورجال الدين على المساهمة ، كلا ضمن طاقته ، بالضرائب التي يفرضها . وبموجب الحق الملكي الذي كان يدعيه لنفسه ، كان الملك يتقاضى ربع الاستفيات والاديار الشاغرة ، لعدم وجود رئيس شرعي لها . وكان بحلس الملك يشرف عسلى ادارة الكنيسة كما ان مجالس المثلين الملكيين كانوا يخضعون رجسال الاكليروس لاختصاص الحاكم الملكية ، كاكان من حقهم ان يجر دوا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكون ، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الامن ويتعهد النظام في الكنيسة

الملك هو السيد السُّنَّد لجميع اصحاب الاقطماعات. ففي الحسكم المطلق ونظام الاقطاع الملكة لس سوى اثناع للملك . فكل الامهارات هي إقطاعات ترتبط بالملك ، كما أن كل سيّد أو آمر ، مرجعه الأول والاخير هو الملك . فسلا يستطيع الامير أن يقم مجالس العدل أو أن يشيد له قصراً في الامارة أو الولاية أو أن يبدُّل أو يفير من اسمه بدون أن يمر هن نفسه للملاحقات القانونية أو للمسادرة. فالاقطاعيون ليسوا سوى رعايا الملك الذي يفرض ارادته على الامارة . كذلك يفرض الرسوم ويعين الضرائب المترتبة على اتباع الامير او السيد ؛ ويخولهم حق استيفاء رسوم خاصة بهم . لكل رعايا الدولة الحق بان بميزوا الاحكام الصادرة عليهم من محاكم الامارة الى قضاء الملك . وهناك عدد كبير من القضايسا مُحِمَّظُ النظر فيها ، لهاكم الملك وحدها . ولدى اي شبهة ، يحسبق للقاضي الملكي ان يطلب الاطلاع على سير أي دعوى أو قضية تجرى أمام محاكم الأمارة ؛ لاشتباهه في أمر ما ؛ أو سوء ظن ، او لارتماب بعدم اختصاص الحكمة للنظر في القضية . وقد عرف الملــك أن يضم حداً للحروب الاقطاعية ، وآخر حرب من هذا النوع هي الحرب التي خاضها امراء آل فوا Foix -(١٤٨٤ - ١٥١٢) . ويرفع الإمراء اختلافاتهم ومشاجراتهم للتحكيم امسام قضاة الملك . وهكذا انتهت ، دونما رجمة ، السيادة الاقطاعية . وفي سنة ١٥٢٥ ، ضم فرنسوا الاول ، الى املاكه، دوقية بوريون واملاكها السيادية بمد ان تم ّ التشهير بصاحبها و'نودي به خائناً ،متمرداً على الملك . وفي سنة ١٥٣٢ ؟ ثم عقد اتفاق ، "ضمت بوجبه مقاطعة بريتانيا الى التاج ، هي الاخرى . وهكذا لم يبق في الجنوب يتمتع بشيء من السيادة الا امارة آل ألبريه .

فالملك هو السيد في الولايات والامارات المؤتلفة، وهي هذه الحكم العطلق والجمتيمات الحميمات القديمة التي تشألف من البلديات والمدن القنصلية ،

له الحق ان يعيد النظر في هذه الاتفاقات التي ربطت الولاية بالتاج ، وذلك بما فيه خير المصلحة المامة كما له الحق ان يحتول مجلس القضاء فيها الى برلمان ، ورئيس الادارة فيها الى حاكم عام ، وان يعهد بالوظائف الكبرى الى موظفين من خارج الولاية ، وان يعهد برئاسة المجلس والهيشات القائمة فيها الى موظفين يعينهم مباشرة . كذلك يضع تحت مراقبته عمليات الانتخابات البلدية ، ويراقب اعمال المجلس والهيئات المنتخبة ، ويرزع ما لها من صلاحيات قضائية ومالية حسبا براه مناسباً . كذلك يضع انظمة ومراتب مسلسلة النقابات ويشتكل الصناع ولمثلي الطبقات السفلى في المدن ، هيئات مسلسلة السلطة ، تحت ادارة موظفين ملكيين يأخذون على عهدتهم تنظيم المين الحرة .

عاول الملك ، من جهة ، ان يوجه حياة البلاد الاقتصادي المكم المطلق والحياة الاقتصادية المرابعة المسلسلة المسلسلة

تعود بالخسير العمم على الجيع ، وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد وتوفير المدن المثين و عصب الشعب وقوته ، كا يحاد المستشار دوبرات (١٥١٧)ان يعلنه، وذلك عن طريق قوانين الحسد من الإسراف في الانفاق ، كا تقيد حركة اخراج العملة الى الخارج ، بدلاً من فرض رسوم على الاستيراد لا تتوفر العلك الرسائل القمينة بجبايتها على الوجه الاكمل .

وهكذا تنعم كل طبقات الشعب بعوارف الملك يوزعها بسخاء على رعاياه كل بحسب استحقاقه ، ولا سيا تلك التي تطنفي على حامليها الاحترام ، تؤمن لهم النفع : كالتعويضات والأعطيات، والإنعامات والاعفاءات او الاوسمة الفخرية وألقاب الشرف والنبل، او غير ذلك. والبلاط ، هذه الهيئة الجديدة او الجهاز الجديد الذي خلقه الحكم المطلق على صورت ومثله ، اصبح الآن مسلكا او منهجاً مسلسلا يحمل الكثير من عوامل الاغراء والجذب .

وهكذا فطبقات الشعب الثلاث ، تعمل جيعها على توطيد نظام الحكم المستبد ، بالرغم مها
عيز الراحدة عن الاخرى من الامتيازات ، وما تنعم به من إعفاءات واستثناءات وغير ذلك من
الروابط التي تشدها الى الملك باوثق اواصر الولاء ، اذ في منافساتها الواحسدة للاخرى ما
يكبع من جاحها .

وهذه السلطة الواسعة التي يتمتع بها الملك لها بالفصل ، ما يحدد الملكية السلطة في فرنسا يحتد منها ويقيدها . فأذا كانت مشيئة الملك ورغبته هي المتي تفوز في نهاية الامر وتنتصر ، فقلة عدد الموظفين نسبيا ، وبطء المواصلات لا يسمحان لها بالتدخل دوماً وفي كل مكان ، بالشكل المرتجى . فالسلطات المحلية لا تزال تتمتع بمد ، بشيء من المبادرة ، في حياة الولاية ونشاطها . ومن جهة اخرى ، فهذا الاضطراب او القسلتى الفكري الذي رائع على الوضع القائم ، أذ ذاك ، جمل المؤسسات العامة تبدو و كأنها بالفعل ، اوضاع وحالات متباينة كثيراً بفضها عن بعض، تلفها حركة متصلة من التبدل والتحول والتفسير .

فالوظائف ليست بالحقيقة سوى ارضاع او جالات يعمل فيها فرد او عدة افراد لا تخصص لهم ولا مهارات عندم ، يتمتعون بحقوق وصلاحيات ويقومون بنشاطات تختلف نوعيا وتتوزع بعداً بين العديد من السيادات والبلديات والمصالح والمؤسسات الكنسية ، من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، تحديد نطاق اختصاصاتها .

بيسع الوظائف العامة والاتجار بها

المرف ، منذ عهد بعيد ، أن يقدم طلاب الوظائف ، مكافآت مالية لن من موظفي المية ومستشاري الملك وغيرهم من ذوي الربط والحل ، يساعدهم على الحصول على وظيفة ، وقسيد راح الماوك انفسيم يستشعرون هـــذا المرف ، فيبيعون ، لقاء دن لا يستوفى ابدا ، بعض الوظائف التابعة للادارة المالية ، او للقضياء . وقد استطاع الملك فرنسوا الاول ، منذ عام و١٥٢٠ ان يؤمن له ربعاً إو دخلا خاصاً من بيسم وظائف ظارئة غير ملحوظة . و فكان بعمله هذا كمن يفتح دكاناً لتصريف مثل هذه البضائم، . كذلك اخذ بعض الماوك يسمح لبعض الموظفين أن يبيموا ، لقاء مبلغ معين ، الوظائف التي لهم ، لشخص آخر أو يحتفظون بها ، ضمن شروط ورسوم معينة ، لاولادهم وبنيهم . وقد اتسعت هذه الاعراف وانتظم العمل بها على مر السنين. بحيث أصبحت تقليداً مكرساً وامراً معارفاً به . فقد كان من بعض نتائج هذه العادة ان رحبت من نطاق ملاك الوظائف المامة ، وان تخلق ، ضبن الادارة ، هيئة خاصــة من الموظفين ؛ بهُمَّت مسؤولياتهم وغامت صلاحياتهم ؛ فاستاتوا مع ذلك في الدفاع عنها والتسييج حولها ، لما كانت تمثله لاصحابها ولذريهم ، من مورد رزق لا ينضب ممينه . وقد اصبح هؤلاء الموظفون اصحاب حق في الوظائف التي يضطلمون بهامها ؟ لا يستطيع الملك انتزاعها منهم الا في حالات خاصة ؟ او اذا دفع لاصحابها تعويضاً لائقاً عنها او بعد مراجعات قضائية طويـــلة . وهكذا اصبح الموظفون وطبقة رابعة ، في الدولة ، تتراخى عراها اكثر فاكــ ثر ، مع الملك . ولهذا رأى العاهل نفسه مضطراً ؟ لا سيا بعد عام ١٥٥٠ ؟ للجوء الى تعيين مفوضين او ممثلين له ، يعزلهم عندما يريد ، يعهد اليهم السهر على تتفيذ قراراته ووضعها موضع العمل بها .

المروب الدينية وقد مصير فرنسا بيد ملوك قاصرين هم : فرنسوا الثاني وشارل التاسع اللذين ملكا تحت وصاية امها كاوين ده مديتشي . وراح بعض زعماء الارستوقراطية مسن آل ده غيز وآل ده بوربون "يتنافسون على الاستئثار بالنفوذ و يعتمد الفريق الاول على الكاثوليك كا يعتمد الفريق الثاني على البروتستانت . انطنلقت شرارة الحرب الدينية من مذبحة البروتستانت على يسد الكاثوليك " يوم عيد القديس برثاماوس (٢٤ آب ١٥٧٢) فحملت في ثناياها خطراً كبيراً على الملكيسة في فرنسا . وراح جميع المغالين والمتطرفين " من اي لون

كانوا ، يهاجون الملك . وفي عهد الملك هنري الثالث حاولت العصبة الكاثوليكية ان تعيد ، عام ١٥٧٦ ، الى اصحاب الامارات والاقطاعات الكبيرة ، السلطة التي كانو يتمتمون بها مسن قبل ، كا حاولوا الرجوع الى التقسيات الادارية المعمول بها قبيلا . وقد سرى بين اعضاء هذه العصبة ، عام ١٩٥٥ ، نزعات ديوقراطية ، اذ بدا لبعض المفكرين من البروتستانت ان يحدوا من سلطة الملك بواسطة بجالس وهيئات انتخابية اعضاؤها من معثلي الشعب أخذاً بالتقاليب والاعراف المرعية . (هوقان في كتابه: و فرنسا الغالية ») وعملا منهم بمنطوق المقد الاجتماعي والاجراف المرعية . (هوقان في كتابه: و فرنسا الغالية ») وعملا منهم بمنطوق المقد الاجتماعي للاجتماع . وقد كان لاستحكام الفوضى في البلاد ، والسياسة الاسبانية النزعة التي انتهجها اعضاء العصبة الكاثوليكية ، المضادة تماماً لمصالح القومية الفرنسية العليا ، ان جاءت بنتائج تخسدم مصلحة هنري الرابع الذي اعتلى العرش ، الر مقتل هنري الثالث على يد راهب متعصب يدعى وافيناك (١٥٨٨) وبعد ان جعد البروتستانية والاجنبية التي زرعت البلاد خراباً ودماراً ، وذلك بإصداره و فرمان نانت ، (١٥٩٥) وعقده معاهدة فيرفين (١٥٩٨) .

وهذه الحروب الطوية الدامية الدامية العرب الناجرية المحالة في البلاد وعلى عكس ما تم في انكلارا ، فقد أحد من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية كا أحد من تطور المحركة البورجوازية فيها . فقد هاجر من البلاد ، عدد كبير من اصحاب الصنائع والحرف والفنوث الى انكلارا ، حساملين ممهم اسرار صناعات كثيرة . كذلك أحد من تطور البلاد الاقتصادي بعد أن حمها الحراب وجف فيها الزرع والضرع واستطاعت الحكومة ، مع فلك ان تمضي قداما في توجيه الحياة الصناعية في البلاد ، عن طريق الموظفين الذين استمروا في تطبيق القوانين ، في المناطق التي انكش فيها ظل الملك ، عاولين بذلك ، مضاعفة نفوذهم فلم المراسم التي صدرت عام ١٩٥١ ، و ١٩٥٩ ، بصدد النقابات العمالية والانظمة الخاصة التي وضعت في هذه الحقية بالذات وحدث كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التدريب وأعاقت ، الى درجة كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التي فرضها الملك من جهة ، والثوار من جهة ثانية ، في المنساطق والاقاليم التي سجلته الطبقة المي وحوازية المليا جاء ادنى بكثير من امثاله في كل من انكلترا والولايات المتحدة ، بينا لم تقطع طبقة الاشراف ، في هذا الجال ، الشوط الذي قطعته البورجوازية الميورة البورجوازية المورة البورجوازية المورة البورجوازية المورة البورجوازية .

اللكيات الادروبية على هنالك في اوروبا ، دول عديدة ، جاء الحكم فيهـــا والظروف الكيات العربية المونسية المحيقــة به ، شبيها من جميع الوجوه ، ان لم نقل بمـــاثلا

لما توافر من ظروف الحكم واوضاعه في فرنسا . من هـنه الدول ، مثلا ، اسبانيا التي 'نظر اليها كدولة اخذت ، اذ ذاك ، بالنقهةر الاقتصادي . كان الحكم فيها استبداديا في عهـد ماوكها : شارل الخامس (١٥١٦ – ١٥٥٥) وعهد ابنه فيليب الثاني (١٥٥٥ – ١٥٩٨) ، وبمض الدول الايطالية ، كنابولي التي وقعت ضمن الممتلكات الاسبانيـة ، ودولة سافوى ، بيامونت ، وبعض الدويلات الالمانية القائمـة في قلب الامبراطورية المقدسة ، التي استحالت ملكيات مستبدة ، مطلقة ، ومستقلة بالفعل ، بفضـل ما تم لها من تنظيم عسكري وجيوش جديدة ، وبفضل تأثير الحق الروماني الذي أخذ به و عمل بمنطوقه من جديد ، وذلك بالرغم من الجهود والمحاولات التي بذلها شارل الخامس لتوحيد الامبراطورية وجملها اكثر مركزية .

٣ ـ الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

هنالك ، مع ذلك ، دول يختلف نظام الحكم فيها ويتباين تبايناً كبيراً . فقد برز في البلدان التي اشتد فيها ساعد الرأسمالية والبورجوازية اكثر مها اشتد في فرنسا ، ملكية ممتدلة او جمهورية بورجوازية الحات على نسبة تطور البورجوازية فيها . اما في البلدان الاخرى التي لم يتم المبورجوازية فيها مثل هذا الشاو في تطورها ، فقد قامت نظئم ملكية على اساس إقطاعي ذات طابع ارستوقر اطي . فاختصاراً الموقت ، نضرب في ما يلي بعض الامثلة على ذلك .

انكلترا نظام بعث في البلاد تطوراً اجتماعيك سريعاً ، اذ ما كادت تأذن شمس القرن للمغيب ، حتى كان هذا النظام قد فات ومضى قبل ان يسجل قيامه رسمياً .

ففي الحقبة الاولى من عهد هنري الثامن (١٤٨٥ – ١٥٠٩) مبادى الدستور الانكليزي نجد بالفمل عدداً من المبادى و فرضها النبلاء على الملكية والزموها الاخذ بها والعمل بموجبها ، خلال فترة طويلة سابقة من التطور يحلو الفقهاء تتبمها بدقة . وقد خلقت هذه المبادىء صورة ذهنية ، جماعية تبلورت واستقرت نهائياً وتم الاحذ بها في الظروف القائمة أذ ذاك . فقد علم الفقهاء بأن القانون الاساسي أو الدستور هو أول ما يرثه الملك ، لانه المقائمة أذ ذاك . فقد علم الفقائدن ، وباحمه ، ولولا وجود هذا القانون لما صار اليسمه الملك صاغراً . فالقانون هو أذاً ، فوق الملك . وهنالك قوانين أخرى تعيش في أذهان الناس وخواطرهم وان لم تكتب أو يجر تطبيقها باستمرار . فليس باستطاعة الملك أن يفرض على البلاد ، وأن المباد ، من رعاياه ضرائب جديدة ، كما انه ليس باستطاعته أن يسن قانوناً جديداً أو أن

يضع تشريماً جديداً دون موافقة البرلمان وهـــو مجلس يتألف من ممثلين عن الاكليروس والنبلاء فيؤلفون معا مجلس اللوردات، ومن ممثلين لاصحاب الاراضــي الاحرار، وللبورجوازيدين الذن يؤلفون مجلس العموم . لايكن سجن اي كان بعدون مذكرة

توقيف تبين نوع المخالفة التي استوجبت توقيفه ، وبدون ان تجري محاكمته بالسرعة المطاوبة . فجريرة المظنون عليه او براءته يغررها حكم صادر عن هيئة محكمين تضم ١٢ عضواً . يمكن ملاحقة وزراء ملاحقة الموظفين قضائياً امام المحاكم لمخالفات أتوها اثناء الوظيفة ، كذلك يمكن ملاحقة وزراء الملك من قبل مجلس العموم .

لدى الملك عدد ضئيل نسبياً من الموظفين ، فالجانب الاكبر من القضياء والادارة ، كان يؤمنيه ، باسم الملك ، عدد من الاعيان يعهد اليهم بهذه المهات . اما انكاترا فقد قسمت ادارياً ، الى مقاطمات (كونتات) يمثل الملك فيها لورد نائب يمين من بسين نبلاء المقاطعة ويتولى قيادة المليشيا ، يساعده مأمور أمن (شريف) وقضاة صلح ، يجري انتقاؤهم من بسين طبقة الاشراف الوسطى (Signires) او من بين النبلاء اصحاب المقارات ، او من بين ملاكين اغنياء (Jimiry) يتولون امور القضاء واصدار احكام المدل . فليس للملك عليهم السلطة التي له على الموظفين المحترفين ، الغرباء عن مقاطعاتهم الاصلية . اما في هذا القسم الجبلي الواقع الى الشال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا الى الشال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا من النائد . وهذا التقسيم لم يعمل به في بلاد الغال حتى عام ١٩٣٦ . كل هذا التنظيم كان من شأنه ان يؤمن للطبقة الارستوقراطية ولبعض المدن الانكليزية التقدم المطرد وحتى الصدارة .

الحكم المطلق التائم بالفمل مطلق ، مستبد ، وعلى خطاه سار خلفه هنري الثامن (١٥٠٩ ـ

بلغ الحم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٤٧ – ١٥٥٣) وماري تيودور . وفي آخر المطاف بلغ الحم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٥٩ – ١٦٠٣)) . عندما اعتملي هنري السابع العرش ، وجد المملكة فريسة حرب أهلية ضروس ، تاقت من مسلء جوارحها ، الى الهدوء والسلام وقيام سلطة تثبت وجودها في البلاد . فقد ذهبت حرب الوردتين بزهرة النبلاء وخيرة الاشراف في البلاد . فالواصلوت حديثاً منهم لهذه المرتبة ، دانوا للملك وحده ، بهذا الفضل والشرف يوليه ايام ، اما البرلمان ، فقد كان طوع بنسان الملك . والشعور القوي الذي بمثته في النفوس حرب المائة سئة ، والحد الذي جاشت به صدور الانكليز ضد فرنسا، والحوف الذي سمرته في قلوبهم ، كل ذلك جاء ظهيراً للملك معززاً للسلطة الملكية المستبدة ، كذلك عرف المرش البريطاني ان يفيد كثيراً ، من الافكار التقدمية الجديدة والمرثبات الذهنية التي طلمت بها النهضة الاوروبية الثقافية ، والفنية والتي تغلغلت في جميع انحساء اوروبا باحراً وانتشرت فيها ايما أنتشار . ولم يلبث الانكليز ان غرقوا الى ما فوق انوفهم في القضايا الدينية وما اثارته في البلاد من جدل ومناقشات ومشاحنات ، قز ميد والموم السياسية و تركوا امر الحكم للملك يتدبر شؤونه كا يريده . وقد حملتهم الروح القومية التي استعرت في نفوسهم امر الحكم للملك يتدبر شؤونه كا يريده . وقد حملتهم الروح القومية التي استعرت في نفوسهم اد ذاك ، على الوقوف مثل هسذا الموقف الصلب اذ ذاك ، على الوقوف مثل هسذا الموقف الصلب

الحشن من البابا ، كلاً من الملك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليصابات ، فزادم شمبية في البلاد كا حمل الشعب على التعلق بهم . ثم جاء الازدهار الاقتصادي الذي لعبت الملكية في تحقيقه ، دوراً حاسماً ، فساعد من جانبه على تقوية الطبقة البورجوازية التي شعرت مجاجة ماسة لسلطة الملك ورعايته .

الازدمار الرأسهالي في الجمتم.البريطاني يشدد حقوي الحكم المطلق

تألف قوام الشعب البريطاني ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، في الدرجة الاولى ، من مزارعين ورعاة . وقد كان الانكليز قد أخذوا بتحويل الصوف الذي تنتجه بـــلادم

الى منسوجات واقمشة خليفة ، ارخص سفراً بكثير من الاجواخ التي كانت تنتجها مقاطعــة الفلاندر ٤ فراحوا ينافسونها في أسواق القارة حتى وفي بلدان الشرق الادني . وقد عرف الملك هنري السابع ان يحمي الصناعة في البلاد بفرضه رسوماً على الصوف الحام المصدّر المخارج بمسا زاد في اسعار هذا الصوف وبالتالي ، في أسمار الاجواخ التي يحمكها سكان الفلاندر من الصوف الانكليزي . ونفخ هنري الثامن بدوره الحاس وأدخل النشاط عــــلي الاقتصاد الانكليزي، عندما راح يطرح في التداول ، بين ١٥٣٦ - ١٥٣٩ ، متلكات الاديار والاوقاف . وحدث في البلاد ؛ بفضل هذا الدفع الجديد للرأس المال ؛ ثورة اقتصادية حقيقية تمطنَّت في جميع جنبات انكلترا اذ انه ما كاد يطل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى اصبحت انكلترا مركز كبيراً للتجارة البحرية والصناعة الضخمة المتمركزة كان لا بد من حمايتهــــا . وراحت طبقة بورجوازية ثرية تقبل على شراء الاراضي كما أخذت طبقة النبلاء القديمة تتهافت على الوظائف الحلية ، فظهرت بين الفينة والاخرى بوادر صراع طبقي في البلاد ، الا أنه صراع أقل عنفاً بما نرى من امثاله في المالك التي قامت الى الجنوب الشرقي من انكلترا حيث كان صغار النبلاء يعماون في الزراعة المرتكزة على رأس المال ، أو في الاعمال التجارية الكبرى ، وهــو صراع عرف شيئًا من الشدة والحدة في بعض المناطق الانكليزية مجيث ان بعض كبار عمل الاقطاعية امثال كونت نور ثمبرلاند وكونت وستمورلاند قاموا ؛ عام ١٥٦٩ ؛ بثورة مسلحة ضد الملكة اليصابات ، رمت من جهة ، للحد من حركة الوصوليين الجدد ، ومن جهة اخرى ، للدفاع عن الكثلكة في شخص ممثلتها ماري ستيوارت . انتصرت الملكة في نهاية الامر وجاء فوزها هذا ٢ انتصاراً الطبقة الاجتاعية الرأسمالية الجديدة .

على عكس ذلك تماماً ؟ اضطرت الملكية ان تكبيم من جماح البروليتاريا الجديدة التي ثارت عام ١٥٤٩ ، وهي طبقة تألفت من مزارعين يستثمرون الاراضي التي استأجروها أو اكتروها من مالكيها ؟ قراح هؤلاء ينتزعونها منهم بالقوة والمنف ويحولونها الى مراع خضراء ترقادها قطمان الننم طمعاً باصوافها . وهكذا نرى كيف أن احتياجات رجال المال وصراع الطبقات بعضها مع بعض ساعد كثيراً على تقوية جانب الملكية وبالتالي عسل ترسيخ الحكم المطلق في الملاد .

تمكن هنري الثامن وخلفاؤه من تأمين موارد لهم يفرض قروض الزامية على السكان وحملهم على التبرع لخزينة الدولة ، او بفرض رسموم جمركية جديدة وذلك باصدارهم قرارات جديدة اصبحت مازمة بمجرد اعلانها ، وهي طريقة حازت قبول البرلمان فاقرها واعترف بقانونيتها الدستورية ، بين ١٥٣٩ — ١٥٤٩ ، وفرضت بمراسيم اتحسنت في بجلس الملك . وارغم الفرع القضائي التابع لهذا المجلس ، والمعروق بالجلس المرصع بالنجوم ، الذي اعيد تنظيمه عام ١٤١٧ ثم المستشار وولسي بعده ، عام ١٥١٧ ، كل من تجرأ على الانتقاض من الامتسازات الملكية ، كمديري الأمن وقضاة الصلح واي المجليزي آخر على الخضوع للملك وعسلى الامتثال لارادته السنية . وقد ساعد بجلس الملك الخاص ، بعد ان تم تركيزه نهائياً عام ١٥٤٠ ، عسلى تركيز الوحدة الوطنية ، باشرافه على المجالس والهيئات الخاصة الاخرى وتوجيهها . والبرلمانات التي قلما دعيت للاجتاع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك 'يعَيِّن، هو نفسه ، اسماء المرشحين دعيت للاجتاع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك 'يعَيِّن، هو نفسه ، اسماء المرشحين كانوا اعضاء فيه ، الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قبل الملك .

بلغ الحكم الاستبدادي ذروته في انكلترا ، في عهد الملكة اليصابات التي احسنت الى اقصى حد، هذه الاساليب بالذات التي أتينا على وصفها . فقــــد راحت محكمة العدل العلما (١٥٨٣) تحكم وتصدر احكامها دون اللجوء إلى محكمين ، على كل من يحاول الانتقاص من سلطة الملكة السامية ار من حتى ولايتها (قانون ١٥٥٩) . ونظار الدولـــة اصبحوا بالنمــــل وزراء . منهم مثلًا وليم تسل الذي عين عام ١٥٧١ ، لورد بورلاي ، وقام اذ ذاك بدور فعتسال . وراحت الحكومة الملكية تنهج سياسة تجارية فتتدخل باستمرار بحيساة البلاد الاقتصادية ، تشجيعاً منها للنشاطات الفردية . ولما كانت الدولة تميش تحت كابوس الفزو الاسباني المــداهم ، فقد اخذت الحكومة تنمي ، إلى اقصى حد ، مواردها العامة ووسائل دفاعهسا ، كالبحرية والصناعات الحربية التي يقتضيها النهوض بآلة الحرب . فالجوائز التشجيعية التي خصصت لبنساة السفن الجديدة ، والقوانين التي ألزمت الناس التعويل ، في معيشتهم ، على استهلاك السمك ، وقانون الملاحة المدي صدر عام ١٥٥٩ ، والرسوم الجمركية الجديدة التي اصابت البضائع المستوردة على سفن اجنبية ، وانشاء شركات تجارية ذات طابع احتكاري ، والمنافسة الشديدة ضد اتحاء الهانزا ، كل هذه التدابير والاجراءات ، كان من شأنها ان تؤمن البلاد حاجتها من السفن والبحارة والتجارة . فقد أدى المرسوم الذي صدر عام ١٥٦٣ بصـدد العمل والعمال ، الى تأمين الاستقرار في اليد الماملة ، وساعد كثيراً على توسيع التدريب المبني والمسلكي البحارة ووضع الحدود التي تميز بيع معلى الحرف والرأسماليين . إن إنشاء الاحتكارات والشركات التجارية الجديدة ؟ والعمل على توطين جالياتِ اجنبية دخلت البلاد هرباً من الضغط الديني الذي تعرضت في القارة ، بعد ان اغدقت عليها الاعفاءات والانعامات المشجمة ، كل ذلك ساعد كثيراً عـلى انشاء صناعات جديده ، بينها ، في الدرجة الاولى ، تلك التي تؤمن للبلاد حاجاتها الملحة مسن

المدافع والبارود ، والحديد والقصدير ، والرصاص والكبريت ، وملح البارود ، ثم في الدرجة الثانية ، صناعة الحياكة والنسيج كالاقمشة الصوفية الخفيفة ، والقطن المستورد الى منشستر ومن انفرس ، وغير ذلك من الخامات . ومنذ عام ١٥٧١ ، جرى تطبيق النظام الذي رُضع عام ١٥٤٥ ، هذا النظام الذي اجاز الدين بفائدة . والاصلاح النقدي الذي تم في البلاد واعطى انكلترا اقوى نقد في اوروبا على الاطلاق ، واثبته ، واخيراً وليس آخراً ، الساح بتصدير القمح بشروط وابقاء اسماره في الداخل معتدلة ، كل هذا ادى الى از دهار الزراعة في البلاد .

وهذا النمو الاقتصادي الذي جاء نتيجة الحكم المطلق أفضى الى قيام ممارضة الحكم المطلق معارضة للحد من طفيان هذا الحكم. فمنذ حوالى عام ١٥٧٥ كازداد

عدد كبار التجار زيادة كبيرة كا ازداد عدد الصناعيين واصحاب الصناعة الضخمة المتمركزة . فقد اخذ هذا الفريق من الناس يعون ما تم لهم من قوة وطاقة كا شعروا بالحاجة للزيدهن حرية التصرف في اعمالهم التجارية. ولذا راحوا يقابلون بعداء كل تدبير يراد به الحد من حرية التصرف . ويبدو انهم اخذوايشعرون بشيء من الحفيظة نحو السلطة الاستبدادية التي تصدر عنها هذه القوانين . وفي الوقت ذاته تكاثر عدد فرقة و المطهرون ، Puritains من البروتستانت كا ازداد عداؤهم نحو الكنيسة الانكليكانية التي فرضتها الملكة فرضاً ، فراحوا يطالبون امسا بنظام كنيسة مشيخية تقوم على تنظيم فوري لجماعة المؤمنين اساسه انتخاب القسس والو عاظ ، واما الاستقلال التام والاستغناء بالكلية عن كل ما اسمه كنيسة .

مع ذلك ، لم يسبق قط للمبادى، والاعراف التي قامت عليها الحريات الانكليزية ان سقطت وغابت عن الانظار وتنوسي امرها لمرور الزمن . فكثيراً ما ابدى هنري الثامن نفسه احترامه له . وعندما كان البرلمان يرضخ للامر ويسلم بقبول قضية 'يطلب اليه اقرارها والتصديق عليها، كان يحرص مع الامتثال ، على التنويه بحقوقه المبدئية ، واي محاولة تبديل او تغيير في الشعور العام والرأي السائد في المجتمع كان يكفي لجمل الحكم الاستبدادي بغيضا ، وبالتالي لا يمكن الاطمئنان له . فقد ساعد خطر الغزو الاسباني على كبت عواطف المعارضين. غير ان الموقف تغير والوضع تبدل ، عام ١٦٠٣ ، عندما راح البرلمان يجبر الملكة اليصابات على التمهد بالرجوع عن الاحتكارات التي فرضتها . وهكذا شجر الخلاف وانطلق الصراع بين الحسكم الاستبدادي والحريسات اليورجوازية.

ال البلاد الواطية : النهضة البورجوازية د والحكم المطلق الفعلي

البلاد الواطية مجموعة من الولايات ؛ يحتفظ حكامها ؛ على درجات متفاوتة ؛ بولائهم لأمير واحد ، من بينهم دوق برابانت وكونت ده فلاندر وغيرهما . فقد حاول الامبر اطور

مكسمليان وابنه فيليب الجيل ان يكونًا من هذه المفاطعات والولايات وحدة متهاسكة تخضع . لحكمهما الاستبدادي ، فاصطدما بما قام فيها من نزعات محلية او اقليمية ، وبما جاش في صدور حكامها ومدنها من رغبة شديدة وكوق ظاهر للاستقلال الناجز . وبفضل حماية أولى الامر فيها للتحار من عداء النقابات المهنمة ومعلمي الحرف ٤ انتصر فيها النظام الرأسمالي واستعلى. فتفوقت أنفرس على مدينة بروج وتمكنت من إنشاء شبه وحدة اقتصادية من البــلاد الواطية بعد ان عرفت كنف تحمل من سكان هذه المقاطعات ، في الوقت نفسه متعهدها وزبائن لها . فقامت فيها يورجوازية رأسمالية شغفت بحرية التجارة ونبضت بروح الفردية الاقتصادية . وبالتسالي اعتنقت مبدأ المركزية الملكمة ضد هذه النزعات والمطالب الحلية ، فتغلبت بذاك ، على يورجوازية النقابات في المدن. وقامت في وجه هؤلاء البورجوازيين ذوي التأثير البحيد الذين يحيون حياة الرفاه والبذخ ، طبقة النبلاء التي ، رغبة منها في التميز عنهم ، وحرصاً منها على الاحتفاظ يتساميها الاجتهاعي ء راحت تحتفظ ليفسها بالوظائف العامة وبهذه الشارات المميزة والاوسمسة الشرفية التي بغدقها الامبر . ومن جهة اخرى ، فالازدهار الذي عرفته النهضة الانسانية والننية . في هذه البلاد بعد الازدهار الاقتصادي الذي تجلى فيها وعم جميع المرافق ، شجع كثيراً الروح. الفردية والرغبة في التحكم بهذه الفئات المحلية والنزعات المتضاربة التي تجيش فيها ،وهي مطالب ونزعات لا يمكن تحقيقها الا على يد امير قوى الجانب ، شديد الشكيمة . ان اقتباسهم لمبادى ، الحق الروماني وتقديسهم لها جعل نفوساً كثيرة تتشبع بمبادىء الحكم المطلق. فراح شارل ده غنت ، اذ ذاك؛ الذي عرف فيما بعد باسم شارل الخامس والذي كان حاكماً عاماً على البلاد عام ١٥١٦ ، يحاول التمكين للمناصر والعوامل التي من شأنها أن تساعد على ترسيخ أسباب الحكم المطلق في البلاد . فقد عين في كل ولاية ممثلين مباشرين للهلك ، منهم حاكم عـــام لا صلاحيات عددة له ، ومجلس للقضاء او مجلس عدل ، وفي بعض الاحيان ، مجلس محاسبة ، كما عـين في المدن والملدمات ٬ قضاة كثيراً ما حاولوا إدخال اصلاحات على المجالس الملدية ومــلاً الوظائف البلدية بموظفين اخذهم من بين كبار البورجوازيين ، لهم من تربيتهم ومن مصالحهم الشخصية مـــا يجعلهم متجانسين مع حاكم الولاية . واخذ الامير شارل ، اذ ذاك ، يحاول ربط الولاية بالحكومة المركزية. لتولى الحكم في البلاد ، وصية على المرش، يساعدها في الادارة مجلس لم يلبث أن تشعب وانقسم كها حدث في فرنسا ، إلى ثلاث شعب كل شعبة تخصصت بناحية : مجلس شوري الدولة النظر في الامور الساسة ، اعضاؤه من النبلاء ، الجلس الخاص او مجلس المعنة ، والمجلس المالي، اعضاؤه من رجال الفقه والقانون يؤتى بهم من الطبقة البورجوازية او من بين صغار النبسلاء ٤ يتولون اعمال القضاء والادارة (١٥٣١) ثم الزم الامير شارل الولايات بارسال ممثلين عنهــــا للمجالس العامة . واخيراً شكل عام ١٥٤٧ ، جيشاً دائمًا ، ملاكه من النبلاء ، يتعهد مرتباتهم ويعترفون له بالولاء . ويتدخل موظفوه في كل مظاهر الحياة الاجتماعية افينظمون اعمال المفاربات المالية والبورصة ، والمستودعات الملكية والاسعاف العمام ، ويسجلون الاعراف والعممادات والتقاليد المرعية ، ويجرون المدل وفقاً لاحـــكام القانون الروماني . وهكـــذا جملت هذه التشريعات المشتركة، من هذه الولايات السبع عشرة ، وحدة متهاسكة لم تلبث ان جاشت فيهما . الروح القومية . ولكن هذالك حكما استبداديا قائم بالفعل، ولكن لا وجود قانوني له . فلم يتمكن شارل من فرص رسوم وضرائب مستقرة كا يشاء ويرغب ، يستعمل ريمها بعد جبايتها ، كا يحاد له . غير ان الجالس التمثيلية تحرص دوماً على اثبات حقها باقرارها ، مع العلم ان فرض الضرائب هو مفتاح النظام السياسي . ولم يمض طويل وقت حتى جعلت البورجوازية ، بعد الازدهار الذي عرفته ، للحكم الاستبدادي لا يحتمل . ففترة الحكم المطلق التي وقمت بين عهد الاقطاع وعهد البورجوازية ، جاءت هنا ، قصيرة اللغاية . فنظام الحكم المطلق لم يستطع أن يستن حدوره قانوناً .

الامة فسد الملك فيليب الثاني (١٥٥٥-١٥٩٨) ابن شارل الخامس وخليفته على عرش اسبانيا ، امره على ان يجعل من البلاد الواطية مملكة اساس الادارة فيها ، الحكم المطلق شرعاً ، تتبع له بما تتمتع به من موقع جغرافي معتاز وما لها من موارد طبيعية غنية ان يسيطر منها على اوروبا جمعاء. فباءت محاولت هذه بالفشل . فقد آذت الحكومة الاسبانية هذه البلاد ، والحقت بها الضرر ، عندما راحت تحاول تنظيم مرافقها الاقتصادية لما فيه مصلحتها الخاصة ، ويخدم امنها في الدرجة الاولى . وفي هذا السبيل اصدرت فيا اصدرت من قرارات امراً بمضاعفة البحتارة في السفن ، مها ادتى الى ارتفاع كلفة البخائم . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام المسائم . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام المطاق ، الخواطر ضد الحكومة ، وتحمل الجيم على ان يتبينوا بالحسوس مساوىء الحكم وان يحسوا على الادارة اسباب الشكوري التي يتذمرون منها .

فقد أثار فيليب الثاني ذاته الممارضة ، وأهاجها عندما عبث بالتوازن القائم بيسن طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية لحساب الاخيرة . فقد عين ، قبل معادرته البيلاد الى اسبانيا ، الى جانب الوصية على العرش مارغريت ده بارم ، لجنة تتألف من ثلاثة بورجوازييس بينهم غرانفيل من مقاطعة فرانش كونتيه . فها كان من هذه اللجنة شبه الرسمية إلا ، ان قامت تحتكر كل الاشفال والمشروعات المهمة بعد ان ألفت مجلس شورى الدولة ، مما انتقص كثيراً من شأن النبلاء ، وحط من قدرهم بعد الذي قاسوه من عقابيل الازمة الاقتصادية ، ونتائجها الوخيسة عندما راحوا يستغلون العلاكهم على الطريقة التي انتهجها الرأسماليون ويقومون بمضاربات مالية في البورجوازية ، بالرغم من الاحتقار الذي يحملونه في صدورهم في البورجوازية ، وقد رفضوا ان يجلس شورى الدولة ، مع غرانفيسل الذي كان عضواً فيه معهم . فانطلقت الثورة وعلى رأسهم كبار النبلاء .

فلم يمتنق البورجوازيون قضية الملك فيليب بل تخاوا عنه بالاجماع . فالملك لم يعد يمثل ، في نظرهم ، المثل الوطنية ولا المطالب القومية . وبالرغم من انه اسباني ، فقد بدا ، في اعينهم ،

غريباً عنهم وعن بلادهم ، يستخدم الرسوم التي يجبيها من اهل البلاد لاغراض لا تمت لاهلها ولمصالح البلاد بسبب . فالحاميات الإسانية ، وهذه الحكومة الارهابية التي حكمت البلد المسوط ، بين ١٥٦٧ - ١٥٧٧ ، برئاسة درق ألبا ، زادت الاهليين نفوراً من شموخ الاسبان الموفع وبعجرفتهم وقسودهم وفظاظتهم ، ومن مظاهر هذه التقوى المصطنعة وفساد اخلاقهم . ثم ان السياسة الدينية التي سار عليها الملك وجعلته يخضع كل شيء لمصلحة الدين ، اقلقت خواطر الكاثوليك في هذه البلاد ، بالرغم مما كانوا عليه وما عرفوا به من فتور ديني ، وتسامح واغضاء وتجاوز ، في بلاد تعيش في سعة ويجيش اهلها 'بمثل النهضة ، كان من مصلحتهم الاولى ان يحسنوا وفادة الوافدين عليهم ، مها كان لونهم أو دينهم . ومن جهية اخرى ، فقد حلم الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتية ، الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتية ، ألبا يسدد للبلاد ضربته الاخيرة عندما حاول تطبيق الحكم المطلق الاكمل بفرضه ضرائب ثابتة على كل الماملات التجارية (١٩٧١) كا أوقع الشلل في حركة الاعمال وأربكها . فاشتد البؤس في البلاد ، وقامت فيها حرب اهلية سارت فيها الثورة سيرها الطبيعي ، للانتقال بالبلاد من حكم مطلق ، مستبد ، مرهق أ الى نظام بورجوازي ، فبعد ثورة النبلاء ، قامت ثورة البورجوازيين ، ثم تلتها الثورة الديوقراطية التي اعقبتها ردة فعل بورجوازية .

خلقت الثورة ، في البلاد الواطيسة ، في اول الامر ، دولة الدولة البورجوازيــة النستورية والاتحادية المتحررة بورجوازية ، دستورية ، التحادية ، متحررة. فمنذ ١٥٧٢ ، شكل الكلفينيون فيها دولة كلفينية ، تعزلها من الشهال دلتا هولندا وزيلانــدا ، وانتخبت رئيساً لها الامير غليوم دورانج . واضفى الكلفينيون الفرنسيون الذن التجــــأوا الى جوار الامير عليها صبغة خاصة كما انهم مهروها بطابع سيـــاسي خاص ، اذ راحوا يعلمون ان السلطة يعطمها الله الشعب الذي يعهد بدوره بهذه السلطة الى ملك ، يحتفظ بالملك أن هو احسن السياسة وامتثل لاحكام الشريعة الوضعية والطبيعية على السواء، والاجرّده الشعب من هذه الكرامة التي أعطيت له ، ونزع عنه ما أوتيه من سلطة وسلطان ، ان لم يكن بطريقة مباشرة فبواسطة حكامه وقضاته وقد اتقنوا ، في البلاد الواطية ، تحريك مجالس التمثيل ، ودفعوها للعمل ، ان هذه البلاد لم تعد مجرد ولايات متراصفة الواحدة منها مع الاخرى ، بل دولة واحدة موحدة . وهكذا حلَّت نظرية الحقوق الطبيعية العقلانية ، محل التقاليسد والاعراف والحقوق التاريخية المكتسبة والانعامات والاعفاءات التي أقسم الملك على نفسه باحترامهـــا ، والتي كانت تعبيراً او تبريراً لهذه النتائج التي أفضى اليها التطور الذي بمثته في البلاد كل من الرأسماليسة والملكية المستبدة . فبورجوازية المستنسيرين التي تعالت من الموظفين والمحامين لقيت قبولاً في الاذهـان . وفي ١٩ تشرين الاول ١٥٧٦ ، تشكل في البلاد ، مجلس المثلين واتخذ لِم صفة الملك ، واعلن بقرار اتخذه ، يعرف بقرار التهدئة ، صدر في مدينة غنت ، ظهور دولة جديدة

الا ان الحاولات والاتصالات التي تمت للوصول الى تفام، بين الكاثوليك والملك فيليب، اقلقت بال الامسر غلوم

الدكتافررية الشعبية الكلفينيسة

دورانج وخواطر الكلفينيسين معاً ، فراحوا يستفاون البؤس الذي تسكع فيه العمال ورجال الصفاعات اليدوية في بلد دهكتها الحروب وجر"ت عليها الخراب والدمار . فراحوا ينشرون على الناس نشرات تثير حفائظ الشعب وتذكي حقده ضد كل سلطة ، ولا سياضد سلطة الكنيسة بعد ان رمتهما بكل فرية ، وما اخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى ، وضد سياسة الملك الكاثوليكي التي شجبتها . وبما ان الله هو الذي يستودع الشعب السلطة ، فقد عرف هذا الاخير ان يستفل ما في هذا المبدأ من نتائج . وفي آب ١٥٧٧ ، تألفت لجنة الثهانية عشر عضواً ، في بروكسل وقررت انشاء حكومة ديموقراطية استبدادية ، فرضت دكتاتورية ، الشعب على المجلس التمثيلي . وهكذا كلبس الشعب حلة دكتاتور في شخص امير دورانج الذي أطل" على الناس وهم و"كتم ، سجد ، يشهقون فرحاً وغبطة كأن و الله نفسه يجتاز شوارع المدينة ، واخذ هذا النظام الديموقراطي يسري بين الناس ويمتد من مدينسة الى اخرى ، في الوسط من البلاد الواطية وجنوبهها .

وكان من قطاطة التعديات على الملكية ان أثارت الرعب والهلم في قلوب البورجوازيين والنبلاء ، على السواء ، فتمنوا ، ان يقوم في البلاد ، سلطة قوية ، بعيد الذي رأوا ما رأوه من سلب الكنائس وانتهاب الاديار والتعديات السافرة على الكهنة والرهبان مما أثار الحفائظ وايقظ المشاعر الدينية في النفوس ، و فتح الباب واسما امام اليسوعيين للقيام بحسلة وعظ وارشاد وتوعية وايقاظ ، واحتل الاهتام بالكثلكة ومصيرها الحل الاول من اهتام الناس ، بعد ان عم الخراب البلاد من جراء الحرب ومن نهب مدينة أنفرس بالذات (١٥٧٦) والحسار البحري الذي فرضه الثوار في الشهل ، على مصب نهر الاسكو ، ومنافسة كل من هولندا وزيلاندا، ومعظم سكانها من التجار الكلفينيين الذين فروا من الجنوب، واخذ النشاط التجاري في هاتين المقاطمتين ، يحل تدريجما على انفرس .

التعليمة بين الشمال والجنوب والبورجوازيون أن في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من والبورجوازيون أن في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من الديم وقراطيين ، فألفوا ، عام ١٥٧٩ و اتحساد أرّاس ، بينا ألف الكلفينيون ، في الشمال : و اتحاد اوتريخت ، واستطاع الحاكم العام فارنيز ان يوفق بين اتحاد اراس وملك اسبانيا الذي تخلش ، ولو بصورة موقتة ، عن سياسته الاستبدادية ، ومكذا تمكن من ان يسترجع ، تدريجيا الولايات العشر الواقعة في الجنوب والتي يتألف القسم الوسط منها من سهول رسوبية ، فكانت بجازاً او ممراً متازاً للجيوش المتحاربة في مناوراتها وما تسقوم به من حركات الكر والفر . اما

في الشيال ، فقد ألفت الولايات الواقعة عند الدلتا كياناً مستقلاً بعد ان اطعانت الى ما يؤمسن مصيرها من جهة الجنوب ، في هذه الترع والخلجان والقنوات النهرية التي تعزلها عن الجنوب وما اليها من غياض وبطائع ومستنقعات تؤلف شبكة صعبة الاجتياز ، وامكانية اغراق البلاد عند اول خطر مداهم يطل في الافق ، وسيطرتها على البحر . فالاختلاف في الدين ، والدمار الذي انزلته بالبلاد الجيوش المتعاربة ، والمنافسة الاقتصادية ، كل ذلك ، زاد في شقة الخلاف بين القوميتين وباعد بينها .

حاول قبليب الثاني عام ١٥٩٨ ، ان يعيد الوحدة الى البلاد ويؤلف بين الشطرين المنقسمين. وفي هذا السبيل ، منح البلاد الواطية ولو ظاهريا ، استقلالاً اداريا ، تحت ادارة الارشيدوق البرت وايزابيل اللذين استقبلها الجنوب واحسن وفادتها واعترف بسلطتها . اما الشال ، فاتجه الوجهة التي يقتضيها مصير الدولة البورجوازية الانجيلية ، الاتحادية ، المتحررة التي قامت فيه . ولم يعتم الجنوب ان استحال قطراً يخضم للاستبداد .

٤ - ملكيات القرون الوسطى

خلافاً لهذه البلدان التي استعرضنا لها ، بقيت المالك التي لم تبرز منها طبقة بورجوازية قوية الجانب ، في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي تم للملكيات المستبدة .

اعلنت بولونيا نفسها جمهورية ارستوقراطبة برئاسة ملك ، في عهد آخر مولونيا معولات دولة بايلتون ، جان البير الاول (١٥٠٦ – ١٥٠١) واسكندر الاول (١٥٠١ – ١٥٠٨) وسجسموند الاول (١٥٠٦ – ١٥٠٨) وسجسموند الثاني اوغسطس (١٥٠٨ – ١٥٧٢) ثم في عهد هنري ده فالوا الذي سيصبح ، فها بعد ، ملكا على فرنسا ، باسم هنري الثالث (ايار ١٥٧٣ – حزيران ١٥٧٤) ، ثم اسطفان باثوري (١٥٧١ – ١٥٨٦) وسجسموند الثالث فاسا .

وهن المكومة رحجزها وهي عناصر يمكن ردّها الى أربعة رئيسية : المملكة وهي منها النواة المستقطبة ، وليتوانيا ، وبروسيا الملكية وبروسيا الدوقية ، وهي عناصر تألفت منها وحدة هشتة تحت سلطة ملك 'مشتر ك . كان هذا الملك 'ينتخب انتخابا ، كثيراً مسا ادت علية انتخابه الى حروب ومناوشات ، كا حدث ، مثلا ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان انتخابه الى حروب ومناوشات ، كا حدث ، مثلا ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان باثوري . فالجالس التمثيلية (الدييت) التي لم تكن غير طبقة النبلاء ممثلة فيهسا ، كانت الهيئة القانونية التي تقر القوانين الجديدة ، وتحسدد الضرائب ، التي لا بد منها لتغطيسة نققات الجيش ، ومثل هده القرارات يجب ان تؤخذ بالاجماع . فليس تحت تصرف الملك جيش ولا بيت مال ولا عنده اية هيأة ادارية . فهو يمش مسن ريسع املاكه السيادية ويدفع من وارداتها نفقات الدولة . فخير ما يقال فيه انسه الاول بين الاساد . فهسذا

النظام الملكي الموسوم بطابع الاجيال الوسطى ، لم يكتب له أن يرتقي ويتطور الى نظام ملكي مطلق ، مستند .

وسر ذلك ان البورجوازية لم تظهر في بولونيا ، باستثناء بعض الالمان النين كانوا يقيمون في عدد من مدنها الرئيسية . والنشاط التجاري الحري بالملاحظة في هذه البلاد الواقعة على اطراف اوروبا الرأسمالية ، قام على تصدير القمح . فطلب الحبوب من الغرب ، لم يكن في مقدور احد ان يلبيه ، سوى كبار الارستوقر اطبين لما لهم من الاطيان والاملاك الواسعة . فبدلاً من رؤوس الاموال التي افتقروا اليها ، راحوا يسخرون اليد العاملة ، وليزيدوا من غلالهم ومحاصيلهم الزراعية ، اختذوا يعولون ، اكثر فأكثر ، عملى الفلاحين العاملين عنده . وامعانا منهم في تسخير هؤلاء الفلاحين ورغبة منهم في انماء المحاصيل راحوا يحدون من سلطة الملك ومن صلاحياته كاضحوا بالطبقات الاجتاعية الاخرى . فانتخاب الملك الذي كان يفرض على المرشحين التزامات وقيودا ، وعجز الملوك عملى مجابهة كبار الارستوقر اطبة لهؤلاء النبلاء الفقراء الذين لم يكن لهم ما للبورجوازية ، في الفرب ، مسن شكيمة وطول باع ، كل ذلك ساعد على توطيد المشاريسع والخطط التي يضمها كبار الاشراف في البلاد .

فنذ ان اعتلى جان الاول البير العرش ، صدرت قوابين عام ١٤٩٣ – ١٤٩٦ ، تحد جداً من حرية المزارعين والفلاحين على التنقل، وأعطي السيد الحق بالاحتفاظ بهم في املاكه واراضيه واجبارهم على العمل فيها . فهو يمثلهم في القضاء وهو مرجعهم الاول في اقضيتهم ، ولذا كان يحول بينهم وبين القضاء الملكي الذي لم يكن يطالهم بشيء . فهو سيد هؤلاء الناس ورئيسهم المطلق . وفي سنة ١٥٢٠ – ١٥٢١ ، قرر بجلس الديب ، ربط الفلاحين بالارض واجبارهم على الشغل فيها وحرثها ، كا خول الاسياد حق استملاك الهيئات الريفية . والبلديات فقدت ما كانت تتمتع به من استقلال اداري وقضائي ، فأ خضيصت لقضاء الاشراف والنبسلاء الذي اصبحوا أساداً لهم مطلق السلطة على اراضيهم ومن عليها .

وفي سنة ١٤٩٣ ، و ١٤٩٣ ، تقرر اعفاء النبلاء من الرسوم الجركية ومن الفوائد الخاصة ببيت المال . وتحظر على البورجوازيين دخول الوظائف العسكرية ، كا سدت في وجوههم ابواب المراكز الدينية العليا التي اصبحت وقفاً على النبلاء وحدهم . وفي عهد الملك سجسموند اوغسطس ، ولكي يتمكن النبلاء من الحصول ، بارخص الاسعار ، على ادوات البذخ المصنوعة في الخارج ، اعلنوا ، بعد عام ١٥٦٤ ، مبدأ حرية التبادل التجاري المطلق . ولم تقو الصناعة الوطنية على الوقوف بثبات في وجه المنافسة التي تتعرض لها من الخارج ، فذبلت وماتت . وأرغم التجار على التقيد بالسعر الاعلى ، و حظر عليهم الانتقال النخارج للاستبضاع والامتيار ، اذ فضلًا النبلاء الحصول على ما يرغبون فيه ، من متعهدين أجانب يفدون على البلاد لشراء الحنطة

وغير ذلك من محاصيل الارض. ان احتلال الاتراك العثانيين للقسطنطينية ، عـــام ١٤٥٣ والتتار للمقاطعات المطلة على البحر الاسود ، قطع على البولونيين الطرق التجـــارية المؤدية الى الجنوب ، وسدت في وجوههم ، من هذه الناحية أبواب الرزق . وهكذا قامت العراقيــل في وجه التجارة البولونية من كل صوب . فلا عجب ، بعد هذا الا تستطيع البورجوازية ان تنمو وتترعرع بعد ان ضيق عليها النبلاء الانفاس على مثل هذا النحو .

وفي السنوات ١٤٩٣ و ١٤٩٦ نال النبلاء حتى تشكيل مجالس اقليمية (die ines) لتحديد الضرائب التي يجب جبايتها في حال قيام الحرب. فاصدرت هذه المجالس تعلياتها المشددة لمثليها في مجلس الديبت للوقوف الموقف الذي تمليه عليهم مصلحة المقاطعة . فتبقى هي حرة في رفض او قبول القرارات التي تصدر عنها . وهكذا رجحت المصلحة المحلية والمنفعة الآنية على المِصلحة العامة . والانعام الذي اصدرَ • ميالنيك (١٥٠١) زاد كثيراً مسن سلطة مجلس الشيوخ او مجلس الملك الذي تألف من اساقفة ومن كبار الموظفين الاشراف . وقسد كان على الملك ان يترسم ارشاداتهم وان يتقيد بتوجيهاتهم وان يقضي في العدل كما يشاؤون والا رأوا انفسهم في حل من قسم الولاء الذي أقسموا . فمجلس الشيوخ يحتفظ بالتاج وبالشارات الملكية ويصدر الى الحكام التعلمات . والقانون الاساسى الذي صدر عام ١٥٠٥ ، بعنوان : « ليس من جديد Wihil novi حظير على الملك اتخاذ أي قرار او تدبير جديد دون موافقة مجلس الشيوخ و بمثلي الملحقات. ففي عهد الملك سجسموندالاولنص الدستور I. nesne Mujestutix التعدي على ذات الجلالة وعلى وجوب احترام حرمة اعضاء مجلس الشيوخ ونواب الامة في الدييت . فمجلس الشوخ يمارس سلطات الملك . فالملك هو بالفعل معتزل الحكم ، وفي سنة ١٥٧٣ ، صحدر القانون Puctu Conventu الذي حظر على الملك هنري ده فالوا ، اعلان الحرب أو عقد السلام بدون موافقة مجلس الشيوخ او اصدار أمر بحشد الجيش وفرض التعبثة بدوري موافقة مجلس الدييت ؛ وأن يستمين ؛ في الادارة والحكم ؛ بمجلس من ١٦ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ ؛ وان يدعو مجلس الديست للاجتماع كل سنتين . فاذا ما خالف هذه الشروط كان رعاياه في حلِّي من كل طاعة وولاء . وفي سنة ١٥٩٢ ، اخضمت لجنـــة تحقيق خاصة ، شخص الملك بالذات والقرارات التي يصدرها، لتحقيق دقيق .

وفي الرقت ذاته ضعف الشعور بالخطر الخسارجي فرفض مجلس الدبيت اضعاف الامة مراراً ، سنة ١٥١٧ ، و ١٥٦٧ ، و ١٥٢٧ ، فرض ضرائب في سبيل انشاء حيش دائم ، مكتفياً من ذلك مجشد عام النبلاء . وترك الملك الحرية التامة لالبرت براندبورغ الرئيس الاعلى الفرسان التيوتون ان يَتعَلَّمنَ ويتخلى عن الحياة الرهبانية ، ويعتنق البروتستانتية ويعلن نفسه أميراً وراثياً لبروسيا خاضعاً التبعية البولونية (١٥٢٩). وهكذا أطلت بروسيا على الحياة واحتلت موضعها تحت الشمس ، وفي ١٥٢٦ ، وضعت النمسا يدها على هنغاريا وعلى بوهيميا كا راحت دوقية موسكو توسع من نطاقها وتتحصن ، فلم يعد الملك

بولونيا ، في هذه المنطقة محل من الاعراب ، وفقد كل شأن بين المسيحين . وبالرغم مسن إرسال بروسيا الملكية من يثلها في مجلس الديب البولوني، وبالرغم من ان ليتوانيا حدت حدوها مع احتفاظها بموظفيها وماليتها وجيشها المستقل، ومع ان بروسيا الدوقية كانت تجدد من ولائها وتستمر على تبعيتها لها ، فقد امست بولونيا دولة ضعيفة الجانب ، لا حصون لها ولا قسلاع ، ولا جيش لها تقريباً يتولى الدفاع عنها ، فقد اختنقت وماتت من فرط الحرية .

ولمل من يقوم ويحتج على هذا القول ، بموقف روسيا . هـــذه الدولة النصف موسكوفيا الآسيوية التي لها من العرق المسيطر فيها ، ومن الديانة الارثوذكسية التي عليها سواد الشعب الاعظم ، والعداء الازرق الذي تجيش به ضد الكفرة ما جعلها احـــدى دول اوروبا . فقد اصارها التطور الذي مرت به في القرن السادس عشر ، مملكة مستبدة الحـم ، مطلقة السلطان ، مع ان البورجوازية فيها كانت مستضعفة الجانب ، عاجزة تماماً عن الوقوف بوجه طبقة النبلاء دون ان تبالي للامر قيد شعرة .

فاذا ما قام هنا من شذ" عن القاعدة التي اتخذناها قاسماً مشتركاً للظروف التي أحساقت بظهور المملكة المستبدة والحسكم المطلق افلا يكون ذلك دليلاً على بطلان القضية وعدم صحتها فتسقط من نفسها ? .

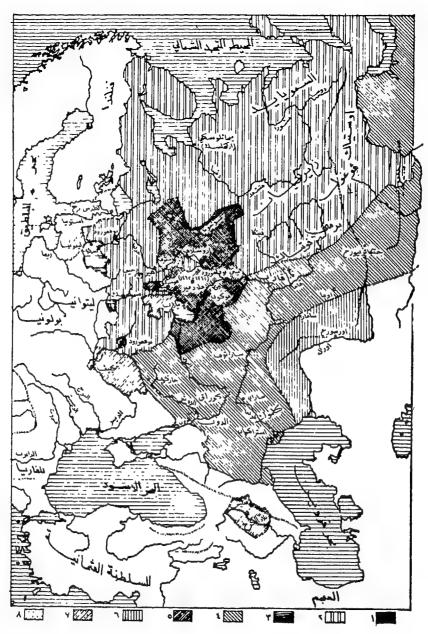
في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢ – ١٥٠٥) برزت روسيا دولة معزولة ، ورسيا بلد ريفي منعزل لا تطل مباشرة على اي بحر من بحار اوروبا ، باستثناء البحار الشهالية المتجمدة ، محشرت رقعتها حشراً بين اعدائها التتار من جهة ، وبين جيران اوروبيين من الغرب ، عرفوا هم ايضاً بعدائهم لها ، من جهة ثانية . فبولونيا وليتوانيا ومدن اتحاد الهانزا (ريفيل وريفا) كلها تقف سداً لتعرقل حركة دخول البضائع والفنيين الاوروبيين اليها ، فحالوا عمداً ، ون اقتباس الروس ، الذين أنزلوا منزلة اعداء تقليديين لكل الدول الحرة ، لوسائسل التسلح دون اقتباس او تسهيل نقل افانينهم الحربية اليها .

روسيا بلاد زراعية في الصمم، ينصرف فيها الفلاحون ، وعددهم فيها نادر قليل ، ومعظمهم يقيمون جماعات في قرى ودساكر من ١٠ - ٠٠ منزلاً ويستسلمون لزراعة الحبوب على نطاق ضيق يتفق ووسائلهم البدائية . فقد ساروا في فلاحتهم وزراعتهم على نظام التحويل الثلاثي بحيث تستريح الارض سنتين قبل ان تزرع في الثالثة ، او انهم اعتمدون نظام الفابات المحروقة فيتاح لهم استثمار الارض التي انكشفت تربتها بعد احتراق شجرها . فالمحاصيل الزراعيسة والفلال فيها ضعيفة . اما المدن وعددها لم يكن ليتجاوز الستين، سنة ١٤٩٧ ، فهي عبارة عن مجتمعات مسورة ، واسواق تجارية ريفية الطابع ، في وسطها مراع خضراء ومروج . امسالتجارة فضيقة ، تقوم اساساً على الترازيت ، اي المقابضة بمحاصيل نادرة وغالية الثمن بكميات

هذه المدن والقرى تقوم ، على الغالب ، في وسط املاك كبار الملاكين ، علمانيين كانوا أم اكليريكيين من رجال الكنيسة ، تناثرت حباتها كالسلك النظيم ، على مجاري الانهر او على معالم الطرق . فتعلق الانسان بها واستقراره فيها ، واه ، بعد ان كان لصاحب الارض السلطة المطلقة على ارضه وعلى مناو ما قام فيها او عليها . ومعظم هذه الاملاك تنعم باعفاءات واسعة ، وهي عأمن من تدخل موظفي الامارة ، لا ضرائب ترهقها ولا خدمات تؤديها للأمير . وهكذا حل كبار الملاكين محل موظفي الامير وهم قلة صفيرة . ففي حالة عدم توفر الناس والموارد اللازمة للدولة ، كان كبار الملاكين يمارسون قسماً من صلاحيات الامير لقاء إسقاط ما يستحق له عليهم من فوائد ورسوم .

وكل امارة تتألف من املاك الامير ، ومن اسياد الارض واراض ذات وتربة سوداء اختصها الامير لنفسه ، ومهتد لها وسائل الاتصال بها والنقل ، اقامت فيها جماعات حرة تساهم بامور الدفاع بما تقدمه للأمير من عوائد وخدمات . ويقوم بتمثيل الامير ، خارج املاكه ، في المدن ، ممثلون يعرفون به Namestniki ، وكلا الفسريقين ممثلون يعرفون به Volosteli ، وكلا الفسريقين يجري انتقاؤهم من بين اتباع الملك ، وهم رجال حرب ، اعترفوا بولائهم له بالجثو امامه . كان معظهم اشراف من اصحاب الاراضي أو سراة ضعاف الجانب ، أو من طبقات دنيا مالوا لمهنة الحرب . وهؤلاء الاتباع لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما قاممنها على امثالهم ، في الغرب، وهم يتطوعون بحرية اكبر على خدمة السيد الذي اختارهم لخدمته والعمل في ارضه .

الامير الاول في روسيا هو بالطبع ، كبير الامراء في موسكو النجاح الذي اصابه امير مرسكو هذه المدينة الواقعة في مناًى من الطرقات التي يتبعها الغزاة ، تحميها وتخفيها عن العيون غابات ظليلة تعزلها عن الانظار ، وتقم عند مفترق الطرق . وهي ملتقى المزارعين ورفاق السلاح يؤمونها منذ عهد بعيد . فهي عاصمة البلاد الدينية منذ سنة ١٣٢٧ ، ويتمتع كبير امراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة الممطاة له من خسان القبيلة الذهبية ويتمتع كبير امراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة الممطاة له من خسان القبيلة الذهبية بالفنى وله نفوذ عربض .



شكل ٣ ... تطور الامبراطورية الروسية

- ١ ـ الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش
 - ٧ .. فتوحاتُ ايفان الثالث
 - ٣ _ فترحات باسيل الثالث
 - ٤ ـ فتوحات ايفان الرابع المرعب

- ه ـ فتوحات بيدور وبوريس غودونوف
 - ٦ ـ فتوحات ميخائيل رومانوف
 - ٧ ـ فتوحات ألكسي ميخائياوفتش
 ٨ ـ فتوحات بطرس الاكبر

ويتطور ايفان الثالث من امير متجول ، الى رئيس دولة . وبما انه اقوى الامراء وأشدهم بأساً على الاطلاق ، نرى الفلاحين العاملين في خدمة الامراء في الريف يفدون عليه بالجلة ليدخلوا في خدمته ويعملوا تحت رعايته ، الامر الذي يجر الضعف على هؤلاء الامراء فيضطرون التخلي عما يتمتعون به من استقلال ، ولم يبتى في البلاد ، بالطبع سوى عدد قليل من الامارات التي تنعم بشيء من الاستقلال الذاتي . فلم تلبث ان حققت البلاد وحدتها . وبسلسلة من الحروب شنها امير موسكو ، عام ١٤٩٧ و و ١٥٠٠ ـ ١٥٠٣ ضد امير ليتوانيا اضطر هذا الاخير المتنازل له عن هذه المقاطعات الشاسعة الواقعة ما وراء نهري الدنيبر والدونا ، كها اعترف له بلقب : وحاكم روسيا جمعاء » . واذ أنس إيفان الانحلال يدب في جسم دولة القبيلة الذهبية ، رفض ان يدفع المتنار اية جزية بعد الآن ، محتفظاً بها لنفسه ؛ ثم ينادي بنفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً عن كل ملك اجني . فهو يجدد في نظر الروس اجمع المقاومة المسيحية والوطنية ضد المحتل الاجنبي الذي يعبث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانية وسيفه المصلت على روسيا يعبث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانية وسيفه المصلت على روسيا .

هيأت النجاحات الدارية التي حققها ، والايمان المستقيم الرأى الايديولوجيا الامبريالية الذي كان عليه ايفان، زواجه من الاميرةصوفيا باليولوغابنة البيزنطيــة ورسالة روسيـــا شقيق آخر امبراطور في بيزنطية . وقد رأى المماصرون في عقيب هذا الزواج رمزاً سياسياً . وحمَّاوه معنى خاصاً . فالكنيسة تصوغ الافكار التي تفرض ذاتها على عقـــول الناس وقلوبهم (الخطاب الفصحي الجديد للمتروبوليت سوزيم ، رسالة الراهب فلموثي لباسل الثالث ، نظرية جوزيف الدينية حول اخضاع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، ودير فولوك) . فروسيا التي اعتنقت وحدها الايمان المستقيم هي بلاد مقدسة (روسيا المقدسة) والشعب الروسي و اسرائيل الجديد ، هو الشعب الذي اختاره الله ليتولى رئاسة جميسه الشعوب المسبحبة ، وليؤمن الفوز النهائي لملكة المسيح . فالدولة المسكوبية ستبقى الى منتهى الدهور ، وستسيطر على جمسم شعوب العالم وموسكو هي و روما الثالثة ۽ هي الماصمة الوحيدة والاخيرة للعالم المسيحي .وقد ورث ملك روسيا الصفة الالهية التي كانت للاباطرة البيزنطيين ٤ وبصفته مسيح الله فهو لا يؤدَّى ـ حساباً عن اعماله الالله . فالوقوف في وجهه او ضد ارادته ، خطئة . فالكل مازمون له بالطاعة العمياء والولاء الاعلى ، حتى الكنيسة ورئيسها ، فلس للفرد اية حرية تصرف بذاته . وقد عم الاقتناع سواد الناس واستقر في يقينهم لدرجة الايمان ان علىالملكان يؤ"من الخلاص لكل فرد بالزامه الجميع على احترام الطقوس الكنسية ومناسك العبادة ، والتسليم بان كل كلية من الكتاب المقدس هي موحى بها من الله . وشجب كل فكرة متحررة ؛ تفضى الى الهرطقة . ومنذ ذلك الحين ، تبنتى ايفان الثالث الشارات الجديدة ، التي ترمز الى سلطته المطلقة المسلمة اليه من الله ، وهي النسر ذو الرأسين ، والصولجان والكرة والعرش . كذلك تخلي تمامًا عن النهج الذي كان انتهجه حتى الآن بوصفه من اصحاب الامــــلاك الواسعة ، ليعتصم برسم البلاط

البيزنطي ، في عزلة من شعبه ، بوصفه كائناً فوق البشر ليس باستطاعــة الناس الاقتراب منه الا مطأ طئى الرأس .

وايفان الثالث هو القائد الاعلى ، المطلق ، يرأس حمسلة الدولة العسكرية الروسية المطلقة عليه ان يصد بهذا صليبية ضد التتاروضد الغربيين الهراطقة عليه ان يصد بهذا

المدد الضئيل من السكان ، هجات التتار التي تنهش بصورة لا تنقطع ، حدود الدوقية التي لا نهاية لها . وقد انشأ بمساعدة مدربين استقدمهم من الغرب ، اولى مفرزاته الحربية من جيش المرتزقة سلتحها بالبنادق والمدافع ودربها على الاساليب الحربية المتبعة في الغرب . كذلك كان عليه ان يواجه هذه المشكلات الحادة التي أثارتها في وجهه صعوبات مالية . فلم يكن بمستغرب قط ان يطلع ايفان الثالث بفكرة دولة موسكوبية منظمة على شاكلة معسكر حربي خضع لنظام حديدي ، ليس للحرية الفردية فيه ظل او شبه ظل .

وهذا السيد المطلق يفتقر جذرياً ، الى وسائل التنفيذ . فطبقة النبلاء التي تعمل في خدمته ليست سهلة الانقياد . وهؤلاء الامراء الذين قدموا خضوعهم له أرغِمُوا على ذلك بقوة السلاح ، فحملوا معهم ما كان تحت تصرفهم ، من قبل ، من كتائب وطوابير ، يستخدمونها عند ما تدعو الحاجة ، يقومون بالمهات التي يُعمد بها اليهم ، ويجلسون الى جانب نبلاء الروس في الهيئات والجالس الرسمية ، بعد ان احتفظوا باستقلالهم الداخلي في اماراتهم المتوارثة . وتطلع عسلى روسيا ، الفينة بعد الفينة ، محالفات ارستوقراطية ، فللنبلاء الحق ، دوماً ، باختيار الامير الذي يرغبون بالانضواء تحت لوائه . وهذا الامير قد يكون مثلا رئيس امراء ليتوانيا ، اوملك بولونيا .

وقد راح ايفان الثالث مجارب هؤلاء الارستوقراطيين بسلاح الطبقات. فاستخدم ، في هذا السبيل ارستوقراطية متوسطة الحال، لها ماض وضيع ، ثألفت في معظمهامن كتبة وسكر تيرية ، كا استمان بطبقة عسكرية دنيا قوامها جماعة من المسلحين ، عملوا في البلاطات الاميرية قبل ان مجري تصفيتها ، ومن صغار الملاكين الذين تحرروا بعد ان استخلصت منهم أراضيهم ، ومن المعلمين وجوابي الآفاق . فقد تطوعوا في خدمته كرجال خدمة لمدى الحياة ، فاقطمهم مكافأة لهم واجتذابا لولائهم ، قطعت ارض Pomestia ومنها جاءت كلمة Pomietchuks التي اطلقت على مؤلاء الملاكين الصماليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبسلاء التي اطلقت على مؤلاء الملاكين الصماليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبسلاء عوناً على تطويع وترويض طبقة النبلاء القديمة وإجبارهم على الخضوع والامتثال له . ومكذا عوناً مون مروق اي تابع من توابعه حدثته نفسه الامارة بالسوء اللجوء الى امير آخر ، وبذلك اصبحوا من رعاياه وأجبروا على الخدمة العسكرية دفاعاً عن البلاد .

وراح ايفان الثالث ، من ناحية ثانية ، يضع وجها لوجه الفلاجين وطبقة النبلاء ، ومنسع تسرب المعدن الثمين وتهزيبه الى الخارج لئلا يقع بين يدى أعدائه التتار ، بما أدَّى الى تقويسة العملة النقدية في البلاد ونهوض الاقتصاد . وهذه العوائد التي كانت تدفع له عيناً ما لبثت ان حل محلها عوائد 'تدفع عداً ونقداً . والضرائب الاميرية اشتدت وطأتها مع تكاثر الحروب واضطر الفلاح الى بيع غلته بسرعة بما عاد بالربح على التجار وليتمكن من تسديد دينه بعد ان كان يستلف من سيده وبفائدة عالية لاقل حادث طارى، يتعرض له . ولما كان وكثيراً ما وعاجزاً عن تسديد دينه وقد رأى نفسه مضطراً للعمل في خدمة سيده على حساب حريته . وقد رأى نفسه مشدوداً شداً الى الارض لقاء الدين الذي لسيده في عنقه . وهكانا اصبح المزارع المديون وشبه المشدود الى ملك سيده ويذهب مع الارض سلعة مربوطة بها اذا ما باع سيد الارض ارضه . ولذا حاول عدد كبير من المزارعين الهرب والنجاة بأنفسهم الى حيث تشتد الحاجة لليد العاملة و كثيراً ما كانت تسنح له مناسبة الهرب . وهكذا أسقيط بيد السياد الارض وبهؤلاء المرابعين اذ لم يعد في مقدورهم ان يفوا بتعهداتهم تجاه الملك . ولذا وقف الملك الى جانبهم ضد الفلاحين المارقين فشرع يحظر على هؤلاء الفلاحين ومفادرة املاك السيد وان يعهد الى بعض هؤلاء الفلاحين و من الارض و ربتها الملك المارة و كنورا أمن قبل و بقطع من الارض و ربتها السيد وان يعهد الى بعض هؤلاء الفلاحين المدودين الى الارض و مضطرين التالي و للخضوع الى اسياده .

وهكذا أثمن الصراع الطبقي لايفان الثالث طبقة من النبلاء سهلة الخضوع والانقياد .

وازدراء منه لنظام الخلافة المتوارثة – وهو امر لم يكن احد من ملوك فرنسا الذين عرفوا باستبدادهم يجرؤ على اتيانه - فقد جرد من حق الخلافة بالارث ، الذكر الابكار الذين يلدون من اول زواج . ثم عيس له شريكا في الحسكم والسلطان باسيل ، ابنه مسهن صوفيا ، الوريثة الشرعية للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها ايفان الثالث . اما الانجازات العظيمة ، فقد تمت على يد حفيده إبفان الرابع الخيف او المرعب (١٥٣٣ – ١٥٨٤) . ففي سنة ١٥٤٧ ، جرى تُتوبجه وله من العمر ، اذ ذاك ، ١٦ سنة . وأخذ لاول مرة ، في تاريخ روسيا ، لقب قيصر ، وبذلك اعلن نفسه خليفة القياصرة ووارثهم بعد ان تبنى كلياً المبادىء الاساسية التي قالت بها اليوسفية (١) .

أصلى الثنار سلسلة من الحروب كانت بمثابة صليبية روسية ، ووجهها وجهة من كان يرغب صادقاً في تأمين السيطرة السكلية ، على طرق المواصلات التجارية . ففتح ، عام ١٥٥٢ ، خانة قازان ، ثم احتلت جيوشه مدينة استراكخان ، وبذلك اصبح مجرى نهر الفولغا تحت اشرافه وسيطرته . وهكذا اصبحت استراكخان ، بين اوروبا وآسيا ، نقطة التلاقي المتجار القادمين

⁽١) نسبة الى الامبراطور جوزيف، او يوسف احداباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية، الذي حاول اخضاع الكنيسة رسلطتها الدينية ، للسلطة الزمنية ، في كل شيء .

من القوقاز والتركستان والعجم . وبانتصاره على خانة سيبيريا ، عام ١٥٨٢ ، نشر السيطرة الروسية حتى مشارف نهر اليانسيي وجبال الالتاي ، فأطل على « كاليفورينا الفراء». ثم اتجه ايفان الرابع شطر البحر البلطيقي ، موجها ضرباته ضد هراطقة الغرب الذين كانوا محاولون عزل روسيا . ففتح ، بين ١٥٥٨ — ١٥٦٠ ، مقاطعة ليفونيا ، ما حمل السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا على التدخل فاستطالت الحرب ، بين كر وفر ، حتى عام ١٥٨٢ ، فاضطر في نهاية الامر صرف النظر عن هذه المقاطعة .

ان ثلاثين سنة من الحروب الدامية والجهاد المستميت قلبت المجتمع المسكوبي وما اليه من نظم ومؤسسات ظهراً لبطن ورأساً على عقب . ارتفعت خلالها ، نفقات الدولة ارتفاعاً عظيماً واضطر ايفان الى تقوية فرقة الرماة Strélitz وتسليحهم بالبنادق ، كما قوسى كثيراً من فرقسة المدفعية ، وفرقة الهندسة وجيش المرتزقة ، ووسع فرقة الخيالة في الجيش ، كما انشأ على طول الحدود الآخذة دوماً بالامتداد والمط والاتساع ، سلسلة من المسدن الجديدة المحصنة ، والقلاع والحصون ولذا كان لا بد من اخذ الناس بنظام حديدي آسر ، وفرض الضرائب وجبايتهابشدة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها صناعة الحرب .

نطور الاقتصاد النقدي حريتها التجارة فقد عرفت نشاطاً متزايداً فستهل اسبابها ووستم من حاور الاقتصاد النقدي سهل الاتصال مسم اوروبا الغربية عن طريق البحر الاسود ، فتوافد على البلاد ، مواكب التجار ومعلمو المهن والحرف والصنائع ، من المانيا وايطاليا وهنفاريا ، فدخلوها عن طريق القرم . ومنذ الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي تشانسلر عام ١٥٥٣ الذي استكشف معها البحر الابيض الواقع الى الشهال من البلاد ، راح الانكليز يتغلغلون في مجاهل روسيا وآسيا ، سالكين الطرق الملتوية التي تنطلق من الرأس الشهالي والبحر الابيض والمحيط المتجمد الشهالي . ونالت الشركة الانكليزية المسكوبية ، منذ عام ١٩٢٥ المالترخيص لها بالاتجار في جميع انحاء روسيا وغشيان اسواق قازان واستراكخان ، والعبور منها الى بلاد فارس والى جزيرة ياغري الواقعة عند مصب نهر الدفينا في الشهال ، وانشاء مستودعات ومعامل لها في معظم المدن الروسية . وجاء بعد الانكليز الهولنديون وتجار انفرس وبروكسل ، كا قدم اليها ، بعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون عام ١٥٨٦ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٥٥٨ – ١٥٨١ ، وفي الفترة الواقعة الان السويديين تمكنوا ، من استرجاع هذا المرفأ ، عام ١٥٨١ ، واذ ذاك ، قام ايفان بتأسس مرفأ أر كنتجلسك سنة ١٥٨٤ .

واستطاع التجار الانكليز والهولنديون من التغلغل داخل الولايات الروسيةالنائية والتعامل رأسًا مع التجار الحليين، يتبادلون معهم ويتقايضون السلع، فبعثوا النشاط في الحركة التجارية في الداخل، فزاد النقد في التداول. والى جانب الاتجار بادوات البذخ والزينة راجت تجارة المحاصل

والفلال الزراعية ، كالقمح والكتان والقنب ، اللحم والجلود والقار والزفت والسمك . وقد عرفت مدن كثيرة كموسكو وقازان وبسكوف تجاراً كباراً ، بلغ عدد مخازن الواحد منهم عشرة مخازن واكثر ، ومع ذلك بقيت نسبة البورجوازية في البلاد ضئيلة لاسباب عديدة ، منها منافسة المؤسسات الكنسية والتجار الاجانب ، وكلا الفريقين ينعم باعفاءات وامتيازات عديدة ، لا سيا الضرائب والرسوم الجركية والاحتكارات القيصرية المشروبات الروحية ، او التبغ والكافيار ، وعدد الاسواق التجارية المحدود بحيث يتاح لمأموري الجمارك والمكوس القليسلي العدد ، ان يراقبوا الاعمال والصفقات المالية والتجارية ، واخيراً الضرائب الثقيسلة التي رزح تحتها الشعب .

عرف القيصر أن يفيد إلى اكثر حد من ازدياد النقد المتداول بحيث ازمنة الجشمع الروسي أمسّن دفع مرتبات افراد فرقة المرتزقة العاملة في خدمته . واستطاع ان يعهد الى الاغنياء من التجار بمهام ومشروعات قبلوا القيام بها على مسؤولياتهم الخاصة ، لقاء بعض انعامات جاد بها عليهم كالساح لهم بفرض بعض الرسوم على التجار ، واستثبار بعض الاحتكارات الحكومية . كذلك ، عرف أن يستغل إلى أقصى حد ، الأزمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد من جراء الحروب الدامية المرهقة التي اقتضتها الفتوحات الواسعة التي قام بها . فالاراضي كانت تستصرخ من يهب" للعمل فيها . وقد اقطمت الحكومة الكنيسة وبعض الاسر الروسية ، من اسحاب الاعمال ، كآل ستروغانوف ، اراضي واسعة ، تقسم في حوض ثهر المقاطعة التي كانت مضرب الامثال بغني مواردها الطبيعية . واشتد الطلب على الفلاحــــين ٬ وارتفعت ، فوق الارض ، كالفطر ، مدن جديدة واديار كثيرة ، منها اوفا وسمارا (١٥٨٦) وسارانوف (١٥٠٩) ، واسس بعض جوابي الآفاق ، الى الجنوب من أوكا ، في قلب السهل الفسيح ، شركات حرة من القوزاق ، والرجال المحترفين القنص والصيد ، ومن شذاذ الآفاق . وجاء في اثرهم مزارعون استقروا في تلك السهول وراحوا يتعهدونها بالحرث والزرع ، ومـــن ورائهم مدن جدیدة تشد ازرهم ، امثال یانسك (۱۵۱۰) واوریـــل (۱۵۹۱) وفورنیخ ولفني ، (۱۵۸۳) وغیرها کثیر .

واشتدت الحاجة الى اليد العاملة . بعد ان اقفرت السهول الواقعة في وسط البلاد ، واخذ الفلاحون المرهقون بالديون او الرازحون تحت وطأة الضرائب والرسوم ، يهربون ، بحيث ان ٧٦ – ٥٠ ٪ من الاراضي الواقعة في منطقة موسكو ، امست بوراً ، كا ان القرى هجرها أهلها، فتعذر على المزارعين النهوض بالاعمال الزراعية المترتبة عليهم ، كا اصبح من المستحيل على اسباد البلاد ان يؤدوا ما عليهم من عوائد ورسوم للخزينة . وهكذا فقدت الدولة كل اشراف على دافعي الضرائب ونضب بيت المال . واخذ كبار الملاكين والمزارعون يتزاحمون على

الفلاحين والمرابّعين في حركة من التجاذب والتراشق لا نهاية لها ما لم تتدخل السلطة المركزية لتضع حلاً للامر

الانتقال من الادارة المحكومية القديمة بادارة حكومية . فقصد قام تحت القيصر ومجلسه السيادية الى الادارة المحكومية القديمة بادارة حكومية . فقصد قام تحت القيصر ومجلسه الخاص، ممثل او وكيل عام له يدعى Barrjad اصبح الوسيط بين القيصر والادارات الحكومية الاخرى : كبيت المال الخساص بالدولة ، وبيت المال الخاص بالقيصر ، ودائرة الاختسام (Prikus) و دائرة الالماسات ، ودائرة البوليس ومصلحة المدفعية ، والجند المرتزقة ، و قصر قازان ، الذي انشىء عام ١٥٥٨ ، وهو اشبه ما يكون اذ ذاك بوزارة المستعمرات ، للنظر في امر الاراضي والمقاطمات التي نضمت بعد الفتح ، ومصلحة الملاقات الخارجية (١٥٤٩) .

وقد نظم المرسوم القيصري الذي صدر عام ١٥٢٦ المصلحة الخاصة بال يجهزوا خيالا اصحاب الاملاك الذين لم يكن عددهم ليتجاوز ٢٠٠٠٠٠ ففرض عليهم ان يجهزوا خيالا (فارساً) بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، عن كل ٥٠ هكتاراً من الاراضي التي يلكها . وفد كان الواحد منهم يملك من ١٤٠ - ٢٣٠ هكتاراً ، وقد كان بينهم من ملك ٣٠٠ او ١٠٠٠ او ١٣٠٠ او ١٣٠٠ القانون بحق توريثها ، الا انه حظر عليهم ان يخرجوا من خدمة القيصر او من دائرة ولائم اليمملوا ، توابع ، لأمير آخر او ليمملوا في خدمته . وكانت غلال الارض ضعيفة جداً . فقد أرحق تسليح الفرسان ، هؤلاء الملاكين ، فراحوا بدورهم يرهقون الفلاحين العاملين في اراضيهم ويبتزونهم بابشع الطرق ، مها حملهم على الهرب .

اصبحت الخدمة المسكرية ملزمة لكل اصحاب الاملاك ، لهم الحق ان يدفعوا بديلاً عسن الخدمة في الجيش مبلغاً محدداً . وقد استغني عن الجندين الذين كان يترتب على الاتباع تقديمهم كما تم توحيد الجيش وانظمته . وفي سبيل تأمين أود هذا الجيش، كان القيمر يفرض ، على هواه ، رسوماً خاصة تصيب مثلاً ملح البارود ورسوم حملة البنادق ، وغير ذلك ، ومنسذ عام ١٥٥٤ لم تصدر في روسيا أية براءة اعفاء او استثناء حتى ان الاعفاءات القديمة ، جرى تخفيضها كثيراً كا الغي عام ١٥٥٨ ، اعفاء الاكليروس ورجال الدين من الرسوم .

الدولة البوليسية القديمة . ففي سنة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفان الرابع فرقسسة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفان الرابع فرقسسة Opritchnina وهي فرقة الحرس القيصري ، معظم رجالها من الغدائيين ، عهد اليهم بالسهر على أمن القيصر ، وتصفية كل من تخدثه نفسه بالخيانة والغدر ، دخلها بعض افراد طبقة النبلاء القدامي بمن حط بهم الدهر . وقد أقطع كل واحد من اعضاء هذه الفرقة فدانة من الارض في

قلب روسيا . شهدت البيلاد ، اذ ذاك ، حركة واسعة في انتقال ملكية الارض . فالامراء الاقطاعيون اضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم السيادية المتوارثة لقاء التعويض عليهم بعقارات تقع على اطراف البلاد او على حدود هذه المقاطعات Zemichinu التي تم فتحها منذ عهد قريب . وهكذا انفصمت هذه العرى التي كانت تشدهم الى سكان البلاد حيث كانت تقع ممتلكاتهم ، فوجدوا انفسهم بين اقوام لا يعرفون عنهم شيئا كبيراً ، كثيراً ما تعرضوا للمصيان من قبل هذه الجاعات ، كا تعرضوا كثيراً للهجوم من وراء الحدود ، لا يرد عنهم غائلة الموت الا مبادرة القيصر لنجدتهم . وقد عهدالقيصر الى اعضاء فرقة حرسه بمراقبة هؤلاء الامراء المبعدين بعد ان حامت حولهم الظنون وارتاب القيصر بهم متهما ايام بالتخلي عن الولاء نحوه ، وقد جرت تصفية عدد كبير من زعماء هذه الاسر حتى ان اسراً كثيرة ابيدت برمتها . ففي سنة ١٥٧٠ ، جرى نهب مدينة نوفغورود الكبرى . وقد فاضت مياه النهر من كثرة ما ، ألقوا فيه من جثث الموتى .

ومساعدة منهم لحؤلاء Opritchniks, Pomietchiks يتم بتوفيد ما هم بحاجة اليه من الفلاحين والمرابعين الذين استحالوا ، فيا بعد ، عبيداً مشدودين الى الارض . فقد نص القانون الصادر عام ١٥٥٠ ، على ان المديون العاجز عن ايفاء دينه يجري تسليمه للدائن الذي يفرض عليه العمل في ارضه حتى وفاء الدين المترتب عليه . وفي سنسة ١٥٧٤ ، فرض القيصر على كل فلاح ، يعمل في التربة السوداء ، ان يزرع لحساب الدولة ، اربعة هكتارات في السنة ، وذلك على سبيل التخفيف من حدة الطلب على اليد العاملة بعد فرار المزارعين وهربهم . وفي سنة ١٥٨٠ حظتر القيصر على المزارع جحود سيده وألزم الفلاح على الا يتفيب عسن ارضه الا باذن خاص من سيده . اما الفلاحون الهاريون فكانوا يستهدفون لعقوبات زاجرة .

ومكذا قامت بصورة لا تدع بجالاً للشك ، ملكية بين الملكية البسكوبية ، والملكيات النوبية مطاقة مستبدة في روسيا . فالقيصر يتمتع ، قانونا وبالفعل ، بكل صلاحيات السيادة وخصائصها المميزة : سلطة تشريعية ، وسلطة تنفيدنية ، وسلطة قضائية ، وله كل سلطان لفرض الضرائب وتعبئة جيش قائم باستمرار ، وموظفون يتولى هو نفسه تعيينهم . ويختلف النظام الملكي المسكوبي المطلق عن مثيله في الغرب باتساع الحقوق الملكية المسكوبية وباتساع صلاحياتها . فليس ما يدل قط على انه قام في البلاد قانون اساسي حد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتملق مثلا بحقوق خلافة العرش ، او وجدود اي اساسي حد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتملق مثلا بحقوق خلافة العرش ، وعلى عكس هذا ، هنالك . وعلى عكس هذا ، هنالك ما يشير الى او يبل على وجود حدود لهذا السلطان ، من مثل الظروف والاحوال المسيطرة ، وهذه الاعفاءات القائمة ، وعود بورجوازية رأسمالية باستطاعتها ان تجابه الطبقات الاخرى وهذه الاعفاءات القائمة ، وعدى من نوع الملكية المطلقة ، شكلت نوعاً في جنس الملكية المطلقة ، فهي اقرب لعمري من نوع الملكيات الآسيوية المطلقة التي جاءت وليدة مجتمعات خاصـــة

تميزت بضعف الروح الرأسمالية فيها . ولهذه الملكية ذات الميزات الاساسية التي اتصفت بهسا الملكية المطلقة في اوروبا الغربية في القرن السادس عشر : مثالية قومية جاءت نتيجية بعث ايديولوجيا قديمة جرى تكييفها وفقاً للحاجات الجديدة ، وايمان شعب بكامله يعتقد يقينا انبه مدعو لرسالة خاصة ، وطعوح فردي جاشت به امة مسيطرة ، غلا بة تقمصه ملك هو صورة الله على الارض ، بطل قومي مظفر ، عهد اليه القيام مجرب مستمرة ضد الاجنبي دارت على حدود اعتبرت دوماً في خطر ، واقتصاد نقدي آخذ بالتطور . الى هذه المثالية القومية صراع طبقي يختلف في بعض وجوهه ، عما قام من امثاله في الغرب. فنحن هنا لسنا امام صراع بين بورجوازية وطبقة نبلاء ، بل صراع قام بين طبقتين متجانستين ، بين طبقتين مسن النبلاء متشابهتين تقريباً ، صراع بين ما هو رئاسة سيادية ممثلة في طبقة نبلاء من هذا النوع او ذاك ، وبين فلاح او مزارع امضى سلاحاً ، هنا في روسيا ، منه في الغرب ، لما يتوفر له من امسداء الميرين يتجاذبانه . والصراع الطبقي اعطى دوماً بوصفه صراعاً النتائج ذاتها والمعليات ذاتها : الميرين يتجاذبانه . والصراع الطبقي وتنفخ في أواره . فالظروف الاساسية واحدة هي ، فقيام الملكية المطلقة له ما يبرره وما يزكسيه .

وونعصى ويخابرس

النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

لس من جديد في هذه النظم الا ما طلع منها خارج ايطاليا . فالجديد فيها هو نقل طبيعة هذه الملاقات التي ربطت الدول الايطالية كما كرّسها صلح لودي المعقود عام ١٤٥٤ ، الى جميع دول اوروبا، إثر الحلة التي قام بها شارل الثامن على ايطاليا بقصد فتحها وضمها . فقـــد وَعَتَ الدول الانطالية أن هـــذه العلاقات التي شدتها بعضاً إلى بعض لم تكن تتوقف على هذه الروابط العديدة التي جمت فيا بينها ، ولا جاءت نتيجة لتجاورها أو تلاصقها فحسب ، بل ايضاً نتبجة لهذا الشعور المشترك والتحسس المميق بأن القوى والموامل التي تتأثر بهسا جيماً أولتها الحق المتبادل في التدخل والاهتام جدياً بهذه الاحداث التي تقم بعيداً عنها، ولو لم تكن لتمنيها في الظاهر كثيراً وذلك لما تحدثه هذه الشؤون والاحداث من تأثير على توازن القوى ، اذ ان اي خلل او اختلال يلحق بهذا التوازن، كان لا يخلو من خطر على دولة أو على مجموعة من هذه الدول . وهكذا رى ان الايطاليين ، ارتقى بهم التفكير بحيث راحوا يعملون على قيام والعمل بمبادئها ، كان لا بد من قيام علاقات مستمرة بين هذه الدول ترتكز على قوانين وانظمة تشكل ما يمر ف اليوم بالقانون أو الحق الدولي . ولكي لا تتجرأ دولة ما أن تحاول الاخلال ميذا التوازن لمصلحتها الخاصة ، اعترفت بمدأ حق التدخل وجعلت منه مبسداً سياسياً سارت عليه . فلكل دولة الحق بالتدخل لدى دولة اخرى مبررة تدخلها مججج مختلفة ومتذرعة بملل شتى ، منها الدينى ، مثلا ، كأن تدعى حماية ابناء دينها الرسمى ، ومنها السياس كسيسانة الحرية والمحافظة علمها . وهذا التوازن لم يكن سوى وسيلة للحؤول دون أي دولة تحدثها نفسها بزيادة قوتها وبسط سيطرتها وسلطانها على حساب دولة اخرى . فهو لا يقوم على تفاهم ضمني رمى لتحقيق عمل مشترك . فهو مجرد فكرة سلبية ، او مكبح يجمح من الشهوة ، ويحد منها . فني ٣١ اذار ١٤٩٥ بدا اول مظهر لهذه السياسة الجديدة ٤ سياسة التوازن بين دول أوروباً؟

وذلك في حلف البندقية ، الذي تألف للوقوف بوجه قرنسا معارضة لتدخلها في ايطاليا . وقد . تشكل هذا الحلف من البندقية ، وملك أسبانيا ودوق ميلانو ، والبابا . واللغة الديبلوماسية الاوروبية استعملت في هذا السبيل عبارات واصطلاحات مستمدة من الحياة السياسية في ايطاليا، منها : « توازن الدول » و « القوى المتقابلة » وغير ذلك من الالفاظ والاصطلاحات . امسا التعابير والمجازات التي عمل بها من قبل ، أمثال : « الكتلة المسيحية » و « الجهورية المسيحية » فقد بطل استعمالها . واخذت المصطلحات : التوازن الاوروبي ، والديبلوماسية المعمول بها ، والقانون الدولي ، وحتى التدخل ، تطبع السياسة الاوروبية ، حتى حلول معاهدة فيينسا (١٨١٥) وما بعد .

١ _ الظروف العـــامة

كان لا بد" ، والحالة هذه ، من وسائل عمل تغي بالفرض . فقد تبنت دول الديباوماسية الثابتة وروبا ، على شاكلة الدول الايطالية في القرن الخامس عشر، نهجاً جديداً هو الديباوماسية الثابتة . فقد كانت اقتصرت هذه الدول حتى اواخر القرن الخامس عشر ، عسلى سفارات او وفادات احتفالية احيطت بكل مظاهر الأ "بهة ، برئاسة امراء او كرادلة او وزراء أحيطوا بكل مظاهر التبكل مظاهر التبكل مظاهر التبكل مظاهر الأ وقد استمر العمل بهذا الاسلوب خلال القرن السادس عشر ، في كل ما يتملق بامور المواليد والزواج والمآتم الرسمية وحفلات تنصيب المنوك العرش ، او لاقسرار المعاهدات والمواثيسة المعقودة ، وهي مهات محدودة ، كما ترى، قلما أرو تنظماً الطرف الثاني للتزود من المعلومات التي رغب في الاطلاع عليها او التي منتى النفس بالوصول اليها .

فنذ ١٤٩٥ ، وهو تاريخ الحلف الكبير الذي قام للحد من اطباع شارل الثامن وتفشيل حلته على إبطاليا ، اقتضت الضرورة القيام باتصالات مستمرة ، ثابتة بين الحلقاء او بين من هم على الحياد او بين من قد يصبحون خصوم الفد ، كان لا بد لانجاحها ، من وجود بمثلين يبقون بصورة مستمرة في عاصمة الدولة ، وقد حذا الجيم حذو البندقية ، في هذا الجال ، وفي هذا السبيل حرصت أسر "كثيرة ، على الاحتفاظ ، اباً عن جد ، بهذه المناصب التمثيلية ، بعد المنتقر اعضاؤها بهذا العمل وتدربوا على اساليبه طويلا ، فقد راح ممثلون او وكلاء سفراء ، من رجال القانون او من صفار النبلاء ، او من رجال الاكليروس ، يساعدهم احياناً موظفون إضافيون من كبار الاشراف كان وجودهم بجرد مظاهر شارجية على الغالب ، يفاوضون محلياً ويهيئون شروط الاتفاقات التي يرغبون في الوصول اليها ، او نصوص المواثيق التي ههم عقدها ، كا كان همم الاكبر الاتفاقات التي يرغبون في الوصول اليها ، او نصوص المواثيق التي ههم عقدها ، كا كان همم الاكبر ان يو "دوا حكوماتهم بكل ما تحتاج اليه من معاومات وما ترغب في الاطلاع عليه من اوضاع معينة و ظروف قائمة ، ولذا حدقوا التغرس في الناس والنظر الى الاشياء بتبصر ، كسها اتقنوا

الاصفاء والتحري عن كل شيء الاقننوا في تزويد رؤوسائهم بكل ما وقعت عليه ايديهم من كل فن وخبر او ما وقفوا عليه من روايات واقاويل مع اي ربح وصلتهم ، او مناي مصدر استقوا أو من أي وردر وردوا، فالسفير الدائم ليس بالفعل سوى جاسوس يتمتع ببعض الامتيازات ؟ تحت تصرفه شبكة ممتازة من وسائل الاعلام والرصد والتسجيل . وبصفتهممثلا ديباوماسياً لبلاده ، فهو يتصل ، ولا مرج عليه ، بكل من يكن ان يستفيد منه بدا ، مهما كان لبوسه : خائنًا او مارقًا او متصيداً فيوزع بلباقة وفطنة > الأعطسَيات والمرتبات والجمالات ويتصل دونما تررع ، بمستشاري الدولة ، وبالخطباء الكنسيين والمرشدين والوتعساظ ، ويوجوه المجتمع والشخصيات البارزة والمنظيات والهيئات القائمة في الدولة . فقد مثل الملكفرنسوا الاول في البندقية ٤ السفير بليسييه الذي امتد نفوذه حتى الشرق الادنى . وقد برهن بعض الاسمان؟ في عهد ملكهم فيليب الثاني ، عن مقدرة خارقة في هذا المضهار ، ولا يزال التاريخ يحفيظ لنا ، اليوم ، اسماء لها شهرتها في عالم التجسس امثال دوق ألبا ، في فرنسا ؛ بعد معاهدة كاتُّو - كبرسيس. ومثل هذه المهمة نهض بها الى الأوج ، توماس بر"نو ده شانتوناي، شقيق الكردينال ده غرانفيل الذي عمل سغيراً لبلاده، من آب ١٥٥٩ الى شباط ١٥٦٤، والسفير الاسباني الفارو ده لاكوادرا. مطران أكيلا الذي احسن حبك شبكة من التجسس في انكلترا ، في هذه الفترة بالذات عنران مهنة السفير كانت مهنة شاقة لم تكن لتدر كثيراً على صاحبها ، كا أن الحصانة المشة التي يتمتعيها السفير ، أذ ذاك ، لم لكن لتجمله دوماً بمناى من المفاجآت غير السارة ، ناهيك عن أن بطء المواصلات وصعوبتها كان يجمل مغامراته لا تخاو قعد من خطر علمه .

وقد استعمل الملاك من فرنسوا الاول ، الى شارل الخامس ، الى الملك فيليب الثاني ، باستثناء السغراء ، حدداً من العملاء السريين والمغامرين من فرسان واطباء ، حمن أنسوا فيهم المقدرة على الاضطلاح ، بتفوق ، بمفاوضات سر"ية ، كما أنهم استعماوا بعض الوسطاء الضماف الذين لم يكونوا يتورحون من اللجوء الى علاقات ملتوية او مشبوهة ، مايكاد ينفضح امرها حتى يبادر الملك الى شجبها والتبرؤ منها .

تنهج الديباوماسية 'طرقا واساليب واقعية ومها يكن ؛ فالنتيجة وحدها هي التي 'يعتك بها . فالاهتبارات والمبادىء الحلقية ، تأتي بعيدة بمراحل ، في عملية الوزن والتقيم ، بعسد حساب القوى . أليست الديباوماسية حرباً من نوع آخر غير التراشق بالتنسابل والمدافع ، سلاحها المعروف : الكلب ، والمخاللة ، والفش والخداع . فعلى السفير ان يكون على إلمام كبير واطلاع واسع باحداث التاريخ وما فيها من عظات ودروس ، هذا التاريخ ومعلم الكذب والغش والخداع والمستث بالمواليق ، كا يقول كو مين . عليه ان يتظاهر بانه رجل بر وصلاح ، صريح غلص ، حر الفكر ، بحيث يكسب لقة محدثيه حتى يتمكن بالتالي من بلفهم عندما تحين الفرصة السائحة (مكيافلي) ، عليه ان يوحي جيداً بأنه يرغب صادقاً أمراً ما ، بينا هو يقصد بالفمل شيئا آخر بمكسه ، تماما . هسله الطسرق والاساليب ، لم تلبث ان اصبحت اموراً مقررة ، متمارفة ، ولم تمتم ان تصبح مهنة او نهجاً بعلم واصول وقواعد . ولكي 'يطمئن حليفة متمارفة ، ولم تمتم ان تصبح مهنة او نهجاً بعلم واصول وقواعد . ولكي 'يطمئن حليفة

لمقابلة او مفاوضة لم يكن مقرراً ان تشترك بها بلاده ، يأخذ السفير بالتأكيد بان حكومته لا ناقة لها ولاجمل في الامر ، وان المقابلة او أمر التفاوض دعت اليه ، الجهة المعارضة حباً بالسلام ، وفي سبيل ترسيخ اسبابه لا غير . ولكي يثير الغيرة والحماسة في نفس محدثه يروح 'يزَيَّن له بان النية او الافكار تتجه الى صرف النظر عنه ، وتفضيل فريق آخر عليه ، وان مليكه لعلى استعداد كلي لتوقيع مشروع اتفاق معروض عليه ، ولكي 'يحديث في نفس محدثه التأثير الذي يرغب فيه ويحمله على التسليم بوجهة نظره ، ينظاهر السفير برغبته بقطع المفاوضات و'يخرج مرافقيه من البلاد كمن يود التناور .

ففي المفاوضات الرسمية ، يتولى الكلام باسم الوفد المفاوض شخص واحد ، وباللغة اللاتينية ، وعندما يفرغ من عرض القضية ويبسط وجهة نظره ، ينسحب الفريق المتفاوض الثاني للمذاكرة وتبادل الرأي ، قبل ان يعهدوا الى واحد منهم بالرد على المقدحات المعروضة .

يتبادل السفراء مراسلاتهم مع اجهزة خاصة في الدولة كالملك او مجلس الملك الحاص وتباعاً مع امناء السر . وكان على سفراء البندقية ان يرفعوا ، الى رؤسائهم ، تقريراً عن وفادتهم ، لدى رجوعهم الى البلاد ،عن المهمة التي انتدبوا لها . ويتلى التقرير علانية على اعضاء مجلس الشيوخ ، بحضور التوغا ، ثم محفظ في قسم السفراء ، المحفوظات السرية . وتؤلف مجموعة تقارير السفراء في حكومة البندقية ، معيناً لا ينضب ، من المعلومات التاريخية .

المارة التجارية : بين في القرن السادس عشر انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية ، الثلاثية والمركب الشراعي من البحر الابيض المتوسط الى الهيط اوالاقيانوس. فبعد ان اقتصر نشاط الحضارة ، في اوروبا ، من قبل ، على البحر الابيض المتوسط والبحار الشالية (البلطيق والبحر الشيالي وخليج المانش) ، اذ بهذاالنشاط يصطبغ ، اكثر فاكثر ، بعد النصف الشاني من القرن السادس عشر بطابع أسيوي بارز . وقامت على الاثر منافسة قوية بين السفينة الثلاثية الصفوف من المجاذيف التي كانت ، اداة النشاط البحري في المتوسط وبين السفينة الشراعية ، او المركب ، وهو الاسم العام المشترك الذي يمكن اطلاقه على الكرافيل وغيرها من انواع السفن الشراعيسة التي الخرب الخدب والمعارك البحرية في المحيطات . ولم يلبث إن كبر شأن السفينة في كل ما يتصل بالحرب والمعارك البحرية ، وما ان مالت شمس القرن المغيب حتى كانت أفضليتها تبز الثلاثية بكثير .

الثلاثية ، المركب ، الريح والبحر الطقس هادثًا ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما الطقس هادثًا ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما اذا ما هاج البحر واضطرب اديمه فالافضلية ، تعود للسفينة الشراعية او المركب . فالثلاثية ، ظهرها واطر يكاد يلامس سطح الماء ، فهي ، في الصميم ، قارب مكشوف الظهر ، يعلوها

درابزون بطفطف من كلا الجانبين ، يفصل بين صف وصف آخر من المجذفين ، ممر ضيق ،

ويعلو ظهرها أرضَّة من الواح الحشب ، تستدير اطرافه لممر ضق يسلكه الجند . وكنا نرى سفناً شراعية كبيرة كالتي تستعملها البندقية لتأمين علاقاتها التجارية مع مقاطعة الفلاندر (طولها ١٤ متراً ؛ بعرض ٣٠٤٦ متراً في الاسفــــل و٢٠٠٦ متراً على الظهر ؛ و ٢٠٧ م ، في القلب من الداخل)؛ اما صفاتها ومميزاتها فهي هي لم تتغير.فاذا ما اهتاج البحر وازبد تعرضت السفينة الثلاثية للغرق . اما المركب ، فيؤلف هيكله بناية عائمة . فالظهر يعلو علو رجلين او ثلاثة رجال ، عن سطح الماء . ويقوم فوقه ، من الامام ومن الوراء على السواء ، برجــان أو قلمتان ، فترى المياه تتساقط من على جانبيه بينا يبقى الظهر ناشفا جافا . فقدم السفينة المدبب ، يشق أديم الماء شقاً عندما يكون البحرهادئاً ، احسن بكثير من المقدم الافطس في ا المركب، وتسير بسرعة اكبر منه اماعندما يكون البحر هائجًا او تتأرجح السفينة، بين المقدمة والمؤخرة ، يغوص مقدم السفينة في اليم ، بحيث بمر الموج فوق ظهرها عندما يشق العباب . اما المقدم الافطس في المركب ، فلا يغوص عميقاً بخلاف مقدم الثلاثية ، ويعلو فوق الموج ، وتزيد سرعته على سرعة الثلاثية .وتزود الثلاثية بمجاذيف طول الواحد منها ١٢ متراً، يعالج المجذاف الواحد خمسة 'مجَدِّ فين ، كلهم من الارقاء او من الحكوم عليهم مجبس اللومان ، عند انطلاقة الصفير ، يلهب السوط اجسامهم عند اقل تمهل او تأخر في الحركة ، فيولون السفينة دفعاً الى الامام ، عندما يكون البحر ساكناً ، اما عندما يأخذ الربح بالهبوب ، تعــودالي المركب أفضليته . والثلاثية صار واحد او صاربان ، وعسدد من الاشرعة تبلغ مساحتها مجتمعة ٥٠٠ متر مربع . اما المركب فعدد الصواري فيه يتراوح بين ٢و٤ صوار ِ وتزيد مساحة اشرعته اربعة او خمسة اضعاف مساحة اشرعة الثلاثية · كذلك تجهز المراكب باشرعة مربعة علما · تساعدها على السير الى الوراء عندما ينفخ الهواء بمكس السير . فالمركب يجهز باربعة او خمسة انواع من الأشرعة ، من مقاييس مختلفة ، بينا لا يحمل الصاري سوى شراع واحد مجهز بدقل ضخم ، بينا عارضة الصاري مستديرة وتتحرك بصعوبة كلية، اما المركب فاشرعته اكثر توزعاً بحيث تزيد او تخفض من مساحة الشراع المعرضة للهواء . ولكل من الصواري الرئيسية اشرعتها ، مع أدقال مربعة .

والسفينة الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية المادئية الشلاثية معدة العمل في الاقالم الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات المحادثية نسبيا وللقيام برحلات قصيرة والمعندما ترسو سفينة يمكن نصب خيمة وايقاد المشاعل والمجدة فون ومساجين اللوماق الحكوم عليهم بالعمل في التجذيف ويلتحفون القبة الزرقاء وفهم يلبسون قيصا وسروالا من النسيج الاسمر إلحشن وخاة والاسيم في ارجلهم وصفاً شتاء والبستهم داغاً مبللة والفسيل عملية تغطيس البدلة من فوق حافة السفينة وفهم مشدودون دوما الى مقاعدهم ليلا ولم تتخذ السفينة اي تدبير ولو بدائي التخلص مسن الاوساخ وقد حشا الضباط انوفهم تبغاً قوي الريحة ولا تسل والحالة هذه وعن تكاثر الموام كالقمل والبراغيث وقادا ما امتدت الاسفار وطال

امدها ع تفشت الامراض بين الجاعة وهددتهم بالفناء . اما ربان السفينة فيرتدي ثياباً حسنة ويقتات جيداً ويستطيع ان يستسلم للراحة في اماكن خاصة معزولة ، جافة ومدفتاة . اما المركب فياستطاعته ان يعمل في كل الاحوال المناخية . فهو يضطر للسير مع الشاطىء ، تأميناً لبعض الراحة ووسائل التدفئة والتغذية ، وتأمين أود العيش من المرافىء القريبة اذ يتعذر على السفينة الشراعية ان تنمون من هذا كله لأمد طويل . ولذا نرى الدول البحرية تنشىء لها ، على طول شواطىء البحر المتوسط ، سلسلة متاسكة الاطراف من المرافىء الحربية . فالمركب الذي في مكنته ان يتزود بكيسات اكبر من المواد الغذائية ، يرى امامه بحالاً اوسع العمل وارحب .

وظيفة الشفينة الثلاثية هي جلب الجنود المهجوم وتسهيل وسائل الاشتباك لهم بالايدي . فهي لا مهاز

لها ولا يمكن أن تجهز بشيء من هذا . فهي متاسكة الاطراف ، مــن الوسط وان كانت تفتقر المتانة والصلابة في طولمًا ، فقدمها الطويل ، الغرض منه التلطيف من حدة الصدمة والدفع عند الرسو ، والمدقمية التي تحملها فوق مثنها ، صغيرة هي . ففي المقدمة مدفع كبير ، تركز في الحور ، واربع قطع خفيفة لتسديد الضربة على مدى قريب ، ممهدة الطريق لفرقة الهجوم . فالمعركة بين الثلاثيات هي معركة بين المشاة أو الرجالة المتحول الاشتباك فيها إلى صراع فردى بين افراد الجند من كل الفريقين فيعمدون الى الخنجر او امتشاق الحسام ، فيهب امراء البحر انفسهم يطلب الواحد مناجزة الآخر للمبارزة ، فالاساطيل المتلاحمة تقوم بسبساق الزوارق بحيث ينفسح امامها بجال العمل والمزيد من النور والشمس ، ثم يطبق الجانبان بمضها على بمض، ويتخذ كل الموامل الحاسمة ، كالاندفاع الحاسي والشجاعة والمهارة الشخصية . والضباط العاملون في حدّه السغن جم من ذراري الاسر الارستوقراطية الكبرى ينظرون بشعوخ وترفع الى غيرهم من الضباط الماملين محت امرتهم . فاذا ما استهدف المركب لعملية اصطدام كان مصيره الهلاك ، وقد يكون له من القوة احيانا ما يستطيع ان يتحمل الصدمــة ويحطتم بدوره ، بمقدمه اية ثلاثيــة تكون لحفتها ورشاقتها اكثر استعداداً للمطب السريع ، بينا يتمـــيز المركب بالصلابة . وقد جرت عادة تقوية جوانبه بشبكة متمارضة من عوارض الخشب بعد تدعيمها عمودياً . فالامواج ترتطم بهذا الحاجز الخارجي وتتكسر عليه فتتطاير رذاذاً في الهواء لا يلبث ان يتساقط كالمطر باستمرار فوق ظهر السفينة . وللمركب من المتانسة ما يتيح له استمال الخطساف او المهاز في المعركة فهو يشكل بطارية مدفعية عامَّة مكلفة بتعطيم السفينة الشراعية عن يعسد . ويقوم على الخط الدائري ، على مستوى سطح الماء ، عدة بطاريات ، كما يقوم من النوع الخفيف منها عدد فوق الظهر . وقد 'ركتبت فوق حصون المركب مدافع مع قطعة مدفع .

تطور الثلاثية والمرك تحسين يذكر ، في القرن السادس عشر ، بعد أن بلغ هذا التطور

حده من قبل . اما المركب فقد خضع هو باستمرار للتطور والتحسن ، فالنصف الاول مــن القررب السادسعشر كان بمثابة حقبة تجارب واختبار وتحسس الاساليب التقنية . فقــد امر فرنسوا الاول ببناء سفينة الفرنسواز الكبرى ، في مدينة الهافر ، وهي سفينة استفرق بناؤها من ١٥٢١-١٥٣٣ ، جهزت بخمسة صوارر، واتسعت ١٥٠٠١ راكب، انشئت فيها كنسة وملمب التنس ، وكور للحدادة، وفرن ومطحنة هوائية. الا أن هذه المدينة العائمة لم تنزل قط الى البحر. ونقل جان لاسكاريس الى شارل الخامس ، سر بناء سفينة تجارية تعمل على عجلات لها قواديس ، جرى تصميمها في ايطاليا . وجرت محاولة بناء هذه السفينة ، في مرفأ برشلونة بنجاح تام . وقد جهل الناس كيف كانت تتحرك ، ربما بواسطة جهاز يدعى Eolypile من اختراع العالم اليوناني الاسكندري هيرون . وفي سنة ١٥٧٥ ، صمم الهولنديون سفينة جبارة تسير بمجلات تتحرك بدفع الجاذيف ، وقد اتسعت فيها مساحة الاشرعة وتوزعت. فالصواري القائمة في الاطراف تزداد ضخامة وتفرش بالقلوع ويسهل بالتالي تدويرها من جهة الى اخرى . فالطوابق العليا في البرج القائم عند مؤخرة السفينة لم تعد تصل الى طرف الصاري ، وتناقص طولها كلما خف علوها بما يزيد في قوة الاستمرار ؛ اما المؤخرة ؛ فقد اصبحت مربعة بعد ان كانت مقدرة . وفي اواخر هذا القرن ظهرت السفن من نوع Vuisseuu . وقد تبين البحسارة ببطء كلي الامكانات الطائلة الكامنة في المركب . وقد بقيت فكرة مهاجمة السفينـــة تتحكم بالافكار والخواطر . وعندما حاول الملك فرنسوا الاول القيام بحملة نزول في انكلترا وغزوها بحراً ٬ عام ١٥٤٥ ٬ اردف اسطوله بخمس وعشرين سفينة شراعية كانت تعمل في مياه البحر المتوسط . اما الفشل المريم الذي اصيب به اسطول الارمادا الذي لا يقهر بعد ان اعـــده فيليب الثاني لغزو انكلترا عام ١٥٨٨ ، فقد فتح عيون الناس على ما في هذا الاسلوب من نواقص وسيئات ، فاضطرت سنن فيليب الشراعية ان تبقى على مقربة من شواطىء اسبانيا الشالسة بالنظر لهيجان البحر . اما المراكب الاخرى التي تألف منها اسطول الغزو ، فقد عرف الانكليز ان ينقلبوا عليها بسهولة كلية بعد ان عرفوا كيف يتفادوا خطر الجابهــة ، وبعد ان راحت تقذف الجنب الاسبان من بعيد ، بقنابل المدافع وفشكت بهم وشردتهم كل مشرّد . والانتصار البحري العظيم الذي حققه اسطول الدول المسيحية ، على الاسطول العثباني في معركة لسانت ، عام ١٥٧١ ، استعال في النهاية الى اشتباك او عراك بالايدى ، بعد ان امنت فرقية الرماة البحرية ، الافضليسة للمسيحيين وفي سنة ١٥٧٢ ، عرف المسيحيون أن يمبئوا سفنهم ضد اسطول اولغ علي ، وذلك بوضع مراكبهم في الطليمـــة . وهكذا بدت خطوطهم الامامية لا تقهر على ايدي الثلاثيات . وفي سنة ١٥٩٠ التقى اسطول صقلية المؤلف من ثلاثيات شراعية ، باربعة مراكب انكليزية وحاول ايقافها ، فها كان من العهارة الانكليزية الا ان افنت على قلتها ، اسطول صقليسة . وهكذا زال الى الابد عصر الثلاثيات من السفن واطلت علينا سفينة خط النار الاول .

ولمل خير مثال لتعبئة الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، الجيش ؛ جيش شارل الثامن ، عم التعبئة التي تمت للجيش الفرنسي في عهد شارل الثامن ، عام القصد منها التهيئة للهجوم بزحزحة صفوف العدو ، والتأثير على معنوياتها وإضعافها ، وقد جهز كل فرد من افراد الجيش باسلحة يدوية ، وأحسن تدريبه بحيث يتمكن من خرق خطوط العدو من اول هجوم او يقوى على كسر حدة هجوم المدو بواسطة فرقة القنفذ ، وهي فرقة خاصة من المفاوير ، والفرق المسلحة تسليحًا خفيفًا للقيام بعمليات الاستطلاع والاستكشاف او للقيام بحروب المناوشات ومطاردة العدو ، لاستغلال النصر الى اقصى حد ، وفرق من الضابطيسة والياوران لابسي زرد الحديد مزودة افرادها برماح كبيرة ، الى جانبهم حملة الخناجر ورماة النبال ، وفرقة المشاة ، اكثر من نصف وحداتها يحملون رماحاً طويلة بينا جرى تسليح الآخرين بالحراب ، و عشر فرقة المشاة يحملون البنادق الكبيرة وقد ركزت على مرماة ، وهي عبارة عن مدفع صغير "يحمل باليد ، ورماة النبال على خيولهم أو مشاة" . امسا المدفعية فيكانت تتألف من ١٤٠ مدفعاً من البرونز تجري تعبئتها من الفم .

فرقة تألفت من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلكا ، بيش الدرترف...

جيش الدرترف...

تحت ادارة واشراف اخصائيين فاصبحوا وكأنهم آلات ميكانيكية تتحرك بالايماء والاشارة ، فمن أطرر وملاكات من الضباط ، جرى اختيارهم من بين الاشراف يتحدر بعضهم احياناً من ابجد واعرى الاسر الارستوقراطية ، يدفع الملك مرتباتهم ، فيخلصون له الولاء والطاعة . ويؤلف جيش المرتزقة فرقة منتقاة ، مختارة ، لها دفع لا يقاوم ، وتكورن عنصر القسوة الاساسية في الجيش . فالقسم الاكبر من فرقة المشاة يتألف من السويسريين جيء بهم من سفوح جبال سويسرا او من المقاطمات الالمانية ، وقد البورجوازيين او الفلاحين المسورين ، يتسلحون على حسابهم الخاص تحت إشراف حملة البنادق ، كتبوا كتائب تحت ادارة واشراف ضباط على حسابهم الخاص تحت إشراف حملة البنادق ، كتبوا كتائب تحويم على الصعود ، افيا لا بكفاءتهم في فن الحشد والتمبئة . وقد ألتف مجموعهم فرقة قوية ، تقوى على الصعود ، افيا لا تنبض باية فكرة او اقدام . وتتألف فرقة المشاة الحقيفة من فرنسيين جيء بهم من شمالي فرنسا ومن بين سكان غسكونيا الذين عرفوا بنشاطهم وشجاعتهم ، ومرونة اجسامهم وبما يحيش فيهم من روح الاقدام ، افاكانوا اقل صلابة من السويسريين ، وحمة البنادق .

كان من الطبيمي جداً ان تكلف تعبئة الجيوش غالياً . وهي نفقات لم يكن يتحملها الا

الدول القوية والملوك الذين باستطاعتهم ان يتصرفوا بموارد المالك والمقاطعات الواسعة الفنيــة التابعة لهم .

قد تمتد الحرب طويلا لان المركة لا تبتدىء الا برضى الفريقين المتحاربين. والجيش لا يمكن ان يخوض ممركة حربية قبل ان تجري تعبئته فتعتشد كتائبه في ساحة الحرب حسب نوع اسلمتها لتحتل مواقعها في الميمنة والميسرة، والقلب والمؤخرة والطليعة. ولم تمكن الوسائل قد توفرت بعد للتحول بالسرعة اللازمة من طابور في طريقه الى الحرب لطابور مهيا لخوض الممركة. ولذا كان لا بد من التوقف بعيداً عرن نطاق العدو، وتعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم الى الامام ببطء واحتراز كلي عافظة على النظام من جهة، وتحسباً لكل طارىء مفاجىء بحيث تصبح فرق الجيش ادنى من قاب قوسين من العدو فيبدأ بالهجوم. وفي هذه المدة يكون امام العدو الوقت الكافي ليأخذ عدته للامر: فيستأنف سيره او يتخذ مواقفه المقررة. ولا سبيل لاجبار العدو على الثوقف وقبول الممركة لان الاسلحة النارية هي بطيئة للغاية ولا فعالية كافية لها. ولذا كان لا بد من اللجوء الى ستراتيجية الوسائل الثانوية او الاضافية ، كالاستيلاء على مدن العدو الكبرى الواحدة بعد الاخرى ، وعلى مراكز تموينه ، واستباحة الريف وغزوه وسلب القرى والمزارع لارغام العدو على القاء سلاحه لقلة الميرة لديه . فاذا ما رضي العدو خوص المركة ليتفادى المركة ليتفادى نهيه مدنه ، كان عليه ان يعول ، في الدرجة الاولى ، على فرقة الخيالة وهي الفرقة التي كانت تقرر مصير المعركة بهجوم جانبي مفاجىء .

تأثيرالحروب الايطاليــة عـــــلى تطوير الاسلحـة

ادت الحروب الايطالية الى تطورات عظيمة اذكان باستطاعة المدفعية الفرنسية ان تطلق ، في ساعة واحدة ، من طلقات المدافع ، اكثر مما تستطيعه المدفعية الايطالية ، في يوم بكامله .

ولذا لم تستطع اية مدينة محصنة في ايطاليا ان تصمد اكثر من ٣٦ ساعة ، وكانت المدفعية تدك المماقل دكا فتتهاوى جدرانها وتتساقط الى الارض . ولذا كان لا بعد من وتسوير ، المدن وتشييد اكوام من التراب عندالاسوار وفي مؤخرتها بحيث اذا تساقطت قنابل المدافع واخترقتها لا تحدث في السور اي خلخلة في الجدران ولا تصدع . ولذا اصبح الدفاع عن المدينة اسهل من قبل . فسكان لا بد ان يقوم المحاصرون باعمال واتخاذ وسائل اخرى تسهل لهم الاقتراب من الحصون . عن طريق اقامة خنادق و دهاليز وممرات سرية والاستمانة بأكياس الرمل .

والمدفعية هذا السلاح الذي احتفظوا بفعاليته حتى الآن لحصار المدن والقلاع ، راحسوا يستعملونه ، اكثر فأكثر ، في ساحات الحرب ، بالاشتراك مع انواع اخرى من السلاح . فقسد ارغمت المدفعية الفرنسية ، في معركتي أغناديل (١٥٠٩) ورافينا (١٥١٠) العدو على ان يتخلى عن تحصيناته والحنادق التي كان يعتصم داخلها ، الى اراهي مكشوفة كانت تصلح لقيام المشاة الفرنسيين بهجومهم على الوجه الاكمل. ففي معركة مارينيان (١٥١٥) راحت المدفعية الفرنسية بعد ان امنت الاسلحة الاخرى حمايتها ، تحصد صفوف العدو ووحداته حصداً ، بحيث كانت و اجسام الجنود السويسريين تتطاير في الجو مع البارود ». وهكذ كسبت المعركة . فمركة مارينيان هي اولى المعارك الكبرى في التاريخ الحديث ، ثم تحقيقها بفضل هذا التناسق المظم الذي تم بين الاسلحة الكبرى الثلاث : المدفعية والحيالة والمشاة .

وقد راح المتحاربون يقدون نظم التعبئة الاصلح جدوى وفعالية : فيكتبون كتائب المشاة ويعبئون المدفعية على الطريقة الفرنسية ، والمشاة على الطريقة الالمانية في القرن الخامس عشر ، والخيسالة الخفيفة على الطريقة الالبانية ، وكلها إساليب ومناهج تعبئة اصبحت وسائل شائعة ومعروفة لدى الجميع . والبندقية التي استعملها الالمان سلاحاً رهيباً بعد ان ادخلوا عليها ما ادخلوا من تحسينات فنية ، جاءت ثمرة مهارتهم في شغل الحديد ، عم استعالها وانتشر على نطاق واسع ، بعد ان اصبحت اسهل استعمالاً واهون اخذاً وتناولا مسن القوس والنشاب ، وبرهنت عن فعالية حاسمة في تهيئة الهجوم والقيسام به . ولم يلبث القوس والنشاب ان خف استعالها تدريجياً حتى انتسخ العمل بها بالكلية .

الاصلاح الحربي الذي قام بەغونۇالغو القرطبي

أتاح مزج هذه الاساليب الحربية وافراغها لغونزالفيو القرطبي ، من فلاسفة الستراتيجية الحديثة ورجال الحرب في الطالما ، ان يدخل على الجيش الاسباني تحسينات جديدة

على مناهج التهيئة واساليب الحرب افضت بها الى طلوع فرقة الـ Tercio ، هذه الفرقة الاجنبية التي انشت في الجيش الاسباني عام ١٩٢٠ . واول اصلاح ادخله غونزالفسو ، تم سنة ١٩٠٧ من وادى الى انشاء الفرقة ذات الجناحين ، كل واحد منهما يتألف من ١٠٠٥ من المشاة و ١٠٠٨ من الشرطة ، و ١٠٠٠ من قرسان الحيالة الجنيفة و ٢٧ مدفعاً . وهكذا نجد تحت تصرف القائد او اللواء كل المناصر اللازمة لتوجيه المركة نحو النصر الاخير ، فقد شدد كثيراً ، عسلى الدور المنوط بفرقة المشاة ، هذه الفرقة التي تستطيع ان تنساور وان تقوم بالحركات المسكرية في كل الجمالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد محكة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم في كل الجمالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد محكة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم بحيث يستطيعون التغلفل بين افواج السويسريين وجندهم ويأخذون بطمنهم في بطونهم ، وقد عبام ثلاثة صفوف متراصة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي القيام بمناورات وحركات عبام ثلاثة صفوف متراصة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي القيام بمناورات وحركات التي تسبقها من جهة اليمين لتشحيل الطليمة ، وقد يسهل نظام التعبئة هذا ، على الطابور السائر في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طابور محارب ، و يدر "ب هؤلاء الجنود عسلى النظام في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طابور محارب ، و يدر "ب هؤلاء الجنود عسلى النظام والتقيد بالانتظام ، ويشبوا على احترام الذات والشعور بالعكرامة والمزة الوطنية والتحسس والتقيد بالانتظام ، ويشبوا على احترام الذات والشعور بالعكرامة والمزة الوطنية والتحسس

بالشعور الديني الحي . وبذلك جعل من المشاة الاسبان سلاحًا مخيفًا ، مما جعل الالمان ، بعد ان خيروا بأس هذه الفرقة وجربوها ، يصرحون قائلن : « انهم لم يحاربوا بشراً بل ابالسة ، .

اما الاسبان ، فالسكابوس الجاثم على صدورهم ، كان الجندي الفرنسي، وليس من النادر قط ان تقع عين الباحث في الوثائق التاريخية التي تعود للاعمال الحربية التي قام بها الاسبان في اميركا وحسمتها على الغالب ، كتساب من قدامى رجال الحرب في اوروبا ، على عبارات كهسذه : و فقد رَفعنا في وجه العدو حاجزاً بلغ من متانته ما لا قبل الفرنسيين ان يأتوا معه شيئاً ».

هذا الصراع الدامي ، الطويل المدى ، الذي قسام بين ملوك من البندقية الى الطبنجة فرنسا وملوك النمسا ، اتاح ادخال تحسينات جديدة عسل مناعة الحرب وادواتها . ادخل الاسبان ، حوالي عام ١٥٢٠ ، تحسيناً على البندقية ، فقسد تقيبت حقة الاشعال الى جهة اليمين من مدفع البندقية بحيث يصل الثقب بعلبة البارود ، بعد ان وضعوا لها غطاء عنم تسرب الماء والهواء والمطر والاهتزاز اليها ، بحيث يستطيع الجندي ان يسير والبندقية معبأة ومحشوة ، فيتم اطلاق العيار الناري بواسطة الكبس على انبوب يتصل بالزناد فيسقط الفتيل ويتصل بالبارود . فباستطاعة الجندي ان يشد على البندقية بكلتا يديه بما يزيد كثيراً في دقة التسديد . وهكذا امكن التخفيف من ثقل البندقية ، وراح الجندي يطلق النار والبندقية مسندة الى مشجب . وارتفعت نسبة حكة هذا السلاح في فرقة المشاة بعد ان راحوا يدعونها تارة علام من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح في فرقة المشاة . وقد بلغ من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح بنادق الاسمان » .

وحوالي ١٥٢٥ ؛ اخترع الماني البندقية ذات الدولاب، ربط به حجر صوان يتحرك بواسطة نابض (زنبرك) يستعمل كزناد ، يقدح شرراً عندما يتحرك فيشعل البارود . فالاستغناء عن الفتيل جمل فرسان الخيالة يعولون ، اكثر فأكثر على هذا السلاح . ولكي يسهلوا لهم استماله صنعوا بنادق خفيفة يمكن استمالها بيد واحدة ، هي الطبنجة . وفي اواسط القرن السادس عشر اخذ فرسان الخيالة الالمان يطلقون اثناء هجومهم العيارات النارية من طبنجاتهم مما اضطر معه قسم الخيالة ، في الجيوش الاخرى على احتذاء حذوهم واعتاد هذا السلاح الجديد ، حتى الشرطة منهم ، مع ان تأثيرهم كان قد تضاءل جداً .

كان الجندي السويسري يكلف غالياً بينها جندي المشاة الالماني في حالة سكر دائم. ولم تلبث فرقة المشاة ان اصبحت سلاحاً وطنياً وراح الفرنسيون يجندون طوابير مسن المشاة اكثر افرادها من الفرنسيين وفي عام ١٥٣٥ ، راح فرنسوا الاول يؤسس كتاتب اقليمية يؤخذ افرادها من ابناء الولاية او المقاطعة.

الدفيية ادخلت تحسينات اساسية على سلاح المدفعية المهما تبسيط الحركات والاكتفاء ببعض انواع رجعت فعاليتها بعد ان تكاثرت انواع المدافع الله

كانت قيد الاستمال ، بما وقف حائلا دون تجهيز الفرقة بحاجتها من العتاد والعسدد ، وبذلك وضعوا حداً لهذه الفوضى . فمنذ عام ١٥٤٤ ، اقتصرت المدفعية ، في جيش شارل الخامس ، على بعض المدافع من عيار بجرب . وحذا حذوه ، سلاح المدفعية عند الفرنسيين بعت إن توقفت نتائج المعارك على هذا النوع من السلاح ، ففي الحصار مثلا ، عوالوا بالاكثر ، على مدافع الهاون التي لم تمتم أن اصبحت غير صالحة للاستمال ، بعد اطلاق ٥-٦ طلقسات ، لسبب ما يحدثه المدفع من ردة الى الوراء . ولذا اخذوا يستعملون رفاصات نلسط في من الخان من اختراع الصاروخ ، المتنابل المداة للانفجار واشعسال الحرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنيخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا الخرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنيخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا ومنغلطات صنعت من المشاقة والكبريت ، لامطار المحاربين باللهب النارية . كذلك اخترعوا نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق محفت جنباً الى جنب ، محمِل بها حسى نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق أصفت جنباً الى جنب ، محمِل بها حسى

التعصينات العربية الختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار فافقدتها ما عليها من الاتربة المختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار قليلة السهاكة بعيث تخترقها القنابل بسهولة دون ان تحدث فيها تصدعاً يذكر او خلخلة وتدخل في التراب حيث تفقد قوتها . وعند الزوايا التي تتألف من حائط منحرف يصل بين جدارين اخذوا والي عام ١٥٦٠ يبنون ، بدلاً من الابراج ، "شرفات حصنوها بالتراب والاغصان ينصبون على جوانبها ، من هسنا وهنالك ، المدافع . ولكي يحولوا دون نسف الجدران بالالغام الناسفة ، حرصوا على اقامة خندق أجروا فيه قناة من الماء ، بعد ان دعوا جانبيه من جهة الارض ، بحائط قوى ، وبعد ان اقاموا ، في القمة ، مرا خفياً يسهل المرور لمن يريد الخروج .

المخطاط والتقبقو يطبع نهايسة القون فقد اشتدت فيها اعمال الكسين وعولوا على اعمال فقد اشتدت فيها اعمال الكسين وعولوا على اعمال

التبييت والترصد اكثر من تعويلهم على العمليات الحربية الكبرى . كذلك اعتمدوا ، اكثر فاكثر ، على المتفجرات والمفرقعات لنسف ابواب المدن (كاهور ، عام ١٥٨٠) وراحوا في البلاد الواطية يعتمدون اكثر فاكثر في دفاعهم عن البلاد ، على ما يقوم فيها من شبكات الفياض والمفدران والمستنقعات والبطائح لتقوية اعمال الدفاع . ومنذ موقعة ، غيرترويدمبرج (١٥٩٣) تبنتى موريس ده ناستو ، اساليب التعبئة التي جاءبها غونزالفو ، عندما استعمل الجند كرواد او طلائع في الجيش . ولما كان جيشه جيش حصار وليس جيش هجوم ، فقسد

درج على ان يقيم حول محسب أسواراً من الاوتاد بحسط به خندق ماء وقد تغنن كثيراً في توقير اسباب الاقتراب من المدن المحاصرة و بواسطة قفف محشوة ترابساً و في أرض يكفي ان يحفر الجندي قليلا في تربتها ليعثر على الماه . كذلك تفنن في حركات الكر والفر و بحيث ان جيشه هسدا اصبح مدراسة انتشرت مبادؤها في جميع انحاء أوروط .

ومع ذلك نشهد تناقص عدد الجيوش ، بعد عام ١٥٧٠ ، كا أن هسنة الجيوش اصبحت اقل تجهيزاً وعتاداً حربياً. فالازمة التي نزلت بالرأسمالية ، وارتفاع الاسعار ، والعرافيل التي حداث من الانتاج بسبب كثرة الحروب الاهلية ، وانقسام أوروبا ، اكثر فاكثر ، الى دول واحزاب واحلاف كل ذلك اضعف كثيراً من طاقات الجميم ، فقد انتهى القرن وغربت شمسه في شبه تأخر عام .

الحرب الاقتصادية والمالية مال واقتصاد . ان طرح رؤوس الاموال الجمهدة في التداول وتحويل الاعتادات الخصصة لمقاطعات اخرى ، للنهوض بالحرب وتأجج ضرامها ، كل هذا وما اليه ألمع للمعادل المحصفة لمقاطعات اخرى ، للنهوض بالحرب وتأجج ضرامها ، كل هذا وما اليه ألمع للملوك تجهيز جيوش جر"ارة بعد ان توفرت للدولة واردات طائلة من جباية الرسوم والمضرائب المفروضة . ولذا كان من الاهمية بمكان ان يحاول الخصم تمسير تموين العدو ، وقطع اسباب الميرة عنه لاحراجه ماليا واقتصاديا بتضييق الخناق عليه . فالابتكارات التي وضعها المكردينال ده تورثون ، حاكم مدينة ليون ، كتشكيل اتحاد المصارف الذي رمى منه الى تجميد الاموال المدة للاستثبار و واجتذاب رؤوس الاموال الى فرنسا من اي جهة كان ، واختزانها بقصد حبسها عن العدو والحؤول دونه للاستفادة منها ، ولا سيا التدابسير والاجراءات التي بعمى شكيله عام ١٥٥٥ ، كل هذه التدابير كان القصد منها ضرب حصار مالي ضد اسبانيا ورقير الاعتادات المالية اللازمة لفرنسوا الاول وهنري الثاني ، فاعطت النتائج المرجوة .

والحرب كذلك لها وجهها الاقتصادي . ولذا فكثيراً ما راح الملوك ينسيرون بين رعايام الروح القومية الاقتصادية ، هذه السياسة الوطنية التي عبروا عنها بكلة Mercantilisme وهو تمين يبدو لنا اليوم ضيتى المدلول بدغائم المفهوم . اما الغرض من هذه السياسة فهسو ان تؤمن المدولة نوعاً من الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد ، اي ان تكفي نفسها بنفسها على اكبر قدر بمكن ، ولا سيا من المواد الاولية والخامات الضرورية النهوض بالحرب وتأمين ما يازم لها من عدة وعتاد وتعدد ، وغير ذلك من المعادن وملع البارود والكبريت، وتوفير كل هذه المواد عليا . كذلك رمت هذه السياسة ، من ناحية اخرى ، الى اجتذاب النقد النادر او الثمين من المنهب والفضة واختزانه في البلاد والاحتفاظ به الميوم المصيب ، بما لا بد منه لحساة البلاد الاقتصادية ولدفع مرتبات الجند وتأمين نفقات الجيوش الطائلة ، وما تحتاج اليه من ذخسيرة

ومعرة ، ولا سما لدعم سياستها العلما . فالدول قلما تعتمد ، في هذا الجال ، على الحماية الجركية مع العلم ان الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج ، او على المواد الاوليـــة التي تصدرها البلاد ، جرى تطبيقها والعمل بها ، في بعض الاحيان . فلم يكن ليتوفر لدى الدول ما يازم مــن الموظفين الاكفّاء ولا من العمال الاكفياء ما يازم لاقامة مراكز تفتيش وجباية على طول الحدود ، لاستيفاء المتوجب من العوائد ـــ والرسوم ، كما ان الدولة لم تكن تمُّت لها بعد الخبرة الكاملة لفرض نظام من الحماية الجمركية ، او الاخذ بنظام اقتصادي موجه . وراحوا محظرون استيراد مصنوعات اجنبية ، ويمنعون خروج بعض المواد مـــن البلاد ، كما راحوْ ايصدرون ما يلزم من القوانين ويتخذون ما يجب من التدابيرالتي تمنع تهريب النقد للخارج، او تحدمن ارتفاع اسعار الحاجبات ، ويعمدون الى اقامـــة الاحتكارات . وكان رعاياهم ، ولا سما التجار منهم في المدن يفضلون بالاكثر ، ان تعتمد حكوماتهم سياسة التجـــارة الحرة . وكان لا بدمع ذلك من ظهور ازمات مالية حادة : ازمة هبوط او ازمــة ارتفاع ، وظهور اخطار في الخارج تجمــل الناس يرضخون او يطالبون بهذه الروح القومية في حياة البلاد الاقتصادية ، اسوة بما حدث في عهد الملكة اليصابات ، قبل عام ١٥٨٨ ، اذ كان يجمُ على صدر البلاد كابوس الارمادا التي لا تقهر ٬ وكما حدث في فرنسا بالذات ٬ عندما اجتمع ممثلو الامــــة ٬ عام ١٥٧٦ . فالقومية الاقتصادية ، هي ، قبل كل شيء ، سلاح بيد الحكومات ، في ما تعاني من اصطراع سياسي مع الخارج .

٢ _ امبر اطوريات وقيصريات

سبق للسيد المسيح ان تمنى على الله : « ان يكونوا واحداً كما نحن واحد » وهسو طلب تمنى معه ان تؤلف جميع الامم والشعوب حكومة واحدة تحت سلطة واحدة وقانون واحد. وبقيت هذه الأمنية حية تنبض في قلوب الناس حتى القرن السادس عشر ، يتبلور صداها على الاخص في شخص رئيسين نزع كل من جهته ، إلى اقامة سلطان اعلى وسلطة اسمى ، هما الماط والامعراطور .

البابا ادّعى البابا لنفسه سلطة شاملة مسكونية ، كا ادعى الحق بحسل رعايا الملوك البابا النفسه سلطة شاملة مسكونية ، كا ادعى الحق بحسل رعايا الملوك اجمع من قسم الولاء والطاعة الذي يقيدهم ، وحق اسقاط الملوك ، وتكريس الامبراطور ومسحه ، وتوجيه الملوك وارشادهم . غير ان نفوذه لم يكن بالفعل مما أيعتد بسه او يؤبه له . فها هو يدعو عبثا ، لحلة صليبة جديدة فتذهب صرخته في واد ، وعبشا يقضي في الاختسلافات بين الملوك تحسكا ، اذا ما رأى هؤلاء مصلحة لهم في العبث باحكامه والغض من اقضيته . وعندما راحت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان ، عام ١٤٩٤ ، في بسلدة توردسيلاس ، الاراضي الجديدة التي صارت اليهم في العالم الجديد ، لم يتورعا قط من ان مجريا تعديلا في أحكام البراءة البابا ، ملء

السلطان ، بعد ان اعلنتا على الملا ان ليس في مقدوره قط ، ان يرفع ، من تلقاء نفسه وبمجرد مشيئته ، المسؤوليات المترتبة عليها. وفي سنة ١٥٤٠ ، اعتسرف الملك فرنسوا الاول واقر ان للبابوات سلطة روحية ، ولكن لا حتى لهم البتة بان يتصرفوا بالارض فيوزعوها على هواهم . ثم ان علمنة السياسة وحركة الاصلاح الديني أقصرا كثيراً من نفوذ البابا الزمني ، وخفضا مها تبقى له من سلطة وسلطان حتى على الدولة البابوية بوصفه زعيماً سياسياً .

من مزاعمه المتوارثة انه الوريث الشرعي للاباطرة الرومانيين ، تلتقشى الامبراطور الرومانيين ، تلتقشى الامبراطور سلطته من الله نفسه ، وانه بالتهالي ، الرئيس الاعلى والقاضي ، والوسيط ، والحكم النهائي والاخير ، في الامور الزمنية ، وان له السيادة والتقدم على أصحاب العروش والتيجان ، وان الملوك والامراء كلهم ثبع له ، مقيدون تجاهه بالروابط التي تفرضها النظم الاقطاعية وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان الاقطاعية وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان يقيم جميع الملوك نواباً امبراطوريين ، وانه أعطي وحده الحق بتدبير شؤون المسيحية جماء ، ولا سيا السلطان لتأديب الكفرة والمارقين ، والهراطقة والجاحدين . فهو القائد الاعلى لكل صليمة .

القول بسلطة عليا في العالم ، نظرية تجاوبت اصداؤها في النفوس وارتكضت اوروبا والقيصريات بها المشاعر الحية التي تنبض في كل الشعوب ، ولم يكن أحد ليجرؤ المتعرض لها على المكشوف . وقد أخذت هذه الافكار والمشاعر تتطور بالفعل دون ان يلحظ المسؤولون شيئًا من هذا ، او ان ينتبهوا الى ما هو جار . ففكرة الامبراطورية او السلطة الشاملة اخذت بالرغم من احترامها للقوميات المختلفة ، باعتبارها اداة اتحساد بين الشعوب الاشقاء ، كتنفير وتتحول خفية لتحل محلها فكرة القيصرية ، او تسلط امة فاتحة غلا بة ، تمتص دونما انقطاع او توقف ، الممالك والشعوب مرغمة الآخرين بمن ليسوا من توابعها ، على احترام ارادتها .

القيصرية الالمانية التقالى الفعل ، قيصرية ألمانيسة . فالامبراطورية لم تكن ، من حيث القيصرية الالمانية اشتقاق اللفظ ، من حتى اي شعب من شعوب الارض . فهي فوق الشعوب والمنطق يقضي بانتقالها من ملك الى ملك ومن شعب الى شعب . اما الالمان ، فقد اعتبروا انها من حقهم وحدهم دون سواهم . أفليس مملكهم الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؟ وهي امبراطورية تشمل كل الاراضي الجرمانية . فهي تأكد عي حتى في اواخر القرن الخامس عشر : الامبراطورية المقدسة تقتصر على القومية الالمانية . وعندما تقدم الملك فرنسوا الاول وشارل الخامس يرشحان نفسيها ، عام ١٥١٨ ، لانتخاب الامبراطورية ، قام ومنفلنغ يعيد نشر مجث قديم ينص على وجوب انتقال منصب الامبراطورية الى الالمان ، وبالا تؤول لا الى فرنسي او بورغوني ، بل الى الماني ، من المرق الالماني . فالامبراطورية ، هي ، في نظر الالمان ، سمة التفوق

والتسامي واداة سيطرة الشعب الالماني على باقي الشعوب فهي أداتهم المثلى لاقامة قيدريتهم الا ان تطور المهالك والامارات الالمانية ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ونزعات رؤسائها وماوكها للاستقلال بالانفصال عن الامبراطورية ، والاصلاح الديني الذي غذى هذه النزعات وابرزها ، كل ذلك جزاً ألمانيا ، وحال دون بروز هذه القيصرية .

التيسرية المرتبة عالميًا عنها – وماذا ينع ؟ – قيصرية فرنسية و فقد سبق الفرنسين واعلنوها التيسرية المرتبة المرتبة عالميًا و مراراً و تكراراً و انه ليس ما يربطهم بالامبراطورية قط . و فالملك هو الامبراطور في مملكته و . وها هو شارل الثامن يهبط ايطاليا ويتوغل بعيداً نحو الشرق و مارشا صليبية ويتزود عا يؤيد خلافته لامبراطور القسطنطينية . فها هدو يدخل نابولي حاملاً على هامته تاجاً من الذهب و بمسكا بيده الصولجان الامبراطوري والكرة الارضية والشعب يهتف له على جوارحه . و ليمش الامبراطور صاحب الجلالة و . فاذا بالهلع يدب في قلوب الالمان و واحوا يفسرون نخاوفهم انه انحا يسمى وراء لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذه القيصرية الفرنسية التي تبلورت في رغبة الفرنسين السيطرة على ايطاليا بترشيح الملك فرنسوا الاول نفسه لانتخابات الامبراطور عام ١٥١٩ و حل علها و يعد فوز شارل الحامس بها و سياسة دفاعية تجاه آل هبسبورج .

التيمرية البورغونية المائلة الملكية في النسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكهم الطائلة المائلة المائلة الملكية في النسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكهم الطائلة الاهراطورية كا هو صاحب تاج أراغون وقشتالة ، الذي اصبح ، عام ١٥١٩ ، امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . هو اولا ، وقبل اي شيء آخر ، شارل العظيم ، شارل الكبير ، البورغوني الاصل والمحتد ، يحمل في نفسه نزعة بورغونية قوية الى القيصرية تسيطر عليه وتتملكه . فعطلبه الاغر وهدفه الاول هو استرجاع تركة شارل الجسور ، من ملوك فرنسا ولا سيا استخلاص دوقية بورغونيا وعاصمتها ديمون ، ودير رهبان شارتر في شاغول ، حيث يرقد بالرب ، اباؤه واجداده ، ثم انشاء دولة بورغونية ، مهيبة الجانب ، تهيمن على النرب وتقود منه الحملي . هذا هو حلمه الاكبر ، وفي سبيل هذا الحلم المعسول ، يحلو له ان يسخر المالك والدوقيات والكونتات والامبراطورية نفسها . فقد صارت خطته هذه الى فشل ذريع اذ ان معاهدة كبريه التي عقدها مع فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٩ ، كرست نهائيسا ، اقتسام تركة مشارل الجسور .

وهذه القيصرية التي جاش بها آل هبسبورج ، نراها تتقمص من جديد في القيصرية العشالية . اخب شارل الخامس لتبرز قيصرية اسبانية ، قشتالية . اخب شارل الخامس يتطبع ، شيئًا بطباع آل قشتالة . أليست قشتالة هي خير من تفهم الحلامه وتبناها،

وخير من امتثل له وخير من أمد م بالاصفر الرنان والجيوش الجرارة ? فهو يتزعم اسبانيسها ويقودها للسيطرة على ايطاليا . فصقلية تمد اسبانيا بالقمح الذي لا يتوفر لهما بالقدر السكاني . وتأميناً للاعتادات التي تؤمنها له المصارف الالمانية ، رهن املاك التاج في نابولي . ودوقية ميلانو هي المرحلة الاولى والقلمة التي تفسضي اليها مجازات جبال الالب .

والانتصارات التي يحققها في ايطاليا تضع تحت تصرفه خزائن رجال المال في جنوى وفلورنسا ، الى ان يتم له ، بعد لأي قصير ، طرد الفرنسيين من ايطاليا .

وها هو يقود اسبانيا للسيطرة على الامبراطورية . فالجيش الاسباني يؤمسن له النصر في موهلبرغ (١٥٤٧) وينتصر على البروتستانت الالمان وعلى حلف سمالكلاند . والحاميات الاسبانية تتحكم بكل المانيا . فشارل الحامس يرغب من كل قواه ويتسوق في الصمع ، الى تتويج ابنه فللب ملكا رومانيا ، بالرغم من جنسيته الاسبانية ، ويجعل منه الامبراطور المتبد . فظنون الالمان وهواجسهم لها ما يبررها: فهم امام محاولة لبسط سيطرة اسبانيا عليهم. و فاذا كان لا حق لاى ولـش ان يتحكم بنا ، فكم بالاحرى ، لاي اسبـاني ، . فراح السواد الاعظم من الالمان يعطفون على شقيقه فردينان وعلى ابنه مكسميليان . فمنذ عــــام ١٥٢٢ ، تخلى شارل الخامس لاخمه عن ممتلكات آل هبسبورج في النمسا وفي المانيا . كا اختاره ليكون نائبه المام في هذه الاخيرة . فمنذ عام ١٥٣١ ، اصبح فردينان ملك الرومان . والمقاومة التي اظهرها هو وابنه ، لاخيه شارل الحنامس ؛ حملت هذا الاخير على التراجع ؛ وفي سنة ١٥٥١ ، اضطر الى أن يسحب من جميسع انحاء المانيا ، الحاميات والكتائب الاسبانية المرابطة فيها ، بعد الذي شاهده من اهتباج الالمان وبغضهم لها . ولذا لم يكن بدّ من التسليم بانسحاب الاسبان ومن اقتسام تركة آل مبسبورج . وفي سنة ١٥٥٨ ، تنازل شارل الحامس عن لقب امبراطور المانيا الذي كان يحمله منذ عام ١٥١٩ ، وعلى الاثر ، تم انتخاب فردينان امبراطوراً وصارت اليسه جيع املاك ١٦ هبسبورج المتوارثة ، كما صارت اليه المسالك المؤدية الى مجهازات الالب والمداخل الموصلة الى قلب اوروبا . الا ان الانقسامات التي قامت في ايطاليا ، والخطر التركي الجاثم بالقرب منها ، جملت هذه القيصرية لا توحي باي خطر .

احتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية فاقتصرت القيصرية التي جاش بها على غربي اوروبا . فكا ان والده سخر فكرة بسط سيطرته في خدمة القيصرية المتتابعة ، سخر فيليب الثاني ، عن حسن نية منه ، الفكرة الدينية التي مثلها ، في خدمة القيصرية الاسبانية : فقسه برز المدافع الابول عن الكثلكة ضد الهرطقة . حاول ان يخضع لسيطرته ، البلاد الواطيسة ليجمل منها قاعدته الكبرى لتوجيه ضرباته اينا شاء . فقد حاول ان يسيطر على انكلارا وان يسط سلطانه على البحار الفيقة بزواجه من اليصابات ثم محاولته غزو انكلارا ، عام ١٩٨٨ ، يسط سلطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد ان مني والفشل ، وتجه جهوده نحسو فرنسا ولا سيا ضد هنري ده نافار الهرطوقي المطالب بالمرش، وهيا جميع الاسباب ليرشح نفسه لمرش فرنسا،

ثم رشح له ابنته ايزابيل. فشلت خططه تلك ، فاضطر معها الى عقد معاهدة فرفين (١٥٩٨) التي جاء عقدها تكريساً لهذا الفشل. فقد اصطدمت القيصرية الاسبانية ، اينا ظهرت ، بالروح القومية ، وجدت في القومية ، والشعور الوطني . فالقيصرة التي جاءت أصلا ، ربيبة الروح القومية ، وجدت في القوميات المددة ، حداً لآمالها ، وصداً لامانيها .

هل يجوز بعد هذا ، التحدث عن قيصرية انكليزية ؟ فالسياسة الانكليزية التيمريات البحرية استهدفت دوماً التوازن الدولي . وقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا دوما بمدينتي بولوني وكاليه ، وبذلك يؤمنون السيطرة على المسالك والمرور من بحر المانش الى البحر الشالي ، وعلى ملتقى المحيط الاطلسي بالبحار الشالية ، ومنافذ البحر الابيض المتوسط الى البلدان المحيطة بالبحر البلطيقي . وقد بقيت السيطرة ، على هذه المواقع ، في نهاية الامر ، بيد الفرنسيين .

مثلت الاجيال الوسطى الحقبة التي كانت فيها حرية البحار مطلوقة المجميع . ولكن ما كادت بعض الدول تطل على العصر الحديث حتى نزعت نفسها للسيطرة على مجر او عدة مجار ، فالبندقية محد فت منذ القرن الثالث عشر ، للسيطرة على البحر الادرياتيكي ، كا هدفت ، جنوى من جهتها ، منذ القرن الرابع عشر ، للسيطرة على البحر الليغوري، والدانمارك على البطيق ، والنرويج على الحيط الاطلسي حتى مشارف إسلندا وغرينلاند . والدولة الاستعارية كثيراً ما رغبت في اقامة نوع من الاحتكارات والى فرض الرسوم وجبايتها ، لقاء حرية الصيادين والتجار ولتأمين سلامة السفن التي ترفع علها .

تبرية البحر التوسط الاسبانية لا يمكن تصورها الا بعد تأمين سلامـــة وامن الحوض الغربي البحر الابيض المتوسط حيث قامت اهم الممتلكات الاسبانية . فالحرب البحرية رمت دومـــا السبطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديـــدة والارياح المسبطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديـــدة والارياح المزجرة ، وصغر السفن وسرعة عطبها ، اجبرت الملاحة على السير بالقرب من السواحل البحرية ، واوجبت عليها إقامة شبكة ، من المرافىء تؤمن لها حاجتها من المؤن والذخائر ، فقد كان من السهل احتلال بعض هذه الموانىء ، وقطع المواصلات البحرية ، بعد ان أيف الاتراك كل سنة تقريبا ارسال عمارة من سفنهم ، القيام باعمال القرصنة في البحر وسلب المناطق الحيطة به . وكم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم ، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بجاجة وكم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم ، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بجاجة اليها (طولون سنة ١٤٤١) . ولحسن حظ الاسبان ، انه لم يخطر يوماً للاتراك في البال – وجسل همهم من القرصنة النهب والسلب والاستباحة – ان يذهبوا بعيداً في قرصنتهم ، او ان تحدثهم النفس ، باغلاق البوابة القائمة بين نابولي ومسينا . فبعد وفاة هنري الثاني ، اختفت من ميساه البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزف الاتراك عسن البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزف الاتراك عسن البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزف الاتراك عسن

مفامراتهم الحربية في هذه المناطق، بمد ان سدت في وجههم القواعد الفرنسية اذ ان حروبهم مع الفرس والامبراطور اضطرتهم للتوقف عن هذه الاعمال المدوانية الكائن لهم من مشاغلهم الداخلية كأمور الخلافة والقضايا الاقتصادية ما أثار في وجههم المراقيل والمصاعب . فقد تم للحلف المسيحي المقدس النصر على الاتراك العثمانيين افي معركة ليبانت (١٥٧١) . وهكذا تم طرد الاتراك من حوض البحر المتوسط الغربي . ثم ان الاتراك والاسبان اتجهوا ابنظارهم نحو المحيطات واصبح البحر المتوسط المعنى من الطرقات البحرية الكبرى واصبح بالتالي في المرتبة الثانية من النشاط والحركة التجارية المعدان كان امن قبل وطكذا الحركة ومحورها الرئيسي . وهكذا اخذ بجال السيطرة يتجه الى الحيطات .

القيصريات المحيطية الاوروبية على المحيطات ، فلم يكتف البرتف اليون والاسبانيون بتأسيس امبراطوريات واسمــة لهم ، بل راحو يعتقدون يقيناً ان الله اختصهم دون سواهم بتملك الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف في المستقبل . وظهرت براءات بابوية عديدة تؤيد وتقر المواثيق التي توصل الطرفان الى عقدها ، بهذا الصدد ، وتحدد مناطق نفوذ كل دولة منها عاولتين ان تقصي عنها او ان تحرم منها ، الدول الاخرى . واهم المواثيق التي عقدت بسين الاسبان والبرتفاليين ، في هذا الجال هي معاهدة تورد سيسلاس (١٤٩٤) التي أقامت الحدود الفاصلة بين معتلكات الطرفين عبر المحيط الاطلسي ، عند خط يمتد ١٧٠ فرسخا الى الغرب من جزر الرأس الاخضر ، كما حددت معاهدة "سرغسطة (١٤٩٩) الخط الفاصل بين املاك الطرفين في الحيط الهادي ، على بعد ١٧٧ درجة الى الشرق من جزر المولوسك .

فالاسبان والبرتغاليون تشبعوا من فكرة قدسية هذه النصوص التي كرست احتكاراتهم لهذه الكشوف الارضية ولملكيتهم لهذه البلدان التي ظهرت لهم . فالمناهضون لها او المتجرئون على مخالفتها يستهدفون للحرم . فقد نظروا الى كل حملة او تجريدة تجارية ، او الى اية محاولة استعارية يقوم بها الغير ، نظرهم الى عمل قرصنة موجه ضدهم ، ولذا استهدف كل من تحدث نفسه باتيان شيء من هذا ، الفتل والمذاب والتشهير ، مصير كل خائن مارق .

والحال ، فقد اصبحت هذه الامبراطوريات الاستمارية ، عاملاً هاماً في السياسة الاوروبية عا امنته لدول اوروبا ولامرائها من المعادن الثمينة ، وصلتها ، في بدء الامر ، بمقادير خشية عدودة ، لم تلبث ان ارتدت اهمية كبرى ، لدى شارل الحامس ، بعد ان تم له فتح المكسيك على يد معثله كورتيس (١٥٢٠–١٥٣٢) ، وفتح البيرو ، على يد بيزارو (١٥٣١–١٥٣٦) ، واخيراً بعد إن تم اكتشاف مناجم الفضة الفنية ، الواقعة في مدينة بوتوزي ، عام ١٥٤٥ . فالامبراطورية البرتفالية مثلت ، مدة طويلة ، دوراً كبيراً ، في الجال الاقتصادي ، اذا ما قيس بالدور السياسي الضئيل الذي لعبته في الجال السياسي ، بالنظر لصغر حجم البلد الأم .

الا ان فيلب الثاني ، تمكن ، عام ١٥٨٠ ، من فتع البرتسال ، والاستيلاء على البلاد ، وحمل البرتغاليين . عام ١٥٨٢ ، على الاعتراف بسلطانه وسلطته ، فاضاف بهذا الفتح ، الى ممتلكاته الواسعة ، ما كان من امثالها للبرتغاليين من مستعمرات شاسعة الارجاء ، وصرف كل همه اذ ذاك ، لرعاية هذه الامبراطوية العالمية الشاملة . وهذه الحروب التي خاضها في السنوات الاخيرة من عهده ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، لم تكن لترمي ، في نظره ، الا لتأمين سيطرته على المواصلات في الحيط الاطلسي . قالحرب ضد الاتراك جملته ينصرف عن البحر المتوسط ويهمل المره فيه ليوني كل همه الى المحيط الهندي ، تأميناً منه السيطرة على مناجم الذهب في صوفالا .

من ينظر الى خارطة العالم ؛ اذ ذاك ، يخيل اليه انه اذا كان شارل الخامس وابنسه فيليب الثاني ؛ قد غلبا على امرهما في اوروبا ، فقد حققا ، في اماكن اخرى ، نجاحات عظيمة ، وان اهم بمتلكاتهما هي المحيط الاطلسي وامبراطوريتهما ترامت من حدود هذه الامبراطورية ، في اوروبا ، الى اميركا ، في الغرب . كل هذا وهم في وهم . فواردات اميركا لم تكن لتمثل سنسة وادروبا ، الى اميركا لم تكن لتمثل سنسة ما ١٥٥٥، سوى ١١٪ من مالية الدولة ، ثم ارتفعت الى ٢٥٪ عام ١٥٨٥ ، فقوة شارل الخسامس وفيليب الثناني تبقى في اسبانيا وفي ايطاليا . فامبراطوريتهما هي قارية ، قبل كل شيء ، مع فروع لها بالطبع ، عبر الاوقيانوسات .

هذه القيصريات التي استمرضنا لاهما في بحثنا هذا ، حملت على التصدي الترازن الدرلي لها ، والوقوف بوجههـــا والصمود امامها ، هذه الدول الاخرى التي تمثل نزعات ومصالح القوميات التي تألفت منها . فقــــد حاولت مجتمعة ، منع اقواها واشدها ، اذ ذاله ، من تحقيق اهدافها ، وراحت تتحالف لاقامة توزان بين الدول ، اي اقامــة ميزان او قسطاس لهذه القوى . وهذه النظريــة لم تلبث ان اصبحت القاعدة التي سار عليها مبــدأ التوازن بين الدول الاوروبية ، والفكرة التي سلمت بها الاجيال الوسطى بوجود تدرج مسلسل بين الممالك حلت محلها نظرية : دول حرة متساوية . وفكرة التوازن الدولي هذه عرفتهما ايطاليا من قبل ، وطبقتها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وما خلف البندقية ، (مارس ١٤٩٥) الذي ألب ضد شارل الثامن : البابا والبندقية ، وميلانو وآل هبسبورج وآراغنون وقشتالة ، الأ ايذانا بانتقال مبدأ التوازن الدولي ، من ايطاليا الى اوروبا والعمل بموجب كقاعدة اساسية للسياسة الاوروبية . وقد اصبحت انكلترا روح هذه السياسة وباحتها ، مع انها اشتطت مراراً في تطبيقها وجارت ، بدافع الحقد التقليدي الذي تحمله ضد فرنسا.ومبــداً التوازن هذا ؟ ادتى الى عقد عدة اسلاف ؛ منها مثلا : الحلف المقدس الذي عقد عام ١٥١١ ؟ وحلف كونياك المقود عام ١٥٢٦ ، وغيرها ، بعد أن ضربنا صفحاً عن عدد كبير من المواثيق المتذبذبية .

اما الحيطات فلم يتحقق بشأنها اي توازن ، انما طلعت علينا نظرية حرية البحار، ونظرية الاحتلال الفعلي او الواقعي . ففي سنة ١٥٣٣ ، نال فرنسوا الاول ، من البابا اقليمس السابع ،

تفسيراً لهذه البراءات البابوية التي صدرت عام ١٤٩٣ والتي استثنت نصوصها القارات المعروفة قبل عام ١٤٩٣ ، وليس الاراضي الجديدة التي يمكن اكتشافها فيا بعد، على يد الدول الاخرى. وذهب فرنسوا الاول الى ابعد من ذلك ، عام ١٥٥٠ ، فاسمعه يقول : و ان الشمس تشرق له كما تشرق لغيره ، ويتوق كثيراً لو يستطيع الاطلاع على الوصية التي تركها ابونا آدم وقسم الارض عوجبها بين ذريته » .

وصرح بأن احتلال الارض وحده يولي حق التملك ، وبان اكتحال المين بمرأى الارض التي تلوح للناظر من بعيد ، او مجرد عبورها ، لا يعطي قط حجة بتملكها ولا يقيم سند تملك ، وبانه يعتبر مماوكة : د الاماكن المأهولة والتي جرى تحصينها ، . فنحن هنا امام الاسس التي قام عليها الاستمار الحديث .

السياسة الإيجابية تتهض السياسة ، قبل كل شيء على وزن القوى القائسة وتقييم المناصر التي تتألف منها بالنسبة بعضها لبعض . فالقانون او العامل الاخدير هو المصلحة المتفهمة حق الفهم ، والقاعدة الوحيدة هي الفعالية او النجاح. وكثيراً ما اقسموا بالله واستشهدوا بالاخلاق الادبية ، وهي امور لم يعد احد ليهتم بها او ليحكرث لهسا . فبابوات تلك الحقبة ، هم انفسهم أعطوا المثل على احتقار الكلام المقطوع . فاذا كان لهم حتى الربط والحل ، فقد كان بوسعهم ، طبعاً ، ان يحتوا انفسهم : قلم يشعروا بوماً ، باي التزام يقيده ، لانهم ذياوا او وقعوا وثيقة او صحاً حرروه . فقد نسفوا من الاساس الاخلاقية الشريفة التي كانت توصي باحسارام الكلام المقطوع ، واواصر الشرف ، وهذه المئثل النبيلة التي كانت الباعث او الدافع لمكسارم الاخلاق . وعلى هذا دشتن البابوات عهداً جديداً وسياسة جديدة ، في العلائق الدولية .

غامت فكرة الصليبية في الاذهان مع انه لا يزال هنالك من يثير هذا السيسرن، وخوارج الموضوع ويلهج به . فقامت ، في هدذا السيل، عدة اتحادات ضد الاتراك (١٥٠٨ و ١٥٠٨) كانت مظاهر ومناورات اكثر منها وقائسع جدية . فالبابا جول الثاني نفسه اعطى المثل على طسها . فقد اقتطع قدراً من المبالغ المجموعة لاغراض الصليبية لاستكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس . والبابا اينوشنتيوس الثامن تقاضى من السلطان بايزيد جعالة دسمة لقاء احتمازه ، في روما ، شقيق السلطان ، المدعو دجم سلطان الذي كان منافساً لاخيه على عرش السلطنة . كذلك ، استقبل البابا استقبالا مهيباً سفير السلطان بايزيد بحضور بحسلس الكرادلة ومثلي الدول المسيحية في روما . وفرنسوا الاول ، عقد حلفاً مع الاتراك لانهم يستطيعون السياجوا الامبراطور من السوراء ، في اوروبا الوسطى فيقطمون ، عدلى شارل الخامس ، خطوط مواصلاته في البحر المتوسط ، وهي احمال تتفق قاماً وسياسته الوطنية . ومنذ عام ١٩٣٤ ، عقد على على الكرادية في بلدان الشرق الاحتى . وشارل الخامس نفسه ترصل في نهاية الامر ، الى حقد اتفاق مع المتارية في بلدان الشرق الاحتى . وشارل الخامس نفسه ترصل في نهاية الامر ، الى حقد اتفاق مع المتارية في بلدان الشرق الاحتى . وشارل الخامس نفسه ترصل في نهاية الامر ، الى حقد اتفاق مع التعارية في بلدان الشرق الاحتى . وشارل الخامس نفسه ترصل في نهاية الامر ، الى حقد اتفاق مع

المسلمين في تلمسان وفي تونس ، كما ان اخاه فردينان دخل في مفاوضات مع الاتراك ، ودفع لهم الجزئة .

شجب الرأي العام المفاوضات التي اجراها الملوك المسيحيون مع المسلمين. وأي عام ودعاوة وكان واضحاً ان هؤلاء الملوك لا يستطيعون الاضطلاع باعباء الحكم الا اذا عرفوا ان يؤمنوا عطف الرأي العام ، خوفاً من قيام معارضة في وجههم . ولذا قاموا ينظمون الدعاوة . ففي عام ١٥٣٦ ، فرض شارل الخامس على البابا ان يلقي في مجلس الكرادلة ، خطبة طويلة ، يشهر فيها بالملك فرنسوا الاول ، ويفضح جرائمه ويجمه المسؤول الاول عن الحرب ، وهذا التركي ، مضطهد اللوثريين . وقد تمت ترجمة هذه الخطبة الى كل اللغات وجرى توزيسم نسخ منها في كل البلدان ، بواسطة مطابع أنفرس . وقد راح حزب الامبراطهور يلقب فرنسوا الاول بد و تركي ، أما فرنسوا الاول فقد عهد الى الاخوة Du Belay ان ينظموا له اشبه ما يكون بمكتب صحفي يكون فيه من الكتاب والسكرتيرية من يحسنون الفرنسية واللاتينيسة والالمانية ، مع مراسلين له في جميع انحاء اوروبا ، من أبرزهم جان سليدان ، في ستراسبورغ ، فاغرقوا البلاد بطائفة من المنشورات والاهاجي ضد شارل الخامس الظالم الظلوم .

كان فرنسوا الاول هو اول من حر"ك او أطلق النظرية التي تقول بوجوب موافقة الرعايا بحرية على اي قرار يتملق بمصيرهم. فكل حوادث دمج ولايات البروفانس وبورغونياوبريتانيا الى املاك المرش التي وقعت منذ اواخر القرن الخامس عشر ، انما تمت بناء" على اتفساق نص صراحة على حق تصرف الشعوب بنفسها بحرية الا ان تنازل فرنسوا الاول عن مقاطعة بورغونيا لشارل الخامس ، بموجب معاهدة مدريد ، عام ١٥٢٦ ، بعد انهزامه في معركة بافيا ، لم يتحقق ولم يحصل ، لان عقد هذه الماهدة جاء خالفاً لهذا الحق . ففي عام ١٥٢٦ ، اعلن سكان دوقية بورغونيا بانهم يرغبون و في البقاء على ولاشم لعرش فرنسا وليس للامبراطوره ، متمسكين بالمبدأ القائل بانه لا يجوز نقل شعب ، من سلطة الى سلطة اخرى ، بدون رضا هذا الشعب وموافقته .

وكما ان اللغة راحت تفرض نفسها في كل انحاء المملكة ، فقد ألثفت الرقعة التي سيطرت عليها لغة ما ، وطناً او جنسية . فغي سنة ١٥٥١ ،قدم الامراء الالمان الملك هنري الثاني الوكالة على مدن الامبراطورية التي تشكلم اللغة الفرنسية . وهذا التصرف حمل الملك هنري الرابع على ان يصرح فيا بعد : و أرغب في الصميم ان تذهب المقاطعات التي تشكلم الالمانية الى المانيا ، كا المهم جيداً ان تكون في كل المقاطعات التي تشكلم الفرنسية » .

غلب الاصلاح احياناً ، الشعور الديني على الشعور الوطني او القدومي ، الاصلاح والامم كما يشهد على ذلك بوضوح ، تاريخ اوروبا بين ١٥٦٠ -- ١٥٩٠. فقد راح اتباع الدين الواحد يظاهرون بعضهم بعضاً ، أيثًا كان البلد الذي ينتمون اليه ويحمسلون السلاح الى جانب ابناء ملتهم ولو كان موجها ضد مواطنيهم . غير ان الاصلاح راح يشجع ، على الاجمال

ظهور القوميات. فاسبانيا وحدها بين الدول الكبرى في الغرب ، قضت على الهرطقة الجديدة بسرعة ، وراح الاسبان يعتقدون ، في قرارة انفسهم ، انهم شعب السيد المسيح الخاص وجندالله. فالقيصرية الاسبانية ، في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني اعتبرت نفسها صليبية اسبانية ، فالشعور الديني هنا وطد كثيراً الشعور القومي وقورًاه .

اما في انكلترا ، فحرب المائة سنة غنّت في البلاد شعوراً وطنياً صحيحاً ، انما كان شعوراً فاتراً لان البلاد لم تكتو بنار هذه الحرب ولم تتضرس بويلاتها ، وبقيت الاراضي والممتلكات سالمة لم تتعرض لاعمال السلب والنهب والاستبزاز ، كما ان الاهلين بقوا بعيدين عن ويلاتها . فقد جاء الاصلاح الديني فيها يلهب الشعور القومي في النفوس ويؤججها حقداً وموجدة على البابا والدول الكاثوليكية . ولم تلبث انكلترا ان اصبحت حامية الاصلاح والمناضلة دونه ضد فيليب الثاني بعد ان تفجرت فيها الروح القومية .

اما في المانيا ، فقد تحسست البلاد بشعور عام ضد العرش وايطاليا ، فقد شطرها الاصلاح شطرين اضعفا من شأنها كدولة ذات بأس ونفوذ . وبعثت حركة الاصلاح فيها الى الوجود ، قوميات جديدة ، تركتزت وتراصت دينيا حول اميرها او مليكها . وعلى هذا قس الاصلاح في البلاد الواطية ، اذ فرض على هذه البقية الباقية من القومية البورغونية فخلتف فيها

ففي اواخر القرن نرى الشعور القومي يتغلب ويسيطر في كل مكان ، ففي عام ١٥٩٨ ، يشكو بوسفين من ان الرهبان اليسوعيين الفرنسيين لم يقبلوا برئاسة رئيس ايطالي عام عليهم ، وراح الرهبان اليسوعيون يستبدلون الكتب الاجنبية الموجودة في التداول بينهم بكتب من وضعهم هم . وهكذا فالحركة الانسانية نفسها تأممت ، والفردية القومية فازت بالنهاية وتفلبت على الروح الشعوبية والدينية .

٣ - قيادة الحرب والسيريها

كانت الحرب الطويلة والحرب القصيرة الشهر وسمياً يُعلنها نذير الجيش او رائده ، المعرب الطويلة والحرب القصيرة الشهر منهم غويين في فرنسا ، وكلارانس في انكلسترا ، وبورغونيا ، لدى شارل الخامس ، فيقوم احد الفريقين المتحاربين بمهاجمة الآخر . وقد يحدث احيانا ان ينهض منافس لأحد الفريقين فيحاول التوفيق بين اعداء خصمه ويضرم فيهم الحاسة ويوضع تحت تصرفهم ما يلزم من المال . وكثيراً ما عمد فرنسوا الاول ، حتى في اوقات السلم ، الى تغذية الحقد والضغينة في خصوم الامبراطور شارل ، كا فعل بعد معاهدة كمبريه ، ويؤلب عليه الامراء الالمان الذين يؤلفون حلف سمالكلاند ، والهنفاريين والعثمانيين ، وغيره .

التحرم الآسيرية منطقة حصينة تجعلها في مناى عنهم . فقد قامت على جنبات البحر المتوسط سلسلة من الحصون والقلاع ، كهذه الحاميات تقيمها البندقية على سواحل إستيريا ودلماتيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي جزيرة كريت وقبرص ، وهو خط امعن الاتراك في مهاجمته وإبهانه فضعف وتفتت . وهنالك خط آخر من الحصون قام على جبهة نابولي وصقلية يؤلف مضيق مسينا منه الباب ، والرتاج . وقام خط آخر من الحصون الاسبانية على طول سواحل افريقيا الشالية . وقام في البر الاوروبي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطمات كرواتيا والساف الشالية . وقام في البر الاوروبي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطمات كرواتيا والساف الاوسط ونهر الدراف الاوسط ومنطقة فيينا ، والسور الروسي على نهر الاوكها محاذيا الفابات الطليلة . ومنطقة المدن الحصينة التي اخذت شبكتها الانساع والامتداد نحو الجنوب والشرق ، وكلها قلاع وحصون ركزت فيها المدافع لدرء خطر الفرسان ينقضون عليها من آسيسا . وكانت المسافات والابعاد نفسها سلاحا يلعب المسلحة المسيحيين . الا ان االصعوبة ، كانت تقوم في تموين وكلها قلاء وحصون ركزت فيها المدافع لدرء خطر الفرسان ينقضون عليها من آسيسا . وكانت المسافات وتوفير ما يازم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجرالتي لم يكن بد منها . هذه الحاميات وتوفير ما يازم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجرالتي لم يكن بد منها . كانت حدتها تتكسر على هذه الحصون وكثيراً ماانتهت التي اعتاد الاتراك شنها واوهنتها اذ كانت حدتها تتكسر على هذه الحصون وكثيراً ماانتهت الى غير نتيجة .

العمليات الحربية لم تكن للحرب من جبهة معينة بالمعنى الحصري : فالجيوش لم ليس من جبهة لمعينة الحدود التي لم تكن عديدة ، اذ لم يكن المقصود تغطية الحدود التي لم تكن عديدة ، وقد وضعت على مر الاجيال ، شيئًا فشيئًا ، خطوط من الحسدود ، في مناطق معينة ، فصر واضمو الحرائط وراسموها على تحديدها ، كالحدود التي قامت على نهرالسوم ، الرابعال الحربية .

معالم المدركة الترابع المدركة المسكرية حاسمة ، اذ لم يكن القصد منها ابادة حيش العاديجية الترابع المدركة حدث في معركة برينيان ، مثلاً عام ١٥١٥ ، وفي معركة بافيا عام ١٥١٥ ومعركة سان كنتان ، عام ١٥٥٧ . ومن النادر جداً ان يحمل ضياع معركة المعدو على طلب الصلح . ولذا كان من المستحيل محاولة استثبار النصر واستفسلال الظرف . فالمسافات الشاسعة وصعوبة تموين الجيوش عن طريق فرق التجهيزات الحربية ، وتأمين أو د الجيوش الحاربة في ارحن العدو المستباحة ، كل ذلك كثيراً ما اضطر الجيش سعه الى الانكفاء او التوقف . ولهذا قلما خطط قادة الحرب لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش قلب البلاد والمراحك المساسة فيها . فالحرب هي ، بالاحرى ، حرب حصار ، وضمت ستراتيجيتها على اساس إنهاك المراكز التوابع بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التموين و مخازن الميرة بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التموين و مخازن الميرة الواحد تلو الآخر ، والانتظار ريثما يضطر العدو لطلب الصليم ، بعد ان تقل لديه الميرة والتجهيزات وتشتد لديه الحاجة النقد . فالحرب هي حصية آخر ليرة في خزينة الدولة .

ولذا تحتم على الحماربين السمي والعمل لاحتلال ثغور العسدو ، وهي بمثابة الابواب الثغور والنوافذ التي تقضي الى قلب البلاد ، والمسالك الطبيعية التي تؤدي اليها : كمقاطمة السافوى – بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين، ومقاطمية ميلانو ، والسوم الاعلى (سأن – السافوى – بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين، ومقاطمية ميلانو ، والسوم الاعلى (سأن – كنتان – برون) مزيير، والثغور المؤدية الى نهري الموزيل والمويز (مدن : منز وتول وفردون).

قطع ﴿ المواصلات الحربية الكبرى ﴾ اي هذه الطرق التي تسلكها الجيوش ؛ وقطع الطرقات موارد النقد على المدو وغير ذلك من الوسائل ، هي من بمض نقاط الخطة الحربية التي عرضت احيانا للمنيين بامورالستراتيجية ؟ وان لم تتضحلم يرماً بجلاء . وقد جرت عاولات جريئة ، خلال القرن ، ضد سلسلة المواصلات الطويسلة التي ربطت المبراطورية آل هبسبورج ، في العالم الجديد ، بالبلاد الواطية ، عبر الحيط الاطلسي . فالقرصان الفرنسيون الذين اتخذوا من رأس سان فنسان في جزر الازور والجزر الخسالدات (جزر كناري) كانوا يتقضون فجأة على قواقل السفن البرتغالية والاسبانية ويستولون عليها . وفي سنة ١٥٢٢ ، تمكن جان فلوري ،من سكان مدينة هونفاور ٤ من الاستيلاء على ثلاث سفن من سفن الكرافيل الق كانت تنقل الكنوز التي جمها كورتيس في مكسيكو . وفي اواسط القرن ، اضطر شارل الخسامس ان ينظم عبور السفن في الحيط الاطلسي ، بواسطة قوافل عروسة فاصبحت هذه الطريقة القاعدة التي عمل بها باستمرار . ثم ظهر القراصنة الانكليز ، امثال درايك وهو كنز وفروبيشر وراحوا يتمرضون السفن الاسبانية في خليج برزخ بناما الذي كان صلة الوصل بين الممتلكات الاسبانية في العسالم الجديد على سواحل كل من الحيطين الاطلسي والهادي ؟ الا أن العن الاسبانية استطاعت ، مم ذلك التملص بحمولتها وتفادي الوقوع بين ايدي القراصنة الانكليز ، فبقيت المواصلات بين هــذه المستممرات مؤمنة ، على الاجمال . وقد قطع الانكليز والهولنديون خط المواصلات بين بلباو وأنغرس ٬ منذ عام ١٥٦٨ ٬ ويقيت الطريق الرئيسية الطريق التي تمر بالبحرالمتوسط من اسبانيا الى ايطاليا لتأخذ الطرقات التي تمتد من ايطاليا الى مقاطعات الرين ومنها الى البلاد الواطية ، مارة بمجازات الألب ومقاطعة الكونتية ، واللورين ؛ أو عبر الالزاس والبلاتينا . وفي سبيل تأمين سلامة هذه الطريق ، راح شازل الخامس يحاصر عام ١٥٢٤ ، مرسيليا ، كا انه هاجم ؟ عام ١٥٣٩ ، مقاطمتي البروفانس واللانفدوق . ولكي يتمكن من قطع هذه الطربق ؛ عنه ذ عقدتها الاساسية راح لوتريك ، عام ١٥٢٧ ، وغيز عام ١٥٥٧ ، يهاجمان نابولي . فبعد عام ١٥٥٩ ، وهبوط شأن فرنساء استطاع الاسبان ، ان يستعماوا خط برشاونة سـجنوي مباشرة.

الاتصال بين كثيراً ما وقفت الموارد الاقتصادية حائلًا دون نهوض شارل الخامس ماحان العمليات الحربية بالحروب التي شنتها على عدة جبهات . فبعد الانتصار الساحق الذي ناله في بافيا ، عجز عن متابعة هجومه حتى حدود فرنسا ، حاسباً حساب الخطر اللزكي والاضطرابات القائمة في المانيا ، والعداوة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجت والاضطرابات القائمة في المانيا ، والعداوة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجت

اللحة المال ، كل ذلك فت في عضده . فيعد انتصاره في معركة سريزول (١٥٤٤) احدى قرى مقاطعة البيامونت اضطر فرنسوا الاول ، الى سحب بعض فرقه من هذه المقاطعة دراً الخطر الذي يهدد مقاطعة الشعبانيا . والجهد الضخم الذي بذله فيليب الثاني لتأمين النصر على الاتراك في معركة ليبانت (١٥٧١) اضطره هو الآخر للاسترخاء في موقفه من البلاد الواطية . ان تعدد ساحات القتال والاعمال الحربية ، وبطء المواصلات ، والصعوبة التي كانت تعترض جلب الاعدادات ، وتأمين الاعتادات اللازمة النهوض بالحرب ، في الوقت المناسب ، وتأمين التنسيق والتماون فيا بين هذه العناصر ، كل هسذا يفستر لنا الفشل النسبي الذي لحق بمشاريع شارل الخاص وفيليب الثاني .

لا تزال تقاليد الفروسية ، مرعية الجانب محدمة . فها هو شارل الخامس يلصق بفرنسوا الاول تهمة عدم الوثوق به ويدعوه للمبارزة ، فيرد عليه ملك فرنسا بان الامبراطور يكذب . وهو يقبل التحدي . كثيراً ما نرى زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتباوزون علانية عرأى من الجيوش ، ايام الهدنة بين الطرفين ، حتى اننا نرى دوق ده غيز يجيز عام ١٥٥٢ ، والحصار قائم حول مدينة متز ، لبعضهم القيام باعمال مبارزة .

الاسرى كان المتحاربون يحرصون جهدم ، على اخذ اكبر عدد من أسرى الحرب ، طمعاً منهم بفدية الافتكاك ، مها ادى الى قيام صفقات ومساومات رابحة . ففي سان - كنتان ، اشترى ضابط اسباني من احد الجنود ، نائب قائد الجيش الاعلى في فرنسا . وكانوا بأخذون مجد السيف كل من وجدوه في قلمة حسار فضئل المقاومة على الاستسلام للمدو . تكون الحرب جد و موققة ، اذا ما تم الاتفاق بين المتحاربين ، على احترام اسرى الحرب ، وتعيين المبالغ المترتبة عليهم ، وفقاً لمراتبهم . وقد ادخل الاسبان عادة الافراج عسن الاسرى ، اذا ما تعهد هؤلاء او أقسموا الا يعودوا لحل السلاح من جديد ضد محرربهم .

كثيراً ما حول القواد البلاد قفراً يباباً ليحولوا دون تقدم الجيوش الحراب واهال التخريب المعدوة وتغلغلها في البلاد (مقاطعة بروفانس ؟ عام ١٥٣٦؟ مقاطعة ايسن عام ١٥٥٦) . وكم احلسوا المجند ان يقوموا ؟ تشفياً وانتقاماً ؟ باعمال السلب والنهب والتمثيل والتمثيل والتمديب والحريق ؟ فقد كان الالمان اسائذة في هذا المجال . ففي كل فوج او كتيبة من كتائبهم وأقواجهم ؟ تولى ضابط تنظيم هذه الاعمال وتنفيذها وفقاً لخطة يضعها ويشرف على الأخذ بها بكل دقة ؟ فلا يستثني من القرى والدساكر الا ما دفع منهافدية تفادياً لاعمال التمسف والابتزاز والاعتصار اذاماتلكاً الاهلون عن دفع ما يترتب عليهم او ترددوا في ذلك. ومن هنانشأت عادة الوصول الى شيء من التفاهم بين سكان القرى ورجال الحرب قاذا ما ساهم المدنيون بدفع مساعدات مالية او عينية ؟ اصبحت قراهم بمناى من النهب والسلب وغير ذلك من أعمال العنف .

كان من عادة الدول الحايدة ان تسمح للمحاربين المرور باراضيها ، نتيجة لحمداً الحياد التفتت الجفرافي الذي اصاب اوروبا اذ ذاك . وكان الجانب المتحارب يتمهم خطياً باحترام حياد البلد وعدم مس الاهلين باي اذى ، وذلك عملا بالقاعدة المرعيمة . Transitus Innoxius . أما المقاطمات السويسرية ، فكانت ترفض حسق المرور للمحاربين . فمنذ سنة ١٥٢٧ اعلنت مقاطمة فرانش كونتيه محايدة "لا يجوز اجتياحها ، وفقساً لنصوص المماهدة التي عقدت بين فرنسا والبلاد الواطية .

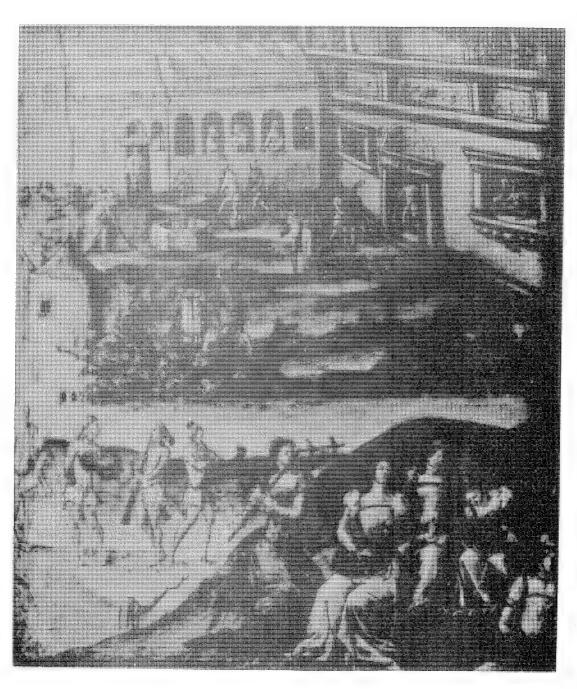
من العادات المألوفة ان تتدخل عناصر وقوى أجنبية في الحروب الاهليسة التدخل الاجنبي الداخلية : فتدخل الفرنسيون في ألمانيا ، والانكليز والبروتستانت الالمان في فرنسا ، والاسبان الى جانب أعضاء العصبة (Ligue) الفرنسية . وتعترف الملكة اليعابات، عام ١٥٨٠ ، بهذا المبدأ اذ تقول : من الواجب كذلك المبادرة للوقوف الى جانب ابناء المذهب الواحد الواقعين تحت الاضطهاد .

اطلقت الحروب وما تجر وراءها من الويلات والجمن والاحن ، الالسنسة الدعوة السلام والاقلام للمطالبة ان لم يكن بوقفها والفائها ، فاقله بالتخفيف من شرورها فقد جاء في كتاب ابراسموس : و شكوى السلام ، (١٥١٧) دعوة الى إقامة سلام عام فالحرب تحط من قيمة الانسان الماقل وتنتقص من شأن المسيحي . كل واحد يدعي ان مطلبه هو حتى . ولدا كان لا بد من اجراء تحكيم في الامر . فمها يكن رأي الحكم ، فالقاعسدة الذهبية هي ان سلاماً لا يتسم بالعدل خير من حرب عادلة ،

أجاز معظم الفلاسفة والمفكرين قيام حرب عادلة ، وكلهم أمل بان يتم إلفاء الحق الدولي . الحروب وذلك عن طريق إيقاظ الضمير الدولي ، وعن طريق الحق الدولي . ولمل اشهر هؤلاء جيماً هو الاستاذ الكاثوليكي فيتوريو، احد اساتذة جامعة سلمنكا الذي غثل حلمه في هذا السلام الباسط رواقه على العالم ، هدف الانسانية الاعلى ، كا رأى في الحرب ، الشر الاكبر . ومع ذلك ، فهو يسلم بالحرب اذا كانت ترمي لتجنيب الانسانية شراً اكبر ، او كانت في سبيل الدفاع عن النفس ، أو رمت الى ارجاع الحق إلى نصابه اذا ما رفض المعتدي التمويض عن الاضرار التي سببها ، أو لانقاذ الشموب المسيحية ، الواقعة تحت اضطهاد المسلمين . فالحرب ليسنت بعادلة إذا ما أريد منها نشر الديانة المسيحية بالقوة لان الله لم يكف أحداً من الناس ليثار باسمه من المظالم التي تقع ، اذ ان الحرب التي يندلع لهيبها تسبب من البلايا والشرور أكثر من تلك التي ترمي الى اجتثاث هذه البلايا . فالدول الاوروبية متساوية ، وكل واحدة منها مي كفءللاخرى ومتكافلة الواحدة منهام الاخرى وعليها ان تتماون لازالة الحيف النازل بها والضرر الذي يصيب الجيم على السواء . و فالبشرية جماء تذهب فريسة المظالم أيا كان الفاعل ،

فعلى الدول ان تؤمن حرية التجول والانتقال ، ولا تمانع في إقامة الاجانب بين ظهرانيها ، شرط الا يلحقوا اي أذى أو ضر بأهل البلاد الاصليين . عليهم ان يؤلفوا جميماً ، مجتمعاً بشرياً واحداً وبشرية واحدة .

وهكذا نرى كيف ان هذا الجيل حاول ان يلطف من اشتداد الروح الفردية بين الناس ، وذلك باشاعة المساواة في الحقوق والتضامن وبث الاخوة الانسانية بينهم .

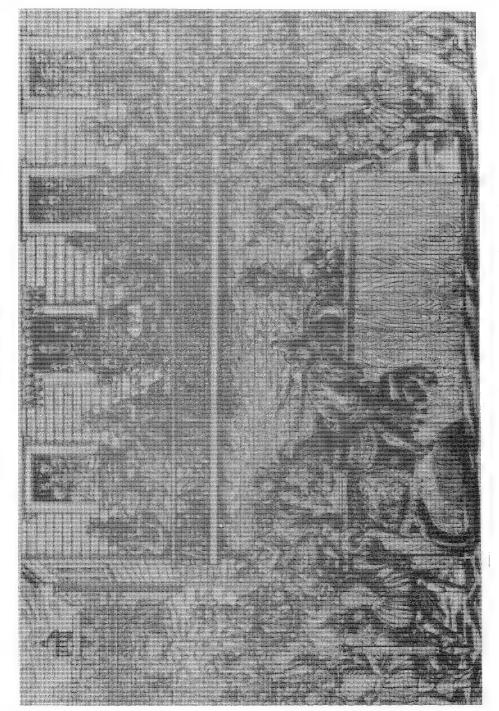


- Identification of the state o

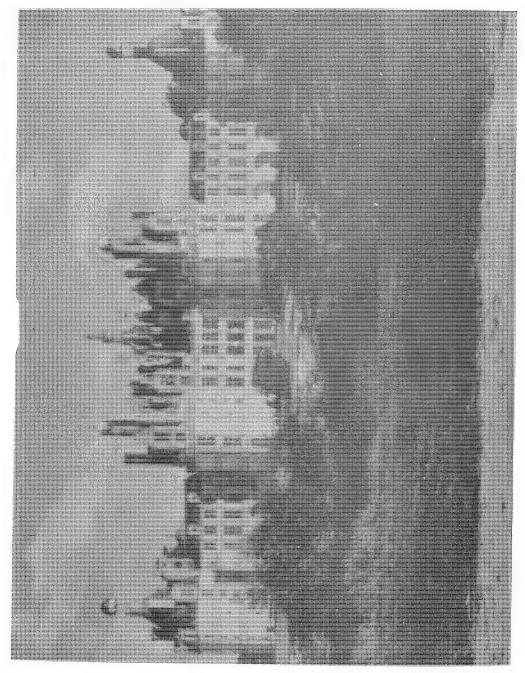


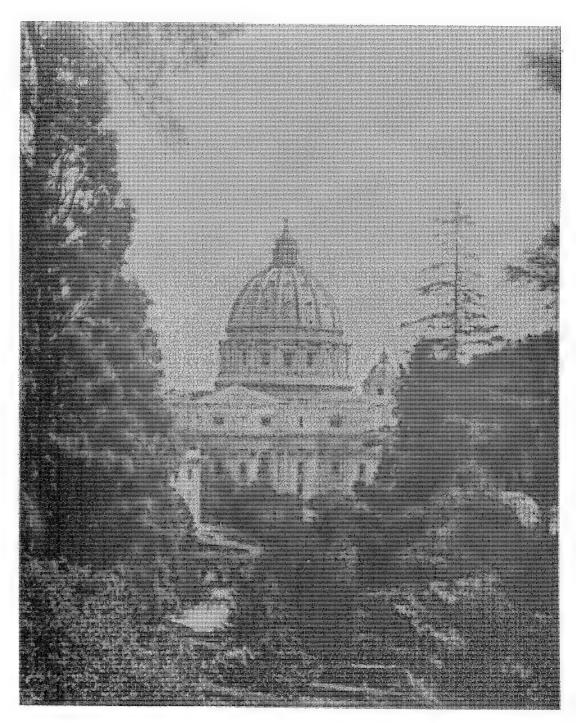
٣- عديد أحديكاه حكلاي الداني وكاترين دي مدسيس إكرامًا لسغره بولونيًا

ا- مكتبة في المترن المسادس عَمْس



٤ - المبارك التي أصيب فيهًا الملك هنزي الشأني جيوح مميت في آخر كيوم من حزيزًان من الدئمنة ١٥٥

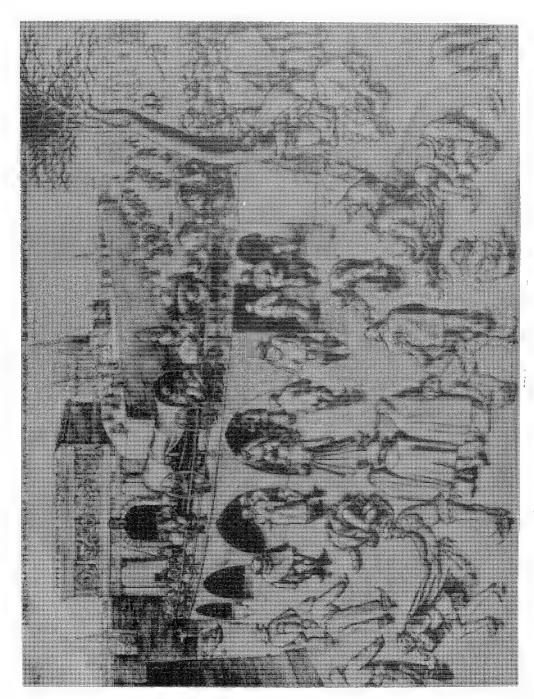




٦- قبة كنيسة الفديس بطوس في ولصاً ، كما تشاهد من حَدائق الغانيكان



Topographic Alleman Y

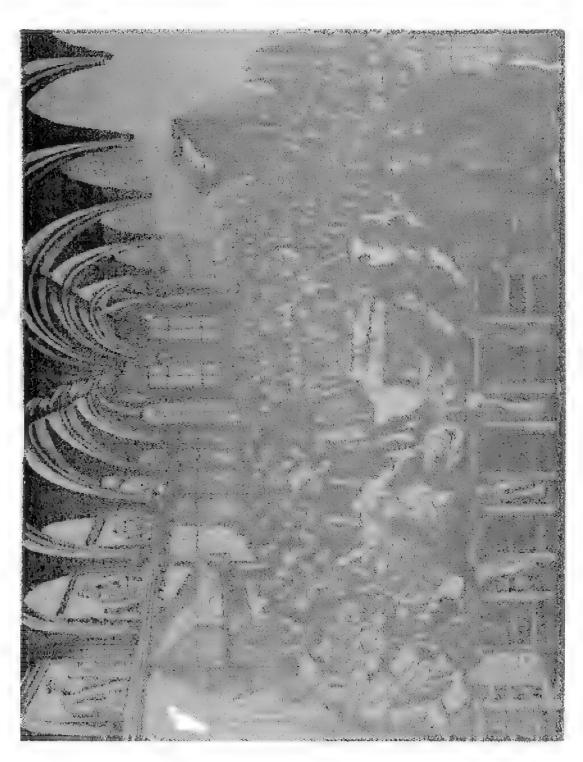


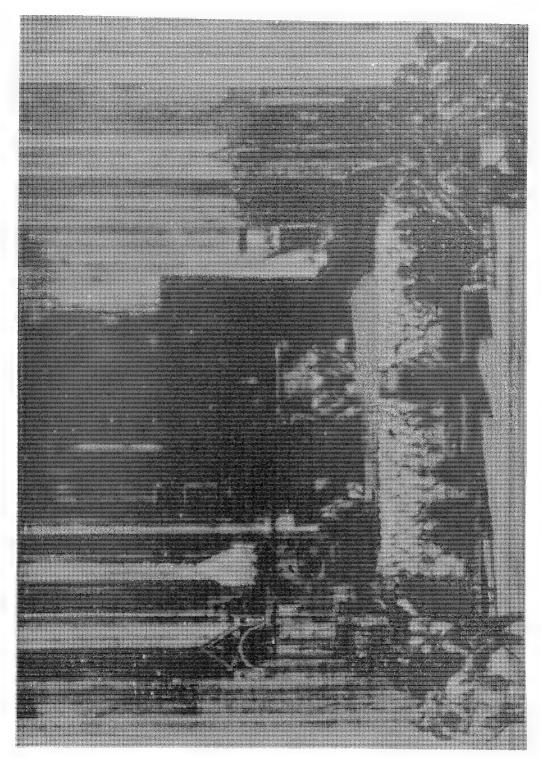
٨ - مـتزسطقون في تجاويف بابكنيسة العـديس جرجس في انضرس (٢٥٥١)



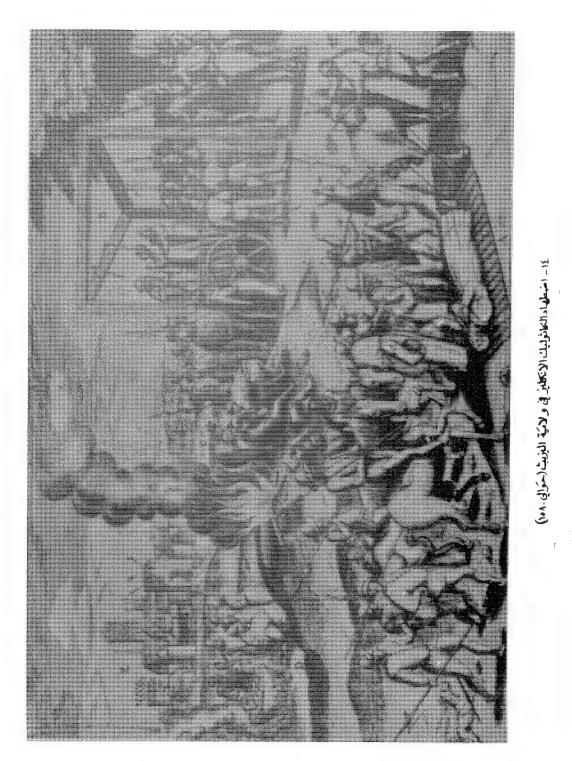
٩ منجم في أو إسعار النشري النسادس عشسر

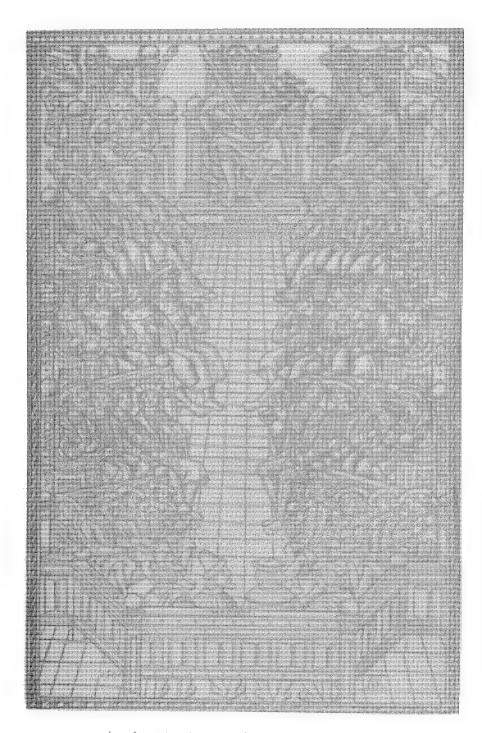






المنفسيين في إئمكانيا ، في ف الادواب





٥٠ - جمعيد مسلوب اوروببين سركاسة الأصبراطور وصلك فهسا وصَلك أسسبانيا

اا-قصرالا كوريال

الكئاب الثاني

القرن السّابع عشر (۱۷۹۸ ـ ۱۷۹۵)

القرن السابع عشر هو مهد ازمة نزلت بالانسان في كافة نشاطاته الاقتصادية والاجتاعية والسياسية والدينية والعلمية والفنية ، وفي كل كيانه ، أي في أعمق أعماق قوته الحيب وية وحسه وارادته . وكانت أزمة مستمرة ، اذا صح التمبير ، تتميز بثورات عنيفة احياناً . فان نزعات متناقضة و قد تجانبت طويلا وتشابكت معا وانصهرت حيناً وتصارعت حيناً آخر ، دون ان يكون في معتركها تحول او تاريخ حاسم يسهل تحديدهما » . وهي لم تتجانب في اوروبا في عهد واحد فعسب ، بل في الدولة الواحدة والطبقة الاجتاعية الواحدة والانسان الواحد ايضاً ، الذين خيم عليهم التناقض والانشقاق . فالدولة والطبقة الاجتاعية والانسان يناضلون لاستعادة النظام والوحدة الى بيئتهم والى ذاتهم . اتها لمعركة ضارية مستمرة ، في سبيل توازن زائل ابداً ، تقدم فيها اوروبا على تحول حاسم ، وعلى تعديل النوع كا يقول بعضهم ، وعلى هذه الطريق التي يستهوينا تخيلها والتي قد تنتهي الى السمو وتخطو خطوة كبرى الى الامام في الدم والدموع والآلام النفسية المبرحة ، وفي الامل والثقة والبهجة .

ولغصل وللأوال

أنهتةالقرن

١ _ الازمة الاقتصادية

ان ما خلتفته النهضة الاقتصادية والتطور الجديد في الاسمار ،قد ابرزا بقوة المساوى الدائمة التي ينطوي عليها نظام تناسل وزراعة لم يتبدل قط في خطوطه الكبرى ، منذ القرن الرابع عشر حتى او اخر القرن الثامن عشر . باستثناء نقاط معدودة (هولندا والاقالم المتحدة ، الكلارا الوسطى ، ألزاس ، النح.) .

فالاقتصاد ما زال زراعيا ، وعدد السكان يميل أبداً الى تجساوز السكان ومواد التنذية المكانات التغذية ، والجماعة تنتشر محلياً مع ما تتصف به مسن شمول مفاجىء يستوقف الانتباء بين حين وآخر. ولا غرو فالسكان لم يحددوا الولادات . وليس نادراً ان تضم عيلة واحدة ٢٠ او ٢٧ ولداً ، وكان من الممكن جداً ان يتضاعف عدد السكان في اقل من خس وعشرين سنة لولا الارتفاع الرهيب في نسبة الوفيسات ، ومرد ذلك الى ان التقنية الزراعية لم تسمح بعد بانتاج يسد الحاجة .

لما كانت الضرورة تقضي بتغذية عدد كبير نسبيا من البشر ، كانت الزراعة (١) التفنية الزراعية الاساسية زراعة «البلاد» أي الحبوب، الحنطة والجاودار والشعير والقرطيان والمذرة البيضاء والحنطة السوداء والذرة الصفراء ، اذ ان الحبوب هي الانتساج الزراعي الذي يوفر اكبر كمية من الوحدات الحرارية في وحسدة مساحية معينة. والفلاحون يزرعون في الدرجة الاولى الحبوب التي ندعوها اليوم بالشانوية ، الجاودار ، القرطيان ، النح . الان عصولها في وحدة مساحية معينة يفوق محصول الحنطة الى حد بعيد، لا سيا في الاراضي المجدبة ،

⁽١) فني انكلترا المتقدمة صناعياً ط سواها ، قدر ان اربعة ملايين ونصفاً من اصل خمسة ملايين ، اعتمدوا الزراعة سبيلا للميش ، حوالي سنة ١٦٨٨ .

وتقوم التفذية بنوع خاص على الحساء والخبز. وفي سنوات الاقبال يستهلك الناس مزيجاً مــن الحنطة وحبوب اخرى . خبر الحنطة مادة بذخية ؟ اما خبر الجاودار فوقف على ذوي اليسار من المستهلكين . ولكن الحبوب تستنزف قوى اخصاب التربة بسرعة. لذلك فقد عمد الفلاحون الى اراحة الارض ، سنة بعد سنة في الجنوب ، وسنة بعد سنتين في الشهال ، على ان استراحـــة الارض قد تستمر سنوات أحياناً . وكان المحصول متوسطاً ؛ أربعة أو خسة للواحد أحماناً ؛ واثنين او ثلاثة غالبًا . ولا عجب في ذلك فالاسمدة غير متوفرة والزبلة نادرة . وكانت الماشية قليلة العدد ؟ لان الاراضي يحرث جلها ولان المروج والمراعي ضيقة رقعتهــــا . ولم يفكروا بالاستفادة من الارض المراحة بزراعتها بحشائش تغذية المواشي ، الا في هولندا ، ومـــا كانوا ليستطيعوا الى ذلك سبيلا ، على كل حال ، لان عرف المراعي العمومية الذي اجاز لكل فرد ان يرعى ماشيته في الاراضي البائرة ، كان يجول دون ذلك. وكان فراش الماشية من الموص على غير كثافة : فقد استخدم الموص للاغمية ، واللبن والحصير والكراسي، وحتى كوقود للافران. أضف الى هذا ان العمل لم يكن متوفراً . وكانت الحيوانات هزيلة لا تقوى على العمل الطويل . · · واستخدم الفلاحون محاريث غير مجهزة بالعجلات تخدش الارض خدشًا بدلًا من ان تفلحهــا ، او محاريث غير معدة للارض التي يطلب منهم زراعتها . فبحث الزارع عن التعويض عن نقص الاسمدة وعن التقنية بالاكثار من البذار . فخسر بذلك الحب وخسر الموسم لان مصير الجذوع النابتة كان الضعف والذبول بفعل تراصها . ولم يعمد الى تنظيف الحبوبوغسلها بالكلس للحؤول دون نخرها . وعند الحصاد اعوزته اليدالعاملة . اما الحصاد فالمنجل اداته الاولى واستخدامـــه عمل طويل وشاق . وكان حسق التقاط السنابل وراء الحصادين يستهوي العديد من الناس لأن نتيجته لم تكن دون العمل نفسه بما زاد في ندرة وجود العمال . وخارج فصل الحصـــــاد لم يكن العمل متوفراً للجميم . فلم يكن السكان من ثم مشدودين بملاقــــة متينة الى الارض ، فتشرد المديد منهم هائمين على وجههم .

تربيع السكان المنطقة التفاية قد آلى عندسوادالسكان المنطقة الصحة والموت في سن مبكرة . فقد تراوح معدل الاعمار بين ٢٠ و ٢٥

سنة . وكان نصف الاطفال يموتون قبل ان يبلغوا السنة من عمرهم . اما الباقون فغالباً ما كانوا يموتون بين الثلاثين والاربعين سنة . ولم يتجاوز الملوك انفسهم والاسياد العظام وكبسار البورجوازيين ، على الرغم من تغذيتهم الجيدة ، حدود اله 7 سنة . بيد ان هذا الجيل لم يكن بالجيل الغتي لان شيخوخته سريعة الخطى ، فالرجل يصبح كهلا في الاربعين . وفي المنساطق المفتيرة قد تكون الفلاحات ، في سن الثلاثين ، متغضنة ومتمكنة كالعجائز . ويحافظ عسدد السكان على مستوى غير مرتفع ، لانه ما ان يرتفع حتى تتدنى كمية الفذاء الشخص الواحد وتزداد نسبة الوفيات . لم يتجاوز سكان انكلترا الملاين الحسة ، وبلسخ سكان فرنسا ٢٠ مليوناً كحد اقصى اي بكثافة ، بم في الكيلومتر المربع . يضاف الى ذلك ان هذه الاعداد

إذا كان الحصاد سيئًا، ارتفع ثمن الحبوب ، وتحول مستهلكو الحنطة الى الجاودار ومستهلكو الجاودار الىالحبوب الاخرى . لذلك فاناسمار الحبوب الدنيا ترتفع اكثر من الحبوب النبيلة والطبقات الشعبية هي التي تتأثر اكثر من غيرها . قـــد لا ترتفع نسبة الوفيات في السنة الاولى لان تأمين أود المميشة يدفع الفلاح الفقير الى بيم بقرته والصناعي الى بيع ادواته واولئك الذين خزنوا بعض المواد الى استهلاكها وبيع بعضهـــا . اما اذا عقب الحصاد السيء الاول حصاد سيء آخر فتلتشر الجاعة مع ما برافتها من اوبئة ؟ ﴿ الطواعين ﴾ الجسدري ، والتيفوس ، والكولرا ، والطاعون بمناه الحصري ، وكلها إمراض تبسدو وكأنها امراه الاقالم الحارة بصورة خاصة مع انها امراض واقع حضاري قبل اي شيء آخر ، يتدنى عدد الولادات ، ويرتفع عدد الوفيات وقد يبلغ ٣٠٪ من السكان في سنة واحمدة ، ويصيب الموت الارياف أكثر من المدن : أذ أن البلديات تستطيع تخزين المواد وشراءها في المناطق النائية . والبورجوازيين علكون الاراض وبالتالي المؤن الشخصة .ثم أن الموت يصب الغلاحين والصناعدين اكثر من النبلاء والضباط راعضاء المهن الحرة والتجار . وقد يشمل المحول احياناً دولاً كامسلة او مناطق شاسمة من اوروبا . تلك مي الجماعات الكبرى التي اثرت في غيلة المؤرخـــين : في قرنسا مجاعات السنوات ۱۹۲۹ × ۱۹۳۰) ر ۱۹۲۸ ، ۱۹۵۱) و ۱۹۹۰ – ۱۹۹۱ و ۱۹۹۳ ... ١٦٩٤ . بيد أن سنة وأحدة لا تمر دون أن تحدث مجاعة في بعض المناطق , ومن العسير جداً التغلب عليها بمعالجة او مداراة ، وربما كان من العبث والخطر توزيع مداخيل الاغتياء عسمل الفقراء . فهذه المداخيل كانت كمية مهملة اذا ما قيست بحاجات مجموع السكان . وكان ذلك بمثابة اضماف جميع الاهالي للتساوي في البؤس ، في حال ان موت الاغنياء والميسورين قسد جديد في مستوى حياة الجموع، وتعهقر في الحضارة . اجل لقد لجأ الناس الى الشراء من المناطق الفنية ولا سيا من و البلدان الجديدة ،) بولونيا وليتوانيا . ولكن صموبة النقل البرى وارتفساع اكلافه لم يسمحا قط باستحضار المواد المتاعة الا إلى الاماكن القائمة على مقربة من طريق ماثية وكانت هذه المواد تصل متأخرة وبكيات محدردة وباسمار باهظة . الا انها قد حالت دون وفيات كثيرة بغمل عظمة مقاومة الانسان زد على ذلك أن تنمية السناعات اليدوية والصناعات الريفية المنزلية الصفرى كانت تفي زيادة في كمية النقود التي تدخل البلاد وفي قسدرة الطبقات الدنيا على الشراء • ولكن السكان ؛ في السنوات الحيرة ؛ كانوا يزدادون بازدياد المواليد وتدني الوقيات ؛ فيصيحون اشد" تأثيراً بالبينوات الماسلة ، وباستطاعتنا التساؤل هنا عمسها اذا لم يؤد تقدم الصناعات ، وهو نتيجة النمو الرأسمالي للنهضة الاقتصادية ، الى طبيع وضع هذه الجتمعات عزيد من التقلب وعدم الاستقرار . وهكذا فان عدد السكان كان يتأرجح بسرعة نسبية بسين حدود ثابتة . ولا يبدر ان سكان فرنسا الذين لم يتجازرا فط العشرين مليون نسمة قد هبطوا

يرماً الى ما دون ١٢ - ١٤ مليوناً .

الجاعة والازمة الاقتصادية الطبيعية الطبيعية للمحول هي الازمة الاقتصادية : فهي تشوش الحياة الزراعية وتقتل العملة وتقضي على اعمال فصل الصيف وتؤدي إلى اهمال الاراضي وتكوين طبقة كادحة بائسة لا قدرة لها على الشراء . وبفعل ارتفاع الاسمار الزراعية يقلسل النبلاء والبورجوازيون من نفقاتهم . وتنتشر البطالة في المدن وتشل حركة البيع لدى اصحاب الانوال والحوانيت ولدى التجار احياناً . يزول الكسب ويستحيل توظيف الاموال ، ويزيد المحول الدوري من التقلب الاقتصادي المام ويجمد حركة الاقتصاد .

ان التقلب الدائم هذا ، الذي يرد الى النظام السائد ، قــد ازداد خطورة في حركة الاسعار . فقـد عقب القرن السابع عشر بازمات ظرفية مردّها الى حركات الاسعار . فقـد عقب الارتفاع السويع والمستمر في القرن السادس عشر فترة من الارتفاع البطيء ثم من الانخفــاص ولا سيا من التقلب البارز في الاسعار .

في الواقع تأخر انتاج الممادن الثمينة في العالم كله . ويعتقيد النقص المتزايد في المعدن الثمين . ويعتقيد و سوتبير » بأن هذا الانتاج اخذ بالانخفاض منذ السنة ١٦٣٠ .

ولكن ما يلفت الانتباه بصورة خاصة هو أن المدن الملقى في التداول اذا ما قيس بالمدن الذي سبق انتاجه ؟ يمثل نسبة مطردة الانخفاض . فبينا يتضاعف مخزون المدن الثمين عشر مرات في الارجح خلال القرن السادس عشر ؟ لم يتضاعف سوى مرتين في القرن السابع عشر ؟ فبرزت بخزيد من السرعة الحاجات الى النقد المبادلات التجارية . ويرى و هاملتون ، أن استيراد المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا ؟ وهو المصدر الرئيسي لتموين أوروبا عن طريق الاتجار مع أسبانيا ، قد بلغ الذروة ما بين السنة ١٩٥١ والسنة ١٦٠٠ (فضة : ٢٧٠٧٦٢٦ كياو) ثم اخذ بالهبوط . وزادت سرعة هذا الهبوط بعد السنة ١٦٥٠ (امما بعد السنة ١٩٥٠ ؟ فضة : ١٩٣٧ه كياو) . أما بعد السنة ١٩٥٠ ؟ فقد أنهار الاستيراد أنهاراً (١٦٥١ – ١٦٦٠) فضة : ١٣٣٧٥٦ كياو) . وأذا كانت الفضة المستوردة الى أسبانيا منذ السنة ١٥٥١ حتى السنة ١٦٥٠ متى السنة ١٥٠٠ متى السنة ١٨٥٠ حتى الفتة المستوردة منسا من هذا المدن كان يجمع ويكتنز ، ما بين ١٦٥١ و ١٦٦٠ من السباغة وقسها آخيراً يصدر الى آسيا تسديداً الممدن كان يجمع ويكتنز ، وقسها آخر يجمد في أعمال الصياغة وقسها آخيراً يصدر الى آسيا تسديداً الممتزيات الاوروبية .

الارتفاع البطيء ان ما نشاهده اذن في اوروبا هو ، على العموم ، ارتفاع بطيء ثم الانخفاض في الاسمسار جداً حتى حوالي ١٦٢٥-١٦٦٠ . اما المستوى الادنى الذي تبلغه

الاسعار فيمكن تحديد فترته ما بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . يلي ذلك ارتفاع لا يذكر بسين السنتين ١٧٠٠ و ١٧٠٥ و ١٧٠٠ و الكن الانخفاض السنتين ١٧٠٠ و ١٧٠٥ و ١٧٠٠ و الانخفاض السنتين ١٦٥٠ و ١٧٠٠ و الكن الانخفاض اعظم شافاً بما يبدو في عدد من البلدن اذا نحن لم ننظر الى الاسعار الاسمية المعبر عنها بالنقسد المتداول فقط ، بل نحسبها على اساس وزن المعدن الثمين المقابل . وفي الواقع فاننا نرى تضخما نقدياً في بلدان كثيرة ، المانيا واسبانيا منذ الثلث الاول من القرن ، وفي فرنسا في القسم الاخير منه . فالمبلغ نفسه من نقد التعامل غدا يقابل في القطع النقدية ، معدنا ثمينا اقل وزنا . و كثيرا ما يحدث ، والحالة هذه ، ان يكون الارتفاع الاسمي المخفاضاً في الواقع .

وهكذا فان الارتفاعالاسمي حدث في مونيخ في السنة ١٦٢٢ ، وهو الذروة التي بلغتها الاسمار ، هو في الواقع هبوط سقطت خلاله الاسمار بالمدن الثمين الى ما كانت عليه بين السنتين • ١٥٥٠ و ١٥٦٠ • فحوالي - ١٦٦٠ - ١٦٢٠ كانت الاسمار في الواقع ، في هذه المدينة ، ادنى منها حوالي السنة ١٥١٠ . وخضمت بعض البلدان؟ كانكلترا وألزاس ، الى حركة عامة على بعض الاختلاف ؛ فلي الكلارا لا يزال الارتفاع سريع الخطى حتى حوالي ١٦٤٠ - ١٦٥٠ . وتسلي ذلك على المعوم فترة من الاستقرار النسبي . بيد أن الارتفاع الذي صدق في النصف الأول من القرن قد ترقفت حدثه توقفاً يلفت الانتباء . فهناك ١٦٥ نقطة زيادة بين السنتــــين ١٥٥٠ و • ١٦٠٠ بينا ليس مناك سوى نقطة فقط بين السنتين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ . واذا نظرنا الى حركة عجارة اشبيلية مع اميركا الاسبانية ، وهي ما يقاس به جزئياً مدى نشاط اوروبا الاقتصادي بالثمن والاسواق ، اتضع لنا أن سجمها ينكش بانخفاش الاسمار . ففي نصف العقد ١٦٠٩ -• ١٦١ بلغت الواردات • ٢٧٣٥٦ برميلا بينا هي أم تبلغ سوى ١٢١٣٠٥ براميل لمتعل في نصف المقد ١٦٤٦ - ١٦٥٠ . وتوقفت حركة التجارة عن التقدم حوالي ١٦٠٨-١٦١١ ثم الحسان مُخْف برضوح خلال السنوات ١٦١٩-١٦٢٠ وتدهورت اخيراً في السنة ١٦٣١ . وفي منتصف الغرن ، بلغ النغص ٥٠ . /٠ ، ويبدو بعد السنة ١٦٤٠ أن الانتخفاض في القيم كان اسرع منسه في الاسبعام . وسلكت الاسعار الطريقة نفسها ، فهمالك تبدل متوازقد لا يسمح لنا بالكلام هن سببية حقيقية ، ولكن ذلك عتمل أذ أن عنصرا اساسيا من تجارة اميركا الاسبانية غو أوروبا كان المعادن الثمينة ﴾ الق تغلصت كمياتها .

بط، الانطلاقة الراسالية الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الراسمالية ، فان ارتفاع الاسمار الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الراسمالية ، فان ارتفاع الاسمار يؤدي الى نقص في حجم الكسب ، وتفقد آفاق المستقبل بعض جمالها في نظر الراسمالي الذي يبيث اقل اقداماً . ويتدنى عدد المشاريع الجديدة وتلضاءل حركة تقدم المشاريع الراهنة ، ويتقلص حجم الانتاج ، اما حين تلدنى الاسمار فيقل الكسب وقد يزول بالكلية ، فيسيطر المتودد على متمهد المشروع الذي يماول تحديد نفقاته ويسراح الميال ، ويتقص الانتهاج وتنتشر البطالة ، ويتضخم عدد المتشردين ، وتضطر المشاريع الصغرى او المشاريع التي لا تزال في طور

التأسيس الى اقفال ابوابها . ولا تصمه سوى المشاريع الجهزة تجهيزاً حسنباً . ولكن الصعوبات عظيمة . ويجب البحت عسن التحسينات التقنية التي تؤدي الى تخفيص سعر الكلفة . فيمكننا القول ؟ إذا استمنا بتعبير « سيمياند » ؟ إن المرحلة A في القرن السادس عشر قد عقبتها مرحلة A على بعض البطء ؟ ثم مرحلة B .

تعلب الاسعار واسبابه الاسعار وفي تأرجع الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما الاسعار وفي تأرجع الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما حدث في القرن السادس عشر . وفي العدد الاكبرمن البلدان برزت هذه التأرجحات الموسمية والدورية (عشر الى عشرين سنة) الضخمة منذ اوائل القرن . فهنالك في كل مكان تقريباً عوالي ١٩٥٥-١٩١٠ ، انفلات وانخفاض عظيم حتى حوالي ١٩١٠-١٩١٥ ، ثم تدوم التأرجحات القصوى بعد ذلك طيلمة القرن ولا يسعنا القول ان الارتفاع الذي طرأ في القرن السادس عشر يتادى طيلة المثلث الاول من القرن السايع عشر الا في انكلترا وبعض الاقاليم الاوروبية المضيقة . فنحن في المتساطق الاخرى امام ارتفاع من نوع آخر . لا بل ان انكلترا نفسها عبد عبد وي اقصى ابعاده .

اليس باستطاعتنا بعد أن نعلل هذه الظاهرة تعليلا وأفياً . فجل ما نستطيعه توفير بعض عناصر التفسير فقط . ليست الحروب اسباب هذه التقلبسات اذ ان مرور الجيوش وحده كاف لان يؤثر في الاسعار اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان المقايضات دون مقايضات اليوم شأنا الى حد بعيد وان الاسمار تختلف كل الاختـــــلاف في وقت واحد بين منطقة واخرى ، ولا يطرأ ارتفاع عظم على الاسعار الا اذا اصطدمت الجيوش في الاقلع نفسه . ولكن يجب أن نأخل بعين الاعتبار المطروف الجوية السيئة طيلة سنوات عدة ، ونتاثج الحصائد الماحلة التي تدفع بالاسعار إلى الارتفاع حتى عودة الطقس الجيد والجنيات الوفيرة . ويجب كذلك أن نأخــذ بعين الاعتبار ازدياد عدد السكان الذي يضاعف الافواه الواجب تغذيتها ولا سيا وان المنطقة تجمم المديد من المال والصناعين ٤ ويسبب ارتفاعًا في الاسمار الى أن تصبح حصة الشخص الموآحد غير كافية والى أن و تحد ، الوفيات من الطلب وتؤدي بذلك الى انخفاض الاسمسار . وقد ثبت بالدلس ، فما خص المانيا الجنوبية ، ومدن مونيخ واوكسبورغ ونورمبرغ بنوع خاص ان الاسمار كانت ترتفع فيها بازدياد عدد السكان ، وأن انطلاق الزيادة كان يسبق ارتفاع الاسمار . وهكذا فان جهود الدول في سبيل تنمية صناعتها كانت سبباً في زيادة السكان .وعاملًا من عوامل تغلب الاسمار احيانًا . ويجب اخيرًا ان نأخذ بمين الاعتبار الاعسال في الحقل التقدي. فلم ثمد الدول الكبرى لتجد الموارد الضرورية لنقود المعادن الثمينة التي تستوجبها سياستها ؟ فلجأت بصورة طبيعية الى التضخم . واصدرت الحكومات الاوامر باعادة النقسود الى دور ادارة المالمة . واعادت شكلها بالقيمة الاسمية نفسها دون كمية المدن الثمين عينها ؟ او اعطتها قيمة اسمية عليا دون ان تنقص فيها نسبة المدن الثمين . واصدر بعضها كميسات

كبرى من المسكوكات النحاسية واعطتها قيمة اسمية تحكية ومرتفعة جداً بالنسبة لقيمة النحاس المستعمل (اسبانيا). وهكذا سددت الحكومات بسهولة ما توجب عليها للدائنين وتجار الاموال والموظفين والجنود والممتارين ولكنها غدت بدورها ضحايا هذا التدبير عند جباية الضرائب. وجر التضخم الى ارتفاع الاسعار. وزاد من هذا الارتفاع ان النقد السيء يطرد النقد الجيد. فالقطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية النحاسية . كما ان الافراد لا يضعون في التداول سوى النقد السيء وحده . وهم يفرضون سعراً مرتفعاً اذا حوسبوا بالنقد السيء فارغمت الحكومة بسبب حدة ارتفاع الاسعار ، على تخفيف السنة عقيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة عقيف السنة عقيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة ١٦٤١ قي اسبانيا عقبه تخفيف السنة ١٦٤١ ، وتضخم السنة ١٦٤١ .

أره المشورم في الاقتصاد في هذه المرحلة تتدنى الاسعار بانتظام مع تأرجحات متضائلة . وهذا يعني انها مرحلة شاقة دون ان تتسم بطابع الكارثة . فباستطاعة المشاريع ان تبدل الجهود لتحقيق انتاج افضل ، وتقدم تقني يغدو مصدر رفاهية عند عودة البحبوحة النقدية . وباستطاعة الاجور ان تصمد في وجه تخفيف التضخم ، كا باستطاعة بعض الطبقات الناشطة ، ان تنجو من البؤس والمفاجآت . وهذا ما حدث ، على ما يبدو ، في اقليم فالنس الايبيرية . ولكن القرن السابع عشر ، في معظم انحاء اوروبا ، يبدو واقفاً على شفير الكارثة . فار ارتفاع الاسعار بسرعة قصوى قد حد من الاستهلاك وتسبب في ازمات الصفقات الخاسرة وادى الى البؤس والالم ، وقد لا يتمكن اغنى المتمهدين من الاستفادة داغاً من هذا الرضع بالاستعاضة عن تدني المبيعات بمضاعفة المكاسب وبتجميع رؤوس الاموال لمتابعة توظيفها في المشاريع . فرحلة ارتفاع الاسعار قصيرة الاجل ، يمقبها الهبوط ، فيزول الكسب ، ويسرح المتعهد عاله ، ويتنجد عن تسديد الدائنين اموالهم . اضف الى ذلك ان تأرجحات الاسعار لا تترك بحالا لاي تقدير . فيسيطر الياس على المتعهدين ويقرون بعجزهم . ويستحيل تحسين المشاريع ، لا بل ان الكثير منها ينتهى الى الزوال .

فالقرن السابع عشر هو من ثم ، بين مرحلة ارتفاع الاسعار في القرن السادس عشر والمرحلة المائلة في الغرن الثامن عشر (بعد ١٧٣٠) ، مرحلة ازمة مستمرة مختلفة الحدة .

٧ _ الازمة الاجتاعية

ان المنازعات الاجتاعية ؛ التي تنميها النهضة الاقتصادية ، لا تتبدل طبيعة ، بل تشتد حدة. فهنالك فئات بورجوازية تسير قدماً في تقوية شأنها بالنسبة الطبقات الاخرى ، بسرعة اخف منها في القرن السابق ، ولكن بصورة ثابتة اكيدة .

المثال الفرنسي تحويل رؤوس الاموال الى العمليات المالية الرسمية وارتقاء رجال المال والضباط

غير انه يبدو ، في فرنسا والدول الماثلة لها ، وبسبب عدم الاستقرار الاقتصادي ، ان ذلك قد تم خصوصاً باستغلال حاجات الدولة المتعاظمة التي يتوجب عليها تأمين مسوارد دخول جديدة والحصول على سلفات لمواجهة نفقات الحرب بسرعة . ويبدو ان العمليات التجارية والصناعية ، وهي

اقل فائدة وضمانة ، قد لعبت دوراً قليل الاهمية نسبياً . فهم رجال المسال وموظفو الدوائر المالية من جهة ، وموظفو القضاء والشرطة من جهة ثانية ، من برزت اهميتهم الاحتماعيسة بصورة خاصة .

ان موظفي المالية ، ولا سيا خزنة فرنسا العظماء ، هم كبار دائني الملك . فهم يؤمنون له المال بفائدة باهظة بانتظار جباية الضرائب . ولا يتورعون عن التعلل بتأخير جمع الضرائب حتى يقرضوا الملك ماله الخاص . ويشركون في عملياتهم بعض اعيان الاقليم فيستجمعون بذلك رؤوس الاموال المجمدة ، اما رجال الاموال الذين يعقدون اتفاقات مع الملك فيلتزمون جمع الفرائب غير المباشرة وادارة الاحتكارات واستثار أملاك الملك وبيع الوظائف العامسة والمناصب . ويسهم في عملياتهم ، من طرف خفي ، بعض النبلاء والقضاة والتجار . وقد انصرف رجال المال انصرافاً مطرداً عن التجارة والصناعة . وحين اعوزت هنري الرابع رؤوس الاموال للصانع المكية اضطر الى ارغام « زامت » و « دى مواسه » و « بوله » الى تقديم مبالغ غير ذات اهمة نسبياً .

بيعت الوظائف العامة على تفاوت في النسبة ، في كل مكان تقريباً . الا ان بيع المناصب في فرنسا قد بات نظاماً وبلغ الذروة ، فالملك يحدث ويبيع مناصب عديدة، وهو الها يصدر بذلك صكا بدخل تدفعه الدولة : فالضابط مثلا يستوفي فائدة رأسماله رواتب وتوابل رحقوقاً ومواد مسعرة . ويفرض الملك دررياً على الضباط ، لقاء دفعة من المال ، زيادات على الرواتب ليست في الواقع سوى قروض اجبارية . فلما كانت المبالغ الواجب دفعها باهظة جداً ، يضطر الضباط الى البعث عن الدائنين فيمسي مجموع الضباط و كأنهم آلة ضخمة مهمتها تعبئة رؤوس الاموال المحدة لخدمة الحزانة الملكية . ولكن الملك، مقابل ذلك يتيح الضباط في النهاية جعل مناصبهم وراثية . وقد اضيف الى حق الاستقالة وتعيين الخلف نظام هو اشبه ما يكون بالتأمين على الحياة ، يضمن الوظيفة الماثلة اذا كان الضابط ولد في سن الخدمة ، او رأس المال الذي يمثله على الخيمة المبابط اولاد . فيعلى من ثم ان طبقة الضباط باجمها قسد توطدت وقمكنت .

ولكن طبقة التجار – الصناعيين استمرت في الارتقاء ، ففي باريس غدا ارتقاء الصناعيين التجار الصناعيين – الصيادلة ، البيات – الست (صانعي الاجواخ ، والعطارين – الصيادلة ، والعقادين ، وصانعي القلنسوات ، والفراثين ، والصاغة) من كبار التجار . كما ان (سنكتو ،

و « نقولا له كامو ، الذي جمع ثروة تقدر بتسعة ملايين واستولى دفعة واحدة على ٢٠٠٠٠٠ دينار من الفضة في سوق فرنكفورت الدورية ، وصانع الاجواخ و كلود بارفكت » ، وتاجر الانسجة ، الحفيفة ادوار كولبير عم الوزير العتيد ، وكثيرين غيرهم في كافة المدن الكبرى ، اسسوا مصانع لانتاج المدافع والاسلحة وملح البارود والفروش والحرائر والاجواخ والادوات المعدنية . واقتنوا الاراضي ودفعوا بعائلاتهم الى وظائف الدولة والمدينة والكنيسة . فعين اخو وشارل بارفكت ، خازن فرنسا ثم رئيساً بديوان النقود وتولى افراد عائلته وظائف هامة في ادارة مدينة باريس . وهكذا انضمت عائلات الصناعيين والتجار الى عائلة الضباط في ممارسة الوظائف العامة واشتركت كلها مع عائلات النبلاء في امتلاك الاقطاعات .

ان ما نشده جميم هؤلاء البورجوازيين هو النبالة وشرف النسب. النبلاء ضد البورجوازيين فهم يعيشون ، في الدرجـــة الاولى ، وعيشة الاشراف ، دون اى نشاط مأجور ويمارسون الجندية : الجد تاجر والاب ضابط والان جندى . كثيرون من قضاة الحماكم العليا اشراف ، الرؤساء فرسان والمستشارون حاملو سلاح . ويتوفق بورجوازيون كثرون الى الحصول على براءات شرف . ولكن نبلاء الجندية القدامي يقتون هؤلاء الحانوتين البلهاء الذين لم يحسنوا التخلص من داءة نسبهم . وقد اوصدت ابواب المناصب في وجه نبلاء ... الجندية لانها غدت وقفاً على ذوى الثروات . لا بل أن الملك أخذ يمين المزيد من البورجوازيين حتى في الوظائف التي لا تباع بيماً . فبورجوازيون هم باغلبيتهم منذ هنري الرابع أعضاء المجلس الملكي السياسي الدُن كانوا اشراف جندية في الدرجة الاولى في عهيد هنري الثالث. وبورجوازيون هم امناء سر الدولة اولاً والوزراء تدريجماً امثال ﴿ كُولُمِينِ ﴾ و ولوفوا ﴾ . ولكن ـ المورجوازيين ، اساداً اشراف اصبحوا أو بارونات ، لا يزالون يحتفظون بذهنسة وعادات واخلاق لا يقرها اشراف الجندية . ولا يمترف لهم هؤلاء النبلاء بــ و الصفة ، ولا ينظرون المهم الانظرتهم الى ﴿ بُورِجُوازَيَّةُ حَقَيْرَةً ﴾ ويتظاهرون حيالهم بجزيد من الرفعــة والازدراء . وقد حدث في اجتماع مجلس وكلاء الملكة الفرنسية في السنة ١٦١٤ ، حين قال النائب المدنى و هنري دي مسم ۽ و ان الطبقات الثلاث هي اخوات ثلاث امهن واحدة هي فرنسا ۽ ۽ ان نهض بمض الاشراف واعلنوا و انهم لا يرضون بان يدعوهم ابنـــاء السكافين والحرازين بالاخوة وان الفرق الذي يميزنا عنهم هو نفسه الفرق الذي يميز السيد عن الاجير ، .

الاسياد المال ، وكلهم يمتلكون الاقطاعات ، من جهة ، وبين الفلاحين من جهسة ضد الفلاحين من جهسة اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد يعيشون من عمل الفلاحين بالدخول عينا ونقدا وبالاتاوات المختلفة التي يجمعونها من ضرائب يدفع جلتها الفلاحون . ولكن الدخل الزراعي سريع التأثر مجركة الاسعار . وقد تفسدو الفرائش والحقوق الامبرية واجبات عسيرة جداً اذا ما اتسمت هوة اللامسواة بين الافراد . ويجب التمييز

بين حالة الضرائب والكراءات والدخول والفرائض الاقطاعية المسددة نقداً وبين حالة الدخول والفرائض الاقطاعية المسددة عينا بالنسبة الى الحصائب ، وبين حالة الاسياد ، والمزارعين ، والشركاء وصفار الملاكين .

ان السيد والمزارع الكبير يحققان المكاسب عندما ترتفع الاسعار بسبب ندرة المواد الغذائية لانها يحتفظان على الاجمال بفائض الحصائد او بمخزونات يتمكنوا من بيعها باسعار عليا . ولكن الشريك والملاك الصغير يريان ان حصادهما يكفيها للبذار والخبز فيستحيل عليها والحالة هذه ان يدفعا الضرائب والفرائض . والضريبة توزع على الرؤوس ، لا بنسبة الانتاج . ولا تتبسع الدخل الذي قد تتعداه . والفريضة او الضريبة الكنسية تقرران بالنسبة للانتاج قبل اسقاط النفقات ؛ ولكن النفقات المهنية (بذار ، الخ .) لا تتغير قط وقد لا يبقى من الانتاج ، بعسد اسقاطها ، ما يفطى الفريضة .

اما اذا كان مرد ارتفاع الاسعار الى اسباب اخرى ، فالجميع يحققون المكاسب ، ولكن السيد والمزارع الكبير الذين يستطيعان ارتفاب الوقت المناسب للبيع يفيدون بصورة طبيعية ، من هذا الارتفاع ، اكثر من الملاك الصغير والشريك . ويربح السيد بالنتيجة فوق ربح المزارع الكبير لان بمكنته ، كلما جدد عقد الضيان ان يرفع قيمة الضان بحيث يصادر كسب المزارع .

واذا المخفضت الاسمار ، فالمزارع المرتبط بعقد ضمان ينكب بضمان وافتى عليه حاسبا حساب الاسعار العالية . اما الملاك الصغير والشريك فيدفعان دونما صعوبة الدخول والفرائض العينية اذا نجم الانخفاض عن حصاد وفير ، وبصعوبة كلية اذا اضطرهم الانخفاض الى بيع المزيد من حصادهم للحصول على النقد ؛ ولكن الضريبة والدخول والفرائض النقدية قد تتجاوز الدخل بحدداً ، لاسيا وان الملاك الصغير والشريك يرغمان ، امام الحاح الحاجة ، على البيع بعد الحصاد مباشرة ، حين تكون الاسعار في ادنى انخفاضها . ويصاب العمال الزراعيون اسوأ اصابة . فبالنظر الى ركود التقنية الزراعية يمذر تخفيض سعر الكلفة الا بتحديد اليه العاملة . اجل ان الاجور لا تتدنى ، ولكن هنالك مزيداً من الماطلين والمنشردين والهائمين على وجههم .

وهكذا فان التفاوت والمضادة بين الطبقات يتعاظمان باطراد . يضاف الى ذلك ان الدخول والفرائض والضرائب قد تتعدى وسائل المستثمر الصغير في حالتين ظرفيتين غير نادرتين في ظل هذا النظام الاقتصادي : ثورات الفلاحين والحروب بين الفلاحين .

يقف الاشراف ورجال المال والضباط موقفا متزايد العداء من الكباد ضد ارباب المهن بالمال ارباب المهن ، اسياد المهن ، الصغيرة ، ، ومن عمال المدن ، عقدار خضوع هؤلاء للضرائب لان باريس معفاة من ضريبة الاقتطاع ، ومدنا اخرى معفساة ايضاً او مشتركة . وقد اعتمدت هيئات الضباط الملكيين والجالس التمثيليسة والحماكم ووزواء اللدول ، من جهة ثانية ، سياسة عاطفة حيال اوليغارشية كبار التجار الصناعيين ومضرة

بصوالح صغار ارباب المهن٬ الخبازين والقصابين والقشاشين ٬ وصوالح العمال والصناعيين المستقلين الذين باتوا اشد انفعالا وحقدا . واحتفظت الدولة للتجار الصناعيين بالوظائف البلدية وبالسلطة في المدن.وناصرت الدولة كافة ارباب المهن على العال في مجهودهم الرامي الى ازالة التنافس وتخفيض لاجور وبلوغ الحد الاقصى من الانتاج . وامست التماونيات في النهاية آلة في ايدي ارباب المهن التضييق الخناق على العمال . واوقف ارباب المهن الانخراط في جمعيتهم . فاقفلوا ابوابها في وجه غير ابنائهم واصهارهم بفرض شروط تحذد السن والاقامة وانقاص عدد المتمرنين واطالة مرحلة التمرين للرفاق وتعقيد التحفة الفنية وغلائها والتحيز والاختلاسات وافساد ضمائر لجان الامتحان ورسوم الانضهام الباهظة وضخامة نفقات ولائم الدخول . واتفق ارباب المهن على اعطاء ادنى الاجور المكنة ، حتى يدفعوا عليها رسوماً خفيفة للتعاونيات والسلطة العامة . وارغموا العمال على أن يشتغلوا ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة في النوم . وطلبوا من الدولة تخفيض عدد ايام العطلة وتحريم التسرر العالى ومنع العال من الاختلاف الى الحانات ، حتى يتاح لهؤلاء الاكتفاء بالاجور المتدنية . وحظرت التكلات والاضرابات على العال . فاسس هؤلاء نقابات سرية : ابناء سليهان (الذئاب) ، ورفاق الواجب (المفترسون) ، وابناء السند حُباك (الذئاب المتنكرون) ، وابناء السيد سوبيز (السكارى) . وكان لهم رؤساؤهم ، وجمعياتهم المنتظمة ، وصناديق مال تغذيها اكتتابات اجبارية ٬ والاسلحة ٬ والحراب ٬ والبنادق القصيرةُ . ولم ينظر الرأي العام اليهم بعين راضية لانهم اتهموا بالتسبب في ارتفاع الاسمار بفعل متطلباتهم . ولكنهم ازدادوا قوة بازدياد عددهم . فني السنة ١٦٣٧ ، بلغ عددهم في باريس ٤٥٠٠٠ عامل ومتمرن . والفوا في ليون ثلثي سكانها الماية الف وتراوح عدد العاطلين منهم بين عشرة آلاف واثني عشر الفاً ؛ فحين تتوقف جهاهير المتسولين والمتشردين من الارياف الجائمـــة نحو المدن وتنضم الى جماهير الماطلين المتضورين جوعاً وذوي الاجور المتدنية ، حينذاك تبدأ الغتن والثورات .

تفاقم الخصومات الدينية . فعلى الرغم من البراءة المعروفة ببراءة و نانت ، عوعلى الرغم من البراءة المعروفة ببراءة و نانت ، عوعلى الرغم من البراءة المعروفة ببراءة و نانت ، عوعلى الرغم من التقارب بين الكثيرين البروتستانت والكاثوليك الذي انتهى الى قبول الزواج الختلط فيا بينهم استمرت الخصومة على حدتها اقله في الاقليات المتشددة . الاكليروس يوجب الى البروتستانت التهديد تلو التهديد تو التهديد ويقدم بعض الكاثوليك على تمكير احتفالات ترتيل المزامسير واحراق مساكن البروتستانت المنفردين . وتثير و جمية قربان المذبح ، القضاة على المنشقين .

مقابل ذلك يتصرف بعض البروتستانت المتهوسين تصرفا غير لائق عنسد مرور القربان المقدس ويسيئون معاملة المرسلين في الفرى. ويمتنع البروتستانت في « ميلا » عن تسلم السكوك الكاثوليك وفي « ني « ، لا يجد الصناعيون الكاثوليك لا مسكناً ولا عملاً . وقد اقدم بعض الاسياد البروتستانت ، بفضل ما يتمتمون به من سلطة ، على ارغسام ابناء قراهم على تغيسير ممتقدهم بالقوة احياناً. وفي مقاطعة « سانتونج» عطف ملاكو المراكب البروتستانت بالتفضيل

على البحارة من ابناء دينهم . وعاش كاثوليك الجنوب تحت كابوس الخوف الدائم من الاقصاء · فغدا الصراع الديني شيئًا فشيئًا صراعاً طبقياً . وكان البروتستانت في « تور » و « روان » وعدد كبير من المدن الصناعية تجاراً – صناعيبين اثرياء يرتبط بهم الوف العمال الكاثوليك في نطاق تأمين معيشتهم .

سارت انكلترا قدماً في حقل التنمية الرأسهالية المرتكزة الى الثورة الصناعية الاولى في انكلترا التجارة البحرية الكبرى . فزادت تجارتها الخارجية عشرة اضعاف ما بين السنة ١٦١٠ والسنة ١٦٤٠ ، فبدل الاقتصاد التجاري الاقتصاد الزراعي تبديلا اعمق منه في فرنسا الى حد بعيد . واستمرت الثورة الصناعية الاولى التي انطلقت في القررت السادس عشر . وقد باتت الصناعة الكبرى ؟ قبل الحرب الاهلية ، شيئًا مألوفاً في مناجـــم استخراج المعادن . ويغلب على الظن ان الصناعة الكبرى ، حوالي ، السنة ١٦٤٠ كانت اوسم انتشارًا في انكلترا منها في اي مكان آخر من اليابسة . فبرزت مؤسسات تتطلب رؤوس اموال ضخمة . وفي عهد جاك الاول استخدمت مصانع الشب على مقربـــة من و هونبي ، في مقاطعة « يوركشاير » ، هياكل خشبية كبرى ومصاهر قرميدية وصهاريج وافران معدنيسة يشتغل في كل منها ستون عاملا ويستهلك كل سنة فحماً حجريبًا وخشبًا وشبأ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني . وضم مصنع الورق في د دارتفورد » (كنت) ستهاية عامل ، ومصنع المدافع . في « برندلي » (كنت) مايتي عامل ، النع . وقد بات ضرورياً ، لزيادة انتاج مناجّم الفحم والنحاس والحديد والرصاص القصدير السير قدمك في الحفر والحؤول دون غزو المساه وانفجارات الفاز . ولكن رواقاً عميقاً يكلف الوف الجنبهات ، ومضغة تسيرها الاحصنة تكلف الفي جنيه سنويا . كا بات لزاما استخدام مئات المعدنيين لان مناجم الفحسم اصبحت تلتج بين عشرة وخمسة وعشرين الف طن حوالي السنة ١٦٤٠ ، بعد أن كأن الانتاج السنوي في منجم الفحم لا يتعدى بضع مثات من الاطنان الا نادراً في السنة ١٥٥٠ . وكانت المصاهر الحبرى والمطارق المائية الضخمة لصناعة الحديد شيئًا مألوفًا قبل الحروب الاهلية. ثم تكاملت بعض الصناعات : فمادت معامل الحديد مثلا لارباب المصاهر الكبرى . وتعاظم شأن رؤوس الاموال المتجمعة . ففي عهد جاك الاول ، بلغ رأس مال احد مصانع الجمسة اللندنية عشرة آلاف جنيه بينا لم يتطلب سير مصنع الجمة الكبير ، قبل السنة ١٥٤٠ ، اكثر من ٢٥ جنيها . وسيطرت الرأسمالية الصناعية على الصناعة المنزلية التي ما زالت قاعدة عامة . ووفوت صناعة المعادن الكبرى المتعاظمة المادة الخسام الصناعيين اليدويين الذين ينتجدون المراسي والادوات وقطع التبديل للآلات والفؤوس والمهاميز والمواس والمسامير والاقفال ويواسنا لحماريث ومغالي الماء والآنمة المعدنية والمقالي. وبرز تعاظم الصناعة التجاري في النسيج أذ استخدم بعض « الاسياد » ••ه وحتى •••ه عامل في منازلهم . وفي مقاطعة « لنكاشاير » ، وفر التجار --الصناعيون القطن لالوف الغزالين والحاكة المتشتتين هنا وهناك . وفي صناعة القطنيات ، كما في صناعة الاجواخ ، نهضت بعض المعامل بالاعمال التكميلية : الصياغة والتلبيد والصقدل . ولكن هذه الانطلاقة لم تخل من الازمات . فالبطالة غير نادرة في صناعة الاجواخ خلال القرن السابع عشر . وقد حدث في تجارة الاقشة ، قبل السنة ١٦٢٠ ، هبوط استمر سنوات عدة . وطورت الرأسمالية التجارية الزراعة تطويراً بطيئاً . وفي سبيل توفير الصوف للصناعة واللحوم للمدن ، تابع الملاكون، ولو على نطاق اضيق، تحويل اراضيهم الى مراع بتسييجها ومنع الدخول اليها ؛ واتسعت رقعة المروج الصنعية ؛ واستحسن الكرنب الساقي ، الذي انحصرت زراعته من قبل في البساتين ، لتغذية المواشي في بعض الدورات الزاعية .

الرأساليون والسيطرة لقد حدث انقلاب في توزيع الثروات والعلائق بين الطبقات . ط الجمت الانكليي الا ان الصراع بين الطبقات اختلف عنه في فرنسا ، بسبب نمو الرأسهالية السريسع ولان طبقة الاشراف لم تنظر الى مزاولة المتجارة والصناعة والزراعة التجارية نظرتها الى عمل مشين. فقد استهوت هذه النشاطات عدداً كبيراً من الارستوقراطيين: ولا غرو فان شطراً من طبقة الاشراف الانكليز لا يختلفون بعاداتهم وذهنيتهم عن البورجوازيسين ولكن سواد الاشراف لا يزالون يعيشون عيشة الاسياد في اراضيهم بين شركائهم المزارعين وقد حسد اشراف الطراز القديم هذا اولئك الذين جموا الثروات بفضل النشاطات الجديدة وتقدموا عليهم ؟ ومقتوا الرجال الجدد ، من تجار وتجار صناعين ، الذين يتوفقون الى اقتناء املاك واسعة ، ويتوصلون ، بفضل عقاراتهم ، الى شغل مناصب قضاة الصلح ، ويسهمون في ادارة البلاد ويتماظم شانهم في انتخابات الجالس التمثيلية ، ويطالبون ، لغير الابكار من ابنائهم ، بوظائف الكنيسة والجيش والدولة وينافسون الاشراف القدامي في كافة الجالات . وقد اتهم اشراف و الطراز القديم ، الرأسهاليين بالمراباة وطالبوا بان تتدخل الحكومة لتضمد حدًا لتصرفاتهم .

وكان الرأساليون المستقلون على خلاف مع رجال بطانة الملك. فقد استفاد بعض مؤلاء من نفوذهم لحل الملك على ان يعهد اليهم بعض الاحتكارات. ولدينا مثل اللورد وشفيلد » وثيس مجلس الشيال » الذي حصل من جاك الاول على احتكار صناعة الشب لصلحة نقابة من الاعيان المتعهدين الذين كان يمثلهم في البلاط. ولدينا ايضاً مثل الاميرال السر و روبرت مانسل » الذي استعاد بالشراء » في السنة ١٦١٥ » احتكار الزجاج المنوح لتسعة متعهدين » الغ . فطالب الرأساليون ، يسانده صفار ارباب المهن وتجار المدن والمناطق الصناعية ، بالفاء كافة هذه الاحتكارات وباطلاق حرية العمل .

ودفع نمو صناعة الاجواخ وتصدير الحنطة بالرأسماليين الى اقتناء املاك واسمة امنوا بعسب ذلك ديمومتها بتخصيص ابكارهم بها عند زواجهم. وقد دب الخلاف بين هؤلاء الملاكين ومزارعهم وفي سبيل استمادة ما ينفقون حوالوا المزارعات الدائمة الى مزارعات مؤقتة ورفعسوا نسبة الفرائض والاجور متجاهلين كل حق وقانون . واستمروا بتسبيج اراضيهم مستندين الى القانون الصادر في السنة ١٥٩٧ ، الذي اجاز تحويل الارض الى مرعى لاراحتها ، وسرحوا الفسلاحين المناكيد واكتفوا مكانهم ببعض الرعاة . وتضاعفت قيمة الضانات بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٥٠ ولكن عدد المستفيدين منها قد تدنى . اما الذين حرموا حقوقهم فقسد انضموا الى صفوف المتشردين الذين مختار من بينهم عمال الصناعة الكبرى . وقد تقدم المزارعون بالمريضة تسلو المويضة الى المجلس الحاص مطالبين هؤلاء الملاكين الرأسمالين مجتوق مهضومة .

ودب الخلاف بين العمال وارباب الصناعات على قضايا الاجور والبطالة واستخدام العمال غير المؤهلين . وكان نظام الصناعيين اليدويين الصادر في السنة ١٥٦٣ قد قضى بان لا يستخدم اي عامل ما لم يخضع التمرين القانوني ، ولكن نمو الصناعة السريع قد حمل ارباب المصانع على استخدام يد عاملة اقل كلفة من بين الفقراء والعاطلين الذين لم يتمرنوا في يوم من الايام . وفي سبيل التوصل الى تسريح هؤلاء غير النظاميين ، تحالف الرفاق والمتمرنون ولجأوا الى اعلان الاضرابات كا حدث في و نورويش » (١٦١٠) .

ادى كل ذلك الى ايجاد التنازع بين فئتين. فهن جهة ، الرأسماليون والمستفيدون مسن نشاطهم : الارستوقراطيون والاشراف الريفيون وصغار ارباب مهن الحياكة والمزارعون المستفاون في المقاطعات الصناعية و نورفولك ، و و سوفولك ، و و اسكس ، ولندن ، ومدن صناعة الاجواخ في و لنكاشاير ، و برادفورد ، و د ليدس ، و و لفاكس ، ، ومدينتي و برمنفهام ، و و ونيسستر ، في و مدلاندس ، ، ومدن و غلوسستر ، و و و توفتول ، و و اكستر ، في الغرب . ومن جهة ثانية اسياد الطراز القسديم و مزارعهم وطبقات الشعب الفقيرة .

قالت هذه الفئة الثانية بمفهوم المجتمع القديم : الجسم الاجتاعي مركب من اعضاء متكافلة يتوجب عليها تبادل الخدمة والمساعدة ؛ وليس ما يملكه كل فرد الا لخدمة القريب . وقالت كذلك بتنظيم القرية القديم : حقول مستطيلة غير مسيّجة ، زراعة مشتركة ، دورة زراعية كل ثلاث سنوات ، اراحة اراض ، مراع عامة ، اي كل تلك الحياة الجاعية التي تحد من سلطة الغني وتأخذ بنصرة الفقير . وقالت اخيراً بمبدأ الفلسفة المدرسية : الاعمال على انواعها خدمة عامة ؛ فلا يجوز من ثم مزاولة تجارة قد تؤدي الى افقار الغير ؛ بل يجب البيم بالسعر القسانوني ، والامتناع عن البيم بأعلى الاسمار ، والتنبيه الى المخفاض الاسمار المحتمل ، والاقلاع عن تخزين المواد بانتظار ارتفاع الاسمار ، وعدم استيفاء الفائدة الا اذا شارك الدائن المخاطر التي قسد يتمرض لها المدين ، وعدم استيفاء الفائدة والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط يتمرض لها المدين ، وعدم استيفائها كذلك من الفقير والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط المفروضة على المزارع ، وابقاء الاراضي دون سياج ، ورفض كل كسب على حساب القريب .

أما المستفيدون من الرأسمالية ولا سيا الملاكون الجدد المنحدرون منها ٬ فقد تبنوا ٬ عسلى

نقيض ذلك ، مفهوم الملكية البورجوازي : كل فرد سيد مطلق على ما يملك ، وله مل الحسق في استثاره لحدمة فوائده المادية ، دون أي موجب يضطره الى تقديم مصلحة القريب على كسبه الشخصي ، فالملكية حتى راهن غير مشروط ودائم كانت هنالك واجبات ام لم تكن وقام بها المالك. ام لم يقم . وجلي ان هذا المفهوم الفردي للملكية يزيل كافة الواجبات الاجتاعية : فيجب من ثم ان تتحرر المصلحة الاقتصادية من كل قيد ، اذ ان غاية كل نشاط ، بالنتيجة ، هو ارضاء الشهوات . وان هذا المذهب ، كا نرى ، يقود الى مادية لاواعية .

وقد وجد المفهوم البورجوازي عضداً له في مذهب القائلين باتباع قوانين صارمة في الدين . أجل لقد تمسك بعض الكلفينيين المتشددين بآراء وكلفين » الشبيهة كل الشب بآراء الفلاسفة المدرسيين . ولكن الدين المسيحي غدا ، عند عدد كبير من القائلين باتباع القوانين الصارمة ، مجرد فردية مصلحية . فجوهر عقيدة هؤلاء هرو وحي الله لروح الفرد . والدين ليس سوى معاملة شخصية بين الانسان وخالقه دونما وساطة بشرية . كل انسان حر على مسؤوليته الخاصة . غير ان نظام الكون المقلي ، من جهة ثانية ، هو عمل الله ، والمخطط الألمي يفرض ان يعمل الفرد لارضاء الله . الايمان وحده يخلص، ولكن الايمان يتحيز بالاعمال . كل فرد مرغم على القيام بأعمال رسالته . وهو مدعو للنهوض بعمل خاص في سبيل بحد الله والخير المشترك . وعلى اولئك بأعمال رسالته . وهو مدعو للنهوض بعمل خاص في سبيل بحد الله والخير المشترك . وعلى اولئك وينظروا اليها نظرتهم الى نظام زهدي والى نضال روحي طويل الأمد . والكسب هو دليل النجاح والبرهان على ان الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير . والواجب من ثم هو الكسب والنجاح والبرهان على ال الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير . والواجب من ثم هو الكسب والنجاح في الاعمال هو دليل النعمة الروحية . والله قد بارك كل من يستجيب استجابة حسنة لرسالته . والفقر والبؤس هما عقوبة الخطايا . والمرعى العمومي والقانون على الفقراء يشجمان البطالة والخطيئة . يجب الا يساعد الفقير ، بل ان تصلح سجيت حتى يتخلص من الخطيئة ، وبالتالي من البؤس . وهكذا فان الفردية المتطرفة قد آلت الى الانانية والقساوة .

صراغ الطبقات الفضت تجسارة العمولة ، إلى اثراء طبقة بورجوازية كبرى من التجار .

في الاقاليم المتحدة
فنجم ، عن ذلك تضاد واختلاف بين الطبقات في اطار الاقليم الواحد وتضاد واختلاف بين اقليم واقليم . وكانت هولندا دا وزيلندا المستفيدين الاكبرين من استثبار التجارة البحرية الكبرى ومن انهيار الموانىء البلجيكية . فاصبح لدى هولندا ، منف السنة شركات بجاره يفوقون عدداً بجارة انكلترا واسكتلندا واسبانيا وفرنسا مما . كا اصبح لديها شركات بجرية قوية ، كشركة الهند الشرقية مثلاً (١٦٠٢) . وقد توفر لها المال الذي أتاح لها اجتياز الازمات بفضل مصرف امستردام (١٦٠٩) . وقد اتاحت لها الهدنة مع اسبانيا (١٦٠٩) دخول العالم الاستعاري واستثاره استثباراً منظماً . فازدهرت فيها الصناعات ، من بناء سفن ، وصناعة حرير ومخل وكتان وجوخ ، وقيشاني . وارتفع عدد سكانها . وبات لزاماً

قوسيع زراعة البقول في السباخ واعتاذ الدورة الزراعية كل ثلات سنوات دون اراحة الارض فتوطد نفوذ البورجوازية في المدن: « امستردام » «روتردام» «هارلم» مدلبورغ «الكرن». وقكنت اوليفارشية بورجولزية من الاستثنار بالسلطة كلها. وكان هؤلاء البورجوازيون كلفينيين معتدلين ، متساهلين بالضرورة لاجتذاب التجار الاجانب ، وقسد ساروا على آراء الراعي ارمينيوس الذي لم يكن متشدداً في موضوع القضاء السابق بالنسبة لمصير الانسان. ولم يبق في هولندا وزيلندا اشراف قط: سبعة في هولندا وواحد في زيلندا. أما الفلاحون ، وهم بنسبة واحد لاثنين من أهل المدن ، فلم يتمتموا باي حق سياسي . وتكونت في المدن طبقة كادحة من البحسارة والعمال والمتمونين ، المحرومين كل حق ، استغلت ايما استغلال ، وسارت على مبادىء الراعي و غومار » المتصلب وقاومت بعنف الاوليفارشية البورجوازية . وقددفعت هولندا ه م من ضرائب الاتحاد ولحكن نيرها كان ثقيلا على الاشراف الفقراء في « غسلدر » هولندا فان الصراع الطبقي قد تفاقم أمره في كل مكان .

٣ - ازمة الدولة

كانت الثورة كامنة في كل مكان لا بل انها اعلنت اكثر من مرة . لذلك فان الحرب الاهلية كانت شبه مستمرة ، خامدة أحياناً ومستعرة اخرى .

المثل الفرنسي في فرنسا خاص الملك صراعاً دائماً لاجل الاستقلال ضد محاولات آل فررات الفلاحين والعال مسبورغ المتكررة لبسط هيمنتهم فاوقعه ذلك في العجز المسالي . فالامكانات التي وفرها له الانتاج محدودة جداً ، والضريبة غير كافية ابسداً ، والعجز مزمن وزيادة الضريبة ثقيلة الوطأة وبعيدة الاثر . لذلك ما عتمت الحقوق الاميرية ان غدت سبباً أو مبرداً او حجة لاندلاع الثورات .

ألفت ثورات الفلاحين سلسلة متصلة الحلقات. فلا تمر سنة الا وتندلع ثورة في احسدى الولايات. ولكنها تزداد خطورة ويتسع ميدانها في بعض الاحيان. وبين السنة ١٦٣٦ والسنة ١٦٣٩ عين افضت الحرب المعلنة التي نهض بها ريشليو الى اثقال وطأة الحقسوق الاميرية ، انفجرت هنا وهناك حروب فلاحية حقيقية . وروي عن الفلاحين في بعض المناطق انهم كانوا يرعون الاعشاب ويتنقلون عراة وينتحرون ، وشكل و الرعاع ، منهم في اقساليم وميموسين ، و و بواتو ، و و الجرموا ، زمراً من سبعة أو ثمانية آلاف رجل تنقض على جباة الفرائب وتمزق مأمور المساعدات اربا . وفي السنة ١٦٣٧ ، شقوا عصا الطاعة في غسكونيا و و بريغور ، ، فتوجيد تجنيد جيش لتأديبهم . ولكن ألفاً ومايتي رجل مسن بينهم آثروا الموت وزاء المتاريس . وفي السنة ١٦٣٧ ، أدى فرض الضريبة على الملح ، في نورمانديا السفلى ،

الى اندلاع ثورة 1 الحفاة ، . فقتل هؤلاء الفلاحون جباة اثقل الضرائب المباشرة وطأة ، اعني بها ضريبة الاقتطاع . وارادوا منع جمع كافة الضرائب التي فرضت بعد وفاة هنري الرابسع .

وثار عمال المدن بدورهم ايضاً كلما ارتفع سعر الخبز وانتشرت البطالة وزيدت الضرائب. وتعددت الفتن بعد السنة ١٩٢٨ ، ثم تحولت ثورات في ليسون في السنوات ١٩٢٩ و ١٩٢٩ و ١٩٣٩ المحتمد المعتبر المعتبر وفي باريس في السنة ١٩٣٩ ، وفي روان في السنة ١٩٣٤ ، اذ قاد أحسد الحرازين العمال الحبالين والوراقين وهجم معهم على « مكتب المزارع ، وفي السنة ١٩٣٩ ، اذ هاجم عمال صناعة الاجواخ ، وعمال الصباغة ، بقيادة احد الساعتيين ، مأمور الرقسابة على صباغة الأجواخ . فنقب الشعب المأمور بالمسامير وأرغم العجلات على ان تمر فموق جسمه ، ثم خربوا مكتب وزراء مال فرنسا ودخلوا عنوة مسكن « نقولا له تلييه » رئيس جباة ضريبة الملسح .

وجملة القول ان الفتن بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٥٩ ، خلال حرب الثلاثين سنة حتى السنة ١٦٤٨ ، ثم خلال الحرب مع أسبانيا ، أكثر من ان تعد وتحصى .

وليست هذه الثورات حرباً يعلنها الفقراء على الاثرياء . فالاعتداء يتناول جباة الضرائب ولكنه قلما يستهدف القصور والدور البلدية و واذا ما حدث ذلك و فغالباً ما يكور المقصودون بعض حديثي النعمة من ضباط ورجال مال . ان ما استهدفته الثورات هو الادارة الاميرية . وما كانت لتصبح خطراً حقيقياً على الحكومة الا اذا اشتركت فيهما الطبقات الاجتاعية الاخرى . وقد استطاع الملك على العموم اعادة النظام الى نصابه بسهولة بمقدار قيام قضاة المجالس التمثيلية وقضاة المحاكم ورؤساء دواثر العدل وغيرهم من المسؤولين بواجباتهم ووقوف قوى الامن بوجه الشعب وعزوف طبقة الاشراف عن الانضام الى الفلاحين . ولكن جاهير من كل الطبقات اشتركت احياناً في اعمال العنف فاحدق الخطر اذ ذاك بالدولة .

ثورات الكبار اهمية الروابط الاقطاعية

طالب (السيد) اخو الملك والامراء الملكيون ، ورثة التاج من بعده ، بان يشتركوا في الحكومة ويلعبـــوا الدور الاول في مجلس الملك ويتولوا السلطة في الولايات كحــكام وراثمين وبالا

يكون الملك سوى الاول او الرئيس بينهم ، وغالباً ما ثاروا على سلطة الملك المطلقة . ولكن . ثوراتهم كانت تجر شيئاً فشيئاً الى اندلاع ثورات جماهير كثيرة من الفلاحين أحياناً . في هسندا المجتمع ما زالت المشاعر الاقطاعية على حيويتها والروابط الشخصية بين انسان وانسان وروابط السيد بالفداوي على قوتها . وكان للامراء الملكيين والكبار زبائن كثر من الاشراف وعامسة الشعب انتسبوا لهم ونذروالهم امانة كلية واخلاصاً مطلقاً ونابوا عنهم في المبارزات والمنازعات والمعارك والكلام والكتابة والدسيسة ، وتبعوهم في الضراء وسجنوا وقتلوا من اجلهم . وبالمقابلة ، وفر لهم السيد الغذاء واللباس احياناً ووضع فيهم ثقته وساعدهم ابداً على التقدم في المجتمع واوجد

لهم مواكز العمل وزوجهم ووضعهم تحت حمايته واخرجهم من السجون وضمن الماهدات التي عقدها مع الملك لانهاء الثورات شروطا تحفظ لهم حقوقهم . وقد تقدمت هـنده الواجبات المتبادلة على كل واجب آخر ، حتى واجب الطاعة للملك وخدمة الدولة . ولم يكن باستطاعة الملك نقسه ان يفرض سلطته الا بواسطة أمثال هؤلاء و المتفانين ، وامثال هؤلاء و الطفيلين ، من وجاله .

قمكن الامراء الملكيون والكبار من جمع الزبائن من حولهم بفضل الخدمات الجمة التي كانت في متناول يدهم: والسيد » والملكة ، والامراء والاميرات، في بيوتهم واقطاعاتهم ، والامراء الملكيون والكبار كضباط كبار في بلاط الملك الذي تكاد تنحصر وظائفه الكبرى بالمسائلات نفسها ، مما جعل بعضهم يخشون من أن لا يحسط الكبار الملك الا بالسلابين والقتلة . أضف الى ذلك أن الامراء والكبار كانوا حكام الولايات نفسها طيلة أجيال . فعاد اليهم حتى تعيين حكام المدن وضباط عدلين ومالين كثيرين . وقد قامت في عدد من الولايات ، كنورمنديا فيا خص آل و لونجفيل ، ولنغدوك فيها خص آل و موغورنسي، عدد من الولايات ، كنورمنديا فيا خص آل و موغورنسي، وابط مصلحة وتفان بين الكبار والوف الماثلات على اختلاف نسبها . وكانت الوف الماثلات، الم عن جد و مرتهنة ، الكبار و و مازمة ، ، و « متفانية » ، تخدمهم قبل الملك نفسه .

وغالباً ما يحتل هؤلاء الاوفياء انفسهم منصب متعهدي الاملاك الملكية الذي فازوا به مسع حتى شغل الوظائف الملكية وتعيين الاسياد الذين يقضون بالعدل والضباط السيديين . فكسبوا بذلك نقوداً علي صغار الاشراف وبورجوازيي المدن الصغرى والفلاحين الذين يسعون وراء هذه الخدمات المحتلفة الكثيرة حتى في قلب الارياف .

اتفاق الطبعات كان لهؤلاء الاسياد اخيراً تأثير عظيم على فلاحيهم . فالروابط الاقطاعية الاجتاعية في الدولة تجمعهم ، وغالباً ما يشعر الفلاح شعور والوفاء ، و و التفاني ، نحو سيده . ولا ينمو الحقد وروح المنف في قلب الفلاح الا اذا كان سيده رديئاً حقاً ، يضاف الى ذلك ان السيد يستطيع ، بواسطة ضباطه الذي ينظمون كل نشاط ، ان يجمل حياة فلاحيه مرضية أو تقيلة لا تطاق . وللسيد والفلاح من جهة ثانية مصالح مشتركة ضد الملك والادارة الاميريسة . فالمضريبة الملكية ترغم على حفظ الاجور دون مستواها في حسال زوال الضريبة ؛ والضريبة الملكية تمرض للخطر ، في سنوات الحول ، جمع الدخول والفرائض واموال المزارعة . فكم من الملكية تمرض للخطر ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويوزعون عليهم الاسلحة يحمون فلاحيهم ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويوزعون عليهم الاسلحة المن الحروب الاهلية ، ويفرضون بمساعدتهم احترام المواشي والحصائد . ويندر ان يكون مسن مصلحة الفلاح مقاومة سيده في حين ان الجيوش الملكية ، كفيرها لا تمف عن الاستلاب والنهب وان الفلاح ، دون حماية ، مثاكد من انه سيكون الضحية . لذلك تبع الفلاحوس أسيادهم في اغلب الاحيان .

زد على ذلك من جهة ثانية ان كل ثورة كانت تمتد بسهولة بالنظر الى ان الحد لم يكن فاصلاً بين الطبقات الاجتاعية . فليس نادراً ان نرى في العائلة الواحدة افراداً قضاة وافراداً جنوداً ، وافراداً صاهروا التجار وافراداً صاهروا اعضاء الجسالس التمثيلية ، وافراداً ارتقوا الى طبقة الاشراف وافراداً ما زالوا في طبقة عامة الشعب ، وقد ارتبط بعض التجار من علية الاشراف بروابط متمددة متشابكة متينة ، في عهد تميز بتنظيم عائلي قوي جعل عرف العلائق بين الحامي والحمي ، بالاضافة الى ذلك ، من رابطة النسب ، دما أو مصاهرة تمهداً بالخدمة من جهة اخرى مها بلغ من بعد درجة النسب .

دور الفباط لم يطمئن الملك الى ضباطه انفسهم ، وقد اعتبر اعضاء الجالس العليا الجالس العليا والدستور ولا سيا اعضاء الجالس التمثيلية انهم جد مفبونين باحداث الوظائف التي تقلل من قيمة مهامهم وشأنها وزيادات الضانات التي الجأتهم الى قروض باهظة الفوائد . فهم قد ارهقوا برفع الضرائب كأصحاب دخول سنوية من الارض وبالضرائب غير المباشرة كمكلفين . فرفضوا من ثم توقيم البراءات الاميرية وشلوا عمل الملكية حتى اثناء الحروب ، وادعى مجلس باريس التمثيلي بانه وريث مجلس الملك السابق واراد الاشتغال بصورة بديهية بالامور السياسية ، ودعوة الامراء الملكيين والدوقة والامراء وضباط التاج للتداول في شؤون الدولة ، كا حاول ذلك ، دون جدوى ، في السنة ١٦٩٥ والسنة ١٦٤٨ . وكان ادعاؤهم هذا بمثابة اعادة تشكيل على الملك السابق وجمعية الاقطاعيين ؛ كما ان القول مبدئيا مجقهم في الاجتماع بمطلق ارادتهم واتخاذ المقررات الشرعية ، كان بمثابة اقامة ملكية تقيدها الارستوقراطية ، في حال ان الملك قد أراد لنفسه ان يكون مطلق الصلاحية وشعبيا .

وادعى بجلس القضاء لنفسه ، في السياسة والتشريع ، بالتمتع بسلطة مستقلة عن الملك وبالعمل تلقائياً بمبادرته الخاصة والتشاور بمنزل عن اي رأي آخر وفرض مقرراته . وقد أواد جمع ضباط الملك الآخرين للوقوف على شؤون الدولة الختلفة (قرار الاتحاد، في ۱۳ نوار ۱۹۲۸) وحاول هذا المجلس اعادة النظر ، وحسده ، في البراءات المقرة في حضرة الملك ، وذلك في الاجتاعات القضائية التي أعادت بجلس الملك السابق ، وقد حور أو الني بقرارات براءات أو بنوداً من براءات اقرت في هذه الاجتاعات . ولم يسم بالاجتاع القضائي في حضرة الملك الا اذا كان حضور الملك بمثابة زيارة يقوم بها لاستطلاع آراء المجلس في موضوع سياسي عام . وقسد اعلن ان في صغور الملك انتهاكا لحرية التصويت ، وادعى لنفسه حتى التشاور واقرار البراءات والاوامر بموزل عن الملك .

الدعوة التلقائية لمثلي الملكة ، والاطلاع على كافة الشؤون ، والشرائع المسنونة بمنزل عن الملك ، كل ذلك كان بمثابة اقامة جمية منفصة عن الملك تتمتع بالسلطة التشريعية وبحق رقابة السلطة النفيذية ، وبمثابة محاولة اولى للفصسل بين السلطات المختلفة . فسار المجلس ، بذلك الى

ملكية مقيدة ، لا بل مهد الطريق أمام الجهورية . وجاء عمله متنافياً وكيان الملكية بالذات التي الف الملك والمملكة في نظرها كلا لا يتجزأ . فحضور الملك لم يكن انتهاكا لرأي اعضاء المجلس الملكي ، لأن المجلس ، الذي يمثل المملكة ، لم يكن ليوجد بدون الملك . وكان الملك يستجمع الآراء بواسطة مستشاره ولكنه يستخلص بنفسه بعد ذلك حقيقة رغبة المجلس ويتبناها كما لو كانت صادرة عنه . وكان بمكنا ان تختلف هذه الرغبة عن الرغبات المملنة ، فيبقى للملك الحق آنذاك في اتخاذ قرار نهائي يعارض اغلبية الآراء . فكان موقف المجلس التعشيلي من ثم موقفاً ثورياً . وكان انقلاباً ، وفصلاً مصمماً بين عنصرين متحدين في الواقع يتكاملان ولا يتجزآن ، الملك والمملكة ، الملك والامة . وكان بالتالي رفضاً للملكة .

ولكن هذه الثورة السياسية وسيلة دوام اجتاعي . ولم يستهدف الجالس العليا وثورتها الرجمية على الما التربية التربية الما التربية التربي

عمل المجلس التمثيلي سوى المحافظة على اوضاع أعضائه الراهنة وأوضاع أنسبائهم وحلفائهم ، وأوضاع امثاله ، وأوضاع متولي الوظمائف والاقطاعات ، في وجه ثورة اخرى مركزية تقول بالمساواة الى حد مــــا ، هي ثورة الملكية المطلقة . فالجلس التمثيلي انما قاوم محاولة احلال المفوض محل الضابط ومجلس الملك محل المجالس العليا والوكيل محل مختلف الهمئات القضائمة والمالمة . وانكر على مجلس الملك وحده ، في غماب الملك ، حق التصرف وكأنه كتببة المملكة الاولى ، وحق ابطال كل قرار يصدر عــن المجالس التمثيلية ويتعارض مع السلطة الملكية والمنفعة العامة . وطالب بالغاء وظائف الوكلاء الذين لم يكتفوا بالنظر في الشؤون الطارثة قبل احالتها الى القضاة الماديين بــــل بتوا بالامور الجوهرية بانفسهم بتغويض من مجلس الملك واقصوا كثيرين عـن وظائفهم ، اولئك الوكلاء الذين زاولوا وظائف ضباط المال وخزنة فرنسا و ﴿ المختارين ﴾ وغيرهم . وطالب المجلس التمثيلي بان يعود الضباط الى ممارسة مهامهم وان لا يحرموا وظائفهم بناء على مجرد أمر ملكي بل بموجب حكم قضائي كما تقضي بذلك الانظمة . فكان الموضوع من ثم معرفة من سيتولى ادارة الملكة : موظفون ملكيون يعينون ويعزلون عند الحاجة ويعملون باسم السلامة العامة وسياسة الدولة العليسا في سبيل خدمة مصلحة الملك التي لا تختلف عن مصالح الدولة العامة ؟ ام هيئات من الضباط تعود لهم ملكية وظائفهم ، لا ينقادون من ثم بسهولة ولا يعزلون عملياً ؛ يهتمون للمصالح التي يمثلونها فوق اهتمامهم للمنفعة العامة ، ويملكون وظائفهم واقطاعاتهم بالوراثة ويتمتعون بكافة سلطات السيد ، ويرتبطون باواصر النسب او الحالفات باشراف الجندية ، ويغدون قـــوى اقليمية أو علية ، ويمثلون الاقاليم والمصالح الحاصة في وجه الملك فوق تمثيلهم الملك امام المصالح الحاصة والاقالم .

وقد توفرت للمجلس التمثيلي وسيلة بمتازة للعمل: الاعتراض على الضرائب واقناع الفرنسيين بانهم يدفعون رسوماً باهظة غير عادلة لجرد مجد الملك ومجرد بذخ البلاط ٬ بينا تعرض مطامع آل هبسبورغ في السيطرة الشاملة للخطر وجود الدولة بالذات وبينا يفتقر البلاط البائس الى ٬ المال الضروري لتأمين غذائه . وكان من شأن ذلك حل الجماهير على التعلق العاطفي بالجسالس التمثيلية وعلى احترامها واجلالها . ويصح الكلام نفسه عن بورجوازيي المدن المثقلين بالرسوم والقروض الالزامية والاحتكارات التجارية واستيراد المصنوعات الاجنبية . يضاف الى ذلك ان أعضاء هذه المجالس كانوا ضباطاً لفرق الميليشيا البورجوازية وأسياداً ينعمون عمل السلطة على الفلاحين في أملاكهم . فقد حدث في باريس ابان و ثورة المرجام ، ان استدعى الاسياد مسن البورجوازيين الباريسيين فلاجي و سانتوان ، وقرى اخرى فلبوا الدعوة وحاربوا في صفوف بورجوازي العاصمة .

الدر الثوري أن التنظيم السياسي للحزب قد إعطى اسياده وبلدياته قوة نادرة. منحت للحزب البروتستاني .

براءة و نانت ، البروتستانت مراكز سلامة وحاميات عسكرية ، ولكن البروتستانت لم يكتفوا بما منحتهم اياه البراءة فأسسوا ، بالاضافة الى ذلك ، جميات اقليمية وجمية عامة . وكانوا قد قسموا فرنسا ثمانية قطاعات عسكرية ، كاكان على رأسهم قائد عام ، ومثلهم سفير في البلاط الملكي . فألفوا من ثم دولة داخل الدولة وجعلوا من فرنسا اتحاداً مؤلفا من دولة كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وشعبين مختلفين لا يجمع بينها سوى الخضوع لملك واحد ، وثنوية سياسية . الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية والحد ، وثنوية سياسية . الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية والحناعية ، ايضاً ، لم يكن ليتفق وحاجات الدولة . فاستفاد الاسياد البروتستانت منه للانضام الى كل حركة ينهض بها و الكبار ، وثاروا كلما كان الملك بحاجة الى السلم الداخلي ابارت صراعه مع الاجنبي .

وقام في بعض الفترات الحامة الاشراف والضباط وجماهير المدن والفلاحين . فكان كافياً ان يعطي أحد الامراء الملكيين الاشارة المتفق عليها حتى تندلع الثورة وتشعل نيرانها تدريجياً ولايات كاملة . فيدعو الاشراف آنذاك الفلاحين لحل السلاح وتعطي المجالس التمثيلية المثل فتفتح الاهراء التي يجمع فيها الوكلاء الحنطة للجيش و دوفينه ، ١٩٣٠) وخزائن الملك ليستولوا منها بانفسهم على مرتباتهم المحجوزة للحاجات المسكرية (قولوز ، ١٩٣٠) وتشجع اعمال الفوضى وتتفاعس عن الوشاية بالثائرين وتقاوم التدابير المتخذة بحقهم وتتقاضى عن اعمال الجماهير اذا لم تتمرض الالخياط الملكيين وممتلكاتهم لا لاملاك رعايا الملك الآخرين .

أما هذه الفترات فهي فترات القصور الشرعي في الدرجة الاولى، قصور لويس الثالث عشر، وقصور لويس الثالث عشر، وقصور لويس الرابع عشر. وتبدو الروابط السياسية وكأنها تتحطم تحطيماً خلال هذه المراحل فيشتى المديد من الرعايا عصا الطاعة ويتحصن المديد من الاشراف وعامة الشعب في مساكنهم ويؤلفون الزمر ويهاجون ويستلبون ، كالو كانت تعهداتهم محصورة في شخص الملك الراحل وكالو كانوا غير مازمين باي واجب نحو خلفه القاصر ، وكالو لم يعد هناك لا دولة ولا قانون بعسب

وفاة الملك. فتسنح الفرصة المؤاتية لمطالبات الامراء الملكيين. ثم ان هذه الفترات هي سنوات المحول والجماعات ايضاً أو فترات الحروب ، حين تغدو الادارة الاميرية ثقيلة الوطأة وحين لا ينقطع حبل الدسائس الاجنبية لاستالة الامراء الملكيين. ويبدو حينسذاك ان الروح الوطنية تفسد ويفسد مفهومها . فعملاً بالرأي القديم القائل بان لصاحب الاخاذة حق انتخاب سيده ، وي خاستون دورليان ، و « وسنك مارس » و « كونده » يتفقون وملك اسبانيا . ويلفت النظر ان المجلس التمثيلي والضباط الآخرين والبورجوازيين والشعب باجمعه ينسون المسدو المخارجي . وتتسابق الولايات والمدن على اعلان الثورة . فيبدو الملك وكأنه لم يعد سوى سيد لا يقوى على المقاومة الا بغضل بعض المخلصين ، وبعض المسكريين الاوفياء الذين محتفظون له ببعض الكتائب، وانشقاقات الامراء الثائرين . وتعالى مصير الماكة مرراً عدة بمسادفات الممارك . فقد احرز النصر في معركة « لنس » (١٦٤٨) على اسبانيا مثلاً ولكن لا يستطيع أحد التكهن ، في ثورة المرجام الناشئة هذه ، بالاحداث المكنة لو تحولت هذه المركة الى هزية . فان ما نرجحه نحن هو تجزئة المملكة وزوال فرنسا .

أما في انكلترا ، ففي عهد جاك الاول (١٦٠٥ – ١٦٠٥) ، المثال الانكليزي المدينة البورجوازية وعهد شارل الأول حتى الحرب الاملية ، وعهد جاك الثاني بين الدرلة على الفردية البورجوازية السنة ١٦٨٥ والسنة ١٦٨٨ ، نرى كل المتضررين بنظام تسييج

الاراضي يثورون دونما انقطاع على نتائج الرأسمالية . والصورة النموذجية لهذه الاضطرابات هي ثورة السنة ١٩٠٧ في و مدلاندس ، فقد أقدم الالوف من الرجال والنساء والأولاد والعهل الزراعيين وصغار الفلاحين الذين أفقرهم زوال طرائق الزراعية التقليدية والصناعيين اليدويين والقصابين والحدادين والنجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، على مهاجمة والتصابين والحدادين والنجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، وقد قدم لهم السكات الأغنية الضرورية . ولكن هذه الحركات التي تستهدفالاشراف الريفيين الذين يسيجون أملاكهم لا تشكل خطراً على الملك الا لانها تحرج موقفه امام الرأسمالين . فالملك يميسل بالتفضيل الى النائرين . والدليل على ذلك ان التحقيقات الملكية في الحوادث الثورية لا تنتهي غالماً الى نتيجة والحماكم الملكية تدين المالكين الذين يقالون في التسييج او في رفع الضرائب . وقد حافظ المسلكان الاولان من سلالة و ستوارت ، دون اي تغيير ، على مفهوم المجتمسع : جسم منظم مسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالقابلة نمطا حياتياً يتناسب مسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالقابلة نمطا حياتياً يتناسب مسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالقابلة نمطا حياتياً يتناسب مسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالقابلة علما حياتياً يتناسب على الدولة ، التي هي تمبير زمني لهذه الموجبات الروحية ، ارغام الجموع على احترام ارادة الله والحرس على ان يؤمن لكل فرد ما يمتفطوا لانفسهم بالسلطة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطة التشريعية الملكية المطلقة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطة التشريعية الملكية المطلقة .

والصلاحيات القضائية الخاصة وحق جميع الضرائب دون موافقــــة الرعايا وجيش دائم يخلص لهم الوفاء .

الا انهم اصطدموا بالمتشددين البوريت انيين من البروتستانت . تقدم الفردية البورجوازية فقاومهم التجار المتشددون الذين منوا بخسائر مالية بفعل الاحتكارات المنوحة لرجال البطانة الملكية، والدائنون المتشددون ، من رجال كنيسة أو أسياد الذين تعاقبهم المحكمة الكنسية العليا بسبب مراباتهم والذين يسخرون من تدخل الاساقفة في الشؤون الزمنية ، والجواخون المتشددون الذين يشكون من ايفاد المفوضين الملكيين لمراقبة الصناعة والاسعار ، والاشراف الريفيون المتشددون الذين تبرمهم اللجان بسبب نزوح السكان عن الارياف ، ولكنهم ناقمون على قرارات الندرة المكوكبة والدائرة القضائية في المجلس .

فقد ولى الزمان الذي كان الملك فيه يحسد المشل القومي ، وبات باستطاعة الطبقات المتنافسة ان تتألب عليه . والمجتمع الذي يحيط به بات مجتمعاً بورجوازي العادات والمسول . فتجار الشركات التجارية البحرية الكبرى يستخدمون اشقاء الاشراف الريفيين وابناء الاثرياء البورجوازيين على السواء . ويزاول بعض النبلاء التجارة الكبرى . وينتج كبار الملاكين الارستوقراطيين وصغار الاشراف المتصدير المباشر والصناعة على السواء . وغالباً ما يكور المهال المتمرنون في لندن ابناء اسياد عقاريين . فتتحقق بذلك الوحدة بين المدن والارياف . في مدوسة القرية وفي مدوسة المدينة التجارية القريبة ، يجلس ابناء المائلات المسيطرة في المقاطعة على مقاعد واحدة الى جانب ابناء المزارعين والتجار والصناعيين اليدويين . وليس نادراً ان يتزوج ابناء الاسياد المقاريين الذين لم يخدمهم الحظ من بنات الاسياد المقاريين الاثرياء . ويقبل في طبقة صفار الاشراف اولاد ابناء التجار وابناء كبار الملاكين الذين يتزوجون من بنات الاسياد المقاريين . اضف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرها الاسياد المقاريين . اضف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرها الطبقات وتجمع بين طبقات مختلفة في احترام تطيري الشخص البشري الذي يسيره عمل الله ، وفي المرقوف موقفاً حذراً من السلطات والنظم التي تستطيسع الحد من حريته ، وفي مقت السلطة المطلقة .

ان وجود هيئة تمثل الانكليز الميسورين ، ونعني بها المجلس ، قد أتاحت الاختلاف الدستوري . اختلف في صراع كان في البداية دستوريا . اختلف المجلس مع الملك ومعاونيه . فاعاد اصول و المنع ، فاشتكى مجلس العموم الى مجلس اللوردات واستصدر حكماً على المستفيدين من الاحتكارات الملكية اولا ثم عدلي مستشاري الملك ، اللورد - الحازن و سترافورد ، (١٦٢٤) و ولود ، المعرف ، (١٦٢٤) و المناع عن دفع ضرائب لا يسلم بها

مثارهم وكافة الحقوق التي كان معترفاً لهم بها عند بده ولاية هنري السابع (عريضة المطالبة بالحقوق ١٦٢٨) وحاول تأمين دوريته (١٦٤١) وتوسيع حقوق الانكليز بجيث تشمل الضرائب الغير مباشرة نفسها والغي الندوة المكوكبة والحكة الكنسية العليا (١٦٤١) وحرر المالك الرأسمالي . ويتضح من ذلك ان الانكليز حاولوا من ثم ان يحلوا عل ملكية مطلقة تسعى الى تحقيق التوازن بين الطبقات الاجتاعية ملكية يقيدها ممثلو النزعات الرأسمالية المزودون بالسلطة التشريعية وبحق الرقابة على السلطة التنفيذية والادارة الحلية ، ودولة تسند اليها مصالح الطبقات البورجوازية ومن ينتسب اليها ، وقد بلغ من بعد وجهات النظر بين الملك والمجلس التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٧ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورت ين التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٧ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورت بن

الثال الهولندي المحادة على المتحدة على السلطة المركزية متميزة بضعفها. والاقاليم المتحدة الثال الهولندي الحدد مؤلف من سبع ولايات حافظت على حقوقها في السيادة . اجهزتها المشتركة الهامة هي مجالس الطبقات ومجلس الدولة الذي يشترك فيه مندوبو الولايات بصفة سفراء حقيقيين حافظت كل ولاية على ضرائبها وجيشها واسطولها وقائدها المسكري المدؤول عسن النظام ومجلس الطبقات ومجلسها الخاص . ولا بد من اجماع رأي الولايات . وفي سبيل ذلك يراجع مندبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبيهم . فنحن يراجع مندبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبيهم . فنحن عنا امام استفتاء دائم يتطلب اقناع كل مدينة في كل ولاية ؟ وفي كل مديناة الحكام المدؤولين عنها . ويجب الحصول على موافقة ١٢٠٠ شخص تقريباً قبل التوصل الى اتخاذ قرار . وهسذا لعمري وضع يقارب الشلل .

أما الذهنية فتتميز بالاثرة ، فالبورجوازيون يسيطرون في بحالس هولندا وزيلندا و « اوترخق » و « فريز » و « غرونتغ » وبين المندوبين الى مجلس الطبقات أما طبقة الاشراف فلا تسيطر الا في « غدر » و « اوفرايسل » . ولكن هؤلاء البورجوازيين حديثو النعمة تسترم ذهنية المدينة الصغرى والاثانية التجسارية الضيقة . فاستحال تفاهمم واتفاقهم حتى في زمن الحرب . وقد رغب الهولنديون في العمل على الانهر ، على مصب نهر اسكو ، بغية افقسار « انفرس » ، ورغبت « غدر » في العمل على الرين لاقفال ابواب الاتحاد في وجه الاعداء . أما امستردام فقد باعت الذخائر والبارود والقنابل لاعسداء الاقاليخ المتحدة ، للاسبانيين اولا ، ثم المويس الرابع عشر في عهد متأخر .

ان واجب الميش قد انمى قوتين وحدويتين متمارضتين . فقد قدمت عائسلة « اورانج » للاتحاد قادته العسكريين الذين جعلتهم حاجات الحرب يميلون الى حكومة ملكية . كما الخدمات التي اداها امير اورانج قد فرضته قائداً عسكرياً مسؤولاً عن النظام في خمس أو ست ولايات . ووقع الاختيار في ولايات اخرى على احد افراد العائلة . وقد مثل امير اورانسج

آلدّفاع القومي ، ومن ثم فكرة الوحدة . واستند الى طبقة الاشراف في غلدر و « ارفرايسل » التي كانت اقل تعلقاً من البورجوازيين بالمصالح المادية والشؤون المحلية ، ولكنه استمال كذلك جميع اعداء البورجوازية الرأسمالية ، اي الفلاحين والعمال والبحارة والجيش .

أما البورجوازية الهولندية المجسدة برئيس سلطتها التنفيذية ، والقديمة بتجارتها العالمية والنافذة يجامعتها في ليدن ، فقد سارت على برنامج اوليضارشي يحتقر الفقراء ، والاشراف في عداده ، وبرنامجا جهوريا صمعته ضذ الملكية التي اعتبرتها غير منطقية وبدائية ومتسمة بطابع الاستبداد المسكري ، وفي كلا البرنامجين انتقام تقدم عليه طبقة لم تعد لتحظى بمركز مرموق في الاقتصاد وفي المجتمع . وقد أراد البورجوازيون الهولنديون تحقيق وحدة الوطن المشترك بهيمنة ولاية هولندا التي كانت أوسع الولايات ثروة واعظمها نشاطاً واشدها حزماً واعمقها ثقافة . وعلى رئيس المهورية الاتحسادية للاقاليم المتحدة .

ادى هذا الوضع الى قيام نزاع دائم بين رئيس السلطة التنفيذية والقائد العسكري المسؤول عن النظام رافقته ازمات حادة تقابل فيهسا و اولدنبرنفلت و و موريس دي ناسو ، و و حان دي فيت ، و و غليوم دورانج ، فكانت الغلبة للقائد المسكري في فسترات الحرب ولرئيس السلطة التنفيذية في فترات السلام ؛ للاول حين تتأزم الملائق الخارجية وحين يكون ؛ النزاع المسلح أمراً مرغوباً فيه ؛ والثاني حين يرغم المياء على طلب التهدئة . وقد اتخذ النزاع طابعاً دينياً بين البورجوازية الارمينية وبين الاشراف وافراد الشعب الفومارين .

ان هذه الدولة المتمزقة تبدو للمراقبين الاجانب وكأنها مسخ غربب الخلقة .

وهكذا تبدر الدولة في كل مكان ناقصة غير مكتملة .

٤ ــ الازمة السياسية الدولية

تخلت أوروبا شيئاً فشيئاً عن حلم الجهورية المسيحية والوحدة الدينية الكاثوليكية والوحدة السياسية للامبراطورية – المقدسة الرومانية كا أن دولاً و عصرية ، مستقبلة وسيدة ومستقرة وخاضمة لنظام أقليمي وانظمة سياسية ثابتة الجهت فيها الوحدة والمركزية ، بصرف النظر عن كل اعتبار ، إلى التغلب على الاثرة الحملية الخاصة والتجزئة والبلبلة ، قد سارت قدماً في اثبات كيانها ووجودها . وقد صممت كلها كذلك على اثبات قوتها ، فتصادمت في محاولاتها التوسعية والتسلطية .

وكانت اخطر هذه الحاولات محاولة سلالة هبسبورغ ، هبسبورغ اسيانيسا خطر آلهبسبورغ النمساء الما الفرع النمساوي ، وقسد أسسه فردينان ، شقسق

« شارل الخامس » الثاني ، فقد سيطر على ممتلكات اقليمية واسعة الاطراف : النمسا العليا والسفلى التي تسيطر على مجرى الدانوب الاوسط قبل « فييننا » وبعدها ، وامارات « ستبريا » و « كارنتيا » و « كرنيول » و « تيرول » ، ومملكة « بوهيميا » ومملكة « منفاريا » التي الفت قوة ضخمة داخل الامبراطورية وسوراً حصيناً لها في وجه الاتراك . وكان الجالس على العرش في فيينا من هذه الاسرة الحامي الطبيعي للمسيحية في وجه غير المؤمنين » تلتف حوله المانيا كلها التفافا تلقائياً حين ياوح الخطر التركي في الافق الشرق .

الفرضــــى في الامبراطرريــة المقدمة

في الواقع ، اختير الامبراطور ابداً من سلالة هبسبور ع. ولكن الامبراطورية و شكل دولةغير منظمة اشبه ما تكون بالمسخ ، فالملدان التي تحمل كلها اسم المانيا موزعة الى و امم ، ناشطة

هنتلفة اللسان . وهي مقسمة الى و امارات ودول الامبراطورية - المقدسة ، التي تفوق والامم ، عدداً والتي لا تقوم فيها اية رابطة بين و الامم ، والكيانات السياسية . فهذه الكيانات المتداخلة تداخلا غريباً مختلفة كل الاختلاف من حيث المساحة والشأن وشكل الحكومة : المدوقيات وولايات الحدود والكونشيات ورئاسات الاسقفيات والاسقفيات والاديرة والمدن الحرة والاملاك المنفرى الخاضعة لفرسان الامبراطورية . ولبلدان المانيا بجلس تثيلي هو بحرد اجتاع سفراء . ويقسم المجلس التعشيلي الى ثلاث هيئات: هيئة المنتخبين وهيئة الامراء وهيئة المدن. وهو مصاب بالشلل عملياً. فالامبراطور هو ومحده من يستطيع دعوته للاجتاع ، ولكن و لمنتخب ماينس ، بالرئيس، حتى معارضة الدعوة ومنع ادخال المسائل التي يعرضها الامبراطور في جدول الاعمال. والمتعليم وباستطاعة الامبراطور من جهة اخرى التمنع عن نشر قانون اقره المجلس . ولكنه لا يستطيع وباستطاعة النظر فيه . ويسود الرأي كذلك بان العضو الامبراطوري ليس مازماً بالخضوع القرار مشترك اذا لم يوافق هو عليه . ويمكن اخيراً ، في المواضيع الدينية ، ان ينحل المجلس التمشيلي دون ان يتوصل بعضه الى فرض قرار على البعض الآخر . وهذا الخواء العاجز هو مساأراد ان سلالة هيسبورغ ان يجمل منه دولة .

استفاد الامبراطور فردينان الثاني، المنتخب في السنة ١٦١٩، عادلات الامبراطور التسلطية من ثورة التشيك في بوهيميا الذين كانوا قد انتخبوا فردريك حرب الثلاثينسنة(١٦١٨ - ١٦٤٨) الخامس، المنتخب البالاتيني، لسحق التشيك في و الجبـــل

الابيض » (١٩٢٠) . فقدت بوهيميا ملكا وراثيا لسلالة هبسبورغ واعادها اليسوعيون الى الكثلكة ثم فرضت عليها الحضارة الالمانية . وفي شهر كانون الثاني مسن السنة ١٦٢١ ، رسم فردينان باقصاء المنتخب البالاتيني عن الامبراطورية ، وهـــو تدبير يجر الى حجز ممتلكاته وسقوط حقه في الانتخاب . فتصرف الامبراطور بذلك تصرف السيد . وبالاضافة الى هــذا نقل حق الانتخاب ، والبالإتينا العليا الى « مكسيميليان دي بافيير ، الذي كان قـــد قدم له

جيشًا . فتصدعت من ثم المساواة في الاتحاد الانتخابي ، اذ اصبح الممثلون البروتستانت اثنين فقط (ساكس وبرندبورغ) مقابل اربعة من الممثلين الكاثوليك . وعبر الامبراطور ، وهـو تلميذ اليسوعيين ، عن استعداده للقضاء على البروتستانتية في الامبراطورية . واخذ في تفسير « صلح اوغسبورغ » بوجهة النظر الكاثوليكية . واعتبر البند الذي حظر كل علمنة جديدة منذ السُّنة ١٥٥٢ بنداً مقبولاً شرعاً بينا اعتبره البروتستانتلاغناً وباطلاً . وشرع الامبراطور في اعادة اراض معلمنة كثيرة للكنيسة الكاثوليكية . ورسم بحل الاتحــاد البرتستانتي او الانجيلي . ونظم في أوائل السنة ١٦٢٥ جيشًا خاصًا به هو جيش القائد المأجور ﴿ والنستين ﴾ . وفي السنة ١٦٢٨ انتزع من دوقية مكلمبورغ املاكهم واراد ان ينشىء قوة مجـــرية . وفي ١٥٥٥ ووضعت هذه الممتلكات عملياً بتصرف الامبراطور ، فاحدثت حركة واسعة جداً في انتقال املاك البرتستانت الى الامراء الكاثوليك من ابناء الاميراطور او انسبائه او حلفائه واختلالا كبيراً جداً في ميزان الفوى الراهنة . اضف الى ذلك ان شكل الوثيقة القانوني قـــد كان ثورة بحد ذاته . فلم تقترن اية وثبقة فها سبق بقوة القانون الا بعــــد قرار يتخذه الجلس التمثيلي ويبرمه الامبراطور ، ولم يسبق للامبراطور ان اتخذاى قرار يتناول الامبراطورية بأجمعها الا بعد اتفاق مسبق مع مجموع المقترعين . وها نحن نرى الامبراطور ، بعد ان تجـــاوز حد السلطة في السنة ١٦٢١ ، يقدم مرة اخرى ، بوثيقة شخصية ، اقرار تبديسل عميق في الامبراطور وكأنه مصمم على الاستغناء عن الجلس التمثيلي والاتحاد الانتخابي معاً . وسنراه ينفذ مقرراته بواسطة جيشه الخاص ، جيش « والنستين ». ففدت السلطة الامبراطورية سلطة ملكمة مطلقة ، وغدا الامبراطور خطراً اشد تهديداً لاوروبا .

هبسبورغ النمسا وهبسبورغ اسبانيا: وزاد في شدة الخطر ان عمل الامبراطور وعمل السيطرة على الطرق العسكرية والبحرية هبسبورغ اسبانيا كانا مرتبطين وان التسلطين تبادلا

مد يد المساعدة. وبقي فرعا السلالتين متحالفين بالمصاهرات . ودرج اشقاء الابكار في العائلات النمساوية على البحث عن الثروة في بلاط اسبانيا . ومنذ السنة ١٦٦٧ ، عقد لم اتفاق وضعت بحوجبه الاسس لتحالف وثيق ، كانت اسبانيا آنذاك في حسالة حرب مع جمهورية الاقاليم المتحدة المؤلفة من رعاياها السابقين الثائرين . توقفت الاعمال الحربية في السنة ١٦٠٩ بهدنة الاثنتي عشرة سنة ، ثم تجددت في السنة ١٦٠١ . فكان من الضرورة بمكان لاسبانيا ، التي لم تكن سيدة البحار ، ان تؤمن نقل جيوشها من منطقة ميلانو الى لوكسمبورغ . فاجساز ملك اسبانيا للقائد « سبينولا » ان ينتزع حصون البالاتينا الرينانية عنوة من فردريك الحسامس . ومكن المال الاسباني من احراز النصر في الجبل – الابيض . أما السفير الاسباني فقد دفع فردينان الى اتخاذ هذه التدابير بحق البالاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيمها . وفي السنة فردينان الى اتخاذ هذه التدابير بحق البالاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيمها . وفي السنة

١٦٢٠ ، استفاد حاكم ميلانو من ثورة كاثوليك « فالتلين » ، رعايا « الاحلاف الغبراء ، ليحتل الوادي والممرات الالبية ، بينا قسام فرد آخر من آل هبسبورغ ، هو ارشيدوق ﴿ انسبروك ﴾ بالاستيلاء على « انغادين ، على المنحدر الآخر من جبال الالب . فاتبح أذ ذاك للجيوش الاسبانية في مقاطعة ميلانو ، والجيوش النمساوية في مقاطعة تيرول ﴾ القيام باعمال عسكرية مشتركة عن طريق « مالويا » و « انغادين » و « ستلفيو » . وفي السنة ١٦٢٧ ، أرسل فردينان جيوشًا الى ايطاليا العليا ، وفي السنة ١٦٢١ ، قرر فيليب الرابع و « اوليغاريس ، المقرب اليه العودة إلى سياسة فيليب الثاني ، وهي سياسة كاثوليكية تهدف ألى تحقيق الهيمنة الاسبانيسة واجهت في الدرجة الاولى واجب سحق مقاومة و الاقاليم - المتحدة ، . وكان اوليغاريس مجاجـــة ، في سبيل ذلك ، لأرب تطول الحرب في المانيا. فالحرب تتبيع له اقِامة حاميات اسبانية في البالاتينا ؛ وهو كان مصمماً على احتلال بعض المواقع في الزاس وتأمين مرور الجيوش الاسبانية بين « فرانش - كونتيه » وهولندا عن طريق « سندغو » و « بريزاخ » وضفة الرين اليمني و « فیلیبسبورغ » و « سبیر » و « ماینس » واقلیم « تریف » ولوکسمبورغ ، او بین مسیلانو وهولندا عن طريق « فالتلين » وبحيرة « كنستانس » والمدن د الحرجيـــة » (« وألدشوت » و « ساكنجن » و « رينغلدن ») وفريبورغ (في بريسغو) وضفة الرين اليمني. ثم أدرك اوليفاريس ، بعد السنة ١٦٢٥، ان ما يؤمن سلامة الاقالم - المتحدة هو اسطول هولندا الحربي والسيطرة على البحار الثمالية . فكان لا بد من ثم ، لطرد المراكب الهولندية من هذه البحسار من ان تتمكن الاساطيل الاسبانية من دخول مرافىء الشواطىء الالمانية لتؤمن التمون والاحتماء فيها . وكان لا بد كذلك من ان يحتل الامبراطور دائرتي وستفاليــا وساكُس – السفلي . والى هذا ترد عمليات والنستين العسكرية في السنة ١٦٢٧ ، والانعام عليه بلقبي د قائد البحار الاوقىانوسية والبلطيكية و (دوق مكالمبورغ ، في السنة ١٦٢٨ .

جاءت هذه المطامع تماكس مطامع ملوك آخرين وتهدد بالخطر استقلال المضلة البلطيكية عالكهم . ويأتي بين هؤلاء ، في الدرجـــة الاولى ، ملك الدانمرك

«كريستيان » الرابع » دوق « هولستين » » وبالتالي احد امراء الامبراطورية » الذي كان يجلس ويقترع في المجلس التمثيلي » وهو احد أعظم الأمراء شأنا في دائرة « ساكس السفلي » . وكان ابنه الثاني قيماً على اسقفيتي « فردن » و « هالبرستات » بين مجرى « الفيزر » الاسفل وجرى الالب ، وخلفا مقرراً لاسقفي « بريين » و « اوسنابروك » . وقد راقب ملك الدانمارك ، بفضل الرسوم الباهظة التي استوفاها ممثلوه في جمارك « السنور » ، تجارة البلطيك من خروج الحبوب والاخشاب من بولونيا وبروسيا ودخول المواد الغذائية و « المصنوعات » التي تستوردها المانيا الشمالية والشرقية من اوروبا الغربية . وكان مصمماً كذلك على ان يراقب بواسطة « برين » و « فردن » ، تجارة كل من الألب والفيزر وقوين الشطر الاكبر من السهل الالماني ايضاً ، فتوصل ، باستغلاله تجارة الآخرين عن طريق الجمارك ، الى مضاعفة مداخيله ،

ومضاعفة قوته بالفعل نفسه . وكان عمله هذا نوعاً من التسلط الجركي . ولكن وسائسله العسكرية كانت محدودة جداً . لذلك فقد افل نجمه منذ السنة ١٦٢٩ (صلح : لوبك ») .

ومنذ السنة ١٦١١ عارب ملك اسوج و غوستاف - ادولف ع قيصر و موسكوفيسا ع وملك بولونيا ، فاعطاه صلح السنة ١٦١٧ و كاريليا ، و و انغريا ، واستونيا الى الجنوب من فنلندا الاسوجية . وكان في نيته أن يبسط سيطرته الشخصية على الشواطىء الالمانيسة على بحر البلطيك ويضمن فوز البروتستانتية بجمع كافة الأمراء البروتستانت الالمان . وقد طمع هو ايضاً في نقاط الجارك المثمرة في مرافىء البلطيك الالمانية . اضف الى ذلك أنه اعتبر اقامة ملوك آل هبسبورغ على الشاطىء البلطيكي خطراً يهدد اسوج .

المنطة اللوتارنجية الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنسازع دائم . الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنسازع دائم . فالاقاليم المستقلة كانت قانونا تحت سيادة ملك اسبانيا وعضواً من اعضاء الامبراطورية المقدسة في دائرة بورغونيا في آن واحد . ولكن نصوص هدنة الاثني عشرة سنة اقرت في السنة ١٦٠٩ باستقلالها المؤقت . ولم يكن الامر بالنسبة لبورجوازيي هذه الاقاليم قضية حرية فحسب ، بسل قضية حياة أو موت أيضاً . فقد تحقق لهم الازدهار بالحصار المطبق على مرفأ انفرس . وبات لزاماً من ثم ان يبقى مرفأ انفرس مقفلا اقفالاً نهائياً .

وما زالت الاقضية السويسرية مع حلفائها ورعاياها ، تابعة قانون اللامبراطورية المقدسة . أما في الواقع فقد أمنت استقلالها عن النمسا . ولكن وضعها كان مكتنفاً بالصعوبات . فاذا هي عرفت كيف تفتح او تقفل الجازات الالبية وفاقا للظروف ومقابل مكاسب مضعونة ، فقسد تمرضت لان تصبح هدف الممارك ولأن تحتل الجيوش الاسبانية او النمساوية أو الفرنسية الطرق المؤدية الها . لذلك فان استقلالها كان رهناً بتوازن المنافسات الاجنبية حول الجازات ،

وخضمت ابطاليا لسيطرة ملوك اسبانيا من آل هبسبورغ الذين امتلكوا فيها وصقليا » و « نابولي » ، وهما مصدر تموين شبه الجزيرة الايبيرية بالحنطة ، وراقبوا ، بواسطة « سردينيا » جزيرة « البابا » والحصون التوسكانيـــة (« اوربتيلو و « بيومبينو » و بورتو – اركولي ») وطريق نقل الجيوش بحراً بمحاذاة شواطىء ايطاليا الوسطى ، وسيطروا ، بواسطة دوقيــة ميلانو ، على سهل البو ومنافسذ الطرق الالبية الرئيسية ، واستخدموا جمهورية جنوى لانزال الجيوش المرسلة الى مقاطمة ميلانوا .

بات النزاع ، في هذه المنطقة الوسطى ، امراً محتومساً بين فرنسا وآل الخطو يهده فرنسا و كان باستطاعة هبسبورغ . فقبه احاطت بفرنسا ممتلكات ملك اسبانيا . وكان باستطاعة الجيوش الاسبانية المنتقلة ، على مقربة من حدودها ، من منطقة ميلانو الى فرانش – كونتيه ، ومن فرانش – كونتيه الى هولندا ، عن طريق الالزاس والبالاتينا، ان تحتشد وتهاجم «ابواب»

فرنسا . كما كان يمكنه ملك اسبانيا، بعد احراز النصر على الاقاليم المتحدة ، ان يرتد على فرنسا. فغدا ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا الى ايطاليا الشمالية ، الى فالتلين ، الى الزاس ، ضرورة ملحة وحيوية . ولكن فرنسا ، اذا ما اقدمت على هــــذا الضرب ، تدخل في نزاع مسلح مع هبسبورغ النمسا .

وضع الملاك نصب أعينهم أهدافاً موضوعية ، ولكنهم اضطروا في سياستهم ان التوميات يحسبوا حساباً لمشاعر الطبقات المثقفة . فقد طالب الالمان بكل البلدان الالمانية اللسان ، «جرمانيا المظمى » ، وحتى بغيرها . وهي دليه على وجود حركة قومية نادت بالوحدة الجرمانية الشاملة . فان « فيليب كلافييه » ، البروتستانتي الداناتزيفي واستاذ الجفرافية السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجفرافية العامة » السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجفرافية العامة » النياسية على طبع اكثر من ست وعشرين مرة . وقد تطرق هذا الالماني بالجهاز الى موضوع فرنسا . ولكنه استشهد به « بلين » و « قيصر » و « تاسيت » ليطالب » بعد تأويلات شتى ، بالمانيسا العظمى : الزاس ، لورين ، برابان ، غلار ، هولنسدا ، منطقة دانتزيغ ، بروسيا ، بوهيميا ، وليتونيا » ، سكندينافيا .

ولم يكن الفرنسيون دونه الحاحاً بالمطالبة . فان و جغرافياتهم » المنشورة بين السنتين المنتين المردد و المكلم عن فرنسا الغالية وغذت الشعور بان حدود فرنسا يجب ان تكون حدود غاليا القديمة .

حين تشرب باريس من مياه الرين تكون غاليا كلها قد بلغت حدودهـــا القصوى وضم و مسرح المناطق الغالية ، المنشور في السنة ١٦٤٢ ، خريطة لاوروبا الفرنسية تشــل التوسع السلامي للكابيتين خلال القرون السابقة . وقد ورد تحت ولوحة للمناطق الغالية ، وصف جديد و للامبزاطورية الفرنسية ، تحت سيطرة الامبراطور لويس الثالث عشر العادل » .

وامتدت مطامع القيصريان الى البحار ايضاً. فطالب الهولنديون ، وهم القيصريات البحرية السباقون في الملاحة والتجارة ، مجرية البحار. وفي السنة ١٦٠٩ ، نشر «غروتيوس » كتابه » البحر الحر » الذي انطوى على ان لكل امة الحق في الاتصال الحر بكل الامم الاخرى والاتجار معها مجرية أما الانكليزالذين دخلوا تدريجياً ميدان التنافس الاقتصادي ثم دخلوا في نزاع مسلح مع الهولنديين ، فقد عارضوا هذا المبدأ . وفي السنة ١٦٣٥ ، نشر «جون سلدن » كتابه « البحر المقفل » . ففي الوقت الذي اعلن فيه شارل الاول السيادة الملكية على البحار الاربعة المحيطة بالارخبيل البريطاني ، اعلن « سلدن » ان مبدأ حرية البحار لا ينطبق على البحار البريطانية حيث للملك الانكليزي حقوق سابقة لحقوق الامم الاخرى .

الجيوش تحولت الحرب الالمانية اذن الى حرب عامة طويسلة الامد . فالجيوش والحرب الزمنية الالمانية لم تستطع التوصل الى نتائج حاسمة . يضاف الى ذلك ان تأليف

الجيش كان مجد ذاته مضاربة مالية . فالقائد كان يعقد مع الملك ، الذي يسند اليه القيادة ، اتفاقاً يدعى امتيازاً ، ويستلم منه شهادة بذلك ، ثم يعقد الاتفاقات مع الزعماء العسكريين الذين يتفقون بدورهم مع الضباط . فيؤلف مجموع الضباط من ثم ما يشبه نقابة من الشركاء الذين يتقاسمون الخسائر والارباح . وإذا كان القائد ممتلكاته ، شأن « والنستين » ، فأنه يفترف منها الحبوب والاعلاف للجيش ، كما أن انواله تصنع له اجواخ الملابس العسكرية .

فكانت عملية التجنيد من ثم عملية دائمة ترافقها الاضطرابات واعمال العنف. وتوجب الساح المجنود بتأمين غذائهم على حساب الاهالي ، أو فرض المساهمة في نفقاتهم على البلاد . وما كان الجنود ليتراجعوا عن الاستلاب والاغتصاب والتعذيب واشعال الحرائق ونشر الرعب . وقسد الامد في سير العمليات العسكرية . وحدث احيانًا ان ارغمت المجاعة الجيوش الظافرة على الجلاء عن المناطق المغزوة . ثم ان صفار الامراء الذين كانوا يعيشون من الحرب، من امثال الكونت « دي منسفله » والدوق « كريستيان دي برونسويك » ، قد باتوا عاجزين ، منذ السنة ١٩٢٢ عن احرازُ النصر بقوة السلاح ، فلم يبق أمامهم سوى اقتراف الاجرام الفظيمة . وكان هؤلاء يعبثون الجنود حين يستطيعون الى ذلك سبيلا ، ويقومون مجملاتهم المسكرية حين يتجمع لديهم نجاحاً أو انتصاراً . الا أن هذا الجيش كان عبثاً ثقيلًا على البــــلاد . فالجنود يستلبون المواشي ويقتلعون سنابل القمح ويتلفون ما لاينقلونه معهم ويقطعون الاشجار وجفون الكرمسة ويحطمون الابواب والنوافذ والمواقد وينهالون ضرباً على السكان . ولم تنسبج من استلابهم ممتلسكات الامبراطور نفسها . فلا يبقى أمام الفلاحين الا ان يتفذوا بالأعشاب وقشور الأشجار والأثمار البرية وان يختبئوانيالاحراج.وقد تمرض المسافرون للنهب علىالطرقات العامة الرئيسية . وعندما يدخل فصل الامطار ، يتشتت المرتزقة المأجورون اذا لم يكن باستطاعة قائدهم توفير ممسكرات جيدة لهم . ولم تكن الحيوش في المسكرات أقل خطراً على الاهسالي من الجيوش المشتركة في الحلات المسكرية . وكان لزاماً على القادة تأسين ممسكرات شنوية جيدة دونما اعتبار للاصدقاء والاعداء ، فيجر ذلك إلى توسيع نطاق الحرب واطالتها . ولم يكن الهدف من ذلك خططاً ستراتيجية بل الحؤول دون تشتت الجيوش .

ان حروب الابادة لم تحصل الا نادراً. وكان من الصعب احراز نتائج حاسمة حتى بواسطة الجيوش الداغة القومية الطابع كجيوش و مكسيميليان دي بافيير ، بقيادة و تيلي ، ونشبت الممارك أبداً بموافقة متبادلة ، وكانت الصفوف المتعاقبة عميقة جداً ، وربما بلغت السبعين كا فعل و والنستين ، في ليبزيه ، وأعوزت الجيوش سرعة الحركة ، فالمناورات التي من شأنها السبعين تجر الى تصدع جيش العدو والمطاردة التي من شأنها الاجهاز على تنظيمه وابادته مسا زالت

بطيئة وغير ذات فعالية . فـكانت الحروب أبداً ، وقبل أي شيء آخر ، حروب حصـــار طويلة الاجل .

أما على البحر فقد ظهرت للمرة الاولى البارجة الحربية ، المدفعية العائمة . ولكن القادة البحريين لم يتوفقوا بعد الى استخدامها الافضل ، فغالباً ما أطلقت مدافعها المرعبة من مسافات بعيدة دون ان تصيب المرمى ، و فلا يفقد البحر شيئاً من ملحه » .

اجتاحت اوروبا الوسطى اذن حروب لا نهاية لها وانهكت الدول المجاورة التي اشتركت فــــــــا .

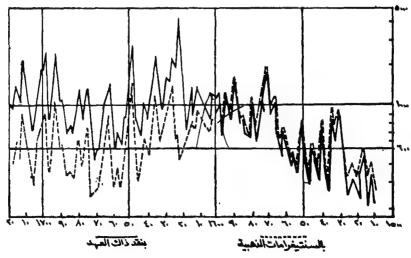
ه ـ ازمة الحس الفنى

شاهد القرن السابـم عشر ذروة ازمــة الحس التي برزت بوادرها في مصادر الفن المستهجن حقل الفن . وقد أطلق عليها اسم والفن المستهجن ، الذي يمكن اطلاقه على كافة مظاهر الفن . وقد ظهرت دلائل الحس المستهجن ، دونها شك ، في ايطاليا بعد نهب مدينة روما (١٥٢٧) واتضحت بميزاتها في الثلث الاخير من القرن السادس عشر بصورة خاصة . وكان مركزها مدينة روما حيث شيد و جــاك فينيول ، ، في السنة ١٥٦٨ ، كنيسة يسوع ، وهي الكنيسة – الام لجمعية اليسوعيين ، التي كان لها اكبر اثر في اوروبا . ويعتبر هذا الفن؛ فن الحركة الاصلاحية المضادة؛ ومعبراً عن فكرة المجمع التريدنتيني. انطلق من رومــــــا وأشم ، عن طريق الكرادلة والاساقفة ورؤساء الجمعيات الرهبانية والسفراء وحساشياتهم ، في البلدات الاوروبية التالية : ايطاليا ، اسبانيا ، فرنسا ، فلاندر ، المانيا الجنوبية ، النسا ، بولونيا ، أي كافة البلدان الكاثوليكية . أما البلدان الاخرى فقد اغلقت ابوابها في وجهه . ولكن فن الحركة الاصلاحية المضادة ليس سوى مظهر مـــن مظاهر الحس الغني المستهجن . استخدمت الكنيسة نزعات كان مقدراً لها أن تفرض سيطرتها ؛ ولم تتناف هذه النزعات وعمل الجمع التريدنتيني ، ولكن حالها في ذلك حال نزعات اخرى ايضاً . اضف الى ذلك ان الحس النني المستهجن قد ظهر بعد ذلك في بلدان غير كاثوليكية ايضاً . وقد تأثر بالازمات الاقتصادية والاجتاعية والسياسية والفكرية التي أحدثتها أشكال النهضة المختلفة والتي اتسم نطاقها في القرن السابع عشر . وكان بالنسبة لهذه الازمات ، علة تارة ومعلولا أخرى .

الفن المستهجن هو مظهر من مظاهر الحس ، وبالتسالي مظهر من مظاهر الفن المستهجن المستهجن البشرية ، السجية ، نشاهده في عهود مختلفة . وهو يقابل ، في الشخصية البشرية ، فترات المحطاط القوى التي فيها تضعف وحدة الشخص ، فتحل فيه محل و انا ، الواحد اشكال مختلفة من الدونا ، فتصعد حينذاك تدريجيساً ، الى مستوى الوعي ، مكنونات اللاوعي



الشكل ؛ ــ السعر الاسمي للحنطة في ادروبا الغربيـة والوسطى (نقلا عن السر و . بفريدج)



الشكل ه ـ سعر الجاردار في مونيخ بين السنة ١٥٠٠ رالسنة ١٧١٥ (نقلا عن إلساس)

الكثيرة والفامضة ، ومجوع الدوافع التي يكتنفها الابهام والدفعة المتعددة الاشكال لكافة القوى الحيوية . فالفن المستهجن اذن يستهوي الحرية ويحتقر الانظمة والاعتدال واللياقات . وهو لا يخضع المنطق بل يجمع المتناقضات. ليس يدري ما يريد ولكنه يريد الاجمال والخلاف في آن واحد . ينطوي في ذاته على المضادات ويعبر عن الكثير من النوايا . فاذا ما نطرنا الى تمشال ملاك من انتاج هذا الفن يتوج حاجزاً حديدياً في احد معابد سلامنكا ، نرى الساعد يرتفع كا لو كان ذلك لرفع شيء ما ، ونرى اليد تنخفض كا لو كان ذلك لوضعه في مكانه : هنالك اتجاهان متضادان في العضد الواحد ، واز دواجية في النوايا . وهذا ما نشاهده كثيراً عند « غريكو » الذي يمثل اتجاهين محتفين في ساق واحد من ساقي تمثال المسيح . فالعقل عنده في حالة انقصام داخلي ، درى بوجبات مبدأ التناقض . أما الاعمدة فغالباً ما يصنعها ملتوية أو مفتتلة .

يستهوي الفن المستهجن كذلك الغموض وما فوق الطبيعة والتأثر والعواطف ومفاتن الطبيعة والفولكلور. ويبحث عن الاتحاد بقوى الكون الحفية ، ويستسلم أمام هذه القوة ويحترمها . فهو كوني يقول بالوهية الكون ؛ ويبحث عن اندفاع الطبيعة الحيوي ، فيغدو متقلباً ، صاخباً ، أشوه ، منتفخاً ، ويغدو في الوقت نفسه زاخراً ومكثاراً ، يضحي بالدقة على مذبسح الحاسة ، وبالحلود على مذبح المفالاة . أما قوته فيتركها تتبعار .

مثال الفن ان روبنس ، ولعله الرسام الذي يمثل الفن المستهجن خير تمثيــل ، يملك في المستهجن : روبنس الدرجة الاولى قوة الحموية ، والاجزال في المطاء ، وفورة الحماة . و فهو يسلى اخصابه بخلق الموالم ، على غرار إله هندي في أوقات فراغه ، بعالج أوسم المواضيم تشعبا ؟ تاريخ ملك ؛ مثلاً قديماً ؛ العهد القديم ؛ حياة المسيح ؛ الدينونـــة الاخيرة . كل شيء يكبر ويتسم في روحه العظيمة . يخلق الواقع خلقاً جديداً . صور لوحاتـــــه تتعدى حدود الواقع . وصور نسائه مستوحاة من الفلمنكيات؛ ولكنهن فلمنكيات كونيات . ليس من وجود للاجسام الجيلة التي تولدها عبقريته الا في نخيلته . ان التمثيل الصحيح نادر في انتاجه . فمسيح لوحة « ضربة الحربة » في متحف انفرس ، المسيطر في النور الذي يغمره ، ليس مسيحاً معذباً ، بل مسيحاً هزم الالم والموت . وعالم روبنس الخيالي هو عالم العواطف في دروة حسدتها . ففي لوحة د القنص ۽ نري سورة الغضب ضارية تتأهب التمزيق . وفي لوحب د معارك النسوة اللوفر على شيء من الابتهاجات الشعبية : فاحتساء الخرة فيها ابتلاع واستلام الراقصة خطف، والقبلة تلاصق أو افتراس متبادل ؟ أن اندفاعاً جنونياً إلى الشر يزعزع هذه البشرية التي تحرقها روح روبنس. جمل الالوان الطبيعية سمياً وراء قوة التعبير:فاجسامه غبراء واشجاره برتقالية. يكاثر من المضادات المفاجئة والالوان الجارحة والاضواء الساطمة .

ان موافقات سرية تجمع بين الاشياء والكائنات . والأشكال تفقد حدود هيشاتها الواضحة

فيتم نوعمن الانصهار بين الاجسام وجوها . ويسري النور سريان الاجسام السائلة أو سريان تيار إلحياة الكونية بالذات . والاولاد السامنون المثلون في اكليل من الاثمار هم انفسهم أطيب اثمار الطبيعة المغذية . لحم حورياته مادة سائلة ، حارة ، مختلجة ، مشعة ، متجددة باستمرار ، بل هو ذوبان نبيذ الكرمة . فالدم الذي يملاً الشرايين ويحيي العضلات ويجمل النظر متوقداً ، في « قنص الجالنطا » و « الحوريات » ، مماثل للنسغ الحيي الذي ينبجس من الارض متموجاً و عضابا ويجول في الاغراس والنباتات .

وعلى نقيض التناسق والتوازن في فن النهضة نرى ان انشاءه حركة كله واندفاع وارتقاء . يسمّد سيل اشخاصه في اتجاه منحرف . ولا فرق عنده في تحديد مركز صوره الرئيسية مسن اللوحة ، فقد يضعها في الخلفة او المقدمة ، الى اليمين أو الى اليسار ، أو في الوسط . وعوضاً عن ان يقابل مجموع ، وصورة بصورة ، نراه لا يتردد في مقابلة الصور المنفردة بالجموعات . أما التلاحم الذي يستولي على المشاهد ويخلق أما التلاحم الذي يستولي على المشاهد ويخلق وحدة الانطباع . ففي لوحة والصعود الى الجلجلة ، المروضة في المتاحف الملكية في بروكسل ، نوى ان ما يعطي المشهد مغزاه ، مع ان المسيح قليل الظهور فيسه ، هو صعود الموكب الحزين منذ الزاوية السغلى الى اليمين حتى الزاوية العليا الى اليسار . وفي لوحسة و سقوط الهلكى ، الممروضة في مونيخ ، نرى بشرية نتنة تذوب وتتساقط شلالات من اللحم الذي لن يلبث ان يختلط ، في النار الجهنمية المتأججة ، بالبوارق الصهباء والادخنة الكبريتية .

ان فنه يمبر عن كون تختمر فيه اختاراً مئتمراً قوى تتجدد ابدا ، وعالم يتحول تحولا داغاً وتلاشي أشكاله السائحة بمضها بعضاً وتتجدد في فضاء لا نهاية له وفي ديومة لا حدود لها ، وفاقاً لحركة الحياة الازلية .

ان روبنس هو رسام الحركة الاصلاحية المعاكسة ؟ مصور النهضة المن المستهجن عند معارضيه الادبية الورعة التي أصلحها المجمع التريدنتيني . ولكن حس الفسن المستهجن يبرز حتى في البلدان التي اعتبرت مراكز مقاومة هذا الفن .

الذن المستهجن عند رمبراندت الذي نقصر الكلام. عليه هنسا يتميز ، في الاقاليم الدن المستهجن عند رمبراندت المتحدة ، بغن مستهجن قد يبز بسه الايطاليين والاسبانيين وحتى روبلس نفسه . فالمنتسبون الى هذا الفن من الجنوبيين يحطمون الخطوط بالحركة ويزعزعون السطوح المستوية والاجسام ويجملون الاقمشة وأجسام الملائكة تخفق وكأن ريحا زعزعا تعصف بها . اما رمبراندت فيجعل الحركة تتغلغل الى دقائق مجموع اللوحة باحكام توزيسع الاضسواء والطلال . ان « تنتوريه » و و غريكو » يحطهان الخطوط ، ولكنهما يبقيان على ابعاد عريضة من الخطوط الساكنة . اما رمبراندت فيعزق الخطوط بالارتجافات . يتميز الجنوبيون بتمسدد النوايا التي تتعاقب بسرعة . اما رمبراندت فيعنيز ، في كل برهة ، بنوايا متناقضة تتجانب في

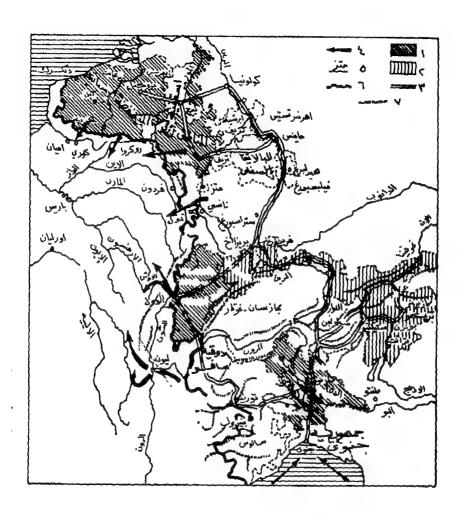
آن.واحد . يستحلب النور في الظل حيث يبقى حائراً دون ذوبان ينتشر انتشاراً سريما ويصطفق اصطفاقاً فجويا في داخل الظل . ان رمبراندت يذهب بميزات الفن المستهجن الى حدود الافراط .

انتشر حس الفن المستهجن في هندسة العارة الفرنسية ، في ولايستي الفن المستهجن الفرنسية ، في الدسة هنري الرابسع ولويس الثالث عشر ، انتشاراً بمائسلاله في هندسة العارة الايطالية أو الاسبانية في العهد نفسه ، ولا سيا في عهد شوريفرا ، (١٦٥٠ ، ١٧٢٣) ولكن دونه افراطاً في الاستهجان . فقد نشر روبنس ، بعد عودته مسن ايطاليا ، وقصور جنوى » وثيد لنفسه في أنفرس بيتاً مستوحى من الفن المستهجن . وادخلت النقاشة بعد ذلك الاشكال المستهجنة الى فرنسا حيث اعتمدت قوراً وعلى نطاق واسع نسبياً بسبب حاجة همقة المها .

حطم الفن المستهجن المثلثات في أعلى الابنية ونضدها وأضفى الحياة على الخطوط ولوى الاحمدة ولف النقوش الحازونية واعجب بالنمط الكورذي المتفخل،وثنى الاقسام الناتئة كا تثنى السيور ونفخها الى ان غدت محدبة وابرز العصائب وقمّر النحور وضخم القواعد وصمّر الصور الفريبة التى تعدو أفواهها أنسجة قطنية وآذانها أبواقا ترمز الى الوفرة ووجناتها وأذقانها نباتات غتلفة.

وزخر هذا الفن بالغوة الطبيعية . فأكثر من أوراق النباتات الغوية الملتفة ، التي التصقت يمكل المساحات وتغوست سعوفاً وتساقطت شلالات وتعلقت أكاليل وتفلكت تيجانا . واكثر من التماسيح واللقلق والأضب والدلافين والأرانب البرية والنسور . وزعزع شعباً من التماثيل . فالملائكة والقديسون والآلهة يتزنون فوق الافاريز والمذابح والمثلثات في أعلى الابنية ، ويأوون الى المشاكي أو يحرسون حول الغبة والصحون. اما تماثيل الجدران النصفية المغلفة باوراق النبات فتتحول الى قواعد ، والرؤوس تزين الأغلاق وتسم الافاريز وتستخدم تيجان أعدة . فكان الحجر يسمو ويجيش بنوع من الحياة المسيخة .

ولكن هذا الحس لا يختلف عن ذوق الكتاب. فان تكلف دفواتور ، وفخفخة و بلزاك ، وبطولة و كورتاي ، وغزارة و اونوريه دورفيه وتحذلق وسكودري ، كل ذلك ببرزني الاطارات المزينة والمثلثات المطولة والتاثيل الماضلة . كما ان تعابير النقاشين هي نفسها التعابير التي نجدها في لغة و رينييه ، المبرقشة ، اضف الى ذلك ان الجميع شغفون بالمسرح الذي كلف بسه البلاط والمدينة ، ولكن ضوابط المسرح غالباً ما يغمرها النسيان ، فلا وحدة زمان ولا وحدة مكان ولا وحدة ألما والمشاهد الخلاعية ولا وحدة لهجة ، كما أن احاديث السكارى والاغتيالات ، ومشاهد الهول والمشاهد الخلاعية تتعاقب تعاقباً مطرداً . والاهواء البشرية تنتقل الى الطبيعة باسرها . فغي نهاية تمثيلية وبيرام وتيسبيه ، يتوجه كل من الحبيبين بصلوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور . وتتدخل وتيسبيه ، يتوجه كل من الحبيبين بصلوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور . وتتدخل القوى الفائقة الطبيعة ، وتنية حيناً ، كفينوس وديانا وكوبيدون وإلهات الجعيم ، أو مسيحية القوى الفائقة الطبيعة ، وتنية حيناً ، كفينوس وديانا وكوبيدون وإلهات الجعيم ، أو مسيحية



الشكل ٦ ـ الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢، والطرق العسكرية الاسبانية ١ ـ ممتلكات سلالة هبسبورغ النصا ٣ ـ الطرق العسكرية الاسبانية ٤ ـ نقاط الضعف في الحدود الفرنسية ٥ ـ مدينة استولت عليها فرنسا ٢ الحدود الفرنسية ٧ ـ خطوط المرتفعات الرئيسية

حينا آخر ، كالملاك وابليس والشيطان . وينتضر السحر انتصاراً باهراً : الاشربة ، والجواهر المسحورة ، والمراهم المجيبة ، والاموات المبعوثون احياء . وتكاثر الاحلام واجوبسة هاتفي الغيب وظهورات الظلال والارواح . وتلمب المصادقة دوراً غريباً : احداث طارئة ، فراقات ولقاءات تسببها المواصف أو القراصنة ، حوادث غرق تنتهي بنجاة الغرقى ، جروح سريمة الشفاء ، مسدسات لا يلبي زنادها ، خطف النسور للاطفال .

يطالب المشاهدون بالتأثرات القوية ، لذلك نرى الممثلين يتضاربون ويتغاتلون على المسرح ، ونرى الجثث والرؤوس المغطوعــة والغلوب . ويلعب الممثلون ادوار مضطربي الحواس وأدوار الجانين اليائسين الثائرين . وتعرض على المسرح المدافن والاسفنج المسليم بالدم والاجواخ السوداء الملطخة بالدموع البيضاء . وتنتهي المأساة احياناً بانتحار علني يقدم عليه كافة الممثلين .

ويسمى المؤلفون وراء تصوير السيحايا الغريبة والاهواء في ذروة سدتها : انتقامات هائلة › كانتقام و ميداي ، وانتقام و تياست » ؛ ورغبات شديدة كتبادل القبلة بملء الغم والاغتمساب على المسرح؛ الزني والاغواء › وهما امران عاديان ؛ الزني بسسين الاقارب ؛ كاغتصاب الشقيقة وتسرر الآب وابنته .

وتزيد الحبة من عزم الماشق . واليك مثلاً عن ذلك في مثل هذا الادعاء بالبسالة :

... وكان بمكنتي ، في سبيل امتلاكك ، أن أقدم على ما هو اسوأ من ذلك .

ففي سبيل الفوز بهذا الكنز المطيم والثمين .

حاربت الملوك ، وما سكنت لأتردد في محاربة الآلمة .

كا ان العزم يبحث عن اشد العقبات هولاً والمواقف الحرجة التي من شأنها اقتساط النفوس العادية ؛ فبطل الماساة رجسل عزم من الطراز الاول . ولكن المشاهسد يرغب في ان يرى ، الى جانب العزم ، ما يقابل العزم بعنت من اشخاص يثيرون ضحك الاستخفاف والسخريسة أو يدعون بالبسالة ، وكهول متيمين ، ومدعي علم ، ومجانين .

بالنن المستهجن يتصل التصنيع أو الكلفة ، والتصنيع هو على غرار الفن المستهجن ، نمط حياتي ، ومطالبة فردية بالاستقلال ، ويظهر بين وقت وآخر في عالم بلاطات الحب وردمسات الاستقبال ، وقد دفع به إلى الامام ، في القرن السابع عشر ، ظهور قصة من وضع و اونوريسه دورقيه » ، و استريه » ، التي أضافت اليه اثر الافلاطونية الادبية والمالمية في النهضة ، يبسدل المتصنعون جهدهم لملانفصال عن العامة كي يصبحوا ندرة ويثيروا الدهشة في كل شيء ، فهم في المجبة كهان الحب العدري ، الحب الطاهر ، المرفوع الى مستوى الدين ، البعيد عن المناطسات الجسدية والملذات والزواج ، وبسبب رغبتهم في التميز الارستوقراطي ، انتهى الأمر بالمتصندين أساوبهم الكلامي ، الى الطمطهانية ، الى طريقة تعبير خاصة بفشهم ، فكل مسا هو شعبي ،

وكل مفردات المهن ، وكل ما يشتم منه المماحكة والنظاهر بالعلم قد اقصي عن هذا الاساوب ، وبلغ من هذا الاقتصاد ان و انجليك دانجين ، قد اغمي عليها اكثر من مرة عندما كانت تسمع كلمة غير مقبولة في بيئتها . والكلمات المقبولة ، على نقيض ذلك ، هي تلك التي تعبر تعبيراً قويا يبلغ حد الافراط : فالمتصنمون يحبون وبحرارة » ؛ ويحتقرون ما هو من شيم و آخر » بورجوازي يبلغ حد الافراط : فالمتصنمون يحبون وبحرارة » ؛ ويحتقرون ما هو من شيم و آخر » بورجوازي أما الألوان الصفرى ، كالرسالة وقصيدة الهجاء والقصيدة الغزلية وما شاكل ذلك ، واما القصة الراعوية وقصة المفامرة . وكتبت الآنسة و دي سكودري ، قصصاً شهيرة عرف اثرها البقاء ؛ وكورش المظيم » (١٦٤٥) ، و كليلي » (١٦٥٠) . وهدف التصنع في هـنده القصص الى التميز باللباقة والمهارة ؛ النكات ، والتقابل ، والاستمارة ، والصور الرمزية ، وكل ما هو بديم وغير مرتقب ومفرط . وفي اللون الرمزي ، عرفت الجفرافية الماطفية ، التي تتمثل و بخريطنة الحنان » ، في الكتاب الأول من الجزء الاول من قصة و كليلي » ، شهرة عظيمة ما بين السنة المناه ، في الكتاب الأول من الجزء الاول من قصة و كليلي » ، شهرة عظيمة ما بين السنة عبرى التحاليل المفسية المدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فمهد الطريق ، مسن استجوى التحاليل المفسية المدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فمهد الطريق ، مسن حيث لا يدري أمام الكلاسيكية ، بحرصه على الاتقان والوضوح .

لقد سمى الناس ، في المسرح ، وراء فتنة التزيين ، والاعدة الفخمة ، والمسرع الناس المستهم اليومية الفخمة ، والحدائق السحرية ، ولكن الاغنياء بحثوا في سياتهم اليومية ايضاً ، عن المفروشات المتعددة الألوان والخزائن المزدانة بالمينا والحزفيات السينيسة والأواني البلورية والمستاديق المشجرة والمدبجات والتناهيب ومرايا البندقية والخمليات والحرائر والاقحشة المطرزة بالذهب والفضة والمربات الفاخرة والطنافس التركية والسينية والسقوق الخشبية المسورة ، وفي المقصور بهرت الاروقة الميون بنفائسها المتقلبة الألوان وأدهشت العقول بكل براعة تخدع المدين ، وجملة القول ان القرابة والقوة وشدة التأثير تسيطر على الحياة اليومية .

أو ليست مصادر هذا الاضطراب الداخلي ، وهذا الجري وراء الحياة التي المستهمان تبدو و كأنها هاربة ، وهذه الحاجة الى التأثرات القوية وامواطف العنيفة والاستفادة من الحياة الى آخر حدود الاستفادة ، هي البؤس والحروب والمجاعات والاوبئية وكافة اسباب الابادة التي تهدد كل شخص في كل وقت ؟ أو ليست مصادرها الصراعات الطبقية والحزبية والمشادات الدينية والسياسية التي ترغم الانسان على الوقوف في وجه مواطنيه وأعضاء عائلته واحدة أو ليست اعترافاً بالقلق ووسيلة للتخلص منه في آن واحد؟ أو ليس من شأنها أن تصبح بدورها سبب اضطراب فكري واضطراب اجتاعي وسياسي ؟

٦ ـ الازمة الاخلاقية والدينية

ساعد الفن المستهجن ، في الارجع ، على بعث أزمة عقلية عامة برزت في الاخلاق البطل في الدرجة الاولى . ففي هذا المجتمع ، حيث توجب على الفرد ، المهدد باستمرار ، ان يثبت انه عدو خطر ، وفي هذا المجتمع الذي ما زال ارستوقراطيا ، وحيث المثل الاعلى هو الانسان النبيل ، الجندي الممتاز ، الفارس ، وحيث ساعد فقدان التوازن بشتى انواعه عسلى اضطراب اله و أنا ، و وبالتالي على الاندفاع في الكبرياء ، نرى ان الانسان الفاضل هو الماهر الماهر والبطل البطل ، اي القدرة والمجد . أما الواجب ففي اشباع الحاجة إلى المجسد . ويقوم المجد بالتقيد بقوانين الشرف الاجتماعي الذي هو الشرف الاقطاعي ، أي النبيل . ويقسود إلى التضحية بالاهواء التي تتمارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية والسيد ، تضحي بمحبتها على التضحية بالاهواء التي تتمارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية والسيد ، تضحي بمحبتها على المجد من ثم موجباً باطنيا ، شريعة داخلية . والواجب يقضي بالانتصار لا على العقبات الخارجية فحسب ، بل على الاهواء والخوف والخبل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، فحسب ، بل على الاهواء والخوف والخبل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، هي السخاء ، أي السمي بشغف وراء المجد ، واخضاع الاهواء للمجد . والبطل هو ذاك الذي أقسم أمام نفسه بان لا تعوزه الشجاعة البتة في السمي وراء المجد ، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه لأجله .

ولكن هذه التضعية هي تضعية الاهواء الاخرى على مذبح الهوى الأعظم ، أعني بسه الكبرياء . هذه الفضيلة هي إثبات كيان الفرد ، كا يتضح من صرخة و ميداي » : و ماذا تبقى لك في هذه الداهية الدهياء ? – أنا . » ان عقل البطل وقوته المعنوية وإرادته وعزمه الفظ وبسالته ، كل ذلك ينبسع من شعوره ، في الحقد والانتقام والطموح والحية والوطنية والحب والاهواء والرجولية » و النبيلة » و المسيطرة » ، وهي تعبر عن القوة الحيوية التي تجيش في الفرد وتدفعه إلى اثبات قوته والسيطرة على الآخرين والامتياز والتفوق على البشر الآخرين الذين سينتهي بهم الامر إلى إحاطته بهالة اعجابهم أو بنوع آخر من التكريم هو البغضاء والدسائس الدائمة والافتراءات المقيتة ، التي يمكف بها المتوسطون حول البطل .

ان البطل يبحث عما هو جميل وجليل وغريب ، وعما و لا مثيل له » ، وقد يجده في الجريمة نفسها . ف و رودوغون » تطلب إلى أخوبها قتل امها . وكليوباتوا تصرخ قائلة » و أخرجي من قلبي أيتها الطبيعة . . . » ان البطل ينطلق وراء المظمة وتجاوز الحدود . أجل ان أخسلاق البطل دالة مجتمع أرستوقراطي ، ولكن يبدو انها تتفوق على مثل الفروسية الأعلى ومثل النهضة الأعلى ، وان سعيها وراء تفتح الانسان في كافة نشاطاته ، ووراء نجاحه في كافة أشكال الجال ، أقل منه وراء ارضاء الكبرياء بالقوة ، وانها على مزيد من العصبية والتوتر والقلق المترجرج ، أي انها في حقيقة واقعها مظهر من مظاهر الاستهجان .

النهضة الادبية كان المجمع التريدنتيني ، في الحقيقة ، قد كرس ، في وجه الاصلاح ، التفسير الروعة المسيحي للنهضة الأدبية . ومنذ الثلث الاخير من القرن السادس عشر ، نشر

علماء الآداب القديمة الورعون مثات و المداخل الى الحياة التقوية ، و و الابجاث في محبة الله ، . ان الانسان انعكاس للشبه الالهي ، والطبيعة البشرية هي من ثم آية الحلق . ويغلب ان جرح آدم القديم لم يفسد كل كياننا . فان اهواءنا ثمرة طبيعتنا ، وخليقة حكمة الله ، جيدة بجسد ذاتها . وواجباتنا الاولى هي نحو انفسنا . فعلينسا ان نسعو الى اعلى ذرى السمو بجال الطبيعة التي منحنا اياها الله ، وهو عقلنا ، انعكاس العقل الآلهي ، ما سيمين لنا مبادى مساوكنا .

المالم جيد . وقد خلق ليقودنا الى الله ، و والجمالات الدنيا ، هي بمثابة درجات يجب ان تقسلقها محبة الانسان درجة درجة الى ان تصل الى الاستمتاع بالجمال المطلق . و صنع الله الحلائق في جودته لنستمتم بها ، فيتوجب على الانسان ان يكون و انسانا شريفاً، ويحب جمال الطبيعة وجمالات الفنون والتماثيل و الموسيقي والمعلور والآعياد والأفراح ، ولا سيا الجمال النسائي ، لأن الحمية الزرجية اشعاع من الحمية الالحمية وتقدم تدريجي نحوها : و لماذا الحفر من الحمية ? . . فهل من خجل في التملق بصورة الله ، وضليقة عاقلة وشخص شريف حسن التربيسة يتباهى بالشرف والفضيلة ؟ ، (كامو ، اسقف بلي ، وقد درج روبلس على تحديد فنه : و تمجيد قوى الانسان و ابتغاءاته » .

ويقدم الله ابداً لهذا و الانسان الشريف و نعبة الفداء . يترك الانسان حراً في الاجابسة بالقبول أو بالرفض . ومن حيث هو عبة كله ، لا يستنكف البتة من موقف الانسان والانسان يستجيب لهذه الجودة الحنون بالحبة . أو لم تعوده النهضة الادبية العيش في بهجة ربيع حنان شامل ٢ ان هذا المذهب الافلاطوني قد حطم قيود الحسن الفني المستهجن . فان المديسد من المهنة اليسوعيين وكهنة الرعايا قد نشروا الموسوعات و عجائب الطبيعة و . كما ان العديد من الكهنة ورجال والعانين قد تأثروا الى حد بعيد بالشمراء الدنيويين . فان المثات من الرهبان والقضاة ورجال المقانون وعطام الاسياد وقد نقلوا شعراً وفي نشوة كلامية و المزامير والتأملات والعسلوات :

و ايتها النجوم المضيئة) ايتها الصفائح الدهبية
 التي يزدان بها الليل
 وينائرها ماسا في اشرعته)
 ايا زهور الحدائق اللازوردية . . . »

باركي الرب ع كا انشد العصبوشي « مارسيال دي يريف » . وان هذه الحبة الشاملا تتود الى بحبة الله :

> لا تغيروا مزاجكم بل غيروا أمدافكم ؛ أحبوا ، ولكن أحبوا الله الذي يبادلك محبة ثابتة (الرئيس فافر) .

وباستطاعة الانسان ؟ اذا ما تخلص بالحبة الطبيعية من تسلط الانانية والدناءة وتعود نسيان نفسه والتواري في الاشياء الحيطة به والاستسلام حتى التضعية بشخص عزيز ؟ ان يحب الله عبة حقيقية تنسى نفسها ولا تحرص الا على ارضاء الله ؟ دونها خوف أو أمل ؟ وتذعن الى كل ما يريده الله وحتى اذا كان ما يريده لنا عذاب جهنم » . وباستطاعته آنذاك ان يحب الله و حجة خالصة » . وكانت مريم المجدلية ؟ من هذا القبيل ؟ بطلة القرن السابسع عشر المفضلة . و كانت مريم المجدلية ؟ من هذا القبيل ؟ بطلة القرن السابسع عشر المفضلة .

ان الصوفية ، وهي الحياة مع الله وفي الله ، هي جوهر النهضة الكاثوليكيسة والحركة الاصلاحية المضادة . فان جماهير تنتمي الى كافسة الطبقات ؛ عامة الصرفسية الشعب ، والرعاة ، والراعيات ، والبقارين ، وفقراء المدن ، والقضاة ، والاشراف الريفيين ، عاشت منذ السنة ١٥٧٠ تقريباً عيشة تأملية ، تحت نظر الله ، وبتوقه ، متحسدة به ، ضمايا الانخطافات والرؤى التي هي في غالب الاحيان قدية ضعف الجسم البشري ، ولكنها شاهدت الله بفعل نور باطني سرسي . وبثت حركة أوروبيسة تعاليم الصوفيين الرينانيين مسسن أمثال هارفيوس وتولر ، والصوفيين الاسبانيين والايطاليين ، وكلاسيكيي الحياة الروحية في الغرون الوسطى ، من امثال كاسيان والقديس برناردوس، الذين نشيرت مؤلفاتهم واعيد نشيرها تكراراً باللغة اللاتينية واللغة الشمبية ، بفضل علماء الآداب القديمة . ونظمت شعراً غنائياً وتضع أسمى صوفية في متناول النساء الفقيرات الجاهلات انفسهن ، واشيمت بفضل المرشدين الكوتوزيين من الصوفيات مدارس قداسة حقيقية اقلقت بال الوزراء والملوك انفسهم الذين عاملوها ممساملة القوى الكبرى . فان « ماري دي فالنس ، الامية قد تولت تهذيب الاشراف الريفيين ورجال الكنسة ، وحتى الآب ﴿ كُوتُونَ ﴾ اليسوعي مرشد هنري الرابسيم ، واستقبلت ريشيليو. الذي زارها مثريباً . وتفوقت مدام و اكاري » (١٥٦٦ – ١٦١٨) ، وهي ابنة محاسب وزوجـــة عاسب ، في الارشاد الروحي ، وبلغ من تفوقها ان اليسوعيين ورهبان القديس فيلبس النيري وكهنة الرعايا كانوا يتوجهون اليها بغيَّة معالجة الحالات الصمية . وقد الثف حولما ﴿ كَنْفُلُدُ ﴾ ؟ « يوكوزن » « فرنسوا دى سال » » « بيرول » مؤسس جمية « ماريلاك » الرهبانية ، دوفال » الدكتور في جاممة السوريون . وحرص هنري الرابسم على أن لا يفقد حظوته لديها . وقسسه جمت في منزلما فتبات كن نواة الراهبات الاورسوليات والراهبات الكرمليات في قرنسا. وهي من اسهمت في ادخال هاتين الجميتين الى فرنسا ؟ قبداً بذلك اصلاح اديرة الراهبات ، ويعسود الفضل في استكال وفرنسوا دي سال ، تربيته الصوفية الى مراقبسة الصوفيات الكرمليات في ديجون ومراقبة راهبات الزيارة من بعدمن (بعد السنة ١٦٦٠) ؟ وليس و البعث في عمبةاله) سرى رصف اختباره الفتيات المتدينات.

ولما كان التأمل يتبيع تجديد اسوال يسوع المسيح الباطنية في نفس الصوفيين ويميي المسيح

فيهم ، فانه قد جر قسراً الى اصلاح الاديرة . فبات من ثم مستحيلا على الراهبات اللواتي كن يعشن فقر المسيح وآلامه ومحبته أن يرتدين ملابس بيضاء صوفية ناعمة أو كتانية مغضنة وأن رتنافسن في اقتناء اجمل لباس واحسن مسبحة واكبر عدد من الجواهر الكريمة ؛ وبات مستحيلاً عليهن كذلك أن يمشن كل على حدة ويأكلن على هواهن في حصنهن مم صديقاتهن ، ويستقبلن الزائرين ويتقبلن الهدايا والمعاشات ؛ وبات مستحيلا علمهن اخـــــيراً ان يستقبلن الاشراف الريفيين الآتين لملاطفتهن ، وان يخرجن متنكرات بملابس الراعبات بغية حضور اعراس القرية او الاجتماعات الريفية ، كما بات مستحيلًا على الرئيسات في هذه الاديرة ، وهي ممتلكات عائلية تنتقل من عمة إلى ابنة شقيقتها ؟ أن يستقبلن انسباءهن بين راهباتهن الخضيات والمسكات والسكاشفات عنقهن وكتفيهن واعلى صدرهن٬ ويرفهن عنهم بالموسيقي والنزهة والولائم. وبفضل الاثر الذي تركته السيدة د اكاري ، باشرت د ماري دي بوفيليه ، ، رئيسة دير د مونهارتر ، ، اصلاح درها الذي غدا مدرسة للرئيسات الاخريات . كما أن رئيسات الادرة البندكتية، وكلهن فتمات نبيلات يحسن ممارسة السلطة ويتميزن بجزم تزول معه فكرة المقاومة عند المرؤوسات ، قد اقدمن بمشورة جماعة السيدة و اكارى ، والكرتوزيين والكبوشين والبندكتين والسوعين على فرض التأمل الالزامي ، في ساعات معنة صباحاً ومساء، وفحص الضمير والرياضة الروحمة . السنوية والحياة مع الله وما تستوجبه من احترام القانون والتحصن المشدد ؛ واضفن الى كل ذلك منع الزيارات العالمة ، والفسيل المشترك ، والمائدة المشتركة ، واللياس الاسود ، والصاوات الللمة ؛ والصيام؛ والقطاعة ؛ والبرد ؛ والاماتات على انواعها . وحدث الاصيلاح نفسه في الرهبان من كرمليين وكبوشين وغيرهم ، ثم انتقلت حياة التأمل من الادبرة إلى المامانيين بفضل المرشدين وواضمي المؤلفات الروحية . فقد نشر القديس و فرنسوا دي سال ، و المدخــــل الى الحماة التقوية ، في السنة - ١٦١ و و البحث في محمة الله ، في السنة ١٦١٦ .

> النهضة الادبية الورعة تتعرض للخطر بفصل الايمان عن الحيــــــاة

ولكن هؤلاء الصوفيين الواعين الضعف البشري والمنتظرين كل شيء من نعمة الله بفضل استحقاقات الفادي والموحدين حياتهم بادخال الانجيل كله اليها ، قد اشتبهوا آنذاك بما قد

تنطوي عليه النهضة الادبية الورعة من تعليم مذهب الطبيعيين . او لم تفض ثقتها بالعقل البشري الى الفصل في اغلب الاحيان ، عند علماء الادب الورعين ، بين الحياة والدين ? او لم يشاهده الناس ، على الرغم من تصلبهم في موضوع العقيدة ومواظبتهم على الاحتفالات الدينيسة ، يسترشدون حكماء العصور القديمة ، ويقتدون بهم ، ويستنجدون امام الموت بالوثنيين من امثال افلاطون وسنيكا ، كا لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، وكا لو كان حسكم الانسان قانون الحياة الاوحد ؟ اضف الى ذلك التناقضات الغريبة التي نجمت عن هذه المواقف . فقد تغلبت المصلحة على الله في قلب القاضي الورع و بوشار دي شامبينيي ، كبير اخوته الرهبان الكبوشين والكرتوزيين ، فقاوم دعوة ابنته الى الحياة الرهبانية وارغها على زواج يحسن وضع ابيها

الاجتماعي ؛ واوجب القائد و دي غوندي » على ابنه ، و رتس » الشهير ، وهو ابعد الناس عن التدين والعبادة ، ارتداء ثوب الكهنوت ، بغية الاحتفاظ لعائلته عركز رئاسة اساقفة باريس . فكانت نتيجة مثل هذه التصرفات افساد الكنيسة عن طريق الدولة ، وتعيين اساقفة سياسين وعلمانيين ، ورتبا كنسية تسند الى العلمانيين ، وحتى الكلفينيين منهم ، واساقفة في سن الطفولة ، وكهنة اميين يعجزون عن توزيم الاسرار ، ولا يعظون ولا يبشرون ، ويتركون المؤمنين في الارياف جاهلين وجود الله ويفسدونهم ويقنعونهم ، كاحدث في ابرشية وكونانس، بانه خير الفتيات ، في اية حال من احوالهن ، ان ينجبن الاولاد من ان لا ينجبنهم .

النهضة الادبية الورعة ودفع الحس الغني المستهجن ببعض علماء الادب الورعسين ، بمن لا تتمرض المخطر بفعل تطرفاتها مأخذ عليهم ، الى تطرفات احرجت مراكزهم . فالمصور القديمة ، في نظرهم ، تحمل ، في ما خلفت ، حقائق الوحي الاولي وتبشر بالحقائق المسيحية . ومسا الامثال القديمة سوى رموز . فمينرفا هي الكلمة وكوبيدون هو صورة المحبة الالهية . وقد غنى الناس :

يا قديسة احراجنا ، ديابا يا سيدة نفسي الوحيدة ، ايتها العذراء والام ، اسممي صوتي .

فهل كان احتراماً حقاً ان يرى الناس في الله ، على غرار الكثيرين من علماء الأدب الورعين ، الصديق والاخ في الدرجة الاولى ؛ وهل كان موافقاً للسيادة الالهية ان تبدو وكأنها تعتبر الانسان مطلق الحرية ، وان يكون الله مرغماً » نوعاً ما ، على منح نعمته اذا كان الانسان قد اختار طوعاً ان يعمل الخير (مولينا) أو مرغماً على العفو مجمجة انه قد يحطم صورته بالذات اذا ما حطم الانسان ، وقد يتلاشى اذا ما لاشى الخاطىء (كامو) ؟

وهل كان من اللائق نظم وصايا الله والصلاة الربية والاسرار ابيات شعر مقتضبة وغناؤها الحاناً رائجة ، والاكثار من النكت والتصنع في اللطف والاضحاك والتكلف وكل لون ادبي مستهجن ، والطلوع بمثل هذه الكتابة : « ان هذا القديس المبارك قد غذى محبة قلبي » ، أو اقدام اسقف ، من امثال «كامو» على تأليف قصص غرامية حتى ولو كان القصد منها دفاعاً عن المقيدة ، أو تمضية الوقت كله في احكام التأمل بالطبيعة ودرس العلوم الدنيوية لأن العالم عمل الله ?

قامت في وجه النهضة الادبية الورعة ردة فعل استهدفت اتمام عمل المجمع الجنينية التريدنتيني باستيحاء روح القديس اوغسطينوس . ولكن تأويل الاوغسطينية أوقع البعض آنذاك في تطرف آخر هو الهرطقة الجنسينية . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة

لد وجنسن ، اسقف و ايبر ، الذي نشر في السنة ١٩٤٠ كتابه المقائدي الهام و اوغسطينوس ، الذي وسع وكمل نظريات لاهوتي كاثوليكي آخر و بايوس ، الحكوم عليه في السنة ١٥٦٧ . وغدت الجنسينية حركة اوروبية تميزت قوتها في فرنسا منذ ان نشر و أرنو ، (١٦٤٣) كتاب و تناول القربان المتواتر ، وكان مركز الجنسينية دير الراهبات في وبور روبال ، وجماعة و السادة ، الذين كانوا يأتون ويمارسون حياة العزلة في جوار الدير . ولكن الجنسينية جمعت حولها انصاراً وأصدقاء في اوساط الاكليروس كلها ولدى المديد من المؤمنين . أما المؤلف الذي يمتبر اليوم اشهر مؤلف جنسيني النزعة فهو و الخطرات ، التي جمها باسكال بسين السنة ١٦٥٨ والسنة ١٦٥٨ وكان لها اثرها العظيم في القرن التاسع عشر .

يمثل الجنسينيون نزعة دائمة للفكر البشري هي تأويل الدين المسيحي تأويلا تشاؤمياً. وهي نزعة لوثر بالذات. قان المتشائمين الذين يكونون اسمى فكرة عن عظمة الله وقدرت الكلية ويتأثرون بالغ التأثر بضعف الانسانية وبؤسها ، قسد كو نوا لنفسهم فكرة اله رهيب يعجز العقل البشري عن ادراك مقاصده واحكامه . بدونه لا يستطيع الانسان شيئاً. يذهب الى حيث يحد لذته ، وهو لا يجد لذة ، منذ الخطيئة الاصلية ، الا في الشر . ذهنه يدور في حلقة مفرغة ولا يستطيع التوصل الى اية حقيقة (نتيجة مذهب الاسمية)، عقله المتناقض والمتقلب سخرية ؟ وارادته عجز . الانسان لعبة ، القوى الخارجية الساحقة ، واتفاق الظروف ، والعادات تقوده وتلعب به كا تلعب الربح بدوارة الهواء . الانانية وحب الذات والقابلية الفردية هي وحدها ما يحركه .

د ان هوج رياح الشهوانية
 تجمل لجه يصطفق اصطفاق علم قديم » .

لاحول للانسان . ولكن الله الكلي القدرة يجعل الانسان ، بغعل نعبته ، يجد لذت في التقيد بالرصايا . وهو يمنح هذه النعبة اناساً اختارهم منذ الازل للمجد السباوي . وقد مسات المسيح لاجل هؤلاء دون غيرهم وفداهم وحدهم فقط . وعديد هؤلاء قليل جداً . وليس بمكنتهم التهرب من هذه النعبة لانها تفرض نفسها عليهم . الانسان ليس حراً ، بل هو عبد الله ويقتضي من ثم على الانسان ، في حريته الوهية ، ان لا يصنع شيئاً . دون ان يشعر و بتحريك خاص من الله » و بدعوة من الله » . ويقتضي ان يستقبل هذه الدعوة للتقدم نحو الاسرار ، كا يجب ان يخاف ويرتجف من التقدم نحوها بدون الدعوة . ولا يجوز ان يصبح كاهنا ويتدخل في عمل رهيب هو تقديس جسد المسيح ودمه الا اذا كان و مدعوا من الله بصوت يكاد يكون مرئياً وعسوساً ولا يرقى اليه ارتباب » . لا كاهن بدون و رسالة باطنية » من قبل الله . فكيف يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محكة التوبة الا اذا شعر من لدن الله يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محكة التوبة الا اذا شعر من لدن الله و

بحركة صادقة للذهاب اليها وبتوبة حقيقية وأسف تام على الخطايا لاجل مجبته ، والا فالحل مسن الخطايا يكون باطلا. ويقتضي فوق ذلك الشمور بميل وبهجة لتناول القربان المقدس ، ويحسن احيانا الامتناع عن تناوله تواضعاً على ان ان يكون سبب الامتناع تواضعاً حقيقياً ، لا تكاسلا . فكيف يصح الاقدام على الاقتراب من الله ?

يجب العمل وفاقاً لصوت الله . ويقتضي ، لساعه ، الصمت والانفصال والتجرد والكفر بالعالم والموت بالنسبة له . يجب على المسيحي ان يوجد الفراغ في داخله بتمرية باطنية . و يجب ان يكون امام الله ، حين يصلي ، كإناء مفتوح حتى يكرر الله نعمته فيه ، شيئاً فشيئاً ، وبحسب ارادته ، . لن يفرط المسيحي يوماً في الاتضاع والانحناء امام كال الله وقداسته . ولن يحترز البتة احترازاً كافياً من دوافعه الداخلية ، لأن الفضائل ليست في الفالب سوى قناع حب الذات ، ولأن العاطفة الوحيدة التي لها قيمتها هي العاطفة الخالصة الطهارة ، والعمل الوحيد الذي له اعتباره هو ما توحي به عبة الله وحدها . هذا هو الدافع الى الخوف من حب الذات وحمى قحص الضمير ، والقلق الدائم . ولن يعرف الجنسيني في النهاية فترة هدوء الاحين يجد ، لاعماله ، مبرراً انسانيا ، انانيا ، قد لا يكون له من وجوده البتة . فيدفعه رأيسه الوهمي التشاؤمي الى حرمان الانسانية من خير ما لديها .

أراد بعضهم اعتبار الجنسينية حركة بورجوازية موجهة ضد الاشراف وتعبيراً عن صراع بين الطبقات . والواقع هو ان السيكولوجية الجنسينية تقضي على مثال و البطل » . وارت من يقتنع مجقيقة هذه السيكولوجية لا يستطيع بهد ذلك ان يؤمن بهذه الصورة المثالية المتفوقة للانسانية التي حلم بها علماء الآدب القديم والارستوقراطيون . ولكن هنالك ارستقوقراطيين كثيرين بين الجنسينين والماطفين عليهم : الدوق و دي ليانكور » ، الدوق و لاروشفوكو » ، المركيزة و دي سابليه » ، النم . . فالحاولة ، كا نرى ، لا تأخذ وجودهم بعين الاعتبار .

أما ما هو ممكن ، فالتساؤل هما اذا لم ينبع النطرف الجنسيني مسن الخس الفني المستهجن ، وهما اذا لم يكن الجنسينيون من هواة الاستهجان . ففي رأيهم ، و لا شيء فاضل اذا لم يكن بطوليا ، ولا شيء مسيحي اذا لم يكن عجائبيا ؛ ولا شيء مطاق اذا لم يكن منقطع النظير . . كل ما يمكن تحسينه هو في نظرهم سيء الصنع ؛ كا ان الاعتدال في نظرهم نقيصة ؛ وكل مساليس نجاحاً هو اخفاق ؛ وكل ما ليس فريداً من نوعه هو مبتذل . وهم لا يستكبرون الا ما هو عظيم الجسامة . ولا يحترمون الا ما هو اخاذ مدهش . ويزدرون بمصنوعات كل فن تكون عون المثل الاعلى . . كل كلة من كلاتهم مبالغة واغراق ؛ وكل حكة مغالطة ، وكل تعابيرهم جسارة ؛ وكل آرائهم متطرفة ، وكل وعودهم جزيلة ؛ فهم جبابرة الشيع » . (الاب و فرنسوا بونال » ؛ همه) .

كان من نتائج الجنسينية إثارة جدالات حادة بين الكاثوليك حول النممة ١٩مات عبة القريب

وادت ، على الرغم من فضلها على الادب ، لاننا مدينون لها بـ « اقليميات » باسكال ، الى بلبلة الضائر والاضرار بالدين .

وكان من نتائجها كذلك تشجيع تيار الالحاد . فقد ادعى الملحدون ايضا بان مما يحرك الانسان هو اللذة وحدها : فوجدوا تبريراً وتشجيعاً لهم في السيكولوجية الجنسينية ، وكانوا جد مرتاحين للقول بالاختيار السابق للملكوت الساوي :

« لقد اختل عقل رجال البلاط والعالميين بعد هذه التأويلات حول النعمة ، لانهم يقولون في كل حين : ما همنا مها فعلنا لاننا سنخاص اذا كانت النعمة فينا وسنهلك اذا لم تكن . ثم ينتهون الى القول : ليس كل ذلك سوى ترهات . . فقبل بحث هذه القضايا ، كانوا ، اذا قرب عيد الفصح يصابون بدهشة صاهري الاجراس لا يعلمون اين يختبئون وتتشكك ضمائرهم ؛ أما اليوم فانهم يمرحون ولا يفكرون بالاعتراف ويقولون : ان ما كتب كتب . هذا مسافعله الجنسينيون حيال العالميين ، (السيدة « دي شوازي ») .

٧ - ازمسة العلم

الفن المستهجن والكنيسة والجامعات والامراء والعاماء

ما زالت السيطرة ، في اوائل القرن السابع عشر ، وعلى الرغم من جهود النهضة ، للارسطاطاليسية القريبة كل القرب من الاختبار اليومي وللطبيعة التي كانت تحمل على الايمان

بالمعجزات والطيرة والرقية والتنجيم والسحر ومناجاة الارواح. فقد بلسغ هنري الرابسع ملك فرنسا ، في احد الايام ، خبر اكتشاف مؤامرة حاك خيوطها مرشده الاب كوتون . في البدء هدأ روع الملك بعض الشيء في أعقاب تكذيب صريح، ولكنه ما لبث ان عاوده الخوف حينا ظهرت في الافق ، بصورة مفاجئة ، غمامة قاتمة السواد مضر جة ببقع حمراء : انها مقاصد الاب كوتون المظلمة الدموية تعكر الطبيعة التي تشي به . الا ان اليسوعي قد دافع عن نفسه . وجاء في الوقت نفسه من يفيد بان الفهامة قد اختفت . فكان ذلك انتصاراً للبراءة .

وسار استكشاف العالم قدماً تشجمه ذهنية الاستهجان على تحقيق اوسع الفتوحات ، تلك الذهنية التي حملت « Novum Organon» (١٩٢٠) «الذهنية التي حملت د بيكون » على ان يرسم على غلاف كتابه: «الحد الاقصى للعالم القديم . صورة سفينة منشورة الاشرعة تحاول اجتياز مضيق جبل طارق ، الحد الاقصى للعالم القديم .

كانت الاكتشافات ثمرة اهمال الفلكيين والاطبياء وغالباً ما انتسب المكتشفون الى البورجوازيين ، كد « كبار » ، ابن احد موظفي الدوق « دي ورتمبرغ » . الا ان « غاليليو » و « نابير » مكتشف علم انساب الاعداد ، كانا ينتسبان الى الاشراف الريفيين . فخرجوا مدن الجامعات وغالباً ما مارسوا فيها عمل التعليم : فان الطبيب غاليليو قدد درّس الرياضيات والطبيعيات في جامعة « بيزا » ثم في جامعة « بادو! » ، وكان « هارفي » استاذاً في كلية لندن

الملكية الطب النع . ولكنهم يصطدمون بالجامعات وغالباً ما يضطرون الى مغادرتها . قد والفلسفة ، أمة اللاهوت ، والجامعة امة الكنيسة ، وقد بدت الاكتشافات خطراً جدد الايمان؟ اضف الى ذلك أخيراً ان عادات الآخرين من أساتذة الجامعات قد تبلبلت وان أنانيتهم قد جرحت في الصميم امام بوادر عبقرية المكتشفين . الا ان حسن طالع العلماء جعلهم يدخلون في خدمة الامراء كمنجمين وأطباء . ففدا كبار رياضياً امبراطوريا ، وهارفي طبيباً لجاك الاول، و جلبرت ، طبيباً للملكة « اليزابت » ، وغاليلو في كنف دوق و توسكانا » .

كانت المهمة الاولى متابعة على « كوبرنيك » . فتولاها الالماني « جان كبار » سن كبلر من « شتوتفارت » (١٥٣١ – ١٦٣٠) . بعد ان أصبح معاوناً لـ «تيخوبراهي » ولا له هذا الاخير ، وهو على سرير الموت ، ما دونه من ملاحظات وطلب السه وضع تقاويم حركات الكواكب السيارة وبناء نظرية فلكية تتفق وتعاليم كوبرنيك . وكان كبلر يشاطر كوبرنيك آراءه البيثاغورية والافلاطونية . وقد استوحى منذ البداية اعتقاده بان الله أنها خلق العالم وفاقاً لنظام سابق يجب ان نكتشف ظواهره في عدد مدارات السيارات وابعادها وفي حركات السيارات . وقد استطاع استمال المرقب الذي اخترعه في السنة ١٦٠٨ ، كما نرجح ، طبيب عيون هولندي من « مدلبسورغ » ، همو « هانس ليبرشغ » . فوضم اولا نظام طبيب عيون هولندي من « مدلبسورغ » ، همو « هانس ليبرشغ » . فوضم مدارها المساحات المحدودة . وأثبت ، بعد ان درس مدار الارض ان الارض تجتاز اقسام قوس مدارها في أوقات متناسبة لعلول الاشمة بين هذه الاقسام والشمس . وانتقل بعد تردد وعاولات المربخ فلم تسمح له ملاحظاته برسمها مستديرة وفاقاً للآراء السائدة . فتوصل بعد تردد وعاولات كثيرة الى القطع الاهليعي، الذي طابق ملاحظات « تيخو براهي ونظام المساحات المحدودة ، واتاح لكبار تحديد النظامين الاولين لحركة المربخ اللذين نشرا في السنة ١٩٠٩ في كتاب « علم اللهك الجديد » .

- ١ يسير الكوكب السيار في مدار اهليلجي تجتل الشمس احد محتر وقيه .
- ٢ ان سرعة الكوكب السيار الزاوية، في كل نقطة من مداره، متناسبة عكساً لمربع المسافة بينه وبين الشمس ؟ تزداد السرعة كلما اقترب الكوكب من مركز حركت وتنخفض كلما ابتعدت عنه (١١).

صيغة هندسية اخرى بماثلة: ان الشعاع الموجه بين الشمس والكوكب السيار يغطي ، في اوقات متساوية مساحات محدودة متساوية .

٣ - ان مربعات الاوقات التي تستفرقها دورات السيارات المختلفة متنساسبة لمكمبات معدلات مسافاتها الحاصة الى الشمس .

واستند الى مكتشفاته في وضع و التقاويم الرودولفية ، التي لم 'يستغن عنها ، طيلة قرت كامل ، للانباء بمواقع السيارات . وتضمنت التقاويم ، بالاضافة الى ذلك ، جدولا بالنجوم مسن وضع و تيخوبراهي ، ، وجداول من وضعه هو بانجرافات الاشمة ، وجدولاً بانساب الاعداد التي كان قد اكتشفها مؤخراً نابير في سكوتلندا (١٦٦٤) و و بورجي ، في سويسرا ، فسهلت عليه عمله بتحويلها عمليات الضرب والقسمة الى عمليات جمع وطرح ؛ وعملية استخراج الجذور الى بجرد قسمة بسيطة .

ان كبلر ، بعمله هذا ، قد قو"م ما توصل اليه كوبرنيك وكرس مركزية الشمس بتحديده الشمس د مركزاً ، لحركة السيارات ، لا مركز حركات الارض كا ساد الرأي ، واكمل كذلك وصف الحركات الحقيقية المختبثة وراء الظواهر ، فتوصل الى نظام هذه الحركات .

وحدة الكون؛ صنع غاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢) في السنة ١٦٠٩ ، بفضل توسع معرفت غاليليو وشاينز لانظمة علم البصريات ، مرقبا يفضل مرقب الهولنديين الى حد بعيد ، وفي السنة ١٦٦٠ اكتشف الاقمار الاربعة الماتبعة للمشتري ، ثم اقنعته مراقبة هذا الكوكب مسع اقماره ، عسن طريق الماثلة ، بحقيقة مركزية الشمس . واكتشف في اواخر السنة ١٩١٠ الله الزهرة ، كا للقمر ، اوجهها ايضاً . وتحقق له ان القمر شبيه بالارض . ورأى فيه الاوديسة والجبال وقدر ارتفاع هذه الاخيرة . واحصى اربعين نجماً ثابتاً في برج الثريا ، حيث ماكانت المعين المجردة لترى سوى ستة فقط ، واستدل بذلك على بعدها السحيق . واعتبر المجرة والنجوم الضعيفة الضوء مركبة من نجوم كثيرة . واخيراً اكتشف بقع الشمس في شهر تشرين الاول من السنة ١٦٦٠ . واكتشف هذه البقع ايضاً ، بفضل المرقب، اليسوعي و شاينر ، استاذال ياضيات في و انفولستات ، وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في و انفولستات ، وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في فرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقمها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر مسن غرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقمها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر مسن الخاصة .

ولكن مذهب كوبرنيك بدا متنافياً وملاحظة ما يجري مولد علم الآليات : غاليليو وعلم القوى عادة امام اعينا على سطح الارض ولا سيا في تساقط الاجسام الثقيلة . فياكان مسلماً به دون منازع انذاك ان كرة يلقى بهسا من أعلى الصاري في مركب متحرك لا تسقط عند قدم الصاري ، بل على بعض المسافة الى الوراء . وقد استدلوا بذلك على ان ما يلقى به عودياً لا يمكن ان يعود ، في حال دوران الارض الى المكان الذي القي به منه ، بل يجب ان يسقط ابعد الى الغرب لان الارض ، أثناء وجوده في الحواء ، تكون قد

دارت نحو الشرق . فواجهت مركزية الشمس من ثم ، مسألة الحركة قبل كل شيء .

استرشد غاليليو على غرار كوبرنيك وكبار من قبله بوحي فكرة سابقة البحث والتحقيق : هنالك نظام خفي تحت تنوع الطبيعة ، وهو نظام رياضي ؟ وسنن الطبيعة هي سنن رياضية ، والواقع هو تحييز الرياضي تحييزا مادياً ؟ فالطبيعة تجيب من ثم على المسائل المطروحة في اللغة الرياضية ، واستوحى غاليليو ارخميدس الذي لم يكتب اسمه مرة واحدة دون ثناء وتقريظ ، وقد اعترض الارسطاطاليسيون على تعالم كوبرنيك باسم الحركة ، فتابع غاليليو درس الحركة للإجابة على اعتراضاتهم .

كان كبار قد توصل بعملية تجريد ساعدته عليها ملاحظات لا يحصى لها عد الى استشفاف سنة الجماد: كل حركة هي مستقيمة ومتساوية السرعة بقوة الطبيمة وحدها ؛ كل جسم يخضع لتأثير قوة واحدة ، تعمل فيه فجأة ، يتحرك تحركا مستقيماً ثابتاً وبسرعة متساوية لا تتبدل . فقد تأكد لكبار ان الجسم لا ينحرف عن الخط المستقيم الا اذا عملت فيه قوة ما ، وان سرعته لا تتدنى الا اذا اعاقت تقدمه قوة ما ، واستدل من ذلك على ان الحركة تحافظ ، الى مسالا نهاية له ، على استقامتها وسرعتها المتساوية ، اذا ما ازبلت القوى المضادة .

اكتشف غاليليو منذ السنة ١٩٠١ ، الحركة المستقيمة الاطرادية السرعة وسنة المسافات و ان النسبة بين المسافات التي يجتازها الجرم المتحرك الهابط ، في أوقات متساوية ، هي نفسها النسبة الكائنة بين الأعداد الوترية المتماقبة انطلاقاً من الوحدة » ، ، ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، السخ ، وفي الوقع ، ان جسما يهبط ه أمتار في الثانية الاولى » يهبط ه ا متراً في الثانية الثانية و ٢٥ متراً في الثانية الثانية الثانية التي تخصم لهسافية التي توصل اليها غاليليو معادلة لسنة المسافة التي تخصم لهساط الحركات الاطرادية السرعة : المسافات المقطوعة متناسبة لمربع الاوقات ، وفيا يلي بيان ذلك: الخافصة امتار في الثانية الاولى ، تكون المسافة المقطوعة في آخر الثانية الثانية ه ٢٧٠ أي ١٠ مترا (٥-١٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة ه ٢٠٠٪ = ه عمترا (٥-١٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة ه ٢٠٠٪ = ه عمترا (٥-١٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة ه مستقيمة . فكان يترك كرة تتزحلتي في الفرضة ويحصي الوقت الذي يستغرقه توحلتها من اعلى الفرضة الى أسفلها ، ثم يحصي الوقت الذي يستغرقه اجتياز الكرة لربع المسافة : كان الوقت الثاني نصف الوقت الاول ؛ فخلص من ذلك سنت المسافات . وقد استخدم ، لاحصاء الوقت الثانية مائية ، وزن السائل المتجمع في الاحواض اثناء الاختيارات المختلفة .

اقضت مضجمه مسألة الحركة ، فأكب على درس رقاص الساعة الذي لفت انتباهه اليه ، على ما يروى ، ذبذية احد المصابيح في كاتدرائية بيزا . وتوصل الى تحديد السنن الاساسية :

١ سان مدة الذبذة لا تتملق بسعتها. فان ذبذبة رقاص يبلغ ماراً واحداً طولا تستفرق المدة نفسها سواء كان انحرافه عن الخط المعودي ٤ عند الانطلاق ١٠٠ او ٢٠ او ٣٠ او ٤٠ سنتيمترا .

- ٢ ان مدة الذبذبة لا تتعلق بمادة الرقاص ولا مجعمه . فان رقاصين متساويين طـــولاً غتلفين ابعاداً مثقلين في طرفيهما المتحركين الاول بقطعة فلينية والثاني بقطعة رصاصية ستفرقان مدة الذبذبة نفسها .
- ٣ ان مدة الذبذبة تتعلق بطول الرقاص ، وهي هي لكل الرقاصات المتساوية الطول . فكر غاليليو منذ ذاك الحين بساعة يتحرك فيها دولاب مسنن بفعل حركة الرقاص المزدوجة ؛ ولكنه لم يحل مسألة دوام حركة الرقاص . الا ان المهم في الامر لم يتم في هذا التقدم التقني ، بل في ملاحظة تشابه عظيم بين حركة الرقاص وحركة كرة تتزحلق على سطح منهدرة . فاذا كانت السطوح بختلفة الانحدار ، وترحلقت الكرة من ارتفاع واحد ، كانت السرعة النهائية متساوية ، لان السرعة النهائية تختلف باختلاف ارتفاع نقطة الانطلاق ، لا باختلاف انحدار السطح . وهذا ما حمل على القول ان ذبذبة الرقاص الواحد تستغرق المدة نفسها في سعات مختلفة لانه في الواقع يهبط هبوطاً متساوي السرعة على كل السطوح المنحدرة المتعلقية ، المختلفة الانحدار ، ب١ ١ ٢٠٠٠ ٢ ، السرعة على كل السطوح المنحدرة المتعلقية ، المختلفة الانحدار ، ب١ ٢ ٢٠٠٠ ٢ ، التي تؤلف ذبذبته . فاهتدى غاليليو في الرقاص الى حركة الكرة على السطح المنحدر .

ولكن اذا كانت قطعتا الرصاص والفلين تبط مبوطا متساوي السرعة على السطوح المنحدرة المتماقية المساوية لخط مسيرها ٢١٬١٬١، ويصبح باستطاعة غاليليو ان يستدل بذلك على ان سقوطها يستفرق وقتاً واحداً فيا لو كان هبوطها طليقا وعوديا . فوجد نفسه مرة اخرى أمام اختباره في برج بيزا في السنة ١٥٩٢ . وقد تأيد بذلك ان سرعة الثقل هي واحدة لكل الاجرام .

إ - ووجد غاليليو اخيراً ان مدة الذبذبة تختلف باختلاف الجدر المربع لطول الرقاص. فاذا كانت اطوال رقاصات عدة متناسبة له () ؛) ،) كانت مدات الذبذبة ، فيا بينها ، متناسبة له () ،) ، كانت مدات الذبذبة ، فيا بينها ، متناسبة له () ،) ، ك (، ان ذبذبة رقاص طوله ٢٥ سم تستفرق النيسة ، وذبذبة اخر طوله متر تستفرق النيتين ، وذبذبة الث طوله ٢٥٢٥ م تستفرق ثلاث ثوان. ولكن هذه النتيجة هي بالذات ما توصل غاليليو اليه مع الكرة المتدحرجة على السطح المنحدر . فخط مسير الرقاص ، وهو يتلقى حركة مطردة السرعة من قوة هي الثقل . وهكذا قثلت ذبذبة الرقاص بحركة الاجرام الهابطة .

حاول غاليليو حينذاك قثيل حركة القذائف ايضاً بحركة الاجسام الهابطة . فاستهدفت المجاثه خمنا مبدأ ثبوت الاجرام والمبدأ القائل بان كلقوة تعمل في جرم ما تعطي نتيجتها بشكل مستقل عن غيرها من القوى الفاعلة . وقسد استخدم المسطح المستطيل السرعات واكتشف بواسطته مبدأ المسطح المستطيل القوى . افترض جرماً منتقلاً على سطح افقي ا ب . الجرم ستحرك في المجاه واحد وبسرعة متساوية طالما لا تعمل فيه اية قوة اخرى . فاذا انتهى المسطح

فجأة في ب ٤ فان الثقل سفعل فعله حينذاك ويدخل حركة جديدة هي الهبوط العمودي ب ل. ولكن الحركة الافقية المتساوية السرعة لم تبطل . لذلك فان الحركتين تتحدان والجرم ينتقل على المسيرة المنحنية الاضلاع ب ط و ح حيث د و = 3 ج ط لأن ب د = 7 ب ج ولأن المسافة التي يقطعها جسم هابط تختلف باختلاف مربع الاوقات . ويمكننا الاستناد الى البرمان نفسه في المعادلة : ه ح = 7 ج ط . فحركة القذائف تخضع من ثم للسنن نفسها التي تخضع لها الاجسام المابطة . وقد اوحى ذلك بان حركة الاجرام السهاوية تطابق الشروط نفسها .

اتاحت هذه الاكتشافات دحض حجج الارسطاطاليسيين على سنن كبلر ، فقد نجم عنها ، لعمري ، مبدأ استقلال القوى أو وجودها معا : كل حركة مشتركة بالتساوي بين كل الاجرام الحتلفة فيا بينها ، اذ ان هذه الحركات تستمر في الحدوث كما لو كان مجموع النظام عارم الحركة . وبات جلياً من ثم ان الكرة التي يلفى بها عودياً من اعلى صاري سفينة متحركة لا يمكن استبط الا عند اسفل الساري لأن الكرة تخضع للحركة الافقية نفسها التي تخضع لهما السفينة . وبات جلياً كذلك وهن الاعتراض على حركة الارض ، لأن الجرم الهابط في الهواء يدور مع الارض .

أما هذه النتائج * ونتائج كثيرة اخرى * وسنة الجاد التي حددها ديكارت بوضوح * فقد نشرها غاليليو في السنة ١٦٣٨ في كتابه و احاديث حول علمين جديدين * . وقسد استلزمت اعماله منذ البدء سنة الجماد . وكان و بيكن * وصديق ديكارت * على علم بسنة دوام الحركة منذ السنة ١٦٦٣ . و ان ما يخضع للحركة مرة يبقى متحركا الى مسالا نهاية له * . ولكن ديكارت هو من عبر بوضوح وجلاء عن سنة الجاد: الجسم الساكن يبقى ساكنا اذا لم تعمل فيه اية قوة إواذا تحرك قانه لا يتوقف من ذاته ان لم تغذ حركته اية قوة كا افترض الارسطاطاليسيون ولكنه يستمر في حركته بالسرعة ومنا الجباه نفسه * فحركته مستقيمة ومتساوية السرعة ؛ واذا ما اخضع هذا الجسم لعمل قوة ثابتة * فتحدث اذ ذاك سيجة جمية لأن القوة تعمل في الجسم بشكل واحد سواء كان ساكنا او متحركا * يحتفظ في كل هنيهة بالحركة التي خضع ها في الحسم بشكل واحد سواء كان ساكنا او متحركا * يحتفظ في كل هنيهة بالحركة التي خضع ها في الحسم بشكل واحد سواء كان ساكنا و متحركا * يحتفظ في كل هنيهة بالحركة التي خضع ها في الحسم بشكل واحد سواء كان ساكنا و متحركا * يحتفظ في كل هنيهة متساوية السرعة .

ولكن الطبيعة كلها بدت وكأنها خاضعة لسنن الحركة . ففي السنة ١٦٤٤ ، اثبت تريشلي ، تلميذ غاليليو ان فوارة ماء تخرج من ثقب في جانب سفينة مادى بالماء تتبع مسيرة عدسية الشكل شبيهة بمسيرة القذيفة ، وان حركة المساء هي نفسها حركة الاجسام الهابطة الاخرى .

كان الانكليزي هارفي (١٥٥٨ – ١٦٥٧) قسد نشر منذ السنة ١٦٣٨ مارفي مارفي والدورة الدموية القلب و حول حركات القلب والدم ، الذي عرض فيسه اكتشافه للدورة الدموية الكبرى . كان الارسطاطاليسونمن قبله يعتبرون الدم وكأنه راكد في حالة توازن، والارواح الحيوانية كأنها تتملل في مستنقم الدم هذا . وكان

هار في قد واظب في بادوا على دروس و قابريش دا كوابندنتي ، الذي كان قد ميز صمامات الاوردة ، وهي الشرط الضروري لاكتشاف هار في . راقب هذا الأخير ، في البعد ، حركات القلب بفضل تشريحات أجراها على حيوانات مختلفة : كلاب ، خنازير ، ضفادع ، افاع ، علاجم ، رخويات ، سراطين ، اسماك . فتمكن بذلك اولا من ان يرى التشابه بين حركات القلب والتقلصات المضلية وان يرى بعد ذلك عند كل الحيوانات وصول الدم بواسطة الأوردة وخروجه بواسطة الشرايين . عند ذلك تأمل مليا في كبر وتناسب بطينات القلب وكبر وتناسب الأقنية التي تخرج منه و كمية الدم التي تمر في القلب وسرعة مرورها . وكان جلياً ان الأوردة تنتهي يسرعة الى الفراغ والشرايين تنفجر بفعل تدفق الدم اذا لم يستطع هذا الأخير وجود حركة دموية دائرية ، وتأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط بجاري الدم وجود حركة دموية دائرية ، وتأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط بجاري الدم ألوردة ؛ أما اذا كان الربط مشدداً ، فهو يوقف كل دورة دموية ، فيتخدر العضو وينتاب الألم ويختفي النبض ويبرد العضو ولا يلبث ان يتقرع ؟ وضغط على الاوردة باصابعت فأظهر الدورة في طويق العورق المودة الدم نحو اقسام الجسم الدائرية .

واكتشف الطبيب الفرنسي و جان بكيته » (١٦٢٢ – ١٦٩٤) ، في السنة ١٦٤٨ ، دورة الكياوس اثناء قيامه بتشريح احد الكلاب . فاعترضوا عليه ان هـذه الدورة لم تكتشف في جسم الانسان . ولكن الطبيب الجراح و جارغان ، اكتشف الاقنيـة الكياوسية وحوض و بكيته ، في جسم جندي لاقى حتفه في اعقاب اقتتال اشترك فيه .

وهكذا امست الحركة عنصراً اساسياً في الطبيعة كلها وفي الكون . وكانت هذه الحركة خاضعة لسنن معينة ، وكانت هذه السنن رياضية .

> اصطدام الكوبرنيكيين بالارسطاطاليسيين

كانت هذه الاكتشافات كلها بثابة ثورة حقيقية . فقسد وجهت اشد الضربات لنظام ارسطو الذي مسا زال مسيطراً . تصور الارسطاطاليسيون عالمساً منظماً ٤ محدوداً ٤ محصور الابعاد ٤

الارض ساكنة في وسط العالم ، وكافة الاجرام السياوية متمعة حول الارض ، خسلال ادبع وعشرين ساعة ، حركات دائرية اعتبروها طبيعية لانها اكمل الحركات طراً ، وكل الكواكب مصنوعة لاجل الانسان ، من مادة خالصة لا تفنى ، وقد جعلوا فيها مقراً المكال غير القابسل التغير والفساد ، فاذا بكوبرنيك وكبلر وغاليليو يقضون على مفهوم مركزية الانسان هذا وعلى كل هذا الكون المنظم خير تنظيم . فكان الكوبرنيكيون على خلاف مع الارسطاطاليسيين في كل المنقاط . احلوا الحركة الاهليلجية محل الحركة الدائرية . وقضت سنة كبلر الثانية على الاعتقاد

السائد بان الحركات السياوية متاثلة . واظهر الكوبرنيكيون السياوات خاضعة لسنة لا محيـــد عنها هي سنة الولادة والشيخوخة والموت . وبرزت نجوم جديدة ، وتبين ان القمر شبيه بالأرض من حيث تكوينه ، واثبتت بقع الشمس ان الشمس قابلة للفساد. وحين اراد الارسطاطاليسيون وضم نجم جديد اكتشفه كبلر في دائرة القمر لأن كل تغيير. مستحيل بعسب القمر ، أوضح الكويرنيكيون أن النجوم أبعد من الشمس عن الارض بعشرة آلاف مرة ، وأن دورانها حول القمر في اربع وعشرين ساعة يتطلب سرعة فائقة في حال حصوله ، وان خللا جسيماً يطرأ اذ ذاك على الطبيعة لأن مدة دورة السيارات تزداد بازدياد المسافة : القمر ينجز دووت، في عمانية وعشرين يوماً ، والمريخ في سنتين ، والمشتري في اثنتي عشر سنة ، وزحــــل في ثلاثين سنة ، فكيف يصح ان تنجز النجوم دورتها في يوم واحد وهي ابعد من هذه السيارات الى حسد بعيد حِداً ؟ وذهب غاليليو الى ابعد من ذلك . فهاجم عقيدة الاستقرار وعدم التغير ورأى فيها دلالة على النقص والعبب . واظهر ان في التغير والانسال مزيداً من النبل والروعة ٬ وان التبدل واقع شامل حتى في السهاوات ، ولكنه يحدث في كل مكان وفاقاً للسنن الطبيعية نفسها ، وان النوع الواحد من الاحداث الطبيعية يحصل من انحاء الكون ، وان مادة السياوات بماثلة لمادة الارض ؛ لا تفنى ؛ وانما يتحول شكلها تحولا مستمراً . وحطم الكوبرنيكيون العمالم الارسطاطاليسيالقديم ؟ واحلوا محل العالم ، وهو وحدة مقفلة منظمة تنظيمًا تسلسليا ، الكون وهو مجموعة غير مقفلة ولا حدود لها مرتبطة بوحسدة سننها ، ففتحوا بذلك ابواب اللانهاية أمام الانسان . فمنذ الان وصاعداً ، سيسترشد الفكر البشري مثال اللانهاية ، وهو فتح حققته الازمنة المعاصرة . فانهار من ثم انهياراً نهائياً منطق الكليّات (المثل العامة) القديم ، ومنطق ارسطو ونظريته في علم الطبيعيات ، ومنطق المفاهيم المرتبط بعدد ثابت من الانواع المكونة من أجناس وفروق محدودة العدد ، وبعالم متناه في الفضاء مكو"ن بحيث تبقى الانواع ثابتــة على أ الرغم من تغير الافراد . اما في نظر الكوبرنيكين ؟ فكل مفهوم لا يتناول اللانهاية مفهوم مجرد وناقص : وليس من واقع الا ما يدرك كله .

عارضت هذه الاكتشافات حرف سفر التكوين واعتاد الكنيسة ، منذ الكنيسة تقارم الجدين ورب في المحدين ورب المحدين ورب المحدين ورب المحدين المحدين المحدين المحرف الاب شاينر لرئيسه الاقليمي باكتشافه بقع الشمس لم يرد هذا الاخير تصديق شيء من ذلك . ويروى انه قال له اذ ذاك : « لقد قرأت مؤلفات أرسطو تكرارا وباستطاعتي ان اؤكد لك انني لم أجد فيها شيئاً من ذلك . فاذهب يا بني واطمئن بالا وتأكد ان ما اعتبرته بقما في الشمس ليس سوى عبوب في عدساتك او في عيونك ، ولم يؤذن للاب شاينر ، في البدء ، الا باطلاع صديقه « فلسر » ، المالم في الادب القديم ، على اكتشاف، في ثلاث رسائل حول « البقع الشمسية » لم يلبث فلسر ان نشرها . فملل حينذاك صراح الارسطاطاليسين ، وهم الكاثرة الساحقة ، لأن السهاء قد استغذفت بهذا القول ، وصرحوا بان الارسطاطاليسين ، وهم الكاثرة الساحقة ، لأن السهاء قد استغذفت بهذا القول ، وصرحوا بان

الفلسفة قد « اهينت اهانة محقرة » . « كانت (البقع) الخداع نظر وأوهاماً مصدرهـــا المدسات » لانهم لم يستطيعوا تصور « رأي أبعد غواية من ذاك الذي يضع قذارة في عين العالم التي أوجدها الله لتكون مشعل الكون » .

كان الكرسي الرسولي قد نشر في السنة ١٩٦٦ ما يلي : « ان القول بان الشمس ساكنة في وسط الكون قول جنوني ، باطل فلسفيا وهرطوقي ، لانه لا يتفق والحتاب المقدس . كا ان الرأي القائل بان الارض ليست في وسط الكون وأنها بالاضافة الى ذلك تخضع لحركة محسورية يومية قول باطل فلسفيا واعتقاد أقل ما يقال فيه انه ضلالة » . لذلك فان غاليليو ، حين نشر في السنة ١٩٣٧ و الحوار حول نظامي العالم الهامين النظام اليطليموسي والنظام الكوبرنيكي » ، الذي هاجم فيه المذهب الارسطاطاليسي ، استدعي الى روما بطلب من ديوان التفتيش فذهب اليها واوقف في شهر حزيوان . وحين محسد اليها واوقف في شهر حزيوان . وحين محسد بالتعذيب ، رجع عن قوله ، وحكم عليه بالسجن وبتلاوة مزامير التوبة السبعة كل اسبوع طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصر ح عن كل ما قد يبدو له مريباً في نطاق المقيدة . اما طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصر ح عن كل ما قد يبدو له مريباً في نطاق المقيدة . اما وحواره » فقد ادرج في فهرس الكتب المحرمة .

التحول الفكري وكانت العلوم الطبيعية الجديدة تكيل لها ضربات لا تقل شدة عن ضربات تكون كائن غير موجود من قبل . فعللت كل ظاهرة طبيعية بسبب بماثل أبداً لذاك الذي يجعل الحيوانات تتناسل وتتكاثر. وكان للكائنات الطبيعية في ذاتها مبدأحركتها.وهذا المبدأ الداخلي الذي يسبب الحركة في كل كاثن حي هو الروح . فالروح من ثم هي المثال الاصــــلي الطبيعة ٠ المثال الاصلى الشيء الخاص الذي يدرسه العالم في الطبيعيات . وفي المواد الطبيعية ، المركبة شأن كل كاثن ؛ من مادة وصورة ؛ تكون الصورة المبدأ الجوهري المولَّد. وطبيعة شيء مسلم هي صورة هذا الشيء . والصورة هي المبدأ الداخلي للحركة ، وهو مبدأ شبيه بالروح . فكانت هذه الصورة الجوهرية ،من ثم ، مفاهيم غامضة يتراوح ما تشمله بين الفكر الداخلي والمادة . كان الثقل صفة داخلية تجذب الجرم نحو وسط الارض ، فهو قد عرف من ثم وسط الارض او أحس به ، وكان بالتالي روحاً سوية . وكان الثقل صفة من صفات جوهر الجرم ، مستقلاً عن المشاحة أو الحجم ، شبيها بمفهوم المادة غير الهيولية ، اي انه كان روحاً ، لانه كان موجوداً في آت واحد في كل جزء من اجزاء الجرم وفاعلا فعله فيه ، بصورة خاصة ، بواسطة جزء واحد مسن أجزائه ، كالجزء الذي يلتصق بالحبل من وزن معين يستند الى هذا الحبل. وكان هذا الحسيد فالكائنات الرياضية لا تتحرك : انها أزلية وغير محدودة برمان . ولم يتوصل ارخميدس نفسه الا الى علم توازن الاجسام : اي انه اخضع الكون للعلوم الرياضية . ثم ان الاشكال الهندسية ،

من جهة ثانية ، لا تعطي صورة كاملة عن المادة الارضية. فليس في عالم الواقع خطوط مستقيمة ولا سطوح ولا مثلثات ولا اجسام كروية . ليس لاجسام العالم الهيولي مسن أشكال هندسية منتظمة . ولذلك يستحيل تطبيق السنن الهندسية على موجوداته .

الا ان ما توصل اليه غاليليو في علم الطبيعيات قد أظهر ان الحركة تخضع لسنن رياضية . وبدأ ان الزمان والمسافة مرتبطان بسنة العدد . واعلن غاليليو ان عالم الواقع وعالم الهندسة ليسا عالمين غتلفين . وان الطبيعة تحقق الشكل الهندسي . وان للحجر غير المهندم شكلا هندسيا ليس دون شكل الكرة احكاماً وضبطاً . وان الاشكال الهندسية بحانسة الهادة . وان السنن الهندسية تنفذ الى الواقع وتسيطر على العلوم الطبيعية . وان الطبيعة انما تتكلم لغية رياضية لا فيجب ان توجه اليها الاسئلة بهذه اللغة . وان النظرية الرياضية تتقسدم الاختبار . وان سنن الطبيعة سنن رياضية . وان النظرية تعبر عن جوهر الظواهر .

استفنى الغاليليون عن الصور الجوهرية ولم يأخذوا بعين الاعتبار سوى الحركة والمسافة . واظهر غاليليو ان الجسم الجامد لا يطفو بالنسبة لشكله ، بل بالنسبة لثقله النوعي ، وانه يطفو في السائل اذا كان ثقله النوعي ادنى مسن ثقل السائل النوعي . استند الارسطاطاليسيون الى ظاهرة مألوفة هي طفو الصفائح المعدنية الرقيقة على سطح الماء . اما غاليليو فقد اثبت انها أنها تطفو في الواقع على الهواء وانها تنزل حتما الى القمر اذا ما غطست في الماء . لا شأن المشكل ، فالأهمية للثقل والحركات التي يسببها وسنن هسنده الحركات . الحركة والسكون يستلزمان قوة خارجية وغريبة عن الجرم . ويبدو لنا هذا المفهوم جلياً وطبيعياً . وهذا الجلاء يرقى الى ثلاثة قرون ونيتف . واعتبر الارسطاطاليسيون كذلك ان الاجسام الثقيسة والخفيفة تتحرك بفعل الحقة والثقل الكامنين فيها اللذين هما كائنات نصف هيولية ونصف روحية . أما في نظر الغاليليين ، فان ثقل الجسم هو قوة الدفع التي تتلقاها حركة الجسم الوازن الى اسفل في نظر الغاليلي ، وهو من ثم القوة التي تتحملها المساحة القائمة مباشرة تحت الجسم الوازن . فليس وارداً من بعد سوى تنقلات المادة ، والغاليلي بيتحث عن جوهر الحركة ، عن نسبة رياضية .

ان ما يجب عسله ، في رأي غاليليو ومدرسته ، هو استخلاص الحركة ثم التأكد من الاستخلاصات الهندسية بالتحقق من الحركة . فالهندسة والحواس هي أدوات الاكتشاف . ولكن زملاء غاليليو رفضوا النظر في مرقبه ، ومعارضي هارفي رفعوا الاكتاف تهكا حين اعلن هارفي انه لم ير الارواح قط في الدم . اعتبر الارسطاطاليسيون ان «كل كلة تقابل مثالاً ، وكل مثال كائن ، فعلم الصرف والنحو من ثم هو المنطق ، والمنطق هو العلم . لماذا درس الطبيعة والملاحظة والاستقصاء ؟ يجب ان ننظر الى العمال في فكرنا . . فنرى الحقيقة والواقع . كل تركيب كلمات تركيب اشياء ووقائع . وتنسيق الكلمات هو المرفة . . » . أما الغاليليون فقد قاموا بتحويل فكري .

استمرار الارسطاطاليسية فقدان نظام كوني آلي

بيد ان الارسطاطاليسيين لم يهزموا بعد . فالجددون لم يتوصاوا بعد الى ايجاد نظام يسير الكون كله بموجبه . اجـــل تخلخل البناء الارسطاطالسي وتهدمت بعض اجزائه ، ولكنه ما زال قامًا ولم

يستبدل بسواه . أما الكوبرنيكيون فقد آلوا الى مذهب الطبيعية . فان كبار ما زال يفترض وجود روح محركة مكانها في الشمس ترسل أشمة قوة ، هي نوع من التفريخ المفناطيسي ، أشبه باشعة الدولاب . وان الشمس تدور حول محورها . وان هذه الاشمة تتناول بقوتها كل السيارات فتنقلها حول الشمس . وان السيارات ترسم مداراً اهليلجياً لأن قطبي كل منها يتماقبان تعاقبا مطرداً أمام الشمس التي تجتذب احدهما وتدفع الآخر . وان الجاذبية و تواد بين جرمسين متجاورين يميلان الى الاتحاد أو الاتصال ، شبيه في طبيعته بالمغناطيسية » . وسلم غاليلو ، اقلبه قبل السنة ، ١٦٣٠ ، بان علة الحركة التي كان يبحث عن جوهرها لها تفسيرها في ذلك . وقسد تأثوا كلاهما بطبيب اليزابت ، و جلبرت دي كولشستر » (١٥٤٠ – ١٦٠٣) وبمؤلف حول المفناطيس (و الفن المفناطيسي » ، ١٦٠٠) . فان اختبارات جلبرت على الحجر المفناطيسي قد قادته الى اعتبار الارض ، بالمهاثلة ، كمفناطيس ضخم ، واعتقب بالمهاثلة ان الشمس والقمر وكافة الاجرام السهاوية اجسام مغناطيسية تنشر قوة مغناطيسية في الفضاء الذي يكتنفها . وان الاجسام هذه القوة المفناطيسية حية ويتحرك احدها نحو الآخر تحركا تلقائياً ،

فلم تول الحاجة ماسة ، من ثم ، الى تعميم سنة الجاد وتفسير الكون كله بالمسافة والحركة . ولم تول الحاجة ماسة كذلك الى اخضاع الواقع العاوم الرياضية . ولم يول ممكنا الاخسة على غاليليو ان الاختبارات التي فسرت استخلاصاته الهندسية كانت باطلة فهو لم يأخذ بعين الاعتبار مقاومة الهواء وقوة الثقل والاحتكاك . وبعمل تجريدي ، ابعد العوارض وتخيل سطحاً مسطحاً تسطيحاً مطلقاً وكرة كلية الكروية ، كلاهما كلي الصلابة ، جسيان بجردان ، موضوعان لا في الفضاء الحمود كلية الكروية ، كلاهما كلي الصلابة ، جسيان بجردان ، موضوعان لا في الفضاء الحمود الإوقليدي ، حيث لا تتسائر الاجسام بحالة السكون أو الحركة ، وحيث لا شأن إلا لسنة الجاد فقط . واستند الى مفاهيم لم تستخلص من الاختبار بل فرضت عليه فرضاً . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية في زال هنالك شك . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية عبر عن الواقع وانها حقيقة الواقع بالذات .

أجل كانت هنالك طريقة الانكليزي بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) الدي تقصير بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) الدي كان قد فكر بوضع بحث في العلم الجديد واجزائه وطريقة كل منها وشروطها. فجمع بعض النبذ واهمها اثنتان : « النظام الجديد » (١٦٢٠) و « تقدم العلوم » (١٦٢٣) . ووصى وقد هاجم بيكون ارسطو ، « ابا السفسطائيين » وافلاطون ، « ذاك المسازح » . واوصى بالتوجه مباشرة الى الطبيعة بالاختبار للتوصل الى التسلط عليها باطاعتها اي بموفسة سننها .

فأحدث بذلك صدمة عنيفة وأثار شعوراً قوياً واسهم في اعطاء الابحاث العلمية اندفاعاً شديداً . احلالها محل نظرة الارسطاطاليسية . اضف الى ذلك انها كانت مشوشة ككتب منهجية . فان بيكون لم يسائل نفسه قط عن شروط الملاحظة بحد ذاتها وعن الاحتياطات الانتقادية الواجب احترامها . ووقف موقفاً حذراً من العلوم الرياضية . فأول ما فكر به هو تنويسع الاختبارات وتوزيعها على ثلاث فثات : فئة الوجود ، فئة الفقدان ، فئة الدرجات. اما الصورة ، او الجوهر التي تولد طبيعة الظاهرة النوعية فتوجد ، كما هو طبيعي ، في الدردي . فلنأخذ الحرارة مثلا : تحدُّث في ٢٧ حالة ؛ ولا تحدث في ٣٥ حالة ؛ وتتنـــوع في ٤١ حالة ؛ والدردي هو حركة الارتجاج التي نرى نتيجتها في الماء الغسالي . الحركة هي صورة الحرارة ، وهي عنصر محسوس نلاحظه ولا نستنتجه استنتاجاً . زد على ذلك ان الدردي عند بيكون هو ابدأ استعداد آلي ثابت في الطبيعة . وان جوهر كل شيء في الطبيعة هو تركيب هندسي دائم . يبحث بيكون عن التراكيب والحركات الخفية ولكنه يعتبركل تركيب مطلقاً لا يقبل التفسير. فهو اختباري لا يستطيع ان يصنع العلم . والاختبارية لا تقود الى شيء . الاختبار يفرض النظرية ويفرض الكلام لانه سؤال يطَرح على الطبيعة . الا أن بيكون قد افتقر إلى هذا الكلام الذي هو العلوم الرياضية . فاخفق . ومنذ السنة ١٦٢٥ اخذ عليه الاب ، مرسين ، انه ساذج وانه يقترح انظمة لا يجهلها العلماء واختبارات اجري مجملها من قبله وتعابير جديدة لم تأت بأي جديد حقا. فان بيكون ، وشأنه في ذلك شأن الارسطاطاليسيين ، قد وضع الارواح في كل مكان . وقال اس الاجرام ترغب في ان تتلامس خوفًا من ان يحدث فراغ ومن ان تتجزأ الطبيعة ؟ وانها ترغب في العودة الى حالتها الاولى ؛ حالة العظمة والصورة ؛ التي كانت حالتها حين اعتدي عليهــــا وأبعدت عن استعدادتها الطبيعية ، وفي أن تتحد مع أجرام الكون وأجزائه الختلفة التي هي من طبيعتها ، النح . فلم يكن باستطاعة هذا المجدد المزيف أن يعطي الحاول الضرورية .

ازمة المعلى كانت الاكتشافات ؟ التي فتحت ابواب اللانهساية ؟ ووضعت الحركة في كل مكان اعتبرت فيه من قبل سكونا ؟ وكانت الحركة التي انزلت منزلة الكال؟ تبريراً عقلياً للفن المستهجن . فقد قامت هنالك مماثلة ؛ دونما مشابهسة ؟ بين مهندسي العيارة الذين يضمون الحركة في الابنية باعتاد و الاشال التي تطير » ؟ وبين العلماء الذين يضمون الحركة في كافة اجزاء الكون ؛ وبين الرياضين كبار وغاليليو في كافة اجزاء الكون ؛ وبين الرسامين روبنس ورمبراندت من جهة وبين الرياضين كبار وغاليليو من جهة ثانية .

 الكثينة ، ما بدا تبريراً لمذهب التشكك في الكل ، واعترافاً بسقم العقل المعضل وتشريــع باب امام الارتيابيين والملحدين .

٨ - الملحدون

اتسمت بعض الجاعات ، التي جمع بينها اسم واحد هو اسم و الملحدين ، ، بطابع مشترك هو التذكر للمسيحية ، نظرياً وعملياً ، واعتاد الحياة الوثنية أو مفهوم الحياة الوثني . وسارت من ثم على خطى نقاد النهضة المقليين ، من امثال و بومبونازي ، و و مساكيافلي ، ، وأمير الارتيابيين و مونتاني (١١) ، واستندت ، على غرارم ، على القدماء . ونقلت تعاليم القدماء بحذافيرها الى برامج التدريس . فوجد الطالب الفتى عند المؤلفين اللاتين واليونانيين كل مساهو ضروري للحياة : وكوتن لنفسه ، بذلك ، روحاً قدية معادية للدين المسيحي .

أما ما أبعد هذه الجماعات عن الدين المسيحي فهو ، في الدرجـــة الأولى ، ظرون الاخلاق السيئة التي تميز بها الاكليروس ، المعين من قبـــل الدول لغايات الالحاد السياسية

ساسية : كهنة جهلة نسوا حتى صيفة الحل من الخطايا ، راهيات كثيرات الاهتمام باجسادهن ، رئيسات اديرة عالميات ، احبار لم يسلكوا سلوكاً يقتدى به ، رؤساء أديرة . في سن الطفولة ؟ كينة قانونمون على مقاعد الدراسة ، وخدمة رعايا سكرون ، و لافردن ، اسقف و له مان ، المتظارف ، و لاريفير ، ، الذي انتقل مباشرة من و مجلس خلاعة ، شقيق الملك (السمد) ؛ إلى اسقفية ﴿ لانفر ﴾ . وقد قال إحد المصلحين : ﴿ أَنَ أَسُوا مَا 'يُفْعَلُ ... يفعل في أوساط الكنسيين ، . وبما زاد في الاشمئزاز وتقزز النفوس المشادات الدينية ومجادلات اللاهوتيين ، كاثوليك وجنسينيين ، وغوماريين وارمينيين ، وقد جرت على مرأى الجمساهير ومسمعها وخلت من مبادىء الحبَّة الاولية . اضف الى ذلك أن الحروب الدينية قد أذلت الدين وافقدته اعتباره . فباسم الانجمل تشائم اطراف النقبض وتحاسدوا ونشروا القذارة في مقالات حاقدة عنبفة مشينة وخانوا وقتاوا . وانتهى الامر بالناس الى الارتياب مـــن وجود حقيقة دينية والتفكير شيئًا فشيئًا بان الدين قد يكون مشؤومًا . وجاءت الحروب الاهلية والخارجية اخيراً تحل عنف الفرائز من بمقاله وتقضى على البقية الباقية من احترام الدين فخلال الحملات المسكرية٬ لم يتورع الجنود عن تحطيم ابواب الكنائس وسرقة الحلل الكهنوتية وتخريب بيوت حسد الرب واستبلاب حقق القربان وتدنيس القربان المقدس. وشجمت الحساة في المسكرات اشباع رغائب الحواس والاستسلام لابتغاءات الجسد والسلب والنهب والاغتمساب ومغازلة النساء والانصراف الى المسكر ؟ وابعدت عن دن طهارة يحاول توجيه كل قوى الفرد الى محبة الله الحالصة والقداسة الكاملة التي لا يشوبها عيب.

١ - مونتاني ؛ حياته ، فلسفته ، منتخبات ، صدر عن منشورات عويدات . (الناشر)

الحاد الفكر اسهمت الحركة الارتبابية في ابعاد الناس عن الدين المسيحي الذي يرتكز ارتبابية اللعدين الى البراهين . فقد ادعى الدين المسيحي ، من جهسة ، بأن وجود الله يمكن اثباته عقلياً بالارتقاء من المخلوقات الى الخالق ، ومن جهة اخرى بأن الوقائع التاريخيسة التي نستطيع بواسطتها الاستدلال على ألوهة المسيح قد اثبتها نقد تاريخي عقيلي . ولكن الملحدين كانوا كلهم على مذهب الشك بالكل . ففي السنة ١٦٣٠ قال « لاموت له فاييسه ، في حوار واراسيوس تو برو » .

« ليست حياتنا كلها ، اذا ما فحصناها من كل وجوهها، سوى اسطورة ؛ وليست معرفتنا سوى غباوة ؛ ويقيننا سوى خرافة ؛ ومجمل القول ليس هذا العسالم سوى تمثيلية مضحكة ومهزلة داغة ».

تأثر هؤلاء الاشخاص بالحس الفني المستهجن ، فتوسعوا في تعليم عظهاء النهضــــــة الايطاليين وتعليم و مونتاني ، . شرع و غاسندي ، في السنة ١٦٣٤ باحياء المذهب الابيةوري في كتابه « دفاعاً عن ابيقور » . فرأى غاسندي ، مخالفاً بذلك ابيقور ، ان الذرات ليست أزليـــة ولكنه رأى ، كما رأى ابيقور ، ان الكون مركب من ذرات دائمة الحركة تتساقط في الفضاء وتكون عوالم شبيهة بعالمناً لا يحصى لهاعد. وان كل الاشياء وكل الاجسام مركبة من ذرات متحركة . وان جسمنا مركب من ذرات ايضًا ، وان روحنا اقرب ما تكون الى النفحة ، او اللهيب ، وهي مجموع ذرات صغيرة جداً منتشرة في كافة أجزاء جسمنا . فالنفس تتسأثر من ثم بكلّ ادواء الجسم . تتحرك ذرات الجسم بفعل اخيه تنطلق باستمرار من ذرات الاجسام الاخرى ، وتتحرك الروح بفعل حركة الجسم ، فيتولد الشعور . شواعرنا صحيحة ابــــدأ ولكن احكامنا عليها قد تكون مخطئة ، فالخيلة تقرّب معطيات الحواس وتنظمها وتقارن بينها وتنقصها وتوسعها ثم تستخلص منها الاحكام . لذلك كانت اسباب الخطأ متعددة في هــذه العمليات . أن ما فوق الطبيعة حكم سيء على معطيات الحواس بل انتاج من انتاجات الخيلة . يجب اعادة العمليات ومقابلة الاحكام وامتحانها باستمرار ، فيما بينها وبالنسبة لحــــواسنا . فغاسندي ، وشأنه في ذلك شأن الارتيابيين الآخرين ، كوبرنيكي وغاليلي لا غش فيه.وحين ينحل جسمنا المركب من الذرات ، تنجاب النفس وتضمحل . فلا يبقى حينذاك شعور ولا عاطفة ، ويموت الفرد بكاسته .

افضت هذه المادية الى نتائج عدة . وفي مقدمتها استحالة ادراك كنه الاشياء . لا نبلغ بواسطة حواسنا سوى حقيقة نسبية كافية عملياً . أما طبيعة الاشياء الحقيقية فلا ندركها . فها هي من ثمة قيمة الآراء النظرية حول طبيعة الكائن ، حول طبيعة الله ؟ وما هي قيمة البراهين على وجود الله في تسليم الشعوب كلها بذلك ، على انها تفعل ذلك انقياداً لرأي مطبوع ؟ لا وجود لرأي مطبوع بل كل شيء يصل الينا عبر الحواس ، والخبلة تركب معطيات الحواس تركيبات مختلفة جداً بحيث لا تتكون عند اناس كثيرين اية فكرة عن الله كا اعترف بذلك بعض الملحدين . وقد رأى غاسندي ان

فكرة الله هذه ، مع ما تنطوي عليه من مفاهيم اللانهاية والازل والكمال والقدرة الكليسة والصلاح الكلي المست سوى توسيسع وتعظيم كالات الجنس البشري ، اذ ان افسكارنا العامة تأتينا من الحواس . فالاله هو الانسان متحليا " عنتهى كالاته .

وافضت كذلك الى الوقوف موقف الحذر من الشهادة التاريخية . فكيف تصح الثقة بشهود تتكون آراؤهم تكوناً يترك بجالًا لبقاء مثل امكانات الخطأ هذه ? قام « نوديه » ، امين كتب الرئيس « دي مسم » ، وخريج جامعة بادوا ، بتهذيب النقد التاريخي ، فتوصل منه السنة ١٦٢٥ ، في كتابه « دفاعا " عن عظام الرجال المتهمين بالشعوذة » ، الى وضع سلسة المراجع والعودة الى المصادر و درس قيمة الشهادات . فنحث عن المستند الاول ، والزمان الذي كتب فيه ، ووضعه ، واتجاهه ؛ وعشى قيمة تأكيداته وفسرها بحسب النزعة المادية الفلسفة الابيقورية . فأعيم كل شيء الى روابط طبيعية بين علة ومعاولات ، واعيدت كل دوافع الانسان الى مصلحته المادية . تظاهر « نوما بومبيليوس » بالتحدث الى الحورية و ايجيريا » بفية توطيد سلطة انظمته . كا ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي بفية توطيد سلطة انظمته . كا ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي ضد الشيطان التوصل الى الشهرة والاحتيال على امسوال السذج . وليس تنصر كاوفيس ودعوة خدان دارك والوحي المنزل على محد وموسى سوى حيل سياسية . ولكن ماذا يكون اذ ذاك عن امر الدن المسيحي والشهادات الانجيلية ؟

الشعوب الغريبة والديانة الطبيعية

ووفرت الاكتشافات الجفرافية اسلحة جديدة . فقد سبق ان اتاح برابرة اميركا لمونتاني ان يستهزىء بالمقل والاخلاق والديانة عند الشعوب المسحدة . ووفرت الصين وسائل العمل نفسه للحدى القرن السابع عشر .

ففي السنة ١٦٤٢ ، قال و لاموت له فابه ، ، في بحثه حول و فضيلة الاوثان ، ، ان التسليم واجب ، ما دامت الكنيسة لا تستبعد امكانية خسلاس الفلاسفة الاوثان الذين عاشوا عيشة صالحة بحسب السنة الطبيعية قبل شريعة موسى ، بان حكماء الامم ، التي لم يبشر الرسل فيها بالدين المسيحي ، قد يكونون خلصوا ايضا , فالمسيح لم يبشر به في الصين . ولكن الديانة الصينية انقى من ديانة الاغريق أو الرومان أو المصريين لاتها لا تستشهد بالمعجزات ولأن الصينيين منذ القدم ، آمنوا باله واحد . فان كونفوشيوس ، سقراط المسين ، قد آمن بوجود اله واحد والخذ مبدأ مبدأ السنة الطبيعية بالذات ، اي الامتناع عن معاملة السوى بغير ما نريد ان يعاملنا به . ومن ثم فان كونفونشيوس والصينيين قد يخلصون أيضا . أما الفكرة المركزية في كل ذلك فكانت رفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة القداء بواسطة فلك فكانت رفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة القداء بواسطة المسيح وضرورة النعمة ، اى بأسس المتقد المسيحى .

وانتشر الاعتقاد كذلك بان شعوب اميركا وآسيا والمناطق الجنوبية لم تنحدر من آدم وان التوراة لا تسرد من ثم تاريخ الانسانية وعلائقها بالله ، بل تاريخ شعب واحد فقط هو الشعب اليهودي . فليس للتوراة ٣ والحالة هذه ؛ تلك القيمة السامية التي تعزوها الكنيسة اليها .

أما رجال الكنيسة من امثال غاسندي ، استاذ اللاهوت في « دينيه » ، وذوو الفطنة من من امثال « نوديه » أو « له فايه » ، امين سر ريشليو " فقد تخلصوا من الورطة باعتاد تماليم بومبونازي حول اولوية الايمان على العقل ، وفصل العقل عن الايمان .

الاقدمون يحلون محل الديانة المسيحية الابيقوديون والرواقيون

ولعل ما كان ابعد خطورة من كل هذه الحلات ان الاقدمين وفروا وسيلة الاستفناء عن الديانة المسيحية ، فهل نحن نتوخى ادارة بيت وتربيسة اولاد ? هوذا « كسينوفورت ». أم نتوخى الحكم ? هوذا ارسطو وافلاطون وتاسيت ، ام نقوض معركة سنن الكون ؟

هوذا بلين ولوكريس . أم الاستدلال على حدود الطبيعة والمعجزة ? هوذا كتاب و معرفة الفيب علين ولوكريس . أم التفكير بخلود النفس ؟ هوذا و فيدون على و حلم شيبيون على وتوفرت عند الاقدمين عبصورة خاصة ، تعاليم تتبع للانسان ان يكفي نفسه بنفسه لمواجهة صعوبات الحياة وآلامها وقلقها الشديد ، تعاليم يملي فيها العقل ما تنفذه ارادة حرة . ورأى ابيقور ان قوام السعادة شرطان : و جسم بدون الم ، وروح بدون اضطراب على وان هاتين الحالتين المالتنم م التنمم ، غاية طبيعتنا الاولى وخير الانسان الأولى . وان العقل السليم يملي علينا الاشياء والآراء التي يتوجب علينا تجنبها أو السمي وراءها بفية بلوغ هاتين الحالتين . وانه سيحدو بنا الى رفض ملذات كبرى . اذا ما تبين لنا ان آلاما اكبر ستعقبها ، ومعانقة آلام كبرى وطويلة اذا ما ثبت ان ملذات اكبر ستعقبها . وانه سيظهر لنا ان القناعة والنزاهة والعدل تضعنا في الحالات التي يصدر عنها التنعم ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . فغدا مسن ثم الحالات التي يصدر عنها التنعم ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . فغدا مسن ثم دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب و الحكة ، لبيير شارون دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب و الحكة ، لبيير شارون هؤلاء المرشدن .

وآثر غيرهم الرواقيين ، ابيكتيت ، سينيكا الذي حملت رواقيته طابع الابيقورية . هنالك أشياء يناط امرها بنا ، كالرأي والارادة والرغبة والكراهية ، وبصورة عامة ، احكامنا وتصوراتنا . نحن نسيطر عليها . نحن احرار . عقلنا يولينا القدرة على تصور الاشياء ، ورؤية صلاحها وسوئها ، وابتغائها أو النفور منها ، والسعي وراءها أو الانصراف عنها . القدرة على الحكم والارادة لا تخضع لاي قيد .

وهنالك اشياء لا يناط امرها بنا ؛ الجسم ؛ الممتلكات ؛ الصيت ؛ الكرامة . انها غريبة عنا وأمرها منوط بالآخرين .

اذا ابتغينا ما هو منوط بنا فقط ، اي احسان الحكم والتوفيق بين ارادتنا وحكنا ، فسوف نكون سمداه لأن للسمادة هي في الحصول على ما نبتغي . ولم يكن الرواقيون ندرة بين القضاة والاشراف الريفيين . لا بل ان احد الرهبان قد طلب ان يدفن والى جانبه كتاب لسينيكا لم يفارقه في يوم من الايام . ولكن الابيقوريين كانوا اكار عدداً ، وباتت الابيقورية ، بسهولة ، نفعية وقعت موقع الرضى من الذهنية البورجوازية . فاعتنتى هذه التماليم رجال قضاء اشراف من امثال « دي فير » و « دي تو » و « دي مسم » و « مونمور » و « سيفيه » و « هارلي » ؛ وبورجوازيون ، ابناء تجار واطباء وضباط ملكين ؛ وكنسيون ومهذبون ووكلاء خزائن كتب وامناء سر وزراء ومستشارون وسفراء واحبار وأمراء ملكيون ، من امثال غاسندي ، ابن المزارع واستاذ اللاهوت في دينييه ، ونوديه وكيل خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، و « لا موت له فايسه » امين سر ريشليو (١٦٣١ – خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، و « لا موت له فايسه » امين سر ريشليو (١٦٣١ – ١٦٥٢) ، اجتمعوا نوادي ثقافية حول قضاة ناصروا الادب ، كه د بيرسك » في « اكس » وقد كان على صلة بجميسع انحاء اوروبا والرئيس « دي مسم » في باريس والرئيس « دي تو » في قصره حيث عمل وكيل خزائن الكتب، وبيير» و « جاك دي بوي » (١٦٦٧ – ١٦٥٦) ،

ولكن الانسياق وراء الطبيعة ، اي البحث عن التنعم، قد عني في نظر الكثيرين بتأثير فن الحس الغني المستهجن ، انفلات غرائز ، وحميسًا ارادة دون رقابة ، ميديسيس ، وعهد و آن دوترويش، عهود مفازلات خطرة وقعم جنونية انصرف خلالها بعض الاشراف الريفيين ، من امثال الكونت « دي بلغارد » والدوقيـــة « دي غيز » والمارشال د ديروكلور،المقربين الى هنري الرابــع والمدربين على المكامن والسلب والاغتصاب والاحراق بدافع من اهواء فظة الى العيش في اجواء الفجور الجنوني والمقاتلة والمبارزة والسكروالتجديف وتلهوا وانكروا ألله وعاشوا عيشة من لا يؤمن . وبات مألوفا في بيئة بعض الشبان اعتبار الدين مخاتلة وخداعاً . وقد حدث ، اثناء حصار ﴿ لاروشيل ، ، ان ضباطاً تمادوا في سخريتهم من رفيق لهم تكلم عن الله الى ان ارخمـوه على طلب تسريحــه . ولم تختلف الحــــال ابان ثورة « المقلاع » (La Fronde). ولفت الالحاذ الانتباه بين النبلاء من حاشية « غاستون دورليان » و و كونديه ، . فها هو عددهم يا ترى ? اجاب و مرسين ، على هــــــذا السؤال منهراً بقوله : و ان باريس وحدها مبتلاة باكثر من ٥٠٠ ٥٠ ملحه . وحوالي السنة ١٦٣٠ ، ذرف وبوشيه، الدمع أسفا على « مليون عقل مفقود » . ولكن كلا القولين صرخة الم لا قيمة احصائيــة لهما . وبين السنة ١٦٢٣ والسنة ١٦٢٥ حدثت ازمة حقيقية . فقيد صدرت خلال سنتين المؤلفات التالية : ﴿ قَصَةَ قُرَانَسِيونَ ﴾ ﴿ عَرُوسَ الشَّعَرِ اللَّغُوبِ ﴾ ﴿ حَجْرَةَ الْهُجَّاءُ اللَّذُعِ ﴾ ﴿ ديوان التقوى والرئاء وحق اللذة في التغلب على القانون . فكانت النتيجة موجة من الرعب. واعتقد المتدينون بوجود مؤامرة مبيتة . وبات و الالحاد ، واقماً معترفاً به وقوة يجب محاربتها .

٩ -- أثر الحركات الفكرية والعاطفية في السياسة

أثرت كل هذه الحركات الماطفية والفكرية في الازمة السياسية والاجتاعية فجعلتها تتفاقم وتزداد خطورة . قال ريشليو : « ان نظام إلدولة يفرض بعض التساوي في السلوك » . الا ان الاستهجان والالحاد والجنسينية ومركزية ألشمس قد ابرزت ووسمت الاختسلاف والتفاوت والفوضى . ووفرت وسائل المعارضة السياسية . وليس مصادفة أن يكون قادة الملحدين بسين الأشراف الريفين ، من امثال كونديه وغاستون دورليان ، قادة في الوقت نفسه لحركة مقاومة الملكمة المطلقة . وليس مصادفة كذلك ان يكون الكثيرون من أدباء الاستهجان ، وهم الاعداء الالداء لحكل نظام وسلطة وقسر ، في عداد وخدم ، العظهاء و ﴿ المُتَفَّانِينَ * في سبيلهم ، مستعدن لخدمتهم بالتعليم كما يخدمهم غيرهم بالسيف . أو لم تغد الوان الفن نفسها مظاهر مقاومة? فها هو علم الاخلاق الارستوقراطية قد حث على الثورة بدافع من الحس الفني المستهجن، والأدب قد بات وسبلة دعاوة . وها هو كورناي في د نيكوميـــد ، و د رودوغون ، ، و د روثرو ، في ﴿ الامانة البريثة ﴾ و ﴿ بلنزىر ﴾ و ﴿ لاروشفوكو ﴾ و ﴿ رَبُّز ﴾ في ﴿ مذكراتها ﴾ ٬ قد مجدوا هوى العظمة ، ورفض الخدمة ، والطباع الفظة التي تنكسر ولا تنحني ، والنفوس الكبيرة التي تستهوى المفامرات البطولية لا بأس في ان تكون المفامرة اجرامية إذا هي انطوت على احتقار الموت وافضت الى السلطة ، ان ما يفقد المرء اعتباره هو تحذره ، وتوسطه ، وبخله بالمه وحياته ، وعيشته مغموراً في الحفاء . كما ان الخطر الكبير هو السبيل الى المجد الكبير . أمــــا الخير الاسمى فهو في ان نرغم الغير على عبادتنا ومحبتنا ومهابتنا ومقتنا .

```
المقصد الجميد شرعي ابداً
واذا اعتبر شراً و فمرد ذلك الى تقدير ضعيف
صادر عن نفس موعوكة
القلب الكبير لا يدهش البتة أمام المخاطر الكبيرة
ومن لا يقدم على جريمة تتوج بالغار
يتقيد على حسابه بفضيلة فاشلة
كل الجرائم جميلة اذا كان لها العرش ثمناً
( الامانة البريئة )
ان القلب الكبير يشتري الاعتبار الكبير بأي ثمن
وكل جريمة حلال حين تفضي الى أكبارنا
```

أما الملحدون فقد تظاهروا باحتقار الجماهير الجاهلة الميقانة ، اي عامة الناس. ولكنهم من جهة ثانية حطموا البطل ، وهو احد المثل الاساسية في الملكية المطلقة . فقد توسع « رينييه »

و وتيوفيل دي فيو ، بشكل شعري ، وبمزيد من العنف والتشاؤم ، في تعليم و مونتاني ، و وجزموا بأن الانسان ليس ملك الكون، بل نتاج قوى عياء ، وامتزاج هواء ووحل ، خاضما لضغط الضرورة ، متحركا باهوائه ، العوبة الحبة والضعف والخطأ . فانى لمثل هذا الانسان التوى الى السلطة المطلقة ودور المخلص ? العقل الكوني خرافة . فعلى كل فرد ان ينقاد لطبيعته ويخضع لسنته الباطنية فقط . ليس للرفيلة من علة سوى الجهد الذي نبذله بعية السلوك بمقتضى الظروف ، ومن ثم بفية خيانة ذاتنا. وإذا كان هنالك طاعون وجشعون ومراؤون، فمرد ذلك الى ان الانسان لا يريد ان يجد في ذاته غاية اعماله . يجب ان نتملم و التمتم بذاتنا ، . ففدت لحكومة والمجتمع من ثم السببين المسؤولين عن ضعف الافراد وكان معنى ذلك ان كل نظام وكل ايان قويم وكل قالون اجتاعي وكل تضحية وكل مجهود بات موضوع سخرية وقضي عليه ، وان اس المجتمع نفسها قد تخلخلت وتزعزت .

وافضت الجنسينية ايضاً الى تحطيم البطل. فهي قد صورت الانسان العوبة شعوره والمادة والمصادفة ؟ وصورت ابتغاء المجد غريزة تملك والسعي وراء الخير الاسمى حركة نفعية لاواعية وعمى قلب. فليس باستطاعة الملوك وقادة الحرب والوزراء ، من بعسد ، ان يكونوا انصاف آلحة . وقابل الجنسينيون السلطة الخارجية بوصايا الضمير ، المستقل ، لأن الله نفسه يحركه . والمتزعوا من السلطة الحكم المانع في المسائل التي تقسع تحت الحواس أو ترتبط بقوة العقل . ونظروا الى الرأي القائل اننا لا نخطىء حين نطيع ، نظرتهم الى شرك تنصبه عجبة الذات ، مملنين خطأ السير ، والعيون مغمضة ، ووجوب التوجه الى الله مباشرة فوق السلطات القائمة ، الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقسد برهنوا في كل شيء عن الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقسد برهنوا في كل شيء عن الملقة ومعارضة . وحلم واضعو نظرياتهم البورجوازيون ، في سبيل مقاومسة السلطة الملكية المطلقة ، وبطبقة شريفة من علية من القاصد الرسولي ؟ وفي سبيل مقاومسة السلطة الملكية المطلقة ، وبطبقة شريفة من علية البورجوازيين تكون لها السيطرة في نظام دستورى .

وهكذا كان باستطاعة كل فرد ، في نضاله ضد غيره من البشر أو ضد الحكومة ، التوصل الى مبررات فكرية . فلم يكن القرن ، والحالة هذه ، سوى اضطراب وبلبلة وتشوش . وبدت المجتمعات الاوروبية وكأنها صائرة الى الفوضى والانحلال والزوال .

ولغصك لاهشابى

مقاومة الأزمة

كان رد الجبيم الاجتاعي ، على فوضى الحس المستهجن التي كادت تفضي عليه تفساء عاما ، بذل الجهود بغية استعادة الرحدة العضوية الوحدة الكلاسيكية ، وهي شرط لا بد منه لحياته. كان الرد تلقائها في البداية ؛ فنبسع من نوع من التوازن بين النزعات البورجوازية ونزعات اشراف الجندية . وصدر بصورة خاصة عن اناس منحدرين من الاوساط البورجوازية ، كأعضاء المن الحرة ، ورجال القانون، والقضاة والنبلاء الحديثي العهد الذين ما زالوا قريبين من البورجوازية ، وقسمه تعودوا كلهم بمبارسة النظام والاقتصاد والسيطرة على الاهواء الخسياسة بالبورجوازي . وما زالوا يحرَّصون على بقاء العائلة والملكية ويتعشقون الشرعبة ويحترمون تسلسل السلطات والرئاسات القائمة ، ويتعلون بروح كلاسيكية بفضل تربيتهم الادبية . ولكن هذه الطبقة الصاعدة لم تتوصل بعد الى وعي ذاتها وعيا كاملا . فإن هؤلاء النساس ، الذي كانوا خدام الملك ، الشريف الاول في المملكة ، و و اجرَّاء ، العظياء ، واسيادًا حديثي العهـــــ ، ورغبُوا في ان يُعتبروا نبلاء وحجبوا باعينهم الى المثل الارستوقراطي ، قد حاولوا ان يعيشوا حياة البطل الابي الذي يبذل نفسه في سبيل الهه وسيده وسيدتم والدولة والفكرة ، بسخاء كريم المو عوى نبيل يرتفع على ما غيره من أهواه ، وينظمها اويرحد الرعي . من اوساط مؤلاء بصورة خاصة ، ومن الندوات وقاعات الاستقبال الق يتم فيها الاتصال باشراف الجنديـــة ، أنبثقت نظرية مركزية الاله الاوغسطينية ، والكلاسيكية الادبيسة والفنية والاخلاقية ، والكرتزيانية (الديكارتية)، والحكم المطلق، والروح التجارية والاحتام للاستقلال القومي والعظمة القومية . ولكن العمل التوحيدي الكلاسيكي لم بتمكن من تحقيق النتائج الا بفضل الدرلة الملكية الطلقة التي تبنت هذه النزعات وشجمتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى غير قصد أو وعي منها احيانًا ؛ وأناحت لها التفتع وأمنت لها نجاحاً عرف بعض الديومة .

١ ــ المدرسة الفرنسية ، ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية .

انتهى الاصلاح الكاثوليكي الى الاكتال في نظرية بيرول (1000 - 1779)
بيرول مركزية الاله مجسب التعليم الاوغسطيني . كان بيرول ابنا لأحـــ المستشارين في مجلس باريس التعثيلي وابن اخت لاربعة مستشارين آخرين في هذا المجلس وابن عم المستشار فرنسا > وسيفييه > . واصبح مرشداً له و هغريت دي فرانس > ملكــة انكلارا (1770) ، ثم كردينالا (1779) ، ثم رئيساً لمجلس الملكة الام و مــاري دي مديسيس > (1770) . وكان روحانيا ؟ من فئة مدام و اكاري ، عارس الحياة الداخلية والحياة التأملية .

الشكل ٧ _ رقاس غاليليو (انظر صفحة ٢٦٠)

رجسع بيرول الى القديس الاوغسطينية اوغسطينوس وعن طريقه الى افلاطون والمثل المطبوعة ، بغية التمكن من مقاومة الالحاد والمرطقة والفتور . فاذا كانت طريقة المرفة الاكوينية قد غدت حجة للابتماد عن الله ، فلنرجع الى ذاتنا ولنخلق جوا من السكون الداخلي ، فتظهر امامنا المفاهم الاولية ويظهر الله . فكا حدث في كل عهود الصوفية ،

وفي عهدية برمنيد ؟ وجب على الانسان ، في مقارمته التشتت والتعدد ، ان يبتعد عن العسام المسوس ويحاول ان يشاهد ، في ذاته السكائن ، الواحد ، ويلامسه ، اذا صح التمبير ، ملامسة المادة لمادة . وهكذا شاهد القرن السابع عشر كله حركة اوغسطينية كبرى اسهم بيرول فيهسسا .

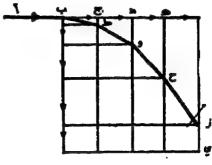
ان بيرول ، الذي تقيد من جهة ثانية بالتمليم الكاثوليكي حيال الحرية ، اقتبس عسركزية الله عسن القديس اوغسطينوس شعوره بعظمة الله اللامتناهية وفناء الانسان . فاستخلص نتائج ذلك في و خطبة حول معالي يسوع » (١٦٢٣) . واراد ان يقسوم بثورة كوبرنيكية ، تقول بمركزية الله . واراد عقل نير من عقول هذا القرن ، نقولاوس كوبرنيكوس الدفاع عن أن الشمس هي مركز العالم ، لا الارض ؛ وانها ثابتة وان الارض ... تتحرك امام الشمس ... ان هذا الرأي ، الذي لم يعمل به كثيراً في علم الكواكب ، لا يخلو من الفائدة ويجب ان يعمل به في علم الخلاص » .

كان بيرول تلميذ اليسوعيين وتشبع ، عن طريق القديس اوغسطينوس ، من التأمل الاسامي حيث يقول القديس اغناطيوس: « يجب ان ننظر الى الله أولاً لا الى ذاتنا. وان لا نتصرف بوحي نظرة الى ذاتنا والبحث عن ذاتنا والبحث عن ذاتنا بل بوحي النظر الخالص الى الله . فبيرول يريد ان يود كل شيء « لا الى استفادتنا ومنفعتنا الروحية ، بل الى بجدالله فقط ، دونيا اعتبار لمصلحتنا أو لقضاء حاجتنا الخاصة » ، وان يحملنا الى الله و بعبادة عظمته وقداسته عبادة عيقة » فقط ، لان و اله المسيحيين عظم » . فلا يليق من ثم ان نعتبره كصديق واب فقط . يجب ان نعامله باحترام نادر ، دور ان ننسى يوما المسافة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الانسان . بذلك احيا بيرول الفضيسة الولى ، اى فضيلة العبادة .

يقود بيرول الانسان الى هذا الاله المثلث الاقانيم بالتعبد للاقنوم الثاني ، الكلمة المتجسدة ، يسوع المسيح . فبالتجسد تألمت ، في شخص المسيح ، كافة الحالات البشرية التي افسدت واذلت في شخص الانسان الاول . ولم يبتغ بيرول من ثم سوى يسوع المسيح ولم يفكر الا بيسوع المسيح متأملا ومشاهداً إياه في اقل ظروف حياته شأنا: و لنذهب الى بيت لحم النذهب الى الاسطبل لنشاهد يسوع طفلا ، لنشاهد مريم امه ، ويوسف معاونا الام والطفل . لنشاهد الاسطبل والثور والحار . ولكن لنشاهد بصورة خاصة حالاته الداخلية في كل دقيقة من دقائق وجوده على الارض . فحياة المسيح ليست تتابع احداث تاريخية فحسب . ان اسرار يسوع المسيح سوف تستمر وتحيا في الارض حتى آخر الدهور . انها من عالم الماضي من حيث وضعها . ولكنها من عالم الحاضر من حيث قوتها » . العيش مسيحيا هو ان نعيش الاسرار ونتقفى حالات المسيح ونتمثل بالمسيح . يجب الا نسعى وراء الفضيلة لانها جميلة بذاتها ، متفقة مسم العقل ، ضرورية الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والهراطقة والكاثوليك المزيفون هم الذين يسعون وراء كل الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والهراطقة والكاثوليك المزيفون هم الذين يسعون وراء كل ذلك . ان ما يجب عمله هو تهجيد يسوع ، وفي سبيل ذلك ، و الاستمرار في ممارسة على الارض ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . . السير على خطى المسيح . مارسها على الارض ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . . السير على خطى المسيح . المام فضائل يسوع المسيح المن يوجد ويحيا فينا .

بذلك يبطل اعتبار الصلاة مجرد فحص ضمير ؟ وتعبيراً عن رغائبنا وطلباً الصلاة البيرولية لاجلنا . فهي تصبح نظرة وضيعة للاعراب عن الخضوع والاعتزاز والحبة الهيابة ، واتضاعاً ونكران ذات، والخطافاً في الاعجاب ، في البهجة ، في عرفان الجيل الاسمى، ونشيد اعجاب وثناء . ولا تنطوي الصلاة من بعد على اسلوب لبلوغ الكال أو للانتصار على الذات ، فهي ليست اذ ذاك سوى اقرار بخضوعنا لله ، وهبة ذاتنا لروح يسوع ، وعرض نفسنا أمام قدرة يسوع المسيح الذي يطبع بذاته ، في النفس ، آلامه ، وفضائله ، الالهية ، الفاعلة ، المجاد ما يشبهها فينا . فضائل المسيع : « لنظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولننتظر من الله المجاد من الله المحدد المسلح الدي يطبع عنه المسلح : « لنظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولننتظر من الله المحدد المحد

بصمت ما هو مفيد لخلاصنا الابدي ؟ لنطلب بعض التأثر والاشتراك في فضائل يسوع المدهشة والالهية هذه ... ولنتوسل اليه ان يمد ساعد قدرته الكلية كي يطبعها فينسا .. » ولنرتض ارتضاء كلياً بالعمل الالهي . لنقلع عن فحوص الضمير الخاصة ولا نتوقفن عند الفحص العمام . يجب الا ننظر طويلا الى نقائصنا وخطايانا ، لاننا بذلك قسد ننسى المسيح : « لا تنظروا الا الى ما هو جميل ... وما القصد من جمال يسوع الفائق الا اختطاف حياتنا في سبيل اسعادنا » . لنكرم في العذراء مريم « السعة الطاهرة » ليسوع ، وفي القديسين حالات يسوع التي احيوها في لنكرم في العذراء مريم « السعة الطاهرة » ليسوع الحي ، ويشمر في يسوع الحي ، كالجفن في الكرمة . ولي مكذا سوف يطعم الانسان في يسوع الحي ، ويثمر في يسوع الحي ، كالجفن في الكرمة . ويجب كذلك الا ينتهي الى مذهب التجرد لأن الفضائل لا يبرهن عنها الا بالاعمال ، والعمل هو عاية الحياة ، والنعم كلها تسبغ علينا حتى نحقق هذه الغاية . وكما ان حركة الآب الالهية التي تكون ابنه هي مصدر سر التجسد ، الذي يهب فيه ابنه الطبيعة البشرية ، كذلك نحن سنذهب ، بواسطة يسوع ، الى الثالوث الذي هو مصدر ومبدأ كياننا وكمال وغاية كياننا .



الشكل ٨ - نظرية غاليليو في العذائف (انظر صفحة ٢٦٨)

ان بيرول قسد سار في ذلك على لاهوت القديس بولس والقديس يوحنا ، وتعليم القديس بولس حول الجسم السري . الذي لم يؤثر تأثيراً عظيماً في القديس اغناطيوس والقديس و فرنسوا دي سال ١٠٠ي انه شرح رسالة القديس بولس الى الرومانيين . وبعد ان هدم اساس عسادلة الملحدين بافلاطونيته الارغسطينية ، لم يترك للبروةستانت اي موضوع شكوى بتعبده الداخلي في الروح والحق الذي رد فيه كل شيء ليسوع ،

وبيسوع للاله الواحد المثلث الاقانيم. والذي دعا ، لتقفي آثار المسيح ، كل البشر ، العلمانيين منهم والرهبان على السواء .

اذا ما اردنا التعبير عن فكرنا تعبيراً بشرياً ؟ أمكننا القول انه تخلى عن تدريب الارادة محسب طرائق القسديس اغناطيوس و و رودربغيز » التي كانت متشابهة كل التشابه بطرائق علماء الاخلاق العلمانيين ، بغية الاستماضة عنها بطريقة مرتكزة الى الايحاء لأنها اعظم فاعلية في الارجح . فان وعي الحالة الداخلية والدوافع والاسباب ، والضوء الملقى على الطبيعة ونتائج شتى المقررات المكنة ، والاختيار الحر الصادر عن عقسل نبر ، وكل ما كان متعلقاً بارادة انسان سيد نفسه ، قد ابدل بتوفيق لاواع بين الكائن بكليته وبين مشسال أنم النظر فيه ، بتغذية هذا المثال وتهذيبه للاوعي أو للوعي الغامض . وهكذا فان تحويل جوهر الفرد قسد خلف مقاومة الاعراض والظواهر .

حاءت مركزية الله المعرولية تتمة للنهضة المكاثوليكمة. وقد عرفت الانتشار رهبانية المبد بفضل رهبانية المعبد التي أسسها بيرول في السنة ١٦١١ وضمت كهنة عالمين فرض عليهم احياء حــالات يسوع المسيح الكهنوتية ، وهو د الكاهن الاسمى ، ، في انفسهم ، واعطاء المثل عن كهنوت كامل مقدس . وضع كهنة المعبد انفسهم تحت تصرف الاساقفة فقاموا عا انتظره منهم مؤسسهم . ونشر تلامذة بيرول روحه عِوْلفاتهم ايضاً (• ب . بورغوان ، ٠ وحقائق يسوع المسيح ومعاليه ، ١٦٣٦ ؛ و املوت ، وحياة الاب شارل دي كوندرن ، ١٦٤٣ ؟ د ج . ج . اوليه، وكتاب التعليم المسيحي للحياة الداخلية، ١٦٥٥) وبتحقيقاتهم. فان جان جاك اولىيه ، الذي كان ابناً لاحد كبار المباشرين في فرنسا ، وحفيداً لأحد التجار الجواخين ، ومنتسبا لعائلة ضمت العديد من رجال الشرع وارتقت الى طبقة النبلاء منذ خمسين سنة ، قد أسس ، في السنة ١٦٤١ ، اكليريكية سان - سولبيس . منذ السنة ١٦٥٠ ، غدت خورنية سان - سولېيس في باريس ، وهي خورنية بيرولية كلهـــا قدوة خورنيات اخرى كثيرة , ونافست كلمات جمعة المميد كلسات الآباء البسوعيين . وانتسب الى البيرولية فترة من الزمن كل من القديس و فنسان دي بول ، و و بوسويه ، و و سان – سيران ، نفسه . وكان هنالك يسوعيون بيروليون ايضاً . ولكن العداء مـــا لبث ان قام بين البيروليين واليسوعيين · لأن البيروليين ، الذين ساروا على خطى القديس أوغسطينيوس ، قد ناهضوا المولينيين وعطفوا على الجنسينيين مم انهم استرذلوا هرطقات الجنسينية .

> أثر البيردلية الشأمل

نزاهتهم ، وتحولت الى الله بفضل عاطفة بيرول الحارة ، قد محسَّصت الورع واوجدت في الكثيرين ؛ لا سيا في فرنسا ؛ احترام الله ومحبته المنزهة عن الفرض ، والتفاني في سييل القريب، ووسمت تقواهم وحياتهم بطابع من الوقار والحشمة وحققت فيهم وحدة الايمان والمواطف والاعسال ، وجعلت منهم مسيحيين حقيقيين . فتأثر القرن كا. بالبدولية . وكان لبيرول ، على ما يبدو ، تأثير كبير على ديكارت . وأدت البيرولية الى تعزيز الكلاسيكية . فان مشاهدة اعظم الاسرار سمواً قد اعطت البيروليين معنى العظمة الحقية والظهارة ، ونفرتهم من الفلاظة والتجبر ، فاسهموا في انتصار العقل والعفة والبساطة والطبعية. وقد لوحظت اوجه النشابه بين ادب البيروليين الفائق الطبيعة نحو الله وأدب المتكلمين في العالم ، بين تمابير بيرول وتعابير التكلف ، بـــين مركزية الله البيرولية ومركزية المرأة ، اي عبادة المتكلفين للمرأة . ويصعب التمييز هنا بين ما اذا كان هنالك تأثير متبادل او بادرة بجهود واحد سعياً وراء وحدة منظمة في نشاطات مختلفة . ومن هو الذي يستطيع ايضاح النتيجة المكنة ترسَّم السلطة المطلقة ؟ لا ريب في ان أثر اليسوعيين كان كبيراً عن طريق كلياتهم ومرشديم ، و لكن ربما كان أثر مركزية الله البيرولية اعظم شأنا وابعد عمقاً.

ان هذه الحركة التي انبثقت من رزامة البورجوازيين ومنطقهم وصلحق

ان الحركة المهاثلة للحركة البيرولية ، في اوساط بروتستانت الاقاليم المتحدة هي الغومارية . فالسينودس الدولي الذي انمقد في « دوردرخت » (١٦١٩) وهو اشبه بمجمع كلفيني عـــام ، جاء ردا على المجمع التريدنتيني ، قد اقر واشهر علنا مبادى الراعي « غومار » . فاذا بها ابعد نظريات الكلفينية عبوسة : عجز الانسان عجزاً كليا بدون نعمة ألله ؛ القدية باستحقاقات يسوع المسيح وحدها ؛ القول بالاختيار للمجد الساوي منذ الازل بقرار لا يدرك غوره يصدره الله الكلي القدرة . واضيف الى ذلك مثل ثيوقراطيــة تمارس بواسطة كنيسة ديموقراطية ، وادانة الرأسمالية ، الغ ..

٧ ـ الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية

المسوعيون والكلاسيكية السها . ومن جهة ثانية ، وجدت النزعات الكلاسيكية ، في التربية اليسوعيون والكلاسيكية ، في التربية اليسوعية ، الوسائل التي تعززها . هذبت الكليات اليسوعية عقول وقلوب العدد الاكبر مسن الاشراف الريفيين والاثرياء البورجوازيين في البلدان الكاثوليكية . فديكارت وكورناي و وبوردالو ، وكوليير و « اود » واولييه كانوا من تلامذتها . وسعى اليسوعيون وراء انتصار هوى معين في الفرد ، هو محبة الله . ولكن هذه الحبة يجب ان تنتصر بالارادة . ارادة الانسان حربة . اجل لقد فقد الانسان حربة التصرف بالخطيئة الاصلية : ولم تعد ارادته محررة مسن كل مقاومة تبديها الاهواء . ولكنه احتفظ بحربة الارادة : فباستطاعة ارادته ان ترفض او تقبل ما تعرضه الاهواء عليها . بتمتع الانسان بالعقل ، وهو القدرة التامة على تقدير قيمة افكاره على ضوء المعرفة الطبيعية . وفي أثناء مذاكرة داخلية ، يقترح المقل على الارادة ، بشكل مفاهيم مجردة وشاملة ، حلولاً تقبلها او ترفضها . وهكذا يستطيع الانسان ، حتى بدون النعمة ، تجنب الخطئة وتحقيق كاله .

اعد كل شيء في التعليم والتربية بحيث تحقق ارادة التلميذ انتصار ارادة الله في ذاته ، وبحيث يوت الانسان الصغير لنفسه ويتحول الى انسان جديد . ودُرب الولد والفتى على الركون الى الهدوء ، وتجنب التأثرات العنيفة ، كالحزن والجزع ، التي تشوش العقل وتضعفه ، واعتبار الاحداث المفمة وكأنها مرسلة من السهاء لخيرنا الاعظم ، والانصراف ابدا الى التأمل والاستجهام . وكانت فحوص الضمير ، الحاصة والعامة ، كثيرة جداً . فكان من الواجب الحساد بالنفس ، واستبطان الحياة الداخلية ، واستجلاء الرذائل والنقائص الاخلاقية والشهوات والافكار الاثيمة والميول السيئة ، والقاء نور ساطع على منبع الشر ، وما كان الحل من الخطايا ليعطي الابناء على تعويم اخلاقه .

نظمت كل الحياة المدرسية بغية خلق عادة اخضاع كافة النشاطات لارامر الضمير . فقرض

النظام الشديد ، في المكان والزمان ، كتهذيب يعود بالخير على العقل . واعتبرت الدقة في التقيد بالمواعد كتمرين للارادة يكبح جماح الهوى الفردي وجماح المخيلة ويروض الشهوانية . وتوجب التدرب على عمل ما يجب عمله ، لا عمل ما يرغب فيه الانسان.فرنة الجرس المؤذنة بالنهوض من النومانا هي صوت الله الذي ينادي ، والتقيد بالنظام ، انما هو واجب التلميذ الاول .

وحوفظ على التهذيب كاعلى النظام . فعظرت الصيحات والقهقهات والاحتدادات لأنها اعتبرت تخلياً عابراً عن السيطرة على النفس . واعتبر التهذيب زهر الحبة : ان المسيحي يفضُل الملك لأنه ابن الله . وكان من الواجب ملاطفة الآخرين واظهار الحبة بمبادرات المجاملة ، ولايتسامة .

لم تكن كل هذه الانظمة اذن كبحاً لجماح قوى داخلية ، بل توجيها . والمنافسة كانت مذهبا وطريقة . فقد استشنهض الشرف والعزة والطموح الى المجد، ولكن هدذه المفاهم حوات نحو تحصيل بحد القديسين و بحد القادة الظافرين في خدمة وطنهم والتضحية بالذات على مذبح الدولة . وهكذا فقد علمت الآداب الكلاسيكية بعد تكييفها وفاقاً للذوق العصري ، وأزيسل الفاسد من مؤلفات المؤلفين الدنيويين ثم فسرت تفسيراً مسيحياً . وحصر الانتباه في فضائل الانسان الاساسية : المدل ، الوفاء ، احترام الوعود ، الشجاعة . وفي الاعياد المدرسية ، دارت مواضيع التمثيليات والخطب حول التاريخ القومي : جان دارك ، استيلاء الصليبين عسلى أورشلم ، استيلاء بودوين على القسطنطينية ، سجايا ملوك فرنسا ، الخ . وهكذا فان المسيحية لم تدن غرائز الطبيعة العميقة ، وهي من صنع الله ، بل نظمتها ووفقت بينها .

ان هذه الميزات جميمها: توجيه الاهواء القوية واستخدامها بعد تنميتها تنمية مطردة ، الاهتام الشديد بالحياة الداخلية ، تشغل البال بما هو شامل وواضح ومتميز ، سيطرة العقال والارادة ، انما هي مميزات كلاسيكية . وقد اسهمت هذه التربية الدينية اليسوعية الطراز في انطلاقة الكلاسكية .

ان القواعد ليست الكلاسيكية ، مع ان اللبس بينها سهل الحصول. الكلاسيكية الادبية: افتخر الكلاسيكيون باحترام القواعيد واستخدموها . ولكن القواعد والكلاسيكية الكتاب الذين استميدوا لها كانوا ضعاياها ، وربيا خالفها كيار

الكلاسيكيين اكثر بما احترموها ، الا انها قد اسهمت في اضفاء بمض طباعهم على المؤلفات الكلاسيكية .وهي اسهام في مقاومة الازمة نهض به اناسكلفوا بالنظام الاجتاعي كلفهم بالادب، ولكنهم افتقروا الى القوة الحلاقة ، وهي ليست سوى مظهر خارجي وثانوي مسن مظاهر الكلاسكية .

أما منشأها فيعود الى تبني ارسطاطاليسية اصحاب النظريات الفنيسة من الايطاليين المولمين بالنن الشعرى، من قبل الجيل الذي رأى النور حوالي السنة ١٦٠٠ واقضت مضجمه الحاجة الى الوحدة . ويعود الفضل الاكبر فيها ؛ في فرنسا ؛ الى شابلين (١٥٩٥ -- ١٦٧٤) . فعمل بهذه القواعد بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ؛ ثم الهملت بعض الاحمال ابان اضطرابات منتصف القرست الى ان عمل بها مجدداً بين السنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ .

على العقل ان يراقب الفن ويبرر القواعد ويمنع الخرافات المخيلة ؛ القوة الدنيا المشتركة بين الانسان والحيوان . العقل ثابت وشامل ومسلم به في كل زمان ومكان . والدُّوق السليم هـــو المقل في وظيفته النقدية . المقل يملي على الفن غايته . وغايته تهذيبية : تنقيـــة الاهواء وتوفير الامثلة الصالحة والحسُنكم الفراء . والعقل يملي قواعد من شأنها اتاحة خلق الجال وايقاظ التأثيرات والمواطف المترخاة . قاعدة استخدام الطبيعة : ولكن الواجب يقضي بالنسج عسلى منوال طبيعة مثالية وانتقاء المميزات الواجبة الحفظ في الطبيعة الخام ، وابرازها وتنظيمها ، وبالنسج بصورة خاصة على متوال الطبيعة البشرية ٬ أجمل الطبائع طراً. قاعدة تقفشي القدمـــاء٬ لانهم يصفون في مؤلفاتهم الطبيعة المثالية دونها نقص والتباس . ومن الصواب على كل حال أن لا ننقل عن القدماء ألا ما يمكن تطبيقه على الزمن الذي نحن فيه . قاعدة الاحتال المقسلي ، وقياسها الرأي المشترك ، تنتهي الى ما يجري اعتياديا . قاعدة اللياقة : الامتناع عن الجمع بين الجسم وعرض الاخلاق البربرية والمستهجنة ، والقديمة . يجب الاعتدال في عرض ما هو مدهش وعجيب واقصاء الاعمال السحرية والمعجزات المسيحية . ويجب التقيد بوحدة - الموضــــوع ، أي وصف · موضوع تام واحد لا يمكن انقاص اي من أجزائه دون تفكيك الاجزاء الاخســـرى . ويجب التعيد تقيداً صارماً بوحدة الزمان والمسكان . فلا يجوز ان تمثل المسرحية احداثاً تستغرق اكثر من دورة شمسة ، وقصة تمتد إلى اكثر من سنة وقصة راعوية غنائية تدوم اكثر مسن ساعة . ولا يجوز اخيرا ان تتشابك الالوان ، المأساة والتمثيلية الحزنة المضحكة والمهزلة ، والقصيدة الجدية - الهزلية ، والقصة ، والشمر الراعوي والشمر الغنائي والشمر الهجائي : أن لكل من هذه الالوان نمطأ مثالياً يجب التقيد به .

حاول الفنانون الكلاسيكيون العمل بمقتضى هذه القواعد لانها سارت ومسعام نحو الوحدة في اتجاه واحد ، ولكنهم خالفوها مراراً كثيرة فتناولهم النقد العنيف ولعلها ادّت لهم خدمات جلى كصعوبة اضافية وجب التغلب عليها ، فالفنان الحقيقي انها يبحث عن المسادة الصلاة التي ترغمه على تركيز قواه ، ولكن القواعد ليست الكلاسيكية ، فالكلاسيكية حياة هي

انتجت الكلاسيكية خير ما انتجت في فرنسا . وقد حسدها و ماليرب ، وللمسلاميكية وديكارت في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الى الوجود بفضل الجبهود الحلاق الذي حققه كورناي وبلزاك وباسكال وراسين وموليع وبوالو .

ان الكلاسيكية من في الدرجة الاولى قوة داخلية ، وثبة حيوية ، ثورة أهواه ، حاجة

الى توفير القوة ، والى الانتاج والخلق . اذا كان الكلاسيكي اقل قوة ، فقد يفدو مستهجناً يسهولة كا يشاهد ذلك في مؤلفات ماليرب و كورناي وبوستويه في مراحل فتورهم وتكاسلهم . فحين يتفافل ذهن ماليرب نراه ينفخ الواقع ويشوهه ويفخمه ويضخمه كا فعل روبنس واذا كانت رحلة ماري دي مديسيس، والصيرفية الكبرى ، من توسكانا الى مرسيليا ، رحلة طويلة وشاقة فرد ذلك الى ان نبتون (اله البحر) الذي اصيب بسسم الحب قد اراد الاحتفاظ بها في امبراطوريته . وحين تعدود و شارلوت دي مونمورنسي ، الى البلاط ، يقسول بلسان هنري الرابع :

د لقد عادت هذه الكواكب المعبودة التي يستمد اوقيانسي مدّه وجزره منها ،

ولكن قوى الكلاسيكية الداخلية ، اكبر من ان تبقى في اجواء الجلبة . فان قدرتها تتبع لها ان تجمل من الهدى حمة متلظية عن طريق المشاهدة في السكون الداخلي والتمقل الذي يربط بهذا الهوى شتى انواع البواعث . الهوى المسيطر يتغذى بغيره من الاهواء وينظمها . هذا هو مصدر المميزات الاساسية للولف الكلاسيكي . فهو في الدرجة الاولى تركيز قوى . الكلاسيكي لا يضعف قدرته الداخلية بل يوجهها . يغني بمض الاهواء خوراً ويضعف بعضها الآخر بغيسة تحويل قوتها الى الهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يجعل من الاهواء الثانوية خدمساً المهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يجعل من الاهواء الثانوية خدمساً المهوى .

من هنا تنبع الوسائل التي تستطيع تحقيق تركيز القوى ومن ثم مضاعفة الحياة الكلاسيكية علم سنن جمال الوحدة . والمؤلف الكلاسيكي ، كا كتب ديسكارت الى بلزاك في والرسالة اللاتينية» (١٩٢٧) ، هو جهاز عضوي ، كل تابض بالحياة ، ترقيط جزئياته بالجموع ويتوجب على كل قسم من أقسامه وكل عنصر من عناصره التعاضد في سبيل بلوغ الفساية المنشودة ، اعني بها التأثير الواجب خلقه والحقيقة الواجب اثباتها . هكذا يتم وضع المؤلف . وهو ينطوني على منطق داخلي ليس رقة كلام مدرسية بل اكتشافا لنظام عميق وطبيعي في الاشياء وفي تركيبها الداخلي وعلائقها الشاملة والضرورية يعبر عنه بفكرة عامة تتفرع عنها الفكر الثانوية ، فيحظر من ثم الحروج عن الموضوع وغمر الجوهر بتفاصيل لا طائل تحتها . يجب التوسع في ما هو جاف حداً ؛ وتخفيف ما يكون كثيفا وملتفا . ويجب ان يبرز المؤلف تقدماً تدريجياً منتظماً يظهر في الانتقال من بر عب اقساء ما هو تقربي ، وما هو غير متلاحم ، والبرهان الرهسل ، والوقائم التي ترتبط ارتباطاً سيئا بالجموع ، والاستدلالات التي ليست نتائج طبيعية للوقائس وعب ان تكون اللغة مهذبة وجلية وصحيحة .

الكلاسيكية حقيقة سامية . القوي يريد ما هو كائن ، نيتشه احب القرن السابع عشر ، الكلاسيكي يريد في الدرجة الاولى ، وفي كل شيء ، ما هو حقيقي ، لا واقع الظواهر ، بسل

الحقيقة العميقة ، حقيقة مصادر الاهواء ، حقيقة علل الكون. هذا ما يفسر حرصه على النظام الذي هو التعبير عن النظام العميق في الاشياء . وهــذا ما يفسر الحرص على التحليل الداخلي والهمة في استبطان ادق انواع العواطف والاهواء والارتقاء الى اسبابها الحفية . وهذا ما يفسسر السعي وراء ما هو شامل وازلي ، اي اعمق ما هو حقيقي ، الذي يستحيل التعبير عنـــه اذا لم نبلغ المتناسق والنبل والعظمة والاتقان والانجاز والكمال.وهذا ما يفسر تجنب الغلاظة المضحكة يفسر النفور من الجمازات الشعرية . ففي ﴿ رَسَالُتُ ۚ الْأُولَى إِلَى الْمُلُّكُ ﴾ اظهر ﴿ رَيْنِينَهُ ﴾ فرنسا توجه من أعلى الطبقات الهوائية ، خطبة إلى الثائرين ، فسأل ماليرب عن زمن حدوث ذلك : فهو قد يقي في فرنسا منذ خمسين سنة ولم يلاحظ قط انها ارتفعت من مكانها . وهذا مــا يفسر الحشمة في التعبير. فالكلاسيكي يبحث عن الكلمة التي تنطبق انطباقاً كلياً على الواقع دون ان تشوهه أو تضيف شيئًا اليه . لا بل يفضل البقاء دون الواقسيع والاشارة اليه اشارة فقط خوفًا من ان يجسمه . لذلك يجب البحث ابدًا عن الكُّلاسيكي ورآء تعبيره . وهذا مــــا يفسر اخيرًا الحاجة الى الوضوح ، لأن الابهام لا يسمح بمعرفة ما اذا كنا على صواب أو على ضلال . المهم قد يكون حقيقياً مثل الواضح، ولكننا لا نستطيع التثبت من ذلك . الكلاسيكي يبذل ما بوسعه حتى يأتي فكره قريب المنال مباشرة ودون جهد . لذلك يتجنب اللبس والاضمار والتحريف والمفردات النادرة أو الغامضة والكلمات الماتة والتعابير الفنية . فان مـــا أراده « ماليرب » ، حين طالب بحالي « بور اوفوان » لاسياده ، لم يكن سوى رفض التعابير الصعبة ، لان اسياده كانوا في قاعات استقبال البرلمانيين ، في قصر « رامبويه ، وفي البلاط . الكلاسيكي يريد لغة جلية ، كلمة واحدة لفكرة واحدة ومعنى واحداً لكلمة واحدة. انه يبسُّط ويوحد ويحدد معنى الكلمات وتراكس الجل .

ان الكلاسيكية والحالة هذه حياة عميقة القرار . ولا عجب من ثم اذا ما ازدرى الفنانون بالقواعد الضيقة والمفصلة التي لا تستجيب لفاية المؤلف الكلاسيكي . فهم لا يسلمون الا ببعض القواعد الكبرى العامة التي تفرضها طبيعة الأشياء ويقبل بها العقل البشري . وهم محدثون دونما وجل . يرفضون سلطة الاقدمين ويعجبون بهم ويتذوقونهم في آن واحد ، ولكنهم لا يريدون منهم سوى الروح الحيية ، لا الصيغ ، وجوهر مؤلفاتهم ، لا طرائقهم . الكلاسيكيون يبتغون الحرية ، ويهتمون في الدرجة الاولى للارضاء ، لان المطلوب هو ارضاء عالم محدود من الهواة في البلاط والمذينة الذين يعيشون الكلاسيكية ؛ فيغدو الاركان حينذاك الى ذوقهم وحكهم، والى روحهم الرقيقة بالتفضيل على روح النقادين الهندسية ، اكبر ضمانة لهم ، و القاعدة الحبرى بين روحهم الرقيقة بالتفضيل على روح النقادين الهندسية ، اكبر ضمانة لهم ، و القاعدة الحبرى بين الشخاصا اخياء خلقا ثانيك . كا ان هواهم المركز يميني في ذاتهم صور وعواطف اولئك الذين يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية ، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية ، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية ، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون

ككل فرد منهم مداورة . اضف الى ذلك ان مبدأم في الوحدة هو نفسه مبدأ الحياة . وليس من حياة دون مبدأ تنظيم الكائن الحي . فان اوغسطوس واغنيس و « هرباغون » و « فيدر » يحون حياة ازلية وشاملة .

ان هذه الميزات الاساسية توجد في الفن ايضاً. فلننظر الى بوسين (١٥٩٤ - الكلاسيكية في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ؟ في الفن الكلاسيكي في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ؟ حلل المجمم الملكى للتصوير لوحاته في اجتاعات خاصة عقدت لهذه الغاية كا

يفعل اللاهوتيون في تحليل نص مقدس . كان زبنه من بسين الاشراف والبورجوازين: الملك لويس الثالث عشر الذي كان بوسين رسامه الاول (١٦٤١ – ١٦٤٢) ، الدوق دي ريشليو ، المدوق د دي كريكي ،، رئيس المحاسبة د باشار ، ؛ ناظر المالية د موروا ، الصير في الباريسي، بوانتيل ، التاجران الليونيان د سيريبيه ، و د رينر ، ولكن زبن هذا الفرنسي ، الذي قام في روما منذ السنة ١٦٢٤ كانوا من غير الفرنسيين ايضاً : البابا اوربانوس الثامن ، آل بربريني ، صاحب المقام الرفيع د كاسيانو دل بوزو ، الكردينال مسيمي . وأما لوحاته المعدة للدور الجامة فوسيلة ثقافة المعلل .

كان شهوانياً تميز بالرغائب المنيفة ، المتنوعة ، المتناقضة . استهواه المري اللحم الجميل . حسد حورياته وآلهاته يعبق لذة وتنعما . احب الطبيعة . ففي لوحاته ، التي بانت قاتمة جدا ، يرى النظر تأجم إلافتى عند مغيب الشمس تأجماً بطيئاً يتميز بانواره المنعكسه الصهباء . ولو استسلم الى ميوله ، لانتهى حتماً الى الاستهجان .

ولكنه يركز قواه . فهو ينشد الحقيقة اولاً . ويعرف ان طريق الوصول اليها هي الانطلاق من الطواهر . يجمع معاوماته بضبط كلي . في السنة ١٦٣٨ ، اكتشفت فسيفساء و بالسترينا ، التي تمثل الاحتفالات المصرية . فعمد اذ ذاك ، وهي المرة الاولى والاخيرة في حياته ، الماحتذاء مثالها ، صور كل تفاصيلها ثم استنسخ هذا أو ذاك منها في لوحاته استنساخاً لا يتميز عن الأصل وكأنه عالم آثار ينشر مكتشفاته . قاس ابعاد تمثال و انتينووس » وتماثيسل يونانية شهيرة اخرى ليستوحي نسبها الصحيحة . استضاء بنور التاريخ ، فوجسد في مؤلفات و بلوتارك » التاريخ الصحيح لوفاة و فوسيون » أي ١٩ مونيخيون . وعلق بذاكرته ان الفرسان نظموا يومذاك تطوافاً اكراماً له و زفس » . فأدخل من ثم ، في و مأتم فوسيون » ، موكب نزهسة الفرسان بين الاشجار البعيدة تحت اسوار اثينا . وهو » على غرار الكلاسيكين » لا يقبل بالكذب ، و هؤلاء الشهراء يتقيدون بنظام اشبه بنظام العلماء » .

بيد ان بوسين ؛ وشأنه في ذلك شأن الاوغسطينيين وديكارت وكافة الكلاسيكيين، يتخطى المطواهر ويجد في أثر المنطق المداخلي والمطابقات العميقة والنسب الضرورية وسنن الكون ، الى ان يصل من بعدها الى مبدئها المشترك . « ان الفتيات الحسناوات اللواتي يمررن في شوارع «نم»

لسن دون جال اعمدة والبيت المربع ، بهجة المقل لان الاعمدة ليست سوى صور قديمة المقتيات ، فهو لا يستنسخ لحب ، بل يلاحظ . ينظر الى الاشياء بقوة ويكثر من الملاحظات حول الابعاد والاشكال والالوان . ثم يترك الحس يتحول الى تثيل ، والصور تتبسط وتتوحد ، والعنصر الاساسي ينبثني وينبعث . حينذاك ، وحينذاك فقط، يستلهم الصورة الداخلية ويرسم رسوماً اعدادية يبحث فيها لا عن بجرد التشابه بل عن النسبة العميقة . اضف الى ذلك انه يهم في المدرجة الأولى للانسان الداخلي ويبرز العواطف بجلسات الاجمام ويعبر عسن التحاليل السيكولوجية بالاشارات . ويؤنس المناظر الريفية حيث ترتدي الاشجار طابع الاعمدة .

يركز ويوحد ، شأن كل كلاسيكي . ان التصوير ، في رأيه ، هو قبل كل شيء البسات وجود ارادة انسانية . و لا يجوز ان ترسم يد الانسان خطا واحداً لم يتكون في عقله من قبل » . فبوسين يتجنب كل ذكرى وكل تقليد وحتى تقليد نفسه : يجب ان نخلق لا ان نعيد . ينضج موضوعه على مهل في ذهنه . يبحث اولا عن و فكرة ، اللوحة ، عن معنى ما يصور . ثم يترك جلبة الصور الداخلية تهدأ وتسكن الى ان تتراءى له كل النسب ونتائج الفكرة التي ينطلسق منها . ينظم موضوعه بحسب المنطق الداخلي الذي يقتضيه اخضاع الاجزاء الفكرة المامة والتفاصيل للجموع . ثم يقذف بما صقفه في الداخل الى الخارج كا يغمل ديكارت في حقل العلم! . وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط ويماكسها ويضعفها . كل شيء عنده مصدر اختيار مملل بغية بلوغ الخلوص والصفاء . فلوحته و العلوفان ، هي تصوير الصلاة المرفوضة ويأس الانسانية المهملة : الذراعان المرفوعان في حركة المعلتي يعبران عن الصلاة المرفوضة ويأس الانسانية المهملة : الذراعان المرفوعان أرماد الاربد العابس ، بدلاً من تساقط المطر الطبيعي بالوانه اللامعة ، واخدود الوميض الشاحب كل ذلك دليل غياب ورفض اجابة : ما عاد الله ليمرف الانسان .

يتميز بكل ما يتميز به الكلاسيكي . فهو ملي الحياة ، يهتم ابداً للارضاء ، ولا يسهى عن بالله البنة ان غاية التصوير هي و الاستمتاع ، التنعم بالضوء والاشكال . خبئا في لوحاته كنوزاً سيكولوجية صحيحة . تحلى بحشمة التعبير . قد تبدو لوحاته ، في الوهلة الاولى ، جامدة ومعتمة : ولحكن لننممن النظر : كل ما فيها يحيا ويشتعل ويهتز كما لو كان التصوير يحتوي على و المطلق ، الحي .

الكلاسيكية حياة . فهى لا تستلزم من ثم مفهوم جمال واسلوبا للبحث عن الخير الكلاسيكية عن الحقيقة فحسب ، بل فكرة عن الخير ووسائل صنعه ايضاً . ولذلك قان علم الجمال بشمل منطقا وعلم اخلاق ايضاً .

ان منطلق الاخلاق الكلاسيكية هو في ابتفاء القوة ، التي يريدها الكلاسيكي قوة كليــة .

فالكلاسكي يريد ان يكون حراً ، اي ذا قلب لا تجد تعديات الغير وسهام القدر والاخفاقات والحوف من الموت الى قلبه سبيلا . يريد ان يكون متفوقا . لا يريد ان يخضع الا لقراره الخاص ولحكه على قيمة الاشياء . فالكلاسيكي من ثم ينكش على نفسه ويركز انتباهه الى اهوائسه والافعال التي تقترحها على ارادته ، ويصدر احكاماً حازمة وعددة على هذه وتلك وعلى قيمتها بالنسبة لارادته . ويقابل في حوار داخلي بين الدوافع والمبررات والنتائج . ويقرر الاختيار عكم يعين ما هو صالح ومرغوب فيه . ويصوغ حكه مبادىء واضحة رزينة معدة لان توجه كل الاهواء نحو ما حكم هو بصلاحه . قد يسيء المسكلسيكي الاختيار وقد يخطىء في حكمه ، فيتدفع اذ ذاك نحو الجرية . ولكن مبدأ الاخلاق هو في التقيد بالحكم . ومرد ذلك ، في حال اتضاح بطلان الحكم ، الى ان الموضوع ينقلب او يتحول ، كا حسدت لاوغسطس و وسننا ، و و اميليا ، وفي تصميمه هذا عسلى فعل كل الاشياء الفضلى ، بجد الكلاسيكي سعادته العصوى :

ايها الحظ ، مهما تكن الشرور التي يوجهها جفاؤك الي فقد اهتديت الى وسيلة لاستخلاص البهجة منها .

(هوراس)

ان هذا التصميم الحازم الثابت على العمل بوحي حرية الارادة ، هو الفضيلة السامية ، النجابة المنبثقة من تفوق قوة البطل ؟ النجيب . القوة الداخلية تدفع بالنجيب لان يخرج من ذاته ويهب نفسه ويحب. ويحب النجيب في الآخرين ويويدفي الآخرين قبل اي شيء آخر ، خير ما عندم ، اي **بجابتهم الخاصة ، وحرية ارادتهم الخاصة ، ويسمو بمحبته شيثًا فشيئًا نحو والكائن، الواحد المطلق** الحرية المطلق النجابة اعني به الله . وتنتهي الاخلاق الكلاسيكية الى اخلاق عبة وانعتاق اكانرى ذلك في التدرج الجميل الذي يقود من الـ « سيد ، ، عن طريق ، هوراس ، و د سنًّا ، الى دبوليكت ، . الواجب يقود السيد الى قتل والد خطيبته ، ويقود مسذه الاخيرة الى المطالبة بموت من تحب ، وكل ذلك بوحى نخوة بطولية ترفض الضعف وتضن بكرامة العائلة : الفضيلة هنا هي هبــة الذات حتى الموت في سبيل ما يعتبر خيراً . ثم يحقق هوراس تقدماً الى الامام . ينقطع بكليته لدولته ، لاستقلالها ، لسلامتها ، لعظمتها ، ومن ثم لحرية مواطنيه الجماعية. وهو لا يخيا الا في ـ صبيل الدولة ؛ ولكنه يقدم فرحاً ؛ بوحي ذلك ؛ على قتل ثلاثة اشخاص يحبهم . ثم يحتق اوغسطس تقدماً آخر ايضاً . يريد أن يسيطر في نفسه ، نهائياً ، على الخوف والانتقام . لا يريد الانتصار الابفعل حرية وعبة متفوقتين ، يريد ان يوقظ ، في سنّا وفي اميليا ، عبة الخير الحقيقي والمنافسة ، اي الرغبة في ان يصبحا نظيريه .ويستسلم و بوليكت ، اخيراً بمل ارادته الى الله ؟ الكائن الكامل ؟ الذي يوفر للانسان النجيب ؛ اكثر من المرأة والوطن والانسانية ؟ موجبات الخدمة والتفوق على النفس وتناسى الذات . الحبة الالهية تحوَّل نفسه . بولين تخضع

لسلطتها ، فتتخلى عن محبة و ساويروس ، وتندفع في محبة بوليكت لانه يجسد المشل الاعلى الذي كانت بهواه وتبحث عنه ، ولانهسا تراه كالمتوخى هي ان تكون ، وبوليكتي ... ، : فبوليكت هو هي لانه كما تتوخى ان تكون .وصور كورناي البشر كا يستطيمون ان يكونوا ، كا يكونون ، عندما يصممون بشجاعة على ان يكونوا بشرا ، .

انطلق الكلاسيكي من الاخلاق الارستوقراطية والبطولية؛ ولكنه تمنق فيها واندفع نحو الحقيقة السامية بغمل القوة الداخلية. فتوصل الى اخلاق كافة البشر مها كانت طبقتهم وجنسهم وزمانهم وبلادهم ، الى الاخلاق المطلقة الحقيقية ، النابعة من اعمق ما في الانسان الذي تتمتع حرية ارادته بقوة لا حدود لها ، الى الاخلاق الانسانية .

٣ ـ الكرتزيانية (الديكارتية)

ابتكر ديكارت المذهب الاجمالي والعلم الشامل الضروريين لاجهاز هزيمة الارسطاطاليسية بالحلول محلها . ولد في فرنسا والتسب لمائلة بورجوازية كانت في طريقها الصاعدة نحو طبقة الاشراف. كان اجداده منجهة ابيه اطباء وابوه مستشاراً في برلمان بريتانيا ، ووائد جده من جهة امه وكيلا عاماً لحكمة بداية « بواتيه » . طمعوا كلهم بان يصبحوا فرسانا وغالبا ما اعلن ديكارت انه احد اشراف بواتو الريفيين . تلقى تهذيب طبقة الاشراف في كلية « لافليش » للآباء اليسوعيين . وبعسد ان تلقى بعض الدروس طبقة الاشراف في كلية « لافليش » للآباء اليسوعيين . وبعسد ان تلقى بعض الدروس وفي جيش « موريس دي ناسو » في السنة ١٦٦٨ »

منذ هذا العهد ، وعلى غرار غاليليو ، أخذ يعالج العادم الطبيعية بالرياضيات ، وفي تشرين الثاني من السنة ١٦١٨ ابعد صورة الثقل الجوهرية ورد الثقل الى الحركة . ومنسذ سنة ١٦١٩ – ١٦٢٠ كان قد وضع أسس عاومه الطبيعية في منهجه وفي ذهنه وردها المادة ضمناً الى المساحة فقط . ولكنه مثان كل معاصريه ، لم يتوصل بذلك الا الى مزيد من الشك والارتياب والتشويش . الا انه كان انسانا متديناً جداً ، فبدا له ان هذا الوضع اثقل من اس يطاق . فانصرف الى التأمل ، في أحد المسكرات الشتوية ، في جوار ، اولم » ، بعسد تتويج الامبراطور . ورأى هنالك ، في العاشر من تشرين الثاني ١٦٦٩ ثلاث رؤى في منامه . سمع ازيز الصاعقة فأفاق من فوسسه ورأى شرارات نارية منتشرة في الغرفة . ففسرها بانها روح الحقيقة النازلة عليه لتتسلط عليه . ثم رأى ، مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معا لان حمية الشاعر هي عليه . شم رأى ، مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معا لان حمية الشاعر هي فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظهرها العقل المغيلسوف . في بحران الصوفية همذا ، فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظهرها العقل المغيلسوف . في بحران الصوفية ، خلق السلم بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي الكون . في اليوم الشامل بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي المكون . في اليوم

التالي توسل الى الله كي ينيره ويرشده في البحث عن الحقيقة ، ونذر على نفسه للمذراء القديسة ان يزور و لوريت ، سيرًا على الأقدام .

في السنوات التالية ، وضع أسس منطقه وعلومه الطبيعية الرياضية . ولكن توجب عليه تبرير هذا العلم الجديد ، وفي الوقت نفسه ، وضع أسس اليقين والايمان بالله . يروى انه قصد القاصد الرسولي في باريس في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٢٧ ، وطلع أمام بيرول بآراه لغتت انتباه هذا الاخير ، وان بيرول انذره بتنفيذ مشروعه وجعل له من هذا التنفيذ واجباً ضميرياً . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان ديكارت كان منتمياً الى الحركة الاوغسطينية . وكان بيرول ، وتلميذه و جيبيوف ، و وسيلون ، في ما كتب بين السنة ١٦٢٦ والسنة ١٦٣٣ ، قد ومرسين ، اخلص اصدقاء ديكارت منذ صدور و مسائل حول التكوين ، في السنة ١٦٢٣ ، قد تبنوا رأي افلاطون في المثل المطبوعة لانه اضمن وسيلة لاثبات وجود الله . فانضم ديكارت اذن الم جماعة لن يلبث ان يستلم قيادتها . انطوت الكرتزيانية على حركة صوفية كما حدث المحركة البيثاغورية من قبل . السبيل الى وضع اسس علم جديد شامل هو محبة المطلق وروح المفامرة والشيف والحرارة في البحث ، والقلق ، والتمطش الى الجدة ، وهي جميزات كبار الصوفيين فالصوفية التي تقول بمركزية الله والمصرة بانها المصدر نفسه فالصوفية التي تقول بمركزية الله والمصرة بانها .

في السنة ١٦٢٥ ألسف ديكارت لمنفعته الخاصة كتاب وقواعد توجيه المقل ، ثم لجأ الى هولندا حيث أقام من قبل ، ليتمكن من انجاز عمله الكبير، وجد في هذه البلاد الرأسمالية الحريات التي تؤمنها بورجوازية تدين بها « في وسط جمساهير شعب كبير قوي نشيط يهتم لشؤونه الخاصة فوق اهتامه لشؤون النير » استطاع ، العيش في عزلة واختسلاء لا يتوفران الا في الصحاري النائية » . ومنذ السنة ١٦٢٩ ، حرر فيها « التأملات » التي تنضمن أسس تعليمه حول ما وراء الطمعة .

لم يبق ديكارت ؛ شأن ﴿ مُونتَانِي ﴾ والملحدين ؛ في حالة رخية منالارتياب.

فكهاكان يشتبه بسوء مقاصد الملاحين الذين ينقلونه ويستل سيفه ويواجسه

مدف دیکارت احداث علم سام

الخطر الذي يستشفه ويخضمهم لارادته ، نرى هذا الجندي الذي لا يتنازل عن نبله الريفي يواجه اكبر المسؤوليات الفكرية والاخلاقية وينقض على الصعوبة . يستخدم الشك محكا ويذهب به الى اقصى حدوده حتى يرى ما اذا كان كل ما بناه سينهار أو سيبقى منه بعض اليقين الذي يتبح الحياة . فانما هدفه العمل ، اي و المعرفة الواضحة الثابتة لكل ما هو نافع للحياة » . وهو يريد ذلك للجميع كا لنفسه . ولما كان نجيباً ، فهو يعمل لكل الناس حيث نرى الملحدين الارتبابيين المزدرين بالجاهير والمهتمين لانفسهم فقط يثنون كفهم على الحقائق التي يمتقدون بانهم اكتشفوها لانهم اعتبروا انفسهم المؤهلين الوحيدين التمتع بها . وقد كرس ديكارت

كل حياته في سميه وراء الحقيقة زاهداً في الثروة والمراتب الرفيعة وكل شيء ، بجابها العقبات والمحاولات الظاهرة والمداوات . فقضى حياته كلها في هذه المطاردة : فاما الاهتداء الى اليقين والله ، واما كارثة الظلمة والعدم ، اماكل شيء واما لا شيء . ان هذا الانسان لعظيم بعقله بين المظياء ، ولمله اعظم بقلبه ايضاً . وقد احرز نجاحاً راثماً بتوصيله الى ان يسمو مثل الشريف الريفي الاعلى ، حتى البطولة ، بالميل البورجوازي الى المعرفة العملية وبالعناد البورجوازي في السعي وراء النجاح .

و الخامس من حزيران ١٩٣٧ ، صدر عن مطابع و جان مير » ، في مولفات ديكارت و ليدن » ، كتابه و خطاب حول اسلوب توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يضاف اليه بحث انكسار النور ، والنيازك ، والهندسة ، التي هي اختبارات لهنا الاسلوب » ، الذي يقع في ١٩٥ صفحة . أما الخطاب فقدمة بشكل اعترافات على طريقة القديس اوغسطينس . وقد دان للمحاولات العلمية الثلاث بشهرته الواسعة وبأثره ، لأن ديكارت على نقيض و بيكون » قد قدم العلم الذي بشر به واسلوبه قد اوجز استخدامه ، والتطبيق الحسي قد أتاح ادراك المعنى الحقيقي والعميق القواعد التي صاغها صياغة على بعض الابتذال . وانه لمشين حقا ان يعاد طبع الخطاب ، في ايامنا ، دور الاختبارات . فالخطاب ، مسع الاختبارات ، فالخطاب ، مسع الاختبارات ، يتضمن جوهر آراء ديكارت . وهو قد اوضحها واكملها في كيان و تأملات حول ما وراء الطبيعة (۱) و (١٦٤١) و كتاب و المبادىء » المسد لطلاب المدارس و كتاب و اهواء ما وراء الطبيعة (۱) و النها رسائل وافرة تلفت الانتباه من بينها تلك الموجهة الى و اليزابت دي بوهيم » .

ان ديكارت مصمم على انجاز العمل الذي تراجع أمامه غاليليو: الارتقاء إلى العلم النامل المنامل المبادىء الاولى للعلم الجديد ، العلوم الطبيعية الرياضية ، واستخلاص علم شامل منها: الفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها علم ما وراء الطبيعة ، وجذعها العلوم الطبيعية ، واغصانها المتفرعة من هذا الجذع كافة العلوم الاخرى التي ترد الى ثلاثة علوم رئيسية : الطب ، وعلم الاخلاق .

اسلوبه هو جوهر التفكير الرياضي . على الذهن ان يدرك الحقيقة بالحدس الذي الاسلوب هو ادراك ذهن صريح ويقظ ، لا يحققه سوى نور المقل ، ولا يبقى معه اي ارتياب لأنه ادراك يتصف بالمزيد من السهولة والثميز والجلاء . أما نموذج هذه الآراء الواضحة فهو الآراء الرياضية من هذا الحدس يستخلص الذهن النتائج بالضرورة ، وعن طريق الاستدلال، في حركة تفكير متواصلة مرتقياً ، بحسب المقل الرياضي، من ابسط الأشياء الى اكثر التركيبات تمقيداً . ولا يلجأ الى التعداد أو الاستقراء ، اي البحث عن كل ما يتعلق بمالة معينة ، الا اذا

⁽١) فأملات ميتافيزيقية، تأليف رنيه ديكارت.صدرت في منشورات عويدات بالنصين الفرنسي والعربي. (الناشر)

استحال رد معرفة ما الى الحدس . فالقضايا المستدل بعضها مباشرة من البعض الآخر ترد ، عند كل خطوة ، الى استقراء حقيقي اذا كان الاستخلاص جلياً . أما اذا كان الاستخلاص انطلاقياً من عدد كبير من القضايا المنفصلة ، فلا يعود الادراك كافياً للاحاطة بها مجدس واحد . ويصبح التعداد ، آنذاك ، امراً واجباً . ثم ينشىء الذهن ، بين الاشياء الخاصة ، علائق ذات نسب واضحة ، ويقارن هذه الملائق احداها بالاخرى ، وينظمها فنان مجسب ترتيب انشائها ، مجيث ترتيط كل منها بسابقتها وتعين لاحقتها .

ديكارت يبحث عن يقين . فيرى نفسه محاصراً بالشكوك . كان طفلا قبل ان يصبح رجلا . مهذبوه حشوا منه الرأس بالفاهيم الفامضة . وتراكمت لديه مفاهيم اخرى عن طريق الحواس . ولكنه اختبر ان حواسه تخدعه أحياناً ، فلا يستطيع من ثم ان يركن اليها . فيلجأ مرخماً حينذاك الى عملية يتوجب على كل انسان اجراؤها مر"ة في حياته : الشك في كل شيء الى ان يصادف شيئاً لا يرقى اليه الشك . وهكذا يستند ، عند الانطلاق ، الى تأكيد تفاؤلي : قيمة العقل البشري كمحك لما هو حقيقي . لانه لو توصل جدلاً الى ان كل الأشياء مشكوك فيها ، لما كان توصل الى ذلك الا بالنسبة لشيء غير مشكوك فيه ، ولما كان علم بان كل شيء مشكوك فيه ، الا لأن كل شيء لا ينطوي على عيزات ما هنو حقيقي . لذلك فانه يقر ، كبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تلميذ فانه يقر ، كبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تلميذ السوعيين هذا يثقي بالانسان كما يثقون ،

ديكارت يشك في كل شيء . فغرفته وطاولته ومصباحه : حلم ؟ ويداه وذراعاه وجسمه : اوهام . لا وجود لشيء وليست كل الأشياء سوى طيف يبتكره جن خسداع . ولكنه اذا شك ؟ وانكر وجود كل شيء ، وأصدر حكا ، وكونت قوة ادراكه فكراً وانكرت ارادته وجود هذا الفكر كشيء خارج عن ذاته ، فمن الضروري الطبيعي ان يكون هو ، وهو مسن يفكر ويتصور ويؤكد وينفي ويريد ولا يربد ويتغيل ويحس ، موجوداً . و افكر ، اذن الم موجود » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً توفر كبراه ، اي و كل ما يفكر موجود » ، موجرد » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً توفر كبراه ، اي و كل ما يفكر موجود » وتتبعة جردة الكائنات المفكرة ؟ وصفراه ، أي و انا افكر » ، تحقق الفكر في الفرد ديكارت ؛ ونتيجة الطبيعية ، هي توقع (حدس) وجود ارتباط لا يرقى اليه الشك ، بين هذين الواقعين : افكر ، وانا موجود . بالفعل نفسه ، وفي الوقت الذي يتوصل فيه الى حقيقة يستحيسل الشك فيها ، وكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء بكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء الكل اكبر من الجزء ، الخ . فيجب من ثم ان ينطلق من الداخل الى الحارج ، من الذمن الى الخارج ، من الذمن الى الأداء .

الافكار المطبوعة الله ضمسانة العسلم

تؤلف الارادة بواسطته بين توقعات قوة الادراك . ولكن هنالك افكاراً اخرى، كفكرة المساحة والحركة والديومة ، هي شرط لا بدمنه لغيرها، ولا يمكن تخطها الا افكاراً اولية ، او وحيا داخلياً ، او أفكاراً مطبوعة .

اذن مجد ديكارت في ذاته افكاراً. قد يصدر بعضها عن حكمه الخاص الذي

وهنائك أفكار، كفكرة اللانهاية التي لا يمكن ان تصدر صدوراً اكبداً عن الانسان ديكارت ، الكائن الناقص المتناهي، ولكن يجب ان تنطوي العلة على القدر ذاته الذي ينطوي عليه المعاول. لذلك فان افكار اللانهاية والكيال لا يمكن ان يضعها فيه سوى كائن هو نفسه لامتناه وكامل اي الله . الانسان يعرف اللانهاية والكيال قبل اي شيء آخر ، ولا يعرف ما هو متناه الا بعسد ذلك . ان هذه الافكار تثبت وجود الله . ان مجرد فكرة الله ثثبت وجود الله . لان الله يتحلى بكل الكيالات ، فهو من ثم يتحلى بكيال الوجود . الوجود يدخل في جوهر الله . فن جوهر المثلث الزوايا ان تساوي زواياه الثلاث زاويتين مستقيمتين ، لا ان يوجد خارج فكري الذي يدرك هذا الجوهر . اما الله فيستحيل علي ان افكر به جوهراً دون ان افكر به موجوداً ، ولكن الله كامل ، وليس من ثم مخداع . اذن كل ما ادرك وجوده بجلاء ووضوح موجود حقاً . اذن العالم الخارجي موجود . المتركيب الرياضي للعالم حقيقي . وجود الله هو في الاساس مسن حقيقة العاوم الطبيعية الرياضية .

ديكارت يعرف نفسه كفكر، كشيء يدرك ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس. وهو موقن من وجود هذا الشيء دون حاجة منه لأن يعلم ما أذا كان هذا الشيء مرتبطاً بجسد. فيستخلص من ذلك أن هذا الشيء مادة لا أبعاد لها ؟ أي النفس ؟ التي تستطيع أن تبقى دون الجسم ؟ والتي لا يدركها قساد الاشياء التي تحددها الأبعاد ؟ وأنه من ثم دائم البقساء . ولكنه موقن من أن له جسماً ومن أن هناك أشياء خاوجية ؟ لانسه يشعر ؟ حين يتخيل أدراكه هده الاشياء بما هو صلب ورخي وبارد وساخن ولذيذ ومؤلم ولا يتعلق بارادتة أن يشعر بسه أو لا يشعر ؟ لانه يفرض نفسه عليه قرضاً . أضف إلى ذلك من جهة ثانية أن الله ليس خداعاً فوجود الله هو من ثم في الاساس من واقع العالم الخارجي .

ما هي معاومات ديكارت الثابتة عن هذه الأجسام ? لناخذ قطعة من الشمع . النكر والأبعاد انها جسم جامد ذو شكل معين ولون معين ورائحة معينة . انها صلبة . تحدث صوتاً معيناً اذا قذف بها الى الطاولة . لندنها من الحرارة . فترتخي وتذوب وتصبح سائلا ويتغير لونها وتفقدرائحتها ولا تعود تسمع صوتاً وتحتل مساحة اكبر . لنخضعها لمزيد من الحرارة . فلن تلبث ان تتحول بخاراً . على اننا نستمر في القول انها شمع على الرغم من تبدل كل ما يقع تحت حواسنا . ونحن نعلم بانها شمع لا بالنظر ولا باللس ولا بالشم ولا بشيء آخر غير الفحص الذهني . ان ما يعرفه ذهننا معرفة اليقين في الاجسام هو مادة تتسع طولاً وعرضاً وعمقاً . وتقوم طبيعة المادة بهذا الاتساع طولاً وعرضاً وعمقاً . كل ما هو فكر يوجد في الله وفي النفس غسير متسع ، غير متجزى ، غير هيولي ، غير قابل الفساد ، دائم البقاء . وكل ما هو جزء متسع

طولاً وعرضاً وعمقا وقابل التجزؤ الى ما لا نهاية له . فيتوجب من ثم ، عند درس الاجسام ، اقصاء كل ما قد يشبه الروح ، وحتى كل ما هو صفة الصلب والرخي والحار والبارد الخ . لأن كل ذلك ليس سوى تأويل في حواسنا للواقع الدي هو غير ذلك . ان حواسنا لا تعلمنا الا بحيا هو مفيد ان نعلمه عن الاشياء لا بما هي عليه في الواقع . واقعها هـو الاتساع والحركة اللذان يقبلان القياس . لا بل ان الطريقة الصحيحة لمرفتها هي قياسها . وهكذا فان الممرفة الصحيحة للطبيعة هي رياضية . ولكن في الهندسة بعض النوعية ايضا . فيجب اقصاؤها ورد كل شيء الى الكهية . الاتساع المرسوم هو موضوع الخيلة . اما موضوع الادراك فهو الكمية الخالصة . ديكارت يعبر عن الخطوط والمنحنيات بالارقام ، وعن النسبة القائمة بينها بالمادلات . يدخيل فكرة التي اعوزت الهندسة اليونانية . يحدد مكان النقطة في المسطح بابعادها عن محوريه الثابتين . تختلف هذه الابعاد باختلاف مكان المقطة . تنسق فكرة التمثيل الهندسية مع فكرة المنتحو لين الجبرية في معادلة تقبل عدداً غير محدود من القيم في آن واحد فيصل بذلك الى مفهوم الدالة ويبتكر احدى ادوات العاوم الطبيعية العصرية ، اعني بها الهندسة التحليلية . الرياضيات هي جوهر الواقع . فهي تلفت الانظام العميق الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الثه وهكذا تأيدت تعالم غاليليو، وأمن ديكارت في الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله وهكذا تأيدت تعالم غاليليو، وأمن ديكارت في الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله وهكذا تأيدت تعالم غاليليو، وأمن ديكارت في الوقت نفسه نأر افلاطون من ارسطو .

علم الآلبات الشامل الفضاء الذي غادره لا يبقى فارغا بمنى هذا التعبير المألوف الفضاء الموصوف بأنه فارغ لا يمكن تصوره الا بابعاد الطول والعرض والعمق : فهو من ثم شيء متسع . وهكذا يب ان ينظر الى الكون كله كا الى شيء ملآن . الاتساع الكوني يقبل التجزئة الى ما لا نهاية له دون ان نستطيع التوصل يوما الى تصور ذرة لا تقبل التجزئة . فالذرة من ثم غير موجودة . اما ما يوجد فصفريات اجزاء الاتساع المتباينة الابعاد والمتنوعة الاسكال والمليئة بالمسام . في هذه الأجزاء وفي ما بينها توجد مادة رقيقة جداً ومائعة جداً عتد دونما انقطاع في كل الكون . الله يعطيها الحركة التي تنتقل في هنيهة واحدة الى كل مكان . الله لا يقبل التغير ، وكمية الحركة ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهيسة تنجم سنن ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهيسة تنجم سنن المركة المستقيمة المتساوية السرعة ، وسبع سنن لتصام الإجسام بعضها بالبعض الآخر .

من هذه الحركات ينجم تنوع الاشياء في الكون. الكون حقل آليات واسع الارجاء. فالنور مثلاً ليس سوى حركة في الاجسام المضيئة ، تنتقل بسرعة كلية وبلمعان كلي الى اعيننا . النور يرسل اشعته في برهة واحدة من الشمس الينا ، كا يحدث للاعمى الذي يسترشد عصاه ، اذا عملت الاشياء الحيطة به في طرف عصاه ، ينتقل عملها حالا الى طرف العصا الآخر . وهكذا فسلا فائدة في تفسير الرؤية من اللجوء الى الصور الصديرة المرفرفة في الهواء ، أو الانواع العمدية ، كا يدعوها الفلاسفة . ان هذه الاشعة الضوئية تكون مستقيمة كل الاستقامة حين لا تمر الا في جسم

شفاف واحد . أما اذا صادفت اجساماً اخرى فتنحرف عنها ، كا تنحرف حركة الكرة أو الحجر . هذه المقارنة بحركة الكرة وجرأة ديكارت في تحليل القوى قد ساعدتاه على ان يوضح كيف ان عميل النور يخضع لسنن الحركة نفسها ، وان عمود المرآة ، في الانمكاس ، هو منصقف الزاوية المتكونة بالشعاع الملتقي بالمرآة والشماع المنمكس ، وان الشعاع الملتقي بكاسرة الاشعة والعمود والشعاع المنكسر تكون في سطح واحد وان جيب زاوية الالتقاء ، حين يمر الشعاع من الهواء الى الماء عبلغ جب زاوية الانكسار . وهكذا فقيد ردت سلسلة من الطواهر الطبيعية الى حركات مادية وجدت صيغة سننها .

الحركة الآلية شاملة . الماء والارض والهواء والاجسام كلها مركبة من عدة اجزاء صغيرة متباينة الاشكال والاحجام تفصلها مسافات مليئة عادة رقيقة ؟ الاجزاء الصغيرة اللستطيلة الملساء الزلجة تكون الماء . الاجزاء غير المهندمة والمعقربة تكون الاجسام الصلبة كالارض والحشب النح . . المادة الرقيقة تتحرك باشعة الشمس فتحرك بدورها الاجزاء الصغيرة التي تهزهز دقائق اعصابنا وتجملنا نشعر بالحرارة .

ان المادة الرقيقة الموجودة في مسام الاجسام الارضية ، التي تحركها اشمة الشمس بقوة ، تحرك بدورها الاجزاء الصغرى في هذه الاجسام ، التي لا تجد حينذاك مسكاناً يتسع لحركاتها ، فترتفع في الهواء كا يحدث في السهل الغبار الذي تثيره اقدام المارة . هذه الاجزاء الصغيرة تكون الابخرة والنفحات المتصاعدة ، والغمائم المختلفة على انواعها . اذا انخفضت هذه الغمائم فجأة تسبب في حدوث وعاصفة ، واذا هبطت غمامة على اخرى ، نجم عن هبوطها الرعدوالبروق والزوابع والصاعقة .

المادة الرقيقة تملًا الفضاء الكوني . وتتحرك حكما تحركا دائرياً ؛ ان جسما الزواب يفادر جزءاً من الفضاء ليحتل آخر يطرد جسماً آخر من جزء الفضاء الذي يبلغه ، لان الكون ملآن ، والجسم الآخر يطرد جسما ثالثا ، وهكذا دواليك الى ان يحتسل جسم اخير جزء الفضاء الذي تركه الجسم الاول المتنقل فارغاً . فالحركة من ثم دائرية حكماً . لذلك فان الكون مليء بزوابع المادة الرقيقة التي تحمل النباتات حول الشمس . هذه الزوابع تفسر كل الحركات التي وصفها كوبرنيك وكبار وغاليليو وهارفي .

كل شيء آلي اذن في المالم ، وليس في علم الآليات سوى عناصر هندسية أو شبه هندسية .

الحيوان - الآلة نفس ، الحيوانات وجسم الانسان آلتان باستطاعتها التحرك دوغا والانسان الآلة نفس ، الحيوانات آلات محضة ، للانسان وحده نفس ولكنها متحدة بآلة . يوجد في الانسان انسان - آلة يقابل الحيوان - الآلة ، ليست النفس ما يعطي الجسم الحرارة والحركة ، والموت لا ينجم عن انفصال النفس عن الجسم ، بسل عن فساد احد اجزاء الجسم الهامة ، حرارة الجسم تقلل كثافة الدم انشط الاجزاء حياة تصمد الى تجاويف الدماغ ، حيث تنفصل ادى الاجزاء رقة وتكوّن التآمير الحيوانية ، هذه التآمير قم ،

. كالنسيج اليالغ الرقة ، في المأبيب صغيرة ، الاعصاب ، وتتوزع لتحريك البضــــــلات ، الاشياء الخارجية تحرك الاعصاب التي تحرك الدماغ ، وهكذا تتجه التآمير الى بعض المضلات بالتفضيل على سواها . وهكذا تدور الآلة دونما حاجة الى نفس.

ليس في النفس سوى افكارة .. ان حركات الدّمـــاغ التي تسببها الاشياء الاهواء والارادة الخارجية أو حركة اتفاقية للتآمير الحيوانية تستطيع ايضا أن تري النفس عواطف عنتلفة هي أهواؤها . أما اعمال النفس فهي ابتفاءاتها . النفس متحدة بالجسم كله دون ان تحتل منه جزءاً معيناً . بيد انها تعمل بصورة خاصة في الدمــــاخ بواسطة الغدة الصنوبرية . فهي تستخدم هذه الغدة لتدفع بالتآمير الحيوانية ؟ عن طريق مسام الدماغ ؟ نحو المضلات إلتي تريد هي تحريكها . وكذلك تحرك التآمير الحيوانية إلتي تفعل في النفس وتولد فيها الاحساسات ثم تولد ، بمناسبتها ، الاهواء : الاعجاب ، الحبة ، البغض ، الشهوة ، الفرح ، الحزن ، الجرأة ، · الْحَوْف ، الاهواء تحدو المائنفس الى ابتغـــاء الاشياء التي تعد لها الجنسم : فالحوف مثلا يحث على الحرب، وهي كلها صالحة في طبيعتها .

الا أن أرادة الانسان حرة . ولا يمكن البتة أن تحمل على شيء أكراها . تستطيع استخدام اهوائها بـ ﴿ احكام حازمة وجازمة حيال معرفة الخير والشر ﴾ . تستطيع المارة هوي أو اقصاء آخر بتمثلها و الاشياء التي ترتبط عادة بالاهواء التي ترغب فيها والتي تناقض ما نرغب في رفضه. فلاثارة الجرأة في ذاتنا وأقصاء الحوف د يجب الاجتهاد في تبصر الأسباب أو الأشياء أو الامثلة ... التي تعتمنا بأن الخطر ليس عظيماً ؟ وإن الشبانة في الدفاع اكبر منها في الحرب ، وإن في احراز النُصر عزة ويهجة وان عاقبة الهرب ندامة وخزي ، ومسا الى ذلك ، . وهكذا فان فكرة الخطر ، بدلا من ان تكون مرتبطة بمكان الغدة الصنوبرية التي تمهد الطريق أمام التآمير الحيوانية عِيث تعد العضلات للهرب ، تنتهى الى الارتباط ؛ بفضل العادة ، بكان الغذة الى تعد العضلات للمركة . فيكون الانسان قد بات شجاعاً . وباستطاعة كل فرد على بعض المهارة ان يغير حركات الدماغ ومجتق السيطرة المطلقة.على كافة الاهواء وباوغ السمادة .

> حرية الارادة النجابة

التي تتملق بنا ؟ اي بحرية ارادتنا . لقد ارادت المناية الألهية ؛ بقرار ثابت منزه عن الضلال ؛ ان تتعلق بعض الاشياء بحرية ارادتنا وان يحسسات لنا بعضها بضرورة حتمية . فيجب علينا من ثم ان ندرك مقصدها ونحصر اهتامنا باستخدام حرية ارادتنا ونبتهج بهذا الاستخدام مهاكان من أمر النتيجة . اذا كانت لنا حرية الاختيار بين طريقين البت الاختيار أن احداها أضن من الثانية ، يجب أن يحدد بنا عقلنا إلى اختيار الاولى حتى اذا كان من مقاص ١١٠١، الالهية أن نتعرض فيها اللهوقة ، ونعتبر انفسنا سعداء ، بعسب

سبيل السمادة الوحيد الينا هو الفضية . وتقدم الفضيلة في التوق ألى الأشياء

السرقة ، لاننا سلكنا بوحي عقلنا . على الانسان ان لا يهتم الا الى تتمم كل الاشياء التي حكم عليها بانها الفضلي و فيسر بذلك سروراً يبلغ من عظمته في اسعاده ان اعنف جهود الاهواء تمجز ابداً عن تمكير طمأنينة نفسه » . فالانسان لا يستطيع ان يعتبر ذاته الا بسبب استخدام حرية ارادته التي تجمله شبيها بالله من زاوية معينة . ويكون الانسان نجيباً حين يدرك انه لا يلك سوى هذا التصرف الحر بابتفاءات وانه لا يستحق المديح أو اللوم الا اذا احسن أو أساء استخدام حرية ارادته وان عليه و ان يعزم عزماً حازماً وثابتاً على ان ... لا تعوزه الارادة في مباشرة وتنفيذ الاشياء التي سيحكم بانها الفضل » وهذا يمني الاهتداء بالفضية اهتداء كليا . ومن المستطاع التوصل الى النجابة بالتأمسل في فوائد العزم الحازم على حسن التصرف مجرية الارادة وفي بطلان الهموم التي ينشغل بها الطباعون . هكذا يتمكن المرء من ان يثير في ذاته هوى النجابة التي تاق اليها الكلاسيكيون .

ان المذهب الكرتزياني ، ولا سيا فكر ديكارت ، قد احرزا انتصاراً . فان بوسويه و « سبينوزا » و « مالبرانش » وليبنيز ، وكافة العلماء ، لا بل كل من تحلى بذرة تفكير ، كانوا تلاميذه او تأثروا بنفوذه . اضف الى ذلك ان الندوات الاجتاعية نفسها قد اولعت بالكرتزيانية لا سيا بعد السنة ١٦٦٠ . فقدا ديكارت « ذاك الآدمي المائت الذي لو عاش في ايام الاقدمين لجعلوا منه الها » (لافونتين) . وان رينري الذي لقن مذهبه في « دفنتر » و « ليدن » قد دعاه « نوري وشمسي والحي » ، ووصفه « هيربورد » بانسه « اعظم الفلاسفة وحارس الحقيقة والفلسفة وحرية الفكر ، ومنقذها والمنتقم لها » (١٦٤٧) . وقسد تلاكم الطلاب من اجل آرائه . و درج هويجنس العالم الهولندي الكبير على القول : « لم يولد مثيل له في يوم من الايام » مقدماً بعض البراهين على نجاحه الشامل :

و ان ما نال كل الرضى ... حين اخذت هذه الفلسفة بالظهور ، هو ان الناس كانوا يفهمون ما يقوله ديكارت ، بينا كان الفلاسفة الآخرون يستعملون كلمات لا يفهم منها شيء البتة ، كتمابير الصور الجوهرية ، والانواع العمدية النح ، ولكن ما فرض فلسفته قبل كل شيء هو انه لم يستمر في اثارة الاشمئزاز من الفلسفة القديمة ، بل اقدم على سد مسد الماضي بعلل يكن ادراكها انطلاقاً من كل ما هو موجود في الطبيعة » .

وفعل ديكارت اعظم من ذلك. اعاد الى الانسان مبررات الحياة والنضال والخلق. اهتدى الى اليقين واعاد الثقة بارادة الانسان وعقله ، وبقيمة العلم ، ووطد الايمان بالله والامل مجيساة ازلية سعيدة ، واحيا الوحدة في الانسان الذي بات لديه تفسير عام للكون، بسيط في مبدئه ، ومثل اعلى لحياة داخلية منظمة في هدوء حرية الارادة المطلقة . وجاز الاعتقاد بانه اعاد اسس الديانة المسيحية ، كا ارتأى بوسويه فترة من الزمن . كا جاز الاعتقاد بانه برر مفهوم البطل ، المرتكز السيكولوجي للملكية المطلقة ، وانه حين شدد على تفوق الؤلفات الوضوعة من قبسل شخص

واحد وعلى ترثيبها وثناسقها وكالها ، وحين هاجم ممارضيه وشرع بمفرده في اعادة بنساء صرح الفلسفة والعلم ، انطلاقاً من مبدأ مسلم به ، انهاكان متفقاً وروح السلطة المطلقة .

الملكية المطلقة

كانت السلطة المطلقة امنية الجاهير التي رأت خلاصها في جميع المثال الفرنسي: السلطة في يدي انسان يجسد المملكة ويكون رمزاً حياً النظام المنكي السلطة المطلقة والوحدة المنشودين. وأراد الناس كلهم ان يروا في الملك صورة

الله: « انت اله على الارض... » وقد انضم الى هذا المفهوم ، لدى اناس كثيرين حلم علماء الادب القديم : يجب ان يكون الملك بطلا يتعشق المجد ، على الطريقة القديمة ، يحمي الآداب كاوغسطس ويحمي الكنيسة كقسطنطين ويسن القوانين كجوستينيانوس ، على ان يمتاز « بحب تفضيلي للاسلحة » لأن « صفة الفاتح تمتبر أنبل واسمى الالقاب » برأي كل المعاصرين .

ومن حيث إن الملك وكيل الله ، فهو سلطة سامية . و الامير السامي يسن القان ، فهو من ثم لا يقع تحت سلطة القانون » . يتصرف كما يطيب له التصرف . وينتج عن ذلك ان الملوك وحقا طبيعيا في التصرف تصرفاً مطلقاً بجميع الممتلكات ، سواء عادت المعانيين أم الكنسيين، بغية الاستفادة منها كما يفعل الحكاء المقتصدون ، اي بحسب حاجيات الدولة » . السلامة العامة تتقدم حتى الملكية ، وينتج عن ذلك ايضا ان الكنيسة تخضع للملك ويتوجب عليها ان تدفع له الاتاوات على املاكها التي اعطيت لها و لخير المملكة العام » وينتج عن ذلك اخيراً :

« ان عظمة الضباط هي لمان عظمة الامير المطلقة ، كما ان عظمة الامير السامية هي شعاع عظمة الله المطلقة ولمانها » .

فغدت المقارنة بالشمس امراً طبيعياً ، وليس ما فعله لويس الرابع عشر سوى اصرار على رمز ملكى قديم .

ولكن الملك ، صورة الله ، يجب ان يكون و عناية الحيية ، على الارض . عليه ان ينشر المدل و ثلك الامانة الثمينة التي أو وعها الله ايدي الملوك كاسهام منهم في حكته وقوته » . عليه ان يسمو الى الكيال بكل من المهن التي تكون الجتمع ، لأن و لكل منها وظائفها التي يصمب جداً على المهن الاخرى ان تستغني عنها . . لذلك يتوجب علينا لا ان نحتقر احسدى هذه الحالات أو رفع احداها على حساب غيرها ، بل الحرص على ان نسمو بها كلها ، اذا امكن ذلك ، الى الكيال اللائق بها » ، وهذا هو المثل الاعلى لمجتمع يو بع فيه العمل الاجتاعي وتنظم المهن بحسب حاجات الانسان . وعلى الملك اخيراً ان يحمي الضعفاء و ديبدي للشعوب الخاضعة لنا مظاهر العطف الابوي نفسها التي يبديها الله لنا كل يوم » ، و « لا يهم بشيء فوق اهتمامه برقاية الضعفاء من ظلم من هم اقوى منهم » وبتأمين المزاء للمحتاجين في بؤسهم » .

سلك لويس الرابع عشر بمقتضى هذه الآراء ، ولكن هـندي الرابع ولويس الثالث عشر لم يكونا اقل منه تصميماً على ان يكونا البطل والسيد المطلق و « العناية الالهية » .

مارس الملك سلطته بمارستين مختلفتين مجسب العهدود . فحين السلوب الحكم الوزادي يكون قليل القدرة ، كلويس الثالث عشر، او حديث السن جداً ، واسلوب الحسكم السذاتي كلويس الرابع عشر بين السنة ١٦٤٣ والسنة ١٦٦١ ، يقوم حكم

وزاري ، حيث رئيس الوزراء ، كالكردينال دي ريشليو والكردينال مازارين ، في فرنسا ، والكونت – الدوق اوليفاريس ، في اسبانيا ، النح ، يحكم باسم الملك ، ويؤدي له حساباً.. وحين كان هذا الملك لويس الثالث عشر ، لم يكن هذا الاسلوب قاعدة :

ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لاسهل على من السيطرة على مكتب الملك».

ولكن الوزير " في أيام الاقطاعية والتبعية هذه ، يسلك سلوك وزير الملوك في اواخر عهد الميروفنجيين. يحيط الملك برجاله ويعين اتباعه الخلص في المناصب الهامة ويؤسس سلالة ويجعل من انسبائه مشيري فرنسا وقادة بوارج ودوقية وامراء ، ويزوج بنات أشقائه وشقيقاتـــه الى الامراء الملكيين ، ويملك ، كريشليو مثلا ، مراكز محصنـــة ، كرد برواج » و و له هافر » ، يوصي بهــا لورثته ، ويتصرف ببعض الجيوش ، فرقة مشاة وفرقة اشراف ريفيسين . فيرى الملك ضباطه يتخلون عنه شيئًا فشيئًا ويدخلون في خدمة الوزير ، كا يرى مستقبـــلا قريبا يسي فيه وحيداً وعاجزاً امام وزيره الذي يدين له الجنود بولائهـم ولا يستطيع فرض سلطته على المملكة الا بواسطة الوزير ورجاله . لذلك كانت وفاة الوزير فرجة للملك .

وهكذا ، فان لويس الرابع عشر ، الذي بنى مذهبا بما مال اليه هذي الرابع بالفطرة ، عزم على ان يكونه وبالذات رئيس وزرائه ويلم وحده بكافة الشؤون ويكون الشخص الضروري الرحيد : فانتهى به ذلك شيئا فشيئا الى حياة بيروقراطية منتظمة ومنظمة في سبيل خير انتاج . دكان بالامكان ، بواسطة التقويم والساعة ، معرفة ما يفعله ، على مسافة ٣٠٠ عقددة منه » . كا انتهى به الى الانفراد ، في وفرساي » في قصر ومدينة لم يكن تشييدها لاجل عمل الملك اقل منه لاجل دعاوته وماذته . أراد البعض ان يروا في هذه الحياة البيروقراطية تقليداً لاسبانيا ، بينا هي ظهرت ، في الواقد عيثها اتسعت السلطة المطلقة . فمردها من ثم الى الفرورة .

في عهد الحكم الوزاري ، ترتبت الانظمه . ولكن توسع الانظمة كرس حقوقًا لبمض اناس خطرين ، العظام ورثيس الوزراء . فدير لويس الرابسع عشر حركة ارتداد الى الوراء

تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحكم الذائي

ستخلي الجو للارادة الملكية . ما زالت الحكومة ، في عهد الحكم الوزاري ، اختصاص عائلة ونسب والقاب ووظائف . يدخل المجلس الاعلى اعضاء الاسرة المالكة والامراء الملكيون

والدوقية والامراء والمستشار وناظر المالية . الوزراء يتسلمون وظيفة تسند اليهم بشهادات . رسمية يمنحها الملك و تقيمهم ، فيها وتجملها و ملكا ، لهم . فأحدث لويس الرابع عشر ثورة حقيقية . اقصى عن المجلس الاعلى كل من قد تحدثه نفسه بسلطة سياسية بالاستناد الى نسبه او لقبه او وظيفته . تناول تدبيره ، في الدرجة الاولى ، امه وأخاه والامراء الملكيين : فزاات عن الحكومة صفتها المائلية وامست ذاتية حقاً . ثم تناول مستشار فرنسا والاحبار وكبار الاسياد . وتناول أخيراً كبار الموظفين . فأمناه السرلم يعينوا كلهم وزراه . ولم يعد مركز الوزير حالة دائمة . وليس من بعد لا رسائل ولا شهادات ملكية باسناد وظائف الوزراه يصبح المرء وزيرا حين يدعوه الملك الى مجلس الوزراء بواسطة أحد حجابه ، ويفقد منصبه حين يكف الحاجب عن دعوته . وفي بعض الساعات يتداول الملك في شؤونه مع من يناسبه من الرعية . ليس لاحد غير الملك حق مكتسب في الحكم . كل شيء مركز في شخص الملك .

بذلت في عهد الحكم الوزاري جهود كبرى لتنمية آلة السلطة الملكية اي المجلس. فاحدثت فيه اقسام جديدة ، مجلس البرقيات للداخل ، ومجلس الوعي . أما القسم السياسي ، اي مجلس الشؤون أو المجلس الاعلى ، والاقسام الادارية ، اي مجلس الماليسة ، ومجلس الشورى والمالية ، والمجلس الخاص ، فقد سبتى وحددت اختصاصاتها وادخل على وظائفها توزيسم اجد واجدى ، بيد ان لويس الرابسع عشر ، بالمقابلة ، قد وقف موقفاً حذراً من المجالس ، وحين اتضح له انه لا يستغني عنها ، حاول اقصار اعمالها على ما هو شنشنة ونستى مطرد . واخذ يعمل وحده مع كل من امناء سر الدولة ومراقب المالية العام على التوالي . كما اخذ يبت في كافة الشؤون الهامة التي لم تمد لتمر أمام المجالس الا مروراً شكلياً ، أو لا تمر البتة . وصدرت الوف القرارات المجلسة وعلمة ، و بأمر المجلس ، توقيع احد امناء سر الدولة والمستشار، دون ان يعلم بها المجلس الاعلى أو مجلس البرقيات أو مجلس المالية الملكي .

ووقف الملك موقفا حذراً من وزرائه وأمناه سر دولته ايضاً. فاعساد النظر في تقسيم الممل وحاول اثفال اعباء العمل حيث تتشابك الامور مجيث لا يستطيع اي اختصاصي اقامة المقبات في طريق ارادته . واوجد الخلاف بين معاونيه واوغر صدورهم غيظاً بعضهم على بعض ورمى الفتنة فيا بينهم و و اشعل نار احسادهم المتبادلة ، ورأى في كولبير و و لو تلييه ، ضمانة السلطته .

ان المعضلة التي واجهها الملك في العهدين لم تكن الفوز بطاعة رعماياه فحسب ، بل باخضاع ضباطه انفسهم لارادته ايضاً ، لا سيا وقد غدوا مستقلين بفضل بيع الوظائف ، وبجارسة مل السلطات التشريعية والقضائية و و البوليسية ، أو الادارية .

الارامر الملكية بالسجن ومفوضو الشرطة السياسية

اللك ، في سبيل بلوغ هذا الهدف الى الاوامر الملكية بالسجن التي يملن بها مباشرة عن ارادته للافراد أو الهيئات ، فبموجب هذه الاوامر ، يوقف الملك من يشاء أو يسجنه أو ينفه ؟ ويعاقب

الابن أو الزوج على سوء سلوكهما بناء على عريضة تتقدم بها العائلات ؛ ويستدرك المقاومات ، ويقاص مثيري الفتن والمتآمرين مع العدو دونما محاكمة . واذا تكلم الملك نفسه ، فها على الرعية سوى الانحناء أمام سلطته ، مصدر العدالة الشرعي .

ولجأ الملك لجوءاً مطرداً الى مفوضين يمينهم ويعزلهم على هواه ، وما مستشارو الدولة في المجالس الادارية سوى مفوضين على كل حال. وفي عهد الحكم الوزاري ، منح الملك هذه المجالس صفة والفرقة الاولى ، في المملكة واولاها سلطة على الحاكم المعروفة بالحاكم العليب ، حتى في حال غياب الملك . كان باستطاعة المجالس ، منذ السنة ١٦٣٣ ، ابطال كل قرار ، حتى ولو كان صادراً عن المجالس التمثيلية ، اذا ثبت ان صحوره يتنافى والانظمة أو السلطة الملكية أو المنفعة العامة أو حقوق التاج . كما كان من حقهم طلب المعاملات والبت بها وحرمان المحاكم المليا من وظائفها . أما في عهد لويس الرابع عشر ، فقد ابقي على سلطة هذه المجالس ، اقله كإسم وهي مفيد ، لان قرارات المجلس غالباً ما تنبثق في الواقع عن الملك ومعاونيه المباشرين ، أي امناء سر الدولة ومراقب المالية .

خلال العهدين ، توطدت سلطة الملك على الحما كم العليا ، على الرغم من انحصار عملها في بجلسه مبدئيا ، في السنة ١٦٤١ ، احتفظ لنفسه شرعاً بحق الاطلاع على شؤون الدولة ، وانزل عدد الاعتراضات الى اثنين قبل التوقيع في المعاملات المالية ورفضهابعد التوقيع في شؤون الدولة . وفرض على المحاكم العليا ، واحتفظ لويس الرابع عشر لنفسه ، مرة اخرى ، بشؤون الدولة ، وفرض على المحاكم العليا ، في السنة ١٦٧٣ ، توقيع المراسم حالاً كا ترد عليها ؛ ولا تقبل الاعتراضات الا مرة واحسدة وبعد التوقيع فقط . فآثرت المحاكم ابداء رأيها . وهكذا وجدت الحاكم العليا نفسها مقصاة عن السياسة العامة وعن المسائل الدستورية . فتعززت بالفعل نفسه سلطة الملك في الحقل السياسي وسلطته التشريعية المطلقة ، ومن ثم قدرته على فرض الضرائب على هواه والتصرف بالاموال المجموعة دون تأدية حساب . واتبع للملك ان يطلب الى لجان تشكل من بين اخصائه وضمع قوانين (النظام المدني في السنة ١٦٦٧) اعطاها الملك وحده قوتها التشريعية دونما تسجيل ، ودونما استشارة احمد من الموظنين المسؤولين ، ودونها اسهام من قبل الهيئات الخاصة ، وانطوت على نزعة واضعة الى الوحدة والمساواة وجاءت عملا ثوريا حقيقاً .

عين الملك لجاناً من المجلس للحكم في قضية والناكد من تنفيذ مرسوم ، كفرفة الـ و ارسنال ، في السنة ١٦٣١ ، واللجنة التي حاكمت حكام و لاشابيل ، والـ و شاتليه ، بعد معاهدة الصلح

في وكوربي ، ، النع . ولم تكن هذه اللجان مجرد اجهزة تحضيرية ؛ بل أصدرت في الواقــــع احكاماً معرمة .

واستخدم الملك وكلاء جيش ووكلاء قضاء وشرطة ومالية . كان هؤلاء ، في الدرجة الاولى مفتشين كلفوا مراقبة الضباط ورعايا الملك وتأدية حساب عن ذلك للمجلس . وكان باستطاعة المجلس حينذاك ، اما الفصل في الغضية بموجب حكم ، واما اعطاء الوكلاء السلطات الضرورية للفصل والحسكم والتشريع . وكان من ثم باستطاعة الوكيل حضور بجلس الحاكم وابداء رأيه ، وتروس الحاكم القضائية ، واصلاح القضاء من حيث الأنظمة ، والتثبت من ان الضباط ينفذون مهام وظائفهم ، وكف أيديهم في حالة السلب ، وتلقي شكاوى رعايا الملك ، وإحقاق حقهم بواسطة القضاة . وترأس الوكيل جمية المدن وراقب الانتخابات واستثبت ديون الجميات وسهر على تطبيق الأوامر والأنظمة : فكان ذلك مقدمة للوصاية الادارية . وراقب الوكيل جباية الضرائب ، وتصدر مكاتب المالية ، وسهر على تطبيق الانظمة والقوانين، ولكنه فم يتمتع بسلطة عامة مطلقة ومجتى اصدار احكام من الدرجة الاخيرة الا في حالتين : اختلاسات ضباط المالية ؛

وكان الوكيل اداة طيمة جدًّا . وكان باستطاعة الجلس ، في أيام الحرب أو الأزمسات الداخلية ، اعطاؤه صلاحيات واسعة جدًّا تجعله يقوم بكافة مهام الضباط ولا يترك لهم سوى الاسم فقط . في هذه الساعات العصيبة يقيم الوكلاء ، بساعدة مرؤوسيهم ، ادارة مفوضين في وجه ادارة الضباط . ولكن الحكومة الملكية ، وريشليو وكولبير ، يعتبرون هذه الفترات فترات استثنائية وضرورات مؤسفة . ويحاول الملك في زمن السلم الاحتفاظ بالوكيل ويميل أبداً الى توسيع صلاحياته في دوره التفتيشي . محظر عليه الحلول محل الضباط ، ويرغب اليه في مراقبتهم فقط ، ويرجب عليه ، اذا ما قصروا في واجباتهم ، اطلاع الجملس على ذلك وانتظار الحصول على الصلاحية اللازمة لمه الجة أوضاعهم .

ولجأ الملك الى عمل بوليسي سياسي ، مارسه الوكلاء والجواسيس والعملاء المنتشرون في كل مكان ، في باريس حيث عينهم حاكم الباستيل ، الوكيل المجرم ، ثم وكيال الشرطة العام ولارنبي ، منذ السنة ١٦٦٧ . وكان يكفي ان يساء تفسير كلمة واحدة حتى يمسي المره في الباستيل ، دوقاً كان ام خادماً . وقد استند الوكلاء والمجلس الى دلائل واهيسة حتى يوجهوا التهم بالجناية على الملك ، وكان الحكم يصدر بالاستناد الى مجرد ظنون لان ريشليو ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر قد جاهروا بان الحصول على براهين حسابية في موضوع التسامر يكاد يكون مستحيلاً وبان انتظار الحدث يؤدي الى ضياع كل شيء . لا بل لقد لجال الملك الى السجن الوقائي ، غير المحدود بزمن ، بمجرد كتاب بمهور بخاته .

وامن تنفيذالاوامر الملكية جيش من المرتزقة تدفع لهم اجورهم بانتظام ويخضمون لنظام صارم.

لويس الرابع عشر سيد أرحد

ما عاد لويس الرابع عشر ليقبل ، في كل الوظائف الهامة ، كوظائف الوزراء وامناء سر الدولة والمراقب العام ، الخ .. سوى و بالخلصين ، الذين يقومون بخدمات منزلية بالإضافة الى وظائفهم العامة وينقلون على

الذين يقومون بعدمان عاربيه بوطان الولادة ، أولاد الملك عشيقاته أو يستلمون منهن ، عند الولادة ، أولاد الملك غير الشرعيين. وقد لجأ الى الشواعر الاقطاعية ، ولكنه اراد ان يكون هو مرادها وغايتها. وأراد تحقيق السلطة المطلقة بربط كافة الفرنسيين بالملك ربطاً مباشراً ، بواسطة رباط ذاتي ، كا ارتبط الفداديون بسيدهم . وأراد أن يكون السيد الأوحد المطلق أو اقسله الحامي المطلق و كل العيون شاخصة اليه وحده ؟ واليه وحده ترفع كل الاماني ؟ هو وحده يتقبل كل احد ترام واعتبار ؟ وهو وحده يعقبل كل احد ترام الناس الى نعمه كا الى المصدر الوحيد لكل الخيرات ؟ ولا يؤمنون بالارتقاء الا بمقدار تقربهم من شخصه واعتباره ؟ وكل ما عدا ذلك جدب وبحول ، . روابط المواطف والمصالح كلها تتوجه الى الملك الذي يجدد من ثم اماني رعاياه وآمالهم وبذلك ، كا بمارسته السلطة الذاتية ، يركز الدولة في ذاته ويحقق في ذاته وحدة الدولة ، كا يمسد رعاياه ، باستغلال مشاعر قدية جداً ، للانتقال الى مفهوم الدولة المجردة . وهكذا فإن لويس الرابع عشر قسد أعد الدولة المصرية واسطة رواسب القرون الوسطى .

اعد الملوك الدولة العصرية باعداء طبقة اجتاعية على اخرى وبرفع الاستفادة من البورجوازية في السلم الاجتاعي . فخلال القرن ، اختار الملك وزراءه ومستشاريه ووكلاءه ، اكثر فأكثر ، من بين رجال القانون البورجوازيين . خسلائقه هذه و تنحدر من عامة الشعب ، ولكنها و تعظم فرق كل عظمة ، رفع الملك الى طبقة النبلاء و لو تلييه ، وكولبير وجعسل منها مركيزين اي سيدين يسميان باسم اراضيها ، على غرار و لو و بربزيسو ، و « كرواسي » و « تورسي » وخلق سلالات تنتمي الى الوزراء من الانسباء والانسال و البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجسمه الانسباء والانسال و البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجسمه الانسباء والانسال النبلاء . في السنة ١٦٩٥ ، احلت قائمة الضريبة الشخصية وزراء الدولة في الطبقة الأولى وساوت المستشار ومراقب المالية العام بالامراء الملكيين . وارتفعت في الأقسام الادارية التابعة لجلس شورى الدولة نسبة رجال القانون . فقد حدد نظام السنة ١٦٧٣ عدد المستشارين الأصلين بـ ٢٤ مستشاراً من رجال القانون و ٣ من رجال الكنيسة و ٣ من اشراف الجندية . وعدر لفت الانتباء هنا ، بصدد هؤلاء الاخيرين ، الى ان شرط العدد المين من درجات النبل لم وعد وارداً : فقد بات باستطاعة ابن أحد رجال القانون من النبلاء أن يتولى هذا المنصب . وفقد المدوقية والأمراء ، شيئا فشيئا ، مراكزم بين المستشارين الذين كان لهم الحتى ، قانونا ، بعضوية المحلس الحاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهل ذكرم اهالا تاماً . وحصيل مستشارو المحلس الحاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهل ذكرم اهالا تاماً . وحصيل مستشارو

الدولة على حق الارتقاء الى طبقة الاشراف الذي جاز انتقاله الى انسباء الدرجة الاولى . وكانوا بعد ذلك يقدمون الى الملك مع نسائهم ويسمح لهم بالتزلف اليه ، وتملكوا الاقطاعات ففدوا اسياداً . وغالباً ما اختار ابناؤهم عمل الجندية وخدموا في فرق الملك ، اقله لفترة ممينة ، قبل ان يدخلوا عالم الوظيفة . وهكذا فان الملك قد رفع رجال القانون المكرسين لخدمته رفعيا مطرداً وجعل منهم اشرافاً . ففدت خدمة الملك ، الذي يجسد الدولة ، رويسداً رويداً ، مقياس تصنيف طبقات المجتمع .

تذمر الاشراف من تصرف الملك هذا ٬ فهم يحتقرون هؤلاء والبورجوازيين، ترويض النبلاء وقد دمدم و سان - سمون ، قائلا : وكان هــــذا الملك ملك يورجوازية حقرة ، وتألموا من تسوية بين الطبقات اقدمت عليها دولة حصدت المقاومات حصداً . فالسحون ملأى بالسحناء المرموقين : الكونت و دى كرامين ، ، والمرشال و دى باسومبير ، و و باراداس ، احد المقربين الى لويس الثالث عشر . لذلك حسساول الملوك ان يوفروا لطبقة النبلاء المراتب الرفيمة وسبل الميش. فاحتفظوا لهم بمناصب الحكام وبعدد وفير من رتب الجيش ولاشقائهم بمعظم الوظائف الكنسية ، وادخاوهم في خدمتهم ، وارسخوا في ذهنهم روح النظام والطاعة ودريوم شيئًا فشيئًا على حياة الوظيفة. واتم لويس الرابع عشر تنظيم البلاط. فجمع حوله في وسان حرمين ، و وفونتسناو ، و وفرساى ، كافة ذوى الشأن من النبلاد . واجهز على ثروتهم بتعاقب خدمتهم الباهظة الاكلاف في الممسكرات وبجياتهم البذخية في البلاط . ولم يتورع عن خوض غمار الحروب كي يوجد لهم عملاً وظروف مجد وشهرة . واسترقهم بما خصهم بــــه من معاشات وأمهار وخيرات كنسية . • قد يحدث اثناء التزلف الى الملك ان يجد المرء نفسه تحت ما يلقيه » كا قالت مدام و دي سيفينييه ، بوصفها كلبا أمينا . ووفر لهم تعويضا سيكولوجيسا. ففي سلسلة من الاعداد المدهشة الفاتنة كان الملك يظهر بثياب إله الاولمب وافراد حاشيته بثياب الآلمة الثانويين أو الابطال . واستطاعوا بذلك نقـــل سراب حلمهم بالقوة والعظمة الى تقليد حياة الحالدين هذا مرتفعين فوق الانسانية العادية وخــاضعين ، اذا وجب الخضوع ، لـ ه الرب جوبتير ﴾ ؛ الملك الآله . وعلمتهم آداب البلاط ان يروا في الملك كانناً يفوق قدرة البشر .ودرج الرجال على رفع قيماتهم أمام سرير الملك ، والنسوة على الركوع كما يفعلن أمـــام المذبح في الكنيسة . وتباهى الامراء الملكيون بالامساك بكم قميصه عند نهوضه من النوم . واحيط نهوضه ونومه ووجباته وحياته كلها بمراسم حافلة بمظاهر الاحترام والتكريم . وقد عبر احد رجسال البلاط عن كل شيء اذ قال ؟ حين وفاة لويس الرابع عشر : د بعد وفاة الملك ، جـــاز تصديق کل شيء ۽ .

وتجد الاشارة هنا ، من جهة ثانية ، الى ان آداب البلاط ، والبلاط نفسه ، لم تكن تمثلاً بمسا شوهد آنذاك في اسبانيا بل فرضها الوضع الاجتاعي وطبيعة الاشياء . وهكذا فان الملك ، بفضل تقسيم الوظائف بين الطبقتين ، والاحتفاظ باهم الطبقة الدنيا ، البورجوازية ، وبفضل رفع هذه الاخيرة رفعاً مطرداً وايقافها في وجمه الطبقة الاخرى ، الاعظم قوة ، قد اعاد الصراع الطبقي الى نقطمة توازن بين الطبقات أمنت سلطته الشخصية وأمنت الوحدة والنظام في الحكومة والدولة ، اضف الى ذلك انه اعتمد التسوية والمساواة ، احتر فأكثر، في خدمة الدولة والخضوع النام والطاعة العمياء ؛ ولعله اضطر الى ذلك اضطراراً بقمل الازمة والحرب دون ان يستهدف تغيير نظام المملكة اجتاعيماً . فغدت سلطته ، مع لويس الرابع عشر ، مطلقة وثورية .

حاول ملوك سلالة ستيوارت في انكلترا تحقيق السلطة المطلقة واستطاعوا المثال الانكليزي الى ذلك سبيلا خلال فترات طويلة . فقد حكم جاك الاول (١٦٠٣ – ١٦٠٣) حكم الملك المطلق الصلاحيات الى حد بعيد . وكرر شارل الاول محاولته من بعده (الاستبداد ، ١٦٢٩ – ١٦٤٠) . ويمكن ان يعتبر شارل الثاني ، منذ السنة ١٦٧٩ ، اي بعد الثورة (١٦٤٠ – ١٦٢٠) والاصلاح ملكاً مطلق الصلاحيات عملياً . وقام جاك الثاني (١٦٨٥ – ١٦٨٥) بالمحاولة الاخيرة . وقد سعوا كلهم ، باستثناء شارل الثاني ، ليس وراء السلطة المطلقة عملياً فحسب ، بل وراء جمل السلطة المطلقة نهائية بتحويلها الى وضع قانوني .

ملوك سلالة ستيوارث والمدولة

اراد ملوك سلالة ستيوارت عن طريق السلطة المطلقة ان يوجهوا التطور نحو الرأسمالية ويبقوا على التوازن بسين الاسياد المحافظين ، والمزارعين والفقراء ، وبين الطبقات الرأسمالية أو الطبقات المرتبطة في حياتهسا

بالرأسمالية . وفي رأي ملوك سلالة ستيوارت ومستشاريهم من امثال و لود ، رئيس اساقفة كناتربي ، وعضد الاستبداد ، ان الدولة انما هي تعبير زمني عن الموجبات الروحية . و الله والملك لم يبيانا النزر اليسير الذي نملك الا لاجل استعاله في خدمة قريبنا ، وما هدف الحكومة الاخير سوى المحافظة على التماون الوثيق بين مختلف اجزاء جهاز المجتمع . لكل من هدف الاجزاء ، اي لكل طبقة ، وظيفة محددة يتوجب عليها القيام بها ، على ان يؤمن لها بالمقابلة مستوى حياتيا يتناسب ومرتبتها في السئم الاجتاعي . فيتضع من ثم ان ملوك سلالة ستيوارت كانوا ممادين للاحزاب السياسية : و الاحزاب تستهدف ابداً غايات خاصة » . وكانوا ممادين للافراد الذين تعرقل مصالحهم الشخصية تحقيق الخير المام ، ومعادين للفردية الاقتصادية الممقوتة وللفردية الدينية ، التي تفوقها فظاعة ، لان الدين يجب ان يكون اداة في يسمد الدولة لتنفيذ مهمتها . وهذا مسا يفسر عطف ملوك بسلالة ستيوارت على الكنيسة الكاثوليكية التي نظرت نظرات عائلة الى المجتمع والتي كان باستطاعتها وضع امكانات تنظيمها تحت تصرف الملك .

كانت اداة الملك مجلسه الخاص المؤلف من مستشارين يعينون ويعزلون كا الجلس الخاص يطيب للامير ويلزمون باطاعته اطاعة كلية . بلغ اعضاؤه ، حوالي السنة ويطيب للدخل في عدادهم رئيس اساقفة كنتربري المستشار، وزير المال، بعض عظام

الاسياد ، رجال قانون ، امينا سر الدولة . لا يعرض الملك عليهم الا ما يطيب له عرضه ، ويصغي الى آرائهم ثم يضع صيغة قراره بنفسه . يتشاور المجلس الخاص وينفذ بواسطة الاعلانات والاوامر التي تقر في الاجتاع . وتدخل في صلاحياته السياسة العامة والتشريع والقضاء والمالية والحرب وشؤون الاسطول ، ودعوة المجلس التمثيلي للاجتاع وتعيين مأموري الاحكام المدنية والتعليات الى القضاة والضباط المحليين والبت بالرسائل والعرائض. ويحضر عمل المجلس وغالباً ما تتخذ القرارات مسبقاً ، في الديوان ، للشؤون السياسية ، وفي لجان المجلس للشؤون الجارية والادارة . أما الديوان الذي ليس معترفاً به رسمياً فيضم بعض مستشاري الملك السريين . ونرى في كل ذلك اوجه التشابه مع فرنسا على الرغم من ان تطور الانظمة هنا لم يبلغ ما بلغه في فرنسا .

فهي الاسس نفسها التي اقتضى تأمينها في هذه البلاد التي كان ملكها دون ملك فرنسا سلطة مطلقة .

سلطة الملك التشريعية جساول ملوك انكاترا الاحتفاظ لانفسهم بالسلطة التشريعية . وسن سلطة الملك التشريعية . وسن جاك الاول القوانين بالاعسلان والمناداة . وفي السنة ١٦٠٧ كتب و "كوك » استاذ القانون في جامعة كمبردج » ما يلي : الملك و فوق القوانين بسلطته المطلقة .. يستطيع تعديل أو تعليق كل قانون يبدو له مضراً بالخير العام » . فاضطر جاك الاول لأن يتبرأ من الكتاب ولكنه استمر في سياسته . وصرح شارل الأول دون مواربة بان لاعلاناته قوة القانون . واخذ جاك الثاني يحمل القضاء على الاعتراف بحقه اي اعفاء الفرد من التقيد بهذا القانون أو ذاك (قضية ادوارد هيلز) » ثم افرط في الاعفاء من القوانين » ثم اصدر في السنة القانون أو ذاك (قضية ادوارد هيلز) » ثم افرط في الاعفاء من القوانين » ثم اصدر في السنة تعليق كافة القوانين الجزائية في الدعاوى الكنسية » . وكان باستطاعته ان يفعل الشيء نفسه بصدد كافة القوانين وان يرغم المجلس التمثيلي على ان لا يقر سوى القوانين التي يوحي بهسا الملك .

وحساول ملوك سلالة ستيوارت تأمين تنفيذ ارادتهم بسلطات السلطات العضائية الخاصة قضائية خاصة . فان جاك الاول وشارل الاول اكرها الشعب على اطاعة اعلاناتهما بواسطة والغرفة المكوكبة ، والهمكة العليا . أمسا الغرفة المكوكبة ، وهي المدائرة العدلية في المجلس الخاص برئاسة المستشار ، فقسد حاكمت المتهمين الذين سبق للمجلس واوقفهم واستجوبهم وأحالهم عليها . وقد دخل في صلاحياتها كل حوادث الاخلال بالنظام العام والاخلال بالاوامر الملكية . وشملت الفئة الاولى الفتن والمنازعات ، لا سيا بمناسبة تصوين المراعي، والحروب الخاصة بين الاشراف الريفيين، والمؤامرات والاعتداءات على القضاة والاهاجي والشتائم . وهكذا استطاع و ونتوورث ، اثناء عهد الاستبداد ، ملاحقة منتقدي

مساعيه في ايرلندا بغية خلق جيش دائم في خدمة شارل الاول. وشملت الفئة الثانية مخالفات الاعلانات الملكية ، كتلك التي حظرت زيادة عدد البيوت والمساكن في لندن، مركز الرأسمالية الكبير ؟ وتلك التي اوجبت على الاشراف الريفيين ، مالكي الاراضي في الارياف ، الميش فيها وعدم مفادرتها الى المدينة ، وقد حكم على احسده ، و بلر ، ، في السنة ١٦٣٤ ، بالسجن و ير / ١٠٠٠ / ليرة جزاء نقديا ، فذا السبب ؟ وتلك التي حظرت تخزين المواد الغذائية ورفع الاسمار ، وقد حكم على ١٥ شخصاً من اصحاب المصابن ، في السنة ١٦٣٤ ، بالجزاء النقسدي والسجن واقفال المصانع لاستخدامهم زيت السمك بدلا من زيت الزيتون ولاتفاقهم على سعر النفي معين لا يجوز تخفيضه . وكان عمل الغرفة المكوكبة مباشراً على المواطنين وعرضا عسلى القضاة الذين يخشون آنذاك مفية الامر ويتشددون في تطبيق الاعلانات . وحين برزت مقاومة و مال الاسطول ، في السنة ، ١٦٤٥ استدعى مأمور الاحكام المدنية في سبع كونتيات لاحمالهم في شؤون التحصيل وصدرت مجتهم احكام مختلفة . فغيت هذه الحما تم تجسيداً السلطة المطلقة .

وأعاد جاك الثاني المحكمة العليا . كانت برئاسة المستشار وشملت صلاحيتها كافة رجسال الكنيسة وكل كلية ومدرسة تلقن دروس الصرف والنحو . وكان من حقها اصدار احكام مبرمة في دعاوى المعتقد الديني ، كالالفاء والعزل والحرم ، التي كانت بمثابة الحرمان من الحقوق المدنية والسجن مدى الحياة .

وتهرب ماوك سلالة ستيوارت من مبدأ د المثول أمام الحكة ، فلا يوقف رعايا الملك الا يسبب دين مدني أو بتهمة جرمية ، وباستطاعة كل انسان حر سجين ان يلتمس من محكمة الملك د امراً بالمثول امام الحكمة ، يوجب على السجان احضار السجين والادلاء بسبب سجنه حتى تتمكن الحكمة من اعادة السجين الى السجن أو اخلاء سبيله بكفالة أو تبرئته ، ولكن ماوك سلالة ستيورات اوجبوا على السجانين انتظار امر ثان وثالت ثم نقل السجينالي سجن آخر حيث تتجدد المهزلة ، ودرج القضاة الملكيون على تحديد الكفالة بمبالغ باهظة جداً يمجز السجين ابداً عن دفعها ، وادعى الملك اخيراً بان د امره الخاص ، كاف لتبرير السجن ، واستند الى هدذه الحجة حتى السنة ١٦٧٩ ، في عهد شارل الثاني ، فكان ذلك ماثلا للأمر الملكي بالسجن في قرنسا .

كانت إلمالة الحان النوائب فباع جاك الاول وظائف امناه الصناديق والقضاة والمدعين التمثيلي ، فباع جاك الاول وظائف امناه الصناديق والقضاة والمدعين العموميين وامناه سر الدولة ، النع . وحذا خذوه شازل الاول ، ثم شارل الثاني ولكن على نطاق اضيق . غير ان الاهم كان ان يتمتع التاج بحق فرض الضرائب من تلقاء نفسه مباشرة . فأمر حاك الاول ، في السنة ٢ ١٩٠ ، بفرض رسم جركي جديد . رفض و جونبيتس ، اسسد تجار شركة الشبرق ، ان يدفع هذا الرسم لانه غير شرعي . فأدانته المحكمة المائية : وسلطة الملك مزدوجة ، عادية ومطلقة . أما سلطته العادية فلمنفعة الافراد ... ولا يمكن ان يدخسل عليها

أي تعديل بدون المجلس التعثيلي . واما سلطة الملك المطلقة ... فلخير الشعوب العام ... وتعرف بالسلطة البوليسية ... تتنوع ، بحسب حكة الملك ، للخير العام . القضية موضوع البحث قضية دولة ويجب أن تعالجها سلطة الملك الفائقة بحسب الانظمة البوليسية . كل الرسوم الجركية ناجمة عن التجارة الخارجية ؛ ولكن التجارة والشؤون الأخرى مع الأجانب من اختصاص سلطة الملك المطلقة ... ، فأمر الملك من ثم بوضع « كتاب الرسوم » (١٦٠٨) الذي فرض موجبات مالية بإعظة .

بعد السنة ١٩٢٩ ، فرض شارل الأول الضرائب تلقائياً وفرض على كل رعاياه قرضا يعادلها دفعه كل فرد من الضريبة المخيرة. فكان عمله خطوة اولى نحو الضريبة المباشرة التي تجبى بارادة الملك . ولكن المقاومة برزت عنيفة . فأعلن الملك الاحكام العرفية ، وارسل الفرق للاقامة في بيوت البكان وسجن بعض النبلاء وكبار البورجوازيين ، واكثر من عامسة الشعب في القوى البحرية . وخلال الاستبداد اعاد من تلقاء ارادته الاحتكارات التي الفاهسا المجلس التشيلي في السنة ١٩٢٤ وأمر باحترام الحدود القديمة للاحراج الملكية واستصدر أحكاما بفرامات نقدية على الملاكين المعتدين . وفي السنة ١٩٣٤ ، أعاد و مال الاسطول ، الذي يوجب على قضائم المرافىء تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويعطيهم حتى فرض الضرائب على السكان. تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويعطيهم حتى فرض الضرائب على السكان. تمني الشيلي عن حصر امتيازات التاج العليا . و الملك هو القانون » . و و للملك الحتى في فرض الضرائب على رعاياه في سبيل الخير العام . . . و الملك الحتى في تجاوز كل قانون اذا اقتضت الضرورة ذلك » .

وبدأ جاك الثاني ، في الاتجاء نفسه ، باعلان أوجب فيه ، من تلقاء نفسه ، الاستمرار في تأدية الرسوم التي أعنى بمضهم سنها في حياة الملك المتوفي (١٦٨٥) فقط .

اقتضى لفرض ارادة الملك وجود جيش دائم يأقر بامره وحده . وكانت هذه الجيش الدائم على الدوام اكثر النقاط ضمفاً . فقد نبا طبع الانكليز عن ذلك ، وبالنظر إلى ان البحار تحمي انكلترا لم يحظ الملك ، شأن ملوك اليابسة ، بساعدة إلحاح ضرورات الدفاع عن الحدود . وغالبا ما قنع الملك بحرس خاص قليل العدد وببعض الحاميات الضعيفة . فلجأ شارل الاول الى و الاكثار ، من المتطوعين بينا كان و ونتوورث ، يحاول تأليف جيش دائم له في ايولندا . وفي أواخر عهد شارل الثاني ، استدعيت حامية طنجة الى انكلترا فارتفع الجيش النظامي الى سبعة آلاف من المشاة والف وسبعاية من الفرسان . ورفع جاك الثاني عدد الجندين النطامي الى سبعة آلاف مسكرا في و هونسلو ، السيطرة على لندن .

وهكذا توصل ملوك سلالة ستيوارت ، على مراحل ، الى تركيز اهم مستازمات السيادة المطلقة في شخصهم ، وتوفقوا ، بمراقبة دائمة استهدفت الرأسماليين والاشراف الريفيين المتجهين

الى الزراعة التجارية؛ الى الابقاء بمض الوقت على التوازن بين المجتمعين القديم والجديد قبل السنة ١٦٤٠ ، وحاولوا مراقبة التطور نحو رأسمالية حرة بعد الاصلاح .

أتاح الصراع الطبقي لرئيس سلالة (اورانج) استلام ادارة الحكسومة ، مثال الاقاليم المتحدة وجعلت منه الحروب ملكا مطلقا ، وان لم يحمل هذا الاسم .

منذ السنة ١٦١٩؟ وقف إيمير أورانسج ، د موريس دي ناسو ، ، ملطة امراء اورانج المطلقة قائد الجيش ، الى جانب الغوماريين المتحزبين للمجتمع القديم ، والى جانب الاشراف والفلاحين والصناعيين اليدويين والملاحين ٢ اي الى جانب اعداء البورجوازية والرأسمالية . فاستحال بتصرف هذا قم الفتن الشعبية التي أخذت تندلع في كل مكان تقريبًا . « اولدنبرنفلت » الذي اتهم ، في هذه المقالات ، ببيسم بلاده من فرنسا واسبانيا. فاعلن رئيس الحكومة مجرماً واعدم في ١٢ –١٣ ايار من السنة ١٦١٩ ، وأقصى مجمـــم (دوردرخت ، كل تفسير حر للتعاليم البروتستانتية وأدان الارمينيين بالهرطقة . فنزح عدد كبير من الرعـاة الارمينيين عن البلاد . وخسر الجهوريون الاكثرية في كل مكان ، في مجالس المسدن والجعبات الاقلىمية والجمعيات العامة . وتكون في الرأى العام تيار فكرى لمصلحبة الامير ، الذي اعتبر منقذاً ، كان من نتسجته احلال الاورانجيين في كافة المراكز المرموقة . ولم يلبث تجدد الحرب ، والخطر المحدق بالحدود ، والحاجة الملحة الى تركيز السلطة ، بغية تعهد الجيوش وادارة العمليات العسكرية والدبلوماسية ان رفعت سلطة امير اورانج الى منتهاها، فمارس ﴿ مُوريس دي ناسو، حتى السنة ١٦٢٥ ، ثم فردريك - هنرى من بعده ، سلطة ذاتية مستندة الى الجيش والطبقات الشعبية المطمئنة والاكليروس العادي للرأسمالية . وبات امير اورانج متمتعياً بسلطة مطلقة الماحت له ادارة كل السياسة الخارجية بمعارنة مجلس يضم بعض الانجية . لا بل ان ممثلي المجالس العامة قد سمحوا لامين سرهم في السنة ١٦٣٤ بحضور اجتماع هذاالجلس واعترفوا بشرعية مقرراته.

انتهى الصلح المعقود في السنة ١٦٤٥ والنصب الذي عقبه بسلالة اورافج الجمهورية البوجوازية الماجزة الى الضعف والوهن . فلجأ غليوم الثاني الى قلب نظام الحكم ، ولكنه توفي في السنة ١٦٥٠ ، ولم تضع له امرأته ابنا الا بعد وفاته بعدة أشهر . غدت سلالة اورانج دون زغيم آنذاك ؟ فانهار الحزب الاورانجي . تأسست الجمهورية البورجوازية مرة اخرى تحت سلطة اقليم هولندا ورئيس سلطتها التنفيذية « جان دي فيت » الرئيس الحقيقي الحمورية الاقاليم المتحدة . ففقدت سلالة اورانج كل سلطة . والغيت مهام القائد العام في اقليم هولندا ، في السنة ١٦٦٧ ، اذ جاء في البراءة الدائمة ان مهام الضابط العام والاميرال العام تتنافى ومهام القائد العام . الا ان الجمهورية البورجوازية برهنت عن ضعفها وعجزها عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحربين اللتين اندلمتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحربين اللتين اندلمتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا

في السنة ١٦٥٤ بتقهتر تجارة الهولنديين الذين اضطروا القبول بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة ، وبفقدان المستعمرات الهولندية الاخيرة في امير كا الشالية في السنة ١٦٦٧. وأخيراً اجتاح لويس الرابع عشر الاقاليم المتحدة في شهر حزيران من السنة ١٦٩٧. ومرد كل ذلك الى ان البورجوازيين الجهوريين لم يعملوا بتحذيرات و جان دي فيت ، بل انشغلوا ، قبل أي شيء آخر ، بالتجارة والكسب السريسع ، وحرصوا على ان لا يتجاوزوا حدًّا أدنى في دفسع الضرائب ، فرفضوا الاعتادات المطلوبة للجيش وقاوموا احداث الضرائب المباشرة وأمملوا صيانة التحصينات التي تداعت وتهدمت وباعوا الذخائر من فرنسا ، وكانوا قد قضوا على نظام الجيش لفايات سياسية ، فاضطر الضباط المدريون ، وجلهم من النبلاء والاورانجيين ، الى تقديم استقالتهم ، واستبدلوا بابناء البورجوازيين الذين أعوزتهم الخبرة والروح العسكرية .

ملطة غليرم الثالث امير اورانج المطلقة

تصاعد شعور الجماهير القومي ضد الجهوريين . وانفصــل عنهم بعض البورجوازيين بمن تضررت مصالحهم بفقدان المستعمرات الاميركية .

الا ان ذكريات الماضي الجيد واقصاء سلالة اورانج عن كافسة الوظائف المدنية والمسكرية في اقليم هولندا ، الذي فرضه الاسكليز في السنة ١٦٥٤ كغير شمانة للحؤول دون عمل ثاري ، قد عينا أمير أورانج الشاب ، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، لان يكون المنقذ . فتسلم تحت ضغط الرأي العام الشعبي ، منذ الرابع والعشرين من شهر شباط من السنة ١٦٧٧ وظيفة الضابط العسام والاميرال العام في الاتحساد . واعادت المدن كلها ، ثم الجالس العامة ، وظيفة القائد العام ، والفت البراءة الدائمة وعينت غليوم اورانج ضابطا عاماً وأميرالا عاماً مدى الحياة ، كا كانت الحال قبل السنة ١٦٥٠ . وتجددت الحملة المفرضة ، التي استهدفت وأولدنبرنفلت ، فيا سبق ، على و جان دي فيت ، وأخيه وكورناي، فمزقتها الجاهير تمزيقاً . ومنحت المجالس غليوم الثالث كافة السلطات التي طلبها وغدا تابعسه و فاجيل ، رئيس السلطة التنفيذية .

تمتع غليوم الثالث بسلطة لا ينازعها منازع حتى صلح دنياج، . إلا ان النصب العام والوضع السلمي قد زادا مرة اخرى من شأن البورجوازية الجهورية الكبرى الداعية السلام والراغبة في التعاون مع قرنسا . فتجدد الصراع الطبقي ، كا بين السنة ١٦٠٨ والسنة ١٦١٨ ، على الصعيد الديني .

بيد ان سياسة ضم الاقالم الى فرنسا التي انتهجها لويس الرابس عشر ، ثم ابطسال براءة و نانت ، الذي أوغر صدور كافة هؤلاء البروتستانت غيظا ، قد أزالا نفسود البورجوازيين أصدقاء فرنسا . وفي السنة ١٦٨٨ ، جعلت الثورة الانكليزية مسن غليوم الثالث ملكا على انكلترا . فأكسد ذلك نفوذا واسما ، اذ انه بدا وكأنه المدافع عن الحريات في جيسم أنحساء اوروبا وحامي الدين البروتستانتي . ولم تلبث حرب تكتل أوغزبورغ ان اندلمت . ففدا غليوم

الثالث مرة اخرى ، في الاقالم المتحدة ، اميراً سيداً حقيقياً كاكان موريس دي ناسو وفردريك – منري من قبل . ولجأ إلى الضغط بغية تأمين انتخاب أنصاره قضاة في المسدن ، فامسى الاورانجيون اكثرية في الجالس الاقليمية والجالس العامة . وحل محل و فاجيل ، الذي توفي في السنة ١٦٨٨ ، على رأس السلطة التنفيذية ، هنسيوس المتفاني في خدمة الاورانجيين. فمارس غليوم الثالث حتى وفاته (١٩ اذار ١٧٠٢) سلطة تسكاد تكون مطلقة .

ان الأقاليم المتحدة تقدم لنا ، من ثم ، على مراحل ، مثل نظام نرى فيه الصراع الطبقي والخطر الخارجي والضغط الشمي تجمل السلطة تاركز في أيدي قائد حرب يتمتع ، بغضال نسبه ، بما يشبه حقاً تفضيليا ، ومثل نظام اشبه بنظام مطلق مستند الى الرأي العام ، دون ان تحدث تبديلات ذات ثأن في النظم الجمهورية البورجوازية. وهكذا فان هذا النظام يتوسط الملكية والدكتاتورية ويتقرب من دكتاتورية وكرومول علمي انكلترا بعد فوضى الجمهورية الانكليزية ، وعلى الانظمة الجمهورية البورجوازية ، أمام الازمات الداخلية والخطر الخارجي ، ان تفسح الجال للنظمة التسلطية .

ه ـ الروح التجارية

نكرة عامة ان الهدف الاول هو رفع قوة الدولة ، وبالتالي مواردها ، الى الذروة ، عن الروح التجارية والتزود بالاسلحة والذخائر والسفن تزوداً مستقلاً عسن الخارج . ولكن وسية المقايضة الاولى هسبي النقد المعدني الثمين . فهو ما يتبح ، قبل اي شيء آخر ، الشراء والبيع ، ومن ثم انهاض همة المنتج ، وتنمية الاقتصاد ، والحد من خطورة المجاعسات والاضطرابات الاجتهاعية والسياسية التي تنجم عنها ، وزيادة قدرة المكلف على الدفع ، وتحكين الدولة من دفع تخصيصات جيوشها ، ومرتبات موظفيها ، والمحافظة على النظام الداخلي والسلامة الخارجية ، وأنهاض همة المنتجين مرة اخرى بتسديد متاريا . النقد المعدني الثمين هو « دم الاقتصاد » ، لا بل دم الدولة بالذات . ولكن حجمه محدود جداً . فقد توصل الشونهم الى تقدير المعدن الثمين المتداول في اوروبا ، حوالي السنة ، ١٩٦٩ ، بخمسين ملياراً مسن الفرنكات (سعر ١٩٧٨) . وهذ يعني ارت الدول الاوروبية تصرفت كلها ، حوالي السنة ، ١٩٦٩ ، بحجم من الذهب والغضة المسكوكة يعادل النقود المعدنية في مصرف فرنسا وحده في اواخر السنة ، ١٩٧٩ .

اما نتيجة ذلك فعرمية اقتصادية وشبه حرب مالية دائمة بين الدول . كل دولة تحساول المجادة يكون ميزانها مؤاتياً لاجتذاب المعدن الثمين والاحتفاظ به فيجب من ثم ان تمنع الاستيرادات البذخية ، وان يحد من استيراد المصنوعات جهد المستطاع . لا سيا وانها تنقص حجم عمل المواطنين . يجب ان تلتج المصنوعات في البسلاد حتى ولو كلف انتاجها اضماف الاسمار الحارجية . يجب ان تشرع ابواب البلاد لدخول الحامات ، وانما يجب جهد الامكان

ان تنتج في البلاد المصنوعات الضرورية للدفاع الوطني ، كالصواري ، وخشب البناء ، والقار والقنب ، والقطران ، الخ . في هسندا العهد ، وفرت الزراعة معظم المواد الاولية الضرورية للصناعة . فوجب من ثم ، بدون تردد ، ان يعتمد ، عند الافتضاء ، نظام جركي قاس حيال مزارعي البلاد وفرض رسوم ضئيلة على المنتوجات الزراعية المنافسة او اعفاؤها من كل رسم وتحظير تصدير المنتوجات الزراعية الوطنية او إثقالها بالرسوم ، بغية الحصول على عاصيل زراعية وفيرة باسمار متدنية تضمن انخفاض سعر كلفة المصنوعات المعدة للتصدير .

فالمهم انما هو زيادة حجم التصدير ما امكنت الزيادة ، وبالتفضيل، تصدير المصنوعات لان العمل قد رفع قيمتها . ويجب من ثم توفير اكبر عدد مكن من المنتجين واعتباد سياسة تشجيع زيادة النسل . الا ان التغلب على المنافسة يستوجب بيع النوع الافضل بالسعر الادنى . فيجب من ثم ان تكون نسبة الفائدة متدنية حتى يتوفق المتعهد الى رؤوس اموال لا تجر عليه نفقات باهظة . كا يجب ان يدفع العامل اجر زهيد وان يبقى مستوى حياته متدنياً . ولكنه اذا لم يبلم بهذا الواقع واستسلم للبطالة في بلاد تفعرها المصنوعات الاجنبية اولاً ، والاقتصاد الراكد ثانياً ، ينتهي حتها الى البؤس ، كا ان الدولة التي تفتقر الى القوة ، تتعرض لشر الاخطار اي العزو والسيطرة الخارجية . اما المتعهد الرأسمالي فيجب على نقيض ذلك إنهاض همته عكاسب وفيرة .

يجب ان يكون هنالك مستمرات تقدم الوطن الام المواد الاولية ومنتجات الاستهلاك التي تفتقر اليها ، على ان تستفرق بالمبادلة منتوجات الوطن الام المحافظة على الميزان التجاري . ويجب استوفر مواد غذائية ، خامات او مصنوعات ، بسمر متدن ، حتى يتساح اعادة تصديرها . اما المستمرات المغربة في مستمرات المساطق الاستوائية لان منتوجاتها تختلف عن منتوجات اوروبا . وتعتبر المستمرة قبل كل شيء مؤسسة تجارية توفر لتجارة الوطن الام المحاصيل التي تفتقر اليها البلاد المنافسة او عاصيل تكون اقل كلفة من عاصيل البسلدان المنافسة . هسذا كان اساس مذهب الحصرية . تحتفظ الدولة بكافة العلائق مع مستمراتها ، في تضمن بذلك اسواق المستمرات لتصريف عاصيلها الخاصة التي يمكن بيمها باسمار مرتفعة ، وتشتري فائض عاصيل هذه المستمرات باسمار متدنية ، وتعيد تصديرها وتستجمع اموال الدول المتمامة ممها ، ولا تمطي المستمرات باسمار متدنية ، وتعيد تصديرها و الجزر ، او و حقول المستمرات ، في الدرجة الاول ، كما الى وكالات تجارية على السواحل او الجزر ، او و حقول المروعات ، يتعهدها المهاجرون في مناطق اعظم اتساعاً . وليس سوى رجال الدولة الاسبانين وافرنسين وبين مؤلاء ريشليو وكولبير ، من رأوا ان سكان المستمرات يجب ان يتمشاوا ويحوال الدولة الاسبانين او فرنسين وان المستمرات يجب ان تؤلف ولايات الوطسين الام في واوراء المحار .

ان التجارة بمفهومها هذا تدويل اقتصىادي او اقتصاد موجه . فبعقدور الدولة وحدها

تنظيم االاقتصاد والدفع به الى الامام كما هو لائق . وهي تفعل ذلك ، في مرحلة اولى ، في سبيل بلوغ هدف سياسي ، هو قوتها . وهي لا تسعى وراء الازدهار بحد ذاته ، وليس رفع مستوى الحياة غايتها الاولى . فالازدهار وسيلة ورفع مستوى الحياة نتيجة مباركة ثانوية . الجوهر هو قوة الدولة . السياسة تتقدم الاقتصاد . وتعدو الدولة ، في مرحلة ثانية ، تمبيراً عن البورجوازية التجارية والصناعية الثرية التي هي انمتها وانجحتها ، فيصبح إثراء هذه البورجوازية غاية وقوة ، وقوة الدولة نتيجة . الاقتصاد يتقدم السياسة . الاقاليم المتحدة مثال المرحلة الثانية ، وفرنسا مثال المرحلة الاولى . اما انكل ثرا فلا تزال بين السنة ١٦٥٣ والسنة ١٦٨٨ ، مثل المرحلتين معاً .

مثال الاقاليم ان اقتصاد الاقاليم المتحدة اقرب الاقتصادات الى الاقتصاد الحر. المتحدة : جوالة البحاد فليس للبلاد من ميزة سوى مركزها الجغرافي على البحار الضيقة عند مصب طريق الرين النهرية الكبرى بين بلدان البلطيك وبلدان المتوسط، وسهولة بلوغ المحيطات، وحين اتاح الانتصار السياسي على اسبانيا، واقفال مصاب اله السكو »، وتقهقر أنفرس، ان يستفيد شعب نشيط من ذلك ، جعل المولنديون والزيلنديون والفريزون من انفسهم وسطاء تجارة العالم . انصرفوا الى تجارة تخزين البضائع، وجعوا لديهم منتوجات العالم اجمع لمقايضة بعضها بالبعض الآخر بواسطة النقد ولاعادة تصديرها . فامسوا جوالة البحار . واعتمدوا مبدأ الحرية الفروري لتجارتهم . فخالفوا الانكليز بقولهم بحرية البحر . وكانوا في بلادهم، اقله في المدن الكبرى، متساهلين نسبياً حتى نحيال غير المؤمنين . ومنحت المعاهدة المعقودة مع ملك الحيط الهندي ، كا منحت الحصانة الدولية لملك فارس، والسكنى على نفقة الجهورية التجسار فالمراسين والاعفاء من الفرائب غير المباشرة ، على ان يأتوا باعداد كبيرة ويستحضروا مالاً وقيراً للشرأء وإذناً عارسة العبادة الاسلاميسة سراً . هكذا لجاً المولنديون الى وسائل غتلفة وقوسطوا بين المنتج الحيل والشاري الاجنبي .

الشركات التجارية والدولة عجب في الاساس لقوانين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات والدولة ولا عجب في ذلك اذ ان تجارة الافراد الحرة وخيمة العاقبة في عهد يتميز بندرة المعادن الثمينة . فان الافراد و الذين يسعون حكلهم وراء الكسب ويسلقون في اسواق اوروبا وآسيا كيات ضخمة من المنتوجات بالنسبة لحكمية النقد المتوفرة . فتنخفض الاسمار ويفلس الافراد وتنتحر التجارة . وفي فترات الحروب الاوروبية والمنازعات التجارية في الحيطات والصعوبات التي يثيرها الامراء الحليون والازمة الاقتصادية ويكسون الافراد عاجزين وتشل المتجارة . وليس لدى الدولة من جهتها وبسبب افتقارها الى الموارد المالية وعاجزين وتشل التجارة . وليس لدى الدولة من جهتها وبسبب افتقارها الى الموارد المالية و

الموظفون والسفن والجيوش والوسائل اللازمة لتنظيم تجارة ما وراه البحار . وبات من ثم لزاماً على التجاران يتجمعوا ويوسعوا الشركات . فتجمعت ست غرف من التجارية . اسندت وأسست شركة الهند الشرقية . وقد ضمت ٧٣ مديراً من مدراه الشركات التجارية . اسندت ادارة الشؤون المشتركة الى هيئة من سبعة عشر شخصاً تعينهم الغرف ، على ان تمين غرف استردام نمانية منهم لانها تتحمل وحدها نصف النفقات المشتركة . وعاد لكل غرفة امر البت في تجارة اعضائها والصفقات الواجب اجراؤها في الهند والمبالغ الذهبية الواجب ارسالها وبيع البضائع المستلمة . وعاد لهيئة السبعة عشر امر البت ، باكثية الاصوات ، بتنظيم الاساطيل وتحديد خط سيرها وتعرفة البضائع . واستفادت من احتكار الاتجار مع الهند . واعتمدت في المستعمرات مبدأ البحر المقفل وادعت بتحريم دخول الهند على الانكلين والبرتفاليين والفرنسيين . ومارست حقوقاً ملكية ، كالحرب والسلم والمعاهدات مع الاوثان وتعيين حكام وبحالس يكون له سلطة القضاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية الثابعة وتعين حكام وجالس يكون له سلطة القضاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية الثابعة للشركة . وتجمع لديها اخيراً في الهند ، جيش بري مؤلف من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل وجيش بحري وضعت تحت تصرفه بين اربعين وستين سفينة ، وباتت ترسل سنوياً الى اوروبا بضائع تتراوح قيمتها بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى اوروبا بضائع تتراوح قيمتها بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى ٠٠٠٠ فاورتفعت اسهمها من ٢٠٠٠٠ فلورين الى ١٨٠٠٠ فاورين حوالي السنة ١٦٧٠٠ .

ولكن صلة وثيقة قامت بين الشركة والدولة. فقد عين حكام المدن المدراء الجدد مدى الحياة. وكان كل المدراء اعضاء في مجالس المدن والجالس الاقليمية والجالس العامة. وسيطرت غرفة امستردام في هيئة السبعة عشر كا سيطر اقليم هولندا في المجالس العامة. وكان مصرف امستردام ، الذي يعود تأسيسه الى السنة ١٦٠٩ ، مصرفاً بلدياً. واختير مدراء المصرف من بين الاوصياء على المدينة (الحكام ورؤساء البلدية) ، الذين كانوا في الوقت نفسه مسدراء شركة الهند الشرقية . فكان هنالك ، الى حد ما ، تشوش والتباس بيسن الدولة والشركة والمصرف ، وغالباً ما خطت كلها الخطوات نفسها . ان السياسة والحرب ها اداتا التجارة التي تديرها مواثقة من الرأسمالين .

اما شركة الهند الغربية ، التي تأسست في السنة ١٦٢١ ، فقسد خضمت لتنظيم مماثل ، ولكنه ابعد حرية . يقدم المساهمون الفرنسيون ، كل سنتسبين الى الحكام ، مرشعيهم لتولي مهام المدراء . ويمين المساهمون لجان مراقبة ترغم المدراء على عرض كافة المسائل الهامسة على جميات المساهمين اما مجلس التسمة عشر فيكاد أن يكون عاجزاً . وتقوم الاحزاب في الجميات . لذلك كانت سياسة الشركة مترددة وحائرة وكان أفول نجمها سريمساً . اضف الى ذلك ان البرازيل نقدت في السنة ١٦٦٧ وامستردام الجديدة (نيويورك) في السنه ١٦٦٧ . فاقتضى تصفية حسابات الشركة في السنة ١٦٦٧ .

تجارة المعادن الثمينسة في المستددام الاقاليم المتحسدة ، ولا سيا في المستددام . فقد نقل الهولنديون الشيئة ومصرف المستددام . الاقاليم المتحسدة ، ولا سيا في المستردام . فقد نقل الهولنديون بضائعهم الى غينيا وعادوا منها بالذهب . وموتوا السبانيا ، حتى اثناء الحرب ، اذ ان نصف منتوج مناجم الفضة الاميركية كان يصل سنويا الى المستردام . وكانت الهولنديين السيطرة على تجارة قادش ، وبسبب نظام الحصرية اضطروا الى ان يودعوا البضائع لدى الاسبانيين الذين كانوا يبيعونها في الهند الغربية ويعودون باغانها . ومارسوا التجارة المنوعة ايضا انطلاقاً من جزيرة وكوراساو ، الجاورة لقرطجنة . فكانت المراكب المولندية تتخذ من «كوراساو ، قاعدة لما وتوسو على مقربة من الشواطى الاسبانية ، فيقصدها السكان في زوارقهم ويبتاعون ما يحتاجون اليه . بفضل هسذا المعدن كله ، كان الهولنديون من الوسطاء بين الهند واوروبا لان الموتين نادراً ما ارتضوا من الاوروبيين بغير المعادن الشيئة .

وصدر الحولنديون النقد المعدني ايضاً. فان دور النقد عندهم قد ضربت نقوداً تجارية شرعية الوزن والعيار وثق الناس بها وتهافتوا على طلبها ، كالدنانير التي تحمل رسم الأسد ، في مرافى الشرق الادنى وفي آسيا الصغرى ، والركسدالات الفضية في البلدان البلطيكية ، و و الدوقيات ، الفضية الصغرى ، في الهند والصين ، وكان على التجار الأمبية في روسيا ، و و الدوقيات ، الفضية الصغرى ، في الهند والصين ، وكان على التجار الاوروبين الراغبين في الاتجار مع هذه البلدان أن يحصلوا على القطع النقدية الحولندية ويأتوا الى امستردام ، لهذه الغاية ، ببضائمهم او سبائحهم المدنية المستطيلة أو بقطعهم النقدية الخاصة .

وكان مجرف أمستردام ، الذي تأسس في السنة ١٦٠٩ بناء على طلب تجار أمستردام ، يدب من امكانيسة الاستفادة من كمية الممادن الثمينة هذه برسائل الدفع التي يوفرها التجار . فكان مصرف تخزين تودع فيه النقود والسبائك الذهبية والفضية المستطيلة . وكان من شأن الثقة التي أوحاها ان تدفقت الودائع عليه حتى من الخارج . وكان مصرف صرافة أيضاً يوفر التجار نقد أية بلاد من البلدان ، ويتنج بذلك شراء البضائع من كل منشا ، ويحتذب من ثم التجار الاجانب. وكان مصرف دفع يجري دون مقابل ، بتحويل حساب الآخر ، ودونما نقل المدن الذي يستفرق وقتاً طويلا ويستلزم نفقات باهطة ، كافة عمليات الدفع التي يحتاج اليها التجار ، ضمن حدود ودائمهم . وقد استخدم المصرف ، في عملياته ، نقداً حسابيا هو الفاورين و بنكوه ، قابت القيمة ، يعتبر عثابة كفالة المتجار . ثم أصبح تعصرف امستردام ، شيئاً فشيئاً مصرف دين اخيراً . فبدأ باعطاء السلفات لمدينة امستردام في حالة الحرب ، ولشركة الهند الشرقية بغية تجهيز أساطيلها .

واستمرت ؟ إلى جانب المصرف العام ؟ المصارف الحاصة ؟ التي كانت تسلسّف التجار المبالغ المضرورية لاكال شعناتهم ؛ وتحسم السفتجات التي تدفقت عليها مسسن كل مكان وأضيفت الى رؤوس الاموال المتحكدسة في أيدي الحولنديين .

كانت نتيجة هذه العناصر كلها وقرة في وسائل الدقع المتازة التي جملت البائع يفضل الشاري الهولندي على كل شار سواه ، وأتاحت الهولندين، في أي وقت اجراء صفقات كبرى ، وعرض شتى أصناف البضائع بكيات كبرى وباسعار دنيا . وجرت هذه الوقرة إلى انخفاض نسبة الفائدة . وكان باستطاعة الهولندين البيسع بسعر أدنى وتجميد أموالهم مدة طولى ، كأن يسبقوا التجار الانكليز والفرنسين إلى تخزين بضائعهم في قادش ، ويتفاوضوا في موضوع الصفقات قبل منافسيهم ، ويحددوا آجالاً بعيدة للدفع . وكان باستطاعة الصيارفة المولنديين أخيراً اقراض ماوك فرنسا وانكلترا وأمراء ألمانيا . وقد أتاحت سلفات المصرف لمدينة امستردام وشركة الهند الشرقية تجهيز الاساطيل والجيوش في الظروف المسيرة . وقد سهلت كميات النقود الكبرى القروض والضرائب وتجنيد الجيوش البرية والبحرية والتحالف معالدول .

الثال الانكليزي ترتدي الروح التجارية الانكليزية طابعاً مشتركا . لقد دهش الانكليز مسن نهوض فرنسا السريع في عهد هنري الرابع . فبرزت فكرة التنظيم الموروثة عن عهد اليزابت ابروزاً شديداً ولفئت انطلاقة التجارة الهولندية الانتباه إلى فوائد حريسة التجارة النسبية وفوائد الشركات صاحبة الامتياز . وبدا نمو التجارة الذي كان أقل منه في الاقالم المتحدة الشركات صاحبة إلى تدخل الدولة ولكن انطلاقة الرأسمالية التجارية والصناعية الهامة قد أوحى لبعض التجار المنذ ذاك الحين المختلفة على الانظمة والاحتكارات وبالميل المرية وبان التجارة يجب ألا تخضع الا لتشريسه عام وبان هذا التشريع هو من شؤور المجلس التمثيلي .

بذل الملكان جاك الاول وشاول الاول جهوداً كبرى في سبيل التدخسل في رئائق الملاحة الحياة الاقتصادية . فقد انصرف إلى هذا العمل المجلس الخاص تباونه و لجنسة تجارة ، منذ السنة ١٦٢٦ وتسانده الغرفة المكوكبة . وبقيت التجارة البحرية حرة في المناطق القريبة من انكلترا وأسبانيا وفرنسا وقد استطاع صغار بجهزي المراكب ممارستها دونيا صعوبة . أما التجارة البحرية في البلدان النائية أو في البلدان التي ليس بلوغها بالأمر البسير ، فقد نظمت في البدء بسلسلة من وثائق الملاحة التي لا تختلف وثيقة كرومول الشهيرة (١٦٥١) عنها اختلاف جوهريا . فقد احتفظت بتجارة انكلترا مع ممتلكاتها في آسيا وافريقيا وأميركا لسفن الانكليز والايرلنديين أو للسفن المبنية في المستعمرات التي يملكها المهساجرون ، وأوجبت ان يكون والايرلنديين أو للسفن المبنية أو المسلم المراك الكائرا . وانقصت عدد السفن التي كانت رهن الطلب ، فرفعت بالفعل ذاته أجور نقل البضائع ووجهت رؤوس الاموال نحو بناء السفن وأقضت شئاً فشبئاً إلى زيادة عددها وعدد البحارة .

الشركات التجارية والشركة المساهة . استفادت الشركة المنظمة من احتكار تجاري اقصى عنها المتافسين . كل عضو من أعضائها يتجر بامواله الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . الا المنافسين . كل عضو من أعضائها يتجر بامواله الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . الا ان كل عضو مقيد ببعض الانظمة : البيع بسعر أدنى معين، وعرض أصناف ممتازة . لذلك كانت المنافسة بين الاعضاء محصورة وكانت الشركة شبيهة بجمعية الصناعيين التي تستهدف اتقاء الكساد أو فرط الانتاج . انتمى إلى هذا النوع تجار لندن المفامرون وتبعسار شرقي انكلترا وتجار ونيوكسل ، المفامرون ، والشركة التركية . واستفادت الشركة المساهة كذلك من احتكار وقد تأسيت في البدء لرحلة واحدة او لمدة محدودة . ثم غدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠ فاستطاعت وقد تأسيت في البدء لرحلة واحدة او لمدة محدودة . ثم غدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠ فاستطاعت الشركات الاقدام على مشاريع طويلة الاجل . انتمت الى هذا النوع الشركة المسكوبية والشركة الشركة المسكوبية والشركة الاخريقية وشركة الحند الشرقية الشهرة التي تأسبت في المنة ١٦٠٠ واستفادت من احتسكار التجارة الانكليزية بين رأس الرجاء الصالح ومضيق و ماجلاتن ، ، في المياه الشرقية ، وتمتمت التي توطن فيها المزارعين او المكترين .

وحاول جاك الاول وشارل الاول تنمية الصناعة عن طريق شركات احتكارية وانقابة الاقتصادية وانظمة جديدة ومنع الاستيراد . واسند الى عدد غفير مسن الضباط امر مراقبة النوعية . ولعل التنظيم في عهد الاستبداد لم يكن دونه شأناً في عهد كولبير . فقسد صب السرد جون كولبير ، في الجلس التمثيلي جام غضبه بقوله : دها...ان سيلا من الطفيليات قد غزاكل البلاد . اعني بذلك المحتكرين . . . على غرار الضفادع المصرية ، احتلوا بيوتنا ولم يبقوا لنا غرفة واحدة ليسوا فيها ؛ يشريون في طاسنا ويفترفون من صحيفتنا ؛ يحلسون قرب نارنا ، ومحونا وختمونا من رأسنا حتى أخص قدمنا » .

ثم استقرت الحرية مع الثورة . فانهار المجلس الخساص وزالت المكوكبة وتلاشى التنظيم والرقابة ، ولكن نوعية المنتوجات انهارت ايضاً . الفت الجمهورية عمليسا كافسة امتيازات الشركات . ولكن التجار ، الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً كبيراً ، ملاوا الاسواق بالبضسائع . وحجزت الدولة عن تأمين سلامة السفن . فافضت حرية التجارة الى نتائج سيئة .

فرجع شارل الثاني في مهد الاصلاح الى نظام تدخلي ممتدل لأن الطبقات الرأسمالية خرجت، ظافرة من الثورة ، مع ان هذا الظفر لم يكن حاسماً . تدخلت الدولة ، بصورة خاصة ، بتدابير عامة ، كالتشريع والجارك والمعاهدات . واستمان الملك بمجلس تجارة مؤلف من بعض اعضاء المجلس الخاص وبعض اعضاء الشركات التجارية . قدم هذا المجلس تقاريره للملك الذي اصدر قراراته النهائية . وتدخل شارل الثاني باعتاد سياسة معاهدات تجارية مع البرتفسال واسبانيا

والاقاليم المتحدة وقرنسا والدائمرك (١٩٦٧ – ١٩٦٨) . ونظم التجارة البحرة بوثيقة السنة ١٩٦٥ حول الملاحة ، التي استوحاها من وثيقة السنة ١٩٦٨ التي توسع فيها . فعصر ، كل تجارة بين المستعمرات واوروبا . غدت انكلترامستودعاً ضخماً للسكر والتبغ والقطن والنيلج والزنجبيل واخشاب الصباغة الخ . التي تشترى باسمار منخفضة في المستعمرات وتباع باسمار مرتفعة للخارج . وغدت المستعمرات سوقاً لا تباع فيها سوى المصنوعات والمواد الغذائية البريطانية . وتواصلت سياسة الشركات صاحبة الامتيازات . وخصت شركة الهند الشرقية ، بصورة خاصة ، بامتيازات جديدة في السنة ١٩٦١ شملت احتكاراً جديداً وسلطات ملكة .

أما في الداخل فقد المخفض عدد الشركات الصناعية الاحتكارية ، التي كانت مدينة بامتيازها لحسك صادر عن الجملس التمثيلي لا لشهادات رسمية حسادرة عن التاج . واحملت قوانين تنظيم الحياة الاقتصادية . فلم يعد هنالك من تحقيق ولا من رقابة نوعية المنتوجسات ورقابة الاسمار والاجور . فباتت الحرية الاقتصادية شبه تامة ، وسارت الاعسسال التجارية على هذا المبدأ : الكسب هو وحده ما يوجه عمل التاجر . فبقيت نوعية المنتوجات متدنبة .

دانت انكاترا لتدابير التوجيه الاقتصادي بالازدهار الذي بقي دونه في الاقاليم المتحدة على كل حال . وبقيت تجارة شركة الهند الشرقية ادنى الى حد بميد من تجارة منافستها الهولندية ولم تشكل سوى جزء فشيل جداً من تجارة الهند البحرية . فهي قد بلغت عورات الى لندن و مورات الى لندن عدد السفن العائدة كل سنة من و مورات الى لندن در الى ٢٧ مفينة معدل حولة كل منها ٥٠٠ على .

ان النظام الاقتصادي والاجتاعي في فرنسا قد جمــل الحاجة الى تدخل المثال الفرنسي: الدولة اشد الحاحاً. فالمذهب الذي طلع به « برتلي دي لافحاس » في عهد الكولبرية الدائمة

هنري الرابع، و مونكريتيان » (الاقتصاد السياسي، ١٩١٥) وريشليو، وكوليير ، هو هو لم يتفير ، كالم تتفير اساليب الحكم في عهد منري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . ولم يأت كوليير بجديد سوى التوسع في تطبيق نظام كان ملكا مئتركا وتقليداً بسبب تماظم سلطة لويس الرابع عشر المطلقة وبسبب حاجبات سياسته ، والخفاص الاسمار المفر بالانتاج ، والازمة الاقتصادية التي كانت نتيجة طبيعية لارتفاع نسبة الوفيات في السنتين ١٩٦١ و ١٩٦٢ . فقد احدث عدة مئات من المصانع الملكية بيها لم يكن في فرنسا قبله سوى عدة عشرات منها فقط . ولكن و الكولييرية » نشمل القرن بكامله ، وتنشط كلسا توطدت السلطة المطقة ، في عهد هنري الرابع بعد السنة ١٩٥٦ ؛ وفي اثناء وزارة ريشليو ، وقبل و الاختيار العظيم » الذي آثر الحرب (١٦٣١) ، وفي عهد لويس الرابع عشر بعد السنة ١٩٦٦ .

الهدف سياسي قبل اي شيء آخر . يجب الحؤول دون خروج و هــذا الذهب وهذه الفضة

من خزائن فرنسا ليثري بها اعداء الدولة ، ، ومحاربة الاعداء الخارجيين الذين لن يكوب « المكوك ، واداة صناعسنا « اقل وبالاً عليهم من السيف ، (لافياس).

« الشركات التجارية هي جيوش الملك ومصانع فرنسا هي رديفه » (كولبير) .

ان باستطاعة الدولة وحدها التغلب على د الصعوبات التي لا يحاول التجار الادارة الاقتصادية التغلب عليها بنشاطهم الخاص ، لذلك تنظمت ادارة اقتصادية رسمية كاملة . وكان جهازها الرئيسي مجلس الملك الذي عاونه مراقب التجارة العمام ، و لافياس ، ، وريشلمو ؛ ناظر الملاحة والتجارة ورثيسها وسيدهما الاعلى . واكن السلطة المركزية ما زالت متشتتة . فقد احتفظت المجالس التمثيلية وغرف المحاسبات ، النع .. بصلاحياتها الاقتصادية ، انتقلت معظم الصلاحيات الاقتصادية تدريجياً إلى مراقب المالية العام كولبير . الا أن المستشار وأمين سر الدولة في بعض الولايات ولو تلبيه ولوفوا في مصالح الجيش الصناعية ، قـــد احتفظوا ببعض المهام الاقتصادية . وقــــ عاونهم مجلس ملــكي للتجارة ، واسندت امور التحقيق الى الوكلاء ومفتشي المصانع العامين .

نظمت الدولة الاستهلاك بقوانين تقمد النفقات المفرطة ، والتجارة بتحظير المعمادن الثمينة والنقود المعدنية ؛ ومنم الاحتكار؛ وصفقات العينات ؛ وشركات المشترين وتحديد عدد الوسطاء بالابقاء على المنافسة بفضـــل ايجاب البيع للاسواق في ايام ومواعيد معينة . ونظمت الدولة الصناعة بقواعد عامة تحدد الطول والعرض والوزن والنوعية والصقل . وقام المفتشون العامون وكتبة المصانم يزيارات متكررة الى المصانم والمساكن . أما المقوبات التي تعرض لها المخالفون فغرامات نقدية وحجز وهدم ، واخيراً (١٦٧٠) نصيبة وغل . _

كان الهدف الأول ، بحسب التسلسل المنطقي ، منسم اخراج الأموال .

الدولة محدثة السناعات

لذلك بات من واجب الدولة احداث صناعات جديدة حتى لا تضطر الى الشراء من الخارج . وانما قد محدث ان لا تكون لهذه الصناعات سوق داخلية فتصبح الدولة أذ ذاك زبونها الوحيد . والفلاحون لا يبتاءون مصنوعات حديدية كثيرة كما أن أدوات زراعية كثيرة ، كالمساحي والمقالب ، تصنع من الخشب. وغالبًا ما تصنع البواسن نفسها من الخشب الصلب . فالدولة تكاد تكون السوق الوحيدة لصناعة الحديد ، لاجل سفنها واسلحتها ومعداتها وقصورها حيث يعالج المهندسون الحجر بالحديد . وكانت الدولة، منذ السنة ١٦٦٥ حتى السنة ١٧٢٦ ، الزبون الوحيد لصناعة التنك في ربومون ، . وخلاصة الكلام ان النقطة الاولى ، في التسلسل المنطقى ، هي ان يدو"ر المال في داخل المملكة ، وهي الدولة من ينظم حركته الدائرية الضرورية للحياة : ضرائب ، صفقات الدولة، تسديـــد حساب الميّــارة ، اجور المهال ، ضرائب ، وهي حركة تنضي الى توفير المصنوعات والمواد الغذائية في كل مكان. أما النقطة الثانية فهي منطقياً زيادة هذا الحجم من المال بمضاعفة البيع الى الخارج ، فيتضح من ثم ان الصناعة هي أهم عناصر المثال الفرنسي .

الدولة تستحث انشاء المشاريع . عملاء الملك يبحثون عن التجار الراغبين في انشائها . الملك يرفع من مرتبة النشاط السناعي في السلم الاجتاعي بترقية اصحاب المشاريع الى طبقة النبلاء ، وباعلانه ان صناعة الزجاج وصهر الحديد والتجارة الكبرى لا تحط من مقام النبلاء ، وبزياراته الى المصانع مع حاشيته ، سواء دعي هنري الرابع أم لويس الثالث عشر ام لويس الرابع عشر ، وباطلاق اسم الصناعة الملكية على بعض المشاريع والسباح لها باستخدام شعار التميان المزدانة بالزنابق .

والدولة تؤمن حياة المشاريع الجديدة بتوفير الوسائل الضرورية لها الى ان يصبح المشروع قادراً على الحياة بوسائله الخاصة . فعملاء الملك يحثون علية النبلاء وكبار الاكليروس والمجالس الاقليمية والمدن على تقديم رؤوس الاموال . والملك يرغم كذلك ؛ على هذا العطاء ، رجال المال المحولين جل اهتامهم الى النزام الضرائب والقروض الملكية ، وسائل تخزين الأموال ، فيكسف وجههم ولكنهم يمثلون بكل حقارة . كا ان الملك يخفض نسبة الفائدة القانونية ، الى ٢٦ ، ٢ / في السنتين ١٩٩٧ و ١٩٣٤ ، والى ٥ . / . في السنة ١٩٦٨ . ويحساول تخفيف الدخول الملكية والضرائب المباشرة ووفاء ديون المدن والجميات . ويمنح المشاريع ذات الامتيار اعفاءات اميرية ومساكن وابنية وتمويضات ادوات ومساعدات للامفاق على التأسيس أو لتغذية رأس المال ،

ويوفر الملك اليد العاملة اللازمة للمشاريع . فكولبير يعتمد سياسة تشجيع النسل ، ويعفي من الضرائب ، الى حين ، المتزوجين في سن العشرين والعائلات المؤلفة من عشرة أولاد فما فوق . والملك يمنع هجرة العال لأن عملهم حق من حقوقه . والملك يجمع المتسولين في مستشفيات حيث يكرهون على تعلم مهنة من المهن . وكولبير يلزم المتعطلين والعوانس وسكان الاديرة بالممسل للمصانع ، والآباء والامهات في غتلف الطبقات بارسال أولادهم الى التدريب والملك يستحضر الاختصاصيين من البندقية و و فلاندر ، واسوج والمانيا ويجنسهم ويزوجهم ، ويقمرهم بآلائه ولكنه يشترط عليهم تدريب العال الفرنسيين والبوح باسراره .

وتضمن الدولة ، المشاريع ذات الامتياز ، حرية العمل ضد نقابات أهل الحرف الواحدة : حتى استخدام ما يازمها من عمال وعمال متدربين ، وحتى انشاء المصانع والمستودعات التي تحتاج اليها . ويحررها من الانظمة النقابية ويؤمن لها سلطات قضائية خاصة ، كطلب حكم قصر العدل أو مجلس الملك .

وتؤمن الدولة تموين المشاريع بالحامات بحرية نغلها وأعفائها من الرسوم الجمركية والاجازة

بالتزود بها من الاحراج الملكية .

وتؤمن الدلة التعليم التقني . فالمتدربون يتمرنون في مصانع واللوفر » و و التويلري » و ه غويلين » والمصانع الملكية ، ومصانع المستشفيات ، ومدارس بناء السفن وعلم المياه السطعية في المرافىء . وبايعاز من كولبير تولت اكاديمية العاوم اصدار كتاب و وصف الفنون والمهن » (١٦٧٥) وكتاب و مجموعة الآلات » (الجزء الاول ، ١٦٧٧) . وظهرت كتب تقنية : و التاجر الكامل » و لجاك سافاري » (١٦٦٩) ، و «الحسابات المضبوطة» ولباريم» وتولت و صحيفة العلماء » اطلاع القراء على الطرائق الصناعية الجديدة. وانصرفت الاكاديمية الى عاولات الاختراعات الآلية : الآت رفع البضائع وتنسيقها ؛ آلات البسندر والحصاد والتقنية والطعن ؛ شتى انواع المناويل . فقد رفعت احدى الآلات المثلث القائم في اعلى اللوفر الذي يزن ٠٠٠ و كيلو غرام . فاعتقد و بَرّو » ان عهد الآليات سيداً قريباً .

وتؤمن الدولة الاسواق للمشاريع ذات الامتياز : طلبات ، احتــــكار البيع لفارة معينة ، حماية المنتوجات في السوق الداخلية بالتعرفات الجركية المرتفعة ، منع البضائع الاجنبية .

منالك امثلة مختلفة عــن المشاريم صاحبة الامتيازات. فالدولة تحمي أمثة المشاريم و المسانع المدوية الملكية ، ، وهي مجموع مصانع لصناعة ممينة في مــكان معين . ومــا صناعة القلانس والجوارب في وطروا ، سوى مجموع ارباب المنين يعملون في هذه الصناعة في طروا .

وتحمي الدرلة شركات التوصية ، ثم الشركات المساهمة بعد السنة ١٦٧٣ . يشترك الموصون باعداد محدودة مع تجار صناعين : اربعة شركاء في مصنع « فان روبيه » في « ابفيل » . أما في المناجم وصناعة التعدين الكبرى وصناعة الاصواف ، فالشركات شركات حقيقية تضم تسعة مساهمين واثني عشر وسبعة بمشر مساهماً ، كشركة « داليان دي لاتور » ، جابي الاموال المام في مقاطعة « دوفينه » ، التي تخصصت في صناعة المدافع والمراسي والاسلحة والمصاهر .

وفي بعض الاحيان تكون الدولة تاجراً _ صناعياً في مصانع الدولة . ففي مصنع دغوبلين» وهو مصنع مفروشات التاج ومديجاته ، اثنان وعشرون رئيس مصنع . الدولة تفاوضهم قطباً . تقدم لهم المناويل وتبيع منهم الحامات وتفرض عليهم الرسوم الايجازية والرسوم النهائيـــة . ويفاوض رؤساء المصانع المهال ويقدمون لهم سلفات مالية .

وهنالك اخيراً ادارات ملكية ، فالدولة تحتى احياناً تأميات حقيقه كها حدث في بمض الصناعات الحربية مثلاً ابان الحرب الهولندية ، صودرت المصاهر في مقاطمة و نيفرنيه ، وتولى ادارة الانتاج مهندسون وعمال تابعون البحرية ، وفرض على كل مصهر تسليم وزن معين من المسنوعات ، وحددت بكل دقة ارباح اصحاب المصانع والاجور واثمان الخامسات ، وكانت هنالك ادارات اخرى ايضاً .

طرائق الانتاج والكبسب

هنالك ثلاث طرائق مختلفة للانتاج . الانتاج في المسانم الفردية الصفرى الله التلام المانع الصفرى التي تشتغل لممل يجري فيه تركيب القطع

والصقل والتحويل . وكانت هذه الطريقة اكثر الطرائق رواجاً لانها تتبع النقل الجزأ . هكذا استخدمت دار الصناعة البحرية في د روشنور » المدن الذي تنتجه مصاهر انغوموا » و د ليموسين » و د بريغور » ومنطقة « اللوار » واصبحت سوقيا له . وهكذا تخصص كل مصهر في مقاطعة نيغرنيه في جزء من اجزاء المرساة التي تجمعها مصانع التركيب في دامني » و د كوسن » . وفي صناعة الاصواف انجز الفزل والنسج في مصانع عائلية صفرى » والصقل والصباغة في الممل . فازداد عدد الصناعين البدويين المستقلين لان صاحب المشروع الرأسمالي يبحث في الارياف عن يد عاملة اقتصادية وطيعة قارس في المنزل عملا عائلياً غالباً ما للأسمالي يبحث في الارياف عن يد عاملة اقتصادية وطيعة قارس في المنزل عملا عائلياً غالباً ما المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجسار صناعيين في د اميان » يؤمنون المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجسار صناعيين في د اميان » يؤمنون الحياة لـ ١٠٠٠ منوال من اصل عمومين بين عمل المناويل ليلا وعمل الحقول نهاراً . وهنالك اخيراً معامل حقيقية تضم عدداً كبيراً من العمال ، ففي عهد هذي الرابع ضم مصنع انسجة د فولف » الكتانية الناعمة في د سان – سفر » في د روان» ٢٥٠ منوالاً و ١٠٠ الى ١٠٠ عامل بجوعين في ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابسع عشر ضم مستشفى د سلبتربير » العام ١٨ ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابسع عشر ضم مستشفى د سلبتربير » العام ١٨ ابنية يحيط في بعضها أكثر من ٢٥٠ عامل (حتى ٢٩٢) .

وكان الملتزمون من النبلاء أو من كبار ذوي المراتب في الكنيسة أحيانا . وقد يحدث ذلك في المناجم والمصاهر ومصانع الزجاج ايضاً . اما أصحاب المشاريع ، من أمثال الدوق و دي لورين ، والدوق و دي مونبيسييه ، والكردينال ودي غيز ، والكردينال و دي ريشليو ، واعضاء الجمالس التمثيلية ، فقد استثمروا مشاريمهم استثاراً مباشراً احياناً . الا انهم لزموها تلزياً في اغلب الاحيان . يقدمون الابنية والادوات . اما الملتزمون فبورجوازيون ابناء تجار يستمينون بخدمات مدراء تقنيين . فهناك من ثم ثلاث فئات : اصحاب المشاريع ، الملتزمون الرأسماليون ، والتقنيون .

 الدولة والنقابات المفروض ان تتخذ الصناعة ، بعد تأسيسها واستقرارها ، الشكل النقسابي . فقد حاولت الدولة تعميم النقابة التي رأت فيها ، بانظمتها ووكلائها وحراسها المحلفين وجمياتها وانتظامها ، مساعداً للسلطة . فصدرت في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٧٣ ، براءات تجمل العمسل النقابي الزاميا ، فاخفقت . الا ان عدد المهن النقابية ، وان بقي متدنيا ، قد ارتفع ارتفاعسا كبيراً وشمل اعظم المهن شأناً .

فرضت الدولة الوصاية على النقابات. فقد احتفظت لنفسها بحق الموافقة على الانظمة الاساسية واخضمت المهن لسلطتها المطلقة . وراقب عملاؤها الانتخابات . كا ان الدولة توصلت الى تقسيم ارباب المهن . وأعادت الى ما لا نهاية له انتخاب قلة من أثرياء ارباب المهن للوظائف النقابية وجملت منهم ولم تقبل في الهيئات البلدية سوى اغنى اغنياء ارباب المهن النقابية الهامسة وجملت منهم ارستوقراطية تسندعى الى جميات الاعيان والجالس الاقليمية ويسمح لها بارسال وفود القيابة الملك . واجازت لارباب المهن تخفيض عددهم بالمبالغة في الموجبات المفروضة على من يرغب في ان يصبح رب مهنة . وزاد الملك من خطورة التفاوت الاجتاعي . وحاول ان يحصر الفوائد في عدد ضيل من ارباب المهن وان يميز بينهم اقلية من الاغنياء المتفانين في خدمة الحكومة . وهذا ما عناه التطور الاقتصادي على كل حال . ففي ليون جعل ارباب التجارة من الملتزمين رفاقاً عاديين . اما الامتاج لاسواق اعظم اتساعا فقد افضى الى سيطرة الوسطاء .

وزاد الملك من خطورة التباعد بين ارباب المهن والمهال . فقسد ضحى الدرلة والتضعية المهال ماديا لمصلحة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج . وكان المهال جنوداً في جيش صناعي اسندت اليه مهمة تأمين عظمة الدولة وقوتها . فبات لزاماً ، بسبب تقلبهم وتشردهم وتبلدهم، ان يدربوا على عمل متصل ونستى سريع ومستمر ونوعية فضلى . فخضهوا من ثم لنظام حديدي اشبه بنظام الحياة الرهبانية .

أضف او ذلك ان الدين ؟ الذي يرجب كال القيام بالواجبات اليومية ؟ قد كان عوناً للانتاج . ففي المعامل المركزية للمشاريس ذات الامتياز ؟ وفي المستشفيات العامة ؟ يحضر العبال القداس يومياً ويباشرون العمل برسم اشارة الصليب وتلاوة صلاة معينة الاعتراف والمناولة الزاميان في الأعياد الكبرى . وترافق وجبات الطعام قراءات تقوية . الثرقرة ممنوعة في المسنع ؟ الا السبطاعة العبال ترتيل الاناشيد باصواب خافتة .

يتمتع المدير بمل السلطة في مؤسسته ، العال يشتغاون تحت رقابته ورقابة معاونيه ، يعملون بالقبالة ، نما يضاعف الانتاج .يعاقبون بالغرامات المالية والجحدة والغل والالقاء من أعلى الصواري والتعليق على أعواد المشانق ، على تأخرهم وتبلاهم وكلامهم البذيء وتجديفهم وغشهم وعصيانهم وسكره وتردده على البيوت المقفة والحانات والحارات ووقاحتهم في الكنائس وتسروهم وكل ما قد يكون سبباً مباشراً او غير مباشر لانخفاض الانتاج او ارتفاع النفقات الذي قد يجملهم على المطالبة بزيادة الاجور .

الاجور ضئيلة . يوم العمل يستغرق ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة ؟ ولا يتوقف العمل الا اثناء الوجبات التي يخصص لها ثلاثون أو خس وأربعون دقيقة العامل "يستغل بواسطة اجره : الشركة تدفع له حقه مواد" غذائية او مصنوعات تخمن اثمانها كا يطيب لهسا التخمين . والدولة تشل امكانات العامل الدفاعية . تحظر عليهم الجميات والدسائكل . ففي و روشفور » طالب و دي تر"ون » بسجن صاهري المراسي الذين اشتكوا من انخفاض اجورهم . وقد اوجب على ضباط القضاء تقديم المساعدة الملتزمين كلما طلبت منهمهم ان كسب رب العمل ؟ وهسو مصدر نشاطه ؟ يتقدم بالضرورة على كل شيء آخر .

أما عمال المشاريع ذات الامتياز فيعفون من الضرائب والترصد والحراسة والخدمسة المسكرية ، وتقدم لهم المساكن مع حديقة صغيرة في الاغلب ويتقاضون منحاً عند الزواج وعند ولادة ابكارهم ويستفيدون من الاسمافات الطبية . وباستطاعتهم ان يصبحوا اربائب مهن دون ان يستلزم ذلك منهم طرفة رائمة أو نفقات خاصة .

ويخضع ضباط القضاء رفاق النقابات والديال المستقلين لنظام بماثل باستثناء الامتيازات . التحديب يستغرق مدة طويلة (خس سنوات) . التحتلات والاضراباتُ نمتوعة. على المامل ان يتقدم خطياً بطلب صرفه من الحدمة كلما تبدل رب مهنته ، وهذا ما يجادل بطاقسة العمل النابوليونية . في السنة ١٦٦٦ الني عشرون عيداً من أعياد البطالة ، فأنزل عددها الى ٩٢ . النظام العام حو هو لا تبدل فيه .

للدولة والزراعة كوليير الاكباش من انكلترا واسبانيا بفية تحسين الاجنساس الوطنية . ونشطت الدولة الزراعات الصناعية ، المعظم والفوة والكتان والفنب والتوت ودودة القز ، وقدم الملك المبدار والماشية للفلاحين وأعفاهم من الضرائب في سنوات القحط وطلب منهسم الحنطة والمشروبات الروحية والخور والمقددات الاجل الجيش والمشاريع العامة ، فتواصلت من ثماهمال اصلاح الاراضي تتولاها جعيات الفلاحين أو البورجوازيون الميسورون كالاطباء والتجاروضباط القضاء السيدي الذي يقومون باستثمار الاراضي الجديدة . وانشأ بعض الاسياد استثمارات جديدة فاحيوا الارض وخططوها وأعادوا تجهيز المزارعين مجدوانات القرن وهموا الاستثارات المضاعفة الانتاج واستولوا على بعض الاراضي المشاعية بالاختيار ووضع اليسد فالفت الحكومة تملكهم حيناً (١٦٦٠) ١٦٦٠) عسب ميلها الى حماية الفلاح الصغير أو الى زيادة الانتاج .

الدولة والتجارة الخارجية ملاحة (قانون وميشو ، ١٩٢٩) التعرفة الجركية ، ١٩٦٤) وشركات تجارية ، وحماية جركية (تعرفة ١٩٦٩ وتعرفة ١٩٦٧) لم يتوصل الملك الى فرضها في مناطق حدود المملكة ولم تشمل الولايات كلها . وازداد حجمها بفضل المستعمرات . وقد حلم ريشليو وكولبير بجمل مستعمرات المناطق المعتدلة ، كنسدا واكاديا مثلا ، ارضاً فرنسية جديدة .

جاء النجاح عظيماً . فاكتسبت المنتوجات الفرنسية شهرة النوعية الجيدة . وحوالي السنة ١٦٧٠ صدرت الاجواخ الفرنسية مثلا الى ايطاليا ، واسبانيا ، والمانيا ، ومؤانىء الشرق الادنى ، والهند .

٦ - النعاوة الملكية

لقد سعى الملوك وراء استمادة وحدة المشاعر المؤاتية للملكية المطلقة . فالآداب والفنون والدين يجب ان تخلق في رعايا الملك ميلا إلى النظام وتسلسل السلطة وتعيد اليهم توازنهم الداخلي وتسهم في توحيد نزعايا الملك مثل الملوك إلى تشجيع الكلاسيكية التي تعتبز علم سنن جمال الوحدة . ويكفي هنا ان نقدم مثل فرنسا . فقي فترتين مختلفتين ، اي بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، والسنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ و رافقت غلبة الكلاسيكين على منافسيهم سيطرة السلطة المطلقة في هذه البلاد بفضل الحسايه الملكية . وقد حاولت الحكومة شيئًا فشيئًا ، ايقاف اتباع الملك في وجه أتباع الأسياد من الفنانين وأهل الأدب ، ثم حل التبعيات الثانية مجيث لم يبق من نصير للآداب والفنون ، في عهد لويس الرابع عشر ، سوى الملك .

الدولة تراقب المطبعة والمكتبة . وتحاول تحديد عسدد اصحاب المطابع الدعارة الادبية للراقبتهم مراقبة اجدى . مستشار فرنسا ، ثم الملك منسنة السنة ١٦٦٦ ، يستقبلان اصحاب المطابع الجديدة . ولكنها لا يستقبلان منهم سوى عسدد فشيل . فنذ السنة ١٦٦٧ حنى السنة ١٦٧٧ مبط عدد المطبعيين المكتبيين ، في باريس ، مسن ٨٤ الى ٣٠ . وقد جموا في المدن المكبرى وفي احياء خاصة ، تحت رقابة ضباط القضاء ، وحظر على الادبرة والمكليات والافراد اقتناء المطابع .

مستشار فرنسا هو وحده من يرخص بالطبيع. اسندت مراقبة المطبوعات الى كلية اللاهوت في باريس اولاً ، ثم مارسها ، منذ السنة ١٦٦٢ ، مراقبون ملكيون . منعت كل المنشورات التي تمالج شؤون الدولة وكل المؤلفات التي تهاجم الجلالة الملكية والاخلاق والدين . وراقب الضباط الملكتيون البيع وبيع التجول والمستودعات وطاردرا مؤلفي الاعلانات الشتمية والاغساني والاهاجي والكتب الممنوعة وعاقبوهم بالغرامة المالية والسجن والنفي والاشفال الشاقة . أما المؤلفات التي تشكل خطراً كبيراً فيحرقها الجلاد بيده .

الدولة تراقب الصحافة وتوجهها . فهي من اوحت بـ « المركور الفرنسي » منذ السنة ١٦٦١. كما ان الاب «جوزيف » ، صاحب النيافة الرمسادية ، قد اسهم في الادارة . وكان لريشليو صحافيون رهن اشارته ، « فنكان » » «بليتييه » «فرييه » « صوفي » ، « رينودو » وحين اسس « رينودو » « جريدة فرنسا » ، في السنة ١٦٣١ ، اعد له ريشليو ولويس الثالث عشر مقالات غير رسمية .

الدولة تراقب تمثيل المسرحيات . فغلى الممثلين ان يعرضوا المسرحيسات والادوار على وكلاء الملك في المحاكم العدلية . ويسهر الضباط الملكيون على الامن اثناء التمثيل .

كان لهنري الرابع شعراؤه الخاصون ؛ و شعراء اللوفر » ؛ و برتو » ، و فو كلين ديزيفتو » ، و دي برون » ، و مالرب » . وقد نظموا الشعر بناء على طلب الملك ولخدمته ، والفوا الاناشيد والقصائد القصيرة وقصائد المناسبات ، ولادات العائلة الملكية وأمراضها ووفياتها وانتصاراتها. ولكن الملك قد ترك شعراء عديدين يدخلون في خدمة العظهاء .

حاول ريشليو، على نقيض هنري الرابع، جمع اهل القلم، ما استطاع الىذلك الاكاديية الفرنسية سبيلا، في خدمة الملك. وجد بين المالربيين اعظم مساعدي الملكية تفانيا، وبين الملحدين ايضاً، لأن هؤلاء يطمحون الى ارستوقر اطية الفكر ويزدرون بالجاهير والارتيابيين، فساروا بسهولة وراء السلطة المطلقة الظافرة علم ريشليو ، عين طريق و بواروبير ، المقرب الله ، ان اشخاصاً عدة يجتمعون ، منذ السنة ١٦٢٩ ، عند احد امناء بير الملك ، و فالنتين كونرار، ، للتداول في شؤون الادب. ففرض ريشليو عليهم، في الاشهر الاولى من السنة ١٦٣٤ ، ان يؤلفوا جمية صاحبة امتياز ، الاكاديمية الفرنسية ، استأثر هو بلقب ودور حاميها ، وعززها بثلاثة من مستشاري الدولة وبحافظ اختام الملك ، وقد وقعت الشهادات الملكية بذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٥ .

عينت للاكاديميين مرتبات شهرية وخصصوا بانعامات . فتوجب عليهم من ثم التغني بمجدد الملك ووزيره . في السنة ١٦٣٥ نشروا و البارناس الملكي ، تمجيداً و لماتي الملك المسيحي جداً والفاضل جداً لويس الثالث عشر » ، و و قربان عرائس الشعر » تقريظاً جماعياً و الكردينال العظيم ريشليو » . واليهم ينتسب بعض من وقفوا في وجهد الصحفيين الاسبانيين والفلمنكيين: وهاي دي شاتليه » ، و جان سيلون » ، مستشار الدولة ، و و جهان سيرمون » ، ابن شقيق مرشد الملك .

اراد ريشليو ان تجعل الاكاديمية من اللغة الفرنسية والادب الفرنسي اللغــة والادب الاولين

في اوروبا ، وهذه اللغة التي نتكلها والتي قد يتكلها كافة بجاورينا قريباً اذا استمرت فتوحاتنا كا بدأت ، وقرر الاكاديميون و وضع القواعد لمفرداتها وجملها بقاموس مستفيض واجرومية واضعة جداً ، ثم العمل على دوضع علم بيان وعلم قريض يكونان دستوراً لمن يرغب في الكتابة شمراً أو نثراً ، ، واخيراً تقديم غاذج النار الفرنسي المنمق بخطبة اسبوعية . وفي السنة ١٦٣٧ تقدمت الاكاديمية بملاحظاتها حول والسيد ، .

ان حماية ريشليو جملت أهل القلم يشمرون بكرامتهم ودفعت بهم الى الانتساج . فسياسته وحروبه جملت الناس يميشون في جو من التوتر الادبي والتصميم عسلى النصر والمزة القومية ولا « يفتخرور في بالانتساب الى شعب عظيم والاسهام في عمسل سيسجله التاريخ » . ففجرت الانطلاقة القومية المؤلفات الادبية .

ما زالت الاكاديمية الفرنسية جمعية خاصة تحميها الدولة . وحسين توفي المستشار و سيفيه » في السنة ١٦٧١ ، امم كولبير الجمية ، ووضعها تحت حماية الملك ، وقدم لحسا اللوفر منتدى ، وخصصها باعتادات مالية لكتبتها وقرطاسيتها وتدفئتها وانارتها ، وبمكافآت الحضور لاستمجال العمل . فاعتبرت الا دديمية انها و خادمة ، جلالته . واستمرت على جعل الفرنسيين اكثر قدرة على العمل لاجل بحد الملك بمرفتهم اللغة معرفة فضلى » .

« كل مفردات اللغة وكل مقاطعها تبدؤ لنا غينة لاننسا ننظر اليها كا الى ادوات يجب استخدم لاعلاء مجد حامينا العظم » (راسين) .

عبتد الملك بشتى انواع التقاريظ . وقد وضع شابلين لائحة بالمؤرخيين والشمراء الواجب منحهم الانعامات ، ضمت عدداً كبيراً من الاجانب ، الفلورنسيين والهولنديين والالمان . فتلقوا سفتجات واشارة للى و السلوك الواجب عليهم سلوكه للاعراب عن امتنانهم ، .

دافعت الاكاديمية عسن مذهب و النظاميين ، فاذعن له الكتاب الفزنسيون كي يصبحوا اكاديميين ، هكذا قضت و الحكمة ، ويتضح من كل ذلك ان الدولة عززت موقف المجتمع من الحس المستهجن .

الدهارة الدنية:

الدهارة الدنية اللذين كانا سبيلا و التأثير على عامـــة الشعب واستالتها ،

الدهارة الدنية نظام الدولة الدهارة على المدندة نظام الدولة على المدندة المندسة لللك المندسة المندسة المندسة المناسقة الاجزاء وساحات عامة هندسية الشكل وشوارع وجموعات بنائية متقابلة ومتناسبة . ولكن كا ان الملك في الدولة يرئس الامة ، وكها يجب ان تنظم المجموعات المانوية المارضة الفكر الرئيسي ، كذلك يجب في المــدن ان تنظم المجموعات

البنائية حول بناء مركزي ملكي حتى يجترم التسلسل في المدن كا في الدولة .

لاجل توفير الهواء لاحياء باريس التي يرتفع عدد سكانها بسرعة كلية والتي تنبعث منهسا روائح كريهة جداً ، قرر هنري الرابع فتح ساحات عامة وشوارع كبرى ومتنزهات . فأمسر في شهر حزيران من السنة ١٦٠٥ بانشاء الساحة الملكية . وقد انجز بناء الملك وبناء الملكة في السنة ١٦٠٧ ؛ وبيعت لبعض الاسياد العظام والبرلمانيين والضباط اراض تتسع لاربعة وثلاثين بناء . الساحة الملكية هي نموذج ساحات النهضة وساحات الملكية المطلقة . ان الانسان ، بحسب روح النهضة ، يسيطر على هذه المساحة المقفلة ، المحدودة ، المتعيزة ببيوت غير مرتفعة . وبحسب روح المبتعم المنظم والمتسلسل السلطات ، تحيط الزنانير الحجرية الافقية وشبكات الزوايا الحديدية بإلجدران القرميدية وتتقابل الاشكال وتتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنتظم البيوت المجارات القرميدية وتتقابل الاشكال وتتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنتظم البيوت المجارئة انتظاماً متناسقاً بالنسبة لبناءي الملك والملكة ؛ الساحة العامة عارية تتجه الشوارع الى وسطها حيث سينصب في المستقبل تمثال الملك وحده ، مركز كل شيء ، المشرف على كل شيء ، الملائه على الأرض . واحدث ساحات عامة اخرى مماثلة .

. في هذه الاثناء ، اظهر الرسامون للفرنسيين كيف يجب عليهم ان ينظروا الى الملك . ففي اللوفر ورواق الملوك ، روت الصور التي تزين السقوف قصصاً مستعارة من الميثولوجيا والعهد القسديم ، ومثلث ابطالها بصورة هنري الرابع ، تأليف كلا العصرين القديمين ، الانسان الكامل ، المستنير والمسير بروح الله .

وقد احب هنري الرابع ، على غرار لويس الرابع عشر من بعده ، ان يرني ابنيته بنفسه للاجانب ويدهشهم ويرهبهم بجلاله . ولكن كبار اعيان المملكة نسجوا عسلى منوال الملك ، كالدوق و ديبرون ، في قصر كاديلاك . فكان لزاماً على الملك ان يبزم . الا ان ريشليو ، حيال هذه النقطة ، لم يفلح في اقناع لويس الثالث عشر ، الملك المقتصد ، فاضطر الى الاكتفاء بقصر اميري ومدينة جديدة احدثت لتكون له اطاراً ، في ريشليو .

لويس الرابع عشر وتأميم الفنون ; الاكاديميات

طبق لويس الرابع عشر سياسة هنري الرابع ولكن على نطاق اوسع. فاشرف بنفسه على اعمال البناء ، يماونه كولبير ناظر الابنية العمام (١٩٦٤) ، و و لو برون ه ، الخبير في حقل التزين ، والاكاديميات

التي تهيء المواضيع وتدرس المشاريع وتوزع العمل وتراقب التنفيد وتفرض النمط. في السنة ١٩٦٣ ، امم كولبير اكاديمة التصوير والنقياشة. في السنة ١٩٧١ ، تأسست اكاديمة هندسة المهارة ؛ وفي السنة ١٩٧٢ ، اكاديمة الموسيقى ، وتحولت جميات خاصة في الولايات الى فروع لا كاديميات باريس الكبرى ، واخيراً انشئت في السنة ١٩٦٨ اكاديمية روما ووضعت منذ السنة ١٩٧٧ تحت سلطة الاكاديمية الملكية المتصوير والنقاشة ، فأمسى الفنانون منذ ذاك التاريخ في مركز يحسدون عليه ، كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكال تخصصه مركز يحسدون عليه ، كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكال تخصصه

ويعود ليدخل في خدمة الملك ويستلم من « لو برن » المواضيع المطاوب التوسع فيها وفاقساً للتواعد تفرضها الاكاديمية . منذ السنة ١٦٦٤ نحتى السنة ١٦٧٤ درجت اكاديميسة التصوير والنقاشة على عقد مؤتمر شهري » يدرس فيه المجتمعون تثالاً أو لوحسة ويتناقشون وينهون نقاشهم بقاعدة تدون في سجل خاص . فتوطد في الفن رأي مشترك فرض نفسه .

التجميل ف حيد السلطة الطلقة

ارحى الملك بتشييد اقواس النصر تمجيداً لانتصاراته (باب سان دنيس ١٦٧٣ ؟ باب سان – مارتين ١٦٧٤) . وابرزت ساحات ملكية عامة معدة لأن تحمط بتمثاله . وشق الدوق و دى لا فوياد، باريس ونصب في

ساحة الانتصارات تمثال لويس الرابع عشر له « ده جاردين » : الملك ساحـــق « سربروس » المثلث الرؤوس . وعند التدشين ، سار الدوق في مقدمة فرقة الحرس التي يقودها ودار ثلاث مرات حول التمثال و ٥ قام بكل ما كان يقوم به الوثنيون أمام تماثيل اباطرتهم ٤ . وفي زوايا الساحة اتقدت باستمرار منائر مقامة فوق الاعمدة في فوانيس من البرونز المذهب تذكر بالمسابيح المقدسة أمام الايقونات . وأبر الملك بتشييد قصور واسعة الارجـــاء اذهلت سكان الولايات والاجانب بمظمتها وتناسقها الكامل ايضاً الذي ينم عن نظام حديدي . أن صف الاعسدة بتناسبه الكلاسيكي : فعلى كلا جانبي الحور الوسطي تتوازن اجزاء البناء بقناطر وتتقابسل . وعلى كلا جانبي الجزء الوسطى ، من البناء الذي تعلوه جبهة مثلثة الزوايا ، ينبسط جناحسان كبيران تنسقها الاعمدة الكورنشية الكبرى الق تتعاقب مثنى وتنتهى الى اجزاء زاوية تزينها ركائز ضخمة . كما أن الاساس وسطوح الاعمدة والافاريز تبرز الخطوط الافقية؛ فتترك في النفس انطباع عظمة ثقيلة . الا أن فقدان السقوف ، والدرابزونات الايطالية النبط ، وتفاهة وجيه البناء الابيض ، تستجيب لجتمع تهده الدولة الى تبتلمه، وتذكر بالتزيين المسرحي الذي استهوى لويس الرابع عشر في شبابه ، عند « مسازارين ، ، والذي اضطر مهندسو المهارة لاضافته الى الكلاسيكية الغرنسية.ويذكسِّر بالتزيين المسرحي ليضًا وجه قصر فرساي المطل على الحديقة . ففي فرساي انشأ الملك ، على مراحل ، المدينة الملكية ذات الطرق المؤدية الى القصر الملكي ، الذي يستدبر المدينة ويطل بوجهه على حديقة « له نوتر » ويمتدل عــ لي « رقاص مهــب » هو الخرفة الكبرى ؟ حيث نسقت الطبيعة ؟ التي يسيطر عليها الانسان السيد، تنسيقا يتناسب مع شتى ابنيته ، ونظمت لاجل حياته المجتمعية . أما في مقر « مارلي » الملكي(١٦٧٩ – ١٦٨٦) فقد صمم كل شيء التذكير بأن الملك هو مركز العمالم وكوكب الكون الساطم. ففي مشهد مسرحي ، وحول مسكن جوبت ر ، انشىء ١٢ بنساء اهديت ليمض الرموز الجردة أو ليمض الآلهة : الشهرة ؟ الغزارة ؛ أبولون عمنير فا ؛ التي تواكب سير الالهة . وشيدت الكنيسة على احد الجوانب قيالة البناء المد للحرس كا لوكان الرب الاله ، هو ايضاً ، أحد ضباط السند الملك . ان في تزبين كل هـــذه القصور لسياسة مستخلصة من كتاب وسر عهد السلطة العطلقة المتحولات ، لاوفيد . فرواق المرايا يروي قصة الملك . وقد رسم و لو برون ، صور السقف الرمزية تمجيداً للملك . وتلقي و تعليقــات ، و فيليبيان ، على غرفة الملك في قصر و توياري ، ضوءاً على فن التصوير في الابنية الملكية : و ان كل هذه الصور المستوحاة من تاريخ ابولون توافق الشمس وترمز ، علاوة على ذلك ، الى ما تي الملك وما تره . فهو صاحب الجلالة من يجب ان نراه في اللوحة الوسطى بصورة ابولون ؛ وهو من نراه محاطـــا بهالة من المجد ؛ وهو من يبدو متسامياً فوق كل شيء ومن ينشر انواره عـــلى الارض ويثير الاعجاب في كافة المحاء العالم بفضل وقاره وخصاله الرفيعة » . ومـــا عقوبة مارسياس ، الذي المنح حيًّا لتجاسره على مجاراة ابولون ، سوى و صورة القصاص الذي يستحقه اولئك الغلاظ المعجبون بأنفسهم حين يتجاسرون على مساواة انفسهم بأميرنا في فن قيادة الشعوب » .

آلت الطريقة المعتمدة في كل مكان الى تصور امثلة عامة والى رد وكل شيء الى المشلل المطلق ، قالت بها الفلسفة المدرسية الاكوينية ، ونادت بها الفلسفة الكرتزيانية التي تتميز بالتجريد واقصاء الفردية والسعي وراء المطلق . اساءت الكنيسة الظن في ديكارت ، وفي السنة ١٦٧١ حكمت السوربون على مؤلفاته وأمرت بان لا تدرس سوى تعالم ارسطو . كان الملك متيداً بقسم التكريس ، فعظر تعلم الكرتزيانية ، ولكنه لم يمنع انتشار هذا المذهب بواسطة الكتاب والندوات الاجتاعية لأن روحه لم تكن بعيدة عن تلك التي تحرك الوزراء والفنانين .

الدعارة الدينية : تأخر الروح البروتستانتيــة

لقد رأى الملك ابداً ان في الوحدة الدينية تكيل السلطة المطلقة . اضف الى هذا ان قسم التكريس ألزمه بالقضاء على الهواء ، وان واعتقد كل رعاياه ، الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبان

الخلاف في الدين يشوه وجه الدولة »: « ايمان واحد ، شريعة واحدة ، ملك واحد ». اضف الى هذا ايضاً ان فتوراً في الايمان ورغبة في الاتحاد مع الكاثوليك قد برزا شيئاً فشيئا ، خلال القون ، في الاوساط البروتستانتية ، وقد مال الكلفينيون ، امام تعدد الشيع والكنائس وامام الفوضى البروتستانتية ، لان يروا في الدين مستودعاً موضوعياً لحقائق راهنة جاهزة يتوجب على سلطة منظورة ان تستخلصها من الحكاب المقدس وتفرضها فرضا. وكانت المجالس الادارية للرعاة البروتستانت تضع انظمة قاسية جداً . فباتت الكافينية سلسلة اوامر ونواه بعد الكانت عبادة روحية فانفصل بعض البروتستانت عن تعليم كلفين واصبحوا ارمينيين ونقلوا بعض عبادتهم الى شخص الملك ورأوا بان للملك حقاً مطلقا على الاشياء الخارجية ، ومن ثم على العبادة . وامسى معظم البرتستانت لامبالين بالمقيدة قد يكتفون ببعض التنازلات حيال النقياط التي تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهال الى القديسين ، مناولة المرضين السريين ، الصلوات تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهال الى القديسين ، مناولة المرضين السريين ، الصلوات باللغة العامية . ورأى غيرهم ، ممن كانوا اشد تصلبا ، بان مذهب بيرول يقرب وجهات النظر الكاثوليكية والبروتستانتية ويسهل الارتدادات والاتفاقات .

ارتد بمض العظهاء الى العقيدة الكاثوليكية منذ عهد لويس الثالث عشر: ابن و سوالي » الدوق و دي ليدينيير » الدوق و دي لا تريموي » ، وكان ارتداد هـــذا الاخير ابان حصار ولاروشل » . وقد اسهم الميل الى النظام في حدوث الارتدادات . وفي عهمد لويس الرابع عشر ، لم يميز و تورين » ، تلميذ تيلينوس الارميني بين المذهب البروتستانتي المشيخي والجهورية ، واعتبر هذه الاخيرة مفسدة لكل نظام بشري والهي. وإن استقلال الرعاة يتنافى وكل نظام ، وفي السنة ١٩٦٨ ، كفر بعقيدته .

تماظم شأن البورجوازيين تماظماً مطرداً في اوساط البروتستانتية . الا انهم كانوا يخافون ، في حال اندلاع الثورة ، عامة الشعب من جهة ، ودكتاتورية احد الاشراف ، كه دروهات ، مثلا ، من جهة ثانية . وكانوا حريصين على الاحتفاظ بمركزهم لانهم تولوا وظائف مالية كبرى في البلاط ، ووظائف قضائية هامة ، وبحاكم بدائية كاملة في الجنوب ، ولانهم كانوا بالاضافة الى ذلك تجاراً وصناعيين . فاكتسبوا كلهم روح الحكمة وبحبة النظام والفوارق الاجتاعية . ولم يكن للدين في حياتهم شأن كبير .

انتهى البروتستانت ؟ الذين تباهوا من جهة ثانية بانتسابهم الى ملك عظيم ؟ الى النظـــر الى لويس الرابع عشر كما الى ابن الله ؟ عطاء الله والاعتقاد بان عقم الاثنين وعشرين شهراً الذي سبق الحبل به دليل على تدخل الاله في هذا الحبل . احلوه الى جانب الله . وفي السنة ١٦٥٧ ؟ قال له مندوبو كنائس الاصلاح : « رأينا في السياسة لا يختلف عنه في الدين . نحن نعتقد بان الرعية غير قادرة على استحقاق اي شيء من سيدها وانها ؟ حتى ولو ادت له كل الخدمات المكنة ؟ لمن تسطيع ابتغاء أي انعام من انعاماته الا اذا ابتغته ابتغاءها النعمة » .

الدولة الدولة اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانية تدريجيا. فقيد اتفق واغضاع البروتستانية تدريجيا. فقيد اعتاد واغضاع البروتستانية اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت المحدد الوسائل عسل اعتاد تماليم القديس اوغسطينوس. على الدولة حماية النفوس الضميفة من جود المعتول القوية حين تسقط هذه المقول في الهرطنة . عليها استرجاع الهراطة ... بتدابير قسرية تكون لها قيمة علاجية . الحقيقة هي شمس الروح . ولكن يجب ان تتوجه اليها البصيرة الداخلية المادة وتأثير البيئة وسلطة السيد تمنمها من ذلك . لذلك يجب ازالة هذه المقبات بالتهديسد والحرمان من الانعامات اوالعسر والعنف .

قضى الملك في الدرجة الاولى على الحزب السياسي البروتستاني . أتاحت انقسامسات البروتستانت الويس الثالث عشر وريشليو احتسلال و لاروشل » (١٦٢٨) ثم إلحاق الحزية بثوار الجنوب . رفض الملك التفاوض في الصلح على قدم المساواة بين سلطتين . في ٢٣ حزيران ١٦٣٩ ، منح العفو المعروف بعفو و آليه » . اعفي عن الثورة واعيد العمل ببسراءة نانت ، ولكن بالبراءة وحدها : يجب ان تهدم كافة تحصينات المدن وتحل المنظمة السياسية والعسكرية

البروتستانتية. فلم يعد من وجود للجمهورية البروتستانتية.وسلك البروتستانت منذ ذاك التاريخ سلوك الرعايا الأوفيـــاء. فكان جزاء اخلاصهم اثناء ثورة المقــــلاع اثبات براءة نانت في السنة ١٦٥٧.

حاول الملك بعد ذلك تحقيق وحدة الكنائس. فكر ريشليو برد البروتستانت عن طريق مفاوضة دينية على صعيد قومي . ويقال انه توصل الى اقناع ٨٠ راعياً . عاد لويس الرابع عشر الى المفاوضات منذ السنة ١٩٦٧ . موالي السنة ١٩٦٥ ترأسها بجلس غير رسمي ضم بين اعضائه تورين وبوسويه . نشر بوسويه كتابه و عرض الايمان الكاثوليكي ، (١٦٧١) وهو دروعة الاصلاح المضاد ، اقترح تورين استالة ٥٠ راعياً وافتتاح مؤتمرات يدعون اليها والهاس الايضاحات من البابا وابطال براءة نانت التي باتت غير ذات موضوع . الا ان الحروب التي حولت انتباه الملك ومقاومات الكلفينيين المتصلبين ادت الى فشل كل المساعي . استخدمت الرشوة منذ اوائل ولاية لويس الرابع عشر ، فاغدقت الاموال والانعامات على البروتستانت. ومنذ السنة ١٩٧٤ ، ادار مؤرخ الملك و بليستون ، البروتستانتي المرتد ، وصندوق الارتدادات ، الذي وزع المكافآت المالية ، و فاعد القلوب لعمسل النعمة ، واستخدم الملك ارساليات الكبوشيين ودور نشر الماليان ، فحصلت ارتدادات محصورة العدد .

ولكن الملك ، في الوقت نفسه حرم متصلي الرأي من انعاماته واخذ يفسر البراءة 🛚 تفسيراً . مشدداً ملزماً. بدأ العمل بهذا الاسلوب بعيد عفو « آليه » ثم بولغ في استخدامـــــه . واخذت جمية القربان المقدس تستحث القضاة . وطالبت جمعيات الاكليروس و مجدود ضبقة ي . وقد مهد الطريق أمام هذا الاساوب كتاب وجان فيليو ، ، الحامي في محكمة بواتيبه البدائية الذي جمم ، بين السنة ١٦٤٥ والسنة ١٦٦٨ ، كافية القرارات التفسيرية لبراءة نانت ، وكتاب « برنار » ، المستشار في محكمة بيزيه البدائية (« شرح براءة نانت » ، ١٩٦٦) . ليس ما يمنع اسناد وظائف الدولة الى البروتستانت ، ولكن و هذه المادة مـــن براءة ثانت تحصر الاهلية لتولى الوظائف المامة برعايا جمهورية لاروشل البروتستانتية ، دون ان يكون هنسالك موجب لان يتولوها » . وهكذا خلت البراءة شيئًا فشيئًا من مضمونها واضطهد البروتستانت . واخيرًا " جاً الملك الى العنف . منذ السنة ١٦٨٨ ، استحصل الوكيل « دى ماريلاك » في « بواتو » ، على · اذن باسكان الفرسان في منازل السكان: فعققت اعميال المنف بعض الارتدادات في السنة ١٦٨٥ ، اعتمد هذا الاساوب في كل المناطق . فكانت نتيجة مآثر الجبوش افسلاس الضوف بفعل متطلبات الجنود ، وشتمهم وضربهم اذا لم يسمعوا أقوال الكبوشين ، ونساء مجررن بشمرهن ، وتمذيباً باحراق الارجل بالنار ، وحرمانا من النوم، واغتصاباً . ارتد البروتستانت آنذاك باعداد غفيرة. فيدت براءة نانت منذ ذاك التاريخ وكأنها غير ذات موضوع والغيث في -18 تشرن الاول من السنة ١٦٨٥ بيراءة و فونتينباو » .

الدولة والجنسينية الملك على الجنسينية حرباً لا هوادة فيها . اعطى صفة القانون ، في الدولة والجنسينية السنة ١٦٥٥ والسنة ١٦٥٥ لمراسيم البابا اينوشنتيوس العاشر بالحكم على الهرطقة . في السنة ١٦٦٠ اصدر الامر بان تحرق و اقليميات ، باسكال بيد الجلاد . ثم اوجب على رجال المحنيسة توقيع قانون المسان قويم . وأدّب دير و بور رويال ، ، مركز الشيعة ، بطرد الداخليين و المبتدئين (١٦٦١) و سجن الراهبات (١٦٦٥) . واخيراً توصل الدبلوماسي ودي ليون ، ، بهارته ومراوغته ، الى تظاهر الجنسينيين بالخضوع ، و و سلام الكنيسة ، .

الكنية الغليكانية وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفاء بسلطة الكنية الغليكانية وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفاء بسلطة روحية وهمية . وكان قد شرع عملياً بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واعطاء أو رفض صفة المقانون لمقررات المجامع : اي ان الكنيسة قد امست تحت حمايته . وساند الملك في موقفه هذا المجلس التمثيلي ، والبورجوازية والسوريون وصهار رجال الاكليروس ، بدافع عداء قومي غريزي للبابا ، وطالبوا د باحترام حريات الكنيسة الغليكانية وحقوقها وامتيازاتها » . فالملك في نظرهم يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله ، كما يستمد البابا سلطات الروحية . وليست سلطة الملك من ثم دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لها ومستقلة عنها . الملك حامي الكنيسة وحارس زمنياتها ، فهو يتمتع من ثم بكل سلطة على نظام كنيسة فرنسا وزمنياتها . لا يحق للبابا ان يحرمه أو يحل رعاياه من قسم الوفاء أو يبت في نظام اكليروس فرنسا وزمنياته . للمجلس التمثيلي ولمجلس الملك الحق في ابطال انظمة السلطة الكنسية التي يثبت قرنسا وقوانين الملكة واعرافها ، والانظمة المتخذة في فرنسا التي تفرض الارادة الملكمة .

الا ان الغليكانية قد انطوت على طابع لا يخاو من الخطر . فان و ريشيه » الغليكاني الهام و ونقيب كلية اللاهوت ، انبرى يؤكد (١٦١١) ان المسيح لم يعط سلطته القديس بطرس وحده بل جميع الاساقفة الذين يخلفون الرسل الاثنى عشر ، والذين يتمتعون من ثم بحق الهي على غرار البابا ، ويجب ان يكونوا مستقلين عنه . والكهنة كذلك يخلفون الاثنين وسبعين تلميذا . فليست الكنيسة من ثم ملكية شاملة بل ارستوقراطية قومية . الا ان ريشليو قاوم تعليم ريشيه ؛ ان من يرغب في ادخال الارستوقراطية الى الكنيسة لا يمكن ان يقاومها في الدولة . فارغم ريشليو ريشيه على الرجوع عن تعليمه (١٦٢٩) . ولكن ضرورات السياسة الملكية ارغمت الكردينال بدوره ، على الرغم من ميوله البابوية ، على الابقاء على التوازن بين الغليكانيين والبابا . لا بل يبدو انه طمع بلقب بطريرك و غاليا » الذي كان من شأنه منحه السلطة الروحية على كنيسة فرنسا . ولكن البابا تظاهر بالصمم على ما يبدو .

ان الضرورات السياسية حملت لويس الرابع عشر عدلى محاولة تنظيم كنيسة غليكانية تكون بمثابة الند للكنيسة الانغليكانية . انطلق في محاولته من حق التعبين في الرتب الكنسمة

المرتبطة بعدد من الاسقفيات وجمع دخولها اثناء شغور المراكز الى ان يقسم الاساقفة الاصيلون عين الاخلاص . أراد لويس الرابع عشر ، لاعتبارات مالية ، ان يشمل حقه هذا كل الاسقفيات الخاضعة له . فاصطدم بالبابا انوشنتيوس الحادي عشر . وضعت الجمية العامة لكنيسة فرنسا و بيان البنود الاربعة » في السنة ١٩٨٨ . ذكر البيان بنظرية السلطة المزدوجية ورفع رقابة الكنيسة وحكها عن السلطة البابا ، واعلن ان سلطة البابا مقيدة بالجامع والاعراف القومية ، ورفض عصمة البابا في مسائل الايمان واخضع صعة مقرراته لحكم الكنيسة . جعل لويس الرابع عشر من هذا البيان قانونا واضافه الى قوانين الدولة . فاصبح تدريس تعاليمه الزاميا في كافة انحاء الملكة . تمتم الملك من ثم بسلطة زمنية مطلقة على الكنيسة وبات قادراً في الحقل الروحي على رفض رسوم البابا المقائدية التي لم تقترن بعد بموافقة مجم مسكوني ، فغدا رئيساً لكنيسة قومية تخصع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولا يربطها بالبابا سوى رابطة الاحترام .

ان لهذه الرقابة على الحياة الفكرية والفنية والدينية ما يماثلها في كل البلدان التي تعاول تحقيق هذه السلطة . فلم تخسل منها الاقاليم المتحدة ، مع انها كانت متساهلة نسبياً . ففي المهود الفومارية التي توافق في الزمن عهود توسع سلطات امير اورانج، سنت قوانين صارمة قيدت المسرح وفرضت حفظ يوم الرب واتخذت التدابير ، حتى في الاقاليم التجارية والبورجوازية ، كهولندا وزيلندا ، فسد الكاثوليك الذين لم يسمح لهم الا بالمبادة الفردية : منع التجمع لحضور الذبيحة الالهية أو اي احتفال ديني آخر ؟ منع الكهنت من دخول البلاد ؟ الساح لكل مواطن و بتشويش الممارسات البابوية » كيلا ونهاراً ؟ مكافآت للواشين ؟ عقوبات غرامة مالية وجلد ومصادرة المتلكات .

التوازت الاوروبي والتسلسل في تنظم اوروبا

احتدت فرنسا الى الحدف : انقاذ الحريات الاوروبية من مدّعيسات آل هبسبورغ بالسيطرة الشاملة 6 والوسيلة : اتحسساد الشموب الاوروبية باخضاع خلافاتها الدينية ومطامعهسسا الفردية للهدف المشترك . الجهت

الاحلاف ضد تسلطية آل هيسبودخ

السياسة نحو نوع من الوحدة الكلاسيكية ، بأتت قرنسا مركز المقاومية وشحدت المزائم ونظمتها . حتى السنة ١٦٣٥ ، قامت مجرب و صامتة » ، مصلحة ذات البين بين خصوم العدو المشترك ومقدمة لهم المال وواضعة يدها على النقاط الستراتيجية . في السنة ١٦٣٥ ، دخلت في حرب معلنة ضد اسبانيا ، وبالتالي ضد الامبراطور .

توصل ريشليو منذ السنة ١٩٢٩ الى حمل اسوج وبولونيا على عقد مدنة بينها، وحدًا مازارين حذوه في السنة ١٦٤ بحمل اسوج والداغرك على عقد الصلح فيها بينهافي وبرومسبرو، في السنة ١٦٣٣ ، استطاع ملك اسوج ، غوستاف – ادولف، بعد ان اخلي سبيله ، البزول الى اليابسة في « ستتين». ولكنه كان مفتقراً الى المال . حينذاك عقد الكردينال ريشليو الكاثوليكي جداً 4 مع غوستاف - ادولف اللوتري جداً ، معاهدة مساعدات مالية (باروولد ، ٢٣ كانون الثاني ١٦٣١) لتأمين الانفاق على الجيش الاسوجي الذي كانمقدماً على غزو المانيا ومحاربة ملك سلالةً هبسبورغ الكاثوليكي جداً. دام التحالف الاسوجي الفرنسي حتى السنة ١٦٦٧ ؛ وجدد ريشليو محالفات قرنسا مع كُلفينيي الاقاليم المتحدة (١٦٣٠) . ثم جددت هذه الاتفاقات تكراراً قبل السنة ١٦٤٨ . وتوصيل ريشليو ، ثم ما زارين من بعده ، الى الاتفاق مع ترنسيلفانيا ، الامارة الهنفارية الخاضمة لسيادة الاتراك ، فقام راكوكزي ، امير هذه المقاطمة التابع الخاضع للكفرة ، بغزو النمسا . ووجد ريشليو ، ثم مازارين من بعده ، اغضاداً لهما في المانيا عسلى هبسبورغ اسبانيا في البالاتينا ، ونظما تكراراً ، بين البروتستانت والامبراطور ، ما يشبه فريقًا ثالثًا كاثوليكيًا المانيا . وجلي ان هذه الاتفاقات لم تخل من الصعوبات والصدمات . فان غوستاف – ادولف ، الذي احرز النصر في ﴿ بريتنفله ، ، قد شرع في غزو المنطقة الرينانية ، متجها بابصاره نحو الالزاس ومهدداً بتقدمه بفصل فرنسا عن حلفائها ومحاولاً ان يجمع حوله امراء المانيا الشالية من البروتستانت ليجعسل منهم امبراطورية بروتستانتية ليست دون الامبراطورية الكاثوليكية خطرًا. الا ان وفاته ابان المعركة في الوتزن ، ، حيث انتصر ولاقى حتفه، كانت خشبة خلاص لريشليو على الرغم من ان ضمف اسوج وهزيمة الاسوجيين في «نورد لنجن ، (١٦٣٤) قد ارغما فرنسا ؟ في عهد لاحق ؟ على دخول حرب معلنة .

سواء كانت الحرب صامتة أو معلنة ، فهي تمتمد على تشجيع الثورات والمؤامرات عنسد العدو . فالاسبانيون تحالفوا مع العظهاء الثائرين على ملك فرنسا ، الدوق « دورليان »، والدوق « دي بو يون » ، « مونمورنسي » ؛ وتعهدوا بارسال ١٨٠٠٠ رجل الى « سنك مارس » لدعم ثورته ، مقابل استرجاع الاراضي التي يحتلها الفرنسيون ، وفاوضوا « كونديه والمقسلاعيين وقدموا لهم فرقا عسكرت في باريس مع اعلامها الحراء الحساملة صليب القديس اندراوس واستقبلوا اللاجئين والامير « دي كونديه » والدوق « دي يورك » والملكيين الانسكليز الذين حاربوا في معركة الد « دون » في صغوف الاسبانيين (١٦٥٨) ، ولكن ريشليو من جهته قد ساعد الكتالونيين الثائرين على فيليب الرابسع الذين نادوا بلويس الثالث عشر « كونت برشلونا ، وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السبانية (١٦٤٧) . ولكن ريشلونا ، وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السيطرة الاسبانية (١٦٤٧) .

ما زال لو ستراتيجية اللواحق به دورها الاول في العمليات الحربية النتيجة المراتيجية اللواحق به دورها الاول في العمليات الحربية النتيجة مؤلف من ٢٠٠٠ رجل على خطوط الجبهة في وجه العدو . اذا رغب العدو عن المركة تا فان لديه متسعا من الوقت لينسحب انسحاباً منظماً . ويقتضي لمطاردته ان يعيد الجيش صفه ولكن الجيش لا يستطيع دخول المعركة حينذاك لا تدور المعركة الا اذا وافق عليها القائدان وصرفا الوقت اللازم في تنظيم جيشيها ويهها لوجه بينيب ارغام العدو على دخول المعركة بانتزاع مستودعاته ونفاط مروره . وهذا يصح على الاخص في الرقعة الفامنكية التي تتشابك فيها الانهار والاقنية . ولا حيلة ، امام الحصون والجسور والمستودعات . ويصح القول نفسه عن مناطق مربع على حدة بالاستيلاء على الحصون والجسور والمستودعات . ويصح القول نفسه عن مناطق الاستيلاء تدريجيا على حصون المجازات وتقاطع الاودية . ولكن الحصون كثيرة في كل مكان . المحلات العسكرية لا يجهزون باسلحة تمكنهم من الدفاع طويلا عن أحد الجسور او أحد المواقع . فيقتضي من ثم انشاء موقع محصن في كل منها . وبالتالي فان الحرب قد تدوم زمناً طويلا جداً .

كان هم الحاربين الاكبر الاستثبان الى وابواب، المالك التي يستطاع بواسطتها صد الغزو وشل العدو بخشيته من الهجوم ، ثم الاستثبان الى خطـــوط المواصلات الاوروبية . وقد عمل الفرنسيون قبل سواهم بهــذه الساراتيجية

السياسة وستراتيجة الابواب

المواصلات التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع . لذلك استولى ريشليو والسياسة التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع . لذلك استولى ريشليو على « بينيرول » » « باب » ايطاليا » التي يستطيع الفرنسيون انطلاقا منها تهديد ميلانو » مركز التسلح الاسباني » وقطع الطريق العسكرية » المارة في ايطاليا » من أسبانيا الى الاقاليم المتحدة . وقد تصلبت فرنسا حتى ١٦٩٧ في رفضها الجلاء عن هذا الموقع . وأنقذ ريشليو و لافلتلين » ووضعها تحت سلطة أسيادها القدماء » ال « غريزون » « البروتستانت » وأمن لفرنسا استخدام الممرات استخداماً مانعا مطلقا (١٦٢٤ و ١٦٣٥) » لان « لافلتلين » « مهمة جداً للاسبانيين لوصل دول ايطاليا بدول المانيا » وأزلق ريشليو الفرنسيين نحو الرين حيث تتشابك الجيوش الامبراطورية والاسوجية والاسبانية واللورينية » وحيث يتنازع المتحاربون رقبات الجسور . ومنذ السنة ١٦٣٧ » أمر ريشليو تدريجيا بالاستيلاء على مواقع اللورين المحصنة واستحصل على واستولى لمصلحة دوق « ورتنبرغ » و و « اهرنبرتستين » وحمى اسقفية بال وكونتيسة واستولى المصلحة دوق « ورتنبرغ » واقفل بذلك باب بورغونيا . في كاون الاول ١٦٣٣ ، ادخل الكونت « دي هانو » الفرنسيين الى ثلاثة من مدنسه في ألزاس السفلى » « بشولر » » وانفل بذلك باب بورغونيا . في كاون الاول ١٦٣٣ ، ادخل الكونت « دي هانو » الفرنسيين الى ثلاثة من مدنسه في ألزاس السفلى » « بشولر » » محافي ظ

مقاطعة و هاغلو ، عماية فرنسا لهاغنو و و سافرن ، و في ٩ تشرين الاول ١٦٣٤ تفاوض و هنري موغ ، و كيل اتحاد و كولمار ، في ستراسبورغ مع ملك فرنسا ، باسم كافة مدت الزاس العليا : فقد قبل بدخول حامية فرنسية على ان تحتفظ هذه المدن بحكوماتها وامتيازاتها المدينية . وأمر ريشليو في السنة ١٦٣٨ بالاستيلاء على بريزاخ ورقبة جسرها الهامسة . وطلب مازارين الى تورين وكونديه احتلال و فريبورغ ، (بريسغو) حارسة المجازات الجنوبيسة الى و الحرج الاسود ، و و سبير ، و و ورمس ، و و ماينس ، (١٦٤٤) . وارسل مازارين جيشا لمهاجمة الحصون الاسبانية في توسكانا بغية قطع طريق ناقلات الجيوش الاسبانية بين نابولي ومنطقة مملانو (١٦٤٣) .

لم تسلك فرنسا هذا السلوك الا بوحي الاسباب الستراتيجية . فلا ريشليو ولا مازارين نهجا سياسة حدود طبيعية . كثيرون من الفرنسيين فكروا في ذلك. فان نقائص الحرائط الجغرافية التي تمثلت الانهاز فيها بخطوط ثخينة والجبال بخط من التلال الصغيرة التي تذكر بحدور متواصل، قد اشاعت الرأي بان الحدود الثابتة يجب ان تكونها امات طبيعية كالانهار والجبال، وقد عينت و تأويلات ، قيصر ، حدوداً لفرنسا ، جبال الالب وجبال البيرينيه ونهسر الرين . ولكن نظرات وجال الدولة الفرنسين كانت واقعية .

ان حرب تقويض الجيوش العدوة والاندفاع حتى عاصمة العدو لم حرب تقويض الجيسوش تعد من المستحيلات . فالجيوش زادت قدرتها على القتال موالحركة . واستفاد غوستاف - ادولف من دروس اللاجئين الفرنسيين البروتستانت ، من أمثال وبونتوس دى لا غاردى ، ، فأحكم أدوات الحرب واستطاع بذلك اعتاد فن حربي جديد . خفف وزن المندقية ، فيات بمكنة حاملها اطلاق النار بدون اسنادها الى شيء . واستخصدم الخرطوش المصنوع من الورق المقوى لحشوة البارود . وتجهزت عدة فرق من فرقه بالبندقية ذات الدولاب. ـ قباتت سرعة اطلاق النار عند الاسوجين بالنسبة لها عند الامبراطوريين اتمادل نسبة ٥ الى ١ . وبات حامل البندقية يحشوها في الوقت الذي تستفرقيه ثلاث أو أربع ظلقات . وبات من ثم واستطاعة غوستاف - ادولف الاكتفاء بستة جنود عمقا من حاملي البندقيات ، وبثلاثة احياناً . يرتب الجنود صفوفاً الواحد على مسافة خطوات من الآخر بسبب اخطار الانفجارات المفاجئة التي تحدثها الفتائل المشتمة ، وعلى مسافسة خطوات بين الصف والآخر ، للسبب نفسه وحتى يتمكن مطلق النار من الاندساس بين الصفين والوقوف وراء صفه يحشو بندقيته بينا يطلق رفيقه النار ؛ مجست يستمر الاطلاق دونما القطاع . وبات باستطاعة غوست ف ادولف تقسم المشاة كتائب صفرى مستقلة اقل كثافة وأسرع حركة . واصبحت نيران الاسلحة الحربية اكثر فعالية ضد فرق الخيالة ، فبات بمكنته زيادة عدد حاملي البنادق ورفعه الى ضعف عدد حاملي الحراب. واستخدم حشوة البارود الجاهزة بغية الاسراع في اطلاق نيران المدفسية ، وزاد عدد المدافع ، وزود المشاة بمدافع صغيرة من عبار ؛ سم يمكن دفعها بالايدي بغية مواكبة الفرق اثناء الهجوم ومساندتها بنيران المدافع حتى هجمة الالتحام الاخير . أما مشاتة ، وهم ضعفا خيالته ، فقه حطموا ، باسلحتهم النارية وحرابهم على السواء ، هجمات خيالة العدو ، وانهكوا بنيرانهم مشاة العدو وقضوا على معنوياتهم ومهدوا الطريق للغارة على خيالتهم . ما زالت فرق الخيالة سلاح النتيجة الحاسمة . توزع على الجناحين لحماية الشاكلتين ، اللتين هما نقطة الضعف عند فرق المشاة ، وتحاول اخلاء ميدان المعركة من فرسان العدو لمهاجمة مشاته جانبياً . تهاجم بنيران الإسلحة ، يساندها حاملو البنادق الموزعون بيين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير يساندها حاملو البنادق الموزعون بين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير خبها وتكر على العدو بالسلاح الابيض . وقد تبنى روح اصلاحات غوستاف - ادولف اشهر قادة اوروبا العسكريين ، الفرنسيان تورين وكونديه ، وقائدان في خدمـة الامبراطور ، ومرسي ، والايطالي مونتيكو كلي . وقد رفع هؤلاء نسبة حاملي البنادق الى اربعـة وخمسة اضعاف حاملي الجراب .

فاصبح من ثم تدمير جيش العدو اكثر سهولة . واخذ كبار القادة العسكريين ينظرون كلهم الى الحرب كما نظر اليها نابوليون : حصارات قليلة ومعارك كثيرة ، لأن المواقع العسكرية ستستسلم بعد احراز الانتصارات في الأرض المكشوفة ؛ الهدف الرئيسي : العدو ايناً وجد. وقد عبر عن الوحدة الكلاسبكية في الفن العسكري بارتباط الاسلحة المختلفة التي تعمل كلها لمصلحة السلاح الاول ، اي الفرسان ، وباخضاع كل الحركات لغاية واحدة : ضرب العدو في الصميم بعد القضاء على جيوشه . أن في هذه النظرة لجرد نزعة نحو مثل أعلى . فهناك جيوش كثيرة دمرت في ميسدان المعركة ، كالجيش الاسباني الذي قضى عليه فرنسيو كونديه في ﴿ رُوكُرُوا ﴾ ولنس (١٦٤٣ – ١٦٤٨) والجيش الامبراطوري الذي قضى عليه تورستنسون، في ليبزيغ (١٦٤٢)٠ ولكن دون استثبار النصر خرط قتاد . فان الحاجة الى المؤن والمال ما زالت ترغم المنتصر على التوقف في اغلب الاحيان ، وهذا ما حدث للاسبانيين المندفعين نحو باريس بعد استيلائهم عملى « كوربي » ؛ (١٦٣٥) ولتورستنسون الذي وصل الى مسافة ٢٥ ميـــ من فيينا (١٦٤٢) ؛ ولكونديه المتمطش الى الاندفاع نحو عاصمة النمسا بعــد ممركة د نورد لنجن ، (١٦٤٥) . ولكن ريشلنيو ومازارين واصلا اعادة تنظيم الجيش بمساعدة بعض المدنيين . فشرع امينا سر الدولة المشؤون الحربية « سوبليه دي نوييه » و « لو تلييه » من بعده (منذ ١٦٤٣) في معالجة المسألة من جميع نواحيها . حرص وكلاء الجيش على ضبط دفع الاجور وتوزيع المواد الغذائيــة في اوقاتها ، ونظروا في الجرائم التي اقترفها الجنود، وارغموا مواني الجيش على انشاء المستودعات المقررة وعلى تسليم المؤن الجيدة . وحين اتفى الاسوجيون والفرنسيون اخيراً على توحيدجهادهم والقيام بعملية هجومية مشتركة ، احرز النجاح ناماً . فقد كان تورين و « رانجل » زاحفين عــلى فيينا ، بعد انتصارهما على البافاريين في د زوسمار سهوزن ، (ايار ١٦٤٨) ، حين علما بتوقيع مماهدات وستفاليا .

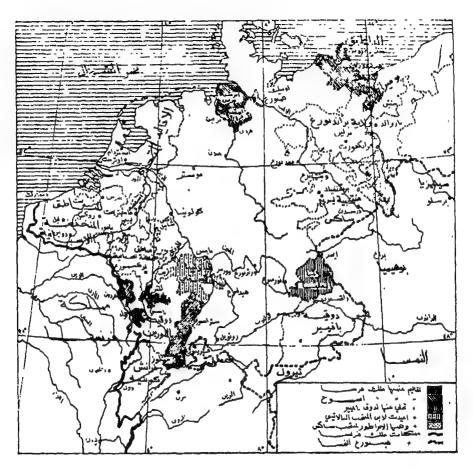
كان من المفروض ، بحسب فكرة روجها البابا منذ السنة ١٦٣٥ ، ان المؤترات الادروبيسة ينعقد مؤتمران في وستفاليا ، احدها في دمونستر، للدول الكاثوليكية والثاني في داوسنابروك ، للدول البروتستانتية . ومع ان موعدها قد حدد في ٢٣ اذار ١٦٤٢، فانها لم يفتتحا رسميا الا في ٤ كانون الأول ١٦٤٤ . فكان على فرنسا وحلفائها ، في مونستر ، وعلى الامراء البروتستانت والدول البروتستانتية ، في اوسنابروك ، ان يجروا مفاوضات مسم الامبراطور وحلفائه . أما في الواقع فقد كان المؤتمر اوروبيا لأن كل الدول تمثلث فيه باستثناء المقيم والسلطان وملك انكلترا. احتلت المدينتين الصغيرتين جماهير غفيرة بعد ان اعلن حيادها الرسمية المناوضات . وتبارت وفود الدول الكبرى فيها ابهة في عرباتها الفاخرة وملابسها الرسمية وكرماً فاثقاً في استقبالاتها .

استفرقت المفاوضات وقتاً طويلا . كانت المسائل المطروحة معقدة . وكان على المؤتمرين ان يتبادلا استطلاع الرأي في كل شيء وان لا يفصلا في شيء الا بالاتفاق بينها . وجأ الدبلوماسيون بعصورة خاصة الى التسويف والمباطلة املا منهم بنجاح عسكري يحسن موقفهم . عقد صلح منفرد بين اسبانيا والاقاليم المتحدة في ١٥ ايار ١٦٤٨ . ومرد ذلك الى ان مازارين قد انفرد في اقتراحه على فيليب الرابع مقايضة كتالونيا التي كان الفرنسيون سائرين في احتلالها ، بالاقاليم المنحفضة الاسبانية ، رغبة منه في ان يجعل من باريس و حصناً منبعاً لا يرام » . وقد سبق المهولنديين ، حين كانوا يخشون جانب اسبانيا ، ان اقترحوا عسلى ريشليو تقاسم الاقاليم المنحفضة بغية الحصول على ايد فرنسا ، ولكن ريشليو رفض الاقتراح لانه آثر تيسير استقلل المنطقة التي اصبحت بلجيكا فيا بعد أما الآن وقد امسى ملك اسبانيا مستضعفاً والفرنسيون اقوياء ، فرغب الحولنديون عن مجاورة الفرنسيين لهم . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٦٤٨ وقعت في آن واحد معاهدتا اوسنابروك ومونستر ، اي و صلح وستفاليا » ، أو و دستور » اوروبا الجديدة .

كرست المعاهدتان في الدرجة الاولى انقسام الامبراطورية والمانياوعجزها. والدستور»الاوروبي وقد اعتبرت هذه النصوص قانونا امبراطورياً ونظر اليها رجال القانون كما الى دستور الدولة الالمانية . غدا ملك فرنسا وملك اسوج كفيلين و للحريات الجرمانية » . تمتع الامراء الالمان باستقلال يكاد يكون ناجزاً . استفادوا من والرئاسة الاقليمية » الشبيهة بالسيادة وحتى لهم التفاوض مع الدول الاجنبية وفيا بينهم لضيان سلامتهم . يضاف الى ذلك ان الامبراطور لم يعد عمليا ليستطيع شيئاً بدون المجلس التمثيلي للاقاليم الذي سيطر عليه المجز بدوره بفعل الحاجة الى الجماع الاصوات في كل المسائل الهامة .

تأمن توازن القوى في الامبراطورية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين كانوا حلفاء اسوج وفرنسا على كل حال . أقر في البدء نوع من التساهل الديني بين الدول . وشمل صلح اوغسبورغ الامراء الكلفينيين ، واعترف بشرعية الكلفينية اسوة باللوثرية ، واستفاد الامراء مسن هذا

المبدأ : و الامير يختار مذهبه ويلزم به رعاياه » . ثم تنازل الامبراطور عـــن براءة الاسترداد وصلح براغ . ابقي على العلمنات السابقة لسنة ١٦٢٤ . استعاد ابن المنتخب البـــالاتيني لقب المنتخب والبالاتينا السلمل الحتفظ مكسيميليان دي بافيير بالبالاتينا العليا وحصل على منتخبية



الشكل ٩ . اوروبا بعد معاهدتي وستقاليا

احدثت لمصلحته. فغدت الهيئة الانتخابية ، بصرف النظر عن الامبراطور ، تضم اربعـة من الكاثوليك وثلاثة من البروتستانت ولكن المساواة العددية استميدت فيا بعد باعطاء صوتين مناوبة ، لكل من المنتخبين البروتستانت .

تقهةرت جرمانية آل هبسبورغ في كل مكان . سبق لاسبانيا ان اعترفت. باستقلال الاقاليم المتحدة وأقصتها من ثم عن دائرة بورغونيا ؛ وبالتالي عن الامبراطورية واعلن استقلال الاقضية

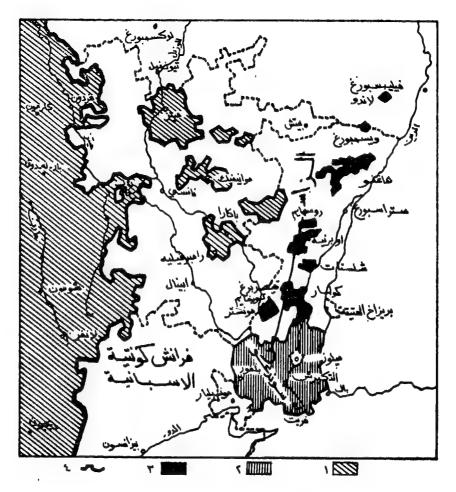
السويسرية الناجز . وحصلت اسوج ، تعويضا لها عن نفقات الحرب ، على اقاليم تثيح لها تأمين سلامة و البحيرة الاسوجية ، ، بمراقبتها مصاب الانهر الالمانية وطرق التجارة المؤدية الى السهول الالمانية : بومرانيا الغربية مع مصاب الاودر ومرفأ ستتين ، واسقفيتا برين وفرد ن المعانتان الملتان تشرفان على مصب الفيزو غربا ومصب الإيلب شرقا . وحصل ملك فرنسا على و ابواب ، تقوم على الطرق المسكرية الكبرى . وظفر بالسيادة على اسقفيات و متز ، و و تول ، ووفردون المحتلة منذ هنري الثاني . كا ظفر في الالزاس بكل ما امتلكه الامبراطور فيها باعتباره رئيس سلالة النمسا وبكل الحقوق التي تمتم بها باعتباره امبراطوراً . في هسندا المعجاج من الجهوريات والمدن الحرة والامارات الكنسية والسيادات ، في هذا الاختلاط الالسني والديني والثقافي ، وعند تكلم ألز اسيو وديان والفوج ، العليا اللغة الفرنسية ، وغير م الالمانيسة ، وسوادم لهجات عنى الرغم من الآثار المميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة امارة الجرمانية على الرغم من الآثار المميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة امارة الالزاس العليا ، ومنطقة صلاحية عكة هاغنو الكبرى ، واراضي امبراطورية ضمها بعض الاقطاعيين الماليا ، ومنطقة صلاحية عكة هاغنو الكبرى ، واراضي امبراطورية ضمها بعض الاقطاعيين بكلات غامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان ، فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان بالمالات عامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان ، فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان المالة و المستقبل .

معاهدة البيرينيه وخلافة ملك اسبانيا

هولندا ، استدعى مفوضيه المطلقي الصلاحية . ولما كان دوق اللورين حليفا لاسبانيا ومستقلا عن الامبراطورية منذ السنة ١٥٤٢ ، استمر الاحتلال الفرنسي لهذه الدوقية وتواصل النزاع بشكل حزب فرنسية اسبانية . ولكن التشوش النقدي والاقتصادي في اسبانيا ، وثورة المقلاع في فرنسا ، جعلاها تطول زمناً طويلا . واخيراً اتفق مازارين مسم و كرومول ، الذي لم يستطع الحصول من ملك اسبانيا ، فيليب الرابع ، على فتح اسواق الهنه الفربية المتجارة الانكليزية . وقع الطرفان معاهدة تحالف صريح في ٢٣ اذار ١٩٥٧ . قكن تورين ، يسانده الاسطول الانكليزي وقوة انوال مؤلفة من ٥٠٠٠ انكليزي ، من احراز النصر في معركة و الدون ، (١٤ حزيران ١٦٥٨) ، لم يبتى لملك اسبانيا لا جيش ولا مال . وفقد الأمل بتلقي العون من النمسا . فقد توفق مازارين الى حمل مجلس المنتخبين على الزام الامبراطور ليوبولد بان لا يتدخل في حروب ايطاليا ودائرة بورغونيا . ولضمان تنفيذ هذا التمهد ، ألشف منتخبو و تريف ، و وماينس، وكولونيا الكنسيون ، واميرا نويبورغ و و هس – برونسويك ، منتخبو ماد كفلته اسوج وفرنسا ، فاضطر ملك اسبانيا الى الانحناء .

نوقشت شروط الصلح على نهر (بيداسوا » ، في جزيرة المؤقر ، منذ شهر نيسان ١٦٥٩ حتى حزيران ١٦٦٠ اقفلت عوجبها حدود

فرنسا في وجه الغزو . واستمادت فرنسا او غنمت مناطق د ارتوا ، و د روسيُون ، و د سردانيه ، التي كان ريشليو قد استولى عليها ، ومواقع هامة على الطرق المؤدية اليها : ﴿ وَعُرَافَلُهُمُ ﴾ د غرافلين ، ﴾ د لندرسي ، ﴾ د لو كينوا ، ﴾ د افين ، ﴾ فيليبغيل ، ﴾ د مسارينبورغ ، ﴾



الشكل ١٠ ـ الممثلكات الفرنسية ، الزاس في السنة ١٦٤٨ ١ ـ بملسحة فرنسا ٧ ـ اقاليم نمسارية غنمتها فرنسا ٧ ـ المدن الامبراطورية العشر ٤ ـ حدود فرنسا

و مونميدي ۽ . واستماد دوق اللورين دوقيتـــه ، ولکن فرنسا احتفظت و بالارغون ۽ ، و ترموبيلنا ۽ ، والطريق الحرة لجيوشها .

زد على ذلك ان الاتفاق الفرنسي الاسباني قد اعطى فرنسا امكانيسة منع امير هبسبورغ النمسا من ان يضم الى ممتلكاته وراثة عرش اسبانيا ويعيد امبراطورية شارل الخامس. فاقتضى

الخاذ بعض الاحتياطات بالنظر الى حقوق الامبراطور في خلافة فيليب الرابع . قروج لويس الرابع عشر من ابنة ملك اسبانيا البكر ، ماري – تريز ، حتى لا يتزوج منها امير هبسبورغ النمسا ، الامبراطور . فرض فيليب الرابع ان تتنازل عن ارث ابيها . ولكن الدباوماسي الفرنسي و دي ليون ، ادخل هذا التنازل في عقد الزواج و مقابل ، ٥٠٠ ٥٠٠ دينار ذهبا ، علما ان الخزينة الاسبانية اعجز من ان تدفع هذا المبلغ . احتفظت من ثم ابنة ملك اسبانيا محقوقها التي انتقلت الى لويس الرابع عشر ، زوجها . يضاف الى ذلك ان التنازل كان باطلاعلى كل حال : ان حقوق ماري تريز المتصلة اليها بغمل نسبها لا يمكن ان تكون موضوع تنازل ، ولذلك استقبح الاسبانيون انفسهم عمل ملكهم ولم يأخذوه بعين الاعتبار . فكان من ثم باستطاعة لويس الرابع عشر المطالبة بنصيبه من الارث واحباط مطامع الامبراطور عند الاقتضاء .

ان انتهاء الاعمال الحربية أتاح لفرنسا فرض وساطتها في اوروبا. التحكيم الفرنسي في ادروبا كانت اسوج في حالة حرب مع كافة دول السواحل البلطيكية ، روسيا ، بولونيا ، براندبورغ ، الداغرك ، ومع هولندا . فخشي مسازارين الامكانات التي توفرها لامير هبسبورغ النمسا خلافات البروتستانت الشهاليين . توفق الى عقد الصاح بين اسوج والداغرك في كوبنهاغن ، وبين اسوج وبولونيا وبراندبورغ في د اوليفا » (ايار - حزيران - مرادان المتمر لويس الرابع عشر في لعب دور الوسيط هذا في مستهل حكمه الشخصي،

وهكذا عاد السلم والاتفاق في اوروبا الى سابق عهدهما . اما اسسهما فكانت : تساهلا دينيا تسبياً ؟ توازن القوى بين دول كبرى تفصل بينها دول صغرى كانت لها بمثابة القطية ، كالاقاليم المنخفضسة

ليبنيز وغطط الاتحاد الاوروبي

الاسبانية بين فرنسا والاقاليم المتحدة ، او كحلف الرين ، الذي تشرف عليه فرنسا ، وبافيد ، بين فرنسا والنمسا واخيراً التحكيم بين الدول الاوروبية تجريه دولة راجعة السلطة والنفوذ ، فرنسا ، وبالتالي تكريس المراتب بين دول اوروبا . وحين اقدم لويس الرابع عشر على خوض حرب نقل الحقوق (١٦٦٧) واعتبرت سياسته محاولة جديدة للهيمنة وبسط السيطرة ، بدا وضع اوروبا وكانه خطوة اولى نحو مثل اعلى ، فاستوحاه الفيلسوف الالماني ليبنيز ، ووضع في السنة ١٦٧٠ مخطط اتحاد لاوروبا . اعتبر التوازن مختلا والمانيا ضعيفة لا تقوى على احباط مطامع جيرانها ، فاقترح تقويتها بتحويلها الى اتحاد دول متحالفة تتمثل في جمية واحدة يكون لكل دولة المانية فيها حق الجلوس والاقتراع . بهذا تمنع الاعتداءات المحتملة الوقوع ويصان سلم اوروبا . ولكن اوروبا تنميز بحرارتها الخلاقة والفاتحة . يقتضي صهام امان لهذه القوة . قسد المستمرات تجنباً للمنافسات والاصطدامات ، اسوج في سييربا ، انكلترا والدانمرك في اميركا المستمرات تجنباً للمنافسات والاصطدامات ، اسوج في سييربا ، انكلترا والدانمرك في اميركا

الشالية ، اسبانيا في اميركا الجنوبية ، هولندا في الهند الشرقية ، فرنسا في افريقيا ومصر . فلن يحاول لويس الرابع عشر حينذاك تحقيق الملكية الشاملة ، والسيطرة بقوة السلاح ، بسل يحتفي بمارسة التحكيم الشامل . وتابع ليبنير في الوقت نفسه محاولة سلامية حبرى ، هي تحقيق وحدة الكنائس، بالاتفاق مع بوسويه الذي كان منصرفا الى توحيدالكنيستين الكاثوليكية والبووتستانتية في فرنسا ؛ وقد نشر بوسويه آنذاك « شرع المقيدة الكاثوليكية في المواضيع المختلف عليها » الذي كان له أثر عم اوروبا (١٩٧١) ، واتصل به « بوفندورف » ، مهذب ولي عهد اسوج حيث كان الاجتاع مرغوبا فيه ، وتولى في « سان جرمين » هداية دوق « اوسنابروك » زوج حفيدة المنتخب البالاتيني ، وأعد مشروعا للمناولة تحت العرضين السريين « اوسنابروك » زوج حفيدة المنتخب البالاتيني ، وأعد مشروعا للمناولة تحت العرضين السريين السنة ١٩٧٥ لتحقيق المصالحة بموافقة الامبراطور والبابا « اينو شنتيوس » الحادي عشر . وفي السنة ١٩٧٥ ، وافق البابا على « شرح » بوسويه . فأمكن لليبنيز تأمل تنفيذ مخططه ، وهسو تحقيق مثالية العمل المنجز في معاهدات وستفاليا والبيرينيه .

وه لفصل لاشاه

المظاهر الجديدة للأزمة

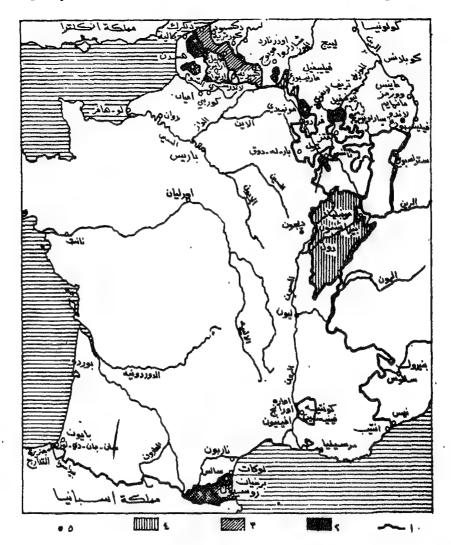
لم تتكشف وسائل مقاومة الازمة الاعن كفافها الضروري لموازنتهما ، دون ان تمكن من النغلب عليها . فكان لا مناص مثلا من تقنيات زراعية اخرى ، اي من نهاذج اخرى الملكيه المقارية ، وبالتالي من انظمة اجتاعية وسياسية غير تلك المعمول بهما في البر الاوروبي ، حتى تزول الازمة المزمنة في المواد الفذائية . يضاف الى ذلك ان استمال العلاجات نفسه قد خلق اسبابا اخرى للازمة .

١ – النزاعات الاوروبية

النزهات التسلطية العادية يجب ان يبعث عن أحد الاسباب الكبرى للازمة ، وهو ابرزها ان لم النزهات التسلطية العادية والاوقيانوسية ، في عهد حكم لويس الرابع عشر الشخصي . فالنزعات التسلطية لم تلق السلاح قط . اوقف تسلط لم يبيروله الاول ، سور اوروبا المنيع في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الطافرة امام فيينا ليوبوله الاول ، سور اوروبا المنيع في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الطافرة امام فيينا (١٩٨٣) ، ومنتزع هنفاريا وترنسيلهانيا مسمن الكفرة (صلح كارازفيتز ، ١٩٩٩) ، الذي توقق خلال سئوات معدودة الى الاستيلاء على منساطق الدانوب والساف والدراف الواسمة الارساء حتى قمم جبسال الكاربات وحتى بلغراد ، بينا لم يستول لويس الرابع عشر الا على بعض المواقع الحصنة في الاقالم المنطقية ، وعلى منطقسة و فرانش س كونتيه ، الصغرى ، الفرنسية لغة وروحا ، ان هذا الامبراطور ، الذي اوشك تكراراً ان يؤدي للمسيحية خدمة توسيد الكتافس، التي لا تقدر بثمن ، وان يضع حداً نهائياً لانشقاق الكالوليكوالبروتستانت ، والذي سطع نفوذه المطبح ، وطالب باسبانيا والهند ، قد مان اوروباكا يصان المقص الخاص .

كا ان الحكومة الفرنسية ، التي دافعت عن الحريات حتى ١٦٦٠، قد نزعت هي ايضاً الىالتسلط بعد احرازها النصر وتوطيد التفوق الفرنسي ؛ فقد حاول لويس الرابسي عشر فرض هيمنته و ادعى بالتاج الامبراطوري نفسه . . فادى ذلك الى تصادم آل هبسبورغ وآل بوربون. وادى الصراع السياسي ضد الازمة الى ازمة سياسية جديدة .

ان الروح التجارية عززت النزعات التسلطمة البحرية وارغمت النزعات النزعات التسلطية البحرية التسلطية القارية على الاتجاه بانظارها ، في الوقت نفسه ، شطر البحر . ففي عهد الجمهورية وعهد حماية « كرومول » اولاً ، زاحمت انكلترا الاقالم المتحدة، منذ السنة ١٦٥٠ ، على النفوق التجاري والبحري واحتكار تجسارة الهنسب واميركا وتركة الاسبانيين البرتغاليين الذين أفل تجمهم . واكرهت الحرب الانكليزية الهولنـــــدية (١٦٥٢ – ١٦٥٤) الاقاليم المتحدة على الارتضاء بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة (معاهدة وستعنساتر ، ١٦٥٤) ومن ثم بالحد من دورهم كجوالة البحار حدًا ملموساً . وفي السنة ١٦٦١ ، تزوج شارل الثاني من الاميرة البرتغالية ﴿ كَاتِرِينَ دِي براغانس ﴾ التي امهرت بومباي وطنجة . فاتاحت قاعدتا الممليات هذه للانكليز الادعاء بالوساطة بين الاقاليم المتحدة والبرتغال: كان البرازيل البرتغالي ثائراً على السيادة الهولندية ؟ فاضطرت الاقاليم المتحدة الى التخلي عن هذه الارض الاستعارية (١٦٦١). واخيراً ارغمت الحرب الانكليزية الثانية (١٦٦٤ – ١٦٦٦) الهولنديين على التخلي عن هولندا - الجديدة وعن امساردام الجديدة (التي اصبحت نيويورك) (معاهدة بريدا ؟ الشرقية . وكانت النزاعات الانكليزية الهولندية هذه فاتحة الحروب الكبرى لاجل السيطرة على البحار والتجارة العالمية . ثم نهجت فرنسا النهج نفسه . كان كولبير طامعًا في السيطرة الاقتصادية وهي شرط السيطرة السياسية . فأقدم ، بتعرفة السنة ١٦٦٧ ، عـلى تلك الحرب الجركية التي كانت سبباً من اسباب الحرب الهولندية (١٦٧٧ - ١٦٧٨) . بعد الهجوم الصاعق على هولندا، استُطلع رأي كولبير، في شهر حزيران ١٦٧٢ ، في شروط معاهدة الصلح القريبة، فاقاترح ضم الاقاليم المتحدة ، وبالتالي تجارتها ، واكراه الهولنديين ، الفرنسيين الجدد ، عسلى التخلي عن جزء من تجارتهم الفرنسيين القدماء . وقسد جاءت هذه المشاريع ، التي لم يعلم بها الهولنديون ، تتمة لمخطط التجزئة الاقليمية والانهيار الاقتصادي والاذلال الذي عرضه «لوقوا » على الاقاليم المتحدة في-زيران ١٦٧٢. الا ان هذا المخطط وحده كان كافياً : أنتفض الهولنديون سخطاً وصموا على القتال حتى النهايسة . وهكذا فان الروح التجارية ، المعدة ، فيا خصها ، الاخيرة الى حروب كان مقدراً لها ان تثقل وطأة الازمات السياسية والاجتاعية والاقتصادية . استمرت كل النزاعات بفعل خلافة عرش اسبانيا التي سيطرت على خلافة عرش اسبانيا الله سيطرت على خلافة عرش اسبانيا السياسة الاوروبية منسلة ١٦٦٠ حتى السنة ١٢١٠ . لم يرزق فيليب الرابع ، ملك اسبانيا ، حتى السنة ١٦٦٠ ، سوى ابنتين ، احداهما تلك التي تزوج منها



الشكل ١١ ـ الغنم الفرنسي منذ معاهدتي وستفاليا حتى معاهـــدة اوترخت ١ ـ الحدود ٢ ـ معاهدة البيرينيه ١٦٥٩ ٣ ـ اكس لا شابيل ١٦٦٨ ٤ ـ نيميسغ ١٦٧٨ . ٥ ـ اقاليم وبطنهـــا بفرنسا غرف الاجتاع

لويس الرابع عشر ، والثانية تلك التي لن يلبث الامبراطور ليوبولد الاول ان يختطبها . ورزق

بعد ذلك ابناً هو شارل الثاني الذي غدا ملك اسبانيا ، ولكن ضعف بنيته البالغ قد حل الجميع على الاعتقاد بانه لن يرزق اولاداً وبانه سيموت قريباً . فالى من تؤول خلافة العرش يا ترى ؟ اجل ان ماري تيريز، عقيلة لويس الرابع عشر، قد تنازلت عن هذه الخلافة في معاهدة البيرينيه. ولكن التنازل ، بصرف النظر عن أن الامير لا يستطيع أن يتنازل تنازلاً صحيحاً عن حقوق تتصل اليه بالنسب ، قد مُنه به و مقابسل ، ٠٠٠ دينار لم تدفع قط : اذن فهو باطل . لذلك فلويس الرابع عشر، وهو ابن وزوج اميرتين ملكيتين بكرين ، يُعتفظ بكافة حقوقه التي تقوق حقوق ليوبوك ، وهو ابن وزوج اميرتين اصغر سناً . واذا ورث ليوبولد خلافة المرش ، فهذا يعني احادة امبراطورية شارل الخامس ، وتهديد فرئسا بالزوال واوروبا بالاستعباد ،وضياع نشيجة جهود وتضحيات استفرقت قرناً ونصف القرن ، واذا ورثها لويس الرابع عشر ، فهــذا يعني صيرورة السيطرة التجارية والبحرية الى فرنسا مسم الوسائل الموصلة الى الامبراطورية الشَّاملة . فالمقصود انما كان استثبار الامبراطورية الاسبانية في اميركا واستغلال المفترقات التجارية ذات الاهبية الحيوية : مجر الشال الذي تقوم الاقاليم المتحدة على سواحله ، والبحر المتوسط الذي تتبيع السيطرة عليه صقليا ومملكة نابولي ، وكلاهما ممتلكات اسبانية . وغني عسن البيان ان الدولتين البحريتين ، انكلارا وهولندا ، ما كانتا لتقب لا برؤية فرنسا تعيد فتح مصاب نهر اسَكُو ، وتبعث انفرس التي قد تصبح المنافِسة البحرية لامستردام ولندن اذا ما رفعت عنهــــا قيود معاهدة مونستر وخمنت مساندة دولة واسعة الاطراف تتوم وراءها ؟ وبترك الفرنسيين يسيطرون سيطرة نهائية في افريقيا الشبالية ومرافىء الشرق الاوسط ؟ أو بتزكهم فيحصلون على احتكار في المستعمرات الاسبانية في اميركا ، ويزودونها و وحسدهم ، و بالمصنوعات ، والزنوج ، ويقصون منافسيهم عن التيار التجاري الجديد نحو « شيلي » و « بيرو » و « كاليفورنيا » السفلي عن طربتي مضيق و ماجلان ، . لذلك راقب الانكليز والهولنديون عن كثب خلافة عرش اسبانيا حتى يكون لهم نصيبهم منها . . قام الخلاف حول الخلافة بين سلالتين ملكيتين ولكنه أثار فيوجه كل دولة مسألة خطيرة ذات اهمية قيرمية لأن المالك انما تتجسد عِلوكها.وكان شعور الشعوب بذلك كافياً لاخفاق وسائل الدبلوماسية العادية . اشترى لويس الرابع عشر محالفة ملك انكلترا شارل الثاني بجمالة شهرية ، والمدادات مالية ، وسرية هي د لويز دي كيروال ، الحسناء التي اصبحت دوقة ، بورتسموث ، رواشترى الوزراء وحتى زعماء المعارضة في المجلس التمثيلي . ولكن ضفط رجال المال ومجهزني البواخر والتجار وحقد الشعب الانكليزي على فرنسا البابوية والمنافسة ، اكرها شارل الثاني على التخلي عسن حليفته فرنسا ، بينا كانت حرب هولندا على. اشدها (١٦٧٤) ، وعلى تزويج ابنة شقيقه ، ماري ، الى « غليوم دورانج » ، ثم التحالف مع مولندا على قرنسا (١٦٧٨) .

فكر الخصان اكثر من مرة بتقسيم مسبق بغية افتتاح التركة. فبموجب تقسيم السنة ١٦٦٨ بين لويس الرابع عشر والامبراطور ، تقرر اعطساء لويس الرابع عشر المناطق المنخفضة ، وفرانش - كونتيه ، ونافار ، وبملكة نابولي ، وصفليا ، وحصون مراكش ، واخيراً الفليبين ، على ان يعطى الامبراطور ما سوى ذلك . أما بعد اتفاق السنة ١٦٩٨ ، بين لويس الرابع عشر والدول البحرية ، فان اتفاق السنة ١٩٠٥ بين لويس الرابع عشر وهولندا وانكاترا قد اعطى ارشدوق اسبانيا ، شارل ، الهند والمناطق المنخفضة ؛ وولي العهد ، نابولي وصفليا ومواقسع توسكانا . وفكر لويس الرابع عشر باستبدال صفليا بنيس وسافوا ، ونابولي باللورين فيستكل بذلك ارض مملكة فرنسا . ولكن هذه المحاولات اصطدمت نارة بتصميم الاسبانيين الصريسح على الابقاء على كال امبراطوريتهم ، واخرى برفض الامبراطور . فتوالت الحروب .

النزعة الى التسلط الدستوري

ثم لم يلبث الاختلاف حول الآراء الدستورية الذي نجم عن اختسلاف مراحل التطور الاقتصادي والاجتاعي والسياسي التي بلغتها كل دولة من الدول ان اصبح بدوره سبباً للنزاع . فبمد الثورة الانكليزية (١٦٨٨)

مثلا ؛ رفض لويس الرابع عشر الاعتراف بشرعية و غليوم دورانج ، الذي اختساره الشعب الانكليزى ملكاً عليه ، وساند اولئك الذين يمينهم نسبهم لهذه الولاية ، اي جاك الثاني ثم جاك الثالث ، من آل ستيوارت ، فكان ذلك تصادماً بين مبدأ الملكية الوراثية المبنية على حتى الحي ومبدأ الملكية المبنية على التماقد الحر ،

بدا التسلط الفرنسي أرهب من كل تسلط آخر ، واتهم لويس الرابع عشر بالدميك القرنسية عبد الدوول . اما الحقيقة فهي ان سياسته حتى السنة والهلسم بالاروولي 1748 تعتبر دفاعيسة ، ومكلة لسياسة ريشليو . ان لويس الرابسم

عشر واصل سياسة و الابراب ، و و الطرق المسكرية ، القديمة ، دوغا نظر الى الحدود الطبيعة . وهذا كان مقصده من الاستيلاء على اللورين ومن استرجاع دنكرك من شارل الشاني بالشراء . لا بل يمكن اعتبار حرب نقل الحقوق نفسها (١٦٦٧ – ١٦٦٨) حربا دفاعية لان فيليب الرابع قد اوسى ، وهو على فراش الموت ، بان خلافة المرش تعود ، بعد شارل ، الى حفدة ابنته الثانية ، مرغريت – تريز ؛ خطيبة الامبراطور ليوبولد : قبات لزاما ، والحالة هذه ، الاستيلاء على بعض بقاع المناطق المنخفضة بفية اقفال حدود فرنسا . ويجوز اعتبار الحرب المولدية على بعض بقاع المناطق المنخفضة بفية اقفال حدود فرنسا . ويجوز اعتبار الحرب المولدية على بعض بقاع المناطق المنخفضة بحدها من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك إناحة استيلاء الامبراطور على المناطق المنخفضة بحدها من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك إن اسبانيا التي حالفت المولنديين على فرنسا قد خسرت ، بالاضافة الى شطر مسن الفلاندر ، منطقة فرانش – كونتيه التي قال لويس الرابع عشر عنها : و انها شقت لي طريقا جديدة الى المانيا ، يمكنني في الوقت نفسه اقفالها في وجه اعدائي » . فها زال الفرنسيون يعساون بوحي منكرة ابعاد الغزوات عن فرنسا بالاستيلاء على الطرق المؤدية اليها التي تنتزع من المدو وتتبع عملاً في معوصيا إذا ما احدق بها خطر هذا المدو .

الا ان دخول الفرنسين الى المناطق المنخفضة ، في السنة ١٦٦٧ ، بينا كانت اسبانيا منهكة مفعل حكها السيء والتشوش النقدي ، وبينا لم يحرز الامبراطور انتصاره على الاتراك امسام الد و راب به الا يفضل التجريدة الفرنسية (١٦٦٣) ، وبينا كان لويس الرابسع عشر يمارس حياية حقيقية على الامراء الرينانيين ، باستثناء المنتخب البالاتيق ، قد نشر الذعر في اوروبا . في هذه السنة بالذات ، نشر الفرنسي و او يري ، و مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية ، . وقد واقع في هذا الكتاب عن حق لويس الرابسع عشر في استعادة القسم الاكبر من ، ألمانيا و ارث الامبراطوري القديم ، والتي امتلكها شارلمان بوصفه ملك فرنسا ، ، وفي استعادة المنصب الامبراطوري الذي انتزعته ألمانيا من فرنسا . وزعم ان كل ما هنالك يؤمل ولي العهد بالسيادة على البحر والبر على السواء وبالملكية الشاملة . وما دور روما اوغسطوس سوى اعداد لدور فرنسا لويس الرابسع عشر التي ستؤول اليها السيادة المطلقة على الكون .

كان السخط والذعر شاملين. فان السفير الامبراطوري ، و ليزولا ، " قد اشتكى ؟ في كتابه و وس الدولة والعدالة ، امن ان عدة لويس الرابسع عشر الحربية لا مبرر لها سوى تصميمه على فتح كافية المحاء اوروبا . العالم المسيحي مهدد بالخطر . يجب ان تتسلسح اوروبا وتتحد ، لو ان تقبل باستعباد الفرنسيين لها . وكان المكتاب صدى عظيم جداً . وقد روي خطأ في حينه ، ان صورة ولي العهد بلباس الامبراطور غلاً كل مكان في فرنسا ، حتى الحانات . ومثل إخد النقرش فرنسا مدر عة ، تفطي رأسها ثعابين هائجة ، تتقدم ، وهي تنفخ النار في بوق ، نحو إليزر وبامجتاحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطمنون الاطفال طعنات نجلاء برماحهم ويجهزون إليزر وبامجتاحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطمنون الاطفال طعنات نجلاء برماحهم ويجهزون يهي الجرحي بالمساعير ويستحقون المدنين تحت سنابك جيادهم ، بينا تنهار الجدران المشتعلة والتصاعد دخان الحرائق نحو السباء . ولمل لويس الرابع عشر ، الذي امر بسجن « او بري » ، وأيكن مصميا تصميها واضحاً على الضغط والطفيان ، ولكن الرأي العام الاوروبي نظر اليه نهائيا كما الى « هائج تاثر » .

الملك - الشمس ضبط الحدود الشهالية ، وضم فرانس ... كونتيه ، والاحتفاظ باللورين ، وفرنبا - الشمس ضبط الحدود الشهالية ، وضم فرانش ... كونتيه ، والاحتفاظ باللورين ، والرنبا واكتساب فريبورغ (في بريسفو) ، باب الهضبة الدانوبية ، وانقاذ الحلفاء الاسوجيين من الداغرك وبراندبورغ المنتصرتين عليهم ، ودور الحكم في اوروبا ، والاقدام في ايام السلم ، بحسب عرف اوروبي قديم على كل حال ، على ضم اقاليم خاضعة لاقاليم اخرى اعطيت لها بموجب المعاهدات ، كل ذلك جمل فرنسا تزهو خيسلاء وكبرياء . منحت باريس الملك ، في السنة ١٦٨٠ ، لقب و لويس الكبير ، ومن هم ياترى ، في نظر الفرنسين آنسذاك ، حكيم الرواقيين ، وهام ارسطو والانسان الالمي عند اللاكديونيين ، اذا ما قورنوا بلويس ؟ بحرد ظلال او رموز . و ما كنا لنؤمن بهذا القدر من المعجزات (التي اتاها) لو لم نشاهدها بام المعين : فلماذا البحث اذن في الاسطورة عن اعمال و هركول ، وفي التاريخ عن اعمال الاسكندر،

ما دام لويس الكبير يعطينا المثل عن كل الفضائل ، ? ان هذا البطل ، بنهوم البطولة القديم ، ويد السيطرة الشاملة واشباتها الرسمي ، الامبراطورية . ولكن الفرنسين متفقون في الرأي ويتفنون مع لويس الكبير بفرنسا الكبرى . افلم يكن لفرنسا ، في ما يزعون ، عظمة وامتياز لا نظير لها ؟ أو لم يكن الفرنسيون اساتذة في كل الفنون ? أو لم تكن لفتهم لفة اوروبا ؟ ففي نيميغ حرر سفراء الداغرك برقياتهم باللغة الفرنسية . لا بل أن سفير اسبانيا المتمجرفة كان يجيب باللغة الفرنسية على ترحيب زملائه به . ولم ير الفرنسيون في ذلك ما يثير الدهشة ، فليس هنالك سوى لفة واحدة كاملة وحكم واحيد كامل وجثل ادبي اعلى واحد ، تتوفر كلها في فرنسا ! اللغة الفرنسية شبيهة بخلق الامة التي تتكلمها : حلوة كعنبة عصافية ، نقية ، نبيلة ، عظيمة . ليس الفرنسيون اغنياء بحميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضيرها الفرنسيون اغنياء بحميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضيرها افر حالفهم النصر فانهم يبتهجون بعدالة وعظمة ، كما ان مهزومي فرنسا يستفيدون من هزائمهم فوق ما تستفيد فرنسا الظافره من ظفرها . أو ليس عدلاً » في زعهم ، ان تسيطر مثل هذه الامة على العالم ؟ كانت فرنسا لهم ، بالنسبة المكون ، كما هي الشمس بالنسبة السيارات في نظام كوبرنيك . وكانت فرنسا حم الشمس خليقة بالملك – الشمس .

ومن سخرية القدر أن ضم ستراسبورغ ، الذي تم في أيام السلم والذي كان له ما يبرره ، قد احدث اسوأ اثر . سبق لستراسبورغ؛ المدينة الامبراطورية الحرة ، وباب الالزاس ، ان سمحت ثلاثا لجيوش الامبراطور بمبور جسر الرين ، على الرغم من حيادها . فاستولى لويس الرابع عشر على المدينة (١٦٨١) لسد هذه الثفرة المفتوحة في جهازه الدفاعي . ولكن هذا العمل فسر بانه تصميم على فتح لا يقف عند حسد ، فالقى الذعر في اوروبا . اضف الى ذلك ان لويس الرابع عشر ، رغبة منه في دعم مدعياته بالامبراطورية ، قد رغب في ان يؤدي خدمة جلى للمـــالم المسيحي بجمع المسيحيين المنفصلين الى الكثلكة ، وفي ان يؤديها وحسده بمنزل عن اي شخص آخر . فكانت رغبته مدعاة لحشية البابا وفشل انضام بروتستانت المانيسا الذي اعده سبيتولا والامبراطور ٬ والذي كان الامراء ٬ بتأثير من ليبنيز٬ مهدئين للقبول به : الاعتراف بالبابا رئيساً والتبول بالجمع التزيدنتيني . أما لويس الرابع عشر ٬ فكان بمقدوره ٬ بواسطة فرسانسه إبطال براءة نانت في فرنسا . وعزيت اليه رغبته في ارسال فرسانه لمساعدة جساك الثاني على اعادة انكلترا الى أحضان الكثلكة . فاعتقدت اوروبا كلها بان لويس الرابع عشر الما بريد الاحتلال لتعقيق الارتداد . فارتجف الاوروبيون قلقاً . لا بل ان اصدقـــاء لويس الرابـع عشر القدماء انفسهم ٬ بورجوازيي امسترام المعادين لرئيس السلطة التنفيذية ٬ والامراء الالمان ٬ فــــ تخلوا عنه د لضان رصيدهم » . وقار الانڪليز وطردوا جاك الثاني (١٦٨٨) . واتحدت اوروبا ضد فرنسا.

جاء رد فعل اوروبا ؟ امام الخطر ؟ محالفات بقسادة الدول البحرية . الحالفات ضد فرنسا كانت الاحلاف محصورة ، قبل السنة ١٦٨٥ : حلف السنة ١٦٦٨ الثلاثي ، بين انكلترا وهولندا واسوج الذي ارغم لويس الرابع عشر على ايقاف فتوحاته في و فلاندر ، وعلى توقيع معاهدة صلح ، اكس - لا - شابيل ، (١٦٦٨) ، وحلف ، لاهاي ، الكبير (١٦٧٣) بين الاقاليم المتحدة والامبراطور واسبانيا ودوق اللورين الذين انضم اليهم المجمسم الجرماني (١٦٧٤) ، ثم الدانمرك ، وقد انقذ الاقاليم المتحدة والمساطق المنخفضة . ولكنها غدت شبه شاملة ودائمة بعد السنة ١٦٨٥ . فان البروتستانت الفرنسيين المهـــاجرين حرضوا أوروبا على لويس الرابع عشر وعملوا على توحيد الامراء ضد فرنسا. وكان قلب الاحلاف النابض غليوم دورانج ، رئيس السلطة التنفيذية في الاقاليم المتحدة ، الذي اصبح ملكاً على انكلترا في السنلة ١٦٨٩ ، واشتهر بعصبيته البروتستانتية وعنف عــــدائه للفرنسيين . تحالفت انكلترا والاقاليم المتحدة مع تكتل ، اوغزبورغ ، الذي تألف في السنة ١٦٨٨ من الامبراطور وملك اسبانيا وملك اسوج لغيان العمل بمساهدتي وستغالبا ونبمسغ ، وما أن ارتضى لويس الرابسم عشر ، في السنة ١٧٠٠ ، بوصية شارل الثاني ملك اسبانيا لمصلحة دوق انجو، الذي اصبح ملكاً على اسبانيا باسم فيليب الخامس ، كي لا يترك الخلافة لامير نمساوي ، حتى تألف الحلف مرة رفعت معنويات المتحالفين فكرة الحرب الصليبية ضد لويس الرابع عشر . ساعــــدت الدول البحرية بمالها كل امراء البر الاوروبي المموزين الذين ما كانوا ليصمدوا طويلا لولا هذه المساعدة . فبدأت بين الفرنسيين والانكليز حرب مائة سنة جديدة لن تضم أوزارها الا في السنة ١٨١٥ . وكان على فرنسا ، للمرة الاولى ، ان تخوض الحرب وحدها ضد اوروبا كلها ، حتى بعد السنة . ١٧٠٠ ؛ لان أسبانيا كانت مستضعفة ؛ فالقي عبء الصراع كله على كاهل فرنسا التي واجهت اعداءها على طول حدودها البرية ، من دنكرك حتى طولون ومن يربنسان حتى بايون ، وفي اسبانيا ، وعلى الجبهة البحرية ايضا ، في البحر المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشهال ، وفي المستعمرات حتى في اميركا والهند . فباتت فرنسا ؛ كما سيحدث لها بعــــد مرور قرن كامل في عهد مجلس الميثاق و ولجنة الانقاذ المام ، عموقماً كبيراً محاصراً .

طالت الحروب اكثر فاكثر . فبعد حرب و نقل الحقوق ، ديرمة الحرب رعبز الجيوش (١٦٧٨ – ١٦٧٨) والحرب الهولندية (١٦٧٨ – ١٦٧٨) دامت حرب حلف إوغزبورغ منذ السنة ١٦٨٨ حتى معاهدة ريسويك في السنسة ١٦٩٨ ، وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٤ ، ومنذ السنسة ١٦٨٨ حتى وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠١ حتى السنة ١١٠٤ ، ومنذ السنسة ثقريباً . ويد دلك الى ان الحلفاء ، الذين استفادوا من تفوقهم العددي والمسالي ومن عضد البروتستانت في فرنسا ، قد تضاربت مصالحهم فانقسموا وطالت المسافات التي تفصلهم عن فرنسا فصعب تنستى

حركات جيوشهم ، بينها استفاد الفرنسيون من توسطهم اعداءهم ووحدة قيادتهم وقو"ة مركزية ادارتهم . كما يرد الى ان الجيوش الفرنسية بعد تألب اوروبا باجمها على فرنسا ، قد فقنسدت تدريجياً قدرتها على المناورة وعلى احراز الانتصارات الحاسمة .

قام الفن الحربي البحري اولا ؛ ما بين السنة ١٦٥٠ والسنة ١٦٨٠ ؛ البحث الاساطيل والصن عن العدو العائم قبل كل شيء آخر والسعي الى تدميره بمركة حامية الوطيس ؛ والمناورة لعزل قسم من الاسطول واضناكه ؛ ومطاردة الفاول بدون هوادة . في سبيل تحقيق هاذا الهدف عد امراء البحر ، الانكليز منهم ، ك و منك ، والهولنديون ، ك و رويتر ، و و ترويل ، الى خطة و اقتصاد ك و رويتر ، و و ترويل ، الى خطة و اقتصاد القوى ، حتى ولو لم يكن اسطولهم ، في مجموعه ، دون اسطول العدو عدداً ، فانهم كانو يناورون بحيث يحشدون معظم قواهم ضد الجزء الذي يريدون تدميره من اسطول العدو ويحققون المتدي في هذه النقطة . لذلك قادوا الى المركة عدداً من الفرق المتضامنة هدفا ، المستقلة حركة . واحتفظ قادة الفرق ببعض المبادهة . فكان با ستطاعة الفرقة ان تغادر مكانها لتطوق العدو او لتستغيد من ثلمة في صفه . كان الهجوم سيداً .

ولكن صفوف مدافع السفن قامت في جوانبها . فلا بجال اذن المحصول على اقصى فاعلية نيرانها الا اذا صف الاسطول كله ، سفينة بعد الاخرى ، ترفع كل منها صاربها الكبير في المؤخرة وتوجه جانبها نحو العدو . منذ السنة ١٦٥٣ ، امر دوق يورك ، الذي سيصبح جساك الثاني ، باعتهاد هذه التشكيلة . الا ان تطبيقها تطبيقاً صارمياً يشل الاساطيل التي تعجز اذ ذاك عن المناورة وينحصر عملها في اطلاق نيران مدافعها . ولكن امراء البحر والقباطنة انتهوا شيئاً الى التغلب على كل اعتبار واعتاد الصف المحدود . بعد انتصاره في و بيتشي هد » ، طارد تورفيل العدو باسطوله كا كان مصفوفاً للمركة ، فلم يتمكن من تطويق وتدمير اجزاء اسطول المعدو المتنتة ، وكان ذلك سبها هاماً من اسباب اخفاق عملية انزال الجيوش في انكلترا . في السنة ٢٩٩٦ ، نشر الاب و هوت » مرشده واستاذ الرياضيات ، و فن الجيوش البحرية او بحث الماومات ، وفي السنة ٢٠٩٤ ، طبق الانكايزي و روك » وخصمه الكونت ودي تولوز » هذه النظرية تطبيقاً صارماً في معركة و فيليز – ملكه » . لم يستفد تولوز من ثلمة احدثها ليحاول عزل مقدمة القوة الفرنسية . لم تحرك عزل مقدمة القوة الانكليزية . كالم تحاول هذه الاخيرة تطويق مقدمة القوة الفرنسية . لم تحرك القوتان المتقابلتان . قاطلقت نيران المدافع دون جدوى طية سبع ساعات .

بيد ان عدم فاعلية المدد في الممارك البحرية ، وجولة تورفيل الذي توفق في السنة ١٦٩١ الى ركوب البحر طية خمسين يوما تجنب خلالها عدوًا يفوقه عدداً ، والى تدمير قافلة اسكليزية هولندية محملة بكل غال ثمين ، ونهكة الخزينة الفرنسية في اعقاب ارتفساع نسبة الوفيات في 179٣ — 1798 وخلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، اوحت كلها للفرنسيين بفكرة الاستماضة عن حرب الاساطيل مجرب القرصنة . فغمل القراصنة البحريون ، و جان بار ، و و دوغي تروين ، وغير هما ، ما يقضي العجب واستولوا على الوف السفن العدوة . ولكن العدو قارم بطرادات ، وكانت الحاجة ماسة الى الاساطيل وخوض المعركة البحرية لتنظيف البحار من هذه الطرادات ، ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا بعد السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧٠٤ . فاطلقت يسدا العدو ضد القراصنة ، ولم تفلح حرب القرصنة في شل تجسارته على الرغم مما الحقات به مسن خسائر فادحة .

اما في البر ، فقد بلغت الجيوش اقصى فعاليتها بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . فقــــد ازدادت قدرتها على اطلاق النيران باستخدام البندقية استخداما متعاظما وباستعمال القذائف اليدوية لضرب النقاط الساكنة واكتشاف مخابىء المدو ، وبتنظيم فرق خاصة من ملقى القنابل ومطلقي نيران المدافع . وأتاح اطلاق القذائف بحيث ترتد الى الارض او الى اى حاجز آخر ٠ بفعل انحناء المدافع انحناء خاصا ، نشر الفوضى والذعر في صفوف الاعداء وبلوغ هــدف خفى بصورة غير مباشرة . وشكلت فرق من المشاة مجهزة خير تجهيز وسريعة الحركة جــــداً ، هي فرق د الدراغون ، . وسمحت البزة ، وهي مختلفة باختلاف الاسلحة والفرق ، للقائســــد بتمـيز شتى فرقه في ساحة المعركة٬ وسهلت عليه القيادة . واتاحت المشية العسكرية قيادة فرق المشاة بكل تنظم ، وحفظ المسافات والابعاد الملائمة لمعركة بالاسلحة النارية . كما ان تنظم والوفوا ، لقوافل المربات الصفيرة والكبيرة ، والخازن على مقربة من الحدود ، ومستودعات الاعلاف ، أتاح للفرنسيين دخول الممركة قبل غيرهم واخذ اعدائهم على حين غرة منذ انتهاء فصل الامطار. ولمهاجمة المواقع المحصنة ، احكم و فوبان ، جهاز الحنادق و الموازية ، لتحصينات المدو ، بغية ايواء مدافع النَّقب ، وجهاز الحفر المعوجة بغية التقدم تدريجياً . اما للدفاع فقد أخفى الجدران في خنادق عميقة لا تبرز منها فوق الارض سوى متاريس ترابية تتفرز فيها القذائف دون ارب تخلخل شيئًا ويسهل اعادتها الى ما كانت عليـــه . وشبك نيران ابراج الحصون ، و المدينة التي يحاصرها ه فوبأن ، ساقطة حتما ؛ والمدينة التي يدافع عنها فوبان متنمة الفتح ، . فاستطاع قادة نخبة ، كادتورين، وكونديه ، اكثر من أي يوم مضى؛ السمي وراء ممركة التدمير، ووحجب ، المواقع كـ (ما يسترخت ، في السنة ١٦٧٧ ، والانقضاض خطا مستقيما على قلب بلاد الاعداء ، كما في مولندا . وكانت السنراتيجية الفرنسية سنراتيجية الحرب الصاعقة · وهي لم تصادف الفشل في هولندا الا بفعل غمر البلاد بالماه .

بعد السنة ١٦٨٠ اخذت الجيوش ، رويداً رويداً ، تفقد فعاليتها وقدرتها على المنساورة . وكان ذلك نتيجة استخدام البندقية التي كملها فوبان بإضافة الحربة اليها في السنة ١٦٨٧ ، والتي عم استمالها في كافه الجيوش الاجنبية مند حرب حلف اوغزيررغ ، وفي الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٠٣ . والبندقية ، في جوهرها ، قطعة فولاذية تطرقها صوانة حسين يطلق الزنبرك .

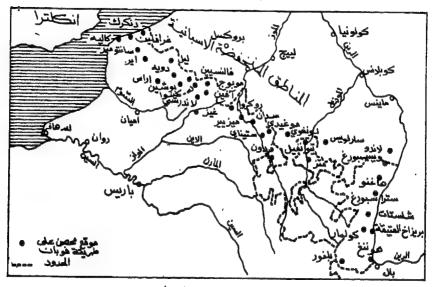
يزند الطرق شرارات تشمل النار في بارود الحزنة الذي ينقل النار بدوره الى البارود الموجود في مدفع السلاح ، بواسطة ثقب صغير يمرف بثقب اشعال البارود . ثم اطلق اسم البندقية على السلاح الناري بكامله . جاء هذا السلاح اسهل استمالا واقل خطراً من البندقية القديمة ذات الفتيل. فما عاد الجندي ليشغل باله بالحوادث التي قد يسببها المتيل المشتمل اثناء حشوه البندقية ؟ وما عاد ليتقيد بطول ممين للفتيل حتى يصادف سقوطه على بارود الخزنة ؟ فقد أصبح باستطاعته ان يحرك سلاحه على هواه بالقرب من رفيقه او في وسط الدوالي والاشجار وان يحشوه ويطلق النار بسرعة . منذ ذاك الحين ، غسدت نيران المشاة وسيلة المعركة الاولى ، وشكلت فرق المشاة ، وهي ملكة الممارك ، حتى خسة اسداس مجموع الجيوش . ولكن ما لفت انتباه القادة هو سرعة اطلاق النار في البندقية ؛ طلقة في الدقيقة؛والاطلاقات الكابية الكثيرة (التي أخرت اعتادها في الجيش الفرنسي) . لذلك كان عنوان الكمال في نظر القادة اطلاق نيران الاسلحة في آن واحد ، وغايتهم المنشودة التوصل الى اطلاقها باستمرار ، ومد سماط من الرصاص امام جبهة الجيوش ، وانشاء جدار من نار في سبيل بلوغ هذه الغاية . رتبوا الجيوش صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدر . ولكن القادة استمروا في اعبّاد الصفوف الخسة عمقــــ والخطوات الاربــم او الحنس مسافة وبعداً ﴾ في حال أن الاطمئنان إلى السلاح الجديد كان يسمح باعتاد الخطوة الواحدة مسافة وبعداً بين الجنود ، وسرعة الاطلاق باعتهاد الصفوف الثلاثة عمقاً فقط . وبسبب عسدم ترفر الرسائل للانتقال من الصف المتلاحق الى الصف المتلاصق ومن الصف المتلاصق الى الصف المتلاحق ، توجب ، كما في الماضي ، مجابهة المدو على بعض المسافة والهجوم عليه ببطء ، وتوزيسم الجنود هذا وهناك في الحقول . يضاف الى ذلك زوال فرق مطلقي النار بتواتر ، خلال حرب خلافة عرش اسبانها ، باستثناء خسين رجلا في كل فوج . ومرد ذلك الى أن استمهال البندقية قد أمن السلاح الضروري لصد العدو بنيران محكة التصويب ، بنيران قاتلة ، فلم يعد من مبرر حقيقي لاستخدامهم . الا أن القيادة الفرنسيين ، الدوق د دي لوكسمبورغ ، ، د لورج ، ، « بوفار » » « كاتينا » ، واندادهم ، « لريس دي باد » ، منتخب بافيير و غليوم دورانج ، ابان حرب حلف اوغزبورغ ، و د فندوم ، و د فیلیه ، و د برویك ، من جهة ، والامیر د ارجین، و و تشرشل ، والدوق و دي مارلبورو ، من جهة ثانية ، ابان حرب خلافة عرش أسبانيا ، لم يتخاوا برماً عن فكرة ممركة الندمير التي ستنتبي حتما بستوط المواقع الحصنة. ولكن الصف جمل جيوش حرب خلافة عرش أسبانيا اقل قدرة على المناورة والحركة مسسن جيوش تورين وكونديه . وقد حافظ لويس الرابع عشر على رباطة جأشه في أسوأ ساعات الحرب لانه كأن مقتنما ، كا قال مراراً ، باستحالة انهزام هذه الجيوش الجرارة انهزاماً كاملاً .

بسبب نقائص جيوش البر والبحر هذه ، فشلت كل محاولات الحرب الصاعقة والاندفاع حتى المراكز الحيوية . فشلت في السنوات ١٦٨٩ – ١٦٩١ محاولات انزال الجيوش الفرنسيسة في التكلترا ، بينا النزم الفرنسيون حربا دناعية على الحدود البرية ، وفشل في السنة ١٧٠٢ الهجوم

المركز على فيينا الذي رسمه لويس الرابع عشر ؟ وفشل الحلفاء في التوصل الى غير فتح الولايات ، و بافيير » بعد « بلنهايم » (١٧٠٦) ، و « برابان » و « فلاىدر » بعد « راميي » (١٧٠٦) ، اضف الى ذلك ان بعض طرائق الدفاع قد أخرت تقدم الجيوش . فالفرنسيون قدد اجتاحوا البالاتينا تكراراً لحماية الرين ، وفي السنة ١٦٨٩ ، احرقوا هيدلبرغ ، ونسفوا قصرها العائد الى عبد النهضة ، ودمروا مانهايم وسبير و « وورمز » و « بنجن » . وبعد اودنارد ، عجز الحلفاء عن الانقضاض على باريس لان جيشاً فرنسياً مؤلفاً من ٥٠٠ م رجل ، هزم دونان يقضى عليه ، منا زال يهددهم من الوراء ، ولانهم اصطدموا به « الحدود الحديدية » المعروفة باسم فوبان ، وهي جهاز دفاعي بنساه فوبان ووضع تصميمه لويس الرابع عشر . تألف هذا الجهساز من سلسلة مواقع بحصنة تتصل فيا بينها بمواقع محصنة ثانوية ، ويقوم وراءها وبموازاتها خط دفاعي ثان . وكان الهدف منه اقفال طريق الغزو : بجازات الواز و « سيدان » و « فروار » و « بلغور » وسافوا العليا . وهو ما ساعد فرنسا على الصمود .

وهكذا تحولت الحروب الى حروب انهاك وافتساء . استخدم المحاربون كل التوازن الاوروبي وسملة تساعدهم على احراز النصر. استخدم الحلفاء البروتستانت الفرنسيين. فقام هؤلاء في كل مكان بالدعاوة ضد الفرنسيين وتجــسوا وتآمروا لمصلحة الاجانب . وقد نظم وجوريو، ما بين السنة ١٦٩٢ والسنة ١٧٠٥ ، وباموال الوزراء الانكليز ، شبكة جاسوسية كاملة الحلقات . وحرض د بروستون ، و د فيفان ، بروتستانتَ منطقة الـ د سيفين ، و د فسالديبي ، الجيوش الاجنبية ، ووزعا ذهب المدو بوفرة . فساعــــدت ثورة «كاميزار » « السيغين » ، في السنة ١٧١٠ ، على انزال الجيوش الانكليزية في و سيت » و « آغد » . وقد حسب البروتستانت على الرغم من تحذيرات ؛ بايل ، ، ان الحلفاء المنتصرين سيشترطون على لويس الربسم عشر عودتهم الى فرنسا . ولكن الحلفاء لم يأتوا على ذكرهم اثناء المفاوضات . واخيرا وضع العيساء والنهكة حداً للنزاعات المسلحة. فاضطر المحاربون الى التسليم بتقاسم الاراضي والسلطة والنفوذ. قبل الحلفاء مكرهين ، في معاهدة ريسويك (١٦٩٧) بالتخلي عن فكرة اعسادة فرنسا الى حدود السنة ١٦٤٨ والسنة ١٦٥٩ ، وقبل لويس الرابع عشر مكرها ايضا بالتخلي عن اللورين وعن حصون ضفة الرين اليمني . وفي معاهدتي اوترخبت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) ، قبل لويس الرابع عشر والامبراطور مرغين بتقاسم خلافة اسبانيا . فاحتفظ فيليب الخامس باسبانيا والامبراطورية الاستعبارية ، وامبراطور النمسا شارل السادس بالمناطق المنخفضة ومنطقة مبلانو والحصون التوسكانية ونابولي وسردينيا ؟ أما لويس الرابع عشر فكان نصيبه أنه حال دون تجدد امبراطورية شارل الخامس واحل احد افراد سلالة بوريون على العرش الاسباني . وهكسخا لم تتوفق اية قو"ة برية إلى السلطة الشاملة . انتظمت الحدود بين الدول تدريجياً بموجب معاهدة نيمينغ والمعاهدات التي الحدود ـ الخطوط والمعاهدات التي الاعداء والدول ـ القطائل والدول ـ القطائل وكانت لها بمثابة « ابواب ، لهجوم مستقبل : سالوس وبينيرول في ايطاليا ،

فريبورغ وبريزاخ وكهل وفيلبسبورغ على ضفة الرين اليمنى ، و شارلروا ، و « او دنارد » ، « و آت » و « منين » و « ايبر » و « دكسمود » وتورنيه الغ ، في المناطق المنخفضة الاسبانية . وازالت فرنسا شيئاً فشيئاً الجيوب الاجنبية في داخل المملكة . فلم يبتى في السنة ١٧١٣ سوى ثلمة واحدة هامة هي اللورين . فقد جرى الانتقال اذن ، في هذا العهد ، من الحدود – المناطق القديمة الى الحدود – المخطوط في مفهوم الدول المعاصرة ، التي تعينها الامات الدفاعية ، كقمم



الشكل ١٢ ـ حدود فوبان الحديدية

سلاسل الجبال ، والانهار المحاطة بخنادى محفورة في الارض ، كا في الفلاندر ، والحدود الجهزة بالحصون ؛ فقد قابلت و الحدود الحديدية ، مثلا حصون و الحاجز ، الهولندية . وفكر الساسة على الرغم من حكمتهم العملية ، بجعل الحدود فاصلا بين اللغات والحضارات . فجاءت هدف الحدود دليلا على ان الدول اقتربت من الحد الاقصى لتوسعها وانها ستتصادم تصادماً مباشراً ، واوضع الدبلوماسيون مفهوم الدولة – القطيلة ، كسافوا ، بييمون ، وبالاتينا ، ومنتخبية كولونيا ، التي التي على عاتقها عبء الفصل بين الدول الكبيرة وابطاء هجات الجيوش والحدة منها . ولكن هذا الدور المرهق قد أخضعها لسنة الاقوى ، اي للانكليزي .

توصلت الدولتان البحريتان ، انكاترا وهولندا ، في معـــاهدتي ريسويك الحتى العام الجديد وورخت ، الى اقرار حتى عام جديد مبني على مبادىء العقد . وقد اعترف لريس الرابع عشر واوروبا ، على مرتين ، بشرعية ملوك تولوا سلطاتهم ، بعد ثورة السنة ١٦١٨،

بموجبً عقد مع الشعب الانكليزي لا بموجب حق إلهي يكسبهم اياه نسبهم ، غليوم دورانج وماري ، ثم الملكة و آن ، لا بل ان الانكليز والهولنديين قد ادخلوا هذا الحق العام الجديد ، الى حد ما ، عند جيرانهم في البر الاوروبي . ففي ريسويك واوترخت طالب الهولنديون بالحاح بتسجيل المعاهدتين في مجلس باريس التمثيلي ، كا لو كان هذا التسجيل يضيف الى توقيع الملك ضمانة اخرى . وفي اوترخت ، فرض الانكليز تنازل فيليب الخامس عن عرش فرنسا ، وتنازل الدوق و دورليان ، عن عرش أسبانيا ، وهي تنازلات باطلمة بموجب مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس باريس التمثيلي ، المؤلف من قضاة يملكون وظائفهم ويتميزون بنزعاتهم الارستوقراطية والاقطاعية ، وبمعارضتهم لتماظم سلطة الدولة وبتوسع نطاق حقهم العام ، الملائم لبلاد مرتفعة والاستوقراطيات الرجمية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامسة اللوستوقراطيات الرجمية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامسة الطبعي واضعفوا الدولة .

انقسامات ارووبا ورجحان النفـــوذ الانكليزي

أخيراً ، توصل الانكليز الى بسط نفوذهم السياسي والبحري والتجاري . فقد أتاحت انقسامات الاوروبيين التي توفقت معاهدتا اوترخت الى تغذيتها وسمها ، سيطرة الانكليز على

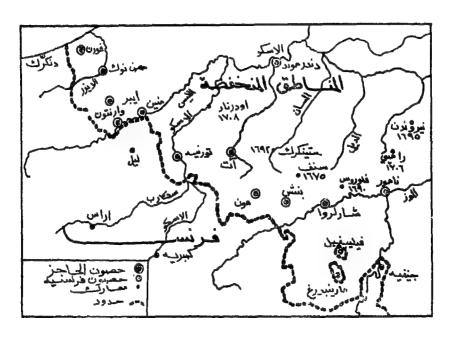
الطرق البحرية الرئيسية والاسواق التجارية الهامة . قسمت شواطىء بحر الشهال المحفوفية بالاخطار بين ملكين متعاديين هما لويس الرابسع عشر وشارل السادس . فبقيت أنفرس مقفلة وسطع نجم لندن . ووفر النزاع بين الاسوجيين من جهة وبين الدانمر كيين والبروسيين والروس من جهة اخرى ، امكانات المناورة لاحراز المكاسب في بحر البلطيك والمضائق الدانمركية .

قسمت مجازات البحر المتوسط بين عدوين عنيدين هما شارل السادس وفيليب الخامس ؟ اما الانكليز ، مالكو مضيق جبل طارق وجزيرة مينورك ، فقد راقبوا مدخل البحر المتوسط الى الاوقيانوس ، وحوض المتوسط الغربي الى الحوض الشرقي ، واحرزت شركتهم اللركية بعض المكاسب في ايطاليا وفي موانىء الشرق الاوسط على الفرنسيين .

منذ السنة ٩٧٠٣ ، اعطت معاهدة « ميتوين » الانكليز احتكار الاسواق البرتفسالية والبرازيلية وانتزعت معاهدة اوترخت الامبراطورية الاسبانية من الفرنسين وقتحت امسام الانكليز اسواق اسبانيا بتخفيض الرسوم على اقمشتهم الصوفية وباعطائهم الافضلية على غيرهم ، واسواق اميركا باعطائهم احتكار توريدالعبيدالزلوج وحتى ارسال سفينة عملة بالمصنوعات كل سنة الى بعض موانى ، اميركا الاسبانية ، وفي الانحاء الاخرى من أميركا ، انتزع الانكليز من الفرنسيين

جون « هدسون » مع رجحان النفوذ في تجارة الفراء٬ واكاديا والارض الجديدة مع رجحان النفوذ في صيد الاسماك ، وسان كريستوف مع منتوجها من السكر .

وهكذا توصل الانكليز الى ارساء أولويتهم تحت ستار الدفاع عن الحريات الاوروبية وعن حقوق الانسان ضد لويس الرابع عشر . وبفضل التوازن الاوروبي الذي تحقق في البر بسين الدول الكبرى ، وخشية فرنسا ، والارتيابات والمنافسات المتبادلة ، استطاع الانكليز ، أسياد البحار وتجارة العالم ، المحافظة عليها ، فللمرة الاولى منذ القرون الوسطى بسطت دولة بحريبة نفوذها على البر الاوروبي ، وللمرة الاولى رافقت النفوذ ظروف جعلته يبدو وكأنسه تحرير وانقساذ .



الشكل ١٣ ـ حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اوترخت ، ١٧١٥)

كان من شأن هذه الحروب انها حركت التشامخ القومي . فقد اعترف لاوروبا في مجموعها بعبقرية خاصة ؟ وانتشرت الكلاسيكية واللغة الفرنسية في كل مكان؟ ولكن ذلك لم يمنع كل دولة من أن تعتبر نفسها متفوقة على ما سواها ، أو بالاحرى جامعية وحدها المجد من أطرافه . وجاء في مؤلف اديسون ، وسبكتاتور ، أن الازهار هي رمز الامم: فرائحة أزهار أيطاليا ذا فرة تنفير من يشمها ؟ ورائحة ازهار فرنساالزاهية والفاتنة ضميفية وعابرة ؟ أما أزهار المانيا فلا رائحة لها عموماً : وإذا انتشرت منها رائحة ما فرائحة كريمة .

غلاظاً ، مفكوكي الازرار ، سكارى ، غارة ين قذارة التبغ ، متمرغيز حول طاولة تغمرها فضلات افراطهم في الاكل والشرب . وأكد و يفندورف ، و و ليبنيز ، ان الحق الجرمساني سابق لكل ما سواه من حقوق ومتفوق عليها ، وان اللغة الالمانية ، التي ليست دون اللغسة اللاتينية قدماً وجمالاً ، وتقي الى اصول العالم ، وان الشمر الالماني لا يعلو عليه شعر آخر . ولمل الاوروبيين لم يعوا ما يوحدهم وعيهم للاختلافات والمنافسات القائمة بينهم .

اضف الى ذلك ان الطباع الفردية جبارة . فالانكليز يقبلون بنتائج الاختبار في العلوم ، ولو لم تسمح بتكوين افكار واضحة كل الوضوح الما الفرنسيون فيتمسكون بهذه الاخيرة ويميلون الى بناء البراهين المتسلسلة المستخلصة خير استخلاص ؛ وأما الالمان فيصعب عليهم القول بالآلية البحتة ويسلمون ابداً بالقوى الحقية ، وبالارواح تقريباً.

٢ - الحرب وأزمة الدولة

ما زالت طريقة الانتاج ، وحركة تداول الممادن الثمينة ، والنقسد ، والاسعار ، اسبابا هامة من اسباب الازمة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في مستهل هذه الدراسة حول القرن السابع عشر . وتفاقمت كافة اسباب الازمة بفعل الحروب الطويلة وما رافقها من قتل وخراب ، وهدر القوى والوقت في انتاج ما هو عقيم وزائل (كالبارود والقذائف والاسلحة) ، وتحويل المال عن وظائفه الاقتصادية العادية لاجل حاجات الدولة ، وتحوير توزيع الدخول لمنفعة رجال المسال ومواني الجنود . فبرزت مظاهر جديدة للازمة . ولكن الحروب احدثت نتائج مختلفة باختلاف نظام الدولة الممنية ، على انها استمجلت في كل مكان تطوراً ما زال في مرحلته الاولى ، فلم يكن الجديد جديداً بصورة كلية ومطلقة ، وغذت الدول والمجتمعات اشد اختلاف بعضها عن بعضها الآخر .

ما زالت الرأسمالية التجارية سائرة في طريق النبو ، يرافتها تصلب الفردية النفعية النكاترا المادية للذهب القائل بان الملكية وظيفة عامة . وقد أنظر اكثر فأكثر الى مهن التصلب الرأسمالي التجار والمزارعين والبحارة كا الى رسالات ، او كما الى استجابات لدءوة الله . فظهرت كتب تقرأ من عناوينها : و الممنى الروحي لعمل الحقول (١٦٦٩) ، و المعنى الروحي للملاحة » (١٦٦٨) ، و رسالة التاجر » (ريتشارد ستيل ، ١٦٨٤) . المسيحي يخلص بالايمان ولكن الايمان الحقيقي هو ذاك الذي يولد الاعمال ، والانسان سيحاكم على اعماله . ان التاجر ، كالراعي ، مدعو لعمل خاص لا جل الخير العام . فواجبه كمسيحي يفرض عليمن ثم الانصراف بكل قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان اميناً لرسالته ، وان قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان اميناً لرسالته ، وان

تضعها عناية الله بين يدي المسيحي فريضة الزامية . المسيحي يظفر بالثروة والحياة الابدية في آن واحد ، ويرضي ، على خلاف ما جاء في الانجيل ، ربين في آن واحد : المال والله . الاندفاع وراء الكسب يصبح فضيلة ، والتقدم الاقتصادي غاية ، والانتاج المتزايد ابداً عبادة . فمكس الدين المسيحي ومهد السبيل أمام جشع الغني وتسلط الامة التجاري .

كان من نتيجة ثورات انكلترا انها انجحت تدريجياً ، بواسطة النظم نجاحات الفردية النفعية السياسية الجديدة ، الفردية الاقتصادية والاجتماعية . ففي السنة ١٦٤١، ادى الغاء الفرفة المكوكبة والمحكمة العليا الى تحرير المالك والمتعهد الرأسمـــالي . انتقلت اراض كثيرة ، بفعل المصادرات، الى ايدي تجار المدينة.وساعدت الحرب الاهلية على نجاح المتطرفين. وطالب ﴿ الممهدون ﴾ مجتى التصويت للجسيع وهدم الاسيجة والعودة الى الزراعة الجماعيـــة . وطالب ﴿ الكادحون ﴾ بتوزيح الاراضي وتحريرهم ﴿ من السلطة الملكية التي كانت في قبضـــة الاسياد » . ولكن المالكين والتجار اعتبروا الملكية حقاً سابقاً للدولة التي وجدت لحمايت. وقد ارتأى د ايرتون ۽ وکرومول ان الملاکين دون غيرهم هم الذين يؤلفون الهيئة السياسية وان عقدورهم استعال متلكاتهم كا يطيب لهم دوغا خضوع لرقابة رئيس أو لادعاءات الفقراء الذبن ليس بؤسهم سوى قصاص خطاياه . رد الجلس التمثيلي المرائض المقدمة احتجاجاً على الاسيجة . ولكن الجهورية (١٦٤٩ - ١٦٤٩) لم تبد قادرة على حماية الملكية ، وهذا هو احــد أسباب دكتاتورية كرومول و الحامي ، (١٦٥٣ - ١٦٥٨) . وتغلب الرأي القـــائل و بان كل فرد سيممل ما يؤمن له الدخل الاوفر ، على ضوء الطبيعة والعقل ... وان فائسدة الفرد ستكون فاثدة للجموع ، (١٦٥٦) وج . لي ، ، وتبرير تنظيم حق التسييج،) . فخدم الجيع واجل سيدات العالم ۽ ، اي إلحة الاعمال ، وليس وعي ذلك ما اعوز الحولنديين .

بعد اعادة الملكية ، في عهد شارل الثاني ، لم يطرأ اي تغيير على عدة نقاط سبق اقرارها : المجلس الخاص لا يتدخل بين المالكين والمتعهدين من جهة ، وبين الشركاء والاجراء من جهة ثانية ؛ الاشراف الريفيون يسيجون حقولهم مجرية بغيبة زيادة انتاج الصوف والحنطة المدين للبيع ؛ بطل العمل ، أو كاد ، بقانون الفقراء ، فاستطاعت الرأسمالية الزراعية ان تتصرف تصرفاً طليقاً ، وكبار الملاكين ان مجولوا المشاركات الطويلة الاجل الى مشاركات اختياريسة يسهل زيادة دخلها ، وان يرفعوا عدد المزارعين ويسيجوا الاملاك العامسة في القرى . فغدت أنكلترا من أهم مصدري الحنطة والصوف واللحوم الى البر الاوروبي ؛ كما ان نقل البضائع في السفن حدا بالجهزين الى التسلح ؛ وغدت تجارة المستعمرات احدى الم تجارات العسالم ، وقد عزرها فتح المستعمرات البرتغالية بعد زواج شارل الثاني من «كاترين دي براغانس » والتشدد في العمل بوثيقة الملاحة ، واحداث مجلس التجارة والمستعمرات .

ثورة السنة ١٦٨٨ وانتصارالبورجوازية الرأسمالية

ولكن هذه الانطلاقة جر"ت الى نزاع تجاري طويل الامد مسم مالية هولنسدا وفرنسا . رضي الرأسماليون الانكليز عن سياسة شارل الثاني ضد هولندا ، ولحنهم لم يرضوا عن موقفه ، ولا سيا عسن

موقف جاك الثاني ، من فرنسا التي غدت أخطر منافسة في التجارة والستمرات . واذا أقدم جاك الثاني من جهة ثانية على اعادة الكثلكة الى انكلترا بمساندة لويس الرابع عشر ، فيكون معنى ذلك اعادة مذهب و الملكية وظيفة عامة ، ورقابة الدولة في آن واحد . فأدى الصراع الاقتصادي ضد فرنسا ، والصراع لاجل افضسل دين يتفق والذهنية الرأسمالية ، الى ثورة السنة ١٦٨٨ .

قبل ثورة السنة ١٩٨٨ انتصار البورجوازية الرأسمالية وتجار مدينة لندن والاشراف الريفيين المتخلقين باخلاق البورجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية . وقد مثلت علياً انتصار نظرية الاتفاق المعقود بين الملك والامة . فان اللوردات والعموم قد اعلنوا غليوم دورانج وزوجته ماري ، ابنة جاك الثاني ، ملكا وملكة على انكلترا ، لانها يضمنان احترام و بيان الحقوق » (١٦٨٩) ، وقد منعها هذا البيان عن كافة الاعمال التي حاول آل ستيوارت بواسطتها الاحتفاظ بصلاحيات السيادة وبلوغ السلطة المطلقة : فلا قدرة لها على الادعاء بالسلطة التشريمية ، لان ايقاف مفعول القوانين او الاعفاء من تنفيذها اعتبرا تصرفا غير شرعي ؛ ولا قدرة لها على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لايقرها المجلس التمثيلي ؛ ولا على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لايقرها المجلس التمثيلي ؛ ولا على تنظيم الحياة المدنية ومن ثم حياة رعاياهما اليومية بقرارات ينفردان باصدارها . واخيرا بات من حق كافة البروتستانت اقتناء الاسلحة وتشكيل ما يشبه حرساً قومياً بورجوازي النزعة .

لم يبق سوى الاعراب بالافعال عن رجعان نفوذ المجلس التعثيلي المعبر عنه ضمناً في هذا النص ، فجاءت الحرب ضد فرنسا بسبب الثورة تتبع ذلك . فكر المجلس التعثيلي ، في البداية ، عنح غليوم وماري دخلا مدى الحياة مقابل ادارة البلاد العادية الطبيعية : اي الادارة المدنية والعسكرية والبحرية في ايام السلم . فيكون للملك من ثم بعض الاستقلال . ولكن المجلس التعثيلي ، في ظروف الحرب ، كان يقر سنويا النقات العسكرية والبحرية الاستثنائية . فتوصل من ذلك شيئا فشيئا الى اقرار نفقات الجيش والبحرية العادية التي خرجت نهائيا في السنة ١٩٩٥ من اختصاص الملك . ولم يقرر المجلس النعثيلي كذلك مرتب الملك الى لمدة اربع او خس سنوات ، وكاث من تقتيره في تقريره ذلك أن المرتب لم يكن ، حوالي السنة ١٩٧٣ ، سوى دخل شخصي صرف للملك ، دون أن يكون باستطاعة الملكة آن تسديد نفقات الحكم . فجرد الملك ، بكل ما التعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابعاً كلياً للسلطة التشريعية . أما فجرد الملك ، بكل ما التعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابعاً كلياً للسلطة التشريعية . أما المعبز المالي ، فأخذ يراقب الحسابات والحدمات

والجهاز التنفيذي الملكي .

بيد ان المجلس الخاص الذي اندلعت الثورات تكراراً عليه قد استمر لتصريف الاعسال الجارية والادارة ، ولكنه حرم كل سلطة ؛ فانحصر دوره في اثبات القرارات المتخذة شرعاً . رسمت السياسة في الديوان ، وهو اجتماع يضم بعض الوزراء حول الملك . تألف الديوان في عهد شارل الثاني من بعض المقربين الى الملك ، ولكنه لم يضم في عهد الملكة آن سوى بعض رؤساء مصالح يحتل اللورد ـ الخازن بينهم مركز الصدارة . فبحسب تطور بدأ منف السنة ١٦٦٧ ، أخذ الخازن شيئاً فشيئاً يتمتع بمزيد من النفوذ والقوة . وتألف الديوان ، الى جانب الخزانة ، من بعض المفوضين . الى هؤلاء عاد ، اثناء الحرب وفي الضائقة المالية ، امسر تنظيم الشؤون التي تتوقف عليها السياسة كلها . فمن جهة كان اعضاء الديوان يحتمعون فيه بحضور الملك او غيابه ، بحسب العهود ، ولكن المقررات السياسية الهامة ما كانت لتتخذ بدون رأي الخازن . ومسن جهة ثانية كان الخازن يتقدم بالمقترحات من الجملس التمثيلي الذي يحتمع اعضاؤه في اللجان جهة ثانية كان الخارة عن البرلمان في خطط الخزانة العام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم المقوانية المام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم المجومة والمصالح باقراره قيمة الاعتبادات وتوزيعها. وقد أمنت الخزانة ارتباط المكومة نشاط الحكومة والمصالح باقراره قيمة الاعتبادات وتوزيعها. وقد أمنت الخزانة ارتباط المكومة بالمجلس التمثيلي بحيث يصعب التميز بن الموجه .

أثر الحزانة ومصرف انكلترا والمدينة

كان على الخزانة ان تأخذ بعين الاعتبار ما يبدي حاكم مصرف انكلترا ومدراؤه من آراء . احدث هذا المصرف في السنة ١٦٩٤ ، بغمة تسلف وزارة المال المبالغ التي تحتساج البها . فكر اللوردات

- الخزانة ، أثناء الضائقة المالية التي أدت اليها الحرب ضد فرنسا ، بتوزيع النفقات على سنوات عدة بتحويلها الى دين قومي ، بحيث لا يتوجب عليهم سوى دفع الفوائد كل سنة . فقدم بعض المحتتبين الى وزارة المال سلفة اولى بلغت قيمتها ١٢٠٠٠٠٠ جنيه وتألفت منهم هيئة باسم و حاكم وشركة مصرف انكلترا ، . اعطي المصرف الحق في تبديل السفتجات وشراء السبائك وبيمها وتقديم سلفات للافراد واصدار نقد ورقي . وكان المصرف على اتصال يومي بالخزانة . وهم عسلاؤه في أنفرس وامستردام وهمبورغ ولشبونا ومدريد والبندقية من أتاحوا الحكومة تمويل الحرب . وبواسطته كان للرأسمالين الانكليز الرهم حتى في مجلس الوزراء .

واخيراً ، ساعدت مدينة لندن الجلس التمثيلي والمصرف على فرض وجهات نظرهما على الملك . ضمت لندن ٨٠٠ ٠٠٠ نفس ، اي ضعف سكان باريس ، واحتكرت ١٠/٥ النشاط الانكليزي ، ولعبت دور الوسيط التجاري والملي بالنسبة المقسم الاكبر من انكلترا، وشعر كل سكانها متضامنين بقسطهم من المسؤولية في ازدهار التجارة الانكليزية، وكان مركز الحكومة قريباً من المدينة . فكان خطر الثورة قوة رأسمالية اضافية .

لم تتلاش سلطة الملك نهائياً. فالوزراء مسؤولون امامه أولاً. ولا يزال في جعبته قاعدة وسيلة قوية التأثير على رجال السياسة : هي الوظائف العامة ، المتزايدة الميان السياسي تزايداً مطرداً في أيام الحرب ، التي يسندها الى مسن يشاء في الجيش والبحرية والادارة المدنة . ولكن سلطته محدودة .

استطاع الرأسماليون المقاريون والتجار ، من ثم ، ادارة الحياة المشاريح التجارية الاقتصادية . المجلس يوجهها وفاقاً لآرائهم بقوانين عامـة ، والحرص الحرة دانشراح البودجواذي على استقرار النقد ، وتعزيز وثيقة الملاحة ، وحركة الرسوم الجركية

والضرائب غير المناشرة . فالدولة توفر بذلك الظروف المؤاتية لحرية نشاط اصحاب المشاريم ، ولكنها تمتنع عن اثبات وجودها بقرارات ادارية يومية . لا تدّخل بعد السنة ١٦٨٨ من قبسل الحكومة في شؤون الادارة المحلية . فزمام هذه الاخيرة في ايدي الاعيان ، اسياد الرعــــايا ، وحرية تأسيس المشاريع تامة مطلقة . لذلك انطلقت الرأسمالية انطلاقة كبرى . و تجارتنا اعظم باستغلال الحروب لمصلحتهم ، وثار ثائرهم عندما رأوهم يشترون الاراضي ويصبحون قضاة ومدراء كونتيات ينافسونهم في مناصب الكنيسة والدولة . الا أن التضـــاد بينهم ليس عميق الجذور ، فكثير من مصالحهم مشتركة ، ولم يغرب ذلك الاعن بال الذلة النادرة منهم . فليس في انكلترا جارك داخلية . انها تؤلف سوقاً قومية تتسع في السنة ١٧٠٧ باتحادها مع سكتلندا تحت اسم المملكة المتحدة . التاجر يتوجه حيث يريد لشراء الحنطة التي يبيعها في المناطق النائية ويفتح في كل مكان اسواقًا لتصريف بضائع المنتجين . الصناعة متشتتة جددًا : ففي كل مكان مناجم ومشاريع مختلفة تشكل اسواقاً للمواد الغذائية . الرأسماليون المقاريون يضماربون في مصفق لندن ويسهمون في اقراض الدولة وفي عمليات رجسال المال . اشقاؤهم الاصغر منهم سناً يصبحون متمولين وتجاراً . لذلك بات البورجوازي، في انكلترا ٠٠ مثل الانسانية الاعلى . منذ السنة ١٧٠٩ ، سخر ادريسون وستيل في مطبوعتيها الدوريتين ، و سبكتاتور ، و « تاتار ، ، من الالقاب التي يمنحها النسب واخلاق طبقة الاشراف والمبارزة والمقامرة ، ومن فئة المنصوفين ألى شؤون الفكر ايضًا ، المنشغذين ابدأ بالفنون الجميلة والآداب . النفم الاجتماعي هو الجوهر . يجب الانصراف الى التجارة والفنون الآلية والتوفير . فصديق الجنس البشري ، من ثم ، هو التاجر الذي يشرك كل البلدان في اليسار الشامل .

د أما نحن التجار فأشبه بطبقة من النبلاء تكونت في العالم خلال القرن السالف ... ان التاجر التاجر خبر من في البلاد من اشراف . .

التاجر هو و الاديب ، (Gientlemun) . الفقر في نظره دليـــل العيب . الفقراء كسالى ومتكبرون . فالاحسان ، فرديـــاكان أو تطبيقاً لقانون الفقراء ، ليس محبة حقيقية . الحبة

الحقيقية هي اصلاح الطبع بغية اغناء الفقير عن تلقي المساعدة . الاسمار المرتفعة بركة مسن الله لانها ترغم على مضاعفة العمل ؟ أما الاجور المرتفعة فكارثة ، لأنها تشجع على الفجور الاسبوعي (ديفو ؟ ١٧٠٤) .

لذلك كانت الحياة الفكرية الانكليزية معقولة وعملية ونفعية قبل اي شيء آخر. ولذلك نجع العلم الاختباري والفلسفة الاختبارية . نشر و نيوتون » ، في السنة ١٦٨٧ ، و المبادى الرياضية للفلسفة الطبيعية » . وطبق و ولم بتي » و و غريفوري كنغ » و و دافننت » روح الجهاز الآلي على دراسة المجتمعات واسسوا و الحساب السياسي » . ورسم و لوك » المثل الفلسفي والانساني الاعلى لهذا المجتمع البورجوازي في و محاولات » ثلاث : و الحكومية المدنية » ، والمقل البشري » ، و تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقليين بعضهم الى الدين الطبيعي وانكار و المقل البشري » ، و تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقليين بعضهم الى الدين الطبيعي وانكار الزحي : و جون تولند » (١٦٩٦) و و كولنز » والملحدين . وعرفت الصحافة الدورية نجاحاً كبيراً . ففهي عهد اتساع النشاطات الفومية هذا ، استامت انكلترا زمام الحركة الفكرية الاوروبية .

الانكليز فخورون جداً بنظمهم ، وهم يعتبرون انهم مدينون لها بانتصارهم وباثبات تفوقهم على الملكية المطلقة ، وانها المثل الاعلى للحكومة الفضل . ولكنهم ينسون انهم مدينون بالنصر الى حلف لعبت فيه الملكية النمساوية المطلقة دوراً اولياً . انتصر الانكليز باثارة ملكية مطلقة على ملكية مطلقة ، ولم يأت النصر حاسماً على كل حال .

سبتب التطبع باطباع البورجوازية انهيار الاخلاق الرفيعة ، فبرهنت الطبقات العلياعن تعطش لا يروى للمال وعن اخلاق فاسدة وداعرة ، وتميز الشعب بالفظاظة والاهواء العنيفة . وهوت الامة في مادية فظيعة . فانفجرت في كل مكان ، حوالي السنة ١٧١٥ ، الشكاوى والفتن والثورات ضد سيطرة التجار ورجال المال . فاضطر المجلس التمثيلي الى اعسلان الحكم العرفي في بلاد الحرية هذه .

الاقاليم المتحدة الحرب دكتاتورية غليوم دورانج . ولكنه توفي عقيماً في السنة الاقاليم المتحدة ١٧٠٧ ، ولم يكن في سلالة اورانج من هو جدير بخلافته ، فاستغني عن منصب رئاسة السلطة التنفيذية . سار الاورانجيون وراء رئيس السلطة التنفيذية هينسيوس ، خليفة غليوم دورانج ، الذي واصل سياسته بالمناد العبوس نفسه . وبسبب الحرب انضم الحزب الجمهوري والبورجوازي الى شخصه . فاحتفظت الحكومة حتى معاهدة الصلح بقوة كفية . ولكن الغلبة تأمنت بعد ذلك للاوليغارشية البورجوازية .

كانت الحرب ثقيلة الوطأة جداً على الاقاليم المتحدة . بلغ الدين ٢٥٠ مليون فلورين يقابلها دخل سنوي يقدر بر ١٣ مليوناً . فأدى ابتلاع هذه الاموال والمنافسة الانكليزية التي اقفلت الاسواق التجارية الى انهيار البحرية والتجارة وصيد الاسماك . ولم تتوصيل الاقاليم الى حفظ حد ادنى من التوازن الا بفضل المصرف والقروض من الخارج . ففسدت بلد المضاربين وذوى الدخول بعد ان كانت بلد اصحاب المشاريـــع ومجهزي السفن والتجار والصناعيين . و لم يعرف التاريخيهوديا أبعد يهودية من بعضهم » (مونتسكيو) . ورافق هذا النوع المتدني من النشاط ؛ الذي عقب مجهوداً عسكريا تجاوز قوة البلاد المادية والادبية ، انهيار العزائم وزوال القدوة الحلاقة الذي زال معه كل مثل اعلى . وسعى البورجوازيون وراء المتعة . فبنسوا لانفسهم بيونا وفرت فيها الفروش والمديجات ، والطنافس المفرصة بالذهب ، والمداخن المرتفعة ذات الاعمدة المرمرية ، واللوحات الثمينة ، والاواني الذهبية والفضية . وكانت روح التضامن العام سائرة في طريق الانهبار الكامل ؛ فليس بمد من يهتم للمصلحة المامة . وغدت المحسوبية والرشوة قاعدة تمشى عليها هؤلاء البورجوازيون الذن احتكروا الوظائف المامة . كما غدت هـــدايا ملتزمي المدخول المامة للقضاة أمراً مألوفاً . ولن يلبث أحد المؤرخين ان يسخر من البحارة الذين آثروا اثناء حرب الاستقلال ، نسف المدو لسفنهم على اخفاض البيرق استسلاماً . امسا الميل الى الآداب والفنون فقد افسح الجال للميل الى الممارف المفيدة كالقانون والعلوم الاختبارية . وفترت الروح الدينية ، فارتفع عــدد المقلبين القائلين بالدن الطبيعي . وتدهور الحس الفني القومي : فشيد فندقاره قيصر غراخت ، و د وهيرغراخت ، الكبيران على الطراز الذي محمال اسم لويس الرابع عشر ؟ واعاد الرسامون الناذج الايطالية كما لوكانوا مجرد تماثيل متحركة ، . وانحط الشمب بغمل بؤسه المتزايد فغدا متسولا وقحاً . واصببت الامة بالهزال .

تفجرت في فرنسا ازمة حادة بغمل ندرة النقد وانخفاص الاسعار المسام والدواقب الاقتصادية الوخيمة إد و فناءي ، ١٦٩٣ – ١٦٩٩ و ١٧٠٩ – ١٦٩٨ مكسا وكتاتورية الحكم الماء ولا سيا الجهود الحربي الذي زاد في الطين بلة . الملك يحكم حكسا مباشراً مطرداً ، بعاونة مفوضيه ، فتبرز الصبغة التمسفية والدكتاتورية للماكية المطلقة . فهو الملك وحدهمن يدرس الامور مع احد الوزراه ويتخذ الترارات ويجري الاصلاحات ويفرضها على مجالسه التي تناقصا مطرداً والتي لا تستشار الا شكلا. ويبرز انفراد الملك هذا في الدبلوماسية وتنسيق العمليات العسكرية واحداث الضرائرين ، و شاميار ، وده ماريه ، (١٧٠٨ – الاول بين الوزراء مراقب المائية العام ، و بونشارترين ، و شاميار ، وده ماريه ، (١٧٠٨ – الذي يطيب المملك العمل معه بالتفضيل على غير ف . يشترك في اعسال المجلس الاعلى الذي يوجه السياسة العامة ، ولرأيه فيه حول الاساليب والوسائل ، تأثير حاسم .

اضطر امناء سر الدولة الى زيادة عدد كتبتهم بسب كثرة وأهمية الشؤورت المحاتب المتزايدة والحاجة الى الاسراع في العمل والضرب بقوة . في فرساي ، احتلت المسكاتب وحدها بناءين طويلين على جانبي الدار الامامية ، أو دار الوزراء . وكان للوكلاء ، الذين أمند اليهم المزيد من الاعمال ، مكاتبهم ايضاً ، رئيسا كتبة أو ثلاثة ، وعدد من الكتبة ،

تولوا توجيه مراسلات ادارية منتظمة ، لا سيال المراقب العمام ، وتكونت لديهم محفوظات كبيرة الحجم . ودرج الملك اكثر غاكثر على ابقائهم مدة اطول في مراكز عملهم : « دوغيه دي بانيول » ، ٢٤ سنة في المنفدوك . فاصطبغوا بصبغة المدراء الدائمين . اختاروا لهم مندوبين تانوبين بين ضباط محاكم الارياف والمدن ليقيموهم في وجه ضباط المحاكم العمليا . وعمت فرنسا شبكة من المفوضين الملكيين يعاونهم وكلاء الشرطة الذين عينوا في السنة ١٦٩٩ في كافة المدن الكبرى والمتوسطة ، بعد نجاح هذه المؤسسة في باريس ، وقد استخدم هؤلاء المفوضون ، لجمع الضرائب وتنفيذ سياسة التموين ، احصاءات اكثر وفرة وافضل اتقاناً : احصاءات السكان ، تسجيل العهادات ، الزواجسات والوفيات ، حداول الاسعار ، بيانات حركة الاسعار .

في هذه المرحلة بالذات، وبسبب الحاجة الماسة الى جمع الضرائب واستخدامها النظام الاداري لمشتريات الجيش ، وبسبب الحاجة الماسة الى العمل في الاقتصاد ، مصدر مطارح الضرائب ٤ لم تكتف ١دارة الوكلاء بمنافسة ادارة الضباط فحسب ٤ بل حلت محلها احيانًا . عمل الوكلاء مع ضباط المالية وراقبوهم في كل ما له صلة بالضرائب القديمة . ووقع عليهم وحدهم تقريباً عبء الضرائب الجديدة و ﴿ الشؤون الاستثنائية الطارئة ﴾ . وكان لهم › في الحقل القضائي ٤ صلاحية اصدار الاحكام في مادتي الامن السباسي والتمرد وكل ما يجر الله . وقيد اعطتهم قرارات عديدة بتجديد مهامهم حتى الحكم في كل القضايا التي يبدر من المفيد سحبها من القضاة العاديين . اشرف الوكلاء على ﴿ الامن ﴾ بمعنـــاه الواسع ؛ أي على الادارة ؛ واعتمدوا طريقة العمل المباشر ٬ واصدروا القرارات والانظمة ، فعالجوا الحاجات العامة بنصوص ترتدى طابع الاكراه . نفذ هؤلاء المفوضون مقاصدهم دون أن يطلبوا أي أذن أو إجسازة من القضاة ٤ الضباط العاديين . ولم يكن باستطاعة القضاة التدخل في اهمالهم أو طلب ملاحقتهم بمسادة المسؤولية الشخصية ، خشية من أن تكف يد هؤلاء القضاة لمصلحة مجلس شورى الدولة ، جهاز القضاء الخاص ؛ الذي يحكم ابدأ ؛ في هذه الحالة ؛ لمصلحة مفوضى الملك . وهكذا تعاظم النظام الاداري شيئًا فشيئًا ، بسبب الحرب ، على حساب النظام القضائي ، ووفر ملطة كبرى للحكومة المركزية وتأثيرها حتى في اعمال حياة رعاياها البومية . أما في انكلترا فقيد خضع الضباط والمفوضون للقاضي العادي . وحق للسلطة القضائية التدخل في الاعمال الادارية وتلقى الشكاوي المرفوعة على الضباط والمفوضين وتقدير الاخطاء المرتكبة وحتى دستورية القوانين . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الادارة كلها يمارسها أهل اليسار ، كما أن الاعيان وشتى الهيئات. المحلية تمارس الادارة بحرية؛ على انها تكون مسؤولة عن اعمالها أمام الحماكم . الحرية مؤمنة في الجزيرة ، أقله حرية أهل اليسار . أما في فرنسا ، ذات الحدود البرية الطويلة المهددة بالاخطار ، فكل شيء يخضع لفعالية الدفاع ، والملك ، القائد الحربي ، سيد ممم مفوضيه . نظام انكلترا بلوتقراطي ذو نزعات الى الحرية المدنية والدينية . حكومة فرنسا دكتاتورية الطابع تسلطية النزعة . الحرب ابرزت الحلافات بواسطة عسبها ؟ المال ؟ لأن المجلس التمثيلي امسى في النهاية سيد الضريبة في انكلترا ؟ وهم أهل اليسار أنفسهم من يجبونها ؟ بينا يقرهـا الملك وحده في فرنسا ويراقب جبايتها بواسطة مفوضيه . ملك انكلترا لا يحصل بنفسه على عصب الحرب ودم الاقتصاد العام ؟ أما ملك فرنسا فعلى نقيض ذلك .

الا ان ارتفاع عدد المعاملات غالباً ما حال ، اقله بالنسبة للامور الجارية ، البيروقراطية دون تمكن الملك ، وامين سر الدولة ، والوكلاء في الولايات ، من اتخسباذ القرارات اللازمة بصددها . فهي المكاتب التي تعسد القرارات ، استناداً الى السوابق المهاثلة ، وترسل المعاملات جاهزة للتوقيع . وهكذا حدت السلطة الشخصية من ذاتها ، على غير قصد منها ، بالادارة التي انشأتها والتي تسير على غرار جهاز ضخم يعيش حياته الخاصة ويتمتع بقوته الحاصة . فكان هذا مولد البيروقراطية .

سيطرت الحقوق الاميرية اثناه الحرب على حياة المملكة في هذه المرحلة . الحقوق الاميرية التاء الحرب يطلع بكل جديد مريب . فبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٩٩٨ جبي ضريبة شخصية وبذل جهدا كبيرا لجعلها متناسبة ودخل الاشخاص الفعسلي فوق تناسبها ووضعهم القانوني ، ثم جددها ابتداء من السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٥ . واحـــدث منذ السنة ١٧١٠ ضريبة العشر ، المستوحاة من الرسوم المحدثة في انكلترا وهولندا وفلانــــدر ، التي فرضت بالتساوي على جميم انواع الدخول . فكان ذلك تقدماً تدريجياً نحو المساواة أمام الضريمة التي تنطوي على مبدأ المساواة. في خدمة الدولة والمجتمع . قوبلت هذه الضرائب بمقاومات ضاربة . الا أن الضريبة ما لبثت أن تحولت إلى ضريبة تقسط أجزاء من المئة تضاف إلى الاقتطاع ، أو الى مجرد وسية لتسهيل القروض بشكل اشتراك في الضريبـــة . ووسع الملك الضرائب غير المباشرة ورسوم الجارك والورق الموسوم ، مستهدفاً من ورائها اسهام ذوي الامتيازات ايضاً في ولكن الملك لم يتوفق كما حدث في انكلترا ، الى انشاء مصرف دولة . فالصيارفة لم يوافقوا على تأسيسه بسبب نقص النقد ، ولا سيا بسبب اعتقادهم باستحالة قيام مثل هذا الجهاز في ملكية مطلقة : أراد الصيارفة أن يبقوا اسياد استخدام مسالهم ؛ كما ان انشاء مصرف الدولة يستلزم استبدال النظم السياسية . لذلك أكره الملك على اللجوء الى حمل بإمظة الاكلاف كالتحويلات " النقدية واحداث الوظائف وقعيين الدخول وتجربة النقد الورقي (١٧٠١ – ١٧١٢) وابتكار شتى انواع السندات الملكية ، والقروض الالزامية ، دون ان يتوصــل في الوقت نفسه الى استهلاكها استهلاكا منتظماً فلا عجب من ثم اذا ما بلغ الدين ، في السنة (١٧١٣) ، ٢٣٢٨ مليون ليرة ملكية تورية (نسبّة الى مدينة تور) ، يقابلها ٣٤٤ مليونا في انكلترا . فان فرنسا التي لم تتجمع فيها رؤوس أموال ضخمة ، قد انهكث تحت وطأة مجهود الحرب .

اذا افضت اموال مجهود الحرب الى نتيجة مفيدة، هي ايلاف الفرنسيين الاقتصاد اثناء الحرب النقد الورقى ، فأنها قد انضمت الى «الفناءن » ازيادة الازمة الاقتصادية والاحتماعية سوءاً . فالحروب رفعت نسبة نقص النقد الذي شكت منه فرنسا ، وشأنها في ذلك شأن اوروبا ، في اعقاب تدني انتاج المناجم الاميركية ، والذي آل طبعاً الى تخفيض الاسعار السنة ١٦٨٦ ، اشهر و ده ماريه ، نتيجة هذا الضرر الوخيمة على الاسعار والتجارة والاقتصاد. وغالبًا ما أبعد النقد المتبقي عن وظيفته الاقتصادية بنقله الى دور النقد التحويلات النقديــة . واذا ما استثنينا ارتفاع الاسعار في سنوات المحول ، جاز لنــا القول ان الاسعار بقيت متدنية والارباح محدودة والانتاج منخفضاً ؛ لا سيها وان التبدلات الدائمــة الطارئة على قيمة النقد تحول دون كل حدس أو تقدير وتخمد نشاط التجار والصناعيين اليدويين والتجار الصنــاعيين . وجر الركود الافتصادي الى تعزيز التنظيم المعروف باسم كولبير . ووضعت بالاضافة الى ذلك انظمــة لا يحصى لها عد . ولكن الوظائف المحدثة آنذاك عـــدد وافر من وظائف المفتشين والمراقبين والكمالين والوسطاء والحراس ؛ النم . . الذين يتقاضون كلهم رسوماً مختلفة مقابل كل عمل من اعمال وطيفتهم . فارتفعت الاسمار عند الاستهلاله بينا هي تدنت عند الانتاج . ابتاع الصناعي احذيته ، بينها لم تطرأ اية زيادة على سعر الحنطة . خفت نسبة الاستهلاك ، ثم نسبة الانتساج بدورها ايضًا . وتضررت التجارة والصناعة . زد على ذلك ان مراقبة المحاصيل الزراعيـــة والجهود المبذولة للابقاء على تدني الاسمار قد جر"ت الى الاجداب وزادت مسسن سعة تبدلات الاسمار . وقد بين ذلك د ده كازودي هاليه » لمجلس التجارة في السنة ١٧٠١ ، و د بواغلــّـبير ، للمراقب العام « شاميار » في السنة ١٧٠٤ . اذا عين للحنطة سعر منخفض ومنع بيعها خـــارج نطاق الولاية ، اكتفى فلاح مناطق زراعة القمح بزراعة ما يكفيه لسد حاجته . واذا ما امحل المحصول ، عمت الفاقة والموز . يضاف إلى ذلك أن نظام السنة ١٦٩٩ مثلاً ، رغبة في منع المضاربة ، قد حظر على التجار شراء الحبوب قبل الحصاد . اي ارن القانون حظر الصفقات البعيدة الاجل التي تحد من الارتفاعات والانخفاضات . لذلك كأن التاجر مضطراً ، بعد الحصاد الماحل المااشراء والبيع باسمار مرتفعة جدا إأما اذاكان الحصاد وفيرا افيمكنه الشراء منالفلاح باسعار متدنية جداً. وأدى انهيار الاسعار ، بين السنة ١٧٠٣ والسنة ١٧٠٨ مثلاً واستحالة البيسع الى ضيق ذات يد الملاكين والفلاحين وعجزهم عن دفع الضريبة . لذلك طالب العالمــون بأصولُ الاقتصاد ، من امثال « كازو » و « بواغلبير » ، والوكلاء ، مجرية التجــــارة وتخفيف الحقوق الاميرية ورفع سعر الحبوب الذي سيتبح للفلاحين والملاكين الشراء ؟ ومـــن ثم توفير العمل والازدهار للعمال والتجار . فطلعت بعض الآراء القائلة بالحرية الاقتصادية وباعتبار الزراعــــة مصدر الثروة الوحيد (Physiocratie) . ولكن الرقابة العامة ما لبثت ان اجسابت بواغلبير عامناه : لا بد من مرور سنوات عدة قبل ان تفضي حرية التجارة وحرية الاسعار وتخفيض الضرائب الى انطلاق الزراعة والاثراء العام وزيادة مطارح الضريبة ، بينها نحن بحاجة ملحة الى قوفير النظام في المدن بتخفيض اسعار الخبز ، ووسائل الدفاع عن الملكة بجباية الضرائب . فتوجب الاكتفاء باجازات تصدير دوريه .

تفاقم الصراع الطبقي في مجتمع شكا من نقص مواد الاستهلاك فبورجوازية المراع الطبقي التجار والصيارفة الذين يسهمون في التجارة البحرية والامتيازات الحربيسة والعمليات المالية الرسمية قد حافظت على مستوى معين من الازدهار والنفوذ. شيد أعضاؤها الفنادق الفخمة وغدوا خير زبن الفنانين واشتروا الاراضي من الارستوقراطيسة المقارية وجاروها وزاحوها . واكرم الملك نفسه في قصر مارلي مثوى الصيرفي وصموئيل برناره واستاله للافادة مما له من وجاهة ومكانة وما يتمتع به من ثقة . وأخذ المثل البورجوازي يزاحم في الادب مثل الرجل النزية ومثل السطل .

أما صغار الاشراف الريفيين فقد عضهم الزمان بنابه ، فتزوجت كريماتهم مـن الفلاحين . وأوصى بعض كبار النبلاء بأن يتملم ابناؤهم مهنة لا تليق بمقامهم . ومال الدهر بعدهم كذلك على صفار المستثمرين الزراعيين وصفار أرباب المهن والعبال .

لذلك بات حقد شتى درجات الارستوقراطية على البورجوازيين حقداً جافياً وضارياً. ولكن ثورات العال والفلاحين على البورجوازيين كانت شبه مستمرة أيضاً. وقد استهدفت في أغلب الاحيان الجباة باتمي الوظائف ومندوبي. ملتزمي الضريبة . وقد لعبت الشائمات دوراً كبيراً في اندلاع هذه الثورات ، لان الجماهير صدقتها دونما تردد في غمرة الحقوق الاميرية . ففي آلنسون ثارت نساء الشعب لانهن اقتنمن بان عليهن دفع وستة فلوس عن كل قميص بيضاء وعشر محاسات عن ولادة الانثى » . وقد حدثت في الارياف ظواهر عمائلة لظواهر و الذعر العظم » .

ارتد هذا الاستياء كله على السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩ مارضة السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩ المطلقة والشخوية سار بعض الباريسيين على قصر فرساي نفسه : فاوقفهم الجيش عند جسر و سيفر » . عادت المجالس التمثيلية الى ممارضتها ولكن بخشية وحياء . وحاولت المجالس التمثيلية الاقليمية استثبات البراءات واللجوء الى التحذيرات . وآثر بجلس باريس التمثيلي استالة الرأي العام بتشيعه للغليكانية . فساند الجنسينيين ضد تدخل البابا في شؤون فرنسا (١٧٠٥ و ١٧١٣) . ومن جهة غانية اعاد البروتستاني و انطوان كور ، تأسيس كنيسة كلفينية في الحقاء (مجمع الصحراء الاول ، ٢١ آب ١٧١٥) .

لم يعد الملك سيد بلاطه كلياً. فإن مشهد الضباط الاشراف الذين يعودون يرمياً من الجيش فاقدين ساقا أو ذراعاً ، والجداول الطويلة بأسماء الاشراف الذين لاقوا حتفهم في المعسارك ، وحسرات كبريات السيدات ، امهاتهم ، قد دفعت إلى الاستفادة من الحياة بالمزيد من الاستمتاع والتلذذ . فكانت النتيجة ذلة الشباب وانحطاطه .

و يتكلمون عن بقمة يتميز شيوخها بالمظرف والتهذيب والادب ؛ أما شبانها فأفظاظ وقساة قلوب ، دونما اخلاق ولا تهذيب ، ينصرفون عن التولع بالنساء في سن الانصراف اليه في البقاع الاخرى ، ويؤثرون عليهن الاطعمة واللحوم والاهواء المضحكة ، (لابروبير) .

ظهرت بوادر ثورة فكرية حقيقية على أنظمة الفكر التي بدت مرتبطة بالسلطة المطلقة . الا الحكومة المفتقرة الى وسائل عمل دول القرن المشرين ، قد انقذت ظواهر السلطة . يضاف الى ذلك ان بعض كبار الموظفين قد استميلوا : كالمستشار و بونشار ترين ، الذي رفض الموافقة على التدابير القاسية التى طالب بها و بوسويه ، فبرز مذهب جمع بين الكر تزيانيسة والفسندية والمذهب الذري ، وتحول الى ذهنية عقلية ونفمية ، وشغف بالعلوم ، وكلاسيكية كاذبة في علم سنن الجال ، ودين طبيعي ، وتهذيب اخلاق . وكان و فونتنيل ، و و بيل ، من كبار دعاة مذه الثماليم ، وانتشرت نظريات و لوك ، السياسية والاجتماعيسة في أوساط البورجوازيين ، بينا حدد الاقطاعيون الغاضبون مثلهم السياسي الاعلى كارستوقر اطبين معادين للملكية المطلقة في معمية دوق بورغونيا . فتكونت من ثم معظم آراء و عصر الانوار » .

في كافة المحاه الروبا ، باستثناء بولونيا واسوج ، ادت الحروب الى تقسدم السلطة المطلقة وتوحيد ومركزية الدولة التي سارت شوطاً الى الامام في ارغام السلطة في ارروبا كافة طبقات المجتمع على خدمتها . يضاف الى ذلك، من جهة ثانية ، أن هجرة البروتستانت الفرنسيين ، ونفوذ بلاط لويس الرابسع عشر وفرنسا واقتفاء التقنيات والمهارسات المفيدة لزيادة القوة أو للدعاوة ، ادت الى انتشار الآراء نفسها من اقصى اوروبا الى أقصاها . ولكن هذه الظواهر اختلفت باختلاف نظام الدول الاقتصادي والاجتاعي ووفاقاً لتحسول الحروب الى انتصار أو هزيمة .

جدد لويس الرابع عشر اسبانيا . فهو من أسدى النصح والمشورة الى حفيده البانيا وقدم له المديرين المديرين. تحققت مركزية المملكة ، وألفيت امتيازات كتالونيا وأراغون . واحتلمت الحكومة على شاكلة الحكومة الفرنسية : اربعة أمناء سر دولة ، وكيل مالية عام ، مجلس مؤلف من غرف ذات اختصاص ، وكلاء أقالم ، خزانة مركزية ، ملتزمون عامون ، ولايات تعامل معاملة مالية واحدة . زد على ذلك ان دخول الدولة قد ازدادت بسرعة بفضل النقد الذي ادخلته الجيوش الاجنبية والذي أنعش الاقتصاد الاسباني ، فاستطاع فيليب الحامس ، في السنة ١٧١٤ ، تجهيز ٢١ سفينة وتجنيد ١٣٢ فوجا من المشاة ، و ١٣٠ كوكبة من

الخيالة . وعلى الرغم من محاكم التفتيش واليسوعيين ، انفتحت أسبانيا للتأثيرات الاجنبية : فقد نقلت مسرحية و سنا ، لكورناي الى الاسبانية في السنة ١٧١٣ ، و وعظات زمان الجيء ، و لبوردالو ، في السنة ١٧١٤ . وأسس الملك أكاديية ، وكان للموسيقى الايطالية حظوة كبرى عند الاسبانيين . فعادت أسبانيا الميتة الى الحياة .

استفل الامبراطور ، في ممتلكاته والنمساوية ، النفوذ الذي أولته أياه الملكنة النمسارية انتصاراته الداوية على الاتراك وصراعه ضد لويس الرابع عشر . فقد حاول خلق شعور هبسبورغي مشترك في هذه الملكية المتعددة الدول المنشتتة في انحاء اوروبا ، واصدر في السنة ١٧١٣ ، امراً معلن الوحدة الممتنعة الانحلال لختلف بلدان الملكمة . ولكن البلدان الق غنمها في السنة ١٧١٣ ، اي لومبارديا والمناطق المنخفضة ، وهي اغناها وانشطها اطلاقاً ، قــد عاشت في الواقع حياة انفراد . واضطرت هنفاريا الحتلة ، تحت الضفط ، لان تقترع في السنة ١٦٨٧ لحق الذكور من انسال سلالة هبسبورغ في وراثة التاج وقضي على ثورة ٤ راكوكزي ٠ . الا أن جوزف الاول أضطر في السنة ١٧١٦ إلى التمهد باحترام الكلفينية وضميان أمتيازات « الدول » الهنفارية حيث يسيطر كبار الملاكين المقاربين . أما في النمسا وبوهيميا وفي « الدول الوراثية ، القديمة ، وهي بلدان زراعية مجتة مدنها كثيرة وبورجوازيتها فقيرة ، فقد عزز الامير سلطته ولكن بواسطة تقاسم الارباح مع كبار الارستوقراطيين المقاريين . وقد خدم هــــؤلاء الامير ؛ وغدوا ؛ من أوجه كثيرة ؛ طبقة اشراف خدمة . وفي الجميــــات فرضوا الارادة الملكية على طبقة الاشراف الوسطى وعلى البورجوازية . ولكن الامير احتفظ لهم بالوظائف الهامة في الجيش والادارة وأتمن لهم كل سلطة على الفلاحين المزارعين المرهقين باعسسال التسخير والاتاوات . ولما كانت الدولة تسلسلية السلطات وكل طبقة مسجونة داخل امتياراتها ، باتت الحياة الفكرية والاخلاقية والدينية مقتصرة على أبسط مظاهرهـا. فتلقت النمسا سلبيا التأثيرات الخارجية : كاثوليكية الجمع التريدنتيني اليسوعيين الاستهجان الايطالي ك والتأثيرات الفرنسية اخيراً . ولكن الغلبة ما زالت التأثيرات الايطالية . ففي الحضارة كما في السياسة ٬ ولت النمسا الجرمانية وجهها تولية مطردة شطر ايطاليا والشرق .

ما زالت ايطاليا مقسمة وخاضعة السيطرة الاجنبية ؛ فقد حلت النمسا فيها ايطاليا على أسبانيا في السنة ١٧١٣ . ولكن الكلاسيكية الفرنسية والعلم والفلسفة الفرنسيين ، قد تزكنت أثراً عميقاً فيها . فقد درست تعالم غسنندي في بيزا وبادوا ونابولي وروما . و كان لديكارت حظوة في نابولي ، وتهافت الناس اكثر فأكثر على قراءة مؤلفاته في كافة أغماء ايطاليا . ومثلت مسرحيات كورناي وراسين . وكانت مؤلفات ومابيون » و ومونفو كون الواسمي الطلاع موضوع . اعجاب عام . فاستعادت نخبة إيطالية قوتها الخلاقة ، لا سيا منذ السنة ، ١٦٩٥ ونهضت العلوم الاختبارية من سباتها بفضل « ريدي » و « قاليستييري » . وطمح « ماقيي » الى

تألفت دول الدبورغ ، في أواسط القرن ، من ست مجموعات من دول آل مومنزولون الاقاليخ منتثرة بين نهر و نيمن ، ونهر و الموز و : دوڤية بروسيا ، براندبورغ ، احارة هالبرستات ، احارة و مندن ، کونتية و رافنسبورغ ، کونتية و مارك ، دوڤية و کليف ، فالدولة اذن مجموعية دول والامير مجموعة امراء يتمتعون بسلطات مختلفة تقيدها ابداً جمعيات محلية هي الجالس الاقليمية . وليس من رابطية سوى شخص الامير و مجلسه السري . الامير يعيش من دخول احلاك لم يحسن استثارها واحتكارات ورسوم جركية ، على غرار السيد في القرون الوسطى . لا يحصل بسهولة ، اثنياء الحرب ، على مساهمات الدول التي تعتبر ان الحرب لا تعنيها اذا توالت فصولها في دولة اخرى من الملكية . وليس لديه ، في أيام السلم ، سوى بضعة الوف من الجنود الموزعين منا وهناك وهنالك .

استفاد المنتخب * فردريك - غليوم * (١٦٤٠ - ١٦٨٠) * المنتخب الاكبر * مناشتراكه في الحروب الاوروبية الحجيرى كي يحقق انتقال امارة القرون الوسطى الى الدولة العصرية . فحد من صلاحيات الجمعيات المحلية التي عارضت الضرائب الضرورية للحرب وغدا سيد الفريبة وتوصل في السنة ١٦٨٦ * بعد صراع طويل * الى وضع الخزانات الاقليمية * التي ادارها حتى ذاك التاريخ ممثلو الجمالس الاقليمية * تحت سلطة موظفيه المباشرة . واحدث ضرائب غدير مباشرة * كالضريبة على مواد الاستهلاك * التي كانت ضريبة دائمة وتناولت النبلاء انفسهم . واذا ما احتفظت بعض الدول مجتى الموافقة على الضربية * فان موافقتها لم تكن سوى اجراء شكل .

مكن المنتخب نظم الحكومة المركزية اي المجلس السري ، وديوان المستشار الشؤون الحارجية ومجلس الدعاوى القضاء ، وغرفة المال ، ومفوضية الحرب العامة ، فجاءت آلة كبرى تسير كل شيء . وفي الولايات عزز صلاحية الحكام ، ومجلس الوصاية الذي عاون كلا منهم ، وموظفي الدائرة الخاضمين لهم ، وأكثر في كل مكان مسن المفوضين والمستشارين الاقليميين ومفوضي الرسوم . أما الضباط ، قضاة كانوا أم رتباء عسكريين ، الذين كانوا مرتبطين بالجالس الاقليمية ومتميزين بروحهم النفعية ، فقد قلمت اظافرهم . وهكذا اوجد المنتخب طبقة مسن الموظفين البورجواريين الملزمين بتحمل اعباء الخدمة العامة الثقيلة مقابل اجر هزيل والمقسورين على حياة وضيعة ومتقشفة ، والمتحلين بالتهذيب والوقار ، والمستمدين عزة مفيدة من شمورهم يدورهم الاجتاعي . وقد امن تنفيذ الاوامر جيش دائم من المرتزقة يبلغ عدده ، ٢٠٠٠٠٠ رجل ويضمون لنظام صارم .

وفي سبيل تأمين الاموال اللازمة النفقات ، انصرف المنتخب الى تحقيق بجبوحة رعاياه وزيادة عبده مانتهاج سياسة تجارية صارمة. فأمر باصلاح الاراضي وجعل من براندبورغ ملجألكل من هاجروا بلادم بسبب الاضطهاد الديني ، وقدم لهم الاراضي ومواد البناء ، واعقام مؤقتاً من الضرائب . وانحى التجارة والصناعة باعتاد انظمة كولبيرية صارمة . فارتفع عدد السكان الى مليون ونصف المليون تقريباً . وأحرز تصدير الاخشاب والجلود والآدمة والحبوب تقدماً سريمساً .

وقد أكمل عمله خليفته فردريك (١٩٨٨ - ١٧١٣) . استفاد من الخدمات التي أداها للامبراطور خلال الحرب ليحصل منه على اجازة بحمل لقب ملك بروسيا . ترج في ١٨ كانوت الثاني ١٧٠١ . فبات سيداً ، وسما بنفوذه فوق نفوذ كافة الامراء الالمان وعزز سلطته فتمززت قوة دوله ووحدتها . وكان يعد نفسه بمقام الامبراطور . فنشطت مقارمة سلالة برانسدبورغ لسلالة النمسا ، وتكهن بعضهم بان الملك الجديد لن يلبث ان يقف في وجه النمساء لانه هرطوقي وملك أرض انتزعها الفرسان التوتونيون من السلافيين ، أي ملك ولاية ألمانية تنبسط عند الحدود ، فيحتى له من ثم ان يجعل من نفسه بمثل الجرمانية ضد النمسا الكنثوليكية التي ترقبط بإلمان وقمل عن المانيا نحو البلدان الدانوبية والبلقانية .

بعد الحرب الاهلية في « عهد الاضطرابات » واستتباب الامن والنظام روسيسا وادروبسا في عهد القيساصرة ، ميشال فيدوروفتش (١٦١٣ - ١٦٤٥) « وألكسي ميخالوفتش » (١٦٤٥ – ١٦٧٦) و « فيدور ألكسفتش » (١٦٧٦ – ١٦٨٢) ، اضطرت الحكومة ، بسبب حروبها الدائمة ضد اسوج وبولونيا والاتراك ، إلى اقتباس التقنية العسكرية عن الفرب ، فدخلت كتائب من الانكليز والالمان في حدمة القياصرة وتولى بعض الضباط الاجانب تدريب الجيوش الروسيـــة . واحدثت الحقوق الاميرية خلال الحرب تطوراً نحو السلطة المطلقة والمركزية . واحظى القياصرة طبقة نبلاء خدمة على حساب الطبقات الاخرى . وقصد البلاط والماصمة بعض التجار الاجانب . فانفتحت البلاد لبعض التأثيرات الاجنسة؟ التأثير الالماني في ايام ميشال وألكسي ، والتأثير البولوني في ايام « فيدور.» الذي كان اول من تلقى تربية اوروبية . وتسربت اليها بعض الكتب اللاتينية والولونية . وقد تابع السير في هذه الطريق بطرس الاكبر الذي جلس على عرش القياصرة منذ السنة ١٦٨٢ حتى السنة ١٧٢٥ . امسى سيد روسيا الاوحد في السنة ١٦٨٩ بفضل الضباط الاجانب ، السكتلنديين منهم والسويسريين والالمان ، وحنثكته رحلته الى الغرب (١٦٩٧ – ١٦٩٨) ، فكان مديناً لحرب خلافة عرش اسبانيا ؛ بمد انتزاعه آزوف من الاتراك ؛ بالاشتراك في السياسة الاوروبية الكبرى . فأرغم دول جنوبي البلطيك الداخلة في صراع ضد اسوج ، التي بسطت سيطرتها على شاطئي هذا البحر ، على قبول التحالف مع روسيا . ووقع كل من و أوغست دي ساكس ، ، ملك بولونيا ، وملك الداغرك ، معاهدة مع بطرس (١٦٩٩) ، ثم تحالفت الداغرك مع براندبورغ (١٧٠٠). فلمس الهانوفريون والهولنديون والامبراط وران توازن القوى في البلطيك لن يلبث ان يختسل وان هنالك خطراً كبيراً من ان تبسط روسيا سيادتها على البلطيك والمضائق الدافركية اذا قدر لاسوج ان تمنى بالهزية. ولكنهم كانوا منهمكين بمحاربة حليف اسوج ، لويس الرابع عشر. وبيئا كان ملك اسوج ، شارل الثاني ، سائراً قدما في الاستيلاء على بولونيا ، كان بطرس منصرفا الى احتلال سواحل خليج فنلندا وبلاد ليفونيا وتأسيس و مدينة القديس بطرس ، (سان - بطرسبورغ) (١٧٠٣). وبعد ان محق القيصر جيوش شارل الثاني عشر في بولتافا (١٧٠٩) ، استولى على و ريفا ، وفتح استونيا وزوج ابنة شقيقه من دوق و كورلند ، واستولى على بومرانيا (١٧١٢) وفنلندا الجنوبية وجزر « ١٢٠٤) وفنلندا الجنوبية وجزر « ١٢١٤) وفنلندا الجنوبية وجزر « الند ، (١٧١٤) وفنلندا الجنوبية وجزر « السوجية على البلطيك وتوجب النظر في خلافة اسوج .

خلال هذه الحروب ، ولأجل هذه الحروب ، طبع بطرس الكبر الاول روسيا بالطّابع الاوروبي . وقد تم ذلك باصلاحات كثيرة

غير مدروسة اجريت مجسب الظروف او الدوافع الظرفية . فبعد عودته من أوروبا اصدر الآوامر بسبد اللحي وتقضيب الاكسية والاكبام وفَرض اللباس الهنفاري او الالماني (١٧٠٠) واصلح الرزنامة واوجب احصاء السنين لا ابتداء من خلق العالم بل ابتداء من اصلاح الرزنامة . واصبح الجيش جيشاً دائماً بقيادة ضباط من فرقتي الحرس اللتين غدتا مدرسة للاشراف وخلقتا تدريجياً ، منذ السنة ١٧٠٧ ، عجلس الشيوخ المؤلف من بعض اختصاصي بطانته الذين يحاون عله في الادارة ويوجهون الاوامر الى الحكام . واحدثت شيئًا فشيئًا ثماني حكومات يرثسها قائد منتدب يتمتع بكافة الصلاحيات المسكرية والمالية والقضائية . وقسمت الحكومة ولايات والولايات اقضية والاقضية مديريات . وتولى ادارة الولاية مفوض اقليمي يعينه القيصر . وهكذاكان مجلس الشيوخ والحاكم ومفوضو الولايات كلهم مفوضي القيصر يتمتمون بصلاحيات القيصر نفسها . اختيروا من طبقة الاشراف اما مفوضو الاقضية فقد انتخبهم الاشراف المحليون وكانت مهمتهم الاولى جباية الضرائب . واما في المديريات ، فقد انتخب الفلاحون مجلس قضاء اضطلع في الوقت نفسه بجباية الضرائب . وحق للمدن ان تحدد الضرائب وتسند نوزيعهــا وجبايتها الى هيئات منتخبة . فكان مفهوم الأدارة في جوهره افراداً او هيئات تنتخبها فئات السكان الختلفة المتجمعة طوائف وتراقبها شبكة محكة الحلقات من مفوضي القيصر . ولكن مجلس الشيوخ تكشف عن عدم الوقاء بالحاجة . فقد تبين أن هنالك حلقة مفقودة بينه وبين الحكومات . وظن بطرس بأنه أهتدى اليها في نظام الهيئات الاسوجي (القضاء الشؤون الخارجية ، امارة البحر ، الحربية ، المالية ، التجارة) ؛ وبدأ منذ السنة ١٧١٢ بانشاء هيشة التحارة.

باً بطرس ، في كافة الوظائف الهامة وقيادة الجيش ، الى الاشراف الملتزمين بخدمة الدولة . وبالمقابلة لم يعد القيصر ليتدخل بينهم وبين الفلاحين . وبعد أن فشل في تعليمهم مهنتهم بمارستهم لها ، أوجب بطرس على الاشراف الاختلاف الى المدارس المهنية ، مدرسة العلوم الرياضية (١٧٠٥) ، الاكاديمية البحرية ، مدرسة المهندسين ، مدرسة المدفعية (١٧١٢) .

ولكن كل ذلك ما زال في طور البداية . اما الحقوق الاميريــــة فليست سوى فيض من الحيل المرتجلة ، كما ان السياسة الاقتصادية ما زالت مرتكزة الى نظريات وتعالم غير واضحة . ولن يستطيع القيصر الشروع في وضع تنظيم جديد شامل منستق الا ابتداء من السنة ١٧١٥ .

تسببت هذه الاصلاحات في ازمة داخلية خطيرة . ولعلها ايقظت الفتنة اكثر من الخسارة الرهيبة في الارواح ومن ثقل الضرائب ، لأنها شكلت قطيعة مع نهج حياة وحضارة . فالقديسون يلتحون وليس من سابدي اللحى سوى الهلكى . ودخان التبغ دنس لان الانجيل قال ان ما يخرج من الغم يدنس الانسان. افليس هذا القيصر العاري الذقن الذي يدخن ويمتطي البحر ويسترق السنوات من الله ، هو نفسه المسيح الدجال يا ترى ?

مزائم السلطة المنادم استفاد ملوك اسوج من حروبهم الظافرة لتحديد ممتلكات الاسرجية العطلقة وانبيادها كبار الاشراف ، واقصائهم عن الحكومة والادارة ، واقامة نظام مطلق مركزي وبيروقراطي أتاح حسن ادارته لهذه البلاد الصغيرة الانطلاقية الاقتصادية ولعب دور هام في السياسة الاوروبية . اسوج بلاد غنية انتجت الحبوب في سكانيا وقامت فيها صناعات تعدينية متقدمة بفضل مناجها الحديدية والنحاسية واحراجها الكثيفة ، ومارست تجارة مجرية ناشطة على هذا البلطيك الذي هو و مجيرة أسوجية ، فنمت بورجوازيتها وشاع المل الى فنون الغرب وعلومه الاختبارية في هذه الطبقة الصاعدة وفي الارستوقراطية .

الا ان هزائم شارل الثاني عشر افقدت السلطة المطلقة حظوتها . فقد خسرت اسوج الاقالم المفنية التي أمنت لها ، الى جانب الموارد الكبرى ، السيطرة التجارية في البلطيك . وشكت البلاد من التجنيد العسكري المتكرر ، والضرائب ، وتوقف التجارة ، والسلطة الملكية . وما عادت الوصاية لتتمكن من اسماع كلمتها اثناء غياب شارل الثاني عشر . وتصرف قادة الولايات وحكامها و كأنهم مستقلون عن السلطة المركزية . واستعدت الارستوقراطية لممارضة السلطة الملكية المطلقة والقيام بثورتها بعد وفاة شارل الثاني عشر (١٧١٨) .

يتضح من ثم ، خلال حروب أواخر الفرن الكبرى ، ان كافة الدول الاوروبية كانت سائرة في طريق تبدل الانظمة ، وتطور توازن الطبقات ، وازمة الحس والفكر . وسلسهم همذه الطواهر ، في اهم الدول الفربية ، انكلترا ، والاقاليم المتحدة ، وفرنسا ، وفي ايطاليا والمانيا الفربية الى حدما ، في انقلاب العلوم والفلسفة والدين وعسلم سنن الجال والمفاهيم السياسية والاجتاعية وفي بث بعض الآراء الجديدة في انحاء اوروط الإخرى .

٣ - ازمة الفكر والحس

ان للعلم المصري ، والحروب ، و « الفناء » ، والازمة الاقتصادية ، السلم السلم واستبداد لويس الرابع عشر الشامل ، والتهديد الدائم الذي ناء به على الكرتزياني والنيوتوني والنيوتوني والنيوتوني الروبا ، قد أسهمت كلها في معارضة المذاهب التي بدت وكأنها ادوية ناجمة للازمة ، مركزية الله الصوفية ، الكلاسيكية ، الكرتزيانية ، السلطة المطلقة ، الروب التجارية على الطريقة الكولبيرية ، فبرزت الازمة مرة اخرى . ويرجع ان كفة الازمة كانت صائرة الى الرجحان حتى بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لان المذاهب قد حملت في ذاتها بدوو تناقض او اتجاهات جديدة . ولكن الظروف ساعدت مساعدة كبرى على طلوع أو تجدد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ، على طلوع أو تجدد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ، مادي وادبي معا . ومال عدد متعاظم من الناس الى البحث عن اللذة والرفاهية . ورجحت كفة فقدان التوازن والوحدة . فكانت الاولوية للعقل والمنطق في الظاهر . أما في الواقع ، فان معظم الحاس قد استخلصوا النتائج منطقياً من مقدمات يفرضها الحس . وفي معظم الحالات تحول هذا الحس الى البحث عن حياة ارضية فضلى ؛ فسادت الذهنية النفعية .

تؤلف اوروبا جمهورية كبرى من العقول المثقفة . أما مركز الحياة الفكرية جمهورية الآداب الذي قام في ايطاليا خلال القرن السادس عشر وفي فرنسا خــــلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن السابع عشر ، فها زال ينتقل باتجاه الشمال . فهم الانكليز من يلعبوت الآن اكبر دور خلاق بفضل انطلاقتهم الاقتصادية والسياسية العارمة وذهنيتهم البورجوازية المسيطرة . فان « مبادىء » « نيوتون » تعود الى السنة ١٩٨٧ و « جـــادلات » « لوك » الى السنة ١٩٨٠ منذ السنة ١٩٠٠ ، كانت الآداب الانكليزية في رائمــة نهضتها ، وفي السنة ١٧١٧ تفوق الانتاج الانكليزي على الانتاج الفرنسي كمية ونوعاً . وكانت السنة ١٧١٣ ، وهي سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجائبية بلغ فيها « بركـــلي » و « بوب » و « سويفت » سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجائبية بلغ فيها « بركـــلي » و « بوب » و « سويفت »

حافظت فرنسا على مركز عظيم جداً بفضل اللغة التي ابتدعها كلاسيكيوها والتي طابقت حاجات اوروبا . حلت اللغة الفرنسية محسل اللغة اللاتينية . والناس كلهم يرغبون في تكم الفرنسية وهم يرون في ذلك دليلا على التربية الجيدة . . . هنالك مدينة توجد فيها اثنتا عشرة مدرسة فرنسية مقابل مدرسة لاتينية واحدة ؟ مؤلفات الاقدمين تترجم في كل مكان ؟ وقد اخسله العلماء يخشون من ان تقصى اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (و اخبار جمهورية الآداب » ؟ المماء يخشون من ان تقصى اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (و اخبار جمهورية الآداب » ؟ المماء يفق لمب دور الوسيط الاكبر البرتستانت الفرنسيون المهاجرون الى « ملاجئهم » المختلفة في انكلترا و و براندبورغ - بروسيا » و « هس - كاسل » وسويسرا ونروج واسوج

والداغرك والمستعمرات الانكليزية ، بوسطن ونيوريوك ، وحتى في موسكو. وكان اهمها اطلاقا ملجأ هولندا .

منذ ذاك الحين ، تلاقى في الاقالم المتحدة، مفترق الامم ، رجال آتون من كافة البلدان. فقد قصدها ألانكليز والسكتلنديون والدانمركون والاسوجيون والبولونيون والهنذاريون والالمان لتلقى الدروس في ليدن وغروننغ وارترخت . وتعاظم بمجيء البروتستانت الفرنسيين دور هولندا الدولي الكبير . وأسس البروتستانت الفرنسيون صحفًا اوروبية كبري : ة اخبار جهورية الآداب ، لبيير بيل ، (اذار ١٦٨٣) و و المكتبة الشاملة والتاريخية ، لجان لو كلير (كانون الثاني ١٦٨٦) ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » لم « باسناج دي بوفال» (ايلول ١٦٨٧) . فأثروا في الانكليز اللاجئين الذين كانوا يمدون الثورة الانكليزية . وكان و جيان لو كلير ، وباسناج و د دى بوسك ، وجوربو عوناً الوك على انضــــاج الآراء الدينية والسياسية التي بررت الثورة والتي كان لها تأثيرها الشامل فيا بعد . وبعد الثورة قسمام اللاجئون البروتستانت الى انكلاراً؛ ﴿ ابْلُ رُوبِّه ﴾ و «ده ميزو» و «كوست » بترجمة المؤلفات الانكليزية وادخلوا علمها ما افتقرت اليه من وضوح وتلاحم واحتشام ورصانة فاستطاعت بجلتها الجسديدة ان تنتشر في كافة انحاء اوروباً . وان بييركوست الذي اصبح عضواً في جمعيسة لندن الملكية وناشر مؤلفات ه لابرويير ۽ و « لافونتين ۽ و « مونتاني ۽ في انكلترا ، قد ترجم ٪ المحاولة الفلسفية ۽ للوك (١٧٠٠) و د محاولة في علم البصريات، لنيوتون (١٧٠٤) و دمحاولة في السخرية ، لشافتسبري. وهكذا فقد تبودلت الآراء وامتزجت ونلقحت بفضــــل الجهورية البروةستانتية الفرنسية الكبرى .

انتشار الكرتزيانية ديكارت علانية في كل مسكان . في السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ انتشار الكرتزيانية ديكارت علانية في جامعات هولندا . بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ نشر و كليرسليه ، المحامي في بحلس باريس التمثيلي ، ثلاثة بجلدات من آثار ديكارت اللاتينية غير الملشورة ، مع ترجمنها الفرنسية ، ولا سياً من الرسائل التي هي اسهل منسالاً من الابحاث المقائدية . استطاعت الكرتزيانية من ثم تثبيت أقدامها في كافة البلدان وكافة الاوساط الراقية . في فرنسا ، رحب بها كبار النبلاء ، وكبار البورجوازيين في المحاكم المليسا والمهن الحرة ، والجعيات الدينية الكبرى . تألفت اكاديميات كرتزيانية حقيقية ، والقيت اسبوعيا محاضرات علية كرتزيانية في قصر الدوق و دي لوين » ودارة الامير و دي كونديه » ومنزل مقسم المرافض و هابير دي موغور » عضو الاكاديمية الفرنسية ، وفي اجمل قصور باريس . فسيدان المرافض و مدام و دي لا فاييت » و « لاروشفوكو » و « آرنو» . ودرست الكرتزيانية عند رهبان المقدين فيلبس النيري » والبند كتين والاوغسطينيين . ويعود الفضل لاحد الفرنسيسكان رهبان المقدين فيلبس النيري ، والبند كتين والاوغسطينيين . ويعود الفضل لاحد الفرنسيسكان في انتهال الكرتزيانية ألى انكلترا و دخولها دخول الفاتحين الى جامعتي كمبردج واوكسفورد .

وانتشرت الكرتزيانية في جنيف واستولت على عقول كثيرة في ايطاليا والمانيا . وقد بلغ المذهب ذروته بكتاب و احاديث حول تعدد العوالم ، لفونتنيل (١٦٨٦) .

على الرغم من كل ذلك ، لم تتوقف مقاومة الكنيسة لديكارت . كان الكنيسة ضد الكرتزيانية مقصده انقاذ الدين ، ولكن تعليمه ما لبث ان اصبح خطراً عليمه ، و المادة الى الاتساع ، ولكن ما هي الطريقة ، والحالة هذه ، لفهم استحالة الخبز والخسر الى جسد المسيح ودمه ؟ كيف يمكن لجسد المسيح ، الذي هو جزء من الاتساع ، ان يكون في خبز الذبيحة ، بينا لا يزال الحبز ، الذي هو حزء من الاتساع ايضاً ، يحتل مكانا معيناً ؟ ان ما كان حوشياً في مذهب الماهيات الواقعي ، قد بات مستغلقاً كلياً ، لا بل مستحيلا، في مذهب الاتساع الكرتزياني . كان اله ديكارت مهندساً عبوساً ، وميكانيكياً فظاً ، لا يستشف فيه الاله الحي الذي عبده اسحق وابراهيم ويعقوب . ولم يكن في مذهب ديكارت مكان لشخص المسيح. وكان من شأن ديكارت ان يوصل الى الدين الطبيعي الذي قد لا يكون اقسل مناقضة المسيحية من الالحاد ، والذي ربما ادرك فيه و الفيلسوف المقنع ، شيخوخته بجروراً بمنطق تعليمه ، كذاك الشريف الريفي ، الذي جرفه مذهبه في الرشد والادراك ، وربما غدا ديوقراطياً .

لذلك وقفت الكنيسة موقفاً صريحاً مناهضاً للكرتزيانية . في فرنسا طالبت السوربون ، في السنة ١٦٧١، بتدريس ارسطو دون غيره ، فسكان من الملك ، المقيد بقسم التتويج ، ان منسع قدريس مذهب ديكارت (١٦٧١ ، ١٦٧٥) . فخضع رهبان القديس فيلبس النيري وبند كتيو و سان – مور ، و كهنة و سانت جنفييف ، القانونيون . وفي السنة ، ١٦٨٥ منعت معاضرات و ريحيس ، الكرتزيانية . وفي السنتين ١٦٩١ و ١٧٠٤ ؛ ألزم الملك اساتذة الفلسفة في كليات جامعة باريس بالتعهد خطياً بان لا يدرسوا المبادىء الكرتزيانية . وادرجت مؤلفات الاب و مالبرانش ، في فهرست الكتب الحرمة (١٧٠٩) . ولكن الملك لم يتخذ اي اجراء ضد المدنيين الكرتزيانيين ، لا بل اقدم المستشار ، في السنة ١٦٩٢ ، على تأنيب مؤلف ومركور الطريف ، لانه نشر و شمثاً ما » تعرض فيه لسمعة ديكارت.

ولكن الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جمة ثانية ، مذهب تشويات الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جمة ثانية ، مذهب يدركوه ويحيوه في مجموعه. ان ما احرز النجاح كان كرتزيانية مشو مة تلطفها الفسندية والمذهب الذري . يتضح ذلك في « الاسس الطبيعية » لـ « ريحيوس » (١٦٤٦) و « التمييز بين الجسد والروح » لـ « كوردموا» الذي عين قارئا لولي العهد بوساطة بوسويه ، و « بحث في الطبيعيات » السهير لـ « روهو » (١٦٧١) الذين اعيد نشره تكراراً ، « والجملة الفلسفيسة » لريجيس (١٦٩٠) . فان مؤلاء الفلاسفة ، الذين تمودوا التفسيرات الآلية ، ولم يروا بعد ضرورة لاثبات قممة العلوم الطبيعية ، وكنوا اقل تحمساً للحقيقة من ديكارت ، وحملتهم فطنتهم ، من

جهة ثانية ، على عرض آرائهم مجزأة و كأنها نظريات او ترجيحات ، قسد فصلوا العلم عن علم المعقولات ونادوا باستقلالها الواحد عن الآخريا ولم يعودوا يبحثون عن استخلاص كل شيء من مبدأ واحد ، بل يقدمون مجموع تفسيرات آلية لظواهر منفردة . وتعلقوا بالاختبارات تدفعهم اليها رسائل ديكارت التي يتجلى هذا العقائدي فيها مختبرا دار له الكل بالكثير خلال القرن السابع عشر . وفي نظرهم ان مطابقة الاختبار النظرية تعطي احتبالا عقلياً يكتفون به . وهم يبدون عاجزين عن التفريق بين الفكر والصورة ، بين الفكر والحس . سبق لديكارت ان لفت الائتباه الى اننا قد نكون فكرة واضحة وجلية عن شكل له الف ضلع يستحيل علينا تصوره . أما في رأي ريجيوس وريجيس ، و فالفكرة » لا تمثل لنا هذا الشكل تمثيلاً اوضح مسن شكل أما في رأي ريجيوس الخاتف . فلا عجب من ثم اذا ما الزلقوا نحو مذهب الحاسيين : كل افكارنا تأتينا من الاختبار والحواس . اما الافكار الازلية ، كفكرة الله ، فتتكون بالتجريد والافتراضات الاختيارية . والنفس لا تعمل الا بفعل ارتباطها بالجسد ، ثم تفنى بعد الموت . وانزلقوا نحو المذهب الذري ايضاً لأن جزئيات المواد ، كا يقول و كوردموا ، تصير حتماً الى الانسحاق لولا وجود الذرات . ونظرت و صحيفة العلماء » الى الكرتزياني ريجيس ، الذي الم يعرف لا نيوتون ولا لوك ، نظرتها الى احد الفسنديين .

تقدم العلام ضد الكرتريانية يضاف الى ذلك اخيراً ان اكتشافات علماء الطبيعة قد خطات الآليدون ونفيد ديكارت ديكارت في المديد من النقاط ايضاً. يرد ذلك الى ان ديكارت يبدي بعض اللامبلاة حيال الوقائع . انه يستخلص ، وفي رأيه ان الاختبار هو موافقة بسين ان من اوان الاستخلاص وبين التحقق من ظاهرة ما . فستر بعض الوقائع الممروفة تفسيراً ليا دون ان يستثبتها دائماً . . انتقد التفسيرات السابقة ولكنه نادراً ما انتقد الوقائع . يسلتم بأن الصاعقة تتحول حجراً ، وبأن النيازك والمذنبات ليست سوى بجرد المخرة ملتهبة . يشاطر ارسطو رأيه في ان الفلب مركز حرارة قوية يضمها الله فيه . هذه الحرارة تغلي الدم الذي تتخثر المخرته في الرئة . الغليان يسبب حركات القلب . وبدافع ديكارت عن الدورة اللموية ، ويشهر « هارفي ، بايراد اسمه في « الخطبة ، ولكنه لا يسلتم بتفسيرة لحركات القلب . الما هارفي فيبين ان حركات القلب دقات مفاجئة وحركات سريمة لا قدرة الغليان على احداثها . ديكارت يتمسك بنظريته لانها تبرر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة . ويتمسك بها كذلك ديكارت يتمسك بنظريته لانها تبرر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة . ويتمسك بها كذلك ويكتب له الحفاظ على تسلسل استخلاصاته ، وينبذ الملاحظة الثانية التي لا تندمج فيهسا . ولكن الملحظة الثانية التي لا تندمج فيهسا . ولكن الملحظين اضطروا لان يقولوا قول هارفي : القلب عضل ينقبض .

وانجر" ديكارت كذلك ، بغمل مفهومه للاتساع ، الى اعتبار المروسوعة النود انتشار النور انتشاراً فواتياً . الاتساع هو جوهر المادة ، فالجرم من ثم جزء مخدود من الاتساع ، وهو بالتالي مغلق وعادم الحركة . وليس لحركته او لتوقفه سوى سبب واحد هو الصدمة . عمل الصدمة فواتي ، لذلك فان عمل النور ينتقل من الاجرام

المنيرة الى العين على طريقة انتقال حركة الدفع من طرف عصا صلبة الى طرفها الآخر . ويعلن ديكارت ان فلسفته ستنهار كليا اذا اثبت الاختبار الحسي وجود تأخر ما ، لان مذهبه مناسك الحلقات . ولكن الدانمركي و رومر ، لاحظر في السنة ١٦٧٦ ظهور القمر التابع الاول حسين خروجه من ظل جوبتير ، بالنسبة لاوضاع الارض الختلفة على مدارها ، فتحقق له ان النور يتأخر ستة عشر دقيقة عن بلوغ الارض عين يتوجب على القمر اجتياز مدار الارض . وكانت نتيجة العملية الحسابية التي اجراها ان سرعة النور تبلغ ٢٠٥٨ مدور ٢٩٩ كيلومتر في الثانية ، وتقدر هذه السرعة اليوم في الثانية بحوالي ٢٩٩ ٧٩٨ كم في المواء وبر ٢٩٩ ٢٩٩ كم في الفضاء .

لبنيز والحركة لبنيز والحركة لسنن الطبيعة ولا غرو فآليته آلية الصدمة ولما كان سبب كل حركة عركة ولا يحكن ان يجري التبادل الا بالصدمة التي تفسر الصدم والضغط والثقل المئة الاولى الصدمة هي ذاك الثبات الالهي الذي يستازمه عقلياً دوام الحركة . من هذه العسلة الاولى نستخلص علسك ثانوية و مبدأ ثبوت الجماد والمبدأ العام لتصادم الاجرام الذي تؤلف ملاحقة السنن السبع لتصادم الاجرام و وخيراً مبدأ الجماد . وقد اعطى ديكارت مبدأ تصادم الاجرام العام الصيغة التالية : و اذا كان الجرم المتحرك الذي يصطدم بجرم آخر اقسل قوة المواصلة الحركة المستقيمة من هذا الجرم الآخر المقارمته وقائلة يحرك معه هذا الجرم الآخر وفقد عن عقد وقد اعطى ديكارت من مقصده دون ان يفقد شيئاً من حركته و و . . . اذا كان اعظم قوة و فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر وفقد من حركته بقدر ما يعطى منها و . . . اذا كان اعظم قوة و فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر وفقد من حركته بقدر ما يعطى منها و . . .

بيد ان ليبنيز قد أثبت ، بعد ان أكتشف حساب الكية الصغرى في السنة ١٦٧٦ ، خطأ سنة دوام الحركة التي توصل اليها ديكارت . يفرض ديكارت خطأ ان الحركة مقياس القوة ، التي هي حاصل ضرب الحجم بالسرعة ، اي ح \times س ، لان لبرة تهبط اربع اقدام تحقق طبعاً قوة اربع لبرات تهبط قدماً واحدة . ولكن نسبة حركة اللبرة لحركة اللبرات الاربع ، كا يقول ليبنيز ، هي نسبة Y ل Y بحسب سنان غاليليو ، وان المطابقة في الوزنين هي حاصل ضرب الحجم بمربع السرعة اي ح Y وهذه القوة هي الثابتة الحقيقية التي يبحث عنها ديكارت .

وفي رأي ليبنيز ان سنن التصادم التي توصل اليها ديكارت تناقض مبدأ الديومة الذي هو ملحق مبدأ اللانهاية . يعبرمبدأ الديومة عن خاصية مشتركة بين كافة التنوعات الحقيقية هي التالية : الطبيعة لا تقفز قفزاً ، ولا يمكن لشيء ان ينتقل من حالة الى اخرى الا بوسائط متعاقبة لا يحصى لها عد ، د ان ما يمكن مشاهدته استمرار مركب من اجزاء لا يمكن مشاهدتها ؟ لا شيء يحدث فجياة ، لا الفكر ولا الحركة ، الواقع ديومة قد نعجز عن استقصاء اجزائها . وقد اعتقد ديكارت ، بسبب انكفافه عن مواصلة التعمق في فكررة

اللانهاية وافتقاره الى مبدأ الاستمرار والى الاداة الرياضية الضرورية اي تحليل الكية الصغرى والى الاختبارات الكافية بأن الجرم كلما استوقفه عاتى متمطط ويعود الى الرراء بسرعة مساوية عدديا لسرعته الاولى لان حركته تستمر ومقصده ينمكس ولكن هذه الظاهرة لا تحدث الا في بعض الحالات . ولو ان ديكارت فكر بالحالات التي يكون فيها للجسم الصادم قوة تفوق مقاومة الجسم المصدوم بقير غاية في الصغر ولادرك ان الصدمة ليست ظاهرة بسيطة بل معقدة جداً تنطوي على تعاقب تحول حركات طفيفة جداً : خود و تبادل تشوه الاجرام و توقف استعادة الشكل واستعادة الحركات . كل هذا الذي يدوم و على الرغم من انه يبدو فواتياً واعتبره ديكارت بسيطاً . فتوصل من ثم الى الية حركتية لا يستطيع ان يحسب فيها شيئاً . واضطر بسبب ذلك لان يتخيل والتعليد نوع من الفواهر و المناف بعضها عن البعض الآخر . لذلك فان مكتشف الهندسة التحليلة والعالم بعلم الكائنات الذي جعسل من الرياضيات جوهر الواقع و ومنقذ علم الطبيعيات الرياضي و قد انتهى الى مذهب في العالم لم يعد فيه مكان للرياضيات .

كل هذا اثبت ان الطريقة الكرتزيانية تنطوي على خطأ اساسي . فمنذ نشر الخطب ، راح علماء كثيرون من المقربين الى مرسين وروبرفال وغسندى وباسكال وهوبس يبتسمون تهكما من مماثلة

باسكال رنظرية رجحان الافتراض

١ ـ باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات ـ صدر عن منشورات عويدات (الناشر)

الظواهر مثلا ، فيكون ذلك كافياً للجزم في بهتانه » . قابل باسكال اعتقادية ديكارت ومبدأه المقلي الاكيد بنظرية اختبارية الافتراض ورجحانه . وقد توصل بالغمل الى نتاثج جلية . فقد فسر بثقل الهواء صعود الماء في الانابيب الذي عزي حتى ذلك التاريخ الى نفور الطبيعة من الغراغ . وفي السنة ١٦٤٨ ، اثبت ، باختبار « بوي دي دوم » ، افتراض توريشلي ، الذي قال بان الهواء وإزن وفي كتابه « بحث في توازن السوائل وثقل الهواء » ودكل الظواهر الى حركات المادة ووضع مبدأ الضغط المائي ، وابتكر ميزان الجو ، ووفر امكانية حساب صعود الماء في الانابيب في كل مكان من العالم وحسب وزن كل الهواء الذي يحيط بالارض . ومنذ السنة ١٦٥٧ ، وضع السرحساب الاتفاق . فجاءت النتائج تبرر مفهومه للافتراض .

ولكن ذلك أفضى بالنتيجة الى ان مبادىء المهندسين غير لازمة الحدوث وانها منهسج الآليين عبر دمعطيات حقيقية واختبارية تدرك بالحدس ، او بالقلب ، كا يقول باسكال. فعلم الطبيعيات ليس من ثم علماً اثباتيا ، استنتاجيا ، مرتبطا بعلم المعقولات . وفي هذه الحالة ليس علم المعقولات ، وهو علم صوري على غرار الرياضيات والجدل والمنطق ، تحليلا للواقسم . فليس من ثم اي اعتراض اذا لجأ باسكال الى القلب لاثبات الدين . رفض العلماء المبادىء العقلية الاكيدة ومبادىء علم المعقولات وبراهين اثبات السنن . لم يقبلوا بهذه الاعتقادية الجديدة . واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاء العقسل في كل شيء ، واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاء العقسل في كل شيء ، لان لا سبيل لنا الا الى الكائن العلمي ، لا الى الواقع ، ولا سبيل لنا الا الى الكمية التي ليست سننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . سوى احد مراثي الظواهر . ليست سننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . فلئقل : د كل شيء يحدث كا لو ان . . . ، ولكن الجميع يؤمنون بالسنن الطبيعية ، ومسن ثم بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمية تقصي بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمية تقصي سنة الجاد عنها مع قاعدة ديومة العمل ، التي هي القاعدة الذهبية في علم الطبيعيات الجديد ، كل سحر ، وتجمل من العلم معرفة شتى أنواع الحركات المنظمة . وهكذا تخلخل مذهب ديكارت بدوره بفعل هذه الآلية العملية . بيد ان التأليف لا يهدم الا بتأليف آخر توصل اليه نيوتون .

ان نيوتون (١٩٤٢ - ١٩٢٧) ، استاذ الرياضيات في جامعه كبردج اليف نيوتون (ترينتي كولدج) منذ السنة ١٩٦٧ ، وعضو الجمعية الملكية العلام منيذ السنة ١٩٩٧ ، وعضو الجمعية الملكية العلام منيذ السنة ١٩٩٧ ، قد قام في وقت واحد ، منيذ السنة ١٩٩٠ ، قد قام في وقت واحد ، منيذ السنة ١٩٦٧ – ١٩٦٩ ، بايحاثه الرياضية والآلية والبصرية . في تحسوز ١٦٨٧ ، نشر و المبسادى الرياضية الفلسفة الطبيعية » التي طبعها طبعة ثانية في السنة ١٧١٣ . وظهر كتابه ، و بحث في البصريات » في السنة ١٩٧١ . وللحد على اساوبه في البصريات » في السنة ١٧٠٤ ، ولكنه ، منذ السنة ١٦٦٦ ، أطلع اصدقاءه على اساوبه في حساب المدود وانجائه الاولى حول الجاذبية الكونية . ومنذ السنة ١٦٧٧ نوقشت في جمية لندن

الملكية طريقته قي تحليل الضوء الى ألوانه الاولية بواسطة الموشور ، كما نوقش، منذ السنة ١٦٧٥، مفهومه للهواء الاصفى الممد لتفسير الجاذبية الكونية .

منهجه هو منهج باسكال والآليين الاقحاح . ولا يبدو انه استوحى وبيكون . منهج نيوتون ففي رأي العالم الانكليزي ، و دافيد بروستر ، ، ان نيوتون ليس مديناً بشيء لبيكون ، وحتى لو لم يكتب بيكون شيئاً ، لما حال ذلك دون اكتشافاته ، لا سيا وانه من المستحمل ان يكتشف شيئاً عناهج بيكون .

نيوتون يسير في طريق التحليل . يرفض « الافتراضات ، ، اي كل القضايا التي لا تستنتج من الظواهر . وهو لا يعني بذلك رفض كل افتراض يستهدف البحث ، وهذا أمر مستحيل ، بسل كل قضة لا يمكن استثباتها باختبار تقع نتائجه تحت الحواس. على الفيلسوف أن يجري ملاحظات واختبارات ويخلص منها بالاستنتاج آلى نتائج عامة واعتبار هذه القضايا صحيحة الى ان تثبتهما بعض الظواهر اثبانا كلياً أو تظهر انها قابلة للاستثناءات . لا يستطيع اي د افتراض ، اضعاف البراهين المبنية على استنتاج مستخلص من الاختبار . يجب على الفيلسوف ان لا يسلم الا بالعلل التي هي كلمة الضرورة لتفسير الظواهر ، لأن الطبيعة لا تفعل شيئًا دون جديي ولانها لا تلجسًا في عملها الا الى حد ادنى من العلل البسيطة جداً . يجب الا يبحث الا عن العلل الموجودة حمّاً ؟ لا ﴿ عن السنن التي كان باستطاعة الكلى القدرة ان يوجد بواسطتها النظام المدهش الذي يسود الكون ، لو رأى من الموافق استخدامها ، بل تلك التي وضعها بعمل حر صادر عن ارادته . فيمكمتنا ان نعتقد بالصواب بأن المعاول الواحد قد ينتج عن عدة علل مختلفة ؟ ولكن العسلة الحقيقة ، في نظر الفيلسوف، هي تلك التي تحدث حالياً المعاول موضوع البحث : ولا تعترف الفلسفة الصحيحة بغيرها . . ومن البديهي ان الفيلسوف يستخدم الرياضيات ، ولكن مجسب رأى غالملو وباكال ، بغمة حساب وارتقاب عدد كمر من الظواهر ، لا بنمة اسدال الستار على جوهر خفي ما ، كالقوة الجاذبة الحقيقية مثلاً . هذه البراهين لا توصل على وجه مقنع الى نتائج عامة ، ولكن يفدو بمكناً ، بفضل هذا التحليل ، الانتقال من المركبات الى البسائط ، ومن الحركات الى القوى التي تسببها ، ومن المعاولات الى العلل ، ومن العلل الخاصة الى علل اعم . ثم يتبح التأليف الانطلاق من هذه العلل المروفة والمتحنة وعرض نظام وترتبب الطواهر المرتبطة بها .

ابتكر نيوتون الاداة الرياضية الضرورية للابحاث الجديدة . منف حساب الكعبة الصغرى السنه ١٦٦٥ ١٦٦٦ صم طريقة المدود التي اطلع الجمهور على مبادئها الاساسية في كتاب و المبادىء ، وعلى علاماتها الخاصة في المجلد الثاني من كتساب جبر و ووليس ، الذي نشره هو . لقد سبق لكبلر منذ السنة ١٦٣٥ ان استوحى مفهوم اللانهاية الجديد وطلع بفكرة الكيات الصبرى والكيات الصغرى التي نبذتها المخدسة اليونانية . تخيل الدائرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه مسن مثلثات تجتمع رؤوسها في نقطة الدائرة وتتوزع

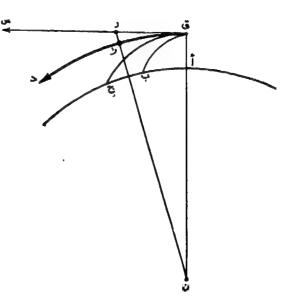
قواعدها على محيط الدائرة ؟ والكرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه مسن الاهرام . وسبق لديكارت ان ادخل على الرياضيات فكرة الحركة التي افتقرت اليها الهندسة اليونانية . وسبق لووليس (١٦٦٦ - ١٧٠٣) ؟ في كتابه ، وحساب اللانهاية ، ان استخدم سنة الاستمرار التي تفرق بين الهندسة العصرية والهندسة القديمة .درس نيوتون كبلر وديكارت وفييت وووليس . فرض ان المحور الافقي يزداد ازدياداً متساوياً بدلالة الزمان ، فاعتبر مساحسة المنحني كمية ناشئة تزداد بنسبة طول المحور العمودي . قوصل الى جملة المد واوضحها في حدود متوالية متناهية او لامتناهية . أما منهجه فطريقة حساب الكية الصفرى الشبيهة بطريقسة ليهنيز ، فقد توصل ليبنيز ، خلال احدى اقاماته في باريس، حيث حوال هويغنس شففه نحو الرياضيات ، الى ان يبتكر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادى الاول في السنة ١٦٨٨ الى ان يبتكر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادى الاول في السنة ١٦٨٨ اعتفاف ومبادى الناهذه . ولكنه اعتقد بأنه اكتشف جوهراً خفياً حين اهتدى الى ح × س٢ ، ولم يتمكن من استخدام اكتشافه في حساب سنن الطبيعة . ومنذ السنة ١٦٩٩ ، وخلال جدال حاد ، اتهم نيوتون بانتحال ليبنيز وليبنيز بانتحال نيوتون .

مالة الجاذبية الى حلها . القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية السرعة . فما هي والحالة هذه القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية السرعة . فما هي والحالة هذه القوة التي تحيد الكواكب عن الخط المستقيم في الفضاء وتجملهسا ترسم خطوطاً منحنية يا ترى ? منذ السنة ١٦٦٦ فكر نيوتون بحركة القمر حول الارض فتساءل عما اذا لم تكن الجاذبية ، التي يستثبت تأثيرها حتى في اعلى قمم الجبال ، تمتد الى القمر وتؤثر في هذا الجرم وتبقيم على مداره ، وعما اذا لم تكن الجاذبية هي القوة الجاذبية الى المركز . استند في براهينه ، بالماثلة ، الى حركة القذائف . فاذا رادت السرعة ، قاومت القوة الجاذبية الى المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فبمكنتنا من المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فبمكنتنا من الما طلاحت التي يرسمها شعاعها الى مركز الارض تكون نسبية للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبسل الى مركز الارض تكون نسبية للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبسل مساوية لها عند الانطلاق ، فتستأنف دورتها كا تفعل السيارات بالضبط على مدارها . وقد باور افكار نيوتون في المسائل المطلوب حلها هبوط تفاحة سقطت على الأرض .

فأخذ نيوتون من ثم يحاول معرفة السنة التي بموجبها تتدنى قوة الجاذبية كلسا ابتمد الجرم عن الأرض .

ان قديفة تترك وشأنها في النقطة ق تهبط وفقاً للخط العمودي ق ا . ولكنها تطلق وفقـــاً للخط الافقي ق س بسرعة تقاوم الجاذبية . كان من الواجب بعد مرور ثانيـــــة ان تكون في النقطة ر ، ولكنها تكون في النقطة ر، على محيط دائرة شعاعها ن ق . فقد سقطت اذن من ر الى ر، ى خسة امتار .

بموجب هذه السنة حسب نيوتون آنذاك مقدار الاسراع الذي تحدثه قوة الجاذبية في جرم يبلغ بعده بعد القمر . ارتأى ، بالاستناد الى سنن كبلر ، انه ، في الارجح ، نسبي نسبة عكسية لمربع الأبعاد . فاذا كان الامر كذلك ، ولما كان هذا الجرم ، الموجود على مقربة من سطح الارض ، وتفصله عن مركز الارض مسافـة توازي الشعاع الارضي ، اي ٥٠٠٠ ٢ متر ، يبط ه امتار أو ٥٠٠٠ مم في الثانية ، فانه حين يكون على مسافة توازي مسافة القمر ، أي على يعد ٢٠٠ شعاعاً ارضياً ، أو ٣٨٤٠٠٠ متر ، يهبط في الارجح ٥٠٠٠ مم : ٢٦٠ اي ٢٦٠ ممر ،



الشكل ١٤ ـ السقوط ر زيالذي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة يسرعة كافية كأن لا تهبط في ب ارج بل لأن تدرر حول الارض رفاقاً لدائرة شماعها ن ق .

تبقى على نيوتون معرفة ما اذا كان هذا المقدار هو مقدار اسراع انجذاب القمر نحوالمركز يرسم القمر محيط دائرة في ٢٨ ثانية . وما ، أو ٢٠٩٠ ٢ ثانية . شعاع هذه الدائرة يوازي شعاع الأرض ٣٠٠ ضعفاً أي ٣٨٤ ٠٠٠ متر ومحيطها القمر من ثم هي دون ٢٠٠٠ متر القمر من ثم هي دون ٢٠٠٠ متر الزاوية القائم الزاوية ن ق ل ان القمر الزاوية ن ق ل ان القمر يبط عمرور ثانية ، من الى يبط عمرور ثانية ، من الى الناوية ن ق ل ان القمر النا الإلى ١٩٧٩ مر فاهتدى نيوتون

تقريباً الى المقدار نفسه الذي اهتدىاليه في حسابه الاول . واتضح من ثم ان الجاذبية الأرضية تتحول كمكس مربع المسافة .

أما الهولندي وهويفنس » (١٦٢٩ – ١٦٩٥) الذي كان والده صديقاً لديكارت فقد حاول بدوره ، بعد ان اكتشف حلقة زحل في السنة ١٦٥٦ ، تركيب ساعية ذات رقاص ، ودرس هبوط الاجرام الوازنة ، ودرس قوة السيارات المبعدة عن المركز ، وغدا على قاب قوسين من سنة الجاذبية . ولكنه اعتمد الهندسة القديمة بصورة خاصة ، فلم يهتد اليها (و ذبذبة الساعة » ، ١٦٧٣) . فاستفاد نيوتون ، بعد ذلك ، من نظريته في القوة المبعدة عن المركز ،

أو الحركة الدائرية ، ليثبت ان قوة الجاذبية الشمسية تتحول ، هي ايضاً ، كعكس مربع المسافة ، وليرتفع الى سنة الجاذبية العامة .

بيد انه لم ينشر استنتاجاته لانه لم يعرف ما اذا كان يقتضي حساب المسافة بين الكواكب وسطح الارض أو بين الكواكب ومركز الارض . وليس صحيحاً انه اضطر الى انتظار نشر قياس خط الطول الذي اجراه الاب بيكار في السنة ١٦٦٩ – ١٦٧٥ ، لمعرفه الشعاع الارضي وحساب المسافة بين الارض والقمر . فقد كان لديه عدة تقديرات كافية لطول الشعاع الارضي نخص بالذكر منها تقدير « غونتر » . ولكنه حل ، في السنة ١٦٨٠ ، مسألة معرفة مسيرة جزء صغير يتحرك في جوار قوة جاذبه تتحول بحسب سنة المربع المعكوس . فاظهر ان هذه المسيرة قطع اهليلجي يحتل الجرم الجاذب أحد محترقيه . وأثبت في السنة ١٦٨٥ أن جرماً كرويا ذا قتل نوعي متساو في كافة نقاطه المتساوية البعد عن مركزه يجذب جزءاً صغيراً خارجيسا كا لو كان كل ثقل الجرم مجموعا في مركزه . فبات من ثم باستطاعته اعتبار كافة أجزاء النظام الشمسي كا لو كانت اجزاء صغرى ثقيلة . وقرر اذ ذاك نشر « المباديء » .

3 3

درس فيها ، أول ما درس ، نظرية نيوتون الحركات الطليقة للاجزاء الصغرى والاجرام الخاضعة لبعض سنن قدوى معلومة . فاقر مبادىء أساسية مسلماً بها بدون برهان ، هي وجود زمان ، مطلق وحقيقي ورياضي ، يجري جريانا متساويا دونما اعتبار لاي شيء خارجي ، ووجود فضاء مطلق دينم علق دينم هو هو دون تغير ، ووجود ، حركة مطلق دينم

هي « انتقال جرم من مكان الى آخر » ، وقسد الشكل ه ١ - السقوط لله الذي يسقطه القمر في ثانية غدت هذه المبادىءمبادىء علم الطبيعيات حتى

﴿ انشتين ﴾ . وأقر أخيراً ، كمبدأ أساسى ؛ ثبات سنن الطبيعة .

وصاغ سنن الحركة :

- ١ كل جرم يستمر في سكونه أو في حركته المتساوية السرعة وفاقا لخط مستقيم ، ما
 لم تتبدل حاله بفعل بعض القوى . وهذه سنة سبق لديكارت ان صاغها .
- ٢ ان تبدل الحركة نسبي اللقوة ويجري في اتجاه انطلاق القوة . ويستخلص ذلك من استنتاجات غالبلو .
- ٣ يقابل كلُّ فعل ردة فعل موازية٬أو الافعال المتبادلة بين جسم وآخر متساوية ومتقابلة

ابداً . ويعود الفضل في صياغة هذه السنة الى نيوتون وحده .

قادته حساباته الى تأمل الاجزاء الصغرى الثقيلة. كما انتجمد السوائل، واحتفاظ الاشعة الضوئية بخصائص غتلفة في جهاتها الختلفة، الذي جعله يعتقد بان الاشعة المضيئة اجسام جامدة، وثبات طبيعة الماء ذاتها وطبيعة الارض عينها واجزائها الصغرى منذ قرون ، الذي يبعد فكرة الدروس التي قال بها ديكارت ، قسد حملته على اعتبار كل الاجسام مركبة من اجزاء صغرى متسعة ، صلبة ، ثابتة ، مستغلقة ، لا تقسم ، متحركة وذات قوة ثبوت ، اي مركبة من ذرات .

ان هذه الاجزاء الصغرى تتحرك في الفراغ أو اقله في وسط قليل مهاجة نيوتون الكثافة جداً. وهاجم نيوتون الجيل الثاني من و المبادىء ، المتوانية والمرتبع الكرتيانية والمرتبع المرتبع المرتبع

الآلية الكرتريانية واظهر ان علم الطبيعيات الزويعي يفضي الى نتائج تتنافى وسنن كبار. فاذا دارت كرة صلبة مثلا في سائل جديس خاضع لحركة داثرية متساوية السرعة ، فان الوقت لدوري لاجزاء هذه الزويعة الكرتزيانية يكون نسبيا لمربعيات المسافة الى مركز الكرة. ولكن الاوقات الدورية للاقيار التي تدور حول جوبتير هي بنسبة واحد ونصف لمسافيتها الى مركز هذه السيارات التي تدور حول الشمس فاو كانت هذه السيارات تتنقل بغمل الزوايع ، لخضعت هذه الزوايع المسنة نفسها التي تخضع لها السيارات ، ولكن لا شيء من ذلك ، اذنه ليس من زوايع .

وبحسب الآلية الكرتزيانية كذلك ، تتحرك الاجرام ، التي تنقلها الزوابع ، وفاقاً للسنة نفسها التي تسير اجزاء الزوابع ، من حيث السرعة والاتجاه . ولكن ، لو كان هنالك زوبعة لكانت مادة الزوبعة ، بتأثير ضغط مادة الزوابع الجاورة ، اشد المحساراً ، في اقصى نقساط القطع الاهليلجي عن الشمس ، منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولكانت مسادة الزوبعة المنحصرة اسرع حركة في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس منهسا في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . ولكن السيارة ، بحسب سنة كبلر الاولى ، اسرع حركة في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . فليس ثمة من زوابع .

لو كانت الكواكب تنتقل بغمل الزوابع لعمب التوفيق بينها وبين وفرة الزوابع ، وبينها وبين حركة الزوبعة الشنسية وحركات زوابع السيارات ، ولصعبت معرفة كيف ان المذنبات، التي تنقلها الزوابع ، تستطيع ان تجتاز بسرعة فائقة وبسهولة فائقة مدارات السيارات من خلال زوابع هذه الإخيرة .

والجيراً ، لو كانت الفضاءات السماوية ملأى بالمادة ، دون ان يتخللها اي فراغ ، وبالتــــالي

كثيفة جداً ، مهاكان من رقة وسائلية هذه المادة ، لكانت مقاومتها اكبر من مقاومة الزئبق ، ولفقدت الكرة الصلبة ، في مثل هذا الوسط ، اكار من نصف حركتها في اجتيازها ثلاثة اضماف محورها . و لذلك يقتضي ان تكون هذه الفضاءات السهاوية ، التي تتحرك فيها السيارات والمذنبات في كل الجماه، حركة طلبقة مستمرة ، دون اي نقص محسوس في حركاتها ، خالية من كل سائل مادى .

بيد ان ميزان الحرارة الذي يرضع في الفراغ يشير الى الحرارة نفسها التي يشير اليها ميزان الخرر يوضع في الهواء ، وفي الوقت نفسه تقريباً . فبمكنتنا التسليم اذن بان الحرارة تنتقسل في الفراغ بفعل المتزازات وسط أرق من الهواء الى حد بعيد يبقى في الفراغ بعد اقصاء الهواء عنه بواسطة المضخة الماصة . وبمكنتنا ان نسلم كذلك بان هنذا الوسط هو نفسه ما يكسر النور ويعكسه ، ويدفىء النور الاجسام بفعل اهتزازاته . وبمكنتنا اخيراً ان نسلم بان هذا الوسط ، الى الاجسام كلها .

آليســة المفواخ اللوطة

وهكذا تمكن نيوتون ، بتطبيق براهينه حيال الكواكب ، بالماثلة ، على الجزاء الاجسام الصفرى ، من بناء آلية ذرية مرتكزة الى الفراغ والجاذبية الكوئية . في الفراغ تتحرك كاثنات مادية هي عبارة عن نقطة

قات ثقل ثابت . كل من هذه الذرات يخضع لقوة جاذبة تنبثق عن نقطة اخرى ويعمل بدوره في هذه الاخيرة علا موازياً يقابل جاذبيتها مباشرة . يتجه هذا العمل المتبادل بين الذرتين وفاقاً المغط المستقيم الذي يصل بينها . وهو نسبي لثقلهما ويتحسول بنسبة عكسية لتربيسع المسافة بينها . افا كانت هذه المسافة ملوسة ، اصبح هذا العمل جاذبية الثقل التي تفسر سقوط الاشياء على سطح الارض ، وسير القمر ، والسيارات ، والاقار والمذنبات ، ومسد البحر وجزره ، وتسطح الارض عند القطب الذي اثبت اكتشاف و ريشيه ، في ه كايين ، في السنة ١٩٧٢ و يجب تقصير رقاص الساعة عند خط الاستواء لا اذن فهو يميل الى حركة ابطأ ، اذن الجاذبية أقل في خط الاستواء ، اذن الرقاص فيه كا على جب على اذن الارض سميكة في المنطقة أقل في خط الاستواء ، اذن الرقاص فيه كا على جب على ، اذن الارض سميكة في المنطقة جداً ، فان هذا العمل يفسر تلاحم الاجسام عند ما تكون الذرات متجانسة تفسيراً افضل من السكون الذي فسر به ديكارت كيفية تلاصق اجزاء الجوامد الصغرى. وفي نظر نوتون ان هذا السكون الذي فسر به ديكارت كيفية تلاصق اجزاء الجوامد الصغرى. وفي نظر نوتون ان هذا السكون الذي نسم مع التلاحم في تحديد واذا كانت المنازات عتلفة كياويا، فان هذا العمل يفسر خصائص الجوامد والسوائل والغازات . وائت كل وانتحلل الكياوين .

على الرغم من نفوره من «الافتراضات» وحاول نيوتون تفسير الجاذبية الكونية . وقد الآثير المحتقد ان الاثير يجب ان يكون في الشمس والسيارات والمذنبات والنجوم اندر منه في الفضاء السياوية. فيجوز الاعتقاد من ثم بان كثافة الاثير تزداد كلما ابتمدنا في الفضاء.

الاجرام السهاوية تبذل جهداً في انتقالها من مناطق كثافة الاثير الى مناطق ندرته وهذا مسا يسبب الجاذبية المتبادلة بين هذه الاجرام والجاذبية بين اجزائها وبينها بالذات والحلاصة هي ان الجاذبية ضايفته و فعاد على غرار ديكارت الى تصور انتقسال الحركة بالهاس بالدفع . يضاف الى ذلك انه لاحظ من جهة ثانية ان كل الاجسام البالفة درجة معينة من الحرارة تنشر فوزاً مصدره حركة اجزائها كمياه البحر في الطقس العاصف او كالحشب واللحم والسمك حين يتسرب اليها الفساد و فتساءل عما اذا لم يكن مكنسا و بمكس الامر ان تنلقى الاجسام يتسرب اليها الفساد و فتساءل عما اذا لم يكن مكنسا و بمكس الامر ان تنلقى الاجسام نشاطها من اجزاء ضوئية صفرى مصدرها اشعة ماكثة في الاجسام تحرك اجزاء هذه الاجسام .

فقد سبق له منذ السنة ١٩٦٦ ان حلل نور الشمس ، بواسطة الموشور ، ووجد النور الشمس ، وان الطول في صورة الشمس ، عند خروجها من الموشور ، يبلغ خمسة اضعاف العرض ، وان ألوان الموشور بتماقب وفاقاً لنظام محدد على الحاجز العاكس : الاحر في الاعلى والبنفسجي في الاسفل . فالاشعة المختلفة تنكسر من ثم انكساراً غير متساو ؛ ويقابسل كل درجة من درجات قابلية الانكسار لون معين . ولكن نيوتون اعتقد ، على نقيض و هويفنس ، الذي تصور اللون في و بحث حول النور ، كموجات سائل ، أو اثير مختلف عن اثير نيوتون ، محركه خفقان الاجسام المنيرة ، بان الاشمة الضوئية جسيات صغرى ، أو ذرات تطلقها الاجسام المنيرة . فمن شأن السائل ان يحول دون ارتجاجات اجزاء الاجسام الصغرى وان يحول كذلك دون حركة الكونية وتحدث ارتجاجات في الوسط الذي تعمل فيه .

ولكنه لم يتوقف عند هذه العلل الثانية ؟ بل ارتفع الى العلة الاولى و التي و الساعاتي الاذلى» لست آلية » و و هل منها . فتدبير الفاعل المفكر يبدو ظاهرا في نظام الاشياء . ولا يعقل ان تتحرك كل السيارات في اتجاه واحد و في مدارت مشتركة المركز بفعل قدر احمى او سنن الطبيعة البسيطة . و يجب ان ينظر الى مثل هذا التناسق المدهش في نظام السيارات كا الى نتيجة اختيار . ويصح القول نفسه في التناسق البادي في جسم الحيوانات . . . لا يمكن ان تكون هذه الصناعة سوى نتيجة حكة وتفكير فاعل قدير حي ابدا يستطيع ، لا يمكن ان تكون هذه الصناعة سوى نتيجة حكة وتفكير فاعل قدير حي ابدا يستطيع ، بغمل وجوده في كل مكان » ان يحرك الاجسام على هواه في مركز حواسه الثابت اللامتناهي ، وان يكو "ن اجزاء الكون ويعيد تكوينها بهذه الوسيلة . . . بيد ان ذلك لا يجيز لنا النظر الى المالم كا الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كا الى اجزاء مختلفة من الله . . . » ، الله هو الله المنالم كا الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كا الى اجزاء مختلفة من الله . . . » ، الله هو الله والمالم كا الى جسد الله يثبت وجود الله لان القول بملازمة الحركة المادة يتنافى وسنة ثبوت والعالم بكل شيء » . العلم يثبت وجود الله لان القول بملازمة الحركة المادة يتنافى وسنة ثبوت الجاد ، ولو إن الله لا يخلق في كل آن كهية جديدة من الحركة ، الفسد السالم وستم وفني شيئا

فشيئًا بفعل تلف طاقته . فقاد العلم من ثم الى دين طبيعي يجب ان يكله الدين الموحى به . وكما كتب البروتستانتي الفرنسي ، كوست ، الذي ترجم مؤلفاته في السنة ١٧١٣ : و بمكستنا الآن ان نعبد ونخدم ، عزيد من الحرارة ، سيد وخالق الاشياء كلها ، وهذا هو اكبر خيير نستطيع جنيه من الفلسفة . . . ان هذا المؤلسف الكبير لنيوتون سيكون من ثم سوراً ركيناً لن يقوى الملحدون والزنادقة على تقويضه البتة ، وفيه يجب البحث عن الاسلحية اذا اردنا الدخول في حرب ظافرة ، .

استقبل مذهب نيوتون استقبالا حماسيا في انكلترا . • كانت الطبيعة وسنن الطبيعـــة متواريتين في الظلمة . قال الرب : ليكن نيوتون . فكان النور ، (بوب) .

بيد ان الكرتزيانيين الانكليز قد ابدوا بعض المقاومة، وفي البر الاوروبي مقاومة الكرتزيانيين قابل كبار العلماء نيوتون بعنف . فان هويغنس، وليبنيز، واكاديمية المعلوم في باريس، وكافة الكرتزيانيين، فونتنيل، «كسميني»، «ريومور»، الايطالي «بوليني»، قد وقفوا في وجهه . نعت هويغنس مبدأ الجاذبية بالحمال، ولم يختلف ليبنيز عنه في الرأي .

كلهم نبذوا الجاذبية باعتبارها صفة خفية . « اذا نحن استشرنا افسكارنا في موضوع سبب الحركة الطبيعي ، فهي لن تقدم لنا شيئًا جليًا واضحاً سوى الصدمة او الدفع . . . فلا نتخلين قط عن مبادىء آلية واضحة ؟ اذا نحن تخلينا عنها ، ينطفىء كل النور الذي نستطيع الحصول عليه منها ، ونفرق نحن مر"ة اخرى في ظلمات فلسفة ارسطو القديمة ، حفظنا الله منها » (سورين ، في اكاديمية العلوم في باريس ، ١٧٠٩) . وعبثًا اجاب النيوتونيون بانه لا يجوز ان ننعت بالخفيسة صفات أثبت الاختبار وجودها ، حتى ولو استحال علينا تكوين فكرة واضحة وجلية عنها.

تسرب الشك الى اذهان بعض المؤمنين . ففي نظر ليبنيز ان الله هو العقل الشامل ، بيها يرى نيوتون ان الله يختار الاشياء والسنن الطبيعية بفعل ارادة اختياري ، كفنان اختار ان يتمهد عمل الكون ويحافظ عليه . فرأى ليبنيز في ذلك إهانة الحكمة الالهية ، لان الاعتقاد على غرار نيوتون بان الله قد بنى عالما لا يستطيع السير بمفرده ، بدون معجزة تدخل الله الدائم لتمهد الحركة ، هو استهانة للقدرة الالهية والكمال الالهي . وتمسك ليبنيز اخيراً بالمل الكرتزياني ضد الفراغ ، لان ازدياد حجم المادة يتبح لله مزيداً من الظروف لمارسة حكمته وقدرته .

بذل الكرتزيانيون اذن جهوداً يائسة للمحافظة على الزوابع . فان الاب « فيلشمو » قـــد وفق في السنة ١٧٠٧ بين حركة الزوابع وسنن كبلر مهملاً ما ارتآه ديكارت بأن السيارات هي كالسفن التي تسير ابداً سيراً ابطأ من النهر الذي يجرّها : السيارات والزوابع تخضع لحركة واحدة . وفي السنة ١٧٠٩ رد سورين على هويغنس ، الذي اكد بأن سرعة الزوبعـة يجب ان تكون ١٧ ضعف سرعة الارض ، وبأن الاشياء كلها ستتطاير عن سطح الارض ، اذا كانت الارض متحركة بفعل الزوبعة ، بأن كلما ازدادت سرعة السائل كلما تدنت كثافته . فلا يستطيع

من ثم ان ينازع او يقتلع شيئاً . اما المذنبات فكانت ملبتكمة . كان و هالي و قسد حد تعاصر مدارات ٣٤ مذنبا ظهرت بين السنة ١٩٣٧ و السنة ١٩٩٨ . لاحظ التشابه البادي في عناصر مدارات مذنبات ١٩٥٨ و ١٩٠٧ و ١٩٨٧ و فعزاها الى مذنب واحد انباً بظهوره مراة اخرى في السنة ١٩٠٨ ان ظهور واختفاء المذنبات مراة اخرى في السنة ١٩٠٥ ان ظهور واختفاء المذنبات لا يركن تدريميا و بل دفمة واحدة : اذن فهي نيران عابرة تشتمل اشتمالاً فجائياً . ولكسن بينية تجنيبها مصادفة زويمة السيارات . ولكن لوحظ ان ارتفاع مذنب ١٧٠٢ كان خمسة اضماف ارتفاع القمر فقط . عزا ديكارت مد البحر وجزره المضغط القمر على المادة الرقيقة التي قال بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب هذه النتيجة . فاجاب قلل بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب الضغط و . ولكن تأثير الشمس لوحظ بعد ذلك ايضاً و فتوجب اذ ذاك الملجوء الى زويعة الشمس ، وفي سبيل الاتفاق مع الملاحظات والحسابات و مست الحاجة الى تعقيد التفسير الكرتزيائي تعقيداً مطرداً وفي حال ان التفسير النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهي البساطة . ولكن الكرتزيائي تعقيداً معرداً و في حال ان يقتنعوا وين النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهي البساطة . ولكن الكرتزيائي تعقيداً معرداً واستمر الصراع ضارباً بينهم وبين النيوتونيين . ان يقتنعوا وين النيوتونيق في ازمة حادة .

أدخل الكيمياويون الآليسة الى عملهم • ففي باريس فسر الكرتزيانية والنيولونية والكيسياء و نقولا "لسرى ، الظواهر بمبادى، الفلاسفة المصريين ، اي ديكارت ، وذلك شلال دروسه في مختبره (شارع غالند) ، و المفارة السحرية المضاءة باكفهرار الافران، عرفي و كتاب الكيمياء المدرسي ، الذي نشره في السنة ١٦٧٥ . عمل ماء تحليل الذهب في الذهب مصدره و حدود ، هذا الماء ومذاق الحوامض الحازر ، والشكل المتر"ن الذي تشخذه عند التباور مصدرهما اجزاؤها الصغرى المقرّنة . القاويات تغور اذا ما امتزجت بالحوامش، اذن اجزاؤها الصغري مسامية وباستطاعة حدود الحوامض أن تتسرب الى الداخل ، الزئبتي سائل ابداً لان اجزاء الصفرى مستديرة ، ولاحظ و نقولا له فيفر ، ، مدرس الكيمياء في حديقية النمانات ؛ في كتابه ؛ ﴿ الكممياء القياسية ﴾ ؛ ارتفساع وزن الأجسام التي تنأكسد ؛ وكسون فكرة غامضة عن د روح شاملة ، عرف خصائصها هي الاكسجين ، تنبثتي هذه الروح الشاملة من الكواكب بشكل نور و و تتبعسد ، في الهواء وتسبب معظم النشائج المهوسة في المعادن والنبانات والحيوانات . وتعمل الروح الشاملة في النبسسانات ، وترقق وتبخر كل ما في المدم من سوائل زائدة . وادخل الانكليزي و روبرت بويل » (١٦٢٧ -- ١٦٩٧) في الكيمياء مقاهم ديكارت ونيوتون٬ فحدد الجسم البسيط جسماً لا يمكن تمليله بأية وسيلة من وسائلنا . كل ما يحدث في الطبيعة يجب أن يفسر آلياً ، ولا يمكن أن تتعلق الفوارق بين الاجسام المختلفسة الا يميعم الاجزاءالصفرى وشكلها وحركتها . الهواء ضروري لاحداث اللهيب وتغذيته . وهو يلعب الدور نفسه في الاحتراق والتنفس ، ويشبه و بويل ، دعومة حياة الحيوان بدعومة لهيب الكحول في اناء مقفل . وعرق بويل الصلصال والرصاص والقصدير للهيب . فتفير منظر هذه الاجسام بعد العملية وزاد وزنها . اذن دخلت اجزاء النور الصغرى الموجودة في اللهيب الى الرصاص والقصدير والصلصال وامتزجت بذرات هذه الموادو اعطت ، بالاتحاد بها اجساماً جامدة . وميز الالماني و بكر ، بين نوعين من الاجسام: الاجسام المركبة والاجسام غير القابلة التحليل . فكان بالامكان صنع مركبات بغية تحليلها واظهار عناصر تركيبها مع صفاتها . وقال مواطنه و سناهل ، (١٩٦٥ – ١٩٣٤) ان الذرات مختلفة بعضها عن البعض الآخر وان لها صفات خاصة اصلية مطلقة ، وان في التجاذب الكيمياوي بين الاجسام بعض ما في الاجسام الحية : المدن ظاهرة عائلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني هو رماد معدن محروق ؛ المدن ظاهرة عائلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني و ماد معدن محروق ؛ الخن فان الجزء القابل الاحتراق عان هذا الرماد ، قانه يصبح معدنا مرة اخرى . المعدن بالتكليس . ومن ثم قان هذا الجزء القابل الاحتراق معادة تنتشر في الهواء النساء المعدن بالتكليس . ومن ثم قان هذا الجزء القابل الاحتراق معادة تنتشر في الهواء النساء الاحتراق دون ان تصير الى الزوال . وان هذه المادة سائل كوني هو والسائل اللهي » .

وتسربت الكرتزيانية والآلية والطريقة الاختبارية تسربا عميق الكنوتزيانية والآلية والمناوم الطبيعية الى عادم الطبيعة ايضاً . ولكن الحيوان - الآلة الذي تكلم عنه علم الوظائف الحيوانيـــة : الحيوان ـ الآلة ديكارت قد افضى بعلماء كثيرين الى سلوك طريق مضلة . فنقل ا بعضهم علم الآليات؛ بلا شرط ولا استثناء؛ الى نطاق وقائم مختلفة . في كتابه و حركسة الحيوانات ۽ (١٦٨٠) فسر ﴿ بُورُ لِي ٤ ، الرياضي والفلكي والمــــالم بالطبيعيات ؛ حركة الكائنات الحمة من زاوية آلبة مجتة . واعجب الطبيبات و بغليفي ، (١٦٦٩ - ١٧٠٨) و و بورهاف ، بتطبيق و المبادىء الرياضية ومبادى، الهندسة المائية ومبادى، علم السكون ومبادىء الجاذبية ۽ على بنية الكائنات الحية . و فهل هذة الآلات المسلَّحة بالاسنان شيء آخر غير الكتاشات يا ترى ? ، المعدة قرعة زجاجية ؛ الاوردة والشرايين وجهــاز العروق انابيب مائمة ؟ القلب زنبرك ؟ الاحشاء مناخل ومصاف ؟ الرئة منفاخ ؟ زاوية المدين بكرة ؟ العضلات حبال . فملق من ثم على الالياف اهمية دونها اهمية الاخلاط . يجب ان تكون الالياف قوية ، والا" فالمرض والموت . لذلك اعتمدا المعالجـــة بالمهيجات والمقويات : الكيّ والدلك والمحجم الرصاص . اغتاظ و ستاهل ، من اهمال العلماء للحياة . الا أنه رجع القهقرى إلى تعلم عصر النهضة . النفس هي مبدأ الحياة . النفس تشرف على سير الاعضاء خير اشراف . فيقتضي من ثم احترام ردود الفعل الطبيعية ٤ والانصراف عن معالجة الحمى مثلًا لانها مجهود تبسسنله النفس

للتخلص من المواد التي تعسُّفها .

احرز التقدم في حقل التشريح بصورة خاصة بفضل بعض المراقبين . استخدم وا الجمير ، الذي كمله د روبرت هوك ، و وقفيات جديدة تقضي بحقن العروق بسوائل ملونة . وهذا ما فعلمه د اوستاش ، و د مالبيغي ، و د ريولن ، و د غليستون ، و د غرال ، و د سوامردام ، . وكان لدى د رويش ، في امستردام ، مجموعة من الاجزاء التشريحية تظهر فيها العروق الدموية واللمفادية . وقد قال فونتنيل ان جميع هؤلاء الموتى ، الخالين من الجفاف الظاهرومن الفضون ، والمتميزين بزهرة الوجه ولدانة الاغشية ، اشبه بالقاتمين من بين الاموات ، فاستطاع مالبيغي والمتساف الفليقات الكبدية وجسيات الكلى وجسيات حاسة الذوق واظهار اتصالها بالشرايين الكلوية الصغرى . وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف الهولندي د لوينهوك ، (١٩٣٧ – الكلوية الصغرى . وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف المولندي د لوينهوك ، (١٩٣٢ – ١٩٧٢) في السنة ١٩٧٧ حيوانات الرجل المنوية ، والكرويات الحراء البالغة الصغر د بحيث لا توازي مثات الالوف منها حجم الرملة الواحدة ، والعروق الشعرية ، والعروق الشعرية ، ودأى الكرويات الحراء تتخذ شكلاً مستطيلاً لاجتياز العروق الشعرية الدقيقة جداً . فأكمل بذلك اكتشاف وهارفي ، .

ولكن- د مالبيغي » و د لوينهوك » لم يتوصلا الى اقناع الارسطاطاليسيين وانصار المعالجية بكبريت الرصاص الذين قابلوهما بالصيغ الفلسفية والاستشهادات بالنصوص الكتابية والكلاسكية .

تقدم علم الوظائف النباتية بفضل الجساث و ماريوت و و مالبيغي و . الرظائف النباتية أظهر ماريوت و ي كتابه و بحث في غو النبات و ان النباتات لا تمتص من التربة غذاء جاهزا يوافق مادتها الخاصة موافقة مباشرة و بل تحول كلها عناصر مشتركة : و اذا أبرنا شجرة اجاس برية بمئير من شجرة اجاس زراعية و فان النسخ نفسه الذي كان من شأنه ان ينتج في الشجرة الاولى المارا صغيرة الحجم رديثة الطعم و ينتقسل الى الغصون التي تتفرع عن المئير وينتج فيها اجاصاً كبير الحجم لذيذ الطعم . . . فهو النسخ نفسه و الذي كان في جذع الشجرة و ما محين له نتيجتان مختلفتان و المام يحمل النسخ يتخذ أشكالا نوعية و تكون في كل مثير و اما بتركيب خاص في الالياف والمسام يحمل النسخ يتخذ أشكالا وأوضاعاً شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واوضاع. وتراءى لمالبيغي دور الاوراق في التعذية وأوضاعاً شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واوضاع. وتراءى لمالبيغي دور الاوراق في التعذية الني انكره ارسطو . فقد طمر بالتراب فليقي نبيتة قرع ذارة ورأى ان النبيتة ما لبثت ان ذبلت . ولاحظ من جهة ثانية ان أوراقها تتساقط حال تكون الاوراق الجديدة . فخلص من ذلك الى ان الغليقات تقوم بعمل المرضمة وان و الطبيعة أوجدت الاوراق بغية هضم النسخ من ذلك الى ان الغليقات تقوم بعمل المرضمة وان و الطبيعة أوجدت الاوراق بغية هضم النسخ المنتقل الى قريباتها بواسطة الالياف الحشبية و .

افتتح المراقبون عالم أصاغر الاجسام كما افتتح الفلكيون عالم اكابرها ٬ ورفعوا اصاغر الاجسام القناع عن تشابهات تقلق البال بين الجهاز العضوي لكل من الانسان والحيوانات وطرحوا مسائل التوالد والنوع. في السنة ١٦٧٥ ، اكتشف لوينهوك النقاعيات ؛ وفي السنة ١٦٧٧ ، وصف حبوانات الانسان المنوية ، كما وصف بعد ذلك بقليل الحبوانات المنوية في الارنب والكلب والضفادع والاسماك والحلزون والمحار ، واظهر الاختطية الدموية في قلب ذكر البط وعضلات الضفدعة . وفي السنة ١٦٨٨ ، اهتدى الى كرويات الدم الحراء في الحيوانات؛ ولاحظ ان كرويات الاسمــاك والطبور بمضوية الشكل. وبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٧٠٠ استثبت التناسل الذاتي عند الارق . وأورد و مالينفي ، في كتابه حول دودة الحرير (١٦٦٩) تاريخ هذه الدودة الذي غدا مستنداً لمعرفة تنظيم الحشرات. واكتشف أنابيب الننفس في دودة الحرير. والزيز وقرن الايل والجرادة والنحلة ، ورجم بالها تلمب عند الحشرات دور الرئتين . واورد الطبيب الهولندي و سوامردام ، ، في كتاب، و ملاحظات حول التحولات ، (١٦٦٩) ، تاريخالقمل والصرصور والجرادة والبعوضة والخنفساء والفراشة والنملة والنحلة ووصف وربديء (١٦٢٦ – ١٦٩٧) ، طبيب غراندوق توسكانا ، ديدانا معوية كثيرة ، واكتشف الفدئين اللتين تفرزان سم الثمابين . ولكن ما توصل اليه ، انكره د شاراس ، (١٦٧٨) الذي زعم بان والسائل الاصفر ، الذي تكلم عنه و ريدي ، ، قسد وضع في الجروح و و لم يتسبب في اي حادث ، . وقد عزا « شاراس ، نتائج النهش الى تـآمير الثمبان الذي يفضب « فتصعد التـآمير الى رأسه وتبدخل بسرعة الى الجروح التي أحدثتها الاسنان ، .

أسفرت هذه الملاحظات عن تجدد مسألة التوالد. اعتقد معظم العلماء بالتوالدات الذاتية . بين و ريدي ، في و انجاث في توالد الحشرات ، (١٦٦٨) ان الديدان لا تولد تلقائيا من تعفن الجيف . فاذا حوفظ على قطمة لحم من الذباب بشتى مقفل اقفالا محكا ، لن تتولد ديدان البتة . لا تتولد هذه الاخيرة الا من البيوض التي يتركها الذباب . الكائنات الحية لا تتولد الا من الجراثيم . ولكن ما توصل اليه و ريدي ، لم يبد عظيم الاهمية ، ودفعت الآلية ماريوت الى الاعتقاد بان النباتات قد تتولد من الحاً المجفف بفعل تجميع بعض الاجزاء الصفرى .

دب الخلاف بين أنصار البيوض وانصار الحيوانات الجهرية . اعتقد لوينهوك بان الجنين يتكوّن بالحيوان المنوي ، وبان لا حاجة من ثم الى بيوض بل الى محل موافق . ولكنه واجمه اذ ذاك الحالات الوراثية حيث يشابه النسل الابوين مما . أما أنصار البيوض فقد اعتبروا الجنين سابق التكوين واقصروا دور الحيوان المنوي على دور التحريك فقط . والواقع هو المؤلاء واولئك قد قالوا بالتحوين السابق . سبق لمالبيني ان لاحظ في السنة ١٦٦٩ قان رمم خطوط الدجاجة الاولية موجودة مسبقاً في البيضة ، وان اصل هذا الرسم سابق للولادة » . خطوط الدجاجة الاولية موجودة مسبقاً في البيضة ، فان المجنين السابق التكوين في البيضة.

مبايضه المصفرة التي تحتوي على جنين سابق التكوين له مبايضه ' النح . كل الكائنات اللاحقة ' بعد الكائن الأول سابقة التكوين وتتداخل جرائيمها بعضها في البعض الآخر . « كانت البشرية كلها موجودة في أصلاب آدم وحواء » (١٦٩١) . وقد حسب « هارتسوكر » في السنة ١٦٩٤ ان أول جرثومة تكونت ستصبح « بالنسبة لآخر جرثومة تظهر في السنة الاخيرة من القرن الستين كما هي الوحدة التي يليها ٥٠٠ ٣٠ صفر بالنسبة للوحدة » ؛ وخلص من ذلك الى استحالة النظرية . ولكن « مالبرانش » اعلن ان « الفكرة لا يمكن ان تبدو ماجنة وغريبة الا لاولئك الذين يقيسون معجزات قدرة الله اللامتناهية بمقياس وحي حواسهم و مخيلتهم * »

مسألة النوع علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، لم يتحقق التقدم في علم الحيوان بل في مسألة النوع علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، اذ ان لبنية باديات اللواقح مخططا عاما واحداً . ففي السنة ١٦٨٨ ، اعطى و جون كاي ، في و تاريخ النباتات ، تحديداً واضحا للنوع واقترح تصنيفاً مستنداً الى تركيب الطسلم والاوراق الاولى، وادخل التمييز الاساسيبين ذوات الفلقة ين و دوات الفلقة الواحدة . وميز و تورنفور ، الاستاذ في و حديقة الملك ، في كتابه و السبيل الى معرفة النباتات ، (١٦٩٤) بين الاشجار والشجيرات والشجيرات الصغرى والاعشاب ، وعين التقسيات في كل ومئة وفاقاً لميزات النورة . فصادف نجاحاً عظيماً لدى العلماء الفرنسيين والايطاليين والالمان والانكليز بفضل ايجسازه ووضوحه . ولكن ست طوائف فقط ، من اصل ٢٧ ، طابقت فئات طبيعية . و في السنة ١٦٨٩ ، ادخل و مانيول ، الاستاذ في و مونبلييه ، مفهوم و الفصائل ، الميزة لا بحسب جزء معين من النبات ، بل بحسب بحرء مهين من النبات ، بل بحسب بحرء مهين من النبات ، بل بحسب بحرء برات كل بالمعرون مين من النبات ، بل بحسب بحرء برات كل بحرات كل بالمعرون مين من النبات ، بل بحسب بحرء برات كل بالمورد المعرون من النبات ، بل بحسب بحرء برات كل بالمعرون من المعرون من المعرون من النبات ، بل بحسب بحرات من النبات ، بل بحسب بحرات كل بالمعرون من المعرون معرون من المعرون من المعرون معرون معرون

العارم الاجتاعية الحساب السياسي الاحصائيات

الاحصائيات الرقبيات ومن نجاح التأمينات على الحياة ، للتسبب في ولادة علم احصاء الجمائيات البشرية . فنظم و غرونت ، ، في السنة ١٩٦٢ ، بيانات بالوفيات مع حساب ترجيعات بقاء الاحياء ، بالاستناد الى لوائسح الموتى في لندن ، ونظم الهولندي و دي فيت ، ، في السنة ١٩٧٦ ، بيانات بماثلة . واصلح هالي اخطاء غرونت في السنة ١٩٩٣ ، بالاستناد الى جداول برسلو . بفضل هذه البيانات توصل غرونت و « وليم بتي » وماتيو هايلا ، في د اصول الانسانية الاولى » (١٩٧٧) ، ألى وضع سنة نمو السكان وفاقا لمتوالية هندسية ، وحدد هايلا فترة المضاعفة بخمس وعشرين سنة . فلم يتبق أمام « مالتوس » سوى ان يقارن هذه السنة بسنة الايراد غير المتناسب . بذلك انتقل علم احصاء الجاعات البشرية من مرحلة الوصف التاريخية الى مرحلة وضع السنن العلمية . وانضمت الكرتزيانية والآلية الى الرأسماليسة التي أوجدت عادة التعبير بالارقام عن كل شيء والى حاجات الدول المتحاربة ، عسكريا وماليا

ان الكرتزانية والآلية إوحيتا بفكرة العلم الاجتاعي ، وانضمتا في البلدان

التي تميزت بانطلاقة رأسمالية كبرى ، إلى الحساجات المتولدة من توافر

فنشأ عنها كلها علم جديد .

ففي سبيل حساب نسبة القوى بين انكلترا وفرنسا المتنازعتين ، اوجد ولم بني ، تحت تأثير الكرتزيانية والآلية ، علما جديداً هو الدرس المددي للاحداث الاجتاعية ، والحساب السياسي ، (١٦٨٢ – ١٦٩١) ، وهو لحمات في مقارنة ثروات انكلترا وفرنسا . استهدف من وراء ذلك وايضاح افكاره بمفردات المدد والوزن والقياس، والاقتصار على البراهين المحسوسة والاسباب المرتكزة الى اسس ظاهرة في الطبيعة ، تاركا لسواه أمر الاهتهام بما يتعلق منها بندهن البشر وآرائهم وأهوائهم ورغائبهم المتقلبة ، حلل الظروف الطبيعية بالدقة التي اتاحتها له معطياته المددية المحدودة ، وحسب القوى والجهود ، وحاول رد القوى المركبة الى عملية القوى البسيطة ، الثابتة والقابلة القياس . ونحا نحره مواطناه ودافننت ، و و غريفوري كنغ ، ، فاصبح بمكنة السر و ددلى نورث ، ان يكتب في السنة ١٦٩١ ، في مستهل و خطبت في التجارة ، و امست المعرفة آلية الى حد بعيد » .

واعطت حاجات الدول العسكرية والمالية علم الاحصاء اهمية جديدة. ففي فرنسا فرضت بعض التدابير التشريعية (١٦٧٣) على خدام الرعايا تنظيم سجلات الحالة المدنية . ونشرت مستندات الحالة المدنية في باريس ، بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٦٨٤ ، واستؤنف نشرها بعد السنة ١٦٧٨ بناء على طلب كولبير ، بعد السنة ١٦٩٨ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٣ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٧ مني الذي قام به الوكلاء منذ السنة ١٦٩٧ حتى السنة ١٢٠٠ ، بناء على طلب دوق بورغونيا ، والذي استخلص منه وفوبان » و و سوغرين » تقديراتها لعدد سكان فرنسا . نظمت هدذه الاحصاءات على اساس والمائلة » لا على أساس الشخص في تاريخ معين فجاءت من ثم ناقصة جداً ، ولكن فوبان ، المهندس والمتمهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . المهند والمتمهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . عدد السكان كل سنة على اساس مراتبهم ومهنهم ؛ ووزع جداول الاحصاء على أساس الرعية : الرجال ، النساء ، الفتيان (فوق ١٤ سنة) ، الصبيان ، الصبيان ، الصبيان ، الصبيان ، الصبيان ، الخدام ، الخادمات ، عدد البيوت من الفئات المختلفة ، والميوانات الاليفة من كل نوع ، والاراضي المؤروعة والماروعة والماروعة والمهمة » والنابات على انواعها ، والمطاحن والخارات . المنوروعة والدائرة ، والكروم المزروعة والمهمة » والنابات على انواعها ، والمطاحن والخارات .

ما زال العلماء مسيرين قبل كل شيء ، في انجاثهم ، اما بالحاجة الى حسل النفية ، الآلات المسائل الفلسفية والدينية وتوطيد قواعد المعتقدات اللازمة لحياتهم ، واما بالتعطش الى الفهم الذي هو شكل من اشكال روح النهضة وشهوة القوة وروح السيطرة والاستمتاع . ولكنهم انشفلوا اكثر فاكثر بتطبيق تحقيقاتهم على الحياة الماديسة . وجاءت الانطلاقة الاقتصادية والاجتاعية تعزز في الاذهان تقليد ديكارت . ففي رأي ديكارت ان

غاية الفلسفة هي فائدة الجنس البشري ، الفائدة الكلية . ولذلك فقد سعى وراء تخفيف ٧٦٦م البشر وتعزيز قدرتهم على الطبيعة . منذ السنة ١٦٣٧ ، كتب لوالد « هويغنس ، بحثًا مُوجزًا في الآلات البسيطة . وتخيل آلات متحركة لتنفيذ الاعمــــال الشاقة هي اسلاف اجهزتنا الآلية المسيرة بالكهرباء والمغناطيس. وبعد أن رأى مدارس الفنون والمهن في هولندا ، أشار بأن تلقى على الصناعيين اليدويين دروس في الرياضيات والطبيعيات والآليات في قاعات تزود بكافة الادوات الضرورية . واتجهت الأفكار نحو اختراع الآلات . اضف الى ذلك ان اعمـــال البناء والاشفال العامة في الدول المطلقة ، والآلات المستعملة لرفع الاثقال قد أثارت الاعجـــاب وحملت على الاعتقاد بان البشرية دخلت في عهد الآلية . وتوصـــل الفرنسي باسكال في السنة ١٦٤٢ ، والانكليزي و صوئيل مورلند ، في ١٦٦٦ ، والالماني ليبنيز بين السنة ١٦٧١ والسنة ١٦٩٤ ، إلى ابتكار آلات حاسبة ، وانهمك هويفنس في اكتشاف ساعة ذات رقاص بغية حل مسألة خطوط الطول ؛ واخـــترع د ادوارد سومرست ، ، مركيز د وورسستر، ، في السنة ه ١٦٥٥ آلة بخارية رفعت الماء حتى علو ٤٠ قدماً في د فوكس - هول ٢ . وتوصل الفرنسي و دنيس بابين ، الى ابتداع صمام الامان في السنة ١٦٨١ ، وأول آلة بخاريسة مزودة بمكبس يتحرك داخل اسطوانة . قوة البخار المتمططة تدفع المكبس الى الاعلى . يتختر البخار اذ ذاك فيحدث الفراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية تحت تأثمير الضغط الجوي . في السنة ١٧٠٧ استخدم بابين آلته في تحريك سفينة : الآلة البخارية ترقم الماء الذي يهبط على دولابويحركه، وتنتقل الحركة الى العنفات . واستحصل المهندس العسكري الانكليزي ﴿ تومــاسِ سافري ﴾ (١٦٥٠ - ١٧١٦) ، في السنة ١٦٩٣ ، على شهادة حكومية حفظت له حقوق استثبار آلة بخارية ممدة لضخ مياه المناجم نحو الخارج . فكانت هذه الآلة الاولى التي طبقت عمليك. استخدمت لتموين المدن والمنازل الخاصة بالمياه ، ولانزاح بعض المناجم ، الا ان رفع المياه حتى علو كاف في المناجم يتطلب ضغطاً يبلغ عدة اجواء , ولكن تجاوز ضغط ثلاثة اجواء كان عملية خطرة لا سيها وان « سافري » لم يستخدم صمام الامسان . فكانت الآلة من ثم خطرة ، مالاحصنة.

تقدمت الابحاث في كل الاتجاهات . ويتكلم اليسوعي «كسبار شوت » في احد مؤلفاته اللاتبنية عن غواصة (؟) جرت تجربتها في السنة ١٦٥٣ ، على حد قوله ، في نهر الروت .

جاء في احدى فقرات مدخـــل وضعه باسكال لبحث في الفراغ راج فكرة التقدم خطوطاً في القرن السابع عشر ما يلي : « يجب ان ننظر الى جميع البشر الذين تماقبوا على مر القرون الطويلة كما الى انسان واحد يدوم ابـــداً ويتعلم دائماً » . معارفنا تفوق معارف الاقدمين ، وهذا يعني ان معارف من سيأتون بعــدنا ستفوق معارفنا . وفي السنة ١٦٨٨ ، توسع فونتنيل في الفكرة نفسها خلال المشادة التي قامت

بين الاقدمين والمعاصرين ؟ فتبين ان العلم يمهد السبيل لتقدم غير محدود . وانطوت مقدمته لكتاب و تاريخ تجدد الاكاديمية الملكية العلوم » (١٧٠٢) على نشيد تهليل العلم . الى العالم يعود امر توجيه البشر . العالم متفوق على الامراء والفاتحين . وهو سيبرع في السياسة لانه متمرن على الحسابات الدقيقة والتركيبات الصعبة . معارفنا ستتوسع ابداً . سننتهي الى معرفة كافة اجزاء الآلة المدهشة . معارفنا ستعطينا القدرة لا على التفكير تفكيراً صحيحاً وجلياً فحسب ، بل على و اكتشاف الآلات الجديدة والسريعة التي تختصر وتسهل عملنا والتبصر في تدبير اعتاد عدة عوامل أو مواد تؤمن لنا منتوجات جديدة ومفيدة يكون باستطاعتنا استخدامها ومن ثم زيادة مجموع ثرواتنا ، اي الاشياء المفيدة لرفاهيتنا » . سيأتي يوم يطير فيه الانسان و و يصل في يوم آخر الى القمر » . الموت سيتقهقر والارض ستغدو فردوساً .

امسى العلم معبوداً واسطورة . فلم يفرق بينه وبين السعادة ، كما لم يفرق بين التقدم المادي وبين التقدم الاخلاقي . واتجه العلم الى الحلول محسل الفلسفة والدين . ويسيمو علم الطبيعيات الحقيقي حتى يصبح نوءاً من اللاموت ، (فونتنيل) .

٤ - ازمة الفكر والحس حاليات المعاصرين ، جفاف الادب

نشأت نظرة جديدة الى الجال ، وقد نشأت عن العلم في الدرجة الاولى . وفسر فونتنيل ذلك بقوله : و لا ترتبط الروح الهندسية بالهندسة ارتباطاً يحول دون نقلها من الهندسة الى معارف اخرى . ان المؤلف السياسي ، والاخلاقي ، او الانتقادي ، أو حتى البياني، سيكتسب مزيداً من الجال ، مع حفظ النسب ، اذا ما دبجته يد المهندس. ولعل مصدر الترتب والوضوح والدقة والضبط ، التي تسود الكتب منه بعض الوقت ، تلك الروح الهندسية التي التشرت انتشاراً لم تعرفه في أي وقت مضى » أن الروح النفعية ، التي قو العلم ، والازمة الاقتصادية والاجتاعية ، وارتقاء البورجوازية ، قد اوجدت الرغبة في المؤلفات المفيدة ، اي المؤلفات المفيدة ، المؤلفات الواضحة الدقيقة . وجاءت الروح الهندسية والروح النفعية تعززان عصرية ردهات الاستقبال حيث كان الناس سعداء باكتشاف هذا العون لمهاجمة العلماء والاساتذة وادعياء المعرفة الموت المهرفة المبرمين الذين يفرضون بذل الجهود . فقد ولى زمان أثارت فيسه سعة الاطلاع ، والمصور القدية ، حاس الهواة المستنيرين ، وحمت فيه رغبة المرفة الجاهير , ان عهد الشغف بعرفة كل شيء ، بأي ثن ، قد عقبه عهد نقرته الانظمة الاجتاعية خلال الحروب الطويلة فأراد التوصل الى بعض الوضوح في كل شيء ، باقل جهد بمكن ، اي الى و صباغ معرفة في أحب المستنيل الميات المهرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المترمة ، الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتحلي المسائل التي تثار في المجتمعات المحترمة ، . الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتحلي بخلق جميل و لهجة ظريفة ، فيُسف حينذاك عن المعرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المترمة . المترمة ، اذا كان هنالك من معرفة . المتروف بالموفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المتون المنون بمنات الموقة ، المرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المتروفة ، المنات المنون بالكل معرفية . المتروفة ، المنات الموقة ، المنون بالمرفة ، اذا كان هنائك من معرفية . المتون المرفة ، المتروفة ، المنات معرفية . المتروفة ، المنات المنات المنات المنات المنون بالمنات المنات المنات المنات المنات المنات المنون المنات ا

يزدرون بالملافنة تقريباً من يتقنون اللاتينية ، ؛ اما الآخرون قامامهم الترجمات ، « الحسائنات سوى الملافنة تقريباً من يتقنون اللاتينية ، ؛ اما الآخرون قامامهم الترجمات ، « الحسائنات الحسناوات ، حيث الحذف والتخفيف والتجميل ، التي تموه مؤلفات الاقدمين وتشوهها خدمة للمالمين . هؤلاء فقدوا كلياً معنى الجال الكلاسيكي . وفي المشادة بين الاقدمين والمعاصرين ، وقفوا الى جانب المماصرين، اي الى جانب «شارل برو» (« قصيدة في عصر لويس الكبير» ، وقفوا الى جانب الاقدمين والمماصرين » ، ١٦٨٨ ، وفونتنيل (« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) ، وفونتنيل (« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) وكل من يثبتون تفوق « عصر لويس » على عصري بريكليس واوغسطوس وتفوق الكمال « العصري » على كال الاقدمين . وكان المشادة صداها في كافة المحاء اوروبا . ففي كل مكان ، في « لاهاي » ، و « امستردام » وانكلترا ، والمانيا ، صادفت النظرة « العصرية » الى الجال انصاراً كثيرين .

النظرة الجمالية الجديدة هي انتقال بروح العلم الكرتزياني الى الادب. ان هدف المؤِّليف الأول هو الإفهام ونقل الحقائق المفيدة . فالصفات الجوهرية من ثم هي « الجمالات الشاملة » ٬ العقل؛ والرأي الرشيد؛ وقابلية الملاحظة والفهم؛ والتدقيق؛ والترتيب؛ والوضوح؛ والمنطق. في سبيل بلوغ الحقيقة ، يجب اعتاد النهج المتبع في علم الطبيعيات حيث يحكم على الاجسام بحسب اتساعها وحركتها ٬ بصرف النظر عن الصفات الحسسة : يجب ان نحكم على الشعر والبيان بصرف النظر عن الاذن والفؤاد . لنقف موقـــفا حذراً من الاحساس والتأثر والهوى والحما الجميلة والحرارة المقدسة والحماس والثمسل الشعرى . كل ذلك حرارة دم وخيال ووهم وجنون . الخلق الشعرى العصرى عملية حصافة وبرهنة لا تنطوى على ايغرض او مسل . واذا كان « المعاصر » يناقض بذلك كل من سبقه ، فهو المحتى والمصيب : فكما أن هنالك تقدماً في العلوم ، فهنالك تقدم في الفنون ايضاً " وإذا اختلف الكيال المعاصر عن كالات العصور الاخرى ؟ فإنه متفوق عليها جميعها . لذلك لم يتردد « هودار دي لاموت » في تكميل هوميروس وتنقيته من « النوافل » * النعوت ، الصور ، المقارنات ، السذاجات ، الدنايا ، العوارض التاريخية ، الطابع المحلى ؛ وكل ما يعيد الى الذاكرة حضارة يربرية . وأقصر المؤلف المركب المتناسق الملوث المليء بالحياة الذي وضعه الشاعر اليوناني على الوقائم والعناصر البينة الشاملة . • ديكارت نحر الشعر في عنقه » (بوالو) . « الشلل ادرك القلب » ردارجنسون) . « لقــد ذهب الآلهــــة . وباستطـاعتي القول انني رأيت الآداب تزهر وتموت وانني عمرت فوق ما عمر"ت (هويه) . افضل كتاب هو « السبحايا » (١٦٨٨ – ١٦٩٤) للابرويير ، المراقب الاجتهاعي المعارض . فكانت الغلبة للكلاسيكية الكاذبة المرتكزة في جوهرها الى القواعد والطرائق ، الحــذرة من العبقرية ، العاطفة على متوسطى المواهب .

ملاجىء الشعر الرسم والتزيسين الاربرا ، النظمام الحيسالي

عكنة الانسان ان يعيش ثلاثة ايام بدون خبز ؛ اما بدون شعر فلا » . ان الشعر ، الذي أقصى عن الادب ، قد التجأ الى الرسم والتزيين . وفي المشادة التي قامت في فرنسا بين انصار « روبنس» وانصار « بوسين » حوالي ١٦٦٨ ، رجعت كفة الاولين رجعاناً

ظاهراً: حوالي السنة ، ١٧٥، بحث المصورون والجهور عن اللذة في الضوء واللون . جهد الفنان في اثر ما يتميز بحميا الاهواء وقوة التمبير والحياة العارمية والسجايا الفردية . فان وكوابل ، في كنيسة فرساي ، وو لافوس ، في و الانفاليد ، قد اعسادا الشباب الى المقود بالوان اوفر صفاء وبهجة وبرسوم ارسخ بروزاً ومتانة . ووصل و فاتو ، (١٦٨١ - ١٧٢٨) من و فالنسيين ، الى باريس في السنة ١٧٠٢ وتتلذ لو وكلود حيلو ، وكلود اودران، ورسم لوحاته المسكرية الخالية من التصنع ، و ظهر الحرب ، وعرض لوحاته المعدة المهازل والاعياد الانبية . وتحول التزبين بعد ١٦٨٥ - ١٦٩٠ ، فأحيسا و بيرين ، تصوير الاوراق والمتشابكة واضفى عليه الحفة والرقة ، واطلق المنان لخيلته ، فابتدع مواضيعه الجديدة : المتشابكة واضفى عليه الحفة والرقة ، واطلق المنان لخيلته ، فابتدع مواضيعه الجديدة : الانسان التيس وابي الهول والمنقاء ، ربعض اشخاص المهزلة الايطالية والاوبرا ، كالموسيقيين المناز فين على القيثار والبوق ، الهازين الدفوف بايديهم ، الماشين على العيهم ، او كالصيفيسين والاتراك الذين ابتدعهم خياله . وفي و مودون ، ملا و كساود اودران ، الثالث السقوف بصور كمة الحب والقرود والهنود والدلافين . ففزت الجدران رسوم الفرود او رسوم المواضيع الصينية كتلك التي حققها والحس والدون ، فقرت الجدران رسوم الفرود او رسوم المواضيع الصينية كتلك التي حققها والحس .

اما الاوبرا ، وهي عيد الالحان والالوان والاوزان ، وتأثر شهواني علن ، فقد استقبلت استقبالاً حاراً في نابولي ورومنا وفاورنسا والبندقيسة وفيينسا و درسد ، وليبزين وباريس ولندن .

واخيراً وجد الشعر له ملجاً غير منتظر في احلام عصور ذهبية اورد ذكرها على لسان و البربري الصالح ، و د الصيني الحكم ، في الف نظام اجتاعي خيالي نسقت تنسيقاً منطقياً بالاستناد الى معطيات استوقفت الحواس .

المطاط تعليم الآداب القديمة المستوى الدروس في الحكليات بسبب سيطرة الشواغسل المطاط تعليم الآداب القعية على التلاميذ وآبائهم . فالحياة قد قست على الكثيرين . اما الاولاد ، المتزايدون تزايداً مطرداً ، والمنحدرون من البورجوازية التجارية ، فيأتون من اوساط تقف موقفاً حذراً من الآداب القديمة : « اعتبرت الدروس البونانية غير ذات فائدة فضعفت وانحطت . وخلت صنوف الفلسفة : ما هي الفائدة من كل هذه الاشياء الباطسلة ؟ » واذا كان الغة اللاتينيسة بعض الحظوة « فبوصفها اجراءاً ضرورياً الوصول الى مهن مختلفة او

دلالة على المركز الاجتاعي المحترم » . وطلب حديثر النعمة ، في الدرجة الاولى ، من المدرسة ، تزويد اولادهم بتلك « المعارف الجميلة » ، بتلك « الصباغات » من كل شيء ، بتلك « الآداب اللطيفة » ، التي تتبح كلها البروز في المجتمع . فارضاهم الاساتذة بفيض من التهارين العامة ، في التاريخ والجغرافيا ، والمرافعات باللغة الفرنسية ، والرقصات الرمزية ، وكلها ترضي حب التظاهر العائلي ولكنها تضر بعلم الآداب القديمة اضراراً كبيراً .

ه – ازمة الفكر والحس ازمة الدبن

راجع الصرفيسين ان الصوفيين الذين انقذوا الكاثوليكية بالصلاة باتوا وكأنهم في عالم المرفيسين المرفي المرفي المرفي المرفي المرفي المرفيسينيون بهدا المنه المرفي الموفيين ادعوا بأنهم الافراط: كل ميولنا وكل عواطفنا تعود في جوهرهاالي حب الذات ولكن الصوفيين ادعوا بأنهم المرفون في مجتهم لله عن التعزيات الحسية . وقالوا ان هذه الحبة هي ميل الى الله تقد يبعثه الله دون ان يرفقه باللذة ، في وسط يبوسة هي تطهير داخلي . واكدوا انهم يشعرون بالسعادة ، دونا لذة ، في وسط الآلام . فكانوا من ثم مغررين انفسهم في نظر نيقول والآخرين . وكل ما يعزونه الى الله المرونة الى النهمة ليس سوى وهم انانيتهم وصنع مخيلتهم .

كان خصوم الصوفية كرتزيانيين وآليين ، فاعتقدوا بامكانية معرفة الله العقلية فقط ، عن طريق الافكار الواضحة والبرهنة ، أما الصوفيون فقد تكلموا عن مشاهدة مبهمة ، عن حوار مع الله دونما صوت كلام أو تلامس مادي ، دونما شيء يمكن ان يقع تحت الحواس أو يكون بعنى الكلمة المادي . كانت معرفتهم لله معرفة سرية ، خالية من المثل ، غامضة ومبهمة ، وابى خصوم الصوفية التسلم بما لا يشعرون به ، اي بتمييز فكرة الله ومعانقة الله . وفي رأيهم ان الصوفيين لم يدركوا ما يقولون ، وانهم ضربوا بالرشد عرض الحائط ، وأنهم معتوهون ومجانين .

احب الصوفيون الله ، وكانت الحبة حياة لهم، أما خصومهم فقد أرادوا ديناً مفيداً ، حملياً ، يستهدف اكتساب الفضائل مباشرة ، ورفضوا مناجاة النفس لله ، واتحاد النفس بالله ، وعبادة الله الحاضر حضوراً ذاتيا مباشراً ، واقصروا الصلاة على التأمل استعدادا للقيام بواجب ، أو التسلح ضد التجارب ، أو تنظيم المشاغل والاعمال ، على فحوص الضمير المتمددة ، باطلة كل فكرة عن الله و لا تتضمن اية فكرة عن أمر أو قاعدة يجب التقيد بها ، أو عن رذيلة يجب تجنبها » .

فاقتصر الدين من ثم على مساعدة الاخلاق وبات علماً اخلاقياً نفعياً ، وأنزل الله الى مرتبة معاون للانسان . وكان ذلك انحداراً جديداً من نظرية مركزية الله الى نظرية مركزية الانسان .

انفجر الموقف هذا في قضية مذهب التجرد · ان النظرية التجردية التي طلع مذهب التجرد الجرد الله الله و جان فالكوني ، من جميسة سيدة الشكر ، انتشرت في فرنسا مرة اخرى بواسطة و مالافال ، (و الطريقة السهلة السمو بالنفس الى التأمل ، ، ١٦٠٠) ، وفي اسبانيا بواسطة و مولينوس ، ، أحسد كهنة ابرشية و ساراغوس ، (و الزمام الروحي ، ، ١٦٧٥) . في رأي التجرديين ان من واجب النفس الاستسلام لله في راحة كاملة استسلاماً نهائياً حينذاك يفعل الله بالنفس ما يطيب له ان يفعل . في هذه الحالة ، التي تكون دائمة ، لا تستطيع النفس ان تخطىء مها صدر عنها . فيتضح من ذلك ان هذا التعليم الطوى على نتائج خطيرة : ولفر رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، واشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان فقد رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، واشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان كل ذلك يمنعهم من الاتحاد بالله . اعتبروا كل أفكارهم المحاءات من الله وحسبوا ان كل ما يمر في وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرها تحت ضغط لويس الرابع عشر . وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرها تحت ضغط لويس الرابع عشر . والصوفيين تتفتى كل الاتفاق والمعتقد القويم ، كصلاة التجرد أو صلاة الايمان التي هي نظرة محبة ما مناشرة من النفس الى الله ، دونما صور باطنية وتأمل وبرهنة وتفكير .

أما في فرنسا فقد سبق لاحدى المتصوفات السيدة وغويتون ، ان نشرت والطريقة الموجزة والسهلة جداً للصلاة ، ولن تلبث ان تؤلف والسيول الروحية ، وجمعت من حولها بعض الاشخاص الروحيين الذين كان لها عليهم سطوة كبرى . وكان من بينهم الاب و دي فينيلون ، مهذب دوق و بورغونيا ، وكانت السيدة وغويون ، صديقة للسيدة ودي منتنون ، فشغفت بآرائها معلمات وآنسات و سان – سير ، الا ان صوفيتها ما لبثت ان اصبحت موضوع ارتياب لا سيا وان من شأن بعض تعابيرها المفرطة أو الخرقاء ان لا يفرق السامع بينها وبين التجرديين . حكم على و الطريقة الموجزة ، في روما في السنة ١٦٨٩ . ونبهت السيدة و دي منتنون ، الى الخطر في السنة ١٦٩٩ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافسع منتنون ، الى الخطر في السنة ١٦٩٩ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافسع فيها كلاها عن آرائهما ، بوسويه في و درس في حالات الصلاة ، وفينيلون في و تفسير مبادى القديسين حول الحياة الباطنية ، في السنة ١٦٩٩ . وتدخل اخيراً لويس الرابع عشر ، فاعفي فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٩ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفة فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٥ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفة

بيد ان ما يلفت النظر هو ان «التفسير » قد اثبت بان فينيلون ا المدافع عن الصوفيين ، لم يكن اطول باعاً في فهم الصوفية من خصومه. فقد شدد على طابع التجرد في الحبة الصوفية،

بحيث ان الصوفي يحب الله مسن كل نفسه حتى ولو حدث ، بفرض مستحيل ، ان الله يجهل عبته ويريد له نيران جهنم الازلية . واستشهد فينيلون بالقديس برناردوس وغسيره . ولكن القديس برناردوس قد تبرأ منه مسبقا . فهو قد سبق له وابان ، ضده ابيلار » الذي قال قول فينيلون ، ان محبة الله لا يمكن ان تكون مجردة تماما . فمحبة الله ، من جهة ، تستهدف الكائن الاعظم ، اي الخير الاسمى والسعادة السميا . أما محبة الخليقة ، من جهة ثانية ، فقد لا تقابلها مكافأة ، وتصبح مجردة في حال تماديها . ولكن محبة الله مكافأة ابداً لأن الله احبنا قبل السنحية ولا يطلب منا سوى محبتنا كي يسبغ علينا نعماً جديدة . يضاف الى ذلك اخيراً الله من اجل ذاته ما دامت قادرة على فرض المستحيلات ، فان النفس ، حين تحب الله من اجل ذاته ، تنقطع عن الفرض والتفكير وتنصهر في الله . وقد اتضح من كل ذلك النفس ، طينيلون لم يختبر الصوفية وانه ، هو ايضاً ، قد تكلم عنها كا يتكلم الاعمى عن الالوان .

ولكن النتيجة التي آلت البهاكل هذه المشادات هي تكريه قراءة المؤلفات الصوفية وانقاص عسدد النفوس الداخلية حتى في الاديرة ، بيهاكان الدين يتعرض لهجهات المقليين والمؤرخين .

التاريخ فد الدن التاريخ الحطم الواسع في التاريخ لغايات سياسية ودينية ، فعسارض في نموه التاريخ فد الدن التاريخ الحطابي على طريقة و تيت - ليف ، مع ما ينطوي عليه من خطب وحكم وتحاليل ومقارنات . ولم يزل هنالك ، على كل حسال ، مؤرخون من هذا الطراز ، ك ، فرتو ، مثلا الذي ارشد الى مستندات حول حصار مسالطة بعد الانتهاء من تحرير نصه ، فأجاب بان المستندات جاءت متأخرة وان الحصار قد تم ، أو كالاب و دانيسال ، الذي ذهب فأجاب بان المستندات مكتبة الملك ، فامضى هناك ساعة واعتبر نفسه مسروراً جداً . وعارض التاريخ كذلك ، في اتساع ابحاثه ، بعض الكرتزيانيين المولمين بالحقائق الشاملة دون غيرها . فقد درج و مالبرانش ، على القول ان آدم امتلك المرفة الكاملة دون ان يعرف التاريخ ؟ وقد اكتفى ، في حقل التاريخ ، عا عرفه آدم . واعجب الكثيرون بهذا الموقف الآن و الجيل الطالع اكن راغباً في الرخاء والطيش ومنصرفاً عن كل ما لم يبد له سهلا » .

ولكن جمية بندكتي و سان ـ مور » كانت قد نذرت نفسها للعلم التاريخي البندكتين الواسع لاجل بحد الله . وكانت مصممة على نشر مؤلفات الآباء وعـلى وضع تاريخ جمية القديس بندكتوس . وقد نظم العمل المشترك ، في دير الرئاسة ، وسان ـ جزمين ده بريه » ما بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٤٨ ، ولوقا داشري الذي خلف غريفوريس تاريس. حوالي السنة ١٦٦٤ ، كانت تجتمع في قليته ، أيام الاحاد، ندوة من العلماء الواسمي الاطلاع في التاريخ ، و دي كانج » ، و بالوز » ، و فيون ديروفال »، رئيس و هارلي » . ثم جـاء تلميذه و مابيون » (١٦٣٢ - ١٧٠٧) فأسس علم و الدبلوماتيقية » الذي يمين درجة صحة و ثائق القرون الوسطى ، الصكوك ، المعاهدات ، العقود ، السجلات (و الدبلوماتيقية » ١٦٨١) .

واسهم بفخر في أعمال البندكتيين الذين نشروا ، حتى السنة ١٧٩٢ ، ١٧ مؤلفات يضم كل منها عدة مجلدات كبرى : « غاليا المسيحية » ، « مؤرخون من فرنسا » ، « مؤرخو الحروب الصليبية » ، « فن استثبات التواريخ » ، طبعات مؤلفات الآباء اللاتين واليونانين ، مجموعية الوثائق .

ومن جهة ثانية ، استهدف روح السلطة هجوم عام زعزع الايمان في وحي المحتب المقدسة والامتياز الديني للشعب اليهودي . وكان مصدر هذا الهجوم ، في الدرجية الاولى ، تطبيق المقلية الكرتزيانية على العلم التاريخي الواسع .

البحث اللاهوتي السياسي لـ « سبينوزا »

أعلن سبينوزا في كتابه و البحث اللاهوتي السياسي ، ان المقل يثبت عجز الدين وضرورة نبذ كافة المتقدات التقلدية . الدين غير ناجع : اذ يستحيل التمييز بين مسيحي ويهودي ، أو تركي

أو وثني . لماذا يا ترى ? لان الدين لم يعد فعلا داخلياً عدروساً ، مقتنماً به ، بل عبادة خارجية ، وممارسات آلية ، وطاعة سلبية لاواهر الكهنة . ولكن هــــؤلاء الحهنة 'طماع استولوا على الكهنوت بدافع الجشع . يجب التخلص منهم ، والاعتاد على النفس ، واستخدام المقل ، شرف الكهنوت بدافع الجشع .

الطاعة مفروضة باسم الكتاب ، في حال ان الكتاب ، كا ثبت ذلك ، ليس عمل الله ملقنا أنبياء ، فهو محشو بالمتناقضات والاخطاء . كتب الكتاب القديم ليست اكيدة الصحة . فهي متألفة من وثائق مختلفة المصادر ومتفاوتة القيمة . الوثائق الاصلية افسدت بفسل خرق المستنسخين وأسيء سبكها . المستب التاريخية البحتة (الاسفار الخسة ، يشرع ، القضاة ، الملاك) معدة لتقديم تاريخ شعب اسرائيل من زاوية موافقة لمدرسة معينة مدن اللاهوتين . وهي لا تمود ، في شكلها الحالي ، الى ما قبل عزرا . ولا ربب في ان الشعب اليهدودي لم يختر للمحافظة على الشريعة الالهية لانه شعب ولى وانقرض . الدين العبراني والمسيحي ظاهرة تاريخية ذات صبغة عابرة ، لها تفسيرها في زمانها وظروفها .

ان و ريشار سيمون ، (١٩٣٨ – ١٧١٢) ، أحد كهنة جمية القديس فيلبس ريشار سيمون النيري ، الذي سبق له ان قال بالكرتزيانية ، قد تأثر تأثراً عميقاً بـ و البحث اللاهوتي السياسي ، وبمحاجات المؤرخين الذين لم يتوصلوا الى التوفيق بين معطيات التوراة المعددية والمعطيات المعددية لدى الشعوب الاخرى . فسما بطريقة سبينوزا الى ذروة كالهسا . ووفاقاً للروح المندسية الكرتزيانية لم ينظر الا الى جزء من الواقع . فتكون لديه مبسداً اساسي مسلسم به دون برهان : اقصى اعتبارات الجمال والاخلاق ؛ وجمل من شرح المتن علما قائماً بذاته مستقلا عن اللاهوت وعلم المقولات . لم يكترث ، في تحديد درجة الصحة ، الا للمعطيات المادية ، الخطوطات ، حبرها ، كتابتها ، احرفها ؛ فواصلها ، حركاتها . فان تفسير

التوراة عملية تحليل لغوي ، واتباع نهج نحوي جيد ونقد تاريخي سليم ، واتقان اللغة العبرانية ولغات الشرق ، والاقتصار على الممنى الحرفي ، ووضع الكتب المقدسة في إطارها ، ومعرفة حياة الانبياء ودروسهم ودورهم ، وزمان وظرف تأليفهم كتبهم ، والشخص الذي وضعوها من أجله ، واللغة التي وضعت بها ، ونصيب كل كتاب ، وكيفية جمعه ، والايدي التي انتهى اللها ، النح .

استطاع حينذاك الاجابة على السؤال التالي : هل يجوز النظر الى التوراة كما الله ، الموحى به مباشرة ، المدون خسطاً ، المنتقل الينا في حالته الاصلية ? وفد أجاب بالنفي، لان الاسفار الخسة مثلا ليست من تأليف موسى ، كما هو ثابت . انها تتضمن استشهادات وامشالا وأشعاراً تنم عن لغة وانشاء لاحقين لعهد موسى ، و فهل يعقل ان ينسب الى موسى الفصل الاخيرمن سفر وتثنية الاشتراع، حيث دون وصف موته ودفنه ؟، كما انها تتضمن اقوالاً مكررة لا يحصى لها عد . فهي من ثم مؤلف غير متلاحم الاجزاء وضعته أقلام خرقاء في عهود مختلفة ، ونقح برفل تكراراً ، مجيث يستحيل اليوم معرفة واضعه الاول الحقيقي .

هل يجوز اعتبار العقيدة الكاثوليكية والمارسات الكاثوليكية مستخلصة مباشرة من التوراة ومسوَّغة بها ؟ كلاَّ . فقد درس العهد الجديد ووجد ان هذا المقطع من القديس يوحنا : د لى ثلاثة شهود في السماء» ، الذي يؤلف احد مرتكزات عقيـــدة الثالوث ، لا أثر له في المخطوطات الصحيحة . ولا يمكن أن يعزى إلى مريم نذر بتولية داغة ، أذا مسا استندنا إلى لوقاً ؛ ١ ، و ٣٤ . يضاف الى ذلك ان تفسير «ريشار سيمون » للكتاب المقــدس كان تفسيراً عقلياً . فهو ، مثلا ، يضعف النصوص التي تثبت مجانية انعامات الله . وقد ترجم هذا المقطع : د اعززت يعقوب؛ ولكنني غضبت على عيسو» بـ « احببت يعقوب اكثر من عيسو». وفي حادثة امرأة لوط ؛ ترجم هذا المقطع : «حولت الى تمثال من الملح» بيـ «غدت كتمثال من الملح» ؛ اي جامدة » . الا ان بوسويه توصل الى إدانة ريشار سيمون واتلاف طبعة الكتاب . وشن البروتستانتيون « فوسيوس ۽ و « سبانهايم » و « باسناج دي بوفال » و « جــوريو » و « لو كليو » هجهات عنيفة على سيمون . وكان في رأي بوسويه ان المهم في الامر هو فائدة القــــارىء الاخلاقية والدينية ؛ التي ترتبط بسلطة الكنيسة المؤثمنة على التقليد. إن التقليد ؛ اي ما آمنت به الكنيسة منذ البداية ؛ يتقدم علىالنص كما أن هذا المهنى أو ذاك حقيقي لان الرسل والآباء والمجامع والملافنة قد اجمعوا الرأي على ذلك بالهام من الروح القدس ؛ وعلى علم قواعـــد اللغة ان ينحني امام اللاهوت . ولكن سيمون لم يرتدع ولم يتراجع . وحين نشر في السنة ١٧٠٢ ترجمة العهـــد الجديد ؛ المعروفة بترجمة وتريفوج ؛ لم يتوفق بوسويه ؛ هذه المرة ؛ الى حمل المستشار على إلغاء الكتاب ، لان الايام كانت قد تبدلت .

بوسويه والعلل الثانوية

ان بوسويه ، الذي تأثر بالكرتزيانية ، قد خلخل ، على غير قصد منه، الدين الذي كان راغبا في الذود عن حياضه . في كتابه ، خطبة في التاريخ العام، (١٦٨١) ، اراد ان يثبت ان الله قد ر " تب كل تاريخ العالم الوثني استعداداً

لمجيء يسوع المسيح. ولكنه لم يلجأ الى الله تفسيرا الا مرة واحدة ، مكتفيا في ما عدا ذلك بالعلل الثانوية ، او العلل البشرية ، لتفسير الاحداث الانسانيسة . هاجم البروتستانت ، الذين جاهروا ، شأن الكاثوليك ، بان و الدوام دليل حقيقة ، والتحول دليل ضلال ، ، فنشر في السنة ١٦٨٨ ، و تاريخ تحولات الكنائس البروتستانتية ، المستقى من المصادر . ادى هذا التاريخ الى بعض الارتدادات ، كا انه ادى عند البروتستانت ، كجوريو ، منذ و الراعويتين ، السادسة والسابعة ، و « باسناج » ، و « بورنيه » ، الى ردة فعل شاملة : سلم كلهم بضرورة التحول ، دليل الحياة الداخلية وعمل الروح القدس . ولكن من شأن هذه الحركة ، اذا بولغ يومسا في تسلسلها المنطقي ، ان تفضي الى حرية دينية لا حدود لها . فأوحى بوسويه بذلك الى البروتستانت بنزعة خفية ، او استعداد غير ظاهر في البروتستانتية ، هو مبدأ الحرية لا بل مبدأ الاباحية الذي تنطوي عليه . ومن سخرية القدر ان بوسويه و قد عمل بصورة غير مباشرة على استعجال نشوء تلك المسيحية المبسطة ، المقتصرة على رمزية ملاطفة ومرتخية ومبهمة » ، التي أمست في القرن التاسع عشر « الدين السري للعديد من الزنادقة الاتقياء » .

« بيل » وآراؤه في المذنب

نشر « بيير بيل » ، البروتستانتي الفرنسي اللاجىء الى هولندا ، عسدة « رسائل وآراء في المذنب ، ظهرت في السنة ١٦٨٢ والسنسة ١٦٩٣ والسنة ١٦٩٤ والسنة يرسلها الله

للانباء بقصاص صارم استحقه البشر . ودرج الناس على التأكيد بان حوادث مشؤومة تعقبها ابداً : اغتيال ملوك ، زلازل ، مجاعات ، حروب ، طواعين . فأثبت « بيل » ان هذا الرأي لا يستند الى اساس متين. ولو فرضنا جدلا ان المذبات ترافقها مصائب عدة ، فلا يعني ذلك انها الدليل عليها او المسبب لها . فلا يحق مثلا للمرأة التي تنظر من نافذتها ، في شارع « سانت و لوزريه » ، فترى كل مر"ة عربات تمر امامها ، ان تتصور انها سبب مرورها ، كا ان ظهور هذه المربات ليس ، بالنسبة للجيران ، دلالة طبيعية على ان عربات اخرى لن تلبث ان تمر من بعدها . وفي الواقع ليست المصائب في سنوات المذ نبات اكثر منها في السنوات الاخرى . فيجب من ثم ان نفرق بين مصادفة وجود شيئين معا وبين علاقة العلة بالمعلول .

لذلك كان من واجب الانسان السليم التفكير ان لا يمتقد بقدرة المذنبات حتى ولو اجمعت الآراء على ذلك وشهدت الشعوب كلما بذلك . ولكن اجماع الآراء يعطي برهانا على وجود الله كا ان التقليد يعتبر محافظة مستمرة على حقائق الايمان : فاجماع الرأي ، كا قيل عــــــن المذنب ، لا يبرهن شبئا .

زدعل ذلك أن القول بأن المذنبات دلالات طبيعية خرافة وثنية قديمة حوفظ عليها في المسيحية . فاو كانت المذنبات دلالات طبيعية ، لاتى الله بالمجزات ليحفظ الوثنيين في عبادة اصنامهم. وفي الواقع ليس المسيحيون الذين بؤمنون بقيمة المذنبات كدلالات طبيعية سوى عبدة اصنام. المعجزة لا تلـ يكرامة الله ؛ لانها تخلف شرائع الله ؛ وتخالفهما لاجل خلائق بشرية حقيرة . الايمان بالمعجزات والمناية الالهية ، انما هو نتيجة الكبرياء . اذن فعبادة الاصنام تتاكل المسيحيين الحالبين . ولذلك فانهم يقمون في كل الرذائل ، بينا هناك ملحدون صالحون يعملور يوحي قواعد الشرف . يجوز أن نتصور مجتمعاً من الملحدين قد يوازي مجتمعاً مسيحياً أو يتفوق علمه . الربكن للالحاد ابطاله وشهداؤه ؟ وفي « قاموسه » ، الذي جاء روعة الالحاد الواسم الاطلاع ، استأنف الارتيابي « بيل ، هجاته على الكتب المقدسة ، والمقائد الروحانية ، فتهافت الشبان على ابواب المكتبات لاجل قراءة هذا الكتاب « الذي لم يتخلله سطر واحد انطوى على تجديف صريح ، والذي لم يكن من شأنه ، مع ذلك ، و أن يقود إلى الألحاد ، . في فرنسا كانت البروتستانت بالقوة على المناولة . فكان ذلك خرقاً للقدسيات لان هؤلاء المنكودي الحظ لم يكونوا مهمثين لتقبل جسد الرب بما يليق من عواطف الاحترام والحمية . استنتج البروتستانت من ذلك أن الكهنة دجالون لا يؤمنون بالوجود الحقيقي . لا بل أن بعض الكاثوليك ، من عاش بينهم البروتستانك،قد تزعزعوا حينذاك في ايانهم. فكان أن بعض البروتستانت،الذين جحدوا ممتقدهم وتناولوا تحت سطوة الخزف ؟ اعترفوا في قرارة انفسهم بوثنيتهم وباقسستراف الخطيئة ضد الروح القدس ، وهي الوحيدة التي لا تفتفر ، فبحثوا عن النجاة من قلقهم المقض بتبني آراء الملحدين ونشروا العدوى في اوساط الكاثوليك .

وقد أثارت المابان والصين آنذاك شر المصاعب .

شقت الطريق أمام الملحدين الانكليز ؟ فان « تولند » (١٦٧٠ – ١٧٢٠) الملحدين الانكليز ؟ فان « تولند » (١٦٧٠ – ١٧٢٠) عدو الكهنة الذين يبتكرون بعض المقائد ، كخاود النفس، لضمان سلطتهم ، قد قال بعالم ازلي يسير بجركة تلقائية ، وبماديه تجمل من الفكر حركة من حركات الدماغ ، وباخلاق مبنية على المقل . أما « كولنز » (١٦٧٦ – ١٧٧٩) فقد احتج في « خطابه حول حرية الفكر » على غرابات التوراة وعلى عجائبها التي ليست سوى خداع وغش . وجاء في كتابه « محاولة في طبيعة النفس البشرية ومصيرها » : « لما كان الفكر نتيجة عمل المادة في حواسنا ، جاز لنا الاستنتاج بانه خاصية من خاصيات المادة أو ظاهرة من ظواهر المادة يسببها على « المادة » .

عبثًا حسب نيوتون انه اثبت وجود الله . وعبثًا قاوم الراعي ﴿ ايلِي بنوا ﴾ عقلية العلماء الواسعي الاطلاع ؛ في السنة ١٧١٢ . فبحسب طريقة ﴿ بيل ﴾ ، كما قال؛ وهي طريقة كرتزيانية

تفرض الوضوح المطلق وتنكر الشهادات ، يمكننا تقديم الدليسل على ان « بيل » ليس مؤلف و قاموسه » . انه يؤكد ذلك : ولكن ما هو الدليل على صدقه ? انه يقسم على ذلك : ولكن هناك ايمانا كاذبة . قد يستشهد باصدقائه : ولكن يجب اثبات صدق الاصدقاء . قد يتعلل بالكتبي والصفاف والمصحح : ولكن هؤلاء شهود يجب استثبات صدقهم اولا . في واقسم الحياة ، يجب الاكتفاء بالبراهين التي توفر يقينا أدبيا : « ان البراهين الصحيحة مسن الندرة والصعوبة بحيث تصبح غير ذات جدوى في الامور التي تفرض فيها الحيساة ضرورة العمل ، وبحيث يجب التخلي عن كافة وظائف الحياة ، اذا مساطولب ، في سبيل الاختيار ، بوجوب توفر البراهين التي لا تنال منها الاعتراضات التي قد يتقدم بها فيلسوف حذى وليس من مرتكز لفنون والعلوم والمجتمعات والشرائع والتجارة سوى مثل هذه البراهين . . . » ان المسادة غير الخيوقة ، التي تتحرك وفاقاً لنظام معين ، سر مستغلق على العقل استغلاق اعظم اسرار الدين . الانسان حيوان متدين يميل بالسليقة الى الحبة والتفوق والانصهار في اللانهاية . وحين لا يعبسد الله ، فانه يعبد العلم ، أو الوطن ، أو الملك ، لأن العبادة وبذل الذات فرض واجب عليه . ولكن السد كان اضعف من ان يقاوم قوة السبل الجارف .

٦ - أرمة الآراء السياسية والاجتماعية

كانت ثورة السنة ١٦٨٨ ، لا جون لوك ، (١٩٣٢ – ١٧٠٥) ، مناسبة البورجواذيون؛ «لوك» لراجمة ونشر الفلسفة العملية ، لا بل النفمية ، التي وافقت انطلاقية العلام وكانت معدة لتبرير ثورة الأعياب الظافرين وايضاح نزعاتهم العميقة . ولد « لوك ، على مقربة من « بريستول » ، وانحدر من عائلة تجار ورجال قانون » وتلقى الدراسة في اوكسفورد ثم غدا فيلسوفا ولاهوتيا وطبيبا ، وارتبط منذ السنة ١٦٦٦ ، كطبيب ، باللورد « اشلي ، الذي اصبح الكونت « دي شافتسبري » في عهد لاحق . حين عين هذا الاخير وزيراً ، اصبح لوك امين سر « دائرة التجارة » (١٦٧٢ – ١٦٧٥) . بعد زوال حظوة الكونت ، سافر لوك الى فرنسا (١٦٧٥ – ١٦٧٩) . عندما اخفق شافتسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، لحق فرنسا (١٦٧٥ – ١٦٧٩) . عندما اخفق شافتسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، من لارسططاليسية التي تدرس في او كسفورد. في هولندا ، وضح لوك آراءه بمخالطته البروتستانت الفرنسيين اللاجئين . عاد الى انكلترا في السنة ١٦٨٨ . مني السنة ١٦٨١ ، متلك آراءه المتلك آراءه المتلك آراءه في المنة الم ينشر أهم مؤلفاته الا بعد الثورة الانكليزية ولاجلها : « رسالة اولى في التسامل » ، وقد كتبت في السنة ١٦٨٥ ونشرت في السنة ١٦٨٩ ؛ « محساولة في المتلك م وقد كتبت في السنة ١٦٨٥) .

في رأي لوك ان البشر ، في حـــالة الطبيعة ، احرار ومتساوون فيا بينهم . يهتدون بهدي

العقل الذي يرشدهم الى حقوق الانسان الطبيعية ؛ الحياة ، الحرية ، الملكية اي حق كل فرذ في التصرف بثار عمله بنسبة حاجاته ، العائلة ، السلطة الابوية . كل هذه الحقوق مقدسة. الله وهبها الانسان . وهي سابقة في الزمان لكل مجتمع .

الا ان البشر ، بعد تعرضهم للكوارث الطبيعية وهجات اعدائهم ، اضطروا لأن يؤلفوا مجتمعاً حتى يستطيعوا التمتع بحقوقهم الطبيعية . هدف المجتمع هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية . البشر يؤلفون المجتمع بموجب عقد اجتاعي . كل منهم يتخلى للمجتمع عن حقد في تنفيذ القانون الطبيعي . « لا يمكن ان تتخطى سلطة المجتمع حدود الخير العسام ، . المقررات تتخذ بالاكثرية . القوانين متساوية للجميع . لا يستطيع اي قانون ان يحرم انساناً من ممتلكاته ؛ اذن الضرائب مقبولة . كل انسان يبلغ سن الرشد حر في ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان يتركه بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن .

يكن ان تمارس سلطة المجموع مباشرة ، وهذه هي الديموقراطية . ولكن باستطاعة المجموع كذلك ان يفوض سلطته الى جماعة أو الى فرد ، ويؤسس أما اوليغارشية وأما ملكية . المجموع يعقد اتفاقاً مع مفوضه ، هيئة كان أم فرداً . المفوض مقيد ببنود العقد . لا يستطيع التصرف بممتلكات رعاياه تصرفاً تعسفياً . يطبق القوانين التي تسنها جمعية غير دائمة ، لأنه من الافضل الفصل بين سن القوانين وتنفيذها . بمكنة المجتمع استعادة السلطة من مفوضه اذا خالف المعقد . الرعايا لايقاسمون المفوض كفوض، بل كمنفذ لارادة المجتمع . اذا لم ينفذ هذه الارادة ، فالرعايا في حل من يمينهم . بمقدورهم ان يثوروا ويستخدموا الاسلحة . جرائم جاك الثاني تبرر الثورة . ليس غليوم الثالث مفتصباً لأن سلطته الملكية تسنند الى رضى الشعب . فاطمأن بذلك الضمير الانكليزى .

يجب فصل الكنيسة عن الدولة . الدولة مجتمع معد لأن يضمن للمواطنين التمتع مجقوقهم الطبيعية . الكنيسة مجتمع معد لأن يتيح لهم كسب خلاصهم الابدي ؟ « مجتمع » طوعي مؤلف من افراد يجتمعون بملء اختيارهم بفية عبادة الله علنا ؟ بالشكل الذي يرون فيه ارضاء له وخلاصا لنفوسهم . فليس الدين ؟ بالتالي ؟ من اختصاص القاضي . الكنائس اشبه بتعاونيات الصناعيين اليدويين أو الجمعيات العلمية . تقر انظمتها وتفرض عقوبات روحية . ليس باستطاعتها التعرض لشخص المؤمنين أو لممتلكاتهم . حرية الضمير وحرية العبادة كليتان . لا حدود لهاتين الحريتين سوى التعديات على الحقوق الطبيعية والآراء المتعارضة ووجود المجتمع الانساني أو القواعد الاخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني . فلا يجوز من ثم الاغضاء على الكاثوليك النهم يربطون السلطة الزمنية بنعمة الهية هم مؤتمنون عليها ولأن كهنتهم تحدوهم رغبة جشمة في السيطرة . ولا يمكن الاطراف على الملحدين لأن العهود المقطوعة لا تخضع ؟ بالنسبة لهم ؟ لايسة

عقوبة ، ولأن الحقوق الطبيمية لم تمد في نظرهم ثابتة وممتنمة الابطال . « أن إلفـــاء ألله ، ولو بالفكر ففط ، ممناه ملاشاة كل شيء » .

في سبيل ضمان التساهل والسلام الاجتاعي ، يطرح لوك جانباً كل المثل التي لا يمكن تبريرها بالاختبار أو التوصل اليها بالتركيب ، اي مثل اللانهاية الحالية ، المادة ، الجوهر الحقيقي ، حرية الارادة ، النع . لا نبحثن الا عن معرفة ما يمكن ان يفيد في الحياة . قوانا ضعيفة وفظة : لا نسمين وراء معرفة كاملة ومطلقة تعجز عنها الكائنات المتناهية . ولنهملن الافتراضات المتنافيزيقية حول طبيعة النفس وجوهرها وعمل النفس في الجسد وعمل الجسد في النفس . لا نهتمن الالما هو مفيد . ولندرسن عقل الانسان فقط وكيفية تكوّن الافكار وتركبها ، فهذه هي المرفة الحقيقية التي يمكن تطبيقها عملياً .

النظرية الكرتزيانية في الافكار المطبوعة تبطلق من معرفة مباشرة وباطنية مزعومة ، فهي تفسح من ثم مجالا لكل الافكار الفردية السابقة التكوين . وان كل الآراء التي يجب ان توفر الطمأنينة للعقول ، كبراهين وجود الله مثلا ، تتملق من ثم بالافكار السابقة التكوين لدى كل فرد ، في حال ان تأمين توافق اعضاء الجسم الاجتهاعي يوجب ايصالها الى ه مفهوم صحيح للاشياء . . . وايصال المقل الى طبيعتها المتصلبة وعلائقها الثابتة ، لا السعي وراء ايصال الاشياء الى آرائنا السابقة التكوين » . ليس لدينا ، لحسن الطالع ، مفاهيم مطبوعة ، كمفهوم الله ، واللانهاية ، والازل . فالطفل لا علم له بها ، ونادرون هم الاشخاص الذين يعرفون المبادىء النظرية كمبدأ المهاثلة والتناقض ، والتعاليم العملية كره عامل الغير كا تريد ان يعاملك » . والمقل من ثم لوحة ملساء تنتظر وصول اشمة الشمس ثم لوحة ملساء تنتظر وصول اشمة الشمس أليها . هو الحس ما يوقظ المقل ويولد الافكار ، الافكار البسيطة الخارجية ، كالحار ، والجامد والصقيل ، والصلب ، والمر ، والافكار البسيطة الداخلية ، الانتباه ، الداكرة ، الارادة ، الديمومة . يلجأ العقل الى المقاربة والتركيب ، ويجمل من هسنده الافكار موضوع استدلالاته الخاصة ، فتصبح على مزيد من التعقيد والتجريد . اليقين هو ادراك الموافقة بين فكرين بواسطة الحكار وسطة .

بعض الافكار البسيطة ، كالاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد ، وصفات اولية ، تمثل الاشياء على علاتها ؛ والبعض الآخر ، كالالوان ، والاصوات ، والطعوم ، وصفات ثانوية ، يحدثها فينا ما تطبعه في حواسنا حركات الاجسام المختلفة الصغيرة . ولكن الصفات الاولية نفسها ليست العناصر الحقيقية للاشياء لأنه يتعذر علينا تصور هذه الافكار البسيطة موجودة بذاتها دون مادة تتحد بها لا نعرفها . ونحن ، في الواقسع ، نطلق اسما واحسداً على مجموعة من الافكار البسيطة . فان افكاراً بسيطة يرينا اياها الاختبار عبيمة ابداً ، كالاصفر ، وقابل الذوبان ، والمطيل ، والكثيف جداً ، النع ، نطلق عليها

اسما هو الذهب في ما يعنينا هذا . هذه الافكار مترابطة فعلا وتكون كلا واحسدا ، وليس من ربب في تركيب الذهب الخاص ، في جوهر الذهب . الا اننا لا ندرك الجوهر وايس لدينا عنه اية فكرة ؛ لا نستطيع ان نضيف اليه شيئا فوق ما يوفره لنا الحس والتفكير . فالبحث الممكن الوحيد هو من ثم البحث الاختباري عن الصفات المجتمعة معا . وهكذا وضع لوك الاسس الركينة للعلم الاختباري واقصى اعتراض مبدأ الجاذبية النيوتونية ، وازال حظوة النظريات الميتافيزيقية ، المضرة بالنظم الاحتاعية ، التي ترتكز اليها الكاثولكية مثلا .

اوضحت دراسته قيمة المقل وحدوده في آن واحد . الانسان لا يستطيسه ان يبلع ن الحقسائق الا ما يتيحه له عقله . فواجبه يفرض عليه من ثم ان لا يقول بحقيقة قضية الا يقبل بها عقله اي انه يفرض عليه رفض الحال . وعليه بالتالي ان ينبذ النظرية الكاثوليكية المستحيلة حول الحق الالهي ، ولحكن العقل الذي لا يستطيع بلوغ المناصر الحقيقية المرجحة ، ثم للاشياء اي الجواهر الا يلبث ان يلمس عجزه . لذلك يكتفي الانسان بالحقيقة المرجحة ، ثم يتذكر صعوبة بلوغ الحقيقة ، فلا يوفض ما لا يمكن ادراكه الاسميح غاية في التواضع والحبة . ويتذكر كذلك ان لكل هيئة اجتماعية الحق في اقاسة الحكومة التي تبدو لها مفضلة على سواها اوان ما من شكل حكومة افضل اطلاقاً من سواه اوان الظروف والمسالح العابرة وتبدل الاشياء الدائم يجب ال تؤخذ بعين الاعتبار .

ولكن الافكار البسيطة الداخلية أتاحت له اثبات وجود الله ؟ قاعدة مذهب السياسي والاجتماعي . تعطي هذه الافكار البسيطة عن الذات فكرة مركبة لكائن غير لازم الحدوث. ان وجود مثل هذا الكائن تفرض وجود كائن ازلي ؟ كلتي القدرة ؟ كلتي الادراك ، خلق في خاصية المعرفة ، وخلق المادة ايضاً لأنه تخلق روحي التي يصعب خلقها اكثر من المادة . .

يتضع من ثم ان نظرية لوك كانت عقلية اختبارية ، بورجوازية .لم يكن لوك ديوقراطيا . في رأيه ان البشر الاحرار مم النبلاء والاكليروس وكبار الملاكين الريفيين والبورجوازية العقارية التجارية ، فهؤلاء مم الذين يضعون فيا بينهم العقد الاجتهاعي . وتتغق الملاحظات المدونة في مفكرته في السنة ١٦٩٩ و تقريره المرفوع للجنة التجارة في السنة ١٦٩٩ . فالمشردون الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٥٠ سنة ، والذين يقبض عليهم بسبب تسولهم ، يجب ان يحكم عليهم بخدمة ثلاث سنوات في الاسطول اذا كانوا من الكونتيات البحرية ، او بالعمل ثلاث سنوات في و بيت العمل ، اذا كانوا من الكونتيات الاخرى . اما المتسولون الذين لم يبلغوا سن الرابعة غشرة فيجب ان يجلدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخساصة . مذهب يبلغوا سن الرابعة غشرة فيجب ان يجلدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخساصة . مذهب لوك مو مذهب بورجوازي كبير مستنير . لذلك غدا هذا المذهب انجيل المجلس التشيسيل الانكليزي والبروتستانت الهولنديين ، كا غدا في وقت لاحق انجيل فولتير وكبار البورجوازيين الفرنسيسين .

مبتدعو الانظمة الخيالية الارشتوقراطيسون الرجعيون فينياون

ان عدداً كبيراً من النبيلاء المتضررين ؛ الذين اذلتهم سياسة لويس الرابع عشر البورجوازية وانتفاخ رجال المال ورجيال الدولة المنحدرين من اصل بورجوازي ؛ اقاموا مثلاً اعلى لهم كل نقيض لما يغمله الملك العظم وانتصبوا خصوماً للملكية المطلقة

التي حاول بوسويسه الدفاع عنها في « السياسة المستمدة من الكتاب المقدس » (١٧٠٩) . بعد وفاة الملك ، زمجر الدوق « دي سان سيمون » قائلا : « كان ملكه ملك بورجوازية صغيرة » . منذ السنة ١٦٨٩ ، اجتمع حول دوق بورغونيا ، الابن البكر لولي المهد ، اشراف ريفيون تواقون الى ردة فعل ارستوقراطية ، هم الدوق « دي بوفيلييه » مربيسه ، والدوق « دي شفروز » ، والدوق « دي سان سيمسون » والاب، « دي فينيلون » ، مهذب دوق بورغونيا ومرشد الدوق « دي شفروز » . وحين نفي فينيلون رئيساً الاساقفة كمبريه ، لم ينقطع عن مراسلة اصدقائه وعن الايحاء الى دوق بورغونيا ببعض الآراء . اصبح هذا الاخير و في السنة التالية ، كا السنة التالية ، كا السنة التالية ، كا قي فينيلون ايضاً قبل الملك العظيم .

عبر فينياون عن آراء هذا الفريق في عدة مؤلفات نخص بالذكر منها و مفامرات و تليهاك الدوق و دي شفروز و بغية عرضها على دوق بورغونيا و و جداول شون و (تشرين الثاني ١٧١١) . انها احلام اشراف ريفيسين ساخطين يستمدون مثلا اعلى من طراز مجتمع كان تحقيقه بمكنا قبل ٢٠٠٠ سنة . فان و جداول شون و تعد لجتمع فرنسي ارستوقراطي متسلسل السلطيات مستقر حيث ستكون السيطرة لطبقة مقفلة من النبلاء في مجلس الطبقات وفي الوظائف القضائية والادارية و وحيث يحد من سلطة الملك مجلس طبقات يضم بعض كبار البورجوازيين واكثرية من النبلاء . سيجتمع هذا المجلس مرة كل شلاث سنوات ولا ترقع جلساته الا بمد انهاء المناقشات . سيصوت على الضريبة ويراقب جبايتها ويكون باستطاعته مراقبة كافة شؤون الدولة ويشرف على السياسة الملكية . سيكون نظام الدولة اتحاديا ، سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على الملكية . سيكون نظام الدولة اتحاديا ، سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على فرار توزيع اعضاء مجلس الطبقات ويتمتمون بسلطات ماثلة .

لن يحكم الملك وحده ، مع كل من امناء سر الدولة ، بل بحسب مبدأ الملكة القديم ، اي في بجلس هام يعاونه مجلس شورى يشترك في كافة اعماله ، وستة مجالس اخرى لكافة شؤون المملكة ، هذه هي نظرية تعدد الجالس ، سيلنى بسيع الوظائف ، وسيستغنى عن خدمات الوكلاء ومقدمي المماريض ، ادوات الحكم المعلق الاولى ، سيماد الى الضباط القدمساء شأنهم وطائفهم التي سد منها وجود الوكلاء ، سيارس القاضي الادارة بأحكامه وبقرارته التنظيمية ، وبفضل هذا التداخل بين الوظائف القضائية والادارية ، سيقدم القانون على ارادة الامير .

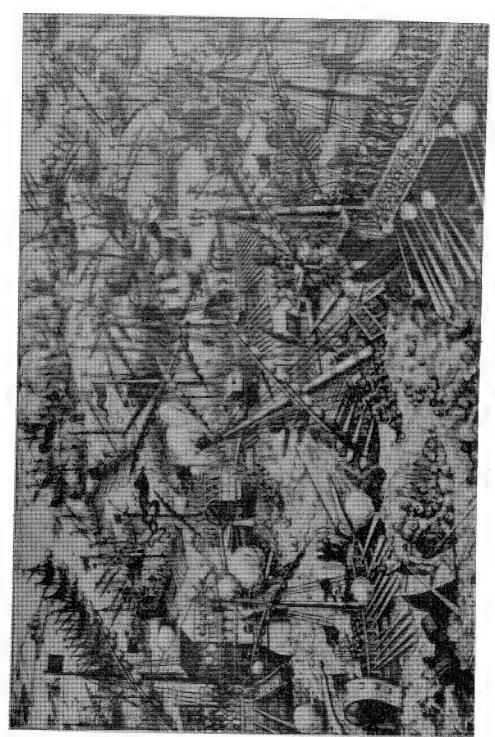
ستماد الى النبلاء اولويتهم . سينظم في كل ولاية سجل بالاشراف وفي باريس سجل عسام .

كل ولد نبيل سيدون اسمه في السجل . سيمنع الزواج من غير النظير . سيحظر الارتقاء الى طبقة الاشراف الاعلى الذين يؤدون للدولة خدمات جلى . سيحظر كذلك على مشاري اراضي النبلاء انتحال اسمائها . ستكون طبقة النبلاء قوية بالروتها . وسيمتمد في كل بيت ، على غرار اسبانيا ، نظام المقار المتملق بلقب الشرف ، الذي يرثه مع اللقب بكر الابناء ، تجنبا لتجزئة الاروات بقسمة الارث . سيحق للنبلاء تماطي تجارة الجلة دون ان يحط فأبك مسن مقامهم . ستكون الوظائف المدترية والمسكرية في حاشية الملك وقفا عليهم . سيلنى بيع الوظائف المسكرية وتكون الافضلية للنبلاء في تولي المناصب . لن يحق للنبلاء دخول القضاء فحسب ، بل سيغضلون على ادناء النسب المساوين لهم الهلية في منساصب الرئيس والمستشار في عالى الغضاء المليا ومناصب النائب العام والنائب الجنائي في الحاكم . ستارس هذه الوظائف مدى الحياة ، وسيخلف الابناء الاكفاء آباءهم . فستتكون من ثم ، في وقت قريب نسبيا ، هيئة مهذ المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان ضباط الفرق سيختارون قادرين على جهد المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان الاسياد سيكونون قادرين على السيديين ، الى الولايات لاصسلاح على مركزيتين عمله ، وبما ان مستشاري الدولة ، و الموفدين السيديين ، الى الولايات لاصسلاح غير مركزيتين عمله .

على هذا الجتمع ، حيث لا يثير الطموح نظام ينزع الى نظام الطبقات المقفلة ، ان يميش في الفقر . سيومن الملك حاجاته بدخل الملاكه ، على غرار ملوك القرون الوسطى . سيمطي مثل البساطة ويفرض على الجميع التقيد به . ستسن قوانين تقيد النفقيات المفرطة : و البذخ يفقر النبلاء ويفسد الامة ويثري التجار به . سينظم عجلس الشورى كل التجارة . وسيمين رقباء لممرفة وسائل اثراء كل فرد . سيوضع بيان باثروات العائلات ، ستلفى اعمال رجال المسال ، سيحول عجلس الطبقات دون كل مضاربة وكل الجمار بالاموال وكل مراباة . وسيحرص على النبلا تبود قطمة ارض واحدة . ستكون تجارة الحاصيل الزراعية طليقة من كل قيسسه ، ستادي فرنسا ببيمها الحنطة والزيرت والخور والانسجة الغ ، باسعار مرتفعة ، لأن ما ستبتاعه من الانكليز والهولنديين ينحصر في و الافاويه والتحف ، التي لا تداني البتة قيمة مبيعات قرنسا .

ان ما طلبت به و جداول شون ۽ هو من ثم عنظط اشتراکية دولة ۽ زراعية ۽ تفرضهسا ارستوقراطية مسيحية برئاسة الملك ،

وكان مقدراً لذمنية المعربين الى دوق بررغونيا ان توسي بفكرة و تمدد الجمالس» في عهد الوصاية ؟ ويتظريات و برلنفيلييه » و « منتسكيو » ؛ وبمارضة بحاكم فرنسا العليا للعلك ؛ وان تلهم كل رجمي العرن الثامن عشر .



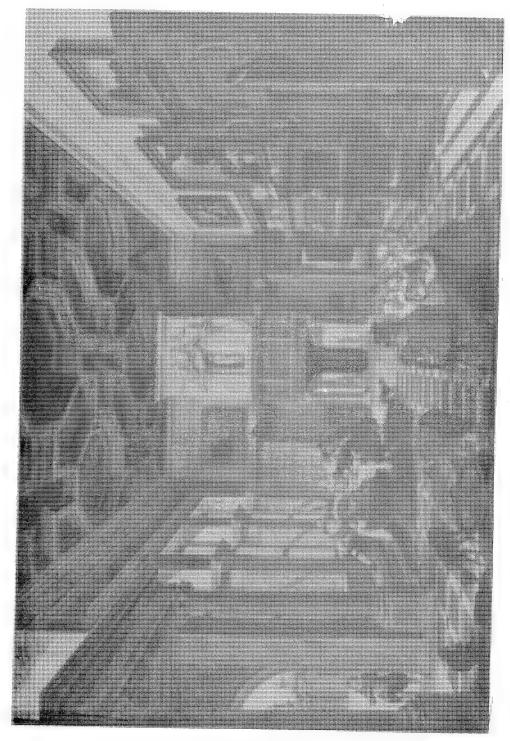
١١- معكة ليبانت (٧ تشوين الأولى ١٩٥١)



14- حديدي الأسطول الانكليزي على الإرميادا في شهر يتموز من إلىسنة ١٨٨٨

المنكس أخسرالوكلاء

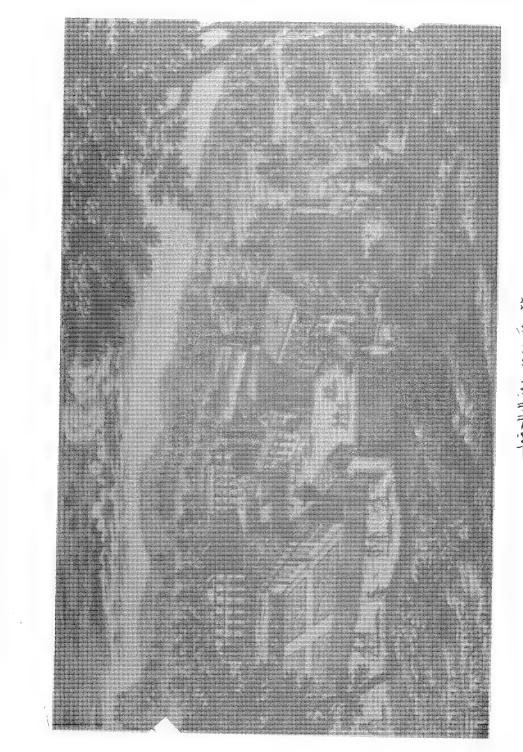




٢٦- داخل مَنزل بورجوازي حولندي ، فخاولك المتهن المسّاجع عَشْر

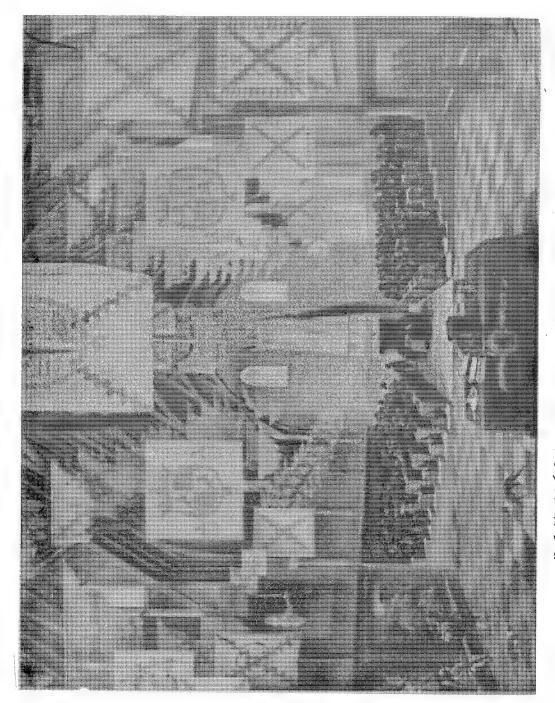


いくのまれたい

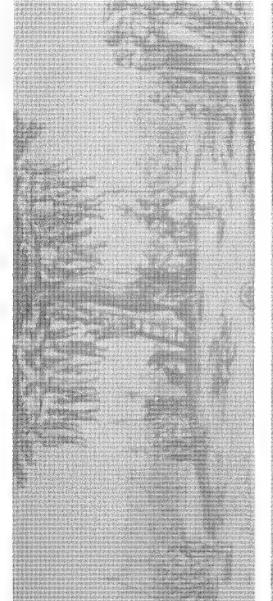


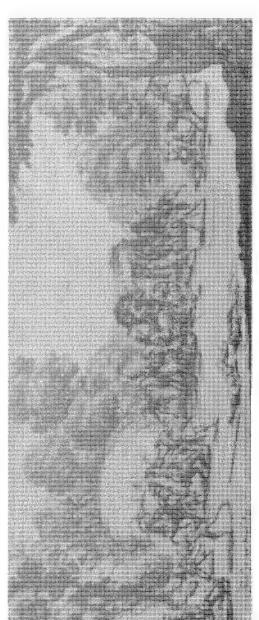
۲۲- دئيربور-روئيال المحقول

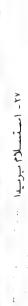
٢٤- احدى عَبْسات البيلان الايطايزي (١١ أبار ١٤١١)



٢٥ - قاعة بيننهون الكبرى في لاهاي أنتاء انعقاد جعية علس الطبقات برئاسة جاكوبكاتس في إليبة احاا



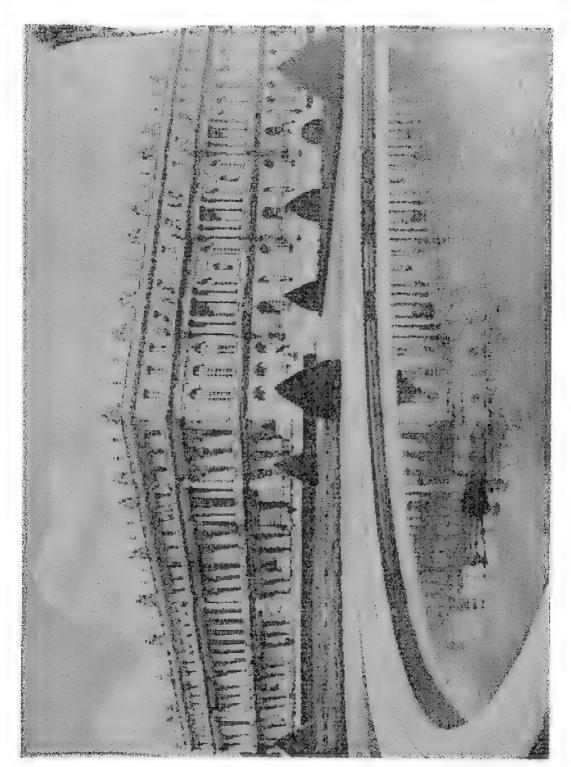




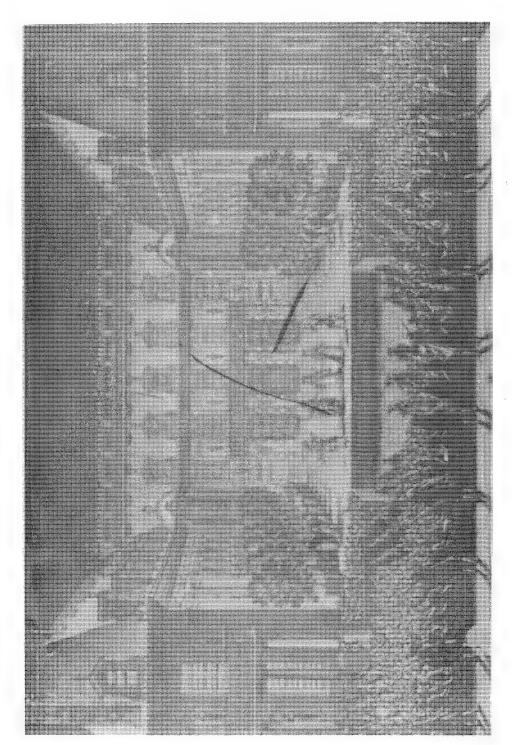




٢٦٠ مـ مـ المرافعيس ضريباي مُدامَدو من جادة باديس في السُنة ١٣١٨



٢٩- همرفرناي. منظر للمسم الأوسط منالغمس ماخوة من زميرا، الجهة الجويبة



٣٠ - الهَيْل الأول المائساء المنائية المسست • و بمينو وتوق ، فالبيوالياء فالسنة ١١١

الإر تتبيد أعمدة اللوفير



مبتدعو الانظمة الخيالية الرومنطيقيــــة السياسية الديموقراطيون والاشتراكيون

ووضعت مخططات تجديد اجتهاعي على ايسدي اناس تألموا مسن المجتمع واستخلصوا النتائج ؛ بصرامة كرتزيانية ؛ انطلاقاً مسن معطيات اختارها حسهم .

في « البحث اللاهوتي ، السياسي » ، زعزع سبينوزا اركان سلطة الكتاب المقدس لان هذه السلطة يستغلها الماوك . ولكن ما يدعوه الملوك دينا هو الخوف الذي يريدونه مسيطراً على الشعوب المستعبدة . النظام الملكي هو فن نخاتلة الشعوب . ان ما تدعوه الرعية واجب الطاعة هو مصلحة الملك . وهي تعتقد انها تجاهد من أجل خلاصها بينها هي تضمن عبوديتها . تقوي بدمها سلطة رجل واحد يعاملها معاملة الوسائل ، ويحرمها مبرر حياتها بحرمانها من الحرية . اما العلاج فهو روح الامتحان التي تظهر ان السلطة تفويض تقبل به الرعية ، وان الديموقر اطية هي أقرب شكل حكم الى الحق الطبيعي ، وان هدف النظم السياسية هو ان تضمن الفرد حرية المعتقد وحرية الكلام وحرية العمل .

واشاد البارون « دي لاهونتان » بالدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والشيوعية الاصلية . البربري هو الجميلوالنبيل والسعيد: انه ضليع ومشاءوصياد ماهر يقاوم التعب والحرمان وينقذه جهله من ويلات عديدة . المتحضرون هم البرابرة الحقيةون . ليمش البربري الصالح (١٧٠٣)!

وولدت العلائق بالبلدان النائية كذلك الف نظام خيالي اوردت في روايات الرحسلات الخيالية . فوصف ونظم الف مجتمع مقبل بالصرامة الهندسية التي تتميز بها روح المساواة . يجب ان توزع المساكن مجموعات وان تضم المجموعة ١٦ حيا ، والحي ٢٥ بيتا، والبيت ٤ غرف ، وان يقيم في الغرفة ٤ اشخاص ٤ الشوارع تكون منظمة والبيوت مربعة وذات نمط واحد . يجب ان ترتب الاشجار في حدائق مربعة الشكل بحسب المارها المفيدة او اللذيذة الطعم . فتوالى حلم التنست انتقاماً لاغترار الكبرياء وشهوة التسلط .

من لا يهتم بامور الدولة وامور الدين ? من لا يصلح هذا او تلك ? من لا يلقي درساعلى الوزير والاسقف ، وعلى البابا والملك ? وقد حدث ذلك بمزيد من السهولة لان الكرتزيانية قد ازدادت انتشاراً في المجتمعات الاوروبية وحملت معها الى كل مكان روح الارتياب والاستقساء الحر. أو ليس الرشد خير ما يشترك فيه الجميع اشتراكا متساوياً في العالم ? الا يحمل كل شخص ، في ذاته ، العقل الشامل ? اوليس الانسان اكثر استعداداً لباوغ الحقيقة بنور الطبيعة كلما قسل درسه وقلت معرفته وقل من ثم و انشغاله ، وقلت آراؤه السابقة التكوين ؟ ان حسالة ثورة فكرية دائمة كانت في طور التمخض .

هكذا انتهى القرن السابع عشر بعاصفة هوجاء من الآراء المختلفة . ان قرنا الحلاصة شاهد البورجوازي يثبت وجوده في وجه البطل والبطانة ورجل الفضيلة ، والرأسمالية التجارية تتفتح وتزدهر ، والرأسمالية الصناعية تنمو وتتسع ، والروح التجارية والملكية المطلقة تبلغان كالهمها الخاص ، واشتراكية الدولة ترتسم ، والنظام التمثيلي يرى النور ، ان قرنا شاهد ذروة الاستهجان والكلاسيكية ، شكسبير وراسين ، روبنس وبوسين ، واعطى غاليليو وديكارت ونيوتون ، وعقلية الكية والآلية ، ان قرنا قاطع المقل البشري فيه ارسطو نهائيا وأدرك الكون بالرياضيات والاختبار ، وفتح العلماء والفلاسفة ورجال الدين فيه اللانهاية امام الانسان ووضعوا امام اعينه تقدماً لا حدود له ، ان قرنا انتزع فيه مسيحيون من كل مذهب ، بيرول وباسكال ، وارمينيوس وغومار ، قلبهم الخافق المختلج كي يمد و محمو لانهاية العظمة والقدرة والقداسة والكمال والحبة ، ان قرنا رباحقق ابدال النوع البشري، ان مثل هذا القرن الجدير عن حق وحقيق ان يدعى : « القرن العظم » .

انتهى بازمة متجددة . ولكنه مدين باخصابه ؟ الى حد بعيد ، لازماته بالذات . فـــان الانسان ، في مجمّه عن الدواء وصراعه ضد قوى التفكيك والتهديم ، قد حقق المزيـــد من الاكتشافات فى كل الحقول .

افضى هذا الجهد المدنول الى انماء الفردية . فقد ابرزت الامم والافراد ؟ بفضل الجمابهة والمنافسة ؟ المعيزات والابتكارات الخاصة ؟ وتبادلتها واستفاقت بالمقارنة الى ابتكارات جديدة انطلقت منها لتحقيق ابتكارات اخرى . لا ريب في ان الفرد اشد ارتباطاً بالهيئات والجميات والعائلة واكثر خضوعاً لسلطتها وتقاليدها وانظمتها من انسان مجتمعات القرن التساسع عشر المتحررة . ولكنه اكثر استقلالا واقوى شخصية الى حد بعيد من اي انسان في اي مجتمع من محتمعات القارات الاخرى . ان هذه الفردية ؟ هذه الحرية النسبية فكراً وعملاً ؟ هسي ما صنعت اخصاب اوروبا وعظمتها وما تتسم بسمة خاصة هي « البحث دونما كلل » .

الم الم المثناني

أوروباوالعالم

مسدخل

اتصال أوروب بالعالم

ان الاوروبيين ، الذين انعزلوا حتى اواخر القرن الحنامس عشر ، في شبه جزيرتهم الصفيرة والبحار الضيقة المحيطة بها والجزر المنتثرة في هذه البحار ، قد شقوا آنذاك عباب الاوقيانوسات الشاسمة واتصلوا بالمالم . فاقبلت الانسانية على وعي ذاتها .

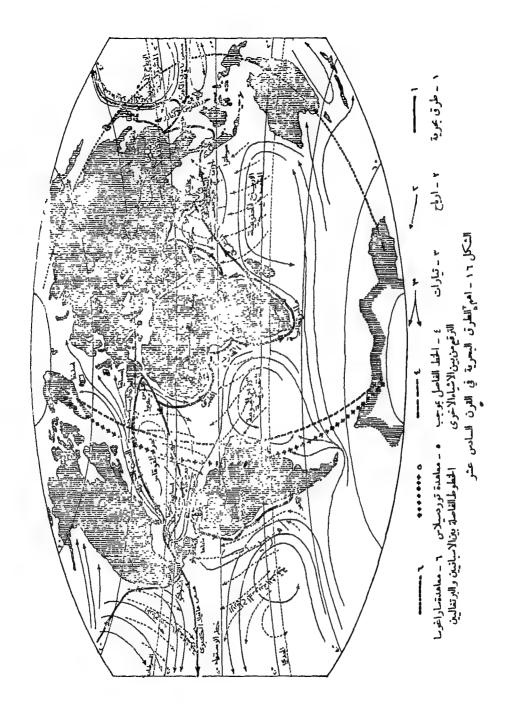
بدأت و الاكتشافات الكبرى ، على ايدي البرتغاليين والاسبانيين الذين ما لبث الفرنسيون والانكليز والهولنديون ان حذوا حذوهم .

لماذا اقتحم الاوروبيون الارقيانوسات

كان البرتغاليون السباقين في هذا المضار الاسباب سياسية ودينية .
اراد الامير و هنري البحار » (١٣٩٤ ، ١٤٦٥) استكشاف شواطيء افريقيسا الى الجنوب من مراكش بفية الاهتداء الى مملكة مسيحية اسطورية ، هي مملكة الخوري يوحنا ، ومهاجمة مسلمي مراكش من الوراء . أي ان عمله كان امتداداً للحرب الصليبية . اسس هنري في وساغري على مقربة من رأس و سان – فنسان » ، مدرسة حقيقية للملاحة اجتذب اليها بحارة جنوبيين وفاورنسيين وفلكيين المانيين. منذ السنة ٢٠٤٦ تقدم البرتفاليون على طول الشاطىء الافريقي وبلغوا و الرأس الاخضر » في السنة ١٤٤٥ وخط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، ورأس الرجاء المسالح في السنة ١٤٨٨ . ولم تكن فكرة مهاجمة الاسلام من الوراء غريبة كذلك عسن نزول الاسبانيين الى الحلية .فان هؤلاء بعد سقوط غرناطة ، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، الاسبانيين الى الحلية .فان هؤلاء بعد سقوط غرناطة ، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، قد اخذوا تحت حمايتهم المشروع الذي اعده كريستوف كولومبوس البحث في الغرب عن طريق تؤدي الى آسيا ، وقد حركتهم كلهم اخبراً حرارة الرسالة والرغبة في اهسداء كافة الشعوب النائية المجهولة الى و الدين الحقيقي » .

وكان لاندفاع الاوروبيين اسباب اقتصادية ايضاً لم تلبث ان احتلت مركز الصدارة بين الاسباب الاخرى . افتقرت اوروبا القرن الخامس عشر الى المعدن الثمين. ولم تكن النقود كافية قط للكيات ومجارة تتقدم تقدماً كلياً . أذهب الاوروبيون بعيداً في استثار مناجم أوبوبا الوسطى دون أن يتوصلوا إلى إرواء تعطشهم إلى الفضة والذهب . تكلمت روايات اسطوريت عن كنوز خيالية موجودة في أفريقيا وآسيا التي أصبح الاتصال بها أشد صعوبة ، بفعل الفتح البتركي ، بينا أصبح هذا الاتصال أمراً منشوداً . رغب الاوروبيون في أن يذهبوا بانفسهم للبحث عن الذهب . فكانت أولى نجاحات البرتغاليين الذين قايضوا ، أقله منذ السنة ١٤٤٦ ، النحاس والنبيذ والحنطة والجياد والمنسوجات والاسلحة بذهب السودان والعاج والعبيد والفلفل ، عثابة تحريك جديد للاطاع .

لقد دُهُب بعضهم الى أن السبب الاول للاكتشافات الكبرى هو تقدم الاتراك في آسيا الصغرى وحوض المتوسط الشرقي ٬ وقطعهم طرق التجارة القديمة بين الهند والغرب٬ فأرغمت صعوبة الحصول على الافاويه على البحث عن طريق جديدة مباشرة . لا شك في ان حروب الاتراك قد شوشت التجارة احياماً ، ولكن الاتراك انفسهم لم يقفوا موقفاً عدائماً من التجارة مع الغربيين . فقد جددوا تكراراً وبملء رضاهم المماهدات التجارية مع البندقيين والجنوبين وتقيدوا بما كانت تنص عليه . وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج الفارسي والبحر الاحمر ، و ما ان افتتح سليم الاول مصر في السنة ١٥١٤. حتى إدر الى تجديد المماهدات التي كان الماليك ، اسياد مصر السابقون ، قد عقدوها مم البندقية . و في السنة ١٥٢٨ ، وقع خليفته سليمان معاهدة مع فرنسوا الاول ، فجاءت السفن الفرنسية تنافس البندقيين في الاسكندرية . لا بمل أن الاتراك خفضوا الرسوم التي فرضها الماليك على الافاويه: فعددوها به ل ثم به لل بدلا من ١٠ / . كلا ، لس للاتراك اي ضلم في ازمة الافاويه التي نجمت عن ظروف اخرى . فهناك اولا حروب الحُلافة التي نشرت الحراب والدمار في امبراطررية الماليك بمد السابم من شهر آب من السنة ١٤٩٦ ، والتي استفاد منها البدر لقطع طرق القوافل . منذ السنة ١٤٩٧ ، إقفلت اسواق القاهرة لان بضائع الشرق قـــد قطعت عنها . وفي الوقت نفسه انتشرت في ايطاليا ازمة اقتصادية : فانهارت المصارف الواحد بعد الآخر في روما والبندقية . ولمل احد أسباب هذه الازمة الاموال الطائلة التي "استقرضتها" الدولة البندقية لتأمين نفقات الحرب ضد الاتراك والفرنسين . وقد يكون هنالك سبب آخر هو الحاجة المتزايدة الى النقد . فان البرتغاليين اخذوا يجمعون ذهب السودان عن طريق شاطىء أفريقيا الاطلس ، فلم يعد يصنل بانتظام إلى المتوسط كا في السابق . اضف إلى ذلك ان إلاضطرابات في مصر قد انقصت حجم الافاويه المستوردة ، وان التجار الالمان انقصوا حجم المصارف ، ولكن الاكتشافات الكبرى كانت قد ابتدأت حين برزت هذه الازمات . زد على ذلك أن البرتغاليين لم يتقدموا على طول الشاطيء الافريقي بحثًا عن الافاويه في الدرجة الاولى . فيالاضافة الى الذهب ، كانوا مجاجة الى البد العاملة ، الى عبيد ، والى المنونات لمنسوجاتهم ،



النيلج ' العظلم ' و دم التنين ﴾ و الى المواد الغذائية التي كانوا مجاجهة دائمة اليها ' القمح ' السكر السمك . ولكن نجاحات الاتراك ربما لعبت دوراً سيكولوجياً . فيبدو ان هجوم الاسلام الكبير الواسع قد و الد في كافة العالم المسيحي قلقاً مقضاً جماعهاً وزاد في تصميمه على ضرب المسلمين من الوراء .

بدأت مفامرة ما وراء الاوقيانوسات على ايدي البرتغاليين والاسبانيين . وقد دفع هـــؤلاء واولئك اليها ثلاثة بواعث : الانجيل والمجد والذهب . وهؤلاء واولئك كانوا صليبيين في الدرجة الاولى بعد صراع ضد المغاربة استغرق ثمانية قرون الاستمار هو الطريق الاوقيانوسية للحرب الصليبية . يستعد له بالصلاة ، على غرار خدمة الفروسية . و تحقق الفتوحات و كي يحارب الاسبانيون ابداً ضد غير المؤمنين واعداء ايمان المسيح المقدس و (غومارا) . فان و دياغــو فيلاسكيز ، ، حاكم كوبا ، حين زود فرناندو كورتيز بتعلياته ، عين له هـدفا اولاً من فتح المكسيك خدمة الله ونشر الايمان المسيحي . يجب ان لا يضاع اي ظرف يتيح التبشير بايمان كنيسة الله الحقيقي . هذه هي وصية فيلاسكيز الوحيدة التي لم يخل بها كورتيز قط . حمــل البيرق هذه الكلمات باللغة اللانينية : و ايها الاصدقاء ، فلنتبع الصليب ، اذا كنما مؤمنين ، فبهذه العلامة سننتصر حقا ، وان هذا الدبلوماسي الماهر قد عرض عمله اكثر من مرة الخطس بتسرعه في تحطيم اصنام الوثنيين وارغام هؤلاء على اعتناق الدين المسيحي . ولكن الحرب الصليبية كانت قد عودت المسيحيين تصور نشر الدين المسيحي بشكل الحرب وافناء غير المؤمنين الوخضاعم .

غالباً ما كان البرتغاليون والاسبانيون اشرافا رينيين واشفاء ابكار العائلات النبيلة في المناطق الفقيرة . وكان جلهم من الجنود المعتهنين . كا ان العديد من جنود جيوش الفتح الاسباني اصبحوا احراراً في اعقاب الاستيلاء على غرناطة . مثالهم هو «خوان موغولون » ، الفسارس ، ابن الفارس ، المولود في «كاسيرس» في مقاطعة » استرامادورا » ، الذي خدم في الجيوش الملكية على التوالي في ايطاليا والمغرب حيث اشترك في الجلات العسكرية واعمال الحاميات في جربا والجزائر وأسهم في فتوحات فلوريدا وفنزويلا والبيرو ووصل اخيرا الى المكسيك بعد خدمة احدى وثلاثين سنة في الجندية قضى منها اثلتين وعشرين في الهند . ولم يكن الكثيرون ايضاح سوى رعاة فقراء ويتامى واولاد عائلات فقيرة رافقوا الجنود ثم غدوا جنوداً بسدورهم . ولكنهم كلهم ادعوا وطالبوا مجمل لقب « هيدالغو » ، اي اشراف ريفيين ، وسعوا وراء عقيق مثل الفروسية . كلهم غادروا بلادهم تحركهم رغبة في تحقيق عظائم الامور . واتهسم البرتغاليون بانهم اعتقدوا بان العالم انما خلق لاجلهم وبانهم يريسدون بسط سيطرة شاملة . اما الاسبانيون ، فقد كتب عنهم مواطنهم « ميشال سرفيه » : « ان روح الاسبانيين قلقة وتسعى وراء المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه وراة المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه وراة المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه وراة المشاريم الكبرى ، النبعل نفسه ، ورفاقه كانوا محمود ، وعلى هانيبعل نفسه ،

اعظم قائد عرفته العصور القديمة . ولكن ما أسهم في احياء مثل الفروسية ، في عهد الاستعهار، هو روايات الفروسية قبل دراسة الآداب القديمة . ففي اواخر القرن الخامس عشر قــــام بعض الكتبة من جهبة بصهر الموضوعين القصصيين الكبيرين: موضوع شارلمان ورولان وموضوع روايات الطاولة المستديرة ، ومن جهة ثانية ، نشرت الطباعة هذه الروايات . فان أول كتاب مطبُّوع عن الفروسية ، في اسبانها ، طبه في فالنس في السنة ١٤٩٠ ، وهو كتاب د تيران الابيض ، الذي كان موضوعاً باللغة السكاتالونية. وترجمت عدة روايات فرنسة إلى اللغة الاسبانية وطبعت في الفترة نفسها . واخيرا احرزت قصة ﴿ اماديس غالبًا ﴾ للاسباني ﴿ مونتالغو ﴾ ؟ في السنة ١٥٠٨ ، نجاحاً قاما عرفته قصة اخرى في عصر من العصور . واتبعه المؤلف بملحق في السنة ١٥١٠ ، هو د مآثر اسبلنديان ۽ . ونشر اکثر من خمسين رواية فروسية حتى السنة ١٥٥٠ عرضت كلها على القارىء وكأنها قصص حقيقية ، دارت حوادثها ابدأ في بلدان نائبة ، في جزر مسحورة ، ملأى بالوحوش الغريبة والكنوز الاسطورية . وكان بطلهاابداً فتي شجاعاً ذكيـــــاً جميلا ينتصر وحده في النهاية على كافة الاعداء ويتغلب على كافة الصعوبات ويجمم الثروات ويتزوج من اميرة جميلة كالفجر ويصبح ملكاً.فعرفت نجاحاً منقطع النظير . ان\السفراء والقادة ورجال الدولة والامبراطور شارل الخامس نفسه كانوا ينقلون ابداً روايات فروسية بين امتعتهم . قرئت بصوت عال في الخارات ، وفي المزارع للحصادين ، وفي المسكرات للجنود . فـــكم رواية تظهر لنا محاربين بلغوا البطولة بفضل امثلة قصص الفروسية 1كان « الفاتحون » متشربين بها . وقــد جاء في تقرير « برنال دياز دل كستياو ، ، حين رأى هو ورفاق كورتيز بحيرة مكسيكو، الملاي بالجزرَ ، للمرة الاولى ، ما يلى : « ما ان رأينا كل هذه المدن الآهلة بالسكان ، في المياه ، وسكان آخرين كثيرين في اليابسة ، وتلك الطريق المستقيمة المهـــدة التي تؤدي الى مكسيكو حتى بلغت منا الدهشة كل مبلغ . فقلنا أن ذلك أشبه بالاشياء السحرية التي يرويها كتاب ﴿ أَمَادِيسَ ﴾ بسبب الابراج الكبري والابنية المنتصبة في المياه ، . وفي « مآثر اسبلنديان » ، عاد مونتالغو الى اسطورة « الامارون » ، تقودهن الملكة « كالافيا » ، كما يقول ، ويعشن في جزيرة تسدعى كالمفورنيا . هذه الجزيرة شهيرة بوفرة ذهبها وفضتها . تقم « الى بين الهند ؟ من جهة الفردوس الارضى ، . وتعنى « الى يمين الهند ، الشيال الغربي بالنسبة لاناس آتين من اوروبا . وقد جاء في تعليات د دون دياغو فيلاسكيز ، حاكم كوبا الى فرناندوكورتيز ، بتــــاريخ ٢١ تشرين الاول ١٥١٨ . في البند ٢٦ ، ما يلي : ﴿ عليكم معرفة مكان وجود الامازون اللواتي يقول عنهـــن مرافقوكم من الهنود انهن لسن ببعيدات عنهم ، . واثناء الحملة على « غريجالفا ، في « يوكاتان ، ، دون أحد الكهنة ، في شهر أيار ١٥١٨ ، ما يلي : ﴿ سَرَا وَالشَّاطَىءَ حَيْثُ صَادَفُنَا بَرْجًا جَمِيلًا جداً مشيداً على أحد الرؤوس. يقال انه مأهول بنساء يعشن دون رجال. يمتقد بانهن جلس الامازون،.وكتب كورتيز في رسالته الرابعة الى الامبراطور ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول٢٥٢٤، ما يلي : ﴿ يؤكد اسياد ولاية ﴿ سيغواتان ﴾ انهم رأوا جزيرة مأهولة كلهــــا بنساء ليس بينهن رجلٌ واحد ، وان هذه الجزيرة تقع على مسيرة عشرة أيام من ولايتهم، وان الكثيرين منهم ذهبوا

اليها ورأوها. ويقولون كذلك انها غنية جداً باللآلى، والذهب. سأسمى جهدي لمعرفة الحقيقة وارفع بها تقريراً مسهباً لجلالتكم ». واستهدفت عدة حملات بعد ذلك بلاد الامسازون. وفي اسبانيا اصبح الاشتراك في البحث عن الامازون يعطي الحق بحمل الوسام. وبموجب مرسوم صادر في حزيران ١٥٣٠ انعم الملك على الفاتح و جيرونيمو لوبيز » بترس اعترافاً منه ببسالته. وقد جاء في تعداد الحدمات التي اوردها تبريراً لهذا الامتياز وثم ذهبتم نحو الشهال بحثاً عن الامازون ». ان اسعار الخيلات بروايات الفروسية كان من ثم احسد الظروف الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس امبراطوريات شاسعة جداً ، بالنسبة لتقنيات ذاك العهد، وسعت توسيعاً مطرداً و بالسيف والبركار اكثر فأكثر واكثر فأكثر، (شعار الضابط و برناردو دي فارغاس ماشوكا »).

اما الذهب فكان الحصول عليه شغل الاوربيين الشاغل. فقد كتب برنال دياز دل كستيلوه: جثنا الى هنا كي نخدم الله والملك ، ولكننا حثنا كي نصبح أغنياء ايضاً. واطفأ التكالب على الذهب عند بعضهم كل عاطفة اخرى . فقد أجاب و فرنسوا بيزار ، راهبا اخذ عليه سرقسة الهنود واهمال تبشيرهم بالله ، بقوله : ولم آت لمثل هذه الاسباب ، انما اتبت لاستولي عسلى ذهبهم » .

جابه البرتفاليون والاسبانيون صعوبات الاستعبار في ما وراء الاوقيانوسات وتغلبوا عليها بفضل النظم الاجتاعية الموروثة عن الغرون الوسطى ، وبفضل سلسلتين مـــن الاختبارات الاستمارية : اختبارات استرداد اسبانيا واختبارات الاستمار الاوروبي في المتوسط والبحر الاسود خلال القرون الوسطى . كان الفتح مشروع توصية نهض به د الاقارب » و د الانساب » من جية ، و « المتفانون » او « المعالون » ، الى « الخلائق » من جهة ثانية . ورافق الضباط الاسبانين الذن ذهبوا الى الانتبل ، ثم الى المكسيك والبيرو ، عدد كبير من أفراد عائلاتهم بمن عاشوا في مساكنهم وعلى موائده ، خدموهم وشاركوهم مكاسب الفتح . فقد احاط به دالونسو بيرايرا ، سنة عشر شخصاً من اخوته واعمامه وابناء اعمامـــــــ اشتركوا كلهم في الاستيلاء على مكسكو . واحاط كذلك بكل هؤلاء الضباط وخلائق ، وفية يتعهدونها وتخدمهم بتفات مطلق . في البدء احيط بها القائد المام . فكورتيز كان « معال » « دياغو فيلاسكيز » اولا . ولكن « الخلائق » بدورها تعهدت « 'معاليها » . فان « الفارو دي براغامونق » قسم آوي باستمرار باين عشرة وخمسة عشرة رجلا وفر لهم سبل العيش والاسلحة والمطايا مقابل خدماتهم المنزلمة رالعسكرية . فتكونت من ثم فئات تسلسلية الدرجات قوية جداً من الاوفياءُ الخلص. توجب على كل فرَّد أن يسهم بما يستطيع الأسهام به . القائد يقدم رؤوس الأمسوال والسفن والمدافع . الآخرون يقدمون ما تسمح لهم به امكاناتهم . أما الفقراء فيقدمون سيوفهم والمـــؤن التي يحتاجون اليها في الطريق . وبعد الفتح ، يكون نصيب الفرد نسبياً لاسهامــــه . استمرت هذه الفئات الاجتاعية في المستعمرات طيلة القرنين السادس عشر والسابسع عشر . وكان نواب الملك خلائق احد اعضاء مجلس الهند. يصاون الى مراكز ولايتهم محاطين بالانسباء حتى الدرجة الخامسة. يمينونهم حكاماً ومستنطقين وقضاة. وكان لهـــولاء بدورهم خلائقهم التي يسندون اليها الوظائف. وكان لديهم بالاضافة الى ذلك اناس يؤمنون لهم القوت والسكنى مقابل مواكبتهم لهم في حلهم وترحالهم. وكانت الحاشية الكبيرة سبيلا للظهــور واثبات الوجود. فيتضح من كل ذلك ان مجتمم الموالم الجديدة قد اقتبس اعرافاً اوروبية قديمة جداً.

جرى تقامم الفنائم واستغلال المهزومين وفاقا لطرائق اقتبست عن حرب الاسترداد. فبعد انتزاع اقليم من ايدي المسلمين كان المنتصرون يتقاسمون الاراضي والحقدوق. والمقصود بالحقوق هو حتى المنتصر في فرض الجزية واعمال التسخير على المغلوبين في ارض معينة وسريطة تعهد المستفيد من هذا الحتى بالحدمة العسكرية ونشر العبادة المسيحية. وحصل المنتصرون كذلك على املاك واسعة وارقاء كثيرين ارقاء مغاربة وارقاء برتغاليين واسبانيين من معتنقي الدين الاسلامي وارقاء زنوج يبتاعونهم بواسطة المسلمين. لذلك كانت الاسلاك الواسمة الملاى بالعبيد مألوفة لدى البرتغاليين والاسبانيين قبل فتوحات ما وراء الاوقيانوسات بومن طويل. اضف الى ذلك انعدد الارقاء قد بقي مرتفعاً في اوروبا القرون الوسطى في ايطاليا وفرنسا الحنوبية واسبانيا والبرتغال. وكانوا يستوردون من المستعمرات الايطالية في البحر وفرنسا الحنوبية واسبانيا والبرتغال. وكانوا يستوردون من المستعمرات الايطالية في البحر وكان الاوروبيون قد الفوا استخدام اليد العاملة العبدية في مؤسساتهم الاستعارية في ازمير وآسيا الصغرى وفلسطين و «كريت» و «كيو «وحتى في شبه الجزيرة الايطاليسة. وشبه الجزيرة الايطاليسة. وشبه الجزيرة الايطاليسة. وشبه الجزيرة الايطاليسة.

كمساهمين في مشاريعهم ، وكانوا على اتصال دائم بها . فيتضح مـن ذلك أن أوروبا اختبرت الاستعمار منذ أمد طويل في العالم القديم فنقلت خبرتها إلى العوالم الجديدة .

ان اقصى جنوبي غربي شبه الجزيرة الاسبانية اي الشاطىء الممتد من لشبونة الى جبل طارق هو ما لعب في البدء ولمدة طويلة آلدور الاستعاري الاول . فهنا تتوفر والتعساقب الريح اللازمة لبلوغ السفن عرض البحر ، حتى موعد هبوب الرياح بين دائرتي الانقلاب ، عند انقلاب الشمس الصيفي ، والريح اللازمة للعودة الى اسبانيا في فصل الخريف . وهنا يوجد الملاحون المدرون على تسيير السفن نحو الجزر البرتغالية ، وملاحو و الفارف ، البرتغاليون وملاحسو موانىء و نيابلا ، و و بالوس ، و و مفير ، و بحارة و الوادي الكبير ، واشبيلية و و سان لوكار كاديز ، وقد استفادت هذه الموانىء الاخيرة من محور مواصلات الاندلس ومن ثروة السهل الزراعية فانتهت الى احتلال المركز الاول من الجهة الاسبانية ، كلشبونة على مصب نهرها الواسع من الجهة البرتغالية . فتأسس احتكار على اثبته القانون . . .

سار البرتفاليون والشاطىء الافريقي وفي نيتهم تغيير سيرهم نحو الشرق حالما يستطيعون الى ذلك سبيلا والاتجاه بعد ذلك شطر آسيا . اما كريستوف كولومبوس، فقد سار في السنة ١٤٩٢ باتجاه الغرب بغية بلوغ آسيا بعد دورة حول الارض . كان التعمق في درس مؤلفات المصور القديمة قد ادى بالعمل الى حدوث نهضة في الرياضيات وعلم الفلك منذ اواسط القرن الخسامس عشر . ففي « بادوا » و « فراري » والبندقية ، عند الفلورنسي توسكانلي ، وفي فيينا ، مع بورباخ (١٤٣٦ – ١٤٣١) ، وفي نورمبرغ ، مع تلميذه « ريحيو مونتانوس » (١٤٣٦ – ١٤٣٠) ، وفي « ساغر » ، بين اعضاء المجلس الذي الفه جان الثاني ملك البرتفال (١٤٨١ – ١٤٨١) والذي عمل فيه ، ماري بيهايم » من نورمبرغ ، رسخت آراء الاقسدمين حول كروية الارض . وقد ساد الاعتقاد من جهة ثانية بان آسيا غير بعيدة من جهة الغرب بسبب خطال ارتكبه بطليموس في تمديد المتوسط بالاتجاء الشرقي الغربي وتقدير طوله بستين درجة . فحسب الناس ان آسيا توجد حيث تقع اميركا . وقد انتشرت هذه الآراء وعمت . فاستطاع كولومبوس الاتفاق مع بعض البحارة ، الاخوة (بنزون) ، الذين كانوا قد فكروا بدورهم بمشروع بلوغ آسا من جهة الغرب .

منذ هذا التاريخ ، وحتى إلقرن التاسع عشر ، اعتمدت اوروبا على البحر في الدرجة الاولى للاتصال حتى ببلدان العالم القديم . ولا غرو فان القوة اللازمة لنقل الوزن نفسه هي بنسبة ، في البحر لـ ٣٥ في البر . فالبحر حر وخال من جميع العوائق ، كالاحراج والمستنقعات والصحاري والجبال العالية واعتداءات السكان ، التي تزيد كلها من مشقة وخطر الاستكشافات والاسفار البرية .

م الاوروبية وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافـات البحرية الطويلة في وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافـات البحرية الطويلة في ثلاثة مراكز: مركز الزورق المصنوع من جذع شجر مجوف والمزود برقـاص (بين جزيرة مدغشقر وجزيرة الفصح) ، ومركز السفينة الشراعية المستوية القمر (في بحار الشرق الاقصى) ومركز السفينة ذات الحيزوم (في بحار اوروبا). ولكن منطقة الزورق ذي الرقاص قـــد افتقرت الى الحامات والحركة التجارية فحال ذلك دون تقدمها. زد على ذلك من جهة ثانية ان الزورق ذا الرقاص لم يكن قادراً على السير بمنة ويسرة القاومة الربح. واذا ما استثنينا المساحلة بين جزيرة واخرى ، التي قد تفطي مسافات طويلة على كل حال، فان فائدة هذا الزورق تنحصر في الهرب على غير هدى امام خطر كبير ، دون امل بالعودة .

كانت السفينة الشراعية المستوية القمر قادرة على قطع المسافــــــات الطويلة . فقبل وصول الاوروبيين بحراً ، بلغت اساطيل الدولة الصينية ، بين السنة ١٤٠٣ والسنة ١٤٣١ ، الجزيرة العربية ومضيق أورموز . ولكن طاقة حضارات الشرق الاقصى على التوسع والانتشار كانت محدودة وضئيلة لاسباب اجتماعية ودينية . في اواخر القرن الخامس عشر ، طرأ على التحارة الصينية تقهقر ملموس . اما السفينة الشراعية نفسها فلم تخل من مساوىء كبرى . فقبل وصول (فاسكو دي غاما) (١٤٩٨) و « البوكرك ، (١٤٠٣) ، كان الصينيون لا يزالون يستعملون دفة أشبة بالمجذاف . لذلك لم تتمكن من المياه ، وكانت ادارتها عملا شاقاً ، فقدر للسفينية ان تبقى صغيرة وان لا تسير بالاشرعة الا اذا دفعتها الرياح من الوراء . فاقتصر عملها على المساحلة وعلى الرحلات المباشرة ، بغضل الرياح الموسمية الشتوية ، بين الصين وجزر والسوند ، ، ويفضل الرياح الموسمية الصيفية بين والسوند، والشواطىء الصينية . وحين شاهدالصدون الدفه الحورية الأوروبية ذات المفصلة المعدنية ، حاولو النسج على منوالها . ولكن تأخر صناعتهم الممدنيــة لم يتح لهم استعمال المفصلة . فارغموا على الاكتفاء بدفة محورية ذات مدار خشي هي دون الدف ذات المفصلة بسبب احتكاك الخشب بالخشب وهشاشتها النسبية . الا ان حجم السفينة الثهراعية قد تضخم. فبلغ محمول السفن التجارية ١٢٠٠ طنة مع أربعة الى سنة صوار و ١٠٠ الى ٢٢٥ مجاراً و ٢٠٠ الى ٤٠٠ مسافر . وتمكن الصينيون ، اكثر من السابق ، من الاستفادة من سهولات قيادتها ﴾ قان قمرها المستوى يتبح لها الدوران كالخذروف ، ودخولها المحدود في المساء مناسِّب جداً على مقربة من مصاب أنهر الشرق الاقصى واشرعتها الحصيرية المركبة على عوارض خيزرانية افقية متعاقبة سهة التحريك على غرار مصاريع النوافذ المتحركة ؛ ومن السهل كذلك تضييق وتوسيع مساحتها برفع او خفض الدوقل العلوى فقط لان العوارض بستقر بمضهسا على البعض الآخر على التوالي اذا خفض الدوقل فلا تدفع الريب اذ ذاك سوى القسم العلوي من الشراع ؟ يضاف الى ذلك اخيراً أن هذا الشراع المشدود الملتصق بالصارى يتجه من ذاته حين الشراعية ، بسبب اشكالها المسطحة التي جعلتها تزيغ عن طريقها ، وبسبب صعوبة استعال دفتها التي كان يقتضي لتحريكها بين ستة وثمانية ملاحين ، وبسبب ضعفها مسن جراء تكرر انقطاع ردنها ، قد بقيت في الدرجه الاولى سفينة تسير بالربح الهابة على اشرعتها من الوراء ، كا بقي استخدامها محصوراً في مناطق الرباح الموسمية ولا سيا في الشرق الاقصى .

هي السفينة الاوروبية وحدها ما توجهت الى كل مكان . فقد كان للدفعة المحورية ذات المفصَّلة ، التي ابتكرت في القرن الثالث عشر ، اثرها العظيم في الماء بفضل مساحتها العريضة . كما أن ذراع الراقعة من جهة مدير الدفة قد ضاعف قوة الرجل ، وقسد عرف الاوروبيون ؛ خلال القرن السابع عشر ؛ كيف يركبون الملفاف على الدفة التي زودت منذئذ بدولاب سهل الادارة . غدت قياسات الدفة غير محدودة فازدادت قياسات السفن والاشرعة حين توفر الخشب لذلك . وابتكر البرتغـاليون ، في القرن الخامس عشر في الارجح ، السفينة المزودة بعد"ة مزدوجة : اشرعة مربعة للربح الهابة من الوراء ، واشرعة لاثينية لمقاومة الربح المماكسة ، وهي عدة اتاحت اجتياز الرياح ألهابة بين دائرتي الانقلاب من الشهال الى الجنوب ومن الجنوب ألى الشال . اضف الى ذلك أن حيزوم السفن واشكالها الدقيقة قد اتاحت لهــــا مقاومة التهور والحيدان عن الطريق ، والسير بالتالي بمنة ويسرى في اقرب اتجاه الى اتجاه الريح المماكسة . سار كولومبوس باتجاه يؤلف مع اتجاه الربح ٢٧٠٥ درجة . فكان بمقدوره ، اذا ما سار على التوالي يمنة ويسسرى ان يجتاز الربح المماكسة . وقد تمتعت هذه السفينة ، حيال الربح ، باستقلال يوازي استقلال السفن الشراعية الكبرى في المقرن التاسع عشر . وكان طبيمياً ان تدور بصعوبة ولكنها كانت تـــدور بأمان وبسهولة . فتطورت السفينة الشراعية الاوروبية وفاقاً لهذه المميزات . واعتمدت في النهاية الاشرعة المربعة لان الدفة واشكال السفينة قد اتاحت السير في اقرب اتجاه الى اتجاه الربح المعاكسة ، ودونما صعوبة تذكر . حمل كل من الصاري الامامي والصاري الكبير من اسفل الى أعلى ، شراعاً منخفضاً ، وسطحاً مستديراً ، وشراعاً مربعاً . واحتفظ صارى مؤخر المركب بشراع لاتيني تسهيلا الدحركة . وحمل الصاري الكبسير الماثل على مقدم السفينة شواعين . وكان هذان الاخيران مع شراع صاري المؤخر يساعــــدان على تدوير السفينة كما لو كان ذلك بحركة رافعـة . اما الكُوثل ، الذي كان مربعًا في اوائل القرن السادس عشر ، فقد استدار اسفله منذ السنة ١٦٣٥ في انكلترا ، ومنذ السنة ١٦٧٣ في فرنسا، الدرادير ويزيد من مقاومة المياه . فسيطرت السفينة الاوربية على البحار ، وفي القرن السابع عشريات المركب المثلث الصوارى ملك الاوقبانوسات .

ان الاوروبيين وحدهم عرفوا كيف يحددون ، بضبط كاف ، نقطة مسألة تحديد المحمان الانطلاق والاتجاه الذي يسيرون فيه ونقطة وجودهم في وقت معين في عرض البحر ، ونقطة الوصول ، وكيف يعطون هذه المعارف قيمة شاملة بنقلها من جيسل

الى جيل بأساليب كانت في متناول عقل كل انسان . لم يستخدم الصينيون البوصلة بل استرشدوا النجوم . وهكذا فعل البولينيزيون الذين تميزوا ، بالاضافة الى ذلك ، بتلك الفطرة البدائية الفريبة الفامضة التي استطاعوا بفضلها ، في مجارهم ، ان يسيروا في الاتجاه المقصود دون ان يروا اي شاطىء . ولكن الاساليب بقيت اختبارية ، ذات قيمة محلية فقط ، غير محسدة وصعبة النقل الى الاجيال اللاحقة .

ووجهت مسائل الملاحة أول ما ووجهت حين تخطئي خط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، فتعذرت الاستفادة من النجم القطبي لتعيين المرض ، اي المسافة بالنسبة الى خط الاستواء ، ثم حين بلغ و برتلي دياز ، في السنة ١٤٨٦ ، خط المرض الجنوبي ٢٦ ، اثناء سيره بمعاذاة الشاطىء الافريقي ، فحاد عينه لتجنب الارياح والتيارات المماكسة ، وامتطى عرض البحر عدة ايام فنبهته حالة البحر والجو الخاصة الى انه لم يعد في حمى افريقيا ، فصعد نحو الشبال بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح دون ان يراه ، واعطى بذلك اول مثل اكيد لامتطاء عرض البحر في التاريخ المعاصر .

الاساليب في اواخر اعتمد الربابنة ، في ملاحتهم ، « على التقدير » في الدرجــة الاولى ، القرن الخسامس عشر للمرفة الطريق التي قطعوها والنقطة التي بلغوها . وقد قدروا سرعة ممنطة مركزة على عوَّامة في حوض مليء بالماء . ولمعرفة مكان وجودهم ، جمعوا بسين الدلالات السابقة . ورسموا على الخرائط وطرقاً وابعاداً ، تتبيح لهم معرفة العرض والطول . ولكن الدلالات كانت تقريبة ، بسبب الانحراف المكن عن الاتجاه المسين ، فكان الاساوب غير ذي جدوى للرحلات الطويسلة . فرسم الربابنة في هذه الحسالة على الحرائط و طرقساً وارتفاعات ، وخطوط عرض وحسبوا كل يرم نقطة وجود المركب على خطوط العرض . كان هذا الاسلوب معروفًا منذ العصور القديمة في نصف الكرة الشالي . والمفروض هو أن يكون النجيم القطبي في سمت الرأس (٩٠ درجــة) بالنسبة لمراقب يشاهده من القطب ، وبمستوى الافتى بالنسبة لمراقب يشاهده من خط الاستواء . . فيكفي من ثم تحديد الزاوية التي يؤلفها مع الأفق الحط الذي يصل عين المراقب بالنجم القطبي لمعرفة العرض. واستخدم الربابنـــة و الاسطرلاب، وهو دائرة مقسمة الى ٣٦٠ درجة ومزودة بمضمادة متحركة ينتقل احد لهرفيها فوق التداريج ، وبصفيحتين عموديتين مثبتلسين في كل من طرفي المضادة فتحت فيهما خلسية لتصويب النظر . اما و الربع البحري ، الذي استخدم منذ النصف الثاني من القرن بلغت بين ٤ و ٥ درجات . لذلك استخدم و القوس ، الذي ابتكر في الةرن الرابع عشر ، وهو سهم خشبي مدر ج يتزحلق عليه عدد من المطارق ويصوب النظر بواسطته الى النجم القطبي. فتراوحت نسبة الحطأ بفضله بين ١٢ و١٥ دقيقة فقط . الا ان الربابنة ، بالاضافة ألى اخطاء التصويب بسبب حركات المركب ، قد اهملوا اصلاح المحراف الاشعة .

ما ان تجاوز البحارة خط الاستواء حتى تلبكوا ووقعوا في حسيرة. اختفى النجم القطبي عن الانظار. فمين ملك البرتفال ، جان الثاني ، بجلساً ضم اليه فلكياً من نورمبرغ هو مارتن بيهايم (١٤٥٠ – ١٥٠٧). سافر هذا الاخير حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ١٠ من المرض الجنوبي. اتقن المجلس طريقة تعيين العرض بالارتفاع الزاوي الشمس فوق خط الاستواء السهاوي في اعلى منحناه الظاهر عند نصف النهار. ولكن هذا الارتفاع يختلف باختلاف الفصول في كل نقطة من مساحة الارض خارج خط الاستواء. فتوجب من ثم تزويد البحارة الجداول المحراف حسب عليها مسبقاً ارتفاع الشمس الزاوي ، في كل عرض ، وفي كل يوم من الهم السنة. وضع المجلس هذه الجداول فبات محكناً استثناف السير قدماً ،

وبفضل ممرفة العرض والاتجاه والمسافة المقطوعة المقدرة على اساس السرعية استطاع الربابنة استدلال الطول . ولكن نسبة الخطأ كانت كبيرة جداً . لذلك بجثوا عن تقدير الطول الربابنة استدلال الطول بين مكانين الساعات . ان فرق الطول بين مكانين يساوي ١٥ درجة في الساعة و١٥ دقيقة من القوس في الدقيقة و١٥ ثانية من القوس في الثانية . ولكنهم افتقروا الى وسيلة عملية لحساب فرق الساعة بين مكان وجودهم ونقطة انطلاقهم . و يخامرنا الشك في ان يتوصل شيطان الى صناعة ساعة تفي بالحاجة ، استخدموا الساعات الرملية المقدرة لـ ٢٤ ساعة التي كانوا يقلبونها رأساً على عقب طيلة الرحلة رغبية في المحافظة على ساعة الانطلاق ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تساقط الرمل في المحافظة على ساعة الانطلاق ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تقلبات الساعة جهاز غير دقيق . وكان سهلا ك في رحلة طويلة ، ان يحصل خطاً في احصاء تقلبات الساعة المتعاقبة ، ولكن جهل الربابنة الذي اثار كريستوف كولومبوس وامريكو فسبوشي ، لم يوصلهم الى حلول اخرى . فبلغ خطأه ٢٠ درجة تقريباً محسب تقدير كولومبوس ؟ اي ما دناه: ٥٠٠ عقدة

حاول دياز وكولومبس وفسبوشي استخدام الطرائق القمرية وطرائق مقارنة السيارات. في ١٣ كانون الثانى ١٤٩٣، بحث كولومبوس في هايتي عن ميناء امين يراقب منه مقارنة الشمس والقمر. فاذا عرفت في زمان ومكان معينين ساعة اخفاء القمر لنجم معين ، يكفي مراقبة الاخفاء في مكان آخر يبلغه البحار وتعيين ساعة حدوثه ، فيكون الفرق بسين ساعتي المراقبة على الارض لظاهرة فلكية واحدة هو الفرق بين خطي الطول. واستخدمت بالشكل نفسه الكسوفات والخسوفات وكافة المقارئات او اللقاءات الظاهرة بين النجوم. في ٢٣ آب ١٤٩٩ ، راقب فسبوشي لقاء القمر الظاهر بالمريخ الذي انبأ و ريجيومونتانوس » بعدوثه في نصف الليل بالضبط في نورمبرغ. فوجد القمر على بعد ه ، ه درجات الى الشرق من المريخ عند يصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستلتج من المريخ عند يصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستلتج من ذلك انه على خط الطول الغربي ه ٢٠٨٠. واستخدم دياز وكولومبوس وفسبوشي و تقويم،

وريحيومونتانوس ، بين السنة ١٤٧٥ والسنة ١٥٠٦ ، و ورزنامة الكسوفات والحسوفات بين السنة ١٤٨٣ والسنة ١٥٧٠ ، وكانا واسمي الانتشار في الأوساط الاسبانية والبرتفالية . ولكن الاخطاء لم تكن نادرة في تقدير بداية الظواهر ونهايتها ، الكسوفات والحسوفات ، الاخفاءات ، وفي تحديد مكان النجوم الصحيح بالاستناد الى ميلها وعمودها المستقيم . وقد بلفت هذه الاخطاء ٢٤ دقيقة احياناً ، مع العلم ان خطأ غشر دقائق في محسل القمر يؤدي الى خطأ ه درجات في الطول او ١٠٠ عقدة .

النجاحات الحققة . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق

عليه اسم و لوك ، وصف للمرة الاولى في السنة ١٥٧٧ ، واضيف بعد السنة ١٦٢٠ الى كافة المؤلفات التي تبحث في الملاحة . واللوك حبل مجهز بعقد متساوية المسافات ومنته بلوحة سنديانية مثقلة بالرصاص ومزودة بعوامة . تلقى اللوحة في البحر ، فتستقر في مكانها تقريباً ، وينحل الحبل وتمر العقد بين اصابع الربان . اما المسافة بين عقدتين فتوازي جزءاً من ١٢٠ من الميل البحري . فالعقد التي تمر بين اصابع الربان في ٣٠ ثانية ، يقابلها عدد مواز من الاميال البحرية في الساعة . ولكن كان يقتضي معرفة طول الدقيقة في دائرة الارض الكبرى لتحديد الميل وتحويل المسافة المقطوعة الى احداثيات هندسية . منذ السنة ١٦٣٣ ، وجد ومور وود ، للميل قياساً يوازي ١٨٦٦،٢٦٦ م واقترح ان يكون طول العقدة ١٥ قدما . ولكن البحارة تمسكوا بعقدة ال ٢٤ قدما ، اي ١٥٤٠ متراً لكل دقيقة من دائرة العرض ولكن البحارة تمسكوا بعقدة ال المابسة : اذ ان البقاء على مسافة ٢٠ عقدة من المكان الذي يعتقد الملاح انه بلغه ، افضل من الوصول الى مرمى المدفع من بعده .

وفي سبيل التوصل الى معرفة الاتجاه ، استبدلت الابرة المعنطة ، المترجرجة ابداً بفعل حركات السفينة ، ببركار الطريق ، وهو ابرة بشكل معين على كثير من الاطالة مركبة على جذع فولاذي هو لها بمثابة المسدار ، تدور فوق دائرة ارياح عينت عليها مساحات محدودة للارياح تتخللها الاشارة الى الاتجاهات ، وسبق لكولومبوس ان اكتشف في ١٢ ايلول ١٤٩٢ انحراف الحراف الابرة الممفنطة ، فان هذا الانحراف قد اتجه نحو الشهال الشرقي بعد ان اتجه نحو الشهال الفربي ، وهنالك خط انعدم فيه الانحراف يقع على مئة عقسدة الى الغرب من جزر الأسور ، ولكن سواد الملاحين انكروا واقع هذا الانحراف حتى في القرن السابع عشر .

"سسب العرض بسهولة كبرى بفضل قوس « دايفز » ، وهو جزء من الربع البحري ، الذي وصف شكله الاول في السنة ١٥٩٤ والذي استعمل بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر ، ولكن حساب الطول قد بقي شغل البحارة الشاغل ، مع ان كسوفات الاقار التابعة لجوبتير قد أتاحت التوصل الى مزيد من الدقة . فان مراقبة تواريها في ظل النجم السيار وحروجها من هذا الظل ، اذا ما قورنت بمطيات جدول الانباء ، تعطي مباشرة فرق الساعة المطلوب .

استخدم بصورة خاصة بعد نشر تقويم وكسيني» (١٦٦٨). الا ان الحل الحقيقي الذي لم يتوصل احد اليه كان في اكتشاف مقياس الزمان. منذ السنة ١٥٣٠ وصف و غامسا الفريزي و الساعات التي يسهل نقلها واشار و راي و بساعات ذات زنبرك عرك ومنفذ يزود بسدولاب التقاء. وكان و بارنتز و اول بحار استخدمها في رحلته الى زيلندا الجديدة (١٥٩٦). ولكن هذه الساعات كانت سريمة التعطل، في السنة ١٦٦٤ سلم و هويغنس و ساعتين الى المساجور و هولمس و الذي توفق الى تقديرات محدودة الاخطاء على الشاطىء الافريقي. وحذا حذو هذا الاخير الاسطول الفرنسي المرسل الى و كنديا و في السنة ١٦٦٩. ولكن النتائج كانت هدفسا للاعتراض والانكار، فبقيت المسألة بدون حل طية القرن السابم عشر.

ازدري الربابنة باعمال الفلكيين وتابعوا الملاحة وعلى التقدير ، . فان النتائج المشكوك فيها التي حققتها الاساليب العلمية قد ساعدت على استمرار الثقة في الطول المقدّر الذي اعتبر وكأنسه الطول فحسب . فقد كتب الاب فورنييه ، مؤلف كتاب شهير في علم المياه السطحية (١٦٤٣)، ما يلي : و في السنة ١٦٣٥ بالغات ، وصل الى و دبيب ، مركب كان قيد ارسل الى جزيرة و موريس ، التي تبعد اكثر من ١٣٠٠ عقدة والتي بلغها الربان دون ان يضل الطريق ؟ مم انه لم يذهب اليها قط من قبل . واني اشك كثيرا في أن يقدم أولئك الذن يثقون بعملياتهم الفلكية على مثل هذه الرحلات ، مع ما لديهم من ادوات » . اجل لقد بلغ الربانية اهدافهم ، ولكنهم بلغوها بعد جهد وثلس وتردد . كانت الخرائط الموضوعة ملأى بالاخطاء . وبلغ الخطب في خريطة المالم التي وضمها ﴿ اورتليوس ﴾ في السنة ١٥٨٧ ؟ سبعة عشر درجة في الفرق بين طول لندن وشنغاي.. وجاءت الشواطىء في خريطة فرنسا التي وضمها ﴿ سَانَسُونَ ﴾ في السنة ١٦٧٩ مهندس الملك ، الى « شيلي » ، فحدد الطول الغربي لمضيق « لومير ، بـ ١١٥٣٥ درجـة بدلا من ٣٠و٣٠ درجة ، وعين المسافة بين هذا المضيق ورأس و هورن ، بخمسين عقــدة بدلاً من ٣٠ . وكانت نتيجة هذه الاخطاء ان عنت امكنة عدة على العرض الواحد للجزر الصفارة المنعزلة . توجب اتخاذ الاحتياطات لبلوغ الشاطيء أيقاف المراكب بواسطة القلوع ، وقداس عمق البحر، واطلاق نيران المدافع في الضباب لتقدير المسافة بالاستناد الى الصدى . فهدر وقت كثير ، ولم يمل كل ذلك دون حوادث غرق السغن . في السنة ١٦٨٦ ، غرقت عند الشواطيء الافريقسية السفينة البرتفالية المقلة الوفد السياحي الى البرتغال ، بينا اعتبر القيطان انه تجاوز رأس الرجساء الصالح وبأت بعيداً في عرض البحر . وكان من بعد مسافة المكان الذي حصل فيه الحادث على الشاطك، الشرقي الى الرأس ان توجب على الناجين من الغرق السير غربا مد"ة ٣١ يرما على طول الشاطىء قبل ان يبلغوه .

حلت مسائل الملاحة هندسيا على كرة › كتلك الكرة الشهيرة التي جاء بهسا الكرات والخرائط ومارتن بيهايم ، الى نورمبرغ (١٤٩١) ، وهي نسنخة عما وضمه بطليموس اضيفت اليها معلومات ماركو بولو حول آسا ومعلومات البرتفالين حول افريقيا ، او ككرة

مركانور (1051) . ولكن الملايمة الواحدة في كرة شعاعها ٢٠ سنتيمة ا ؛ يعادل ١١٥٥ ميلا في الواقع . فيات لزاما رسم خرائط ، هي ادوات حساب ؛ لايجاد الحل البياني لمسائل التقدير . فاستخدمت حتى القرن الثامن عشر ، خرائط موضوعة على مسطحات رسمت عليها خطوط عرض وخطوط طول مستقيمة متساوية البعد . وكانت فائدتها ان مسيرة المراكب المنحنية كانت ممثلة بخط مستقيم . اما مساوئها فان كل خط عرض كان له مقياسه الخاص وان الخريطسة لم تحتفظ لا بالمسافات ولا بالزوايا . فكلها اجتاز قوس الدائرة الكبرى التي ترسمها طريق المركب خط طول جديد ، ألتف زاوية مختلفة . فكان لزاما حساب هذه الزوايا المختلفة مسبقا للتمكن من توجيه السفينة وفاقا لقوس الدائرة الواصل بين نقطة الانطلاق والنقطة المقصودة ، وإذا المحرفت من قريطة تحتفظ بالزوايا .

نشر مركاتور في السنة ١٥٦٩ خربطته الاولى التي رسمها بعد مجث وتردد على مسقط مركاتور الكرة . ازدادت المسافات بين خطوط المرض ازدياداً مطرداً نحو الشهال ٢ ولكن مركاتور جهل قاعدة تدريج خط الطول وتوسيم خطوط المرض في كل نقطة من خط الطول . تأمل وادوارد رايت، في خريطة سابقة وعرض في السنة ١٥٩٩ نظرية المسقط الممروفة الاخيرة بكل نقطة من الاسطوانة . فتكون خطوط الطول الخطوط المستقمة المتوازية العمودية بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط العرض الخطوط المستقمة الموازية لخط الاستواء . ولمساكان الكبرى للطول الاصلى لخط العرض هذا . وازدادت المسافة باطراد بين خطوط العرض وفاقـــــا لقاعدة ممروفة . ففي كل نقطة يكبر الطول والمرض والممنات بنسبة واحدة وتحتفظ الخريطة من ثم بالزوايا وبالوضع الخاص لكل مكان بالنسبة لغيره . والمسيرات خطوط مستقيمة تقطع كل خطوط الطول مكونة ممها زاوية واحدة لان نسبة خط الطول لخط المرض في كل نقطــــة هي النسبة نفسها بينها على الارض . ووضع د رايت ، بالاضافة الى ذلك ، لكل معين ، جسداول تبين عرض نقاط تقاطم المين وخطوط الطول المتوالية. الا أن الربابنة لم يميروا هذه التحسينات اهتياما كسرا.

لم يحرز رسم الياب سوى تقدم بطيء . فالمنشورات حول الاسفار قد افتقرت تقدم الجنوافيا الى الدقة والوضوح ، وقد حدث احياناً ان ظهرت بعد تحريرها بزمن طويل فلم تلفت الانتباه دائماً . ان رواية رحمة كولمبوس الاولى (شباط ١٤٩٣) التي ترجمت الى اللاتينية وطبعت في رومها ، وبال (١٤٩٤) ، وستراسبورغ (١٤٩٧) ، ودخلت فرنسا والمناطق المنخفضة ، قد بقيت شبه مجهولة تقريباً ، في جال ان احمدى رسائل و امريكو فسبوشي ، حول رحلته الثالثة (١٣ ايار ١٥٠١ حتى ٧ ايلول ١٥٠٢) ، التي نشرت في باريس

ثم في ستراسبورغ في السنة ١٥٠٥ ، عرفت اوسع انتشار بين روايات الاسفار. في السنة ١٥٠٧ ، اوعز د وولد سيمولر ، ، في أعقاب ظهور كتابه « علم الفلك ، ، بطبع روايات اسفار امريكو فسبوشي الاربع وباعتاد اسم امريكا للاراضي الجديدة .

الا ان سلطة بطليموس قد اخرت التقدم . فعلى الرغم من ان البحارة قد أثبتوا ان خسط الاستواء يمر في البحر جنوبي غينيا ، عنيد وولد سيمولر و و شونر ، وغير هما في احلال غينيا ، جنوبي خط الاستواء لأن بطليموس ، الذي جهل خليج غينيا ، قد أصل خط الاستواء في البر . وكان هنالك شبه قطيعة بين البحارة الممتهنين والعلماء . ولم يسلم هؤلاء الا تدريجياً بقيمة مساشعده البحارة بأم عينهم .

وأعاقت سلطة الدولة بدورها انتشار الممارف . فقد ... دغب الامراء في حفظ سر الاكتشافات . وقد حظر في البرتغال ، تحت طائلة الاعدام ، كشف النقاب عن الخرائط التي وضمها رواد العوالم الجديدة . وحتى في البر الاوروبي ، عدارس منتخب ساكس ، و جات فردريك ، نشر خريطة للساكس . وكان من الضروري ، لمسلحة الدفاع ، ان يبقى علم وضع الحزائط سلاحاً سريا في ايدي الامراء . ولكن الحكومات المدوة قد لجدات الى الرشوة واستحصلت على الخرائط بمبالغ طائلة ، وكان البحارة الايطاليون الذين ينتقلون من خدمة دولة الى خدمة اخرى ، ينقلون خرائطهم معهم .

يضاف الى ذلك أخيرا ان التعليم الذي اعتسد في جوهره على تنسير مؤلف مكرس مقرر كه و مجمث في الكرة ، له و ساكرو بوسكو ، ، الذي سرر في القرن الثاني عشر، او و النظريات الجديدة في السيارات ، له و بويرباخ ، (١٤٦٠) ، قد تسبب في نوع من الشلل .

بيد أن الاكتشافات قد ذاع خبرها ، فني السنة ١٥١٣ الكر و سترفار » في محاضرات التدريسية التي القاها في و تربنجن » ، وجود منطقة حارة يستحيل اجتيازها ، واكد استدارة الارض وواقع التقابل بين جهات الارض ، باسم اختبار البحارة ، وبمد الرحلة الدائرية التي قام بها و ماجلان » و و سيبستيان دل كانو » مرورا بمضيق ماجلان » والفيليبين » حيث قتل ماجلان » ورأس الرجاء الصالح (١٥١٩ - ١٥٢٢) ، اظهرت الكرات التي صنعها شوتر في السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٣٣ ، قارة اميركية مغلوطا في رسمها ، ولكنها متميزة عن آسيا .

انطار الاسفار البحرية تحلى الرسال الذين القوا بانفسهم في البحار ببسالة نادرة جداً . فقد شاعت روايات مرعبة كثيرة : عند خط الاستواء توجد منطقة مياه غاليسة ، وسجارة مغناطيسية تجتذب السفن الى قمر البحار ، وسيوانات مخيفة غريبة تارسسد السفن والبحارة . أجل لقد خفت وطأة الذعر مع الاختبار ، ولكن الاخطار الحقيقية قد بقيت : المواصف ، والامواج الماتية التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع مسكن مؤلف من ست طبقات في رأس الرجاء الصالح وتهدد بابتلاع السفن الحشبية الصغيرة ، واخطار الجماعات في اسفار بحرية خسير

التفلفل بعيداً في افريقيا السوداء. وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الفابات في الفينيه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضخمة على الوثنيسة ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد النوابل والافاريه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحمل دعاة الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، ان تعرضت مصالحهم التجارية للاذى والحسارة ، المحؤول منهم دون تغلفل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي ألتفت الحصن الامامي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكبوديا ، راح المسلمون من الملاير بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم ، يزاحون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتفاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتفاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخسة عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخسامس عشر كان الدرويش على اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا بسه من نفوذ . فقد كتب ما يلي : و تدل بعض تصرفسات الامسبراطور على انه اعتنق الاسلام سرا الاانه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتع الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حق ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبيرة من رعايا الشعوب التي على امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً محترماً من الاوروبيسين نزحوا ليقيموا بين المسلمين ، في السلطنة المثانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٨ – ١٩٤٨ اسلاميسة بكامل سكانهسا ، في مقاطعة رودرب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبيه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كامرا يقبساون على الاسلام بعشرات الآلوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كاموا يمتنقون الاسلام وينصرفون الميش بين المسلمين . فالحاميات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقليسة وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تفص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كاموا مرشحين لاعتناق والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تفص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كاموا مرشحين لاعتناق

الكتاب الأول

أوروب والعالم القديم

ولنصل ولاؤول

الحضارات البلدية عندقدوم الأوروبيين

تحقق الفتح الاوروبي على ابدي اعداد قليلة من الرجال . ويرد ذلك الى ان الاوروبيين قد وجدوا امامهم شعوبا ما زالت في مختلف مراحل العصر النيوليق وعصر النحاس واوائل عصر الشبه وافتقرت افتقاراً يكاد يكون كليا الى الحيوانات الاليفة ، ولا سيا الى حيوانات الركوب والجر ونقل الاحمال ، وافتقاراً كليا الى العجلة والحديد . انتسبت هذه الشعوب كلها الى الجنس المعروف بالجنس المغولي والمتيز ببشرة متفاوتة الصفرة ووجنات ناتشة وشعر اسود واملس . ويغلب على الظن ان هذه الشعوب متأصلة من العالمين الماليزي والبولينيزي في آسيا ، وقد انتقلت منها الى اميركا ، كما نرجح ، عن طريق مضيق و بهرينغ ، والجزر الاليوسية ، واوستراليا والقطب الجنوبي ، في عهد غير معروف ، قبل العهد الميلادي . وكانت قلة عند قدوم الاوروبيين لا يتجاوز عددها الحسين مليونا في كل القارة الامركية ، وقد توزعت على غير تساو في مناطق القارة المختلفة . وكانت قد بلغت مستويات حضارية على كثير من التفاوت . ففي الوسط ، اي الارض وعاشوا من الزراعة واسسوا المدن . اما الى الشرق من جبال و اندس ، والى الشمال من في المكسك ، فقد عاشت قبائل من القناصين والقطافين والصيادين عيشة بدوية ومارست احيانا زراعية بدائية متناثرة جدا : ولعل سكان اميركا كلهسا ، الى الشال من نهر و ربو غرانده دل نورته ، لم يتجاوزوا خسمائة الف نسمة . وجلى ان النتائيج الشال من نهر و ربو غرانده دل نورته ، لم يتجاوزوا خسمائة الف نسمة . وجلى ان النتائيج الشال من نهر و ربو غرانده دل نورته ، لم يتجاوزوا خسمائة الف نسمة . وجلى ان النتائيج

جاءت مختلفة جداً. ففي الوسط وفي جبال (اندس) وجل الاسبانيون محل الطبقة الحاكمة ونشأت حضارة مختلطة سيطر عليها الطابع الاوروبي وفي الشهال رفض البلديون مبدأ الانصهار واعلنوا على الاوروبيين حربا شعواء لا هوادة فيها في جزر الانتيل والى الشرق من جبال اندس تعرضوا خلالها للتقتيل والافناء فلجأوا الى الغابات العميقة النائية. الحضارات الاميركية عديدة جداً وتاريخها متطاول في الزمان . ولكننا لن نتكلم هنا ، وبايجاز ، الاعن اهم هذه الحضارات عند حدوث الفتح .

١ - حضارات العهد النيوليتي

في البدء وجد الاسبانيون في جزر الانتيل منذ السنة ١٤٩٢ ، ثم في اليابسة بين نهر «داريين» ومصب الاورينوك منذ السنة ١٤٩٦ ، والبرتغاليون في البرازيل منذ السنة ١٥٠٣ ، والفرنسيون في كندا منذ السنة ١٥٠٣ ، والانكليز، امام شعوب مستوياتها التقنية متدنية جداً تقابل مراحل تخطاها الاوروبيون منذ زمن بعيد ؛ لا نستطيع تعدادها كلها والتعمق في درسها . بل نكتفي بتقديم بعض الامثلة فقط .

في اسفل مستويات سلم التقنيات ، نجد شعوباً لا تتماطى سوى القنص الالفونكيليون والصيد ، كالالفونكيليين ، او الشعوب التى تتكلم الالفونكيلية . تقسمت هذه الشعوب الى فروع عدة . ففي اكاديا ، وفي ما يعرف اليوم بد و برونسويك الجديدة ، ، انتشر الد و واناباكي ، : و ميكماك ، ، و ابيناكي ، ، و ماليسيت ، ، و باساكوامودي ، و بينوبسكوت ، ، و فوفنوك ، ؛ وفي لابرادور : و مونتانييه ، ، و وناسكابي ، ؤ وبين نهسر و سان لوران ، والبحيرات الكبرى : و الالفونكيليون ، بحصر الاسم ؛ في شهال البحيرة المليا : و اوجبوا ، ؛ في جنوبي خليج هدسون : و كرييه ، وحين دخل و جاك كارتيه ، في السنة و اوجبوا ، ؛ في جنوبي خليج هدسون : و كرييه ، وحين دخل و جاك كارتيه ، في السنة وغين مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل وغن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل وغن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل الفراء ومراسلات الضباط الملكيين الادارية .

باستطاعتنا ان نقدم المسكماك مشد عن الالغونكينين . استقروا في اكاديا حتى رأس و غاسبيزيا ، وفي الارض الجديدة ، ولا سيا في المنطقة المحيطة به و خليج الفرنسيين » (خليج و فوندي ») . اوصلتهم رحلات القنص والصيد والتجارة الى وعادوساك على نهر وسان لوران » . وقد وجدوا في جزيرة و التيكوسي » ايضا ، وغالباً ما صمدوا في حملاتهم على طول شواطى ، لابرادور . تراوح عددهم بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ في الارجح . اقاموا في منطقة بحيرات وخلجان لابرادور . تراوح عددهم بين والدردار والجيز والصنوبر واشجار القضيان . وفرة قنيص : الايل ، تحيط بها احراج السنديان والدردار والجيز والصنوبر واشجار القضيان . وفرة قنيص : الايل ، الدب ، الدلدل ، السنجاب ، الارنب ، القندس ، البط ، الاوز . ووفرة اسماك . كان المكماك

اصحاء البنية ، اقوياء ، اصغر شكلا من الاوروبيين ؛ وتميزوا بعيونهم السود وشعرهم الاسمر ولحيتهم الغثة . عولوا في معيشتهم على القنص والصّيّة تُوَانتقلوا انتقالا موسمياً من منطقة الى اخرى . ففي الربيع والصيف وأوائل الحريف يقيمون على مقربة من الانهر وعلى شاطىء البحر . وفي اواخر الحريف وفي الشتاء ينكفئون الى الغابات ، وفي كانون الثاني يقصدون صيد الفقعة . وفي شباط وآذار يقتنصون القندس والدب والوعل . وفي منتصف آذار يصطادون الاسماك في النهر لانها اذ ذاك تملاً مياهه . وفي اواخر نيسان يكاثر الرنك والحفش والحوت والبط الكبير . وبين ايار وايلول تغزو الاسماك مياه الشواطىء . وفي اواضط ايلول يصعد الميكياك الانهر مسع السلور . وفي تشرين الاول وتشوين الثاني يقتنصون الوعل والقندس مرة اشحرى . وفي كانون الول يبحثون تحت الجليد عن اسماك د يونامو ، ويجدون عدداً وافراً من الرقوق الصغيرة .

استخدم هؤلاء المنود السكاكين والغؤوس والحاك المصنوعة من المرو والصوان. واستبخدموا كذلك خطاطيف خشبية ذات رأسين وصنانير عظمية واشباكا من اغصان محبوكة قد تبليغ ٦٠ متراً طولًا . وصنعت اقواسهم من اغصان الجرمشتي . كما صنعت اوتارها من اطناب الحيوانات . وزودت سهامهم برأس عظمي . عرفوا اضراء الكلاب بالصيف . ونصبوا الاشراك حتى للدب والايل . وعرفوا تعطين الجلود بتجفيفها تحت اشعة الشمس، وصقلها بكبد الطير، وبدلكها ألى أن تصبح لينة كالاقمة الصوفية . وصنعوا منها الاحذية والملابس والاكيـــاس . اتسعت زوارقهم المصنوعة من قشور الاشجار له ه او ٣ اشخاص بالاضافة الى الكلاب والاكياس ، وقد تراوح طولها بين ثماني وعشر اقدام . اقام الميكماك في الـ د ويغوام ، ، وهـــو كوخ مخروطي الشكل مركب من مجموع قطع خشبية ، يبلغ عددها ١٦ او ١٨ ، ينحني بعضها نحــو البعض الآخر ، وتغطى بصفائح من قَشُور الشجر . كان باستطاعة النساء ان يبنين الويغوام في اقل من ساعتين . كما كان باستطاعتهن نقضه ولغه وحمله على ظهورهن في اقل من هذا الوقت . عرف هؤلاء الهنود تدخين الاسماك واللحوم . جوفوا جذوع الشجر بالجر والمناحت العظميـــة وصنعوا منها القدور . صنعوا الاقداح بثني قشور الشجر وتخييطها بابر عظمية وخيوط مستخرجة من الجذور . غزلت النساء وبر الوعل بمغزل من خشب الجرمشق وحكن منه الجوارب وزخسارف الملابس والزنانير والاساور والعقود ، وصبغنه صباغًا احمر أو اصفر أو أسود أو أبيض . ونقش الرجال في العظم والحشب ، و لجرد التسلية ، ، الحيوانات ، والطيور ، والاشكال البشرية .

الفئة الاجتماعية الاساسية هي الزمرة المؤلفة من عدة عائلات تنتقل مجتمعة من مسكان الى آخر . يسود العائلة مبدأ تعدد الزوجات . للقادة زوجات كثيرات يؤمن لهم اليد العاملة وينجبن الحاربين . المحاربون العاديون يكتفون بامرأتين او ثلاث . اعتبر الزواج شأناً عائلياً . ولكن الفتاة لا تكره على الزواج . الخطيب يعيض الوالد من خسارته بان يعمل في خدمته سنسة او سنتين . يتمتع الزوج بسلطة كبرى . وغالماً ما تتعرض النساء للضرب ، وتسند اليهن الاعمال داغاً : بناء الزوارق ، دباغة الجلود ، صنع الالبسة ، اقامة الويغوام ، نقل الاحمال ، ترويسب

الحاربين بالسهام اثناء المعارك ، ولكنهن يتصرفن بحرية في منازلهن ويأكلن كل ما يشتهين . نظام الويفوام صارم جداً . لكل فرد مكانه الذي يحدده التقليد . تفصل النار بين الفتيات والفتيات ويحظر عليهم تبادل اطراف الحديث . اضف الى ذلك ان هذا التبادل محظر على كافة فتيان وفتيات الزمرة .

لكل زمرة رئيسها ، و ساغامو ، ، او و الرجل القوي ، ينتخب مدى الحياة ، تارة من بين الحاربين الاكفاء ، واخرى من بين ابناء الرئيس الراحل ، ابتداء بالبكر . تخضيع لكل رئيس عائلتان على الاقل وخمسة عشر عائلة على الاكثر . يحدد لكل منها دورياً مكان الصيد . يفصل في الخلافات ولكنه يحكم في الجرائم الهامنة بالاشتراك مع المجموع . الاغتيال والاغتصاب 'يصفيان بالثار والانتقام . الرئيس يشرف على صنع الزوارق وترويض الكلاب على الصيد وتخزين المواد الفذائية . يجمع حوله شباناً ورجالا لاعائلة لهم ويغذيهم ويؤلف منهم حرسه الخاص وقوته الضاربة .

الحروب كثيرة وتعلن انتقاماً الشرف . خير الصفات الشجاعة . مطمع المحاربين هو اثبات بسالتهم وفرض هيبتهم . يقرر اعلان الحرب بعد خطب طويلة ويعلل مججج مختلفة اكثرها وروداً اهانة القبيلة او مسبة احد الاجداد . تبتدىء برقصات حربية ، وبمارسات سحرية : الحرب سلسلة من المفاجآت والمكامن والفارات اليلية . يسحل الظافر رؤوس المهزومين او يقطعها حتى يعود باشعرة الفلبة . يشد الاسرى الذكور الى جذوع الاشجهار وترقص نساء المنتصرين من خولهم موجهة اليهم الشتائم ، ثم يقطعون اربا اربا . امسا مصير نساء المفلوبين واولادهم فالمغبودية . في سبيل شعار الوحدة ضد الدو ايروكوا ، وتألف اتحاد من قبائل الدو واناباكي ، كان يعقد مؤقرات منظمة تتخللها الاحتفالات الرمزية .

ان الطبيعة ، في نظر الميكياك ، نسخة عن الحياة الاجتماعية ، او مجتمع كبير من الارواح الخفية ، المه ثلة لروح البشر . يعبدون الشمس وزوجها ، القمر . ترفع القبيلة صلواتها الى الشمس كل صباح ومساء وتشكر لها انعامها بالوجود على الرجال وتوفيرها الغذاء لهم ، و تمجد عظمتها وجمالها ، وتلتمس منها منحهم قنيصاً وفيراً والتغلب على الاعداء ، واخصاب نسائهم . لكل رجل نفس هي كالصورة عن ذاته . تسبقه في الوجود ، وتستطيع على مرور الزمن ان تكون عدة اشخاص على التوالي . كل نفس تعيش بعض الوقت ، بعد المسات ، حول ويفوام المائلة وتقتنص ارواح الحيوانات بارواح الاقواص والسهام . لذلك يوارى الميت التراب مسع اسلحته وادواته . الروح تأكل ارواح الاطعمة . لذلك يحتفظ مجصتها من كل الوجبات . في يوم غير معروف تنتقل الى بلاد الارواح ، نحو الفرب، وتستطيع ان تبلغ ، بعد عن كثيرة ، ارضا معيدة تعيش فيها حياة هانئة وتأكل ما يطيب لها اكله وتقتنص لمجرد التسلية .

لكل ما في الطبيعة روح اشبه بطيف يستطيح ٬ إلى ما حد له ٬ اعطاء صورة الى مــواد

جديدة . تخيل الهنود الانواع الحيوانية على صورة القبائل البشرية ، وتخيلوا لكل منها لغت الخاصة . الحيوانات الهرمة لا تموت بل تتحول الى انواع اخرى . الوعل الهرم يصبح حوت والمكس بالمكس وهذا ما يفسر تشابه لحوم الوعل ولحوم الحوت . القندس يصبح ارنبا أسود لان هذا وذاك هما الحيوانان الوحيدان اللذان يشعران بالصياد من مسافة بعيدة ويهربان قبل ان يقرب منها . السنجاب يتحول الى ثعبان لان الثعابين تكثر حين يندر السناجب والعكس بالمكس . ولما كانت للحيوانات ارواحها ، باتت الحيطة امراً ضرورياً ، لان هدف الارواح سريمة الانفعال على غرار الهنود ، ولذلك يجب الا يلقى بعظام الوعل الى الكلاب ، اذ ان روح الوعل الميت تذهب وتخبر الوعول الحية التي لا يكتها ان تغتفر الاهانة ، فيصبح القنص عملية غير مثمرة باعتبار ان القنص هدية القبيلة الحيوانية للقبيلة البشرية .

ان هذا العالم غير المنظور لاعظم شأنا الى حد بعيد من العالم المادي المنظور. فيا هو السبيل الاتصال بهذه النفوس او الارواح يا ترى ? ان هذا الاتصال يتم بواسطة الانسان الذي ندعوه و شامان » ؛ اقتباساً من تعبير نقله قوزاق بطرس الاكبر عن الدتونفوز » في سيبيريا. لقد توصل الشامان ، بفضل الايمان والصلوات الطويلة والاخلاق الطاهرة ، لان يضمن لنفسه حاية احدى الانفس التي بفضلها يعرف كل ما يجري في عالم الارواح ويستطيع التأثير عليها . وهكذا فانسه يعرف المستقبل ويبدي رأيه في قيمة مخطط حربي ويستمطر الغيوم للحياولة دون وصول العدو الريحدث الجفاف تمييداً لهجوم قبيلته . يعرف اين يتوفر القنيص . يرثس في بسدء كل سنة احتفالات انبعاث التجديد التي بدونها قد تتوقف اعمال الطبيعة . يحسول دون جيء انفس الاموات لتعذيب الاحياء . يؤمن لكل هندي روحاً حامية . يشفي المرضى باستحضار روحه الحامية التي تطرد الارواح الشريرة ، اذا كان الناس كلهم مؤمنين . يحول جلد حيوات يبسطه المامه الى حيوان حي يتقدم ويطلب الاكل . يطفىء مشعلا من مسافة بعيدة ويجعل الماء يغلي عجرد النظر اليه ، ويخلص نفسه دفعة واحدة من القيود التي يكون موثقاً بها . انه نبي يجترح المحزات .

ولمل هؤلاء الهنود آمنوا بقوة كبرى محبة للانسان، كلية الوجود في الطبيعة، هي الـ دمانيتو، ولمل هذا الايمان وصل البهم عن طريق المسيحيين .

وفي مستوى اعلى ، اي في درجة الزراعة المتنقلة في الاحراج الحرقة ، الا تربي عواراني » وجد ، في جزر الانتيل واميركا الجنوبية ، الا داراواك ، الودعاء الحادثون الذين صادفهم كولومبوس ، والا و توبي - غواراني ، توزعت قبائل هؤلاء بين فنزويلا و « ربو ده لا بلاتا » . وان من نعرف اخبارهم هم الا و توبينمبا ، الذين استوطنوا ، في القرت السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ، الشاطىء الشرقي من القارة الاميركيسة بين مصب الامازون ومصب « ربو ده لابلاتا » . وقد وصلت الينا اخبارهم بواسطة مؤلفات « توفيسه »

الذي قام برحلتين الى البرازيل (١٥٥٠ - ١٥٥١) ، ومؤلفات البروتستانتي وليري ، ، رفيق « فيلو غيتيون ، ، وكتاب المرسل البرتغالي « كاردين ، الذي تكلم عن الطقوس والعسادات ، وكتب المرسلين الفرنسين و كلود دابفيل ، (١٦١٤) و « ايف ديفرو ، (١٦١٣ – ١٦١١) ورسوم الهولندي «اكهوت» التي صورها في البرازيل في السنة ١٦٤٣، ومستندات كثيرة اخيراً حول خصوصات هذه الشعوب .

كان التوبي - غواراني في مرحلة نيوليتية متخلفة عن المرحلة التي بلغها الدمايا ه. جهاوا المعدن باستثناء الذهب الذي روجته التجارة . استعملوا فؤوساً من حجر ازرق - اسود ، ذات حد نصف مستدير ، تصنع ليلاكل شهر في اليوم الاول من الهلال . نساؤهم وبنساتهم يرقصن ويغنين النساء العمل امام القمر . وقد اعتقدوا انهم بتصرفهم هذا لن يمنوا بهزية . وصنعوا سكاكين حجرية . واستخدموا اسنان بعض القواضم للقص والثقب . كما استخدموا عسارة الحلون الكبير النحت والصقل . وصنعوا الصنائير من الاشواك المعقوفة . ولم يكن لديهم مسن ادوات زراهية سوى الحربة المصلبة بالنار .

كان الديرس سلاحهم المفضل. واستعملوا كذلك اقواسا كبيرة ذات اوتار قطنيسة ونبالا قصبية طويلة مزودة برأس من العظم او سن الكوسج او ذنب الشفنين البحري؟. وعرفوا الدو بولاس ه ، وهي كرقان تزود بها سيور جلاية وتقذفان بحيث تلفان السيور حول حوامل الحيوان او الانسان المطارد. واستخدموا للدفاع عن انفسهم تروسا مستديرة مصنوعة من تجلد التابير او الخشب الحفيف او قشور الشجر . ولم يجهلوا النار التي كابوا يشملونها بتدوير مثقب صلب في خشب طري . وجوفوا جذوع الشجر او الجاوا الى قشورها لصناح الزوارق التي السمت لثلاثين او ستين شخصاً والتي كانوا يحذفون فيها وقوفاً . وقد كانوا بخارة مهرة . ولم يمكن لديهم حيوانات للركوب والجر او المتغذية الكبرى .

وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية . مارسوا الزراعة المتنقلة في الاسراج الحرقسة . زرعوا المنيهوت والذرة الصفراء والقلقاس الحندي والفاصوليا والفول السوداني والقشطة والفلفل والتبغ والموز وقصب السكر . كا زرعوا الاشجار المثمرة > البلاذر والعنباء ودتّاء الحند والقرع. واضافوا الى ذلك حصيلة القنص والمسيد .

كلوا يسمنون نساءهم وپجزرونهن في الوقت اللازم ، ويلتهمون العدو الذي يهوي ارضي ، ويسمنون الاسرى للمادب الكبرى * ويسكرون بعصير القشطة والمنيهوت المحتمد . واستعملوا الحدرات : لفاقات التبغ الطويلة ، وغبار الـ « باريكا » ومعجون الـ « غوارانا » .

أقاموا في قرى محاطة بسياج من اوتاد تتخللها المنافذ وتنصب امامهد الافخاخ . وضمت القرية بين ٥٠٥ و ٢٠٠ شخص موزعين على بيوت يتراوح عددما بين ٤ و ٧ وتختلف قياساتها بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولا و ١٥٠ و ١٦ م عرضا ، ميكلها خشبي وعقده الشكل نصف دائرة،

يغطيها سعف النخيل او قشور الشجر . كان البيت الواحد يؤاري بين ٥٠ و ٢٠٠٠ شخص ، وهو اشبه بـ و جينوس ، اغريق هوميروس وبـ و جنس ، الرومان الاولين . وكان هنالك ناد للرجال . وكانت القرية تنقل من مكانها مرة كل خس او ست سنوات بسبب المزروعات . ضمت مفروشات البيت الاسرة المعلقة والمناصب الخشبية والخزفيات والزنابيل والمناخل ومباشر ومعاصر المنيهوت والهواوين المحفورة في جذوع الشجر ، والعلب المصنوعة من بيوت السلاحف . ولم يعتبر الفتيان يافعين الا بعد مرحلة تدريب تشمل درس الدين وتقاليد التكتل التاريخية . وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة أيفصلون عن بنات حسواء ويتلقنون الدروس في وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة أيفصلون عن بنات حسواء ويتلقنون الدروس في نادي الرجال ، وهذا ما ساعد على انتشار السحاق والملاوطة . وكان تعسدد الزوجات شيئاً ما كانوا مين الجنسين غالباً ما كانوا يستبداون ازواجهم .

سار التوبي – غواراني حفاة في اغلب الاحيان . ولكن النساء عرفن غزل الحبال والاسر"ة المعلقة والمخدمات وتعلمن من الارواك بعض مبادىء الحياكة. وصنعن الوشائح والوزرات.

تزين التوبي بالارباش الملصقة بالجسم بواسطة الراتينج اد المسل . واعتمر الرجال قبمات من الارباش المتضراء والصفراء والزرقاء وحملوا تيجاناً وعقوداً واساور ومخدمسات مسن ريش واطاراً كبيراً من أرباش النمام على الاليتين . وحصر في الرجال تزيين الشفتين وتعليستى العظيات بالانف . وحملت النساء الاقراط وأساور كبيرة من العظم الابيض أو الاصداف .

درج كلا الجنسين على تنتيف الشعر حتى الاهداب والحواجب. وسبد الرجال شعرهم بشكل نصف قمر في القسم الاسامي من الرأس. ودرج كلا الجنسين كذلك على تزيين الجسم والوجس بخطوط مستقيمة وخطوط حازونية وخطوط بموجة زرقاء وصفراء وسوداء وحراء ، اي انها درجا على التوشم.

فسر التوبينمباكافة الظواهر الطبيعية واصل الاشياء ومصير الانسان بروايات ويانة خرافية تتدخل فيها كائنات بماثلة للانسان اعظم قوة منه رأوا في عواطفها والموائها وآرائها تأويلا لكل شيء . اعتقدوا بوجود الروح في كافسة الاجسام الحية ، ولكنهم كانوا آخذين في التطور نحو القول بتعدد الآلمة .

ان و مونان ، الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له ، قد خلق السهاء والارض والبشر. عاش بين الناس ولكن الناس ازدروا به. عند ذاك انزل مونان عليهم نار السهاء خلص رجلا واحداً ، هو و ايرين – مايد ، ، واعطاء امرأة كي يعمر الارض مرة اخرى . من و ايرين – مايد ، انحدر كافة البشر ونبي او و كراييب ، ، هو و ميرمونان ، ، المقرب الى مونان العظيم ، الذي علم البشر سير القمر والشمس ، وخلود النفس ، والزراعة ، وتنتيف الشعر ، الخ . ولكنه حوال الاشرار الى بهائم . وحين نفروا منه أحرقوه على حكومة مسن حطب ، فانشق رأسه

محدثاً صوتاً فظيماً، وكان ذلك مسدر البروق والرعد. ترك « مير –مونان » ابنا هو «سوماي». رزق هذا الاخير توأمين ، « تامندوار » ، الفلاح ، و « اريكونت » المحارب. اهان اريكونت تامندوار الذي اغتاظ وضرب الارض ضربة قوية جملت الماء ينبجس منها. فكان الطوفان. غرق كافة البشر باستثناء الاخوين وامرأتيها.

من تامندوار انحدر التوبينمبا ومن اربكونت ألَّه تومينو ، ٤ الذين يتحاربون تحاربا دائمًا.

آمن التوبينمبا بالحياة الثانية وبتجسد الاجداد مرة ثانية في الولد وبرحلة طويلة وسلسلة من الامتحانات قبل بلوغ منطقة ستجد النفس فيها سعادتها الابدية . اما نفوس اولئك الذين انتقموا الانتقام الحسن واكثروا الاكل من لحوم أعدائهم فستذهب الى ما وراء جبال مرتفعة ، الى متنزه تكسوه الاحراج ، قرب مونان ، حيث يرقصون ويبتهجون ابتهاجاً دائماً .

خشي التوبينمبا الجن والشياطين والارواح ونفوس الموتى التي تسبب الزوابع والعواصف والامراض والجفاف والهزيمة في الحرب والحوادث الطارئة والحدورات . درجدوا على تطبيب خاطرها بتقادم زهور وأرياش . وحموا أنفسهم منها بمشاعل أو نار تحت السرير المعلق تخاف الارواح منها خوفاً كبيراً . وكلما تعرضت صوالح القبيلة للخطر ، احتسوا المشروبات المخمرة ثلاثة او اربعة ايام متتالية . فتحركهم اذ ذاك حمية وحشية يعتقدون تحت تأثيرها انهم يتصلون بالقوى غير المنظورة . ويحدث خلال هذه الايام انفلات جنسي لا يعرف حداً .

وكان لدى التوبينمبا سحرة محترمون جداً .

وكانت الحروب دائمة بين القبائل ، الاسرى يؤكلون . وتقوم هذه الشعوب بنزوحات كبرى دافعين بالمهزومين المامهم . وكان التربينمبا قد توصلوا في اواخر القرن الخامس عشر الى طرد الدوتوبينا ، الى داخل البلاد والحلول محلهم على شاطىء البحر بين مصب «سان – فرنسسكو» و «كهاميا » .

عند وصول الاوروبيين ، كان التوبينمبا في طريق التطور نحو الوثنيسة التطورات وعبادة الاصنام . ينصبون في مداخل القرى اوتاداً مزدانة باوتاد صغيرة حين دصول الارروبين رسم عليها رجال عراة . وينحتون في القرع شكل اوجه بشرية ويعتقدون ان الارواح تقيم في هذه الاشكال . ويصنعون اصناماً من الشمع او من الخشب . ويحرصون على ان تكون لكل عائلة قرعتها ، و ماراكا » ، الملأى بالحبوب او الحصا . ويتخيلون ان صوت الحصا والحبوب هو صوت احد الارواح . ويسأل التوبينمبا الماراكا عما تريد . وتقرر الماراكا الحرب او السلم، وتشكر لها الانتصارات بالاناشيد والرقصات .

انتشر الايمسان ﴿ بالارض التي لا موت فيها ﴾ . وتنبأ الرقاة والسحرة بنهاية العالم . فاقتضى من ثم البحث عن ارض امينة تنمو فيها المزروعات وتقلب المجارف الارض تلقائياً وتجسده ألنساء المسنات صباهن . ادى وصول البرتغاليين والجروب والمذابح الى تعزيز هده الاعتقادات وتسببت في نزوحات جديدة اهمها نزوح السنة ١٥٤٠ . الجمهت احدى قبائسل التوبينمبا نحو المغرب ، بقيادة ساحر ، بحثاً عن وارض الخلود والراحة الابدية ، . كان افرادها عشرة آلاف، فوصل منهم ٣٠٠ الى البيرو في السنة ١٥٤٩ حيث اسرهم سكان و شاشابوياس ، وتكلم الممنود عن بلاد خرافية ، هي مملكة الواوماغا ، ويث كل شيء حجارة كريمية وذهب . وهكذا تعززت اسطورة الوالدورادو ،

لم تكن الحضارات البلدية هنا ادنى من حضارات الاوروبيين فعسب ، بــل كانت في تقهقر وهبوط ايضاً ربما بسبب الحروب الدائمة بين القبائــل ، وربما بسبب تطور طبيعي في المفاهم الدينية . فان التأثر الذي بعثه وصول الاوروبيين ، اولئك المسوخ الغريبة ، قد عزز على الفور الايمان بانقلاب العالم ونهاية الازمنة وحياة جديدة ، كما عزز نوعاً من الايمان بهدي آت ، ولعــله تسبب في المحلال اخلاقي واجتاعى .

الايروكيون وبلغ ايروكيو المايركا الشهالية درجة اعلى من درجات الحضارة النيوليتية ، ونقصد بالايروكيين هنا الشعوب التي تكلت اللغة الايروكية ، وايروكوا ، وهورون ، ونوتوال ، ونوباكو ، احتل الايروكوا جنوبي بحيرة وايرييه ، وبحيرة واونتاريو ، واعالى نهر وسان لوران ، حتى مسيرة يومين الى الجنوب من ومونوبال ، وحتى النهر هودسن ، والايروكوا اقرام من قدامى القناصين والصيادين اتوا من كولومبيا في الارجح عن طريق وأدي نهر و مسيسبي، حيث يمتقد انهم تعلموا الزراعة واستقرت بعض فروعهم ابعد الى الجنوب ، ال وشيروكي، في جنوب جبال والشغاني ، وال وكونستاغا ، وال وسكهنا ، وال وتوسكهنا ، والوراد الشهالية .

بقي الشطر الاكبر من الايروكوا قناصين وقطافين ، ولكن زراعة الذرة الصفراء ، بالاضافة الى زراعة الفاصوليا والجلبات والفول والبطيخ الاصفر ، قد لعبت دوراً متزايد الاهمية واخذت تحسل المركز الاول في اواخر القرن السادس عشر . فقهد امتدت حول قرى الا و اونونداغا ، على ثلاثة او اربعة كيلومسترات ، حةول واسمة مزروعة بالذرة الصفراء . اتاحت الذرة الصفراء للهورون احتياطياً غذائياً يكفي لثلاث او اربع سنوات وفائضا معداً للبيع اشتروا باثمانة الفراء والزوارق من الالفونكيليين ، والاصداف الصغيرة المستخدمة نقوداً من قنائل الشاطىء .

الادوات شبيهة بأدوات التوبي – غواراني ولكن طريقة الزراعة طريقة ففسلى. فنعن هنا امام زراعة متناوبة غير متنقلة الايروكوا يبقون بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة في المكان الواحد ، ما دامت التربة قادرة على الانتاج . زد على ذلك انهم يعرفون طريقة اراحـة الارص ويلون بعض الشيء بزراعتها ، دورياً ، ذرة ضفراء وفاصوليا وفولا . مرتكز التغذية

الـ (ساغاميتيه) وهو حساء من الذرة الصفراء واللحم والسمك الجفف والفول والجلبان ؛ اما طمام المآدب الفاخر فالساغاميتيه المطهية بلحم الدب والقلقاس الرومي وزيت الجوز .

الاعمال كلها تنجز وفاقاً لثنوية جنسية . فالايروكوا يقسمون فئات يوزع العمل في كل منها على فريقين ، فريق النساء للزراعة ، وفريق الرجال المقنص والصيد . الجنسات يتبادلان المساعدة ، ولكن الادارة النساء في العمل الزراعي والسلطة الرجال في القنص والصيد . ينجز العمل كله جماعيا في نطاق الفئة . توزع الفئة الاراضي الزراعة على كل عائلة . ولكن عندما يمين زمان الزرع ، تجتمع النساء وينتخبن احداهن رئيسة عمل عليهن ، ويذهبن ليزرعن تلم ذرة صفراء في حقول احدى العائلات ثم تلم ذرة صفراء في حقل عائلة اخرى وهكذا دواليك الى ان تزرع كل الحقول . ويجري الشيء نفسه في ايام الحصاد . والقنص شأن من شؤون الفئة النشا .

سيطرت على آراء الايروكوا في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عنسد الضرعيات. فقد تقسمت كل الطبيعة الى ذكر وانثى . الرجل ذكر ويتمتع بالقوة . وذكور كذلك هي الشجرة والسهاء والنسر والقندس والشمس الشارقة والارن الاحر والشهال الذي يأتي منه الجليسد ، والزرقة ، لون الجليد ، والصلابة . اما الانثى فصغيرة نسبياً وضعيفة ووديعة ، وتبكي . اذن فالمطر انثى ، والقمر الشاحب حداً بالنسبة للشمس ، والارض التي تولد كالام ، والغرب الذي تأتى منه الامطار ، والسياض ، النام المعطر ، والاخصاب ، والجنوب ، والبياض ، انات ايضاً .

ويمكن توزيع كل ذلك بشكل صليب يمين اربع مناطق من الكون

الحرب الزرقة الذكس الشمال

الاخصاب - السواد - الانشى - الغرب + الشرق - الذكر - الحرة - القسوة

الجنوب الانشى البياض السلسم

ويتجمع الآلمة ، حيث يسيطر الآلمة الزراعيون ، وفاقاً لهذه المسادىء . فهم ليسوا من بعد كيانات مستقلة على بعض الابهام ، بل آلمة ذاتسين يؤلفون زوناً متسلسل السلطات . الاله الرئيسي هو « تارونيافاغون » ، اله السهاء ، الذي ينظم الفصول ، ويسيطر على الارياح ويعلن عن رغائبه للبشر في الاحلام ، ويصيب الذرة الصفراء بالصر" اذا كان غاضباً ، انه اشبه بجوبتير

ايروكوا . قرينت هي « اياتا هانتسيك » ، إلحة الارض والمرض والموت . حفيده ا هو «جوسكيرا» اله التجدد والنمو في الحياة النباتية والحيوانية . فهو الذي خلق كل ما يقوم على الارض من بحيرات وانهار واسماك واحراج وقنيص وحقول وحصيد . وهو الذي يرسل المطر والحرارة ، والذي علم البشر فن النار . انه اله القيامة . يشبخ ويميل الى الزوال ، ولكنه ما ان يبلغ الهرم حتى يمود شاباً ، فتبدأ اذ ذاك دورة جديدة . نظيره هو توأمه ، « تاويسكارا » ، الله القوة التخريبية والصر والجليد ، اللخ .

اما د اغرسكوي ، ، الاله الشمسي ، فشفيع القناصين والمحاربين الذين يقدمون له حتى لحوم الاسرى وفاقاً لطقوس بماثلة لطقوس الدرازتيك ، .

تتألف العبادة من ثمانية اعياد قانونية تشير الى تعاقب مراحل الحياة الزراعية . اعظمها الهمية عيد المزروعات وعيد الدرة الصفراء النامية وعيد الحصاد . تستلزم مراسم وطقوسا يحتفل بها كهنة معينون ، وحراس الايمان ، الثانية ، اربعة رجال واربع نساء .

يرتكز الجتمع الى الثنوية نفسها . وهو ذو نظام امومي تعطي الام فيه اسمها لأولادها . الاولادهم اولاد الزوجة ويربون في عشيرة الام على يدي خالهم . الاب والام لا يعيشان معاقت سقف واحد ، وانما تشارك الزوجة الزوج سريره مساء الى ان تصبح حاملاً . وعلى الرغم من ذلك فان الرجل ملزم طبعاً بتقديم الغذاء والكساء لزوجته واولاده . كا ان الامرأة مازمة بتحضير الطعام ولوازم الصيد لزوجها . اما اذا تزوج رجل ينتمي الى عشيرة الذئب من امرأة تنتمي الى عشيرة الدب ، فيكون الاولاد من عشيرة الدب ويعيشون معها . ومن المسلم به ، اذا هوجت عشيرة الدب ، ان يبادر الزوج المنتمي الى عشيرة الذئب الى مساعدتها مع كل عشيرته ، بسبب التضامن الذي يسود العشيرة .

يشرف على ادارة المشيرة بجلس مؤلف من ثلاث نساء يخترن ابداً من المائلة نفسها ويعين لا بالانتخاب بل و بالاتفاق ، في اعقاب مفاوضات طويلة . تنتخب هذه النساء الثلاث رئيس العشيرة ، او و ساشم ، الذي يجب ان يكون ذكراً ، وابن شقيقة الرئيس المتوفي في اغلب الاحيان . يستشير الساشم بجلس النساء في الشؤون العامة ، وبجلسا من المحاربين في شؤون الصيد والحرب . وتعرض مقررات كل عشيرة على بجلس القبيلة ؛ وتضم كل قبيلة ثماني عشائر على الاقل ، ويتألف بجلس القبيلة من مستشارات كل عشيرة وساشهها . وتعرض مقررات مجلس القبيلة على بجلس الشيوخ المذكور الذي يتمتع مجق نقض مطلق .

ان قبائل الايروكوا الاربع ، منذ السنة ١٤٥٠ تقريباً ، وقبيلة اله موهوك ، منذ السنسسة ١٥٧٠ ، قد الفت اتحاداً . فتألف مجلس الاتحاد من كافة مجالس العشائر وساشم كل عشيرة . اما في الشؤون الخطيرة ، كالحرب مثلا ، فيجتمع شعب الايروكوا كله . تتفاوض النساء اولاً ويتخذن المغررات ثم يليهن الرجال ، ثم مجتمع الرؤساء ويقترعون في كل قبيلسة . واخيراً

كان كافة مؤلاء الهنود في الدرجة الدنيا من سلم الفكر البشري. فكان العالم في نظرهم سحراً اكبر يستطسم كل شيء فيه مبدئيا أن يؤثر على كل شيء بتشابهات وتلامسات سرية . وقيد اعتقدوا باتحاد كافة الاشياء بقوى خفية متوزعة في الكون لا تقع تحت الحواس مع ان وجودها لا شك فنه ، ولم يميزوا تمميزاً كبسراً بين السكائنات الحمة والسكائنات الجامدة . فيكان في رأيهم ان الاشياءالمصنوعة تحيا على غرار النباتات او الحيوانات التي تتخدر طيلة الشتاء او البشرالنيام وان لها وظائفها بحسب اشكالها ، وإن صور الكائنات وتماثيلها لبست اقل واقعاً من هذه الكائنات . فان قطمة مادية صغيرة تلامس شيئًا ، او رسمًا او رمزًا او كلمــة ذات دلالة ، تنقل الى الشيء الفعل الذي يأتيه الانسان . كان الـ « سيو » ، قبل الصيد ، برقصون « رقصة الدب » ، فيقسلا الراقصون الدب بدقة ويتوجهون بأناشيدهم الى روح الدب لاستالته واستعطافه.وكان الصيادون يصومون قبل السفر ، ويتنعون عن العلائق الجنسة ، ويتطهرون ، ويتجمياون برسوم خاصة ، ويبتهاون الى ارواح الحيوانات التي قتاوها في رحلات الصيد السابقة . واعتقسدوا انهم انما يقيمون بذلك رابطة صوفية بينهم وبين ارواح الدبية ، وان الحيوانات ستقرب منهم وتعرض نفسها لضرباتهم . واعتسبر الهنود غذاءهم بمثابة هبة طوعيسة من ارواح الحيوانات والنباتات . وفي حالات اخرى ٢ مثل الراقصون بالايماء موت الحيوان المطارد . يرتدى الراقص جلد الحيوان وقناعه ٬ وحين يصاب بالعياء ٬ يضرب بسهم لا حدّ له فيهوي على الارض مقسلداً ﴿ الحيوان بسقوطه ثم يخرج من وسط الدائرة ، فيمثل صياد آخر بالايماء تقطيعه وتجزئته ، ثم يليه صياد ثانت . ذاك كان المصير الذي ينتظر الحيوان لان الصورة بعض الاصل. وقد اعتبرت هذه المارسات اعظم اهمية من المطاردة الفعلية . اما بعد الصيه ، ففرضت بعض الطقوس المعدة للحياولة دون انتقام الحيوان وروح النوع الذي ينتمي اليه . فتتلى صيغ مهدئة ، وتكرم الحيوانات المقتنصة ، وترفع الابتهالات حتى لا تنفر الحيوانات الاخرى وتقام صلوات الشكر .

يرد" كل ذلك الى ان نشاط مؤلاء الهنود المعلى لم يتطور تطوراً يستحق الذكر . فلم يتكون لديم بعد افكار او صور عن الاشياء مستقلة عن المواطف والتساثرات والاهواء التي كانوا يشمرون بها . كان فكرهم حدساً اجمالياً يدرك فطرياً بجوعاً من الصفات . وسيطرت على كل ما يعرفون حالات غامضة لا تتبح التحليل والنقد .حكوا احكاماً على جانب من الاهمية ، متناقضة منطقياً ، الا انها مقبولة شرط ان تكون من طبيعة المضمون التأثري نفسه . فلم يكن هنا ، والحالة بعذه ، من مكان او عمل لمبدأ التناقض . اذا ما عوى كلب مثلاً ، او اسمعت بومسة صماء صوتها على مقربة من احد الاكواخ ، فكان ذلك في نظر الهنود موجباً لقتل مالك الكوخ . ان الصوت المجزن ، والقشريرة التي يحدثها ، وفكرة المصائب الني يوحيانها ، والتمثيل المقلي لسيد الكوخ ، كانت تؤلف ، في وجدان السامعين ، كلا واحداً ، وتوجب من ثم ازالة سيد

الكوخ. لذلك لم يتقن الهنود الحساب الذي كان في نظرهم عملية شاقة. كانوا يدركون مسن نظرة واحدة ان كومة من الجلود اكبر من كومة اخرى و وان قطيعاً من البقر الوحشي يفوق عدداً قطيعاً آخر مر قبله ، وماكانوا من جهة ثانية ليخطئوا في العدد في نطاق حدود معينة ، ولكن ما كانوا يدركونه اجمالياً هو مجموعة نوعية فقط. لم يحسبوا ولم يحللوا بتمييز المناصر المجردة بفكرهم وبرؤية كمية الزيادة في احدى الجمتين.

يتضح من ذلك ان حضارتهم لم تكن متدنية فحسب ، بل متوقفة وراقدة ايضاً . اذا كانت للاشياء وظائفها بحسب اشكالها ، واذا كان لحركات الصياد والفلاح الرها الرمزي ، فان لأدنى جزئيات الشكل او حركات الاحتفالات الدينية الهية رئيسية ، اذ ان كل جديد فيها يخلق وظائف جديدة ، وباستطاعته اثارة قوى خفية وايجاد الف خطر وخطر . لذلك كانت كراهية هؤلاء الهنود لكل تغيير شديدة جداً . فكانوا يرتاعون مثلا من الاطباء الاروبيسين وممالجتهم ومن المفاعيل المشؤومة لخصائص الاشخاص والادوية الخفية . لم ينقلوا عن الاوروبيين سوى استخدام الحصان وبعض الاسلحة وبعض الادوات . اضف الى ذلك ان كل تقدم مشروط بتكون المفاهيم المجردة ، العامة ، تحت ظل مبادىء الذاتية والتناقض والسبيية ، وجراقبة هذه المفاهيم بواسطة للاختبار . فان تحديد المفهوم و حجر ، لا يجيز التصور بأن يكون للحجر حياة الكائن الحي الخفية وبأن يزعزع اركان عالم البدائيين . ولكن هذا الانتقال من المنطق البدائي الى منطق المفاهيم ، الذي هو الشرط الاول للاستساغة ، عملية طويلة وصعبة جداً .

اله مايا» في الدرجة العليا من الحضارة النيوليتية ، نجد ، في امسيركا الوسطى ، قسلة المايا . قسلة المايا .

احتل المايا على و المتوسط الاميركي ، منطقة حارة توافق في المكان المكسيك الحاليسة ، وشرقي مضيق و تهوانتيك ، وشبه جزيرة يوكانان ، وغواتهالا باستثناء الشاطىء الباسيفيكي ، وغربي هوندوراس وهندوراس البريطانية . لقد احرق الكهنة الاسبانيون معظم مخطوطات المايا الهيروغليفية اعتباراً منهم بأنها تتضمن اكاذيب الشيطان . الا ان ثلاثة المجاث قد وصلت الينا : في علم الفلك وعلم التنجيم والطقوس الدينية . ووصلت الينا كذلك مؤلفات بلغة المايا والايجدية الاسبانية وضعها بعض البلدين بعد الفتح تؤلف موجزاً لاخبار تاريخ المايا . ولدينا ايضا التقرير المفصل الفريد الذي وضعه الاسقف لاندا (١٩٦٦) . ولدينا اخيراً اطلال ١١٦ مدينة من مدن المايا اظهرت واكتشف بعض ابنيتها وكتابتها بعد استثصال نباتات المناطق الحارة منها ، والمايا الحاليون الذين اثبتت مقارنتهم بالاثار والرسوم التي وصلت الينا انهم احتفظوا بالشيء الكثير من اجدادهم وان باستطاعتنا سد بعض فراغ المستندات بالمراقبسة المباشرة . اجريت بعض اختبارات زراعة الذرة الصفراء بحسب طرائق المايا تجت رعاية مؤسسة كارنجي في واشنطن . فيبدو ان حضارة المايا حضارة بلدية اصيلة نمت محليا ، بمجرد علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية

ربما منذ ثلاثة الاف سنة قبل يسوع المسيح . ارتكزت هذه الحضارة الى ادوات من عهد الحجر المسقول ، والكتاب الهيروغليفية ، وزراعة الذرة الصفراء . وقد بدت ، عند وصول الاوروبيين ، وكأنها بلغت منتهى النمو الفكري الممكن بلوغه في هذا المجموع ، واستقرت منذ خسة عشر قرناً ، فلم تحرز بعد ذلك اي تقدم .

المايا متوسطو القامة ؛ عراض الكتمنن ؛ متقمرو الصدر ؛ طوال الميزات الطبيعية والاخلاقية الساعدين ؛ كبار الرأس ؛ نحاسيو اللون، شعرهم اسود مستقيم . الرجل امرد اللحية والشاربين على العموم .

مقاييس الجال في نظرهم الخفاض في الجبهة وحول في العين 'يكتسبان بشد خشبة الى الجبهة وبتعليق كرة صغيرة من الراتينج بين العينين منذ الولادة . يتحلون بالقو"ة وصحة البنية والنشاط والعزم والجلادة على العمل ولا يصابون بالمرض الا نادراً . انهم اشبه شيء بالصينيين: يجبون المرح والثرثرة والحياة الاجتهاعية والضحك والمزاح ، يميلون بالفطرة الى الكرم والثقة بالغير وملاطفة الفرباء ومصادقتهم ، ويدر كون كل الادراك معنى العدالة والشرف والمنزاهـ ويتحلون بروح الملاحظة والتخيل ويحسون بالجال .عواطفهم العائلية قوية جداً . الوالد يتمتع بسلطة كبرى . يكنون الاحترام للاشخاص المتقدمين في السن . البنون مرغوب فيهم جداً ، والزيجات تعقد في سن مبكرة ، ١٢ سنة المفتيات و ١٤ المفتيان ، ونسبة الولادات مرتفعة تبلغ بين ٥٠ و ٢٠ ٪ وبين ٧ و ٩ اولاد بالعائلة يبقى منهم في قيد الحياة بين ٣ و ٤ . وعلى الرغم من فلك فان الاخلاق اباحية ، والطلاقات غير نادرة من كلا الجانبين . يتزوجون بسين ١٠ مرات ولكنهن بتزوجن بدون صعوبة على الرغم من كل ذلك .

يحمل الرجال طريدة قطنية تلتف حول القد وتمر بين الساقين يتدلى احد طرفيها من الامام والطرف الآخر من الوراء ، ومربعاً من القياش يبكل عند الكتفين بمثابة معطف . شعر الرأس يقص في مقدم الرأس وتتدلى منه ذؤابة طويلة على الظهر . يدهن الجسم والوجه باللون الاسود حتى الزواج وباللون الاحر بعد ذلك . اجسام الحاربين تدهن باللونين الاسود والاحر، والكهنة باللون الازرق ، والاسرى بخطوط افقية بيضاء وسوداء . يستوشمون ويتمطرون . النبلاء والكهنة يتألقون : ارباش ، وزين يشب واقراط صدف وجلود فهد واسنان تماسيح وعقود واساور وقبعات مزدانة بالريش ، وارباش فاخرة خضراء وزرقاء تتسلون بالوان قوس قزح والوارؤساء .

 عرف المايا استمال النار . واستخدموا مواد عهد الحجر المصقول من الادوات المحادث مطارق وفؤوس ومناحت نسيفية وصوانية ومطارق خشبية مصلبة ، وعصي خشبية بواسطة النار . لم يستخدموا المعدن . اما النحاس والذهب فلم يستمعلوهما الالزينة وقد استوردا من بلدان اخرى . جهلوا المسامير واستعاضوا عنها بالثر بط النباتية . توصلوا الى ادجان الديكة الهندية والنحل ، ولكنهم لم يقتنوا حيواناً واحداً لحل الاثقال ولم معرفوا المجلة . نقلوا الاثقال كلها على رؤوس الرجال .

يتبين من ثم ان وسائل عملهم في الطبيعة كانت محدودة جداً . ولكنهم استطاعوا بلوغ مستوى فكري وسياسي رفيع بفضل الذرة الصفراء . يبدو ان الذرة الصفراء متأصلة مسن مرتفعات غربي غواتمالا حيث يوجد اليوم النباتان البلديان الوحيدان اللذان ينموان مم الذرة الصفراء واللذان هما ، بالتالي ، من النوع نفسه . ويغلب على الظن ان المايا هم الذين جعلوا منها نباتًا زراعيًا واعطوا بذلك نبات الخلاص كافة قبائل الفلاحين في اميركا. زرع المايا الذرة الصفراء وفاقاً لطريقة الـ « مِلبًا » (جمع الاعشاب واحراقها وذر" رمادها) . ففي اذار ونيسان يحرقون الاعشاب اليابسة ؛ بعد امطار ايار الاولى ؛ يحدثون في الارض المخصبة بالرماد ، بواسطة قضيب مقرن ، ثقوبًا يودعونها الحبوب . يزرعون تباعًا ثلاثية انواع من الدرة الصفراء : نوعاً ينضج بعد شهرين ونصف الشهر ، وآخر بعد اربعة اشهر ، وثالثاً بعد ستة اشهر . وبعد نزع الاعتثاب تكراراً وجني السنبلة في ايلول او تشرين الاول لمنع تسرب المياه اليها وتعــــدي الطيور على حبوبها ، يجمعون الحصاد بــــين كانون الثاني ونيسان . يقتضي ١٤ هكتاراً ونصف الهكتار تقريباً لتغذية عائلة طيلة سنة كاملة ، وبالاستطاعة انتاج الكفاف خلال ثمانية واربعين يوماً . فيتبقى من ثم فائض طاقة معد لتعهد الاختصاصيين والكهنة والمحاربين المعفيـــن من الاعمال اليدوية ولتجهيز الادوات العلمية والدينية : المعابد ؛ المراصـد ؛ الأهرام ، القصور ، وساحات الرقصات الطقسية . وهكذا تمكن المايا من بلوغ المستوى الفكري الذي بلغه اقوام استخدموا ادوات فضلي واستعملوا الشبه والحديد والعجلة :الكلدانيون والبابليون والاشوريون والمصريون والاغريق والصينيون.

التجهيز الفكري بعيد .بلغ المايا الدرجة الثانية من درجات الفكر البشري التي وصفها و ابيل راي » اي الدرجة التي نعتها و ر. برتلو » بال و استرو بيولوجية » .والاستروبيولوجيا مرحلة من مراحل القول بتعدد الالهة حيث يعتبر كل شيء ، حتى السهاء والكواكب ، كائنا حيا على غرار الحيوانات والبشر ، وحيث يخضع كل شيء ، على غرار الكواكب ، لسنسن دورية ، اي سنن الضرورة وسنن التوافق وسنن الاستقرار معسا ، التي توحيها الحركات الدورية في القبة الزرقاء » وتعاقب الفصول المنتظم ، وتجدد الحياة النباتية كل سنة ، وحيث يعتبر كل شيء ، الاحداث والاعمال ، مرتبطاً بمواقع الاجرام السهاء ية وحركاتها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية

ان زراعة الذرة الصفراء الفضلي تستازم تقدم علم الفلك الذي يفرض استخدام كتابة وهندسة عمارة ، ومن ثم تنظيمًا اجتماعيًا وسياسيًا كاملاً .

تكلم المايا لغة بسيطة متقدمة اقل تصريفاً اسمياً وفعلياً من اللغة الاسبانية واسهل تعلماً على الانكليزي من اللغة الاسبانية ايصاً . استخدموا كتابة هيروغليفية تعبر عن الافكار تمثيلياً على غرار الكتابة الصينية ، فكانوا من ثم في مرحلة تطور تتقدم مرحلة الكتابتين المصرية والمسيارية السومرية اللتين تتضمنان عدة عناصر صوتية مقطعية . اما ما خلفوه من كتابات فيبحث في التاريخ والفلك والدين ، لا في الفتوحات وامجاد الامير .

- طريقتهم عشرينية : ٢٠ وحدة من المرتبة الاولى او «كن » ، تؤلف وحدة
 من المرتبة الثانية ، اي جزءاً من عشرين او «فينال » ؛ ٢٠ فينالا تؤلف
 ٠٠٠ وحسدة من المرتبة الثالثة ، او « ون » الذي يساوي ٤٠٠ كن ؛ ٢٠
 تونا تؤلف وحدة من المرتبة الرابعة ، او « كاتون » الذي يساوي ٤٠٠ فينال
 و ٤٠٠٠ كن ، الخ . القيم تزداد عشرين عشرين ، من أسفل الى أعلى ، بدلا
 - من عشرة عشرة ، من اليمين الى اليسار كما في طريقتنا.
 ارقام المايا التي تقابل ٢٨٠٠٠ وحدة .

· · · · · 18

ثلاثة وكاتون » • • • ثلاث وحدات من الرتبة الرابعة: أ عشرة « تون » = عشر وحدات من المرتبة الثالثة صفر « فينال » صفر وحدة من المرتبة الثانية صفر « كن » صفر وحدة من المرتبة الاولى

تساوي ۲۸۰۰۰ کن .

وكانوا أول من طلع بفكرة قاعدة ثابتة للتاريخ بدلا من التاريخ وفاقاً لسني ولاية الرئيس. انطلقوا من حدث فرضي بحيث إن نقطة الانطلاق (الصفر) قد سبقت اول تواريخهم المعاصرة للاحداث بـ ٣٤٣٣ سنة . كان لهم سنتان ، سنة مقدسة تبلغ ٢٦٠ يوما ، وسنة شمسية موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر من ٥ ايام . تأخرت سنتهم الشمسية يوماً كل اربع سنوات وعرفوا كيف يصححون هذا التأخير . كان حسابهم للتاريخ دقيقاً جداً على غرار ملاحظاتهم .

حددوا مدة السنة بـ ٣٦٥,٢٤٢٠ يوما ، ويبلغ النقص فيها ٢٥,١٠٠٠ ، في حسال ان سنتنا الغريغورية محددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوما وتبلغ الزيادة فيها ٢٩,٥٠٠٥ . وعرفوا مدة الشهر القمري، ومرمورة عددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوما ، وادرجوا اشهراً من ثلاثين يوما بهارة كلية جعلت الفوارق بين الرزنامـــة والهلال لا تتعدى يوما كل اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أرباع السنة ، وفي ذلك ما فيه من الدقعة . وعرفوا النجم القطبي والثريا والجوزاء ، ولعلهم قسموا بجرى الشمس الظاهر الى بروج أيضا . كانت مدنهم مراصد تنظم كل الحياة . أقاموا اهراماً بسيطة وأهراماً ذات سطوح في الاتجاهات التي يشاهد منها شروق الشمس في مواعيد انقلاب الشمس ومعادلة الليل النهـــار . كان الكهنة يراقبون شروق الشمس من هذه الاهرام بالنظر اليه بين عصي متقاطعة ويحددون التاريخ بالزاوية التي يؤلفها خط الموقع المتكون بفعل هذه المراقبة مع خطوط انقلاب الشمس ومعادلة الليـــل النهار ويعينون موعد تنفيذ اعمال الحقول . وغني عن البيان ان عودة الكواكب دوريـــا الى البشرية ، قد أوحت ببنيان واسع الاطراف من السنن المتناسقة .

اعتقد المايا ان العالم يؤلف وحدة حية . نسبوا صفات البشر الى كافسة قوى ديانية الماييعة . حافظوا على رواسب كثيرة من المذهب القائل بوجود الروح في كافسة الاجسام الحية . ولكن الكهنة تمخضوا في عقلهم بزون متسلسل السلطات . في القمة يجلس على العبش « هوناب » الخالق الذي لم يسمح سموه باللجوء اليه في الحياة اليومية. ويليه ابنه «اتزاما» سيد السياوات ، الآله الشمسي ، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزامة وعلم التاريخ وكان الها كثير الاحسان وصديق الانسان ابداً . ويليها « شاك » ، الآله الواحد في أربعة اقانيم تقابل الجهات الاربع ، الذي كان إله المطر والرعد والبرق والاخصاب والزراعة . أمدا إله الذرة الصفراء فكان إله الموداء ، وكان هنالك إله الموت ، وإله الحرب ، وإلهة القمر ، وإلهة المخرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإلهة المعرب ، وإله المعرب ، وإله المعرب ، وإله المعرب ، وإلهة المعرب ، و

فسرت الكون ومصير الانسان روايات اسطورية . « هو ناب » خلق العسالم الذي سبقته عدة عوالم خرب الطوفان كلا منها بدوره ؛ وهذا هو المصير الذي ينتظر هذا العالم . يشمل هذا العالم ١٣ سماء ، آخرها الارص ، و ١٣ دائرة جهنمية . وهو مركز الصراع بين الخير والشر، بين آلمة الخير الذين يوفرون النور والرعد والمطر والذرة الصفراء والوفرة ، وبين الهسة الشر الذين يتسببون في الحرب والاعاصير والمجاعة والشقاء . وخلستى « هوناب » انسان الذرة الصفراء . يحاول الانسان استمطاف الآلمة بالصوم والزهد والقرابين والصلوات والرقصات الطقسية والرش عالم البشري ، والذبائح البشرية . اذا كانت الضحية جنديا باسلا مقداما يقطع جسمه ويأكسه المشاهدون . النفس خالدة وستذهب اما الى الفردوس وامسا الى جهنم . المنتحرون شنقا ، المشاهدون الذين يقتلون في المركة ، وضحايا الذبائح ، والحوامل اللواتي يمتن أثناء الوضسع ، والكهنة ، يذهبون توا الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة الماكل والمشرب . أمسا في والكهنة ، يذهبون توا الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة الماكل والمشرب . أمسا في

جهنم فيعذب الشياطين الهلكى عذابا ابديا بالجوع والبرد والعياء والحزن .

التنظيم وديني مشترك . الفت المدن أحيانا اتحادات تقرر في اجتماع الرؤساء في نقطة السياسي والاجتماعي معتقى عليها ، ولكنها استمرت في العيش منعزلة ، ولم تستطع قط تأليف دولة اقليمية . ويرد ذلك الى ان المايا لم يكونوا مجهزين تجهيزاً حسنا المتغلب على المسافة . أجل لقد توفرت لديهم طرقات مرصوفة بالحجارة ومغطاة بطين كلسي ، ولكن هذه الطرقات لا تحتل سوى المرتبة الثالثة اذا ما قورنت بطرقات الد وإنكا ، .

كان مركز المدينة مدينة قائمة بحد ذاتها تنتصب فيها ، حول الساحات العامة ، المعابسة والاهرام ، والاديرة ، والقصور . ويلي ذلك مساكن الاغنياء . وتقوم أخيراً بيوت مشتتة في ضواح طويلة . ليس هنالك من شوارع ، لذلك كان منظر هذه المدن ريفيا جداً . ويغلب على الظن ان الكثافة لم تتجاوز ٣٠٠٠ نفس في الكيلومتر المربع . ربما بلغ سكان المسدن الكبرى مدرية بنفس والمدن الثانوية ٣٠٠٠٠ . وربما بلغ عدد سكان بلاد المايسا كلها ١٥ مليون نفس (مقابل مليونين في أيامنا) .

بقيت مدينة المايا مدينة ملكية من الطراز الاغريقي . بعد ان عرف المايا نظاما مماثلا الله وجينوس مح يحكمها الده هالاك فينيك م بالوراثة في عائلة واحدة من كل مدينة بحسب تسلسل البكورية الذكرية . يجمع في شخصه كل السلطات الدينية والمسكرية والمدنية يختار من بين أقراد ارستوفراطية وراثية الده باتاب م أي رؤساء القرى التابعة للمدينة . البساتاب يقود الجنود ويرأس المجلس المحلي ويفصل في الدعاوى ويسهر على ان تدفع الضريبة للهالاك فينيك وان تحرق الحقول وتزرع في المواعيد التي يحددها الكهنة . النبلاء يحافظون بكل عناية على تواريخهم العائلية وانسابهم وذكرياتهم . المحهنوت وراثي أيضاً ، والما يحق لاشقاء ابكار النبلاء ان يصبحوا كهنة . رؤساء الكهنة يتحدرون وراثيا من عائلة واحسدة . الكهنة رياضيون وفلكيون واداريون وعر"افون ومقربو ذبائح ، محكم كهنوتهم . يمارسون العرافة والنبوءة ، ويغيدون عن المطر والجفاف . الجميع يهابونهم ويحترمونهم . أما افراد عامة الشعب فيارسون ، ابا عن جد ، زراعة والقرابين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحرب والايتام والسارقون المحكومون يدا عامسلة والقرابين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحرب والايتام والسارقون المحكومون يدا عامسلة اضافة .

أما بصدد نظام التملك فنحن نفتقر الى المعلومات .

لا تثبت المدن في مكان واحد . فليس نادراً ان يهاجر السكان مدينتهم ليذهبـــوا ويبنوا مدينة اخرى في ارض جديدة من أراضيها . ويرد ذلك الى ان الزراعة في الارض المحرقة تستلزم الاحراج والسباسب. فيستحيل من ثم متابعتها أكثر من خمس سنوات في المكان الواحد ، لا سيا وان العشب يغزو الحقول بعد هذه المدة ويخنق الذرة الصفراء النامية. لذلك يقتضي استبدال الحقل قبل استنفاد طاقته الانتاجية. فعندما تصبح أراضي المدينة غير صالحة للزراعة، يتوجب نقل المدينة الى مكان آخر زد على ذلك ان الموتى يدفنون في البيوت ، والمايا نجشون الموتى ، ويغادرون بيوتهم بعد وقت معين .

كان المايا في دور انحطاط عند قدوم الاسبانيين . فبعد عهد متطاول سبق المايا انحطاط المايا ربحا منذ ٢٠٠٠ سنة قبل يسوع المسيح حتى السنة ٣٥٧ قبسل يسوع المسيح وبعد عهد اعداد منذ السنة ٣٥٧ قبل المسيح حتى السنة ٢١٧بعد المسيح اكتملت فيه حضارتهم عرف المايا العهد المدعو بالامبراطورية القديمة (٣١٧ بعد المسيح حتى ٣٩٧ بعد المسيح) . وقد بلغت حضارة هذا العهد ذروتها في الشيال الشرفي مسن و بيتن سنترال ، في و تيسكال ، و واواكزاكتوم ، بين السنة ٣٢٣ والسنة ٢٩٢ ، وذروتها الجالية بين السنة ٣٩٢ و و ٧٩٥ . ثم بدأ الانحطاط و هجرت المدن الواحدة تلو الاخرى . وحين اجتاز و كورتيس ، منطقة و بيتن ، من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢١ سـ ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢١ سـ ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الاولون و ياكسشيلان ، و و تيكال ، الا في السنة غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الاولون و ياكسشيلان ، و و تيكال ، الا في السنة ذلك الى ارتفاغ الاسعار والاضطرابات الاجتاعية وروال الانتظام الحكومي والاضطرار الى ذلك الى ارتفاغ المايا يوكاتان تدريجيا .

تلا ذلك النهضة والعهد المدعو بالامبراطورية الحديثة (٩٨٧ – ١٦٩٧). ففي القرن العاشر تسربت من الجنوب الشرقي بعض قبائل المايا ؛ اله و اتزا » ؛ التي اسست و شيئن اترا » (٩٨٩ – ٩٨٩) . واقامت بعض القبائل المكسيكية المتأثرة بحضارة المايا والخاضمة لماثلة و كوكوم » في و مايابان » ؛ والبعض الآخر في و اوكسيال » بقيسادة الاوكسيو » (٩٨٧ – ١٠٠٧) . اتحدت هذه القبائل في تحالف و مايابان » فعرفت البلاد عهد ازدهار : نهضة المايسا . ولكن حرباً اهلية اندلمت في السنة ١١٩٤ انتهت بادتصار الكوكوم بفضل المرتزقة المكسيكيين . ففرضوا على جميع نبلاء المايا الاقامة في و مايابان » كرهائن . وفي السنة ١٤٤١ ، ثار رؤساء المايا، بقيادة الكسيو في اوكسيال ؛ وقتلوا الكوكوم الا واحداً وقوضوامايابان وولوا هاربين .

بدأ حينذال غهد تفكك وانحلال . اخليت كافة المركز الكبرى . وهــاجر الاتزاد شيشن اتزاج واقاموا على ضفاف بحيره « بيتن » في « تايازال » . اما الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عائلة كوكوم فقد استسمدينة تيبولون مع شتات قبيلته . ولم يرجع الكسيو انفسهم الى اوكسيال بل اسسوا مدينة جديدة ، « ماني » . وتجددت بين الكسيو والكوكوم حرب لا هوادة فيها . وتجزأت يوكانان ولايات صفرى متعادية . زد على ذلك ان بلاد المايا التي خربتها

الحرب قد دمرتها الاعاصير في السنبة ١٤٦٤ وفتك بسكانها الطباعون في ١٤٨٠، والجفاف ووباء الجدري الذي نقل الاوروبيون جرثومته منذ السنة ١٥١١ ٬ في السنسة ١٥١٥ والسنة ١٥١٦. وقد افضى كل ذلك الى اضماف المايا معنوياً • فقد انحطت ديانتهم . واشركهم المكسبكيون في ميلهم الى الجازر البشرية ضحية للآلهة . ولم يعد فؤادهم ليسمو حتى عبادة الخالق والآلهة العظام الحسنين ، بل غدا كل شيء موضوعاً لعبادتهم بسبب جبنهم وحرصهم على استرضاء كل القوى . وفقدوا اخيراً الايمان بحضارتهم . ثقلت عليهم المصائب فاقتنعوا بأن الازمنة قد انتهت . وما ان وصل الاوروبيون حتى تنبأ الكهنة بأن المايا سيتخلون عـــن آلهتهم . ولكن متى يكون ذلك ? لاحظوا ان احـــداثاً محزنة تجرى في تاريخ المايا في فترة المشرين سنة الق تنتهي بيوم ٨ د آهو ٤: اخلاء د شيشن اتزا > الاول (١٦٧٢) > المؤامرات > الحروب ، هزيمة الكوكوم ، هزيمة مايابان ، الخ . ولما كان مثل هذه الفترة سيتجدد بين السنة ١٣٩٧ والسنة ١٧١٧ ، فقد نظروا الى العشرين سنة هذه كما الى الوقت الذي حددت، الآلهة . فان آخر مركز من مراكز مقاومة المايا ، و تايارال ، ،قد سقط في ١٣ اذار من السنة ١٣٩٧ ، دون حدوث ممركة تقريبًا، لان الوقت الذي يفصلهم عن بدء الفترة المشؤومة هو ١٣٦ يومًا:فلا فائدة من مواصلة المقاومة . ان حضارتهم ارتكزت الى ملاحظة تكرر الارتباطات نفسها لاالى التَّحليل ودرس الحدث الطبيعي درساً عقلياً منطقياً . وليس ما يـــدل على انهم تخيلوا نظاماً شمسيًا بغية تفسير الظواهر . فكانوا من ثم عاجزين عن التمييز بسين الملل الحقيقيسة ومجرد المصادفات ،وحين تعرضوا للنكبة ، انهارت اعصابهم واستسلموا لليأس لانهم لم يعيروا اهتهامهم الا الاتفاقات المشؤومة . لذلك وجد الاسبانيونُ امامهم مجتمعًا في طربق الانحلال الكامل .

٢ - حضارة العصر النحاسي حضارة الازتيك

لم يتصل الاسبانيون اتصالاً جدياً بهنود بلغوا مستوى حضارياً ارفع الا بعد اتصال دام ٢٧ سنة بحضارات نيوليتية وبعد ان تكونت آراء كثيرة حول الهنود وتحسدت مواقف كثيرة . في السنة ١٥١٩ شرع كورتيس في فتح المكسيك ، وما لبث ان حارب الازتيك.

سكان المكيك لقد عقب الفتح في المكسيك ، كا عند المايا ، وكا في كل مكان ، تدمير منظم للكتابات البلاية . ولكن ما نجا منها هنا يفوق ما نجا في بلاد المايا ، اي حوالي الثلاثين معظمها سابق الفتح . ولدينا بالاضافة الى ذلك مؤلفات الاسبانيين التي نخص بالذكر منها رسائل كورتيس ومذكرات رفيقه « برنال دياز دل كستار » ومؤلفات و غومارا » و و و اولميس » و « كلافيجرو » والمنتخبات الكثيرة التي جمها الاب « دي ساهاغون » . يضاف الى كل ذلك المستندات الاثرية العديدة التي ترفرت البحاثين .

عند قدوم الاسبانيين كانت بعض القبائل البربرية التي جمعها الاسبانيون تحت اسم «شيشيميك» تميش الى الشهال من نهر « ربو َ لر ما » وبحيرة « شابالا » ، في البورات الغنية بالصباريات في النجد الاوسط . هؤلاء هم بدو المكسيك . يتنقلون عراة . يتقنسون رمي السهام ويعيشون من حصيلة قنصهم التي يكلونها بجني الثهار ولا سيا ثمر الصبار . ليست لهم معابد ولا اصنام . يعدون الشمس . يهوون الاستقلال بشراسة ويبرهنون عن عدائهم لكل حياة اخرى .

على الشواطىء عاشت قبائل من البلديين البدائيين نسبياً ؛ القناصين ، القطافين ، أكلة لحم البشر عند الحاجة . ولكن هؤلاء البلديين كانوا اهل حضر وعرفوا بعض مبادىء زراعة الذرة الصفراء . وكانوا كذلك شديدي التمسك بالاستقلال ويشق عليهم ان تفرض عليهم ضريبة ما.

اما في المنساطق المروية من نجسه (انا هواك) وفي وديان واحواض و ميشوكان ؟ و و اوكساكا) التي تكثر فيها النبانات العشبية ، فقد عاشت قبائل مختلفة تجمع بينها عناصر حضارة مشتركة ، هي حضارة الا و تولتيك) ، المتأثرة بجضارة المايا . وقد برز بينها اتحسباد الازتيك ، ومكسيكو ، و و تزكوكو ، و و تلاكوبان ، الذي غدا اهمها سياسيا وامتدت امبراطوريته في اواخر القرن الخامس عشر من الحيط الى الحيط ومن البدو الى المايا . الا ان بعض الشعوب قد حافظت على استقلالها في هذه الامبراطورية مؤلفة الجيوب التالية : دولة و تلاكسكالا » ، دولة و متزتيتلان » ، دولة ال «يوبيس » ، دولة ال و مكستيك » في و توتوتيك ، دولة الا و تاراسك » في و ميشواكان » ، وحافظت على استقلالها الداخلي ، بدفع الضريبسة للارتيك ، و شوهيلا » ، و و هواجو تزونغا » و و تهواكان » وجزء من منطقة ال و مكستيك » و بلاد الا و زابرتيك » و وجزء من منطقة الا و هواستيك » ، و « سوكونوسكو » .

المايا و التنابه بين الازتيك والمايا المايا و فقد جاء الازتيك حضارة بلدية اصيلة على غرار حضارة الرجه التنابه بين الازتيك والمايا و فقد جاء الازتيك الفاتحون من الشهال في عهد غيير بعيد ، ربما في القرب الشاني عشر . كان موقف البلديين منهم موقفاً عدائياً ، فتشردوا زمناً طويلاً ثم اقاموا في جزر المستنقمات الوحلية ودخلوا في حرب دائمة ضد جبرانهم بغية تأميسن مياه الشفة والارض الصالحة للزراعة . لذلك تطور نظامهم في سبيل الحرب ، فانتقل من نظام المشائر الى نظام المدينة . في القرن الرابع عشر ، وفي السنة ٢٣٥٧ بالضبط ، انتخب و اكامابيتشلي ، رئيساً ، او و تلاكاتيكوهتلي ، في مكسيكو . ومنذ هذا التاريخ انتخب الا و تلاكاتيكوهتلي ، فنقلت هذه السلالة ما لم يكن سوى مدينة حقيرة في المستنقم واسس انحاد الازتبك ، مرتكز الامبراطورية . في منتصف القرن في فتح شواطىء المستنقع واسس انحاد الازتبك ، مرتكز الامبراطورية . في منتصف القرن الخامس عشر بلغت جيوش الاتحاد خليج المكسيك في ولاية و فيراكروز ، الحالية . وفي اواخر القرب بلغت مضتى و تهوانتيك ، وحدود « ميشواكان » . وحوالي السنسة ١٠٠٥ وصل القرب بلغت مضتى « تهوانتيك » وحدود « ميشواكان » . وحوالي السنسة ١٠٠٥ وصل

الازتيك الى د ربو بانوكو ، في الشهال و د شيابا ، وغواتهالا في الجنوب الشرقي .

على غرار المايا ، جهلوا العجلة والعقد ، ولم يقتنوا حيوانات جر ولا حيوانات ركوب . الا انهم سمنوا الكلاب الصغيرة والديكة الهندية والندارج . وعلى غرار المايا استخدموا بصورة خاصة ادوات نيوليتية : اوار يحتجنة لرسم الاتلام ، مقالب من الخشب الصلب ، سكاكين ، دبابيس ، رؤوس نبال ، حدود فؤوس من حجر اسود ؛ اقواس ، سهام ، مقاليم ، دافعات لقذف العنزات ، رمح من خشب قاس مجهز بصوانة حادة . صنعوا الخزفيات دونما دولاب . وحاكو اقمشة قطنية ، واقمشة ناعمة من خيوط الباهرة ، واقمشة اخرى من الياف النخيل ومن وبر الارنب الذي سد مسد الحرير . ولونوا هذه الاقمشة بالوان جمية ، النيلي ، الاخضر الزاهر ، البرتقالي ، الاحمر . ارتدى الرجال وزرة ودثاراً ، والنساء قيصاً طويسة وثوباً داخلياً . وروعيت في صناعة الدثر المرتبة الاجتاعية كذلك في تزين الرجال بالحلى الذهبية والاقراط واهلة الانف والقبعات الريشية الكبرى . وعلى غرار حضارة المليا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا حبوبها على صفيحة حجرية بواسطة المايا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا الحبوبها على صفيحة حجرية بواسطة والذبان وشربوا المشروبات الخمرة ولا سبا روح عصير الباهرة وشربوا الدخان لفافة وبيوض الذبان وشربوا المدخان الفاضة الى ذلك الشوكولاتة واليقطين والبطاطا الحاوة ، والبطاطا الصينية والذبان لوبوطة الغلون .

وعلى غرار المايا ، بلغوا مرحلة نسبة صفات البشر الى قوى الطبيعة ولكنهم بدأوا يتخطونها . ففي القية يوجد اله بجول خالق كل شيء ، لا اسم له ولا اسطورة ولا وجه ، يتحسلى ببعض بميزات و الارلي ، في الفصول الاولى من التوراة . شيدوا له معبداً وعبدوه . ولكن الالهين الرئيسيين كانا عملياً وهوينزيلوبوشلي ، المشترك مع و نتزكاتليبوكا ، هوينزيلوبوشلي هو شمس الربيع الفتية ، اله الحرب . وتنزكاتليبوكا هو شمس الصيف ، منضج الحصائد ، اله الموسيقى والرقص ، شفيع المراهمين . وكان لهم زون متسلسل السلطات يتميز جميع المته بعطابع شمسي او نجعي . مثل آلهم قوى الطبيعة المشبهة بالنجوم ووزعوا وفاقاً لجهات الفضاء الثلاثة عمر وبحسب مستويات ثلاثة ، مستوى الارض ، ومستوى سمت الرأس ، ومستوى سمت الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذ ان عدداً كبيراً من صفار الآلفة والشياطين الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذ ان عدداً كبيراً من صفار الآلفة والشياطين وفستر الازتيك العالم بالخرافات . فالآلفة خلقوا على التوالي اربعة عوالم تضيئها اربع شموس عتلفة . اضاءت العالم الاول شمس من الحجارة الكرية ولكن الاعطار اغرقت كل شيء بحول بعض البشر الى اسماك انحدرت منها الاسماك الحالية . واضاءت العالم الثاني شمس من نار . تحول بعض البشر الى اسماك انحدرت منها الاسماك الحالية . واضاءت العالم الثاني شمس من نار .

العالمين عالم شمس الظلمة . تغذى البشر فيه بالقار والراتينج . محقتهم الزلازل او افترستهم الحيوانات الضارية . ثم جاء دور العالم الرابع ، عالم شمس الربح . اقتدات البشر بالاثمار . محقتهم المواصف الهوجاء وتحولوا الى قردة . واخيراً خلق العالم الحسالي و تنز كاتليبوكا ، ، شمس الصيف ، منضج الحصائد . وسيدمر هذا العالم بدوره ايضاً .

آمن الازتيك باستمرار الحياة بعد المرت. فان عامة الموتى يذهبون الى و مكتلفتيكوهتلي، وزوجته و مكتلفسيهواتل اللذين يتسلطان على انهار تسعة تجري تحت الارض و على أرواح الموتى . ويذهب المحاربون الذين يسقطون في ساحة الوغى أو تهرق دماؤهم على حجر الذبائح والنساء اللواتي يقضين في الوضع والى السهاء وسمت الراس حيث يقيمون في قاعات منزل الشمس. ويذهب الفرقى و المجدومون ومرضى الداء الزهري الى جحيم من الدرجة الثانية . ولكن الازتيك جهاوا مفهوم المسؤولية الشخصية و والتالي احترام القانون الاخلاقي والثواب والعقاب : فالمهم في نظرهم هو الظروف التي اكتنفت موت الانسان . واذا هم تحلوا بالطاعية واللطف والبساطة والصبر و فانهم قد مالوا بالفطرة الى السرقة والمداهنة والكسل وشرب المسكرات . و وكان من المسلم به ان يكون للرجال وخارج الزواج و علائق جنسية بنساء اخسرى غير متزوجات و فكان البغاء من ثم معترفا به و ولم يكن نادراً ان يقدم عامة الشعب بناتهم سراري النبلاء و و و استسلموا الى أكثر الاهواء اخزاء وكان التلوط منتشراً جداً .

يذكرنا تجهيز الازتيك الفكري بتجهيز المايا في كافة نواحي فكرم: الطريقة العسددية العشرينية نفسها ، عد المركز نفسه باستثناء الصفر الذي لا وجود له ؛ السنة المقدسة نفسها (٢٦٠ يوما) والسنة الشمسية نفسها (٣٦٥ يوما موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوما وشهر واحد من خمسة أيام) ولكن دون التصحيح الضروري لاعادة التطابق بين السنة المدنية والسنة الشمسية ؛ وكتب الازتيك على طرائد كبرى من رق الايل أو لبد الباهرة ، مغطاة بطلاء كلسي ، تلف كا يلف الحاجز الواقي من الهواء. رسموا الاشكال بشوك الباهرة وملاوا الاقسام المداثرية بالالوان ، وكانت احرفهم رموزاً هير وغليفية تمثل اشياء مبسطة في كتابة تصويرية . ولكنهم استخدموا علامات اشتقاقية توحي الأفكار . وخطوا خطوة نحو الصوتية : فلتمثيل بعض المقاطع استخدموا صوراً او أشياء يكون اسمها أو صوتها متشابها دون اعارة معنى الرمز الختار اية قيمة . فكانت كتابتهم من ثم لفزا ينطوى على استعارات .

كل هذا يقرب من تجهيز المايا الفكري ومفاهيمهم ، مع فارق تدني قدرتهم على التجريد وقلة المتامهم لامكانات الموافقة المنطقية أو مبدأ الذاتية ، والدوانع الحقيقية أو مبدأ التناقض . ولحن نرجج ان جوهر حضارة الازتيك وجيرانهم مقتبس عن المايا .

الا ان لحضارة الازتيك مميزات تبدو مجهولة من المايا . فقسم عرف الازتيك النحاس ، ولعل مرد ذلك الى ان مناطق المنساجم لم تفعرها الاشجار الكثيفة . واستعملوا رؤوس نبال نحاسية ومناجل نحساسية وادوات نحاسية لمالجة الحجارة الصلبة .

خصـــائص الازتيك البــلاد والديوقراطيـة التــلطيــة وحافظ الازتيك على قواعد تنظيم قوي في الديموقراطية التسلطية الشيوعية . ولعل البيئة الجفرافية هي ما دفعهم الى ذلك . فان البلاد ؟ « التي شكت من بعض العقم الارستوقراطي » كتساقط عليها أمطار صيفية قليلة وغير منتظمة » قد تكون غير كافية طيلة سنوات عدة . وجلي ان هذا الوضع غير مؤات للمستثمر الفردي الصغير الذي يتعرض لان يغرق في ديونه . فيقتضي والحالة هذه القيام باعمال ري باهظة الأكلاف لا يمكن ان يقوم بها سوى الاثرياء أو الجميسات المنظمة تنظيا جيداً . لذلك كانت الموارد محدودة وغير مضمونة . فترجب الاستحصال على المواد الغذائية والخامات النباتبة المكلة من المناطق النسائية . ولكن المكسيك بلاد واسمة الاطراف تتخللها مساحات خالية لا حدود لها، وجبال وعرة واودية بعيدة القمر تسبب الدوار . يجب حمل مؤن لاسابيم عدة والاتجاه على طريقة البحارة في الحيسط ، بالاستناد الى الشمس والنجوم ، في مسيرات لا نهاية لها . ولعل خطر الموز الدائم وصعوبة المواصلات غير غريبين عن واقع كون التجارة حملة عسكرية وواقع تحول هذه الحملة بسرعة الى عملية غزو ، وواقع اعدادها وانع كون المتبادة عمد عناة الدولة من النهب والضرائب ، وواقع كون الحرب غاية هذا المجتمع وصناعته الرئيسية اذا صح التمبير .

مكسيكو تنوشتتسلان

ان الاعمال الكبرى و الحرب قد فرضت نظاما تسلطيا في الارجع. الحضارة مدنية بالضرورة الدينية والعسكرية ، وقلب الوحدة السياسية هو المدينة . عدد سكان و تنوشتنلان – مكسيكو ، يتراوح بين ٥٠ و ٢٠ الف نسمة .

وقد وصفها لنا كورتيس كا يلي : و ان مدينة مكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين اي من أطرافها وقلب المدينة فرسخين (أو ثمانية كياومترات) . لها أربعة مداخل تؤدي اليها سدود صنعية يبلغ عرضها طول رمحين من رماح الفرسان . مساحتها تعادل مساحة اشبيلية وقرطبة معا . شوارعها مستقيمة وعريضة جدا. وقد قسم بعضها بحيث يكون نصفها طريقاً والنصف الآخر قناة تجتازها الزوارق ذهابا وايابا. وقد حفرت بين مسافة واخرى خنادق تصل اقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض . وانشئت فوق هذه الحنادق الواسعة جدا أحيانا ، جسور مبنية بعوارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع . ويتسع بعض هذه الجسور المشرة فرسان يسيرون معا جنباً الى جنب » . وقد وسعت أرض المدينة الضيقة بالحدائق العائمة المشهورة المكونة من إطار من حصير وضعت في داخله ، فوق طوف من الاعشاب والخيزران، طبقة ترابية لزراعة النباتات وقامت في الشوارع الضيقة الكثيرة ساحات عامة تظالها الاشجار، شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعها في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعها في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من ساحة عامة واسعة تضم المبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حجر أحيانا ومن قصب غالباً . لم تشتمل البيوت الاعلى قاعة واحدة مم طبقة تحت السقف . حجر أحيانا ومن قصب غالباً . لم تشتمل البيوت الاعلى قاعة واحدة مم طبقة تحت السقف .

وكانت المعابد كثيرة جداً وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع . وكانت اهرامــــاً ذات سطوح ، مع خنادق وسدود .

من الديمرقراطية الشيوعية الى الملكيـــة الارستوقراطية

يبدو ان باستطاعتنا ان نميز ، في تطور الازتيك ، ثلاث مراحل تركت الاوليان منها آثاراً عيقة في الاخيرة . كان الازتيك في السحد، قبيلة من البدو القناصين والقطافين الذين ينتقلون تحسو

لجنوب حاملين معهم إلههم الشمس (ويتزياو بوشتلي » . ثم تعلوا الزراعة النصف البدوية ، وذلك حين بلغوا هضبة المكسيك الوسطى حوالي القرن الثاني عشر في الارجح . ولما كانوا فلاحين وجنوداً في آن واحد، كانوا يتوقفون أحياناً عدة سنوات في منطقة خصبة ثم يستأنفون رحيلهم . ويبدو اذ ذاك ان الخلية الاساسية في القبيلة كانت العشيرة ، وكلبولي » ، التي خضعت لتنظيم ديموقراطي يدين بالمساواة . يجتمع رؤساء العائلات ويتخذون المقررات الحامة وينتخبون رئيس العشيرة ، و كلبول » . تعود الاراضي الكلبولي جماعيا ، وتعين جميسة العشيرة قطعة لكل رجل ماذوج يستثمرها ويلزم بزراعتها . واننا غيل الى الاعتقاد بان جمية رؤساء العشيرة تتخذ المقررات بامم القبيلة . ولكن كهنة « ويتزيلو بوشتلي » يمارسون القيسادة العسكرية ويتمدون بسلطة عامة على العشائر كلها .

بعد اقامتهم في المستنقم ، فرضت الحرب ضد المدن المجاورة المعادية ، والاشفال العامـــة الضرورية لاعداد الجزر وكوم الرمل والوحل ؛ الانتقال تدريميا الى نظام المدينــــة الملكمة . بغي الجتمع شيوعيا وعسكريا. الرجال مكرسون كلهم للحرب ويتوجب عليهم تقديم الاسرى للذبائح البشرية الضروية للحياولة دون فنسساء هذا العالم على غرار العوالم السابقة . بعد ان يتوفق الحارب الى اسر أربعة محاربين اعداء ، ينتقل الى طبقة علما ، هي طبقة الد تكمفا ، ، ويستطيع حينذاك ان يصبح موظفا ، و تكومتلي ، ، أو سيداً . الوظائف انتخابية كلها . وقسمت المدينة الى عشرين حيا تخصص بكل منها عشيرة . لكل عشيرة أراضيها ، ومسكنها المشترك ، وآلهتها الحاصة ، وأعيادها ، ورقصاتها ، واحتفالاتها الدينية وادارتها الحاصة . يقوم على رأسها مجلس شيوخ يفصل في كل شيء ويعين الاراضي للاشخاص ويمكم في القضايا الخطيرة وينتخب الموظفين مدى الحياة . أم الموظفين هو الـ « كليوليك ، الذي يختار أبداً مسن عائلة واحدة ويراقب توزيم الاراضي ووضم اهراء العشيرة . ويسهر على زراعة الحقول ؛ لا سيما ما يمد منها لتأدية الضريبة ٬ ويسلم حصيلة الضريبة الى موظفي الادارة المـــالية ٬ ويقود الفرق المسكرية ويوزع المدل ويدافع عن عشيرته امام السلطة العليا . الاعتداء عسلى قوة العشيرة وتضامنها يعاقب بصرامة . يحكم بالموت على القتلة والرجال الذين يرتدون ثياب النساء ويتخلقون باخلاقهن ، والنساء اللواتي يرتدين ثباب الرجال ويتخلفن باخلاقهم ، والزناة ، ومحوري حدود الحقول؟ ومدنسي القدسيات، والحونة . الموظف السكير يخليع من منصبه . السارق ذو السوابق يصبح عبداً لمسروقه . سارق الذهب والفضة ٬ وهما معدنان إلهيا المصدر ٬ يحكم عليــه بالموت. تتحد العشائر خمساً خمساً وتؤلف اخو"ة. فكان هنالك أربع اخو"ات لكل منها قائدها المسكري ، وهو أحد الاكابر الاربعة المحيطين بالملك ، وكاهنها ، وآلهتها . وفي خارج « مكسيكو - تنو شتتلان » ، ينتخب اهالي القرى والمدن موظفيه ، « تكوهتلي » ، الذين تتموا بسلطات كبار الموظفين ، « كلبوليك » ، نفسها . تعين العشائر مجلساً قبليا وتنتخب الرئيس الاعلى ، « تلاكاتكوهتلي » ، الذي يختار ابداً من عائلة « اكاما بيشتلي » ، ويتمتع بسلطات ملكية . يكافأ الموظفون » « تكوهتلي » عن طريق اراض يستثمرها المواطنون لهم ، وأقعشة وألبسة ومواد غذائية يهبهم اياها الرئيس الاعلى من الضريبة المفروضة على المواطنين والاتاوات المفروضة على المدن المهزومة .

لاشك في ان الدولة والمجتمع قد تطورا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واوائــل القرن السادس عشر في اعقاب الفتوحات وقيام امبراطورية حقيقية . لا تزال مدينــة الازتيك مبدئيا ديموقراطية شيوعية . ولكنها تتخذ صفات الملكية الارستوقراطية بسبب توسع رقعتها، وتعقد شؤونها ، واثرائها الذي تدين به لسيطرتها على المغلوبين . فليست جمعية الشعب ، بعـــد اليوم ، ما ينتخب الـ « تلاكاتكوهتلي » ، بل هيئة انتخابيـة من المستشارين وكبار الموظفين والكهنة يعين هوقسهامنهم وتعين هي القسم الآخر. اما الكلبوليك والتكوهتلي الآخرون فلايزالون ينتخبون انتخابًا ، ولكن انتخابهم ليس سوى تقديمهم للوظيفة ، اذ انهم يستمدون سلطاتهم من ينتخبوا. فالسلطة تأتي من اعلى لا من اسفل . كل مواطن يستطيع مبدئياً شغل اعلى الوظائف. ولكن ابناء التكومتلي يستفيدون عملياً من ثقافة عليا يحصادنها في احد الاديرة ، « كلمكاك، ، بدلا من الدخول الى مدرسة الكلبولي . فبينهم يختار التلاكاتكوهتلي بالتفضيل السفراء والقضاة وحكام المدن وموظفي الادارة المالية ورؤساء الكهنة . امــا بين أكابر الموظفين ، فنــــاثب التلاكاتكوهتلي ، او « سيواكواتل ، ، يكون ابدأ احد حفدة « تلاكالالتزين ، ، شقيق ﴿ مَاتَكُوهُوْ مِنْ ﴾ الأول . ويختار اهم موظفين بعده من بين افراد عائلة التلاكاتكوهتلي : يورث التكوهتلي ابناءهم الاراضي التي اقتطعتهم اياها الحكومة للاستثبار بمثابة مرتب سنوي . فتتكون بذلك املاك خاصة على حساب الاملاك العامة، وتزرع هذه الاملاك الكبرى على ايدي فداديين فلاحين مجهولي المنشأ يعقد التكوهتلي معهم مشاركات زراعيــة لقاء أتاوات واعـــال تسخير . يتسلم التكوهتلي النصيب الاكبر من الصريبة المفروضة على المواطنين والجزية المفروضة على المدن المغلوبة الداخلة في الاتحاد . فتضاف بذلك ثروة منقولة الى الثروة العقارية . وهكذا تبرز شيئًا فشيئًا بين جمهور المواطنين ارستوقراطية متسلسلة السلطات. امــا التلاكاتكوهتلي ، و والد ووالدة ، المكسيكيين ، فتتسع سلطاته . فقد رأى الاسبانيون ، في « موكنزوهما ، الثاني ، التلاكاتكوهتلي منذ السنة ١٥٠٣ ، امبراطوراً محاطاً بطبقة من النبلاء الوراثيين.

في هذا الجمتمع المسكري والديني ، تكو"ن مجتمع غريب عن مبادئه لا يطلب سوى الربح

النجاري . فقد تنظمت في مكسيكو في السنة ١٥٠٤ على غرار ما حدث في و تلاتلالكو ، التي فتحت في السنة ١٤٧٣، في الارجم، تعاونيات تجار استحصلت على احتكار التجارة الخارجية: تصدر مصنوعات الخامات المستوفاة جزية من المفلوبين ، واستبراد المصنوعات البذخية . وقد الف التجار بجتمعا مقفلًا . فالتاجر تاجر أبا عن جد ولا يصبح تكوهتلي. التجار وضعاء ينضون الطرف في تنقلاتهم ويرتدون معطفا ملوناً ويخفون ثروتهم . ولكن ثروتهم ترفيه عليمتهم في الجتمع . وبمجاز قانوني يُمتبرون جنوداً من انسباء الامبراطور ؛ ابناؤهم بربون في الكلمكاك ؟ يحق لهم تقديم الذبيحة و لهويتزيلوبوشتلي ، ، وستلحق روحهم بالشمس على غرار روح المحاربين؛ وقد أخذ بمض كبار الاسياد يتخذون من بناتهم زوجات ثانوية . وهكذا برزت ، بالاضافة الى طبقة النبلاء ، طبقة من « البورجوازيين الرأسماليين » .

> تذلل الدرانة تكاثر الذبائح البشرية

ان شمس الربيـم الفتية ، و هويتزيلو بوشتلي ، التي ولدت من عذراء ، هي اله الحرب وهي ما اصبح الاول بين الآلمة . لهـــا كرس المرم الرئيسي في و تنوشتتلان ، ، ولأجلها تكاثرت الذبائح البشرية . ولا

غرو فبالذبائح البشرية ترتبط كل حياة هذا العالم. لكي تتابسم الشمس والنجوم طريقها ، ولكي تكل دورات الحياة النباتية ، يجب اراقة الدم البشري . الحرب ، التي توفر الضحايا ، مقدسة . الحمارب والكاهن يصارعان العدم بدون توقف . اقيم يرج في طرف السطح الاخير الذي يمساو هرم تنوشتنلان الكبير . وفي احدى القاعات الكبرى المظلمة اقع مذبحــان تغطيها اخشاب منقوشة . كان بالامكان ، حين تألف الاعين الظلمة ، رؤية خلقتين جسيمتين ربيلتين ، تتزكاتليبوكا ، شمس الصيف ، منضج الحصائد، روح العالم ، محفورا في حجر الاوبسيديين الاسود ، تلتف حول جسمه شياطين صغيرة اذنابها اشبه باذناب الثعابين ، ووجهه أشبه بخطم الدب ، وعيناه براقتان·· وهويازياوبوشتلي ، المحارب ، الانجل ، الذي تلتف حول بطنه ثعابين كبرى من ذهب .

امامها ضحى الكهنة بأسرى الحرب او بالاطفال ، يلقونهم ارضاً ويلوون جسمهم الى الوراء حتى يحدب الصدر . يفلم الصدر حينذاك بضربة سكين صوانيـــة . وينتزع القلب ويلقى في مجمرة يحرق فيها البخور ويحمل امامٌ قائيل الآلهة التي ترش بدم الضحايا . ويقطع الجثان ويقدم في الولائم الطقسية . يسود الغرفة جو فساد ونتانة . الجدران والارض ترشح دما يتحول ، حين يجف ، الى طلاء لزج سوداوي اللون . التجيف يقزز النفس . أما الكهنة ، المرتسدون ثوبا قطنماً قاتماً يتقطر الدم منـــه ، فيبدون كمن اختطف بالروح ، شعورهم الطويلة ملطخة بالدم ، وايديهم ملوثة بالدم الحديث الاراقة ، واصابعهم مرتعدة ومرتعشة ، ويعرضون تشويهات جسمية فظيمة ٤ لا سما آذانا مزقها معظمهم لرش وجه الآلهة بدمائها . ولا غرو فان دماء بعض الآلمة قد بذلت في سبيل خلق الشمس وحركتها .

عندما يخرج المرء من القاعة ٤ يشاهد معدد كتزاكواتلكس ٤ ١ اله الربح ومستكر كأفة

الفنون الذي تشوى فيه لحوم الضحايا . صنع مدخله بشكل شدق مفتوح تبرز منه الاسنات ، على غرار مدخل جهنم في د اسرار ، القرون الوسطى .

رافقت الذبائح في الاعياد الكبرى السنوية الاربعة عشر اناشيد الشعب تكريما للآلهة . الناس كلهم يثملون لان الثمل اعتبر مقدساً في هذه الظروف ؟ الشرائع المدنية كلها تعلق ، ويرافق وليمة اللحم البشري الطقسية حرية جنسية مطلقة . ويقدر عدد الذبائح البشرية بعشرين الف ضحية سنويا .

لعل هذا الشعب الذي نظر اليه الاسبانيون عند قدومهم وكأنه الشياطين بالذات ، كان في مرحلة انحطاط. فقد دلت بعض الاطلال والحطام على انه توصل في بعض النقاط الى معارف هندسية وزراعية وصناعية دونها معارفه في اواخر القرن الخامس عشر. ومهما يكن من الامر فان امبراطوريته ، الحديثة العهد والمنشأة في وقت قصير ، لم تكن راسخة الاركان. وما كان المغلوبون ليترقبوا سوى سانحة للثورة والمنافسون سوى سانحة للهجوم.

۳ - حطارات عصر الشبه حضارة الدانكا»

جاءت مواجهة الاسبانيين لارفع حضارة في آخر المطاف. وصلت المملومات الاولى الى باناما في السنة ١٥٢٢ . ولكن « فرنسوابيزار » لم يشرع في الفتح الا بعد انقضاء عشر سنوات .

يتوفر للمؤرخين ، بالاضافة الى عدة أثرية ضخمة ، مؤلفات رصينة مبنية على الملاحظات الشخصية اثناء الفتح ، او على استقصاءات اجريت مع الهنود الباقين على قيد الحياة بعد الفتح . واهم مؤلفات الاختصاصيين هي و تاريخ العالم الجديد » لليسوعي و برنابا كوبو » ؛ و تاريسخ حوادث البيرو » له و بدرو دي شيزا » ، و « ليون » ، احد جنود بيزار ، الذي اجتساز امبراطورية الانكامن الشال الى الجنوب ووضع يوميات استفاد منها في كتابسه : «حصيلة وتفاصيل » سيرة و خوان بيتانزوس » ، الذي كان قد تزوج من ابنة و اتاهوالبا » آخر اباطرة الانكا، وتكلم لفة الكيشوا وشاهد انهيار الامبراطورية ؛ مؤلفات وخوان بالو دي اوندغاردو » حاكم كوزكو ، الذي اجرى في السنة ، ٥٥٠ تحقيقا حول شكل حكم الانكا وديانتهم ؛ واخيراً التحقيقات حول تاريخ الانكا وعاداتهم التي اجريت بين السنة ١٥٨٠ والسنة ١٥٨٢ ، بامر من نائب ملك البيرو » و فرنسيسكو دي توليدو » . اما معظم المعلومات التي يوردها و غارسيلازو دي لافيغا » والتي كانت موضوع ثقة لفترة طويلة من الزمن ، لانه كان ابنا لجندي اسباني واميرة من أميرات الانكا ، فلا يعيرها الاختصاصيون اليوم اية همية .

كانت امبراطورية الانكا حديثة العهد عند قدوم الاسبانيين . فقد ارتسمت في الثلث الاول

من القرن الخامس عشر . وكان الانكاحتى ذاك التاريخ محصورين في مدينة كوزكو تقريبا . وكانت الشموب ، حتى مداخل المدينة ، شبه مستقلة . دخل الانكا حروبا كثيرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالسلب وفرض الجزية ، اذا ما تغلبوا على سكان احدى المدن ، ويعسودون الى مواقعهم .

بذل المحاولات الاولى، في سبيل تنظيم الفتوحات ، امبراطور الانكا الثامن ، وفير اكوشاه . ولكن الامبراطورية ما زالت صفيرة الرقعة . وفي شيخوخة فيراكوشا ، هاجم كوزكو هنود من الشيال ، هم اله د شانسكا ه ، اول شعب محارب في ذاك العهد . تولى الدقساع ابن فيراكوشا ، يوبانكي ، وصد الهجوم ، ثم قاد جيش الانكا وهسزم الشانكا تكراراً في اراض منبسطة . فبسط الانكا نفوذهم على البيرو وفعة واحدة .

توج يوبانكي في السنة ١٤٣٨ ، بعد رفاة أبيه ، وحمل اسم « باشاكوتي » . فوسع سيطرة الانكا جنوبا حتى مجميرة تيتيكاكا التي بلغها في السنة ١٤٦٣ والتي وجد الـ « ايمارا ، بالقرب منها، وشمالا حتى « كيتو » . وهو انما وضع القواعد الاولى لنظام الانكا الاداري .

جلس ابنه و توبا ، على عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٧١ حتى السنة ١٤٩٣ . واصل قتوحات أبيه وهزم سكان و كيتو ، ، ال و كارا ، ، واستولى على ما يؤلف اليوم يوليفيا وشيلي حتى مدينة و كونستيتوسيون ، الحالية . واحتل ، في ما أصبح الارجنتين ، الانجساد الشمالية الفربية ومنطقة و توكومان ، . وهو الذي أعطى تنظيم الانكا الاداري مميزاته النهائيسة ، في الارجح .

خلفه و هوينا كاباك ، . اعتلى عرش الامبراطورية منسند السنة ١٤٩٣ حتى السنة ١٥٣٧ و واصل الفتح . فبلغ ، الى الشمال من كيتو ، الحدود الحالية بين الاكوادور وكولومبيا . قصم ثورات عديدة وسار قدماً في تنظيم الامبراطورية . عند وفاته ، افاد الراصدون في و تومبز ، ثورات عديدة وسار غريبة لحيانية تقيم في بيوت كبيرة عائمة ، تطوف في البحر . لم تكن هسند المسوخ سوى الاسبانيين بالذات .

لسنا ندرك تهاماً المبررات الاقتصادية لحروب الانكا . فسكانت معظم البلدان المحتلة من الفقر بحيث اضطر الانكا لأن يعدوها بالمواد الفذائية . اضف الى ذلك ان امطار منطقية الاندس غير منتظمة واراضيها الزراعية ضيقة ومحصورة في تخوم المناطق البركانية . فكان الجوع من ثم خطراً دائماً مداهماً . لذلك فان الفتوحات قد انجزت في سبيل المجد اولاً ، وفي سبيل المجد عن المدينة المقادة ومنعهم بذلك عن الاقسدام على الثورة ، وقد نظر سبيل الحرب اخبراً كما الى حملة عسكرية مقدسة قستهدف نشر ديانة الانكا .

سبقت العمليات المسكرية مساع دبلوماسية . أوفد المندوبون الى القبائل التشديد على قوة الانكا وعاذير المقاومة ، ولمرض الوراثة على الرؤساء مع امتيازات اخرى كثيرة . وقسد

فاوض المندوبون ؛ على العموم ؛ اناساً لا يتمتعون بسلطة ثابتة يمثل نظام الانكا في نظرهم تقدماً كبيراً . لذلك غالباً ما جر خضوع الرؤساء الى خضوع القبائل .

وان لم يحدث ذلك ، فلا مناص من الحرب . الانكا كلهم ملزمون بالخدمــــة العسكرية . الجيش بجهتز تجهيزاً حسناً بسيوف من الشبه وفؤوس من الحجر ومقاليح وتروس ودروع من زرد . ينتقل الجيش صفوفاً منظمة ، ولكنه لا يعرف ، على ما يبدو ، خوص المعركـــة او المناورة ، كلا منظماً . فلا تلبث المعركة ان تتحول الى مجموع معارك بين افراد .

ينظم الجيش حركاته وفاقاً لتنبؤات العرافين والعائفين. . تقدم الذبائح قبل المعركة ويعزى النصر للآلهة .

استولى الانكاعلى بعض المالك احياناً ، كملكة الده شيمو ، ، بين ليا وكيتو ، التي عرفت طبقة من الاشراف الوراثيين . الا انهم اخضعوا في اغلب الاحيان عدداً كبيراً من القبائل لا تخضع لأي تنظيم سياسي ، وشتاتاً من الداأيلو ، . اما الايلو فوحدة انتاجية ، او رهط من الانسباء المجتمعين للقيام بعمل مشترك في مساحة معينة ، اشبه بالزمرة الالغونكينية .

ما إن يستول الانكاعلى اقليم من الاقاليم حتى يرسموا له مصغراً نافراً من الغرين تبرز فيسه الجبال والاودية والانهار والقرى والحقول المزروعة ، النح . يحصون السكان ويدونون النتائج بواسطة حبال قصيرة مزودة بعقد «كيبو » كانت لهم بمثابة اختزال . بعد الفتح الاسباني ، املى بعض اليسوعيسين مبادى الدينية على عدد من البلديين المتقدمين في السن . دونها هؤلاء بمناية بواسطة عدد من العقد . ثم رددوا بواسطة عقد الكيبو اللاهوت الذي علمه اليسوعيون . وكان لدى الانكا دور كيبو ، اشبه بدور الكتب ، تتضمن شتى الاحصاءات عن الامبراطورية .

ترسل الكيبو والمصفرات الى الامبراطور الذي يدرسها ويأمر باعسادة توزيع القرى والسكان. وانما كان لا بد من مجهود جماعي كبير لتوسيع الاراضي الزراعية باحسداث الارصفة الترابية ، وللري بواسطة الاقنية ولتجويد التربة بسياد ال ه غوانو ، وكان قد سبق للايمارا ان سلكوا هذه الطريق بداعي الحاجة ، وكانت القرى، قبل الفتح ، قائمة على مرتفعات بعيدة عن الحقول . فأسكن الانكا المغلوبين في قرى جديدة قريبة من حقولهم بغية مضاعفة انتاج العامل . واعادوا تكوين الايلو المحدود باضافة عدة عائلات مختلفة اليه . وجمعوا عدداً من الايلو في قبيلة واحدة عدداً وجمعوا في قبيلة كبرى واحدة عدداًمن القابائل الصغرى . واذا لم يبرهن السكان عن طواعيتهم ، اقصوا العصاة واستبدلوهم بمستعمرات عسكرية من الكيشوا

يرسلون ابناء الرؤساء الى كوزكو للتخلق بأخلاق الانكا . يتابع هؤلاء الابناء طيلة سنوات اربع دروساً عملية . في السنة الاولى : لغة الكيشوا ؟ في الثانية : لاهوت وطقوس ؟ في الثالثة : تدرب على الكيبو ؟ في الرابعة : تاريخ الانكا وتقاليدهم السياسية . الامبراطور يمين الرؤساء المحليين موظفين . يبادر الانكا الى بناء مخازن للمواد الغذائية في البلاد المحتلة

حيث يكون مستوى الحياة منخفضاً جداً على العموم . ويتعهدون ثغذية السكان . وينظمون العمل . وينظمون الكسوا لغة ادارية .

تم التوحيد بسرعة فائقة . زالت مثات اللغات السابقة لفتح . لم يبتى سوى الكيشوا والايمارا وربما لغتار حضاريتان اخريان . استمرت لفة الكيشوا في العهد الاسباني . نسي البلديون مؤسساتهم ، والتنظيم الوحيد الذي بقيت له قو ته بعد الفتح الاسباني هسو تنظيم الانكا . اعتقد بعضهم ان اركان امبراطورية الانكا تزعزعت ، قبيل قدوم الاسبانين ، بثورات المغلوبين من شيمو وكارا انتصروا لأحد ابناء الامبراطور المتوفى في الارجح . ولكن بعض المؤرخين لا يعترفون بواقع هذه الثورات ويردون الاضطرابات الى مجرد منازعة حول الحلافة . لم يكن هنالك من نظام خلافي . كار الامبراطور يعين بين ابنائه ، المولدين من خسين او ستين امرأة من نساء حرمه ، الابن الذي يريده خلفا له . ولكن و هوينا – كابك ، توفي متأثراً بعرواء دون ان يستطيع اجراء هذا التعيين . فكان ان هواسكار ، بكر ابنائه من امرأته الرئيسية ، اعلن نفسه امبراطوراً . ولكن اخاه من امرأة اخرى ، اتاموالبا ، الذي كان في كيتو ، على رأس الجيش الكبير الحشود لحاربة سكان كولومبيا الحالية ، اكد حينذاك ان وهوينا – كاباك ، قد قسم امبراطوريته ، وهو على فراش الموت ، الى شطرين متساويين احدها لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر حليف اتاموالبا ، الذي اعدها لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر حليف اتاموالبا ، قائد الجيش المتحرك . ولكنه لم يفكر بعد ذلك بتقسيم الامبراطورية التي يراها بعض المؤرخين طويلة جداً : لم يكن من ضرورة لذلك .

وفرت لامبراطورية الانكا وسائل انتاج تفوق وسائل امبرطورية الازتيك . فقد استعمل الانكا الحراث الرّجلي ، وهو اشبه بعصا تبلغ ١٤٨٥ م طولاً ، مزودة برأس شبهي صلب وبركاب يتبح غرزها في الارض بواسطة الرجل التي ينوء عليها الفلاح بثقل جسه ، لذلك كانت حراثتهم ابعد عمقاً ، وامكن القيام بها في اوعر تربة . وكانت مساحيهم مزودة بشفرة شبهية عريضة جداً نمكن من تهشيم اشد المدر قساوة . وكان هاونهم المعد لسحق الذرة الصفراء افضل الى حد بعيد من هاون المكسيكيين . فقد استعمل هؤلاء اسطوانة يجب التثقيل عليها بقوة . اما هاون الانكا فكان مؤلفاً من قاعدة مربعة الزوايا توضع عليها الحبوب ثم يوضع فوقها حجر آخر ثقيل جداً ، وحينذاك يصبح بامكان فتاة في العاشرة او الثانيسة عشرة من سنها تحريك الحبور الأعلى الذي يسحق الحبوب بمجرد حركته . فكان تحضيد الطحين من ثم اسرع منه بواسطة الاسطوانة المكسيكية ، ولم يستلزم تجميد شخص كبير ، وللحياكة كان المكسيكية على احدها و تركب خيوط السدى بين القضيبين . و ترقع بعد ذلك الخيوط فير الحافكة على احدها و تركب خيوط السدى بين القضيبين . و ترقع بعد ذلك الخيوط بتماقب مطرد بواسطة عصا و تدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة والخيوط غير المرفوعة بما الذي يستطيع بذلك شد النول اليه بتماقب مطرد بواسطة عصا و تدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة الما الانكا فقد ارتأوا ربط القضيب الثاني بجسم الحائك الذي يستطيع بذلك شد النول اليه

دون اللجوء الى ركبتيه او يديه ، بمجرد انحناءة منه الى الوراه ، بسهولة ودون عناء يذكر ، فتبقى يداه طليقتين ، وتزداد سرعة العمل ازدياداً كبيراً . واتاحت لهم المخول الشبهية نقـل حجارة اكبر ؛ كما اتاحت لهم المطارق والسكاكين البرونزية معالجة الحجر معالجة سريعة . فيتضح من ثم ان طاقتهم الانتاجية كانت فوق طاقة المكسيكيين الى حد بعيد .

وتفوقوا عليهم بوسائل النقل ايضاً . فقد ربى الانكا حيواناً داجناً هو الجمل الاميركي الذي يستطيع أن ينقل بين ٢٠ و ١٠ كيلوغراماً ويقطم بين ١٥ و ٢٠ كيلومترا في اليوم. يضاف الى ذلك استفادة الانكا من لحم هذا الجل وصوفه . وشق الانكا شبكة طرقات ؛ طريقين من الشال الى الجنوب ؟ تحاذي احداهما الشاطىء ابتداء من و توميس ، حتى و اروكويبا ، . يتراوح عرضها بين اربعة وخمسة امتار في الاودية المروية ، وتحيط بها جدران واشجار مثمرة وقناة ماء ، ولا تتعدى مسلكا بسيطاً في الصحاري حيث ترسم بالاوتاد ؛ وتمر الثانية في الجبال المرتفعة ابتداء من حدود كولومبيا والاكوادور حتى تركومــــان ، مروراً بكيتو وكوزكو وبحيرة تيتيكاكا ؛ وهي اضبق من الاولى؛ اذ انها غالبًا ما لا تتجاوز المتر عرضًا ؛ ولكنها جهزت بالسلالم في اوعر المنحدرات ؛ ورصفت احيانًا مججارة مسطحة ؛ وطرقـــاً معترضة تصل المدن بالشاطىء والمدن ببعضها ايضاً. واقيمت هنا وهناك وهنالك ، على شبكة الطرقات ، مخارن مواد غذائية لتموين المسافرين ؛ ومراكز عدَّائين تتبع نقل خبر بــــين ليما وكوزكو ، اللتين تفصلها مسافة ٢٤٠ كيلومتراً تقريباً ، في ثلاثة ايام ، بينا اقتضى للبريد الاسبساني ١٣٠ يرماً على ظهور الاحصنة ؛ في السنة ١٦٥٠ . وانشئت فوق الانهـــار والاودية جسور كبرى ؛ معلقة ؟ قوامها خسة حبال ضخمة متوازية قطر الواحد منها ١٠ سنتمتراً ؟ وحبال اخرى ممترضة ، تعلوها كلها اغصان الأشجار . وهكذا استطاع الانكما ، في بلاد توزعت مناطقهـــا الزراعية بين شواطىء البحر وقمم الجبال ٬ ان يستفيدوا ٬ للتمون ٬من محاصيل المناطق الحارة والمناطق المتدلة والمناطق الماردة .

كل الحقول الزراعية ملك الانكا . بعضها يخصص للحكومية ؟ وبعضها لتعهد المعابد ؟ وبعضها يوزع للاستثار على الافراد . ولكن العمل مشترك في كل الحقول ؛ ينفيذ تحت اشراف مدير وتنشد خلاله الاناشيد الدينية . كل المنتجات موحدة . الخزفيات تصنع بالجملة ولا تتمدى تماذج معدودة ذات طابع عملي .

الديانة هناايضاً تنسب صفات البشر الى قوى الطبيعة ، وتنطوي على زون متسلسل السلطات، ولكن الإنكا توصلوا الى مفهوم اوضح من مفهوم الازتيك ، والى اجلى مفهوم لكائن اسمى لا اسم له ولا بداية ولا نهاية ، خالق كل الكائنات وسيدها المطلق ، عائش في السياوات ، ويأتي بين حين وآخر الى الارش ، ويثل بصورة انسان . ان مذهب التشبيه هذا ينطوي على تقدم في الارجح . وهو يمني بصورة اكيدة ان الانكا تصوروا الاله شخصاً متميزاً عن الكون ، والديانية شأنا خاصا ، وحديثا بين الانسان والاله .

وثفوق الانكا في تعاليمهم الاخلاقية ايضا. فالذهاب الى الفردوس او الى جهنم ، عند الازتيك ، ليس مشروطاً بنوعية الاعمال بل بظروف الموت. اما عند الانكا فالميت يلذهب الى الفردوس ، الى الساء ، ليعيش مع الشمس ، اذا كان قد قضى حياة صالحة . ويسلذهب الى جهنم ليقاسي الجوع والسبرد في جوف الارض ، اذا كان قد ارتكب اعمالاً تسترذلها التعاليم الاخلاقية . كانت الفاية من الاعتراف بالخطايا عند الازتيك تجنب عقاب القضاء المدني ، اما عند الانكا ، فالهدف من الاعتراف بالخطايا هو الحصول على حل من اهانة الإله ، والخطايا هي : القتل ، السرقة ، الزنى ، افساد الاخلاق ، عصيان الامبراطور ، الاهمال في عبادة الآلهة . اما الكفارات فهي الصوم والاغتسال المطهر ، ولا سيا الصاوات .

الا ان الديانة ابقت على ذبائح الاولاد ، بالمئات ، حين يمثلي الامبراطور المرش او يصاب
 بمرض ، وفي حالات المجاعة والهزيمة والطاعون .

مزتكز المجتمع العائلة الكبرى ذات النسب الواحد لجهة الاب. الزواج محصور في نطاق العائلة . تجتمع العائلة حول المومياءات لعبادة الاجداد . لذلك تتألف المدن من عدد من الحظارات يقابل عدد العائلات الكبرى ويضم كل منها خمسة او ستة بيوت ، وتتوزع العائلات الكبرى الى وحدات عمل ، وأيلو ، ، حول جد العطوري . يخصص الزوجان سنوياً بقطعه ارض يستثمرانها وتكفي لاعالتها ، وتوبو ، ويضاف اليها نصف وتوبو ، كاما رزقا ولداً .

عم و باشاكوتي و نظام الأياو على كل ادارة الامبراطورية . كل امبراطور ، ابن الشمس ، يتمتع بسلطة مطلقة ولكنه مازم باحترام العرف وتوفير الاود لرعاياه . ولكل امبراطور حريمه وابناء كثيرون . الاعقب بالذكور المنتسبون الى امبراطور واحد يؤلفون و ايلو ملكياً ، مسؤولاً عن عبادة الجد . كان عدد الاباطرة قد بلغ ١١ في السنة ١٥٣٢ ، فكان في كوزوكو ١١ ليلو ملكياً ، وقد ضم ايلو امبراطور الانكا الاول ، و مانكو - كاباك و، خساية عقب ، وارتفع هذا العدد الى ٥٦٧ في السنة ١٦٠٣ ، الامبراطور يختار من هذة و الأيلوات ، الملكية كار موظفى الادارة .

اعضاء هذه و الايلوات ، الملحية مم الانكا بالنسب . ولكن الانكا انشأوا طبقسة نبيلة من الانكا بالامتياز ، تضم الرؤساء الحليسين الذين يتكلمون الكيشوا وانسالهم الذين يربون في كوزكو . واخيراً نظموا طبقة نبيلة قاللة وراثية دنبا تضم موظفي الادارة الذين لا يتكلمون الكيشوا ، لا و كوراكا ، . كل هؤلاء النبلاء موظفون معفون من الرسوم واعمال التسخسيد ، يمتاشون من محاصيل حقول الحكومة ويتقبلون الهدايا من الامبراطور ، الزوجات ، الاقشة ، الرياش ، الاواني ، الجمال الاميركية ، اراضي الاستثار ، النج ، فنجم عن ذلك تميز بالثروات ، الاان واحداً لم يملك وسائل التاج .

منذ السنة ١٤٦٠ قسمت الامبراطورية الى اربع حكومات ، وقسمت كل حكوهات الى

ولايات تضم مقاطعات وضمت كل مقاطعة عدة وايلوات و يتولى ادارة الحكومة و آبو و يختار من عائلة الامبراطور ورؤساء الحكومات الاربعة يؤلفون مجلس الدولة ويتولى السلطة في كل ولاية حاكم انكا يميل طبعاً الى جعل منصبه وراثيا ويجمع في شخصه الصلاحيات القضائية والادارية ويتوزع الوظائف الاخرى و وراثيا و بالتسلسل و ورؤساء الـ ١٠٠٠٠٠ و ورؤساء الـ ١٠٠٠٠ ، الخ ورؤساء الـ ١٠٠٠ ، و

الامبراطورية لا تمرف نقداً ولا ضريبة . ولكن الجميع يخضمون المعمل القسري. المواطنون موزعون طبقات بحسب سنهم وطاقتهم على العمل . لا يطلب منهم سوى القيام باعمال صغيرة بعد بلوغهم الحسين . الجميع مازمون بالعمل في حقول الحكومة وحقول الكهنة وحقول الجماعة وحقول الجياران . ولهم قدوة في ذلك بالامبراطور ورجال البلاط والرؤساء . ولكن مدة العمل تختلف باختلاف مراتب المجتمع . كل ما لا يترك لاستهلاك الافراد يخزن في مخازن الدولة حيث يجمع كل ما هو ضروري لاعالة الجيش والنبلاء والموظفين والارامل والشيوخ والمقمدين والصناعيين وعائلات الجنود المحاربين ، وموظفي البريد وحمسال المناجم ، والشعب كله اذا احدب الحصاد .

كل مواطن ملزم بالـ و ميتا ، ، بالاضافة الى العمل في الحقول . فالحكومة تصادرسنويا هنديا من اصل عشرة . الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٢٠ سنة يستخدمون كمد اثين لنقـــل البريد ؛ والرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة يستخدمون في المناجم او المشاريسم العامة الكبرى او فرق المشاة . ويصبح غيرهم خدماً او موظفي ادارة .

يعفى من الميتا والعمل في الحقول الـ « ياناكونا ») او اعضاء الفئات التالية من الصناعيين : النجادة > الحدادور ... > الخزافون > الصاغة > صانعو الاسلح ... > نجاروا الابنوس > الذين تعيلهم الحكومة . لا يعملون الا في الخازر ... الامبراطورية > ويوزع الامبراطور انتاجهم على موظفي الادارة بحسب الخدمات المؤداة .

ولما كان الانتاج يتجاوز الحاجات بصورة عامة ، تعاطى الامبراطور تجارة رسمية كبرى ، وجاز لكل رئيس عائلة مقايضة فائض انتاجه بفائض انتاج سواه . فنجم عن ذلك تفاوت في الثروات . ولكن هذا التفاوت لم يكن ليتيح الانتقال من طبقة اجتاعية الى طبقة اجتاعية اخرى او قلك وسائل الانتاج .

راقب الانتاج والاستهلاك جيش من المفتشين . وكانت العقوبات قاسية جدداً ؟ فيلقى مثلاً بالمرظف الذي يخالف واجبات منصبه الى الثعابين السامة ؟ ويضرب المواطن الكسول مججر ثقيل على سلسلته الفقرية .

لم يعتبر الهنود انهم اجروا صفقة رابحة بانتقالهم من حكم الانكا الى الحكم الاسباني . لا ريب في ان حكم الانكاكان استبداديا ، ولكنه حاول ان يكون عادلا وان يوفر لكل فرد ما يحتاج

اليه في حياثه . الآ أن الهنود اعتبروا الحكم الاسباني أستبداد فاتحين ٬ ظالمـــأ ٬ يتسذرع بالحرية والملكية والمنافسة ولا يكترث عملياً لرفاهية الفرد ولا لحياته نفسها . ويبدو أن الهنود ٬ حتى المغلوبين وابناء المغلوبين منهم ٬ تحسروا على حكم الانكا .

يتبين من كل ما سبق ان الاوروبيين وجدوا امامهم ، في كل مكان ، شعوبا منقسمة بعضها على بعض ، وسائل عملها دون وسائل عمنهم ، اضطرت الى الاستسلام عاجلاً ام آجلاً . والشعوب التي تفلب الاسبانيون عليها بسرعة وحققوا في مناطقها حضارة مختلطة يغلب فيها الطابسم الاوروبي ، هي بالضبط ابعد الشعوب رقياً وتقدماً ، اي شعوب المكسيك والبيرو التي الفت التنظيم السياسي والخضوع لسلطة حل محلها الاسبانيون ، والتي كانت قبائلها اقل القبائل بعداً عن الاوروبيين عقلية وتفكيراً . اما في المناطق الاخرى فقد برهن الهنود عن عناد في العداء ، ونفور من كل اندماج . وغالباً ما ادى استبطان الاوروبيين الى افناء مثل هؤلاء الهنود او الى اقصائهم عن مناطقهم .

وهضل وهشاين

الأوروبيون والأعراق الملوبنة في أميركا

١ ـ الاوروبيون في اميركا

الفضاء الاوروبي الجديد

كان الهدف من رحلة كولومبوس البحث عن الهند ، وحين بلغ اليابسة

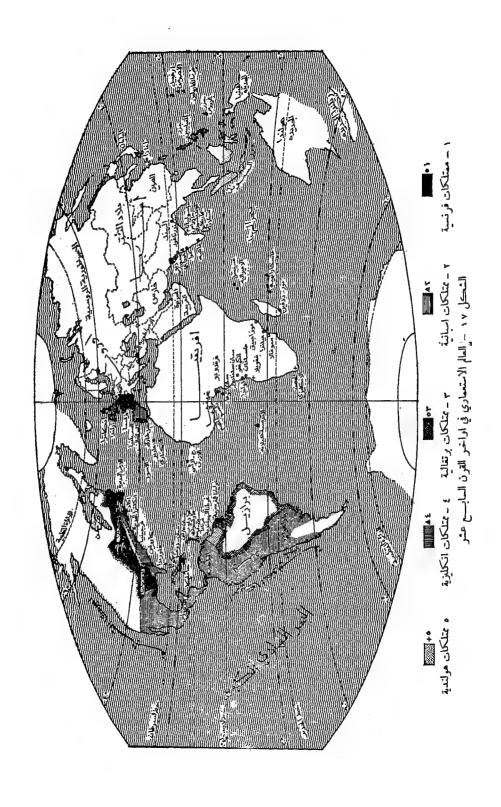
اكتشافات عقبة:

اطلق على البلديين الاول الذين رآم اسم الهنود الذي احتفظنا به على الرغم قارة اميركا الجديدة من عدم انطباقه على الواقع.وصل كولومبوس في رحلته الاولى الى هايق التي اسماها و اسبانمولا، وترك فيها المستعمرة الاوروبية الاولى وعاد الى اوروبا في شهر كانون. الثاني من السنة ١٤٩٣ مقتنماً بأنه أما بلغ اراضي د سيبنغو ، الامامية ، أي اليابان . فلم يبق من مسألة ، في نظره ونظر معاصريه ، سوى بلوغ القارة نفسها وبلاط امبراطور الصين . وغني عن السان ان رحلات عديدة لاحقة لم تسفر عن اية نتىجة . في السنة ١٥٠٠ بلغ البرتغالي و كابرال ، بدوره شواطىء البرازيــل في منطقة رأس د سان ــ روك ۽ . كان الهدف مــن رحلة كايرال الدوران حول افريقيا . تقيد بالتعلمات الملاحية البرتغالية ، فابتعد منذ د الرأس الاخضر ، عن الشاطىء الافريقي وتوغل غرباً رغبة منه في ان يبلغ اضيق منطقة هدوء استواثية ، وفي ان تتحنب كذلك الرماح والتمار المعاكس في محاذاة الشاطىء الغربي لافريقما الجنوبية . فكان من حسن تصرفه أن التيار الاستوائي الجنوبي حمله إلى البرازيل ، ثم أتاح له تيار و الغويان ، أن يبلغ جزر الانتـل الصفري . وقد أخــذ الملاحون والجفرافيون يفكرون جديا بانهم ليسوا امــــام Tسيا بل امام قارة جديدة . وقدم « بالبوا » البرهـــان على ذلك في السنة ١٥١٣ . انطلق من « داريان » مع ٢٠٠ اوروبي و ١٠٠٠ هندي واجتاز مضيق باناما ، فشاهد امامه ٍ، على مد" النظر؛ تلاَلُو امواج محيط جديد ؛ المحيط الباسيفيكي . فازُدوجت الهند؛ وأصبح هنالك الهند الشرقية ، القديمة ، الحقيقية ، والهند الغربية ، بديلة الهند ، أميركا .

كان رصيد المفامرة نحو الغرب ، في نظر الاوروبيين ، فشلا ذريعاً وانهيار آمال زاد مـــن المنافس. فغدت المسألة الكبرى منذ ذاك الحين ايجاد بمر الى الفرب من خلال الحاجز الاميركي. فجاءت رحلة (ماجلان ، في السنة ١٥١٥ مأثرة رياضية لا تنطوي على الهميه تجارية تذكر. لذلك لم يكن البحث عن الممر الشمالي الشرقي وعن الطريق الى الصين اقل منه عن الامازون . فوجـــه الاسيانيون عدة بعثات الى جنوبي الولايات المتحدة الحاليـــة . وكان البرتغاليون السباقين الى بلوغ شواطى. « اكاديا » و « الارض الجديدة » . وقام الفرنسيون بمحاولات جدية. فقد ارسل فرنسوا الاول في السنة ١٥٢٣ ، إلى شمالي المستعمرات الاسبانية ، ﴿ فَرَّازُنُو ﴾ الذي خيل له انه رأى،وراء مضيق يبلغ ميلا عرضًا ، البحور التي تقوم على شواطئها الهند والصين و «كاتاي ، ، في حين لم يكن ما رآه سوى مجيرة صغيرة ، و بمبليكو سونسه ، ولكن د بحر فرازانو ، الذي أبعد تدريجيا نحو الغرب قد ورد ذكره على الخرائط حتى القرن الثامن عشر ، وبين السنة ١٥٣١ والسنة ١٥٤١ حمل فرنسوا الاول د جاك كارتيه ، على القيام بثلاث رجلات. دخل جاك كارتيه بجرى 1 سان - لوران ، وصعد فيه حتى جزيرة (مونزيال ، ووضع بده على تلك البقاع باسم ملك فرنسا . وظن بانه غدا على قاب قوسين من البحر الطلق وبحر الصين . واكثر الانكليز ولندن ، برَّحلة انتهى بها الى «لابرادور» وجزيرة « الرأس البريطاني » . وفي عهد « اليزابت» ، واصل ﴿ فروبشر ﴾ و ﴿ هدسون ﴾ و ﴿ بافن ﴾ الجهود لمنفعة الشركات التجارية وعلى نفقتها ﴾ بينا حـاول السر « همفرى جلبرت » و « وولتر رالاي » في « فرجينيا » مشاهدة « مجر فرازانو ،

لم يتوفق الاوروبيون الى اكتشاف طريق آسيا من الفرب. ولكنهم بخروجهم الفضاء العالمي من مجار اوزوبا الضيقة ، فتحوا خلال عقود معدودة ، بين السنوات ١٤٩٠- الاوروبي الجديد من محار والسنوات ١٥٣٠ – ١٥٤٠ ، فضاء اوروبيا جديداً ، وأوجدوا اول

اقتصاد على مستوى العالم . فبعد دسان – دومنغ » ، استولى الاسبانيون بين السنتين ١٥٠٨ و ١٥١٨ ، على د كوبا » و د بورتوريكو » . وبعد ان استقروا في البر ، عند شاطىء د اللآلىء » ، ثبتوا أقدامهم في مضيق داريان وبلغوا المحيط الباسيفيي في ٢٤ أيلول من السنة ١٥١٩ ، وأسسوا دباناما » في السنة ١٥١٩ ، في د قشتالة الذهبية » ومنذ السنة ١٥١٩ شرعوا في فتح المكسيك، ثم جاء دور البيرو في السنة ١٥٣٢ . وفي الجنوب أقام بعض التجار البرتغاليين والفرنسيين في شواطىء د باراهيبا » و د برنمبوك » و دريو – ريال » ورأس د فريو » و جون دريو دي جانيرو » . انفجر الخلاف منذ السنة ١٥٢٧ بين البرتغاليين والفرنسيين . في السنة ١٥٣٤ المخذ التاج البرتغالي ينشىء القبطانيات . حوالي السنة ١٥٤٠ رسمت الخطوط الكبرى للاطلسي الاوروبي،



الذي سيتسع تدريجيا حتى القرن الثامن عشر دون ان يتبدل جوهر طبيعته. انتقلت المساحة التي أشرف عليها الاسبانيون في اميركا من الصفو في السنة ١٤٩٢ الى قرابة ٣ ملايين كيلومتر مربسع حوالي السنة ١٥٤٠. ولم يشاهد قط بعد ذلك مثل هذا التوسع السريسع . ففي اقل من نصف قرن تأسس عالم اوروبي جديد ، وتبدل وجه العالم .

تحددت دفعة واحدة ٤ منذ كولومبوس ٤ طرق اجتياز الاطلسي الاوروبي والوقت الذي تستغرقه . تنطلق الاساطيل من اشبيلية باتجاه الجنوب - الجنوبي - الشرقي حتى تبلغ تيار جزر « الكناري » ، فتسير فيه وترسو في هذه الجزر . ثم تجتساز القوس الكبير الذي تكونه الرياح الشالية الشرقية بين دائرتي الانقلاب ابتداء من الدرجة ٢٨ حتى نقطة تقع بين الدرجتين ١٣ و ١٤ من العرض الشهالي في جزر الانتيل الصغرى ؛ بين دماري - غالانت ، و دالدومينيك ، . والعودة يجب البحث ؛ صيفا ، الى الشهال الشرقي من جزر باهاما ؛ عن الرياح الجنوبية – الغربية – الشمالية - الشرقية ؛ والمرور شمالي جزر « برمودا » ؛ ثم السير شرقاً باتجاه مستقيم ، والرسو في جزر ٥ أسور ٤ . تصرف التوافل ١٢ يوما تقريبــــــــا من قادس الي جزر كاناري . ومن جزر كاناري الى جزر الانتيل الصغرى ٣٠ يوماً . ومن جزر الانتيل الصغرى الى دفيرا ــ كروز، ، او الى ﴿ نُومِبِرْهُ دَى دَيْرِسَ ﴾ ٤ في مضيق باناما > ٣٠ يوماً . وفي طريق العودة من ﴿ فيرا – كروز ﴾ او و نومبره دي ديوس ۽ الي و هافانا ۽ ٻين ٦٠ و ٧٠ يوماً ، ومن و هافانا ۽ الي قادس ، ٧٠ يوماً . فالذهاب يمني اجتياز الاطلسي بحصر الممنى ، وهو اقصر مراحل الرحلة ، باتجاء اميركا الجنوبية ، ويحاذي شطر كبير من المسيرة الشواطىء الافريقية ويمر بجزر ماديرا وكاناري والرأس الاخضر و د سان ـ بول ﴾ و د فرناندو لورونها ﴾ . ولا تخلو المسيرة من الجزر الا على مسافة ٥٥٠ کیلوماتراً بخط مستقیم بین رأس د سان – فنسان ، و د بورتو ــ سانتو ، ، وعلی مسافة ، ۱۷۰۰ كيلومةر بين اقصى جزر والرأس الاخضر، وجزيرة وسان – بول، . وقد استفادت الاساطيل من الوياح الشيالية الشرقية والجنوبية الغربية بين دائرتى الانقلاب بدنوها منها جهد المستطاع تجنساً : الرياح المماكسة . وكان باستطاعة السفن قطع المسافة بين لشبونة وريو دي جانبرو في مــدة ٦٠ يرماً. ولكن غالبًا ما استفرقتُ الرحلة بِين شهرين وثلاثة اشهر .

اتسع الفضاء الاوروبي بسرعة قصوى . فخطر للاسبانيين في عهد منينة مانيلا الكبرى مبكر جداً ان يجملوا من الشاطىء الغربي في اميركا الوسطى منطلغا غو آسيا . ومنذ السنة ١٥٢٧ اندفع الاسبانيون نحو بلدان الافاريه . الا انهم واجهوا صعوبة تحديد الطريق الواجب سلوكها . فارسلت في خلال خسين سنة عشر بمثات توفقت الى اكتشافات هامة في الباسيفيكي ، دون ان تفلح في تحقيق المطلب المنشود . الا ان و فيلالوبوس ، ادرك في السنة ١٥٤٢ ضرورة الانطلاق من و اسبانيا الجديدة ، ، وبلوغ دفع الرياح بين دائرتي الانقلاب على ارتفاع الدرجة العاشرة من العرض الشهالي ، والاستفادة منها في السير حتى جزر

و ماريان ۽ ، وهي رحلة سهلة تستفرق بين ثمانية وعشرة اسابيسم . ولكن مسا ان وصل الاسبانيون الى الفيلبين حتى وجدوا انفسهم شبه محاصرين ، فقد اصطدموا بالبرتغاليين غرباريجدار الرباح ما بين دائرتي الانقلاب شرقاً . وفي هذه الاثناء مست الحاجة اكثر فاكثر الى الفلفل الذي ارتفع سعره في لشبونة اكثر من كل المواد الاخرى . فقام و لغازبي ، في السنسة ١٥٦٨ برحلة اسند القيادة البحرية فيها الى المسالم الفلكي الاوغسطيني ﴿ اوردانيتا ﴾ . ولمل هــذا الاخير هو من اكتشف ، بعد تردد كثير ، طريق العودة ، اعني بها دفع الرياح الذي ينقل الهداء من الغرب الى الشرق في مناطق العرض المتوسطة . فعند مغادرة الفيلين يجب الاتجساء شيالًا والسير ضد الربح يمنة ويسرة في منطقة الاعاصير الخطرة ؛ وغالبًا ما تستغرق مسافة الـ ٥٠٠ كيلوماتر بين خليج مانيلا ورأس و بوجادور ، شهرين كاملين يجب خلالها اللجوء تكراراً الى عمليت خطرة هي اطلاق مدافع السفن في آن واحد . فيجدر والحالة هــذة الانطــلاق بين منتصف حزيران ومنتصف تموز بغية تجنب الاعاصير جهد المستطاع ، واستخدام سفن سريعة ومتينة. ثم يجب الصمود حتى الدرجة ١٠ او ٤٣ من العرض الشالي والسير ضد الربح بمنة ويسرة باتجساه فورموزا و د ساکی - شها ، و د ریز - کیو ، و د کیو - شیو ، و د سیکوك ، و د هوندو ، وبلوغ خط عرض الرأس و بريمو ، في و هو كايدو ، تقريباً . ثم تدفع الرباح السفن حتى الشاطيء الاميركي عند الدرجة ٣٥ تقريباً ، ومنها تحاذي السفن شاطىء كاليفورنيا حتى ﴿ أَكَابُو لَكُو ﴾ . الا ان هذه الرحلة محفوفة بالاخطار وتستفرق بين اربعة وسبعة اشهر ، تبلغ نسبسة الحسائر في الارواح خلالها بين ٣٠ و ١٠ ٪ ؛ وكثيراً ما ترتبع حتى ٦٠ و ٧٥٪ . واذا استفرقت الرحلة اكثر من سبعة اشهر فينظر الى السفن الكبرى وكأنها اشباح سفن تجري التحقيق مع ملاحيها سنن اكابولكو الحربية التي ترسل للبحث عنها . وانما قد تحتق بذلك الاتصال بين أوروبا وآسيا عن طريق الفرب ، عن طريق العالم الجديد ، بواسطة و سفينة عانيلا الحبرى ، أو بالاحرى بواسطة السفينتين الكبيرتين اللتين تسافران مماكل سنة ، اجل انه اتصال مزبل ، ولكنه جمل من الفيلبين ملتقى العوالم وحصن المسيحية في وجه المسلمين والاوثان .

بينا كان الاسبانيون مستمرين في التقدم خلال القرن السابسع عشر ، أسهم الفرنسيون والانكليز بدورهم في توسيع الفضاء الاوروبي . فقد واصل الفرنسيون السير في الانجساء الذي رسمه جاك كارتيبه ، يدفعهم الى ذلك الازمة وسياسة الحسب التجاري . اكتشفوا شبكة مدهشة من المواصلات الداخلية ، نهر وسان – لوران ، البحيرات الكبرى ، نهر وميسيسيي ، واستطاعوا سبق الانكليز في كل مكان وتأسيس و كيبيك ، (١٦٠٨) وبسط سيطرتهسم على البحيرات الكبرى والد والينوا » (١٦٧١) ، واخيراً نزل و كافليه دي لا سال ، في السنة البحيرات الكبرى وبلغ مصابه واستولى باسم لويس الرابع عشر على كل البلاد التي اطلق عليها اسم لويزيانا ، وانهمر سيل من المستعمرين الانكليز على الشاطىء الاميركي بين الممتلكات الاسبانية ، اما عناصر تفسير هذا العدد الكبير من المهاجرين ففي انطلاقة

الرأسمالية التجارية والصناعية ، وازمة المشاريع المتوسطة ، وازمة تصوين الاملاك التي دعت الى الاعتقاد بضيق انكلترا بسكانها ، واقفال الاسواق الاوروبية بسبب حرب الثلاثين سنة ، والمنازعات الدينية في انكلترا واضطهاد المنشقين ، وثورة انكلترا ، والسير منفذ السنة ١٦٦٢ على نهج نفي محكومي الحق العام الى المستعمرات حيث يصبحون مواطنين صالحين ، بعد انقضاء مدة احكامهم ، لانهم انحا كانوا محاكمون بسب مخالفات صغرى .

زد على ذلك ان الاستمار الانكليزي ، بسبب تقدم الراسمالية في انكلترا ، قد تولت مركات تجارية او جمعيات ملاكين نهضت به في سبيل الكسب : الكسب التجاري والدخول المقارية . لم تتدخل الدولة في البداية الا بجنح الاحتكارات بشكل رسائل تحمل توقيع الملك بغية اجتذاب رؤوس الاموال وبانظمة تستهدف ضمان اولوية الصالح العام وسياسة الكسب التجاري . وحاول الملاكون اجتذاب المزارعين . فوزعوا البيانات ونشروا روايات المسافرين ورسائل المهاجرين واسسوا وكالات الهجرة مطنبين في وفرة الاراضي وخصبها وتدني سعرها وارتفاع الاجور وانخفاض كلمة المهيئة وامكان العثور على الممادن الثمينة .

تجمع بعض المستعمرين كتلا كثيفة نسبيا على طول الشاطىء .

و تمكن الفرنسيون والانكليز من الاقامة في جزر الانتيل الصغرى الخصبة جدا على انهسا خالية من المعادن الثمينة وآهلة باقوام من اكلة لحوم البشر : « كرابيب » . كانت هسنه الجزر داخلة في قطاع الدفوذ الاسباني. ولكن الاسبانيين اهملوها بسبب افتقارهم الى الرجال فاستطاع الفرنسيون ، منسنة السنة ١٦٣٥ الاستيلاء على « سان – كريستوف » والد « مارتينيك » و « غونادا » و « سانت – لوسي » و « سان – برتلمي » و « سان برتلمي » و « سانت برتلم » و

اسباب توزع الاوروبيين الادعاءاتالاسبانية ـالبرتغاليةبالاحتكار

أما اسباب توزع الاوروبيين فهي التالية : كان الاسبانيون والبرتفاليون سباقين في السفر الى اميركا، فاحتفظوا لانفسهم باحتكار الاراضي الجديدة . وحصلوا من البابا على تثبيت

حقوقهم ، لان البابرية كانت تطالب بسيادة دولية شاملة . فغي رسالة مؤرخسة في ١٢ تشرين الثاني ١٩٩ ، اوضع انوشنتيوس الثالث لبطريرك القسطنطينية بان بطرس، حين سار على البحر ليذهب الى يسوع ، و قد عبر بهذا الساوك عن امتياز الحبرية الوحيدة الذي يوليها حق حسكم الكون كله » ، اي كافة الامم الوثنية منها واليهودية على السواء . واثبت بعض رجال القانون حق الباباوات في تغويض احتلال الاراضي الحديثة الاكتشاف الى سوام . يضاف الى ذلك ان البابا ، من حيث هو اب روحي لكافة الشعوب ، قد احتفظ لنفسه بحق تنظيم الملاثق بسين اللبابا ، من حيث وغير المؤمنين . وبموجب الرقيم و من بين الاشياء الاخرى » ، الصادر بتاريخ ؛ ايار

من السنة ١٤٩٣ ، وهب البابا الكسندروس السادس ﴿ المَكَ الْكَاثُولِيكِي ﴾ كافة القارات والجزر التي اكتشفت او ستكتشف في المستقبل ، في ما وراء خـــط رسم على مسافة ١٠٠ فرسخ الى الغرب من جزر الأسور وجزر الرأس الاخضر . وبموجب الاتفاق المقـــود في الــنة ١٤٧٩ ، الذي صادق عليه البابا في السنة ١٤٨١ ، احتفظ للبرتفاليين بتجارة غينيا وأراضيها . الا ان الملك جان الثاني رفض القبول بالرقيم لان السفن البرتغالية التي تدور حول رأس الرجاء الصالح كانت بجاجة الى الابتماد مسافة كبرى عن الشاطىء الافريقي . فمقد الاسبانيون والبرتغاليون معاهدة و تورد َ سلاس ، (٧ حزيران ١٤٩٤) : ابعد الخط الفاصل الى مسافة ٣٧٠ فرسخاً الى الغرب مـــن جزر و الرأس الأخضر ، . ولوحظ في وقت لاحتى ان البرازيل و و الارض الجديدة ، بقيتا في المنطقة البرتغالية . فأصدر البابا د جول ، الثاني رقيا آخر أبرم الاتفاق (٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦) . وبعد رحلة ماجلان ومحاولات الاسبانيين الاولى في الفيلسين ٬ بات لزاماً تحديد المناطق في الباسيفيكمي . كان البرتغاليون راغبين في الاحتفاظ بتجارة الافاويه " فاستفادوا مين متاعب شارل الخامس المالية . فوافق الامبراطور في معاهدة و ساراغوسًا ، (٢٢ نيسان ١٥٢٩) ، لقاء ٢٥٠٠٠٠ دوقية ، على ان يكون الخط الفاصل دائرة الطول التي تمر في الدرجة ١٧ شرقي جزر الـ « مولوك » ، وهي الجزر الغنية بالافاويه . بقيت الفيلبين في المنطقة البرتفالية ، دون أن يمنع ذلك من استقرار الاسبانيين فيها ؛ فحدثت بين هؤلاء والبرتفاليين نزاعات مسلحة عديدة .

كانت كافة الامم الاخرى مقصاة عن الاراضي الجديدة . وكان البرتغاليـون والاسبانيون مقتنمين بالطابع المقدس الذي يتميز به احتكارهم ، فعاملوا التجار والرواد الاجانب معاملة القراصنة .

في القرن السادس عشر كرس بحارة وتجار الشاطىء الاطلبي الفرنسيون جهوداً تلقائية للاراضي الجديدة . ازدرى تجسارهم وقراصنتهم بالحروم والافاكرات ، فتوجهوا شطر البرازيل وأنزلوا فيها عملاء وخالطوا ، الهنديات والمجبوا المديد من الخلاسين ذوي الشعر الاشقر والوجه الابيض الانمش واهملوا المسيحية وتعاليمها ، وحظوا بسلطة كبرى على البلديين بروح مبادرتهم وحسن تدبيرهم وقاموا بعمل الوسطاء بينهم وبين التجار . وقد استهال هؤلاء البلديين اليهم بتواضعهم وصدقهم في المعاملة اللذين ابرزا عجرفسة البرتغاليين وخداعهم .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تساند هذه الجهود مساندة تذكر ، فكان عليها ارضاء اكثرية السكان في امة تحصر اهتامها في الاراضي والزراعة ولا تعبر اهتامها ، في ما عدا ذلك ، الا الاتراك وآسيا . وقد تضايق ملوك فرنسا ، بوصفهم بكور ابناء الكنيسة ، من المراسيم البابوية التي تمنع الاحتكار للاسبانيين والبرتفاليين . ورغبوا كذلك في ارضاء رعايام في اللنفدوك وبروفنسا وكرسوا جزءاً من قواهم للمتوسط وموانىء الشرق الادنى .

وصرفتهم كذلك عن مساندة جهود المستعمرين مستلزمات الصراع ضد آل هبسبورغ وواجباتهم في الحلف التركي. اضف الى ذلك ان صفوف البحارة والتجار المستعمرين قد ضمت كثيراً من البروتستانت. وقام الاميرال و كسبار دي كولينيي ، بين السنة ١٥٥٥ والسنة ١٥٧٢ ، في وريو دي جانيرو ، وفي فلوريدا ، بمحاولات عدة لتأسيس امبراطورية فرنسية كان مقدراً لها ، في نظر فرنسيي ذاك العهد ، ان تكون بروتستانتية قبل ان تكون فرنسية . لهذه الاسباب جميعها ، ساند الملوك المستعمرين حيناً واحجموا عن مساندتهم حيناً آخر ، وفقا الاسباب جميعها ، ساند الملوك المستعمرين عيناً واحجموا عن مساندتهم حيناً آخر ، وفقا خاجات التهويل الدبلومات على الحكومات الاسبانية والبرتفالية . وفي معاهدة وكاتو كمبريزيس ، قبل و هنري الثاني ، المشغول بتوحيد القوى الكاثوليكية ضده المرطقة ، بأن يحتجز على السفن الفرنسية كسفن قراصنة ، بدون جدال ، في ما وراء خط طول يمر على بعض المسافة من الشواطىء الاوروبية والافريقية وفي الجنوب من داثرة انقلاب السرطان ، فتخلت فرنسا عن كل محاولة في اميركا الجنوبية ولكنها احتفظت بملء حريتها في المركا الشالة .

٧ - الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليتية

الاسبانيون وهنسود ان الفكرة التي كوتها ماوك اسبانيا للاستمار كانت عظيمة وجميلة. المخسسادة النيوليتية فقد تمخض الاستمار في ذهن ملوك اسبانيا ، الملوك الكاثوليك ، لا سيا شارل الخامس وفيليب الشساني ، بشكل تمثيل او دمج . كان على الاسبانيين ان يؤلفوا شعباً واحداً مع الهنود . وكان مفروضاً ان تصبح اميركا ولاية من ولايات اسبانيا . فكان من ثم من واجب الاسبانيين تلقين الهنود كافة طرائقهم في الحياة : تبشيرهم بالانجيسل اولا ؟ ثم تعليمهم اللغة القشتالية مع كل ما تنطوي عليسه من صيغ فكر واشكال حس ؟ واخيراً طبعهم باخلاق الاسبانيين : الذي ، السلوك ، الطقوس ، النظم الاجتاعية والسياسية . وكان على الهنود ان يصبحوا قشتاليين . لذلك اوصت الملكة وايزابيل ، بالزواجات المختلطة . وقد اوضح قانون السنة ١٠٥٠ ان الهنود احرار ، ولا يتوجب عليهم سوى الضريبة والخدمات بأشكالها المختلفة ، على غرار الاسبانيين انفسهم .

الا ان حسن نوايا الحكومة قد عاكسه الفرق البعيد في الحضارة بين و الفاتحين » والهنود . فقد اعتبر كافة الاسبانيين انفسهم و أسياداً » او تانوا الى ذلك ، ولم ينظروا الى علائقهم مع الهنود الا كما الى علائق السيد بفدادييسه . زد على ذلك انهم كانوا اقلية ضئيلة . فتكونت عندم » بتأثير ردة فعل دفاعية ، رغبة ملحة في اقناع الهنود بتفوقهم . ورغبوا اخيراً في الاثراء . ولكن الذهب ، في اسبانيولا » يجب البحث عنه في رمال الانهر ، وقد رفض الهنود المعلى . فأرغم و الفياتحون » الاراواك » الودعاء الهادئين على البحث عسن الذهب . ومنح

كولومبوس الامتيازات الاولى ، فأثار بعمله حفيظة الملكة الزابيل الق عادت وسلمت بها في السنه ١٥٠٢ ؟ فكان ذلك كارثة حلت بالهنود . كان الهنسود كثيري المدد عنسم قدوم الاسبانيين ، دون ان يستطيع احد تحديد هذا العدد على اي حال . ولكن لم يبق منهم سوى ١٦٠٠٠ تقريباً في السنة ١٥١٠ ، و ١٦٠٠٠ حوالي السنة ١٥٢٠ ، و ١٠٠٠٠ تقريب أحوالي السنة ١٥٣٠ . وكان الهنسود الد تاينوس ، ضعفاء البنية ، يشكون من نقص في التنسفية ويكرهون كل مجهود متواصل لأنه يتنافى وتقاليدهم الموروثة . ولم تكن علاقتهم بأصحاب الامتيازات انفسهم في اغلب الاحيان بل برؤساء ووكلاء يلزمونهم بالعمل منذ الصباح حتسبي المساء . وكان هؤلاء الكادحون بحاجة الى المزيد من التغذية . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب خفض انتاج المواد الغذائية ، فغمل سوء التغذية فعسله . زد على ذلك ان المواشي الاوروبية قد تكاثرت بسرعة واتلفت مزروعات الهنود . ولم يبد هؤلاء اية مقاومــة امام الامراضُ الجرثومية التي استوردها الاوروبيون معهم . ففتكت بهم الحسبة والجدري ، لا سيا وانهم لم يعالجوهما الا بالفطس في المياه الباردة . ولم تكف الولادات لتموض عن الخسائر بالارواح . وبسبب افتقار الهنديات الى ما يحل محل حليب الام ، اخترن الفطام ما استطمن الى ذلك سبيلا ،فأرضمناولادهن حتى اربع سنوات. ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب. استنزف حلب الامهات وارغم على النطام باكراً جداً: فأدى ذلك الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال ارتفاعًا محيفًا . وزاد في الطين بلة النتائج الماطفية لسيطرة الاجنبي ، وعزلة الافراد الموزعين بين اصحاب الامتيارات ، وفصل الازواج عن نسائهم ، والاتجار بالهنود ، والقضاء على القبائل والمشائر . فنجم عن كل ذلك حالة يأس جعلت الهنود يؤثرون الانتحار او الاستسلام للموت . اما الاسبانيون ُ الذين افتقروا إلى البيد الساملة ، فقـــــــد غزوا الهنود في جزر بإهاما و ﴿ لُوكَانِي ﴾ ولم يلبثوا أن أفنوهم أفناء تاماً . مند السنة ١٥٠١ أخذ الاسبسانيون يستوردون الزنوج . ولكن اثمان هؤلاء كانت مرتفعة جداً . وهو النقص في البد العاملة الضرورية لحقول ا التنقيب عن الذهب ما ادى الى موجات الفتوحات المتعاقبة ، في كوبا وبورتوريكو اولاً ، وفي المضرق ثانياً . فجاءت النتائج متاثلة في جزر الإنتيـــل الكبرى ومناطق المضيق حيث كان البلديون في مستوى حضاري واحد .

ان هذه الوقائع وضعت الاسبانيين امام المسألة القانونية . هل يحق لهم احتلال الهنسك المنبية؟ وهل يحق لهم استعباد الهنود ؟ وقد نتج عن ذلك سيل من الرسائل والمذكرات والكتب لان ماوك اسبانيا قد استطلعوا رأي تبعتهم من اصحباب الاخاذات في كل ما يتعلق بالهند . فأكد المقربون الى ملوك اسبانيا ان للملك حق تملك البلاد وان له من ثم حق الفتح . واقعدوا هذا الرأي على الرقيم و وبين الاشياء الاخرى ، الذي اعطاء البابا الكسندروس السادس بورجيا في ٣ ايار من السنة ١٤٩٣ . فان البابا الذي بلغه و ان هذه الشعوب نفسها ؟ التي تعيش في الجزر المذكورة وشتى مناطق البر الجديد ؟ تؤمن باله واحد ؟ الخالق في الساء ؟ وتبدو مستعدة

استمداداً كافياً لاعتناق الايمان الكاثوليكي وتلقي مبادىء اخلاقية قويمة ، ، قد عين فردينان وايزابيل « سيدي الاراضي التي اكتشفت والتي تستختشف ، مع ما يستلزم ذلك من صلاحية وسلطة كاملة وحرة ومطلقة ، . ومن لقب السيادة هذا استنج ماوك اسبانيا انهم مالكو العالم الجديد . ولهذا السبب اصدر شارل الخامس في السنة ١٥١٩ امراً بضم العالم الجديد بكليت الى اقاليم تاج قشتالة الملكي . وله أن السبب ايضاً اعتبروا ان لهم الحق ، في ارضهم ، في اخضاع الهنود .

ولكن هل حق لهم استعبادهم يا ترى ? لم يخامر الشك المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك وكان و اوفييدو ، ابعد هؤلاء تأثيراً . اوضح نظرياته منف السنة ١٥١٩ ضد و لاس كازاس ، وعاد اليها في كتابه و مونجز في طبيعة الهند ، ، ثم في كتابه و تاريخ الهند العام ، ، الذي يعكس روح المستعمرين . يستصوب اوفييدو نظرية ارسطو ؟ هنالك اعراق يعدها تخلفها العبودية بموجب الحق الطبيعي . وانما الهنود من هذه الفئة . فهم كسالى وفاسدون وسوداويون وجبناء وكذبة وبهائم . زواجهم مجموعة من الطقوس المدنسة للقدسيات . انهم عبدة اوثان وشهوانيون ولواطيون . لا يفكرون الا بالمأكل والمشرب وعبادة الاصنام الوثنية وارتكاب القذائع البهيمية . اذا ما ابيدوا ، فلأن الله يعساقيهم ، على غرار سدوم وعمورة ، بسبب خطاياهم الجنسية . تحضيرهم امر مستحل . يجب استعبادهم بالقوة الى الابد .

واثبت آخرون ، ضد اوفييدو وانصاره ، ان الهنود كائنات عاقلة يجب معاملتها كالاسبانيين ، ولكن بتحفيظ ومداراة ، لأنهم متأخرون حضاريا ، كا هو واضح . كان هدا جوهر نظرية الدومينيكانييين ولا سيا نظرية عالم النظريات السياسية الشهير في جامعة و سلمنكا ، و فرنسيسكو دي فيستوريا ، الذي توفي في السنة ١٥٤٩ . ففيتوريا يجاهر بأن هنالك ، خارج الحقائق الموحى بها ، نظاماً زمنيا ، او حقاً بشريا ، يكن ادراكه على ضوء المقل وحده . ان هذا الحق الطبيعي هو مرتكز والنظام والاتفاق ، اساس كافة المجتمعات . وان مدذا والنظام والاتفاق ، واحد لكافه الكائنات العاقلة ، من مسيحيين او غير مسيحيين . ولكن الهنود كائنات عاقلة ، من حيث انهم بشر . لذلك فان الحق الطبيعي يشملهم كا يشمل ولكن الهنود كائنات عاقلة ، من حيث انهم بشر . لذلك فان الحق الطبيعي يشملهم كا يشمل حكا انفسهم .

ان الآراء التي جعل منها وفيتوريا علما سياسيا ، قد اطلقها ، للمرة الاولى ، و مونتسينوس ، في عظته في اسبانيولا يوم الاحد الواقع قبل عيد الميلاد في السنة ١٥١١ . وفيا يلي خلاصة ما قاله مونتسينوس : الهنود كائنات عاقلة ؛ فلهم الحق من ثم في ان يعاملوا معاملة الاسبانيين ؛ ويجب بالتالي تلقينهم حقائق الديانة لتخليص نفوسهم ؛ كا يجب الابقاء على حريتهم ، وعدم اضناكهم بالعمل ، واعطاؤهم كفافهم من المأكل ؛ والاعتناء بهم في امراضهم ، ومخالصتهم الود . ان الاسبانيين القساة والمستبدين الذين لا يتقيدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في

حالة الخطيئة المميتة. الا ان رئيس الدومينيكانيين في اسبانبا قد حظرعلى رهبانه في اسبانيولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين ، بناء على شكوى المستعمرين وعلى امر صادر عن الملك .

ولكن و برتامايو دي لاس كازاس ، قد اناب عن مونتسينوس بعد ذلك في موقفه من الهنود. كان كاهناً ، وصاحب امتياز ، في اسبانيولا منسة السنة ١٥٠٢ ، ثم في كوبا منذ السنة ١٥١٢، ورقف موقفا عدائياً من الهنود ، فحلت عليه النعمة بينا كان يعد احدى المواعظ في السنت ١٥١٤ . اقتنع بأنَّ معاملة الهنود كانت ظالمة واستبدادية ؛ فتخلى عن ممتلكاته واعتق هنوده وغدا نصيرهم الذائد عن حياضهم منذ مذكرته الاولى (١٥١٦) الى ملك اسبانيا . يرى لاس كازاس أن سلطة الملك على الهنود سلطة لا شرعية لأن كافسة البشر أحرار ، بوجب حق طبيعي ﴾ أذ أنهم مخلوقون على صورة الله أحراراً ومسؤولين . كل ما استطاع البابا أن يفعل هو استاد ادارة الى ملوك اسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين او قتلهم . ولكن ليس لأحد حق في تخطي هذا الحد ، أو في تنصير الهنود بالقوة . أما استعبادهم فلا شرعي أيضاً لأن ألهنود بيش كغيرهم ، الاغريق الاقدمون ، التار ، الهنود ، الاسبانيون ، افراد جنس بشري واحد ، انطلقوا من مستوى همچي واحد ، وتوصّلوا الى مستويات تقدم محتلفة بفعل ظروف مختلفة . د يتضع من هذه الامثلة القديمة والمعاصرة أن ليس من شعب في العالم ؛ مها بلغ من قسارت.... وغمارته وبربريته وخشونته ووحشيته وبهيميته كايستحيل اقناعه واستمالته وأعادته الى النظام الطبيعية الخاصة بالانسان بدافع من الحبة والحلم والوداعة والبهجة ، واذا كنا لا ننشد سوى هذه الغاية ، (والتاريخ الدفاعي ،) . فبالامكان من ثم ترقية كافة الشعوب اذا ما نظرنا اليهاكماً الى اخرة نفرغ جهودنا في سبيلهم دونما سمي وراء فوائد شخصية او قومية . ويجب بالتالي هديهم الى الدين القويم بالملاطفة ، و باقناع العقل ، ، ثم و بتحريك الارادة برفق ، . (د الوسيلة الوحيدة لاستالة كافة الشعوب الى الديانة الحقيقية ، ١٥٣٧) . زد على ذلك ان الاسبانيين هم الهمجيون . ففي مؤلفه و بيان موجز في تدمير الهند ، (١٥٤٢) المرفوع ال الامبراطور شارل الخامس ، يظهر لاس كازاس الهنود ، عند قدوم الاسبانيسين ، مطيعين ، أوفياء لرؤسائهم ، ضعفاء ، متبصرين ، هادئين ، ودعاء ، صادقين ، طبي القلب ، سليمسي السريرة ، فقراء ، مجردين عن الغايات ، متحلين بذكاء حاد وجديرين بتقبل الايمان الكاثوليكي المقدس . دخل الاسبانيون ديار هؤلاء المتوحشين الطيب ين وكأنهم فئاب وانمر واسود تتضور جوعاً . فأقصروا عملهم على تقتيل الهنود واسخان اعينهم وتعذيبهم وافنائهم بوحشية نادرة . لا بل منعوا الرهبان من التبشير بالإنجيل . وقد دفعهم الى كل ذلك تكالبهم على الذهب الى هــذا الكتــاب ، الذي انتشر في كل مكان ، يعود تاريخ « الاسطورة السوداء ، حول الغول الاسبائي ٢ سبب ارتعاد الامم .

اقرت قوانسين ورغوس ، مبدأ اللجوء الى منح الامتيازات ، وبناء على مطالبة

الدومينيكانيين ؛ اعلن تفسير قوانيين بورغوس في السنة ١٥١٣ ان باستطاعة بعض الهنود ؛ المتثقفين بمعاشرة الاسبانيين ؛ ان يستحصلوا من القضاة على اعلان حريتهم . ولكن المستعمرين ولاس كاراس اعترضوا على ذلك لاسباب مختلفة .

امام تضارب الآراء ، قرر الكردينال و كسيمينيس دي سيسنروس اجراء تحقيق بواسطة لجنة تمين لهذه الغاية . فأرسل ثلاثة اخوة ايرونيميين مع و لاس كازاس ، الذي اطلق عليه اسم و حامي الهنود ، . طرح المحققون على كل شاهد سبعة اسئة صيغ ثالثها على الشكل التالي : و هل يعلم الشاهد او يعتقد ، او هل سمع او لاحظ ان هؤلاء الهنود ، ولا سيا هنود اسبانيولا ، رجالا و نساء على السواء ، يتحلون بمرفة وكفاءة تتبحان اعطاء م حرية كاملة ? هل م قادرون على بمارسة حياة سياسية على غرار الاسبانيين ؟ هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بعمل يومي آخر ? هل يستخرج كل هندي الذهب من المناجم او يحرث الارض او يؤمن معيشته بعمل يومي آخر ? هل يعرفون كيف يستفيدون بما قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجات حياتهم فقط كا يغمل العامل القشتالي ؟ » اجاب المستعمرون كلهم بالنفي، وكان احدهم متزوجاً من هندية منذ ١٤ سنة . واستندوا في ذلك الى اختبار الحاكم و اوفندو » . اعطى هذا الاخير ، في السنة ١٥٠ الحرية لرئيسين هنديين منصرين تعلما الكتابة والقراءة واتقنا الاسبانية وكانا متزوجين وابوي عائلة . جعلهم اوفندو صاحبي امتيازات . ولكن هذين الهنديين قضيا وكانا متزوجين وابوي عائلة . جعلهم اوفندو صاحبي امتيازات . ولكن هذين الهنديين قضيا فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر الايرونيميين الذين جموا الهنود في قرى تجت سلطة .

اعترض و لاس كازاس ، واستحصل من شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه في السنة ١٥١٩ والسنة ١٥٢٠ ، في اسباديولا، «رودرينو دي فيغورورا» اختار هذا الاخير عددا من الهنود ممن رأى فيهم الكفاءة وقدم لهم سلف اغذية وملابس وأدوات وعين لهم مناجم ذهب ترك لهم امر استثارها وترك لهم الحرية في العمل على هواه . فجاءت النتيجة فشلا ذريعاً .

في السنة ١٥٢٦ ، استطاع المستعمر القديم و باريونويفو ، الذي كان في المستعمرة منذ ٢٤ سنة ، الاستشهاد بمثل هنديات كثيرات تزوجن من اسبانيين أو دخلن الاديرة مكرسات انفسهن لحدمة الجميات الرهبانية. فها ان يصبحن أرامل أو يخرجن من الدير حتى يتخلقن حالا بالاخلاق الهندية ، بما فيها المري والحرية الجنسية ، كما لو انهن لم يعشن طيلة سنوات عيشة اوروبية. واكد و باريونويفو ، بان لا أمل يرتجى من الهنود عموماً بسبب ضعف تفكيرهم وذا كرتهم . فهم ينسون صلاة والسلام عليك يا مريم ، اذا مريم و واحد دون ان يتلوها .

اجريت اختبارات اخرى في كوبا ، وفنزويلا ، وغواتمالا، وفي المكسيك عند الشيشيميك. فجاءت النتيجة اخفاقاً في كل مكان . حاول الاسبانيون بين السنة ١٦٣٥ والسنة ١٦٧٦ انشاء

مستعمرات ثابتة ، يضم بعضها الاسبانيين والبعض الآخر الدو اوتوميس ، في الجبال التي لجمأ اليها الشيشيميك ، ثم جمع الشيشيميك في قرى منفصلة خاصة يتعودون فيها ، على غرار جيرانهم المزارعين ، حياة القرار والزراعة . فلم يفلحوا في هذه المحاولة ايضاً اذ ان الشيشيميك رفضوا الاقامة في القرى ولم يأتوا اليها الا لبعض الاحتفالات الدينية . وكانوا يقدمون على الانتحار اذا ما ارغموا على حضور القداس بانتظام ، ويفرون الى اقصى القفار اذا مساطلب اليهم حضور دروس التعليم المسيحي بانتظام ايضاً . فكان في النهاية ان اباد الاسبانيون الشيشيميك في القرن الثامن عشر . ويتضح من ثم ان الاسبانيين قسد اخفقوا في محاولاتهم استالة اقوام القناصين والصيادين والمزارعين الوقتيين .

الا ان المسيحيين لم يعترفوا بالاخفاق . فان البابا بولس الثالث قد اعلن في رقيمه و الحقيقة نفسها » المؤرخ في ٢ تموز ١٥٣٧ ، ان الهنود بشر حقيقيون وان لهم نفساً جديرة بالحياة الابدية وان معاملتهم يجب ان تستوحي هذه الحقائق . بيد ان مجمع و ليا » الثالث الذي انعقد في السنة ١٥٨٣ قد اخذ نتائج الاختبار بعين الاعتبار واعترف بان الهنود ، مع كونهم بشراً سويا ، قد بقوا في حالة طفولة وان الواجب يقضي بان تضمن لهم كما للقصر حماية دائمة . فتولى اليسوعيون اجراء اختبار شيوعية ابوية ، في و بارغواي » كمرحلة اولى بغية الانتقال بالهنود الى الحياة الشخصية . وكان هؤلاء من قبيلة التوبي غواراني الذين اخفقت في تبشيرهم بعض الارساليات المتنقلة ، في السنة المه و المنادات » لانها انشئت و لاعادة الهنود الى الحياة المدنية والكنيسة » . وضع الآباء تحت سلطة الملك ومجلس الهند ونائب الملك في البيرو، وسلطة مجالس و شاركاس » و و شونكيساكا و و و يوينوس ايرس » القضائية ، ورقابة حاكمي باراغواي و و ربو دي لابسلانا » الذين زارا و المسادات » زيارات منتظمة ، وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة اسقفي و اسومبسيون » وبوينوس ايرس اللذين كانا يتفقدان و المعادات » .

لم يلحق هنود القرى المسيحية قط و بالامتيازات » التي كان اسمها مثار هول ورعب لهم . ولم يمر وقت طويل حتى توارد بين الناس ان و المعادات » مواطن حرية . فتهافت عليها الرؤساء والامراء مع قبائلهم . تأسس اول و معاد و سان اينياسيو غوازو » في ٢٣ ك ١٤ من السنة ١٦٠٩ ، على مسافة ١٢٠ كياومترا الى الشرق من و اسومبسيون » . ثم تأسس حوالي ثلاثين معاداً آخر. الا ان هذه المعادات قاست الامرين من هجات تجار الرق في ولاية والقديس بولس » البرتفالية ، بمساعدة قبائل التوبي – غواراني الباقية على وثنيتها ، الذين كانوا يقبضون على الاسرى ويبيعونهم من البولسيين مقابل مقصات وسكاكين وصفانير . ولم تعرف المعادت الهدوء والسكينة الا بعد أن استحصل اليسوعيون من ملك اسبانيسا على اذن بتسليح الهنود بأسلحة نارية والحقوا بالبولسيين هزية نكراء في السنة ١٦٤١ .

شيدت المعادات على مرتفعات ، لاسباب تتعلق بالسلامة ، على بعض المسافة من نهر يستخدم

لنقل المحاصيل. يتوسطها ساحة عامة كبرى تحيط بها الكنيسة والمدرسة وبيت الارامك ومستشفى الشيوخ ودار البلدية ومركزاقامة الآباء وتحيط بهاكذلك شوارع كثيرة تكون بتقاطعها مربعات تتوزع فيها المساكن. وحين يخرج الانسان منها يشاهد منطقة حدائق تتخللها معامل الآجر والقرميد ، والمسابك ، والمحاجر ؛ ومنطقة حقول زراعية : الذرة الصفراء ، الحنطة ، الفأصوليا ، الحمص ، التي تستبدل سنة بعد اخرى في تعاقب مطرد بالشاي والقطن وقصب السكر ؛ ومنطقة املاك عامة مشتركة ، مروج ومراع تسرح فيها قطعان المواشي الكثيرة .

اخضع الهنود للنظام الاجتماعي الاوروبي. تتألف من الامراء واقاربهم طبقة اشراف وراثية جعلت في نظر القانون على مستوى طبقة الاشراف الاسبانيين . لكل امير سلطة على ٣٠ او ٤٠ هنديا يقومون نحوه بواجب الطاعة والعمل . يتمتع الهنود بالاستقلال الذاتي في نطاق المعادات . لكل معاد بلديته الهندية ، يعين الحاكم فيها قاضيا أولا مدى الحياة بناء على انهاء الآباء .

اما القضاة البلديون الآخرون فينتخبون انتخاباً ويوافق الحاكم على انتخابهم . لكل مساد كالمن رعية ، يسوعي يمينه الاسقف بموافقة الحاكم . ولما كان الغواراني يعتبرون كل ما يقوله ككلام الله بالذات ، فهو الذي يمارس السلطة الاولى . الخدمة العسكرية الزامية . الغواراني جنود اكفاء يجمعون فرقاً بقيادة الامراء ويدينون للملك بالخدمة العسكرية ويشيدون الكنائس والمساكن والحصون . تفرض على الغواراني ضريعة ينعم عليهم بدفعها نقداً لا عينا .

ينشأ المعاد في مكان منعزل حفاظاً على الهنود من معايب الاسبانيين ، ولا يسمح بدخوله لا لاسباني ولا لزنجي ولا لخلاسي . وعليه من ثم ان يستقل اقتصاديا . كل الاراضي ملك الجماعة وفاقا لعادات الهنود الاقدمين . وعلى كافة الرجال ان يعملوا يومين اسبوعيا في حقول الجماعة التي تقدم البذار والادوات والمحاريث وحيوانات الجر . تجمع محاصيل الارض المشتركة في نحازن خاصة . يباع قسم منها لتسديد الضريبة وابتياع الملح والحديد . ويستخدم الباقي لاعالة الشيوخ والارامل والايتام . يقسم ما يتبقى من اراضي الجماعة قطعا صغرى توزع للاستثمار مدى الحياة على رؤساء العائلات الذين يتبقى لهم اربعة ايام لزراعتها وتكون حصائدها ملكا خاصاً .

يضم « المعاد » عدداً من المصانع البلدية التي يمارس فيها الفواراني كل الحرف باتقـــان كامل وتنصرف الهنديات الى الغزل في بـيوتهن . اما المصنوعات فتجمع في مخازن مشتركة وتوزع ملكما شخصياً صرفاً بحسب الحاجة .

يتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساء بغية افساح المجال لشؤون العبادة . ايام الاعياد مائة وثمانون ، ينقطع الهنود فيها عن كل عمل ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية، وترافقها ضروب اللهو المختلفة : الموسيقى، الرقص ، اطلاق النار على المرمى ، العاب الكرة ، التمثيليات .

وغني عن البيان ان الحياة الدينية تسيطر على الحياة اليوميـــة : صلوات وتعليم مسيحي صباح مساء * اناشيد دينية قبل العمل وبعده ؛ الخ .

وخلاصة القول ان هذه الشيوعية استهدفت الانتقال بصيادين لا يزالون في حضارة المهسد النيوليتي الى مستوى اخوانهم من متحضري عصري النحاس والشبه. ولكن الممسل ، في نظر اليسوعيين ، ما كان ليتوقف عند هذا الحد . فقد بذلوا جهداً كبيراً بفية بعث روح المسادرة الشخصية . استحثوا رؤساء العائلات على زراعة شاي البساراغواي والتبغ وقصب السكر والاتجار بها . وقنوا لو يصبح هؤلاء الرؤساء اصحاب مشاريع صغرى ويكفون انفسهم بأنفسهم ويجمعون الثروات اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وهذا يستلزم ، كما لا يخفى ، روح التمييز والتبصر في العواقب والثبات والمبادرة والاقدام ، كما يعني ، في حال توفر هذه الروح ، ان الغواراني قد اصبحوا قادرين حقاً على سياسة انفسهم وغدوا اشخاصا مسؤولين حقا واحراراً .

الا ان الفواراني بقوا شعباً طفلا ، غافلا ، متقلباً ، جامحاً . يأكلون البذور التي يستلونها لزراعة اراضيهم . يهملون زراعة اراضيهم الخاصة فلا يكفيهم انتاجها اكثر من شهرين او ثلاثة . يعتمدون لما يتبقى من اشهر السنة على محصول الحقول المشتركة . يتركون مواشيهم تنيه او تحوت جوعاً اذا ما ارتفعت الرقابة عنهم . اذا ما اشتغلوا ، فانهم ينجزون في سنة اشهر مسا ينجزه العامل الاوروبي في اردعة اسابيه . لم بتوفق اليسوعيون يوماً الى حملهم على بذل مجهود شخصي . توج خلاسي من هندية فسمح له اليسوعيون بالاقامة في الماد . باع هذا الخلاسي في بوينوس ايرس انتاج حقوله ومواشيه وعاش حياة يسر ورفاهية . انذهل الغواراني واعجبوا به ولكن واحداً منهم لم يتوصل الى ادراك كيفيسة معاملة حيوان أليف . برهنوا في اعمال الحرف عن مهارة فائقة في تقليد المصنوعات الاوروبيسة ولحشهم لم يشكروا قط شيئاً جديداً .

اما مشاعرهم فلم تتقدم خطوة واحدة حتى بعد اربعة او خمسة اجيال . فعواطفهم العائلية لم تتطور قط ، وكذلك ديانتهم الشخصية . وحافظوا في الناحية الفكرية على مستوى ابناء بجدتهم من سكان الغابات .

ان المعادات اليسوعية في الباراغواي لخير مثل عن سلسلة مؤسسات مماثلة انشأهااليسوعيون في كافة انحاء اميركا على طول حدود الاستعبار الاوروبي وأعطت النتائج نفسها تقريباً .

وصل البرتفاليون الى شواطىء البرازبل واتصاوا بقبائل التوبي - البرتفاليون الى غواراني منذ السنة ١٥٠١ ؟ اما الفرنسيون فمنذ السنة ١٥٠١ . أتوا في البدء تجاراً يؤسسون المصانع تلقائباً. اما في جنوبي البرازيل حيث تأسست و سانتو – باولو ، فيا بعد ، فقد اقام محكومون برتفاليون ومنفيون وبحسارة . وثبت الفرنسيون اقدامهم في رأس و فريو ، وجون و غواناغارا ، حيث قسامت ربو دي جانبرو معد ذلك .

وقد اجتذب الاوروبيين خشب الصبـاغ الاحمر ؛ ﴿ البرازيل ﴾ ؛ والقطن ؛ والهجرس ؛

والببغاء والفلفل. وافتتن الهنود بالمصنوعات الحديدية . فان مجرد اقتنائهم سكينساً او فأساً او السافين يوليهم التفوق في العمل او الحرب على سوام . فقطعوا الاشجار بمل ارادتهم ونقاوها وقدموا « البرازيل » بغية الحصول على « الحديديات » . فتمكن البرتفاليون والفرنسيون على السواء من ابقاء العملاء بين ظهراني الهنود لتملم لفتهم . « خالط » هؤلاء العملاء الهنديات الا بل قصد بعضهم القبائل للعيش فيها » « على طريقة البرابرة » » وامسوا وثنيين من أكلة لحوم البشر وأنسلوا ذرية من الخلاسيين الذين سهلوا العلائق بين الاوروبيين والهنود .

قدم الهنود ، في الدرجة الاولى ، للبرتغاليين والفرنسيين ، المحاربين الذين افتقروا اليهم للتقاتل في حرب استمارية لا هوادة فيها . استولى القراصنة الفرنسيون على عدد كبير من السفن البرتغالية على طول الطريق البحرية . وأفلحوا في استالة البلديين بلطفهم وصدق معاملتهم وتساهلهم وحسن التفاتتهم : فحين تأكدت لهم رغبة الله وتيغوارا ، في اكل لحوم البشر ، نظموا خدمة منتظمة تنقل زلوجا من غينيا يقدمونهم لهم مأكلا . ويؤيد نجاح الفرنسيين عدد الخلاسيين ذوي الشعر الاشقر والبشرة الوردية ، وواقع النجاة من اكلة لحوم البشر بمجرد الادعاء بالجنسية الفرنسية .

خشي البرتفاليون مغبة الامر . زد على ذلك ان استمارهم تبدل شكله منذ السنة ١٥٣٠ واصبع استمار مزارع ومشاجر . استفادوا من اختبارهم في و ماديرا ، ووكاناري، وواسور، ، فزرعوا قصب السكر . وطلب بعض حبار الملاكين عون الناج على الفرنسيين ، فأنشأ ملك البرتفال بين السنة ١٥٣٩ والسنة ١٥٣٩ اثنتي عشرة ضابطية في البرازيل . اسند كل منها الى سيد او الى ملاك كبير في اغلب الاحيان . برهن الاسياد عن استبدادهم أو عن عجزهم ، في السنة ١٥٤٩ استلم الملك نفسه زمام ادارة المستعمرة ، واسس الحاكم العام الاول ، و توميه دي سوزا ، ، مدينة و سان – سلفادور دى باهيا » .

سارت الحكومة البرتفالية في الحرب بقوة وحزم بينا لم تقم الحكومة الفرنسية الا بجهود متفرقة بسبب انشفالها بمحاربة آل هبسبورغ . فان الاميرال كوليني ، الذي حلم بامبراطورية فرنسية وبروتستانية ، ارسل و فيليفانيون ، الذي اسس مستعمرة عسكرية في جون و ريو دي جانيرو ، في و جزيرة الفرنسيين ، ولحكن الحاكم البرتفالي اصطحب اليسوعيين ، الذين كان لهم نفوذ و كبار السحرة ، : فابعدوا عن الفرنسيين حلفاءهم من الهنود الواحد تلو الآخر . واحتل البرتفاليون و جزيرة الفرنسيين ، في السنة ١٥٦٠ ، ثم استولوا تدريجيساً على كافة المستعمرات الفرنسية . وحتى في السنة ١٥٩٧ ، توجهت الى منطقة و ريوغرانده دل نورته ، ٢٠ سفينسة فرنسية . ولكن المدفعية البرتفالية انتصرت في السنة ١٦٠٧ على حلفهاء فرنسا الاخيرين ، البوتينوارا . وهكذا لم يستطع الاوروبيون تسوية منازعاتهم الا بفضل الحاربين الهنود .

كان الاستمار البرتفالي ، الا في منطقة سانتو - باولو ، استمار الاملاك الكبرى ، الخاضمة

للنظام السيدي او الابوي ، والمرتكزة الى زراعة قصب السكر الوحيدة ، ومن ثم الى الرق . فهدت عملية جمع الرقيق شغل البرتفاليين الشاغل ، لا بل غدت صناعة قائمة مجد ذاتها لسكان ولاية القديس بولس ولا سيا لفئة « الماليك » ، الخلاسيين المتوحشين .

أتاح العبد في منطقة سانتو — باولو ، حيث استقر صناعيون برتغاليون معوزون ، قيام استمار الاملاك الصغرى . و اذا اتى شخص الى هـنه البلاد وتوفق الى امتلاك اثنين منهم (الهنود) ، توفرت له وسائل تمهد عائلته بشرف ، حتى ولو لم يمتلك اي شيء آخر ، لان احدهما يؤمن له القنيص والثاني الاسماك ، والآخرين يزرعون في مغارسه ويجمعون الحصائسد . وليس عليه ، بهذه الطريقة ، ان ينفق على تأمين المواد الغذائية لهم ولعائلته ولنفسه (الاب دي نوبرغا) . الا ان هؤلاء الهنود الاقوياء قد خيبوا الآمال في الاملاك الكبرى فقد مارسوا القنص والصيد في مواعيد معينة تتخللها فترات بطالة طويلة ، ولم يستطيعوا قط تعسود عمل المشاجر والمغارس المنتظم الممل ، ففتك الموت باعداد كبيرة منهم . وبات لزامساً منذ السنة ١٥٣٠ استحضار الزنوج من افريقيا . ولكن كل مشجر او مغرس احتفظ بعدة عشرات او عدة مثات من الهاربين الهنود لحماية المزروعات ومطاردة العبيد وجمهم .

الا ان الاستمهار ما كان ليتحقق لولا الامرأة الهندية ، زوجة كانت ام سرية . فهي من حالت دون موت الاوروبيين جوعاً بتعليمهم فن صناعة طحين المنيهوت واستخدام، الذي ما زال مرتكز الطهاية البرازيلية . وهي من وفرت لهم شتى الوصفات الصحية والمنزلية . وبفضلها خطيت الخطوة الاولى الصعبة للاستعهار . واستخدمت لانجاب جماهير غفيرة من العبيد .

كانت نتيجة الاستمباد الاولى على الهنود نقصاً في التغذية . فان اصحاب المشاجر والمفارس لم يكترثوا لزراعة المواد التي تدخل في تحضير الاطعمة ، ولم يتمكن الهنسود من الحصول على المنيهوت، في يوم من الايام ، الا بكيات محدودة . كما ان المشاجر والمفارس اقصت الماشية ولاسيا ماشية و سرتاوو ، التي غدت اشبه بهياكل عظمية . وبات القنيص والسمك اكثر ندرة كاما ارتفع عدد المستعمرين الاوروبيين ، ولم يتناول العديد من الهنود العاملين في المشاجر والمفارس سوى وجبة طعام يومية واحدة قوامها معجون المنيهوت مع بعض الارز .

تأثر الهنود تأثراً شديداً بالجدري ، وفتك بهم الداء الزهري ، لان جميع العاملين في المشاجر والمفارس قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم . وكان كل من لا تظهر فيه علائم الداء موضوع تهكم وسخرية . ونقلت اليهم الالبسة امراضا جلاية وساعدت بتحويلها وظائف الجلا على انتشار الامراص الرثوية . فتناقص عدد الهنود تناقصا مستمراً .

حاولت الدولة البرتفالية هدي الهنود اي الانتقال بهم من المذهب القائل بوجود الروح في كافة الاجسام الحية الى مذهب التوحيد ، من منطق المشاركة الى منطق الادراك ، من التفكير السحري الى كفاية المقل النوعية . جمل الرقيم « ومن بين الاشياء الاخرى ، الصادر عسن

الكسندروس السادس بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، من ملك البرتفال ، و نائب المسيح في الاراضي المكتشفة حديثا عن مكان ملك البرتفال مسؤولاً شخصيا عن التبشير بالانجيل . وقد ادرك جان الثالث (١٥٢١ – ١٥٥٧) مسؤولياته ، فأوعز بارسال الآباء اليسوعيين الستة الاولين في السنة ١٥٤٩ و وتعهد بالانفاق على معيشتهم . وحذا حذوه خلفاؤه من بعده . اما الحاكم الذي بعث الحركة الحاسمة فهو و مم دى سا ، الذي تولى مهامه منذ السنة ١٥٥٧ حتى السنة ١٥٦٨ والذي كرس الايام الثانية الاولى من ولايته للقيام بالتارين الروحيسة باشراف الاب و نوبرغا » . وعين اسقف على البرازيل في السنة ١٥٥١ . فانصرف الاساقفة الى تبشير الهنود بالانجيل ، واشتهر منهم في هذا المجال الاسقف الثاني و بدرو ليتاوو » .

الا ان تقدم التبشير كان بطيئاً. فان كهنة الرعايا المرسلين من البرتغال غالبا ما برهنوا عن جشع و فظاظة وسوء سلوك ، بينا كان اليسوعيون قلة ولم يتجاوز عددهم الـ ١٤٢ في السنة ١٥٨٤ بينهم ، ٧ كاهنا فقط. وكان الهنود متوزعين قبائل صغيرة متنقلة : تشاهد الواحدة منها في الصباح وتختفي بعد الظهر في الد و سرتاوو ». تكلم الهنود لغة عامية مشتركة هي لغدة التوبي التي لم يتقنها المرسلون قط واضطروا بسبب ذلك الى سماع الاعترافات بواسطة التراجمة . ولكن هناك استثناءات ، كالأب و انكيتا ، مثلاالذي وصل في السنة ١٥٥٣ الى سانتو ب باولو والف اجرومية وقاموساً وكتابا في التعليم المسيحي وموجزا السامعي الاعترافات واناشيد ومسرحيات دينية ، وجعل من التوبي لغة حضارة . وانما افتقرت لغدة التوبي الى مفردات تعبر تعبيراً عن المتقد المسيحي . فقد اختار المرسلون التمبير عن مفهوم و الله ؛ كلمة و توبان » التي تشير الى قصف الرعد والتي اعتقدوا بانها تعني و الشيء الالهي » ، اي الكائن الجدير بصفات تشير الى قصف الرعد والتي اعتقدوا بانها تعني و الشيء الالهي » ، اي الكائن الجدير بصفات اللاس والتشويش . وقد حدث مثل هذا اللبس والتشويش في تعابير دينيسة كثيرة بسبب فقر اللبس والتشويش في تعابير دينيسة كثيرة بسبب فقر ان هؤلاء كانوا يعودون الى وثنيتهم بمثل السهولة اخيرا الى اقناع هؤلاء الهنود السريعي التأثر . الا ان هؤلاء كانوا يعودون الى وثنيتهم بمثل السهولة اخيرا الى اقناع هؤلاء الهنود السريعي التأثر . الا وجود الكاهن بصورة داغة .

افلح اليسوعيون من ثم في حمل الحكام على الزام الهنود بالتجميع والعيش في قرى تأسبت القرى الاولى في السنة ١٥٥٧ في منطقة و باهيا » . ومنذ السنة ١٥٦٢ كانت هناك عشر كنائس نجمع حولها بين ٣٠و٠ والف هندي متحضر . وعاون الآباء في مهمتهم الدمير نهوس» الامراء ٤ الذن تعينهم السلطات المدنية قضاة بناء على اقتراح البسوعيين .

فرض اليسوعيون بمض السلطة على الهنود بتماطيهم الطب والجراحة والحدادة والبنساء والنجارة . فقد اتى الهنود الى التعليم المسيحي وطلبوا الى الآباء تربية اولادهم تع بغية الحصول على الادوات الحديدية . يبدأ النهار في القرية وينتهي بالتعليم المسيحي وتتخلله الصاوات في أوقات معينة على الطريقة الرهبانية تقريبا. استهدفت الجهود الاولاد بصورة خاصة، ومنذ السنة ١٥٥٠

استحضر الآباء بعض الايثاء من البرتفال وادخلوهم مدارسهم الى جانب اولاد الفواراني ليجعلوا من العرقين شعبا واحدا يعبد الله . اسندت الى هؤلاء الاولاد مهمة التنبيه الى الولادات والامراض ، كي يتاح للآباء توزيع سري العاد والمسحة الاخيرة ، ومهمة الوشايسة بالسحرة وتعليم الاولاد الآخرين ، وحتى الفتيان ، مبادىء الدين المسيحي . زد على ذلك ان هؤلاء الاولاد اثروا في الهنود بتطوافاتهم واناشيدهم .

استند التبشير بالانجيل الى دعوة نفعية . فقد بشر اليسوعيون الغواراني بانهم اذا ما اهتدوا سيحسلون ، بفضل الله ، على غذاء وفير ، وسيتمتعون بصحة جيدة وسيحرزون النصر على اعدائهم . ارتعب الهنود من جهم ، فشدد اليسوعيون الكلام عن العقوبات الابدية . وبفية التأثير في الهنود تمجيا واحتراما ، وبفية صرفهم عن و اعياد المسكر ، والرقص ، اكثروا من الاحتفالات الزاهية مع ما تستلزمه من موسيقى واناشيد شغف بها الهنود ، ونظموا تطوافات عديدة رفعت فيها الرايات الكنسية الزاهرة الالوان والشموع والمشاعل وتخللتها الرقصات ولاسها الرمزية فيها الرمزية التي برهن الهنود عن اهلية منها . وقد تجلت الرقصات الرمزية في المسرحيات الطقسية والاياثية التي برهن الهنود عن اهلية كبرى لتمشلها .

علم اليسوعيون الهنود مبادىء الدين مليا وبطول اناة . فرضوا عليهم مرحلة اعدادية طويلة . طلبوا اليهم ان يختاروا بين نسائهم المديدات واحدة يصرح الهنود بانهم يريدونها زوجة فريدة لهم مدى الحياة . وبعد زواجهم على هذا الشكل ، و مجسب سنة الطبيعة ، كان باستطاعة اليسوعيين تنصيرهم بالمعاد وتزويجهم بعد ذلك و مجسب سنة النعمة ، ثم يسمع اعتراقهم بعد فحص ضميري تمهيدي . لم يفرض اليسوعيون عليهم سوى كفارات خفيفة ، وكفارات ادبية بصورة خاصة . وبكل احتراس قدموا الهنود الى تناول سر القربان محور الحياة المسيحية . وفي السنة ١٥٧٣ سمح المهنود بالتناول مرة واحدة في السنة . ولكنهم كانوا قدرة في تقبل همذا السر فأجيز لهم في السنة ١٥٧٤ بتناول جد الرب في الاعياد الاربعة الكبرى : الميسلاد ، الفصح ، المنصرة ، انتقال السيدة .

برز بين الهنود مسيحيون صالحون كانوا تسابيح حقيقية حية الرب. الا ان اليسوعيسين لم يرفعوا احدا منهم الى درجة الكهنوت لانهم اعتبروهم عاجزين عن حمل نير البتولية وغير مهيئين للدروس اللاهوتية المعول فيها على المنطق الصوري والفلسفة الكلامية. ولكن النتائج جاءت غير مرضية في اغلب الاحيان. « إن هؤلاء الارثان من الهمجية بحيث لا يعيش شخص واحد منهم حياة مسيحية إذا انقطع اتصالهم بالآباء ثمانية أيام متوالية » (وغبريال دي سوزا» واحد منهم عياة مسيحية أذا انقطع اتصالهم بالآباء ثمانية أيام متوالية » (وغبريال دي سوزا» وتتوارى عن الانظار. وقد القي احد اليسوعين في الدهش يوم عيد الشمانين من السنة ١٥٦٠ : نظم هنود قرية « سان جوانو » في منطقة « باهيا » تطوافا فخما تجلت فيه اروع مظاهر التقوى وفجأة انسحبوا إلى السرتاوو » . فكيف تفسر مثل هذه النقليات يا ترى ؟ هنالك تقلقسل وفجأة انسحبوا الى السرتاوو » . فكيف تفسر مثل هذه النقليات يا ترى ؟ هنالك تقلقسل

الهنود سراً . واخطر ما هنالك السحرة المعروفون بالـ « قديسين » الذين يحتفظون من المسيحية ، عا يرضى الهنود ، وينبذون ما هو شاق كوحدة الزواج والاعتراف .

وهنالك اخيراً المثل السيء الذي اعطاء بعض المستعمرين البرتغاليين بزواجهم سفاحاً من عشرين عبدة مما احيانا ، وعلى الاخص الفزو الذي استهدف مطاردة العبيسيد وجمهم . تواصل هذا الفزو على الرغم من قانون السنسة ١٥٧٤ الذي منح الحرية هنود القرى ، فأدى الى فرار هنود الجاعات المسيحية بحيث لم يبتى من الكنائس العشر وال ٢٠٠٠ هندي حول أهميا سوى اربع كنائس و ٢٠٥٠ هندي في السنة ١٥٥٠ . اها الهنود العبيد فقد بذل اسيادهم جهد مستطاعهم لمنع اليسوعيين من تبشيرهم بالانجيل . ومرد ذلك الى ان العبد المسيحي يحتمي بشريعة الله من بطش المستعمر ورذائله . لهذه الاسباب كلها تكررت الاصطدامات بسين اليسوعيين والمستعمرين . وجاءت المنافسة التجارية تزيد في الطين بلة . فقد استخدم اليسوعيون الهنود في جني المقاقير والمفردات ، وزراعة قصب السكر والقطن والتبغ واللوز الهنسدي والافاديه ، والعمل في مصانع تقطير الكحول والمطاحن . فاستحالت مزاحمة اليسوعيين في النوعية وانخفاض الاسعار . لذلك قامت بين اليسوعيين والمستعمرين حرب اهلية دائمة . وقاوم النوعية وانخفاض الاسعار . لذلك قامت بين اليسوعيين والمستعمرين حرب اهلية دائمة . وقاوم كبار الملاكين شيئًا فشيئًا المسيحية واليسوعيين . وبلغ هذا النزاع ذروته في القرن الثامن عشر فكان سبباً رئيسياً من اسباب إقصاء جمية اليسوعيين .

كان هؤلاء الغواراني المساكين منطلقـــاً لبهض المع النظريات التي هـــــاجت اوروبا . فان المعلومات التي اعطاها التراجمة ، وهم من تخلقوا بالاخلاق البلدية واضفوا عليها مسحة جمالية ، قد عرفت الانتشار بواسطة البحارة والتجار وكتب المسافرين. افتتن علماء الادب الفــــديم باسطورة العصر الذهن ورغبوا في ارشاد مواطنهم بمن لا يعيشون حياة مسيحية حقيقيــة ، فاستخلصوا من هذه الروايات ، ومن مؤلفات ، لاسكاراس ، وابنائه الروحيين ، ومسان الاحاديث التي جرت بينهم وبسسين الهنود الذين جيء بهم الي اوروبا يواسطة تراجمة حو"روا أجوبسة الهنود، الطورة و الهمجي الصالح، اشهر هؤلاء المؤلفين هو و مونتانيه، في « محاولاته » . تحدث في السنة ١٥٦٢ ، في روان ، الى ثلاثة من التوبي ــ غواراني بواسطة احد التراجمة . فأعلن في فصل « العربات » وفصل « اكلة لحوم البشر » ان الجمَّمُم الهندي انقى مجمَّمُم لأنه أقرب الجشمعات إلى السنن الطبيعية . وقد أرتأى إن الهمجيين يجب أن يكونوا قسدوة لنا في سلوكنا ، لأننا نحن البرابرة حقاً . وكان مقدراً لـ « الهمجي الصــــالح » ، ذاك الشخص الاسطوري الذي يعيش حراً ، بحسب طبيعته ، بوحي ارادته ، متعطلاً ، متغافلاً ، بريثاً ، دون أيذاء ؛ دون تملك ؛ دون حكومة ؛ فرحاً ؛ سعيداً ؛ أن يعرف شهرة مسدهشة غادرة . فهو من سيشق الطريق امام الملحدين ، « بيير شارون » ، و « لاموت له فاييسه » ، ويسهم في بلبلة الافكار وفي ازمة القرن السابع عشر ، ويلهم بعد ذلك «الفلاسفة » واعداء الاستعار في القرن الثامن عشر، ويحقق الغلية مع و جسان جاك روسو، وهود البربري الصالح ، من بر"ر إلايمان بطيبة الانسان الأصلية ، فوقر بذلك احد المبادىء الاساسية المذاهب الاشتراكية . لا بل ان قسماً هاماً من حضارتنا المساصرة يعود ، بصورة غير مباشرة ، الى آراء بعض الاوروبيين في هنود لا يزالون في مستوى الحضارة النيولينية .

الفرنسيون وهنود منذ السنة ١٥٠٤ ، از دحم النور متديون والبريتانيون الفرنسيون المسلمة المسلمة النيوليتية في و الارض الجديدة و و اكاديا و وحول مصب نهسر و سان لوران و وقد اجتذبهم الى تلك المناطق صيد الاسماك للايام الصائمة الكثيرة التي تفرضها الكنيسة اولا والفراء النفيسة ثانيا . منذ هذا التاريخ تكررت اتصالاتهم بالا بيوتوك و في الارض الجديدة والا و واناباكي و والا و مونتانيه و وحين وصل وجاك كارتيبه و في السنة ١٥٣٤ الى و جون القيوظ و لوح الميكاك بالفراء في اعلى المصي لاجتذاب رفاقه اليهم . وفي ذلك دليل على انهم عرفوا الرجاذب الفراء في الملاحين الفرنسيين . وبعمد السنة ١٥٧٥ انتشر في اوروبا زي القبعات المصنوعة من وبر القندس وارداد طلب القندس ازدياداً مطرداً .

ادت هذه التجارة الى تطويرالحياة الهندية تطويراً كلياً . ابدى الهنود رغبة كبرى في اقتناء الإدوات الحديدية من سكاكين وفؤوس ، وفي الاسلحة النارية ايضاً . وبلغ من استمالهم لهذه الادوات انهم نسوا ، خلال قرن ، تقنياتهم الخاصة في صناعة الادوات الحجرية والمطميسة والحشبية . فقدوا مضطرين لان يبتاعوا من الاوروبيين كافة المعدات الضرورية لحياتهم وبات لزاماً عليهم تنظيم نشاطهم للاتجار مع الاوروبيين .

وجد جاك كارتيبه ، في البقعة التي تقوم عليها و موزيال » ، و الانهر الثلاثة » كبيك » والا وهورون » وفي السنة ١٦٠٠ وجد و شاميلين » الالعونكينيين الذين اقصوا المورون والايروكوا وقاموا بعد ذلك بهجهات داغة على اراضيهم . الاان المورون ، المتغوقيدين في الزراعة ،اسسوا المبراطورية تجارية واخضعوا لسيطرتهم الاقتصادية كافة الشعوب الالغونكينية وبعض الشعوب الايروكية ، كالحقوباكو » والح فيرال » . واخذوا يبتاعون مسن هؤلاء الآخرين كميات كبرى من الذرة الصفراء ويبيعونها من القبائل الشهالية . كا اخذوا يجمعون فراء المونتانيه والح و كريبه » والح و ناسكاني » مباشرة ، وفراء قبائل و البعيرة العليا » وقبائل شعوب و المروج » وقبائل الالينويز سكان وادي المسيسبي الاعلى ، واسطة الح اوتاوا » . وهكذا فإن الاقتصاد الموروني الذي كان زراعياً في الدرجة الاولى ، قد غدا تجارياً قبل اي شيء آخر . وكانت كثافة المورون حوالي السنة ١٦٣٠ مساوية لكثافة الاوروبيسن في المنطها التجاري . كانوا يقضون فصل الامطار في جمع الذرة الصفراء الضرورية ؛ وفي الربيع يصعدون عن طريق الضغة اليمنى للبحيرة العليا والبحيرات الكندية باتجاء اعالي وساغناي ، ويقايضون الذرة الصفراء الفراء ، ثم ينزلون وساغناي ، ويبلغون الفرنسيين عن طريق وتادوساك ، ويقايضونه الغراء ، علي المنوال وصل كل سنة الى كبيك ٢٥٠ ميرونيسا في حوالي ويقايضونهم الغراء ، وعلى هـذا المنوال وصل كل سنة الى كبيك ٢٥٠ ميرونيسا في حوالي ويقايضونهم الغراء ، وعلى هـذا المنوال وصل كل سنة الى كبيك ٢٥٠ ميرونيسا في حوالي

٨٨ زورقاً مملة بالجلود.

اما الايروكوا ، فبعد ان هزموا الد و موهيكان ، أصبحوا حوالي السنة ١٦٢٧ - ١٦٢٨ المستارين الرئيسيين لشركة الهند الفربية الهولندية ، واقاموا في امستردام الجديدة ، اي نيويرك الحالية . ولكن الايروكوا كانوا قد أبادوا القندس عمليا في منطقتهم حوالي السنة ١٦٤٠ . فطلبوا حينذاك الفراه من الفرنسيين . الا ان الفرنسيين لم يروا اية فائسدة من تمزيق الحلقة الهورونية ، فوفضوا عروض الايروكوا . عند ذلك اخذ هؤلاء يشنون الغارات في السنة ١٦٤٣، وفي السنة ١٦٤٩ انقض اكثر من الف ايروكي فجأة على الهورون ، الذين مساكانوا ليحرسوا قرام ، فابيد هذا الشعب . لجأ بعضهم الى كيبيك ، وقصد البعض الآخر العيش الى الجنوب من عملة و ايرييه ، أراد الايروكوا حينذاك الحلول على الهورون كوسطاء لتجارة الفراء ماجوا على التوالي كافة طرق المواصلات وتوصلوا في النهاية الى ان يقطعوا جزئياً طرق الاتجار بالفراء . استمرت الحرب ضد الفرنسيين حتى السنة ١٦٧٠ . ويفسر تفوق الايروكوا العسكري هدذا بأنهم كانوا يستعيضون عن قتلام بتبني اسرى الحرب وتجنيده ، وقد ضم جيش محاربي الايروكوا عدداً كبيراً من الفرنسيين والانكليز والهولندبين وهكذا فان الرغبة في الحصول على المصنوعات عدداً كبيراً من الفرنسيين والانكليز والهولندبين وهكذا فان الرغبة في الحصول على المصنوعات الاوروبية فد تخضت عند هنود الحضارة النيوليتية الزراعية عن الحرب الاقتصادية .

تقدم الفرنسيون بعيداً جداً باتجاه الغرب. وشق المرسلون الطريق امام و عدائي الغابات ، استشف اليسوعيون منذ السنة ١٦٢٩ همية اتصال البحيرة العليا وبحيرة ميشيغان وبحيرة هورون. وأسسو ارساليات و سولت سانت – ماري ، التي أقاموا فيها منسذ السنة ١٦٦٩ حتى السنة ١٦٨٣ و و سانت – اينياس ، التي أقاموها ، في السنة ١٦٧١ ، في جزيرة و ميشيليا كيناك ، وفي الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة التي تقابلها . ارتفع عدد «عدائي الغابات » في هسذه الارساليات ، بين الالغونكينيين والهورون ، لانها كانت مركز امتيار الذرة الصفراء قبسل الغزوات . الا انهم حاولوا بدورهم الاستمناء عن الوسطاء فتوجهوا الى أعالي لليسيسيي وبحيرة والمطري وجون وهدسون » بغية امتيار الفراء مباشرة من القناصين . بلغ العدو ذروته في ايام الوكيل و تالون » . أدرك هذا الاخير إن و عدائي الفسابات » كانوا خير أعوان لسياسته الاستمارية . فشجعهم وقدم لهم المساعدات ، الى أن اصبح العدو ، الذي لم يكن سوى تكلة للزراعة الكندية ، صناعة مستقلة كُرس لها بعض الفرنسيين كل نشاطهم . وقد حمت و عدائي الغابات ، بعض الحاميات العسكرية . في السنة ، ١٦٩ وجد في و ميشيليا كيناك ، ١٤٣ رجلا من فرقة و كارينيان ، وأوا ان اجوره غير كافية ، فآثروا الاغتراط في صفوف المدائين ونتج من ذلك انتشار الحضارة الاوروبية في المناطق البعيدة .

اقتبس الهنود عن الاوروبيين الادوات من سكاكين وفؤوس وصنانير خبروا فعاليتهــــا وديومتها . واستعاضت النساء عن الخزفيات بالاناء المعدني وعن الابرة العظمية بالابرة الفولاذية

التي تؤمن عملا سريماً . تعلموا من الفرنسيين قرن الكلاب لجر المزالج التي كانوا يجرونها بأنفسهم و فسار العمل بسرعة . وبواسطة الفؤوس الحديدية تمكن الاوروبيون والهنود على السواء من ان يبنوا في سبعة ايام كوخا كان بناؤه يستغرق شهوراً عدة بواسطة فؤوس حجرية تكاد لا تفعل في الجرمشق والبتولة . وتوفرت للهنود البنادق التي اصبح استعالها عاماً . « كانوا يقتلون اوزة برية واحدة بواسطة السهم و اما بواسطة الطلق الناري فيقتلون خساً او ستاً وكان القنص بالسهم يوجب الاقتراب من الحيوان ؟ اما بواسطة البندقية فيقتلون الحيوان من مسافة بعيسدة ، ولكنهم تمادوا في القتل حتى ندر القنيص .

الف الهنود خبز الفرنسيين وطلمهم ولوباءهم وجلبانهم . حين تصل السفن الفرنسية صيفاً يكفون عن القنص ويتشبعون من المواد الغذائية الفرنسية . الا ان الالفونكينيين الصيادين الم يستطيعوا تعود الاعمال الزراعية ، فغدوا من ثم مرتبطين ارتباطاً كلياً بالاوروبيسن وبتجارتهم .

تولع الهنود بالمسكر ، فباتوا سحكيرين . واذا ما غملوا ، اغتاظوا وتضاربوا وتقاتلوا واحرقوا الويغوام وأتواكل قذع فاحش . في سبيل الحصول على المسكر ، استسلمت الهنديات لرغائب الاوروبيين . فحرم اسقف « لافال » في السنة ١٦٦٠ كل من يبيع مسكراً مسن الهنود ، وحظرت الحكومة الملكية احياناً بيسم المسكر ، ولكن السلطات الاستمارية كانت مقتنعة بأن منع المسكر معناه القضاء على تجارة الفراء والنفوذ الفرنسي . ففتك داء الفول بالقبائل الهندية .

اما الهنود الذين بقوا على وثنيتهم ، فقد تكون فيهم شعور جزع وقلق ونوع من اليأس بمخالطة الفرنسين . لم يفقهوا شيئاً من المدالة الفرنسية والمسؤولية الشخصية والملكية الفردية والنعمة والففران . اعتبروا انفسهم متفوقين على الفرنسيسين ، كما اعتبروا خضوعهم لأقوام يستحيل عليهم احترامهم جوراً وعسفاً لا يقرهما حتى وعدل . وكان الفرنسيون كلهم في نظرهم سراقاً ولصوصاً اذ ال التجار يقايضونهم كميات ضخمة من الجلود ببنسادق لا تنفجر او او بارود لا يحترق . وكان الفرنسية التي يشتمونها او بارود لا يحترق . وكان الفرنسيون جبناء ايضاً في نظرهم ، اذ ان السفن الفرنسية التي يشتمونها او يسرقون بعض ما تنقله ، تبحر ثانيسة دون ان تنتقم منهم . سلموا بأن الفؤوس والسكاكين الحديدية تنطوي على شيء من ال و مانتيو ، ولكنهم اعتبروا انهم احذق وادهى من الفرنسيين اذ ان هؤلاء قد اعجبوا بادواتهم الحجرية والمظمية واعترفوا ممن ثم بانهم دونهم من الفرنسيين احد الرؤساء الهنود يوماً في احدى نزوات سخائه انه يربد اهداء لزيس الثالث عشر وقد اعلن احد الرؤساء الهنود يوماً في احدى نزوات سخائه انه يربد اهداء لزيس الثالث عشر ماثتي جلد قندس ليجعله اوسع ثروة من كافة اسلافه . فما هو من ثم مبر رهسة والسيطرة الاجنبية التي لم بروا لها نهاية .

كانت النتيجة ارتفاعاً في نسبة الوفيات وتدنياً في نسبة الولادات ونقصاً في عدد السكان .

يتشبع الهنود في الخريف من طحين الحنطة والجلبان والفاصوليا ، فتفتك بهم التسمات المعوية. اما النساء اللواتي يصبن بداء الغول فيجهضن إو يقتلن المواليد . وقد سبب المسكر اضراراً هائلة . فقد جاء في تقرير يعود الى السنة ١٦٩٣ ان الاوروبيين كثيراً ما يعثرون على طول الانهر في الفابات على جثث هنود تجاورها ابداً اواني المسكر . وفتك بهم كذلك التدرن الرئوي والجدري والداء الزهري . فكثيراً ما آباد وباء الجدري ثلاثة ارباع سكان القرية الهندية وترك الباقين على قيد الحياة في هزال يكاد يقعدهم عن القنص : ومات غيرهم جوعا بدورهم . اما الحروب الهندية فقد تحولت الى ملاحم وعجازر ، فأبيدت بعض القبائل عن بكرة ابيها .

كان مستوى سكان كندا الفرنسيين عالياً يضم اشرافاً ريفيين وبورجوازيين مثقفيدن وصناعيين وفلاحين موزعين سيادات وفاقاً النظام الفرنسي الشرعي الراهن: أسياد واصحاب اقطاعات. ولكن ذلك لم يحل دون تأثرهم بعادات الهنود ، وعقبليتهم ، ولم يؤلفوا قط سوى طراقد ضيقة على طول شواطىء و اكاديا ، او على طول ضفي نهر سان - لوران . ويرد ذلك الى صعوبة احياء الاراضي الحرجية في بلاد يدوم شتاؤها خسة اشهر ونصف الشهر ، والى ان انتساج الاراضي لا يوازي نصف انتساج الحقول الفرنسية . لذلك لم يلبث الكنديون !ن اعتمدوا اقتصاداً مختلطاً يرتكز الى القنص والصيد تارة ، والى الزراعة طوراً ، في تصاقب مطرد . ولكن سرعان ما احتل القنص والصيد المركز الاول ، وانصرف بعضهم الى العدو في الفابات . الفوا الجهد غير المنظم واقتبسوا عن الهندي تفافله وتقلبه . عاشوا في عزلة كا يطيب لهم العيش فغدوا متعجرفين وعصاة وسريعي الاغتياظ من رؤسائه...م ، على غرار الهنود . ومارسوا الحرب على الطريقة الهندية : كمناء وغارات فجائية .

وجمة الكلام انهم اكتسبوا شيئاً فشيئاً عقلية هندية كان من شأنها ان تشجع التقارب بين الشعوب. وهذا ما تمنته الحكومة الفرنسية وريشليو وكولبير ، الذين رغبوا في ان تصبح كندا فرنسا - الجديدة ، وان يتفرنس البلديون ، وان تعقد زواجات مختلطة كثيرة ، وان تصبح المستعمرة ولاية فرنسية ، اذ انهم انتهجوا سياسة هي سياسة الدمج.

ولكن هذه السياسة آلت الى الفشل . فلم تعقد سوى زواجات قانونية قليلة جداً بيسن المهنديات والاوروبيين ، اذان المهنديات لم يرغبن في دخول العائلات الاوروبية بسبب الفروق الكبيرة التي تباعد بين العادات . وكان الحلاسيون : ابناء التسرر الدائم او التسرر الوقتي ، يؤثرون العيش في قبيلة والدتهم . الاان و عدائي الغابات ، في جوار مراكز العدو او الحاميات . العسكرية ، وهم ابناء اشراف ريفيين وقضاة وجنود مسر حين وصناعيين يدويين ومشردين ، لم يستطيعوا الاستغناء عن الهنديات اللواتي يعرفن وحدهن تحضير الحساء وصناعة الاحذيسة والمياجير واعداد الجلود للبيع . فابتاعوا من ثم الهنديات لزواج وقستي . وتزوج بعضهم من اكثر من امرأة وتعهدوا و مرابض صبايا » . واعتنق بعضهم الوثنية وكرموا ارواح الصخر وارواح النهر وارواحاً اخرى كثيرة ، فغي ميشيليا كناك وفي و سولت سانت ـ مارى وتجانبت

قرية اوروبية وقرية هندية كان اطفالها الخلاسيون يتنقلون بجرية بين قرية واخرى . ولولا الضباط والكهنة لألفت القريتان قرية واحدة ، ولانتهى الاستعار الى والهند – الجديدة ، لا الى و فرنسا – الجديدة ، وانحا الوقائع التي نسردها ليست سوى وقائع متفرقة على كل حال ، ولكن على الرغم من مقاصد الحكومة الملكية ، بقي المجتمعان منفصلين يترك احسدها في الوقت نفسه اثراً بعيداً في الآخر .

كان النشاط التبشيري في فرنسا – الجديدة كبيراً على غراره في المستعمرات الاسبانية . فان و جاك كاتيبه ، قد بين لفرنسوا الاول ، بعد رحلته الاولى ، في و روايته القصيرة وقصته الموجزة ، ، ان ملك اسبانيا قد نشر لواه الانجيل في اميركا الاسبانية وان ملك فرنسا لا يجوز ان يتأخر عنه في هذا المضمار . وفي السنة ، ١٥٤ ، حين فوض فرنسوا الاول الى جاك كارتيبه القيام برحلة ثانية ، اعلن عن رغبته في انشاء مستعمرة داغة من الفرنسيين في فرنسا – الجديدة ولتسهيل حمل الشعوب الاخرى في هذه الارض على اعتناق ايماننا المقسدس ، ولعمل شيء ما يرضي الله خالفنا و فادينا ويسهم في تعظيم اسمه الاقدس وامنا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي يرضي ناله خالفنا و فادينا ويسهم في تعظيم اسمه الاقدس وامنا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي مدعى نحن باسم ابنها البكر » . واقتفى اثره هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ، لان الخضوع للملك هو في نظرهم وسيلة تبشير وهداية ولأن التبشير والهداية شرط ديمومة ولفتهم وعقليتهم ، فيتضح من ثم ان الماوك اخضاوا التبشير للسيطرة الاجنبية ولتقبل شكل ولفتهم وعقليتهم ، فيتضح من ثم ان الماوك اخضاوا التبشير للسيطرة الاجنبية ولتقبل شكل حضاري معين ، في حين ان الايمان بالمسيح مستقل كل الاستقلال عن كل شكسل سياسي وكل مكل حضارى .

ان تبشير فرنسا - الجديدة لاحدى ظواهر النهضة الكاثوليكية الفرنسية في القرن السابع عشر . فان المركيزة و دي غرشفيل ، والدوق و دي ليفي - فنتسادور ، البورجوازي ، و ماري غويبار ، ، ارملة احد الحريريسين ، التي اصبحت و ماري التجسد ، وذهبت الى كيبيك بالراهبات الاورسوليات في السنة ١٦٣٩ ، قد اسهموا مع يسوع المسيح في بث الكلمة الالحمية ، بحسب تعاليم و بيرول ، و و كوندرن ، و وجان - جاك اوليه ، .

منذ السنة ١٩١١ ذهب اليسوعيون الاول الى بلاد الميكاك . وفي السنة ١٩١٥ استدعـــى شامبلين الى كيبيك رهبان القديس فرنسيس الذين كانوا يبشرون الالفونكينيين . وفي السنة ١٦٤٢ اسس خادم رعية و سان – سولبيس » ، جان – جاك اولييه ، بناء على طلب رهبانية القربان – المقدس ، جمية سيدة و موزيال ، واقام فيها السولبيسيين .

الا ان اليسوعيين هم من ادّوا القسط الاكبر للتبشير , فقد حاولوا هدي المونتانييسه والنساسكابي والكريبه والابناكي والهورون وحتى الايروكوا . ولم يختلف نهجهم في جوهره عن نهج اليسوعيين الاسبانيين والبرتغاليين ، فلا حاجة من ثم ان ندخل هنا في التفاصيل . وقعد

ترفقوا الى نتائج حسنة احيانًا . فان الابناكي قد اصبحوا كاثوليكيين متأصلين في ايمانهم وغدوا بالفعل نفسه حلفاء فرنسا الاوفياء على الانكليز البروتستانت . وقد اجابوا الانكليزي الذي جاء يطلب اليهم البقاء على الحياد ؛ خلال حرب حلف اوغسبورغ : « أيها الضابط العظم ، انت تطلب الينا الا ننضم إلى الفرنسي أذا ما أعلنت عليه الحرب. فأعلم أن الفرنسي شقيقي . صلاته وصلاتي واحدة . نعيش في كوخ واحد حول نارين ، ناره وناري . محبتي لأخي اقوى من ان اتقاعس عن الدفاع عنه ، ولم يكف الابناكي عن شن الغارات على المنطقة الانكليزية . وكان من محافظة المبكماك على كاثوليكيتهم في قلب المنطقة البروتستانتية حق القرن التساسم عشر ٤ أن احد المرسلين البروتستانت قد أقام فيا بينهم ولم يفلح في حمل شخص واحد منهم على التخلي عن عقيدته . ويرهن الكثيرون من هؤلاء المهتدين عن ايمان حار واخلاق طاهرة وضميير حيى . اما المونتانييه والناسكابي فلم يبرهنوا عن القيـــادم الا في حضور الآباء . واذا ما ذهب الآباء ، عادوا هم الى وثنيتهم . وجدير بالذكر أن معظم البلديين لم يهتدوا . ففي السنة ١٦٤٠ لم يبلغ عدد المهتدين من الهورون سوى ١٠٠٠ شخص تقريباً من اصــل ١٢٠٠٠ تناولهم التبشير تستغرق عدة قرون . وتفاني اليسوعيون في تأدية رسالتهم حتى الاستشهاد . ولدينا خير مثل في ما حدث للاب و دي برببوف ۽ في السنة ١٦٤٩ . اسره الايروكوا مع الاب و لالمان ۽ في غارة شنوها على الهورون . الا أن النصر لا يكون تاماً في نظر الهنود الا أذا استسلمت أرادته ايضًا ؛ اي اذا صاح من الالم وطلب الرحمة . امرُّوا الابوين بين صفين من الايروكوا المزودين بالدبابيس الذين انهالوا عليهما ضرباً ، كل بدوره ، فلم يبق في جسميهما جزء واحد سالم من الضرب. وضعوا عصياً ملتهبة تحت ساقي الاب و دي بريبوف ، وابطيه . فلم يجب الاب الا بالصلاة من أجلهم .مزقوه حينذاك بالسكاكين ورؤوس النبال ؛ وعلقوا له في عنقه عقداً من الفؤوس الحجاة. واكن الاب قال لهم ان حروق جهم ستكون اشد ايذاء اذا لم يهتدوا . عندئذ البسه الايروكوا نطقاً وحمائل من قشور صمغية واشعلوا فيها النار . ولكن الاب استمر في التوجع لحسالهم وفي استنزال رحمية الله عليهم . فاستشاط الايروكيوا غيظاً من انهم يماملون معاميلة النساء وعمدوه بالماء الغالى . عندما رأوا ان الاب يواصل الابتهال إلى الرب من اجلهم قطعوا لسانسه وشفتيه وانفه واقتلعوا عينيسه و ثم جروه الى سطح احسب البيوت ليقدموه ذبيحة لإلحهم د اغرسكوي . . وبينا لم يزل حياً ، انتزع احد الرؤساء قلبه وشواه واكله رغبة منه في ان تتجسد فيه بسالته . ثم قطعـه الهنود الآخرون ارباً ارباً والتهموه . وقد بدأ تمذيبـــه ظهراً . وانتهى بعيد الساعة الثالثة زوالية ، في السادس عشر من آ ذار من السنة ١٦٤٩ .

الانكليز رمنود الحفارة النيوليتية لم يبذل الانكليز جهوداً تذكر في سبيل هداية الهنود. نقل «جون اليوت» التوراة الى اللغات الهندية فأتاح بذلـــك اهتداء بعض الاقوام ، ١٠٠٠ بلـــدي تقريباً « دجنوا » ، كها قال الانكليز دجوناً عيزاً .

وقامت بعض العلائق التحارية . فقايض الهنود الفراء بعرق السكر والمصنوعات الحديديــة . الحرُّص . فاشترى المستعمرون اراضي الهنود الذين لم يدركوا معنى العملية واعتقدوا بانهم أنما يشاركون البيض استثمار الارض فقط . وحين طفت موجة المهاجرين والمزروعات ؛ ففرت من امامها الطرائد ، اراد البلديون الدفاع عن اراضيهم المخصصة للقنص . فأقدم بعض البلديين من قبيلة الدربيكو ، على قتل بعض التجار ، فقيام طابور من منطوعي «ماساشوسنس ، باحراق قراهم في السنة ١٦٣٦ . عند ذلك احاط المحاربون البيكو بقرى كونكتكت وقتاوا البيض الذين صادفوهم . في السنة ١٦٣٧ ، احاط جيش كونكتكت (٩٠ رجلا) ليلا بأهم قرية من قرى البيكو واشعاوا فيها النار * فمات ٥٠٠ هندي بين رجل وامرأة وطفل . ثم طورد فلول القبيلة ؛ فقتل معظم الذكور واستعبدت النساء مع صغارهن . فقد كتب احدد الرعاة البروتستانت الى حاكم ماساشوستس يقول له: « سيدى ، نحييك في الرب يسوع انا والسيد « اندكوت » . أما بعد فقد بلغنا ان قسمة نساء واطفال تجرى في الجون . فنرغب في الحصول على نصبينا ، اي على فتاة او امرأة شابة وعلام اذا ما رأيتم ذلك موافقاً احدث الجشم في طلب الاراضي غضبًا وحقداً شديدين على الهنود . فاستهدفت الجهود الكبرى ابادة هؤلاء « الاوثان » . غدت الارض « احد آلهة انكلترا الجديدة » . ولأدنى حجة اقتيد الـ « ساشم » عنوة الى د يوسطن » و د بليموث » وارغموا ، تحت طائلة النحر ، على تسليم اسلحتهم والتخلى عن بعض اراضهم . في السنة ١٧٦٥ ، اعلن د الملك فيليب، الثورة ، فدكت القرى وقسل مره من البيض عند حدود ماساشوستس وبليموث وكونكُتكت . ولكن الهنود لم يكونوا متحدين ، فتمكنت قوى المستعمرات من قمع الثورة بمساعدة القبائل الوفيسة . هزم الهنود شر هزيمة وبيسم الاسرى عبيداً وأعدم المسؤولون الجرمون . واستمر المستعمرون في كل مكان في تقتبل الهنود .

وهكذا فان الاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم ، قد اخفقوا في كل مكان في محاولاتهم الرامية الى دمج هنود الحضارة النيوليتية . ويرد ذلك الى التفاوت الكبير بين الحضارات . اما الهنود الذين حافظوا على علاقاتهم بالاوروبيين فقد اضمحلوا تدريجياً . الا ان بعضهم ، كليكياك مثلا ، قد عرفوا البقاء لانهم انما و تكيسوا ، الحضارة الاوروبية . ولم يعرف البقاء حقاً الا عامة شعب المايا بعد ان ازال الاسياد والكهنة الاسبانيون اشراف و كهنة المايا وحلوا محلتهم . ولكن المايا كانوا قد بلغوا ، لاعتبارات خاصة ، مرحلة عقلية عليا . فتمكنوا من ان يصبحوا مساعدين وضعاء للاوروبين ويتقبلوا الحضارة الاوروبية ، بعد خسائر فادحة في الارواح . ولكنهم احتفظوا عمليا تحت اسماء مسبحية ، بآلهتهم الزراعيين ، وتحت ظواهر مسبحية ، بعد ماتهم اليومية ، اى انهم قكنوا من البقاء .

اما الهنود الآخرون فلم يتمكنوا من تفيير عاداتهم . والدليل على ذلك اختبار حاسم

اجري في القرن التاسع عشر . ثبنى زوجان من الميكاك طفلا ابيض صغيراً سلخ سني حداثته في هذه القبيلة ، ثم تزوج من كندية فرنسية وغادر نطاق القبيلة ، يقول لنا ابنه ما يسلي : حوالي السنة ، ١٨٩ ، د حين تقدم والدا ابي بالتبني في السن وضعفت قواهما الجسدية ، اتى بها الى بيته كي يقضيا شيخوختها فيه . ولكنها لم يتمكنا من تعود طرائق حياتنا . فلم يربد الجلوس حول المائدة لتناول الطعام ، بل عندا في قمود الاربعاء والاستعاضة عن الخوان بقطعة من جلد تمد المامهما . قدمنا لها سريراً ، ولكنها نزعا الشراشف والدثر وناما ارضاً . لم يجبا طعامنا ، حتى ولا خبزنا ، الا أذا خبز على الفحم . تاقا ابداً الى لحم الطرائد ، وحين بلغ توقيا الذروة ، بلغا هما من الانهار والوهن ما حمل من لا يعرفها على الاعتقاد بانها مريضان . كما اقتنصت لها ارنبا او سنجاباً او دلدلا ، غرتها البهنجة . . . والحتا ابداً على ان يشوى لحم الطرائد فوق النار في الهواء الطلق » . ان حالة انهيار الهندي المحروم من طعامه المألوف تنطوي لعمري على مغزى كبير .

فيل أن صموية الانتقال هذه من حالة حضارية إلى حالة حضارية اخرى هي ما يميز بعض الاعراق ماتري ? أن هذا الافتراض ؟ كا يبدو؟ لس متفقاً والواقع . فأن هنود الحضارة النيوليتية ؛ حتى البدائيين منهم، قبد برهنوا عن قابلية كبرى للتكيُّف أذًّا ما فصلوا عن بيئتهم في حداثة سنهم. والدليل على ذلك أن أولاد المونتانيية الذين عاشوا في كيبيك في السنة ١٦٣٦ قد الفوا بسهولة كلمة المآكل والملابس الاوروبية ونبذوا مآكل البرابرة وملابسهم . وقد ذكر « جلبرتو فرير » في كتاب شهير أن زوجين من البيض تبنيا في أيامه أحدى فتيات الفواراني • فصلاها عــن قسلتها وربياها كما لوكانت ابنتها بالذات . ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرهــا حتى لمعت في دروسها ، تسلك سلوك الفتاة البيضاء ولا تتميز بشيء عن رفيقاتها في المدرسة . وكذلك فان ابن الملك و اروسكا ، ، التوبي - غواراني و اسونريك ، ، قد جاء الى فرنسا واقام في نورمنــــديا وورث اسم اشبينه « بينو بولمييه دي غو "نفيل » والقابه وبعض ممتلكاته . واقام هنود آخرون كثيرون في فرنسا واندبجوا في الحضارة المسيحية بالعماد وفي المجتمع بالزواج. ان هــــذه الوقائع تثبت قابلية هندي الحضارة النيوليتية لاستساغة الحضارة الاوروبيسة ، وتقدم دليلا اضافًا على وحدة الجنس البشري . اما فشل اوروبيي القرنسين السادس عشر والسابع عشر فليس قضية عرق بل قضية حالة إجتاعية . افلم يتوقف تشبه هندي الحضارة النيوليتيــة على العموم آنذاك بالاوروبيين على هذين الشرطين : اخذه طفلا وفصله كلياً عن بيئته الهندية وعائلته وقبيلته ? ولكن هب ان المسيحيين لم يأنفوا من ذلك ، فهل ان الوسائل اللازمـــة توفرت ليم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟

٢ - الاوروبيون وهنود حضارة عصر النحاس

كان وصول القشتاليين حثيثاً نسبياً . فقد بلغ عددهم ، حوالي السنة ١٥٥٠ ، بين المكسيك ، ومن المستعمرات الجديدة ، ومن المستعمرات الجديدة ، ومن السنة ١٥٠٠ في البيرو ، في مرحسة حتى السنة ١٥٤٠ في البيرو ، في المكسيك ، وحتى حوالي السنة ١٥٤٠ في البيرو ، في مرحسة لامركزية حقيقية . تولى الفاتحون الوظائف العامة الرئيسية وحصلوا على «امتيازات ، واقطاعات وعلى القاب الاشراف احياناً . وسبق لكورتيس ان عين ضابطاً حاماً وحاكما بموجب مرسوم «فالادوليد» المؤرخ في ١٥٥ تشرين الاول من السنة ١٥٢٢ . فتسلم اقطاعة تضم ٢٨ مدينة وقرية . وفي ٢ تموز من السنة ١٥٢٦ منح لقب مركيز « فاليه دى اواجاكا ، وفارس « سانتياغو » .

وتطد الفاتحون الاستقلال الذي اعطاه ايام بعد م عن الحكومة بالتجمع في نقاط استراتيجية وبتأسيس مدن وتعيين بلديات قارس فيها سلطات المديريات الاسبانية القديمة دونما اكتراث لرجال القانون الذين ارسلهم الامبراطور كموظفين . ومارس الفاتحون حيال الهنسود السلطات السيدية بحلولهم محل الارستوقر اطيات البلدية . اهملوا سياسة الحكومة القائلة بالدمج ونصبوا انفسهم عرقا متفوقاً ، بحركة انمكاسية دفاعية ، وحاولوا اشعار البلديين بدونيتهم . تزوجوا من بنات الامراء واختاروا سراري لهم من عامة الشعب ، ولكن هــؤلاء النساء والاولاد الذين رزقنهم منهم لم يحظوا باعتبار كبير . فخير ما حصل عليه انسال بنات الامراء هو صفة مواطنين إسبانين من منطقة ، ثانية بينا حصل سواهم على اقل من ذلك بكثير . اما رؤساء البلديين فقــد ثبتوا في وظائفهم ، ولكن ارستوقر اطيتهم بقيت خاصعة للارستوقر اطية الاسبانية البيضاء .

انتهز اعيان الهنود ظرف زوال المبراطورية الازتيك ليستولوا على الاراضي التي المتلكها الما الالمبراطور ولما الدولة والما المعابد والما و الكلبول م. حوّلوا الهنود الاحرار الى مزارعين دائمين يقدمون لهم ٥٠٪ من محاصيل الارض وخدمات اليد العاملة . فرفض بعض الهنود تحمل هذا النظام . ولجأت عشائر كاملة الى الجبال ، وهامت على وجهها جماعات وافراداً ، فعم التشرد وهكذا انحل المجتمع الهندي .

منذ السنة ١٥٠٢ حتى السنة ١٥٢٦ ، اعيد بناء مكسيكو التي توجب تدميرها للاستيلاء عليها وشيدت فيها كاتدرائية القديس فرنسيس حيث كان ينتصب المعبد الكبير . وشيدت كذلك ثلاثون كنيسة اخرى وبعض القصور . وبرز فن استماري مستهجن . واخسة كبار اصحاب الامتيازات يستثمرون اراضيهم ، فاعطى كورتيس المثل في املاكه . شيد في ه كوارنافا كا قصراً فخماً وانشأ حدائق عظيمة . وانشأ كذلك مزارع قصب السكر والتوت والقنب و حاول تربية دودة الغز والاغنام الاسبانية واسس مصانع النسيج واعار اهتامه مناجم الفضة . ولا غرو فان محاصيل الاملاك والمطلوب من الهنود ذرة صفراء وقطنا ولوزا هنديالم تكن سهلة التصريف .

فليس هنالك اسواق لمثل هذه المحاصيل ، والمسافات شاسعة ومليئة بالاخطار . ولكن الحاجة ملحة الى استحضار الاسلحة والملابس والزيت والنبيذ من اوروبا . فمست الحاجة الى معادت ثمينة غالية الثمن وصغيرة الحجم تستسهل في سبيلها مواجهة اخطار النقل ونفقاته . فبحث الجميع عن المناجم بجشع .

نضبت حقول الذهب بسرعة . فتوجب التوغل في البلاد بعيدا . زد على ذلك ان هؤلاء الجنود القدامى لم يثبتوا في مكان ، فهام السكان على وجوههم و كالسدادة الفلينية على سطح الماء » . وباعصفار اصحاب الامتيازات امتيازاتهم وهاموا على وجوههم ايضاواقتحموا الأخطار . ونظم كباره حملات جديدة ، كحملة كورتيس مثلا في السنة ١٥٣٦ الى خليج كاليفورنيا . ودفعت الحاجة الى اليد العاملة باصحاب الامتيازات الى مضاعفة اعمال التسخير التي افضت الى انهساك الهنود او استعبادهم . كان المستعمر يوجه انذاراً الى القبيلة بوجوب الاهتداء الى الدين المسيحي ، فترفض القبيلة وتعامل آنذاك معاملة القبيلة الثائرة ويستعبد من يقع من أفرادها في الأسر .

لم تكن هذه الظروف مؤاتية للتبشير، ولكن التبشير تقدم تقدما حثيثاً على الرغم من ذلك . قال كورتيس والفاتحون ، القساة المتسرعون ، بالاكراه ، اي بهدم المعابد وتحطيم التأثيل وتقتيل الكهنة والعبادات الالزامية بالجلة . وطبقوا ما قالوا به بدون اعتدال . ولحن كاهن كورتيس الخاص الاخوبر تولوميو دي اولميدو » ، والمرسلين الذين استحضر هم كورتيس الفرنسيين (١٥٢١) والاوغسطينيين (١٥٣٣) قد اعتبروا الهداية بالقوة عملا جائراً . اعتناق المسيحية يجب ان يكون هبة ذاتية طوعية . فنصحوا بان يترك الهنود وشأنهم وببشروا بالدين المسيحي مجلم وتؤدة . واستفل و اولميدو » فضول البلديين . فكان الفاتحون يحضرون قداساً في الهواة الطلق ويصلون بالسبحة ركوعا ويتلون صلاة و الملاك » امسام الصليب كل يوم عندما يسمعون صوت الناقوس . وكان الهنود ينظرون اليهم بدهشة . وكثيراً ما سأل بعضهم عن سبب اتضاع الاسبانيين امام هذه القطع الخشبية . فكان اولميدو يشرح حينذاك العقيدة عن سبب اتضاع الاسبانيين امام هذه القطع الخشية . فكان الولميب محبة باخوته وكفارة عن خطايا البشر ورغبة منه في ايصالهم الى الحياة الابدية . ولم يفرض اولميدو في البده عن طلبوا التنصر سوى هذين التخلين : الامتناع عن اللواط والامتناع عن الذبائح البشرية . وحين مات في السنة ١٥٦٤ ، خلف وراه و تقليداً .

في هذه الاثناء ، واصل الملوك الاسبانيون جهودهم الكبرى ليخضموا المالم الجديد لسلطتهم للطلقة والمركزية الملكية . التساج نفسه يملك الهند وقشتاليا : لذلك يجب ان تتشابه القوانين ونظام الحكم مسالمكن التشابه . انشىء في الهند تدريجياً جهاز كامل من المؤسسات .

تألف مجلس الهند الى جانب المجالس الملكية الاخرى . ورد ذكره رسميا في السنة ١٥٠٩ ، ثم غدا مؤسسة داغة ابتداء من السنة ١٥٠٤ . وكا كان يفعل مجلس قشتاليا حيال القشتاليين حرر

عهد المركزية الملكية

المؤمسات السياسية

بجلس الهند لاميركا القوانين التي اوحى بها الملك ، وراقب ثنفيذها بالمراسلة او بارسال المفتشين ، ووضع اسس التنظيم الاداري واقترح المرشحين الوظائف ، وحمى الهنود ولعب دور محكمة الاستثناف . منذ السنة ١٥٠٣ ، تأسست في اشبيليه غرفة تجارة الهنسد التي اشرفت على كل تجارة الهند وسهرت بصورة خاصة على جمع النصيب الملكي ، الذي حدد بعشرين بالمئة مسن قيمة المعادن الثمينة . وسلمت القباطنة ايصالات بهذه الضريبة . وتعهدت مكتبا لقيادة السفن ومدرسة ملاحة كانت موضوع اعجاب عام ، وعالما فلكيا لوضع الخرائط . وصدر تحت اشرافها كتاب و فن الملاحة ، الذي الفه و بدرو دي مدينا ، ووافق عليه و الربان الاكبر ، و دي لا كتاب و نقل الى الايطالية والفرنسية والفلمنكية والانكليزية وبات كتاباً مدرسيا طيلة ١٠٠ كنزا ، ونقل الى الايطالية والفرنسية والفلمنكية والانكليزية وبات كتاباً مدرسيا طيلة ١٠٠ سنة . ومنذ السنة ١٥٠٥ عينت قاضيا يمثلها في قادس ، بسبب حاجز و سان – لوكار ، الصخري الذي حال دون وصول السفن الكبرى الى اشبيليه ، ولكن اشبيليه احتفظت لنفسهابالرقابة .

وانشأ الملوك في اميركا مجالس شبيهة بمجالس أسبانيا ، اي انها تلعب في آن واحد دور مجالس السلطة التنفيذية ، نائب الملك أو الضابط العام ، ودور الاجهزة الادارية عدلى غرار المجالس (البرلمانات) الفرنسية . تالفت عدلى العموم من رئيس واربعة موظفين (مستمعين) يعدون القرارات . انشىء المجلس الاول في اسبانيولا في السنة ١٥١١ ؛ وانشىء مجلس نان في مكسيكو في السنة ١٥٢٧ ؛ وثالث في باناما في السنة ١٥٢٦ ؛ ورابع في ليا في السنة ١٥٤١ ، المن جانب المجلس ضابط عام يتولى قيادة الجيوش ويؤمن الدفاع ويسهر على تنفيذ القوانين والمقررات القضائية والادارية . وقسم نطاق صلاحية المجلس او الضابطية العامة الى حكومات يتولى السلطة فيها الحكام ، وقسمت الحكومات الى محاكم يتولى السلطة فيها القضاة ؛ وقسمت الحامة عظام » . وفرض على ذوي الامتيازات القضاة ؛ وقسمت الحاكم الى محاكم بلدية يرأسها و قضاة عظام » . وفرض على ذوي الامتيازات القسام اليمن واعتبروا ، هم إيضا ، موظفين ملكين .

وعين في قمة هذا الهرم نواب ملك يمززون السلطة التنفيذية ويلقون الاهابـة والخوف في الفاتحين النازعين الى مزيد من الاستقلال . كان اول نائب للملك « انطونيو دي منـدوزا » ، مركيز « موندخار » ، الذي عين في السنة ١٥٣٩ ووصل إلى مكسيكو في السنة ١٥٣٥ . ثم عين نائب ملك آخر في ليا في السنة ١٥٤٢ .

خضع نواب الملك وكافة الضباط الملكيين لرقابة الجلس ورقابة مفتشين او «زائرين». وكانوا عرضة ، عند انتهاء ولايتهم ، لمحاكات اقامة تسمع فيها شكاوى رعاياهم ويتوجب عليهم تبرئة نفسهم منها .

توطدت السلطة الملكية شيئًا فشيئًا . في السنة ١٥٢٦ وأضطر كورتيس لان ينيخ عنقه لتحقيق قضاة الاقامة . وحوالي السنة ١٥٣٠ وأخذ قضاة المحاكم يستلون مهامهم . وحوالي السنة ١٥٣٠ - ١٥٣١ السنة ١٥٣٠ سيكو الثاني . فبدأت

منذ هذا التاريخ المركزية النسبية في المكسيك ؟ ثم بدأت في البيرو ما بين السنة ١٥٤٤ والسنة ١٥٤٧ والسنة ١٥٤٧ وعسد ١٥٤٧ و كان مقدراً لها أن تدوم بعد شارل الخامس حتى السنة ١٥٧٣ تقريباً في عهد فيليب الثاني .

اقتصاد علائقالمسافاتالكبرى المبني على المعادن الثمينــة

اسهم مجهود الحكومة في تنمية اقتصاد علائق مسافات كبرى بين مناطق المكسيك المختلفة وبين اوروبا ، افضى بالنتيجة الى تمكين السلطة النسبية . استمر مستعمرو البيرو في التوغل بعيداً في البلاد مجدًا عن المناجم ، فاكتشفوا في السنة ه١٥٤٥ مناجم « بوتوسي »

في و بوليفيا ، الحالية ، التي تفجر منها سيل من الغضة ؛ واكتشف مستعمرو المكسيك في السلة ١٥٤٨ عروق و زاكاتيكاس ، على مسافة ٥٠٠ كيلومتر مكسيكو ، وفي السلة ١٥٦٨ بلغسوا و هنده ، و و سانتا بربارا ، في قلب بلاد البدو على مسافة ١٥٥٠ كيلومتر ونيف عسن مكسيكو . ملذ السلة ١٥٥٨ قامت في زاكاتيكاس بين ليلة وضحاها مدينة ضمت خس كنائس وحوالي خسين و مطحنة معادن » . فتميز الاستعار الاسباني منذئذ بسرعة التوسع واسترخاء الاحتلال . اعتمدت في البدء الطريقة الهندية : يسحق المعدن الخام بين حجرين قاسيين ويوضع فوق النار في افران ذات ثقوب التحليل ، فتنحل الفضة في الرصاص اثناء الذوبان . ثم يبعسد الرصاص باكسدته بالهواء . الا ان نفقات الحروقات كانت باهظة ، والحصول على المعدن الثمين ادخل وبر تولوميو دي مدينا » الى المكسيك طريقة الملفم او المزج التي اقتبسهاعن أحد الالمان . الزئبق يستولي على الفضة لانها قابلة الذوبان فيه . ثم يصعت الزئبق بخاراً وتجمع الفضة . فاتاحت الطريقة وفراً كبيراً في الوقت والحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية . هذه الطريقة وفراً كبيراً في الوقت والحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية . في السنة ١٥٠٠ ادخلت هذه الطريقة اللي المبيرو بعد اكتشاف مناجم الزئبق في وغوانكافليكا» .

معضلة من المعدن الثمين . وحوالي السنة ، ١٦٥ بلغ تصدير الفضة الى اوروبا وآسيا المواصلات والدون و مثلت الفضة ثلثى أو ثلاثة أرباع قيمة المشحونات . وكان عسلى

المناجم الحصول على الزئبق الذي استورد الى المكسيك من اوروبا ، وعلى الجلد الضروري لتجفيف الده ليز ونقل الفضة ، وعلى المواد الغذائية . فتوجب من ثم تأمين حماية الطرقات من البدو وتعزيز الانتاج الزراعي وتربية المواشي . فان الشيشيميك ، في المكسيك ، وقد أصبحوا فرساناً مهرة في وقت قصير ، أخذوا يحرقون تجهيزات المناجم الصغرى المنعزلة ، ويحقدون الاستثارات و فلا يبقون فيها على كلب أو هر في قيد الحياة ، ، ويهاجمون المسافرين ويقتلونهم ويحرقون البضائع . فتوجب التنقل مواكب كبرى مسلحة تضم حتى ٨٠ عربة مصنوعة من الحشب السميك المتين كانت اشبه بجصون متحركة ، وأحداث نقاط عسكرية يواكب جنودها

المسافرين . الا ان الحل الحقيقي كان اعمار البلاد على جوانب طرقات المدن باقامة جماعات من المزاعين ومربي المواشي فيها . فأكثر نواب الملك والبلديات ، تحقيقاً لهــــذا الهدف ، توزيع امتيازات استثار الاراضى والمراعى لقطمان الماشية .

سبق للاسبانيين ان استحضروا حيوانات اوروبا الداجنة للتغذية فتح حيوانات والاعمال ؟ الحنزير ؟ الثور ؟ الحروف ؟ الحصان ؟ الحسار ؟ الحسار ؟ واستخدموا البغل الذي ما كان الاستعار لبصبح بمكنا بدونسه .

ازدهرت تربية المواشي . فالمساحات واسعة جدا . ويكفي عدة حراس لالوف الحيوانات . ولم تكن الحراسة على ظهر الحسان عملا خدميا بل عملا جديراً بعرق متفوق . خلال عقددن اجتاحت العالم الجديد موجات متعاقبة من المواشي . المراعي غنية بالكلا لان حوافر الحيوانات لما تطأها . الابقار تضع صفارها قبل ان تبلغ السنتين من عمرها . تتضاعف القطمان خلال ١٥ شهرا . اصحاب القطمان يمتلكون ٥٠٠ ١ و ٥٠٠ ٢ وحتى ٥٠٠ ميوان . سعر اللحوم ينخفض الى ثمنه في الاندلس فينجم عن ذلك خدمة جلى للاستمار ؟ ولاخوف على الابيض من ان لايجد ما يؤمن غذاءه . اما الجلد الذي مست الحاحة اليه للمناجم وللجيوش الاسبانيسة في الوروبا فقد غدا انتاجا تصديريا رابحاً . ولكن تربية المواشي لم تجسد سوى ملاكي القطمان الكبرى ؟ وكان مقدراً لها ان تفضي الى الاملاك العقارية الكبرى .

حافظ الاسبانيون على مبدام القشتيل : العشب هبة الطبيعة ، فيجب ان تكون المراعي مشتركة ، وقد اعترف بالمرعى المعرمي حقا وقانونا بعد الحصاد . القطعان تتنقل بجرية ، وقد توطدت من جهة ثانية عادة نقل المواشي من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة والعكس بالمكس . اتما يقتضي لمربي المواشي نقطة ثابتة لاقامة زرائب البهائم واكواخه . فاخسنت الجماعات تعترف المربين بنطاق وراثي قابل التخلية ، اي بنقطة ثابتة لايحق لاي مرب ان يقيم حولها ضمن دائرة يبلغ شعاعها اربعة كياومترات على الاقل . الا ان هذة الهبة لم تول حتى تملك بل مجرد حتى استمال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الحربية لم تقد سوى الاسبانيين اذ ان الهنود لايمتلكون قطعانا والمواشي تجمتاح مزروعات الهنود فتفر جماعات كاملة الى الجبال . حمى نواب الملك الهنود بتحديد نطاق حماية جول القرى ، وبانقاص المدة المسموح خلالها الاستفادة وحاولوا اخبراً تحويل سيل القطعان نحي البورات الشالية بمنح النقاط الثابتة مع نطاقاتها في قلب مناطق البدو . فكان نصيب بعض كبار الموظفين والمستعمرين النافذين بين سبع نقاط واحدى عشرة نقطة ثابتة ، فاشتروا امتيازات غيره من المستعمرين النافذين بين سبع نقاط واحدى والى جانب الثور ، وفرت اللحوم الشهية قطنان كبرى من الاغنام نسجت اصوافها وحيكت في النقاط الثابتة عينها وبيمت الاقشة في كافة انجاء العالم الجديد .

استحصل الاسبانيون من البلايات او من نواب الملك على املاك من المهابيات او من نواب الملك على املاك منهم في انتاج المسام المبديد مساحتها ٤٣ هكتاراً من الاراضي الزراعية ، رغبة منهم في انتاج المسار وحبوب بلادم . زرعها المقسم بصورة خاصة على جانبي الطريق بين وفيراكروز ، ومكسيكو ، واشجار البرتقال والليمون والترت في منطقة « بوابلا » ، وربوا دودة القز في بوابلا وال و مكستيك ، صدر الحرير خاما الى اسبانيا او غزل وحيك في البلاد . وبيع القمح بسهولة لتموين الاساطيل الاسبانية والمناجم . اما البد العاملة فقد وفرها الهنود باجور زهيدة بلغ من تدنيها ان العمل اليدوي حظر على البيض . شجع نواب الملك زراعة الحنطة ولكنهم تقيدوا بتعليات سرية ووقفوا عثرة في سبيل زراعة الكرمة وشجرة الزيتوت اللتين تتوفران بكثرة في اسبانيا . وهنا ايضا توصل بعضهم ، بالتخلية المباشرة او بالشراء ، الى امتلاك مساحات كبرى ، مع ان الاملاك المتوسطة المساحسة لم تكن نادرة .

ازدهرت في الوديان العميقة والسهول الساحلية والمنحدرات المطلة على البحر زراعة قصب السكر ، وشجرة اللوز الهندي والعظلم في مغارس ومشاجر صغرى منعزلة تتوزع على مشات الكيلو مترات . في البدء استخدم اللوز الهندي نقداً ، وفي اواخر القرن السادس عشر اصبح الشوكولاتا المشروب المفضل في المكسيك واسبانيا، ومسحوق اللوز الهندي مادة تجارة وتصدير كبيرين ، ونمت زراعة قصب السكر نموا سريعاً بسب تزايد استهلاك و الحلويات ، الذي بعمل من السكر مادة ضرورية جداً . ونمت كذلك زراعة العظلم بفضل الاحتكار الذي استحصل عليه ، في السنة ١٥٦١ والسنة ١٥٧٢ ، وبدرو دي لدسما ، و مكتشفه ، والمركيز و دل فاليه ، احد حقدة فرنقدو كورتيس . كانت كل هذه المغارس والمشاجر املاكا كبرى او مشاريع رأسمالية . فتوجب استخدام عدة مئات من الحيال وعدة مئات من الحيوانات في كل منها لحراثتها حراثة عميقة وربها والعناية بها . سحق قصب السكر بواسطة محادل من الخشب الصلب تحركها مطاحن تسير على الماء او البغال ، ومست الحاجة الى قدور معدنية كبرى وقدور معدنية كبرى وقدور معدنية للانضاج ، وعجلات ذات لوحات تحركها البغال لمزج المعجون ، واحواض للتصفيق ، واحواض للتجفيف . وعجلات ذات لوحات تحركها البغال لمزج المعجون ، واحواض للتصفيق ، واحواض للتجفيف . فلم يتمكن من تأمين الاموال اللازمة لكل ذلك سوى كبار الملاكين .

اعتمد نائب الملك و مندوزا ، وخلفه و فيلاسكو القديم » (١٥٥٠ – ١٥٦٣) النظريات المدومينيكية وحاولا حماية الهنود وممتلكاتهم ، فعين حماة المهنود في الولايات منذ السنة ١٥٤٢ ، وانشئت في مجلس مكسيكو محكة المشؤون البلدية منذ السنة ١٥٧٤ ، الا ان الهنود بقوا احراراً في بيع ممتلكاتهم ، فباعوا الكثير منها في اواخر القرن السادس عشر ، مع انهم كانوا مسؤولين عن الجزية المفروضة على جماعاتهم ، ثم انتشرت الاوبئة ما بين السنة ١٥٧٦ والسنة ١٥٧٩ وقضت على نصف السكان الهنود . ولكن مقدار الجزية لم يتبدل ، فاضطر زعماء الهنود البيع لاجل دفع الجزية ، بيد ان بعضهم إحتفظوا باملاك واسعة جداً .

لم تستثمر الجماعات الهندية سوى مساحات صغرى من اراضي المكسيك. قاتيح للاسبانيين من ثم الاستيطان وتملك اراض شاسعة دون التعرض مباشرة للجهاعات. ولكن الاراضي الخصيبة في منطقة و اناهواك ، مالبثت ان امتدت واحاطت تدريجياً بالقرى الهندية . فاغتصب الاسبانيون الاراضي ، وانتهى الهنود احيانا الى الفاقة . وحدث في اماكن اخرى ان خر"بت قطمان الاسبانيين المزروعات الهندية . انما يبدو بصورة عامة ان اراضي الجماعات كادت تكون كاملة سليمة في اواخر القرن السادس عشر . ففي اواسط القرن السابع عشر ، وامسام ابواب مكسيكو بالذات ، ما زالت بمض الجماعات الهندية تمتلك اراضي غنية جداً . وحين اجساز قانون السنة ١٨٥٦ بيع الاملاك العامة ، كان حجم الميمات كبيراً جداً ، ما يثبت ان الجماعات الهندية احتفظت بساحات كبرى حتى القرن التاسع عشر .

المركزية والعمل التبشيري الرعاية الملكية

وجدت المركزية عونا لها في العمل التبشيري . توغل المرسلون في البلاد وراء المستعمرين من اصحاب المناجم والمشاريع الزراعية . التمسوا ايد الملك وغدوا بالقابلة عونا قوبا السلطة الملكيسة . نظر ملوك

اسبانيا الى التبشير كما الى واجمهم الاول ، ومنذ السنة ١٥٠٨ خط الموك الكاثوليكيون بحق رعاية كنيسة الهند كما مارسوه في اسبانيا : يقترح الملوك احداث الاسقفيات والخورنيات وينفذ البابا مقترحاتهم ، ويقدم الملوك البابا مرشحيهم للاسقفيات ورئاسة الاديرة ، وللاساقفة مرشحيهم للمناصب الكنسية الاخرى ، منذ السنة ١٥١٦ – ١٥١٣ انشئت ثلاث اسقفيات في الجزر . وفي السنة ١٥٤٦ احدثت اسقفية مكسيكو مع ٢٣ اسقفية اخرى ، وفي السنة ١٥٤٦ جملت كل من ليا ومكسكو مركزاً لرئيس اساقفة ، وفي السنة ١٥٥٥ انعقد اول مجمع اقليمي في البيرو ، وتأسست جامعات في مكسيكو ، ولما ، و و سانتا سفه ، وكوردوبا وشاركاس .

فوض شارل الخامس شؤون كنيسة المكسيك الى جميات الرهبان المتسولين لانسه لم يطمئن الى الكهنة العلمانيين . وفي ٩ ايار من السنة ١٥٢٢ ، وجه البابا اوربانوس السادس رقيمساً الى شارل الخامس حوّل بموجبه سلطته الرسولية الرهبان لهداية الهنود في كل مكان يبعد اكثر من مسيرة يومين عن الاساقفة . وكان اسقف مكسيكو الاول فرنسيسياً هو الاخ و خوان دي زوماراغا » (١٥٢٨ – ١٥٤٨) . وسيم بعد ذلك اساقفة من بين الكهنسة العلمانيين ، ولكن المسافات وغاثير الرهبان على البلديين شلت سلطتهم .

قامت الاديرة في كل مكان ، متقاربة في المناطق المكتظسة بالسكان الغربيين الاديرة ومتماقبة على جوانب طرق المواصلات في المناطق الاخرى . في السنة ١٥٥٩ ، كان الفرنسيسيين ٨٠ ديرا و ٣٨٠ راهبا، والمدومينيكيين ١٠ ديرا و ٢١٠ رهبان وللاوغسطينين ٠٤ ديرا و ٢١٠ راهبا . احتلت الاديرة مواقع ستراتيجية ، على مرتفعات داخل القرى او في

جوارها ، وقامت في اغلب الاحيان على انقاض معابد بلدية قديمة . وصممت بشكل كتلة شرفاء تتألف من دور واحد فتحت نوافذه في اعلى الجدران وتدعمها من الخارج ركائز كبيرة مربعة الشكل وتقوم امامها مصطبة للمدفعية وفناء واسع يحيط به سور اشرف . وشكلت حصوناً لضبط الهنود في نطاق الطاعة وملاجىء للسكان الاوروبيين في حال اندلاع الثورات . وغالباً ما كانت الاديرة ضخمة وكنائسها زاهية فاخرة لان الهنود كانوا شديدي التأثر بالابهة والفخامة وشديدى الولم برؤية ديرجيل بفعل غطرستهم المحلية . ولكن اديرة كثيرة كانت ابنية عادية .

تجنب المرساون جهد المستطاع ، خشية من الهرطقة ، الاستفادة من التشابـــ بين الديانات البدية والديانات المسيحية ، وذلك على الرغم من نظريات الفرنسيسي. ﴿ برتاردو دي ساحاغون » وبحثه المستفيض حول البديين ، ولكنهم استفادوا من عادات الهنود ونزعاتهم ، فقه استمر الشيوخ كما في السابق في مرافقة تلامذة الصفوف الابتدائية الى المدرسة ، ولكن لتعلم مبادىء الدين المسيحي ، وكما في السابق ، تلقى ابناء الارستوقراطية الهندية دروساً خاصة ، ولكنهم كانوا داخليين في الاديرة ، واشبع ميل الجاهير الهندية الى الموسيقى والرقص والتمثيل وعظمة الاحتفالات .

حاول المرساون ، بالاتفاق مع نواب الملك ، اعادة تجميع الهنود الذين ارغموا على الانتزاح عن قراهم وتحسين سكنى الجماعات التي لم تغادر قراها فأحدثت «قرى التجميم التي أطلق عليها اسم « المعادات ، منذ السنة ١٥٩٥. تمنى المرسلون آراء رئيس أساقفة مكسمكو « زوماراغا» واعتقدوا بأن الهنود لن يلبثوا أن يتخلقوا بالاخلاق القشتيلية اذا ما عاشواعلى الطريقة الاسبانية في قرى مماثلة لقرى إسبانيا . وفي سبيل هذه الغاية ، تعاقبت الاوامر الملكية بسين السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٧٠.وأفاد الرهبان بما له طابع جماعي في النظم البلدية الاسبانية بغية تسميل الانتقال من نظم الازتىك الجماعية . فينوا من ثم قرى ضمت ساحة عامة وكنيسة وداراً بلدية ومستشفى وسجنًا ، وشبدوا حول هذه الابنية احياء هندية ، على غرار الكلبولي القديمة ، اشتملت منازلها على أكثر من غرفة . وأحدث المرسلون بلديات مندية وانشأوا صناديق قروية . وكان عــــلى الهنود أن يديروا شؤونهم بأنفسهم . فوفق بين الملكية الجماعيــة والملكية الفردية . امتلك كل هندي بيتًا وأرضًا . وأعطى رؤساء العائلات أراضي أخرى يستثمرونها مدى الحياة على أن يزرعوها ولا يبيعوها . واستثمرت بعض الاراضى المشاعبة بجهرد مشاركة لتغطسة النفقات البلدية .واستزرع الرهبان أشجار التوت لتربية دودة القز وأشجار الصبار ذات الدودة القرمزية _ والاشجار المثمرة . وبنيت الاقنية والجرات والاعين واعتمد أكثر فأكثر على الري . وتسلمت البلديات الهندية مراعى تمتنعة البيسع لتربية الضأن والماعز وقضى الرهبان بسين الناس واعتنوا بالارامل والايتام . وتوجب على المسافرين الاسيانيين ان يفادروا القرى في اليوم الثالث كحسد أقصى . ولم يحق لاي اوروبي او زنجي او خلاسيُّ ان يستقر في القرية.ولكن الهنود لم يتجمعوا ً تجمعاً كافياً . وكان عدد الرهبان ضئىلا جداً لا يتجاوز الاثنين مقابل ١٠٠٠٠٠ هندى أحماناً. وغالباً ما سعى الهنود وراء الديش في العزلة والانفراد ، بدافع من روحهم الاستقلالية حينا ، وعجزهم عن تعود حياة جديدة حينا آخر ، ورغبتهم في الاستسلام لرذائلهم في أكثر الاحيان.

استخدم المرسلون ، في تعليم البلديين العاجزين تقريبًا عن التجديد العقــــلي ، التربية الدينية طرائق معدة للتأثير في الحواس وربط الافكار بالجسم كله والحس كله . كانت الأبجدية صعبة الادراك بالنسبة للهنود وكان من شأن استخدامها ان يستتبع ثورة فكرية. فوجب من ثم ربط تمثيل الاحرف بتمثيل الاشياء التي كانت في متناول يد التلميذ : فمثلت 🛕 بالبركار و 🛭 بالقيثارة و 🕻 بنعل الفرس ، الخ . وأعطى المرسلون المثل في تفانيهم الكلي في سبيــــل القريب لارساخ تعليمهم في العقول . ورفضوا أبدا استيفاء العشر من الهنود . وارتدوا الحنيف أو نسيجًا صوفيًا خشنًا ﴾ وتنقلوا حفاة ؛ وافترشوا الألواح الخشية ؛ وتفذوا بالجذور وامتنعوا ـ عن اللحوم والخبز والنبية ، وتمثلوا بالهنود . واذا ما سئل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين ، أجابوا : ﴿ لانهم فقراء وحفاة مثلنا ﴾ ويأكلون ما نأكل ﴾ ويقيمون فسميا بيننا ويعيشون فيا بيننا مسالمين ، . عاشوا معهم وماتوا من أجلهم . وقد بلغ من عناء الرهبان وحرمانهم ان نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً . وحين كان الأخ و انطونيو دى روا ، يتكلم عن الجحيم ، كان يلقي بنفسه الى النار ويلفت نظر الهنود الى انه اذا لم يستطع تحمل مثل هذا الالم ، فمأذا سيكون من النار الابدية ! وكلما صادف أو نصب صليبا طلب أن يجلد ويسفع ويهان ويبصق في وجهه ، لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عـن خطايا اليشر. فكان برسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود. واستعان الرهبان بلوحات تشكل تعليما مسبحيا مصورا ؟ كاأستعانوا بالمسرح وتمثيل الاسرار أو انتصارات المسيحيين على المفاربة . وحملوا الهنود عسلي أن يعيشوا التمليم الروحي بالزامهم على أن يتناوبوا الحدمة أسبوعاً في المستشفى . وحولوا تلاوة فعــــل الأيمان كل صباح ومساء ، والصلاة ، وترتبل صلاة السحر ركوعاً ، إلى بمارسات لا تلبث أرب تصبح حسية بخدمة القريب . وعامل الرهبان الهنود بجلم ومساعة واكتفوا منهم بتقدم بطيء .

الا ان عملهم التبشيري قامت في طريقه عقبات كثيرة. فكانت هنالك مقاومات عمرائق التبشير البلديين: قبائل متوحشة تحرق الكنائس والصلبان وتشعل النار في الأديرة وتقتل الاخوة ؟ وكهنة وثنيون وسحرة يدعون الى الثورة في السنوات ١٥٤١ و ١٥٤٧ ؟ و ١٥٥٠ ؟ و ملحدون ينضمون الى الثائرين ؟ وفي غير مكان هنود يفرون أمام المرسلين ويختبئون ويستمرون في التسرر والملاوطة . وغالبا ما اصطدم الرهبان بالمقاومة السلبية : فقد تظاهر المنود بالاهتداء ومارسوا عبادة الاوثان سراً في الليل . وروى لهم كهنتهم ان الرهبان أمسوات وملابسم أحكفان ، يختفون ليلا للالتحاق بنسائهم في الجميم ولا يتركون على الأرض سوى عظامهم وثيابهم . أما مصدر هذه الاوهام فهو عدم ادراك المنود لمنى الاماتة والبتولية وصلاة السعر، ولكن بعض الرهبان لم يستطيعوا التغلب على التجارب. فان بعض فرنسيسي المكسيكاو البيرو

فد جمعوا التروات وخلموا الثوب الرهباني وعادوا إلى إسبانيا ليعشوا فيها حياة يسار . حوالي السنة ١٥٦٢ شوهد الاخ و أنطونيو دي سان – ايزيدورو ، ورئيس دير مكسيكو ، يساكن سرية ويرزق منها ابنة ، ويبرهن عن مهارة كلية في أعمال تجارية مثمرة . ودفعت روح التضامن بالجمعيات الرهبانية إلى التشاجر والتخاصم ورفض طاعة الاساقفة . وحدث أحيانا ان جمسم الرهبان هنودهم وسلحوهم وحماوهم على سلب ونهب وإحراق كنائس جمعية اخرى وطرد الزائرين الاستفيين بمراشقتهم بالحجارة . وبديهي ان مثل هذه الزلات تصدر عن الكهنة قد أبعسدت المنود عن المكهنة قد أبعسدت المنود عن المهيد .

وأخيراً ، غالباً ما قاوم العلمانيون رجال الدين . ففي سبيل تشغيل الهندود ، حتى أيام الآحاد والأعياد ، أقدم يغض الملاكين على تشجيع ممارسة عبادة الاوثان والاشتراك في الاحتفالات الوثنية ومهاجمة المرسلين وطردهم .

ولا عجب في هذا الساوك يسلكه الملاكون لأن المرسلين قد حموا اله و و حاربوا المنافرة المنافرة المنافرة المنافرة والحق الطبيعي . وبلجاجتهم استحصلوا من شارل الخامس على قوانين السنة ١٥٤٢ الشهيرة : وتحظير و استعباد ، الهنود ؛ تحظير منح امتيازات جديدة ؛ ابطال وراثية الامتيازات الممنوحة . فكادت تحدث حركة انفصالية في المكسيك ؛ واندلمت ثورة في البيرو ؛ لان المستعمرين افتقروا إلى اليد العاملة ، والهنود الاحرار أنف واندلمت ثورة في البيرو ، واضطر الملك إلى الرجوع عن هذه القوانين منذ السنة ١٥٤٥ . ولكن التاج استماد شيئاً فشيئاً امتيازات كثيرة من الاحبار وكبار الموظفين ؛ وفي السنة ١٥٤٩ فصلت أعمال التسخير عن الامتياز الذي آل إلى مجرد دخل ؛ ووزعت أعمال التسخير منذ ذاك التاريخ على المشاريس عرائه المناوية ا

لم تكن المركزية قوية في يوم من الآيام . فالضباط الملكيون لم يلبثوا أن السلطة المركزية أصبحوا من بين كبار الملاكين ، لأن مرتب الموظف في بسلاد تفتقر إلى ومن رؤوس الأموال يعطي امكانات كبرى . فان و تيخادا ، المجاز في الحقوق، اللامركزية وعضو بجلس مكسيكو ، وصل في السنة ١٧٣٧، وبنى بيتاً في مكسيكو التأجير واستحصل على أراض ، ورواها ، وجنى منها ١٠٠٠ مد من الحنطة ، وزرع التوت والكرمة والحضار ، واقتنى قطعان المواشي ، وخفض سعر الفواكه في أسواق مكسيكو . وغدا من ثم قوة حقيقية . أضف إلى ذلك أن نظام التبعيات والأنساب قد زاد من قوة واستقلال الضباط والملاكيز . فانقضاة بجلس الحدود على مقربة من غوا قالا كانوا كلم في السنة ١٥٦٢ أصحاب

أحماء أو أصهرة أو أختان الضباط الحلين وأصحاب الامتبازات وأصحاب المشاجر والمغارس.

أفسحت المركزية المكان ، منذ السنة ١٥٧٣ ، للامركزية تدريجية . أما السبب الأول في ذلك فافتقار الملكية الاسبانية إلى الأموال : فيال الملك طبعاً إلى تحويل نفقات الاستعار إلى عاتق الأعيان بتخليه لهم مقابل ذلك عن بعض سلطته . منسذ السنة ١٥٧١ ، حق لكل من يؤسس مدينة جديدة ضد البدو ان يحتفظ محصون وراثية ويمتلك ربيع الأراضي ويستعبد أسرى الحزب ويحضل على امتيازات . ومنذ السنة ١٥٩١ انتقلت الأملاك والمراعي العامة ، وأملاك الجعيات الرهبانية ، التي لم يسمح بها نظريا ، إلى الأعيان مقابسل والمراعي العامة ، وأملاك الجعيات الرهبانية ، التي لم يسمح بها نظريا ، إلى الأعيان مقابسل والمراك اقدام الأعيان على اغتصاب حقول الجاعات الهندية وفوزهم بموافقة المسؤولين عسلى اغتصابهم . وبلغت الحركة ذروتها ما بين السنة ١٦٤٢ والسنة ١٦٤٨ . وتصرف الملاكون في هذه الاملاك الكبرى تصرف الاسياد وادعوا لانفسهم بعدة حقوق ملكية . أما الملك ، الذي هذه الاملاك الذي والذي لم يوفد بعد ذلك سوى نواب الملك من أسبانيا ، فقد تفاضى عسا جرى مكتفياً بتأمين النظام والدفاع .

اقتصاد المحسيكي في الوقت نفسه الى الافتراب من اقتصاد أملاك اقتصاد أملاك الملك السامة كبرى ، اقتصاد الاملاك العامة. سبق مثل هذا الاتجاه ، في القرن السادس عشر ، اتجاه ملاكي المناجم الى انشاء أملاك كبرى تكفي نفسها بنفسها الا ان الانتاج والنقد المتداول قد تدنيا منذ السنة ١٦٠٠ ، فأدى تدنيها بعد السنة ١٦٣٠ إلى كارثة حقيقية نرجح ان احد أسبابها ارتفاع سعر الزئبق الذي يحتكره الملك . وانخفضت في الوقت نفسه ، بفعل « التسويات » ، نسبة النقد المتداول . فندنت الاسعار ، لان المال « عصب» الاقتصاد المكسيكي ، وانتقصت التيارات التجارية ، وانخفص الانتساج ، وانعزلت المناطق .

لم 'يمض عن ذلك دور الوسيط الذي لمبته المكسيك بين الصين واوروبا في انتقسال حرير الصين الى اوروبا عن طرق ماكاوو ومانيلا واكابولكو ومكسيكو وفيراكروز واشبيلية بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٤٢ . لا بل ان حرير الصين قد افقر منتجي الحرير المكسيكيسين واسهم في انكاش مناطق انتاج الحرير على نفسها .

زد على ذلك ان تقييد الحكومة للعلائق بين المستعمرات ، وانخفاض حجم تصدير الاقشة الصوفية من المكسيك الى البيرو ، وحرب القرصنة بين الفرنسيين والانكليز والهولندييسن ، والقضاء في السنة ١٦٢٨ على اسطول كامل للمرة الاولى في التاريخ ، ورفع رسم الضان الالزامي لتفطية نفقات و الاساطيل ، او قوافل السفن الى اوروبا ، واقدام حكومة في حالة السأس على رفع الرسوم والضرائب ، واحتكار تجار اشبيلية ، قد انقصت تدريجيا التصديرات ومحمول

الاساطيل الى اوروبا . فمنذ السنة ١٥٧٠ ، توقف نمو قطعان المواشي ، واستنزفت ارض المراعي وتدنت نوعية العشب ، وما عادت الابقار لتضع حملها الاكل ثلاث او اربع سنوات . فانحط نوع المواشي . وتوجب العدول عن زراعة التخصص لان الحاجة مست لان تنتج الارض من كل شيء . لهذه الاسباب جميعها تدنت التجارة الداخلية وتوزعت المكسيك الى املاك كبرى تسد كل الحاجات ، تتوفر فيها المزروعات والقطعان والمصانع والآلات ، ويتولى و السيد ، فيها النظام وتوزيع العدل والامن العام الداخلي والحرب ضد البدو .

للسيدعبيده الزنوج اوالهنود الذين يحملون في وجوههم سمة والمركيز صلاحيات والسيد ، وتفتت دل فالسيد ، او والدونا ايزابيل دي فيلينيفا ، يمارس عمليا المام الجديد على طريقة القرون الوسطى سلطة لاحدود لهاعلى المال الهنود الذين اطلق عليهم اسم والمشاة »

الازدرائي. االيهال احرار مبدئياً، ولكن الملاكين لم يعدموا وسيلة استدراك زوال اعمال التسخير. التدريجي . يرغمون الهنود على تسلم قرض :مال او بالتفضيل ،ملابس ، او جوارب ، او احذية ، وكلهافتنة لهؤلاء المساكين الذين يرون انفسهم مرتدين ملابس بماثلة لملابس اسيادهم. فيرتبطون من ثم بالارض ٬ واذا ما باع السيد الارض فانه ببيسم الهنود ممها . وقد ارغم اغتصباب اراضي الجماعات عدداً متزايداً من الهنود المحرومين وسائل العيش على العمسل في ملك مجاور حيث لا يلبثون أن يصبحوا فداديين بسبب ديونهم . السيد يقضى بين عبيده ، ولديه سجن واصفاد وغلول يتعرض لها ﴿ مشاته ﴾ ايضاً . وغالباً ما يتمتع مجصانة حقيقية ، اذ انه يستحصيل من نائب الملك على امر بمنم الضباط العدليين من دخول املاكه . والسيد في الوقت نفسه و ضابط، او د قائد ، الجيوش الملكية ، وهو يقود من جمسة ثانية جيشه الخاص الذي يجنده من بين « مشاته » ويمين ضباطه من بين « مماليه » ، بوجب اجازة ملكية يحصل عليها لقاء تعهـ د بخدمة الملك على نفقته الخاصة . وهو في الوقت نفسه قاض ايضاً في المدينة وفي الولاية . وغالباً ما تكون هـ ة الوظيفة الملكية أو البلدية ملكه الخاص لان ملوك أسبانيا قد شملوا العالم الجديد أيضاً بنظام بيم الوظائف . وغالباً ما تؤلف أملاكه عقار شرف تمتنم البسم والتجزئة فيمنحه الملك لقب وكونت ، او و مركيز ، . لا بل ان الملك قد باع هذه الالقاب بيما في اواخر القرن السابع عشر . وينشىء السيد كنيسة لمستخب دمى املاكه ، وديراً ، ومدرسة ، ويضم فيها رسومه واشعرته الشرفية ويمارس فيها حق التسمية لرواتب دينية ، فيمين خوري الرعية ورئيس الدير اللذين غالباً ما يكونان من انسبائه او د مماليه ، . وتربط السيد روابط تبعية ونسب بالاسياد الجاورين ، وهم ارستوقراطيون يحملون ألقابا شريفة وضباط مدنيون رعسكريون واسياد يتمتمون بالحصانة ويتولون السلطة المامة المحلمة ، وغالسها ما يكون حليف كبار موظفي المجالس في ليما ومكسكو .

تشتمل و السيادة ، على قرية حقيقية او ضيعة نتألف من مساكن و المشاة ، . مركز

والسيادة ، ساحة عامة كبرى مربعة الشكل . يقوم على احد جوانبها مسكن السيد ، وهو ابناء حجري كبير يتميز باسوار ضخمة شرقاء وبأبراج لمقاومة قطاع الطرق والثوار البلديين . وشتمل على قناء كبير ذي احجة يدخل منه الى القاعات والغرف التي يسكنها السيد وترى فيها الاسرة ذات المظال وصناديق الملابس والمجوهرات والآنية والصحون من قطعة واحدة والسنور في الجدران ، وعلى قناء ثان تحيط به الاصطبلات لخيول هؤلاء الفرسان الذين يسلخون معظم حياتهم على ظهور الجياد ، وللوازم من سروج خشبية وجلدية ثقبلة تزدان بالفضة ، وجلول فاخرة ، وملابس جلدية ، ومهاميز كبرى . وغدت الاديرة مراكز سيادات ايضا ، وغالبا ما مارس رؤساؤه سا عمليا كافة سلطات السيد . وغدت الاديرة مراكز سيادات العلمانية ، وهو خليقة السيد ، فكان يتحول تدريميا الى اكليروس ارستوقراطي .وعنصري .

وانجزت الفدادية تفكيك القبائل وتقويضها . فقد عاش مما في الاملاك الكبرى فداديون مدينون انتسبوا الى شتى القبائل ، تصاهروا وصاهروا الاسبانيين ، وتعلموا اللغة الاسبانية الوحشوا لهجاتهم بالتعابير الاسبانية ، ونقلوا عن الاسبانيين كثيراً من عاداتهم، والفوا من ثم ، بالانسهار ، فئات اجتاعية جديدة ستتألف منها الامة المكسيكية .

قيتضع من ثم ، خلافا لما ذكرنا عن شعوب الحضارة النيوليتية ، ان هنود العصر النحاسي ، المزارعين المتحضرين ، قد تيسر تشليم ، بل ضهم الى الحضارة الاوروبية اما بشكل فئات ، الجماعات والقرى الهندية ، المتميزة ، عن الاوروبيين مع اشتراكها في النظام الاروبي ، واما بشكل طبقت دنيا من العبال ، المشاة . ففي الواقع استطاع المزارعون المتحضرون ، الا و اوتومي ، و الا و مكسكا ، والا و تلاككالتيك ، الغ ، الاندماج في النظام الاقتصادي الاوروبي ، لانهم استطاعوا التعول الى مواني مواد غذائية بحتاج البها الاوروبيون في حياتهم اليومية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المزارعين المتحضرين قد استطاعوا تعود العمل في المزارع والمناجم بفضل تعودهم على الفلاحين المنتظم الثابت . فهم هنود الحضارة النيوليتية من المناجم ملى المناجم . في حال ان الا و اوتومي ، الذين لم يمارسوا عملا زراعيا دائما قد تحضوا من الفنام وبرهنوا عن المسال الكفاء . وهم ايضا من انتقلوا مع بعض هنود منطقة مكسيكو الى مزارع الشمسال والنوا اكثرية و المشاة ، .

وتحمل هؤلاء الهنود كذلك التجمع في قرى اسبانية ، لانهم عرفوا في القرى الهندية ، قبل الفتح ، حياة شبيهة بحياة الاسبانيين من حيث قوة التنظيم العائلي والبلدي والحضارة الزراعية المبنية على الزراعة وتربية المواشي ، وان كانت الزراعة ابعد تقدماً عند الاسبانيين .

 محصون خطاياهم حين يتقدمون من سر الاعتراف أبي حال ان التعداد كان عملية لا تطاق في نظر هنود الحضارة النيوليتية . وقامت بين ديانتهم والديانة المسيحية بعض نقاط التشابه . فقد توصلوا الى مثل اله اسمى . واعتقدوا بان هويتزيلوبوشلي ولد من عذراء . ومارسوا معمودية تطرد والشيء المؤذي به واعترفوا بخطاياهم وآمنوا بالحياة وتناولوا بأكلهم قلب الضحية الذي مثلوه بذات الله و وآمنوا بخلود النفس وبالفردوس وجهنم والطوفيان وتوصلوا الى فكرة ذبيحة الآلهة . لا ريب في ان العقيدتين اختلفتاكل الاختلاف من حيث الجوهر ولكن اوجه التشابه السطحية هذه قد سهلت التعامل ومهدت سبل التحول .

وعرفت هذه الشعوب واجب الطاعة لملك اعلى بواسطة الموظفين . وتعدودت الخضوع لارستوقراطية سيدية . لا بل لم تجهل التجارة الكبرى . ولم تكن الدولة المنظمة شيئًا جديدًا كل الجدة بالنسبة لها .

فليس من الصعب ، والحالة هذه ، ان ندرك كيف ان هـذه الشعوب استطاعت ، بفضل التخليط ، وبعد تكيف استغرق ثلاثة قرون وكلتف الكثير من الضحايا ، ان تؤلف الشعب المكسيكي والامة المكسيكية .

٤ – الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الشبه

كانت مقاومة الدرانكا ، اطول ديمومة من مقاومة الازتيك . ففي ولاية د فيلكا بميا ، لم تتم التهدئة الا في السنة ١٥٧٢ . وقد استمر حتى هذا التاريخ نظام الانكا السياسي في هذه الولاية ، ولكن بواسطة الاسلحة الاوروبية والخيول التي حصلوا عليها بالغزو او بمقايضة التبغ والكوكة والمعادن الثمينة . بيد ان الانكا المقاومين قد تسامحوا في دخول المرسلين التبغ والكوكة والمعادن الثمينة بل نظام الاسبانيين السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

قضى الاسبانيون على سيطرة الانكا وحلوا محلهم طبقة حاكمة . الا انهم احتفظوا لمصلحتم بالايلو والكوراكا والاياناكونا . وحصل الاسبانيون في كل مكان على الامتياز . ولكن صاحب الامتياز ، قد اصبح عمليا ، على الرغم من القوانين ، سيداً اغتصب السلطات العامة الرئيسية : القضاء ، جباية الضرائب ، نشر الايمان . فصاحب الامتياز يعين كاهن رعية يصبح عملياً رئيس خدامه وداعيته وقاضيه في الشؤون المدنية ؛ الامتناع عن دفع الجزية لصاحب الامتياز والتقاعس عن التفاني في خدمته يصبحان خطيئتين ضد الله . ويعين صاحب الامتياز وكوراكا ، لامتيازه وآخرين لكل و ايلو ، يسند اليهم ادارة العمل وجباية الجزية . ولكن الكوراكا الذين لا رقابة عليهم والذين يدفعون الجزية كغيرهم ولا يتقاضون اجراً ، ينصبون الفسهم طبقة في خدمة الفاتح ويستغلون اخوتهم في العرق ، المهزومين . يمتلك الكوراكا ماكن جميلة ومزارع وقطعانا ويرتدون الحرير ويحتسون النبيذ الاسباني ويمتطون الجياء .

ويحيطون انفسهم بموسين زنوج او خلاسين اشد حزماً واسبق مبادرة واعظم وفاء ، مجيث اصبح عدد الموظفين ، لمئة هندي ، يوازي عددهم لالف هندي قبل الفتح .

كان هنالك ، في السنة ١٥٩١ ، ٧٧٥ امتيازاً و .٨ (كورجيمينتو ». والكورجيمينتو هو امتيازاً و .٨ (كورجيمينتو هو امتياز ملكي يشرف عليه قاض يمينه الملك . ولكن الملكية الاسبانية لم تعرف قط كيف شكافي، موظفيها مكافأة لاثقــة . لذلك فان القاضي نفسه ، ﴿ كورجيدور » ، يجمع الثروات باغتصاب اموال الهنود ويحيط نفسه بجيش من المستخدمين الزنوج والحلاسين .

وهكــذا استمرت سلطة المبراطور الانكا المطلقة موزعة على مئات الاشخـــاص الذين مارسوها كاملة ؛ ولكن على فئات محدودة .

الاياناكونا هم بعد الفتح هنود هجروا الرايلو ، ليعيشوا بين الاسبانيين خداماً وصناعيين . يعتبرون اعضاء في الجماعة المسيحية ويعفون من الجزية والره ميتا » . يحق لهم اقتنساء الممتلكات الحاصة وممارسة الصناعة اليدوية او التجارة بحرية . وهم يشكلون في الواقع طبقسة كادحة في خدمة الاسبانيين . وقد احاط هؤلاء انفسهم بالعديد من الاياناكونا رغبة منهم في اثبات نفوذهم . وحين اثار حمانكو انكا » الركيشوا » على الاسبانيين في السنة ١٥٣٦ والسنة ١٥٣٧ والدي ينج هؤلاء الا بفضل مساعدة الاياناكونا . الا ان ناثب الملك في حطيطة ، اوقف تفكك الروابو » في السنة ١٥٧١ . فحظر احداث حمايانكونا » جدد ، وارغم كافية المشردين على الالتحاق باسياد . وامر بان لا يترك احد عمله او يسر منه الا باذن رسمي . فبات الاياناكونا من ثم اشبه بالفداديين المنزليين .

الده هاتونرونا ، هم اعضاء الايلو . يلزمون بدفع الجزية لا لتأمين اقتصاد تغذية في مجتمع قائم على تماون متسلسل فحسب ، بل لتوفير مواد التصدير الى اوروبا ايضاً التي يجب ان تؤمن المان المستوردات الاوروبية وتوفر كسباً في اقتصاد تنافس ورأسمالية تجارية . فاضطروا من ثم الى تبديل انتاجهم . لم يتغيز غذاؤهم قط : ذرة صفراء ، بطاطا ، لحوم جمل اميركا الجففة . وانحا اضافوا الى ذلك السكر والاجبان والد شركي ، او لحوم العجول الجففة . ولكنهم اعتمدوا زراعة النباتات الاوروبية ، لا سيا لتقديم مايتوجب عليهم . فزرعوا قصب السكر في المناطق التي تعلو ٢٠٠٠ متر . وفي المناطق الواقمة بين لا تعلو ٢٠٠٠ متر . وربوا المواشي في المناطق التي تعلو ٢٠٠٠ متر . وفي المناطق الواقمة بين والكرمة التي لم تناسب عاداتهم الجاعية ، تعودوا تربية المواشي : الثور الذي استخدموه لنقل والكرمة التي لم تناسب عاداتهم الجاعية ، تعودوا تربية المواشي : الثور الذي استخدموه لنقل الاحمال ووفر لهم اللحم والشحم والجلد ، والضأن والماعز ، في كل مكان ؛ والخنازير والدجساج والبيض لتلبية طلبات الاسبانيين . بيد ان قطعان اصحباب الامتيازات ، وقد تراوحت بين والميض لتلبية طلبات الاسبانيين . بيد ان قطعان اصحباب الامتيازات ، وقد تراوحت بين واكرهت الهنود على الاحماء في المناطق الجملة الصخرية .

وجب على الهافرترونا تأدية الـ « ميتا » . ففي او اخر القرن السادس عشر كان هنسالك في الولايات السبعة عشر الحيطة بمناجم « بوتوسي » ٥٠٠٠ مكلف تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة . كان سبع هذا العدد يقضي ١٨ اسبوعاً في المناجم كل سنة . ولكن عدد السكان تدنى ، واستخدم الكوراكا همالاً مأجورين من بين الاياناكونا زاد عددهم على ٥٠٠ في بوتوسي ، في السنة ١٩٠١ . وكان الهنود ال « ميتايو » (ميتا) يأتون الى بوتوسي مسع عائلاتهم و يصطحب كل منهم ثمانية او عشرة جمال على الاقل. اما الاغنياء فكانوا ينتقلون مصطحبين ، ٤ جملا يحملونها المندرة الصفراء والبطاطا ويعتبرونها لحوماً احتياطية . وبالاضافــة الى الحدمة في المناجم ، كان الميتايو يقومون طيلة شهوين بالحدمة المنزلية في بوتوسي ، ولم يعد الكثيرون منهم الى مناطقهم ، الميتايو يعقمهم في بوتوسي كاياناكونا ويهرب غيرهم شرقاً باتجاء الاحراج والاودية الجبلية .

واتخذت الميتا ايضاً شكل عمل في مصانع الجاعات الهندية للاسهام في الجزية المتوجبة. انتجت هذه المصانع المنسوحات في الدرجة الاولى ، ولكنها انتجت كذلك الخزفيسات والزجاجيات والفضيات والمصنوعات الحشبية . ولذلك ادعى الحكام ، « كورجيدور » ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، باحتكار التجارة مع الهنود . فارغموهم على شراء كافة المصنوعات التي لا يحتاج اليها اوروبيو اوروبا . وترتبت من ثم على الهنود ديون وفوائد جملتهم فداديين مقينين حقيقين .

شكا الهنود من المساعي التي يدلها الاسبانيون بنية ارغامهم على التسليم بالملكية الخاصة الفردية والمطلقة . وابدوا مقاومة سلبية في وجه المحاولات الرامية الى الزامهم بوضع وصية خطيسة لمصلحة وريث وحيد ، اذ ان الارث في عرفهم يبقى شائعاً بين كافة الورثة وبديره بمثل الابلو. ولم يستطيعوا قط تعود العمل الجافعلى الطريقة الاوروبية الذي لا يستهدف سوى الانتاج فقط ، اذ است العمل في نظر الانكاكان طفساً دينياً . وتألم الهاوزونا في شعورهم . ويبدو ان عددم قد تدنى قدنياً ملحوظاً رعا بلغت نسبته ٥٠ ٪ مابين السنة ١٦٥٦ والسنة ١٦٥٤ . ولكن قد يود ذلك الى انتقالهم نحو الشرق ، نحو الاحراج والاودية المنخفضة ، والولايات القائمية الى المغرب من بويتوس ايرس ، بعيداً عن الاسبانيين .

كان موقف الهنود من التبشير موقفا أشد تصلباً من موقف هنود المكسيك. استؤصلت شافة الديانة الهندية كا استؤصلت شافة الجمتم الهندي ، لم يبق ذكر المكانن الاسمى والآلها المطياء ، ولكن بقي الاه هواكا » اي الارواح المقيمة في الاشياء ، فهواكا هي الشمس والجبال والآكام والجداول والبحيرات والمناجم ومدينة بوتوسي والجثث المحنطة . امسا المصنوعات الاوروبية من زجلج وحرير وشم فقد اصبحت تعاوية وطلاسم ، ومزج بعض السحرة بين مفاهم المسيحية والانكا : فبات يسوع والشيطان اخوين توأمين ، كا بات القديسون المسبحيون همواكا » تدير العالم الطبيعي .

لم يصبح عدد الكهنة كافياً للقيام بجهود تبشيره منتظمة الا منذ اوائل القرن السابع عشر فقط. حاربوا الخطايا الرئيسية ، الملاوطة ، والبهمية ، والسكر ، وزواج الاختبار ، وعبادة الهواكا ، وأوعزوا بالقاء القبض على الكهنة البلديين والسحرة وتدمير بيوت العبادة وتحطيم الاصنام . بين السنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٠٥ احرق في ساحة ليا العامة اكثر من ٢٠٠ صنم هندي ما زالت موضوع عبادة ، وخلال السنتين ١٦١٧ و ١٦١٨ اكتشف ٢٧٩ ساحراً في ولاية و شانكاي ، وحدها . حوالي السنة ١٦٧٧ كان ايمانهم بطبيعة الهواكا الالهية قد تلاثون نهائيا ، فلم يكونوا من بعد عبدة اصنام بل كاثوليكا غير كاملين لان الثالوث لم يكن في رأيهم طبيعة واحدة في ثلاثة اقانيم متميزة ، والاب أحبر سنا من الابن ، ولم يحسيز بعضهم بين الله وملك إسبانيا . وكان الكهنة قد أسسوا و أخويات ، أو جميات من المؤمنين تخصص مواردها لتعهد إسبانيا . وكان الكهنة قد أسسوا و أخويات ، أو جميات من المؤمنين تخصص مواردها لتعهد المذابح والكنائس وتنظيم النطوافات والاحتفال بالاعياد وتبادل المساعدة في ظروف الوفاة أو المرض ، انتخب الهنود أنفسهم رؤساء هذه الاخسويات واداروا أنفسهم بأنفسهم ، وأدت هذه المجميات خدمة جلى في محافظتها على الطوائف الهندية .

وهكذا نجح هنود حضارة عصر الشبه في الديرو أكثر من هنود حضارة عصر النحاس في المكسيك في الامتزاج بالنظام الاوروبي والاحتفاط مع ذلك بفرديتهم . واستساغ هنود الديرو تقنيات أوروبية كثيرة لم يستسفها هنود المكسيك . و فضاوا الاوتومي والمكسيكا في الجمع بين الزراعة وتربية المواشي . ويبدو انهم تمكنوا من تلبية طلبات الاوروبيين بجزيد من السهولة . ولكنهم فضاوهم بصورة خاصة في الاحتفاظ بشخصيتهم ، وكان من نجاحهم في هذا المضمار ان الجماعات الهندية والايلو القديمة قد لعبت دوراً رئيسيا في ثورات البيرو ولا تزال حتى اليسوم أحد مرتكزات الامة البيروية .

الاوروبيون وشعرب حضارة عصر الحديد تعايش اوروبا ـ انريقيا السوداء ـ اميركا

حين عجز الاوروبيون عن تعويد هنود الحضارة النيوليتية عمل المشاجر الاوروبيون. والمفارس والمناجم استوردوا عبيداً زنوجاً الى المناطق الاميركية الحارة. وقد وصلت قوافلهم الاولى الى اسبانيولا منذالسنة ١٥٠١.

لم يتعرض الاوربيون تقريباً لافريقيا السوداء الى الجنوب من العالم الاسلامي الذي حصروا همهم في الدوران حوله لبلوغ آسيا . فاكتفوا بأن أة عوا على شواطئها القواعب البحرية ، والاسواق التجارية لملاهب والعبيد والعاج ، وقاموا ببعض محاولات التبشير دون ان يتعرف وحديا الى حضارة مختلفة معادية . ولعل لامبالاة الاوروبيين بافريقيا ونفور المجتمعات البلاية من الحضارة الاوروبية يفسران عدم التوغل نسبيا في افريقيا اكثر من الاسباب الجغرافية : المساح

القارة الافريقية ؛ المرتفعات الدائرية ؛ الشلالات المتعاقبة على الانهر ؛ الشمس المحرقة القاتلة ؛ العواصف الرملية في الصحارى أو كفن الحمى في الرطوبة الاستوائيـــة ؛ الاحراج الشاسعة ؛ الحشرات والجرائيم القتالة..

كان البرتفاليون السباقين الى الاقامة على الشواطىء الافريقية . أدشأوا أسواق وموانى، لتموين السفن في جزر الرأس الاخضر ، وجزر و بيساغوس » وشاطىء العبيد ، و و بنين » (١٤٧٧) ، وجزيرة القديس توما . في السنة ١٤٨٧ اكتشف و دييغوكاوو » مصب الكونغو وعلم بوجود دولتين كبريين احدامما الى الشمال من النهر ، و لوانغو » ، والثانية الى الجنوب ، وكونغو » ، التي كانت تمتد حتى نهر و كوانغو » ونهر و كوانزا » . استولى دييفو كاوو على البلاد واتصل بالملك و ماني - كونغو » . أرسل هذا الامير الى لشبونة بعض رعاياه الذين أوعز وكانت قرية كبرى قائمة على هضبة مكشوفة . شيد البرتفاليون فيها كاندرائية وكنائس وبيونا المي تعنينا الى الاقامة في و سان - بول دي لواندا » على شاطىء الاطلسي . وبعد اكتشاف التي تعنينا الى الاقامة في و سان - بول دي لواندا » على شاطىء الاطلسي . وبعد اكتشاف وفاسكو دي غاما » ؛ عوزتهم الموانىء لتموين السفن على الشاطىء السرق » و و موزامبيك » ؛ و و موزامبيك » كعلتهم الرئيسية ، و و مورامبيك » ؛ و و موزامبيك » كعلتهم الرئيسية ، و و موزمبيا » و و كيليانه » ، و و موزامبيك » كعلتهم الرئيسية ، و و موزموتابا و عند منعطف نهر و زامبيز » . انسل البرتفاليون الدو بومبيرو » الخلاسين وحاولوا انشاء املاك كبرى .

جاء بعدم الهولنديون والانكليز والفرنسيون. أنشأ الهولنديون اسواقاً في المناطق القائمة بين شاطىء الذهب وبلاد الكفرة وكادوا محتكرون في القرن السابع عشر الذهب والعاج والجلد والصمغ ولا سيا العبيد. اعوزم ميناء لتموين السغن على طريق امبراطوريتهم في المحيط الهندي. كانت الرحلة من وتكسل، الى و الرأس ، تستغرق بين ثلاثة اشهر ونصف وستة أشهر . ولكنها استفرقت وقتا أطول حين نشبت الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسيين واكرهت القباطنة على مساحلة النروج والدوران حول جزر و شتلند ، والمرور بين جزر و فاير - اوير ، وجزيرة والمدندا، النجاة من القراصنة . وكانت السفن ، حين تصل الى جنوب افريقيا ، مستشفيات ملاى بالمرضى المصابين بداء الحفر . لذلك أرسلت شركة الهند الشرقية ، في السنة ١٦٥٢ وجوهان فان ريبيك ، وكلفته انشاء محطة تستطيع السفن فيها و بلوغ اليابسة بامان والتمون باللحوم مدينة و الرأس ، . وفي ٢٠ شباط من السنة ١٦٥٧ أقطه المستمرون الاول الاحرار املاكا واسعة . وفي أواخر القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة الجبسال الاولى . وأنشأ الانكليز واسعة . وفي أواخر القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة الجبسال الاولى . وأنشأ الانكليز استهروا في عينيه والشاطىء الذهبي وبلاد و اشانتي ، وبنين . اما الفرنسيون فقهد استقروا في استقروا في استفروا في استفروا في المتدوا في عينيه والشاطىء الذهبي وبلاد و اشانتي ، وبنين . اما الفرنسيون فقهد استقروا في استفروا في استفروا في السنة والشاطىء الذهبي وبلاد و اشانتي ، وبنين . اما الفرنسيون فقه استقروا في استفروا في استفروا في السنه المستورة المورد القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة المحدون العالم . وأنسان من السنة المحدون العرب والمدور القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة المحدون العرب والمدور القرن السابع المدور المدور القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة المحدور المورد والمدور القرن السابع عشر بلغ الاستمار سلسة المحدور المدور والمدور المدور والمدور المدور والمدور المدور والمدور والمدور

السنغال وجزيرة ﴿ غوريه ﴾ وسان ــ لويس وفي عدة نقاط من الشاطيء الغيني .

فثل التبثير شغلهم الشاغل، فبموجب المراسيم البابوية منح البرتغاليون والفرنسيون فكان التبشير ورعاية المؤسسات الدينية ، والخورنيات والابرشيات التي تحدث في المستقبل، طلب بعض الملاك الزنوج مرسلين من ملك البرتغال ، كملك و بنين ، في السنة ١٤٨٦ والسنة ١٥١٥ ، وملك داردر ، في السنة ١٤٨٦ ، وطلب المرسلين كذلك ، من فيليب الرابع ملك اسبانيا ، وتوكسونو ، ملك اردر ، في السنة ١٦٥٨ . وعلم المرسلين كذلك ، من فيليب الرابع ملك اسبانيا ، وتوكسونو ، ملك اردر ، في السنة ١٦٥٨ . وأمر حفيده ، الملك الغونس (١٥٠٧ - ١٥٤٠) ، بتحطيم الاصنام وراسل روما ولشبونة بانتظام باللغة البرتغالية واللغة اللاتينية . اما ابنه منري ، الذي استقبل البابا في السنة ١٥١٠ وكان اول اسقف اسود . ولكن النجاحات كانت محدودة وصار التبشير في النهاية الى الفشل . اما اسباب هذا الفشل فيجب البحث عنها عند السود من جهة وعند البيض من جهة أخرى .

ان الملوك السود الذين طلبوا المرسلين الم يطلبوهم في اغلب الاحيان الا بداعي المصلحة العليا. فان ما كانوا يصبون اليه هو تسهيل العلائق التجارية ، وتأمين نجساح المفاوضات للحصول من الاوروبيين على بنادق ومدافع ، واستالة قرى خفية بجهولة . فهم لم يدركوا الدين المسيحي ولم يروا فيه سوى رقية جديدة وفي الكهنة سوى سحرة مهرة من الافضل ان يكونوا لهم لا عليهم. واذا ما تعمقوا في الدين ، كما فعل توكسونو ملك اردر في السنة ١٦٦٠ ، هالتهم مستلزمات المسيحية ، كواجب الاكتفاء بامرأة واحدة والزهد في كل شيء ما عدا الله . زد على ذلك ان الحقوف من المجتمع الزنجي ، قسد قاوما في المنفوس الحوف من الموت وامل الحصول على الحياة الابدية بالسير على خطى المسبح .

ولم يحسن البيض ايقاظ عبة يسوع المسيح للتغلب على هذا النفور وهذا الخرف . برهن الاكليروس عند البرتغاليين ، عن تصلب واستبداد. فبادر الى ادخال التفتيش، وزاد من خوف المنود وكراهيتهم . وكان من شأن النخاسة وحدها ، وهي منبع وحشية وقساوة ورذائل ، ان تحرج موقف البيض وتعرض كل علهم للخطر . ففي شيخوخت ، لم يخف ملك الكونفو ، الفونس ، في مراسلاته مع لشبونة ، اشمئزازه وخود همته . وبعد وفاته ، اغتاظ خليفته دييفو من تصرف البيض فطرد اكليروسهم من ولايت . فتخلى اليسوعيون عبن. عملهم التبشيري مكرهين بعد أن نصروا . . . ه ولم يبق سوى اسقف وبعض الكهنة البلديين في سان سلفادور .

نظر الاوروبيون الى أفريقيا السوداء ، في الدرجة الاولى ، نظرتهم الى مخزن عبيد . وقد انشمى المبيد المنقولون الى اميركا ، بصورة خاصة ، الى اربع مجموعات من الشعوب . فقد توزع

الد و بانتر ، ، ولا سيا بانتر و انفولا ، ، في كافة انحاء اميركا المزودة بالزنوج . وتكاثر عدد الداهوميين في كافة انحاء البرازيل وغويانا وغوادلوب والمرتينيك وسان - دومنغ . ونقل الداهوميين في كافة انحاء البرازيل وغويانا وغوادلوب والمرتينيك وسان الختلفة . أما و ياروبا و بنين ، حيث حققوا حضارة جميلة جدا اشتهرت ببرونزياتها ومنقوشاتها المساجية والحشبية ومصنوعاتها الحزفية وبلفت ذروتها بين السنة ١٦٤٥ و ١٦٤٨ ، فقد أرسلوا بصورة خاصة الى حكوبا والبرازيل في المنطقة المحيطة بباهيا . وجاء مسلو شالي وشرقي افريقيا ايضا مجمون المبيد لاحرامهم وثكناتهم ومشاغلهم في افريقيا وآسيا الصغرى ، والهند وجزر السونسد . فغدت افريقيا سوقاً كبرى صدرت منها المواشي البشرية الى كل ناحيسة وصوب . لسنا ندري لممري من أبعد منهم العدد الاكبر . ولكن الإضطرابات التي نجمت عن الاستعباد قد اسهمت اسهاماً أكيداً في ركود السود ثم في نكوصهم .

حضارات افریقیا السوداء المشال الداهومی

يمكننا ان نتخذ مثالًا لحولاء السود ، الداهوميين الذين كانوا موضوع دراسات كثيرة لا تخلو من بعض الترددات . فكان لا بد ، من ثم ، مسن التفريق بين درجات الشك . الا اننا لا نستطيع ، من جهة ثانية ، معرفة هذه الشعرب الا في القرن السابع عشر . ففي هذه المرحسلة نرى ان قوام

هذه الشعوب الا في العرب الشابع عسر . فعي هذه المرحسة لوى ال فوام علكة و داهومي » هو منطقة و ابرمي » . وتفصل المملكة عن الشاطىء عملكتا و أويسده » و د آردر » . وكانت أويده المرفأ الرئيسي لتصدير العبيد ، وتنافسها في هسذا الدور و ازدرا الصغرى » او و جودا » . اسبي السلالة الداهومية ، سلالة و الاواكسونو » ، الملك و داكسو » الذي تربع على العرش منذ السنة ١٦٢٠ او ١٦٢٠ و من خلفائه و اكابا » الذي ملك منذ السنة ١٦٧٠ و و اغادجا » الذي ملك منذ السنة ١٧٠٨ ، و و اغادجا » الذي ملك منذ السنة ١٧٠٨ .

يبدر الداهوميون شمباً تاجراً طامعاً في الكسب . فعلى الرجسل المعتبر ، بموجب مثلهم الاعلى ، ان يورث خلفاءه فوق ما ورثه من ممتلكات ويعمل بوحي الشرف في الانفاق من أجل النفوذ على الزواج والدفن وعبادة الجدود ، وعليه من ثم أن ينتج وببيع . يسهل التجارة النقد الصدفي المعروف باسم و كوري ، الجيم يتماطون التجارة ، والملك يتماطاها قبل سواه . يبيم مصول نخيله وملحه وعاجه من مسلمي الشيال وعالك الشرق والغرب ، ويبيم العبيد بصورة خاصة . وليست الحروب السنوية سوى غزوات لجمع العبيد . الجندي الذي يقبض عسلى اسير يبيمه من الملك بخمسة و كوري ، فيبيمه الملك ب م ١٤٠٠ و كوري ، من تجار العبيد . فيصبح بمكنة الملك جيئذ أن يبتاع من الأوروبين أسلحة تارية ، وحديداً من الصنف الممتاز جمسل مستخرجي المدن السود ينصرفون عن مهرب المدن الافريقي ، وقطائف وأنسجة حريرية مذهبة ومفضضة لتقديم القرابين للآلمة . الحروب حروب اقتصادية . ولم يستول الداهوميون على مالك الساحل في السنة ١٧٧٤ والسنة ١٧٧٦ الا التخلص من الوسطاء بينهم وبين الاوروبيين .

يبدر ان حمى الانتاج والتجارة قد وجدت لها عونا في الملكية الخاصة . الملك ، مبدئيا ، صاحب كافة الممتلكات . ولكنه عمليا لا يمارس هذا الحق . له أملاكه الخاصة ، وللقبائل التي يقارب عددها الأربعين أملاك جماعية محدودة جداً : أماكن العبادة ، والهياكل المصنوعة من جدوع النخيل . فالملكية الخاصة هي السائدة على ما يبسدو . وهي تشمل وسائل الانتاج ، الأراضي والأدوات ، كما تشمل الملابس والبيوت والاثاث .

تتوزع المحاصيل يوميا في الأسواق . كبار المزارعين يبيعون في أسواق جملة مدن باثعات ثانويات يقصدن أسواق البيع بالتفصيل في « ابومي » و « اويده » . يتفق المزارعون فيا بينهم على تحديد السعر ولا يتزاحمون . زد على ذلك من جهة ثانية ان الانتاج لا يتعدى على العموم امكانات السوق .

للمزارعين والصناعيين اليدويين المستقلين عبيدهم وفداديوهم . العبيد كثيرون في مشاجر الملك والزعماء والنبلاء وكبار المزارعين ومغارسهم . يمتلك هؤلاء الاخيرون مزارع تبلغ ٣٠ كيلومترا طولا وعدة كيلومترات عرضا يشغلون فيها العبيد بالشروط نفسها التي يفرضها الاوروبيون على عبيدهم في مشاجر ومفارس العالم الجديد . في المساكن يستخدم عبيد منزليون . أبناء العبيد المولودون في داهومي ليسوا عبيداً بل قداديين يستقرون في الاملاك ويعطون نصف المحاصيل .

يعول الداهوميون ، بالاضافة الى ذلك ، على العمل المشترك. فان كافة رجال القرية أو كافة أعضاء حرفة واحدة يؤلفون وحسدة عمل ، او « دو كبويه ». الدو كبويه تحرث أراضي كل فرد من أفرادها دوريا وتنشد الاناشيد أثناء العمل. اذا ما طلب من الحداد مسحاة ساعدته الدوكبويه التي ينتمي اليها على تطريق المسحاة التي تصبح ملكه الخاص ، فيبيعها لحسابه الخاص ويحتفظ بمكسبها. ولكن اذا ما طلبت هذه الاداة او غيرها من حداد آخر ، فان الحسداد الأول يبادر بدوره الى مساعدته مع الدوكبويه.

في كل قرية نفر من القناصين يتولون تمرين القرية باللحوم لان الماشية مفقودة . ولكن هـؤلاء القناصين قد احتفظوا ، بالاضافة الى نوع عمل الالفونكينيين ، بمفهوم هؤلاء الطبيعة وبمعتقداتهم القائلة بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . القناصون يؤلفون في وسط الشعب الداهومي ، وفي حضارة من عصر الحديد ، فئة اجتاعية تحتفظ بطريقة انتاج قناصي الحضارة النيوليتية وذهنيتهم . يؤلفون مجتمعاً قديما جداً عرف الديمومة في مجتمع أكثر تقدماً لانهم يستطيعون ان يوفروا له نتاجاً ضرورياً . وفي ذلك دليل على تداخل المجتمعات .

 الزراعة متقدمة . الرجال ينظفون الحقول بالنار . ثم يحرثون الارض جاعسات بمساح حديدية عريضة الشفرة قصيرة المقبض . الشفرة منحرفة بالنسبة للمقبض ويستعملها الشخص بشدها اليه . توفر مزيداً من القوة والضبط وتتيح شق أثلام حقيقية . ولملها تفوق محراث الكيثوا الرجلي انتاجاً. بذر الداهوميون الذرة الصفراء ؛ واللوبياء بين جذوع الذرة الصفراء ؛ وأنواع القرعيات على طول الأثلام . وعرفوا مبادى الزراعات الدورية ، ذرة صفراء الوبياء حمص . وزرعوا كذلك الذرة البيضاء والجاورس والقطن . وعاد الى الملك تنظيم الزراعات وفرض نسبها وفاقاً لحاجات التغذية والتجارة . وقد فعل الشيء نفسه في حقل الصناعة اليدوية بتحديده عدد المشاريع وتوفيقه بين الانتاج والاستهلاك .

الملك يحكم هضبة آبومي ومضبة كانا حكماً مباشراً. اما في المناطق البعبدة فيمين وكابيسيريس، يسند اليهم احقاق الحق ، وجباية الضرائب ، وتعبئة الجنود من الرجال الاحرار ، والاشراف على الامن ، ورقابة الزراعة ، وتنظيم العمل الجماعي . فكان هؤلاء الموظفون ، كما نوجح ، اشبه بقضاة الكابيليين .

الملك يتمتع بسلطة مطلقة مبدئيا . مركزه يستلزم عدداً من المراسيم . زائروه يخرون امامه سجداً ويقبلون الارض وينثرون الغبار على رؤوسهم . الملك يختار خليفته بين ابنائه الكثيرين كما يختار زوجاته وسراريه المديدات . فينجم عن ذلك دسائس بلاط كثيرة و دموية . الملك يميش مع افراد عشيرته ، و ابناء الفهد » . الا أنه شديد الفطنة لا يسند اية وظيفة الى الامراء والاميرات الذين تولد بطالتهم انفلاتا اخلاقياً مفرطاً. اما الوزراء والموظفون والضباط فيختارهم الملك من بين الطبقات المتوسطة خصوصاً . يفوض مراقبتهم الى زوجاته وبناته من زوجاته اللواتي لمن من عشيرته . ستة عشرة زوجة «كبوسي » يراقبن الزوجات الغريبات او «تاية » . والناية يراقبن كافة الموظفين . يماورت الملك في الحكم جدوده الملكيون . كلما احتاج الى مشورة او مساعدة ، يقتل عبيداً و محاربين وموظفين وافراداً من عائلته وفاقساً لخطورة الطرف ، فيذهب هؤلاء الى المالم الثاني وينبهون الواح جدوده الملكيين ويستحثونها . الشمس ، ويمي الملك وينصحه ايضاً الآلمة الملكيون المظهاء ، « ماوو » القمر ، « وليزا » ، الشمس ، الملذي قد يصبح ، بهذه الصفة ، هو وكهنته ، منافسين للملك .

الملك يفرض رسوما جمركية على كافة البضائع المنقولة والاسواق التجارية · ويجبي ضرائب مباشرة بفضل احصاء الانابر والمصنوعات الذي بجريه › في هــــذه البلاد التي لا تعرف الخط › بواسطة الحصى في الارجح .

بالاضافة الى الكابيسيريس ، يمين الملك في كل قرية رئيساً قابل العزل يختار من بين حفدة ملك القرية قبل الفتح . ينفذ هذا الرئيس الاوامر الملكية ، ولكن عليه ان يأخذ بمين الاعتبار

رأي رؤساء الماثلات الكبرى التي تتألف منها القربة من جهة ، ورأي رؤساء العشائر من جهة الحرى . كل قرية تضم عدة عائلات كبرى تنتسب الى طبقات نحتلفة . العشائر موزعة على كافة المحاء و داهومي ، وتمثلها عائلات كبرى في المديد من القرى . ولكنها تحتفظ بالوحدة والقوة بقيام اكبر الذكور سنا على رأسها يعاونه مجلس رجال ونساء من الجيل نفسه يتخذون المقررات باسم العشيرة .

تعاون الارواح كل داهومي في حياته اليومية . قبل زراعة الحقل يفحص احد السحرة اذا كانت روح الحقل متلاطفة . في الايجاب ، تقدم لها القرابين . اذا انتج الحقل عدة حصائد متوالية ، تحصل الروح على ترقية . يشيد لها معبد صغير عند اقدام شجرة نخيسل ، وترفع الى منزلة اله القرية .

يحمي كل داهومي جدوده الذين يؤدي لهم واجبات العبادة. لكل انسان ثلاث نفوس ينحها و ماوو » : اولا ؛ و سيميكوكاتو » ؛ الفرين الذي يؤلف جسم الانسان ؛ ثانيا ؛ و سيميدو » ، الروح الشخصية التي تعطي الغرين شكل الانسان ؛ اخسيراً ، و سيليدو » ، و الدي يقيم في جسم كل انسان » ، وهو انبثاق الهي ، وصوت داخلي بنبه الانسان الى ما يجب عمله في فترات معينة . عند وفاة الفرد تعود السيميكوكاتو الى القوى الاحيائية الكبرى . وتعود السيليدو الى وماوو » . اما السيميدو فتبقى وتدوم . ان مفهوم النفس هذا الكبرى . وتعود السيليدو الى وماوو » . اما السيميدو فتبقى وتدوم . ان مفهوم النفس هذا قريب جداً من مفهوم الاوروبيين المثقفين الذي واج في القرن السادس عشر . السيميدو تجتاز الانهر بعد ان تدفع الاجور المتوجبة لصاحب البطائح. تبلغ الفردوس وتدخله اذا اقام الاحياء من عائلتها بالاحتفال المناسب » ثم تلحق بالجدود » وتؤله حين يحيي رئيس العائلة العائش على الارحى احتفالات التأليه ، وتدخل الزون العائلي . وان النفوس المناسة من الجدد » التي تغدو اعظم قدوة منها حين تكون في قيد الحياة ، تصبح حاميات العائلة الكبرى » وتؤدى لها واحيات العائدة .

ويحمي كافة الداهوميين اخيراً كبار آلهة الزون السياوي او الارضي . يوجد كبار الآلهة هؤلاء في كل مكان من الفضاء ولكنهم يأتون في فترات معينة الى اماكن خاصة حيث يستطيع الانسان الاتصال بهم والناس تدخلهم ، وهو هذا الاعتقاد ما افضى الى عبادة و فودو، التي اشار اليها الكبوشيون منذ السنة ١٩٠٦ في مملكة اردر ، والتي وصفها غيرهم في داهومي ، الا و فودو ، إله يستمر وجوده في الفضاء ولكنه مع ذلك اختار له مائتين او ثلاث مائة مكان عنتلف، تحت الجرار، حيث يستطيع الانسان مناداته وتوجيه الاوامر اليه وارغامه على العمل ، والاله نفسه يمين المكان الذي يريد الاقامة فيه . اذا ما نما احد فروخ النبات في بيت مسن الميوت ، استدعي عراف على الفور ، لتميين الاله الذي يريد معبدا . فيشيد المسد في مكان قريب . ويمين الملك احد افراد المائلة كامنا يكون كهنوته وراثيا .

وقد درجوا ، في تحديد مكان الفودو ، على رش الماء وبذر الدرة الصفراء في ثلات نقاط من

مساحة مثلثة الزوايا بغية استئذان الارض. في كل من هذه النقاط يوضع اناء يحتسوي على حصى واوراق خاصة ، ويحتوي الاناء الاول على بمض ماء البحر ، والثاني على بمض زيت النخيل ، والثالث على بمض الكحول. في وسط المثلث يوضع رأس حيدوان غريب. فتتلى حينذاك صيغة تكريسية وتحدد بالضبط كافة المهام المطلوب من الاله ان يقوم بها. ثم تغطى الآنية الثلاثة ورأس الحيوان بجرة كبرى. وكانوا يحتفظون بكل عناية بالسائل الذي استخدم لفسل رأس الحيوان. فاذا ما احتاجوا الى مساعدة ، رشوا الجرة بقليل من هذا السائل مستحضرين الاله. فيأتي حالا الى الجرة ، ويطلبون منه ما يريدون ، فيلمي الطلب في اليوم نفسه ، حق ولو كان الطلب قتل احدم.

اقتضى درس اوليات عبادة الفودو . وكان همذا الدرس يستفرق ستة او سبعة اشهر ينمزل خلالها الطالب في مدرسة خاصة . وكانت مرحلة الدرس مرحلة خطرة لان الاله قد لا يقبل الموعوظ ويميته . يتمل المرشح لفة العبادة والاناشيد والرقصات الطقسية التي تتبح الاتحاد بالله و و المحرمات الفذائية ، ويحافظ خلال فترات الدرس على طهارة تامة . حينفك يدخل الفودو الى رأس الطالب الذي يموت روحيا ، ثم يحيا حياة جديدة بواسطة الاحتفالات التي تنهي مرحلة الدرس . وبعد اتحاده بالاله يشارك فودو قو ته مشاركة دائمة . وما ان تقرع طبلة الرقصات حتى يأتي الاله ويسكن في من وقف على مبادىء عبادته . فيركض هذا الاخير ركضا جنونيا ويرقص ويصيح صيحات حادة ويشعر باتحاده بالاله . ولكن الفودو ، على النفيض ذلك ، يكون تحت تصرفه اذا رش الجرة بالماء وتلفظ بالكلمات المناسبة . فنحن اذن الفود أمام ديانة هنود اميركا .

ادخل الزنوج الى البرازيل منذ السنوات الاولى من القرن السادس عشر الزنوج في المسيركا للساعدة الهنود على قطع الاشجار وجر"ها . وما ان ظهرت مغسارس قصب السكر حتى استوردوا باعداد كبيرة . في السنة ١٥٢٣ ، انشأ الحاكم و مارتين افونسو ، اولى مطاحن السكر في جزيرة و سانتو – فيسنته ، امام مدينة و سانتوس ، الحالية . ثم حذا حداده الحكام الآخرون والاسياد .

احتل السكر بسرعة مركزاً متزايد الاهمية في الاقتصاد الاوروبي . ففسسي اواخر القرن الخامس عشر ، كان عقاراً بباع بأسمار مرتفعة . وفي اواخر القرن السادس عشر غدا استهلاكه يومياً في البرتفال ، عند النبلاء والبورجوازيين ، بشكل حلاوى مختلفة ، وتجارته شامسة .

ان اكبر كمية من السكر وفرتها في البدء جزر شرقي الحيط الاطلسي : اسور ، مادير ، جزر الرأس الاخضر، وجزر خليج غينيا ، جزيرة الامير ، وجزر القديس توما . اما البرازيل فكان دورها ثانويا . ولكن البرازيل لعبت ، منذ السنة ١٥٨٠ تقريباً ، دوراً متزايد الاهمية ، فكان دورها ثانويا . ويفسر نجاح البرازيل :

بتدني سعر كلفة السكر . فليس من حاجة هنا للري ، وتسميد الاراضي الواطئة التي تنتج قصب السكر كل ستة اشهر طيلة ثلاثين سنة ونيف . وتنتجه الاراضي المرتفعة اربع او خمس دورات متوالية دون تسميد . وتيسر للبرازيليين ان بزرعوا قصب السكر في حقول واسعة كانت اكلافها العامة اقل ارتفاعاً نسبيا من اكلف الحقول الصغرى في الجزر . اضف الى ذلك اخيراً ان الديدان التي غالبا ما اتلفت قصب السكر في الجزر لم تصل الى البرازيل .

كان في البرازيل ، على ما يقال ، ٦٠ مطحنة للسكر في السنة ١٥٧٠ . وحوالي ١٥٨٣ - ١٥٨٥ ، تراوح عددها بين ١١٥٥ و ١٣٠٠ في كتب المؤلفين . ولمله بلغ ٢٣٥ و ٣٤٦ بين السنة ١٦٢٨ و ١٨٦١ ، وربما كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٧١٠ ، بعد النقصان الذي يرد الى الحرب المولندية، ٢٥٨ مطحنة سكر تقريباً .

ولكن لا مفارس ولا مطاحن سكر بدون الزنوج . وفي تزايد عدد هذه المفيارس والمطاحن يكن السبب الاكبر لنقل زنوج افريقيا الى اميركا . منذ و السنوات الجسيس » في القرن السادس عشر ، غيدا نقل السود الافريقيين في الجماء البرازيل تصديرا بالجملة . وبين السنة ١٦٢٥ والسنة ١٦٥٥ وبرتمبوك في السنة ١٦٣٥ وازدياد حركة القرصنة الهولنديين على باهيا في السنة ١٦٣٥ وبرتمبوك في السنة ١٦٣٠ ، وازدياد حركة القرصنة الهولندية في الاطلسي ، واحتلال الهولنديين ل وانفولا ، في السنة ١٦٦٠ ، انتشرت في البرازيل و مجاعة السود » . ولكن التصدير باعداد كبيرة ما لبث ان تجدد بسرعة . اصدر البابا اوربانوس الثامن ، في ٢٢ نيسان من السنة ١٦٣٩ ، رقيا بتميعة .

كانت النخاسة بين افريقيا والبرازيل وقفا على البرتغاليين . فقد توجب على البرتغالييسين تأدية رسوم معينة للتاج بجبيها العملاء الملكيون احيانا ، وتلزم غالبا بالتعاقد مع ملتزم يحتكر النخاسة . فيعطى هذا الملازم اجازات للنخاسين الذين يدفعون له الرسوم .

النبغاسون ينقلون و قطع ، العبيد ، اما و القطعة ، فزنجي تاراوح سنه بيسن ١٥ و٢٥ سنة ويبلغ ١٤٨٠ م طولا ، ويتمتع بصحية جيدة ، بين الثامنية والخامسة عشرة ، وبين الخامسة والشرين والخامسة والثلاثين ، يقتضي ثلاثة زنوج للحاول محل القطعة ، اما دون الثامنة وقوق الخامسة والثلاثين ، فيقتضي اربعة زنوج ، وقد استحصل النخاسون على العبيسه عن طريق مفاوضة الزعماء الافريقيين الذين يبيمون امرى الحرب . لذلك عمد النخاسون الى الدباوماسية بشتى اساليبها ، فشجعوا النزاعات واضرموا نيراث الخلافات حول وراثنة العرش ، ولكن الزنوج المنهولين لم ينتموا الى الطبقات الدنيا في المجتمع الاسود فحسب ، فان شحنة الزنوج اشبه بملكة زنجية مصفرة تضم مهزومي حرب وراثة عرش مسن الامراء وكباو الموظفين ، ورسال الحاشية ، والحاربين والمزارعين ، فوصل من ثم الى البرازيل زنوج متطورون فكريا ، ضليمون في امور الادارة والقيادة والتنظيم ، جنود وعمال اكفاء ، اي شعوب مصفرة بلغت مستوى حضاريا وفيعاً .

استخدم النخاسون في افريقيا وسطاء زنوجا (تانفوسمو) يقومون بالمقايضة في الداخل ويلجأون عند الاقتضاء الى الحيلة والعنف . واستخدم اصحاب المزارع في انفولا بعض عبيدم، البومبيرو الزنوج او الخلاسيين القساة والمفسدين . وكان التانفوسمو والبومبيرو يفاوضون عملاء الامراء الافريقيين (لنسادو) ، وم خلاسيون مسيحيون يعتبرون انفسهم بيضاً ويقيمون في بلاط الامراء ويبيعون عبيد هؤلاء . اما الثمن فبارود او اسلحة من البرتفسال ، او ادوات حديدية ولعب من البرتفال او الهند الشرقية ، او « زمبو » او اصداف اخرى تستخدم نقداً ، او د بانو » (اقمشة) تصنع خصيصا لهذه الغاية ، ترسم عليها اشعرة وتكون لها قدرة تحريرية . وكانت قيمة البانو ، ۱ د ويال ، اي ان عبدا ثمنه ، ۱۲۰۰ ريال يشترى به ۱۲۰ بانو ،

في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، صدر مرفأ لواندا سنوباً بسين ١٠٠٠ و ١٠٠٠ و عبد يتقلون في سفن ذات اربعة صوار تتراوح حواتها بين ٨٦ و ١٣٠ برميلا ، يكدس فيها . . عبد تقريباً . وكان الملاحون يستفيدون من الرياح الجنوبية الشرقيسة التي تهب بين دائرتي الانقلاب من الشرق الى الغرب ، ثم من التيار الاستوائي الجنوبي ، فتستفرق الرحلة ٣٥ يوما الانقلاب من انغولا الى برنمبوك ، و . عيوما الى باهيا، و . ه يوما الى ربي دي جانيرو. ولكن نسبة الوفيات اثناء الرحلة كانت مرتفعة جداً . فقد حدث احيانا ان نصف الزنوج لم يبلغوا اميركا . ولم يوسل الباقون على قيد الحياة الى البرازيل وحدها . فبين السنة ١٥٢٤ والسنة ٢٥٢٦ ، نقل احد النخاسين ١٩٧٣ قطع ، ارسل منها ١٥٤٧ قطمة الى البرازيل ، و ١١٨٤ الى جزيرة القديس توما و . ٩٠٧ الى الهند القشتالية في المنطقة الاسبانية . واعيد تصدير زنوج البرازيل بالشانيين والانكليز كانوا يتماطون التهريب ويزاولون المقايضة في المنطقة البرتفالية نفسها .

كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٦٠٠ ، بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠٠ زنجي و ٢٥٠٠٠ ابيض و ١٨٠٠٠ هندي و متمدن ۽ اي متنصر . ولكن عدد العبيد الذين دخلوا البرازيل بين السنة ١٩٧٠ والسنة ١٦٧٠ يقدر بـ ٢٠٠٠ اي بمعدل ٢٠٠٠ في السنة .الا ان معدل حياة الرنجي في البرازيل لم يتجاوز السنوات السبع .

وقر الزنوج القسم الاكبر من اليد العلملة في مغارس ومطاحن السكر . فقد عمل فيها و و النام ، وقد استخدم فيها ، بصورة خاصة ، زنوج انغولا من البانتو وهم قصيرو القامة ، وزاهرو البشرة ، وذوو ذلف ، واقل نتوءاً في الفكين ، ومتناسبو الاعضاء ، ومزارعون عمتازون لاحد لقدرتهم على تحمل التعب . اما الزنوج الباقون فقد استخدموا خداما وطهاة وحوذيين وحالين ، الخ ، وكانوا داهوميين بصورة خاصة ، اكبر قامة ، واجمل جسما ، يبيزون مجسهم وشدة حميتهم .

 وينقلونه ويسحقونه في ارحاء المطحنة ويقطعون الاخشاب للافران وينقلون عصير القصب الى القدور لتصفيته في ثماني مراحل متعاقبة ، ويضعونه بعد ذلك في آنية خزفية مجففة تعطي قالب السكر شكله المميز ، ويجمعون السكر غير الصافي ، وثفل القصب الذي يستخدم للنغذية والازباد التي يستعمل بعضها لتغدية المواشي والبعض الآخر لصنع الاشربة الكحولية ، وغارابا، و د كلاروس ، .

استخدمت مطحنة السكر في كلية سانت — انطوان ٨٠ زنجيا في السنسة ١٦٣٥ . وكان وأسمالها آنداك ٥٠٠٠٠ كروزادو . الاجهزة تمثل ٢٠ ٪ ؟ والثيران والعربات والزوارق ٤٠ ٪ ؟ ورأس المال الاساسي ٢٠ ٪ ؟ والزنوج ١٦ ٪ . ويتضح ان الزنوج لا يمثلون الا نسبة ضئيلة من رأس المال ٤ في حال انهم الشطر الاهم فيه . فلولا مهارتهم التقنية وقوة سواعدهم لما امكن تحقيق شيء البتة .

معدل الانتاج السنوي ۲۰۰۰ كيس من السكر الابيض و ۳۵۰۰ كيس من السكر غير الصافي . نصف هذه الكمية يعود المزارعين . اما النصف الآخر فيوفر و لسيد المطحنة ، مجموع دخل يقدر به ۳۸۷ دريال . اجور اركان الارادة تبتلع منه ۲۲٪ ، والمحروقات ۲۱٪ والاواني التحاسية ۲۱٪ والزوارق ۲۰٪ ، والاعال ۸٪ ، والنفقاات المختلفة ۱۶٪ ورديف الموتى من الزنوج وغذاء الاحياء (لحوم واسماك) .۱٪ ،

الكسب الصافي يبلغ ٥٦٨٣٦٥ ريالا ، اي ٣ ٪ من رأس المال الاساسي و١٣ ٪ من المجموع . وجلي انه كسب محدود جداً . ولو اضطر د سيد المطحنة ، الى تشغيل يد عاملة مأجورة ، لما استطاع المشروع الى العيش سبيلا . فالمشروع مدين بوجوده لليد العاملة العبدية .

أتاح عمل العبيد من ثم ، في البرازيل ، انماء رأسمالية صناعية في صناعة غذائية ثقيلة تسيطر على الاقتصاد البرازيلي . وليس التجار من يمو لون هذه الصناعة . السكر هـو محصول المرازيل الاول . انتاجه وتصديره يوفران القدرة على الشراء .

لعبت البرازيل دور المنطقة الاقتصادية المسيطرة بالنسبة لانفولا وغينيه . فاذا تزايد طلب السكر البرازيلي في اوروبا ، طلب البرازيليون عبيداً وعاجاً وجلوداً من غينيه وانفولا . واذا هبطت نسبة تصدير السكر البرازيلي ، انهارت تجارة انفولا وغينيه . ولكن البرازيل من جهتها تلعب دور المنطقة الاقتصادية المسيطر عليها بالنسبة لاوروبا ، المنطقة الاقتصادية المسيطرة . فان انتاج البرازيل من السكر مرتبط كل الارتباط بالاستهلاك الاوروبي وبقدرة لشبونة على بيع السكر من امستردام التي يوزع منها على كافة انحاء اوروبا حتى بولونيا وبوهيميا وهنفاريا . اذا حدت اوروبا من استهلاكها ، دخل الاقتصاد البرازيلي في ازمة . البرازيل هي الرابحة . فالصناعة الثقيلة البرازيلية تنتج اصلحة الرأسمالية التي يشرف عليها و المسيحيون الحديثون ، من اصل اسرائيلي . واوروبا هي الرابحة ايضاً . ففائدتها من البرازيل تفوق الى حد بعيد فائدة

البرازيل التي لا تحصل مقابل سكرها على عناصر الانتاج الضرورية ، اي الرجال ورؤوس الاموال ، التي قد تحتاج اليها . اما كبار المستفيدين من الصناعة البرازيلية الثقيلة فهم تجسار السكر البرتفاليون والهولنديون الذين يبيعون المصنوعات في افريقيا والعبيد في البرازيل ويحتكرون في النهاية هذه التجارة المثلثة الزوايا . فالرق الزنجي في البرازيل هدو من ثم شرط نظام اقتصادي كامل ، وقاعدة حضارة .

ان زنوج حضارة عصر الحديد ، بنقلهم الى البرازيل تقنياتهم في الزراعة وتربية المواشي وصناعة الحديد والعمل المنزلي ، وبتمودهم تطبيق التقنيات الاوروبية ، قد اتاحوا نمو حضارة عقارية قبلية . فان سيد المطحنة يعيش في البطالة متكلا على المبيد الزنوج مجمعونه و لمبسونه ثيابه ويفلونه ويبمدون عنه الذباب ، و سيد المطحنة » لا يستخدم يديه الا لتلاوة سبحته واللمب بالورق واخذ قبصات السعوط واستعال السيف والخنجر . وغالبا ما يجهل القراءة والكتابة ، ويستخدم امين سر. دوره هو الادارة والقيادة . منذ سن العاشرة يتزيا بزي الرجال ويعمل خنجراً كبيراً على جنبه ويفرض ارادته على صفسار الزنوج وينظم الالعساب ويفرب ويعذب ويؤلم . وحين يبلغ اشده ، يصبح ضابطا ممتازا يبرهن عن بسالة في الحروب ضسد ويعذب ويؤلم . وحين يبلغ اشده ، يصبح ضابطا ممتازا يبرهن عن المبيد الزنوج تحارب بشجاعة وأخلاص . اما الفتيات فيربين مع الزنجيات الصغيرات ، ومع ال و موكاما » ، القينة السوداء . وإخلاص . اما الفتيات فيربين مع الزنجيات الصغيرات ، ومع ال وموكاما » ، القينة السوداء . ويتمودن توزيع الاوامر بصوت عال ويصبحن قاسيات وشرسات ، وظالمات احيسانا . ويتمودن في سن مبكرة ، في الثانية عشرة او الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، لان الشغل الشاغل يتزوجن في سن مبكرة ، في الثانية عشرة او الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، لان الشغل الشاغل هو تركيز الاراضي ومطساحن السكر . ولكنهن أعجز من ال يلعبن دورهن كزوجات هو تركيز الاراضي ومطساحن السكر . ولكنهن أعجز من ال يلعبن دورهن كزوجات وامهات ، فيحتجن الى الزنجيات لارضاع الاولاد وتربيتهم وتحضير الطعام وتدبير المنزل .

لما كانت الارباح محدودة ، كانت الحياة ، في المنازل السيدية الكبرى ، حياة فقرية نسبياً . فالاسياد يرتدون في منازلهم قميصاً وصدرة ذات كمين ، والعبيد اسمالا . الغذاء زهيد والاتاث محدود ولكن التفخل شيء مالوف في الاحتفالات الكبرى

لم يبد الزنوج اي انزعاج من حياتهم في اقليم البرازيسل الاستوائي . فقد الفوهسا بسهولة . كانوا جذلين وثرتارين وحسني المماشرة وسريمسي البداهة وضحوكسين ومنفتحين ، فبرز التضاد بين سلوكهم وسلوك الهنود العابسين الحزانى المنكشين على انفسهم . برهنوا عن قيمة عقلية حقيقية ومزيد من المبادهة الشخصية واهلية للتنظيم وقوة ابتداعية ومهسسارة . اذا ما أرسلوا الى المدرسة ، سبقوا التلاميذ البيض في التحصيل .

لم يقطعوا اتصالهم بافريقيا، بل استمروا في استحضار مصنوعات دينية وكثيراً من الحاجيات الشخصية : جوز الكولا ، والكوري ، والزيوت ، والاقمشة ، فانتقلت من افريقيا الى البرازيل تقاليد وافكار وممارسات دينية . ان الزنوج « افرقوا » الساحل البرازيلي .

ان الرق أذل الزنوج. فقد قضى البيض وقتهم في فض بكارات العدارى من السود ومضاجعة الزنجيات العبدات اللواتي لم يجرؤن على المقاومة ، هذا بصرف النظر عن الولئك اللواتي كن يمهدن لهم السبيل لذلك. وقضت مصلحة الابيض من جهة ثانيسة بانجاب العبيد وتأمين اليد العاملة. ولكن الزنجيات غالبا ما فقن البيضاوات جمالا واستمان البيض بجاذبهن ، فلم يكن عديرا على السودانيات والداهوميات ، المتميزات بقد مياس وهيئة ملكية وثديين ناتثين تحت القديض واسنان لماعة ووجه متفقم ، ان يتغلبن على البيضاوات المحبوسات في منازلهن ، الامهات في سن مبكرة ، الذاويات في الثامنة عشرة ، المعروف التبشرتهن الصفراوية واسنانهن المتلقة وحركاتهن المتلكة ، وبدانتهن المبكرة وذقنهن المزدوج .

يستدعي الأبيض الى منزله اولاده من سراريه السودارات ويجلسهم على مائدته الى جانب اولاده من زوجته البيضاء . وتقضي السراري والمرضعات حياتهن في منزل السيسد . يعتبرن والولادهن من افراد العائلة ، ويخصصون بنصيب في الوصيات ويعتقن على العموم بعد وفساة السيد . بالاضافة الى الخدام الزنوج ، عاش هكذا حول السيد بين ستين وسبعين شخصاً من غير البيض . لم يكن الدين الكاثوليكي مستنيراً ولكن الايمان كان حارا ، لان هذه الاخلاق قسد بعدت طبيعية جداً . لا بل ان اعضاء الاكليروس ، باستثناء السوعيسين ، قد سلكوا سلوك اسياد المطاحن وكان لهم سراريهم الدائمة والمؤقتة . كان العلمانيون من البيض والزنوج اتقيساء جداً . كان كل العبيد منصرين ، وكان على السيد ان يقدمهم الى الخورنية بعد تعليمهم الصاوات.

وقد رغب العبيد في ان يُوكونوا مسيحيسين لان غير المسيحيين قد اعتبروا وكأنهم بهائم . واصبح بعض العبيد مسيحيين مثاليين ، وقضى بعضهم حياتهم في الصلوات . رمنهم من اعلنت قداستهم ، كالقديس و بنديتو » .

بيد ان بمض العبادات الافريقية قد عرفت البقاء متداخلة مع المعتقد الكاثوليكي او متنكرة به . فان عبادة الفودو مشلا قد بقيت مزدهرة . وانتشرت في الاملاك الكبرى جميات من عبدة الاوثان . وبشر بعض الزنوج بالاسلام واحرزوا بعض النجاح في اكواخ العبيد بإظهارهم الاسلام دينا يعارض دين الاسياد . وجملة القول ان العبيد المشوردين باستمرار قد مافظوا على المعتقدات والعبادات الافريقية .

ادخل الطهاة الزنوج على اطعمة البيض مواد جديدة ، زيت النخيل ، والفلفل ، وتوابل اخرى مختلفة ، وادخلوا اصناف مأكولات جديدة ، ولطفت المرضعات السوداوات اللغسة البرتغالية التي استغني فيها عن بعض الاحرف المضاعفة وحورت بعض مفرداتها ، وادخسسل الزنوج بعض التمابير الجديدة وبعض الصبغ الصرفية الجديدة ، وجملوا الفكر البرتغالي بروايات واساطير وخرافات افريقية .

اضف الى ذلك أن أله كويلومبو ، أو الزنوج الفارين ، قد عداوا الهنود العدات

الاوروبية . التجأوا الى مناطق البرازيل الوسطى التي لم يبلغها المرسلون قط ، فعلسّموا الهنود اللغة البرتغالية ومبادى، الدين الكاثوليكي والتقنيات الزراعية وطرق تربية الطيور الداجنة وزراعة القطن وصناعة الاقمشة . وفي « ماتسّو – غروسّو » ادخلوا فن الحدادة وتربية المواشي فكانوا بذلك عوامل حضارة نشيطة .

في المستعمرات الاسبانية والفرنسية والانكليزية ادى دخول السود الى نتائج ، لا متاثلة ، بل متشابهة ، و آل الى نشؤ حضارات من نوع واحد . فلا داعي من ثم الى الكلام عن هذه النتائج وهذه الحضارات في مثل هذا الكتاب .

وهكذا فان الاوروبيين قد اوجدوا ، مع سود حضارة العصر الحديدي ، حضارة جديدة . وانما حقق الاوروبيون خير نجاح مع شعوب حضارة عصر الحديد . فان حضارة السكر هذه نجاح حققه البيض والسود على السواء ، الاوروبيون والافريقيون . وكان الافريقيون عوامل نشر حضارة اوروبية افريقية ، اوروبية الطابع ، في داخل القارة الاميركية . فكانت القارة الاميركية من ثم ، خلال هذين القرنين ، حقلا فريداً لملتقى العروق والحضارات ومكانا نادراً للاختبارات الاجتماعية . فان حضارة اطلسية متعددة الميزات الخاصة تصل بين شاطئي المحيط .

الكناب الثاني

أوروب والعالم الجديد

كان هدف اوروبا ، خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا . فالوصول الى الهند والصين واليابان ، واستثبار ما فيها من موارد طائلة ، حمل سكانها على اعتناق المسيحية ، والقيام بحركة التفات على الاسلام ، من الوراء ، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الارض سوى ايمان واحد وحضارة واحدد ، تلك كانت الغاية الاولى والاخيرة ، والحمل الاسمى البعيد الذي راود خواطر الاوروبيين بكثير من الاغراء .

فقد حلمت اوروبا بتحقيق تبدل كامل بأخذ بتلابيب آسيا . فغي الوقت الذي تم لها التغلب على الصعاب ونجحت محاولتها في الكشف عن العالم الجديد واستصفاء خيراته ورفع لواء المسيحية في ارجائه وطبعه بطابع اوروبا ، بقيت آسيا الهدف الاكبر ، شبه مغلقة ، يصعب النفاذ اليها . كل شعوب اوروبا : من البرتفاليين اول من اسسوا في القرن السادس عشر اول امبراط—ورية اوروبية شملت بحار الهند والصين ، الى منافسيهم ومزاحيهم الاسبان ومن جاء بعدهم او خلفهم في هذه الرسالة من هولنديين وانكليز وفرنسين ، في القرن السابع عشر ، واخيراً الروس النين أطلوا ، من سبيريا على مشارف الصين الشالية ، بعد عام ، ١٦٤ ، كل هؤلاء واولئك اضطروا ان يقنعوا ببعض غرسات شتلوا بها سواحل القارة الآسيوية ، مثلة بهدف الوكلات التجارية، وهذه الحريض، المريض، المناقل ، وهذه الارساليات الدينية ، فقنعوا من مسعام وحلمهم العريض، بالاتجار مع سكان البلاد ، إن هم استجابوا لهذا المطلب ورضوا بالتعامل ، كا اقتنعوا باعتناق قلة ضيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من "قيض له التجول في ارجائها ويضرب في خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من "قيض له التجول في ارجائها ويضرب في خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من "قيض له التجول في ارجائها ويضرب في خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من "قيض له التجول في ارجائها ويضرب في خيرات بعض اطرافها ، وساحب الحظ بينهم من "قيض له التجول في ارجائها ويضرب في الخفة . سراً مطبقا يحاول المؤرخ ان يكشف ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، عن اسباب الحقية .

ولنصل وللأولي

أوروب والاسلام

١ _ الاسلام

جاب البرتغاليون والاسبانيون البحار ، مشرّقين ومغرّبين، تفادياً منهم للاسلام الذي كانوا يجدونه اينها اتجهوا وفي اي مكان وطأئسه اقدامهم . وقد حالفهم النجاح. ففي دورانهم حول جنوبي افريقيا، وايفالهم بعيداً

قيام الاسلام وحضوره في كل مكان

الى الغرب، انما رموا الى الالتفاق حول المسلمين واخذهم من الوراء ، اذ انهم اينا الجهوا، وأنى حلوا ، انتصب المسلمون امامهم . وقد اتضح للاوروبيين ان الاسلام يؤلف قوة اضخم بمساطنوا ، وهي قوة آخذة دوماً بالانتشار والامتسداد والتوسع . فمن الحيط الاطلسي الى الحيط الهادي ، ومن شطآن المغرب الاقصى الى هذه الجزر التي تفيض بالتوابل حتى في بكين نفسها وفي هذه الفيافي والسباسب التي تحيط بالمالم القديم إحاطة السوار بالمعصم : من الصحراء الكبرى والمغرب والجزيرة العربية وآسيا الصغرى وفارس وافغانستان والتركستان، ومن الشهال الغربي ، من الصين ومن مقاطعة كنصو حيث يؤلفون جماعات كبيرة ، ومن سو - تشيو مروراً بالجماعات من الصين ومن مقاطعة كنصو حيث يؤلفون جماعات كبيرة ، ومن سو - تشيو مروراً بالجماعات التي يزخربها التركستان الصيني الى ما وراء لان - تشايو وننغ - هبا حتى مشارف سي - نفان، وفي آسيا الموسمية ، والحيط الهندي ، في بنتام وفي جنوبي الصين ، في يونان وكوانغ - سي ، الحواضر التجارية الكبرى في الصين حيث اقبلت قوافل التجار المسلمين وأسست لها مجتمعات الحواضر التجارية الكبرى في الصين حيث اقبلت قوافل التجار المسلمين والسبانيون ، وجدوا المامهم قائمة ، راسخة ، دولاً وامارات اسلامية ، ومرسلين مسلمين ، وتجاراً مسلمين من جميع المورق والاجناس يعدور بالملايين . ففي بلاط امبراطور الصين نفسه ، وجدوا المسلمين من جميع المورق والاجناس يعدور بالملايين . ففي بلاط امبراطور الصين نفسه ، وجدد المرساور

اليسوعيون الذين جاؤوا يحاولون حمل الامبراطور على اعتناق المسيحية ، انفسهم وجها لوجه مع المتجمين وعلماء الفلك المسلمين الذين واجهوا العالم الاوروبي بالمسالم العربي ، كما جابهوا المسيحية ، بالديانة الاسلامية . وهكذ بدا لهم الاسلام كلي الحضور حتى ان الاب لاثيز ، مرشد لويس الرابع عشر أيتن بان كل آسيا انها هي اسلامية .

ليتوقف . وطاقة الاسلام على الانتشار والتغلغل لم تكن لتنضب . فقد استمر الاسلام في مده الصاعد ، حارفا في القرنين السادس عشر والساب عشر ، متدفقا نحو الجنوب بين قبائـــل السودان . كثيراً ما تم هذا التغلفل بالفتح تقوم به شعوب وقبائل إسلامية ، او زعماء وملوك وطنيورت ، ما كانوا يمتنقون الاسلام حتى يفرضوه فرضاً على جميع رعاياهم ، وقــد قيل : الناسُ على دين ملوكهم . ففي مدن مقاطعة هاووساس ، في النيجر ، التي دخلهــــا الاسلام في القررت السادس عشر ٬ وزازوون ٬ وغوبيس وكستينا وبيرام ، استمر الاسلام في انتشاره في الوقت الذي كان فيه سكان الريف يستمسكون بعقائدهم الدينية . ففي مملك أوادات ، يبدو ان أسرة 'تو'نجور الملكية الاسلامية تمكنت ، في مطلع القرن السادس عشر من ان تحل عل الامراء المحليين في اقاليم كثيرة ، وبذلك فتحت ، في مُطلع القرن السابع عشر ، الباب على مصراعيه ، امام رعاياهم ، لاعتناق الاسلام . واستطاع احد علماء المسلمين يدعى عبد الكريم ، ان يتغلب ، بين ١٦١٠ و ١٦٥٣ على سلطان تونجور . وفي دارفور ، تمكــــن السلطان سلسّوم سلمان ، في القرن السادس عشر من انتزاع السلطة من احدى الأسَّر المالكة من قبائــل تونجور التي كانت على الوثنية . وهكذ تمت السيطرة على مقاطعــة كردفان التي كان سكانهـــــا على الوُّثنية ، لقبائل الغويا المسلمة ، الى الشرق من تشاد. وبسين ١٥٠٠ و١٥٦١ ، تم إنشاء سلطنة ، بكيرمي على يسد غزاة فاتحين . وفي عهد الملك عبدلله (١٢٥١ - ١٢٠٠) راح الامراء البكيرميون يعتنقون الاسلام . وفي القرن السابع عشر ؛ قام اقوام رعاة من قبائــل Peuls ؛ في مقاطعة فوتا جالون ، يهاجرون ، مجركة واسعة ، من مقاطعـتي السنغال وماسينـــا ، ليستقروا في بلاد ماندينغ ، حيث تخلى لهم الاهلون عن اراضي واسعةٌ تصلح لرعي الماشية . وقد تسلل معهم الى المقاطعة المذكورة " مسلمون من فرقة القدرية من مدينة تمبكتو وشداهيا تلبث ان ُعِرِفت قبائـــل «البول» في فوتاً جالون ، بعصبيتها الدينيــــة الشديــدة ، وراح زعماؤها ينظمون رجالهم للجهاد ، فاستطاعوا ، عام ١٧٢٥ ان يؤلفوا دولة اتحادية ، من هذه الولايات السبع تحت ادارة حاكم مستقل ليحملوا الوثنيين على اعتناق الاسلام . ثم اختاروا لهم زعيماً نصُّبوه رئيساً للاتحاد . وقد جرت ؛ على نطاق اضيق ، إرتدادات في مقاطعة فوتا تورن الواقعة عند نهر النيجر الاوسط ، وبين سكان ماسينا . وهكــــذا تمكن الاسلام من المتفاغل بعيداً في افريقيا السوداء. وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الفايات في الفيئية ، المطلة على الحبط ، ومع ذلك بقيت جاهير غفيرة ضخمة على الوثنية ، بين سكان مقاطمة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بمبادة الارواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والافاويه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي. في جزر المولوسك . وحمل دعاة الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، أن تعرضت مصاطهم التجارية للاذى والحسارة ، المحؤول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي الشفت الحصن الامامي الحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكبوديا ، رام المسلمين من الملايو بعد أن كانوا يلتزمون جباية الفرائب والرسوم ، يزاحون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتفاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتفاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام احتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخسف عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخسامس عشر كان الدرويش علي اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا ب من نفوذ . فقد كتب ما يلي : و تدل بعض تصرفسات الامسبراطور على انه اعتنى الاسلام سرا الا انه لم ير من المناسبد الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف النبوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ؟ حق اله المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ؟ اذ ان اعداداً كبيرة من رعايا الشعوب التي على امرها ودالت دو لها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ؛ كا ان عدداً محترماً من الاوروبيسين نوحوا ليقيموا بين المسلمين ، في السلطنة المثانية ، او في بلدان شعالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ – ١٦٤٨ اسلامية بكامل سكانها ، في مقاطعة رودوب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبيه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كارا يقبساون على الاسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كارا يعتنقون الاسلام وينصرفون الميش بين المسلمين . فالحاميات الاسانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدائهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقليسة وكالابريا وجنوى والمبدقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركايا ، قاصدين شمالي افريقيا كارا مرشحين لاعتناق والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركايا ، قاصدين شمالي افريقيا كارا مرشحين لاعتناق

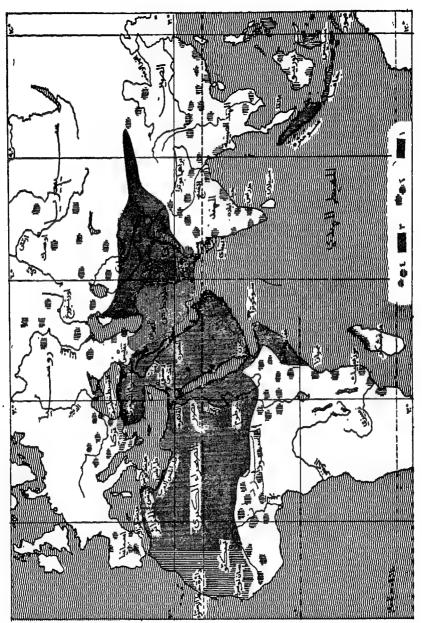
الاسلام. ويؤكد احد المؤرخين: و ان اضبارات الذين جحدوا دينهم تؤلف اكداساً من الوقائق التاريخية ، فاينا مررت في أنحاء الامبراطورية العنانية ،وقعت انظارك على جاحدين او مارقين لدينهم ، من كل درجات السلم الاجتماعي والسياسي. فالجنري جبرونيمو كمبودي مغليو ، الذي وقع اسيراً في مدينة الجزائر ، كان عمره عام ١٥٩٨ ؛ خسين سئة . وعندما توفي سيده الذي كان تاجراً من تجار تلك المدينة ، تخلى له عن دكانه وقد شوهد يسير في الشارع مرتديساً الزي التركي ، ويؤكد عارفوه انه منزوج من مسلمة ، و وفي اعتقادي انه خرج عن دينسه المسيحي ولا يفكر قط بالرجوع الى اهله ، ونرى في عهد السلطان سلم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٧) ان من اصل عشرة تولوا مركز العبدر الاعظم ، غانية منهم كانوا جاحدين لدينهم ، حتى ان نائب السلطان في الجزائر أولج على ، اغا هو واحد من هؤلاء المارقين .

ولم يكن الاسلام اقل اجتذاباً للاوروبيين ، من المسيحيين القاطنين الشرى . وعندما قام المغول الاكبر أكبر ، يفتح مملكة احد لمجار ، المسلمة ، اغرى المدافعين عن قلمة أسير غار ، على الاستسلام ، عام ١٩٦١ . وكان بين ضباط الحامية سبعة ضباط برتفاليين ، وعدد كبير من المدنين البرتفاليين ، من كلا الجنسين ، كلهم على الاسلام .

الاسلام ومغربات... كل شيء كان يغذي ألنكرة في قلب الاوروبي . فالمسلم يتمثل عنده ول ما يتمثل مرمغربات... و أليس الاتراك شراً من الذناب في كل ما يصنعون 2 (١٩٩٦) . وهل من عجب قط اذا ما التخذ الله من الاتراك شراً التحديث السيحيين اسوة عا قمل باليهود عندما أهماوا شريعة الهم ... فالاتراك بالنسبة المسيحيين م عثابة الاشوريين والبابليين لاسرائيل : مقرعة الله وسوطه اللاهب و من اقوال فيريه ، عام ١٥٦٠) . ثم أو ليس المسلم هو هذا الشرقي الذي يقف مع الاوروبي الحل طرفي نقيض ? هذا المسلم الذي تميز بالحتان اولا يأكل نجساً كلحم الخنزير او لحم اي حيوان آخر لم يذبح بيد مسلم ، وفقاً لاحمحام القرآن ، هذا الشرقي الذي يمضي في كتابته من اليمسين الى السار ، والذي يضم عندمة كتابه والفصل الاول منه حيث نهاية الكتاب عند الاوروبي .

هذا الانسان الذي يبدّول مقرقصاً كالنساء والذي يجلس القرقصاء والذي لا يشعر باي حياء فيرسم عندما يجثو ، حركة يشمئز منها الاوروبي لانها تنم على العبودية ، والذي يخلم حذاءه عندما يدخل المنزل ، والذي يزهو بثوبه الفضفاطن ، والذي يولد مقدساً بالوراثة ويسمح لنفسه ان يعمل كل شيء ، اذا انحدر من ولي او من شريف . فالمسلم هو نقيض الاوروبسسي والاسلام نقيض أوروبا ، فالمسلم هو من خرج على المسيحيه وسبب المسيعي الهلاك الابدي .

من العناصر الاساسية التي ميزت الاسلام ومن ابرزها وابعدها اثراً على الاسلام تتمة المسيعية الانسان الابيض في أوروبا وعلى الاسود والاصفر ممساً ، قوة الجذب التي تتجلى في الديانة الاسلامية ، مما جعل المدنية الاسلامية ، هذا الاثر البعيسسد ، فقد رأى



الشكل ١٨ – العالم الاسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الابيض الاوروبي في الاسلام تتمة للمسيحة . بعد هذه السلسلة الطويلة من الانبياء : من آدم ونوح وابراهيم ويسوع الذي يعرف عند الاوروبيين بالمسيح ، جاء خاتمتهم الرسول العربي ، عمد آخر النبيين واعظمهم . فقد رأى المسيحي في الاملام ، عناصر كثيرة مألوفة لديه : الوحي المتوارث بين الناس على ألسنة انبياء أوحى الله اليهم به ، وكتاب موحى به هو القرآن الذي كان في نظر النبي تتمة التوراة والانجيل ، وتفسير لنشوء الكون فيه قصة الحلق والخطيئة والسقوط وملائكة متشفعين وأبالسة ونفس خالدة ، ويوم الحساب ، وجنة ، وجحيم . كل هذه العناصر ألفت لدى المسيحي المتفرس في الاسلام ، جوا ليس بغريب عليه قط ، فهو لا يجد نفسه غريبا في عيط كهذا المحيط ، ولذا فالصدمة ، ان كان ثمة صدمة ، تأتي ضعيفة الوقع ، خفيفة ، بيناكل هذا قد يصدم بعنف الاسود الذي آمن بفعل الارواح . فكل ما يقدمه له الاسلام مسن تفسير لخلق العالم ولمصير الانسان ، بشكل قصة او اسطورة ، يتفق تماماً ، في جوهره ، بما ألفه من قول وسمعه من تعالم ، في هذا الشأن .

فقد ظهر الاسلام للمسيحي وللزنجي والآسيوي بسمو تعاليمه ولاسيا بنظرته الى الله . فقد كان تم للزنجي فكرة غامضة ، مشوشة عن الكائن الاعلى . اما رحدانية الله انسان آسيا فقد توصل بالادراك العقلي الى وحدانية الله ، مع ان الفلسفات الاساسية التي طلعت عليه لم تحسن خدمته اذ لم تستطع أن تخلصه من هذه الرموز والشبهات التي عاش في جوها ، فتلبست لبوماً حلولياً ، تارة ، وطوراً مشركاً ووثنياً . فالمسيح قال بالثالوث الاقدس ، وهو يقول بوحدانية الله وبوحدة الجوهر في ذات الله في ثلاثة اقاليم ، يتميز الواحد منها عن الآخر، هم الاب والابن والروح القدس ، وهي عقيدة يبقى العقل حيالها حائراً ، لا يستطيع النفاذ اليها وهو امام امر لا يتصوره الخاطر، وهي عقيدة وقفت دوماً حجر عثرة لدى العقول وحالت كثيرًا دون اعتناق الناس لها او دون استمرار من اخذ بها ، على القول بها . وعلى عكس ذلك جاءت العقيدة الاساسية في الاسلام.فهي تنطلق عفوية من الارض الى العلاء ، الى السياء كما ترتفع المأذنة البيضاء نحو القبة الزرقاء : هي وحدانية الله : ﴿ لَا اللَّهِ اللَّهِ مِنْ الْكَائْنِ الْحَيْ الاحد ، الابدي ، الازلي السرمدي الكلي القدرة ، والكلي المعرفة ، والعلم المطلق . فيـــه كُلُّ شي وهو يتميز عن كل شيء . وكبيرة الكبائر هي من يقول بان لله شريكاً ، وهذه هي خطيئة المسيحي الكبرى في نظر الاسلام. وهذا الشعور بوحدانية الله تغلغها في تعالم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن ولا سيا على فن البناء والرسم . فالمسجد نفسه مشبع بهذه الفكرة : فهندسته صلاة وموعظة ؟ فالمسجد هو نسخة عن كنيسة بوستنيانوس ؟ غير ان الاسلام نشر على كل شيء ، لونه وضياءه الخاص مجيث ان مجموع هذه الاشكال المعروفــــة جملتنا نتصور اننا امام بناء جديد او بالاحرى امام طراز هندسي جديد ، منه ينفلت النظر الى آفاق عالم غير منظور حيث تهب نفحة الهية جديدة . وتقع العين في داخــل المسجد على صحن فسيح ، رحب تشعر حيال بساطته بالمهابة والعظمة ، دائم البياض ، ينف ف النور الى باحته

الداخلية من هذه النوفذ التي تطل من الخارج فتفيض على الداخل ضوءاً ناعباً حيث تقع العين على كل شيء وترتاح مع الفكر الغافي ، في ظل هذا السكون العميق الذي يشبه سكون الوادي اكتسى جلباباً من هفاف الثلج ينمكس عليه سماء ابيض . ليس في الجامع ما يشتت الفكر : من خلال هذا الفراغ ، وعلى ضوء هذا السناء ، تجد النفس ذاتها امام موضوع عبادتها ... فهي ترى نفسها مكتنفة بفكرة نيرة واضحة ، جلية ، وضاءة قالاً الروح رهبة وخشمة ، فكرة الله مالىء هذه الوحدة ، ومالىء هذه الفراغ الصارم المهب الذي يسيطر على هذه الصحارى التي يغمرها النور ، فهذا النور ، وهذا التجرد العاري للايمان برب أوحد احد ، كلي القدرة ، هذا ما حمله الانسان المشدوه المتطلع نحو الكمال الاسمى .

وهذا الكالاسمي الدين الاسلامي المسال الاسمى له ، في الدين الاسلامي ، من الوسائل علاقة الانسان بله ما يكن الانسان من الاتجاه اليه والاتصال به . كم هو عظيم وبالغ تأثير الاسلام على الزنجي ، مئلا ، عندما يتبين بوضوح ، طريقة الأخد بهذا كسله وعندما يتبين ويفهم مقدار اهتهام الخالق بالخليقة التي برأ من العدم ، فالمسلم في نظر الزنجي هو من يصلي الى الله ويبتهل اليه ، فلا تسل عن عظم تأثير الاسلام على الزنجي ، فهو لا يصدق نفسه ، أن باستطاعته أن يخاطب الله عز وعلا . فالدين الاسلامي يسهل للجميع ، اكثر من أي دين آخر ، اتجاه الفرد بنفسه إلى الله الأحد . كل مسلم يكهن لربه . فهو يقد س نهاره باقامته الصلاة ، خسا في النهار : في السحر ، وعند الظهر ، وفي الأصيل ، وعند المفيب وفي العشية . فالصلاة فردية هي ، وان تمت مع الجهور فهي فعل ايمان يتجلى بالبساطة والتجريد الحلي . وهذه الصلاة يمكن للانسان أن يقوم بها أينا كان . ففي صلاته لا يطلب المسلم شيئًا لنفسه . والشيء الذي يطلبه هو أن تشمله نعمة الله ، فالصلاة عند المسلم هي اعتراف علني بربوبة الله ، فهسي شكر له وعمل عبادة الله ، الشمس المضيئة النفوس .

فالشهادة ؛ في الاسلام هي فعل ايمان ابسط بكثير واخصر من فعل الايمان عند المسيحيين: « اشهد ان لا إله الا الله ؛ وان محمداً رسول الله ، ؛ كما نتبين ذلك في سورة الفاتحة :

د باسم الله الرحن الرحم ، الحد لله رب المالمين ، الرحم الرحم ، مالــك يوم الدين ، إياك نعبد واياك نستمين ، المدنا الصراط المستقم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المفضوب عليهم ولا الضالين ، آمين ، .

ومع هذه الصلاة السامية ؟ على المسلم أن يصوم رمضان المبارك وأن يدفع ما عليه من زكاة ليطهر قلبه وأمواله ؟ وأن يقوم بفريضة الحج إلى مكة ؟ لمن يستطيعه ؟ وأن يتصف بالمسلمال والتَّصفة والامانة والصدق والحبة .

الايمان بالله مالىء الكون ، هي العقيدة التي تملاً حياة المسلم. فالشعور رحاء المسلم والتسليم لمشيئة الله القوي بقدرة الله الكليبة ، بقداسته وبحضوره الكلي الشامل ، يحمل معه الايمان بالقضاء والقدر والتسليم الى مشيئة الله وإرادته . « هذا شيء مقدر » ، لتكن إرادة الله ، « قالله قدر كل شيء في حكته الازلية » ، بمنأى عن الزمن ، وقضى بسمه الى الابد وسيجازي كلا باعماله ويثيب المسكين العادل . فكل مشاغل الحياة ، مها كانت مقيضة ، لا تلبث ان تفقد حدتها وان تزول ، ماذا يفيد الانسان ان يهتم ، اكثر بما يجب ، وان يشغل باله بما هو ظل زائل . فقراءة القرآن وتصفحه أبقى وأجدى ، ولنتعمق في حفظ شريعسة الله وتاموسه . فارادة الله هي الباقية وما نقدر هو الذي سيكون .

فقد يسرت الشريعة الاسلامية حياة الدنيا في كثير من القضايا كا بعثت في المؤمن الرجاء بحياة أفضل وأبقى . فقد أباح الاسلام تعدد الزوجات : إنكحوا لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع هذا ان كدلتم . باستطاعة المسلم ان يطلق زوجته لاخلاقها الرديئة . واذا تعدر على بعضهم المفقرهم ، الاحتفاظ بعدة زوجات معا ، فباستطاعة المؤمن ان يطبق الآية بحيث تتم له عدة نساء باستمرار . فالفردوس الذي اعده الله للمؤمن يتألف من ثماني سعوات ، تكون وفقاً لاستحقاق المؤمن ، تجري من تحتها الانهار ، كا فيها انهار من اللبن والمسل ، وما قطمع فيه النفس من الحلى والمحورات والمأكل والمشرب وحوريات لهن عيون دعيج . فكم هو شاسع الفرق بين هدا النعيم يعده الله للمسلم وبين الفردوس الموعود للمسيحيين حيث ينعمون بمشاهدة الله الى الابسد . فعلى ضوء هذه المقيده الاسلامية وتحت تأثيرها ، يستهين الانسان أوروبا : ابيض كان ، او زنجياً واسيوياً او مسيحياً ، باهوال الموت ، وبالمذابات التي قد يتعرض لها ، اذا ما كان من القائلين مثلا بتناسخ الارواح وتقمصها ، امام ما ينتظره من سعادة واقعية ، محسوسة ، مماوسة . وهذه السعادة الابدية ، يمكن للمؤمن ان يؤمنها دفعة واحدة ، اذا ما استشهد في سبيل الله ولبى نداء الجهاد المقدس . ففي سبيل هذه السعادة الابدية ، يمكن للمؤمن ان يؤمنها دفعة واحدة ، اذا ما استشهد في سبيل الله ولبى نداء الجهاد المقدس . ففي سبيل هذه السعادة التهيب كل تضحية ويمذب كل بدل .

أعد الاسلام لهذه النفوس ذات الشمور الرقيق والحس الناعم الاعتكاف التصوف الاسلامي الى العبادة ، والإعراض عن بهرج هذه الدنيا وزينتها ، والانفراد عن الخلق والتعبد له في نجوى ومسارة بعيداً عن الناس للانقطاع للتصوف . فالله ، هذا المكائن الحي المحب يسره ان يهم الناس بحبه وان يتفانوا في الشوق اليه . ولذا راحت همذه النفوس الثمل بالحب الألمي تحاول الاتصال بالله ، وهي بعد في هذه الحياة . الا انها لن تلبث ان تقوم في وجهها المصاعب . فالله لا يمكن ادراكه عن طريق الحواس لانه غير محدود بزمسان او مكان . كذلك لا المصاعب . فالله لايمكن العقل عاجز عن ذلك . وانحا "يدرك بطريق القلب والروح . يمكن ادراكه بطريق العقل لان العقل عاجز عن ذلك . وانحا "يدرك بطريق القلب والروح . وقد ولذا حاول المتصوفة ان يتخلصوا من ذواتهم ، من « الانا » ، ليذوبوا في الوجود الالهي . وقد اشتط بعضهم السمي فوقموا في وحدة الوجود مع الله . كا ان بعضهم ذاب في عجبة الله . فاصحوا أولياء ، شيئا من الفيض الالهي " لهم قدرة روحية « بركة ، خاصـة . وقامت

الصوفية تكيّات خاصة ، ارتدى المنقطعون اليها مسوحاً من الصوف ، ومن هذا الزي جاءت الكلة وصوفي ، ونظموا انفسهم 'طر'قا ومذاهب خاصة ، لكل منها زعيمها او شيخها ، له على اصحابها سلطة انتقلت اليه بالبزكة من مؤسس الطريقة ، وهي قوة كان شيوخ الطريقية يتوارثونها خلفاً عن سلف . وقد اشتهر بعض هؤلاء المتصوفة بمسلكهم في هذا الجمال بما يذكرنا بالنبج الذي سار عليه كل من القديسة تريزيا دافيلا ويوحنا ده لاكروا ، بمساحل البعض على التساؤل ما اذا كان التصوف الاسباني في القرن السادس عشر ، لم يتأثر بالطرق الصوفية الاسلامية ، وعهد المسلمين بالاندلس ، قريب لم يندرس ذكره ولم 'تنسخ أعرافه وعوائده . وقد أحب البعض بالنفي على هذا السؤال ، وذلك لان الاعتقاد بالله القيوم قد وليد ، في اماكن غتلفة ، متباعدة ، حالات متشابهة . وعلى كل ، فالمشكلة المطروحة على بساط البحث هي ان مسيحياً من أبناء القرن السادس عشر او السابع عشر ، لم يكن من المستجن لديمه قط ان يرى في الاسلام ، كثيراً من تماليم المسيحية وعقائدها الاساسية ، انما على نقاء اكثر، واسهل تناولاً . كا يستطيع وتمال .

ساعـــد التجـــار المسلمون على نشر الاسلام في كل ربوع الشرق . انتشار الاسلام والتجار المسلمون فعندما بلغ البرتغاليون الحيط الهندي ، وجدوا امامهم التجار المسلمين من عرب وايرانيين يسيطرون على الحركة التجارية في هذه الاصقاع المتراميسة بين مضيق الموزنبيق ومضيق مالقا . فقد وجدوا في اهم المرافى، الواقعة على سبف الحيط الهندي جوالي ومستعمرات اسلامية نالت مجتمعاتها من سلطات البلاد ، امتسازاً مجكم انفسم بانفسهم ، تحت إدارة زعم او رئيس ينتخبونه ، يقضى فيا بينهم ، وفقاً الشرع الاسلامي . وكثيراً ما تغلفل هؤلاء التجار بميداً في قلب البلاد وأسسوا لهم مراكز او وكالات خاصة لاعمالهم . فقد قامت في بلدة فيجينا غار ، الواقعة الى الجنوب من الهند ، جالية املامية عترمة . وكثيراً ما حدث ان تزوج عثلو او وكلاء شركات تجارية املامة اقاموا في الهند باستمرار ، من احدى نساء البلاد بعد أن يلقنوها أصول الديانة الاسلامة . وقد دخل الهند من نحو خسانة أو ستانة منسة ، عدد غفير من المسلمين جاؤوها من الشال الفربي ، استقر كثيرون منهم فيها بصورة نهائية ، وقد استمرت هذه الهجرة على نشاطها في القرنين السادس عشر والسامع عشر . وقسيد اضطر البرتغاليون للاخذ بواقع الحال ومراعاته وأقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين ، دون ان يحاولوا مسهم باذي او ان يجربوا إخراجهم من البلاد . وعلى المكسُّ ، فقد استمر حؤلاء النجار في اعمالهم ، في كل ارجاء الحيط الهندي ، بمسد ان رختص لهم البرتغاليون بذلك ، فعافظوا على الانشاءات والمؤمسات التي كانوا اقاموها من قبل كما السوا لهم مراكز جديدة في الممتلكات البرتغالية . وقد مثل سكان الملايو الذين عرفوا بمقدرتهم على الاعمال التجارية ٬ دوراً هامــاً في كل ارجاء الهند الصيئية . فقد امتطاعوا أن يسيطروا تقريباً على كل الانشاءات الرحمية ولا سيأ دعاة الاسلام طوائف اسلامية او من قبل بعض المساجد الكبرى في السلطنة العثانية ، ماذن خاص من سلطات البلاد وبمؤازرتها احياناً . فاذا ما حالفهم التوقيق ، عدوا الى إنشاء بجامع ليبدأ نشاطه متواضعاً ثم لن يلبث ان ينمو ويتطور بحيث يصبح ، كما هي الحالفي العسالم الاسلامي ، دائرة قطب وسط مجموعة من الابنية فيها كل ما يؤمن الإشعاع للجهاعة : بيت للصلاة حيث تجري مناسك العبادة والصلاة إشباعاً لحاجة النفس الطبيعية ، وملجأ لتخفيف الآلام عن النفوس المعذبة ، ومدرسة تلقن الناس تعليم القرآن وتمهد للنفس الطريق المؤدية الى الله كا تلقنم تعليم أسندة الله ورسوله ، فتطلعهم على أحاديث الرسول واعماله واقواله ومسا وضع المفسرون لها من تفسير وتعليق من شأنها ان تساعد على ضبط الاخلاق والآداب . ولم تلبث ان ظهرت الاوقاف التي جاءت تردف الصدقات والذكاة ، مساعدة للطلاب على طلب العلم ودرس العلوم المعقلية والنقلية ، كالصرف والنحو والمنطق وعلم ماوراء الطبيعة ، واللغة والخطابة والهندسة وعلم الهيئة حتى اذا ما تم لطلاب العلم ، القدر الكافي من التحصيل ، أصبحوا بدورهم من علماء الملة ، يقومون للعلم في المعاهد الشرعية الكبرى ، او عماوا في خدمة الدولة أو خدمة الدين بوصفهم من العلماء .

كثيراً ما تميز هؤلاء الدعاة بصفات عالية . فبعد ان قارن الاسقف سلارار اسقف مانيلا الدومنيكي بين الاساليب التي اعتمدها هؤلاء الدعاة في نشر الاسلام والاساليب الإخرى التي عول عليها المرساون البرتفاليون والاسبان ، كتب ، عام ١٥٩٠ ما يلي : « ان يقوم المبشر او المكارز بالدين بالدعوة للانجيل و حملة البنادق الى جنبه ، ليس قط بالطريقة التي يرضى عنها الله في نشر الايمان والدعوة الى السلام . من سوء حظنا جداً ومن دواعي خجلنا ان تكون تعاليم النبي العربي محمد قد توغلت في هذه الجزر وان يقبل السكان على اعتناقها ، لما تبينوا في دعاة الدين الجديد من دعوة صادقة السلام ، ومن رحمة العباد وتحنان ، نرجو ان يتم شيء منها المدعاة بالانجيل . . . فقد حمل دعاة الاسلام تعاليم الاسلام وهم أشبه ما يكونون عراة ، حفاة ، لا يعولون قط على نفوذ البشر » .

المهالك الاسلامية السلطنة العثمانية

عمل في خدمة الاسلام والدعوة له ونشر تعاليمه ، المهالك الاسلامية الكبرى التي قامت اذ ذاك . فالقوة التي تمت لها ، والنفوذ الواسع الذي نعمت به ، وحاجتها الملحـــة الى أخصائيين وتقنيين ، والامكانات الطائلة للعمل في ممتلكاتها الواسعة ، كل ذلك جعل منها مراكز استقطاب وقطب جذب ، في الوقت الذي مهدت الفتوحات العريضة التي تمت لها السبيل لانتشار الاسلام فوق اقطار واصقاع جديدة لم يعرفها من قبل . ولعل اقوى هذه الدول قاطبة ، وابعدها اسما وشهرة وصيتاً بلغ مشارف الصين ، واوقعها طراً في قلوب الاوروبيين ، هي السلطنة العثانية .

فقد احتفظت السلطنة المثانية من الصفات التي احاطت بنشأتها الاولى بصفة جيش نصب سرادقه فوق بلاد فتحها مجد السيف . وهذه الميزة او الصفة شاركت بها ، الى حد بعيــــد ، امبراطورية المغول في الهند ، كما شاركت بها كذلك ، على قسدر واسم ، أمبراطورية المغُل أو المغول في منشوريا . يعود الاتراك العثمانيون ، باصلهم الى هذه القبائل الرَّحل التي كانت تـــدق ، من حين الى آخر ، مداخل آسيا وتقرع بشدة ابوابها . فاذا ما اردنا تصوير الامور تصويراً قريباً أمكننا ان نميز نوعين من آسيا : آسيا الخصبة ، الخيَّرة الق تتمثل في هذه الوديان الظليلة وهــذه الدلتات الخصبة ، وهذه السهول الساحلية الفيحاء التي تقع في الصين والهند وبلاد مــا بين النهرين ومصر ، حيث نجد اقواماً نعمت لديهم جوانب الحياة ، واهاجهم الحر الشديد على رطوبـــة ، وانهكتهم الحميّات التي تآلفت علمهم ، وخملوا باسترسالهم للراحة وهطول الامطار الموسميــة وتخنث أغنياؤها لما رفلوا بسب من صنوف البذخ والقصف والتسري . اما آسيا الاخرى ٬ فهي آسيا الموحشة التي تتمثل في هذه الصحارى المترامية ، وهــذه الجبال الشاهقة وما بينهـــا من مقاطعات وارجاءً : كمنغوليا والتركستان والجزيرة العربية وافغانستان ، وكردستان والقوقاس حمث تمور قمائل وأقوام على البداوة تظمن ابداً في طلب الكلَّا والماء . برَّح بها الجوع والعطش، وظلال وارفة ، فيفدون عليها مع مواشيهم او يأتونها قوافل للإتجار والمقايضة ، فيقتبسون شيئًا مما يقمون عليه فيها من الافكار الديني. ت والسياسية ، ويتبينون مكامن الضعف لدى سكان المنخفضات ، ويتألبون حول زعيم من زعمائهم العديدين يرون فيسه القدرة على التنظيم وفرض هبيته ، فسلا يعتمون ان ينقضوا على هؤلاء الحضر ، يفرضون عليهم سيطرتهم ويستثمرونهم شر استثمار . ويتمكن هؤلاء الزعماء من المحافظة ، بضعة اجيال على ما تم لهم من شأن وسلطمان ، ويأخذون عن مواليهم ما لديهم من اخلاق وعادات ، يحرصون على الدفاع عنهم ويردون عنهم ما يستهدفون له من غزوات تقوم بها قبائل وأقوام تطمع بهم ، كما يحاولون توسيع نفوذهم ونشره بحيث 'يخضعون لهم مقاطعات حضرية اخرى . ولن يلبثوا ان يجدّوا سعياً وراء مفاتن الحياة ولذائذها ، فعدب فعهم الضعف وتهمين شوكتهم وتسترخى عضلاتهم بعد أن ينغمسوا في ملذات الاكل والشرب والقصف والتسرى؟ والغَامَنة ؟ فتميل ؛ شمس دولتهم نحو الغروب لتنهــــار فحأة تحت ردة وطنمة او تحت غزوة اجنبية .

اقتست ذراري القبائل الرحل التي قامت بالفتح ، الكثير من حضارة الدولة معتمدية الجبش الشموب التي غلبوها على امرها ؛ اذ كانت اسمى بكثير بما تم لهم منها ؛ فصح بهذا القول ، بانهم هم ايضاً 'غلبوا بدورهم على امرهم ، الا انهم لم يذوبوا مــــــــم الاهلين الذين جرى اخضاعهم ، بل ألفوا طبقة ممتازة هي طبقة العسكريين التي سيطرت على البلاد واستغلت أبشع استغلال الرعايا المفلوبين . ولم يشذ العثانيون عن القاعدة . فقسد ألفوا مادة الجيش وكانوا عماده ومادته ، فاذا بالجيش هو الدولة ، واذا بالسلطان زعيم حرب وقتال يجري انتخاب. من قبل الجيش من بين اعضاء الاسرة الحاكمة ، بالنظر لما لها من نفوذ ومنزلة رفيعـــة في قلوب السكان ، لانحدار هذه الاسرة من السلطان عثان جد العائلة ومؤسس الدولة الاول . والسلطان سلطة مطلقة هي أكبر سلطة عت لحاكم منذ التاريخ القديم . فهو « أمير المؤمنين » ، هذا اللقب الذي حمله منذ أن فتح السلطان سليم الاول ، مصر ، عام ١٥١٧ ، بعد أن حمل آخر خليفة عباسى ، هو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء العباسين في مصر ، على التنازل له عن هذا اللقب وبذلك أصبح السلطان خليفة الرسول العربي بعــد ان انتقلت الخلافة من العرب الى الاتراك ، فولي أمر المسلمين ، وأصبح و خادم الحرمين ، فجمع في قبضته : السَّلطة الزمنية باعتباره قائسه الجيش الاعلى ، والسلطة الروحية ، باعتباره خليفة الرسول ، وبذلك شكلت السلطنة المثانيسة دولة ثموقراطمة . فقد حمل يوصفه القائـــــد المظفر ، ألقاب وسلطات الملوك الذين اخضمهم لسلطانه ، فهو البادشاه او باديشاه او الامبراطور ، منذ ان تم له فتح القسطنطينية (١٤٥٣) ،، وهو أمير البرين والبحرين ؛ وهو قيصر الروم وخليفة اوغوسطس قيصر وقسطنطين ؛ وهسو الفاسيلفس في نظر رعاياه من اليونان وريث الامبراطورية البيزنطية . وعلى هــذا الاساس راح ينظم بلاطه وحكومته . فالقانون لا يطاله لانه فوق القانون . له وحده الحق ملء الحق بفتوى من كبار العلماء ؛ ان يصفَّى بالصورة التي يراها ؛ اخوته واولاد اخوته ليؤمن للدولة الهــــدوم والسلام والاستقرار . ومم ذلك ، وبالرغم مها يتمتع به من حقوق وسلطات واسعة فهو يبقى جديراً مجمل هذا اللقب طالما يوجـــــه جيوشه المظفرة · من نصر الى نصر · ويسهل لهم الغزو واسبايه وما يوفره الغزو من سلب ونهب واشتباحة ، ويقضى بضربـــة سيف ، على من يجرؤ برفع صوته محتجاً او مطالباً ، طالما له هالة القائد المظفر وطالما تتهيبه النفوس ، ويتفادى الناس ضربته القاضية التي لا طب لها ولا منها شفاء .

فهو يتولى قيادة جيش يتألف أساساً من كتائب يشكل الامراء الذين له عليهم حق التبعية والولاء ، ومن فرق حديثة معظمها من المرتزقة ، فيعمل اصحاب الاقطاعات على توفير ما يلام له من خيل لفرق الخيالة ومن مشاة . وتتألف فرقة الخيالية من اصحاب التيادات ورؤساء المقاطعات . فعلى صاحب التيار ان يقدم فارساً مع خادمين او ثلاثة خدام ، بينا يترتب على الزعم ان يقدم حوالي ٢٥ فارساً .

المنزلة الاولى في الجيش لفرقة الإنكشارية ، التي بلغ عدد افرادها ، في عهد السلطان سليان

القانوني مم ١٢ من المشاة ، كما ضمت بعض الكتائب من فرسان الحيالة

كانت البلاد تخضع لسلطات مسلسة على شاكلة نظام الجيش نفسه ، يماون السلطان كبير الوزراء او الصدر الاعظم يساعده اربعة وزراء ووزير الشؤون الخارجية 'يعرف برئيس افندي . وكان يحف به عدد الآغاوات او ضباط بعض الفرق ، امثال آغا الانكشارية ، وآغيا المشاة ، ويرأس قيادة الاسطول الحربي موظف كبير يلقب قبطان باشا تمتد سلطته فوق الجزر ويشرف على علاقات الدولة مع المسيحيين . ويأتي في الدرجة الثانية ، بعد هؤلاء ، عدد من كبار الموظفين ، بينهم : النسجنجي او امين سر الدولة ، والدفتردار او وزير المالية ، وقاضي عسكر او قاضي الجيش . اما شيخ الاسلام ، فكان رئيس فرقة العلماء والفقهاء ورجال الدين ، ومن بين رجال هذه الطفعة ، كان السلطان يختار القضاة والفقهاء وقاضي العسكر ، وغيرهم من رجال الدين الذين كانوا يقومون بوظائف رسمة في الدولة المثانية .

اما علاقات الدولة او الادارة بالولايات والسناجق ، فكان يؤمنها موظفون كبار يحملون لقب بيلر بك ، يتولون مهام الادارة العليا في الاناضول والروملي ، ويليهم مرتبة ، الباشوات الذين امتدت سلطتهم الى عدة سناجق : ويقوم على ادارة السنجق و بك ، الذي كان يشرف على اعمال وتصرفات اصحاب التيارات والزعماء . وكثيراً ما كان البكوات يلتزمون اعمسال الادارة ، شرط ان يتعهدوا بضبط المدل واقامة حدوده بين الناس ، والمحافظة على الامن ، وتأمين جباية الضرائب والرسوم وحملها الى خزينة السلطان وتقديم ما يترتب عليهم من الرجال للعمل في الجيش . وكان اصحاب التيارات والزعماء يتوارثون أباً عن جد ، إقطاعاتهم فينقلوها الى الذكور من ولدهم ، وبكانوا يخضعون لنظام دقيق من الترقية والترقيع ، بحيث يرقى احدهم من تيار الى زعم ، الى حاكم سنجق .

وتحت المسكريين ومن في خدمتهم من الملهاء والكتاب ؛ كان يأتي رعايا الدولة معظمهم من الغلاحين والمزارعين وسكان المسدن والريف ؛ بين مسلمين ومسيحيين يستفلونهم أبشع استغلال .

كان السلطان ، ولا شك في ذلك ، اغنى ملوك اوروبا قاطبة ، يتناول من رعاياه المسلمين المئشر ومن المسيحيين بمن يخضعون لسلطته ، رسم الخراح . وهنالك رسوم تفرض على الاملاك والمقارات ، سواءاً اكان اصحابها مسلمين او نصارى . كذلك كانت تصل الى خزينة الدولة ، واردات المكوس ، ورسوم الجزاوات ، والمصادرات وحصائل الفدية المفروضة على المغلوبين ، وأسلاب الحرب ، وغير ذلك . وكان القسم الاكبر من هذه الواردات ياز م المتهسمين الذين يقومون على مسؤوليتهم باعمال الجباية وضبط الرسوم . فلا عجب ان تبلغ واردات السلطان من الاموال ، ضمفي ما كان يدخل خزانة الامبراطور شارل الخامس .

القوة التركية رهن باصحاب التقنيات من الاوروبيين

كان الاتراك المثانيون ، قليلي العدد ، نسبيا ، كما انهم . انحدروا من حضارة قليلة الشأن والشأد . ومع ذلك ، فقد استطاعوا ان يصونوا المبراطوريتهم طويلا وأن ينموها ،

بعد أن عرف السلاطين ان يدخلوا في حدمتهم ، افضل الموظفين ، ويستفيدوا ، على احسن وجه ، ما تم لهم من تقنيات ومهارات فنية . فقد جيء بجانب كبير من افراد الجيش التركي ورؤسائه وصناعه من بين المغلوبين على امرهم من المسيحيين والارقاء وأسرى الحروب، راحوا فريسة الفزو ، او من بين الذين جعدوا ايمانهم . ولعل خير كبار رجال الادارة ، وخير ضباط الجيش كانوا من بين رجال هذه الطبقات التي أشرنا اليها . فقد تولى ادارة الدولة واشرف على تطورها وغوها ، وقام بأمر الدفاع عنها فريق طلع من بين الارقاء ، او من بين الذين جعدوا دينهم من المسيحيين .

وفرقة الانكشارية نفسها التي كانت خير فرق الجيش التركي ، تألف معظم افرادها من احداث مسيحيين وقموا في الاسر . وكان الاتراك يتقاضون كل خس سنوات ضريبة الدم ، اذ كانوا يتوغلون بعيداً ، في غزواتهم ، داخل بلاد النصارى ، فيأخذون ٢٠ ٪ من احسد ثهم ينتقونهم من احسنهم ملاحة وأقواهم بنية وقوة واعفاهم صحة ، ويخضمونهم لتربية اسلاميسة ويخرجونهم بتماليم القرآن ، ثم يدخلونهم في الجيش ويحملون منهم جنوداً محترفين يحظر عليهم الزواج ، وتماطي التجارة از اية مهنة أخرى ، فتألفت منهم فرقة ذات قيمة حربية عاليسة ، أخلص الكثيرون منهم الحدمة للاسلام والسلطنة ، وتميزوا بعصيتهم المغالية للاسلام . احتفظ بعضهم ، وهم قلة ، في سرائرهم ، بذكريات من العقائد الدينية التي شبوا عليها في حداثتهم الأولى ، كا غرق بعضهم في بخر من التشكك . الا انهم إستمسكوا كلهم بروح النظام ، وتمشقوا الحدمة المسكرية واخلصوا لها ، وكانوا يتباهون بانتهاهم الى فرقة غتارة ، كثيراً ما رفعت الى الموش او دحرجت الى الحضيض ، السلاطين ، على قدر ما اخلصت لهم او تنكرت لهم .

كذلك ؟ هنالك عدد كبير من الذين تولوا مراكز الصدارة والوزارة والقسيادة كانوا غرباء الاصل ؟ بين أرقاء وأسرى وجاحدين لدينهم المسيحي . فمن بين ٤٤ صدراً أعظم ؟ ١٧ لاغير ولدوا من أب مسلم . وعبلس الوزراء ؟ لم يكن في الفالب الا من الارقاء . ثم ؟ السلطان نفسه . من هو ? فقد اعتاد سكان القسطنطينية ان يلقبوه بدو ابن العبدة ، . والسلطانسة الوالدة ؟ ام السلطان ؟ كثيراً ما كانت : روسية او شركسية ؟ او يرنانية او ايطالية . فالسلطان سلم الثاني (١٥٦١ – ١٥٧٠) كان بأمه ؟ نصف روسي ، والسلطان محمود الثالث (١٥٩٥ – ١٦٠٠) كان بأمه ؟ نصف روسي ، والسلطان محمود الثالث (١٩٥٠ – ١٦٠٠) كان بأمه ؟ نصف ايطالي ؟ وعنان الثاني (١٩٦١ – ١٦٢١) ومراد الرابع (١٩٦٠ – ١٦٤٠) وابراهيم الاول (١٩٠٠ – ١٦٤٠) كانوا ؟ بامهاتهم ؟ نصف بونان .

برهن الاتراك المثانيون عن مقدرة وكفاية بالغتين، في اقتباسهم للاختراعات والاكتشافات

الحربية التي حققها الاوروبيون ، بما اتمن لهم التقوق العسكري والحربي . فقسد كانوا أولى من استعمل ، على نطاق واسع ، الاسلحة النارية والمدقعية وقد حافظوا بدقة على اساليب التعبئة الخربية عنده . فالميمنة ، تألفت على الاجمال ، من فرسان الخيالة ، 'يؤتى بافرادها من الاناضول وبلاد الكرمان ، بينها تألفت وحدات الميسرة من عناصر اوروبية . وقام في القلب فرقسة الانكشارية ، سلاحها المفضل البندقية يحميها 'سور من المركبات والجمال ، ثم المدفعية القائمة من كلا الجانبين . وكانت النار تطلق بغزارة من المدفعية ورماة البنادق ، فتحصد صفوف العدو سليان عام ١٥٢٣ ، على جزيرة رودس ، اخذ الاتراك بتنظيم حملات بحرية واسعة وانشأوا لهم عمارات واساطيل قوية جابت ارجاء حوض البحر المتوسط ، وجعلت المواصلات فيسه بخطر عارات واساطيل قوية جابت ارجاء حوض البحر المديدة . وما خسروا معركة ليبانت البحرية ، عام دائم وتمكنت من قطعها احيانا بين الجزر العديدة . وما خسروا معركة ليبانت البحرية ، عام حاكم مدينة الجزائر ، وهو من اصل مسيحي ومن مواليد نابولي ، جحد إيمانيه ، فجهزوا سفنهم برمساة مسلحين بالبنادق وبالمدفعية ، وبذلك أفسدوا على المسيحيسين استثار فوزهم العسكري السابق .

وهذه التجهزات الحربية الفنسة ، عهد الاتراك بها الى فنيان من المسيحيين . فالستركي عسكري بدمه ، ولم يكن عنده اي إلمام بالتقنيات ، اذكان الاسلام يحول دون اعدادهم رجالًا فننين . ألم يكن القرآن مصدر كل العلوم النافعة . اما العلم الأوروبي ، فقد تبين فيه المسلم عمل الشيطان وصنيعه . فالاسلام لم يكن ليكترث بالعالم الخارجي . فخير الاعمال لدى المسلم هو الانقطاع لدرس القرآن والاسترسال في تفهمه : اما مهمته الثانية فهي تحقيق ما كان يحلم به المسلم ، الجهاد المقدس ، وهي مهمة لم تكن لتنتهي قط . ولذا كان على السلطان ان يستقدم من اوروبا التي تميزت بتفوقها الفني والتقني ، ما كان مجاجة اليه من المدافع والمعادن والبــــارود . وكان يسمى جهده ليجد خارج السلطنة العثانية الاخصائيين الذين كان بحاجة اليهم : كعمال انواعها ، والعاملين في صناعة الاسلحة ، وراسمي الخرائط . وكان اول ما يهم الاثراك فعله بعد فوزهم في المعركسية وضع ايديهم على الفنيين بين الاسرى . وعندما احتل السلطان سلم مدينة تبريز ، عام ١٥١٤ ، عاصمة الفرس آنذاك ، قبل ان يفتح القاهرة ، عام ١٥١٧ ، امر بنقـــل لهُمْرة الصناع الى القسطنطينية . ويمِع ذلك فاوروبا وحدها تستطيع ان تقدم للسلطان اكبر عدد من يحتاج اليهم من مهرة العال . واستدناء لهم كان يغريهم بمرتبات ضخمة ، وبذلك أغرى الكثيرين على جحد دينهم المسيحي واعتناق الاسلام . وقد نشطت حركة النهريب على شواطيء البحر الابيض المتوسط ، في الشيال والجنوب . فحملت هذه الحركة الألوف مـــن الاوروبيين الى نكران دينهم واعتناق الاسلام . ولما كانت هذه الحركة لم تكن لتفي بحاجة

السلطان ومطلبه ، فقد عمد الى الغزو وتجنيد الجملات المسكرية . وما تكاد المعركة تنتهي حتى كان يصدر اوامره بنقل المدافع التي وقعت في ايديهم في جملة ما وقع من مساوبات الحرب، كلى القسطنطينية . كما كان يجري انتخاباً دقيقاً بين الاسرى ليختار من كان فنياً منهم وينتفع بهارته . كانت اعمال القراصنة توفر له العدد الكافي من الاسرى . فالحرب وحدها هي التي تساعد على مد السفن مجاجتها من المجذفين ، ومن الاسلحاء الحديثة ، ولذا كانت الحرب الناجعة او المظفرة من ضرورات هذا الجيش الذي كانت السلطنة المثانية عماده الاكبر .

ألفت السلطنة العثانمة خطراً مستمراً على اوروبا وشوكة حادة تنخس الحطر التركى ط اوروبا ومسلم اسبانيسا في جنباتها ، وقد بلغ هذا الخطر أشد" ، في عهد سليان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦) . وعندما تم له الاستيلاء على جزيرة رودس عام ١٥٢٣ ، هــذه الجزيرة التي كانت تمثل نقطة الدائرة في اعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة المسيحيون في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، اذ كانت سفنهم تقف سداً منيماً يحول دون الاتصال بالمرافىء والاسلكة الواقعة على سواحل سوريا او في مضر او تتناثر على سواحل افريقيا الشهالية حتى اسبانيا ، اذ كانت هذه الاعمال تقطع اتصالاتها مع صقلية ومقاطعات 'بو يُثل ونابولي المشهورة بانتاجهها ، فتهدد اسبانيا بالجماعــة ، كما كان من شأنها ان تشوش عليها امر تنفيتي وارداتها من العالم الجديد ، كاكانت تقطع عليها الاموال والموائد الجياة من المقاطمات الايطالية كاكان من شأنها ان تهدد املاكها السيادية في ايطاليا ، هذه الاموال التي كانت اساس المعاملات المصرفية مع متمولي المانيا . وجنوى، والتي كانت قد شارل الخامس وابنه فيليب ، يجانب كبير من الاموال اللازمة للنهوض بالحروب التي خاضاها . ثم ان اسبانيا كانت تحسب حساب قيام ثورة مسلحة في اراضيها نفسها كا كانت تخشى ان يقوم الاتراك انفسهم بعملية انزال جيوشهم في بلادها اذ كان لا يزال فيهما عدد كبير من ذراري المسلمين بعد سقوط علكة غرناطة في ايدى الاسبان ، واعداد غفيرة منهم في مقاطعة قشتالة اقسام في علكة بلنسيبة عدد كبير من العرب من ذراري الفتح يؤلفون جانباً كبيراً من البروليتارية يعماون تحت اشراف رؤساء مسيحيين . اما في اراغون ، فقد كان عدد العرب كبيراً ايضاً تتألف من بينهم جاعة الصنَّاع ويؤلفون مجتمعات تعمل في الزراعة وتربية الماشية . وكان يوجد بعض جهاعات منهم في مقاطعات استوريا وبسكاى ونافار حسن التنظيم كان معظمهم من البورجو ازيبين اغنياء ٤ ينتشرون في هذه الربوع التي تمتد من مدينة الدبسني الى غرناطة او كانوا يقومون باعمال البستنة ، واستمروا يباشرون مجرية نامــة واجباتهم الدينية . ونزولاً عند رغبات المسيحيـــين ؛ قام الملوك الكاثوليك ؛ عام ١٤٩٩ ؛ بمحاولات كبيرة واسعة لتمثيل هذه العناصر وامتصاصها . وصدرت الاوامر الى عرب غرناطة بوجوب اعتناق المسيحية او النزوح عن البلاد ، خلافًا لمنطوق الاتفاق الذي وقع بين الطرفين ، عام ١٤٩٢ ، هذا الاتفاق الذي ضمن لهم الحرية الدينية وحرية بمارسة طقوس الاسلام . وجرى

تطبيق هذا القانون في جميم انحاء قشتالة . كذلك طلب تطبيق بالعنف والقوة نصارى مقاطمات اراغون وكتالونيا وبلىسية اثر هذه الحركات الانتفاضية التي قام بهسا المسلمون ، سنة ١٥٢٠ – ١٥٢١ واستمر العرب في ممارسة شعائرهم الدينيية سراً في منازلهم بعد ان احتاطوا لامرهم ؛ كما انهم اتخذوا لهم علامات مميزة كاللباس الشرقي واستعمال الحمامات الشرقية والاحتفاظ باللغة العربية . وقد زاد شعور العداء تحوهم بعدما أطل علىالبلاد الخطر التركي . وقد غذات مناعب الحياة ومصاعبها الحسد في نفوس الاسبان بعد الذي رأوه من قنسياعة القوم وحذقهم ومهارتهم في الصنائع والفنون التي كانوا يتماطونها والاعمال التجارية التي كانوا ينصرفون اليها بنجاح . وراح الاسبان ، ومعظمهم موظفون في خدمة الدولة او كهنة في خدمة الكنيسة يتفننون باعمال المنف والتشفي ، لحلهم على الثورة بغطرستهم واعمالهم المثسيرة ، ويبتزون اموالهم ومقتنياتهم ٬ ويسلبونهم نساءهم وبناتهم . وقسد عرف عرب الاندلس كيف يحافظون على علاقاتهم الوطيدة مع البلدان والمالك الاسلامية الاخرى وان ينبوها ويزيدوها نشاطاً على نشاط . وكانت سفن السلمين تجوب البحر فهاباً واياباً بـــين المرافىء الاسبانية ، والموانيء الاسلامية الواقعة الى الشهال من افريقيا . وراح المسيحيون يتهمونهم بجميع الاسلحــة بقصد الثورة واعلان المصيان . فتذرعت الحكومة الاسبانية بهذه الاسباب للقضاء على هــــذه الفردية ؛ فاصدرت عام ١٥٦٦ ؛ امراً يحظر على المسلمين ارتداء اللباس الشرقي ؛ وإيصاد ابواب منازلهم ليلا واستمهال الحامات العامة والانقطاع عن استمهال العربية لغة التخاطب فيا بينهم . القاطنين في سهول غرناطة الذين كانوا يفسندون ، بمساعدتهم المالية والعينية ، بعض مراكز المقاومة . اما في قشتالة والاندلس والمناطق الريفية الآخرى المحيطة بمدينتي اشبيلية وطليطة ؛ فقد استمر المرب في اعمالهم ومصالحهم النجارية والصناعيـــــــــــــــــ على هامش الحياة في اسبانيا ، حمهم الاثراء واكتناز الثروات ، رافضين بعناد كلي الذوبان في صفوف الاسبان . وفي سنة ١٦٠٩ ، قررت الحكومة الاسبانية ، التخلص منهم بابعادهم نهائياً واجلائهم عن البلاد .

تعدم الاتراك في البلقان بلغراد عام ١٥٢١ ورفع حدود السلطنة ، فاحتل السلطان سليان القانوني بلغراد عام ١٥٢١ ورفع حدود السلطنة ، من نهر الساف الى الدانوب ونهر الدراف ثم تجاوز بها نهر الدانوب ، ولم يلبث ان هاجم الجمر ، فيمسد ان تمكنت كتائب خيالة الجمر، فيممركة موهاكس، من اختراق صفوف عدة فرق تركية ، راحت المدفعية التركية ورماة الانكشارية تحصدهم حصداً ، وقتل الملك لويس في المعركة عام ١٥٢٥ ، ودخل السلطان مدينة بودا عاصمة الجمر ، وبذلك انفتحت الطريق امامه لمهاجمة المانيا والنمسا . وجاء السلطان عام ١٥٢٩ ، ينصب الحصار حول مدينه فيينا ، حتى ان طلائع الحيالة بلغت في اندفاعها مدينة واتسبون ، الا انه اضطر ان يرفع الحصار . وبقيت حسلات الاتراك وغزواتهم الدورية كسنة ، سنا مصلتاً فوق رأس النمسا والمسيحية في اوروبا ، الى الحصيار الذي تعرضت له

فيينا ؛ عام ١٦٨٣ . وقد يسر اعمال الفتح في البلقان والتوغل الى الشمال ، هـذه الانقسامات التي نشبت بين المسيحيين على اختلاف مللهم ومذاهبهم . فقد خضع الشعب في البلقان لنظـــام سيادي بغيض وسيطرة شديــــدة الاسر ، جعل الفلاحين يعمــــدون كثيراً الى الثورة ضد اسيادهم . ولم يلبث أن حل محل هؤلاء الاسياد ، اصحاب التيارات الذين اخمذوا يشددون في جِياية الرسوم العينية بدلاً من اعمال السخرة التي أجُبرَ الفلاحون على القيام بها ، من قبــل . ولم للت هؤلاء الفلاحون ان شعروا بالارتباح الكلي للنظَّام الجديد الذي أخضُّوا له والذي حمل لهم في ثناياه بالرغم من بعض الاعمال التعسفية والابتزازات التي تعرضوا لهـــا ، من وقت الى آخر ، الهدوء والطمأنينة بعد الذي خبروا وعاشوا من الحروب الدائمة بين الامراء المسيحيين ، فاستتب الأمن ، وقطع دابر القرصنة والتعديات ووضع حد لاعمال قطاع الطرق الذين اعتادوا ان يميثوا فساداً ، فبرهن النظام الجديد عن روح تسامح ديني ، اذ تركهم يتمتمون بمؤسساتهم وعاداتهم . ثم ان عدداً كبيراً من الدويلات التي وقعت فريسة المتح التركي ، احتفظت بامرائها وحكامها ، بعد ان تمهدت للدولة الفاتحة بتأمين الخراج والاعتراف لها بالولاء والتبعية ، من بينها جزيرة نكسوس ومقاطعة مولدافيا وفلاخيا وترنسلفانيا ، وبقي سكان الجبال على استقلالهم بالفعل معتصمين بماقلهم الحصينة . بينا سيطر الاتراك سيطرة تامة على السهول وثفور اليلاد ومعابرها الرئيسية لتأمين سلامة شبكة مواصلاتهم .بينا فضَّل المغلوبون على امرهم النظام الجديد على حكومة الاسبتارية في رودس ، وادارة عمال البندةبة في كريت والموريه ، وعلى سلطة الامراء المحليين في صربيا ورومانيا وهنغاريا . وهكذا برز السلطان سليان الكبير، سيد اوروبا غير المنازع ، له فيها الكلمة الفصل ، فاعاد توازن القوى بين فرنسوا الاول وشارل الحامس. فلولا وجود الاتراك والدور البالغ الاثر الذي لعبوه ،في القرنين السادس عشر والسابع عشر لكان عامل آل هبسبورغ تمكن من تحقيق الحلم المعسول الذي كثــــيراً ما دغــدغ منه الخاطر.

> الاسباب الـكامنة وراء فشل محاولات الاتراك العثمانيين ضد المسيحية

عجز الاتراك عن فرض سيطرتهم على المسيحية كما فشاوا في القضاء على ما اعترض سبيلهم وحد" من زخم اندفاعهم من روخ المقاومة . فقد كانت المسافات الشاسعة العائق الاكبر

والحائل الاول الذي شل حركتهم وفت في عشدهم. ففي عام ١٥٦٦، قضى سليان القانوني ثمانين يوماً ليبلغ شواطىء الدانوب. وقد كان مجاجة الى قوافل لا تنتهي ، لتأمين تموين جيوشه، تمد من ٢٠ – ٤٠ الف جمل او بعير. وهكذا أصبح تأمين عتاد الجيش امراً صعباً للغاية ، بعد ان ابتعد كثيراً عن قواعده ، ليعمل في بلاد درستها الحرب واقفرتها وكدست فيها الخراب والدمار. وبذلك فرضت المسافات والابعاد على السلطنة حدودها المعقولة.

ومن جهة اخرى ، لم يساند الاتراك جدياً ، في البحر المتوسط ، الحركات التي قام بهــــا الفرنسيون والمسلمون في شمالي افريقيا . فاقتنموا من حركاتهم باعمال الغزو والسطو الطارىء ،

أخذاً منهم بعاداتهم المألوفة وتردد الملك الحسن العبادة (لقب ملك فرنسا). فلو عرف الاتراك عام ١٥٤٣ ، إثر نزولهم في مدينة نيس ، واقامتهم في فرنسا بعد احتلالهم لمدينة طولون ان يشنوا هجوماً مركزاً ضد مسينا ونابولي، وعرفوا ان يحتلوا هذين المركزين ، لكانوا قطعوا تهاماً مواصلات امبراطورية آل هسبورغ ، وقطعوا بالتالي سبل القوافل المحملة قمحاً الى اسبانيا ، كاكانوا وقفوا حاجزاً في وجه العهارات الاسبانية التي كانت تنقل الامدادات الحربيسة والعسكرية الى المدن الايطالية ، ولكانوا سدّوا في وجهها منافذ وصول النقد اليها وبذلك هددوا الامبراطورية باسواً مصير وتسببوا بإنهارها .

الحرب ضد الفرس وقت واحده عروباً قامت في جبهتين ، وان يواجهدوا في والمسيحية معا ، فقد ابتلى العالم الاسلامي بالشقاق والانقسام على نفسه . فقد قام السلطان سليم الاول ، بين ١٥١٦ – ١٥١٨ ، مجروبه ضد الماليك في سوريا ومصر ، وقد فتحت له الانتصارات الساحقة التي حققها بفضل المدفعية ، على فرسان الماليك ، ابواب سوريا وفلسطين فدخل دمشق والقاهرة ظافراً ، كما احتل بعد قليل اليمن . كذلك اضطر الاتراك للقيام ، فدخل دمشق والقاهرة ظافراً ، كما احتل بعد قليل اليمن . كذلك اضطر الاتراك للقيام ، دوريا مجملات تأديبية ضد الفرس ، يستهدفون منها تأمين سيطرتهم على أرمينيا والعراق ، ليبلغنوا عبرها ، المقاطعات الفارسية ، التي كثيراً ما شرهوا الى امتلاكها كأذربيجان والكردستان ليبلغنوا عبرها ، المقاطعات الفارسية ، التي كثيراً ما شرهوا الى امتلاكها كأذربيجان والكردستان الفرس كانوا في غالبيتهم الساحقة ، من الشيعة الامامة ، بينا كان الاتراك على السنة . وكان الفرس يقومون بدعوة ناشطة لنشر مذهبهم . وحاول الشاه اسماعيل ، في مطلع القرن السادس عشر ، نشر التشيع بنشر تعاليم الامامية بسين سكان الولايات التركية الواقعة الى الشرق من المراطوريتهم .

بين الشيعة والسنة عداوة زرقاء وعداء مستحكم ، اضطر معه السلطان ان يتوقف عن متابعة الحرب في اوروبا ليرتد بجيوشه ضد بمالك فارس . وكانت اولى ردة فعل من قبل السلطان سليم على جهود الشاه اسماعيل ومحاولته الدعوة للشيعة في الولايات التركية ، ان قام بمذابح دامية بينهم زهقت فيها ارواح كثيرة أربى عددها على ٥٠٠٠٠٠ شيعي (١٥١٣) كا انه ابلغ الشاه ان علماء الاسلام اصدروا فتوى اعلنوا فيها خروجه على الاسلام واستباحوا دمه بوصفه من الخوارج ، معلنا ضده الجهاد المقدس ، وارسل ضده جيشاً مؤلفاً من ١٠٠٠٠ عارب . وتابع سليان القانوني الذي اتقد غيرة على السننة ، هذه السياسة ، وقام ضد الفرس بعدة حملات عسكرية ، سنة ١٥٣٥ و ١٥٤٨ ، و ١٥٥٨ . وقام خلفاؤه من بعده بعده بعدة تجريدات دارت فيها الحرب سجالاً ، انتهت بماهدة اعادة السلام موقتاً بين الطرفين ، ابرمت اعام ١٥٥٨ ، و ١٥٥٨ ، وقام خلفاؤه على بحر قزوين ،

عسكرية ضد الشاه عباس الكبير ، كا قام السلطان مراد ، عام ١٦٣٠ ، و ١٦٣٨ بتجريدتين عسكريتن ضد الشاه صافي.

كان من بعض نتائج هذه الحروب المتماقبة بين الفرس والاتراك ، ان رفعت الخطر التركي عن الغرب . كثيرًا ما تغلب الاتراك بمدفعيتهم الثقيلة على فرق المشاة الفرس التي كانت فرقسة الخيالة بينها تستعمل الدبوس والنبُّوت الحديدي والقوس والنشاب ، الا ان الاتراك عجزوا ، المسافات التي كان على جيوشهم ان تقطعها . وكثــــيراً ما كان الامراء المحليون الذين قامت اماراتهم في قلب هذه المناطق الجملية الوعرة المسالك؟ بميلون بولائهم لهذا الجانب او لذاك؟ وفقًا لظروف الحروب . اذ كثيرًا ما اضطر الاتراك لحمل النجدات الى بعض النقاط والمراكز ، في جبهتهم الطويلة في اوروبا ، لتعرضها لهجوم مفاجىء . وقد استطاع الفرس ان يجهزوا جيشهم في عهد الشاه عباس الكبير ، بالمدفعية ، ما جعل كفة الحرب تميل اليهم .

كثيراً مااضطر الاتراك للانثناء من حروبهم في اوروباو الانكفاء ليواجهوا

الاسطدام مع البرتغاليين منافسة البرتغاليين بعد أن اشتدت مزاحتهم لهم في الاسواق التجارية ، او لمعالجوا الازمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتها حولهم على اثر الجفاف والقحط الذي كان ينزل ببعض ولايات السلطنة العثمانية ، وهي أزمات كثيراً ما تضاعفت ورافقها ازمات اجتماعية واضطرابات سياسية ، على غرار ماكان يصيب اوروبا منهسا . وقد زادت هذه الازمات عنفاً واحتداماً في السلطنة العثمانية وفي اقطار افريقيها الشهالية من جراء منظرة البرتغالبين على سواحل القارة الافريقية. والظاهر أن البرتغالبين استطاعوا أن يستصغوا لحسابهم ، الذهب الافريقي وغير ذلك من محاصيل القرة السوداء ، عما ادى الى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع اقطار المغرب وطرابس الفرب ومصر نفسها . كما انخفضت حركة التجارة البحرية بين المرافىء الافريقية القائمة على الساحل الشرقي وجزيرة العرب ، كما نتج ، عن ذلك كله ، تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الاسلامي المتوسطي . ولهذا رأى الاتراك انفسهم مسوقين لمحاربة البرتفاليين.فقد أصبح الاتراك ، بعد الفتوحات التي تمت لهم ، على سواحل البحر الاحروقي المراق كما اصبحوا بمد احتلالهم للسويس وللبصرة ، احدى الدول المعلمة على المحيط. الهندي . ولذا كثيراً ما استنفرهم مسلم الهند وجزر السوند وطلبوا تدخلهم لحمايتهم مسمن تعدات البرتغالين . فقد وردت على السلطان ؛ في القسطنطينية عمام ١٥٣٨ ، بمثة ديباوماسية من بهادور ، امير غوجيرات ، يشكو اليه عدوان البرتغاليين على بلاده واستيد لائهم على مدينة ديو . وفي سنة ١٥٤٧ ، ارسل الامير علاء الدين ، احد أمراء الهند ، يستنجد بالسلطان. وفي سنة ١٥٦٣ ، وقد على السلطان وقد ملك أ "سي يطلب منه تزويده بالمدافسيع ليرد عنه عادية البرتغاليين ، وهكذا توالى وصول الوفود والبعثات من الهند ومن جزر السئند ، حاملين

معهم الهدايا السنية كالببغان والتوابسل والطيوب والبلسم والعبيد والخصيان ، يستنجدون بالسلطان ويستنفرون غيرتة شعوراً منه ومنهم بالتضامن الاسلامي ؛ ودفاعــاً عن حوزة الدن ومحافظة على هيبة السلطنة ، وحماية للحجاج المسلمين القادمين من الهنسد للحج الى بيت الله الحرام الذين كثيراً ما تعرضوا لاعمال القرصان البرتغالسن فسُصادرون منهم المواد الثمينـــة التي كان يحملهـ الهولاء الحجاج ومعهم التوابل والخزفيات الصينية وغير ذلك ، ورغبة باستخلاص ذهب افريقيا من الذهاب الى ايدي البرتغاليين ، وتأميناً للخشب اللازم لبناء السفن ، هــــذا الخشب الذي كانت افريقيا وحدها تستطيع تقديمه للاتراك ، بعدان انزلوا اسطولهم الى البحر الاحمر والخليج الفارسي ، كل هذه الاسباب مجتمعة ، حملت الاتراك على التدخل.. ففي سنة ١٥٣٨ احتل الاتراك عدن ؛ وبذلك سيطروا تماماً على البحر الاحمر الذي اصبح بالفعل بحيرة تركية . وقد قام الاتراك ؛ يهجهات متتالية ضد مدينة ديو ؛ مفتاح الهندالشهاليـــة الغربية ؛ وذلك عام ١٥٣٨ ٬ و ١٥٤٦ ٬ و ١٥٥٢ ، تمكن البرتغاليون من إحباطها وتفشيلها بنجاح ٬ كذلك اضطر البرتغاليون ان يبذلوا جهوداً مريرة " حفاظـاً منهم على الحبشة المسيحية ، وحاول الاتراك ، مرتين : عام ١٥٥١ و١٥٥٣ ، ان يسيطروا على الخليج الفارسي ، باحتلالهم حلت الازمة النقدية ، وضم البرتفال الى اسبانيا على يد الملك فيليب الثاني ، الاتراك المثمانيين على تحويل جهودهم الحربية الى البحر المتوسط حيث عهدوا الى اسطولهم بمراقبة حركات الدول المسيحية فيه ، وانصرفوا الى محاربة البرتغاليين في المحيط الهندي لكي يؤمنــوا لهم ما يلزمهم من الذهب ، فاستطاع الاسطول التركى ، عام ١٥٨٥ - ١٥٨٦ ، أن يفرض فجمأة سيطرته علىالثنور والحاميات القائمة على ساحل البحر الاحمر ، كما احتل الاسطول التركي مدينةصوفالا التي كان ينتهي اليها الذهب المستخرج من مناجم مونوموتابا . وقام امــــير مونباسا يعلن ولاءه للسلط_ان و تابعيته له . لم يطل أمد هذا الفشل اذ استطاع الاسطول البرتغالي بقيادة توما ده صورًا إن يحطم الاسطول التركي في نهر مونبـاسا ثم تحولت المنافسة بين الجانبين إلى المحيط قاصم مجالًا لمنافسة حادة بين الطرفين . وهكذا بواسطة هذه الحروب العارضية تحول الخطر التركى عن اوروبا المسيحية .

بعد موت السلطان سليان القانوني بقليل أخذت تبدوعلى الار الداعراض بين تأخر الاتراك والنظام التأخر والقهقرى وهي اعراض از دادت حدة منذا واخرالقرن السادس العائلي في الاسرة المالكية عشر ومطلع القرن السابع عشر ولملنا نستطيع ان نود سبب هذا التاخر الى التنظيم الذي كانت عليه الاسرة المسلمة من وجهة تعدد الزوجات . فقد غام حق الوراثة بين اولاد الاب الواحد من عدة نساء مختلفات . ومن هنا طلمت علينا دسانس زوجات السلطان بغية تأمين الحكم لابنائهن ولابقاء هذا الابن الذي اصبح سلطانا تحت نفوذ

امه باخضاعه لتربية رخوه • هشة ، متخنثة باشباع جميع شهوات ، حتى اذا ما صار اليه امر السلطنة لن يلبث ان يصبح ألموبة بيدنسائه والخصيان والوزراء واخوته الذين لا يقلون عنه حقا في الخلافة فيسلموا بسهولة بمثل هذا التدبير الجائر الذي حرمهم حقهم المكتسب . فكثيراً ما معلوا السلاح وقاموا بثورات وحروب اهلية في سبيل تحقيق مطامعهم ، كهذه الحروب التي نهض بها وخرج منها منتصراً السلطان سلم الثاني، بعد موت ابيه سلمان القانوني الكبير . وكثيراً ما لجأ السلطان الى القتل للتخلص من اخوته وبذلك يتفادى مطالبتهم مجقوقهم في الحكم . فالسلطان مراد الثالث الذي اشتهر بتقواه امر بخنق اخوته الخسة ، كا ان السلطان محد الثالث امر بقتل ١٩ من اخوته .

فالسلطان سليم الثاني « السكير ، (١٥٦٦ – ١٥٧٤) قد اعتلى العرش عدم كفاءة السلاطين بعد ان اقصى عنه اخوته ، مع انهم كانوا اكثر اهلية منه واكثر لباقة ، وذلك بفضل دسائس زوجته الروسية الاصل روكسلان ، وكان يقضي ايامه قابعاً في خبايا سراياه ، بين الحريم ، تاركا امر تدبير شؤون السلطنة للموظفين الذين وكل اليهم ابوه امر الادارة . وقد تولى الحكم بعده ، عدة سلاطين احداث بينهم السلطان احمد الاول (١٦٠٤ – ١٦١٧) ولهما من العمر ١٤ سنة ، ومراد الرابع (١٦٠٣ – ١٦٤٠) وعمره ١ سنة ، وعمره الرابع (١٦٢٠ – ١٦٤٠) أوصياء لعبت النساء في عهدهم دوراً رئيسياً .

وقد استسلم السلاطين الاتراك للنساء بعد ان افسدتهم التربية المترفة ، المهفهة التي خضعوا لها منذ نمومة اظافرهم ، تقتضت ايامهم بين الكأس والطاس والقصف ؟ لا يلوون على شيء من امر السلطنة ، ولا يبالون بشيء البتة ، فاصبحوا عاجزين عن اتخاد اي قرار او النهوض باية مهمة او القطع باي امر . فالسلطان مراد الثالث ، مثلا راحت امه تشجعه على العبث والتسري نكاية بزوجته ، فانجب مائة ولد وانتهى امره مصاباً بداء الخسباط . وقد جسن ابراهم الاول بعشق النساء ، فتهمه الفسق وتعتمه السكر ، فلم ير رجال البلاط بداً من التخلص منه خنقاً .

كان هؤلاء السلاطين عاجزين ، فقيموا في زوأيا قصورهم بعيسدين عن رعاياهم وتركوا شؤون الدولة وامورها جانبا ، وانقطعوا عن ترؤس مجلس الوزراء ، وابعسدوا عنهم المتظلمين ولم يجلسوا للقضاء . فلم نختضيعوا الوزراء والحكام لاية مراقبة وقعدوا عن الحرب . ثلاثة مسن بينهم لا غير قادوا جيوشهم ، اثنان منهم لمسدة وجيزة ، هما محمود الثالث في حملته على كارازتس ، وعثمان الثاني في حملته على خوتين ، واخيراً مراد الرابع الذي كان بالفعل ، رجل حرب وجهاد . وفقد السلاطسين النفوذ والهيبة التي كانت تحف بالسلطان من قبل كفائد مظفر ، ولم تعد فرقة الانكشارية ، لترعى لهم حرمة . ولما ساءهم ما كان عليمه السلطان سليم الثاني من ماض قدر لا يشر ف صاحبه ، استصدروا ، عام ١٩٢١ ، من شيخ الاسلام ، فتوى

بخلعه: أمن الجائر شرعاً قتل الذين يحملون السلطان على التزام الناس الأخذ بالتجدد ويعملون في الوقت ذاته على تبديد مال المسلمين ؟ ، ولما جاءت الفتوى بالايجاب راح الجند يقتلون السلطان ويعينون مكانه ، شخصاً بسيطاً مسكيناً هو السلطان مصطفى العاثر الحظ ، وهكذا نرى لاول مرة ، رعايا السلطان يقومون بقتله وماكان جند الانكشارية ليثوروا من قبل الا تلبية لمطلب احد الطامعين بالخلافة من افراد الاسرة الملكية . فان دل هذا القتل والظروف التي تم فيها على شيء ما ، فعلى ما وصل اليه الجنود والعلماء من اهمال واعراض وحدم مبالاة لدم عثمان الاول .

تنظيم الاسرة في الدولة: الفوضى ما لم يجسره سوء سلوك ملك ، في الغرب ، من الحساذير والعواقب على مملكته . فالسلطنة العثمانية لم تؤلف دولة ، بلعنسى الحصري . فلم تقم فيها فظم ولا منظات رسمية ، ولا مؤسسات اجتماعية ، لها حياتها الخاصة ، ولا قامت فيها جمعيات استوت على نظام . فالدولة كانت عبارة عن اسرة ، او بالاحرى ، احد اعضاء اسرة السلطان عثمان مختمان مختمان في الشرق الاسلامي لا السلطان عثمان مختمان مختمان مستمر ، كا هو معروف عن وضع الاسرة ، في الغرب . فهي لا تحمل اسما تعرف به وتتميز بحمله . فالافراد محملون اسمهم الشخصي متبوعاً باسم الوالد أو الاب ، فالمؤقت صفتها الملازمة . فهي تقوم مقام الاب اذا وجد . اما اذا مات وقوارى ، تشتت الاسرة بسدداً وتبعثر افرادها . فاذا ما مات السلطان زال معه كل شيء . فاذا ما انكشف ضعف السلطان ، اخذ كل شيء بالتفتت والانحلال . وهكذا اخذت السلطنة العثمانية بالتفسخ تدريجياً .

كثيراً ما تولى الصدارة العظمى اشخاص لا قيمة كبيرة لحم ، اذ جرى تعيينهم بتوجيه من الخصيان او من نساء السلطان ، وراحو فريسة الدسائس ، وبقي واقع الحكم والادارة بيسك الخصيان والعبيد والزنوج ، وراحت اموال الدولة نهباً بسين من عرفوا من اين تؤكل الكتف فيمعنون عبثاً وعيثاً . فتثاقلت الضرائب على الاهلين وأن الناس وقلملوا . وقد كتب احد المؤرخين قائلا : « فبدلا من ، و او ، ه « اسبر » توجب على كل منزل دفعها ، اصبح المنزل يدفع اليوم ، ٣٠٠ اسبر ، وبدلا من نصف درهم يجب دفعه عن كل رأس غنم ، صار المرء يدفع بيدفع اليوم ، ٣٠٠ اسبر ، وبدلا من نصف درهم يجب دفعه عن كل رأس غنم ، صار المرء يدفع ألقد ، وبيع الملاك الضرائب لتفسي بالغرض ، بما اضطر اولو الامر معه الى تخفيض قيمة النقد ، وبيع الملاك الدولة وكل ما كان يرتبط بالإدارة العامة . واخذت الحكومة تبيست المناصب لمن يدفع احسن الاسعار ، وبيعت مراتب الانكشارية ، وبطلت عادة انتقائهم من المسيحيين . كذلك ابطلوا الاخذ بضريبة الاعناق وكثيراً ما رأينا اصحاب المن والصنائع ، واصحاب الماككين يشترون وظائف الانكشارية . وارتفع عدد افراد فرقة الانكشارية من واصحاب المن والعنائع ، واصحاب الدكاكين يشترون وظائف الانكشارية . وارتفع عدد افراد فرقة الانكشارية من

١٢٠٠٠ الى ٩٢٠٠٠ . وقد جرت الحرب على معظم هؤلاء المدنيين المرتــدين بزة الانكشارية ، الشؤم . اذكان معظمهم يخلي الممركة ويهرب فارأ من امام العدو . وهكذا اصبحت هذه الفرقة لمما يتخبط افرادها بالفوضى والدسائس » .

كذلك بيعت بيع السلع بالمزاد ، الشهادات العلمية والمراتب الحكومية ، ولكي يوفروا ظروف الانتفاع والمكانات استفلالها ، كان القضاة والعلماء والأئمة والاساتذة يعينون في وظائفهم لمدة معينة ، ثم يعزلون منها ، ليفتحوا المجال لصفقات جديدة . وهكذا ضعفت بين الناس الرغبة في العلم ، كما ضعف الضمير المسلكي بين الناس .

ومنذ عام ١٥٨٢ ، أخذت التيارات ومراتب الزعاء تباع علناً لمن يقدم أحسن الاسعار ، أو توزع بدلاً من النقد على الخصيان والاقزام ، والمعتوهين ، وعلى النساء . وراح الحكام والوزراء يبتاعون منها ما تيسر ، وان تعذر عليهم ذلك ، عدوا الى الاختلاس والمصادرة . وهكذا ألفوا عقارات سيادية واسعة 'عرفت باسم جفتلك ، ولكي يجعلوها عامن من كل مصادرة من قبل الحكومة ، أعلنوها أوقافا ذرية يستثمرون ايرادها ، كا كان وكلاء الاديار يستثمرون ، في الأجيال الوسطى ما لهم من عقارات واسعة . وهكذا طلعت في البلاد أنواع جديدة من الاقطاع 'عرفت بعدم انتظامها ، كا ان عدد أفراد الجيش هبط كثيراً . فقد كانت مقاطعة الروملي ، تعطي من قبل ، من ٧٠ — ٨٠ ألف خيال ، والبانيا ٣٠ الف خيال ، وديار بكر وكردستان ٢٠ الف ، وارضروم ٢٠ الف . أما اليوم (١٩٨٢) فقد هبط هذا العدد جداً ولم يعد يتعدى ٧ — ٨ آلاف فارس لكل من هذه المقاطعات ، بينهم عدد كبير من الارقاء والعدد والمرتزقة .

وهكذا تفشت الفوضى في السلطنة ، وأصبحت القسطنطينية مسرحاً لتنافس افراد الإنكشارية والصباحيين والعنزب. وأعضاء نقابات المهن الحرة والعلماء عندما يكون السلطان تحت الوصاية . وكثيراً ما قام الجند باعمال النهب والسلب والقتل والحريق ، ثم يأخذ بالتحزب مع هذه أو تلك من أمهات السلاطين ، وزوجاتهم ، وأصبحت العاصمة سوقاً نشطت فيسه الدسائس وحيكت الاحابيل وفسدت الضائر بعد ان باعت نفسها بالمزاد لمن يدفع احسن الاسعار .

وكثيراً ما قام الحكام ، على المكشوف بثورة ضد السلطان ، او ضربوا عرض الحائسط بالاوامر الصادرة اليهم . فقد كانوا يشرفون على املاك طائلة ويتولون ادارة ولايات واسعت فيفرضون على الاهلين ضرائب ورسوماً لم ينزل الله بها من سلطان. وقامو باعمال لصوصية في نفس الادارة . وانتشرت اعمال اللصوصية بعد ان الغي الاتراك عادة إنتقاء افراد فرقسة الانكشارية من بين اقوى الفتيان المسيحيين من الاسرى واشدهم بأساً ، واضطرت السلطة لان تتخلى للمدن والقرى الجبلية عن امر الدفاع عن نفسها بتشكيل قوة محلية تكون قيادتها لا حدد المسيحيين ،

كا شهدوا في بعض الجزر اليونانية وشبه جزيرة الموريه قيام بلديات ومجالس ادارية لتدبير شؤون الجاعة .

كان يتبوأ عرش السلطنة من وقت لآخر ، سلطان شديد الشكيمة ، مهيب الجيانب مثل السلطان مراد الرابع (١٦٢٠ – ١٦٤٠) وصدر أعظم يتصف بالمقدرة والنزاهية امثال الكوبرلي من أصل أرناؤوطي (كوبريلي الاول ١٥٦٦ – ١٥٦٨) ، واحمد كوبريلي الثياني حسن (١٦٦١ – ١٦٩١) وكوبريلي الثالث مصطفى زاف (١٦٨٩ – ١٦٩١) وكوبريلي حسن امود جه زاده (١٦٩٧ – ١٦٧٠) ، فكان يدحرج رؤوس الوزراء والدفتردار وحكام الولايات والقضاة وافراد الانكشارية الذين يخرجون عن جادة الصراط القويم ، ويرغم على الطاعة وتقديم الولاء الولايات الثائرة ، ويشطب من سجلات المالية اسماء الاسكشارية والصباحين ، ويميد النظر في جدول امحاب الاقطاع ويصححها ويتشدد ضد استثار القضاة لوظائفهم ، وتلاعب الحاسبين ، ويحدد قيمة واردات الدولة ومرتبات الجند ويؤمن انتصارات الجيش او يحدد نتائج الانكسارات التي يمنى بها :

وهده الاسباب أخدة الاتراك بالتباطؤ ليتوقفوا عن السير قاماً. فقد قضوا عنهر المعانيين عشرين سنة ، في فتح جزيرة كندي او كريت (١٦٦٩) ولا يزالون مفزعة أوروبا ، ولكن قام بينهم وبين اوروبا المسيعية شيء من توازن القوى ، ولو بصعوبة ، في القرن السابع عشر . وهذا الركود يصاب به الاتراك تقنياً ، ادى الى تأخرهم فلم يعد تحت تصرفهم ما كان تم لهم من صناع مهرة وهذه المدفعية الشديدة الفعالية ، وهذا العدد العديسد من الاسرى وأسلاب الحرب التي كانت تحبب اليهم الحرب وتحقيق الظفر . باستطاطتهم ، وايم الحق ، ان يحصاوا ، على اوروبا من تقنيسين ، الا انهم بقوا عاجزين عن تمثيل ما يقتبسون من جديد الفنون والاختراعات واستثاره على الوجه الأفضل ووضعه موضع التنفيذ . وبقيت الحضارتان الاسلامية والمسيحية قاتمتين وجها لوجه دون ان يهازجا او ان تنصب الواحدة في الاخرى .

ولم يلبث ان ظهر تأخر الأتراك للميان ، بعد حصارهم لمدينة فيينا، عام ١٦٨٣ ، اذ استطاع الامبراطور ان يلحق بهم هزائم نكراء وان يرغمنهم على عقد معاهدة كارلوتز، عام ١٦٩٩ ، وان يتنازلوا له ، بموجب هذه المعاهدة ، عن هنغاريا وسلافونيا وترنسلفانيا . وبعد صد الاسلام واجباره على التقهقر في النرب ، ممثلاً بطردالعرب من اسبانيا ، بدت عليه عوارض قوية على تقيقره في الشرق .

يبدو ان المغرب اصبح في القرنين السادس عشر والسابع عشر مسرحا المغرب والمد العبل لتدفق البدو واستشاطتهم دفاعاً عن الاسلام . فالانتصارات التي حققها المسيحيون اثارت ردة عنيفة في اسلام المغرب . فقد شمرت القبائل بتناقص الحركة التجارية بمد

ان عرف البرتغاليون وخلفاؤهم في هذا الجال ، من الهولندييز والانكليز والفرنسيين ان يحولوا ، شطر سواحل افريقيا الشرقية ، حركة انتقال الذهب والاتجار بالرق الى هذه المنطقية . كذلك أخذ البدو يشعرون بوطأة الغزوات التي أخذوا يتعرضون لها من قبل الحاميات الاوروبية الق ركزت أقدامها ورسخت سطرتها على سواحل المغرب الشهالية ووسعت من نشاطها الزراعي ولاسيما زراعة الحنطة بقصد تصديرها الى اوروبا . والشركل الشر في نظرهم كان مبعثه ومصدره هؤلاء الروم الذين يحملون لهم في القلوب كرها شديداً ولذا انفجرت قلوب هذه القبائل البدوية بالحقد على هؤلاء الطارئين . وقد تجلى الحقد الديني على الاخص في هذه المراكز الدينية القائمـة في قلب الواحات الواقعة الى الجنوب بمنأى عن مساعدة الألوف من العرب المسلمين الذين تم إجلاؤهم عن اسبانيا ؛ فراحوا يفرغون جام غضبهم على سكان المدن الساحليـــة ، وعلى السلاطين وعلى القراصنة الذين ينعمون بما ينعمون به من رغد وبجبوحة بينا ترسب القبائل البدوية في فقر مدقع ٬ فراحوا يوجهون لهم التهم بالتعامل مع الكفار ، اذ يرضون منهم بافتكاك اسراهم لقاء بعض الدريهات ؛ او بالاتجار معهم وباستخدامهم والاستفادة من معلوماتهم الثقنية والفنيــــة . ففي الجزائر وفي تونس ، اخفق البدو اخفاقاً ذريماً بعد أن تصدت لهم المدفعية التركيــة وحصدتهم حصداً . اعتدنا أن نرى في الغرب سلالات ملوكية تطلع من الجنوب وتستولي على الحكم ، وتأخذ بأسباب العبار والتحضر ، ثم ترى نفسها ، في نهاية المطاف ، تتعامل مع المسيحيين ، الى ان يعتربها الانحلال والفساد عن طريق الانحراف الى لذائذها ؛ لتفسح المجال ، من جديد ، لسلالة جديدة تسير على النهج ذاته .

> الممتلكات التركية في الجزائس وتونس

في أواخر القرن الخامس عشر ، يقع المفرب للاسباب ذاتها التي ادت الى انحلال السلطنة المثانية ، في حالة مؤسفة من التضعضع والتفسخ . فالدولة الحفصة اقتصرت سلطتها على تونس وضواحها ، كا ان مملكة

ابي الوديد سيطرت على تلمسن وحدها . وقد انساحت الجزائر وتونس الى عدد من الامارات المستقلة والى إحلاف قبلية ومدن حرة . وألفت هذه المدن الحرة جمهوريات جرى تنظيمها على أساس من التنافس أهها تونس وينزرت وبوجي ، والجزائر ووهران ، وكان القرصان يقومون باعمال الجهاد المقدس ويهاجمون المسيحيين ويغزون السواحل ، وينقضون على السفن ويقومون باعمال الجهاد المقدس ويهاجمون المسيحيين ويغزون السواحل ، وينقضون على السفن ويقومون بحلب الميرة والذخيرة لعرب اسبانيا . وقد أوجس الاسبان في احتمال قيام حلف يضم السودان وأمراء المغرب فيبادر اعضاؤه الى مساعدة العرب في اسبانيا ، بعد ان قامت غرناطة بثورة عام ١٥٠١ .

ولكي يقضي الاسبان على كل خطر يتهدد طرق مواصلاتهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط وكل محاولة انزال جيوش عربية جديدة في امبانيا ، وتأميناً لهم بعض القواعد الاماسية

على سواحل افريقيا يتخذها القرصان المسيحيون تكأة لهم وملجاً خلال اسفارهم التجارية ، قاموا مجملة صليبية ، فاحتلوا تباعاً المرسى الكبير عام ١٥٠٥ ، ووهران (عام ١٥٠٩) ، وبوجي وطرابلس الغرب (١٥٠٠) ، والبنون ر الجزائر) واضطروا امراه هذه المدن على دفع جزية لهم . الا ان امور اسبانيا وقضاياها جملتهم يقصرون احتىلالهم على هذه المدن دون التوغل في داخل البلاد ، الامر الذي اثار كثيراً من المصاعب في وجوههم ، كما سبب لهم مشاكل عدة مع سكان البلاد ، اذ ان عدم انتظام وصول الامدادات بالدقة اللازمة ، حمل هذه الحاميات على القيام ببعض اعمال الغزو في الداخل .

واخذ المسلمون يلتمسون مساعدة بعض القرصان الذين اتخذوا من بلدة جيلجلي قاعدة لهم بقيادة اربعة اخوة هم الاخود باربروسة . وفي سنسة ١٥١٦ أصبح اوروج باربروسه سيد الجزائر وباشر عمله باخضاع داخل البلاد لسلطته ، وبعد وقاته ، عام ١٥١٨ ، قام بالأمر اخوه خير الدين الذي أسس نيابة السلطان في الجزائر . ولكي يتخلص من الاسبان والمسلمين المغلوبين على امرهم الذين كانوا يرغبون في افتكاكهم قد"م ولاءه للسلطان سليم الذي جاد عليه بلقب باشا بيركلي وبقوة مسلحة قوامها ٥-٣ جندي ومعهم مدفعية يردفهم اربعة آلاف من الانكشارية .

واستطاع عام ١٥٢٢ ، ان يتغلب على حلف تألف من سكان الجزائر وبعض القبائل ، ثم استولى على مدينه الجزائر ، مرف ثم استولى على مدينه الجزائر ، مرف يلجأ اليه القرصان المسلمون فيجعلون سفنهم بأمن من كل خطر ، بعد ان كانوا يسحبونها من قبل على الرمل . من هذا المرفأ الذي اصبح القاعدة للقرصان المسلمين ، استطاعوا ان يتحكوا بالمواصلات الحربية بين جبل طارق وحوض البحر المتوسط الشرقي ، وهددوا خطوط المواصلات مم ايطاليا وصقلية .

كان على رأس دولة الجزائر حاكم يلقب بياربك او امير الامراء " يمينه السلطان " يكون رئيساً لباشوات تونس وطرابلس الغرب . ومنذ منة ١٥٨٧ " استبدل اللقب بلقب باشا وامتدت سلطته الى المدن الثلاث: الجزائر وتونس وطرابلس الغرب التي تألفت منها نيابة ملكية . ومع ان البياربك لم يكن ملزماً للعمل بموجب نصائح مستشاريه " فقد كان يترتب عليه " كا يترتب عليه الباشا بعده " ان يراعي الى اقصى حد " وجهة نظر قيادة فرقة الانكشارية ورئيس فرقة القراصنة الذين كانوا ينتدبون بعض اعضائهم للعمل في ديوان الباشا . وقد قام مندويو فرقة الانكشارية " وفرقة القراصنة " بعد عام ١٥٨٧ " بهام الحكم " فعلا . وعندما دب الفساد الى جسم الدولة العثمانية " دب الانقسام بين هؤلاء الحكام " وقامت المنافسة بينهم الى ان تمت الغلبة للانكشارية " سنة ١٦٥٩ . وفي سنة ١٦٧١ " عهد القراصنة بهذه الحاكمية الى واحد من رؤسائهم بلقب داي . وفي سنة ١٩٧١ " رفض الداي الشاني " علي شاووش ان يقوم باستقبال باشا و اقنع السلطان في القسطنطينية ان ينعم عليه بهذا المركز . ومنذ ذلك يقوم باستقبال باشا و اقنع السلطان في القسطنطينية ان ينعم عليه بهذا المركز . ومنذ ذلك

الحين اصبحت الجزائر ولاية من ضن الولايات التابمة للسلطنة المثمانية . وفي سنة ١٥٩٠ ، قام ضباط الجيش ، يختارون حاكماً لتونس يحمل لقب باي تا يحل محل الباشا . وبعد سلسلة مسن المنافسة الطويلة بين الداي والباي ، وقادة الفرق التي كان يناط بها جباية اموال المديرة والضرائب المرسومة وقيادة القبائل ، نودي بالآغا حسين بن علي قائد فرقة السباهيين . بك ، فألغي لقب داي (١٧٠٥) واسس دولة وراثية بقيت في دست الحكم حتى القرن العشرين . وكان عدد كبير من افراد فرقة الانكشارية والقراصنة والسباهيين المارقيين عن دينهم المسيحي ، ينتمون في اصلهم الى سكان هذه الولايات الواقعة حول حوض البحر المتوسط ، او كانوا يرسفون ، من قبل ، في الأسر . واسوة بالسلطنة العثمانية نفسها ، وقعت هذه الولايات البعيدة عن المغرب فريسة عصابات من العسكريين ، كانوا من قبل ، اسرى او من الجاحسدين المدينهم ، وراحوا يستفلون سكان البلاد ابشع استغلال . وقعد فتح الاتراك الجزائر بالفعل ، وضعوا حاميات قوية في المراكز الستراتيجية الحساسة ، والسوا ، منذ عام ١٥٦٣ ، قبائل المخزن تولت مع بعض الفرق العسكرية ، جباية الضرائب والرسوم . وقدأ بعد عن الوظائف العامة وعن الجدمة العسكرية ، عرب الاندلس من سكان المدن ، واحتفظ بها للاتراك الصميمسين او للمسلكيين من الجند . وكثيراً ما استعانوا بالقبائل المغلوبة على امرها او باصحاب الرابكط والارفاض المغالين في عصبيتهم الدينية .

والحذت مدينة الجزائر تتطور . فقد بلع عدد سكانها ، في منتصف القررب السادس عشر نحواً من ٢٠٠٠ ومعظمهم من المارقين عن دينهم ، بينهم اكثر من ٢٠٠٠و٢٥ اسير مسيحـــي وزاد عدد سكان هذه المدينة ، عام ١٦٥٠ ، على ١٠٠٠٠٠٠ ، تراوح عدد الاسرى بينهم من ٣٠٠٠٠٠ - ٣٠٠٠٠٠ اسير . فقد كان القرن السابع عشر العصر الذهبي الذي بلغته القرصنة ، بعد ان ادخل القراصنة تحسينات عامة على سغنهم ؛ اذ رفعوا حافتها عالياً . ويقدر عــــدد الاسرى الذين وقعوا بــــين ايديهم ٬ عام ١٦١٥ – ١٦١٦ ٬ بين مليونين وثلاثة ملايين أسير ٬ بحيث ألتف الاسرى اربح تجارة على الاطلاق ٬ وازداد الطلب على الفتيان من الشبان والشابات « أذ كان مصيرهم معروفاً من قبل » · كما كانوا يهتمون بالاختصاصيين بين الاسرى ببناء السفن والذين يحسنون الاعمال المرفشة ، والطوبجية . فلمس بعجب قط ان تكثر اعمال الارتدادات بين هؤلاء الاسرى من المسيحيين ، ويجعدون دينهم بالرغم من عمل المرسلين وعمـل بمض الرهبان كالرهبان الثالوثيين واللمازريين ورهبان سبدة الرحمة ؛ مم ان الحربة الدينـــة كانت متروكة ، في اكثر الاحسان لهؤلاء الاسرى ، كما تركت الحرية لهؤلاء الكهنة ليقسدموا لهم الخسدمات الدينية ، مع العلم أن اعتناق الاسرى للاسلام لم تكن ، في نظر القراصنة ، عملية ناجِحة ، لانها كانت تفوَّت عليهم عملية الافادة من الفدية . وكنا نرى بــــين هذه المدن تجاراً اوروبيين يقيمون فيها بعد ان ينالوا ، لقاء دفع رسم عال ، ترخيصاً خاصاً من نائب السلطنــة للعمل فيها ، كما كانوا يدفعون بالاضافة الى ذلك ، رسماً على الخروج . وقد بر"ز في هذه الحركة اليهود وسكان مدينة مرسيليا . الا انهم واجهوا ، بعد عام ١٩٨٥ ، منافسة قوية من قبل بروتستانت اللامغدوق اللاجئين . وكان الاوروسيون يتماطون تصدير الجاود والشمع والصوف والتمر وريش النمام والمرجان والحبوب ، وغير ذلك من الاصناف ، كا كانوا يصدرون ، من مدينة تونس ، الاسفنج ، وكانوا يستوردرن الاسلحة على انواعها والخور ، والاقمة . وكثيراً ما عمد الحكام ، في حال هبوط معدل الاسرى ، الى فرض ضرائب جديدة ، وفي هذا ما فيه من ازعاجات ومضايقات . وإذا لم يكن سكان الجزائر يتعاملون الا مع الدول ، بينا كانوا يعاملون الآخرين بدون رحمة . وقد أحدث الصلح المقود مع الهولندبين ، عام ١٦٦٣ ، ردة فعل قوية لدى القراصنة ، فزادوا من نشاطهم ضد الفرنسيين ، ثم تم الصلح مع الفرنسيين عام ١٦٧٠ في عهد لويس الرابع عشر ، واستثنفت الحركة بعنف ضد الانكليز والهولىديسين . ولذا كانت هذه الدول ترسل ، الفينة بعد الفينة ، اساطيلها الحربية ، قطر مدينة الجزائر ، وابسلا من المدافع ، يضطر معها الجزائريون للدخول بمفاوضات جديدة ، مع العلم ان الفرنسيين كانوا يتمتعون ، على الغالب ، بوضع افضل من سائر الدول الاخرى .

قام المغرب الأقصى في اطراف العالم الاسلامي الغربي التعزله عن باقي المغرب المستقل: العالم الاسلامي السلامي السلامي المترسط الى السودان هو ايضاً العلى اقدار المجرد المسالم الاسلامي في البحر الابيض المسالم الاسلامي في البحر الابيض

المتوسط . وقد تمرض المفرب على الاخص لهذه التدابير والاجراءات التي اتخذها المسيحيون في هذه البلاد والتقدم الذي حققوه فيها ·

فنذ ان عمل البربر ، بين القرنين الثالث والثامن، على تأهيل الجل في اقطار افريقيا الشهالية واقاموا ، عبر الصحراء ، علاقات تجارية لهم ، ربطت ما بسين المغرب والسودان ، اصبحت الذهب الافريقي ، في المغرب ، رخيصاً بيها سعر الفضة فيه كان مرتفعاً ، بحيث اصبحت النسبة بمصدل ٩ - ١ ، واصبح بالتالي التبادل به مسوراً بمدن الفضة الاوروبي الذي كان يستخرج بكثرة من مناجمه الفنيسة في القسم الجنوبي الشرقي من المانيا وبوهيميا وهنفاريا والتبرول ، حيث كان سعر الفضة رخيصاً وسعر الذهب مرتفعاً بنسبة ١١ - ١ واكثر . وكان الذهب يصل من حبال الغينيه ومن بامبوك وغنفران وفوتا جائون ومن مقاطعات سيراليون وآشنتي وموسي . ومن القرن الحادي عشر الى الثالث عشر ، تركزت حركة الاتجار بالذهب، في قلب الامبراطورية السهلية والسنفالية التي كانت عاصتها غانا ، وهي مدينة اسلامية كبيرة قام فيها ١٢ مسجداً وزخرت بعدد طيب من الاغة والفقهاء والادباء ، وكان يؤمها عسدد كبير من التجار العرب والبربر . انهارت امبراطورية غانا في مطلع القرن الثالث عشر ، وحلت علمها امبراطورية زنجية ،قوامها قبائل الماندنغ ازدهرت في القرن الخامس عشر . كانت عاصمتها عليها مبراطورية مالي او منديانسا مسلمين . ومن مالي كانت القوافل تخرج محلة مدينت عابي ، كان ملوك مالي او منديانسا مسلمين . ومن مالي كانت القوافل تخرج محلة بالذهب باتجاه تمبوكت وكوكبا والقاهرة ، او باتجاه تمبوكت واودان المغرب ، ووهران وتونس . وكان المغرب الاقصى الحد الابعد الذي تنتهي عنده الطرق الصحراوية . ومنسف

القرن الثالث عشر كان التجار من جنوى والبنــدقية يأتون الى لاراش وأرزلا وصافى مجثًا عن ذهب السودان . وقد دفعت اسباب كثيرة البرتغالبين للسيطرة على مرافىء المغرب الاقصى الواقعة على الساحل الغربي ، منها الرغبة في السيطرة على منافسة الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس او مزاحم لهم عليها . وفي سبيل السيطرة على ذهب السودان راحت عمارات من سفن الكرافيل البرتغالية يتراوح حجم الواحدة منها بين ٥٠ – ٦٠ برميلا تتغلغل داخل الانهر الساحلية ، في الغينيه يقايضون مع سكان البلاد ، الملح وسبائك النحاس الاصفر وطسوت الحلاقين والدسوت النحاسية والاقمشة الناعمة والحرابر مقابسال مسحوق الذهب . واكبر مراكز لحركة المقايضات التجارية هــذه ، قامت في اسواق كنتور على نهر الغمبي ، على بعد ٧٠٠ كلم من البحر ، فنشطت الحركة فيه من سنة ١٤٥٦ الى ١٥٨٦ ، وفي مدينة جورج ده لامنا ؟ منذ سنة ١٤٧١ الى أن أستولى عليها الهولنديون ؟ عام ١٦٣٧ وقده: ألف ذهب المنا احتكاراً خاصاً بملك البرتغالمين . وفي كل شهر ، كانت سفينة تفادر مدينـــة سان جورج هذه الى لشبونة . وبلغت كمية الذهب التي خرجت من مدينــة ، لامينا ، بين ١٥٠٠ – ١٥٢١ نحواً من ٤١٠٠ كيلوغرام في السنة الواحدة . وبلغت تجارة البرتغاليينبالذهب أوجها بين ١٥٢٩ - ١٥٤٩ . وحساول البرتغالمون ، في راس ده غمه ، حصر السكر الوارد من مقاطعة السوس ؛ منعاً لكـل مزاحم للسكر الذي كانت تنتجه الجزر الخـــالدات وجزر الاسور ٤٤ احتكروا القطين والنيالة الذي يستورد من بلاد السوس ومنعوا وصول الذهب الى مملكة مراكش التي اخذت تعاني شديداً من أزمة اقتصادية . وهكذا حـــالت الكرافيل درن الجل في نقل الذهب.

وقد ضعفت تجارة البرتفاليين بالذهب خلال الازمة التي اشتدت بين ١٥٤٥ – ١٥٥٦ لاسباب عديدة ، منها : اشتداد القرصنة وحركة التهريب التي قام بها الاوروبيون على سواحل افريقيا الغربية ، وفي خليج الفينيه ، ومعظمهم من الاسبان منذ سنة ١٥٤٧ ثم الانكليز منذ ١٥٥٥ م الانكليز منذ ١٥٥٥ ثم الفرنسيين والهولنديين الذين كان لهم عام ١٩٠٥ عشرون سفينة تعمل في خليج الفينسيه وحده . ومنذ سنة ١٥٥٠ ٤ كان استثار ذهب لالمنا عملة خاسرة .

من اهم الاسباب التي ادت الى تفشيل العملية ، ردة الفعل الاسلامية . فقسد انتقسل مركز الاتجار بالذهب شمالا نحو السهل ، بعد ان سقط اتحاد مالي نهائياً بعد حماية سنراي في غاو ، في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حلت تعبو كتو وجنئة محل مالي كمستودع وكسوق يسلتقي فيه التجار القادمون من المغرب الاقصى ، وممن يفسدون من بلاد الذهب . وقسد سيطرت المبراطورية أسكيا الاسلامية الواسعة الاطراف التي قامت في غاو ، على مناطق الذهب والملح ، كا منها مقاطعة هاووسا وعايير ، مع ملاحات توتيك ومناجم النحاس في تاكدا ، كا

وقعت تحت اشرافها الطرق التي تربط الصحراء الكبرى بالسودان. وهكذا ارتد ذهب السودان من شواطىء الاطلسي نحو بلدان البحر الابيض المتوسط. ان ظهور هذة الامبراطورية وازدهارها لم يكن غريباً عن استئناف سك العملة الذهبية ، في مصر بعد عام ١٥١٦، وبعد وصول الدولة السمدية ، الى الحكم في المفرب. وهكذا ثأر الجل لنفسه من الكرافيل التي زاحته من قبل.

شعر الناس عميقاً بالتأخر الذي لحق الاسلام في المغرب الذي كان ينبض بشعور ديني قوي المغاية . وقامت في طول البلاد وعرضها زوايا كانت ، في الوقت ذاته تكايا ومدارس وملاجىء ينصرف فيها المتصوفة وشيوخهم ، الشطحات الروحية ، كاكان فيها عدد من الاولياء المرابطين، تحدر بعضهم من الشرفاء اي من سلالة الرسول العربي ، يتمتعون بمحبة الناس وتقديرهم بما فيهم من بركة . وقد شعر هذا الفريق من الناس اكثر من غيره بهذا التأخر بمنسى بها الاسلام في المغرب وكان نفوذهم كبيراً على جهور المؤمنين ، كاكان شيوخ الزوايا يعطون كلمة السرالي الى اتباعهم .

وهذا الحقد يحيش في صدور المتصوفة ضد المسيحيين لم يلبث ان تحوّل ضد دولة الوّطاسين التي عجزت عن تهدئة خواطر الشعب التي عجزت عن تهدئة خواطر الشعب واعادة الثقة الى نفسه عن طريق فريق العلماء ورجـال الدين . وقام الشيوخ يساندون كل الحركات الانتفاضية والمحاولات الثورية التي قام بها الشعب ضد هذه الحكومة كما ان هذه الدعوة لقمت تأييد قبائل البربر في المقاطعات الجيلية .

لعب الجنوب الدور الرئيسي في هذه اليقظة الدينية اذ انطلقت القبائل منه تملن الحرب والجهاد المقدس ، بقيادة بني سعد في السوس ، الذين كانوا يسدعون انهم من سلالة النبي العربي ، وراحوا يحاربون البرتفاليين . واستطاعوا بواسطة الذهب الذي تلقوه من السودان ، منذ سنسة وراحوا ان يجهزوا انفسهم بما يحتاجون اليه من المدافع والبنادق والعتاد الحربي . فاعسلت منطقة سوس استقلالها ، منذ سنة ١٥٠٩ و تمكنت عام ١٥٣٧ ، من الاستيلاء على مدينة طفيلا التي كانت المركز الذي يمر منه الذهب القادم من تمبوكتو . ثم اخذ بنو سعسد يستولون على المراكز الحربية التي كانت بيد البرتفاليين ، على سيف المحيط الاطلسي ، الواحد بعمد الآخر . فاحتلوا رأس غيه ، عام ١٥٤١ ، وصافي وازمور ، عام ١٥٤١ ، والقصر الصفير وأرزلا ، فاحتلوا رأس غيه ، عام ١٥٤١ ، وصافي وازمور ، عام ١٥٤١ ، والقصر الصفير وأرزلا ، والحد من تعدياتهم . ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة لا تنتهي من انكسارات تصيب البرتفاليين واضحت دولة بحرية وخطرا داغا ومنافسا قويا . وهكذا اخذ ذهب السودان وسكر السوس يشحن رأسا من المنرب الى انكلترا وفرنسا . وفي سنة ١٥٥٣ ، انتهى امر الدولة الوطاسية بأدكة المجال الدولة السعدية .

بلغت هذه الدولة الأوج من العزة والسؤدد في عهد السلطان احمد المنصور عند ما تمكن من دحر البرتفاليين شر اندحار في معركة القصر الكبير الدامية ، عام ١٥٧٨ . واخذ في الحال ينظم البلاد تنظيماً بقي معمولا به حتى القرن العشرين . وتمكن من السيطرة على حلف تألف من القبائل الكبرى ، بواسطة جهاز جديد هو د الخزن ، الذي كان يضم بلاط السلطان والوزراء وكبار الموظفين ، والحكام الاداريين ، كما انضم الى هذا الحلف القبائل الحربية بعد ان أمسن ولاءها عن طريق اعفائها من الضرائب واقطاعها الاراضي الكثيرة وغير ذلك من الامتيازات والمنافع ، بينا كانت الضرائب تجبى من القبائل المتحالفة الضاربة في بلاد المخزن . اما هذا القسم من المغرب الذي لم يخضع لهم فقد عرف : « ببلاد السيبة » .

نمى المنصور علاقاته مع الاوروبيين . فاستقدم للعمل في البلاط الشريفي صناعاً اوروبيسين ومتعولين يهوداً وتجاراً مسيحيين وأدخل في جيشه عدداً كبيراً من الاسبان المارقين عن دينهم وقد ادخلت الدول الاوروبية في حسابها ما للدولة الشريفية من قوة وشأر واقامت معها تمثيلاً ديباوماسياً . ووضع السلطان ؟ بالاتفاق مع الانكليز ، مشروعاً لاحتلال اسبانيا .

ونقل السلطان عاصمة ملكه الى مدينة مراكش ، في الجنوب . مجيث يستطيع مراقب ﴿ بِسَلَادَ الذَّهُ ﴾ وتأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء تجمع بين اطرافها المترامية ، المسالك والمجازات والمعابر التي كانت تخترق الصحراء الكبرى والتي كانت تسلكها القوافل حاملة ذهب السودان ، كما كانت تهيمن على ملا"حــات الصحراء . وفي سنسة ١٥٧٠ ، غادرت فرقة عسكرية مراكش ، قوامها ٤٠٠٠ جندي معظمهم من الاسبان مرقوا عن دينهم ولفتهم الرسمية الاسبانية ، برآسة الباشا جودير الذي كان هو الآخر بمن تنكروا لدينهم المسيحي . وبعد ان اجتازت الفرقـــة ، الصحراء ، تمكنت بواسطة طابور حملة البنادق من ان تهزم جيش سنهراي ، في مدينة تونديتي ، بتاريخ اول اذار ١٥٩١ ، وفي ٢٥ نيسان ، تمكن الجيش المراكشي من الاستيلاء على تمبوكتو ، فوضع بذلك حداً للامبراطورية سنهراي . ومنذ سنة ١٦١٢ ، انقطع السلطان عن تعيين الباشوات حكام تمبوكتو . وقد ألفت فرقة الجيش من بين قادتها وضباطها نوعاً من الارستوقراطية العسكرية وراح الاسبان يتزوجون زنجيات . وورث الخلاسيون من آبائهم الاسبان حدة الذكاء وحب التسلط والروح الحربية التي عرف بها الاسبان · وعمدوا فيما بعد الى انتخاب الباشا حاكماً عليهم . وقامت منافسة شديدة بين هــذه الفرق التي رغبت كل واحدة منها في ان يكون الباشا منها ، فاندامت بينهم حرب اهلية حامية إ الوطيس ٬ كما ان المنافسات والمنازعات الداميـــة ٬ التي نشبت ٬ أدَّبت الى خراب التجــــارة السودانية والقضــــاء على فريق العلماء والادباء في البلاد ، والضرَّائب الفادحة التي فرضت على ا الاهلين ، والمجاعات الني فتكت بالناس وتأخر السودان امام ردة فعل زنجية ، كل ذلك جاء نذيراً بمواجهة إلاسلام أزمة تقهقر في أرجاء البحر المتوسط.

واضطر المنصور ان يواجه طيلة حكه الطويل مقاومة عنيفة من رجال الزوايا الذين كانوا ينتقدونه على اقامة علاقات له مع الاوروبيين . وعرفت البلاد ، بعد وفاته ، عام ١٦٠٣ ، منافسات عائلية عنيفة نجم عنها أزمة بلغ من حدتها وشدتها ما حل العفراني على وصفها بانها و تشيب الرضيع لهولها » . وقد عاد الامر بالقائده للزوايا ولقبائل البربر . وبعد سنة ١٦٢٧ ، اصبح زمام الأمر في البلاد بيد شيوخ الزوايا ورجال الربئط . وقامت في مدينة صالع ، عام ١٦٢٠ ، جمهورية تألفت من قراصنة عرب الاسبان وقراصنة الانكليز ، ولم تلبث هذه الجهورية ان أعلنت استقلالها التام عن السلطان ، عام ١٦٢٧ . وقامت بالجهاد ضد المسيحيين ، وسيطرت على مضيق جبل طارق وتحكمت بطرق المواصلات مع اميركا الجنوبية والهند الشرقية ، وعجلت في انهيار الامبراطورية البرتغالية كما أثارت المصاعب في وجه الاسبان . الا أن اضطرارها للافراج عن الاسرى ، وحاجتها الماسة للاسلحة ارغمتها على ابرام معاهدات مسم الدول الكبرى المسيحية . وانتهت حرب الجهاد هذه باعمال قرصنة عادية . وهكذا اصبحت مدينة صالح لمدة قرن تقريباً ، اهم مركز للنشاط التجارى في المغرب .

زالت الدولة الشريفية السموية من الوجود عام ١٦٥٤ بعد ان مات قتلاً غاتية من سلاطينها من اصل ١١ ، وراحت القبائل الرحل وقبائسل القوافل ورجال الزوايا في الجنوب الذين أصبحوا أكثر تطلباً ، يتنازعون السلطه ويتقاسمون اطراف البلاد . واستطاع شرفاه الطفيلا ان يتغلبوا على شرفاه السوس ، وهكذا اطلت على البلاد دولة جديدة هي الدولة العلوية . وفي سنة ١٦٧٧، تولى زمام الحنكم في البلاد السلطان مولاي اسماعيل الذي عرف بنشاطه وغلبان الدم في عروقه ، فقطرت يداه دما من هذه الدماء الحيية ، لكثرة ما سكب من الدماء ، والذي انجب ٧٠٠ ولد . وجعل قوام سلطنته تنمية العلاقات مع السودان وتشجيع التجارة مع الصحراء بعد ان نفخ فيها روحاً جديداً . فن السودان ، ومن تمبوكتو ، ومن قبائل الصحراء جمع جيشاً لجباً نفخ فيها روحاً جديداً ، فن السودان ، ومن تمبوكتو ، ومن قبائل الصحراء جمع جيشاً لجباً تألف من ١٥٠٠٠ ، ففرض سيطرته على البلاد . وقسد عين في المراكز ألحساسة تسمين من الباشوات . ومن السودان وصلت الى طفيلا مساحيق الذهب والنيلة ، والعاج وريش النعسام والتمور التي كانت مواداً صالحة للمقايضات التجارية مع المنتوجات الاوروبية . ولما كان السلطان مطبوعاً على التقوى ، فقد امر بمتابعة الجهاد المقدس بكل هة ونشاط .

فانتزع من بين يدي الاسبان: المسامورا (١٦٦١) ، ولاراش (١٦٨٩) ، وارزلا (١٦٩١) ، ولم يبق بين ايدي الاوروبيين ، على المحيط الاطلسي سوى مركز مازغان احتفظ به البرتغاليون ، ومراكز مليلا وسبتا ، بيد الاسبان ، على ساحل البحر المتوسط . وقد ادرك السلطان بدوره ضرورة المحافظة على الحركة التجارية ، ولا سيا على حرية المقايضات والمبادلات مع المسيحيين، وقد نفر سكان مدينة صالح وفريق القراصنة فيها لاستيلائه على المراكز الاوروبية . وترك لليهود وللمسيحيين احتكار الاعسال التجارية في صالح وتطوان ، وصافي واغادير . وقمكنت فرنسا من احتلال اول مركز لها في المفرب ، عام ١٦٨١ ، وسولت له النفس عقسد

معاهدة تجارية مع فرنسا ضد اسبانيا. واقترح ان يتزوج من الاميرة كونتي ابنة الملك لويس الرابع عشر . الا ان الاتحاد الذي تم بين فرنسا واسبانيا ، ورفض السلطان اعتناق المسيحيسة ، ادى الى قشل المفاوضات ، وشجع اللاجئون من بروتستانت ، مقاطمة اللانفدوق على الاتجار مع الانكليز والهولنديين ، وفي اواخر عهد الملك لويس الرابسيع عشر ، تمكن الانكليز من احتلال المرتبة الاولى في التجارة مع الدولة الشريفية .

وهكذا تمكن المفرب الاقصى من المحافظة على الوضع العام الذي كان عليه الاسلام تجاه الحضارة المسيحية ، في هذه النقطة بالذات الواقعة الى الشهال الغربي من القارة الافريقية . واذ كانت هذه الناحية في شبه عزلة عن العالم عائشة على مشاعرها الدينية ، فقد كانت اكثر من الجزائر وقرئس ، بمناى عن السلطنة العثانية . ان عجز الاتراك العثانيين عن الوصول بالاسلام الى وحدة متهاسكة ضد اوروبا المسيحية ، ساعد كثيراً على انقاذ المسيحية وصيانتها .

امبراطورية الفرس

اذا ما كان لبلاد فارس منزلة مرموقة في الشرق الاسلامي ، فقد كانت للمذهب الديني الخاص الذي ارتضته وسارت عليه ، سبباً من الضعف الذي رسف فيه الاسلام . قوام هدف اللبلاد الشاسمة صعيد مرتفع تقاسمته السباسب والصحارى ، فقد شطرت العالم الاسلامي الى شطرين متميزين ، كما ان وقوع بلاد فارس بين بحر قزوين في الشمال والخليج الفارسي في الجنوب جعل منها معبراً تجتازه الطرقات التي ربطت بين اوروبا غرباً وبين الشرق الاقصى والهند شرقا . ان لمضيق كر و في هراة من الشهرة والاهية ، ما لمضيق الدردنيل بين اوروبا وآسيا ، وكانت تجتاز ايران بطولها طريق تمر على محاذات مدينة مشهد وطهران عبر تبريز وديار بكر وحلب ، ثم تنثني قليلا الى الشمال لتمر في ارضروم وكر ابزوند، فكانت بذلك من هذه الشرايين الحاسة التي سلكها الانسان عبر الاجيال والمدنيات ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن الخليج الفارسي .

ألف الغوس ، في قلب العالم الاسلامي ، كتلة ، تباينت من حيث مذهبها المنهب الشيعي الديني الحاص ، عن مجموعة الشعوب الاسلامية ، أذ كان أهلها على مذهب الاهامية بينا أخذ العالم الاسلامي بالسنة . فقد كان الشيعة من اتباع على بن ابي طالب ، ابن عمي النبي ، وصهره على ابتته فاطمة الزهراء ، يطالبون بحقه الاول في الخلافة ، بعد ان أقصي عنها ظلماً وعدواناً . فهم يقولون ان النبي اوصى بخلافته له ، ولذا اعتبروا علياً والانمسة الاثني عشر من ذريته الورثة الحقيقين للخلافة من بعده ، ولمتابعة رسالته بتوصية خاصة منه ، وفقا لتدبير الهي منذ آدم عبر الانبياء . وقد قام بعد علي اثنا عشر اماماً تولوا الامر بعده ، لم يمت

آخرهم انما اختفى عن الانظار ليمود للظهور من جديسد على رأس امتسبه ، فيملأ الارض عدلاً وسلاماً .

ليس من يجهل النتائج الخطيرة التي ترتبت على هذا التباين في العقيدة بين السنة والشيعة والذين حصروا كل شيء في عترة الرسول واهل بيت وابوا التسليم بان تذهب الخلافة الى فريق من صحابة النبي فيستأثروا بها من دون اصحاب الحق ، فيؤلفون في القرن الثامن خلافة هي الخلافة الاموية وجعلوا من دمشق عاصمة لها . فابوا التسليم ببدأ انتخاب الخليفة على اساس من الشورى اذ ان الخلافة ، في نظر الشيمة ، الوراثة الى الامام . والاثمة ، في نظر الشيمة ، معصومون عن الخطأ وعن كل زلل . وهكذا صح لنا القول ان فرقة الشيمة اساسها السلطة ، بينا السنة الشورى والاجماع . المقل ، في نظر الشيمة ، عاجز في كل ما يتملق بقضايا الايمان . فالمهم أي الامر هو الوحي النازل على الاثمة . فالامام غير المنظور يتكلم بلسان علماء الملة ، فعلى كل شيمي ان يسلم يهذا الكلام الموحى به على لسان الامام ، وقد .قامت بينهم فرقة 'عرفت بمغالاتها وترفضها بحيث ان اعضاءها تجنبوا لمس الكفار والاختلاط بهم .

مُعرف الفرس بروحهم الوطنية فزعموا ان ملك الملوك وهـو لقب ملكهم ٬ الدعوة الفارسية له السلطة على كل الشموب . يحفظون منسنة صباهم و كتاب الماوك ، او الشاهنامة ، للفردوسي ، هذا الكتاب الدي له من الشأن لدى الفرس ، مـــا للالياذة والاوذيسة . عند البونان ؛ حتى أن الأمين بينهم راحوا يمتقدون أن شميهم هو أقدم شعوب العالم وأنسه فوق شعوب الارض طراً ٬ واسماها على الاطلاق. وهم شديدو التّعلق بآدابهم واعرافهم التقليدية . فالشاعر الفارسي حافظ الذي لمم اسمه في القرن الرابع عشر ، والشاعر سعدي الذي كان معاصراً للملك القديس لويس التاسع في فرنسا ٬ سارت اشعارهـــا على لسان الادباء والرواة ٬ وحادي الميس وساري السبل في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت لدولة الفرس شخصية مفرِّدة . واللغة الفارسة كانت لغــة الشعر والأدب في كل العالم الاسلامي ، كما كانت التركية لغة رجال الحرب والادارة ، والعربية لغة الدين والعاوم . فالفارسية هي اللغة المستعملة في بلاط السلطان وبلاط المفل ؛ وفي عدد من الدول الاسلامية الاخرى في الهنـــــــد . وكانت الآثار الشمرية الفارسية تنقل الى اللغات الاخرى وتشرح وتفسر ويحتذي الناس حذوها . كل هذه الامور ومنا النها من شؤون ومفارقات جعلت الاتراك المثانيين يتحولون بانظارهم عن متابعة الجهاد ضد الكفار في الغرب . وقام بين الشيعة والسنة حروب دينية داميـــــة ، اذ شره الاتراك للتحكم بالطرق التجارية التي تمر ببلاد فارس ، كما أن الشمور القومي المناجج في صدور الشيعة حتم ان يكون الشاه رجل حرب كبير يشمر عن ساعديه للغزو والفتح .

شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر طاوع الدولة الصفوية الدلة الصفوية والبدو في الحكم وانجادها كا سجلا زوالها . نرى من خلال تاريخ بلاد فارس ان الاسرة الملكية التي تقوم بالامر لا تستمر في الحكم أكثر من قرنين . أسس هـنه الدولة الشاه

اسماعيل (١٤٩٩ - ١٥٢٤) . فقد كان تركيا بابيه ويونانياً بامه ، ينحدر من اسرة تنتسب الى الامام السابع وهي اسرة كسّر مت بالقداسة والشهادة . فقسد كان ، في الاساس شيخاً لاحدى القبائل البدوية الرحل المتنقلة على حدود لهران . فجمع يوماً حوله عصبة من رجاله استولى بهم على مدينة باكو وشهاخا ، ولم يلبث ان انضم اليه كثيرون ، واستطاع ان يهزم بسهولة آخر ملوك الدولة التيمورية ، وتم له من الانتصارات الباهرة ما جعله يوحد بين القبائل ، فنودي بسه شاه ، وقاد رجاله من غزو الى آخر وانقض من الجبال على سهول العراق الفنية ، وفتح بغداد واستولى على الموصل وديار بكر .

كان هذا المسلك النهج التقليدي الذي نهجه الحكم في العجم اذ ما يكاد الفساد يدب في الاسرة المقاطعات الجبلية التي تتقاطعها الوديان الظليلة على حدود البلاد ، ويجمع من بين هؤلاء الاقوام العاملين في رعاية السائمة ، كتائب من الشبان المفتولي العضلات ، يفيضون صحة ورفاء ، تعودوا شظف العيش واخشوشنت اجسامهم ، وتردفه القبائل المتجاورة التي كان قومه يتجرون معها ، بالنصح والمؤازرة والعتاد . وما ان يأنس من نفسه القوة حتى يهاجم ، لاسباب واهية واعذار شتى ، كالتعدي على المياه ، او نهب بعض الماشية ، او الحاق بعض الاضرار البسيطسة ، القبيلة المجاورة له التي يتولى امرها شيخ مسن او فتى غر تحت الوصاية ، ويخضمها لسلطانسه ؟ ثم يعمل على كسب الانتصار له بين رجالها بما يغدق عليهم من عوارفه ومسا يوزع فيهم من هدايا وأعطيات ويرحب بقدوم متطوعين من قبائل اخرى رغبوا العمل تحت ادارته ، حتى اذا ســـا اشتد منه الساعد عمل في اخضاع القبائل الواحدة تلو الاخرى . فاذا ما اعترض سيره الصاعسد يستعرضون قواهم دون سكب الدماء ، حتى اذا مـــا انطلق فجأة عبار ناري دب الذعر في الصفوف واخذ العدو في الفرار . وقد يحدث ان يفر الخصان كل من جهته . بعد ان يدب فمها الخوف ، حتى أذا ما عاد فريق منهم واستملك روعه وعادت اليه رباطة جأشه ، مسك بزمام الامر ، قبل الآخر وفاز بالنصر . ففي عاصمة كل ما فيها يتداعى للخراب ، لا جند فسهـــا ولا حاميات تدفع عنها عوادي الزمن ، وفي بلاط يغص بالخصيان والنساء ويفيض غني وثراء ، تقم العين فيه على شيخ كليل او على ولد منهوك القوى ، ينتزع عنه التاج ويستأثر دونه بالسلطة .

وير سخ ملكه بالمزيد من الانصار والازلام عن طريق المصاهرة والزواج من بنات او شقيقات شيوخ القبائل التي غلبت على امرها ، وبالشبان الشجعان الانخراط في جيشه ، من بين القبائل التي قدمت له خضوعها . اما اساس قوته ومحور سلطانه فيرتكز بالدرجة الاولى على رجال قبيلته والقبائل التي ارتبطت معها بوشائج القربى والنسب . ومن بين افراد هذه القبائل يختار مساعديه في الادارة ، والمدبرين لأملاكه وافراد حرسه ، ويجري فيهم العطاء بسخاء استدناء لهم ، ويعهد اليهم بتربية ابنه الذي يقضي طفولته الاولى وحداثته بين البدو . وكانت

قبائل قزلباخ التركية السبع تنظر الى الشاء اسماعـل وخلفائه نظرها الى احد اولياء الله .

ويبقى الشاه في حياته البدوية على طباع البدو وعوائدهم يظمن كلما ظمنوا ، فيصرف فصل الشتاء في سهول دجلة ، والصيف بين غابات مقاطمات بحر قزوين . اما فصلا الربيع والخريف فيصرفهما في الوديان الخضراء الظليلة الواقعة بين الجبال . وعندما يظمن الشاء وينتقل من مكان الى آخر ، ينقل معه مضاربه وما عنده من فرش ورياش واثاث ، وما يملكسه من الطنافس والسجاجيد وما عنده من آنية ذهبية وذخائر ، والمواسير وطسوت الرصاص الكبيرة اللازمة لرسم حداثقه كل مساء . ويعمل في نقل هذه الامتعة اكثر من سبعة آلاف جمل فيسير في يومه مرحلة من ٨ - ١٢ كيلومترا . وكانت الخيم والمضارب تنصب كل مساء لتؤلف مدينة يقوم في القلب منها خيمة الشاه او سرادقه ، وكانت الخيم والمضارب تنصب كل مساء لتؤلف مدينة يقوم في القلب منها خيمة الشاه او سرادقه ، وهي خيمة طولها ، ٢ متراً بعرض ١٢ متراً وعلو ، ١ امتار ، تمتمد على خمسة ركائز كبيرة تتقاطعها الستائر والسجد الفنية الموشاة بالذهب والعضة ، يتدلى من على جوانبها الديباج . ويستعمل في تركيز الطنافس في اماكنها رزات من الذهب الخالص . وكانوا يحرصون على تحويل بحرى الينابيم والترع بحيث تم امام خيمة الشاه ، تحف بها الزهور والرياحين على انواعها . وعلى مسافة قلبلة منها ، كانت تقوم مضارب الحريم والديوان والحرس ، ورجال الدلاط ، والحمامات .

وقد حرص الشاه على ان ينشىء على مسافات معينة ، محددة بعضها من بعض ، اماكن للنزهة والتسري مع الحدائق الغناء . وكثيراً ما تبنى على طريق القوافل عاصمة جديدة له مع قصر منيف وقلعة حصينة ، مع خانات واسواق ، يعد لها الحدائق الغناء توفر له متعة حياة البداوة ، مجيث يسمر ليلا مفترشاً خائل الحدائق السندسية مع سماره وندمائه .

الدولة مزرعة الطافر وسيلة لتأمين المنافع الخاصة ، وليس قط خدمة عامية ، وسيلة لتأمين المنافع الخاصة ، وليس قط خدمة عامية في سبيل يستفل فيها المغلوبين على امرهم المجتمع على من يتقدم ، من الشاه او من رجال الحسكم والادارة الدوم ، من الشاء او من رجال الحسكم والادارة الدوم ، من الشاء المناسعة على المناسعة على المناسعة المناسعة على المناسعة المناسعة

لديه ، بطلب ما ، ان يرفق طلبه بما يشفع به ويضمن الاستجابة له باسرع مــا يمكن . فالدولة إقطاع للشاه يستغله على هواه . فهي متاعه او ملكه منذ أن آتاه الله نصراً مبيناً .

ولكي ينمي الشاه موارده من المكس ورسوم الدخولية ويؤمن لنفسه موارد طببة ، يذخر منها لليوم المصيب ، وأى ان يشجع التجارة والوقوف الى جانب التجار . ولذا سهر على تأمين المواصلات ويسر السير عليها بتوفير الماء السابلة والقوافل الضاربة في طول البلاد وعرضها ، وذلك بالإكثار من الينابيع والآبار ، والسبل وأماكن الراحسة والاستجام ، وان يبني الجسور والممابر والجمازات . كذلك كان عليه ان يؤمن البريد وان يحول دون تعديات البدو ، ويطهر الاسواق من الطفيليين والخطفة الذين يفشونها ، ويغري التجار الاجانب المقدوم الى البلاد . وكان يازم جباية رسوم المكس لمهاله بينا أقطع معظم رسوم الدخولية شيوخ القبائل الذين كانوا

يسهرون على أمن المارة وراحتهم.فهو دومًا مجاجـــة لليال من التجار بابخس الاسمار ، ويكافىء رعاياه على امانتهم . فقد اوجب القرآن الكريم على المسلم ان يعشر ماله . والمعروف عن سكان المدن انهم لم يكونوا ليرضوا ان يعتسروا الا عن ايراداتهم من الملحقات او على الرسوم التي يجبونها من القرى ، وهي رسوم يفوض الشاه اليهم حبايتها عندما يكون مجاجة ماسة للمال . أما البدو فلم يكونوا ليدفعوا رسمًا عن مراعيهم . فكل الضرائب وكل النفقات الخاصة بحياة البلاط وأود الجيش كانت تقع على كواهل اهل الحضر او على الفلاحين الذين كان يترتب عليهم ان يقومــوا بأرد جيش لجب من الموظفين وما اليهم من الاتباع . الا ان الشاء لم يكن ليرضى باعتصار الفلاح اكثر من طاقته . فالبلاد لم تكن لتفتقر للاراضي الزراعية ، بل لليد العاملة أذ أن الاراضي الجيدة كانت تتوفر تقريباً في كل مكان ، وكانت تدور كل اربع سنوات ، وتشييسه بيت لم يكن ليتطلب اكثر من ٨ -- ١٠ عوارض قوية من خشب الحور ولا لاكثر من ٨ ايام بنساء. وتألف اثاث المنزل على الاجمال ، من سجادتين أو ثلاث سجادات ، ومن أربعـــة إلى خمسة صناديتي وبعض الآنية الخزفية والجرار . فاذا ما برهن متمهد جباية الضرائب والاعشار عن جشم ، وابي ابن المدينة ان يدفع ما يتوجب على الارض المقطوعة له من ضرائب ورسوم ، فسما كان أسهل على المزارع * الذي ما زال يذكر انه كان للأمس العابر من اهل البدو * الا ان يضع في عبه ما اقتصده من مال ، ويحمل حمارته وزوجته ما خف حمله وغلا تمنسه ، وسار على بركه الرحمن لا يلوي على شيء ، وهو واثق بأن ارض الله واسعة ترحب بــــه انمي حل واينا نزل . وهكذا فمفادرة الفلاحين لقرام كانت تخفف عنهم جباية الرسوم وتجنبهم ما يتعرضون له من ابتزاز واعتصار بغيض ، تقوم بـــه هذه الطبقة او هذه الفئسة العقيمـة غير المنتجـة على نطاق واسع .

ولكي يرضى اتباعه ويقوم بما يتوجب عليه كولي وكمدافع عن الدين ورجاله وكزعم يوزع عوارفه بسخاء ، كان على الشاه ان ينهض للحرب . وهذا ما تفرغ له تهاماً الشاه اسماعيل وابنه الشاه تامسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) ، وقد اضطروا ان ينهضوا بالحرب على ثلاث جبهات : ضد الاتواك المثانيين من جهة الفرب ، وضد او زبك التركستان ، في الشرق ، وضد البرتفاليين في الجنوب ، مع العلم ان الاتواك والبرتفاليين كابوا يتميزون بما لديهم من مدفعية وحملة البنادق . فاذا ما تمكن من استرجاع مقاطعة خراسان من حوزة الاو زبك في الشرق (١٥١٠) والتقدم باتجاه بخارى ، فانه لم يستطع البقاء في اواسط آسيا كها ان خليفته على المرش امتنع عليه وضع حد لتمديات الاو زبك على خراسان المتمددة . اما في الغرب فاستمرت غزوات الترك سجالاً . وفي الجنوب استطاع البرتفالي البو كرك ان يستولي على جزيرة ارموز الصفيرة في مداخل الحليج وفي الجنوب استطاع البرتفالي البو كرك ان يستولي على جزيرة ارموز الصفيرة في مداخل الحليج المذكور .

الاسرة الصفوية في الارج . الشاه عباس الكبير وفتوحاته المظفرة

بعد حقبة من الحروب الاهلية بين قبائل كزالباك حيث اخذ كل فريق يؤازر المطالب بالمرش ، استطاع حفيد الشاه نامسب ، الشاه عباس الاول الكبير ، ان يستاف بالحكم

وان ينهضبه الى الأرج (١٥٨٧ – ١٦٢٩). شب الشاه عباس بين قبائل كزالباك فتشرب روح البداوة وتخلق بالشجاعة والنشاط ، لا يبالي بالتعب . فقد كان شابساً مفتول العضل ، حشيف المبداوة وتخلق بالشجاعة والنشاط ، لا يبالي بالتعب ، ان دل على شيء فعسلى الحزم والعزم والعزم وصدق القصد في كل ما يقرر . تغلب على الاوزبك في هراة (١٥٩٧) وبذلك وضع حداً نهائياً لفزواتهم السنوية ولاستباحتهم دورياً لخراسان . ولكي يضع حدود هذه المقاطعة في امان الجلى الوف الاكراد عن بلادهم في كردستان مع ما لهم من الذراري والقطعان ، واسكنهم الجلى الوف الاكراد عن بلادهم في كردستان مع ما لهم من الذراري والقطعان ، واسكنهم القسم الشهالي من خراسان حيث عهد اليهم مجراسة الحدود . وقاد ، بين ١٦٠٧ – ١٦٢٧ ، عدة حملات موفقة ضد الاتراك المثانيين ، فانتزع من بين ايديهم تبريز وأروان وشروان وقرص ، وفتح أذربيجان وخوزستان ، ودخل بغداد والموصل وديار بكر وخفض الجزية التي كان عليه دفعها المسلطان الى ١٠٥٠ حمل من الحرير .

ولمل الشاه عياس الاول الكبير هو اول من ادرك ، بالحسوس ، انه يستحيل عليه النهوض بالحرب على عدة جبهات. فقد قبل ان يعقد ، عمام ١٥٩٠، مع الاتراك صلحاً خاسراً بجيث يستطيع ان يتفرغ لحرب الاوزبك . وبعد ان كسرم شر كسرة ارتد لحاربة الاتراك .

عرف ان يفيد الى اقصى حد ، من الانظمة والقوانين المعمول بها في البلاد ، ليقوي من سلطته ، وليزيد من واردات الخزينة وليضاعف من منعة الجيش . كانت الملكية الفارسية ملكية مطلقة . فالشاه هو سبد البلاد المطلق ، في الزمنيات والروحيات ، المتصرف بحياة الناس وباموال رعاياه ، كا يشاء . كان ما يأمر به يجب تنفيذه في الحال حتى ولو كان غلا ، فاقداً لوعيه . فهو فوق القوانين الطبيعية والوضعية . فاذا ما اصدر امره لابن ، كان على الابن ان يمثل للامر الصادر ، حتى ولو امره بقتل ابيه . فعلى ما اصدر امره لابن ، كان على الابن ان يمثل للامر الصادر ، حتى ولو امره بقتل ابيه . فعلى الفرس ان يطيعوه في كل شيء الا فيا يخالف احكام الشريعية او امر بشرب المسكر . كذلك يمتقد الفرس ان من طبيعة الملوك ان يتصفوا بالمنف والظل . من اقوالهم الماثورة : وكن ملكا، وهم يعنون : كن ظالما ، ولا بأس من ان تحكم بخلاف العدل . كان احدهم اذا ما اشتكى امام القضاة من ظلم وقع عليه ، قال : وجرى معى ما يجريه الماوك » .

وهذا الطغيان المستبد الها ينبع من مصدرين رئيسيين ، فبلاد قارس فاز بها غلاباً اي اخذها بالفتح ، ولذا كانت حكومته حكومة عسكرية ، مستبدة ، (تافرنييه) ومن جهة ثانية فالشاه هو نائب الذي العزبي وخليفته ، له فضائل خارقة الطبيعة ، والقدرة على شفاء المرضى . وهو بذلك سد العالم وملك الماوك . وقد استطاع الشاه عباس الكبير أن يشدد على هذه الصفسة

بكونه حامي الدين وحامي ذمار الشيمة . ولذا شيد في مدينة مشهد ، في خراسان ، مسجداً كبيراً احتفط فيه بذخيرة من ذخائر المسلمين ، هي قدد م الناقة التي كانت تحمل النبي . وكان في كل سنة يتجه التبرك بزيارة مشهد مع رجال حا شيته حيث كانت تجري خوارق مدهشة . وقد اعتاد الفرس ان يجبوا الى مشهد بدلاً من الحج الى مكة المكرمة . وكان الشيعة محجهم الذي يختلف عن حيج السنة . وقد هدف من وراء هذا الحج الى امر اقتصادي هام هو الحؤول دون خروج الذهب من البلاد . وقد اعتاد ان يحج الى النجف وان يقوم بتنظيف وغسل قبر جده الامام على .

جهوده في سبيل تقوية الاسرة الملكية من الوجهة القومية

عرف الشاه عباس بحذره الشديد تجاه قبائل كزالباك عماد اسرته المالكة والتي كانت تتخذ من الاقليات وسيلة لتقوية نفوذها ، بعد ان نالت من الامتيازات ما شجع قبائل غيرها

على العصيان والتمرد. فراح يحرر العرش والاسرة من تمويله على هذه القبائل و حمايتها باصطناعه قبيلة جديدة باسم انصار الشاه ، ضمت بضمة آلاف من الرجال انتقام من بين كل القبائل ل تطوعوا للعمل في الجيش وعملوا في خدمة العرش بكل ولاء ، وعرفت هذه القبيلة ان تقيم لها علاقات ودية مع القبائل الفارسية الاخرى ، وهكذا اكتسبت الاسرة دعامة اكبر فازدادت قومة في اعين رعاياها .

كذلك اخذ يخفض من افراد قبائل الكز الباك في الجيش ، فانزل عددهم من ٢٠ ألفا الى ٣٠ ألفاً. واستماض عن الفرق التي رفضت الحدمة في الجيش الاتحت فيادة خاناتها المعروفين بولائهم السلطان الاتراك ، بكتائب من المرتزقة ، بينها ١٠٠٠٠٠ فارس ، و ١٢٠٠٠٠ من المشاة ، كان هو يعتين ، ضباطهم ويصرفهم من الحدمة عندماً يشاء . وكانت نواة الجيش فرقة الفلمان ، وهي فرقة تألفت من الارقاء وابناء الارقاء . يؤتى بهم من كل القبائسل ولا سيا من سكان الكرج ، ومن بين رجال هذه الفرقة اتخذ الشاه معظم حكام الولايات وتموظفي البلاط . وهكذا نرى هنا كما في السلطنة العثانية كيف ان الدولة هي الجيش .

تلبت الحكومة مظهر حكومة منزلية فكبار الموظفين في البلاط الحوده في سبيل او العاملين في خدمة الشاه الخاصة هم اعضاء في مجلس الملك الخاص. يأتي في المقام الاول ، عظمة الدولة وهو بمثابت رئيس الوزراء . وهو المرجع الاكبر ، فهو بمثابة الوزير الاول لشؤون الدين ، وبامكانه ان يصبح رئيس الوزراء او وعظمة الدولة ، وهو مرجع القضاة ، ويدير الاوقاف والمساجد لما فيه كمالة رجال الدين وطلاب العلم . ثم يأتي و الناظر ، الذي يتولى النظر في كل ما يتصل باسطيلات الشاه والثياب والاواني المنزلية ؛ ثم رئيس الحدم ، وهو ابداً من الحصيان البيض ، باسقى على مقربة من سيده ويقوم بكتابة سره الخاص . وهنالك موظف يدمل كأمسين سر

الدولة ، فيطلع الشاه على ما يرد على الديوان من اوراق وظلامات . وهنالك ناظر المالية او محاسب بيت المال يشرف على مالية الشاه ويضبط اعمال الجباية ، كما ان ناظر العدل يشرف على القضاء الديني والزمني على السواء ، ويقضي في امور خانات القبائل وكبار رجال الدولة . وكان العمل في مجلس الملك يقتضي له عدد كبير من الكتبة ، ولذا ترتب على الشاه ان يؤمن أود ما بين ١٠٠ - ٥٠٠ من الارقاء الفتيان ، كان يجري تدريبهم على الكتابة والقراءة . فاذا ما اقترف احدم ذنباً او هفا هفوة ادبه الشاه وارسله للعمل في احد دواوينه الكثيرة في الولايات.

تقسم الدولة الى ولايات ، يتولى الحكم واعمال الادارة فيها حاكم يتعهد حاجات أود البلاط اسبوعاً كاملا ، ويلزم جباية الضرائب ورسوم المكس ، ويرسل الاموال الحصلة ، كل سنة مع الهدايا السنية ، الى الشاه ، مرفقاً بما يفرض عليه تقديمه من الجندين ، بين خيالة ومشاة يجري انتقاؤهم بكل دقة ، وبذلك يقوم على الوجه الاكمل بما عهد به اليه الشاه من سلطات ، يساعده في تدبير امور الولايات موظفون من مختلف المراتب والدرجات ، وتقدم كل ولاية الى عدد من الاقضية ، يقوم على ادارة كل قضاء ، مأمور يرجع في الامور الدقيقة الى الوالي ، رئيسه المباشر يجري تميينه او رفته من قبل الشاه . اما في الريف فكانت تقوم اقطاعات خاصة برجال البلاط وضباطه المعروفين بولائهم الشاه ، وهي اقطاعات يتمتع اصحابها بريمها مدى الحياة ، كليا كان يوجد اقطاعات معينة يتخلى الشاه عن ايرادها ، بما فيه ضريبة الخراج ، كليا او جزئياً ، لصاحب الاقطاع .

ويقوم في كل مدينة قاضيات يجري تعينها وعزلها من قبل الشاه تعود امورهما للمغني ، يتولى احدهما النظر في الامور الجزائية ، كا ينظر في جنح السرقات والمشاجرات وجرائم القتل والامور الخلة بالآداب ، يساعده في اعماله هذه ضابط شرطة وبعض النبالين . وهنالك قاض خاص كانت مهمته الدفاع عن مصالح الشعب والنظر في تعديات الحكام وتجاوزاتهم صلاحياتهم بابتزاز اموال الرعية . فمن من التجار عهمته تحديد الاسعار المواد الغذائية . فمن من التجار تجاوز هذه الاسعار ، تعرض للجزاء وللجلد معاً . وكان يقوم على الطرقات ، ولا سيا عند مركز الماء ، مأمور حراسة للنظر في هويات الناس وجوازات المسافرين . اما السرقة فكان عقابها شديداً اذ كان السارق يربط الى ذيل الحصان او الجل ويجر على قارعة الطريق ، عساري البطرة ان كان السارق يربط الى ذيل الحصان او الجل ويجر على قارعة الطريق ، عساري النظرة ان تعرض مصاوباً على خشبة فوق ظهر حصان ، بعد ان تغرس قضبان الشمع في اطرافه . واذا لم يتم القبض على السارق ، كان على الحاكم ان يعوض على التاجر الحسارة التي لحقت به . اما القتلة ، فكثيراً ما كانوا يستهدفون القتل ، عملا بشريعة ، السن بالسن بالسن بالمين . ققد اتفق ان قتل احد غلمان الحاكم ، فتى من نبلاء الفرس ، فما كان من الشاه الا ان اسلم القاتل الى اسرة المقدور به ، بحيث راحت ارملته وامه وشقيقته يقمن كل واحدة منهن بطعنة في قلبه ، يشرين دمه ، ليشفين غليلهن منه ،

وهنالك عدد كبير من الائمه والشيوخ ينصرف للعلم والدرس ، بحيث كان طلاب العلم يتلقون

دروسهم على حساب الاوقاف. وكانت اسمار الكتب على الاجمال ، عالية. ومع ذلك فمظم الصناع والمهال كانوا لا يحجمون عن شرائها لشدة اقبالهم على العلم وحباً في المطالعة ولتهذيب اولادهم وتثقيفهم. وكان يقوم في الحي الواحد بضعة مدارس ابتدائية ، مع ان العدد الكبسير من طلاب العلم كان يؤلف عالة لانهم كانوا يمتصون خيرات البلاد.

دان الشاه عباس بانتصاراته الحربية لهذه العلاقسات الوطيدة التي اقتباس الفنون الاوروبية ، ولما كان البرتفاليون قسد قطعوا طريق ونشاط الحركة التجاريسة أرموز ، في الحليج الفارسي ، منذ عام ١٥٦١ ، استطاعت الشركة

الانكليزية ، في موسكو ، ان توفد احد بمثليها المدعو جنكنسن لينشىء لها علاقات مع بلاد فارس عبر روسيا ، التي كانت بسطت سيطرتها على حوض نهر الفولغا . وقد نجح جنكنسن في محاولته هذه ، ودخل الانكليز الى بلاد فارس عن طريق مدينة استراكهان وبحر قزوين وباكو وشيروان . الا ان الفوضى المستحكة حلقاتها في البلاد ، والاخطار التي كان يتمرض لها عملاء الشركة الانكليزية ، من قبل القراصنة ، في بحر قزوين ، ارغمتها على قطع علاقاتها ، عام ١٥٨١ ، بعد ست رحلات قامت بها ، في ذلك الحين .

وفي عهد الشاه عباس ، دخل نبيلان انكليزيان مغامران بلاد فارس ، هما انطوني وروبرت تشرلي ، وبصحبتها ٢٦ مرافقاً ، بينهم ماهر بصب المدافع ، وعملوا جميعاً في خدمة الشاه ، سنه ١٥٩٨ . وقد لقنوا الفرس شيئاً من اصول النظام واسبابه والاعتصام بالانضباط كالقنوم بعض الفنون الاوروبية ، واسسوا بعض الفرق المدفعية وبعض الطوابير ، وجهزوا الجيش به ٥٠٠ مدفع . وسلحوا بالبنادق ٢٠٠٠٠٠ جنسدي . وقد اشتهر روبرت تشرلي خلال الحلة التي قام بها الشاه ضد الاتراك . وبفضل حؤلاء الاوروبيين ، والعتاد الحربي الذي جهز الجيش به ، استطاع الشاه ان يلحق هزيمة ذكراء بالاتراك السنيين .

ورغبة منه في مضاعهة وارداته ، راح الشاه يحتكر تجارة الحرير ، ورغب في انماء صادراته عن طريق الخليج الفارسي ، تفادياً منه المرسوم الباهظة التي فرضها الاتراك على مرور السلع في بلادم . ولذا اضطر الشاه لمحاربة البرتفاليين . فاوف لله الوروبا ، السير روبرت تشرلي الذي مر ببولونيا والمانيا وروما وانكلترا واسبانيا دون ان يتمكن من الحصول على شيء رسمي . الا ان الانكليز المقيمين في صورات (الهند) كانوا يجدون صعوبة في تصريف اجواخهم في السلطنة المثانية . وقد وصل الى مسامع الوكيل الانكليزي العام بان بضاعته ستلاقي رواجا في ايران ، حيث يشتد البرد والصقيع طية خمسة اشهر في السنة ، وبان في امكانه شراء الحرير من البلاد ، ٥٠٪ ارخص من سعره في حلب . ولذا راح يف اوض روبرت تشرلي في الامر . وبواسطة هذا الاخير اصدر الشاه ، عام ١٦٠٤ ، امرا المحاكم ان يبذل المسفن البريطانية ، كل مساعدة بمكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ مساعدة بمكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ مساعدة بمكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ مساعدة بمكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ مساعدة بمكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ مينا المرا للعالم المناه ، وفي ٢٨ ميناه ميناه به وله المناه ، وفي ٢٨ ميناه المرا للعالم الميناه ، وفي ٢٨ ميناه ميناه به ولميناه الميناه وله بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨ ميناه الميناه الميناه ولميناه الميناه الميناه ولميناه ولميناه الميناه ولميناه و

كانون الاول ، حاول البرتغاليون ، اعتراض الاسطول الانكليزي في صورات . فحاكان من السفن الانكليزية ، الاربع الا ال حطمت السفن البرتغالية المساوية لها بالعدد . وبواسطة هذا التعاون الوثيق الذي تم بين الجيش الفارسي والاسطول الانكليزي " سقطت قاعدة أرموز بيد الفرس عام ١٩٢٢ ، وعلى الاثر ، أسس الانكليز ومن بعدهم الهولنديون ، معامل لهم في ارموز ، وراح الشاه عباس يغدق انعاماته بسخاء على التجار المسيحيين ، وأمن لهم ممارسة واجباتهم الدينية ، وعمل على تحسين طرق المواصلات " وبني الكباري والجسور والخانات ، واقام في غيلان ومازندران خائل من المروج السندسية الخضراء ، كما انشأ طريقاً عريضة اجتازت الولايات المحيطة ببحر قزوين من الشرق الى الغرب ، واقام في ضواحي زلفا واصفهان بعض الجاليات الارمنية ، وعهد اليها القيام بتجارة الحرير الذي اخذوا بتصديره الى اوروبا . وبالمثل راحت الاجواخ تفد على العجم من هولندا وانكلترا وغير هما من الديباج وباور المندقة والساعات .

نهضة الفن الوطني : اصفهــــان واوروبــــا

راح الشاه عباس ، كغيره من ملوك العجم ، يبني له عاصمة في اصفهان الواقعة على طريق القوافل الضاربة بين الخليج الفارسي وطهران والتي كانت تتقاطم مم الطرق السلطاني الذي يصل المصين باوروبا مع مجر

قزوين . وشيد له فيها قصراً منيفاً جميلاكا زينها بالقسور والمساجد والحدائق . وقسد غطى جدران المسجد بالفسيفساء والمينا والنقوش البديعة ، بحيث كانت قبة المسجد وجدرانه تتلألأ بالانوار الساطعة عندما تنعكس عليها اشعة الشمس . فيخيل الرائي ، كأنة في بحر من اللازورد المتموج . وقام الى جانب قصر الشاه ، سوق ضخمة غصت بالصناع والصاغة وباعة الحسلي والجوهرات بحيث اخذ يقصدها كبار التجار من الهند والصين واوروبا ، كما احتشد على مقربة منها في الضواحي الوف من رجال القبائل يسكنون الاكواخ من التراب والقش .

ولم تعتم ان اصبحت اصفهان قلب الحركة الفنية في البسلاد . واشتهرت على الاخص بصناعة القاشاني الشبيه بالقاشاني الصيني . وعمل الهولنديون على تنفيقه وبيعه في اقطار اوروبا كأنه الحزف الصيني الاصل . كذلك نشطت فيها صناعة السجاد على انواعه واشكاله ، بعضها نم عن ذوق الشيعة ، يشيع البهجة في قلب الرائي لما تقع عليه العين من الرسوم الجميلة ، وصور الحيوانات والنباتات والاشجار والمشجرات ، بينها نرى ، من جهة اخرى نوعاً من السجد العاري من كل حلي ، تبدو فيه رسوم هندسية وبعض الالوان الزاهية . كذلك اخذوا ينسجون انواعاً جميلة جداً من الديباج الموشى بالقصب واسلاك الحرير الذهبية والمخمسل ، كا فرشت الجدران بالرسوم الجميلة من صنائع الفنانين الاوروبيين ، الذين جيء بهم من ميلانو والبندقية ومقاطعات الفلاندر والمانيا ، او جاءت تقليداً حرفياً لهذه الصور والرسوم التي اهداها ومقاطعات الفلاندر والمانيا ، او جاءت تقليداً حرفياً لهذه الصور والرسوم التي اهداها وقبعاتهم وعمائمهم وجزماتهم ، كا برزت فيها نساء اوروبيات ، متخففات بأرديتهن الناعمة

المكشوفة ، بينهم لويس الثالث عشر ، الى جانبه ايرانيون ، واجناس من الكرج ، وجنويون وصينيون وصينيات ، بحيث كنا نرى مظامر كل الفنون تتفاعل بعضها مع بعض . وعرف الايرانيون ان يخرجوا من كل هذا بجزيج خاص ، واطلعوا منه فنا قومياً تميز بهذه الدقيقة الى تنسجم ببساطتها مع الروح السمحاء في المجموع . كل ذلك في نشابك وتلاحم وانسجام وتناغ من الوحسدة والهدوء . فاذا بنا امام فن آسيوي بمقايسه ومزدوجاته ، واوروبي بدقته وتناسقه وتناسب خطوطه ، هو قبل كل شيء ، فن ايراني صميم .

ما كاد الشاه يتوارى عن الانظار والاذهان ، حتى اخذ الانحلال

المحطاط الدولة الصفويسة

طريقه الى قلب الاسرة الصفوية المالكة . فقد كان من شدة غلوه في الحذر والتحسب ان أمر بان تسمل عيون ابنائه الاربعة ، كما اصدر اوامره بان يبقى امراء الاسرة المالكة قابعين في قصورهم مع الخصيان في عشرة موصولة مع النساء ، بدلا من ان يتدربوا على اعمال الحرب والمقارعة . وكان هؤلاء الامراء يقضون لباليهم في السمر يعاقرون الخرة حتى يتعتمهم السكر . وكانوا في صحبة النساء وعشرتهم ، منذ حداثتهم حتى يغشاهم الغثيان فيسمون وراء الغامان يستسامون للذائذهم . وهكذا توالى على العرش اقزام من الماوك هم الشاه صافي (١٦٢٩ – ١٦٤٧) ، وعباس الثـــاني (١٦٤٧ – ١٦٦٧) وسليان ١٦٦٧ – ١٦٩٤) ، والشاه سلطان حسين . واصبحت الوظائف العامة تشرى وتباع كالمتاع ، يتوارثها الابن عن ابيه • وساءت مرتبات الضباط ، بعد ان تولى امور بيت المال مجلس المحاسبة ، اذ راح يوزع مرتباتهم أنجها او اقساطا يفرضها على القرى بحيث كان الضابط يرى نفسه مضطراً لان يرشو اعضاء الجلس المذكور ليتاح له قبض مرتبه من صندوق واحد معين ، والا باع حوالته بخسارة كبيرة لبعض التجار . وراح الحكام ومتعهدو جباية الضرائب يختلسون معظم ما يجبون من ضرائب ورسوم ، يحيث لم يكن ليصل الى بيت المال ، اكثر مسن ثلث المبلغ العائد له . وهكذا تخلخلت وحدة الجيش واصيبت أطأسرُه بالانحلال ، وواح الاتراك ، بقيادة السلطان مراد الرابع يحتلون ، من جديد ، بغداد ، والعراق (١٦٣٨) ، كما اخذت قبائل الاوزيك تغزو ، من جديد ، خراسان الا انهم كانوا ، هم ايضاً ، في طريق التفسخ والانحلال. واستطاع إمام عمان ان ينتزع مسقط من ايدي البرتغاليين (١٦٥١) ، وراح يكثر من غزواته لمرافىء ايران . على الحليج الفارسي .

كان الاوروبيون يتنافسون ، فيا بينهم ، على الاتجار مسم بلاد فارس . فالى الاسباب المديدة التي كانت تدعو الشاه لمعاملتهم بالحسنى والترحيب بهم ، هنالك سبب هام جسداً في نظره ، وهو الحصول على المدافع الاوروبية ، ليصد الطامعين في خيرات البلاد ، واذا كان الانكليز منصرفين لحروبهم الداخلية ، منذ عام ١٦٤٥ ، استطاع المولنسديون ان يفرضوا سيطرتهم على الحركة التجارية مع بلاد فارس ، بعد ان نالوا امتيازاً من الشاه ، بشراء الحرير من كل مكان وتصديره للخارج بدون رسم عليه . وعندما شرع لويس الرابسم عشر يطبق

سياسته التجارية ، اصبحت المنافسة الفرنسية تكون مزاحماً يحسب له الف حساب في هــذا المضار . وفي سنة ١٦٦٤ ، اوفدت الشركة الفرنسية للهند ، موفدين من قبلها الى اصفهان ، ومعهما نبيلان هما : قائد ملك اوروبا العظيم وسفيره . وقد توصل السفير الى ان يحصل لحساب الشركة الفرنسية على فرمان يعفيها من رسوم المكس ، مقابل مبلغ ٣٠٠٠٠٠ ليرة يتبرع بهما الملك لويس للشاه ، كما نال الملك تصريحاً من الشاه يجعله حامياً للمسيحيين الارمن والكلدان والسريان (١٦٨٣) ، وتمنى الشاه قدوم عمارة فرنسية للحد من إمام مسقط ، وقد"م مقابل ذلك حصنين من حصون مسقط ، ومرفأ يقع على مقربة من بندر عباس ، والاعفاءات مسن لكل هذه العلائق المشجعة . وفي سنة ١٧٠٨ ، عقــــد ملك فرنسا وشاه ايران معاهدة تجارية الفارسي الذي وقع معاهدة تجارية جديدة وميثاق صداقة ، في ١٣ /٨/٥/٨ مع سمو امبراطور فرنسا الممتاز لويس الرابع عشر الملك السيد المطلق الفرنسا وللمالك والمقاطعات ومدنء باريس ونورمندياوبريتانيا، والاكويتين وغسكونيا والبواتو وسانتونج، وغير ذلك، من المدن والمالك.

وفي هذا الوقت بالذات كانت تُتهيأ امور واحداث هامة تستهسدف بلاد فارس بالذات . ففي الوقت الذي راح فيه الشاء سلطان حسين المشهور بورعه يكل الى الخصيان ورجال الدين المراكز المهمة في الدولة ، هذه المراكز التي يجب ان يحتلها رجال السيف اذ بسفيرين روسيين يفدان على اصفهان ، عام ١٧٠٨ ، و ١٧١٥ ، وراح الروس يتهيأون للهجوم والانقضاض على البلاد ، كما راح الافغانيون من جهتهم يعلنون الثورة ، وهم سنيون صادقون لعقيدتهم ، الذين لم يصدقوا يرماً ولاءهم ، في هذه الجبال الوعرة المسالك التي كانوا ينزلون بينها . وكانهذا من شأنه ان يحمل الفوضى والاضطراب الى بلاد فارس .

بين رقض الإسلام لاورربا

هنالك بلدان اسلاميسة اخرى تتبع قارات اخرى سيجري ؟ وعسم استغنسائه عنهسا درسها بالدقة والتفصيل اللازمين، عندما يحين درس هذه الاقطار. غير أن السلطنة المثيانية والدولة الفارسية يؤلفان مثلسين على ما ،

لهاتين الدولتين من اشعاع على الاسلام وما يخفيانه ، في الداخل ، من ضعف يحد مــن طاقتهما : على الاشعاع والتوسع. فالانقسامات الدينية ، وتنظيم الاسرة المسلمة والدولة الاسلاميــة ، والنقص الفاضح في العلوم التي لا تنبع من صميم القرآن ، والقول بالقدرية ، تركت مع ذلك للاسلام ما يكفى من القوة للوقوف بوجه اوروبا وللانسياح منها والاستبطار في بعض نواحيها الى حد ما . أنما شكا في داخله من أعراض أوهنته فأقعدته ؛ رحالت بالتالي دون استباحتــه العالم المسيحي . وكأن القدر الذي قسم للمدنية الاسلامية ؛ التي بقيت في طورها اللاهوتي ؛ قد قد رلها ان تعرض عن المدنية الاوروبية ، مدنية الكفار الهالكين في النار ، هؤلاء الكفار الذين يشركون مع الله شريكا ، كما اسقط في يده لعمل شيء ضد هـذه المدنية البغنضــة ، بواسطة هذه الذرائم والادرات ذاتها التي استنبطها العقل الاوروبي ۽ الواقعي ۽ .

وفنصل وهشابي

العالم المندي، الاسلام وأوروب

الدول الاسلامية في الاقطار المفتوحة ، يسيمون عالم الهند الخسف والمهانة ويستثمرونه أبشع الدول الاسلامية في الاقطار المفتوحة ، يسيمون عالم الهند الخسف والمهانة ويستثمرونه أبشع استثمار ، وكانت الهند ، اذ ذاك منقسمة الى عدة ممالك يتولى الامر فيها زحماء مسلمون تدعهم جيوش قوية . وقد قام في و سهول الهند الفانجية ، بضمة منها ، اهمها مملكة افغانستان ، في لاهور ، ومملكة البنغال . وقام في قلب البلاد ، على صميد الدكن المرتفع ، بضمة ممالك بينها مملكة الحندش ، واحد نجار وغولكوند وبدجابر وبيدار . وقام الى الجنوب ، امبراطورية هندية هي مملكة فيجانيفار التي كانت ترسف في الفوضى ، والتي اعتراها الانحلال بمسد عام هندية هي مملكة فيجانيفار التي كانت ترسف في الفوضى ، والتي اعتراها الانحلال بمسد عام الامبراطور الاسمية . وهذه الدول الاسلامية ، انما كانت بالاساس جيوشاً غريبـــة استوطئت البلاد ، من اصل بدوي او نصف بدوي ، هبطت ، اساساً من جبال افغانستان او من فيا في المنود المسلمين الذين تراوح عددهم في هذه المنطقة الشهاليـــة القربية . بين بضمة ملايين ، وهو عدد لاينقص بشيء عن عدد الهنود التابمين للدينة الهندوكية .

كان الفاتحون ونظام الطبقات الهندية لم يدخل عليها من جراء وجودهم اي تطور ، لها من المسلون الفاتحون ونظام الطبقات الهندية لم يدخل عليها من جراء وجودهم اي تطور ، لها من هذه الكتلة الضخمة من السكان الذين تجاوز عددهم مائة مليون ، منهم تقريباً ومحافظ عليها الله كن وامبراطورية فيجاينفار ، و ، ٦ مليوناً تقريباً في الشهال ، ما يصونها ومحافظ عليها . وكان لهذه الكتلة البشرية ، من عقيدتها الدينية ، ومن النظام الطبقي الذي سارت عليه منذ اجبال ، ما يحول دون الحاق اي تأثير عليها . تشتق كلهة وطبقة Castu من كلة برتفالية عنود لسنة التي تمني عرفاً او سلالة . واول استمال لهسفه الكلمة بالمنى الهندي الضيق ، يمود لسنة اليه عربياً ومهنة تختلف عن مهنة ابيه

وكل من هم من وطبقة ، الاسكافيين يعملون في الاسكافة ، . وقد اعلن مجمع غوا المقدس ، عام ١٥٦٧ ، ان اقوام الهند ينقسمون الى و طبقات » ، متميزة الواحدة عن الاخرى ، وتتباين فيما بنها منزلة وكرامة وتنظر جميعها الى المسيحيين كن هم في أحط دركات المجتمع البشري ، ينظرون اليهم نظرة ملؤها الاستهجان ويعزؤن اليهم الخرافات والاساطير ﴿ بِالنظر الى عاداتهم الميزة) مجيث يأبي اي شخص من الطبقات العليا الاخرى ان يجالسهم او ان يقاسمهم المأكل والمشرب . وهكذا ألفت الطبقة فئة من فئات الجتبع ، 'مطبقة على نفسها ، معزولة عن غيرها من الطبقات ، تميش على اعرافها وعاداتها الموروثة ، لها انظمتها الخاصة ومجالها الاجتساعي الخاص ، ومهنتها وعصبيتها . وهذه الفئات البشرية والمجتمعات التي تؤلفهما تختلف اصلاً وقصلاً. ﴿ وبلاحظ احد المؤرخين ان جدول الطبقات الخاص باحصاء ولاية مدراس ، عام ١٩١١ ، يعطى فكرة عن تقسم الانكليز انفسهم ؟ إلى أسر نورماندية الاصل والى كهنة ونبلاء ؟ ووضعيين وتجار حديد ، وبقوليين وشيوعيين واسكتلانديين ، وهذه الطبقات كانت الواحدة منها معزولة تماساً عن الاخرى ، كما كانت جمعها تعزل نفسها عن الفاتحين والغزاة المسلمين ، وتنفسادي الاختلاط بهم ، وذلك سيراً منها مع تقاليدها الموروثة ، وتجنب اللتدنس او التنجس ، أذ كان يترتب على المزارع ، وهو من طبقة البولايان Poulayan او طبقة المنبوذين ، أن يقف من محدثه البراهمان ، على بعد ٩٦ خطوة ، لا يخاطبه الا عن مثل هذه المسافسة أو هذا البعد ، خشيسة أن يلحق به الدنس اذ وقف منه على ٩٥ خطوة . واضطر الغزاة لمراعاة هذه الاعراف والعوائد اذ ان مسها او تمديلها من شأنه ان يسبب هيجاناً عاماً ، وربما ثورة عارمــة بين الهنود الذين كانوا يتبرمون باحتلال الغريب لبلادهم ، وكلر"ق الاجنبي لها ، شريطة ان تكون حياتهم الخاصة ، وهي الحياة التي لها قيمتها في نظرهم تبقى مصونة محترمة . ونظام الطبقات هذا أتاح لحضارات كثيرة ان تعيش جنباً لجنب مع غيرها من الحضارات الغربية التي سيطرت في الهند ، وانقل المدنية الهندية وحفظها سليمة مصونة بالرغم من توالي الفاتحين وتعاقب احتلال الاوروبيين .

١ – السلالة المفولية الاولى

قامت في الهند ، في مطلع القرن السادس عشر ، دولة مغولية جديدة ، بابسر سارت في تطورها الصاعد على النهج الذي اتبعته الدولة الصفوية ، مدفوعة الى هذا المسلك ، بالاسباب ذاتها . تحدر بابر (١٤٨٣ – ١٥٣٠) من عائلة تيمورلنك ، لجهة ابيه ، ومن اسرة جنكيزخان لجهة امه ، وولي الحكم خلفاً لابيه سلطان علي ، على فرغانة ، في التركستان ، عام ١٤٩٤ . فبعد ان خلعه الاوزبك ، عمل على جمع فريق من المغامرين وشذاذ الآفاق حوله واحتل بهم مدينة كابول ، وحاول بعد ان عقد حلفاً مع بلاد فارس ان يفتح فرغانة من جديد . وقد جر عليه تحالفه مع الشيعة نقمة المتمصين من السنة ، ثم لم يلبث ان انشي عن فكرقه هذه ، بعد ان دخل مدينة سمرقند واضطر لمغادرتها مرتين ثم اتجه نحو الهند

منجذباً اليها بعد الذي سممة من اخبار الذهب والفضة وثوافر الصناع الماهرين. ولذا اخسة بهاجمة بملكة دلمي الافغانية تم ثم لاهور ، وكسر الافغان شر كسرة في معركة بانيبوت(١٥٢٦) فاستولى معها على دلهي واكرا ونودي به امبراطوراً على هندستان ، في مسجد دلهي ، وذلك يوم ٢٧ نيسان ١٥٢٦.

الا ان بابر كان اعجز من ان يجتق حلمه هذا . فلم يقم من يقف بوجمه المغول مع ان جيشه لم يكن ليتجاوز عدده ال ٢٥٠٠٠٠٠ بعدي ، تجاه ٢٠٠٠٠٠ . الا ان نظام التعبشة الذي سار عليه ، والمدفعية الشديدة الاثر التي استمملها ، وكلاهما من اصل تركي ، امنسا له الفوز على الفرسان الافغان والراجبوت . فجمل في مقدمة جيشه وطليعت مثات من المركبات والعربات شدها بعضا الى بعض ، ونصب بينهما مدفعيته التي أوكل امرها الى طويجية اتراك ، فحصدت المعدو حصدا ، بعد ان أسقيط في يده امام هذه الجبهة المتراصة على هذا الشكل . ونصب فرقة الخيالة ، الى جناحي جيشه ، فاخذت تمطر العدو سحابة من النشاب ، ليقوم بعدد ذلك مجوم جانبي يضع حداً لكل مقاومة .

حل هذا الامبراطور احتقاراً عميقاً للهند . فقد جاء الهند لعدم وجود شيء آخر احسن منه ، الى حيث لا مقاومة ولا من يقف بوجه . الا ان مزاجه البدوي كان يحمله دوماً نحو الجبال والتفكير بارضها العاصية . فقد وجد الهنود لا كفاءة لهم ، ولا اساليب ولا طرق لهم معينة ، ولا خيول عنده ولا كلاب أصيلة ، ولا بطيخ 'مصطر ، ولا عنب ولا خبز طيب ، ولا ماء قراح ، ولا ماء جار في حدائقهم ورياضهم . فلم يكن في الهند على الاجمال ولا لدى الهنود شيء طيب يذكر . فقد ازدراهم من حيث هر مسلم واخضمهم لضرائب خاصة كالجزية كا فرض رسوماً على مزاراتهم واماكن الحج عندهم . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يحمل له الهنود كل حقد واحتقار ، اذ قيل : وكا تراني يا جميل ارأك . فلا عجب ان يتفادى الهنود المنود ، ويتجنبوه ، وان يجلوا الفلاحون عن قراهم ، وسكان المدن عبسن مدنهم . فاهملت الارض وبارت الفلال بعد ان اجدبت المزارع ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها عصابات للارض وبارت الفلال بعد ان اجدبت المزارع ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها عصابات تقطع الطرق وتتمرض للسابلة . ولذا كان عليه ان يجعل من امبراطوريته امبراطورية بالفعل لا بالكسلام .

هذه المهمة كان من حظ السلطان اكبر ان ينهض بهما وان مثكلة تكيف للغول يحقفها على الوجه الاكسل . (١٥٤٢ - ١٦٠٥) . صار اليه مع الهند: السلطان اكسبر الأمر بعد ان توفي ابوه السلطان هومايون ، ابن السلطان بابر ، الذي عرف بالشجاعة والاقدام . تولى اكبر الحكم عام ١٥٥٦ ، بعد ان بدا العوبة بيد امسه ومرضعه ووزرائه . الا انه لم يبدأ بالحكم الفعلي الا سنة ١٥٦٢ ، عندما صرع بضربة من جماع يده رئيس وزرائه . فقد صرف حداثته يلهو بالقنص والصيد . أوتي من القوة البدنية وقوة

الاحتال ، ومن النشاط والشجاعة الشيء الكثير بجيث و اصبح مفزعة الشرق كله ، فقد شابه الانكندر المقدوني من وجوه عدة . فقد كان يروض ، وهو ابن ١٤ سنة ، اشد الفيلة شراسة ، قردت احدى القرى ضده فاسرع يهاجها على ظهر فيله ، ولم يبال بالنبال المنهالة عليه وتتكسر على درعه ، ثم اندفع بفيله فوق الحواجز ، ودخل البلدة وامر رجاله باحراقها . هاجم مرة وهو في الجبال نمرة وصرعها بضربة نجالاه من سبغه البتار . فقد وجدت الهند في هذا الشاب فتاها وسدها .

كان ربعة ، عريض المنكبين ، أعقف الساقين ، تقدح عيناه اللوزيتان النار والشرر ، له شاربان خفيفان وصوت جهوري ، حنطي اللون ، وكان من المهابة والوقار بحيث تدرك من الول الحظة انك امام ملك . فقد كان وقوراً رصيناً . اتصف بالطيبة واللطف . على الاجمال ، عثلك زمام امره ويخفي سريرته . اما اذا ما استشاط غيظاً وحمي غضبه انزل الرعب في القلوب ، وبالرغم مما اوتي من قوة بدنية ، فقد كان دائماً قلق البال ، لا يرتاح ولا يسلو اضطراب الخاطر الا اذا اخذ بعض المسكرات او اخذ شمة من الأفيون .

كان امياً يجهل الكتابة والقراءة ، مع الملاحظة ان زعياء الهنود كانوا دائماً يرددون بان الكنابة ليست بامر خليق بالفاتحين . فقد استمع الى قصص وحكايات كثيرة ، وأوتي ذاكرة هائلة . يحفظ جيداً اسماء شعراء الاسلام ومؤرخيهم ، كا كان وافقاً على تماليم الانجيل والعقائد الرئيسية في الديانة المسيحية ، ومبادىء الهندوكية واليانية والزرادشتيسة . وكان يناقش ويحادل بمعرفة ، في هذا كله ، بدقة واستبانة . عرف بذكاء فطري واسع وبمنطقه السليم . نظر الى الامور من فوق ، من عل ، كا عرف الكثير من الاشياء بتفاصيلها . ملك من الجيسل الثالث . ومع ذلك لا تز ال تجيش فيسه روح البداوة . فقد ادرك جيداً ما فات بابر وابنه هومايون تفهمه . تمت له نظرة شاملة وفكرة عالية عن السياسة والدولة . فقد ادرك على الوجه الصحيح الظروف التي تمت فيها الفلبة المغول وساعدت على ترسيخ دولتهم .

حمة جداً ان يكون جيشه دوماً على احسن ما يكون تدريباً وعدة ، وكفاية وفعاليسة لينهض على الوجه الاتم بالحروب التي تحتم عليه مواجهتها . وقد أدرك جيداً فلسفة التكتيك الحربي القائلة : اذا لم تبادر للهجوم ، استهدفت له وتعرضت له باسرع بما تظن . حارب طوال حياته المديدة مستجيباً لداعي الجهاد المقدس ، من اقصى الهند الى اقصاها > فسدوخ غوجرات (١٥٧٢) ، وصورات (١٥٧٣) ومملكة الافقان في البنغال (١٥٧١) ومملكة ارديستا (١٥٩٢) ، وغزا سلطنة احمد نجار ثم انكفاً على اعقابه ليخمسد ثورة الراجبوت وثورة البنغال وييهار (١٥٨٠) والثورة التي قام بها التيمورين ، كارد التهجيات والتعميات التي تعرضت لها من قبل الاوزبك ، واعاد فتح كابول (١٥٨٥) وضم الى ممتلكاته كشمسير التي اصبحت روضته الغناء (١٥٨٦) فقد تم له اكليل الفاتحين ومجمد الغزاة المطفرين ، واشتهر بتوزيم اسلاب الحرب بين جنوده .

الدولة هي معتمدية الجيش المغولي • استغملال المنتجيس

اختار اكبر من بين ضباط جيشه عماله على الايالات والموظفين الذين كان مجاجة اليهم لشؤون الادارة ، معظمهم اغراب عن الهند اجانب من المرق الابيض . فقد كان ودرى اولاد هؤلاء البيض

الذين يسعون وراء تغيير لون بشرتهم . او تتبلد طبائعهم فيسترسلون البطالة كالهندوس . ولكي تنفتح امام الموظف الابواب على مصراعيها المنجاح والترقي ، كان يستحسن فيه ان ينحدر اصله من جبال افغانستان او من سباسب ايران ، او من بقاع التركستان او من مفوليا . ان ٧٠ ٪ من عماله وموظفي الادارة هم من هذه الأسر التي جاءت الهند في عهد ابيه السلطيان هومايون او اثر تبوئه هو نفسه العرش وآلت اليه مقاليد السلطة . فقد كان بينهم ١٥ ٪ من مسلمي الهند ، و ١٥ ٪ من الهنود غير المسلمين ، لا يصل بينهم المراتب العليا سوى النزر النزر .

فبالنظر لوضع البلاد الاقتصادي ، كان المسلك الوظيفي هـو الذي له قيمت ، ولا سيا الوظيفة في البلاط الملكي او في الادارة العامة التي هي تعبير عن الجيش ، هذا الجيش الذي هو عماد الدولة وفيه قيامها . وقد مثل الجيش بهذه المقادير التي كان يستهلكها من غلال الارض وانتاج البلاد ، المنصر الاكبر في مرافق الدولة الاقتصادية ، كا ان الطبقات المقيمة كانت تستهلك جاذبا كبيراً من محاصيل البلاد ، في الوقت الذي لم تكن لتموض على المنتج بأي شيء . وهؤلاء الطفيليون كانوا من الكثرة بحيث كان يتمذر حصرهم وعدهم . ضم الجيش في مختلف قطماته وألويته ، في جميع المحاء الهند اكثر من مليون جندي . فقهد ألفت قطماته حلقات متسلسلة بينهم امراء الدم من الاسرة المالكة الذين كانوا على رأس وحدات تتألف من ١٠٠٠٠ و وويضروا لهم الخيل ويجهزوهم بما يلزم من عدة وعتاد ، مقابل مرتبات تدفع ان يجندوا الجنود ويحضروا لهم الخيل ويجهزوهم بما يلزم من عدة وعتاد ، مقابل مرتبات تدفع لم . ومن بين هؤلاء الضباط كان السلطان اكبر مختار عاله والموظفين الكفاة المراكز الادارية البارزة فاذا ما عين مباشرة موظفين مدنيين كان عليه ان يمين مرتباتهم وان يوليهم مسؤوليات المنسبدار .

كان السلطان اكبر يتولى الحمكم بنفسه دون مساعدة رئيس وزراء ، يماونه اربعة وزراء وبعض الضباط العاملين في البلاط، وقسم البلاط ورئيس الطهاة . ومن مجموع هؤلاء كان يتألف على الملك الخاص ، الذي كان يقدم النصح والمشورة للملك الذي يحتفظ لنفسه باتخاذ القرار اللازم في نهاية الامر ، وليس من يحد من ارادته او يقف بوجهه ، لا قانون ولا دستور ، يقضي في يومه بالامور العارضة له ، ويستقبل في ديوانه الملكي في جلسات عامة كل ملتمس او مطالب بحق مهضوم ، او متظلم من ظلامة واقعة عليه ، فيجزم السلطان نفسه بالقضايا المختلف عليها . وكان كتبة السر يحرصون على قراراته هذه . اما الادارة فكانت متشعبة للغاية بحيث يجري

تسجيل كل قضية بما يازم من الايضاحات والبيانات اللازمة . كل هذه المعاملات كان يقتضي لها جيش لجب من الموظفين والكتبة ليس لهم محل او ذكر بين مراتب الجيش وصفوفه . ولضبط غلال الارض والمحاصيل ، كان لا بد من عدد محترم من المحاسبين والكتبة ، ومثل هذا العدد واكثر ، لجباية الرسوم ، ومثلهم لمتولي شؤون المال والتحصيلدارات ، وغيرهم من المحاسبين والمنتشين لضبط القيود والاشراف على عمليات الجرد ، وكان الوف من الكتبة يسجلون كل يوم بيومه مجموع واردات الدولة ومداخيل الضرائب ومصروفات الملك كما يسجلون البارز مسن حوادث البلاد وماجرياتها اليومية ، ويضبطون اسماء الاجانب الذين يدخلون البلاد ، مع بيان باسماء البلدان التي قدموا منها والفرض من زيارتهم .

كان للسلطان اطباؤه وفنانوه وشعراؤه ، وكان يميل في حرمه اكثر من ٥٠٠٠ امرأة لكل واحدة منهن شقتها الخاصة وخادمتها ، يقوم على حراسة هذه الجحافل من النساء حراس نساء وخصيان وعدد لا يحصى من العبيد الارقاء .

وكان السلطان يستهلك كل يوم مقادير هائلة من انتاج رعاياه ، يؤتى له بماء نهر الغانج اينا حل ، وكان العداثون يحملون الثلج اللازم للتبريد ، من الجبال كما يحملون الفاكهــة والثهار الشهبة من كشمير وكابول وسمرقند . وكان في خدمة كل فيل من فيلته من ٤ – ٧ اشخاص . وقد اخذ السلطان على نفقتة الخاصة اعالة الألوف من المسايفين والمصارعين والصيادين المعنيين بامور البيزرة . وقد حلاله ان يشيد الصروح والقصور والاضاريح الكبيرة والمساجد الجيلة ﴾ والمدن كمدينة فاثبور سيكاي التي شيدها بين ١٥٧٠ – ١٥٨٠ ؛ بمناسب مولد ابيه وولي عهده . وكان يعين في كل ولاية او صوبا حاكها او منسبدار . وتقسم الولاية نفسها الى عدد من الاقضمة او سركاس على رأس كل قضاء منسبداران احدهما قائد للجيش والآخر ناظر لست المال . وقامت في المدن والمرافىء البحرية ، ادارات مستقلة يعهد بها الى محتسب او كاتوال يكلف بالسهر على امور ألأمن ٬ ومعاقبة المجرمين وتحديد الاسعار ٬ ومراقبة المكاييل والموازين وملاحقة الكسالى والزامهم على العمل ، والسهر على تنفيذ التعليات الصـــادرة عن السلطان . وكان يساعد الموظف القائم على شؤون الادارة ، مثات الكتبة والخدمة ، فحملة المشاعــــل ، وحملة الأسترة ، واهل الطرب والموسيقيين ، والارقاء والخدم من كل نوع ولون. وكان الموظفون الملكيون يمارسون كل السلطات التي يمهد بها اليهم ٬ فكانوا يتقاضون رواتبهم عن وظائفهم من عوائد و جاجير ، وهو عبارة عن قرية او عدة قرى ، يتولى ادارتها ويستغلها كملك خاص ومن ربعها يؤمن مرتبه . وكان في كل ولاية محاسب عام يؤمن النفقات الادارية العامة وبرسل بالفائض من واردات الضرائب والرسوم للامبراطور . اما الجمـــارك او ادارة المكس فكانت تخضم لنظام خاص من التلزيم .

واخيراً قام في كل مكان زامندارات نبلاء يتولون ادارة اراض واسمة ويمارسون فيها كل انواع السلطة لقاء عوائد معينة ، يدفعونها للامبراطور ، الذي كان بوسعه ان يسترد هـذه

الاراشي المقتطعة . وكثيراً ما كان يترك هذه الاراضي لاصحابها يستفاونها كا يشاؤون لتنثقل منهم الى ذريتهم .

وهكذ نجد أنى وقمت منا العين ، عدداً كبيراً من الناس استهلاك الانتاج واستحالة الادخار لا يقومون باي نشاط منتج، وان نشطوا فلا يعطى نشاطهم

اي انتاج . فالنبلاء ، موظفو الادارة والزمندار ، كل هؤلاء ومن لف لفهم ، عاشوا في بذخ اسطوري ، التفت حولهم حاشية طويلة من الطفيليين ولم يكونوا ليعطوا البلاد شيئًا يذكر ، لا من باب المنافع العامة كالطرقات والجسور والقناطر المائية ، وسبل المياه والاقنية الخاصة بالري ، ولا ما يُؤول الى تنشيط الحركة التجارية او يضمن سلامتها . فقد كان من المستحيل ، فيمثل هذه الاوضاع جمع رؤوس اموال ، كما كان من المستحيل على اصحاب الثروات ، ارب وجُدُوا ، ان يستثمروا امرالهم . فلم يكن احد من النبلاء ليجرؤ على التظاهر أنـــه يدخر أو الامبراطور يصادر مخلفاته ، وبذلك تضطر كل اسرة ان تعاود سيرتها من جديد . وعلى مثار هذا قس ايضًا التجار الاغنياء . وكان كل تاجر من طغمة التجار عرضة للبلص والاعتصار عن طريق سلفات اجبارية لا تسدد ابدأ لصاحبها ، كما كان يفرض علمه رسم معين اذا ما اشتبهوا بتوفيره مبلغًا من العملة السائلة . أما الفنانور فكان النبلاء يرغمونهم بالقوة ، وأحيانا تحت طائلة الجلد ، للعمل في خدمتهم بالمجان ، وإن دفعوا فنصف المبلغ المتفق علمه . ولذا كان من المحال عليهم أن يقتصدوا بشيء من دخلهم أو أن يجمعوا رأس مال يستثمرونه بالتي هــــي احسن ، بشراء امتعة او بعض الخامات وكثيراً ما بلغ من شدة فقرهم ما اضطروا معه للاستدانة لشراء الغزل الذي لا بد منه في صناعة الحياكة والنسيج ، او النول اللازم لفزله . وهكذا فقد امتنع كل صاحب صنعة او معمل عن ان يقتصد بشيء . فكل ثروة او رأس مال هي من حق النبلاء او من حق كبار التجار . وبذلك امتنع كل تقدم او تطور واصبح امره من المحال .

فالموظفون لم يكن لهم من هم سوى جباية الرسوم المفروضة على الفلاحين ، والمفروضة على المثات من اصحاب الحرف والمهن ، والرسوم المتوجبة على اجتياز الانهر والترع وغير ذلك من رسوم المرور على الطرقات ، او الرسوم المفروضة على المبيعات او على المواليسيد . كل شيء كان عرضة لدفع رسم عنه . وكثيراً ما كانوا يجبون من الرسوم تأميناً لمصالحهم الخاصة ، اربعة اضعاف ما يرسمه او يعينه الامبراطور ، بعد ان تعذر القيام باية مراقبة او تفتيش . فاذا مسارغب التجار والصناع ان يعاملوا بالعدل والنصفة ، ترتب عليهم ان يجزلوا الهدايا الثمينة .

ولذا رأت التجارة نفسها مقيدة من كل جانب ، كما انها كانت دوما مهددة لفقدان السلام والطمأنينة . ولذا أجبر التجار على السفر قوافل تتألف القافلة الواحدة من ٥٠٠ شخص واكثر تحت حماية قوية من الجند المدججين بالسلام .

وكانت نفقات السفر تريدمن اسمار الحاجيات ، بحيث ان ثمن صنف من هذه الاصناف يصبح في غير متناول المادي من الناس ، بعد ان كانت هذه المواد تقطع في تنقلها من ٢٠٠ – ٢٥٠ كياو متر ، وهذه المسافة هي المجال التجاري لمدينة لها بعض الشأن . والتجارة البعيدة المدى لم تكن مكنة الا لهذه الاصناف او المواد التي تتحمل طبيعتها ، بجالاً اوسع من الارباح ، وهي مسواد قلمة ، على الاجال ، نادرة ، لا تنقل الا بقادير قلمية .

اما الصناعة فكانت يدوية ، يعمل اصحاب المهن والحرف ، بناء على طلب او توصية ببسطء كلي ، وبكسل ، على اجهزة وادوات فقيره ، فلم يكن ليتوفر لهم من الخامات بحيث ينتجون او يصنعون مسبقاً هذه الاصناف الموصى عليها ، مع العلم انهم لم يكونوا يتناولون من الغذاء في اكثر الاحيان ، ما فيه الكفاية ، يعملون بتمهل كلي وببلادة ، وينقطعون عن العمل حالما يتوفر لهم ما يسد رمقهم .

اما الاقتصاد فكان يعول على الزراعة التي هدفت قبل كل شيء لتلبية حاجات المحيط الحملي.

الفلاح ؛ وسائل الانتاج عنسده رمستوى العيش لديسه

كتب على الفلاح الهندي ان يؤمن أود الطفيلين ، في الجيش والدولة . فكان يحرث ارضه بمحراث من الخشب يجسره جاموس ضامر خاوي البطن . يكدن من صدره ويتعرض للاختناق وهو

يجر الحراث : وكثيراً ما استعمل في عداد ما اتخذ من عدة وعتاد : المعول والمجرفة والربش ، وكلها متخذة من الحشب، اذ ان ثمن نصف كياو من الحديد كان يساوي ثمن ١٠ ليبرات من القمح (ما يعادل ثلاث ليبرات عام ١٩١٤) ولم يكن لدى المزارع سوى القليل من وسائسل تسميد الارس، كما أن نظام السقاية كان سيئًا في الشيال الغربي من البلاد ، ناهيك عن أنه لم يكن مطمئنًا الى بقائه في استثبار ارضه ، اذ كثيراً ما كان الموظف ينزعها منه لينقله الى مزرعة اخرى او يستبدله بمزارع آخر يكون اوسع حيلة واقوى طاقة على استرضائه ، او انه ينتزع منـــه الارض ليستغلها هو بنفسه وليس ما يحفزه قط للتوسع في أعماله الزراعية ؟ أو ليستمر في صيانة ما لديه من احواض الماء والبرك ، كما ان الضرائب المفروضة عليه كان معدلها يزيد على ما كان مترتباً عليه منها عام ١٩١٤ ، وتنجاوز قيمتها ثمن نصف غلته . اما تغذيته فكانت سيئة اذ لم يكن ليتناول سوى وجبـة واحدة في المساء تتألف من بعض الارز وبعض البقول مع قليل من الزبدة ويقضي نهاره في مضغ بعض الحبوب الجففة إلحاء للمدة . واقتصر لبسه على مئزر من القطن يستر عورته ؛ ويسكن زريبة من الطين لا مدخنة لها ولا نافذة ، سقفها من القش . واقتصرت امتعته المنزليسة على بعض مراطبين الفخار وبعض الشراشف القطنية ، ولسيرد عنه لسم البرد القارص ليلا كان يستممل رجيع البقر الجفف وقوداً امام باب داره . فاذا ما أجدبت الارض جاء ذلك نذيراً له بالموت جوعاً . فاينها مررت في الحقول أو على مفارق الطرق؛ وقعت منك الدين علىجثث الموتى تفترش عرض الطرقات ؟ او اناساً هائمين على وجوههم وقد غارت عيونهم في ما قيها ؟ وشحبت شفاههم وهلاها الزبد. وكادت نواتيء عظامهم تشق أديم جلده ، وقد ترهسل بطنه كالجيب الفارخ ، وهسو يعوي من إلجوع ، والنساء يبعن اولادهن او يبعن انفسهن ليرسفن في الرق الى الابد . وكانت أسر بكاملها تضع حداً لبؤسها بالسم لتستريح بما تعاني من سغب وتضور ، كسالم يكن من النادر قط ان تأكل نساء اولادهن . وكثيراً ما وقمت الانظار على قوم جالسين على مقربة من نار مشبوبة يستصلون حتى شواط ايديهم وارجلهم ، كا بيسم اللحم البشري في الاسواق .

حاول السلطان اكبر ان يزيد من وارداته المالية بادخــــال السلطان اكبر واصلاح ضرببة الاملاك بعض التحسينات على هذا الوضع المؤسف . وقد استبدل ، عندما توفرت له الامكانات ، المزارع والجاجير ، بمبلغ من المال ، كمَّا استبدل المزارع والتابسع بموظف فقد ادخل نظاماً جديداً من الضرائب على السكان القاطنين السهول الشالية ، الممتدة من مالقان الى بيهار، أو في اجزاء عديدة من مقاطعة راجبوتانا وماكوا وغوميرات قلم يستبق، مبدئياً ، سوى ضريبة الارض ، كما عمد الى تحديد مساحة الارض المزروعة . كذلك عمل على تخمين ممدل الفلة التي تعطيها قطمة ارض ممينة من الذرة والقمح والنيلة والقطن ، وفوض على المزارع دفع ضريبة كل سنة حدد قيمتها كيتفق معدلها مع مساحة أرضه وهكذا راحت الدولة والمزارعونَ يعتمدون مبدأ التغمين . اتخت السلطان اكبر معدلًا له غلة سنة متوسطة ٢ وفرض على المزارع تقديم ثلث الغلة . وراحوا يقدرون النفقات المترتب على المزارع تحملها او تخفيضها ٬ نظام حياة الفلاح كضان له اذا لم يأت حساب البيدر على حساب الحقل ، ولم يخطر السلطان اكبر ان يدخل اي تغيير او تبديل على الوضع السياسي والاجتاعي ، هذا الوضع المرتبط الى حد بعيد ، بالوضع الاقتصادي في البلاد . فبعد أن كان يصني الى المظالم التي ترفع البه وينظر فيها ، كان يتخذ اقصى المقوبات ضد المابئين بمـؤولياتهم من مؤلاء الموظفين . ولم ينج من مراقبتــه الشديدة سوى عملائه العاملين في إطراف الامبراطورية البعيدة .

وجود الفلاح ووصفه امر لم يكن ليفهم على الرجهه الصحيح لولا الدين ، ولولا هذا الادب الرمزي المكتوب باللغة العامية ، هذا الادب الذي كان يحلو للفلاح أن يردد منه ، بشيء مسن التأثر والشعور العميق ، مقاطع تفعل فيه فعل الراح في النفس .

ادرك اكبر ضرورة التقرب من الهندوس ، وضرورة نفسخ روح السلطان أكبر يممل قومية في الدولة . فقد تزوج ، عام ١٥٦٢ ، من اميرة هندية همي ط ايقاط الهندوكية وبعثها البنة الراجا عبر ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة بأن يكوب

باديشاه المسفين والهندوس على السواء. وامرعام ١٥٦٣ ؛ بإلغاء كل الرسوم المفروضة على اماكن الحج الهندوكية ، كما ألغى ؛ عام ١٥٦٤ ، الجزية ، هذه الضريبة التي تصم من تصيبه من الهندوس بوصمة التأخر الديني ، كا ترك المهندوس ملء الحرية الدينية ، وشجع إحياء عادات الهندوس واعرافهم ، كا سمى الى احياء اساليب تفكيرهم . حاول كذلك ان يوسع من نطاق معاومات حسول آداب الهند القديمة ، قامر بنقل الآداب السنسكريتية الى الفارسية . ولما كان الفكر الهندي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالامور الدينية ، فقد شهدت الهند نهضة جديدة في آدابها القومية . فاخذ الكاتب والاديب البراهماني الكبير تولو داس ، يعيد من جديد بسين ١٥٧٤ – ١٦٦٤ ، فاخذ الكاتب والاديب البراهماني الكبيرة تولو داس ، يعيد من جديد بسين ١٥٧٤ – الخلص ، كتابة الملحمة الهندية المشهورة و براميانا ، (بحيرة مآتي راما) ، هذا الآله المتبعد ، الخلص ، الذي كانت زوجته إيدا ، المثل الاسمى لكل أنثى ، فراما اله انساني ، يحب الناس كا يحب الأي كانت زوجته إيدا ، المثل المسيحية بحيث يكفي في مقاطع كثيرة ان تستبدل اسم راما الديانة الهندوكية كثيراً من الديانة المسيحية بحيث يكفي في مقاطع كثيرة ان تستبدل اسم راما بأسم يسوع ، كما ان عدداً كبيراً من صلواتهم الطويلة لا يستنكف احد من المسيحيين من وجودها في كتب الصلوات المتمدة لديهم ، واستقر في يقين الهندوس ان قراءة هذه الصلوات وتسلاوة في كتب الصلوات المتمدة لديهم ، واستقر في يقين الهندوس ان قراءة هذه الصلوات وتسلاوة هذه الأشيد الروحية من شأنها ان تطهر النفس من أدران الخطيثة كمن يستحم في مياه بحسيرة مقده الانشودة هي في نظر هندوس الشيال ، اكثر من التوراة لدى المسيحين الماديين في انكلترا ، وهكذا شهدت البلاد إحياء الهندوكية .

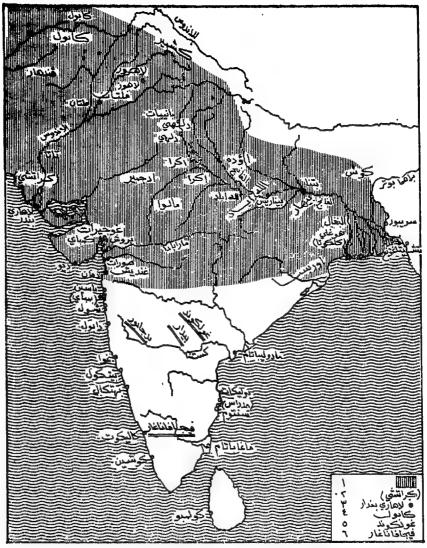
محاولة صهر الشعوب أكبر و « التوحيد الالهي »

عاش الشاه أكبر حتى عام ١٥٧٤ كسلم سني ، مخلص ، ثم اخذت تنلب عليه روح تشككية مع بقاء الشعور الديني قوياً في قرارة نفسه ، فلم يكن ينقطع دقيقة عن ذكر اسم الله ، وقضى حياته

يعبد الله بالروح . الا ان ماشاهد في مملكته من كثرة الطوائف والملل والنحل؛ أقلقه وآلمه كبيراً ولذا لم يكن واثقاً من نفسه ابن تقوم الحقيقة . فخيل اليه يوما انه يستطيع ان يحل هذه المشاكل التي تعترضه ، أو ليست و الملكية نوراً مصدره الله ، واعتقد اكبر في سويداء قلبه انه شماع الله وفيض منه . فأمر عام ١٥٧٥، بانشاء : و بيت العبادة ، وهو منتدى للمناقشات والمجادلات الدينية الطويلة النفس ، تم بعضها تحت اشرافه مباشرة ، ولاسيا ما دار منها حول القضايا الخاصة بالالوهمة .

ومنذ سنة ١٥٧٨ قبل ان يشترك في هذه المناقشات الدينية الهندوس والمسيحيون . فطلب من البرتغاليين في مدينة غوا ان يوفدوا اليه مرسلين مسيحيين ، فجاء ثلاثة مرسلين يسوعين . فاستمع السلطان أكبر الى مجادلاتهم وخرج بما يقرب من اليقين بان المسيحية هي افضل ديانات العالم . الا ان الاستشارية او التفردية المسيحية ، وسر الثالوث الافدس ، ووجوب رذل تعدد الزوجات ، كل ذلك احدث فيه صدمة قوية .

ولذا مال ، اكثر فاكثر ، الى انشاء ديانة عامة ، تضم احسن ما يوجد من العقائد في الاديان الاخرى ، يفرغ فيهاكل الملل والنحل الموجوده في امبراطوريته . وفي اواخر حزيران ١٥٧٩،



الشكل ١٩ ـ الهند عند رفات أكبر

١ - امبراطورية العفون في عهد أكبر ٤ - المقاطعات التي ضمت الى امبراطورية المفول
 ٢ - العوانىء الجديدة ٥ - الدول الاسلامية المستقلة

٣ ـ موانىء لم يمد لها رجود ٢ ـ ألدول الهندية المستقلة

ترأس الصلاة محل الامام في مسجد فاثبور سيكري الكبير . وبعد ان فرغ من الصلاة قــــال : و الله اكبر ، معلناً بذلك انه مشارك للطبيعة الالهية ، وفي عام ١٥٧٩ ، اعلن عصمته امام الناس ، وطالب جميع العلماء والامة جمعاء ان يأتموا بهديه ورأيه. فمن لم يمثثل له ت فقـــد امواله ومقتنياته واستوجب الهلاك الابدي. فالامبراطور هو نائب الشعلى الارض، وينبوع النعم. وهكذا فرض اكبر توحيداً الهيا مع شيء من الحلولية . اوصى بعبادة الشمس وباحترام النار ، واقتبس عدداً كبيراً من المراسم والعادات الدينية الهندوكية واليانية والزرادشتية او المجوسية ، واعلن عام ١٥٧٨ ، انه كيا لا يمكن للانسان ان يكون له اكثر من اله كذلك يجيب الا يكون له اكثر من امرأة . ومن الجائز احتمال الظن انه طلق كل النساء التي كن في عصمته . كذلك ترك حرية العمل والتصرف لكل الاديان ، واصدر عام ١٥٩٣ فرماناً بذلك ، فالديانة التي نادى بها احجبر انما هي نظام ديني ، امبراطوري اكثر منه عقيدة محددة . واستقدم الشاه اكبر نفسه مرسلين كاثوليك من غوا عام ١٥٩٠ و ١٥٩١ ، مع الملاحظة هنا انه كان يتودد البرتفاليين المحصول منهم على مدافع . وراح من جهة ثانية في اضطهاد المسلمين . فالاولاد الذين حملوا اسم محد اجبروا على تغيير اسمائهم ، ورطر على المرأة الهندية الزواج من مسلم ، وامر ببيع بعض الشيوخ عبيداً وارقاء . وراح رجال البلاط والموظفون يعتنقون نظامه ، ان لم يكن رغبة منهم فرهبة ، وحمل كثيرون منهم صورة الامبراطور وكانوا يتبادلون التحية بكلمة . و الله اكبر » وهود تكاثر اتباع المقيدة الجديدة في اماكن كثيرة الا ان هذا المذهب او الطريقة الايمانيات الجديدة توارت عن الانظار وزالت من الوجود بعد وفاة السلطان اكبر ، ولم يبق من عاولته الدينية هذه التي حاول معها افراغ كل شعوب سلطنته في طائفة واحدة ، شيء يذكر .

انحطاط الدولة المغولية ؛ التفكك الاداري وتقهقر العامل الهندوسي

قامت امبراطورية السلطان اكبر على اساس من التسامح والتفام مع الهندوس ، ونظام ضرائبي اصاب الاملاك كان قريباً من نظام المحاصة النسبية ، وهو نظام شابه كثيراً النظام الذي عمل بــــــــ الانكليز ، فيا بعد عند احتلالهم للهند ، وغرس الروح الوظيفيــة

في الخدمات العامة ، والنزعـــة الى تأسيس دولة عصرية . الأان خلفاءه جهانجير (١٥٦٩ - ١٦٢٧) لم يفقهوا شيئاً من هذه السياسة التي اختطها السلطان أكبر ، واخذوا بتفكيك كل شيء ، فقد كان جهانجير يكرع كل مساء عشرين كأساً من العرق القوي بحيث ان رائحته كانت تجمل السفير الانكليزي يعطس . اما شاهجهان الذي عرف في حداثته بالرصانة والشجاعة في الحرب ، فقد انغمس في الملذات ، اثر وفـــاة زوجته المفضلة ، عام ١٦٣١ . اما السلطان اورنكزيب . فقد كان تقياً ، ورعاً ، قانتاً من كثرة الصوم ، لطيف المعاشرة ، ولكن لم يعرف ان يكتسب ثقة الناس لعلمهم انه لم يكن ليحب احداً ، لميلة الفطري الديني : الى الحلم ، اذ كثيراً ما كان يصفح عن الضباط الذين يعصون اوامر السلطان فيمفو عنهم . وقد اهمل هؤلاء السلاطين اهمالاً تاما العادة التي سار عليها أكبر ، اذ كان يستقبل كل يوم اصحاب المظالم ويقضي لهم او عليهم بالسرعة المطاوبة . وقد جهاوا تماماً ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من اوضاع ، فاهماوا امر مراقبتها عن كثب تاركين شؤون ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من اوضاع ، فاهماوا امر مراقبتها عن كثب تاركين شؤون مراقبتها لعالهم ، وعادوا الى احياء عادة مكافأة موظفيهم بتوزيع اقطاعات (جاجير) عليهم ،

كا عادوا الى نظام تازيم جباية الرسوم والضرائب ، وصرفوا النظر عن الطريقة التي سار عليهـــا أكبر بتخمين المساحات المزروعة والمحاصيل السنوية ، وتركوا عالهم يستبدلون ضريبة الاملاك بضريبة توزيمية ؟ فيعاملون كل قرية مستقلة بدلاً من النظر في وضع كل مزارَّ عَ عَلَى حدة ١ كما غضوا النظــــر عن تصرف المزارعين الاكثر بسطة ونفوذاً ؛ في اعتصار الآخرين وتحميلهم فوق طاقتهم . ولم يلبثوا ، بدافع الحاجة للعملة ، ان يبيعوا وظائف الدولة بالمزاد تاركين لمن رست عليهم عملية المزايدة ، الحرية التامة باستعال الوسائل التي تؤهلهم لاسترداد المبالغ الباهظسة التي دفعوها . وقد اخذ الحكام شيئًا فشيئًا ، في توريث مناصبهم لاولادهم ، كمَّا نزعوا ، اكثر فاكثر ، للتصرف في ولاياتهم كأنها ممتلكات خاصة بهم . واخذ هؤلاء الحكام يشعرون اكثر فاكثر المجاجتهم للمال ، كما اشتدت فيهم النفرة من وظائفهم واستشرى استهتسارهم بالمسؤولية . ففي هذا القسم الواقع في منطقية الدائرة الانقلابية ، في الهند ، اخذت دولة كثيراً في عضدهم . فقد قطع بابر سباحة ، كل الانهر التي اعترضت سيره ، خلال الثلاثين سنة من حروبه الدامية بينها كأن النبلاء الذين كانوا بمية السلطان اورنكزيب يرتـــدون انعم الملابس وافخرها ، ولا ينتقلون من مكان لي آخر الا محمولين على يحَفَّة . واخذت الضرائب ترهق كامل الفلاح وتبهظه . فاذا قدّرنا ان معدل ما كار يدفعه الفلاح هو ١٠٠ في عهد أكبر ، فقد ارتفع هذا المدل الى ١٢٥ عند ارتقاء شاه جهان العرش ، كما ارتفع الى ١٦٦ عام ١٦٤٧ ، ثم الى ١٧٥ في عهد اورنكزيب ، قبل ١٦٦٨ ليبلغ سنة ١٧٠٠ ما نسبته ٢٧٨ . وقد زادت نسبة الضريبة الجديدة على نصف قيمة الغلة أو المحصول ؟ فلم يبقى المزارع النصف اللازم لتأمين البذار وأود المعيشة . ففي السنوات الجيدة اضطر العلاح ان يقتطع من الكمية الخصصة لفذائه ، ففقد بالتالي القدرة على العمل . أما في السنوات التي كانت مواسمها سيئة ، فلم يكن لديه ما يطمئن معه لمستقبله او يرد عنه غائلة الجاعة ، فيركبه الهم والقلق والحـــــــيرة . وتلبية لمطالب الخزينة ، كثيراً ما كان الفــــلاح يضطر لبيع محصوله بسرعة وبسعر متدن . ورخص اسمار الحاجيات في المدن ، انما كان يتم على حساب المزارع والفلاح . فالفلاح الوازح تحت وطأة الضرائب والدين ؛ تعطلت لديه كل امكانية لشراء حاجته من الحيوانات اللازمة لاعمال مزرعته او للتوسع بهذه الاعمال ، او ليقوم بزراعات تعطيه مردوداً اكبر كالنيلة مثلاً . ويشهد الطبيب الفرنسي رنييه كيف ان الفلاحين كانوا يهجرون الربف ويهبطون المدينسة مجثًا عن مورد لهم او عمل في المسكرات .

ومع انحطاط الزراعة انحطت بالطبع ، الصناعة هي ايضاً ، اذ ان تكاثر المجاعات وتفاقم الأزمات كان يقضي على الصناع واصحاب الحرف ويقعدهم. فالعاملون منهم بالحياكسة في كورومنديل ، ماثوا جرعاً ، عام ١٦٤٦ . وقد أقفرت مقاطعة رديوتانا وجلا عنها الهلها عام ١٦٣٠ . ولعل افتك واروع الجماعات طراً ، هذه المجاعة التي استهدفت لها الهند عام ١٦٣٠

و ١٦٥٠ . ففي تموز ١٦٣٠ ، مات القسم الاكبر من عمال النسيج الذين يعملون في قصر المنسوجات في مازوليبانام . كذلك في سنة ١٦٣٤ ، مع ان الوضع الزراعي كان قد تحسن كثيراً . كانت التجارة مشاولة تهاماً لغلاء اسعار الاقمشة القطنية ، اذ لم يكن تم بعد تعليم الاولاد صناعة النسيج . وفي سنة ١٦٣٩ ، كانت المنسوجات القطنية في غوجارات أقل جودة بما كانت عليه ، عام ١٦٢٩ ، بعد ان توارى من المهنة ، العمال الماهرون ولم يكن قام في البلاد من حلل محلم بعد . وفي سنة ١٦٥٣ ، لم تكلن المدن استردت بعد ، المهارة التي عرفت بها قبل المجاعة الكبرى ، وهكذا نرى كنف ان الهند اخذت تفتق .

ومن جهة اخرى ، راحت الدولة المغولية تعزل نفسها عن الضطاد المسلين السنين الهندوس . فع ان جهانجير قد عهد بالوظائف الكبيرة في البلاد الى نبلاء الهندوس ، فقد اخذ شاه جهان يبرهن ، اكثر من مرة عن تعصب ديني ، بينا السلطان اورنكزيب الذي عرف بشدة تقواه والذي كان مدة عضواً في فرقة الفقراء ، فقراء الهند ، وكان يحسن القرآن عن ظهر قلبه ، وقد نسخه مرتين عملاً بالآية الكريمة التي توصي بان يعرف كل مسلم مهنة ، راح بنسج القبعات كا راح يصلي الهندوس اضطهاداً لا هوادة فيه . فقمد اصدر او امره الى كل حكام الولايات بان يهدموا كل مدارس الكفار وهياكلهم ، وان يمنعوا تهاماً ، كل مظهر من مظاهر عبادة الاصنام . وهكذا جرى هدم هيكل فكنو في بيناريس ، وحملت اصنام الشعب الى اكرا وردمت مع التراب تحت درجات المسجد ليدوس عليها المسلون في دخولهم اليه وخروجهم منه . وفي سنة ١٦٧٥ ، اعاد أورنكزيب العصل بالجزية ، فتجمهر الشعب حول قصر الامبراطور ، في دلهي ساخطاً غاضباً يوجه اللمنات للامبراطور . وقام الهندوس بردة معاكسة تباورت في هذه الثورة اللاهبة التي قام بها المهرات والسيخ .

وعملا بما فيه من روح التعصب الديني واستجابة منه لمتطلبات الحكم ، أعلمن اورنكزيب الحرب على ملك الدكن الذي كان على المذهب الشيعي ، والذي بقي ٢٣ سنة دون ان يتجمه لشهال الهند . وفي الوقت ذاته ، قام يصرف من خدمته الفرس الشيعة الذين ألفوا نواة جيش أكبر فكانوا دوماً اكفأ العناصر الفنيسة في مجلس اركان الحرب ، كها كان على وشك الاصطدام بالمهرات .

التفت المهرات فرعاً من فروع قبائسل الفات الغربيدين ودة الفعل الهندكية : المهرات انقطعوا للاعمال الزراعية بين غوا وغودافيري ، فقد كانوا على الاجمال ، ربعة ، اشداء ، نزعوا الفروسية ولملاعبها الحقيفة ، وكثيراً ما ادخلهم ملوك بدجابور المسلمون في خدمتهم انتفاعاً بمهارتهم وشجاعتهم ، فنال زعماؤهم مراتب عالية ونفوذاً كبيراً . وقد راح واحد من ابناء هؤلاء الموظفين هو سيجافي عام (١٦٢٧ – ١٦٨٠) الذي عرف عنه عصبيته للهند وغيرته الدينية ، يبعث فيهم روحاً قومية وشعوراً حاراً بالوطنية .

وعندما تبدّى له ان حصون الغات أهمل امرهـا وضعفت حامياتها ، أخذ يهاجمهـا ويستولي عليها الواحد تلو الآخر ، كها راح يدافع عن الهندوس ضد تعديات المسلمين وشرع سلسلة لا تنقطع من اعمال السلب والنهب والعبث ، واسعة المدى ، يهاجم القوافل والركبان عام (١٦٤٨) . ومنذ ذلك الحين ، اخذ يتوافد عليه كثيرون من متطوعة الهند ، قدموا مــن جيع اطراف البلاد ، بعد ان اصبحت الحاولة المهراتية ، في روحها واهدافها ، محاولة وطنية وقومية ، وتجربة حربية عسكرية ، على نطاق واسع ، فألف منهم جيشاً قوياً يستثمر ما وقع تحت امرته من البلاد ؛ على غرار الحكام المسلمين ؛ ويقف منهم على طرفي نقيض . وكان زعماء المهرات من الفئة الاخيرة بين طبقات الهند Soudrus ، يقومون على خدمة الطبقات العليا . هل كان المهرات ، يا ترى ، يعلقون فعلا ، أهمية كبرى على نظام الطبقات في البلاد ؟ والحركة الوطنية التي نهضوا بها ؟ أكانت ترمي بالفعل الى تحرير الهند والهنود من النظام الطبقي الذي رسفت فيه الهند منذ مئات السنين ؟ ومها يكن ؛ فقد قامت فرقة الخيالة الخفيفة الحركة لدى المهرات ، بسلسلة من الغزوات بقصد السلب والنهب ، اوغلت معها بعيداً في بمالك بدجابور وغوكوند ، كما اوغلت عميقاً في الاراضي الخاضمة للمغول . وغزا سيجافي مدينــــة صورات ونهبها ،عام ١٦٦٤ ، كا غزا الخندش ، عام ١٦٧١ ، وراح يفرض على كل ناحية تطؤها سنابك خيله ، الربع من ايراداتها ، شرطاً منه ليجمل السكان في مأمن من غائلة السلب والنهب . فاذا ما رفض القوم قام المهرات بسلب كل شيء . وهكذا وقعت هذه المقاطعة فريسة العمليسة اعتصار على نطاق واسم . واستمرت مملكتا غولكوند وبدجابور على دفع الربع المترتب عليهها دفعه للمهرات ، إلى ما بعد وفاة سيجاني . وتعتم المهرات بشعبية واسعة بـــــين الهنود فنظروا اليهم كأبطال وطنيين، يذودون دونهم ضد الغزاة المسلمين ويلقون منهم كل أزر وأيد، وارصاداً ، اخبار الاعداء ، وحركاتهم وسكناتهم .

باءت بالفشل كل المحاولات التي قام بها قواد اورنكزيب ضد ملوك الدكن وضد المهرات ، وتابع هؤلاء غزواتهم وحروبهم التي كانت تؤمن لهم الموارد التي هم مجاجة اليها ، وتضمن لهم نيل الاستقلال بمناى عن الامبراطور . الا ان سوء المظن الذي دب بينهم بجعلهم يوزعون القيادة بين قائدين متنافسين كا راحوا يبدلون كثيراً من القواد . وقد استلم اورنكزيب نفسه قيادة جيشه سنة ١٦٨٨ ، من احمد نجار ، وله من العمر ٣٣ سنة ، وبقي يحاربهم ٢٦ سنة . وهكذا اخضع لحكمه كل الدعن حتى الحكم المجلسين المستبدين الذين حلوا محسل امبراطورية الفيجاينغار ، والقائمين الى الجنوب من تريشينوبولي . ولم يربح من وراء هذا الجهود الحربي الطويل سوى اراض انجردت من كل خيراتها لكثرة ما تعرضت له من الغزو والسلب ، واصيب بالحيية امام المهرات . فلم يعد له ماكان لآبائه من فرسان راجبوت المعروفين بخفسة حركاتهم وسرعة مناوراتهم ، بعد ان احرجهم فاخرجهم واعلنوا العصيان والثورة لغرائبه . اما جيشه وسرعة مناوراتهم ، بعد ان احرجهم فاخرجهم واعلنوا العصيان والثورة لغرائبه . اما جيشه

فكان لجباً للفاية اذكانت مضاربه تضم خمسة ملايين منالاملين تحت تصرفهم ٢٥٠سوقاً، يمتارها ٦٠٠٠٠٠ فارس واكثر من ٢٠٠٠٠٠ من البيادي ، وكان الضباط ضعافاً ، ظرفاء في مظهرهم ، سروجهم مريحة للغاية ومزركشة ، كأنهم يعملون في استعراض عام ، ينزلون الخيام الفخمة ، اما الجنود فكانوا نخنثين ؛ يرفعون اصواتهم بالتذمر ؛ اذا لم تكن خيامهم على مثل مخيمهم في اكرا من البذخ . بينا لم يكن المهرات ليحتاجوا حتى يحيوا حياة طيبة ؛ الا لفطيرة من خسبز الذرة وبعض البصل. وكيف العمل ضد هؤلاء الفرسان الذين لم يكن من سبيل لالقساء القبض عليهم ، والذين عرفوا ان يتجنبوا خوض معارك كبيرة ، فعملوا فئات صغيرة ، مشتتـــة ، ينقضون فجأة على الوحدات المنفردة او المعزولة ، ويوجهون الضربات القاصمــة الى جناحى الجيش يطلقون النار على الحشود الضخمة ثم يتوارون ٬ ، ويزرعون الهلم والفزع اينا حاوا ٬ يقطمون المزروعات بحيث تضطر فرق المدو للتوقف عن الحرب ، لحاجتها الشديدة الى المؤن والعتاد والعلف اللازم لخيلهم . وهل من حل غير احتلال حصون الغات ? كانت هـــذه الحصون وافرة المدد يستميت حماتها في سبيل الدفاع عنها . وكان الوقت الذي يفصل بين فصليين من الامطار الموسمية ضيقا للغاية وقد شاخ اورنكزيب وتقوست ظهره وابيضت لحمته واصبح الامبراطور للتقهقر والانكضاء حتى مدينة احمد نجار التي انطلق منها هجومســـه ، قبل ذلك بر ۲۳ سنة .

في هذه الاثناء ، ظهرت في الشيال الغربي من الهند ، قوة جديدة كان ردة الفمل الهندية : السيخ لها شأن في تاريخ تطور البلاد ، نشأت عن اسلوب جديسد في تفسير الهندوكية وشرحها ، تَبْلُت في طائفة السيخ التي كانت قدَّى في اعين الهبراطورية المغول في الهند وشجى في حلوقهم وحملت للمسلمين بفضاً أزرق . فقد بمثت من سباتها الطويل نزعة الهندوكمة القديمة الى التوحيد . فالريخ فيدا ، الكتاب الاول من كتب الهند الاربعة المقدسة الذي يضم نواة الفلسفة البراهمانية ، كثيرًا ما اعلن وجود اله ، هو سيد المخلوقات ، والكائــــن الاعلى ، اللامتنامي ، الذي تبقى الالهة حياله خداماً له تستمد منه الوجود . غير ان البراهمان جملوا من الله روح العالم ممتزجاً بالمادة ، لا فردية له مميزة . وقد راح عدد كبير من الهندوس ، ولا سيما بين الجنود ، يمتقدون وثيقاً ان روح العالم كانت تتجسد وتتلبس جسد انسان وتبسدو عن طريق بمض الاجسام في مظهر خاص يتلبسه الله هو : « المايا » والوهم ؛ يمكن الاقتراب منه أو الدنو اليه بواسطة الصلاة . وهكذا رأينا عدداً كبيراً من الهندوس يعبدون الله بشكل فكنو الذي يمثل روح العالم متجلياً في العناية الربانية او الالهســة . فني القرن الحامس عشر وتحت تأثير الاسلام مباشرة ، قام مجددون هندوس ، امثال راماناند في مدينة بيناريس ، وغـــوراغ ، في البنغال ، وكبير احد تلاميذ راماناند ومن اتباعه الحيمين ، وفالا"ب ، احد البراهمــان الذين هاجموا بمنف تعدد الآلهة ورذلوا عبادة الاصنام ؛ وطالبوا بان يتحرر الناس من نفوذ الكهان

ونادوا بالطهارة والنقاوة الداخلية ، والعبادة بالروح ، كا نادرا عالياً ان الاعبان يطهر النفس من ادرانها وينقيها، وطالبوا بالغاء نظام الطبقات، كا اعلنوا ان التقوى لا تتمارض قط مع واجبات الانسان العادية .

ناناك والغول بديانة انسانية عامة

كان لتعليم المصلحين: كبير وغوراغ تأثير بيّن على المجدد والمصلح الديني نائلا (١٤٦٩ – ١٥٣٩) الذي رأى النور على مقربة من لاهور ، في اسرة

التي تأتي ، في الهند ، دون البراهان والكهنة ، وكان يتجر بالحنطة وينصرف لقراءة القرآن والشاستراس. وقد علتم ان الانبياء العرب وانبياء الهندوس مم مرسلون من الله لارشاد البشرية والشاستراس. وقد علتم ان الانبياء العرب وانبياء الهندوس مم مرسلون من الله لارشاد البشرية الى الهدى والصراط المستقيم ، وواجب عبادة الله الابدي ، الكلي القدرة ، الكائن منذ الازل ، وقبل كل شيء ، وبارىء المالم ووارثه ، الكلي الحضور ، الموجود في كل مكان وزمان ، موجود مع العالم ، متسام فوقه ، ومتميز عنه . فالله هو عب العالم ولا سيا المخطأة والبائدين ، لا يلتقي بالقدرية واعداد الحتارين منذ الازل . ولكن هذه النعمة _ نعمسة اعداد الحتارين المخلاص _ بالقدرية واعداد الحتارين منذ الازل . ولكن هذه النعمة _ نعمسة اعداد الحتارين المخلاص _ يعطيها الله وينميها في الانسان على نسبة ما يسير الانسان بوحي قواه المقلية وارادته . فالله يحمل الحلام في متناول كل البشر من اي نوع او جنس كانوا ، كالخطأة والنساء والمنبوذين ، دونمسا الحلاص في متناول رب الحسرة والفلاحين والحاربين والنساك ايضاً . اذ أن المهم ، في نظر الله ، هو العبادة بالحق و الروح هو الايمان والحبة والامتثال المشريعة الالهية ، وعمل الخير والبر . اما الطقوس والصيام ومراسم هو الايمان والحبة والامتثال المشريعة الالهية ، وعمل الخير والبر . اما الطقوس والصيام ومراسم وقالم و وقلاوة المسبحة ، والزهد والتقشف ، فأشياء واعمال لاقيمة الما ولاشأن .

وحملاً بناموس «كارما » وهو الناموس او القاعدة التي بموجبه لا بد للانسان ان ينال ثرة جهوده واتعابه ، فن أتى اعمال البر والتقى على رجاء المثوبة والمكافأة ، خضعت نفسه ، بالضرورة المتقمص وتناسخ الارواح » على ان يلد من جديد في ظروف افضل تساعده ، اكثر فأكثر على التطور الادبي والروحي . اما من يكون اتى اعماله البارة تقية ، لجد الله ووجه الكريم ، فلا تخضع نفسه المتقمص ، فيبلغ السعادة ويدخل النرفانا ـ السعادة ، ينمم بها بصحبة فالكريم ، ولا يدوب مع الكائن او الوجود المطلق ، بل بتحد اتحاداً كاملاً مع الخالق ، فيزول منه الضمير الفردى ليدوب في ضمير الله .

وهكذا نرى ان ناناك لم يلغ الهندوكية . فقد احتفظ منها بما فيها من تعاليم ساميسة ، ولا سيا بعقيدتها الاساسية و لا مايا ، " هذه التجليات المختلفة في مظاهرها ، ش " مثلة في براهمان ، وفكنو " وشيفا ، وغيرهنا ، وفي التقمص Karma والسعادة Nirvana ، ولكن بابرازه وحدانية ألله وشخصانيته ، وبافاضته على علاقات الانسان بالله هذه الروحانية ، فكأن به يلغيها

بالغمل ويبطلها . وعندما ألغى حدود الطبقات المباعدة ، باعلانه المساواة العامـة بين من يعبدون الله بالحق والروح ، مهاكانت لبوسهم ، قام بثورة جذرية يمكن للهند معها ان تخرج منقاة ، مطهرة ، متجددة ، متخففة من هذه الطقوس الجامدة التي 'ترزحها وتقعدها الى الحضيض . وإذذاك فقط تأخذ بالتطور والناء .

علم ناتاك انه لابد للريد او التليذ ان يسترشد ب: Gourou ، المرشد لتنظيم السيخ او معلم مرشد يحمل في نفسه روح الله ، اعلن عنه واوحى باسمه ، المرشد السابق . ومن خلفاء ناتاك في دعوته هذه والنهوض برسالته من بعده : امسارادار الذي توفي عام ١٥٧٤ وهو ممن تتلمذ عليه أكبر ، والذي راح يشدد على خواء حياة التأمل ، وحال دون استحالة السيخ الى فرقة جديدة من هذه الفرق الهندوكية المتنسكة ، العديدة في الهند . وقسام بلنظ سيخ المرشد والمعلم أرجون ، المتوفي عام ١٦٠٦ ، فجمل من مدينة أمرتزار محور اللبيانة الجديدة والقبلة التي يتجه اليها حجاج السيخ ، فنمت وتطورت واصبحت من مدن الهنسد الكبرى . واخذ بجمع افكار نانك باعتباره التجسد الاول لله ، كا اخذ بجمع ما كتبه اسلاف الكبرى . والف من هذا كله ما يعرف به و الكتاب ، ورتب الشريعة الدينية والادبية ، وانشأ لها مراكز ونوادي لاستقبال الانباع والمريدين ، في جميع المدن والولايات ، وقرر وجوب عقد اجتاع عام كل سنة . ومنذ ذلك الحين أرفف السيخ العمل بهذا النظام ، وانشأوا لهم شكلا حكوما .

اخذ المساءون باضطهاد السيخ في عهد السلطان جاه نجير . واذ السيخ ضد المسلمين _ خالصة الله ذاك نهض المرشد هارغوبند ، ان ارجون بهاجم ضابط السلطنة المغولمة في البنجاب حتى وفاته (١٦٤٥) ، وكتب له النصر في معارك كثيرة ، فأخذ الناس يقدسونه . وازداد اضطهادهم شـــدة واحتراماً في عهد اورنكزبب ؛ واصبح المرشد غوبند_ سنخ٬ حقيد المرشد هارغوبند ، المدو اللدود للمسلمين في الهند . وقد سوَّلتِ له نفسه أن يجسل من الهندوس المغلوبين على امرهم شعبًا جديداً ٤ متجدداً ، ينهض للعلى ويشرئب بنواظره نحسو المجد . وشرع هذا المرشد منذ عام ١٦٧٥ ، مجشد المريدين حوله والاتباع . ومــــم ان جيشه كان لميماً من الحشود جيء بهم من مختلف الطبقات الاجتاعية ، فقد جمل منهم الايمان الشديد الذي نبض في عروقهم ، جنوداً اشداء جديرين بكل تقدير وإكبار . فأنشأ لهم ، قبـل كل شيء : معمودية السيف او الدم . فمن منهم تسلح به اصبحوا أسوداً Singlis ، اما الباقـــون فقد ألفوا فرقة Sohidjuris ، اي فرقة هؤلاء الذين يعيشون بيسر، اي التجار ورجال الصناعة. . امــا حفلة معمودية السيف ، فقد قامت بوضع سيف ذي حدين في الماء وتحريكه بشدة ، وترداد اسم ناناك وتلاوة الاناشيد ، ثم يجري سكب الماء المقدسة براحة اليد ثم ترش المساء على رأس المعتمد وعيليه ٬ فيمضي هاتفاً هتاف جنود السيخ في الحرب؛ يا امـــــة الله ! الظفر لله . وراح غوبند سنغ يطلب من امراء الهند (الراجا) الساكنين في المناطق الجبلية ان يعتميدوا المحموا انفسهم من الاتراك (المسلمين) . فكانوا يجيبونه : « باستطاعة التركي (المسلم) ان يأكل شاة بكاملها ؟ فكيف يمكننا نحن الذين نقتات بالإرز ان نجابه من لهم مثل هذه القوة » . وكان غوبند سنغ يجيبهم : « المعمودية تجعل من السنخ المقتمد مساويا للمسلم في قوت » ، ولم يلبث ان أخذ عدد كبير من المنبوذين يعتمدون ويأكلون اللحوم ، بعد ان تخففوا من مراسم الدين وطقوسه واصبحوا جنوداً اشداء .

كان على السيخ ان يرخي شعره وان يقتني مشطا وسيفاً ويلبس سروالاً مقشمراً وسواراً من الفولاذ. كذلك كان على السيخ ان يبرهنوا عن ولإئهم الشديد نحو رؤسائهم والا يديروا ظهورهم للعدو ، وان يؤمنوا بان كل الناس سواء هم . عليهم ان يستحموا بعد نهوضهم باكراً عند الفجر ، وان يتلوا اناشيد المرشدين ، وان يتأملوا في الخالق كهاكان عليهم ان يرذلوا جانبا خرافات الهندوس : كمراسم الحج، وقتلل الاولاد ، وحرق الارامل على محرقة بعد وقاة ازواجهن ، والزموا انفسهم بأكل اللحم على شرط ان يكون الناحر او الذابح احد رجال السيخ ، على ان يقوم بنحر الذبيحة بجزة واحدة ، كا عليهم ان يتنعوا عن التدخيين وتعاطي الحر وانواع المسكرات . اما الميزة الكبرى التي يجب ان يتحلى بها السيخ فهي التقوى والشعائر الدينية تغذيها تلاوة الاناشيد الروحية وترداد اسم الله بحرارة وتوق ، والانصراف الى التأمل ، الدينية تغذيها تلاوة الاناشيد الروحية وترداد اسم الله بحرارة وتوق ، والانصراف الى التأمل ، وغير ذلك من اعمال البر والتقى ، اذ و بدون هذه الاعمال التقوية لا يمكن للمرء ان يخلص » . وكان اعتقادهم بانهم مختارون ومدعوون للخلاص يدفع فيهم الحاسة في الحرب ، حتى ان المظهر وكان اعتقادهم بانهم ختارون ومدعوون المخلص يدفع فيهم الحاسة في الحرب ، حتى ان المظهر الخارجي للمنبوذين تغييه .

حاول غوبند سنغ ، منذ ١٦٩٥ ، ان ينشىء مملكة للسيخ بين نهر الجوما والستلج ، ونهض لحرب اورنكزيب حتى الرمق الاخير . فقد نفخ في المغلوبين على امرهم روحاً جديداً ، طلقوا معه الجود الذي عرف عنهم من قبل ، كها عرف ان يبعث فيهم الشعور بالكرامة الانسانية في نشدان روح الحرية . وعندما توفي اورنكزيب ، نهار الجعة الواقع في الرابع من اذار ١٧٠٧ ، وله من العمر ٨٩ سنة ، قضى منها ، ٥ سنة ملكا على الهند ، كانت الامة الهندوكية أفاقت من سباتها العميق . وهذه الهندوكية التي عاد اليها وعيها ويقطتها ، انتصبت بكل ما لها من شخصية ، ضد الاسلام ، متمردة على هذا الاستعار البغيض الذي وقعت فريسة له من قبل الامبراطوية المغولية ،

٢ – العالم الهندي واوروبا

كان هم البرتغاليين الاول نشر الانجيل والمسيحية في ارجاء آسيا ومنافسة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على أسواق البلاد التجارية ، بحيث لم يكن ليهمهم كثيراً احتلال الهند او بعض

موانثها الا بالقدر الذي يخدم مصالحهم التجارية واغراضهم المادية . فقد خيل اليهم ان احتلالهم لبعض المرافىء والموانىء الهامة على ساحل الهند الغربي ، من شأنه ان يساعدهم كثيراً على تحقيق مساير مون اليه من اهداف اقتصادية . ولذا تألفت امبراطورتهم من سلسلة متصلة الحلقات من هذه المرافىء والموانىء ومن الجزر المتناثرة في عرض البحار بما يقسع على طريق اساطيلهم التجارية السبقي تشق عباب اليم من البرتفال حتى مشارف الشرق الاقصى ، في افريقيا وآسيا . فهالك الهند القارية او البرية لم تكن لتستطيع الوقوف بوجه الاساطيل البرتفالية ، كها ان حصونها وقلاعها كانت اعجز من ان تصمد لضرب المدفعية الاوروبية . وهكسذا تم اقتسام صامت لعالم الهند والشواطىء البحرية عامت لعالم الهند والشواطىء البحرية .

الحركة التجارية في الحيط الهندي عند ظهور البرتغاليين فيه

عندما بلغ فاسكو ده غاما ، مدينة كوشين ، عام ١٤٩٨ ، كانت الحركة التجارية في الحيط الهندي تقسوم على اساس قسوى من النظام والتنظيم . والاوروبيون الذين اضطلموا ،

على التوالي، بالنشاط التجاري في هذا الحيط، الى سنة ١٧١٥، حيَّلُو محل التجار، والبحارة الذين سطروا على الحركة التجارية في هذه البحار، في القرن الخامس عشر، ثم اخذوا يستبدلون بمضهم البعض دون ان يدخلوا اي تفدير ملحوظ او اي تطور محسوس . كانت الحركة التجارية بيسد ويؤمنون الجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية الناشطة في الحبط الهندي بسين افريقنا غرباً. وآسما شرقاً . وتلاهم في هذا الجال الصابئة Pursis في غوجارات ، والشطى في كورمانديل، ثم الصينيون واليابانيون . وكانت التجارة تتم على مرحلتين ، او ترتكز على محطتين رئيسيتين : سواحل الملابار ؛ في الهند ؛ حيث كانت مدينة كالبكوت تؤلف المرفأ الرئيسي ؛ وهو مينساء واقع في امارة زامورين . اما الثانية فكانت مالقا . كانت مألقا وسلطنتها من هذه الانشاءات الق اوجدها المسلمون ، كها كانت نقطة الالتقاء للحركة التجارية بين الحميـــط الهندى وبحار الصين , وكانت هذه المدينة النقطة التي يلتقي عندها التجار المرب والفرس والصابئة والشطى والصينيون واليابانيون الذين قلما تجاوزت سفنهم مضيق مالقا ، باستثناء بعض قوارب صغيرة بلغت عرضاً واتفاقاً، سواحل كورومانديل . وفي هذه النقطة بالذات كان يقم التبادل التجاري بين محاصيل الصين والسيام وجسور التوابل وجزر الصوند مع البضائع والمحاصيل من انتاج الهند والجزيرة العربية وافريقيا واوروبا . وكانت عاصيل الشرق الاقصى تجمع فيها بعد في مدينة كالبكوت والمرافىء الواقمة على مقربة منها . يضاف اليها الفلمل من مقاطمة الملابار ٢ والمحاصل الهندية الاخرى . كالفرفة والحجارة الكريمة من سيلان ، والنيسلة من غوجارات والمنسوجات القطنية والجـــوت من البنغال وغوجارات والبنجاب ، والافنون والمقاقير ، ثم يجزي شعن كل هذه السلع عبر البحر الاحمر والخليج الفارسي والاقطار الاسلامية الواقعة حول حوض البحر المتوسط الشرقي واوروبا " مقابل الذهب ، ولا سيا الفضة ، وخيل العجم، وجياد الجزيرة العربية التي اشتد عليها الطلب عند الجيوش المتحاربة " والحرير الخام واللآلىء من بلاد فارس " والسبن والعطور من العربية ، والنحاس والقصدير ، والزنسك والرصاص ، والزئبق والحرائر ، والمخمل والديباج ، من اوروبا ، وهي تصل عن طريق البلدان الاسلامية ، والعساج والعنبر والمرجان والعبيد من افريقيا ، وكلها مواد واضناف لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكمة .

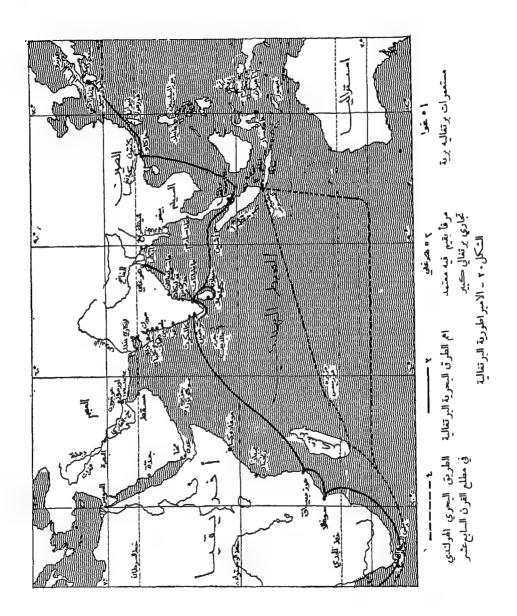
ولكمي ينشيء التجار لهم مركزاً تجارياً او وكالة تجارية في مرفأ مــــاكان علمهم ان يحصلوا بذلك على رخصة من سلطات البلاد التي كانت تجيز لهم انشاء مراكز تجارية تضم ابناء الجالســـة الاوروبيين ؛ مع الاعتراف لهم بمهارسة قوانينهم الخاصة وعاداتهم ؛ ويتولى رئيس من ابناء هذه القوميات ؛ كل بحسب جنسها ؛ امور الرعية . ويتمتع هذا المركز الذي كثيراً مــــا يكون ا مرفأ ، بإعفاءات ملكية باعتباره ارضا اجنبية لا تخضم لادارة الدولة . ولما كان هذا الاعفاء قابِل للالفاء والنسخ من قبل ملك البلاد ، وجب على الوكالة التجارية ان تحتاط للامر بتوفــــير نقطة ارتكاز لها ، وتأمين شيء من التفوق البحري بحيث يؤلف تهديداً لممتلكات الملك البرية ، وقرض الحصار على المرافىء والموانىء الواقعة تحت اشرافه ، والحؤول دون وصول السفن الى مرافئه، وحمل الملك على المفاوضة بشل حركة الجمارك ، بالتالي تخفيض مداخيل الدولة ووارداتها من المكس ؛ ومنم وصول الاسلحة لديه وغير ذلك . والا اضطر التجار للانتقال من المرفأ الى الحصن بحيث يكونون بمأمن. ولذلك كان عليهم ان يوسعوا سيطرتهم على النواحي المجاورة للقاعدة التي يحتلونها ، وتأمين سيادتهم على السكان القاطنين فيها ولا سيها السلطة التشريمية والسلطة التي تفرض الرسوم او تجبيها . ففي الهند وفي شبه جزيرة مالقا ، كان التجار المسلمون لا يزالون بعد عند مرحلة الوكالة التجارية ، اذ ان نظام التضامن الذي عملوا به وساروا عليه ، كان يتيح لهم قفـــل المرافىء الخاضمة للملك المتمرد دون اضطرارهم لحمل السلاح . اما في المرافىء الواقمة على سواحل افريقيا الشرقية التي لا تزال على البربرية ، فقد بلغ التجار فيها مرحلة الحصن .

لم يكن ليسمح ببقاء السفن طويلا في موانى، آسيا الموسمية خشية ان يفتك السوس بها ، وتجنباً لاسترسال البحارة في الفسق والقصف في هذه الاقطار الحارة . كذلك وجب الاستفناء ، مسا المكن ، عن الوسطاء تفادياً للتكاليف الباهظة . ولذا اسس التجار لهم محلياً ، وكلاء او ممثلين اقاموا في هذه المرافىء او في بعض الجزر ، كلفو شراء التوابل مباشرة من منتجيها في زمن القطاف ، محتفظون بها في مستودعاتهم ريبًا تصل السفن المعدة لشحنها ونقلها . وعلى مثل هذا سارت المعاملات المتعلقة بتوسيق هذه المحاصيل . وكانت الارباح الموسمية هي التي تتحكم بنظام المواصلات وسير السفن . كانت هسنده الارباح الموسمية تبدأ ، على سواحل الملابار ، في اوائسل حزيران مما مجمل من الصعب جداً على السفن مفادرة موانئها لمعاكسة الارباح لها ، كما نستحيل على اي سفينة القدوم المرفأ لئلا تتمرض المطل او المتحطيم . ولذا كانت المرافى،

تقفل في اواخر ايار الى اوائل ايلول. ولهذه الاسباب حرصت السفن على ان توقيّت قدومها في الوقت الذي تهسب فيه الارياح من الشهال ، وقبل ان يتحول اتجاهها . فالمرياح الشهالية كانت ملائمة لمفادرة السفن موانئها واقلاعها . وكان لا بد من الاقلاع باكراً بحيث تتجاوز سيلان الى الشرق ، وتبلغ الموزمبيق ، في الجنوب قبل ان تكون الرياح الموسمية تحولت من جديد الى الجنوب الغربي . فالرحلة البحرية نحو الجنوب كانت تتم بين ايلول وكانون الثاني . اما في البحر الاحمر ، فترتب على السفن ان تفادره للهند في آذار ، وكان نيسان احسن شهرور السنة لاجتياز مضيق باب المندب .

كانت حركة السفن تبلغ اشدها ، في مرفأي مخا وجدة ، في شهري ايار وحزيران . وكانت السفن تلتجيء وهي في سبيل عودتها ، الى نقطة ما تقع الى الشهال من جزيرة سوكو تورا . اما اذا اتفق وكانت الرياح الموسمية في الجنوب لا تزال على شدتها ، فالسفن لا تصل الى الهند الا في المبلد الا في المهند التي جهة مالقا ، فالوقت المناسب للاسفار البحرية هو الفترة الواقعة بسين ايلول ونيسان . فالسفينة التي تفاجئها الرياح الموسمية كان عليها ان تتوقف مدة طويلة ، وبذلك 'تفو"ت عليها فرصة طيبة للكسب والربح . والسفن التي كابت تنقل الحجاج بحراً الى مكة من مالقا ونواحيها ، تراوح حجمها بسين ٢٠٠ – ١٠٠٠ برميل ، بينها لم تكن سفن الشحن لتتسع لا ٢٠٠ – ٣٠٠ برميل ، بينها لم تكن سفن الشحن لتتسع لم ميلا . ورميل ، بينها تراوح حجم السفن الصغيرة التي تسير والساحل بسين ٣٠ – ٤٠٠ برميلا .

وقد تم لهؤلاء التجار الآسيويين من مسلمين وصابئة وشطي وصينيين ، خبرة واسعة لاطلاع دقيق على قانون العرض والطلب ، يحسنون على خير وجه ، المعاملات الخاصة بعقد الصفقات التجارية والاحتكارات ، كسيا يحسنون الافادة من السياسرة والعملاء ، واعمال الصرافة والمضاربات ، ويؤمنون على معاملاتهم بسندات مالية . فلم يكونوا ليجهلوا ما يتعرضون له هم وبضاعتهم من مخاطر ، وما يتهدد مشحوناتهم من أزمات وافلاسات . وكشيراً ما عولوا على التحاويل والسفاتج المالية في معاملاتهم التجارية . فاذا ما اراد تاجر ، مثلا ان يشتري بضائم بقصد تصديرها لصورات ، استطاع ان يجد حاجته من المال في اكرا ، وذلك باعطائه تحويلا على صورات تستحق بعد شهرين ، مع حسم واحد في المائة . وكان باستطاعته ان يحصل من على صورات على المبالغ التي تتعرض لها البضاغة من اخطار البحر والقرصان . وحكان يلحق الفائدة نفسها نوع من التأمين . ومبالغ من هذا النوع كان بالامكان تأمينها لمن يرغب في شراء بضائع له من جزر الفيلبين . وكان يقدوم على الساحل اسواق ضخمة ، موحدة ، قبل غوجارات ملابار ، وصورات ماسوليباتام لسهولة النقل البحري . اما الهند ، موحدة ، قبل غوجارات ملابار ، وصورات ماسوليباتام لسهولة النقل البحري . اما الهند ، فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فللحصول على بضاعة ليست في فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فللحصول على بضاعة ليست في فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فللحصول على بضاعة ليست في



السوق ، كان يقتضي له سنتين . وتقطع البضاعة في انتقالها ١٨٥ كيلومتراً ، بما يزيد في كلفتها وبالتالي في ثمنها .

لم يدخل البرتغاليون اي تغيير يذكر على الاوضاع السياسية الق الامبراطورية البرتغالية: استمرضنا لها في آسيا . فقد احتكروا تجارة بعض الاصناف وبعض احتكاد تجسادي السلم وحاولوا استغلل التجار المسلمين في ما يتعلق بالاصناف

الاخرى ؛ دون ان يحاولوا اقصَّاءهم او تنفيرهم من الجمالات التي سيطروا عليها . فقد كان لهم من تفوق مدفعيتهم ومن الطريقة الوحشية التي يصَّفون معها بسرعة ﴾ السفن الاسلامية المنافسة لهم ، بعد ان يمثلوا ببحارتها ويشنعوا بهم ، ما جعل اسمهم بعبعاً او مغزعة في تلك الارجاء . فقد فرضوا قوانين صارمة ، وحظروا ، تحت طائلة الإغراق على كل سفيدة غير برتغالية ، الاتحار بين الهند وسواحل انريقيا الشرقية ، او بين الهند والصين واليابان . وفي هذا السبيل ، احتلوا بعض القواعد البحريمة منها ؟ في الدرجمة الاولى ؛ مراكز توزيع السلع التجارية ، فاحتلوا على سواحل ملابار : كوشين وغوا التي جعلوها عاصمة امبراطوريتهم البحرية المترامية الاطراف ، كما احتلوا عام ١٠٥٠، مرفأ باسين على مقربة من مدينة بمباى ، حيث اقاموا دار صناعة لمناءالمنه ، واخيراً مالقا التي استولى عليهـــا البوكرك ، عــام ١٥١١ . كــذلك سطروا على بعض الثغور التي تستّقطب النشاط التجاري والاقتصادي في المنطقة ، يتخذون منها مراكز لمراقبة الحركة التجارية . واحتلوا أرموز على يدالبوكرك ايضاً ، عام ١٥١٥ ، ثم مدن ربو ودامان عند مداخل الخليج الفارسي . وسيطروا على الخط التجاري ، عبر صورات ومنها عبر الهند، إلى اكرا ودلهي . وقد عجزوا عن الاحتفاظ بعدن ؟ الا أنهم استطاعوا قطم المواصلات البحرية عند اطراف مضيق باب المندب ، ونشروا الحصون والقسلاع على السواحل التي يمكن لهم الافادة من الاتجار معها . حاوا على المرب على سواحل افريقيا الشرقية في صوفالا والموزمبيق التي كانت مركزاً لتجديد اساطيلهم وعماراتهم التجارية ، باستبدالهـــــا بالسفن القادمة من أوروبا ، وبمباسا ولوليهانه وموغا دوكسو ، وسيطروا ، في أرخبيل المولوسك على جزر التوابل والافاويه ، واقاموا فيها قلاعاً صغيرة ، اهمها الحصن الذي شيدوه في جزيرة تمور للسطرة على خشب الصندل الابيض ، واكتفوا بقواعد تجارية ثانوية اقاموها عند مصب نهر الغانج ، في هوغلي ، بالقرب من كلكوتا ، وتشيتاغونغ على سواحل مقاطعة كورومانديل ، وفي سان توما وبنفاناتام ، وفي الصين ، ما كاو (١٥٢١) وفي البابان . وقد تمكن البرتف اليون من انشاء توابع لهم ، بينهم من تعهد بدفع جزية سنوية نقداً ، وهو وضع سلطان ارمور ، بينا تمهد البعض الآخر بتقديم محاصيل عينية ، وهو وضع عدد كبير من صف ال الامراء في جزر المولوسك وجزر لاكديف فيجهزون النجار البرتغاليين باصناف كثيرة . اما من كان من هؤلاء الاتباع يتصرف عرافيء تنشط فيها الحركة التجارية او علسك اسطولاً حربياً يخشى

جانبه ، فراح البرتغاليون يعاملونه بأقصى الشدة . فقد تعهد حاكم زامورين كالبكوت ، عام ١٥٠٩ الا يحتفظ باسطول حربي ، كما ، تعهد عام ١٥١٥ الا يستقبل في موانثه اعداء او خصوماً للبرتغاليين ، او منافسين لهم ، وان يعفيهم من كل رسم وضريبة ، وان يقساسمهم نصف ايراد المكس المفروض على غير المسيحيين . كذلك تعهد لهم ، عام ١٥٤٠ ، ان يمتنع عن الاتجار مع السواحل العربية وان يحظر على رعاياه التوجه المها ، وان يحتفظ لحساب البرتغالبين بكل غلته من الغلغل والزنجبيل . وعقد البرتغاليون مع غودجارات ،عام ١٥٣٤ ، معاهدة حظرت عليها تبناء سفن تجارية . فقد قنم البرتغاليون واكتفوا بما تم لهم من السيطرة والسيسادة في الجــــال التجاري ﴾ تاركين لرجاوات الهند ولسلاطين الدول الاسلاميــة الصغيرة الذين ارتبطوا معهم بالولاء والتابعية ، الحرية التامة بادارة اماراتهم وممالكهم كا يشاؤون ، ولم يظهروا بمظهر السادة نائب ملك مركزه غوا ، كما كان لهم فيها محكمة عدل عليا ومطرانية ، بينا تولى الامر في المراكز الاخرى حكام برتبة قبطان . وكانت ذهنية الجنمم ، اذ ذاك ، ذهنية من يقول بالرق ويطالب بتطبيقه على نطاق واسم والنهوض به اسوة بما كان عليه الوضع في البرازيل ، وهكذا المولوسك . وقد وجدت الامبراطوريات الغازية ، مصلحة لها في مثل هذا الوضع اذ لم يلحق الرسوم المتوجبة للسفن المعدة لنقل الحجاج من صورات الى مكة . اما التجار المسامون ، فقد ألغوا الحصول على ترخيص لهم بمتابعة نشاطهم النجاري وراح عدد كبير منهم يقوم بإعمال التهريب وينقطم لاعمال القرصنة في البحار.

فالامبراطورية البرتفالية كانت في عرف اصحابها ، عملية تجارية واسعة النطاق تابعة المتاج .
فالملك هو اكبر تاجر او مساهم في هذه الامبراطورية ، ويحتكر لنفسه تجارة التوابل والمواد الصبغية والمواد الطبية ، بينا تبقى حرة ، تجارة الصعوغ والراتنجات والمطور والحجارة السبغية والمواد انشأ ملك البرتفال على مقربة من قضره و وكالة ، خاصة عرفت بوكالة الهند التي كانت في الوقت ذاته مركزاً لادارة هذه الامبراطورية ومستودعاً كبيراً قام تجاه ارصفة لشبونة . وقد تعهدت المالة المناد المستوردة من الهند ، وكانت تتصرف فيها كيفها تشاه فتحدد منها عن المبيع ، كما انها تفرض رسوماً على المبيعات وكادد للمتسوقين مهاة لتنفيق البضائع المشتراة والكيات المعروضة للبيع تفادياً لهبوط الاسعار ، وبالمقابل كانت وكالة الهند تشتري ، في انفرس ، النحاس والمدافع ، والاسلحة والقاوع والاقشة والخضروات اللازمة لتجهيز الاساطيل البرتفالية في الهند وتوينها .

وبين هذه القوافل التي تتجر مع الهند الشرقية ، للملك سفنه ومشحوناته الخاصــة . واذ

كان يفتقر لرؤوس اموال يستثمرها في هذه التجارة ، فقد كان يمنح اجازات ترخيص ترخص الاتجار مع الهند لهذه الجعيات التجارية التي تتألف من تجار ايطاليين وألمان ، امثال شركة ويلرالتي فتحت لها فرعا في لشبونة ، عام ١٥٠٣ ، وفوجر وهوشستتر وماركيوني وافيتاتي ، وغيرها . ومثل هذه الرخص والاجازات ، اعطاها الملك للنواجذ او متعهدي تجهيز السفن التجارية من البرتفاليين ، ولاميرالية البحر ، وقباطنة السفن . كذلك ترك الحرية لقباطنة السفن والبحارة والحكام وقادة الحصون وللجنود ان ينقلوا معهم ، ذهاباً واياباً من الهند ، ما شاؤوا من محاصيل البلاد ، على ان يدفعوا المملك ٢٥٪ من ثمن مبيع البضاعة .

فلا عبجب والحالة هذه ان تكون الارباح العائدة اليه واهية وافرة. فقد بلغ معدلها ، حتى في حالات فقدان السفن وتلفها ، ٢٠٠ ٪ وقد ارتفعت الواردات العامة في عهد الملك جان الثالث ، عام ١٥٣٣ ، من . ٢٠٠٠٠٠ كروزيدوس ، الى ٢٥٠٠٠٠٠ بفضل الاتجار مع البلدان المحيطة بالهند . فقد كانت طريق رأس الرجاء الصالح اكثر مردوداً من طريق البحر الاحر حيث كان يقتضي اعمالاً كثيرة لنفريغ الوسق واعادة شحنه في مرافىء عدن وجدة وقصير على النيل ، والقاهرة . وهكذا وجد الاقتصاد البرتغالي نفسه في « دوامة الدولة » .

اما المشكلة الكبرى فقد تمثلت بشراء التوابل من الهند التي لم تكن بحاجة الالعدد يسير من البضائع الاوروبية . فالملوك والامراء الهنود آثروا ، بالاحرى ، الذهب ليحتفظوا به ودائع في صناديقهم ، بينا فضل الهنود نقداً من الفصة ، والنحاس لحاجتهم اليه في معاملاتهم اليوميــة . فلم تكن الهند من البلدان المنتجة الممادن الثمينة ٤ الها هي جزء من هذه المنطقة ذات الاقتصاد النقدي الواحد التي تتألف من اوروبا وافريقيا الشالية والسلطنة العثمانية وبلاد فارس . فالهند تمتص عملات همذه الاقطار من غوازي البندقية الى د دوقا ، المانيا وبولونيا وهنغهاريا ، وجنيهات انكلارا وسلطانيات مصر .كل هذه العملات وما اليها كانت كررِد عن طريق القاهرة وعدن مع سيراف الفارسية . ولعل اكثر العملات رواجاً اذ ذاك، هي السبيكة العارسية ،وهي عبارة عن قطعة من الفضة بشكل ريشة الأوز ، اسطوانية الشكل من اطرافها ، مسطحة في الوسط ، مطوية على نفسها شقتين متوازيتين ، عليها كتابة فارسية ، وزنها ه غرامات ونصف الغرام . وكانت تسك في مدينة تقع على مسافة قريبة من الخليج الفارسي . ويقـــدر الثقاة ان اوروبا كانت تصنَّدر كل سنة، نحو بلدان الشرق ، ما زنته ١٧٥ كيلوغرامًا من الذهب ، ونحواً من ٢٠٠٥٠٠ كيلو من الفضة . وقد بلغ انتاج مناجم الفضة ، في اوروبا الوسطى، بين ١٥٢٦— ١٥٣٥ الذروة ؛ اذ سجل ٨٤٬٠٠٠ كيلوغرام من الفضة في السنة الوحدة . وكان جانب كبير من المادر الثمينة المرسلة الى آسيا الصغرى او الى مصر يصل الهند حيث كان يتوزع بسين الملوك والسلاطين والامراء والعامة ، اذ كانت الهند تفتقر كلياً للمعادن الثمينة وللنقسم ، في اواخر القرن الحامس عشر . فقد توقف سك العملة الثمينة في هندستان ، منذ أواسط القرن الرابع عشر ، ونقصت كمياته كثيراً في غوجارات وفي الدكن . وكان للهنود ، الى جانب عملة النحاس عملة من الحديد ؛ القطعة منها بشكل هلال صغير او مسلات صغيرة . كذلك استعملوا طريقة مقايضة البضائع بعد تخمين اثمانها بالعملة الدارجة ؛ ثم تجري عملية المقايضة .

لم تكن البرتفال لتفتقر بالمنبى الحصري ، للمعادن الثمينة لكي ينهض بنشاطه التجاري في الهند . فكان بامكانه ان يعتمد على الذهب الافريقي ، اي المصدر من بلاد آشني وموسي عن طريق مرفأ سان جورج المينا ، وعلى ذهب الغينه ، فيوفر له ١٥٠٠ ، و ١٥٢٠ كيلو بالاضافة الى ٧٠٠ كيلو غرام من المعادن الثمينة ، في السنة الواحدة وفي ١٥١٥ كان سكان البندقية يلقبون ملك البرتفال ، لدى زيارته لمدينتهم ، وملك الذهب ، وكان قسم من هذا الذهب ينفق في أنفرس لشراء الفضة والنحاس والقمح والمدافع ، كا يذهب منه قسم الى صقلية ، ثمناً لقمحها ، ولميلانو ثمناً للأسلحة ، وللانسدلس ثمناً لعتاد حربي مختلف تحتاجه حصون البرتفال وقلاعه في المغرب الاقصى . فلم يكن لديه ما يفيض على حاجته .

ولذا قررت حكومة البرتفال ان تشحن كمية قليلة 'من المعادن الثمينة الى الهند عن طريق الرأس . فقد بلغ ما شعنوه منها 'بين ١٥٠١ – ١٥٥١ 'ما يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ و كورزيدو في السنة الوحدة ' اقل مما كان يدره مرفأ المينا من الذهب ' على الملك . وقد شكلت شحنات المعادن الثمينة ' في اول الامر ' اي حوالي ١٥٠٦ ' نحواً من ٧٥ ٪ من قيمة المشحن . بينا هبط هذا المعدل بيسن ١٥٢٢ – ١٥٧١ الى ١٦ – ٣٣ ٪ . وكانت هذه المشحونات تضم ' فيا تضمه ' الزنجفر والزئبق والمرجان والرصاص ' ولا سيا النحاس المستورد من بلدان اوروبا الوسطى بعد ان يجري تسويقه في مدينة أنفرس 'وغلبت قيمة المعادن الثمينة . فقد شحن ' بين ١٥٥٠ – ١٥٥٥ من ١٥٥٠ الى ١٥٠٥ قنطار في السنة الواحدة . وقد ' كت كمية من هذا النحاس تبلغ ١٥٠٠ قنطار ' نقداً هندياً من نوع بازارو كوس ' وما تبقى فقد بيع وزنا بوزن 'بهاراً . والى هذا فقد استعمل البرتفاليون منذ السنيسن الأولى من القرن بيع وزنا بوزن ' ممادلة منهم لرصيدهم مع الهد ، كتب الاعتباد والسفتجة بدلا من شحن نقد سائل اليها ' مما يوازي ، ع / مسن مجموع هذه المبالغ . وهكذا فلم نر ان الاقتصاد البرتفالي خسر كثراً من كمة المعادن الثمينة التي توفرت له .

وعرف البرتغاليون أن يفيدوا من وضع الهند والبلاد المحيطة بها التي لم تنهض اقتصادياتها على نقد معين والمعروفة بانتاجها العظيم المعادن الثمينة ولا سيا الذهب . ففي أفريقيا الشرقية نجد مدينة ممياسا التي أقام فيها البرتغاليون احتكاراً ملكياً الذهب بعد أن أقصوا منها المسلمين . فقد كان يصل كل سنة ، من الهند سفينة مشحونة بالانسجة القطنية ، مصدرة من خليج كمياى ومزالج ومفالق يرغب اصحابها من قبائل البنتو مقايضتها بالذهب . ففي سنسة افريقيا الى غوجارات والى فرجاينا غار ، تلبية لحاجات المزارات والمعابد الوثنية . وكان الذهب المحمد في جاوا وصومطرة وبورنيو وماكسسار وربو –كيو ومن كل هذه الجزر المتناثرة في البحر

حتى مشارف اليابان ، ويحمل من ثم الى مالتقا . وعلى هذا النحو قس يو – نام في بورما واللاوس والبيغو في كمبوديا . وكانت كل موانىء الهند الصينية تشحن الذهب الى مالقا فيحمله البرتغاليون الى المند بمعدل طنين في السنة . كذلك كان البرتغاليون يستوردون من مرفأ أرموز عمسلة فارسية السيكة من نوع Lerins ويقايضون بها في مدينة كوشين ، الفلفل والبهارات ، بربح في المائة ، كا كاوا يستفيدون من المضاربة بهذه العملة صعوداً وهبوطساً ، بربح يتراوح بين ٣ - ٢٧ / حسب المواسم .

وقد بعث البرتفاليون عن طريق هذه العملات والمعادن الثمينة ينزلونها للاسواق بنشاط في مرافق الهند الاقتصادية كالتجارة والصناعة ، ولا سيا في مقاطعات غوجارات وهندستان فاستأنفت الهند سك العملة منذ اواسط القرن السادس عشر . كذلك عمل البرتفاليون في في تطوير امبراطوريتهم في الهند الشرقية بحيث تبكفي نفسها بنفسها تحت ادارة حاكم الهند العام الفونسو ده صوصه (١٥٤٦ - ١٥٤٥) ، كما استطاعت هذه الامبراطورية البرتغالية في الهند ان تؤمن بمقرياتها من التوابل بما تحققه من الارباح من تجارتها : وفي الهند ومع الهند ، وون ان تضطر لطلب اية مساعدة مالية مسن البرتفالي الذين اثروا من تجارتهم في المند ومع الهند ، ان التجار والموظفين البرتفاليين الذين اثروا من تجارتهم في الهند ومع الهند ، استطاعوا ان يحمد اوا معهم لدى عودتهم إلى بلدهم الام ، مقادير كبيرة من المعادن الثمينة .

وقد بدت هذه الامبراطورية مزعزعة الدعائم ، بين ١٥٤٥ – ١٥٥١ ، من جراء هدف الأزمة الاقتصادية التي كادت تمسد الى اطراف العالم . بدت اعراض هذه الازمة ، واضعة في انفرس ، ولندن ولشبونة والبرازيل وارموز ومالقا ومكاو . فقد بلغ معدل السفن البرتفالية التي اتمت انفرس ، من ١٥٣٦ – ١٥٤٤ ، ما يتراوح عدده بين ٢٢ – ٢٣ سفينة في السنسة ، وبين ١٥٥١ – ١٥٥٠ ، غواً من ١٤ سفينة . وهبط دخرل الجمرك في اورموز ٢٥٪ بينا بلغ معدل هذا الهبوط في مرفأ مالقا ٥٥ ٪ . اما اسباب هذا الهبوط فيمكن ردها الى ازمة الذهب ووصول مقادير كبيرة من الفضة الاسبانية المستخرجة من مناجم بوتوزي في البيرو ، عسن طريق السبيلية ، الذي طرد ، تدريجيا ، الفضة المستخرجة من مناجم اوروبا الوسطى : عربه بوهيميا والتيرول وسيليزيا والشاكس والهارتز ، فكان ذلك سبب انهيار هذه المناجم ، بعد عام ١٥٥٠ ، وزاحم الذهب البرتفالي . هنالك سبب آخر نجده في ردة الفعل يقوم بها الاسلام ضد البرتفاليين اضراراً كبيرة وكبدوهم نفقات باهظة ، كذلك سبق ونوهنا بالهجوم الذي قام به المراكشيون في المغرب الاقصى .

تجم عن هذه الاحداث تغييرات اساسية في النظام الاقتصادي للامبراطورية البرتغالية.فقرر الملك ، في اواخر عام ١٥٤٨، إقفال الوكالة او المفوضية التي كان انشأها في انفرس ، كها كف منذ عام ١٥٧٠عن استثهار طريق رأس الرجاء الصالح استثهاراً مباشراً،فاعتمد، اكثر فاكثر ، اسلوب الاجازات والترخيض وعقد اتفاقات خاصة مع شركات خاصة . والاحتكار الملكـــي الوحيد الذي بقى قائماً هو احتكار النعاس .

والتغيير الثاني المهم الذي عرفه النظام الاقتصادي ، تمثل في هذا النجاح العظيم تصيبه الفضة الاسبانية والريال الاسباني ، الذي اخذ يغزو اقطار المحيط الهندي ، وبلغ بلدان الشرق الاقصى بين ١٥٥٤ – ١٥٦٩ ، عن طريق الرأس اولا ، ثم عن طريق اسكلة الشرق الادنى ، ثم بعد سنة ١٥٧١ ، من المكسيك ، عن طريق ما سمي به و باخرة مانيلا ، التي لاقت نجاحاً منقطع النظير ، واقبل المسلمون الهندوس يشترون الريال الاسباني ، باي ثمن كان ، بالليرة الذهب . وحوالي ١٥٨٣ ، راحوا يهملون المتمامل بالبضائع والسلم ، لينقطعوا للاتجار بالعملة والنقسد السائل ، ودرج استعمال الريال في جميع اطراف الهند ، بين ١٥٨٠ – ١٥٩٠ ، ولم يكن هذا المنجاح بأقل منه في الصين، حيث اخذت المضاربات بالريال ، تبلغ ٢٠ – ٢٢ ٪ . فاسبانيا هي النجاح بأقل منه في الصين، حيث اخذت المضاربات بالريال ، تبلغ ٢٠ – ٢٢ ٪ . فاسبانيا هي متخذين من جزر الازور قاعدة لهم للحصول على حاجتهم من الريال بالاتجار و في الهند ومع متخذين من جزر الازور قاعدة لهم للحصول على حاجتهم من الريال بالاتجار و في الهند ومع المند ، وفي عام ١٥٨٠ ، بانضامها الى اسبانيا ، كذلك راح البرتغاليون يبحثون عن الفضة في البابان .

واخيراً ، سجلت طريق رأس الرجاء الصالح بمض الهبوط في نشاط الحركة التجارية ، وهو هبوط يحكن رده لعدة عوامل ، منها اس مسلمي صومطرا اخذوا يستنبتون نوعاً من اغراس الفلفل ، احسن انتاجاً ، وارفع قيمة من فلفل مليزيا . وراحوا يوردونه الى القساهرة ودمشق مباشرة ، على خط مستقيم يمتد من أتشيم الى عدن . وهكذا عاد النشاط الى الحركة التجارية في كل من البحر الاحر والخلج الفارسي . كذلك اخذت البندقية بعد ان يسر لديها الحصول على الريال الاسباني ، اكثر ما توفر للبرتفاليين ، عن طريق جنوى ومرافىء اوروبا الشاليسة ، الستانف الاتجار بالتوابسل مع طرابلس الشام وبيروت . وقبل وصول البرتفاليين الى الهند ، كنت البندقية تستورد الافاويه من الاسكندرية بمدل ١٠٠٠٠ قنطاراً في السنة . وقد استوردت في الحقبة الواقعة بين ١٥٠٠ – ١٥٠٤ ، من هذه التوابل ، ما معدله ١٠٠٠٠ قنطار في السنة ، اذ ان استهلاك اوروبا من التوابل ارتفع من ١٧٠٠٠٠ قنطار ، عام ١٥٠٠ ، الى

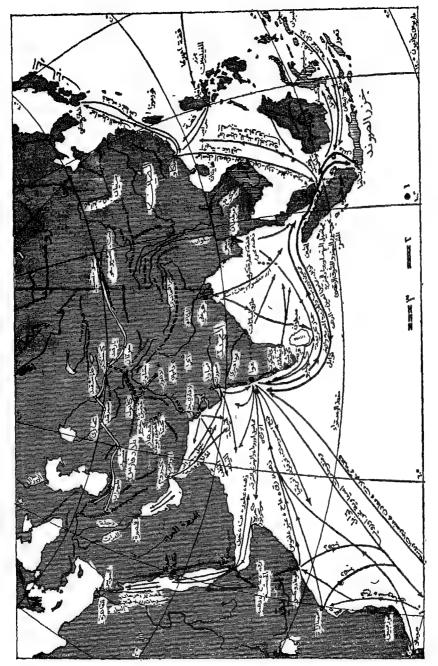
اشتدت ، من جهة ثانية ، المنافسة التجارية ، بين الفرنسيين والانكليز . فقد ركز السلطان أكبر ، امبراطوريته على دعائم قوية ، وشجع الرجوع الى الطرق البرية ودعا الى اعتادها في نقل التوابل بالمجاه الصين او بلاد فارس ، وتحول قسم كبير من محصول التوابل ، في الملابار الى آسيا الوسطى . ولهذه الاسباب ، ارتفع سعر هذه الاصناف عند البرتفاليين .

وهكذا اخذ البرتفاليون بصادفون في تجارتهم عدداً اكبر من المزاحين ، اكثر استعداداً

وجرأة وعدة . ولذا خفت بعض الشيء حر كة نقل التوابل عن طريق رأس الرجاء الصالح . فقد بلغ معدل ما مر ، عبر هذه الطريق ، بين ١٥٦٠ – ١٥٧٠ ، من ٣٠ – ٣٥ الف قنطار من الافاويه في السنة ، بينا نزى هذا المعدل يهبط الى ما يتناوح بين ٢٥ – ٣٠ الف قنطار في السنة ، في هذه الفترة ، الممتدة من ١٥٧٥ – ١٥٩٥ . الا ان هذا النقص ، امكن تعريضه ، عن طريق ارتفاع معدل الارباح من التجارة مع الهند ، وهب ارباح ، بلغت في الربع الاول من القرن السادس عشر ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كانت عليه في الربع الشاني من القرن المذكور . فهنالك ارتفاع في القيمة المامة او المطلقة . وهكذا كان تأخر الحركة التجارية في البرتفال .

اصبح هذا التأخر شيئاً واضحاً لا يمكن تجاهله ، بعد عام ١٥٩٥ ، عقب دخول الهولنديين حلية التجارة في الشرق الاقصى . فلم بعد البرتغاليون يستوردون الا عن طريق رأس الرجاء الصالح ما مقداره ١٥٠٠٠ قنطار في السنة ، من التوابل ، ثم هبطت هذه الكيسة الى ٢٠٠٠ قنطار . فني مطلع القرن السابع عشر ، اصبح استيراد التوابل عن طريق اسكلالة الشرق الادنى أقل كلفة وبالتالي ارخص من كلفته عن طريق الرأس . والتجارة مع اقطار الهند الشرقية لم يعد لها المكان البارز في الاقتصاد البرتغالي . ولكن ما لنا وللحديث عن هبوط الحركسة الاقتصادية في البرتفال ، اذ ارب البرازيل سيلمب ، في القرن السابع عشر ، الدور الرئيسي في هذا الاقتصاد . ففي عام ١٦٢٧ ، بلغ دخل الرسوم المدفوعة على السكر اكثر مسن نصف واردات الجازك في لشبونة ، وهكسذا انتقل البرتغال من منطقة و البهارات ، الى منطقة و السكر ، وبعد سنة ، ١٦٤ ، اي بعد ان تحرر من التابعية الاسبانية ، اصبح اقوى بكثير والسكر ، وبعد سنة ، ١٦٤ ، اي بعد ان تحرر من التابعية الاسبانية ، اصبح اقوى بكثير امبراطورية دونها الامبراطورية التي تمت له في الحيط المندى .

حل الجولنديون في الحيط الهندي الحيط المابع عشر الكولة رئيسية في الهولنديون في الحيط الهندي الحيط البرتفاليين فيه . ففي سنة ١٥٩٤ قرر الهلك فيليب الثاني القدل مرفأ لشورنة في وجه الهولندييز والانكليز اوه قرار لم يحر تنفيذه دوماً على الوجه المرغوب فيه الجيث كانت بعض سفن هاتين الدولتين تقع في قبضة الإسبانيين فتصادر منها البضائع التي تنقلها . وقد خشيت الدولتات المذكورتان معا اسد المسالك البحرية في وجسه سفنها اوهو خطر من شأنه ان يلحق التشويش والاضطراب في الاقتصاد الهولندي المولندي والمنطراب في الاقتصاد منه ما مناه المهولندياء في المابعة مع اقطار لحيط الهندي . وفي سنة ١٥٩٥ وقتل راجعاً الى هولندا الحسد الهولنديين اهو فان لنشوت بعد ان اقام في غوا خس سنوات جمع خلالها كثيراً من الملومات الدقيقة اكم عاد اليها من لشبونة مواطن هولندي الموامات الدقيقة اليها من لشبونة مواطن هولندي الموامات الدقيقة الم بنه عنه هولندية الى بنتام احدى السلطنات المعرمات اربع سفن هولندية الى بنتام احدى السلطنات من الملومات اربع سفن هولندية الى بنتام احدى السلطنات من الملومات اربع سفن هولندية الى بنتام احدى السلطنات المالمات المالمات



الشكل ٢١ -- اهم التيارات التجارية في الامبراطورية البرتنالية

الاسلامية ، الواقعة إلى الشهال الغربي من جزيرة جاوا .

كانت الاوضاع الساسبة السائدة اذ ذاك ، في مصلحة الهولنديين ومؤاتية لهم جداً ، بعد ان اقتصرت سطرة البرتغاليين على بضع قلاع وعـــدد من الحصون ، كما انهم كانوا في حروب موصولة مع اصحاب السلطنات الاسلامية الذين كانوا يتجرون بالتوابل هم ايضاً ، وكانوا على اتم استمداد للتعامل مع غير البرتغاليين من التجار . ومن جهة ثانية ، لم يكن هنالك مـــن ممالك وطنية تستطيع الوقوف في وجه الهولنديين وتحسد من تقدمهم وتغلغلهم ، اذان معظم هذه المالك كانت سلَّطنات بحرية يحاول بعضها بسط سيطرتهم على بعض المسالك والمعابر المائية ، مثل مضتى أشن ﴾ الى الشمال من صومطرة ، وهي نقطة رسو اضطرارية لكل هذه القوافيل المحرية العائدة من الفرب ، ترغب في الايفال شرقاً عبر مضيق مالقا وجوهور (مالقا) الى الشرق من صومطرة او الى الغرب من بورنيو ، وبنتام الى الغرب من جاوا ، او الى الجنوب الشرقي من صومطرة ، وماكسار إلى الشرق من بورنيسو ، وجزيرة بيا ، الطريق المركزية في الانسولند ، وترنات (الى الجنوب من جزر الفيليين ، سيراف وامبوان وسولور ، وبالاختصار جزر التوابل) ؟ وتبدور (الى الشرق من ترنات مع الجزر الجاورة ، والشمال الغربي مــن جزيرة الفينيه الجديدة) . كل هذه انسلطنات انهكتها الحروب المستمرة بعضها مع البعض ، وضد البرتفالين من جهة اخرى . ففي جزيرة جاوا ، راح احد السلاطين السوسونام هــو سلطان ماتارام ، بإنهاك قوى كل السلطنات الصغيرة الواقعة في داخل البلاد ، إلى الشال التي كان بامكان سقنها ان تؤلف سداً في وجه الهولنديسين . فهو لم يكسن ليحسب حساباً الا للجنوش الغربية.

ومند عام ١٥٩٨ ؛ اسس الهولنديون لهم ، مراكز تجارية في جزر : بندا وترنات ، وأشين وجاهور وبنتام وبتاني (الساحل الشالي من شبه جزيرة ماليزيا) . فقد جسلبوا معهم خوذا وزرودا ومصنوعات زجاجية ومنسوجات مخلية والعابا خشبية من صنع نورمبرغ ، وكلها سلع واصناف لاقت عند سكان الهند الشرقية رواجاً عظيماً . وحملوا معهم في طريق عودتهم الفلفل وكبش القرنفل وجوز الطيب ، واخذت الشركات الهولندية في مزاحمة بعضها البعض ، مسادي الى ارتفاع سعر الافاويه في الجزر المنتجسة لها ، واخذ السلاطين يرفعون الاسعار شهراً بعد شهر . وقد اوشكت اسواق امستردام تصاب بالتخمة . اذ ذاك رأى حاكم هولندا العام ، هو اولدن بارندفلت ان يتدارك الامر فاصدر عام ١٦٠٧ ، امراً بانشاء الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية .

ودخل الهولنديون في منافسة حادة مع البرتغاليين واستطاعت الشركة الهولندية ان تستولي على حصونهم تباعاً الواحد بمد الآخر ، فاحتلت سفنها : امبوان وتيدور ، وجسددوا ، عام ١٦٠٠ ، الماهدة التي سبقوا وعقدوها مع سلطنة امبوان التي نصت على قبول حمايتهم السلطنة ،

واقامة استحكامات فيها وحق احتكار تجارة التوابل. وبهذه المناسبة ، وضع الكاتب الهولندي المشهور. الفقيه هوغو غروتيوس كتابه المشهور De Jure praedue الذي لخصه ونشره موجزاً عام ١٦٠٩ بعنوان: « Le mare Liberum – او حرية البحار ». ان حرية البحار وحرية التجارة هي من حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن لاية قوة نسخها او حرمان الآخرين منها وهكذا كان هذا الكتاب نواة للحق الدولى. وبموجب هذا القانون لا حق للبرتف البين قط حرمان الهولنديين من الاتجار مع جزر الافاويه . وقد اصبح هذا الكتاب ، فيها بعد من اصول الحق الدولي الحديث . ونحن مدينون لظهوره ، ولو بصورة جزئية ، لهذه العلاقات التي شدت بين الاوروبيين والدول الاخرى الواقعة وراء البحار .

وفي عام ١٩٠٠، رأت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية النور ، برأسمال يوازي أشين رأس مال الشركة الهولندية . وسار الانكليز ، في كل مكان على خطى الهولنديين . فيمد ان رستخ هؤلاء أسس التجارة الاوروبية في الاماكن التي اقاموا فيها ، راح الانكليز ينشئون لهم مراكز قريبة من مراكز الهولنديين ، الامر الذي ادى الى التنافس والتصادم والاقتتال بيين الفريقين ، عاحل الحكومتين على الدخول في مفاوضات ، سنة ١٦٦٣ و ١٦٦٥ ، و ١٦٦٩ و و١٦١٥ و ووقد تشبث الهولنديون بحقهم فرض احتكارات ، واحتج الانكليز بدورهم متسائلين : وحرية التجارة ؟ ، فاجاب الهولنديون ان مبدأ حرية التجارة يقوم حيث لا معاهدات ولا عقود تحد من نطاق النشاطات التجارية . اما وقد وقعت معاهدات ووضعت مواثيق ، فقد زال كل الساس وبطل كل حتى لهذه الحرية ، لا سيا وان الاتفاقات والمعاهدات هي من صبي الحدى الدولي العام . والحال فقد كما (الهولنديون) السباقين لعقد مثل هذه المعاهدات والاتفاقات مع سلطنات امبوان وترنات وبنتام ، ولذا لا حتى لسكان البلاد الاصلين ان يخالفوا تعهداتهم ، عد الانكليز بهذه التوابل ، كا انه ليس من حقكم (الانكليز) قط ان تحماوهم على نقض هذه المواثيق ، او تفروهم بلحس توقيعاتهم . ومع هدذا وذاك ، فقد تحبدنا مصارفات باهظة ، والمفات رؤوس اموال ضخمة ، فمن الحيف والظلم معا ، والحالة هذه ، الانفيد من هذه التضحيات ، كا يجب .

وبعد مفاوضات طوية توصل اولدن باررنفلدت وجاك الاول ملك انكلاا الى تأليف شركة جديدة بدمج الشركتين مما . غير ان المستعمرين الهولنديين رفضوا قبول هذه التسوية وحطموا العارة الانكليزية شر تحطيم عام ١٦٦٩ ، كا ان محكمة العدل الهولندية في امبوان حكمت بالاعدام على ثمانية انكليز ، وتفذت بهم حكم الاعدام ، بعد ان أتهموا بمحاولة الاستيلاء على الحصن الهولندي ، بمساعدة بعض المرتزقة من اليابانيين . وهذا الحسادث بالذات يعرف في التاريح به ع مذبحة امبوان » .

اخذت الامسبراطورية الاستعبارية المولنديسة تنمو وتتطور وفقاً للافكار والمبادىء الق قال بها وطبقها الحاكم العام كوين من عام ١٦١٨ - ١٦٢٣ ، كا عمل بهذه المبادىء من جديد

بين ١٩٢٧ – ١٩٢٩ . اوحت اولى هذه الماديء بفرض التجارة الهولنــــدية بالقوة ولو ادمي الامر الى فرض السيطرة السياسية . وقد رأى ٬ من جهة اخرى ٬ ان الامبراطورية البرتغالية . تلاشت وانهارت لانها كانت تجارية محضة . ثم ان تجارة الافاويه والتوابل ، بـــين اوروبا وآساً ، لا يمكن ان تؤلف ، لوحدها ، تجارة رابحة . ولتأمين ربح عادل يترتب على الهولنديين الا يكونوا تجاراً فحسب بل منتجين للتوابل والافاويه بانفسهم . يتوجب عليهم والحالة هذه ٤ ان ينشئوا لهم مزدرعات واسعة وان يرعوها عن كثب بواسطة ما يتم لهم من عبيد أرقساء . فاذا ما بيع انتاجهم من التوابل في اوروبا استطاعوا ان يؤمنوا لهم ربحاً كافياً . فالتجــــارة الوحيدة المربحة بالفعل هي التي تقوم على مبدأ : ﴿ الْاتْجَارُ مِمْ الْهُنْدُ وَفِي الْهُنَّذِ ﴾ ؟ اي الاتجار مع بلدان آسيا وضمن هذه البلدان بالذات . فعلى الهولنديين ان يقوموا هم بانفسهم بالقسم الاوفى من هذا النشاط التجاري المتد نطاقه من بلاد فارس الى اليابان ، عليهم أن يتسوقوا بانفسهم الحرير من بلاد فارس؟ والقطن من الهند ؛ والزنجفر من سيسلان ؛ والقيشاني من الصــــين ؛ والنحاس من المابان ، وخشب الصندال من تيمور ، والتوابسل من جزر المولوسك ، وجمع كل المواد والسلم في بتافيا ومنها تشحن على السفن المحملة توابل الى اوروبا ، والأهم من كل هذا ، تنظم مقايضة هذه البضائم وتسهيل تبادلها عن طريق انشاء امبراطورية استعمارية ، تجارية ضخمة مركزما بتافياً . فبدلاً من تركيز ازدهار هذه الامبراطورية على محور الاتجار بــــين. اوروبا وآساً ؛ رأى كون ان يرتكز هذا المحور على التجـــارة الآسيوية ؛ تكون التجارة بين اوروبا وآسا فرعاً منه لا غير .

اتفق ظهور هذه الافكار والنظريات مع ظهور نقص كبير في كمية الفضة التي كان الاوروبيون بحسيس الحاجة اليها لتفطية ثمن مشارياتهم في آسيا ، بعد ان انهار الانتاج الاميركي من الفضية وقمكن الهولنديون من الحصول على العمادن القابلة لسك العملة او مسن الحصول على العملة نفسها من البلدان الآسيوية ، وهذا ما يفسر لنا الجهود التي بذلها الهولنديون للاحتفاظ بالتجارة مع اليابان وللسيطرة على انتاج مناجم الفضة والنحاس في اليابان ولهاجة السفن الحملة فضة القادمة من المكسيك باتجاه الفيليبين ، وللحصول ، بواسطة المنسوجات القطنية الهندية ، على انتاج الذهب في صومطرة وبورنيو ، وبواسطة حرير البنغال الخام ، على ذهب الصين والهند الصينية ، وبواسطة عدد كبير من منتوجات الهند المتنوعة ، على النقود المسكوكة في البندقية وغيرها من العملات الاوروبية القوية من نخا على ساحل البحر الاحمر ، وكان كوين والتجار وغيرها من العملات الاوروبية القوية من نخا على ساحل البحر الاحمر ، وكان كوين والتجار الهولنديون في كل هذه الامور ، باستثناء ساسة اعتاد المزدرعات ، ينحون نحو البرتفالسين ،

وقد رفض مديرو الشركة الاخذ بنظريات كوين وثبني اقتراحاته هذه ، وجل ما تمنوه هو تأمين استتباب السلام عن طريق عقد معاهدات تجارية مع الامراء الحملين وبعض الموانى، المركزية ، وبناء حصن واحد من هذه الحصون المركزية التي كانوا يشيدونهسا في النقاط الستراتيجية ، الا ان طبيعة الاشياء ادت بالهولنديين الى الاخذ بنظريات كوين وقطبيقها .

في سنة ١٩٢٧ ، احتل الهولنــديون عنوة ، مرفأ جاكرتا وفرضوا عليه سيطرتهم وسيادتهم التامة ، وبنوا فيه حصناً منيماً ، واقاموا حوله مدينة هولندية الطابع والمظهر ، واطـــلقوا عليها اسم بتافيا ، وهو اسم هولندا قديماً . كذلك تمكنوا من فرض سيطرتهم على امارتين غارقتين في الديون . وراح الهولنديون يشترون المواسم بالمواعدة ؛ فيقدمون سلفات مالية مهمة » نقداً او عيناً . وكثيراً ما اتفق ان انفق المستلفون المبالغ الق استلفوها وباعوا محاصيلهم يطلبون من حكام المقاطعات التنازل لهم عن بعض سلطاتهم . وهكذا فتحوا عام ١٦٢٣ ٬ بقوة السلاح ، جزر بندا ، وجزيرة أمبوان وجزر الولوسك ، مقابل مماش تقاعدي دفعوه لسلطان ترنات . وهكذا اصبحوا اسياد الجزر . وسيطروا على المضايق والمعابر التي لا بسد من اجتيازها او المروريها في التجول بين هذه الاقطار ، وكلها مراكز ومقاطعات أنتزعوها من البرتفاليين عنوة وعدواناً : سيلان التي احتاوا عاصمتها كولمبو عام ١٦٣٦ ، ونيفابتام على ساحل ملابار (١٦٤٢) ومالقا ، عام ١٦٤١ ، وكوشين ، عام ١٦٦٢ . وفي سنـــة ١٦٥٢ ، اسسوا مدينة الكاب التي كانت نقطة رئيسية لرسو السفن ؛ أذ أنهم مفاداة منهم للاصطلام بالبرتغاليين بعد اجتيارهم لرأس الرجاء الصالح ؛ تركوا سفنهم تسير مع التيار والارياح التي تهب. الواسعة الارجاء هذه؛ نالوا من شاه ايران ومن المغول الكبير في الهند؛ ومن امبراطور الصين ومن الشوغون في اليابان ، الترخيص لهم بانشاء بعض وكالات تجارية تناثرت حباتها مـــن اصفهان غرباً ، إلى ناغازاكي في اليابان ، شرقاً .

بدا المحاكم الهولندي العام متسويكر ، بين ١٦٥٣ – ١٦٧٨ ان الولايات الاندونيسية اخذت تنهار وتتهاوى ، من جراء هذه الحروب التي مزقتها بدداً ، وانه لا يمكن للهولنديين ان يحتفظوا باحتكاراتهم التجارية ما لم يضموا حداً لهذه الفوضى ، وذلك بفرض سيطرتهم السياسية . ولذا راحت الشركة ترغم السلاطين الحلين على الاعتراف بالولاء لها والتسليم ببناء حصن هولندي ضمن سلطنتهم ، وان يمترفوا للهولنديين مجتى فرض احتكارات تجارية ، على هذا النحو سارت الامور في ماكسار ، سنة ١٦٦٨ ، وفي أشين ، وماتارام سنة ١٦٧٩ ، وفي بادانغ ، عسام ١٦٨٤ . وهكسذا فرضت الشركة الهولندية سيطرتها على كل انحاء اندونيسيا من جنوبي الفيليبين حتى سواحل الهند .

أسس الهولنديون في بتافيا مجتمعاً مسيحياً لا عنصرياً . فقد تزوجوا من نساء آسيويات ، نلن بمد تنصيرهن ، جميع حقوق المواطنة الهولندية ، كا ان الخلاسيين الذين ولدوا من هذا الزواج ، قتموا بدورهم ، مجميع حقوق الهولنديين الاوهؤلاء المستعمرون الذين تزوجوا من نساء وطنيات ، بقوا ، في اكثر الاحيان في البلاد ، فنشأ مع مرور الزمن ، جالية هولندية تراوح عدد افرادها بسين . . . هولندي او من هولندي وزوجة آسيوية . وهذا المجتمع الهولندي كان

يطالب بنظام الرق والاسترقاق شأنه في ذلك ، شأن الجتمع البرتغالي الذي قام في البرازيل ، من وجوه عسدة ، مع الفارق الوحيد ، وهو ان معظم الارقاء كانوا هنوداً ، وان معظم رؤساء الورش والاعمال الذين يعملون لحساب الشركة او يقومون باعمال الربا ، كانوا يدأبون على العمسل طويلا واقلامهم بايديهم ، من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساء ، مع انقطاع صغسير عن العمل لمدة نصف ساعة للترويقة ، وانقطاع اطول مدته ساعتان ، للفطور .

برهن الهولنديون ؛ تجاراً ؛ عن روح سمحاء ؛ وعن تربية مدنية ؛ عالية تجساه الآسيويين الذين لم يخضعوا لحكهم ؛ ولا سيا للتجار بينهم . فقد عاملوا الصينيين بينهم معاملة طيبسة ، سواءاً اكانوا تجاراً او صناعاً او مزارعين ؛ واجازوا لهم تعيين رئيس لهكتهم الحاصة برتبسة قبطان ؛ يقضي بينهم وفاقاً للقانون الصيني ؛ كما اعفوهم من الحدمة العسكرية .

ولم يسمع ، مبدئيا ، لاية ديانة غير الكلفينية ، ممارسة عقائدها . وكان الصينيون والمسلون يمارسون بالفعل، مراسم طقوسهم الدينية ، على مقربة من بتافيا، بما دفع القساوسة البروتستانت للتذمر بان شريعة موسى كثيراً ما كانت تنتهك ، فيجيبهم ، متسويكر على ذلك قائلا : ان قوانين الجهوريات اليهودية القديمة لم يعد لها اي اثر او فعل في الاراضي الخاضعة للشركة الهولندية في الهند الشرقية . وبذلك تنتهي الشكوى وترفع القضية بعد ان حلت المشكلة على هسذا النحو .

اقام الهولنديون سلطتهم وركزوا سلطانهم على اساس من المذابح والنفي والابعاد السمت بالبربرية والوحشية والوحشية والخزر واخضعوا للرق الاحياء الباقين متذرعين بالدين الذي رزحوا تحته . وكانوا يشترون بالوعدة الفلال ويقدمون لاصحابها المواد الفذائية ، اذ ان جزر التوابل لم تكن تنتج ما فيه الكفاية ، يقدمونها باسعار عالية بحيث ان السكان الوطنيين لم يكسن في مقدورهم تسديد اثمان هذه المواد فيرزحوا تحت وطأتها ، فيضطرهم الهولنديون للتخلي لهم عن زرع المحاصيل التجارية كالفلفل وكبش القرنفل ، ويستبدلونها بزروع غذائية كالارز والصاغو ، ومتغطين بزراعة التوابل لمزارعهم الخاصة . ففي جزر بندا وحدها التي كانت تعد ه ٢٩١٥ نسمة عام ٢٩٠٧ ، احصوا ٥٠٥ وطنيا من ابناه البلاط بقوا قيد الحياة ، و٣٩٥ هولنديا ، و ١٩١٧ مسن ارقاء الهنود يعملون في الزراعة ، و ٨٤٣ من الاغراب الاحرار ، بسين تجار واصحاب حرف .

لم يهتسم القساوسة الهولنديون مجمل السكان الآسيويين على اعتناق الكلفينية ، فراح مؤلاء نكاية بالفاتحين وتشفياً منهم ، يقبلون على اعتناق الاسلام . فاندونيسيا التي اتصفت حضارتها بالطابع الهندي ، اقبلت على الاسلام ، منذ القرن الخامس عشر . والظاهر انه تم ادخال الاسلام الى هذه المنطقة على يد تجار مسلمين قدموا من غوجارات ، فعملوا على نشر الاسلام في اهم هذه المناطق الساحلية من جزر السوند، واعتنق امراه اندونيسيون الاسلام طمعاً منهم أجياناً بيد كرية بعض التجار الاثرياء . ولم يكن الهولنديون يصادفون ، عندما قدموا الى اندونيسيا ، مسلمنين الا في بطانات الامراء وفي بعض المناطق الساحلية . اما في داخل الجزر فمعظم السكان كات على الهندوكية ، برجه عام ، الى الشرق من جزيرة جاوا حيث كانت منتشرة ، على الاخص ، عبادة شيفا . وبقيت جزيرة بالى برمتها ، مدة طويلة ، مركزاً قوياً للهندوكية ، ووقفت حائلا دون انتشار الاسلام هناليك ، مسمع ذليك هنالك مناطق عديدة في الداخل ، لم تعرف الهندوكية ، بل كان الملها على الوثنية او قالوا بالاحيائية الحيوانية .

وقد أولى الهولنديون ؛ من حيث لا يشعرون ؛ وبالرغم عنهم احياناً ؛ دفعاً جديــداً لنشر الاسلام في طول البلاد وعرضها . فقد وقع عام ١٦٤٠ ، نشاط ملموظ في نشر الاسلام والدعوة ل. •) من قبل بعض الدعاة النشيطين • فاخذ الاسلام يتغلغل عودياً بين الطبقات الشعبية • ولا يوال الى يرمنا هذا . وحاول السلاطين الداخلون في متازعات مع الهولنديين أن يستغلوا مواسم الله الى المدن المقدسة الاسلامية ، رأساً من جزر الملايد الى البحر الاحمر ، منذ القرن السابع حشر ﴾ ليطلبوا المون والمؤازرة من البــــلاد العربية او من سلطان الاتراك . كذلك شُجعواً مواطنيهم ، لدى رجوعهم ، على ان يصطحبوا ، وهم في طريق عودتهم ، مصلين ذوي شأن وشعوشاً يعملون أمَّة بينهم . ففي عام ١٦٣٩ ، راح احد هؤلاء الشيوخ 'يلقسب سوسونام مترام، بلقب سلطان واعترف له الى جانب السلطة الزمنية بالسلطة الروحية > واذ ذاك باشر السلطان الجديد ، أهونغ ، جهاداً مقدساً ضد الباح شيفا وعباده في بالي ، وجرى مثل هــــذا في بنتام واشين . وهككذا شد انتشار الاسلام من ازر الوجماء الوطنيين وقوى من سلطانهم ، كما حملهم على اعلان الجهاد شد الهندوكيين وشد الكفار عامة وشد الاوروبيين . فبمسد سقوط مترام عام ١٦٩٧ ، وينتام عام ١٦٨٤ ، قام سكان الملايو بحروب دينيـــة ضد «الكفار » . وراح العرصان المسلمون يعيثون فساداً في بعر جاوا كا امتلأت الادغال بحرب العصابات مع المسلمين. والجهود الاشيرة ، في هذا الحال ، قام ببذلها المدعو ابن اسكندر الذي ادعى النبوءة وزعم انه من ولد الاسكندر الكبير كا قام بمثل هذه الجهود الشيخ يوسف الذي درس في مكة ونظر اليه الكثيرون نظرهم الى ولي من اولياء الاسلام في البلاد . ومن حسن الصد ف والاتفاقات ، ان العموفي الكبير ، والسلطان المثاني وسلطان المغول كانوا مشغولين أذ ذاك عن هذه الحبركات ، بامور اشرى . كما لم يكونوا فياً بينهم على اتفاق . فلو عرف المسلون أن يوحدول صفوفهم لمكانو قضوا على الاوروبيين وازالو كل نفوذ لهم في الحميط الهندي .

في بالي، اي في قلب هذه الجزيرة بقي السكان على الهندوكية ، اما في الاماكن الاخرائي فقد عرف الاندونيسيون بتمسكهم بالاسلام وبمصبيتهم الدينية ، غير ان الاسلام الذي حل عمل الهندوكية في النفوس لم يستطع ان يقضي عليها ولو اضطر بالتالي لمسانمتها ، فالاسلام الاندونيسي كان في نظر المسلم المربي او المسلم من شمالي افريقيا اكثر الشيع والملل الاسلامية مرطقة وخروجا على الشريمية . فقي نظر المسلم الاندونيسي ، يختلط الله بالبراهمان ، فيترتب على المسلم كما يترتب على المصوفي

الهندوسي ، ان يفقد ، عن طريق التأمل ، كل فردية وان يذوب في ذات الله ، لكي يصبح والموجة التي لا تؤلف البحر ومع ذلك فهي ليست شيئا يختلف عن البحر . . النقطة التي يتجلى فيها مل الكائن الكلي ، فهذا نوع من الحلولية الرمزية . ومن صلب الهندوكية ضرورة ذربان الفرد في شخص الله بينما الاسلام القديم الارثوذكسي المقيدة يشدد كثيراً ويميز بين النفس البشرية وبين الله . وهذا التمبير الهندوسي للاسلام لم يتمثل في هذه الكتب الصوفية الكبرى فحسب بل انتشر ايضاً بين كل طبقات المجتمع الاندونيسي عن طريق كررايس تعليمية أو بواسطة رسوم هندسية تجسم أو تلخص مبادىء هذه الرمزية الحلولية حتى بين الاميين .

كان من النتائج التي ترتبت على هذا الوضع النجاح الذي عرفته الجمعيات الصوفية او الرمزية كجمعية «شتادياس» وعدم المبالاة بالطقوس الدينية ومراسم العبادة والوضوء التقليدي والصلوات المألوفة والصدقة والصوم ، ففريضة الحج الى مكة المكرمة يكلف بها شخص بالنيابة ، انهست يأكلون لحم الحنزير بالرغم من نواهي القرآن الكريم ، فالاندونيسيون لا يتورعون قسلط عن ارتداء الملابس الحريرية والحلي الذهبية ، وينصرفون لتماطي الماب الحفظ والقهار والربا ، المهسلم في نظرهم ، الصلاة الروحية بعيث يتم الاتحاد الرمزي مع الحالق .

فبدلاً من الثانية او الأولياء التسمة المتفقء لى تكريمهم اصبح عدد الاولياء الآن لا يحصى بعد ان البست معبودات الهندوكيين لبوسا اسلامياً يحيون باحتفالات حافلة المشاهد من اسساط لنضح بالاساطير والحرافات الهندوكية . وهكذا عاشت في قلب بلاد اسلامية وفي اوسساط اسلامية حميمة واستمرت حية نابضة اعراف الهندوكيين وتقاليدهم الدينيسة . وهكذا بقي الاندونيسيون محتفظين باعرافهم وتقاليدهم المتوارثة يحبون فيها اساطير الجبال والانهر والمغاور والبحيرات وحكايات هذه الارواح حارسة القرى وارواح المرتى التي كانو يتناقلون اخبارها عالما عن سلف ويحيونها قبل دخولهم الاسلام ، واستمسر كثيرون بينهم على القرول بتناسخ الارواح وتقميها فراحوا يقدسون بعض الاطمئة الفلائية او يحرمون استممالها او تعاطيها حتى الارواح وتقميها فراحوا يقدسون بعض الاطمئة الفلائية او يحرمون استممالها او تعاطيها حتى في هذه القرى التي اسلمت برمتها اكما استمروا في تحكري الانصاب وتعاليل البوذيسين والمندوكيين ينضحونها بعامر البخور والمندوكيين ينضحونها بعامر البخور والادون لما القرابين من الازاهر والأرز و

وهذه الاعراف والتقاليد والعادات التي تختلط بعبادات قبائل الشاء ز ؛ في اندونيسيا ؛ وباعراف الفيلبين وفورموزا وبتقاليد من مدغشكر بقيت مرعية الجانب معمولاً بهما في كل مكان ، فالقانون الاسلامي لا يعترف بالتبني ، وبقيت اعراف الاندونيسيين تعترف ليس فقط بالتبني بل ايضاً تعارف للابن المترفي بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الابن الشره سي . فالشرع الاسلامي لا يبيع التسري لرب الاسرة الا مع امائه ، ولا يبيع له التزوج من احداهن. وأباحت الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع الهصنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حملها الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع الهصنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حملها الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع الهصنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حملها الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع الهسنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حملها الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع المحسنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حملها الاعراف المعول بها في جاوا التسري مع المحسنات والزواج الموقد والموادي الدراك المعول بها في المعول المعالم المعول المعراف المعول المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعالم المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعول المعالم المعالم

الى ان تضع ولدها الشرعي ثم تطلق بعد عملية الوضع فالمسلم الذي يمكن ان يتخذله شرعاً اربع نساء ، كما نست الآية ، يستطيع ، وفقاً للتقاليد المرعية ان يطلق احداهن ليتزوج من احدى سراريه العالمة منه ، ثم يعود الى زوجته الاولى . والشرع الاسلامي الذي ينظر الى المرأة نظرة دون الرجل في ما يتعلق بالميراث لا يمنحها الحقوق التي يمنحها للرجل في المواريث . فالتقاليد الاندونيسية المعمول بها في فرائض الارث لا تفرق بسين حقوق الرجل وحقسوق المرأة في هذا الصدد .

وهكذا فنحن امام صفة او شكل خاص من الاسلام في اندونيسيا بحيث يمكننها التساؤل عما اذا كان اعتناق القوم للاسلام ، في هذه البلاد يجب رده ، الى حد بميد ، الشمور بالظهرور بمطلب او الاجنبي ، بمطهر السيادة والتسامي والمباهاة الذي يبعثه الاسلام في صاحبه ، امام الفريب او الاجنبي ، اكثر منه الى الشمور بمطلب ديني، تحقيقاً منه لما شرع الانبياء او سو غوا برجوب تحقيقه ، او عملا بطهاد المقدس .

هل من ضرورة ، بمد هذا ، للتحدث عن الاستمار الانكليزي او الفرنسي في هذا الكتاب بمد الذي ذكرنا عن الاستمار الهولندي ? فمها كان من شأن هذا الاستمار ، ومها كان له من اهمية في حد ذاته ، فليس من مبرر ولا بموجب قط ان نتمرض للكلام عنه هنا ، اذ اننا سنجد ولا شك ، الملامح والسيات والصفات النوعية الاساسية التي طبعت وصبغت مناهم الاستمهارين البرتفالي والهولندي .

اوردبا والتجارة الآسيوية الاقتصاد الهندي من معادن ثمينة وعملات مختلفة ازدادت رواجيا بصورة مطردة خلال القرن السادس عشر، ويقدر العالم الاقتصادي الاسكليزي السال الهرن السادس عشر، ويقدر العالم الاقتصادي الاسكليزي السال الهرن السادس عشر، ويقدر العالم الاقتصادي الاسكليزي السرق ، وهسي دوقاً ونعمف المليون قيمة المبالغ التي كان الاوروبيون يصدرونها ، كل سنة الى الشرق ، وهسي مبالغ زادت ثلاثة اضعاف منذ مطلع القرن السادس عشر ، ووصل قسم كبير من هذه العملات الى الهند ، فقد احدثوا بعض التيارات التجارية ، ولا سيا الهولنديون منهم الذين روجوا بعض الاصناف بادخالهم لها في الهنسد وجزر الصوئد كالحديد والفولاذ والاكياس والجلود والملسح والقرميد ، ولا سيا الارز وبعض البقسدول وتجارة الرق ، اذ تراوح عدد الارقساء الذين كانوا يأخذوهم في السنة من ٥٠٥ سـ ١٠٠٠ وقيق ، معظمهم من الهنود الذين وقعوا فريسة الجوع ، يأسنةال وسواحل الملابار ، وقد مثلت هذه التجارة من حيث حجمها شيئاً زهيداً ، فقد بلغت تجارة الهند الحارجية ، بينا بلغ معدل هذه التجارة ، في السنة ، بين ١٩١١ سه ١٩١٤ ، نحسواً من طن في السنة ، بينيا بلغ معدل هذه التجارة ، في السنة ، بين ١٩١١ سهد ١٩١٤ ، نحسواً من الهرن السابع عشر ، الذي يبدو لنا ان الهولنديين والانكليز والفرنسيين تقاسموا ، فيا بينهم ، في القرن السابع عشر ، التجارة التي كان يقوم بها البرتغاليون دون ان بسجل الجموع زيادة مسا في القرن السابع عشر ، التجارة التي كان يقوم بها البرتغاليون دون ان بسجل الجموع زيادة مسا

تذكر. قد يكون حدث بعض الزيادة ، بعد سنة ١٩٦٥ ، عقب ان اخذ البنفال بتصدير الحرير وبعد ان نشطت صناعة الموسلين في اوروبا ، وبعد ان اشتد الطلب على ملح البارود لتلبية حاجة الحرب التي قام بها لويس الرابع عشر. ففي ايلول ١٧٠١ ، لم تكن الشركة الانكليزية للهند لتملك سوى ١٤ سفينة في آسيا : واحدة في خا و ٣ في كنتون ، وواحدة في أرموس ، وثلاثة على سواحل كورمانديل ، وسفينتان في صورات ، وسفينتان في البنفال ، وواحدة في بورنيو وواحدة في لمبو. وبلغت قيمة شعنة من البضائع الانكليزية ٥٠٠٠٥٠ ليرة استرلينية بينا بلغت قيمة البضائع الاجنبية المشحونة ، مع الفضة ٤٣٨٠٠٠٠ ليرة انكليزية ، وهو لعمري مبلغ زهيد .

والتجارة « في الهند ومع الهند ، كانت تدر من الارباح على هذه الشركات اكثر بما تدره منها الحركة التحارية بين آسيًا واوروبا. فلنأخذ مثلا على ذلك، الشركة الهولندية للهند الشرقية. كان المولنديون يحشدون ، في مدينة بتافيا ، كل البضائع التي يجمعونها من هذه البلدان الواقعة بين بلاد فارس واليابان ليتمكنوا من القيام بتدقيق حساباتهم العامة. وكانت الشركة تستقدم كل سنة ، الى بتافيا، دفاتر حساباتها في كل المراكز والوكالات التجارية التابعة لها لتقوم بعملية تدقيق المحاسبة العامة . وبعد أن تعد الشركة تقريراً عاماً عن أعمالها ونشاطها يقع في عدة أجزاء ٠ يجرى ارساله ، سنة فسنة ، الى اوروبا ، على متن سفينة خاصة عرفت بـ « سفينة الشاي والدفائر ﴾ . والحال فقد ثبت الآن ان هذا التقرير كان مزوراً ؛ بينها اسرار المحاسبة الصحيحة ، تبقى خفية لا يطلم عليها الا الراسخون في العلم . ويبدو ان الارباح كانت بالفعل زهيدة جداً . خلال سنين عديدة . ولهذا قرر مديرو الشركة أن يوزعوا على المساهمين ، مرضاة لهم ، حصصاً وهممة ، بمعدل ١٠ ٪ . ولكني يقوموا بهذه العملية اقترضوا سراً ؛ في السنوات الثلاث ين الاولى من تأسيس الشركة ، ١٠٠ ملايين جلدر في هولندا. وهكذا استطاعوا أن يحتفظوا ، في خزائنهم وصناديقهم في الشرق ، بمبالغ طائلة من النقد يستخدمونه في اغراضهم السياسية . وعندما ازاحُوا بمد سنة ١٦٣٠ ، من طريقهم الانكليز والبرتغاليين ، بقوة السلاح ، اخذت تجارتهم من الهند ومع الهند؟ تدر عليهم بالفعل ارباحاً طيبة . فقــد سجلت اعمالهم التجارية ١٠١ مليون. جلدر ، بين ١٦١٣ — ١٦٥٤ ، بلغت نفقائهم ٧٦ مليون جلدر ، وبذلك حققوا ربحاً قدره ٢٥ مِلُونُ جِلَيْرٍ . ومن اصل هذه الملايين الحُسَّةِ والعشرينَ الرسلت الشركة الى اوروبا ٥٠٠٠٠٠٠٠ واحتفظ بالباقي في الهند كمبلغ سائل يستثمر في النشاطات التجارية بين البلدان الآسيوية .

وهكذا يبدو لنا ان الارباح التي عادت على الوطن الام كانت جد متواضعة خلافاً لمما ردده البمض. فالفنى الذي رفلت به البلاد الواطية ، في القرن السابع عشر ، لم يأت من تجارتها مع آسيا ، بل يجب رده بالاحرى الى الدور الذي لعبه الهولنديون كعملاء او وسطاء تجاريين بسين اوروبا واميركا.. ومثل هذا القول يمكن اطلافه على باقي الدول الاوروبية باستثناء البرتغال في مطلم القرن السادس عشر. فالحركة التجارية بين اوروبا وآسيا لم تكن ذات تأثير بالسنم في

الاقتصادالاوروبي، والمبالغالق جمدتها هذه الحركة كانت اقل من المبالغ المستثمرة في تجارة الحنطة في داخــل الدول الاوروبية وبين هذه الدول ، بالرغم من إنها محاصيل ثقيلــة الوزن ، فالحركة التجارية القائمة على مبدأ و مع اوروبا وفي اوروبا ، في الدرجة الاولى ، والتجارة بــــين اوروبا واميركا ، في الدرجة الثانية ، هي التي أغنت اوروبا .

والراجع هو ان وتجارة الهند مع الهند ، عادت بالاكثر ، بالنفع على الآسويين انفسهم ، من الصعب ان نعرف الى اي مدى بلغ النقد وحافز المعادن الثمينة المستوردة في تأثيرها على الصناعة والتجارة ، والمدى الذي بلغه هذا التأثير ، في تفيير وضع العامل والمزارع في الهند . لا شك ان كبار التجار من هنود وسكان الملايو وعجم افادوا كثيراً من المنافسة الحسادة التي قامت بين الدول الاوروبية ، رفعوا معها من اسعارهم وعرفوا كيف يثروا بما عرف عنهم من مقدرة ومهارة دونها و مقدرة الشياطين » . ففي مدينة صورات ، رئس برجي بوراه ، بين مقدرة ومهارة دونها و مقدرة الشياطين » . ففي مدينة صورات ، رئس برجي بوراه ، بين مقدرة المادة الحد تجاري كان بوسعه ان يشتري وستى سفينة او اكثر كاملة وقسد كان لهذا الاتحاد وكالات فرعية في احد آباد واكرا و كولكوند وجاوا و كعبروم استمرت على نشاطها حتى عام ١٦٤٩ . وهؤلاء الاقوام من صيارفة وتجار من ملوك الهند وحسكام الولايات الذين كانوا يفرضون رسوماً جركية وينشؤن احتكارات على هذا الصنف او ذاك ، كانوا بالفمل ، الذين كانوا يفرضون رسوماً جركية وينشؤن احتكارات على هذا الصنف او ذاك ، كانوا بالفمل ، اول من استفاد من نشاط الاوروبيين في تجارتهم مع آسيا .

جاء البرتغاليون الهند لينشروا فيها الدين المسيحي . فقد وجدوا فيها طائفة من النصارى بلغ عدد اتباعها نحواً من ١٥٠ السف من النساطرة اعتنقوا هذا المذهب على يد كهنة سريان ، وتوزعوا في

الامبراطورية البرتفالية وكالة ثبنـير بالانجيل

النساطره اعسقوا المداه المداه المداه المداه المداه المداه المداه والقرى المتناوة على سواحل الملابار وكورمانديل. وكان بطريرك الكلدان ، في بابل يمدم بالاساقفة ، ولكي يستطيعوا البقاء في خضم البحر الهندوسي كان عليهم ان يؤلفوا مم انفسهم ، والبراءات البابوية التي اصدرها طيقة خاصة انطوت على نفسها لا تستطيع انتشاراً ولا توسعاً . والبراءات البابوية التي اصدرها البابا اسكندر السادر بعنوان المادت والثاني الماريخ ؛ ايار ٩٣ ا ، والبابا جسول الثاني بعنوان المادي وعلى بحدار الصين ، وخولتهم حتى انشاء مطرانيات واسقفيات ، وتعيين اساقفة والاحتفاظ بحدى التبشير بالانجيل البيريف . ولم يكن لاحد من رجدال الاكليريوس ان يأتي هذه الديار والمناطق التي تهب فيها الرياح الموسمية الا بأذن خاص من ملك البرتفال ، وبعد ان يعرج على لشبونة وغوا . وبعد فترة من التردد انشىء في غوا مركز لرئيس اساقفة امتدت يعرج على لشبونة وغوا . وبعد فترة من التردد انشىء في غوا مركز لرئيس اساقفة امتدت ولايت من للبرتفاليين قاموا بجهود جبارة في هذا الجال ، فقد سمحوا بالجيء الى الاقطسار من يذكر ان البرتفاليين قاموا بجهود جبارة في هذا الجال ، فقد سمحوا بالجيء الى الاقطسار الآسيوية لمدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحساية الآسيوية لمدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحساية الآسيوية لمدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحساية

اساء البرتفاليون تفسير الآية القائلة : • دعوهم يدخلون • ٠ فراسوا يستعمسساون الشدة في حمل الوثنيين على اعتناق المسبحية . ومن جهة ثانية ؛ كان عدد الكهنة قليلاً ؛ ومع ذلك فكانوا يؤمنون ارتدادات بالجلة ، اذ كانوا يحشدون بضع آلاف من الوطنيين ويعلمونهم بضع كلسـ بات ، بما يجب عليهم اعتقاده من قضايا الايسان . فمن رضي منهم أن يكونوا مسيحيين سرى تنصيرهم في الحال . وكان بينهم بالطبيع مسيحيون لايمرفون قط ما يجب عليهم حفظه من الايمان الجديسد ولا يعرفون صلاة : و ابانا ، ولا و السلام عليك يامريم ، • ولا قانون الايمان . فليس من غريب قط ان يتخلوا بسرعة عن ايمانهم الجديد ليمودوا الى وثنيتهم الاولى او يمرقوا الى الاسلام . وقد شجع البرتغاليون الزواج بين مواطنيهم والهندوس وكانو يدفعون تحمسه وأحن ١٨٠٠٠٠ غرش لكل أسرة جديدة ويقطمونها أرضاً . وهكذا أقبلت نساء كثيرات من بين الطاقات الدنيا على اعتثاق المسيحية ، وتزوجن من برتغاليين . الا أنَّ الطبقات العليا أردرت كثيراً بالمسيحيب. 3-واغضت من جانب المسمحين . وكثيراً ما شاهل البرقماليون بين عمليات النبصير وعملية تنصير الناس بطنايسم البرتغالية ؛ أذ كثيراً ما طلب المرساون البرتغاليون من الموعظين الجدد أن يتخلوا. عن نظامهم الطبقي وان يرتدوا الزي البرتفالي والتخاطب باللغة البرتغاليد...ة واكل اللحوم . واسلوب الارشاد المتبع والدعوة الى اعتناق الدين المسبحي لم يكسسن : • هل قحب ان تصير مسيحياً ، بل و هل ترغب الدخول في طبقة البرتغاليين ، ? ومن هذا هـ ذا الكرم للديانسة المسيحية التي كانت ديانة المستممرين من البرتماليين العابثين بنطام الط محات والمردرين لهمه ما ؟ واكلة لحوم الثيران ٤ هذا الحيوان المقدس عند الحدود .

فامام هذا الفشل الذريسيع تصاب به عملية التبشير بالمسيحية ، راح الملك يرسنا الثالث بطلب من اغناطيوس ده لوبولا ، كهنة ومبشرين يسوعيبن . وفي آيار ١٥٤٣ ، رصل الى عوا حامساً للعب سفير بابوي ، فرنسوا كسافييه .

قام الآباء اليسوعيون بمجهود كبير التبشير بالانجيل و مشر المسيحيسة .

العديس فرنسوا كسافييد ففرنسوا سكسافييد الذي اعلنت قداسته فيا بعد ، كان اول من وضع في التربة ، الفرسات الاولى . فقد كان كريم المطلمة ، قريباً للقلب ، وقور المشية ، تابت الخطى وثيدها ، صريحاً الى آخر سدود الصراسة ، شديد الحاسة والاندفاع ، تنفسذ عبارته الى القلب توا بمدد الحسل من عجب ان يقسدو الجميع

وان يكنوا له محية خالصة . فقد كان فارساً ، ولذا كانت مقرراته تؤخذ بسرعة وتنفسذ بحزم ، يلحظ بشدة جميم الانطباعات الجديدة ويقبل بجرأة ، على المشروعات التي لا تخليب من الخطر والمغامرة ؛ يبدر عليه القلق رقلة الاصطبار احياناً . فلم يبدل شيئًا من المبادىء الاساسيســـة كالارتدادات بالجملة واستمال الضغط والقوة .وطلب من نائب الملك استعمال السلاح ضد العصاة من امراء الهند وتمنى عليه لو يشكل جيشا جاجم مكة ويقلم اظافر الاسلام فيخفض من شأنه. والنجاح الذي اصابه يجب رده بالدرجة الاولى ؛ لصناته الشخصة ولفقره وتواضعه ولحبشب الصادقة وللمعجزات التي صنعها . حرص كل الحرص على ان يوفر المرسلين ، تربـــة احسن بقيت مع ذلك ، دون المرتجى ، من التربة التي عمل فيها اوائل المرسلين . فقد كان رجاؤه الاكبر وتعويله الاول على نفمة العهاد . قام في اواخر عام ١٥٤٢٪ بزيارة لقبائــل برافير ومنها هـــذا الفريق من الفطاسين العاملين في صيد اللآليء ٬ الى الشرق من رأس كومورين ٬ والذين وقعوا ٬ من عهد قريب ، تحت حماية البرتغاليين ، كان بينهم عددة الوف اصطبغوا بالمهاد المسيحي . وراح فرنسوا كسافسه يطوف بمن القرى والدساكر بصحبة بعض المترجمين ، ثم يأخسة بجمم الرجال والأولاد ممساً على قرع الاجراس ، ثم يتلوا عليهم : ﴿ ابَّانَا ﴾ و ﴿ السَّلَامِ ﴾ و ﴿ أَوْمَسْنَ ﴾ ووصايا الله العشر . فمن آمن منهم ، امر بتعميــدهم اللحال . وكان يعهـــد الى بعض وجوه القوم بينهم ليعلموهم اهم قضايا الايمان ويفسروها لهم ويقوموا امامهم بالصلوات الممتسادة . وكثيراً وطنياً ويستأنف مسيرته الى ابعد . وفي ١٥٤٤ ، توفق الى تنصير بضمة آلاف مـــن صيادي السمك على سواحل ترافنكور . ومنها واصل سعيه ورسالته التبشيرية الى ان وصل مالقا (١٥٤٥) وامدوان وترنات في جزر المولوسك ، واخيراً بلغ البابان سنة ١٥٤٩ ، وتوفي عنسه مداخل الصن في ٢ كانون الاول ١٥٥٢ ، في جزيرة سنسيا الصغيرة على مربة من غوا .

بعد وفاة فرنسوا كسافييه اشرف على عملية نشر الرسالة ترجيهات الاب فالمنياني احد ابناء الاسر ترجيهات الاب فالمنياني احد ابناء الاسريفة في نابولي ابعد ان تمين زائراً على ادبار الرهبنة افي الشرق الاقصى الوصل غوا السريفة في نابولي المعاد وبرفقته ١٤ راهباً بسوعباً المعمل على اتحاد المسيحيين وفقاً لارشاداته وتوجيهاته. فقد قدم المطران النسطوري ابراهيم إنفامال المالترب من كوشين اخضوصه البابا وسمح للآباء اليسوعيين بالاقامة عنده واستطاع فالمنياني ان يمني في فابيكونا معهداً صفيراً يمنى باعداد كهنة من ابناء البلاد ابعد اعدادهم الاعداد الكافي يؤهلهم المقيام بعملية الرسالة في الهند والمناه التعليم الطبعة الملابارية وفي مجمع ديامبسور الاقليمي الذي عقد عام ١٥٩٧ اعلن الكهنة النسطوريون اعتناقهم للايان الكاثوليكي وقبلوا العمل تحت ولاية اسقف يسوعي .

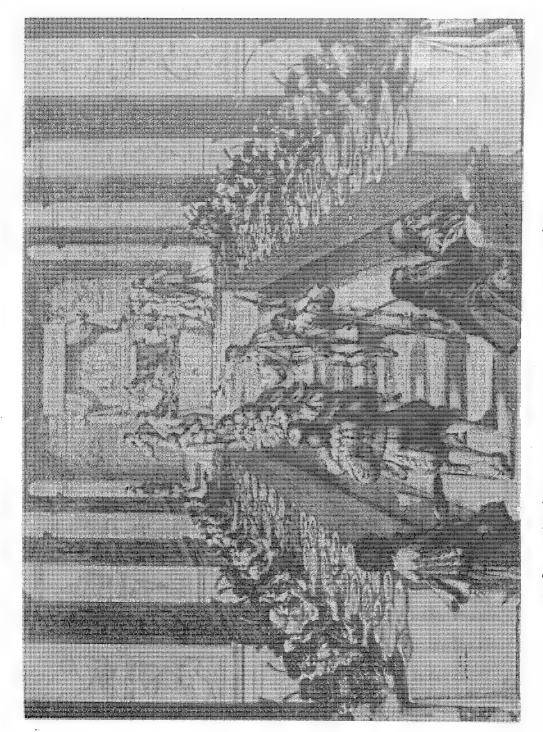
فيدلاً من الانصراف لتبشير الطبقات الدنيا و و المنبوذين ، امتسال صيادي السمك ، واح

المرسلون يتوجهون من الملوك والاسياد وعلية القوم ، نفاذاً منهم الى قلب الهند ، فقد أرسلت بمض الرسالات الى السلطان اكبر ، عام ، ١٥٨ ، و ١٥٩٠ ، ولا سيا الرسالة التي وفدت عليه عام ١٥٩٠ . بقي السلطان اكبر لا يلين ، انما اصدر عام ١٩٠٠ ، امراً يجيز المرسلين التبشير بالانجيل ، كاترك لرعاياه الحرية باعتناق المسيحية . وفي سنة ١٦٠١ ، اسست اول كنيسة مسيحية في اكرا . وبعد اكرا ، وجم بمض الامراء لليسوعيين بانشاء رسالات تبشيرية ، في اماراتهم ، وفي سنة ١٦٠١ ، كان تحبت تصرف اليسوعيين ، معاهد ووكالات في معظم المدن الساحلية حيث كنا نجد اكثر من ١٦٩ كنيسة . وبلغ عدد المسيحيين ، شارج غوا ٢٧٠٠٠٠٠ كل هذه الجهود ادت مع ذلك ، الى فشل جديد ، في هذا الجمال .

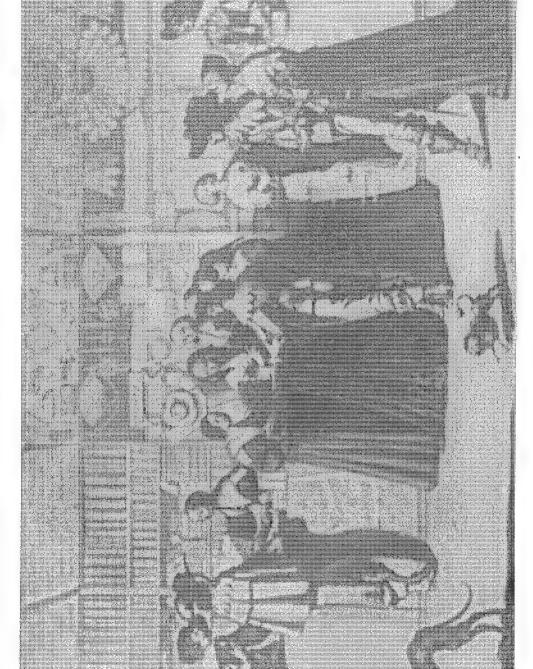
لفت همذا الرضع المؤسف ، والفشل الذي انتهت اليسه جهود وربرت وبلي وطفوس ملاباد المرسلين ، انظار كاهن يسوعي من نبلاه رومها ، هو روبرت ده نوبلي المولود عام ١٩٠٧ ، الذي قدم ، عام ١٩٠٩ ، الى الهند الجنوبية ، الى مادوره ، فقسد فكر ، مدفوعا الى ذلك بمثل الاب ماتيو رتشي في الصين ، بات المسيحيين لم يبرهنوا عسن ايمانهم الوطيد به وعن ثقتهم ولم يستجيبوا لجهوده الراميسة للاتحاد مع الله ، بعد ان خللتهم التمابير الحلولية والاصطلاحات الهندوكية التي تتنزى بالكفر والالمساد والقول بتعدد الآلمة ، وانه من المناسب لذلك ، استخدام تماليم الهندوكية نفسها بعد ان تستخلص منها ما يتنقى والمقاتى الدينية المسيحية ، وبعبارة اخرى رأى ان المطلوب ليسفقط إلباس الهندوكية ثبها مسيحيا فضفاضا وجعلها نسخة مشوهة عن الحضارة المسيحية او اضفاء روح المسيحية على المجتمع المندي والنظم الهندوكية ، كا هي بعد التأليف بين الطبقات ، المهم ، قبل كل شيء استالة الطبقات العليا واكتساب هطفها وثفتها ، اي البراهيان والكهنة ، والباقي يتبع من نفسه او من تلقاء ذاته .

كان في مدينة مادوره اكثر من ١٠٠٠ طالب براهماني . فتقدم بوبلي منهم باعتباره واسبا رومانيا يرغب في العيش في التقى والعسلاة ودرس الشريعة الالهية . ولذا راح يعتدرد شارات الاهمان المسلام الانبلاء الحماريين وهي علامة البراهمان اكا حل الا Kondound او خعسسة الشعر المتدلية من الرأس ا وهي تمتلف سبكا وضفراً واتجاهاً باشتلاف الطبقات ا وارتدى بزة صفراء اوهي تميز السانياسي الذين كانوا يتبعردون من كل شيء الامرضون عن كل شيء .

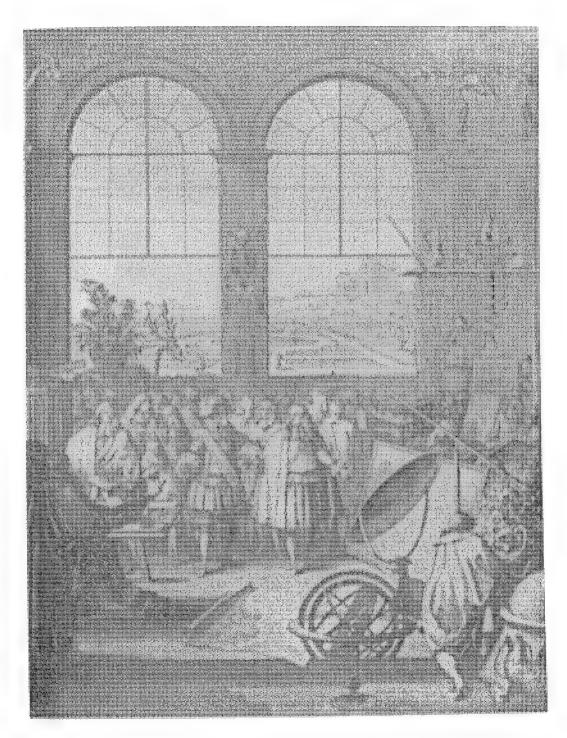
واقام وحده في كوخ من الحشائش والاعشاب واخذ يقتات بالبقول ويشرب الماء القراح فاطماً سعاية نهاره في التأمل . وإذ ذاك سعاء البراهمان "يزورونه في خلوته ؟ يمد أن سعوم بنصاعة لنته وهي التامول ؛ وبالنصوص الكثيرة المستمدة من خيرة كتابهم ؛ ومن قصائسسدم الوطنية التي كان يستشهد بها في بجال التحدث اليهم . فقد كان يعرف معرفة نامة كتب المفيسدا



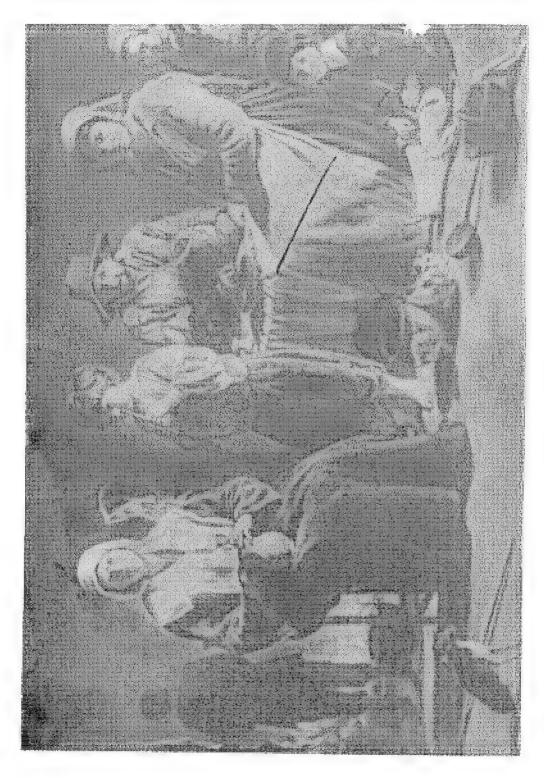
٣٣٧ - "منظيم الماميَّاليَّ أعيَّعاجلالته لعشيلِ النهسَّان يَعِسدتا سيسهم ، في مَونتينيو ، فج الرابع عشومنايار من السسة ١١١٧ »

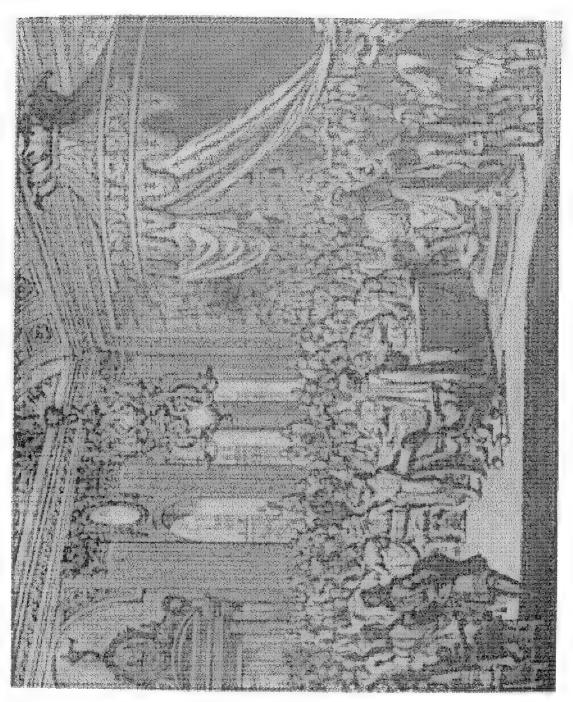


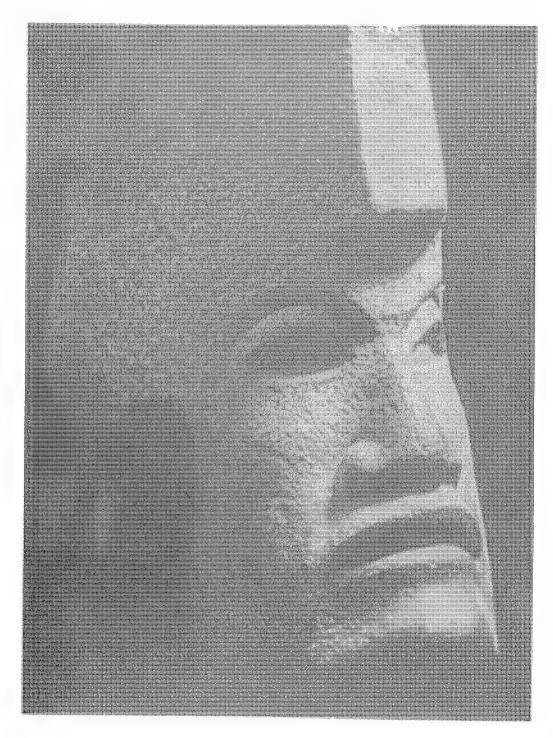
という



27 - فيارة لويس الرامع مشر للموسد (١١١١)



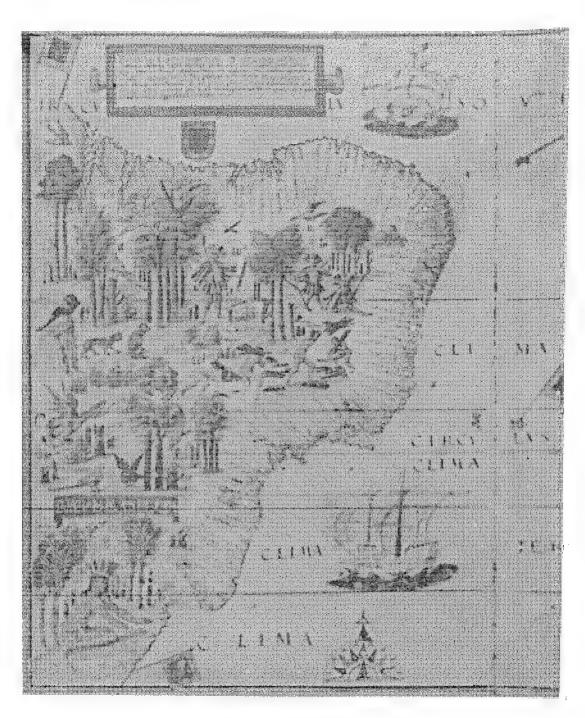




PY . (by while Kessial with legender Kar Hassac of Hitmasher



. يُدَوَولُ الأصباليين المسائلة المعالية العديد: الأمين غوالائل يلق يُستقيل خزيستون كولوميوس



١١- اللبرازيل في السسنة ١٥١٩



المارسية من مريطية الدائد للكبه التي رسعت عين رز عدار في نسسة ١٠٤٠ ماسره رسم الاول

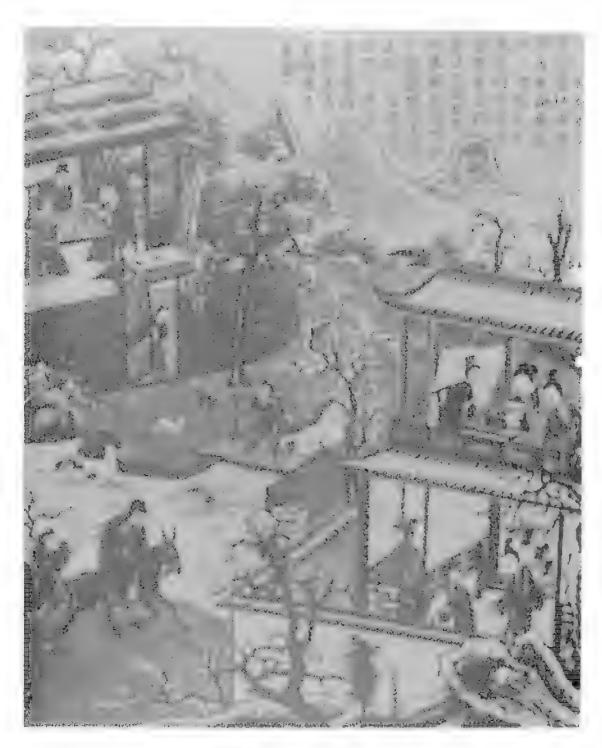




١٤٠ م ... مكذا تكلم زردشت. ،



ه } _ عيد مَلكي في حَديث م فارسية



11 منطرطيعي لي أنيًّا ؟ الد اه



١٢٠ ومسول البريعالين في البابات في لفترز المشادس عشير

14 - كماكم مياكو في فيدن ليدعب للاقاة السعودة المعولات

اذكان سبق له ودرس اللغة السنسكريتية وكشف لهم عما في كتبهم المقدسة من شواهد وأدلة على المسيحية وصحتها . اعترف البراهان به كواحد منهم وقبلوه رسميا في مصافهم ، وهو امر يكاد لا يصدق ، اذ ان المرء يولد هندوسها حسب الهندوكية المستقيمة الرأي ، ولا يصير المرء هندوكيا ، اي ان اي غريب يتمذهب بالهندوكية يبقى دوما mlechcha ، ويحظر عليه درس الكتب المقدسة . وقد ألف نوبلي بلغة التابول كتبا فيها الدليل على ان المسيحية هي تتمنة الهندوكية . كذلك وضع اناشيد تقترب بمبناها ومعناها من الاناشيد التي تتفنى بالهة الهند ، بحيث كان يتوجب على المدقق ان يتملى النظر ليتبين الفرق بينها . وقد احترم جداً مبدأ الطبقات . وكان يمعد البراهان ويتركهم يحملون شاراتهم الميزة لطبقتهم الخاصة ، ويقومون براسم طقوسهم التي احب ان يرى فيها ليس مظهراً من مظاهر الصنمية بل مراسم اجتاعية ، وسياسية . ومن جهة اخرى ، كان نوبلي هذا البراهان الذي يغار جداً على نقائه وطهارته ، يناول المسيحيين من طبقة ادنى ، القربان الاقدس برأس عصا صغيرة او يضع القربان امسام عتبسة بابهم .

استمر نوبلي على رسالته هذه حتى سنة ١٦٥٦ ، وحرص اخوته المرسلون العاملون معه في جنوبي الهندعلى تبني طريقته هذه وانتهاج نهجه . وهكذا رأينا يسوعيين براهان بينهم دون جوان ده بريتو ، وكونستان بشي كارأينا رهبان يسوعيين من ضن طبقة المنبوذين ، امثال عمانوئيل لويس وغيره . فالبراهان اليسوعيون كانو يحملون على محفات ، ولا يودون التحية لاخوانهم من الآباء اليسوعيين في طبقة المنبوذين ، نصف العراة ، يخفي عورتهم مثرر حول حقويهم . وقد جاءت النتائج حرية بالملاحظة . ففي سنة ١٦٧٦ ، احصوا في مادوره ومقاطعة كرناتيك وميسور ، ٢٥٠٠٠٠ هندي مسيحي كاثوليكي ، بينا كان صرف احد الآباء اليسوعيين ، قبل قدوم نوبلي ١٢٥٠ هندي مادوره ، دون ان يسجل اي ارتداد للمسيحية ، والجهد الذي قام به نوبلي وجد صداه الطيب واثره الجميل باصطباغ الهندوكية في مادوره بصباغ وحدة الالوهية والثنائية بعد ان تطورت فيها الى هذا الحد تحت تأثير النساطرة والمسلميسن في هذه المنطقة .

أثارت هذه الاشياء المستجدة او المستحدثة في مناهج الرسالة المسيحية بين الهندو كييسن هواجس رئيس اساقفة غوا واقلقت تفكيره . ولذا استدعى اليه الاب روبرت نوبسلي للمثول امام محكته . فحضر بزي براهبان بما اثار دهشة الجميع ورفع المطران القضية للكرسي الرسولي، فاصدر البابا غريفوريوس الخامس عشر امره للمطران بالتوقف عن ملاحقة نويلي وعدم مضايقته، وسمح له باستمال دالطقوس الملابارية » بصورة موقتة » اشفاقاً على الضعف البشري (٣١ كانون الثاني ١٦٢٣) . اما الفرنسيسكان ، فقد رأوا من جهتهم ، في هذه الطقوس شيئًا نخالفاً للمحبة المسيحية ، اذ ان المسيح قد حرر المسيحيين من التقيد بمراسم التطهير الخارجية التي تؤلف نخالفة لعبادة الاله الحقيقي ، بعد ان اختلطت اختلاطاً بالطقوس الوثنية يصعب التفريق

بينها . وهكذا عادوا من جديد لبحث : « الطقوس الملابارية » . فصدر عام ١٦٤٥ و ١٦٤٩ قرارات بابوية بشجب هذه الطقوس ، كما شجبت الطقوس الصينية . ولم يتقيد الآباء اليسوعيون بمنطوق هذه القرارات بدعوى ان البابا اتخذ قراره هذا في نطاق الاسباب المرجحة التي تبدت له . فالرأي المبني على المرجح لا ينفي ان يكون عكسه ، له ايضاً ما يجعله مرجحاً . وهكذا فلم يحدث ما يزعج الارساليات او يشوش عليها العمل . الا ان الآباء الكبوشيين شكوا اليسوعيين عام ١٧٠٤ ، بانهم يتساهلون مع خرافات خطرة . ففي طريقه الى الصين ، توقف المطران تورنوف الذي كان ممثلاً للبابا في مدينة بونديشري ، واصدر في ٢٣ ايار ١٧٠٤ ، حكماً مطلقاً ضد الطقوس الملابارية وسياسة مراعاة اليسوعيين لنظام الطبقات في الهند . ثم اصدر الديوان المقدس (١٧٠٦) براءة ارغم فيها اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بند كتوس الرابع عشر ، اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بند كتوس الرابع عشر ، اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بند كتوس الرابع عشر ، السوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بند كتوس الرابع عشر ، المدرت عام ١٧٤٥ .

قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية وفشل عمليسة التبشير بالانجيسل

مها تكن النتائج التي تمت على يد نوبلي وتلاميذه ، فها عسى ان تكون لبضع مثات الألوف من الهنود المتنصرين من قيمة بالنسبة لمؤلاء الهندوس الذين يعدون مائة مليون.

ولعل الصعوبة الكبرى والعقبة الكأداء التي اعترضت رسالة المبشرين بالانجيل هي في هذ االشبه الكبيربين المسيحية والهندوكية . فالمرء الذي يكرس ذاته كاملاً لله مجيث اصبح Ishta deva والذي جعل من الله مسرته وسعادته ليتخلص ويتطهر من ادران اله محيث اصبح في منجى من سلسللة التقمصات المتصلة الحلقات ، وتم اتحاده بالله الى الابد ، مثل هذا الانسان لم يعسب ليشعر مجاجة للمسيح . فكيف لا يشعر من اعماق قلبه بالرضى والارتياح هذا الانسان الذي تم له مثل هذا الحنان ومثل هذا الحب الالهي ، والذي كان يصرخ مترغاً في القرن السابع عشر، في هيكل فكنو بالعناية الالهية قانلا :

ه ليس في الكون مكان ما ولو كان بقدر حبة خردل ، لا يمتلىء بالله . فعظمة الله فرق كل بحث وابعد من ان تدرك . فكيف تستطيع عقولنا ان تتسع لهذا الخالق الذي يشرق بنوره على الشمس والقمر ? » .

« هذا هو إلهنا ، هو الروح من ارواحنا . كل شيء فينا او من حولنا يحدث باسمه ويذيح مجده . الله الرحمة والحنان والعطف ، الاله الذي يشبح رغائبنا ، الاله الذي يحمينا ويحتر علينا » . هذا الاله ، اله الحجبة ، لا سبيل اليه الا بالحبة وفي الحبة . فهو يسمو بكثير فوق ادراكنا وافكارنا ، وفوق كل كلمة وتعبير بشري . فليس له من قياس غير قياس الحب والادراك » .

واي ايمان يمكن لهذه الألوف من القرويين ومن الحجاج ان يشعروا مجاجتهم اليه ، هؤلاء الذين تعمر صدورهم بالهتاف فينشدون غيباً هذه الاناشيد والترانيم التي وضعها تاكا -- راما، عام ١٦٠٠ احد تجار الحبوب ، في بوتنا ، في مقاطمة المهرات .

« التمس رحمتك ، باكياً ، منتحباً كمن ضل سبيه وناه عن الطريق. فسرت متكثاً على عكادي ، من باب الى باب الى ان اعياني السير ، فلم اجد احداً يؤاسيني اد يجبر نفسي الكسيرة ، لم اجد احداً ينقذني من ارصاب هذه الحياة الفانية ...مات ابي وعيناه مسمونان عليك ، يا رجائي وهكذا فعل جدي وجده من قبل ... فطفولتي وحداثتي ورجولتي طاردتني ودفعتني فاذا بي امامك . اما انت ، فانت القيوم الى الابد ، انت الذي لا تبدلك الايام ولا تحيلك الدهور ، انت انت مها امتد الزمن . ليس من يقف او من يجول على الوقوف امامك ... كيف السبيل اليك والتعرف عليك ? يا اخي 1 تعرف عليه بالفكر ، بالتأمل من اعماق روحك . سر في اثره كا يسيد السياد الماهر في اثر طريدته » .

وهكذا فشلت اوروباكما فشل الاسلام ، من قبل في تبديل عالم الهند .

لانوسل لاثنائث العالم الصيني وأوروبسا

، ١ ــ الصين واليابان

الصن

يمثل القرنان السادس عشر والسابسع عشر كالحصر انحطاط الكباش الصين وانطواؤها على نفها دولة منغ ، واستبدالها ، عسام ١٦٤٤ ، بدولة جديدة ، بربرية من منشورها ؟ هي ذولة تسنغ . عاشت الصين ؟ هذه الحقية ؛ منطوية على نفسها . فالثورة التي الدية عام ١٣٨٦ الى طرد الدولة المغولية : يوان وحاول دولة منغ محلها، كانت اشبه ما تكسون بردة قمل انمكاسية قام بها الصينيون ضد البرابرة . فقد حملت هذه اليقطة الوطنية ممها نتائسج طيبة لم تلبث ان ظهرت بوضوح. فقد اعرب الصينيون عن رغبتهم بالعودة الى ماضيهم السابق، الى تقاليدهم المرعية ، بعد ان علمتهم الايام ان يكونوا حذرين جداً ، يقظين من العالم الخارجي. وهندما التقت هذه النزعة مع الوهن الذي تمكن من جسم أباطرة الصين الذين استساموا لحيساة الدعة والرفاه في بلاط عامر باللذات ، والاستكانة الى الحريم ، حصلت الردة الصينية . ففسسى سنة ١٤٣١ 6 قامت آخر حملة صينية استهدفت شواطىء الجزيرة العربيســـة ومضيق ارموز ٢ وراسوا التخسيس مرة ؛ يطالبون ملوك جاوا وصومطرة وسيلان والملابار ؛ بدفع الجزية . والقرارات التي صدرت عام ١٤٤٧ و ١٤٤٩ و ١٤٥٧ حظرت على الصينيين مغادرة المياه الصينية. وفي سنة ١٤٥٩ ظهرت السفن الصينية ؟ لآخر مرة ؛ في مياه كوشين . وفي سنة ١٤٥٣ ، توقف الصينيون ؟ لآخر مرة ؟ عن الاهتام بشؤون المنول . ومنذ ذلك الحين ؛ انكفأوا على انفسهم وانطووا على ذواتهم ٤ فقيموا داخل سورهم ينصرفون للتأمل والتجريد .

بالرغم من رغبتهم بالمحافظة على عدم الاتبان باي حركة ، نشهد وقوع تكاثر السكان تغميرات مهمة في أنظمتهم الاقتصادية والاجتماعية ،وهي تغييرات اقل بروزاً للمين من الاحداث السياسية والدسائس التي عمر بها البلاط الامبراطوري . فقد اخذ عدد السكان بالازدياد والارتفاع . وبلغ عنه سكان الصين " عام ١٥٠٢ " نحواً من ٢٨٠٠٠٠٠ نسمة " قارتقم هذا المدد ؛ عام ١٥٧٨ ؛ الى ٢٠٠٠٠٠٠٠ ؛ ليتجاوز ؛ عام ١٦٦٢ ؛ مائة مليون . فقد بلغ من اكتظاظ البلاد بالاولاد ما حمل بعض الاوروبيين على التندر متسائلين ، ما اذا كانت الصنبات بلدن كل شهر او يضمن خمسة توائم دفعة واحدة ، وفي هذا دليل على أن نسبة المواليد لدى الصينيين كانت تفوق نسبتهم لدى الاوروبيين ، بحيث بلغت ٦٠ في الألف . مع العـلم ان نسبة الوفيات بين الاولاد لم تكن لتقل عن ٥٥ / في السنة ، ومها يكن ، فقد أثار هذا النمو مشكلة الغذاء . هل أن توطين نباتات غذائية جديدة كان الباعث الاول على أزدياد عدد السكان؟ ام انه جاء نشجة لها ؟ فقد دخلت زراعة الذرة الصفراء عام ١٥٥٠ إلى مكة على يد مغاربة من عرب الاندلس ، ومنها دخلت الصين على بد حجاج صينيين . وللحال اخـــذ الصينيون بزراعته على نطاق واسع . وفي آخر عهد دولة المنغ كانت زراعة الذرة تسير على قدم المساواة مسع زراعة الذرة البيضاء (الدخن) والقمح ، كذلك ظهرت زراعة البطاطا الحلوة عام ١٥٩٠ ، بعد أن دخلت زراعتها الفليبين مع الاسبان ، ومنها امتدت إلى الصين على يد تجار صينين من فو - كمان . وقد حلت زراعتها في اواخر القرن السابع عشر في كل مكان واستعملت لها على الاخص الذبية الرملية . كذلك انتشرت زراعة الحمص بانواعه والبازلا ؛ وهي مادة لهـــا اهيتها، ليس لما فيها من مادة ازوتية متممة للحيوب فحسب ، بل ايضاً لاستعالها سماداً ازوتياً لاخصاب التربة الفقيرة .

عرف الصينيون أن يفيدوا ؟ إلى أقصى حد من موقعهم الجغرافي المتاز المتد بين درجة ٧٠ - ١٥ من خط المرض الشهالي ، وما يوفره لها هذا الموقع المؤاتي من فصول زراعية تمتــد طويلًا ﴾ وامطار غزيرة ؛ في الصيف؟ اي في هذه الفترة من السنة التي تكثر المحاصيل والغلال الزراعية التي تتطلب من ٣٠٠ ـ ٣٠٠ طن من المياه لكل طن من الغلال حتى تبلغ حد النضج . وبفضـــل مقادير هائلة من الاسمدة والخصبات الزراعية كطمى القنوات وروث الحيوانات ٬ ورجيم الناس المعزوج بالتراب الجفف الناعم ليذر على وجه التربة ، والدمال الاخضر المستمد من المواد العضوية في الفابات والأحراج ٬ يفرشونه على التربة بعــــد اختياره ٬ استطاعوا ان يمصلوا على عدة موامم في السنة ؛ من الحقل الواحد في اثر الآخر ٬ او تقريباً في الوقت ذاته : اغراس على سطور متوازية ، وغلال صالحة للحصاد بينها غلة قريبة القطاف ، وأخرى آخــذة بالنمو والنضج . وقد تمكنوا من الحصول على موسمين من الارز ، من الحقل الواحد ، في السنة ، في مقاطعــة تشي -- كيانغ ، بعد موسم القمح او الشعير او الذرة او الكولزا او الفاصولياء ، وموسم أرز وقطن ، في مقاطعة تشان ـ تونغ ، وموسم قمح او شعير في الربيع ، وآخر من الذرة الصفراء او البيضاء او بطاطس حلوة او حمص في الصيف ، بقطع النظر عن مواسم فرعية ـ اخرى كالملفوف والبصل والفجل، ومع ذلك فلم تكن هذه المحاصيل والفلال الزراعية لتفي بحاجة السكان الفذائية بعد هذا الارتفاع في عدد السكان. ومن جهة ثانية ، هبطت مساحية الارض الزراعية مسن جراء الاضطرابات والحروب القائمة، من ٢٠٠١٣٬٧٩٦ كننخ (٢٠٠١٣٬٧٧٦ كننخ (٢٠٠٨٢٬٧٧٦ هكتاراً) سنة ٢٠٠٨. اما الممسدل العام بالنسبة للسكان فكان طبيعيا عام ١٩٧٨ ، اذ كان يقتضي ٧٠ سنة ١٩٦٠. اما الممسدل العام بالنسبة للسكان فكان طبيعيا عام ١٩٧٨ ، اذ كان يقتضي الارض meau الزراعية لا تفسي مجاجة الاهلين الغذائية . ولذا كانت البلاد تتمرض ، دورياً ، لتفشي المجاعة وللكثير مسن الازمات والهزات السياسية والاجتاعية . وهكذا نرى ان الاوضاع اليق صارت اليها امور التغذية والاعاشة ساءت جداً في عهد دولة المنغ .

نلاحظ ظهور طبقة كمبرة من البوجوازية ، تألف معظمها من التحمار ازدهار البورجوازية ورجال المال والاعمال ، دون ان نتبين بوضوح الحوافيز التي بعثت على ذلك : فهل يجب رد هذه الظاهرة ، يا ترى ، إلى هذا النشاط الملحوظ الذي رافق زراعة القطن والاتجار به منذ ان راح ملوك دولة المنغ يكرهون الفلاحين للانصراف الى زراعة القطن ، بعد النجاح الذي حققته هذه الزراعة منذ اواخر القرن الخامس عشر ؟ ام يجب رد ذلك الى ازدياد النشاط في حركة التصدير الى الاقطار المجاورة ، كالفيليبين واليابان وجزر الصوند الواقعة وسطاً ، بين الصين واوروبا ؛ او ان نمو البورجوازية جاء نتيجة لقدوم الاوروبيين الى الشرق الاقصى ؟ ومهما يكن من الامر ؛ فالبورجوازية الجديدة اخذت توجه ابناءها نحـــو الامتحانات الرسمية ؛ منافسة بذلك اولاد الاقطاعيين بمد ان كانت وقفاً عليهم وحدهم دون سواهم . فقد سبق لملوك المنغ ان نظموا مناهج الدروس وضبطوا طريقة الاخذ بالامتحانات . فقد كان الولد يعطـــى ، وهو في السادسة من عمره ٤ دروساً تمهيدية في تاريخ الادب ومجاريه الكبرى عبر ·تاريخ البلاد ٤ ثم يقضي من ٤ — ٥ سنوات في تعلم القراءة والكتابة والمنتقيات الادبية ، نثراً وشعراً عن ظهر الرسمي ، فيقضي المرشحون يوماً وليلة في محل منعزل، يعالجون موضوعين يعينان لهم وينظمون قصيدة في موضوع مقترح عليهم . اما معدل النجاح فكان بنسبة ١ / . اما الناجحون بالامتحان فكانوا يعفون من دفع الضرائب ومن العقوبات الجسدية ، ويصبح في مقدورهم أن يتقدموا ، عندما يىلغون السن القانونية التي تخولهم العمل في دوائر الحكومة ، لطلب وظيفة في خدمة الدولة ، في دائرة من الدوائر المحلية . اما من رغب بينهم بمتابعة تحصيلهم ، كان بامكانهم ان يقضوا ثلاث سنوات في احدى الاكاديمات الاقليمية . وإذ ذاك ، يصبح في مقدورهم ، التقدم للامتحار الثاني ، فيقضون ثلاث دورات تستمر الواحدة ثلاثة ايام . في الاولى ، يطلب اليهم معالجة ثلاثة مواضيع ادبية وان ينظموا ثهامي قصائد ، وفي الثانية ، يعالجون خسة مواضيع تتعلق بالادب الاتباعي ومشاهير رجاله ، وفي الثالثة يمالجون كتابة خمسة مواضيع تتعلق بامور الحكم وفن

الادارة ،مع تأييد آرائهم بالحجج والشواهد التاريخية الدامغة. فن منهم كان يطمع للمراكز والوظائف العليا ، كان بامكانه ان يدرس ثلاث سنوات اخرى ، ثم يتقدم لامتحانات نهائية تجري في القصر الامبراطوري نفسه ، في بكين ، حيث يطلب اليه معالجة موضوع يتعلق بقضية سياسية اجتماعية، او بمشكلة وطنية كالري والزراعة ، والاستعار والنقد ، والجيش والتربية . فن يرغب في خدمة الجيش الامبراطوري اجتاز امتحانا اكثر تبسيطا واقل تعقيداً اذ كان يطلب منه معرفة اهم المصادر والمراجع التي تتعلق بفنون الحرب ، والرمي بالقوس ، ورفع الاتقال والاحسال الباهظة ، واستعمال السيوف الكبيرة . اما الموظفون الذين كانوا في خدمة الدولة عام ١٤٦٩ ، فقد بلغ عددهم نحرواً من ١٠٠٠٠٠ موظف مدني ، و ١٠٠٠٠٠ ضابط في الحيش .

كانت تكاليف الدرس والامتحانات عالية باهظة . ففي عام ١٥٤٧ ، كان يـ ترتب على من يتقدم للامتحان النهائي ، دفع ٢٠٠ taels من الفضة ، كما كان عليه ان يبقى فترة طويلة لينتظر دوره في التعيين. ولم يكن المرشح لوظيفة يؤمن تعيينه الا بعد ان يتكبد مبالغ طائلة تذهبهدايا سنية يتوجب عليه تقديمها للخصيان او لمن بيدهم الحل والربط . اما المرتبات فكانت جد ضئيلة ، كما ان الموظفين الذين طلموا من الطبقات البورجوازية كانوا يحاولون جهدهم لاسترداد ما دفعوه تسديداً منهم لديونهم . وكانت الرشوة ضاربة اطنابها بين الموظفين ، وتؤلف عورة من العورات التي شانت عهد دولة المنغ . وكانت المبالغ المقتطعة من ايراد الطبقة المنتجة ، باهظة للغاية .

بعد هذا ، هل يمكن لنا ان نرد المعيزات التي اصطبغ بها الادب والفن ، في عهد المنغ ، لطرح الطبقة البورجوازية ؟ فالرواية والرواية الاجتاعية ، هي التي طبعت الانتاج الادبي ، اذ ذاك ، بيغا اخذ الشعر بالانحطاط والتدهور . فالكاتب الصيني ونغ – تاو – كوين ، ترك لنا عام ١٥٥٠ ، صورة للانحطاط الذي كانت عليه الادرة ، اذ ذاك ، وذلك في كتابسه : « على شواطىء النهر » ، كا اننا نرى الكاتب الصيني دون – تشانغ – إن ، يسخر في كتابه الموسوم ، و الحج الى الغرب ، من الطبقات ويهزأ بهذه الملل والنحل الدينية . ومن جهة اخرى ، نرى تردهر في البلاد فن الرواية التي تعالج البطوله وفن المسرحية . هل يجوز بعد هسذا ، ان دو الهبوط او الانحدار في النوع او الحيف، وضعف النشاط الخلاق ، والميل للتقليد والهاكاة ، وما هو فارغ اجوف، الىحركة التصدير الناشطة التي تناولت مصنوعات القيشاني والعاج والحلي، الى بلدان كوريا واليابان والفيليبين واندونيسيا ، او الى هذه النزعة القديمة المنقليد والاعراف ؟ هذا المعتبام الشديد الذي يبديه المنقفون ورجال الفكر ، نحو الدرس وتحصيل المعارف العملية الامتهام الشديد الذي يبديه المنقفون ورجال الفكر ، نحو الدرس وتحصيل المعارف العملية والنطبيقية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، وفي خضم هذه الاضطرابات ، عندما استطاع الرحالة الجغرافي الكبير هاو – هانغ – تسو (١٩٥٥ ١٩٢٢)) الكشف عن منابع استطاع الرحالة الجغرافي الكبير هاو – هانغ – تسو (١٩٥٥ ١٩٢٢)) الكشف عن منابع

نهر البانغشي الاصلية – وعندما تمكن من وضع الحد بين نهري سالوين والميكونغ ، كما استطاع رسامون فنانون مهرة ، وضع خريطة دقيقة الصين ، او عندما امكن شر بعض موسوعات عام ١٦٠٩ و ١٦٢٨ ، و ١٦٣٧ ، ولا سيا الموسوعة المعروفة بينها بعنوان : Tien kung k'ainru التي وضعها سونغ – ينغ – هسنغ ، وهي عبارة عن معجم للحرف والمهن والصنائع ، وعندما استطاع ماينغ – تسو ، عام ١٦١٥ اختصار الابجدية الصينية وتخفيض عدد علاماتها او حروفها من ١٤٥ حرفا الى ٢١٤ «

ولد وانغ – يانغ – منغ في ٢٦ تشرين الاول ١٤٧٧ ، على مقربة من على مانغ في ٢١ تشرين الاول ١٤٧٧ ، على مقربة من مدينة ننغ – بو ، من اعمال ولاية تشاي – كيانغ . فقد كان في رجه الكونفوشية التشوهية ابناً لاحد كبار ممثلي الثقافة في الصين ، عمل وزيراً وتولى وزارة

الداخلية . اجتاز هذا الصي بنجاح كل الامتحانات المفروضة ودخل موظفاً في الادارة . تاق وهو حدث، للكمال الخلقي والادبي، ولذا راح يدرس البوذية والطاوية، وعزف عن العالم وزهد، وراح يسكن في غار . ولم يلبث أن وجد حياة الرهبان البوذيين والطاوبين النسكية مخالفة للطبيعة البشرية ، متمارضة ، تماماً مع واجبات الانسان الاجتماعية . فعاد من جديد الى الكونفوشية ، حوالي ١٥٠٢ - ١٥٠٤ ، وعين رئيس قلم في الحكمة الحربية ببكين . غير انــه لم يجد في الكونفوشية سوى الجمود والصقيم وخساسة المادة . فالتعليم الرسمي الذي اعتمدتـــه دولة المنغ وكرسته الامتحانات الرسمية، لم يكن سوى التفسير المادي أو الوضعي للكونفوشية، كما خرج من يد تشو – هي (١١٣٠ - ١٢٠٠) ، في عهد دولة السونغ ، فأبت دولسة المنغ العودة اليه ؛ لان ظهوره سبق ظهور الـ Yuans ففي تعاليم تشو – هي ان وو – كي الكائن بالقوة صدر عن تاي – كي الطاهر ، النقي، الابدي ، الارلي، السرمدي، المطلق الوجود، والمكلي الحضور٬ السامي الفضائل٬ المكلي الحكمة . فحكمة الحكماء وفضلة الاولياء مما من بعض فيض حكمت وقضيلته الساميتين . ولكن هذا الاله تاي دكي ، ليس قط باله شخصي او فردي ، فهو ليس بعناية الهية ، فهو اصل او مبدأ ، يكو ّن وحدة مع المادة ، فهو يوجه المادة عن طريق لى ويوليها ما هي عليه من نواميس طبيعية وما لها من قاعدة تسير بموجبها . يبعث لي النشاط في كي (المادة) ويوليها نسمة شبيهة بكتلة غازية ، هوائية الشكل ، هذا الجوهر اللطيف للغاية . وبالنفاعل المتبادل بين هذين العنصرين : ين ، عنصر التركيز ، ويانغ ، عنصر الامتداد ، يتم خلق كل الكائنات. فالعناصر التي لا يحكن مسها او لمسها في كي ، تتكتل عماء الذي يستحيل بدوره كوناً ، محوره الثابت في الارض التي لا تتحرك ، يضم مع الارض الساوات والشموس والنجوم والبشر . وبعد ان يبلغ الكون تمامه وكماله يتفتت وينحل لمعود من جديد عماء ثم يستحيل ألى كي . وهذان العنصران : كي ولي ؟ اللذان لا ينفصم الواحد منها عن الآخر يعودان الى تاي ــ كي وهذا يعود بدوره الى وو ــ كمّى وهكذا يعبد الوجود دورتــه

التكرار الابدى .

للانسان روحان: احداهما شعورية ، مادية ، حساسة ، تعود عند الموت الى الارض . اما الثانية ، فهي الروح العاملة ، المدركة تمتزج عند الموت بالهبولى اللطيفة التي تتألف منها الساء . فليس من خلود فردي . فالحكيم يعوت كلياً . هو يجد في هذه الحياة سعادته اذا ما عرف ان يستحب للناموس الادبي . ولذا ترتب عليه الاتصال بالكائنات والتلاقي معها و ليطور معارفه وينمي افكاره » ، و ويقوم قلبه » ، « ولا يروض جسده » . وعلى مثال الانسان وشاكلته ، يجب ان يسود الانسجام والتناغي المجتمع والعالم . فالعالم الاصغر هو صورة مصغرة للعالم الاكبر . فالتكامل الذاتي يولد الادارة الرشيدة في الاسرة ، في الدولة ، في الكون كله ، وهو الذي يخلق فالتكامل الذاتي يولد الادارة الرشيدة في الاسرة ، وقول الطيبة والمحاصيل الوافرة ، ويولي الانهب والسواقي ما هي عليه من نظام وحكة . وقد عنى تشو مي بعبارته « ادراك الانهب والسواقي ما هي عليه من نظام وحكة . وقد عنى تشو مي بعبارته « ادراك وبعبارة اخرى ، الوصول الى معرفة ، عميقة صحيحة ، قبل « تنقية افكارنا وتخليصها بمساله بعبود ادبي ، لان الحقيقة الادبية التي يجب ان تكون قاعدة السلوك يشوبها » قبل القيام باي بجهود ادبي ، لان الحقيقة الادبية التي يجب ان تكون قاعدة السلوك هي خارجة عنا . علينا ان نتبين الحقائق الادبية ، في المجرد ، قبل كل شيء ، ثم ناخذ بتطبيقها هي انفسنا . وهذه المعرفة الكاملة ، المعرفة لا يمكن ان تتوفر فينا او تتم لنا الا بدرس ومارستها في انفسنا . وهذه المعرفة الكاملة ، المعرفة لا يمكن ان تتوفر فينا او تتم لنا الا بدرس كتب الكمال والاطلاع على كل ما جاء به الاقدمون من شروح وامجاث . »

يبدو لنا ان فلسفة تشو – هي كانت فلسفة ارستوقراطية . فهو يوجمه كلامه وتعاليمه للمستنيرين اي للمثقفين ، وبكلمة كال ، انما قصد الكمال الذي لا بد منه لمن يضطلمون بمسؤولية الامور العامة . وهي فلسفة مرزحة 'مقعدة ، تسبب الشلل لمن يتقبلها ، طالما تلزمه بالتعويسل الحلي كتب الاقدمين كما كانت ، من جهة اخرى ، مثبطة للعزم ، ان اشتراط المعرفة الكاملة لبلوغ الكمال الادبي وادراكه ، عملية مربكة ،معجزة ، اذ يجعل هذا الكمال صعب التناول ، لا يدرك ولا يبلغ اليه . ولذا أعرض المفكرون عن هذه الفلسفة ورغبوا عنها وزهدوا بها وهزئوا من كل من يحاول الاخذ بها ووضعها موضع التحييز ، وراحوا يستسلمون لغرائز النفس البشرية . ويأخذ وانغ – يانغ – منغ بتصويرهم لنا قائلا : « مجموعة محفوظاتهم الكتابية تجعلهم يتيهون كبرا ، ووفرة معلوماتهم ومعارفهم تزيدهم سوءاً وشراً ، وكثرة ما يحملون من فوائد تحملهم على المثرثة ، وجمال الاسلوب الذي تم لهم يذهب في تزويق اكاذيبهم و تر هاتهم » .

وجه وانغ – يانغ – منغ ، عام ١٥٠٦ ، بعض انتقادات الامبراطور او – تسونغ بما حمل ليو – كين ، احد خصيان الملك ومن اقرب الناس اليه ، على الحكم عليه بالجلد ، ٤ جسلدة وامر بزجه في غياهب السجن سنة كاملة ، ثم ارسله مأموراً في شعبة بريد في لونغ – تشانغ من اعمال

ولاية كوي — تشايو ، وهي ولاية تسرح فيها قبائل مياؤس نصف المتمدنين . وهنـــاك اضطر وانغ ان يبني له بنفسه كوخاً من الآجر، وان يزرع بنفسه بمض البعول . وقد جاءه الهاتف ، في



الشكل ٢٢ ـ الصين في عهد المنغ والتسنغ

اتحدى الليالي وافاض عليه من انواره وتعاليمه . أعيد وانغ الى البلاط بعد ان اصدر الامبراطور حكمه على ليو – كين بالاعدام واستأنف عمله في وظيفته كالمعتاد . تمكن عام ١٥١٩ من السيخمد فتنة قام بها احد الامراء في مقاطعة كيانغ – سي ؛ استهدف بعدها للدسائس والمؤامرات

وسوء المعاملة ، كما تعرض لسيل من الاهانات والافتراءات الذميمة بحيث اصبحت حياته اسوأ بكثير مماكانت في سونغ – تشانغ . واذ ذاك توصل للكشف عن محور فلسفته الا وهو الادراك العقلي او الاكتناه Liang tche ، وذلك سنة ١٥٢٩ ومات سنة ١٥٢٩ . فلم يترك لنا كتبا ، انما سلك نهجا روحيا تجلى بوضوح في رسائله الكثيرة واحاديثه . وقد ظهرت الاولى مطبوعة ، عام ١٥١٨ ، كما ظهرت طبعة كاملة لآثاره ، سنة ١٥٧٢ .

وهكذا نرى ان وانغ – يانغ – منغ ليس فيلسوفاً بالمعنى الحصري – يبحث في ما وراء الطبيعة والوجود ، انما هو رجل عملي ، استمد فلسفته من تجاربه الشخصية ومن تصرفه .

فهويقف من الادبيات موقفاً مضاداً لتشو — هي، ويرد كل شيء الى الاكتناه الشخصي. فالقاعدة او Norme هي في قلب كل منا و فالقلب هو القانون السياوي الذي لا ينقصه شي ». ففي نظره كما في نظر باسكال ، القلب هو الانا باعتباره شخصاً مفكراً ، هو الفرد . فالقانون الو القاعدة هو شيء متميز عن الكائن الخارجي ، فهو ملازم لعملية التفكير نفسه . و فادراك الكائنات » لا يقوم في رصد كائنات هذا الوجود ، بل يتمثل بعمل شخصي شعوري الصميم . ان و انهاء المرء لمعلوماته الشخصية » لا يتم بدرس العالم او الكتب القديمة ، بسل بالوصول الى المرفة الادبية عن طريق احكام ادبية . فالقلب هو الحكم في ما لعملنا او لشعورنا الداخلى من قيمة ادبية . فهو دليلنا الى ما هو واجبنا في الوقت الحاضر . فالعمليات الخس التي تمثلها تشو سهي متتابعة ، اعتبرها وانغ واقعة معاً في وقت واحد ، فهو عمل واحد ، وحيد يجري تحت مظاهر مختلفة .

فالانسان لا تتم له الحقيقة الادبية بواسطة العقل ، بل بعمسل اكتناهي ادبي هسو الدوسة و المناهي ادبي هسو الدوسة و المناه المناه الذي المناه الدوسة و الفطرية (Liung - tche) غير مشاهدته فينا . في كل انسان مثل هذا الاكتناه الادبي ، هذه المعرفة الفطرية (Inne) غير المكتسبة ، هي معرفة الخير والشر ، الحتى والباطل ، هذه الحاسة تدرك الامور دور اعمال الفكر او الروية وتتصرف دونما حاجة ، التعلم . هذا الاكتناه الادبي يصدر عن طبيعتنا ، فهو مباشر ، معصوم كالطبيعة نفسها بالضرورة ، عند كل الناس ، فهو لدى السارق والقاتل ، ولو بشكل مستتر ، ولا يمكن لوجه من وجوه المعرفة ان يحل محله او ان يقوم مقامه . يجب ان تكون ثقتنا بهذا الاكتناه الداخلي لا حد لها ، كا علينا العمل باحكامه مها كانت وكيفها كانت . فهذا الاكتناه الذي تم لي هو ذاته في من بلغوا الكال . فاذا ما أجهدت النفس جيداً كانت . فهذا الاكتناه الذي حصل لي ، فعلامح الكاملين لم تعد فيهم بل في . فالاكتناه هسذا لاتبين هذا الاكتناه بالذات ، للنصل و بصدر الاكتناه فحسب ، بل ايضا في مبدأ الاكتناه بالذات ،

هو القلب ، هو القاعدة السهاوية ، السماء بالذات مبدأ الكمال الذي يجب ان نحققه في ذواتنا ، هو اكتناه الجنس البشري ، هو اكتناه الكون . فالمعرفة هي ادراك ، هي فهم طبيعة العمل الادبي ، هو التصرف وفقاً للاكتناه الادبي . لنعرف ، يجب ان نتعرف ، ان نختبر . و ليستطيع المرء التأكيد بان لفلان البر البنوي وبانه تم له العرف الاخوي ، يترتب عليه ان يكون مارس التقوى البنوية ، وخبر الفرق الاخوي . . . لا يكفيه ان يردد عن ظهر قلبه بعض كلمات او عبارات حول التقوى البنوية ، او حول الفرق الاخوي . كذلك ان معرفة الألم تتطلب ان يكون المرء تألم ومر بالألم ، .

ولكي يحصل لنا الاكتناه الادبي، يجب كبح رغائبنا والتغلب على كبريائنا . يجب ان نتحلى بالتواضع ، و هذا الاستعداد الداخلي الذي يجعلنا دوماً على استعداد للاعتراف بخطايانا ، من الضروري المره ان يعتكف على ذاته ، وينطوي على نفسه ، وان يطرح جانباً الافكار الباطلة وان يكبح فيه جماح الخيلة ، وان يتفادى تشتت المكر والانتباه ، يجب ان يتم له تهبؤ خاص لصنع الخير واتيان البر، وان نسمى جهدنا الكشف في دو اخلنا عن الحقائق التي جاءت على ذكرها وتكلمت عنها كتب الاقدمين . ان فعص الضمير و بجالدة النفس والكفاح الروحي، امور يجب الا ننقطع عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه مسن حب الذات والجشع في عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه مسن حب الذات والجشع في عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه من حب الذات والجشع في عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نام المدي في داخلنا . هذا هو المادية اليومية ، اذ ان كل عمل هو فرصة مؤاتية لتحقيق الاكتناه الادبي في داخلنا . هذا هو الضروري اللازم . وهكذا لا لزوم بعد ، المزلة ، ولا لجمع المعارف من الكتب ، ولا للاهتام باقوال الناس وآراء الغير .

قام وانغ — يانغ — منغ بعملية تحرير ، التحرر من كتب الاقدمين ، التحرر من تقاليد القدامي واعرافهم المتوارثة ، التحرر من نظريات الدولة وآراء السلطة ، التحرر من التسلسل الاجتاعي وترابطه الاقطاعي . باستطاعة كل امرم ان مجتق الكال ، مهاكان شأنه او وضعه او الدروس التي تمت له ، لان الكمال لا يتوقف على كمية الممارف ، بل على العزم بالجهر بالحقيقة وبالسر ، هذا الشعور الذي يتوفر لكل واحد منا، وهذه الفلسفة التي قال بها وانغ — يانف منغ وعلم ، كان باستطاعتها ان تصبح لدى كل شخص في هذه الصين المتمسكة تمسكا اعمى بتقاليد الاقدمين ، نقطة انطلاق نحو التقدم والتطور الذي لا حد له ، اذ بتحريرها الحكم الشخصي في الانسان ، تحرير الشخصية البشرية .

تكافر عدد تلاميذ وانغ - يانغ منغ ومريديه ، وبلغ بعض منهم شاواً بعيداً عاتم له من شهرة واسعة وذكر بعيد ، فاصبحوا بدورهم معلمين مصلحين ولهم تلاميذهم ومريدوهم . وانتشرت تعاليمه في الصين حتى سنة ١٦٣٠ ، الا ان تلاميذه لم يلبثوا ان اصطدموا مخصيان الامبراطور وبما لهم من سلطة وسلطان . وهكذا بقيت تعساليم تشو - هي الإساس او المحور

الذي قامت عليه الامتحانات . وهكذا كتب لفلسفة وانغ – يانغ – منغ ان تبقى الى جانب الحياة ، في الظل .

ان بروز البورجوازية في الصين وتجليها على هذا النحو اضفى طنيان الخصيان وصولتهم على النهج السياسي خلال دولة المنغ ، مزيداً من الشدة والعنف . فقد كانت هذه الدولة ، في القرن السادس عشر ، في إبان انحطاطها . فلجناح الحريم في البلاط الامبراطوري تأثيره البارز في هذا المجال ، اذ كثيراً ما آل الامر ، في البلاد ، الى اباطرة ، جهة ، متخنثين ، عاجزين ، فقدة لا قدرة لهم على شيء ، يقضون حياتهم منكفشين في زوايا البلاط بين الخصيان والنساء ، يتربصون بهذه المشاكل الكبرى التي تقض مضاجمهم ، ممثلة بهدذه المنافسات الحادة ، الشائكة بين زوجات الامبراطور ، اذ كان قانون الإرث حقياً ، كا رأيناه عند المسلمين ، مبها مطاطاً ، غير واضح البتة . فكان الامبراطور يختيار خليفت ووريثه الشرعي من بين اولاده العديدين الذين انجبتهم له زوجات عديدات وسرائر اكثر عدداً ، فنجم عن هذة السياسة صراع هائل بين نساء الحريم ، اذ تحاول كل واحدة منهن ان تجعل من ابنها الوريث العتيد ، وبين الخصيان الذين راحوا يتحيزون ، هم ايضاً ، لهذه او لتلك من هات البريث وقتاً لميلهم لهمذا المرشح او لذاك ، وكثيرا ما قضت مصلحتهم توحيد كلمتهم ، فتتفق مشاربهم على معاضدة من من ابناء الامبراطور يكون ألعنوبة بين ايديهم ، يوجهونه الوجهة التي تلائهم .

فالنظام الامبراطوري كان نظاماً استبدادياً : فلم يكن للقانون ، في الصين ، ما له في اوروبا من قيمة وحرمة ، اوروبا وريثة القانون الررماني وحاضئته . فكل من من الصينين اضطلع بمسؤولية او سلطة سياسية ، كان اقل اكتراثاً بالقانون واحتراماً له منه بالاخلاقيات والمصلحة العامة . ومثل هذه الذهنية كانت تتسع اكثر للتقدير الشخصي ، للكيف والاعتباط ، وبالتالي للاستبداد . فلكي يلعب الصيني دوراً بارزاً في البلاد يكفيه ان يلقى أذناً صاغية لدى الامبراطور . هذه هي القاعدة الذهبية ومفتاح السر . اما من جانب الحريم ونساء الامبراطور ، فمن كان اكثر اتصالا بالامبراطور ، مكنته مخلوته ان يقابله متى اراد وفي الوقت الذي يريد ، كان هو صاحب النفوذ الاكبر والمسيطر الفعلي . فمن يتمتع بمثل هذه القدرة اكثر من الخصيان ؟ كان هو صاحب النفوذ الاكبر والمسيطر الفعلي . فمن يتمتع بمثل هذه القدرة اكثر من الخصيان ؟ ولذا رأى عدد كبير من رجال الفكر وحملة الثقافة من ابناء الطبقة الوسطى ان خير ما يفتح المامهم باب الترقي والتقدم السريع في الوظيفة هو ان يتخذوا برضاهم ، طوعاً واختياراً مسن الخصاء سبيلا لهم للميش في البلاط . وبفضل ماكان لهم من ثقافة وعلم استطاعوا اس يلعبوا المناهل ، دوراً بارزاً في ادارة الامبراطورية التي راحت فعسلا ، فريسة الخصيان بعد ان بالفعل ، دوراً بارزاً في ادارة الامبراطورية التي راحت فعسلا ، فريسة الخصيان بعد ان وقعت تحت سيطرتهم .

فما يكاد الواحد منهم يرقى الى الوظائف المهمة او المراكز المفاتيح، حتى ينصرف لتأمـــين

المنافع له ولاعضاء اسرته واقاربه . فيؤلبون حولهم الزبائن والانصار ؟ ويوزعون المنافع والوظائف على خاصتهم ؟ وبذلك تتوفر لهم ؟ في البلاط وخارجه ؟ من القوة و بعد النفوذ ؟ ما يجعل الامبراطور نفسه يوجس شراً منهم ويخشى جانبهم . فالنفوذالعظيم الذي تم المخصيان جاء يخدم ؟ في المدى البعيد ؟ الطبقة البورجوازية ويعمل على تطويرها وتقويتها في البلاد . ولذا اخذ امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة يسيجون حول مصالحهم ونفوذهم بالاكثار من الانصار يتخذونهم من بين المثقفين من ابناء الطبقة الوسطى ؟ فيحملونهم على العمسل في خدمة الدولة . وهكذا راحت الدولة فريسة الصراع بين الخصيان وبين طبقات المثقفيين ؟ والامبراطور من الوسط ؟ فعمظمهم تخرج بفلسفة لوانغ – يانغ – منغ ويعملون بتعاليمه مناهضة منهم للخصيان المستأثرين بالسلطة والمحسوبين من انصار تشو – هي المدافع عن التقاليد مناهضة منهم للخصيان المستأثرين بالسلطة والمحسوبين من انصار تشو – هي المدافع عن التقاليد . القومية ؟ وعن السلطة الشرعية .

الأزمة الاجتهاعية والسياسية ازدهــــــــار البــوذية والــطــــاويـــــة

مما زاد في خطر هذا الصراع هـو ان امراء الدم او امراء المائلة المالكة وكبار رجال الدولة والخصيان كان تحت تصرفهم قوى خاصة بهم باعتبارهم اساد الارض ومالكمها.

وقد حاولت دولة المنغ تقوية مركزها وترسيخ هيبتها بتوزيع الاقطاعات على ذوي القربى والانصار. فقد اقطعوهم اراضي شاسعة اعفوها من الضرائب والسخرة ، وهي سياسة استمروا على الاخذ بها بالرغم من مساوئها طيلة القرن السادس عشر. وهؤلاء الاقطاعيدون الذين كانوا اسياداً في اقطاعاتهم يتولى ادارتها باسمهم وكيل عام ، كانوا ، هم انفسهم ، يقومون بامور القضاء ويضبطون سير الامن ، يممل تحت اشرافهم وتوجيهاتهم حكام ونظار حسبوا عليهم ، ألفوا على مر الزمن ، خطراً على العرش .

وقد راح الفلاحون بالطبع فريسة هذا الوضع ، كانت تكاليف الدولة بارتفاع مستمر . هنالك الوف من الفتيات يعملن في البلاط وينفقن الملايين على الاسبيذاج والزنجفر ، كا كانت مرتبات عالية تدفع لاعضاء الاسرة المالكة ولكبار الموظفين ، عدا عن مبالغ طائسة تذهب هدراً بين الاتلاف والاختلاسات ، ومبالغ طائلة تهدر على الاعمال والاشفال ، وعلى الجيش الذي بلفت نفقاته ٢٠ مليون تايل tuels ، مع العلم ان الموازنة العامة لم تكن عند اعتلاء هذه الدولة العرش سوى مليوني tauls لا غير ، كا ان الجيش يستملك اكثر من نصف واردات الضرائب بين ١٦٦٥ – ١٦٥٠ ، عدا عن رسوم احتكار الملح الذي نفر منه الشعب في الصين نفور الفرنسيين من ضريبة الملح gabelle في فرنسا . وقد اخذ الخصيان والموظفون يفالون في مطالب واشباع رغائب لا حد لها ؛ واخذرا يفرضون رسوماً من عندهم ويطالبون باكراميات عالية . وعما زاد في احراج الفلاحين توزيع الاملاك الشاسعة اقطاعات وأخاذات تعرضوا معها للطرد من الاراضي التي كانوا يستغلونها ، فيرزحون تحت الديون مما يضطرهم لترك مزارعهسم والعبث فساداً في البلاد بعسد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال والعبث فساداً في البلاد بعسد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال والعبث فساداً في البلاد بعسد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال والعبث فساداً في البلاد بعسد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال

القرصنة . وهكذا مع ازدياد عدد السكان واتساع الاقطاعات ازداد ، في البلاد ، قطاع الطرق وشذاذ الآفاق والخارجون على القانون .

قد يكون بالامكان رد هذا الوضع الى انتشار نفوذ البوذية والطاوية في الصين ، بعد أن امتدت تعاليمهما الى الطبقات الشعبية ، بحيث ان الخصيان رأوا انفسهم مدفوعين ، نوعـــا، الى تخصيص مبالغ طائلة لتشييد معابد بوذية ورفع هياكل في المزارات وأماكن الحج الرئيسية. من الثابت أن الجماهير الشعبية كانت تلوذ بالبوذية لما كانت تجد فيها من سلوى وسلوان بعبد أن قالت بعقدة ال amidisme . فالبوذية البدائية (الأولى) كانت لأأدرية (agnostique). فهي بجرد اصول تقنية توصل انسان بشرى للكشف عنها ، هو بوذا تشاكياموني ، ليكون بمنجاة من آلام هذه الفانية وعذاباتها وليتفادى هذه الحلقات من سلسلة التناسخ والتقمص. فلكسى نتجنب الألم علينا أن نتجاهل الاهواء والرغبات ، وأن نتمسك بالحياة حتى نبلغ فناء الشخصانية فينا بالدخول الى هذه الطوبي nirvana (السعادة) وهي تعالم صعبة التحقيق لهؤلاء الناس العطاش الى هذه المعزيات الحسية . وهكذا فتعالم ماهيانا التي امتدت من البنغال الى التيبت لتتوغل في الصين واليابان ، رأت في بوذا الها، هو الحكمة الابدية، كلي الحضور وكلي القدرة؛ يتضاعف ويتكافر الى ما لا حد له في الزمان والمكان اذ يخلق على شاكلته ومثاله بوذات Bouddhas à venir وعندما تتم Bodhisattvas ، وعندما تتم لاحد الاتباع مشاهدة احد البوذات مشاهدة رمزية الستحيل هذة الرؤيا الى Dhyanibouddha اي الى شخصية جديدة هي و اميدا ، اي كلمة بوذا المتجسد ، اله الرحمة ، اله الحبسة ، مخلص العالم ومنقذ البشر الذي يغطى باستحقاقاته اللامتناهية، كل خاطىء يضرع اليه تائبًا مستغفراً ، فيبرر. بنعمته ، وينقذه من هذه التقمصات المتتالية ، ويجود عليه بالسعادة ناهماً الى جنبه ، بالسمادة السهاوية . وقد لاقى الاعتقاد رِ اميدا ، رواجاً عظيماً في الصين ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ﴾ في صورة الانثى التي تسربلها ، هي : كاون ـــ إن ، الحكيمة ، الرؤوم ، التي طالما صوروها بصورة ام باسطة ذراعيم ا وعليها طفلها ، لهذه النسوة اللواتي برغين في أن يجود الله علمين بمولود .

اما اتباع الديانة الطاوية ، فقد عملوا على نشر كتبهم المقدسة ، في هذه الفترة الممتدة بين الامبراطور تشي – تسونغ اخذهم تحت جناحه ووضعهم تحت حمايته ، مدفوعاً على ذلك بعامل الجشع والطمع اكثر منة تذوقاً لهذه التعاليم التي علم بها لاو – تسي (٥٧٠ – ٤٥٠ ق . م) فالطاو هو القيوم ، الكائن بذاته ، الابدي ، اللامتناهي ، الكحسلي الحضور الذي لا يقع تحت الحواس . فهو يفيض من براءته Tei التي تتخذ في تفاعلها شكلين متناوبين هما : ين ويانسغ ، وتبدع كل الكائنات المحسوسة التي هي امتسداد للطاو . فالطاو هو في كل شيء ، وكل شيء فيه . فالحكيم هو الذي يحاول ان يتفادى كل ما يتعرض له الانسان من آلام وعذابات ، ويخضع له من تبدل وتحول ، وهذه السلاسل من صروف

وصروف متصلة الحلقات التي تتألف من yang و yang ليعود الى حالته الاولى ، الى البساطة الاولى ، الى الفناء . فهو يقتل فيه كل فكرة ، ويفقده كل معنى او صورة للعالم الحارجي حتى فكرة وجوده بالذات ليذوب في الطاو . لا ، لم يكن هذا السعي السامي نحو الكائن المطلق هو الذي كان يجذب اليه معظم انباع الديانة الطاوية ، حتى والاسبراطور نفسه . ولما كان كل شيء هو واحد في الاصل ومماثلا بعضه البعض في الطاو ، فقد نظر الناس الى كهنسة الطاوية نظرهم الى جماعة تم لهم البكشف عن حجر الفلاسفة الذي له القدرة على تحويل المعادن الحسيسة الى معادر . كرية اي الى ذهب وفضة ، ونسبوا اليهم اكتشاف اكسير الخلود . ما اشده من اغراء لشعب تتلاطمه الاضطرابات الاجتاعية والسياسية ، الذي يمثله الاله الرئيسي تساي حتى اله الفن والسائراء ، الذي قامت له الهياكل في كل معان ، لشعب كان ينشر خزفيات الصينية وتعاويذه ومطرزاته وتمنياته لحياة مديدة ، اذ ان صلاة التبرك تفعل من نفسها ا

تفكك الامبراطورية وانحلالها في القرن السابـــــع عشر ؛ المنشو

متسل الشطر الثاني من عصر المنغ حقبة اشتدت فيهسا الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية . استطاعت قبائل التتار التي لا تزال على بداوتهسا ، غزو

مقاطعتي تشانسي وتشنّسي فاطلت على ابواب بكين 'عام ١٥٥٠ ، بيناكان القراصنة اليابانيون يعيثون فساداً على شواطىء تشا – كيا – نغ وفو – كيان وكوانغ – تونغ ، وبلغوا نانكــــين عام ١٥٥٥ ، ونزلوا ، بين ١٥٥١ – ١٥٧٠ عند مصب نهر اليانغ – تسي .

اممنت الامبراطورية في الانحلال، في مطلع القرن السابع عشر، بعد ان استحالت المنافسات بين الخصيات ورجال الفكر ، الى حوادث دامية ، بعد الذي استهدف له الفريق الاخير من فظائع وفظاظات الخصي واي - تونغ - كيان . فألفوا من بينهم منظمة او حزب خاص للدفاع عن انفسهم تحت ستار اكاديمية، هو حزب تونغ - ين الذي قام بينه وبين الخصيان خصومة عنيفة وعراك هائل ، وبالتالي ، ضد الحكومة التي كانوا يثلونها . اندلعت الثورة وامتدت الى كل مكان ، بين ١٦١٩ - ١٦٤٠ ، وقام الاقطاعيون يؤلفون جميات سرية لمقاوصة نفوذ الخصيان وسطوتهم . وعلى هذا النحو سار الفلاحون والمزارعون فأبوا دفع الضرائب المترتبة عليهم ، وثاروا على الاخص ضيد ابتزازات الموظفين وتعسفاتهم وضد المضاربات التي كان يقوم بها المضاربون البورجوازيون الذين كانوا يستغلون ما لهم عليهم من ديون لينة وضم الملاكهم ومقتنياتهم . وقامت عصابات من الفلاحين عاثت فساداً في الريف . ووضع قادة الجيش يدهم والسلب والاستباحة . فكان لزاماً على الاميراطور ان يرسل قوى يطمئن الى ولانها ضيد هؤلاء و السلاخين ، (١٦٣٧) . فاذا بالحرب الاهلية وبالفوضى تسود البلاد في الوقت الذي كان يتهدد حدود الصين من الشال اعداء يتربصون بها الشر .

قام امام ابواب الصين من الشهال قبائل تنغوس البدوية وهي قبائــــل من المنشو اخذت في

النصف الاول من القرن السابع عشر، باسباب الحضارة الصينية. وهكذا أليفت هذه القبائل الى الدعية واخذت تنصرف للاعمال الزراعية، في هذه الممتلكات المحصنة والقرى التي يسيطرون عليها ، واستطاع واحد من زعمائهم البارزين هو نورهاشو (١٥٥٩ - ١٦٢٦) الن يوحد من هذه القبائل وينشىء من مجموعها دولة . فاخذ عن دولة المنف تنظيمهم للحدود ، وقسم المنشو الى ٨ وحدات ادارية انتظمت عسكريا تحت ألوية ، ضمت الى جانب النورهاشو : المغول والكورييين ، وصينيي منشوريا . واستطاع ابن نورهاشو المدعو تاي - تسونع ان يشكل عام ١٦٣١ حكومة وان يقيم في البلاد ادارة مدنية وعسكرية ، وفقاً للنموذج الصيدي ، وتبتنى نظام الامتحانات والايديولوجيا الكونفوشية في السياسة . وكان يقيم باعتباره ابن السياء ، بكل ايمة وفخامة ، الاحتفالات الامبراطورية ، على شرف الزراعة . وقام عدة مرات بغزو تشي - لي يشد من ازره صينيون ، وجاء بصحبتهم يهدد بكين سنة ١٦٣٩ ، و١٦٣٤ ، و١٦٣٤ . وقي سئة ١٦٤٥ دون ان يُعقب ، فانتخب المنشو خليفة له ابن اخيه تشوان – تشي الذي حكم تحتى عام ١٦٥١ .

وفي هذه الغضون ، قام زعم شمى يدعى لى ـ تسن ـ تشنغ، بثورة في مقاطعة تسو ـ تشو ان (١٦٣٧) قادته بمساعدة الفلاحين ، الى بكين . وأذ ذاك أضطر الامبراطور تشوانغ - لى - تى الى اعتزال الحكم والتنازل عن العرش وانهى حياته منتحراً ؛ عام ١٩٤٤ . واذ ذاك ؛ قــــام الجنرال وو – سيو – كوبي المكلف بالدفاع عن الحدود يستنجد بالمنشو . فقد انحدر هو نفسه محتداً ، من اسرة منشورية ، وأيقن انب. مها ساءت الامور تحت سيطرة المنشو ، فلن يكون وضعه بأقل مما هو علمه وانه سمقى قائداً . فاردفه المنشو بفرقة من٧٠٠٠ محارب . ومن جهة اخرى ، لم يتمكن لي من ان يجمع حوله رجال الفكر والثقافة الذين كانوا يكرهون الفلاحين ، والذين لم يكونوا ينظرون شزراً الى المنشو الذبن كانوا من اتباع كونفوشيوس ، لا غش فيهم . يحاول آنئذ اقناع المنشو بالانسحاب؛ الا انهم ؛ على عكس ذلك ؛ توافدوا باعداد كبسيرة . واهٔ ذاك ، نودي برِ تشوان – تشي امبراطوراً ، فكان اول ماوك درلة تسنغ (١٦٤٤) . وقام المنشو بتدويخ كل الصين . وراح الذين نجوا من دولة المنغ ينتخبون لهم امــبراطوراً في شخص هوانغ - كوانغ، وألفوا لهم حكومة في نانكين، وبذلك استمرت المقاومة في الجنوب وقوامها مسلمو كان-سو الثائرون يقودها الامبراطور منغ- كواي- وانغ الذي اعتنق المسيحية على يد القرصان كوكسنغا ، المولود من اب صيني وام بإبانية والذي تمت له السيطرة على فورموزا وعلى نهريانغ – تسى .وقد جسم المنشو التماليم الكونفوشية المستقيمية الرأى . واذكانوا يفوقون الصينيين قوة بما تم لهم من خيالة ومن مدفعية قوية سبكها لهم البسوعيون في بكسين ، استولوا على نانكين عام (١٦٤٥) ، وكنتون (١٦٥٠) واصبحوا مسيطرين بالفدل على الصين كلها . واضطر حفيـــدُ كوكسنغا ان يقدم خضوعه عام ١٦٨٣ . وفي سنة ١٦٦١ ، توفي تشوان –

تشي بعد ان عين خليفة له على العرش ، ابنه الثالث كانغ - هي الذي حكم في بــدء عهده تحت وصاية مجلس وصاية تألف من بعض النبلاء حتى عام ١٦٦٧ .

نظم المنشو ، الصين على اساس عرقي مجيث أمتنوا سيطرتهم التامـة سيطرة المنشو العرقية على الصينيين المغلوبين على امرهم ، وبذلك تفادوا الذوبان والانصهار فيهم . فحملت الالوية المنشوية الى الصين وعهد اليها بحراسة المواضع الستراتيجية . وطلب مسن المنشو ان مجافظوا على طابعهم العسكري ؛ وحظر عليهم تعاطي اية مهنة غير مهنــة عسكري مزارع ، كما اشترطوا ان يكون جميع ضباطهم من العسكريسين وكذلك الحكام الاداريسين . وهكذا برزوا بوضوح في مرتبة اعلى من الصينيين . وأعفى َ المنشو من دفع الرسوم والضرائب والسخرة فوقعت اعباؤها كلهاعلى الصينيين ،وفتحت امامهم ابواب الوظائف العامة، بينا بقي الصينيون خاضعين لنظام الامتحانات . وبدا على المنشو ازدراءهم للدرس والثقافة والآداب . وقام الى جانب كل موظف صيني ، ضابط منشو 'عهد اليه السهر على مصالح الفاتحــــين، وكانت اوراق الدواوين تحرر بالمنشوية والصينية . وقد روعي بشدة المحافظة على طابع جيش فاتح ، يستثمر على هواه ، بلاداً تم له فتحها بحد السيف . وهذا الجيش الفاتح الغازي ، شكل عرقاً اسمى بكثير حرصواكل الحرص على صيانة نقائه . وقــــد حظر بشدة على المنشو الزواج من صينيات . وصدر عام ١٦٤٥ ، قانون .ألزم الصينيين الاحتفاظ بجديلــــة الشعر المتدلية من الرأس . وهكذا : بقي المجتمعــــان البربري والصيني متميزين ؛ متباينين الواحد عن الآخر؛ لا يختلطان ولا يتازجان ، وبقت جماهير الفزاة الفاتحين تتجاهل كليًا حضارة لا تهمها بشيء » وزاد تبان نهج الحياة بين الجانبين شقة الحلاف بمنها تباعداً ، كا باعدت بمنها سماتهم الخارجية ، ومساق التصرف عند كل فربق. فبعد الفتح بوقت طويل كان الفرباء الطارئون پيزون في بكين٬ المنشو البرابرة بشواريهم > « اشداء بمناكبهم العريضة ورقابهم الغليظة كرقاب الثيران واحناكهم النافرة واسنانهم كاسنان أكلة اللحوم » يدفعون من امامهم بازدراء كلى الصينيين المرد المخنثين.

شعرت الصين في الصميم بألم الصدمة التي نزلت بها . فبعد دخول المتسلام الصينيين المنشو بكين ، راح ألوف من رجال الفكر والثقافة والموظفين المنشو اداة الثورة وعديها الاقطاعيين ينتحرون فيضعون حداً لخزيهم بوضعهم حداً لحياتهم:

فرقاً على ما آلوا اليه من مهانة وضعة شأن . وقد اخذ الصينيون يرضخون ، مع الزمن ، للقدر العاشم كا اخذ جماعة رجال الفكر يلوون على بعضهم البعض ويتعاطفون . ففي نظر الصينيين يستمد الامبراطور حقوقه من الحكمة . فاذا ما حاد عن الحكمة وخرج عن جادتها، كان ذلك دلالة من الساء على عدم رضاها وشجبها لما يقع في البلاد، وذلك بتأليب المصائب على الامبرطورية وانزال القصاص بالامبراطور ، مجمل الشعب على الاعراض عنه والتحول ضده . فمن نهض محاولاً نزع التاج عن رأس الامبراطور ، ونجح في محاولته هذه ، كان ذلك ايذاناً من

الساء واعلاماً منها بانها اختارته لانقاذ البلاد فتجب طاعته والالتفاف حوله . وهذه القاعدة جرى تطبيقها على آخر امبراطور من سلالة المنغ كا يجب تطبيقها على اول امبراطور من اسرة تسنغ . ومن جهة اخرى فقد سبق لكونفوشيوس وقال : و من لم تكن له خدمة في الحكومة وجب عليه الا يتدخل بشؤونها ولا ان يتناول بالنقد تصرفاتها والتدابير التي تتخذها . فعلى الصيني ، ما لم يكن موظفا ، ان يتم بما لماثلته وبما لامور مهنته ، والا يبالي باي شيء آخر ، وهكذا ضعفت في البلاد الروح الوطنية ومفهوم الدولة ، مسم ان الشعب كان يجيش بالروح القومية ويكن للأجنبي مقتا عيقا وكرها شديداً .

وقد عرف المنشو أن يفوزوا برضى الفلاحين بعد ان فرضوا احترامهم بفرض النظام في البلاد واعادة الامن الى نصابه ، فضبطوا مالية الدولة وقضدوا على نظام الاقطاع فاكتفى كانغ - هي بالاحتفاظ بر ٢٠٠٠ فتاة في بلاطه . كذلك الغي الاقطاعات ووزع الاراضي التي تألفت منها هذه الاقطاعات على اعضاء الاسرة الامبراطورية ، كا وزع بعضها على ابناء الألوية ، وبذلك اصبحت ضمن املاك الدولة . فالذين استفادوا من هذا التوزيسم لم يصبحوا اسياداً بل اصحاب ايراد تابت ، فاضطر الواحد منهم ان يؤجر ارضه لمتمهد عام يؤجر من ضمنه مزارعين يأخذون باستثار الارض برضاهم . وقد اعترف القانون ، في آخر الامر ، لحؤلاء المرابعين بحق تملك شرعي لسطح الارض ، مع بقاء حق الملكية لصاحب الارض . وهكذا رأى الفلاح نفسه مدعواً لتحسين ارضه كي يزيد من دخله .

كان من نتائج هذه السياسة واستتباب الأمن في البلاد ان ازداد عدد سكان الصين ، وهمي زيادة اربت بالطبع على معدل نمو المواد الفذائية ونسبة الانتاج . فمن ١٠٠ ممليون نسمة بلغ عدد سكان البلاد عام ١٦٦١ ، تحت تصرفهم ٣٥٣ ، ١٠٣١ و لي من الاراضي الزراعية ، ارتفع هذا العدد ، عام ١٧١٠ ، الى ١١٦ مليون نسمة يتصرفون بر ٢٣٢ ، ٢٣٢ لي . ولكي تأتي النسبة بين مساحة الارض المزروعة وعدد السكان طبيعية ، كان من اللازم ان يتوفر لهم ايضا ١٢ مليون كنسخ . ولذا اخذت الزراعة في الصين تصطبغ بالصفات العصرية التي تتسم بها اليوم زراعة الحدائق والبستنة ، كما اخذ المطبخ الصيني يستعمل كل ما يصح استعماله او يصلح للاكل ، حتى مرببات العناكب .

ويبدو ان البورجوازية التجارية والمالية حققت هي الاخرى اغراضها ، اذ اخذ فانغ من مدينة ننغ -بو ، يؤسس في عهد الامبراطور كنغ -هي ، في بكين ، المصارف الاربعة الكبرى التي كانت لاتزال مزدهرة اعمالها ، مضطلعة بنشاطها ، في مطلع القرن العشرين . كذلك اخذت نقابات عمالية تضع منذ ذلك الحين ، قوانين خاصة بها نظمت من المهنة ، فاحتكر حاكة الاقمشة الحريرية ، مثلا ، لانفسهم صنع الاقمشة ، الفاخرة ، بينا تركوا لمن يرغب نسج الحرائر العادية ، ولم يخضموا للاحتكار ، فافسحوا بذلك بجالاً للمزيد من الكسب لألوف من الاسر القرويسة والفلاحين وسكان المدن ، للعمل بالحياكة في منازلهم . كذلك يبدو اد هذه الصناعمة نزعت ،

منذ ذلك الحين نحو التمركز . ويبدو كذلك ان صناعيين لهم نشاطهم كانوا بحيساون طلباتهم لرؤشاء الورش الرقيقي الحال ، ولمؤلاء العمال الذن يعملون في منازلهم .

هل ادى فتح المنشو ؟ يا ترى ؟ الى احداث ثورة اقتصادية واجتماعية في البلاد ؟ • وهذا التبدل في النظام السياسي ؟ هل كان من نتائجه ترجيح السيطرة نهائيا للاقتصاد النقدى ولهذه الرأسمالية التجارية على النظام الافتصادي السيادي او انه ادى بعبارة اخرى ؟ الى تكريس انتصار البورجوازية الصينية على الارستوقراطية التي خفض فتح المنشو للبلاد من جانبها كثيراً .

المنشو اتباع حميمون للكونفوشية التشوهية

في مصلحة السلطة ، بقي التفسير المعتمد والمعمدول به لسدى المحكومة ، كما بقي اساساً للامتحانات الرسمية . وهكذا اخذوا يتناسدون بسرعة تعاليم وانغ بانغ منع بحيث ان المعلم الذي اخذ دوماً بتعاليم القدامى وبالواجبات الاجتماعية ، زغب تلاميذه ، منذ ١٦٣١ ، في ان يتعلموا كل شيء من ليانغ ب تشي ، فناهوا في سفاسفهم وترهاتهم . حافظ المنشو على نظام الامتحانات كما اخذوا بالنظام الاداري المسلسل الذي بقي مسلكا مشمرا للادباء والمنقفين . وبعبارة اخرى ، عمل النظام الاداري لمسلحة الفاتحين . وفي سنسة مهمرا للادباء والمنقفين . وبعبارة اخرى ، عمل النظام الاداري لمسلحة الفاتحين . وفي سنسة مهمولاء التدخل المشكون العامة ، تحت طائلة الموت ، مما ادى الى طرد عدد كبير من الخصيان وصرفهم مسن المراكز التي كانوا يحتلونها . صحيح ان بعضهم استطاع الحصول على وظائف ومراكز في الدولة الها تعد لهم فيها الكلمة الاولى .

ومع ذلك لبث المثقفون خاضعين لتعميم تشو _ هي المرزحة والمقعدة ، كما لبثوا ، شأن من 'غلبوا على امرهم ، يتحرزون جداً من التفوه بشيء يسيء الى الفاتحين . وزالت منهسم كل مقدرة او طاقة على الخلق والابداع . فالكونفوشية التشوهية قضت تماماً على كل السر لهذه المثالية البوذية والطاوية التي عرفت ان تلهب خيال الصينيين . فالتشوهية في خدمة الفاتحسين نزعت الى انتجمل من الصين آلة ادبية عمياء لا تفكر ولا تعمل بذاتها ، بحيث يأتي كل نشاط تقوم به و فقاً لقوالب مهيأة من قبل ، افرغتها السلطة على الشكل الذي تريد . فكانوا يلاحقون بعنف لا يمرف الشفقة كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، مما ادى الى تجميد الفكر وتقهقر الفن ، وشجع المنشو مدرسة بونجيفا التي كانت تحد ه تصوير رجال الفكر » . وقد هدف هسؤلاء وشجع المنشو مدرسة بونجيفا التي كانت تحد ه تصوير رجال الفكر » . وقد هدف هسؤلاء النظريون الى القضاء على كل تميز بين التصوير والخط : فلم يعودوا ليأبهوا بالطبيمة بل راحوا يتلدون تقليداً حرفياً ، النسخ المسحوبة عن آثار اساتذة الفن القدامي ، بنصها الواحسد كا جاءت في الصورة المصبرة عنها . والاساليب التي استعملها اساتذة عصر تانغ وسونغ ، جرى التمبير عنها الصورة واساليب ظهرت في موسوعة تصوية بعنوان : « مبادىء تصوير حديقة حجمهسا بطرائق واساليب ظهرت في موسوعة تصويرية بعنوان : « مبادىء تصوير حديقة حجمهسا

حجم حبة خردل » التي تم نشرها عام ١٧٠١ . وهذا الاثر الفني لم يثر الاعجاب الا بنسبة ما فيه من محاكاة لهذه الفوارق الملحوظة في رسم المخطوط في المخطوطة . وهكذا تخلوا عن هـذا المدى الجمالي الشاسم للفن الصيني فنحن امام ثورة فكرية او ذهنية .

بقيّ شكل واحد من اشكال الفن يبعث الرضى والارتياح استأنس له الفاتح البربري ، يتمثل في صناعة الخزفيات ، هذه الصناعة التي عرفت ان تحافظ على نقائها وعلى تقنيتها محتفظة بقيمتها المالمة .

والادب نفسه اصبح وسيلة من وسائل الدعاوة واسبابها . فالقصص والمسرحيات التمثيلية راحت تمجد الفضيلة وتشجب الرذيلة بشرط ان تكون الامثلة المضروبة تعمل على خدمة الفاتح . كذلك راحوا يتغنون ، بالوقت ذاته ، بالبر للوالدين والطاعة لهم رمزاً لما للامبراطور من سلطة ابوية وما له عليهم من حق الاحترام والخضوع ، كما راحوا يتغنون بالتغاني في سبيل الامبراطور . وحرص هانغ -هي على اعداد موسوعات عملية ، منها موسوعة تقع في ٤٤ بجلداً ، ومنها موسوعة في ٢٦ بجلداً تؤلف إزائية للادب الكلاسيكي القديم معجماً صينياً . وراح يظهر بمظهر الاديب الكونفوشي فاخذ يضع مؤلفات عديدة ناثراً وشعراً ، كا وضع : والامر المقدس ، هو عبارة عن بحموعة من ٢٦ حكة او موعظة ادبية (١٦٧٠) . اما الآثار التي لها بالفعل قيمة كبيرة فهي الآثار التي وضعت في عهد المستقلين . فقد رفض بان - سونغ - كنغ ان يقضي سحابة عمره موظماً في خدمة الدولة وان يسير وفقاً للامور المطروقة . فقيد ألف ، نحو عام ١٦٧٩ : وقدوة التعبير ، وما تحمله من الصيغ والافكار الجديدة التي تضفي على العبارة قوة لم تكن لها من وقدوة التعبير ، وما تحمله من الصيغ والافكار الجديدة التي تضفي على العبارة قوة لم تكن لها من شو - يونغ - شون (١٦٦٧ - ١٦٨٩) الذي قتل المنشو اباه ، قبول العمل في خدمة الدولة شو - يونغ - شون (١٦٦٧ – ١٦٨٩) الذي قتل المنشو اباه ، قبول العمل في خدمة الدولة موظفاً ، فوضم كتابا صغيراً في الحكم نال شهرة واسعة .

فقد انهار وزال كل ما لم يستطع تفادي الضغط الرسمي . فهسل نرد الى القلق المسيطر على النفوس ، والحاصل من الوضع الذي صار اليه المفاويون على امرهم ، على يد اقوام من عرق ادنى، المادة التي ظهرت بين المسينيين ، اذ ذاك ، اي في القرن السابع عشر ، عادة تماطي الافيون والاقال على استنشاقه وشمه ?

ازداد هانغ - هي شعبية بعد ان عرف كيف يمالي مسا في الروح النشو والسيطرة الصينية من كبر. فهذا البدوي الصحراوي الذي اعتاد ان يصرف الصينية على آسيا الرسطي كل سنة ، بضعة اشهر في الصحراء ، ممتطياً حيناً ، صهوة جواده ، ومستظلاً احيانا خيمته ، لا يستطيع ان يتصور نفسه امبراطوراً الا ان يمترف بامبراطورية رفاقه في البداوة . وراح ، في هذا السبيل ، ينهج نحو بلدان آسيا الوسطى ، نهجاً استبدادياً ،

إستعمارياً ، فبسط سيطرته على البدو البرابرة الذين اذاقوا الصينالامر"ين في اواخر عهم دولة المنغ .

حاول السو غار ان يعيدوا تأليف الامبراطورية المغولية التي نمت لجنكيزخان . الا ان الوهن الذي كان اخذ يدب في جسم المغول بعد ان ألفوا تقسيم إقطاعاتهم وما فيها من قطعان الماشية واسر المبيد العاملين في الارض ، بين ابناء السيد ، فاخذت مساحة الاقطاعات تسدق وتصغر ، كما فشت بينهم الحروب الخربة وتكرر وقوعها مع ازدياد عدد الاسياد في البلاد .

ففي عام ١٧٩١ ، و ١٦٩٧ ، تم لهانغ - هي الانتصار مرتـــين على خصمه غلدان زعيم السونغار٬ وذلك بعد ان تم تسليح جيشه بالبنادق والمدافع التي أثن اليسوعيون صبها لهم. فأخذ تحت حمايته المغول الشرقيين او كلخاز . فقد قد"م امراؤهم بكل رضى وقبول ، مراسم الخضوع لامبراطور الصين الذي كان بربرياً على شاكلتهم بالركوع امامه ثلاث مرات وبالسجود امامــه ٩ مرات تعبيراً له عن ولائهم وخضوعهم . وراح خانات المفول يتنون من علاقاتهم بكبيرخانات المنشو عن طريــــــق تقديم ولائهم له . فادخلهم في خدمته ، ومد قبائلهم بالحبوب يوم تشهدهم المجاعة ٤ كما انه وضع حداً لحروبهم الداخلية ولمنافساتهم. وهكذا توافد عليهم التجار الصينيون. وعلى الاثر توفرت عندهم الحاجبات المصنوعة ؛ أذ أن البندقية كانت تغايض بخمسة رؤوس من الماشمة . اما في اواخر القرن ٬ فقد اصبحت البندقية والدرع تبادل برأس واحد من الخيــل . وجاء في إثر التجار معمرون صينيون وقامت في مراكز معينة في طـــول البلاد وعرضها ٢ جماعات كبيرة تأخذ باسباب التعضر . واخذ بعض الكلخاز يعملون في الزراعة وفي تربيسة الماشمة ويقومون احماناً بنشاطات مهنية ، فتناقص بالتالي عدد قطمان الماشمة كا تضاءلت بمنهم حركة الظمن والارتحال مع تبدل الفصول والمواسم. وهكذا شهدنا بوادر حركة تطورية كان من بعض شأنها ان تنقل البلاد ، وثيداً ، من مجتمع إفطاعي ، بدوي ، الي مجتمــــــــــم حضاري ، ورأحمالي. اما هانغ ــ هي فقد رغب في الابقاء؛ قدر المستطاع ؛على التنظيم الاقطاعي وتسخيره لاغراض عسكرية وتأديسة.

وراح هانغ - هي ، من جهة ثانية ، يقوي من نفوذه ، بين البوذيين الكثيري المسدد في الصين ، وذلك عن طريق التفاهم مع رئيسهم الاعلى دالاي لاما الذي اعترف ، بدوره بشرعية اعتلاء السلالة المنشوية أريكة الامبراطورية ، مقابل التعهد باحترام سلطت الزمنية . ففي سنة المعلاء المنفق - هي على اقامة سلطة الدالاي لاما في لاهسا عاصمة التيبت ، فكان من اشد انصار الحكم المنشوي في الصين . وهكذا تمتع هانغ - هي بنفوذ عظم بسين البوذيسين المنتشرين في هذا الجمال الجغرافي الممتد من مجر قزوين الى الحيط الهادي .

وقد عاد الى الدولة الصينية في عهد السلالة المنشوية ما كان لها من سالف العز والقوة . بيسنا رجعت الحضارة الصينية القهقرى وازدادت كرها واحتقاراً للاجنبي ، من اي وقت مضي . وبالفعل لم يكن الميكادو ولا الشوغون حتى ولا أكبر ممثلي السلطة المركزية مهمها علت وظيفته ، بالكلمة المسموعة في البلاد . فقد كان عدد غفير من الحكام Duïmios يحف بهم عدد من حاملي السلاح Samourais يارسون السلطة الفعلية في مقاطعاتهم وإيالاتهم ، ولم يكن ليشدهم ، على ما يبدو ، الى كبار الاسياد سوى وشائج مطاطة من الولاء الحش . وقيد قامت بين هؤلاء الحكام والسادة الاشراف حروب اهلية لم ينقطع حبلها . واعتاداً مناعلى الرسوم والصور التي تعود الى ذلك المصر ، كان هؤلاء الحكام ومن اليهم من المجندين يشبهون الى حد بعيد ، مرتزقة الحروب Reitres في اوروبا بسحناتهم الخشنة ، وملاعهم القاسيسة والاخاديد الظاهرة التي تجعد وجوههم وجباههم ، وغير ذلك من هذه القسيات التي تتم عن المعنف والاهواء والشهوات .

وكان لاديار البوذيين املاك طائلة لرؤسائها ما للحكام من سلطة ومنزلة وشأن .

كان على الفلاحين ان يعولوا الطبقتين العسكرية والكهنوتية. فالاقتصاد ونظام اللقايضة فالاقتصاد المعمولية في البلاد اقتصاد زراعي مطبق على نفسه وركيزته الكبرى زراعة الارز. فقلة الاراضي الزراعية وغزارة المياه ، عوامل تساعد على استثار اراض صفيرة تتراوح مساحة رقعتها بين ٢ – ٣ هكتار ويقتضي لها جهد شاق من العمل اليدوي بالمعول والمجرفة والرفش ، ويستعين الفسلاح ببعض الحيوانات والبقر والحيل ، وهي نادرة على الاجمال إقالة المراعي في البلاد ، فيستعملها مرة في السنة ، لشق الارض وحرثها مفردة او مكدونة . اما النقد فكان من الندورة بحيث ان بعض الفلاحين لم تكسن عينهم وقعت على قطعة عملة واحدة . فالأرز كان معيار الاسعار واساس المقايضات. فالخسد والحشم والمرتزقة من الجند يتقاضون اجورهم أرزا ، وكذلك الضرائب تدفع أرزا. فالفلاح

في القرية يشتري سمكة من الصياد ارزاً يستخدمه لتسميد الارض و اخضابها . اما المرأة في المنزل ، فكسانت تقوم بامور الغزل والصباغة ، والاسرة تؤلف وحدة اقتصادية تكفي نفسها .

والقرويون يقطنون قرى منازلها متفرقة، ولكل قرية شخصيتها تؤلف وحدة ضرائية ، لها الحق بعقد الاتفاقات واقتناء الاراضي والاحراج والمراعي ، سكانها مسؤولون بالتكافسل والتضامن عن الضرائب المفروضة، ويقوم بادارة القرية مختار Nanouchi ، يأتي بالانتخساب احيانا واحيانا بالوراثة ، يكلف بتبليغ الاوامر للاهلين ، كا يرفع تمنيات الاهلين ومطالبهم للسيد ، ويعد قيوداً يسجل بوجبها ملكية الاراضي ، وغلال كل فلاح ومزارع ، كا يسجل عدد المواليد والوقيات . كذلك من مهمته الاشراف على الاشغال العامة في القرية ، ويقضي بسين الناس في صفار الامور . قسمت كل قرية الى فئات ضمت كل فئة خسة اشخاص عليهم عريف . واذ كانوا مسؤولين بالتكافل عن الضرائب ، فقد كانوا يتنافسون فيا بينهم لانتاج احجر كمية من المحاصيل الزراعية والفلال ويحولون دون اقتسام الاراضي وتشتتها بالإرث ، يبسادرون لمساعدة بعضهم البعض ، حتى اذا ما مرض احدم او اقعدته علة قاموا مكانه بحرث ارضه .

وكان وكيل السيد يقوم ، منوقت الى آخر بمساحة الاراضي ويصنفها بحسب طبيعة تربتها ونظام سقايتها ونسبة تعرضها الشمس ، وبعدها عن الاحياء المأهولة ، يخمن كل سنة ، غلة الارض بالنسبسة لوحدة مساحية . فكان السيد يتقاضى 'خسين الغلة ، عدا عن كميسة صفيرة تذهب لوكيله وبعض الهدايا وتأمين أود عيشه والرسوم غير الملحوظة او الاستثنائية التي كانت تطلب منه احياناً . وكان الفلاح يحفظ موسم الارز في اكيساس وينقلونه الى عنابر السيسد ومستودعاته . فبعد ان يضع جانباً للموسم القادم البذار اللازم ، لا يبقى له ما يرد عنه غائلة الجوع والموت ، اما غذاؤه فكان مزيجاً من بعض البقول والحشائش والجذور النباتية .

الرجوع الى نظام السلطة المامة في القرن السادس حشر

قام في اليابان ، بينه او اخر القرن الخسامس عشر و او اخر القرن السادس عشر حقبة عرفت عندهم بعصر Nengoku اي و عصر الحرب في البلاد ، ، وهي حقمة اخذت الأسر النسلة توطد سلطنها

وتشدد من قبضتها السيادية على التباعها وتوسع من نفرذها على حساب سيادات اخرى . فبين الدين المرة المرة المرة القطاعية النفرض منها ٢٤٨ اسرة الوفقدت كل نفوذ لها و اخذت حوالي سنة ١٥٠١ اسرة المستح باليابان وتتجاذب الاستئثار بالسلطة فيا بينها الى ان بقيت اسنة ١٦٠٠ اسرة واحدة تسيطر على البلاد باسرها. وقد تم اخضاع اليابانيين تدريجياً على يد أودا فربوناغا وهيدايوشي و وتوكوغاوا جيازون . وكان نوبوناغا (١٩٣٤ سـ ١٩٨٧) ابناً لاحد الزعماء الاقطاعيين في ولاية أواري و فأنشألنفسه اقطاعاً على حساب جيرانه و وتغلب على بارونات عديدين و ونوعت نفسه الى مرتبة الشوغونا . فاستدعاء الامبراطور واستعمل ضد الاشبكاغا . كتب له النصر عام ١٥٦٨ الا انه اعاد الى الاشكاغا

منزلتهم واحترامهم وبقي كذلك حتى سنة ١٥٩٧ . ولكن منذ سنة ١٥٦٨ لم يعد للاشيكاغا السلطة الفعلية في البلاد . وتابع نوبوناغا انتصاراته . وعندما وقع قتله عام ١٥٨٦ ، كانت تمت له السلطة العلياعلى نصف الؤلايات اليابانية الحميطة بكيوتو العاصمة . وخلفه في السلطة قائد جيشه هيدايوشي (١٥٨٦ - ١٥٩٨) ، وتابع رسالته وفتح كيوسيو واصبح بالفعل سد اليابان . ونزولا منه عند رغبة الحكام النبلاء ، جرد حملة عسكرية تولى قيادتها وقصد بها غازيا الصين . الا انه لم يستطع ان يتجساوز كوريا (١٥٩٧ - ١٥٩٨) . وقام بالامر بعده توكو غاؤوا اياسو (١٥٤٢ - ١٦١١) وهو من رفاق نوبوناغا وهيدابوشي ، فتغلب على البارونات المتمودين وو طد نظام الحكم وأولى اليابان التنظيم الذي سارت عليه ١٥٠٠ سنة تحت اشراف شوغونات توكاؤوا وهيداناد ابن اياسو ، الذي اصبح رسمياً شوغون منذ عام ١٦٠٠٠ اشراف شوغونا من سنة ١٦٦٠ - ١٦٢١ ، ثم ياميتسو (١٦٢٧ – ١٦٥١) وخلفساؤه .

وهكذا انعزلت اليابان وبقيت منكفئة على نفسها في عزلة تامة حتى سنة ١٨٥٤. واستطاع آل تشوغاؤوا ان يؤمنوا الاستقرار في هذا العالم المقفل، وفقاً لتعالم الكونفوشية التي

کل تشوغاؤوا پیمارلون تجمید ایسسابان نی الغرن السابسسع عشر

قال بها تشو .. هي بعد ان كان راضياً عن الاوضاع القائمة ويؤيد بالتالي نظام الحكم وسيطرة الشوغون . ففرحن نظام التسلسل في الجتمع الياباني تحت نظام دكتاتوري عسكري يتمشل بالشوغون . وفرض آل تشوغاؤوا ، على اليابان النظم والقوانين السيادية الى كان يعمل بها الم الحرب ، هذه النظم التي كرُّست سلطتهم ووظدت سيطرتهم ، فقسموا النبلاء الحكام الي قسمين : الفودا يمثلون الحكام الذين وقفوا الى جانبهم وألفوا أنصارهم ، والتوزاما ، وهم القسم الذي يمثل المعارضة بين النبلاء والحكام ويضم الحكام الذين ابدوا مقاومة ضدهم. فقيد احتفظ التباعه ، اى الفودا ، بالوظائف الكبرى في الحكومة ، وبواسطتهم استطاع أن يرسخ نظام المركزية في البلاد. واخضم الحكام النبلاء لسلطة بجلس الدولة ، كما عين المفوضين الاداريين في الاملاك السيادية الكبرى وفي حواضر البلاد الرئيسية ، وعين في النقاط الستراتيجية الحساسة مراقبين يرفعون الى الادارة المركزية كل شاردة وواردة . وهكذا نرى ان الشوغون لم يكونوا لمتدخاوا بشؤون الحكام طالما أن الامن مستتب في البلاد . ولم يتمتم ببعض الاستقلال الداخلي بالفعل ، سوى قلة من كبار الحكام ، امثال ماييدا والشيادزو والدات . ومع ذلك فقيد عرف الشوغون أن يمكموا حولهم القيود أذ فرضوا عليهم الاقامة أجبارياً سنة بعد سنة ، في مكشويادو ؛ عاصمة الشوغون ؛ وان يبقوا فيها أسرهم وعيالهم باستمرار . وبالإضافة الى هذه 👚 الرهائن ؛ فالنفقات الباهظة التي كان يتكبدها هؤلاء الحكام الكبار في حلمُم وترحسالهم ، ومستوى العبش الرفيع الذي ساروا عليه اضعف كثيراً طاقتهم الاقتصادية ، كما اضعف فيهم كل رغبة بالانتفاض او الثورة . اما آل تشوغاؤوا فقد عملوا دومـــاً على توسيم نطاق املاكهم الشاسمة . فكانوا ينتزعون من النبلاء ما لهم من املاك واقطاعات اذا ما توفوا بدون عقب يرثهم . وعلى هذا النحو ساروا في معاملة النبلاء الذين يقترف احد ذويهم احدى الكبائر. وهكذا نرى ان ٢٦ اسرة فقدت املاكها السيادية في هذه الفترة الواقعة بين ٢-١٦٥ – ١٦٥١ .

كل فرد كان يرى نفسه مشدوداً الى طبقتسسه . فالجنسدون العديدون الذين كانوا عيالا على كل حاكم في ايالته ، أجبروا على حسل السلاح ، لا ساوى لهم في مهنتهم سوى الادب والفنون . وفرض على التجار لباس الجندين وقبعاتهم ، كا فرض عليهم الانحناء عندما تقسع أعينهم على حاكم يمر في الشارع . اما الفلاحون فكان وضعهم وضع حيوانات الجر والبهائم . وكانت الحكومة تزهدهم في تملم القراءة والكتابة وتربي في نفوسهم مركب النقص كا يستدل على ذلك من مطلع القرارات والاوامر الق كان الشوغون يصدرها ﴾ اذ كثيراً ما تبتدى. : ﴿ لما كان الفلاحونُ جماعة اغبياء ، . . . او د لما كان الفلاحون يفتقرون كلياً للمنطق والفطنة ، . . فقد ارهقهم بالضرائب ليضطرهم دوماً للعمل ، وليقتل فيهم كل رغبة او ميل للانتقاض على السلطة . وكان الجباة يقطعون من مواسمهم الزراعية ثلثي غلة الارض . فقد بلغ انتاج البلاد في مطلم القرن السابع عشر ٢٨ مليون كوكوز من الارز . وبلنت حصة الشوغون توكوغاؤوا منها ٨ ملايين ، بينا بلغت غلة كل من ماييدا وشيهادوز والدات مليون كوكوز .ولم تكن حصة اي حاكم لتقل عن ١٠٠٠٠٠ كوكوز، ونال ال ١٥٠ نبيلا من حزب فوداي ١٠٠٠٠٠٠ كوكوز وكان الحكام يدفعون مرتبات جنودهم ارزأ ، فينال بعضهم احيانــا ٢٠٠٠٠٠ كوكوز ، ومعظمهم و ١٠٠ كوكوز ، وعدد قليل بينهم يصيبه من ١٠٠ .. ٥٠ كوكوزاً . اما فلاحو الطبقة الدنيا فكان يصيب الواحد نحواً من ٣٠ كوكوزاً . ومنع الشوغون توكوغاؤوا الحكام من انتزاع الاراضي من ايدي الفلاحين بعد ان يكونوا استثمروها لمدة تتراوح بين ١٥ ــ ٢٠ سنة .ومكذا اعترف القانون على شكل ما ، للفلاح بحق التملك ، الا أنه منعه من بسع أرضه .

كل العلاقات الاجتماعية والسياسية قامت على روابط الولاء والتابعية عذا الولاء الذي اصبح المثال الاعلى المشترك لكل الطبقات والقاعدة السلوكية الاولى التي شدت النبيل والحساكم الى اتباعه ، وبين المنزارع والعامل في حقبه والتاجر والمستخدم في متجره ، وبين معلم الكار والمتمرن على العمل . فالمثال الفروسي الذي عرف باسم bushido بعد عام ١٩٠٠ ، ما لبث ان انتشر في البلاد حتى ساد العلاقات بين التجار وافراد الشعب . وهذا المثال كان غني المحتوى ، من ضمنه الملقة والاستقامة ، والاخلاص والنصح والشجاعة لتنفيذ كل ما هو عدل وخير في صالح الضعفاء والمفاوبين على امرهم ، وهذا الظرف الناعم ، والادب الرهيف ، وكبح اهواء النفس والامانة في الواجب حتى الموت ، تلك كانت المناقبية التي كان على الجنود والمحاربين ان يتحلوا بها . فعلى الجندي ان يحكم بنفسه على نفسه لذنب اقترفه او لمفوة لطخت شرفه ، وذلك عن طريق فعلى الجندي ان يحكم بنفسه على نفسه لذنب اقترفه او لمفوة لطخت شرفه ، وذلك عن طريق المراكيري ، ببقر بطنه . فالبوذية بمطلبها المطلق ومخضوعها الهادي المستكين القوانين في هذا المالم والشنتوية ينبوع الولاء السيد، والداعية الى تقديس الجدود ، والبر البنوي ، والكونفوشية ، العالم والشنتوية ينبوع الولاء السيد، والداعية الى تقديس الجدود ، والبر البنوي ، والكونفوشية ،

التي تعلم احترام القدامى والرؤساء ، واخيراً فلسفة وانغ _ يانـغ _ منغ التي عرفت باسم Omei والتي لقيت رواجاً كبيراً في البلاد لحضها الناس على العمل ، كل هــذه العوامل والعناصر جاءت تقوي من جانب المثالية الفروسيــة ، هذه المثالية التي راحت فلسفة تشو _ هي تضعهــا في خدمة الدولة .

من نظام المقايضة الى الاقتصاد النقدي الياباني . فقد عمل نظامهم على انشاء اقتصاد نقدي في البلاد مع كل ما ترتب عليه من نتائج اجتاعية . فالبلاط الفخم الذي قدام في مدينة ييدو والاسفار التي كان يقوم بها الحكام بين ييدو وإيالاتهم وغير ذلك من العوامل وشجعت التجار واصحاب الحرف على إنشاء مخازن ومحلات البيع في عاصمة الشوغون وفي هذه المدن الواقعة على طريت الحكام . ولكي يؤمنوا مشترياتهم راح حكام المقاطعات يشجعون على استثار مناجم المعادن الثمينة . فقد و حد اياسو النقد في البلاد وامر بسك عملة من الذهب والفضة ، واخسة بتشجيع التجار واصحاب الحرف والمهن . كذلك عمل الحكام على التعامل ، اكثر فاكثر ، بالمعادن الثمينة ، بفرضهم رسوماً تدفع نقداً وعيناً بالفضة ، عن محاصيل الارض غير الارز ، كذلك فرضوا رسوماً تجبى نقداً فضة ، على اصحاب البضائع وعلى احجار المطاحن ، وبدلاً عن كذلك فرضوا رسوماً تجبى نقداً فضة ، على اصحاب البضائع وعلى احجار المطاحن ، وبدلاً عن خلال الارز ، وحذا حذوهم المسكريون العاملون في خدمتهم . واستدانوا على غلالهم وهكذا اصبحت السندات التي يوقعونها لامر ، موضوع تحويل تجاري وتجيير .

وهكذا طلمت في البلاد طبقة جديدة من التجار اخذت تنمو عدداً وتزداد ثروة وثسراء الاسيا ولم يكن اصحابها ، في بدء الامر ، يخضمون لاي ضريبة أو رسم كان ، باعتبار ان غلال الارض وحدها تؤلف مورداً : وهكذا بقيت مدن كثيرة مثل يبدو وأوزاكا وكيوتو ونارا ونواسيمي وغيرها معفاة من الضرائب . واخسلا التجار وارباب المهن يؤلفون من بينهم نقابات ، وحسلوا بالشراء من الشرغون ومن كبار الموظفين الاداريين امتيازات حددت من الانتساج ، وعدد المستكتبين والمساعدين وارباب الحرف ، وابقو الاسعار على مستوى ممكن ، واقامسوا احتكارات . وفي بورصة أوزاكا ، أتفق التجار على شراء الارز بابخس الاسعار في كل انحساء اليابان . وقد سدوا أفواه المسؤولين في الحكومة بالهدايا والأعطيات التي كانوا يدفعونها لهسم . وعندما كان الشمب يأخذ بالتذمر والتأقف من هذه التجاوزات كانت الحكومة تعمد إلى فرض بعمض الضرائب والرسوم ، وتفرض تحديد الاسعار والاعلان عنها ، وتصادر المستودعات وتحرم بعض الضرائب والرسوم ، وتفرض تحديد الاسعار والاعلان عنها ، وتصادر المستودعات وتحرم الاحتكارات ، لمدة ثم تعود الامور عودتها إلى الماضي من جديد .

٢ ــ الاوروبيون ومحاولاتهم التجارية

في الصين واليابان

البرتغاليون الصينيون ان يفتحوا على طول حدودهم ، بعض الثغور والنوافل ، كدينتي كنتون الصينيون ان يفتحوا على طول حدودهم ، بعض الثغور والنوافل ، كدينتي كنتون وسو – تشيو ، تطل منها وفادات السفراء حاملين الهدايا والحراج الى الامبراطور ابن الشمس ومثل هذا التأكيد ، زعم فيه الكثير من نسج الخيال . فالاجانب كانوا يلتفون حول سفير مزعوم فيؤلفون جماعة من التجار يستغلون بعض الاعفاءات الدبلوماسية . والهدايا المزعومة لم متكن بالفعل سوى بضائع وسلع يقايضون بها بضائع غالبة الثمن . ولم يكن مثل هذا الوضع تحكن بالفعل سوى بضائع وسلع يقايضون بها بضائع غالبة الثمن . ولم يكن مثل هذا الوضع بخاف على موظفى الحكومة ، يدركونه جيداً ، اذ المهم عندهم المحافظة قسدر المستطاع على سيادة و امبراطورية الوسط ، الشاملة بالشاملة Empire du Milieu ، كن وارداً قبط في حساب الصينيين ، اما فتح الصين امام الاجانب على نطاق واسع ، فامر لم يكن وارداً قبط في حساب الصينيين ، اذ لم يكن هؤلاء الاجانب الاغراب خليقين باقتباس حضارة الصين ، قطب العالم المتعدين التي اذ لم يكن هؤلاء الاجانب الاغراب خليقين باقتباس حضارة الصين ، قطب العالم المتعدين التي اذ لم يكن عند البرابرة حرياً باقتباسه .

ففي الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون وجدوا امامهم مكاناً ينقذون منه الى هذا الجال التجاري المند بين الصين واليابات وماليزيا والهند الصينية . ففي عهد الامبراطور يونغ – لو (٣٠٤١ – ١٤٠٢) من ملوك دولة المنغ ، بلغت الاساطيل الصينية الخليج الفارسي وشواطىء الصومال . وبعد وفاته حظر اباطرة المنغ ، على رعاياهم ، الاتجار مم الخارج ، والهجرة الى الحارج تحت طائلة الموت ، فرموا ، من وراء هذه التدابير الى تفشيل اعمال القرصنة ، التي كانت تقوم بها عصابات وو – كو، تألفت معظمها من مجندين يابانيين قدموا من جزيرة كيو – سيو ، فراحوا يفامرون على متن سفن مسطحة الظهر ، قلاعها من الحصر ولها مجاذيف جانبية ، تهاجم مصبات الانهر في الصين . وكثيراً ما استكملوا عدتهم من مساعدين لهم من الملايو والفيليين . وقد عجزت ميليشيا اواي وسفن خفر السواحل الصينية ، عن رد تعديات هـؤلاء القراصنة . وقد عجزت ميليشيا اواي وسفن خفر السواحل الصينية ، عن رد تعديات مـؤلاء القراصنة . وفي سنة ١٩٥٩ تقدمت عصابات وو – كو واصبحت على مقربة من تانكـين . وهكذا وفي سنة ١٩٥٩ تقدمت عصابات وو – كو واصبحت على مقربة من تانكـين . وهكذا وفي اليابان يطمعون جداً في الحصول على حرير الصين وعلى ذهب الصين لشدة الطلب عليهـا في اليابان يطمعون جداً في الحصول على حرير الصين وعلى ذهب الصين لشدة الطلب عليهـا في اليابان . اما الصينيون ، فالاتجار مع الحارج ، لم يمثل سوى جزء ضئيل من نشاطهم التجاري، وهذه العارات الصينية الماخرة عباب البحار لم تحين سوى كمية مهمة اذا ما قيست بهـذه وهذه العارات الصينية الماخرة عباب البحار لم تحين سوى كمية مهمة اذا ما قيست بهـذه

الاساطيل التي كانت تقوم بهذه الحركة التجارية على ساحل البلاد الشرقي ، والتي كانت تؤمن الملاحة النهرية . غير ان البلاد والموظفين كانوا دوماً يسعون للحصول على الافاويه والتوابل من ماليزيا ، وعلى غير ذلك من المحاصيل النادرة عندهم ، وعلى هذه الاصناف التي قامت عليها حياة البذخ ، كما ان الصين ، بلاد الذهب الفضلى ، كانت مجاجة كلية لكمية من الفضة المسكوكة نهوضا باقتصادياتها .

وهكذا استمرت الحركة التجارية فيها تعتمد بالاكثر على الوسائسل التالية : السفارات والترخيص والتهريب . فقد رخص الدول التابعة للصين او التي تدور في فلكها ، ان ترسل كل سنة لبكين ، وفادة لتقديم ولانها وخضوعها للامبراطور ، مع الخراج المترتب عليها . وكان السفير يعطى بدووه إجازات ورخصاً توزعها حكومته على تجارها في البلاد . وبهذه الاجازات يستطيعون الدخول الى الصين بعد الخضوع لعملية تفتيش او مراقبة من قبل احدى المراكز الثلاثة المهمة للتفتيش تتألف منها و مكاتب مراقبة السفن البحرية ، المعنية كل منها بمراقبة التجارة مع اليابان ، في مرفأ ننغ بو ومع جزر ربو كيو في مرفأ تسنغ بشيو ، وفي مرفأ كنتون السفن المتجرة مع و اقطار الجنوب ، اي مع الفيلين وجزر السوند والسيام وكمبوديا . وكان التجار الاجانب يرسون بسفنهم في مصاب الانهر او في الجزر القريبة منها ، ويحشدون بضائعهم في عنابر او مستودعات خفيفة . اذ ذاك فقط يسمح لهم بدخول البسلاد والتجول في القرى الجاورة للمرفأ دون الدخول للمدينة نفسها . وكان هؤلاء التجار يديرون شؤونهم الخاصة داخليا وفقاً لقوانين بلادهم واعرافها التقليدية ، الا انهم لم يكونوا يتعاملون الا بواسطة اتحادات التجار الصينين التي كانت تتولى تحديد الاسعار .

وكان الموظفون الصينيون Mundurins المحليون من حكام ونواب الملك يعطون رخصاً باسمار عالية ، ليعض التجار الصينيين للاتجار مع الخارج .

اما عمليات التهريب فكان يؤمنها او يقوم بها اصحاب السفن ومالكوها عن طريق قراصنة الوو - كو وعصاباتهم البحرية ، او عن طريق تجسسار جزر ربو - كيو او عن طريق الغور او الليكيوس ، عدا البرتفاليين ، الذين كانوا يحاولون على مسؤولياتهم ، خسسرق الحسار المفروض . وقد كان الفور ، في القرن الخامس عشر اهم العملاء في الاتجار مع الصين واليابان

و ﴿ اقطار بحار الجنوب ﴾ . الا ان شأنهم هبط كثيراً في القرن السادس عشره .

وعندما تم الألبوكرك الاستيلاء عام ١٥١١ ، على مالقا ، امسر بان تعاد الى التجار السينيين والسفن التي كان يحتجزها عنده سلطان المدينة ، كا سمح لمؤلاء التجار ان يتموا بحرية تامة ، عملية تسويقهم . وعاد الصينيون الى بلادهم وكلهم ثناء عاطر وألسنة مدح تلهسج باريحية الا Folanguis ، كا كان يسمون البرتفاليين. وقد بلغ البرتفاليين ان التجار الصينيين يحققون من الاتجار بالفلفل ارباحاً تبلغ اربعة اضعاف ثمنه بعد نقله الى كنتون ، كا جاء من يؤكد لهم انهم

يستطيعون ان يؤمنوا من الارباح على البضائع والسلع الاخرى من ٢٠ – ٣٠ في المائة . وعملاً بالاوامر والتعليات التي تلقاها حاكم مالقا ، قدم جورج الفاريس ، عام ١٥١٤ ، الى مصب نهر سي .. كيانغ حيث تقع مدينة كنتون ، وباع بارباح طائلة ما كانت سفنه تشعن من بضائسه مختلفة . واذ ذاك ، ارسل الملك مانويل ... ملك البرتفال ، الى امبراطور الصين ، يطلب اليه اعطاء مرخيصاً لاقام... وكالة تمثيل تجارية (Factorie) على ارض صينية . واضطر السفير البرتفالي ، توما بيريس الذي وصل كنتون عام ١٥١٧ ، ان ينتظر ، في ه...ذه المدينة ، رد الامبراطور بالساح له بالتوجه ألى بكين . وحمل البرتفاليون معهم كمية من الفلفل يبيعون... غالياً . وسمح لهم الموظفون الصينيون ان يبنوا لهم مقراً في جزيرة توان ... من ، وهي أسكسة غالياً . وسمح لهم الموظفون الصينيون ان يبنوا لهم مقراً في جزيرة توان ... من ، وهي أسكسة كان التجار القادمون من مالقا يتوقفون عندها .

الا ان سيمون ده اندراد ، وهو جندي جلف بدون تهذيب ، تصرف عام ١٥١٩ و كأنه في ارض تخضع لسيادة البرتغال ، فامر ببناء حصن جهزه بدافع قصيرة لقذف القنابل ، ونصب مشنقة شنق عليها احد المجرمين ، كا ضرب موظفاً صينياً طلب اليه دفسح الرسوم المترتبة على الاجانب . وعندما وصل بيريس الى بكين ، عام ١٥٢٠ ، اتضح للصينيين بشيء مسن الدهشة والاستهجان ، ان اوراق اعتاده لا تنص قط على تقديم الولاء والاحترام ، ولا تأتي على ذكر دفع الخراج ، وهي عبارات والفاظ استعملتها ، الديبلوماسية الصينية ، اذ ذاك ، بل جل ما تطلبه ، عقد معاهدة تجارية على قدم المساواة ، مع اعطائهم امتيازاً بانشاء وكالة تجارية لهم . ان قوما لا آداب لهم ولا احترام عندهم للراسم المرعية ، لا يمكن ان يكونوا اناساً ذري اخلاق ، بسل اغا هم جواسيس وقراصنة وغزاة ، و د اجانب ابالسة ، . فاصدر البلاط الامبراطوري امراً حظر على البرتغاليين ان يطأوا ارض الصين . وقد هاجم الصينيون اسطول دباغسو كالفو سفنهم . وفي السنة التالية ، فقد البرتغاليون مركبين ايضاً ، كا ان اربعة سفن اخرى لقيت سفنهم . وفي السنة التالية ، فقد البرتغاليون مركبين ايضاً ، كا ان اربعة سفن اخرى لقيت المنهم السجن حتى منة ١٥٦٤ حيث مات معظمهم من جراء ما لحق بهم من الهوان وسوء المامة التي تعرضوا لها .

وهكذا رأى البرتفاليون انفسهم ، منذ عام ١٥٢٧ ، مرخمين ، على القيام باعمال التهريب من مدينة كوانغ – تونغ في فو – كيان ، وتشي – كيانغ حيث استطاعوا ، منذ عام ١٥٣٣ ، النبية الته يقيموا لهم خفية ، علاقات سرية مع بعض الموظفين الصينيين المحليين ومع تجار النبية المحليين . وقد وصلت بعض العهارات البرتفالية بقيادة رئيس – قبطان تحت إمرته سفينة ملكية . وهبط البرتفاليون في جزيرة موحدة بنوا فيها اكواخاً من القش اقاموا فيها من شهر غوز الى ايلول ، وانشأوا لهم سوقاً عملياً واخذوا بالاتجار مع السفن الصينية ثم يتوارون بعد ان يبعوا منهم ، ما لديم من الفلفل بسعر معتدل ويشترون موادهم الغذائية باسعار عالية .

وفي سنة ١٥٤٢ ، التقى ثلاثة من رواد البرتفاليين ، مراراً بجماعات من الفور الى ان بلغوا ريوكيو . غير ان سكان البلاد الاصليين الذين كانوا مجرصون على بقساء سيطرتهم على الحركة التجارية اساؤوا وفادة البرتفاليين الذين استأنفوا سيرهم شرقاً الى ان أطلوا على مشارف اليابان . وفي ٣٣ أيلول ١٥٤٣ وصل البرتفاليون الى جزيرة نائية عن أرخبيل اليابان هي جزيرة فانيفا . فقد كان لكشفهم الجفرافي هذا وقع كبير . وفي هذه السنة لم يرجع أحد من التجار البرتفاليين الى مالقا . وفي سنة ١٥٤٤ مقدمت عمارة برتفالية مؤلفة من عشرة مراكب محملة شحنة حرير ودخلت خليج كاغوشيا . وبذلك ابتدأت هذه الحركة التجارية التي نشطت مجاريها بين مالقا والصين واليابان . ثم جاء الصينيون في أثر البرتفاليين .

كان البرتغاليون ، مم كل هذا ، بحاجة ماسة لقاعدة رئيسية تكون محور نشاطهم التجاري في هذه البحار . ففي سنة ١٥٥٤ ، عقد رئيس قبطان ليونيل ده صوصه ، اتفاقاً شفوياً مسع نائب الاميرال في نهر كنتون ؟ عنملهم معه معاملة السياميين التابعين الامبراطور الصسين ؟ سمح لهم بموجبه بالاتجار. واذ ذاك استطاع البرتغاليون ، باعتبارهم موالين للامبراطور وتابعين له أن ينزلوا ؛ عام ١٥٥٧ في خليج الإلهة آما : آماكاو ؛ ومن هــذه الكلمة اشتق البرتغــاليون كلمة مكاو . وقد سمح لهم الصينيون بالبقاء مشترطين عليهم الا يبنوا حصوناً لهم ، وان يقبلوا بدفع الرسوم المترتبة عليهم للمكس . وعندما كانت تصل لهذا المرفأ سفينة من سفنهم يقومالصينيون للحال بأخذ مقاييسها وتقييمها لتدفيع رسوم الرسو بنسبة حجمها ءثم يعملون جردة كاملة بما تحمله من بضائع ووسق ، وبما ينوون شراؤه بحيث يتبين للبرتغاليين ما يجب عليهم دفعه رسوماً للاستبراد والتصدر . وقد حالف الحية البرتغاليين ، فلم يكونوا ليدفعوا عن سفينة سعتها ۲۰۰ برمیل سوی ۱۸۰۰ تابل Taels کرسم رسسو عن اول مرة ، و ۲۰۰ عن کل مرة ترسو فيه فيا بعد ، بينها السفن الاجنبية كانت تدفي عنه و ١٠٥ تايل عن كل مرة ، كما ان رسوم التصدير كانت تخفض الى الثلثين . وكان البرتغاليين حاكم عام برتبة رئيس قبطان يرأس عمسارة الملك المسافرة الى اليابان . ولم تلبث المستعمرة البرتغالية في مكاو ان شكلت من ذاتها حكومة بدائية تألفت من قبطان وقاض واسقف مع ما يلزم من شرطة محلية حظيت بموافقة الصينيين؟ ولم يعتم بهــــم الامر ان نالوا من الملك ترخيصاً بانتخاب حكامهم ، ومجلس شيوخ تولى ادارة المدينة . وتمتع بحق الانتخاب في المدينـــة كل رعايا ملك البرتغال الاحرار المقيمين في المدينة والمتزوجين فيهاً ومعظمهم من التجار . فقد كان عدد البرتغاليين في مكاو عام ١٥٦٣ ، نحواً من الف شخص وبضعة آلاف من العبيد والخدم معظمهم من الملايو والهنود والافريقيين ، عسدا عن أتفاق خاص ، باحتكارهم الاتجار في ممتلكاتهم عبر البحار ، كا نالوا حرية الاتجار مع الفيلبين المعمول به في مكاو واعترف بها مدينة . وفي سنة ١٥٩٤ ، حظر فيليب الثاني على الاسبانالاتجار مباشرة مع الصينيين ؟ من جهة ، ومع المكسيك والفيلبين من جهة ثانية . وهكذا ابعد عنهم كل خطر او احتال اي مزاحمة من قبل الاسبان . وبالاضافة الى هذه الاعفاءات والمنافسع فقد سمح للبرتغاليين الاتجار مع كنتون بدون وساطة الاتحاد التجاري الصيني . وفي سنة ١٥٨٢ الجاز نائب الملك في ولاية كوانغ -تونغ البرتغاليين في مكاو ، بعد ان عرفوا كيف يستميلونه بالهدايا الثمينة ، الاتجار مع كنتون . وفي سنة ١٥٨٤ عين امبراطور الصين ، النائب العام البرتغالي في مكاو ، و موظفا Mandarin من الصف الثاني » اي ان النائب العسام كان يارس وظيفته باعتباره قاضيا صينيا وتحت الحاية الصينية . وهكذا فالفترة المتدة بين ١٥٠٤-١٦٠٢ هي الحقبة التي بلغت فيها مكاو الأوج من الازدهار ، باعتبارها المركز الرئيسي التجارة الحيطية في الشرق الاقصى .

وبعد تجارب ومحاولات متكررة ، وجد البرتغاليون ، في اليابان ، الميناء الأمثل لسغنهم في ناغاز اكي الذي اعطى حاكم المقاطعة الآباء اليسوعيين ترخيصاً بالرسو فيه ، فاصبح منذ عام ١٥٧٢ ، المركز الرئيسي للبرتغاليين في تجارتهم مع اليابان . ان محور الحركة التجارية منذ عام • ١٥٥ ، تمثل في هذه الرحلة السنوية التي كان البرتغال يهيؤها، او يعطي اعفاء بها لرئيس قبطان يتولى قيادة باخرة كبيرة nao الى اليابان . وكانت هذه الباخرة تقلع من غوا بعد ان تزودها السفن البرتغالية القادمة من لشبونة بالبضائع الاوروبية التي كان اليابانيون يرغبون فيها: كالزجاج والبلور والاقمشة الصوفية والنبيذ والساعات والبنادق والانواط والاوسمة ، وجلود قرطبـــة ، والساعات الشمسية والشمعدانات والخمل . وكانت هذه الباخرة تتسوق في طريقها الفلفل من كوشي في الملابار ، والحجارة الكريمة من مالقا والمولوسك ، وخشب الصندال والزنجفر وجوز الطيب والصعفران والعنبر الرمادي والبخور البكر والعاج ، كاكانت تشحن من مكاو : الحرير والذهب الصيني . كذلك كانت تشحن نحواً من ١٠٠٠٠٠٠ وزنة من الحرير الخام الصيني ٬ كل وزنة ٦٦ كيلو . وهذا الحرير الخام الذي كانوا يبتاعونه من كنتون ، بسعر ٨٠ تائل ، الوزنة الواحدة ، كان يباع في اليابان بسعر يتراوح بين ١٤٠ - ٦٥٠ تائل ، الوزنة الواحدة. كذلك كانت الباخرة تشحن من ٤٠٠ – ٥٠٠ وزنة من الحرير الملون بسعر يتراوح بين ٤٠ – ١٤٠ قائل الوزنة ، ليجري بيعه في اليابان بين ١٠٠ - ٤٠٠ تائل من الذهب الخام ، بمعدل ٥ تائك ونصف من الذهب في الصين و٧ تائل ونصف في ناغا زاكي . كذلك كانت تشحن : مسحوق الذهب واقمشة قطنية ، والزئبق والنحاس ، والقصدير والرصاص ، والراوند ، والبقم والسكر والقاشاني، والحرير والاقمشة المزركشة والاطلس والديباج.وكان امراء الهند يحتفظون لانفسهم بقسم كبير من هذه الاصناف ، كما ان قسماً من اللاك والقاشاني كان يرسل الى اوروبا .

والمهم في هذه الحركة هو الفضة اليابانية . ويمكن رسم صورة تقريبية لهذه التجارة ، على اساس مقايضة الحرير والذهب الصيني بفضة اليابان . وكان قسم من هذه الفضة يستعمل لشراء بعض الاصناف في الصين راسماً بذلك حركة دوران بين الصين واليابان ، كما ان جانباً منه

كان يشحن للهند واندونيسيا وكلا البلدين يفتقران دوماً للفضة. وزاد الاقبال على الفضة اليابانية في القرن السابع عشر ، بعد ان هبط وارد فضة المكسيك الى الفيليبين ، بعد سنة ١٦٣٠ . ونشط اليابانيون، بعد اشتداد الطلب على الفضة ، الى استثمار مناجم الفضة في بلادم، والتحري عن المزيد منها ، وكان اغزرها إنتاجاً يقع في جزيرة تسو – شيا ، في هذا القسم الأوسط مسن منحدر هوندو الشهالي باتجاه سيكوك .

وكانت هذه الباخرة تتسم ١٢١٦ برميلا ، وقد سماها اليابانيون و بالسفينة السوداء kouro fume المثانية المؤلفة المؤلفة المؤلفة متون واربعة صوار ، وصرح شاهق في المقدمة يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق . كانت هذه الباخرة ، تفادر غوا في نيسان او ايار بعد ان تقضي فصل الشتاء في مكاو ، فيقوم قبطانها اذ ذاك بدور حاكم المدينة ، تأخذبا متئناف رحلتها نحو ناغازاكي مع الرياح الموسمية التي تهب من الفرب الجنوبي ، في حزيران او تموز من السنة التالية ، فتبلغ ناغازاكي خلال ١٥ يوما لتفادرها في تشرين الثاني او آدار ، حسب طبيعة شحنها ، مع الرياح الموسمية التي تهب من الشيال الشرقي ، يقودها ربان برتمالي من الاشراف ، تستعين باسفارها بآلات المخرافية الملاحة المستعملة آنذاك كالبيكار والاسطرلاب و و عصا يعقوب ، . امسا الخرائط الجغرافية فكانت نادرة جسداً وسيئة الرسم ، بينا أدلة السفر والملاحة البحرية كانت تفيض بالمعلومات والفوائد ، فتصف بدقة معالم الشواطيء والمراسي والمواني ، ومهاب الارباح والمجاري المائيسة والنوائد المحيطية .

وتجارة البرتفاليين مع الشرق الأقصى استقلت تقريباً في علاقاتها عن اوروبا التي كانت تصدر القليل كانت تستورد القليل انجالية صفيرة من الاوروبيين كانت تحمل معها الى الشرق الاقصى روح الاقدام والمفامرة وتتسلح بتقنيات مجرية وتجارية مستثمرة هذه العسدة في شبه استقلال من الوطن الام . والارجح ان البرتفاليين كانوا روح النشاط في هذه الحركة التجارية التي عمر بها الشرق الاقصى اذا ما اخذنا مقياساً على ذلك ، مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، وهذه الروح النقاية التي دبت بين التجار الصينيين .

الاسبان في الفيليبين وهي جزيرة كان يؤمها في السنة من ١٢ – ١٥ سفينة صينية قادمة مسن فو - كيان الى مانيلا ، يضاف اليها بعض الزوارق اليابانية موسوقة بالحرير والاقمشة القطنية والقاشاني والقصدير وتعبود منها حاملة الذهب والشمع . وكان مسلمو الفيليبين وهم المسورو يقومون بدورهم بعملية توزيع هذه المواد والاصناف والبضائع الصينية واليابانية في المحاء الفيليبين . وفي ايار ١٥٧١ استولى له غاسي على اهم المراكز التجارية التي كانت بيد المورو في مانيلا كما عرف ان يكسب ويحقق خضوع زعماء الفيليبين للسلطة الاسبانية . وقد بدت مانيلا ومرفؤها الممتاز المركز التجاري الامثل للاتجار مع اليابان والصين وجاوا وبورنيو والمولوسك

وغينية الجديدة > اذكان يفصل بين هذه الاقطار المسافة نفسها بالنسبة لحمور مانيلا في اي اتجاه سرت. وغينية الجديدة > الاسبان بالصينيين سريعاً وزاد عدد المراكب الصينية حتى ان نائب الملك في فو _ كيان ارسل > عام ١٥٧٤ > مركباً امبراطوريا واستقدم اليه اربعة موفدين اسبان كلفوا مفاوضته للحصول على مرفأ في فو _ كيان والساح لهم بالتبشير بالانجيل > وكان يرأس هذا الوفد > الراهب الفرنسيسكاني مارتن ده رادا الذي زودنا باولى معلوماتنا عن دبانة الصينيين . الا انسبه شجرت اختلافات بين الجانبين دعت لسوء التفاهم > اذ ان اول حاكم اسباني كان متشاخا > جلف الطباع > وعر الجانب ، انقطعت معها العلاقات السياسية عام ١٥٧٦ > غير ان الحركة التحارية استمرت كالمعتاد .

وفي اواخر القرن السادس عشر ، كانت و سفينة مانيلا ، تغادر مرفأ أكابولكو ، حاصلة بانتظام الفضة من المكسيك . وكانت السفن الصينية تأتي في كل سنة الى مانيلا حاملة معها الحرير والنسائيج الحريرية والقاشاني والقمح ومعادن الصين لمبادلتها بالفضة . وقد اقام عدد من الصينيين ، تراوح بين ، ١٠٤٠٠ – ، ، ، ، ، ، في ناحية باريان التي تؤلف ضاحية مانيلا . وكان الحرير يشحن من جديد على ظهر و سفينة مانيلا ، باتجاه المكسيك ومنها باتجاه اوروبا . وقد تناولت هذه التجارة كميات كبيرة اخذت تزداد سنة فسنة حتى سنة ، ١٩٣٠ . وكان العملة الفضية الاسبانية ، ولا سيا للريال منها طلب كبير في الصين . وكان يرد منها ، كل سنة ، عن طريق المكسيك بقيمة مليون بيزوس ، بحيث ان الاسبان كانوا يحققون من الارباح ما يتراوح بين ، ١٥٠٠ / ، وهكذا كانت السفن الصينية تفد بكثرة على مانيلا ، وبصورة تصاعدية اذ جاء منها ست ، عام ١٥٧٤ ، و ١٩٠ ما سفينة عام ١٥٨٠ ، و ٣٠ كمعدل وسطله السنوات بين ، ١٥٠ – ١٦٠٠ ، و ٥٠ عام ١٦٣١ .

الحصار على مضايق مالقا وبذلك كادوا يقطعون الاتصال بين مكاو وغوا . وقد ادركوا ، بعد تحريات قاموا بها ، سر النهج او الاسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في اتجارهم مع بلدان الشرق الاقصى ، فأسسوا عام ١٦٠٩ ، وكالة تجارية لهم في فيرندو ، وهي جزيرة صغيرة ترتبط بجزيرة كيو _ سيو . الا انهم رأوا انفسهم مضطرين للاعتاد على التهريب واعمال القرصنة للحصول على حرير الصين ، فهاجموا مكاو عام ١٦٣٢ الا انهم 'ردوا عنها خاستين بخسائر عظيمة ، واذ ذاك حاولوا ان يقطعوا مكاو عن اليابات ، ومانيلا عن الصين . فاحتلوا ، في هذا السبيل ، ارخبيل بسكادور وتقدموا من الصينيين بطلب السياح لهم بطلب الاتجار مع فو _ كيان عن طريق ننخ _ بو . فسمح لهم الصينيون بالنزول في فورموزا والاقامة في تيوان . واستطاع الاسبان من نورموزا .

وفي سنة ١٦٤١ ، استولى الهولنديون على مالقاكما استولوا عام ١٥٤٢ على فان ــ شواي ،وهكذا اصبحوا يسمطرون على المواصلات بين الصين واليابان ·

لم تلبث هذه الحوادث ان تركت اثرها البعيد، اذ غيرت وبدلت كثيراً في علاقات البرتغاليين مع اليابانيين . فعند ١٩٦٨ ، استبدلوا باخرتهم الكبرى ١٠٥ السريعة العطب باسطول مين السفن الصغيرة ، الخفيفة الحركة ، تراوحت سعة السفينة بين ١٠٠ - ٣٠٠ برميسل ، واشتدت حاجة البرتغاليين النحاس ليستعملوه لصب المدافع وضرب العملة النحاسية لتسهيسل اعمالهم التجارية مع الجزر، بعد ان اخذت الهند والصين تلتهان الفضة ، وبعد ان تناقصت تدريجيساً كمية الفضة المستوردة من العالم الجديد . فقد كان بالامكان الحصول على نحاس اليابان عن طريق مافيلا . وكان سكان مكاو بحاجة ماسة المصنوعات الاوروبية التي لم تعد لتصلهم عن طريق غوا ، انما تيسر قوفيرها عن طريق مافيلا . ولذا راحوا ينمون علاقاتهم مع القاعدة الاسبانية . وقد كان سبق للاسبان ان اعتمدوا ، بالرفأ بحجة امتيار الماء والتزود منه وشراء المتاد الحرير . وكانت السفن الاسبانية تقترب من المرفأ بحجة امتيار الماء والتزود منه وشراء المتاد الحريي . فكانت زوارق مكاو تأتي ليلا ناقلة اليهم الحرير والاقشة الحريرية من الصين . وقد وصلت الحرك التجارية في مافيلا الى الاوج بين ١٩٠١ – ١٩٦٠ ، وهكذا اصبحت مافيلا قاعدة اساسية لا بد مسن الاعتباد عليها في تصدير الحرير والالبسة الحريرية من الصين نحو اكابولكو ومكسيكو وفيراكروز وأشبيلية . وبقيت في ازدهارها هذا حتى سنة ١٩٤٠ .

عرف سكان مكاو ان يفيدوا كثيراً من نمو الاقتصاد النقدي في السابان وتطوره السريح تحت تأثير التجارة الاوروبية ، ولم يكن بوسع اوائل الرأسماليين اليابانيين ان يستخدموا مباشرة وبانفسهم اموالهم في التجارة مع الخارج ، اذ كان يقتضي لهم الحصول مسبقاً على ترخيص بذلك من الشوغون ، وهو ترخيص من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الحصول عليه ، كا انه حظر على اليابانيين ، بعد سنة ١٦٣٦ ، الخروج من اليابان للانقطاع للاعمال التجارية . ولهذا عهد حكام كيو ـ سيو وغيرهم من بعض حكام المقاطمة الجنوبية باستثار اموالهم الى بعض تجسار مكاو الموافق بهم ، لقاء فائدة تراوح معدلها بين ٢٥ ـ ، ٥ / وبدلا من ان يستخدم تجار مكاو الموالهم الخاصة في هذه الاعمال التجارية ، اخذوا ، اكثر فاكسائر ، يعولون على رؤوس الاموال اليابانية .

والحال، فقد اقصرت الحكومة اليابانية، البرتغاليين، في بدء الامر، على الاتجار مع جزيرة دشيا، ثم اخذت منافسة الهولنديين ومزاحتهم لهم تعنف وتشتد. فقد استورد الهولنديون عام ١٦٣٣ الى اليابان، ١٤٢١ وزنة من الحرير، بينا لم يزد ما استورده منه البرتغاليون، في تلك السنة، على ٢٥٠ وزنة. فقد استطاع الهولنديون، فعلا، بعد لن تم لهم السنزول في فورموزا واقامة وكالة تجارية لهم في تيوان، ان يحولوا نحو مرافئهم، عن طريق فو كيان، جانبا كبيراً من الحرير الصيني الذي كان يصدر من قبل، الى كنتون ومكاو. ومع ذلك فقد

استطاع البرتفاليون ان يعودوا من اليابان ومعهم من الفضة ما يعادل ثمنه ٧ ملايين فاورين ، بينا عاد الهولنديون باربعة ملايين لا غير ، وفقا لتقديرات الهولنديين انفسهم . ومع ذلك ، فالنشاط الذي بعثه الاوروبيون في هذه الحركة التجارية ، عاد بالفائدة الكبرى على الآسيويين انفسهم بعد ان ساروا في اثرهم واحتذوا حذوهم . ففي عام ١٦٣٦ ، جاء اليابان اربع سفن برتفالية و١٢ سفينة هولندية ، بينا كان يصلها ، كل سنة من ٥٠ - ٢٠ سفينة صينية قادمة من مرافىء ننغ – بو وفو – تشيو ، واموي وكنتون .

اخيراً ، بعد ان اوجس الشرغون خيفة من المرسلين ومن تأثيرهم السياسي على البلاد ، طرد عام ١٦٣٦ ، السفن البرتفالية . ولم يسمح لها بتفريغ شحنها . ثم امر بابعاد كل البرتفاليين من اليابان حتى من جاء من اولادهم بالزواج من برتفالي ويابانية . ومنف عام ١٦٤٢ ، سمح للهولنديين وحدهم بالتعامل مع جزيرة دشيا والاتجار مع اليابان ، هذه الجزيرة التي كانت شماد الحركة التجارية في جار الصين ، وبذلك كادت هذه البحار تغلق في وجه الاوروبيين .

ففي سنة ١٦٤٠ ، ثار البرتفال في وجه اسبانيا وانضم سكان مكاو الى جسانب ملك البرتفال الجديد ، بما سبب انقطاع البلاقات التجارية بين مكاو ومانيلا ، والخفض بالتالي المنسوب التجاري بينهما ، الا ان مانيعلا عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع سواحل فو _ كيان . غير ان هذا الحادث السياسي وانهيار انتاج الفضة في المكسيك والمنافسة الشديدة التي قامت في وجهها من قبل المولنديين وضع حداً للدور العظيم الذي طلمًا مثلته كوسيط بين الصين واوروباً.

ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر ، يتوزع النشاط التجاري ، بين اوروبا والصين ، على اكبر الدول ، كما اخذ نطاقه ، كما يبدو ، يضيق اكثر فاكثر . ان اقفال اليابان في وجه التجار الاوروبيين خفض كثيراً من اهمية الحركة التجارية ، في هذه البحار . فلم يعد يسمح المولنديين ان يدخلوا اكثر من سفينتين الى اربع سفن في السنة بعد ان بلغ عدد السفن من قبل ١٢ سفينة ، ثم جاء طردهم من فورموزا عام ١٦٦٢ على يد القرصان كو كسنفا ، وفقدوا مراكزهم المتحكة بالحركة التجارية بين كنتون وفاغازاكي ، وبين ننغ - بو ومانيلا . اما الاسبان فقد وفقوا ، عام ١٦٦٩ ، الى عقد اتفاق تجاري مع دولة تسنيغ ينظم الحركة التجارية بين مانيك وكنتون وننغ - بو . وهكذا الطرد قددوم السفن الصينية الى مانيلا . الا ان ندورة الريال الامركى احدث رجة وهبوطا في مستوى الحركة التجارية .

اما الانكليز فقد قاموا من جهتهم بعدة اسفار 'كالرحلة التي قام بها هنري بونفورد الى مكاو 'عام ١٦٣٦ . وقد شعرت الشركة الانكليزية للهند الشرقية طويلا بضعفها حيال النهوض باسباب التجارة مع الصين . والراجح ان الشركة المذكورة حاولت في اواخر القرن استنظم تجارتها مع الصين ' اثر اشتداد الطلب على الشاي في انكلترا . ومنذ عام ١٦٩٩ ' اخذت الشركة تقوم برحلات منتظمة . ونالت عام ١٧٠٠ ترخيصاً لها بفتح وكالة لها في كنتون .

اما الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، التي تأسبت بفضل مساعي الوزير كولبير ، فقد حصلت على حق التجارة الفرنسية مع العجم والصين . الا ان اهتهامها انصرف بالاكثر ، الى الهند ، وتخلت عام ١٦٩٨ عن احتكارها المتاجرة مع الصين . وفي هذه السنة بالذات السناعي الباريسي الكبير جوردان الذي كان يعنى بصناعة البلور و شركة الصين ، وذلك نزولا عند مطلب المرسلين ومجثاً عن الاموال اللازمة للارساليات الدينيسة . وتألفت الشركة من تجار باريسيين واعضاء البرلمان ، وقامت الباخره أمفاريت بأولى رحلاتها ، الى المسين ، عام ١٦٩٨ / ١٥٠٠ ، وعادت حاملة شعنة من الحرير الحام والاقشة الحريرية عادت عليها بربح واقر مجيث وزعت على المساهمين حصصاً بلغت ٥٠ / من رأس المال . وانضمت الشركة الى شركة الحرى في سان مالو ، واستؤنفت الحركة التجارية مع مكاو واموي ، ولا سيا مع كنتون ؛ بالرغم من بعض التغييرات التي لحقت بالشركة في فرنسا . الا انه صدر منذ عام ١٧١٣ قرار بمنع استيراد الحرير الصيني منعاً لمنافسته الحرير الفرنسي . ومنذ ذلك الحين ها الوهن الى الشركة الفرنسة .

وقامت الباخرة سانت انطوان ، عام ١٧٠٨ بالالتفاف حول اميركا، وجاءت والقت مرساها في مدينة كونسبسيون في الشيلي ، ومنها بلغت الصين عن طريق بحار الجنوب . وحذا حذوها سفن كثرة بعدها .

سجل تاريخ الحركة مع الصين 'منذ سنة ١٧٠٠ والموع حقبة جديدة اذ لقي كل الاجانب استقبالا حاراً في كنتون ' مع انهم أقصروا على التعامل مع الصينيين بواسطة فريق معين من مجارم ' عرفوا باسم Hunistes بينا وجدت اوروبا نفسها في ازمة من التاخر والقهقرى التي طبعت الحركة الاقتصادية ' في القرن السابع عشر . فالحكومات الاوروبية انهمكت ' بل غرقت في هذه الحروب الواسعة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر ولا يتهالك المراقب المنصف نفسه من الشعور بالتفت والتأخر .

اما من البر ، فيا زال الروس في تقدم مطرد . فقد فصل بينهم وبين الصين في آسيا حاجز من القبائل البدوية الرحل ، الا انهم اصطدموا بالصينيين ، في الشهال الشرقي من منفوليا . فبعد ان قام الروس باستكشافاتهم الجغرافية في حوض نهر العامور على يد رحسالتهم بويار كوف فقد حرصوا من جهتهم ان يبقوا تحت اشرافهم المباشر ، المشارف المطلة على الصين من الشهال . فقي سنة ١٦٥٥ ، تمكنوا بواسطة ٢٠٠ مدفع صبها لهم الآباء اليسوعيون، مقابل ثلاثة للروس ، ففي سنة ١٦٨٥ ، تمكنوا بواسطة ٢٠٠ مدفع صبها لهم الآباء اليسوعيون، مقابل ثلاثة للروس ، من الاستيلاء على نرشنسك ، واعملوا فيها النار وانسحبوا منها . وعاد الروس الى احتلال هذه المدينة ، عام ١٦٨٦ . وقام الصينيون يحاصرونها من جديد ، بالرغم مما قام بين الجانبين من رغبة صادقة في اقامة اتفاق سلام دائم . فصينيو الشهال كانوا بحاجة الفراء ، وفي مقدور سيبريا ان توفر لهم من الفراء الجميل ، ما لا قبل لمنشوريا ومنفوليا بتقديمه . كذلك رغب سيبيريا ان توفر لهم من الفراء الجميل ، ما لا قبل لمنشوريا ومنفوليا بتقديمه . كذلك رغب

الروس ، من جهتهم ان يوطدوا صندوق دولتهم ، بالمعادن الثمينة ، عن طريق بيدع الفراء . وكان الروس يجهلون اللغة المنشوية والصينية كا كان الصينيون ، يجهلون ، هم ايضا ، الروسية . فاستخدموا ترجمانا فيا بينهم ، راهبا يسوعينا في بكين يدعى الاب خربيلون وفي ٦ ايلول ١٦٨٩ ، وقع الطرفان معاهدة نرشنسك ، تخلى الروس بموجبها ، عن حوض نهر العامور الصينيين ، لقاء اطلاق الحرية لرعاياهم بالاتجار في الصين ، بعد تزويدهم بما يازم من الترخيص القانوني . وهكذا امكن الروس ان يبعثوا كل سنة بقافلة الى بكين . فكانت هذه المعاهدة اول معاهدة تعقدها الصين مع دولة اوروبية .

كل هذا النشاط التجاري لم يتناول ، نسبيا ، سوى مقادير طفيفة من البضائع والسلع اذا ما قارناه بالنشاط العارم الذي سجلته التجارة العالمية في القرن العشرين . فقد انقطع لهذا النشاط عدد من الاوروبيين قضوا معظم حياتهم العاملة ، في الشرق الاقصى ، بينا عرف فريت آخر بينهم ان يحقق ارباحاً وافرة . عادت هذه التجارة ، على اوروبا ، بنتائج لا تنكر ، اذ ضمنت لها وصول الفضة سبائك او نقداً مسكوكا ، جاءها بالاخص ، من الصين وجزر السونيد ، وساعد على تأزم الوضع الاقتصادي ، خلال وساعد على تأزم الوضع الاقتصادي ، خلال الطائقة التي نشبت اظافرها في القرن السابع عشر .

اما في آسيا فالنتائج التي ادت اليها هـــذه الحركة التجارية ، كانت اكبر أثراً وابعد شأناً واهمية . فقد لعب الاوروبيون ، في هذا الجال ، دور المثير المحرض ، فعاد ذلك بالنفع على الصينيين واليابانيين وسكان الفيليبين والماليو . وكان من نتائج هذه الحركة ، كما يرجــح العارفون ، إدخال الاقتصاد النقدي الى اليابان بعد عام ١٥٦٩ ، وما ادى اليه توفر النقد من نتائج اجتاعية هامة . الا ان نمو التجارة البحرية وظهور بورجوازية قوامها التجار دليلان مهان على ما كان لهذه الحركة من شأو بعيد . ومع ذلك فلم تحدث اي تغيير ملموس في حضارات الشرق الاقصى ولا في الحضارة الاوروبية ولم تخل الازمات الاقتصادية التي وقعت في العــالم الجديد وما ادت اليه من تقلبات ، من تأثير ظاهر على الوضع الاقتصادي في الشرق الاقصى ، ومن الشرق الاقصى على اوروبا . وهكذا اصبح بالامكان التحدث عن اقتصاد عالمي ، تناول العالم بأسره .

٣ - التبشير بالمسيحية في اليابان والصين

في كانون الأول ١٥٤٧ ، قديم بحسارة برتفاليون ، لدى التبشير في اليابان وفلسفة الأنسوار عودتهم من اليابان ، الى فرنسوا كسافيه ، قرصاناً يابانيسباً من جنود المرتزقة ، اسمه ياجيرو ، أخذته الندامة على ما اقترفت يداه من معاص وموبقات . فلم يعرف كهنة بلاده ان يؤمنوا له راحة الضمير وهدوء البال ، عندما طلب اليهم مساعدت . فلمقنه فرنسوا كسافيه اصول الدين المسيحي ، وعمده في مدينة غوا ، في العاشر من ايار ١٥٤٨ ،

يوم عيد العنصرة بالذات ، وسمّاه بالمهاد : بولس ده سانتافيه ، فكان فاجيرو بذالك اول ياباني يعتنق المسيحية ، ولأول مرة أيضاً وجد فرنسوا كسافيه أمامه انساناً شرقياً يناقشه ويجادله مبدياً فرقاً عظيماً بين وضعه ووضع هؤلاء الهنود الذين يتقبلون بلا مبالاة ما يلقي اليهم من تعاليم جديدة ، وبين حقد المورو في الفيليين واعراض البراهمان في الهند ، مجيث 'خيل الى فرنسوا كسافيه امكان قيام مسيحية في اليابان يمكن ان تقوم بأمر الرسالة ونشر الايمان بين الآسيويسين في الشرق الاقصى . وقد ذكر فاجيرو بطيبة قلب ، وبدون أنانيسة مبطنة ، بعض التفاصيل السطحية جعلت فرنسوا كسافيه يتصور ان ديانة اليابان قريبة من المسيحية وان امر اعتناقهم التعاليم المسيحية بهل التحقيق ، قريب المعنى .

والحقيقة انه قام بين المسيحية والديانات اليابانية كالشنتوية والبوذية هـوة سحيقة بعد ان تثلت الأولى ، الكون ، مليئا بالوف الأرواح Kami تسرح في الشمس والقمر وتوجد مع الريح والماصفة وفي الينابيع والمجاري الماثية والصخور والأشجار وغيرها. وبين هؤلاء الأرواح المرات أرواح الأبطال والجدود الأوكل لنبلاء البلاد واشرافهم . وهذه الأرواح طغمات تقوم على مراتب مسلسة ، زعيمتها اماتيراسو إلهة الشمس. فقد ارسلت نينسي نوميكوتو، جد جيمو _ قنو" ، اول امبراطور قام في اليابان . وتتم للناس السيطرة على هذه الأرواح بالصلاة والطهارة والتطهيرات الطقسية وتنفيذ الوصايا الخس : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تجزع للامراض التي لا دواء لها 'يستطب به ، والصفح عن اهانات الغر .

أما البوذية فكانت على مذهب مهيانا الذي جاء من الصين في القرن السادس ، الذي امتص الشنتوية وغثلها ، إذ قال وعلم ان الأرواح هي مظاهر وأشكال آنية لبوذا . وتفرع عن البوذية عدد لا يحصى من الملل والنحل ، اهمها آنذاك ، من الوجهة الاجتاعية والسياسية ، مسنهب إيكو وهوكيه فقانوا ان الخلاص إيكو وهوكيه فقانوا ان الخلاص الما يحصل باستحقاقات بوذا . ويكفي المؤمن في مذهب إيكو ان يبتهل ولو مرة واحدة لبوذا ميدا ، بايان حار وصادق برحمته وحنانه ، لينال بنعمته وشفاعته : « الأرض النقية » حيث ينعم بالفيض الاشراقي . فالخلاص هو ايضاً من نصيب افقر الناس واوضعهم حالاً إذ يكفي لسه حركة بسيطة من حركات القلب . وقد قالت هده الطائفة اساساً بالمساواة ولم يكن لها من طقوس ومراسم ، ولا كهنة عندها ، اتباعها من طبقات الشعب الدنيا ولا سيا من الفلاحيين والمزارعين . اما طائفة هوكيه المحلك ، فالخلاص لدى اتباعها انما يحصل بتلاوة صلاة معينة ، تلاوة متصلة بخضوع « تكريم لوتس الحقيقة الكاملة » التي على يدها تتم الحقائق المعلنة في كتاب تلاوة متصلة بخسوع « وكريم لوتس الحقيقة الكاملة » التي على يدها تتم الحقائق المعلنة في كتاب الشاكا . وترى في المريد او التابع ، نفس بوذا الكونية الخالدة . وكان بامكان هدنا المذهب ، الناعيد ، ببساطته ، الوحدة بين اليابانين ، وان يؤمن القوة للدولة . ولذا فطائفة الهوكيه التي كان ها قاتباع كثيرون ، بين الشعب ، كانت بمثابة ديانة اليابان القومية .

اما طائفة زن فقم فرضت على اصحابها ان يستجمعوا تفكيرهم ، حول تعاليم بوذا ، في

محل منفرد أو دير يعرف باسم Zendo أو « بيت التأمل ، وهناك يحاول أن يتجرد من أهوائه ورغائبه بالزهد والتعشق والطاعة . فهو يضرع ويتأمل بحيث يذوب أو يفرق في « الفراغ » في المطلق ، غير أن مذاهب المنطق ومصطلحاته وصيغه تفقدنا قسماً من الحقيقة فتحجرها وتقتلها . فالمهم في الدرجة الأولى الحصول على الحقيقة ، الحية ، النابضة ، والوصول الى المطلق في هذه السكائنات الخاصة ، وفي الحال ، عن طريق الاكتناه . وإذ ذاك يتم الفيض فجأة ، وبلمحة طرف يرى المؤمن العالم كما كان يبدو لبوذا سكياموني نفسه ، وبذلك ، يرى نفسه متحرراً : فها من شيء يزعجه أو يقلق خاطره . وهذا المؤمن لا يمكن أن ينعم بهذا الفيض إلا بالمجاهدة الشخصية . أما قدرة المعلم زن فتقوم في أن يقسط له أله koan ، بحيث يتجاوز بعيداً ، كل مظاهر الفكر الى أن يتبين للمؤمن ما في الألفاظ والكلمات من خواء وفراغ أجوف .

اما الكوان فهو صيغة او وضع فوق تناول المنطق وادراك العقل . فعندما يسأل المـؤمن : و من هو بوذا ، يجيبه الربان زن : و الخيزران ينبت قريباً من الهضبة ، فالقصد الذي يرمي اليه المعلم او الربان هو ان يصطـدم المؤمن بالكوان ، الى ان يتبين ، فجأة ، خواء صيـغ الفكر والمهراغ القائم وراء تواكيب وصيغ النحو والمنطق الصوري ، وكل اشكال الفكر ، الى ان يتألق النور سوله ، وتبدو له الحقيقة . بعد هذا الفيض يعود المؤمن الى الحياة في العالم ، بـين الناس ، ويختلط بحياة المجتمع ليبلغ النضج باتيانه اعمال البر والتقى وبمحاولته ، في كل دقيقة ، ان يرى ماجريات الحياة المادية كما يراها بوذا نفسه . وهكذا يختلف صاحب مذهب زن عن الهنسدي ما الموغي من حيث ان هذا الأخير ينقطع للوحدة والتنسك لينوب في المطلق عن طريق الخطاف الدوغي من حيث ان القائل بمذهب الدزن يحاول ، هدو الآخر ، الذوبان في المطلق ، انمـا عن طريق المعربيق المعيش في المعالم ، وعــن طريق السلوك الشخصي بواسطة الرؤية الشخصية . وهكذا فطائلة الزن هي المدرسة الفردية التي انتشرت بالأكثر ، بين النبلاء والعسكريين .

وبدون ان يغطن لشيء من هذه الأمور التي تلابس التركيب الديني في اليابان وللصموبات التي تنتظره من جراء هذا الرضع ، حط فرنسوا كسافيه رحاله في ١٥٦٩ ، في الطرف الجنوبي من جزيرة كيوسيو اليابانية في خليج كاغوشيا ، وبصحبته فاجيرو والآباء الاسبانيون كوسم ده توريس وخوان فرنانديس. وراح فاجيرو يخبر الحاكم شيازو تاكاهيا، في مدينة كوكوبو ، مالفرنسوا كسافيه من شأن رفيع ومنزلة عالية لدى البرتفاليين ، فراح هذا يأمل ان يفد التجار البرتفاليون الى مرفئه ، عن طريق كسافيه وتحريضه لهم . واصدر في الحال امراً اجاز فيه لرعاياه احتناق الديانة المسيحية . واخذ فرنسوا كسافيه بالتبشير ، الا انه لم يلبث ان تبين انسه راح ضمحية الرمم والخيال : فالكهنة يؤمنون بعالم لا بداية له ولا نهاية ، وانهم لا يقولون بخلود النفس فسحية الرمم والخيال : فالكهنة يؤمنون بعالم لا بداية له ولا نهاية ، وانهم ما وانهم مسن اصحاب الشخصية ، كا اتفسح له ان اليابانيين ألفوا عملية الاجهاض وقتل الاطفال ، وانهم مسن اصحاب اللواط وعبادة الاصنام . فلم يكن لهم اية فكرة عن خلق العالم ، ولا أي رأي او فكرة عن الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع

ان يكسب للمسيحية التي جاء لنشرها ، سوى مائة شخص لا غير .

وفي هذه الفضون ، وصلت سفينة برتفالية الى هيرادو الواقعة الى الشهال الغربي من كيوسيو. وإذ راح شيازو تاكاهيا يتبرم متأفئفاً ، صارحه المرسل الكاثوليكي ان لا سلطة له على التجار البرتفاليين واذ ذاك ، اصدر هذا الحاكم اوامره لرعاياه بالامتناع عن التنصر تحت طائلة عقوبة الموت ، كا حظر على المرسلين الاقتراب من مقاطعته او العمل فيها .

وفي تشرين الأول ١٥٥٠ جرى استقبال حار لفرنسوا كسافيه في هيرادو من قبل الحاكم ماتسودا تاكانوبو ، أملا منه ان يكون ذلك حافزاً على تمتين علاقاته مع التجار البرتغاليين . وسمح لكسافيه بالتبشير بالمسيحية في إيالته ومن هناك اتجه فرنسوا كسافيه لمقابلة الامبراطور في كانون الثاني ١٥٥١ أملا منه بالحصول على ترخيص له بالتبشير بالمسيحية أيممل بموجبه في كل اليابان ويصلح التبشير دونما معارضة في أي مكان . وكم كانت دهشته عظيمة اذ انضح له ان الامبراطور لم يكن سوى مسكين يلهو ببيع المراتب والالقاب الشرفية . ثم حاول ان يقابس للشوغون ، فراح الحرس يرد بميداً هذا الزائر الطارىء الذي يرتدى الاسمال والثياب الرثة .

واذ ذاك قرر فرنسوا كسافيه انتهاج نهج جديد في رسالته التبشيرية. ان فتره وعدم مبالاته بالاهانات التي كان البعض يلحقها به حملت الناس على الاستهانة به والسخر منه وتلقيمه القابس. أ 'هَـزأة فيمرضوا عن الديانة التي يبشر بها ويدعو الناس اليها . فارتدى آنئذ زياً جميلًا من الحرير الثمين وراح يهاجم الهازئين به ويرد على تخرصاتهم بالسوء عليه . واذ اتضم لسه ان اقدوى اسماد اليابان وامرائها هو النبيل الحاكم أوشي بوشيتاكا ؛ حاكم سوفو؛قصده في قصره في بإماغوشي؛ على ساسل البعر الداخلي . وقد رجا هذا الزعم أن تسهل له هذه الزيارة اسباب الحصول ، من البرتغاليين ٤ على الذهب والاسلحة النارية ٬ ولذا رُّخص للرسلين البسوعيين بالوعظ والتبشير. والتنصير ، وقد وجد فرنسوا كسافيه في بإماغوشي بلاطأ ذواقة عالي الثقافة يحب اهله الجسدل والنقاش ٤ فاترتفع منزلته بينهم ويزداد نفوذا واستراما لدى القوم لماومه الوافرة ولمعرفته عسلم الفلك . وبغضل إنقافه لمنطق ارسطاطاليس واخذه بالقياس يوقع البلبلة في قلوب محاوريســـه وبجادليه ويجملهم يتخبطون في بنعر من المتناقضات والسفاسف والترهات ، م يمرفوا لهم منه الديانات اليابانية وبين الديانة المسيحية . فقد ترجم كلمة و الله و بكلمة : داي نيشي : و مبدأ الكائنات ، . كذلك تبين له أن كلسة و الأمسل الأول للاشياء ، لا تعنى الله الخالق او المبسدع ، بل اتما تمني عندم و الهيولي ، التي تفسع تحت الحسسواس ، واذ ذاك انطلق من فلسفة طبيمية صرفة ، وبرهن عن طريق المقل ، عسدن وجود الله الشخصي وعن خلقه العالم ؛ وعن خلود النفس البشرية .

فاحتج عليه اليايانيون قائلين : ﴿ أَذَا كَانَ أَفُّ خَيرًا هُو ﴾ فها معنى هذا الشر الذي تراه أمامنا

على الارض ؟ فاجابهم قائلاً : ان الله كلي الكهال . فكل ما ليس في الله لا يمكن له ان يسكون كاملاً ، والا اختلط بالله وامتزج به . فالشر في العالم ، على عكس ذلك ، دليل على وجسود الله الحالق الشخصي . وهكذا نرى فرنسوا كسافيه اخسة يبشر بوحدانية الله على نور المقل بقطع النظر عن الوحي الالهي . ولما كان مشبعاً بتعاليم الرسول يوحنا فقسد ظن ان المسيحية ستتبع من ذاتها فيا بعد . وراح يعمد يابانيين لم يكلهم قط عن يسوع المسيع ، وبعد العهاد كان يطلمهم على لب المقيدة المسيحية ، ورسالة السيد المسيح ، وسراي التجسد والفداء والصلب . وهذا المنهج هو الذي عوال عليه المرسلون اليسوعيون فيا بعد ، في كل انحساء الشرق الاقصى ، كا في اوروبا ، واروبا ، وادوبا ، واداد ما اقتضى الأمر . أفلا تصبح الديانة الطبيعية مبدأ الايان بالله بجرداً عن الوحي ، اصل فلسفة الانوار .

ومها يكن ، فقد توصل فرنسوا كسافيه ، منسذ تموز ١٥٥١ للحصول على ارتدادات بسين حكام المقاطعات وبين النبلاء وبين سيدات البلاط والمفكرين . وبالرغم من جهرده ، فقسد حصل بمض التشويش من جراء تأخره في البحث عن الخصائص المميزة للديانة المسيحية باستماله بهض المصطلحات اليابانية ومن بمض التشابيه الخارجية . فقد خلسط تلاميذه بسين و الرياضة الروحية ، التي علمها اغناطيوس ده لويولا وبين تأملات زن ، وانزلوا صلاة الوردية منزلة الزوزو التي تتألف من ١٠٨ حبات اشبه ما تكون بالسبحة ، كذلك خلطوا بين هذه التماويذ الحريرية التي تحتوي في داخلها صلاة بوذية وبين حجابات فرنسوا كسافيسه التي كانت تضم آية من آيات المزامير . فقد رأى فريق لا يستهان به من المرتدين ان المسيحية انما هي شكل جديد او صيفة بديدة من صيغ البوذية .

وآخر حجة عند كهنة اليابان على عدم صحة المسيحية هي عدم اعتناق الصينيين لها وعدم اخذهم بتعاليمها. ولذا توجه فرنسوا كسافيه نحو الصين ، في تشرين الاول ١٥٥١ ، بعد ان اقام تقريباً ٣٠ شهراً في اليابان . فقد كان من إشماع ايمانة وشدة تأثيره على روح المسيحيين، في اليابان ان بعد مائة سنة تمر على وفاته ، كان الشهداء اليابانيون ، يضرعون ، وهم يقاسون عسدابات الاضطهاد الوانا ، ويتوسلون وهم في حضرجة الموت ، الى القديس فرنسوا كسافيه .

خلف في رئاسة العمل الرسولي ، الاب كوسم ده توريس ، من ١٥٥١ ــ ١٥٧٠ واستمر التبشير بالانجيل في هذه المرافىء التي كانت تؤمها السفن البرتغالية . وقد يكون الآباء اليسوعيون هم الذين نظموا ، عن طريق السلطات البرتغالية ، الرسلة السنوية الى اليابان ، بعد ان طلبوا بمن بيدهم الحل والربط الا ترسو السفن البرتغالية الا في هذه المرافىء الواقعة ضمن المقاطعات التي اجاز حكامها التبشير فيها بالمسيحية ، امثال : اوتومو بوشما في فوتاي ، واوشي يوشيتاكا في سوفو ، ومتسورا تاكانوبو في هيرادو . فالرغبة في التغلب على منافسه ، حملت حاكم مقاطمية اومورا سوميتادا ، على اعتناق المسيحية ، عام ١٥٥٣ ، كا حملت خصمه ومزاحمه حاكم أريما على الحذو حذوه . كذلك نجم اليسوهيون في تحقيق ارتدادات في مقاطعات غمدوكيناي وفي

مناطيق اوزاكا وساكاي وكيوتو وفي جزيرة هوندو. وقسم حاول حكام الحصون في هذه المقاطعات ، ان ينتزعوا مع ما لديهم ، من رهبان اديار البوذية ، بعد ان اختلفوا معهم ، ما كان لهم من نفوذ وسلطة على الفلاحين والجذود .

كانت النتائج التي توصلوا اليها، سريمة العطب، واهية في هذه الفوضى التي تتسكم فيها اليابان، يكفي ان يحدث انكسار احد الخلكام الاصدقاء ، حتى يخسر هذا الحاكم كل مقاطمته، ومن ناحية اخرى ، كان اليسوعيون بأشد الحاجة النقود. فقد اضطروا ، منذ عام ١٥٥٥ ان يستودعوا بعض التجار البرتفالين، مبلغاً من المال لشراء كمية من الحرير من الصين، يبيعونها لحسابهم في اليابان ويدفعوا اليسوعيين الارباح بعد قطع عمسولة عليها ، التي تمكنهم مسسن العيش والاستمرار في رسالتهم . وقد تأمنت هذه التجارة عندما راح حاكم مقاطعة اومورا سوميتادا المسيحي يجيز لليسوعيين التبشير بالانجيل في ناغازاكي عام ١٥٧١ ، حيث كانت تصل الباخرة البرتفالية . وقد راح الاب فالفناني ينظم تجارة اليسوعيين عام ١٥٧٨ بعقده اتفاقاً مع تجرار مكاو ، وقد غض البابا النظر عن هده المعاملة اذ لم يكن القصد منه....ا الكسب والارباح لجرد الربح ، بل في سبيل العمل المسيحي ، وهكذا استطاع الآباء اليسوعيون ان يعتمدوا على ربسح يعتقونه ، يتراوح بين ٥٠٠ هده و الا وقا في السنة .

اما الاب بلتارار غاغو الذي كان على رأس الارسالية في هير ادو فوناي ؛ فقد قامت بسنه وبين رهبان زن مجادلات دينية ، فسنحت له الفرصة بذلك أن يضم كتاباً بمنوان : و موجز ضالات ألكفار في اليابان ، ولاول مرة جرى التمييز بين الشنترية وبدّ . ين البوذية ٤ كما الضحت حقيقة هذه الايحاءات الزعومة لشاكا اميدا . فقد جاء على لسان شاكا في الكتاب المنسوب، المه وعنوانه : ﴿ لُوطِسِ الْحَقِيقةِ النَّكَامَلَةِ ﴾ : على كل انسان أن يسمى لحلاصه بعمل الخير وبالتضرع الى هوتوكيسم الخُنْلُص لَمُلا تَذَهب نفسه اللجحم ، بر رل على عَكُس ذَلسَبُكُ ، تذهب إلى النمم ا وهنسيا توصل الاب غاغر الى الاكتشاف الأساسي في ان شاكا نفسه في كتاب، بم الملاكور اعلاه ، يعارف في آخسسر الكتاب بان تعليمه ليس سوى الالمام الي ايس سوى اكدرب . ة مضحكة ؟ معدّة لهذه الجاهير الجاهلة المتوحشة . وحقيقة تعاليمه التي ننفق تمام.. يا مع تعاليم البوذية ، هي أنه ليس هنالك مخلص ، ولا روح ولا نميم ولا جمعيم ، فالغردوس أو النامم هـــسو طمأنينة النفس في الانسان بعد ان يكون تغلب على ما فيه من رغائب واهواء ، والالم والمذة والشمور بحيث يصل الى الوضع الذي بلغه وذا ، اما الجمع فيتعثل في وضع هذا الانسان الذي استسام بكليته لجيم اهوائه في هذا العالم . فليس مدن اله شخصي متسام ، قالمبدأ الاساسي او Ilonibum) لا يحيى ولا يميش) ولا يوت) ولا يمتزج عملياً بالمناصر الاربعة التي من تمازسها وتخالطها ؟ والتراكيب الختلفة التي تؤول اليها ؟ تطلع من هذه الكاثمات، ليس من نفس فردية أو شخصية ، أذ أن كل شيء يتركب من هذه المناصر الاربعة ينتهي دوماً إلى الانحلال . والحال ، ان هذه الافتكار الاساسية في عقيدة شاكا رسدها غاغو لدى كل المذاهب البودية كما انه كشف عن جميع الاتجاهات المتضادة تماماً ، بين البوذية والمسيحية . ولكن هذا Hoben ، الأيوجد في صلب اساس هذه الفكرة المألوفة في فلسفة الانوار ، التي تقول بان الديانات الموحى بها هي من نسيج هؤلاء الكهنة السحرة وخزعبلاتهم ؟

واذ ذاك عمد الآب غاغو الى اعداد تعليم مسيحي جديد ، عدل فيه عن النهج الدي سار عليه فرنسوا كسافيه باستماله المصطلحات اليابانية التي خلقت هذا الالتباس بين البوذية والعقائد المسيحية، واستممل بدلاً منها مصطلحات لاتينية وبرتفالية مع مرادفاتها باليابانية ، منها مثلا : Substantia Hitotsuna , Persona - Mitsuna - Spiritu Suneta , Filio , Pater , Deos ... وشدد بعكس فرنسوا كسافيه على بعض الافكار الاساسية في المسيحية ، كالخطيئة الاصلية ، وشدد بعكس فرنسوا كسافيه على بعض الافكار الاساسية في المسيح - التجسد - الفداء . الا انه رأى ، هو ايضاً ان يؤجل ، الى ما بعد ، الكلام عن يسوع المصلوب ، لان فكرة الله المصلوب لا يمكن ان تتقبلها الذهنية اليابانية . قسل كل شي، يجب تنصيرهم بالعاد والتدرج ، فيا بعد ، في عرض اصول تعالم المسيحية .

واستطاع الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٧٠ ، ان ينصروا حكام بعض الولايات اذ ان تنصيرهم كان يجر معه تنصير سكان كل الولاية او المقاطعة ، امثال اومورا سوميتادا ، وآريسا يوشيسادا ، واوتومو يوشيهيجه . ووثقوا صداقاتهم مع اودا نوبوناغا عن طريق احد جنوده المدعو هيدا يوشي . وقد لقي اودا نوباناغا معارضة كبار اديار البوذيين وعدائهم . ففتح امام اليسوعيين الولايات التي تم له فتحها ، ونصف ولاية هونود . واخذت المسيحية تتسع وتنشر مع التنظيم الجديد الذي تم الدولة اليابانية المناهضة لنفوذ الاديار البوذية السي كانت في عداد الامارات السيادية .

وقد قرر الاب فالغنياني خلال الفترات الثلاث التي قضاها في البلاد:الاولى من ١٥٩٨-١٥٩٢ والثانية من ١٥٩٨-١٥٩٠ انشاء اكليروس وطني ياباني . و في هذا السبيل انشأ كلية في فوناي ومدارس اكليريكية في كل من آريا وأتروشي ودير ابتداء في أوزوكي كا اكثر من انشاء مراكز ثابتة للرساليات ضم الواحد من ٢ - ٧ رهبان يسوعين عساعدهم الد doshukus وهم من الاخوة العلمانيين . ويشد من ازرهم علمانيون عرفوا بحسن تقواهم يدهون وهركذا اصبحت اليابان ونيابة ايالة رسولية ، فقد بلغ عدد المسيحين فيها في مطلع القرن السادس عشر نحواً من ١٥٠ الفاء توزعوا على ٢٠٠ كنيسة أو رعوية انتشرت في كل مكان حتى في الجنوب من جزيرة يازو . اما المجتمعات المسيحية الكبرى فقد قامت في جزيرة كيو _ سيو ، و في هوندور في مقاطعة غو - كيناي . والدليل على ما بلغت اليه كثافة المسيحيين في البلاد الوفادة التي جاءت روما والتي تألفت من حكام اومودا وآريا ، وهما اميران المسيحيين في البلاد الوفادة التي جاءت روما والتي تألفت من حكام اومودا وآريا ، وهما اميران أثيا مع شقيق حاكم بونغو وحاكم أريا ، فاستقبلهما البابا ، عام ١٥٨٥ ، والدمسوع تنهمر بغزارة من عيون الكرادلة لشدة الفرح .

جاء تنظيم الدولة الجديد في اليابان يحد من عمل الرسالة وانتشار المسيحية بمسد ان كان الوضع من قبل ، مسعفا لها . فقد دهش هيدا يوشي من نفوذ اليسوعيين ومالهم من شان بين الحكام المسيحيين ، وخشي من أن يدفس اليسوعيون ، البرتغاليبيزعلى الاعتداء ، كما أنه أوجس خيفة من ان يقضي تشدد الحكام المسيعيّين الى القضاء على الكهنة البوذيين وهــــدم الهياكل والاديار التي لهنم في البلاد . لم يكن هيدا يوشي ليرضى او ليسلم بزوال البوذية الـتي عرفت ان توطَّسَن الشنتوية ، في اليابان وترسخ اصول عبادة الجدود ، فكانت بذلك مدرسة ولاء وثقمة في نظر رؤساء الدولة ، كما وضعت ما لها من نفوذ في خدمته بعد أن أصبح سيد البلاد وقائدها. فقد ساعد تنظيم الدولة اليابانية على ايقاظ الروح الوطنية في البلاد كا بعث الحيوية والنشاط في طائغة الهوكيه المعروفة بعدائها ومقتها للاجانب . وقد رغب هيدايوشي ان يقيم علاقات تجارية مع الاسبان في الفيليين وان يقوي من شأن هندو ، مركز اقامتــــه ، وقاعدة قوته على حساب كيو - سيو . ومن جهة اخرى كان التجار البرتغاليون يبتاعون اليابانيين بالألوف ويشحنونهم عبيداً ارقاء الى مكاو والفيلبين او الى الصين . فاصدر عـــام ١٥٨٧ ، امراً بطرد اليسوعيين من البلاد . الا انه خشية بالحاق الضرر بالحركة التجارية لم يعمد الى تطبيق هـــــذا القرار . واستقبل الآباء الفرنسيسكان الاسبان على امل اقامة علاقات تجارية مع مانيلا . وعلى اثر اشاعات نشرت الرعب والهلع في البلاد ، امر بتاريخ ه شباط ١٥٩٧ ، بصلب ستة آباء فرنسيسكان و ٢٠ يابانياً مسيحياً ، فتكانوا اول شهداء بإبانيين يجودون بدمهم وحياتهم في سبيل المسيحية وتوطيدها .

وتابع بايازو سياسة سلفه هيدايوشي . ففي سنة ١٦٠٢ اصدر امراً اكد فيه للاجانب حرية الاتجار في اليابان ، وحظر التبشير بالمسيحية ، الا انه غض النظر عن نشاط المرسلين . وقسما حاول ان ينشط حركة الملاحة البحرية في هذه الممتلكات العائدة للدولة اليابانية ، وان يجمل من أوراغا المنافسة الكبرى لناغازاكي . وتمكن اليابانيون من الحصول على سفن اوروبية الصنع واعطى الشوغون عام ١٦٠٤ ، نحواً من ٢٩ ترخيصاً بالملاحة ، كا انه صدر في عهد خالفه ، ١٩٧ ترخيصاً جديداً اعطيت كلها عام ١٩٠٧ . وهكذا اخذت سفن يابانية ، بحارتها يابانيون، تصل الى الهند وتبلغ اميركا . ويبدو ان اليابان اخذت تتجسه للعمل في المدى التجاري بين المحطات .

الا ان حاكم مانيلالم يستجب لطلب يايازو بناء سفن جديدة لليابان كا انسه حظر على السفن اليابانية دخول الفيليبين مع انه كان سبق ليازو ورحب بمقدم بعثة من الآباء الفرنسيسكان والدومنيكيين والاوغوستينين الاسبان. ومن جهة اخرى ، فقد توصلت الشركة الهولنديسة للهند الشرقية الى عقد معاهدة تجارية ، مع يايازو ، عام ١٦٠٩ ، وانشاء وكالة تجارية لها في مرفأ هيرادو. وحذا الانكليز حذوم ، عام ١٦١١ وتم في ما بعسد انشاء مراكز هولندية وانكليزية ، في ساكلي وكيوتو وغيرهما. وقد كانتخفت بالتالي حاجته للبرتغاليين والاسبان. وفي سنة ١٦٦١ تلقى الشوغون من موريس ده تاسو، حاكم هولندا العام، رسالة تحذره من الكهنة

الكاثوليك باعتبارهم جواسيس وعبونا على اليابان يتآمرون لبعث النمرد في البلاد ، تسهيلاً لعملية فتح يقوم بها الاسبان والبرتغاليون. وقد راح الموقف الصلف الذي وقفه وفد اسباني يزيد الشك ويثير الطنون في قلب الشوغون ويؤيد هذه الدعوة. وقد جاء عام ١٦٦٣ ، اكتشاف بعض وثائق لدى احد الحكام توضح للاجانب خطة لمهاجمة اليابان ، مع قائمية بالحكام والنبلاء المشتركين بهذه المؤامرة التي جاءت ثالثة الاثاني .

ومن جهة اخرى راح بايازو يمالى، الكونفوشية ، كا صورتها تعالم تشو – هي ، كما راح فوجيوارا سيكوا (١٥٦١ – ١٦٢٠) ، يعلن على رؤوس الاشهاد ان المبادى، التي تنادي بها الكونفوشية هي نفسها المبادى، التي تقول بها الشنتوية بمثلة بصدق الولاء والاخلاص التسام للامبراطور ، واهلن موقفه المعادي للبوذية . وهكذا نرى ان يايازو لم يعد بحاجة الى المسيحية طالما يستطيع ان يعتمد كلياً على ديانة آسيوية ، يابانية تناهض الاديار البوذية للحد من نفوذهسا القوي في البلاد ، واعلن بتأثير من هياشي رازن (١٥٧٣ – ١٦٥٧) ، ان التشوهية دين الدولة الرسمي ، وحرم كل دين آخر في البلاد مما منع قيام اي جدل ديني فيها . فكل مخالفة تعرض صاحبها للسجن والمنفى او الموت .

وهذا النجاح تصيبه التشوهية في اليابان كان من اليسر والسهولة ما يحتج به دليلا على ان اليابانيين لم يفقهوا شيئاً من الروح العلمية في الغرب. وبالنظر لما هم عليه من روح عملية ، فقيد كرهوا الحوج في فلسفة منا وراء الطبيعة والمنطق الصوري والرياضيات ، دون ان ينظروا أو يهتموا ، من قريب او بعيد ، إلى الاسباب والعوامل التي امنت لاوروبا ، التفوق التقني .

واخيراً راح بايازو يربط اليابان بهذه النظم السيادية والاقطاعية التى سخرهما لتأمين فوزه ونجاحه . ولم يكن ليهمه كثيراً ان يرى ، الى جانب الحركة التجارية ، طبقات اجتاعية قوامها التجار والبرجوازيون .

وهذا ما يفسر لنا الحظوة التي لقيها هياشي رازن والثقة العظيمة التي تمتع بها عند يابازو وخلفائه الاقربدين ، حتى اصبح وزيراً للداخلية ، عام ١٩٢٩ . فهو واضع القانون الذي صدر بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٤ والذي يوجب على الشمب الامتثال للامر الصادر اليه بالتخلي عن المسيحية . فمن خالف ولم يمثل صدرت الاوامر ، في الحال ، بابعاده . فلا عجب ان يحدث هذا القرار ثورة بين المسيحين تولى قيادتها هيدا يوري احد احفاد أشيكاعا . فقد كان وعد السوعين بالحمائهم حرية التبشير بالمسيحية . فلا عجب ان يدعمه اليسوعيون بكل ما لهم من نفوذ عريض بالمسلم مرية التبشير بالمسيحية . فلا عجب ان يدعمه اليسوعيون بكل ما لهم من نفوذ عريض في البسلاد . الا ان هيدا يوري غلب على امره في معركة سيكيفانارا . وفي سنة ١٦٦٦ ، راح الشوغون هيدا قيادا يؤكد من جديد منع الديانة المسيحية . وامر باعدام كل من يحاول ادخال مرسلسين ومبشرين الى اليابان . وراحت الحكومة اليابانية تضحي شيئاً فشيئاً بالحركة التجارية في السياد . وتكرر في السنوات ١٦٣٠ – ١٦٤٠ صدور الاوامر التي توصى باقفال اليابان في السيان في السياد .

وجيه الاجانب ، كما حظر على اليابانيين السفر للخارج او ارسال اية سفينة يابانية للخارج ، كما حظر على الآباء اليسوعيين دخول اليابان . ومنعت المسيحية تهاماً في البلاد . وقد وضعت جوائز مغرية لكل من يخبر عن وجود المسيحيين او يسدل على رهبان دخاوا البلاد خلسة ، كما فرضت المسؤولية المشتركة بحيث تناولت خس اسر مماً . فعلى اولاد البرتغاليين والاسبان ان يفادروا الملاد ، للحال ، كذلك حظر ادخال كتب اجنسة الى البلاد .

ليس بغريب قط ان تقيم هذه الاوامر والقوانين ، المسيحيين وتقعدهم وتحملهم على الثورة والعصيان . ولعل اهم الحركات الانتفاضية التي قاموا بها كانت ثورة اما كوسا ، على ١٦٣٧ . وقد انكسر المسيحيون بفضل مدافع الهولنديين بادارة هولنديين ، وتقديراً لهذه الخدمات ، صدر ، عام ١٦٣٩ ، امر اعتبر البرتفاليين والاسبان اعداء البلاد ، ولذا امر بطرد تجارهم واخراجهم من اليابان . وبقي الهولنديون وحدهم في البلاد بعد ان كسروا الانكليز وتفلبوا عليهم عام ١٦٢٣ ، الا انهم تم حصرهم وأقصروا على خليج ناغازاكي ، على جزيرة دشيا الاصطناعية . وراح الشوغون ، منذ ذلك الحين ، يحدد هو بنفسه ، سعر الحرير الذي يستورده الهولنديون ، انها ترك السلع والبضائع الاخرى حرة . صحيح ان الهولنديين استمروا في تجارتهم ، انها نقص حجم هذه التجارة كثيراً .

استطاعت الجماعات المسيحية ان تعيش متخفية بفضل مسبحة الوردية كما استطاع بعض الادباء وبعض الفضوليين من اليابانيين ان يستوردوا ، عن طريق ناغازاكي تهريب كتب علمية واجهزة علمية ، من اوروبا . وظهر عام ١٦٥٠ كتاب و الفلك عند برابرة الجنوب ، الذي نشر نظريات كوبرنيكوس حول مركز الشمس . وهكذا استطاع العلم في اوروبا ان يحيى حياة مستخفية في اليابان الى ان رفع الشوغون يوشيموينه ، عام ١٧٢٠ ، الحظر عن الكتب الاجنبية وامر باعداد تقديم فلكي جديد على اساس العلم في الغرب .

نشر المسيحية في الصين والاوضاع التي احاطت بها

لم تلبث الرسالات الدينية ان وعت ، ببطء كلي ، الاوضاع القائمة في الصين والتي يجب ان يحسب لها حساباً ، في كل عمل رسولي ترغب القيام به . فوضع القائمون عليها خطة

عمل تكفل لهم التغلغل داخل البلاد وبين الاوساط الشعبية .

تؤلف الصين عالمًا مغلقاً على نفسه . وقد استقر في اذهان الصينيين انهم الشعب الوحيد في العالم الذي تمت له اسباب الحضارة والتمدين، وان سواهم من شعوب الارض يتسكم في دياجير البرية والظلمة المقلية . والخرائط التي وضعها الصينيون تجمل من الصين قطب العالم ونقطة المدائرة ، وتحتل منها تسعة اعشارها ، يحف بها نثار من الجزر التي يقطنها البرابرة ولا يجهوز الدخول الى حرمها الا للسفراء يقدمون ولاء البلاد التي يمثلونها وخضوعها برفعهم الهدايا السنية للامبراطور ، يحف بهم عدد من التجار وبعض الخاصة الذين أخذوا بها للصين من شهرة بعيدة

في الحكمة والاخلاق، فجاؤوها الناساً للفضائل البشرية وليعيشوا على طريقة الصينيين : رعايا مخلصين للأمبراطور . دفها من دير للراهبات يتقيد مثلهم بقواعد التحصن ، (الأب الفارو) .

باشر المرسلون محاولاتهم الاولى عام ١٥٥٢ ، ولم يلبث الكهنة والرهبان المرسلسون ان وبجدوا الصينيين جد حذرين من الأجانب المتشامخين ، الجشمين ، القساة ، وانهم يختلفون عنهم اختلاف كبيراً ، اذ ان اي اوروبي ، مها بدا وديماً ، هادئاً ، مسالماً ، يبدو ، اذا ما قيس بالصيني الوديم ، المتأني ، الصبور ، حاد الطبع ، ملتهباً يستشيط غيظاً . فالاوروبي يحمل أنفا بارزاً ، وعينين غارقتين في محجرها ، لونها غريب مستهجن ، كث اللحية ؛ بينا الصيني أقطس الأنف ، عيناه سوداوان تبرزان على مستوى رأسه ، أمرد الوجه ، خفيف شعر الرأس .

ايقن فرنسوا كسافيه ان ارتداد الصين للمسيحية من شأنه ان يجر وراءه ارتداد اليابان ، بعد ان ظهر له بوضوح ، ان حضارة اليابانيين تمود جذورها الاولى الى الصين ، هذه الصين التي وصل اليها في طريق عودته من اليابان ، في آب ١٥٥٢ ، ونزل الى البر على مقربة من مكاو ، وحاول عبثاً الدخول الى الصين ، وفاضت روحه من الضنى والوهن في ليسل ٢ - ٣ كانون الأول ١٥٥٢ .

ومنذ ١٥٥٤ ، تمكن بعض الكهنة والرهبان من الاقامة في مكاو بعدد قليل جداً ، اذ ان هماه المدينة لم تكن سوى أسكلة ترسو فيها السفن في طريقها الى اليابان ، فقد توصل أولهم الاب غريفوريوس غونزاليس ان يكسب للدين المسيحي ، بين ١٥٥٨ – ١٥٦٨، نحوامن ٥٠٠٠ صيني ، في مكاو ، بالطرق التقليدية المتبعة التي قامت على تعليم موجز يتبعه العياد بالجملسة ، واخذ الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٦٠، يضمتون جهودهم، في هذا المجال ، للجهود المبذولة ، بعد ان باءت بالفشل كل المحاولات التي قاموا بها للنزول في كنتون .

وقام الاسبان من جهتهم ببعض المحاولات ، منطلقين مسن الفيليبين ، واستطاع الراهب الفرنسيسكاني ده دادا الدخول الى فو – كيان عام ١٥٧٤ ، وكان اول من تعلم الصينية ، وجمع جموعة من ١٠٠٠ كتاب صيني بينها و صف لامبراطورية الصين ، والآثار الصينية وعسلم الازمنة الصينية وكتب في الحكم والادارة ، واخرى في المالية والقوائين والطب وعلم الفلك الصيني . وقد إستل من هذه الكتب مجموعة منتخبات نشرها في اوروبا احد رفاقه هو الأب غونائيس ده مندوزا ، ١٥٨٥ .

غير انه لم يفم بين الاسبان والبرتفاليين اي تماون بهذا المجال اذ راح كل فريسق ينظر الى الكرازة والتبشير بالإنجيل من زاوية عمل قومي وطني يعود أثره على بلاده . وابى البرتفاليون ان يسمحوا بالعمل الرسولي ، في مكاو الا للمرسلين الذين يقيمون الولاء لملك البرتفال ويجرون ، قبل قدومهم ، بلشبونة والبرتفال وغوا . وحظر الاسبان ، من جهتهم الدخول الى ممتلكاتهم والقيام بالتبشير لأي كاهن او راهب غير اسباني الجنسية . ور"خص الكرسي الرسولي عسام

١٥٧٥ للبرتفاليين ان يجعلوا من مكاو كرسياً أسقفياً باعتبار صاحب هذا الكرمي ، مطسران الصين واليابان والأراضي والجزر المجاورة ، بما يجعل الفيلييين من ضمنها. وقسد رد الاسبان على ذلك يجعل مانيلا كرسي مطرانية عام ١٥٧٨ ، انما 'وضعت مانيلا سهواً على بعد ٢٠٠٠ فرسخ من ساحل الصين بما جعل الاسبان مستثنين من الصين .

الديانة الصينية المسينية كما تبلورت في عهدم ، اذ كانت عبارة عن مراسم دينية الديانة الصينية كما تبلورت في عهدم ، اذ كانت عبارة عن مراسم دينية حوت الطقوس الرراعية القديمة ، والطاوية والبوذية طلع بها الكونفوشيون المثقفون ، فقد ظهرت في القرن السادس عشر على صيغة من الطاوية او البوذية المنقاة بينا بقي جهرة الشعب الصينسي على أعراف الكهنة الطقسية الشخصية ، تحت اسم بوديساتفا (بو ساه) او 'عرفت بالالقساب او المسميسات الطاوية ، امثال و السهاوي المحترم » او و الحالد » . فقد نظروا الى آلهتهم باعتبارهم افراداً من البشر استحقوا بعد حيوات متنالية ان يرقوا الى مصاف الآلهة ، فالاعتقاد بتناسخ الأرواح عقيدة عامة عنده ، مع انها كانت تتمارض منطقياً وعقلياً مع عبادة الجدود . وقد راحوا بشخص تماثيلهم يعهدون بوظائفهم الى ارواح العادليين بمن حلوا علهم ليرفعوا لهم وراحوا بشخص تماثيلهم يعهدون بوظائفهم الى ارواح العادليين بمن حلوا علهم ليرفعوا لهم تقارير مفصلة في المواعيد المعينة . ففي طليعة هذه الآلهة :السهاء او تسان - تي ورب الاعالي الذي يحمي الاخيار ويقاضي الاشرار ويشرف على نظام الكون ، يسمع كل شيء ويقضي في كل شيء . و يميد المهاء الطواهر الطبيعية : و كونت الربح » و و درب المطر » ، و و سيد الرعد » : و و سيد الرعد » :

ويأتي بمد ذلك سلسلة من آلهة الحقول . فكل ولاية وكل قضاء له: «إله الجدران والفدران » الذي يبسط الاراضي ويسهر على من فيها من السكان ، ويوطد السلام ويجلب السعادة ، ويصدر أوامره لهذا المديد من الآلهة المحليين الموكلتين : بالشارع ، والجسر والحقل . لكل منهم معبده وهمكله او مصلاً ه .

وفي المنزل إله الأسرة وزوجه و الهة الباب، وكلاهما قائدان قديمــــــان من أسرة تانغ : إلهة المينبوع وإلهة المرحاض ، وغير ذلك ، واخيراً ارواح الجدود التي تسكن في مشكاة توضع على مصطبة في الدار ، ولكل إله من هذه الآلهة العديدين طقوسه المرسومة وعبادته التكريميـــة الخاصة . وكل سكان المنزل يشتركون مع ارواح الجدود في عشاء سر"ي .

اما الأعياد الدينية فمديدة هي : منها عيد المصابيح لراحة أرواح الموتى ، وعيد تنظيف المدافن ، وعيد الفمر ، وغير ذلك ، وعيد رأس السنة ، اذكان إله المنزل يصمد الى الساء ليؤدي حساباً لشانغ ــ تي عما وقع في الاسرة ، خلال السنة ، من وقائع وحوادث . ولمل أهم هــذه

الطقوسعبادة الجدود، والبر البنوي مدى الحياة ، وهي طقوس كثيراً ما اختلطت بعبادة اميتابا ومراسم الطقوس البوذية .

كل هذه المراسم والطقوس وما اليها من حفلات كان المثقفون يفسرونها وفقاً لشروح تشو – هي او تفسيراته المتشبعة بالمادية ، فيردن فيها وجها من وجوه الظواهر الطبيعية . واذ كانوا يمتقدون ان الدين مفيد الشعب ، مسل له ، فقد أضفوا عليها شكل الديانة القديمة ، وفمندما تعصف الارباح ، وينهمر المطر ويقصف الرعد ويتلألا الجو بالبرق فهذا دليل على ان الآلهة تتكلم لفتها وتعبر عن ارادتها ، وتعرب عن مشيئتها . وعندما يسكن الربح وينقطع المطر ويسكت الرغد وينقطع البرق ، فتلك اعمال من فعل الأبالسة ، . اما المثقفون فقد رأوا و في الآبالسة صورة ليين . ولذا حرص الموظفون mandarins الحرص كله على احترام المظاهر الخارجية لهذا الشعور الديني في الجماهير الشعبية ، مع انهم لم يكونوا ليؤمنوا بها .

بالنظر لعدم تفهمهم اسرار هذه الطقوس وجهلهم لعقلية هؤلاء الموظفين اسبادت اليسوعيتين فقد جاءت نتائج الجهود التي بذلها المرسلون ضعيفة جداً ومخيبة

للأمل ، بحيث ان اليأس غر نفوس الجيع وامتلأت نفوسهم ، في أواخر القرن ، غما وقنوطاً . وقد راح الناس في مكاو يتندرون ويتفاكهون قائلين : انه لأيسر ان تبيض بشرة الزنجي من جعل الصيني مسيحياً . إلا انه في سنة ١٥٧٧ ، عندما مر الاب فالنياني ، الاب الزائر لهذه النيابة الرسولية ، بمدينة مكاو ، رسم لعمل الرسالة الدينية في الصين وفي اليابان ، خطة جديدة تضمنت حلا مبدئيا لهذه المشكلة التي بدت لهم أعقد من ذنب الضب ، وهو مبدأ التنسيب او التوافق مع اعراف وعادات سكان البلاد ، اذا لم تتمارض مع مبادىء الديانة المسيحيدة وعقائدها الجذرية ، كما انه اوصى اليسوعيين بتعلم اللغة الصينية وان و يتصينوا ، قدر المستطاع .

وقد رأى معظم رجال الاكليروس واليسوعيون بينهم في هذه الاقتراحـــات مغامرة جنونية . الا ان فريقاً صغيراً مــن الآباء اليسوعيين ادرك جيــــداً ما في اقتراحات الاب فالنياني من صواب ومنطق ووضموا خطة التغلغل بين الصينيين ، قابلها فريق كبير منهم بالهزء والسخرية .

وراح راهب بسوعي ايطالي الجنسية هو الأب روجيبري الذي كان دكتورا في القانون ، وعمل قاضياً من قبل ، يدلل ، منذ عام ١٥٨٠ ، على اهمية التقيد بالآداب والاعراف الصينية كثول الراهب أمام الناس أعزل من السلاح ، والركوع اثناء انعقاد جلسات المحاكمية ، والانحناء عدة مرات معفرا الجباء بالتراب ، واستعال تعابسير تتم عن الخضوع والخشوع والتواضع عند التكلم عن الذات ، والإكثار من عبارات المدبح والثناء عند مخاطبة الآخرين . ولم يلبث ان ألح الموظفون على الاب روجيبري حضور المناقشات وجلسات المحاكم ، لانه ، في ،

نظرهم يتفوّه بالحكمة ويقضي بالعدل؛ ويفتي مجكمة ونصفة ؛ بعبارة هيئة ؛ وديمة ؛ ناعمة ؛ ولا يحمل سلاحًا ؛ وهي نقطة حساسة في نظر هؤلاء المثقفين الذين يزدرون كل ما هو عسكري.

كذلك أدرك الاب روجييري ، ضرورة التخلي عن الزي الاوروبي واخذ يرتدي لباس الرهبان البوذيين . ومنذ ذلك الحين اخذ الصينيون يلقبونه بر « سونغ » وهسو اللقب الذي اعتادوا اطلاقه على الرهبان الاجانب . وهكذا اصبح البابا عندهم « السونغ الأعملي » الذي يوفد الوفود .

وانشأ روجيبري في مكاو وكالة خاصة سماها ؛ و منزل القديس مرتينوس ، حيث عاش في عزلة على طريقة الرهبان الصينيين مع قلاميذه الموعظين . ثم قدة م إلتاساً الى نائب الملك جاء فيه : درسالتنا هي ان نخدم الله وان نقتبس العاوم المختلفة . وقد علمنا ونحن في بلادنا ان الشعب الصيني شعب طيب ، حليم ، هادىء ، منطقي له طقوس واعراف ممتازة ، ولديه الكثير من المعارف والعلوم ، وعنده الوافر مدن كتب الحكمة والاخلاق الحيدة ومكارمها ، ولهذه الأسباب ، وحبا في الانتفاع من كل هذا ، والاقتباس من ينابيع الحكة ، والتعرف الى المجاد هذه الامبراطورية ، والعيش بين هذا الشعب الممتاز ، غادرنا بلادنا وجئنا كم قاصدين » . وقد رسخص نائب الملك وسمح لهذا البربري بالدخول الى الصين ، بعد الذي ابداه من حسن الاستعداد للقبس من الحضارة الصينية . وفي العاشر من ايلول ١٥٨٣ ، أسس الاب روجيبري اول مقر للكنيسة الكاثوليكية في عاصمة كوانغ — تونغ ، في تشاو — كنغ — فو .

ولم يلبث ان التحق به الاب رتشي . فعرفا ان يثيرا فضول الموظفين بما بدا من ثقافتها العالمية وعلمها الكثير ، وبما تم لهما من تقنية الغرب ومهارة في صنع الساعات الكبيرة والساعات الكبيرة والساعات الكبيرة والساعات الكبيرة والساعات الكبيرة والساعات الدوية والكتب والخرائط الجغرافية التي تظهر عظمة الكون واتساع الاراضي التي لا تدخل في الصين ، وصنع الاقفال والزجاج ، ورسم الصور مع المحافظة على المدى والالوان . ولما كان رتشي خريج الكلية الرومانية ، فقد ركب لحدمة الموظفين ساعات شمسية (مزاول) ، ورسم خرائط مسطحة للكرة الارضية ، واخذ يعلمهم مبادىء الحساب والهندسة ، مما ادخل ورسم خرائط مسطحة للكرة الارضية ، واخذ يعلمهم مبادىء الحساب والهندسة ، مما ادخل البهجة الى نفوسهم . وقد كانوا يجهلون تماما كل ما يمت بصلة الى المنطق والتحليل الذي لم تكن لفتهم لتستجيب له لانها لغة ايحائية ، تصويرية ، رمزية . ووضع لهم سلسلة مسن المقدمات جملتهم يطيرون فرحا .

ودار بين الآباء والموظفين ؛ محادثات استمرت من اربسع الى خمس ساعسات راحوا ينتنموها فرصة للبحث في امور الدين ؛ وقد عرض روجيبري طريقته في المرض والبسط التي استوحاها من القديس بولس والقديس يوحنا ؛ في كتاب له سماه : « شرح التمليم المسيحي » ؛ وضمه سنة ١٥٨٥ فكان اول عرض للديانة المسيحية باللغة الصينية ، جرى طبعه على مطبعة حجرية ، ووزع منه اكثر من مليون نسخة في جميع انحاء البلاد والولايات . كان عليه ان يشبت لهؤلاء المفكرين الماديين ان قواعد الدين لا تخالف المقل ولا المنطق . وكانوا كلهم على

اطلاع تام بهذه الاكتناهية ، التي قال بها وعلم وانغ - يانغ - زومِنغ ، كما أَلِفوا ان يجدوا في ضَمَائرُهُم قواعد السلوكية الانسانية . ومن هنا انطلق الاب روجيدي ، وراح يدلل على ان الإنسان يجد في ذاته الخير « Le Sen » هذا الخير لا يمكن ان يكون مصدره الطمعة المشرية . فالكمال هو لله وحده . وهذا الخير لا يمكن ان يأتي الا من كائن هو كل الخير ، هو ملء الحير بالذات . فالحكمال الأتم همدو الله . فكمال الخير ، اي هذا القصد الدائم المستمر ان نعمل دوماً كل ما هو خير للآخرين ، لا يمكن ان يكون الا من إله شخصي ، له فرديتــه ، يشعر من ذاته ، ويريد الخير بذاته ، فالطبيمة انما قامت لخدمة الانسان ، كا هو واضح ، والدلسل على ذلك ? -- الدليل هو في تسلط الانسان على الحيوان ، وقدرته على تحويل الممادن وفلزاتها التي يستخرجها من اعماق الارض وداخل الجبال . ولكن : هل يمكن للطبيعة أن تفسر نفسهــــا بنفسها او تعلل نفسها بنفسها ? . فاذا ما جئنا نبحث عسن سبب حادث او ظاهرة طبيعية وتوصَّلنا إلى معرفته؛ كان علينا أن نبحث عن أصل هذا السبب؛ وهكذا دواليك. ولذا كان لا بد لنا من است نصل الى علة الملل ، الى علة تكفي نفسها وتشرح كل العلل . فهذه العلة الاخيرة ، هذه العلة الأولى أمَّا هي الله ، مبدع الكرننات ، وخالق الطبيعة ، وما عليه هذه الطبيعة من نظام ، وهذا النظام يحتم أن تكون هذه العلمة ، العلم الأسمى . أذن ، فالله يشعر من ذاتـــــه وبريد من ذاته ﴾ له فرديته وشخصيته . فالانسان يحتاج للمدل وهذه الحاجة لا يمكن ان تجد شبيها في هذا العالم ولذا وجب ان يتم العدل في الحياة الاخرى ، في الحياة الباقية الخالدة ليتم شهم الانسان . اذن ، الانسان نفس خالدة .

وبعد ان اثبت روجييري وجود الله الغردي ، الشخصي ، بالمقل واثبت خلقه المكون ، وخلود النفس ، راح يدلل بان الله غرز في قلب الانسان وركز فيه ، كل ما هو لازم وضروري ليحيى حياة سعيدة . غير ان الانسان اختار ، بملء ارادته الشر والاثم . ولذا ارسل الله يوما له مشارعاً هو موسى ليميد الانسان الى حالته الاولى . ثم عاد الناس ووقعوا في الاثم من جديد . ولذا قال الله في ذاته : لنضربن ضربة قوية . ولذا ارسل لخلاص البشر ابنسه الوحيد يسوع المسيع الذي تجسد في احشاء العلمراء مريم ، تماماً كما تملاً الشمس بنورها بلسدورة دون ان تمس بشيء سلامة هذه البلورة .

واول صيني اعتنق المسيحية جرى تنصيره في ٣ حزيران ١٥٨٥ و همسل اسم بولس. وقد بلغ عدد الارتدادات في آخر السنة ، ٣٠ مسيحياً . وفي نيسان ١٥٨٦ ارتفع عددهم الى ، ٤ ، اما روجييري فقد ضمف جسمه ووهنت قواه واضطر ، عام ١٥٨٨ الى ان يتخلى عسن الممل ويسافر .

 الحرجة ما ساعده على ان يكتشف ، ما بين ١٥٨٨ -- ١٥٩٠ ، مقومات الديانة الصينية ، الا وهي الوثنية والبوذية والطاوية ، والكونفوشية ، على مذهب تشو -- سي ، ولاول مرة قوصل اوروبي الى تفهم صحيح للديانه الصينية . كذاك ادرك الاب رتشي ان الوسيلة الوحيدة للدخول الى قلب الطبقة الاجتماعية العليا في الصين ، في هذه البلاد الشاسمة ، لا تقوم بان يبدو المرء كامناً فقيراً مزدرى ، بل ان يظهر بمظهر العالم المثقف . ولذا راح يتفقه بالأدب الصينسي . فترجم الى اللاتينية الكتب الاربعة المنسوبة الى كونفوشيوس وهي :

ال Y-King او كتاب التحولات وال Chou King اي الكتاب المقدس وال Chi King اي كتاب الشعر وال Li-King اي كتاب الطقوس

فغي الوقت الذي كان فيه الموظفون الصينيون لا يتعمقون الا في كتاب واحد من هده الكتب الاربعة ، راح رتشي يدرسها جميعاً ويفوص في معانيها ومبائيها بدقة وإنعام نظر ، فبعد ان تسلح بما تم له من اصول الفيلولوجيا الاوروبية ، وبد فيها معاني جديدة لم يصل اليها وتفاسير تشو حمي ، اعتمد هو رأساً النصوص ذاتها ، فوجد فيها معاني جديدة لم يصل اليها تشو حمي ، منها شخصانية الله وخلود النفس ومجد الطوباويين . وبهذا الاسلوب التحليلي الاوروبي ، فتح امام الصينيين امكانية الوصول الى معرفة واعية ، مدركة ، حية ، صحيحة ، لكتبهم المقدسة بنصها الحرفي ، مصدراً الرقي والتقدم . واذ ذاك قرر ان يتبنى اسلوب المثقفين وان يسير طريقتهم في الحياة ، منذ عام ١٩٥٤ ، بارتدائه القفطان الحريري الاحر المطرز بالحرير الازرق ، والاكمام الفضفاضة والزنار العريض الاحر موشي مخيط ازرق فاتح ، وان يسير دوما عمولاً على عفة ، بصحبته كاتب سر وخادمان او ثلاثة بقفاطينهم الطويلة . واذ ذاك نظر اليه الناس باجلال واحترام . في هذه البلاد لا يكسن المرء ان يشق طريقه فيها ، ولا ان يثري الا اذا عمل على احترام الآداب السلطانية .

وفي سنة ١٥٩٥ استطاع رتشي ان يستقر في نان ـ تشانغ في قلب الصين ، هذه المدينة التي تكثر فيها النوادي الادبية واكاديمية المثقفيين . ونظراً لمعرفته الدقيقة للآداب الصينية استقبله نائب الملك استقبالاً حاراً ومعه حاكم المدينة ووكيل الحاكم وغيرهما من القضاة وكبار الموظفين ولقيف كبير من الادباء ورجال الفكر . وقد لفت انتباهه ولحظ بسرعة ان التقنية الاوروبية تستأثر بانتباه المثقفين ، والأهمية التي تحتلها عندهم الفلسفة الادبية ، والاخلاقية والبحث في الفضائل والرذائل البشرية ، والطلم والحلم ، والشرف ، والصداقة والانشاء الجزل ولما كان الاب رتشي مطلميا كل الاطلاع على الادب اللاتيني ، فقد وضع كتاباً صغيراً حول الصداقة ضمنه ٧٦ حكمة او كلمة مأثورة إستمدها من شيشرون ، لقيت الرضى والاستحسان

لدى الصينيين بحيث ان نائب الحاكم امر بطبع الكتاب ونشره على الملاً. ومنذ ذلك الحسين الحدوا ينظرون الى الاب رتشي كأحد كبار حملة الثقافة في الصين كا اخذ المفكرون ورجال الادب يفدون عليه المتحدث معه وكثيراً ما مال الحسديث بهم الى الدين وثؤونه وشجونه فيستعمل رتشي طريقة الاب روجيبري . ولحظ ان نطق المدرسين الذي حذقه في الجامعة يوليه مقدرة راجعة على كل المثقفين الصينيين الذين يجهلون قاماً استعمال الدليل فيقنع عدداً كبيراً منهم فيعتنقون المسيحية .

كل هذا والآباء اليسوعيون في وضع دقيدى ينضرفون لرسالتهم بموجب ترخيص بسيط يبقون معه تحت رحمة نائب الحاكم أو نائب الملك . ولذا ترتب عليهم الآن الحصول على ترخيص رسمي لهم بالاقامة الدائمة ، ومثل هذا الترخيص لا يصدر الا عن الامبراطور نفسه . فكرل جهدهم في القرن السابع عشر سيصرف في هذا السبيل .

تمكن الاب رتشي من ان يقيم له علاقسات وثقى مع بعض اليسوعيون في البلاط الامبراطوري الخصيان في البلاط الامسبراطوري . وبالرغم من معارضة دائرة الطقوس وموقفها المعادي فقد رخص له الامبراطور عام ١٦٠١ ، الاقامة في بكين على حساب خزانة الدولة .

استثنيل الإب رتشي استقبالًا حسناً ، وهو إلطالب المتاز في الجامعية إستبعر بدرس مؤلفات الاب كلافيوس الرياضية ، وأحد كبار العلماء الذين ساهموا في اصلح التقويم الغريغوري؟ والهندسة وفن بناء المزاول او الساعات الشمسية والكوسموغرافيا وفن تحديد خطوط الطول والعرض • وقد دخل في يقين الصينيين وروعهم أن حياة الانسان تقدرهــــا مواقع النجوم والأبراج الفلكية . ولمل مهمة الحكومة الاولى تهيئة النقويم السنوي . فسأ من صيني قط يقوم بأي عمل ما في حياته الا ويستطلُّع طلع برجــــه المرسوم في مواقع النجوم ، ليرى ما أذا كان فأله ملامًا أم لا . وألحال ؛ فالدائرتان اللتبان تمنيان بهذا الأمر وهيبا الدائرة الصينية والدائرة الاسلامية كانتا على اسوإ وضم وحال . فالصينيون أعماوا الرياضيات واعتقدوا ان الارش مسطحة هي ومربعة وان حجم الشمس لا يزيد عن فتحة الدلو ، كما انهم اقتنعوا بأن الشمس عندما تفيب انما تختفي عن انظارنا وراء احد الجبال وان خسوف القمر انما سببه الخوف من الشمس . ولما تم المغول فتح الصين ونشروا سلطانهم من الصين الى مشارق اوزوبا ﴾ في القرن الثالث عشر ﴾ ادخسل مسلمو ايران الى الصين ﴾ الرياضيسات وعلم الفلك . ثم استحال اسلام الاتراك المفول، عام ١٣٦٠ ، إلى اسلام عرف بمصبيت، وتشدده الديني. وقامت أسرة منغ التي احتفظت فيا حافظت عليه بدائرة الرصد التي قام على ادارتها علماء مسلمون للفلك الذين لم يلبثوا ان صاروا الى مثل هذا الجمتمع الصيني الذي تحدرت فيه العاوم الرياضية والهندسة الى مستوى ادنى بكتير بما المحدرت اليه الهندسة الاقليدية من الانحطاط والتأخر. فقد فقدوا معلوماتهم النظرية ولم يبق لديهم سوى بعض جداول وازياج نسوا طريقة استعالها وتطبيقها على الحركات الفلكية. فليس من عجب والحالة هذه ، ان تتسرب الهفوات والمفالط الى هذه التقاويم ، ففقدت ما هي مجاجة اليه من دقة وضبط واحكام ، شأن كل وضع تتراخى فيه حلقات التقنية ، اذا ما أهمل العلم وتنوسيت مبادؤه واصوله .

وقد عن الوزراء المسيحيين امثال بول سن ... كيونغ .. كي وليون لي .. تشيه .. تساو العمسل على اصلاح الجداول الفلكية ، الصينية الاسلامية ، بالاستمانة بعلم الفلك الاوروبي . وقام الأب رتشى بترجمة هندسة اقليدس المسطحة الى الصينية ، خلال عام ١٦٠٨ ، بما اثلج صدر الصينيين لشدة فرحهم بهذا العمل .

واجتقد الاوروبيون انفسهم ان رقعة الصين تنبسط بين خطي العرض ١٨ أَلَيْ ٥ الى الشال من خط الاستواء ،وبين الدرجتين ١٢٨ ـ ١٧٧ من خط الطول الى الشرق من الجزر الخالدات ، أي انهم جعلوا ساحلها الشرقي في قلب الحيط الحادىء بجوار ارخبيل جزر مارشال . وراح الاب رتبي محدد خط العرض بالاستناد الى علو النجمة القطبية فوق الافق ، كما حدد خطوط الطولى على اساس الفرق في الساعة (الوقت) بين رؤية الخسوف في الصين ورؤيته في اوروبا ، وبذلك وضع العين بين درجتي العرض ١٩ - ٤٢ وبين درجتي الطول ١١٢ - ١٣١ الى الشرق من الجزر الخالدات .

كثيراً ما جاء ماركو بولو في رحلته المشهورة الى العسين على ذكر كاتاي وذكر مدينة كبالو الجيلة . فهل عنى يا ترى بذلك : العين وعاصمتها بكين ؟ وراح الاب رتشي يسدقق في الرحلة التي قام بها الاب اليسوعي بنتو ده غويس الذي تنكسر بزي تاجر ارمني وسافر بصحبة قافلة من التجار مرت تباعاً بكابول وقرقاند وقشفر وكوغاند الى ان بلغت سو – تشيو ، عام ما ١٩٠٧ . فقد استكشف طريق خط المرض ، ٤ مم ولاحظ بانه اينا مر ، سمم المسلين يدعون العمين كاناي ويسمون بكين كمبالو .

وراح الآب رئشي يصو"ب من وسائل تحويل هذه الارقام والجداول . وعندما كان يحالفه الحظ فيتمنع صينيا بوجود الله ، كانت اصعب مرحلة او نقطة لديه الانتقال به من الاعتقاد بالله عن طريق العقل ، الى المسيحية . فيروح اذ ذاك يستعرض عمل الديانة مطبقاً على الحياة فيصف عمل الكنائس والعبادة والطقوس الدينية وحياة العمانيين التقوية ، وحياة الرهبان والراهبات الخشوعية والعناية التي يحيطون بها المرضى والبائسين ، في المستشفيات والملاجىء ودور العجزة ، وغير ذلك من أمور التعليم والتلقين والمساعدة الاجتاعية ، ومن عرض هذه الاهمال كان يرقفع بتعليلها الى الفكرة او الفاية التي تكسن وراءها : فيسوع المسيح الذي قبل المسلم والذي قام ناهضاً من القبر وعاش حياً بينهم ، لا يمكن رؤيته المسلم والذي قام ناهضاً من القبر وعاش حياً بينهم ، لا يمكن رؤيته

بالحس والنظر ، اثما هو حاضر يستحق كل تكريم وعبادة يجب ان نحيى به ومعسم بالمناولة . . وبالسير على خطاه في كل شيء .

والمشكلة الثانية هي التكيف مع الديانة والطقوس الصينية . فانطلاقاً من تعالم الجمع التريدنق ، جرى الاعتقاد أن كل المجتمعات البشرية وكل الحضارات التي ظهرت عبر التاريخ ، قامت في الاساس ، على امور واشياء خيسرة مشتركة مطابقة التمالم المسيحيسة في بعض مظاهرها . فالآداب الصينية هي من الآداب الانسانية في الصمي ، فالمشكلة هي ان نجد في هذه الآداب الانسانية الصينية وبين الكتساب الاتباعيين الصينيين ، وفي هذه الجهود المبرورة الق بدلها بعض الصينيين لتحقيق 'مثل الانسانية السُفضلي ، ما جاء مطابقاً او مؤتلفاً مع الديانة المسيحية . ولم يكن الاب رتشي ليجهل او ليغفل عن مساوى، الصينيين وعوراتهم الذميمة ، كعبادتهم للاصنام ، وخرافاتهم السخيفة ، وعدم تحسسهم بأية شفقة أو رحمة نحسب الفقراء والمرضى البائسين حتى بين اعضاء الاسرة الواحدة . وكم بدا على الآباء والامهات الصينسيين أنهم يلقوت بأولادهم الصغار وهم مرضى ؟ بين الاقذار والاوساخ ؛ وكثرة السرقات وتفشى ﴿ الغش بين الصينين ، وفظاظة الجاهير الصينية ، وانتشار عادة اللواط بينهم . فقد رأى في هذه العورات والمثالب بعض نتائج الخطيئة الاصلية ، واستقر في يقين الاب رئشي ان الصينيسن تلقوا من خلفاء آدم المباشرين الوحي القائل بوجود كائن اعلى ، وبانهم حافظوا منذ اقسدم المصور ، على فكرة الله الخالق المبدع ، إلى ان فسدوا ووقع بينهم الضلال كفيرهم من الشعوب وامم الارض ، وتاهوا في طقوس وعبادات ومراسم خرافيسة السطورية ، بينا اصول الديانة الصينية هي نفس اصول الديانة المسيحية . ويكفي ان يتوصل الصينيون للكشف عما هـ و مطابق في المسيحية للفكرة او المقيدة الاولى التي قال بها جدودهم الاولون والفضــــل الذي يجعل لهم هذه القيمة المثلى في نظرهم .

الا ان الصينيين كابوا يعتقدون ان جدودهم الأول كانوا آلمة . فعبادة الآباء الاقدمين كا تبدت مظاهرها وتبلورت ، صنعية محضة لا تتفق مع صميم العقيدة المسيحية . وقد عثر الاب رتشي في الكتب التي خلفها كونفوشيوس اللا ادري ، قوله ان الطقوس ليست سوى مظهر خارجي من التسليم بمجموعة من الحكم والقواعد الساوكية ، التي تساعد المجتمع على السير بانفساط ونظام . فهسي مجرد ضوابط مدنية لا غير . وهذا هو بالطبع اعتقاد هسؤلاء المثقفين الماديين الذين كانوا معاصرين للاب رتشي . فقد نظر العامية الى كونفوشيوس نظرتهم الى فيلسوف، بينا رأى المثقفون ، في هذا الرجل وعبادته وتكريم : احياء لذكر رجل حكيم . ولذا خطر للاب رتشي انه يكن السباح للصينيين المسيحيين ممارسة تكريم الجدود ، وتكريم كونفوشيوس نفسه باعتبار هذه المبادة او هذا التكريم قاعدة ساوكية مع تمسكهم داخلياً بعقيدتهم المسيحية .

بعد هذا ، ماذا عن عبادة الآلهة ? رأى فيها المثقفون او المستنيرون قوى طبيعية ، كما رأوا في طقوس عبادتها ، حفلات مدنية .ويبدو ان رتشي قبل الاخذ بهذا التخريج الجمازي على شرط هذا ما 'يفهمم بالطقوس الصينية عندما يطرح على بساط البحث والنقاش امر التكييف او التطبيق .

وبفضل هذه القواعد والطقوس امكن لنا ان نعد في بكين عام ١٦٠٨ نحواً من ٣٠٠ مسيحي معظمهم من كبار الموظفين ورجال الفكر والثقافة . ورقسد الاب رتشي بالرب سنة ١٦٠٨ ولسان حاله يردد : «ها انا اترككم امام باب مفتوح على مصراعيه » . ومنذ ١٦١٦ ، كان اليسوعيين في الصين سبع وكالات او مراكز للرسالة ، منها واحدة في بكين ، وواحدة في نانكين ، وواحدة في كنتون ، تضم نانكين ، وواحدة في كنتون ، تضم مما ٢٢ راهباً يسوعياً يرعون ١٣٠٠٠٠ مسيحي صيني .

كان التقويم السنوي في الصين مصلحة رسمية تتعلق بالدولة . وقد خلف الاب لنغو باردو ، الاب رتشي ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين ، فجمع الاب باردو ، في اوروبا عدداً من مشاهير علماء زمانيه في الرياضيات وعلم الفلك ، امثال ترنتيوس ، صديق غاليليو ، والاب آدم شال الذي وصل بكين عام ١٩٣٠ . واساء علماء الفلك الصينيون والمسلمون حساب كسوف الشمس الذي وقسم في ٢١ حزيران ١٩٣٩ . واذ ذاك استصدر الوزير المسيحي بول سيو كوانغ - كي من الامبراطور ، مرسوماً بانشاء دائرة ثالثة لعلم الفلك ومكتباً اوروبياً لاصلاح التقويم ، ووضع تقويم يومي للظواهر الفلكية يمكن الركون الى صحته . واذ ذاك أتسم للآباء اليسوعيين ان يدخلوا الى الصين اجهزة علمية حديثة كالمجهر وان يعتمدوا الاختراعات السيق تمت على يد غاليليو . فبعد ان تخلوا عن علم الفلك كما وضعه رتشي اعتاداً على بطليموس ، فقيد تبنوا الطريقة التي توصل الى وضعها العالم الفلكي تيخو يراهيه ، والتي قالت بحركة الكواكب حول الشمس ، مع بقاء القول بدوران الشمس حول الارض . واستطاع الآباء ضبط التقويم كا نظموا بدقة جداول الربح ورفعوا نتائجهم هذه الى الامبراطور ، عام ١٩٣٥ ، واخيراً قام الاب شال ، يصب على الطريقة الاوروبية المدافع اللازمة لتحصين القلاع مجيث تستطيع الصمود في وجه المنشو .

وكان الآب شال قسد 'عين ' عام ١٦٤٠ ' رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين . وبوحي من القديس بولس بقي في بكين ' بعد سقوط المدينة بيد المنشو ' عام ١٦٤٤ ' واصبح صديقساً لاول امبراطور من اسرة تسنغ ' هو الامبراطور تشوان – تشي . فرقاه هذا وجعله موظفاً Mandurin من الطبقة الاولى ' كها رفسع من اصل اجداده ' وسمح له ان يرفع اليسه شخصياً التهاساته ومطالبه ' وعينه رئيساً لذائرة رصد الكواكب ' وهو مركز شغله الاوروبيون ' بلا

انقطاع ، حثى عام ١٨٢٥ . واخذ الاب شال يصب لاسرة سنغ المدافع التي كانت مجاجة اليها ، ووفق بين التقويم القمري المعمول به في الصين والتقويم الشمسي الغريفوري محققاً نجاحات باهرة في هذا الحقل . واعترافاً بهذه الخدمات صدر قرمان امبراطوري يعلن الديانة المسيحية ديانية وحسنة واعطى اليسوعيين ، عام ١٦٥٠ ، ترخيصاً ببناء اول كنيسة في بكين بعد ان بلغ عدد المسيحيين في الصين ، اذ ذاك ، ١٥٥ الف ، ثم ارتفع عددهم ، عام ١٦٦٧ ، اي في السنة التي توفى فيها الاب شال الى ٢٠٠٠٠٠٠٠ نسمة .

مات الامبراطور تشوان – تشي ، عـــام ١٦٦١ . وفي عهد وصاية خلفه الامبراطور كانغ – هي ، و"جه علماء الغلك المسلمون الى اليسوعيين تهمة الحيانة العظمى بما افقدهم الحظوة في عيسَن الملك . غير ان العلماء المسلمين وقعوا في اغلاط كثيرة عند وضعهم التقويم . واذ ذاك ، استدعى الامبراطور كانغ - هي ، عام ١٦٦٦ ، بعد ان اصبح راشداً ، الاب اليسوعي فريبيه الذي اصبح رئيساً عاماً للرسالة ، اثر وفاة الاب شال ، إلى الجلس الامبراطوري واعلن ان إدخاله ليستقيم التقويم . من نصدق واية جهة نشبل ؟ واذ ذاك امر الامبراطور كانغ ــ هي باستقدام مزولة شمسية وطلب من اليسوعيين ومن علماء الفلك المسلمين ان يعينوا له موضع الظل في المزولة ، عند الظهيرة . وفي الصباح قام الاب فريبييه بالعملية الحسابية بطرفة عسين ، بينا استعصى الامر على الجانب الآخر . وفي اليوم التالي ، وقع الظل تسهاماً في الموقع والمكان الذي حدده الآباء اليسوعيون . وهكذا رجحت بوضوح كفة اليسوعيين وبرزت دقة علماء الاوروبيين و كلف الاب فريبييه باصلاح التقويم ، ثم عين رئيساً لدائرة الرصد ، كا عين موظفا Mandarin من الدرجة السادسة٬ واستاذاً للامبراطور ولكبار الموظفين في البلاط، في الرياضيات وعلم الفلك. وعمل الآباء اليسوعيون كمهندسين وميكانيكيين وطويحية ، وتمكن المنشو بفضل المدافع التي صبها لهم الاب فريبييه من التغلب على الثائرين بزعامة وو _ سان _ كاي ، كا تمكنوا من الفوز بالروس عند نهر العامور . كذلك عمل اليسوعيون في حقل الديبلوماسية ، اذ قام الاب قريبييه بمفاوضة الهولنديين . وتمكن الاب غريلون من اعداد وتوقيع معاهدة نرتشنسك . توفي الاب فريبييه عام ١٦٨٨ . فقد كان سبق له عـــام ١٦٦٨ ، بعد ان تبين ضعف الدولة البرتغالية يسوعيون من الفرنسيين ، ألف وا بدورهم رسالة ثانية الى جوار رسالة اليسوعيين تحت حماية البرتفال.

وكان من اهمية الخدمات التي اداها الآباء اليسوعيون ، حمل الامبراطور على اصدار مرسوم امبراطوري، عام ١٦٩٢ ، رخص فيه لرعاياه بخدمة الله وعبادته في كنائس الاوروبيين ، وهذا المترخيص الرسمي بمارسة العبادة الكاثوليكية علانية ضمن الترخيص بالبشارة بالانجيل . وهكذا فالديانة المسيحية التي كان مسموحاً بها حتى آنذاك ، اصبحت معترفاً بها رسمياً الآن .

وفي سنة ١٦٩٣ ، جعل القصر الامبراطوري مقراً للآباء البسوعيسين . وفي سنة ١٧٠٣ ، اقاموا فيه كنيسة . وقام اليسوعيون الفرنسيون. ، بين ١٧٠٦ – ١٧١٦ ، يعدون للامبراطور خريطة للامبراطورية الصينية ، عمل على نشرها وتوزيعها الجيوغراف انفيل الذي نشر ، عسام ١٧٣٧ د أطلس الصين الجديد » .

طلع علينا القرن السادس عشر باكتشاف اميركا او العالم الجديد ، او العين في كا طلع القرن السابع عشر علينا باكتشاف الصين . ان معارضة تطوير الحركة النكوية في اوروبا الفكار الاوروبيين بالافكار والمعلومات السبق جموها عن الصين ماعدت كثيراً على توضيع الافكار الرئيسية التي كانت اساساً لمذهب الميكانيكيين ولفلسفة الانوار.

عرفت اوروبا الصين ، اول ما عرفتها ، من خلال كتاب وضعه ده غونزاليس ده مندوزا الذي تم نقله الى الفرنسية عسام ١٥٨٩ ، ثم عن طريق دراسة اضافية وضعها الاب تريغولت ، اساسها مذكرات الاب رتشي ونشرت عام ١٦٦٦ . ثم صدرت مذكرات ورسائل اخرى لبعض الآباء اليسوعيين ، وقد عرضت هذه المذلفات واعادت الى البحث مشكلات عويصة .

في مقدمة هذه المشكلات ، مشكلة صلاح الانسان والخطيشة الاصلية . فقد عمل الآباء البسوعيون على اساس الجانسة او التكييف بين اخلاقية كونفوشيوس والاخلاقية المسيحية . وهنا كان لا بد للمره من التساؤل ما اذا كان الصيني الذي يأتم بهذه الاخلاقية ، ويسير بهديها في سلوكه ، يتخلص ويذهب الى النميم وقد اجاب الاب لا موت له فايه ، في كتاب الموسوم : وفضيلة الوثنيين ، المنشور عام ١٦٤٢ ، بالايجاب ، مدللا على ذلك بان كل حكساء الامم الذين لم تصليم البشارة بالانجيل والمسيحية ، والذين اتبعوا الناموس الطبيمي ، وعرفوا بتقوام ، قد تم لهم الخلاص، وراح الاب ارفولد الكبير يبيز ما في هذا التعليم من خطل وخواء وبطلان ، وما يخفيه في ثناياه من سعوم ، اذ في مثل هذا القول تأكيد بان الطبيمة البشرية بقيت ، بعد الخطيشة الاصلية ، صالحة وقادرة على إنيان اعمال الخير والمسلاح ، ليستحق معها صاحبها ، جسزاء الاصلية كا يقضى على ضرورة النعمة .

اما الثانية من هذه المشكلات التي يثيرها هذا الاعتقاد فتمس في الصميم الميزة التي خص الله بها الشعب اليهودي منذ آدم ، هذا الشعب الذيءرف كيف يحافظ على وديمة الوحي وعلى صيانة التوراة والتحتب الموحاة من الله ، هذه الكتب التي تؤلف اقدم تاريخ للبشرية . والحال ان قدم الشعب الصيني يضيع في ليل الزمن ويبدو انه اقدم ما تقصه علينا التوراة من اخبار حول ظهور شعوب الارض . فالتاريخ الصيني لفت نظر لا بايرير لقدمه فشجمه على القول بوجسود بشر قبل آدم . فنشر عام ١٩٥٥ نظرية ما قبل الآدميين. اما جاء في الفصل الخامس من رسالة بشر قبل آدم . فنشر عام ١٩٥٥ نظرية ما قبل خطيئة آدم ، كان الناس يخطئون رغم ان خطايام لم تكن

لتحسب عليهم ، أذ لم يكن الناموس قد جاء بعد ? أو ليس الفصل الاول من سفر التكوين يروي لنا قصة خلق العالم والانسان ، والفصل الثاني قصة خلق آدم والامة اليهودية بعد ذلك ? وعندما طرد الله قايين من أمام وجهه ، ألم يقل له هذا : أن الشموب التي مأصادفها سيقتلونني مع أنه لم يكن لآدم بعد ، سوى قايين وهابيل ? فأذا لم تكن التوراة سوى قصة شعب صغير جساء بعد غيره من شعوب الارض ، وليس تاريخ الانسانية وتاريخ العلاقات التي ربطت هذه الانسانية بالله ، كا تزعم وتدعي ، فهل يمكن أن تكون التوراة كتاب الله الموحى به والذي يفيض محقائق من العسير على المقل الوصول اليها بقوة الطبيعة ، مع أنها فوق أدراك الانسان ؟ فالمسيحية والحالة هذه ، تصبح كلها مزعزعة . وقد أثار هذا الكتاب الشكوك في فرنسا وهولندا والمانيا والسويد . وفي سنة ١٩٦٩ ، وضع الاب اليسوعي مارتيني : « تاريخ الصين القديم » ، تكلم فيه عن أول أمبراطور عرفته الصين سنة ٢٩٥٢ ق. م ، أي ٥٠٠ سنة قبل التاريخ الذي يعينه النص المبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم النص المبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم النص المبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم النص العبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم النص العبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه العين مأهولة بكاملها وعلم حيث لا يدري ، نظريات لابارير والنتائج الق آل اليها .

وثالث هذه المشكلات هي مشكلة و الطقوس الصينية ». لم تكن هذه الطقوس ، في نظر الآباء الدومينيكيين والفرنسيسكان سوى مظاهر لعبادة الاصنام . فقد حلوا البابا ، عام ١٦٤٥ على اصدار براءة ترذل هذه الطقوس الصينية بذاتها باعتبارها مضادة للسيحية وعلى نقيض منها ، ثم استصدر الآباء اليسوعيون ، عام ١٦٥٦ ، براءة بابوية تجيز هذه الطقوس دون ان يكون في الامر اي تناقض بين البراءتين . فهذه الطقوس ، فاسدة ، مفسدة ، من حيث المبدأ والأساس ، ولكن تجنباً لشر اكبر ، وتفادياً للحقد والبغضاء والمسداء الذي سيتمرض له المرسلون في الصين ، يكن نوعاً ما ، الاخذ بهذه الطقوس ، مراعاة الضمف البشري ، والتجاوز عنها موقتاً . وهكذا ، صدر من مجمع نشر الايان ، عام ١٦٦٩ ، قراران ، باثبات البراءتين المباورتين الصادرتين عام ١٦٥٥ ، و ١٦٥٠ .

وقد راح الرأي المام بدوره يتعرض فحسنه القضية بالجدل والنقاش الحساد المزوج بالهزء والسخرية احيانا ، بعد ان شوكمت بشكل يدعو للاسف ، كا نرى ذلك في الرسالة الخامسة من رسائل بسكال ، عام ١٩٥٦ . وفي هذه الرسالة الهجو القاذع يرشق به اليسوعيين ، بعنسوان : و اخلاقية اليسوعيين العملية » ، مع انه لم يتعرض النهج اليسوعي . وقد رجهت اليهم النهمسة باخفاء تعالم المسيح المصلوب ، والقيسام باعمال تننزسي بالصنعية والشرك وتشجع على فساد الاخلاق .

وليس بمستبعد قط ان تحكون نظرية تشو ـ هي ، وهذه الحركات الدائرية المنسوبــة الى كمت تأثير كل من Yan و Yan قد اوحت لديكارت بنظرية الزوبمة .

فقد رأى ليبنيز في العلم طريقة تساعد على بناء مدينة شاملة من شأنها ان ترسحد بين الناس

اجم ، وهذه المدينة الشاملة بامكان الناس ان يشيدوها بمزج كل الحضارات التي عرفتها البشرية عبر تاريخها المديد . وانطلاقاً من مثل البسوعيين في بكين ، راح عام ١٦٧٠ ، يقترح تأسيس جمعة انسانية Soc philadelphique ، وهي كناية عن جمعية تضم كل العلماء ، تأخذ على نفسها انشاء مكاتب انصال او مكاتب ارتباط في الصين واليابان . وحاول أن يستنبط لغة عالمية من هذه الحروف الصنبة ؛ ذات الدلالة ومالها من ممان . وبعد ذلك يوحى له كانغ ... هي و هذا الملك الذي يتجاوز بقامته الفارعة المديدة ، اعلى ارتفاع عين للانسان أن يصل اليه ، والذي يشبه الآلهة فيدير كل شيء بايماءة من رأسه، والذي تحلى مع ذلك بالفضائل والحكمة ، فاستحق بذلك ان يحكم الناس ، فيرى فيه مثال : ﴿ المستبد العادل ، . وقد شطح به الخيال ، فتصور مرسلين صينيين يعلمون الاوروبيين الاخلاق والسياسة الصينية، وعصر الحضارة الذي يبرز فيه كانغ .. هي العصر الاخر الذي يلم فيه اسم لويس الرابع عشر يوحد بينها عصر بطوس الاكبر. وليس بمستمعد قط أن كتاب Lhing أو كتاب التحولات ونظرية تشو ــ هي أثرا كثــــيراً في الفلسفة المضوية Organicisle التي قال بها ليبنز ، فأدت به الى وضع نظريته في « المونادة ». هذا الجوهر البسيط ذو روحية لا جسم لها ولا امتداد ، غير قابلة للتجزئة وتدخل في تركيب الأشياء ؛ لا تتفاعل مع غيرها من المونادات ؛ ولها خاصتان اساسيتان هما الادراك والنزوع . صعيح ان ليبنز استوحى كثيراً من تقدم العلوم الطبيعية في زمانه ، بعد الاكتشافات الهامة التي حققها علماء بارزون امثال: لوينوك وسوامردام، ومالبيجي . والصعوبـــة التي لقيها في محاولته تقليل الكائن الحي ، قامت في اعتاده على الميكانيكية الكرتزيانية. هنالك ، ولا شك قرائن تحملنا على التفكير بهذا التناغم الذي احب ليبنز ان يراه قائمًا بين الفكرة الشاملة المفروضة الِق قال بها تشو .. هي وبين هذه التطورات ۽ او د التحولات ۽ التي قال بها ليبنز ۽ والتحولات الق قال بها تشو .. هي بواسطة الافعال المتثالية بين بن Yin ويان Yan . قد يكون قام شيء من هذا بين هذه التعالم والفلسفة .

وقد اثرت الصين على عدد كبير من الاوروبيين الباحثين عن اخلاقية تخالف الاخلاقية التي تعلم بها الديانة المسيحية . ففي سنة ١٦٨٧ ، نشر الاب كوبليسه ، كتابه المنون : والفيلسوف الصيني كونفوشيوس » . وقسد خصص له الناقسد الفرنسي ريحيس نقداً علمياً نشره في و مجلة العلماء » 11. des Savauls في عددها الصادر بتاريخ ه يناير ١٦٨٨ ، وجد فيه : و استعداداً فكرياً شبيها بهذا الاستعداد الذي يدفع الانسان لان يتخلى عن منفعته او عن راحته الخاصة ومحمل لجميع الناس الحب الواحد كأنهم من لحمه ودمه يؤلفرن ممه شخصاً واحداً ، ويشاركهم بالتالي الشعور ذاته ، معبراً عن هذا الحب خير تعبير ، في السراء والضراء على السواء » , هده هي الاخلاقية الانسانية التي قال بها ، وتمنى الحصول عليها مجتمع اخذ بالابتعاد عن المسيحية ومثلها ، قضم فيه كل حب ليسوع المسبح وكل رغبة في الاقتداء به .

وفي الوقت ذاته ؟ الماحت هذه الكتب والمباحث المديدة التي صدرت حول الصين الوصول

الى هذه النتيجة وهي ان الاخلاقية الانسانية تكفي وحدها . فقد اعترف بهــذا الاب كوبليه نفسه في مقدمة كتابه حـــول و مادية الصينيين والحادهم ، وقد كرر هـــذا التأكيد الاب لونغــو باردي ، عام ١٧٠١ . واذ ذاك ، راح بايل يعلم ويؤكد ان الدليل على وجــود الله المبني على اخذ جميع الناس بهــذا الايمان يسقط اذن ، من تلقاء نفسه . ومن جهــة اخرى ، لما كان الصينيون اكثر شعوب الارض تمسكا بالاخلاق والآداب الانسانية ، فلا لزوم ، والحالة هذه ، للاخلاقية التي يقول بها الدين المسيحي ، ولا لزوم بالتالي لمستوى حضارى عال .

وفي سنة ١٦٩٦ ، في كتابه الموسوم : « رسائل حول الوضع الحالي في الصين ، » راح الاب له كونت ، يفسر النتائسج الطيبة التي اصابها اليسوعيون عن طريق تعويلهم على الديانة الصينية التي عرفت كيف تحافظ ، عبر الاجيال ، على نقاء وصفاء الحقائق الدينية الاولى التي اوسى الله بها للانسان الاول ، كما عرفت كيف تصون للأجيال الطالعة معرفة الله الحقيقي مسدة ، ٥٠٠ سنة . وقد راح قراء كثيرون يضخمون كثيراً افكار الاب له كونت ويجسمونها ، عندماراحوا يؤكدون أن الصين مجدت الله بشكل وكرمته على صورة يمكن للمسيحيين ان يحتذوها ، وأن الديانة الصينية كانت انقى الديانات طراً ، وان الصينيين تفردوا بالتواضع وامتازوا بالمبادة الداخلية والقداسة ، وان الصين وحدها بين كل الامم ، خصها الله ، دون سواها من الشعوب الداخلية والقداسة ، واذ ذاك ، ماذا يبقى من امتياز الشعب اليهسودي ? وما الحاجة ، بعدهذا والبلدان ، بنعمته . واذ ذاك ، ماذا يبقى من امتياز الشعب اليهسودي ? وما الحاجة ، بعدهذا الحطيئة الفلسفية المقاترفة بدون اية معرفة لله ، ليست اهانة لله . اذن ، فالفيلسوف كونفوشيوس الخطيئة الفلسفية المقاترفة بدون اية معرفة لله ، ليست اهانة لله . اذن ، فالفيلسوف كونفوشيوس وكل قدامى الصينيين لم يهلكوا . ويبقى بعد هذا ، الاعتصام بالفضائل الطبيعية وتطبيقها وفقاً ولكن قدامى الصينيين لم يهلكوا . ويبقى بعد هذا ، الاعتصام بالفضائل الطبيعية وتطبيقها وفقاً ولتوى الانسان الطبيعية حتى يخلص الانسان . ولذا فالمسيحية لا تفيد شيئاً ، والدين الطبيعي وحده .

واذ ذاك تحتدم الحناقة ويرتفع النقاش حول و الطقوس الصينية ، هذه القضية الشائكة التي راح يمالجها الاب سانت ماري ، من رهبانية المرسلين الاجانب ، في كتاب اصدره ، عام ١٧٠١ . فقد عمل الاب رتشي في محيط او جو مشبع بالحدسية الادبية والفردية التي عسلم بها وانغ بيانغ بين منع ، والتي كانت تيسر الاتجاه نحو فكرة الله . وعلى عكس ذلك ، راحت اسرة تسنغ تعمل على تأمين الفوز للمادية التشريعية . وهذا الفرق الكبير القائم بين تفكير المندرين والمسيحية اخد يتسع ، وبعد ان درس الآباء اليسوعيون الكتب الصينية القديمة رأوا ان التدفيق بين هذه المقائد والطقوس الصينية ، وبين المقائد المسيحية مكن تحقيقه ، اذا ما عاد الصينيون الى ايمانهم القويم الصحيح القديم ، ويمكن بالتالي الانتقال بهم الى المسيحية . فكانوا في تفكيرهم هذا على حق. اما الآباء الدومينيكيون والفرنسيسكان والآباء المرسلون في الخارج ، في تفكيرهم هذا على حق. اما الآباء الدومينيكيون والفرنسيسكان والآباء المرسلون في الخارج ، هذه الرهبانية التي انشئت عام ١٦٥٩ ، فقد راحوا يعلون انطلاقا عما كان علية الصينيون مسن المقائد ، اذ ذاك ، انهسم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة المقائد ، اذ ذاك ، انهسم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة المقائد ، اذ ذاك ، انهسم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة المقائد ، اذ ذاك ، انهسم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة المقائد ، اذ ذاك ، انهسم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة المقائد ، اذ ذاك ، ان القريم المعدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة التوريق المقائد ، القريم المعدون وبالتالي الاستعال والآباء الدولية والمعدون والمعالم والتوريق والمعدون والميسكان والآباء المحدون والمعدون وا

هذه ، هي تجديف على الله ، واهانة له . وكانوا في منطقهم هذا على صواب وحق .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، كان الكرسي الرسولي ، قد عين ثلاثة نواب رسوليين تقاسموا فيا بينهم الادارة الكنسية في الصين ، من بينهم غريغوريوس لويس الذي جاء تعيينه ، عام ١٩٩٤ ، فكان اول اسقف على الصين . ففي سنة ١٩٩٣ ، اصدر ميفرو الذي كان نائباً رسولياً على فوكيان ، منشوراً شجب فيه نظريات اليسوعين وتعاليمهم حول الطقوس الصينية ، وجر م التقاديم على شرف كونفوشيوس ، وعبادة او تكريم الجدود . وبتاريخ ١٣ تشرين الاول ، شجبت جامعة السوربون بعض المقترحات المنسوبة الى السوعين باعتبارها ملحدة ومنافية للمقيدة الكاثوليكية . واذ ذاك ارسل البابا الى الصين مطراناً ده تورنون بطريرك انطاكية الذي وصل بكين ، عام ١٧٠٥ فاستقبله الامبراطور كانغ – هي ، فعلم هذا ان البابا اصدر حكماً في ٢٠ كانون الثاني طلب الآباء اليسوعين ، ان عبادة كونفوشيوس ليست سوى مراسم مدنية لا غير . فأصدر الامبراطور ، اذ ذاك امراً بطرد المطارنة ميفرو وده تورنون . فنشر هذا الاخير سنة ١٧٠٠ ، الامبراطور ، اذ ذاك امراً بطرد المطارنة ميفرو وده تورنون . فنشر هذا الاخير سنة ١٧٠٠ ، في نانكين منشوراً حرم فيه كل الطقوس الصينية . وبعد ذلك بقليسل ، اصدر الامبراطور في على الأوروبيين الاقامة في الصين بدون ترخيص رسمي من السلطات المعنية . وفي ١٩ آذار عام ١٧٠٥ ، صادق البابا بالبراءة السيق اصدرها بعنوان السلطات المعنية . وفي ١٩ آذار عام ١٧٠٥ ، صادق البابا بالبراءة السيق اصدرها بعنوان العنوان المناهة الله المناه الدي اصدره عام ١٧٠٤ ، وطلب التقيد به .

ومنف ذلك الحين ، اخذ انتشار المسيحية في الصين يتأخر ويتقهقر بشكل محسوس . وفي الوقت ذاته تحجرت الصين في فلسفة تشو - هي وشددت في فرض الطقوس والتمسك باعراف الاقدمين وعاداتهم المرهقة . اما في اوروبا فقد بعثت الافكار والنظريات التي قامت حول المسين ورمت الى التمريف بها ، النشاط وساعدت على ترويج بعض المبادىء التي قامت عليها فلسفة الانوار ، كالديانة الطبيعية وطبب عنصر الانسان الاول ، والاخسلاق الطبيعية ونظرية النفعية والاستبداد النير ، وغير ذلك ، اما الصين فازدادت تحجراً . اما التطورات التي اصابت اوروبا منذ ان اخذت من عهد بعيد باسباب التحدد والرقي الذي دعت اليه تعاليم المدرسة الاتباعية ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، و « المعتدلون » في القرن الرابع عشر والخامس عشر والميكانيكيون وديكارت اخيراً فقد ازدادت وسارت مخطى اسرع .

ومنصل ودوبسع

آسيا تعرض عن أوروب

التحجر الاسيوي عنه تدع آسيًا بجالاً لاوروبا تجري فيها تعديلاً او تدخل عليها تبديلاً باستثناء التحجر الاسيوي عن العلم الاوروبي ، اذلم تر فيه سوى اثارة للفضول . ثم انها تحاملت على نفسها واحتمات ببمض الفنانين الاوروبيين دون ان تتلقح روسها بالتقنية الاوروبية ، ورضيت تساهلا واغضاء " بشيء من التبادل التجاري مع فريق من التجار الاوروبيين ، مع حرصها الشديد على الاستمساك بمؤسساتها ونظمها المتوارثة منذ القدم . خضمت التطور واخذت باسبابه خلال هذين الترنين استجابة لحوافز دفينة اكثر منه رغبة " باحتذاء الغربيين ، دون ان يحسن هذا التطور ملب مدنيتها . وقد عبر " شاردن احسن تعبير عما خامر الاوروبيين من شعور من هذا الوضع صلب مدنيتها . وقد عبر " شاردن احسن تعبير عما خامر الاوروبيين من شعور من هذا الوضع اذ قال : و ليست آسيا كقارتنا الاوروبية حيث يبدل الناس من أزيائهم ومشاربهم وهواياتهم في الملبس والمشرب والمأكل والسكن ، وفي كل شيء ، باسهل بما ينظن . هناك الاستمرار على الوتيرة من زي من عدة قرون . وهذا ما يجملنا نمتقد بان هذه الاشكال والصور والصيم الخارجية التي يتلسبها الناس في تصرفاتهم واعرافهم وعاداتهم واحاداتهم واحاريقة تحدثهم ، في هذا الجزء مسن يتلبسها الناس في تصرفاتهم واحرافهم وعاداتهم واخلاقهم واحريقة تحدثهم ، في هذا الجزء مسن يتلبسها الناس في تصرفاتهم واحرافهم وعاداتهم واخلاتهم واخريقة تحدثهم ، في هذا الجزء مسن المنام، هي هي ذاتها تقريبا كاكانت من لحو الفسنة ، استثناء التبدلات التي طلمت بها الانتفاضات الدينية . وهو شيء لا يؤبه به وليس له اهمية ، فاسيا توسي للمرء فكرة الجود او التحجر .

ورب سائل يسأل لمسابًا لم يعتمد الاوروبيون هنسا ، كا اعتمدوا في اميركا ، مثلا ، على السلاح، واستعانوا بالنسسوة والبطش . وبرى الرحالة الاوروبيون ان ما تم الاوروبا من

لماذا کم یعمد الاوروبیون الی فتسح آسیا بعد ان تم لحم التنوق الحربي

اسباب التفوق في السلاح والنظام والتعنية والتكتيك الحربي كان من شأنه ان يجمل الفتح امسراً ميسوراً ، ومطلباً هيئناً ، سهلا ، وقد كتب احد المراقبين الفرنسيين المشهور لهم بعنق التفكير،

الجيوش الجرارة التي تسمر الحوف في القاوب لكائرتها ، تقوم احيانًا بمجهودات طيبة . أمــا أذا فاذا بها كالسيل الجارف وقد اطاح بما يقف في سبيله من حدود وسدود ، فتندفع المياه ، في كل حدب وصوب وتفرق البلاد في غمر مهلك مبيد وينقطع الرجاء من اي دواء ويبطل كل علاج . ولذا كم من مرة 'رحت' اتمل النظر في وضع هذه الجيوش التي لا نظام لها ولا قيد ، والتي تكاد تسير في تنقلاتها سير النعاج في القطيع ، فاتصور ما عسى ان يكون منها المصير لو اتفق وهبط هذه البقاع ، جيش من ٢٥٠٠٠٠ جندي من هؤلاء الجنود الاشداء الجرّبين، من رأت مثلهم كثيراً الجيوش مهما بلغت من ضخامة او عدد. أصُمدوا في وجه الصدمة الاولى، وهو امر ليس بالعسير، -فاتراهم وكأن على رؤوسهم الطير مصموقين جزعاً ، او انقضوا كالصاعقة وهزوا الارض هزاً ، كما فعل الاسكندر. فاذا لم يصمدوا وهو شيء منتظر ومتوقع ؛ فكن على ثقة بانه وقع فيهم المقدور وينتهي بهم الامر في جو الهلع والهرب ، والامر مع الصينيين لا يختلف عن هـــــذا الوضع ، فالسلطات الاسبانية في الفيليبين عرضت على الملك فيليب الثاني، فتح الصين وتدويخها لدعم عمل المرسلين بقوة السلاح ، مقدرين بان جيشاً من ١٠٠٠٠٠ - ١٢٠٠٠٠ جندي حسني التدريب ؟ غرسوا يغنون الحرب من جنود اسبانيا وايطاليا الجربين كيشد أزرم من ٥٠٠٠ – ٢٠٠٠ ياباني مع ثلاثة او اربعة خبراء اخصائيين بصب المدافع يكفي للقيام بهذه المهمة. فلم تكن هذه السلطات على خطل او على وهم فيها فكرت به ، ومن الملاحظ ان الفشل الوحيد الذي مُمِني به المنشو في فتحهم للصين وقع لهم عند البدء مجصارهم الأول لمدينة كواي ـ ين سنة ١٦٤٦ ،عندمًا اصطدموا بثلاثياتة الأوروبيون لو قاموا بالهجوم في عهد المِنغ ؟ عندما كان الصينيون يطبقون بكل دقسة طقوسهم الدينية في الحرب، اذ أنهم لم يكونوا يرمون الى ابادة قوى العدو، بل كانوا يتبحون لكل واحد الزوايا الا من جهات ثلاث ليتيحوا للمحاصرين الهرب والنجاة بانفسهم من الجهة الباقية حرة ، فيتفادون مقاومة شديدة .فلا يردّون على العدو الذي يقذفهم بالمدافع بالمثل ؛ وذلــك ليحملوه على الخبيل من نفسه للمنف الذي يلجأ اليه ، فيتوقف عن عمله الوحشي . فاذا ما اصيب العدو ببعض الضربات ، أرخم على المفاوضة . فعليك ، والحالة هذه ، سحب جيوشك مسن مراكزم . للتدليل على استعدادك لاستقبال مثليه المفوضين. كل تحركاتهم الحربية تخضع للطيرة أو الضرب بالرمل الذي يوجب بان 'تخلى القوات المرابطة مراكزهـا في الحصن ، من الباب الشرقي ، في الربيع ، ومن الباب الغربي ، في الصيف وهلم حر" . لا وأيم الحق ، فالصينيون هم ابعد عن ان يصمدوا في المدان ، لو صادفوا المامهم الجنرال سبينولا مثلاً ، أو القائد تورين .

النظم الاجتاعية في أوروبا تولي الدولـــة قـــوة اكبر

دخل في روع الأوروبيين ان الامور تسيربشكل ابسط بعد تحقيقهم النصر الأول ، فتنهار امامهم هذه الأمبراطوريات الشاسعة ، دفعة واحدة . في بلاد المجم والهند ، ينتقـــل

الرؤساء من جانب المفاويين الى جانب الفالب. فالتركيب الاجتماعي والنظم الاجتماعي الق عليها البلاد ، لا تساعدها على المقاومة والصمود . لنترك الكلام هنا لبرنييه ، هذا المعلق الثاقب النظر . ﴿ فَالْأُمْرُ فِي الْهَنْدُ لَا يُشْبُهُ بِشِيءَ الرَّضْعُ فِي فَرْنَسَا أَوْ فِي الدُّولُ المسيحية الأخرى عجيث يملك اسياد البلاد تمتلكات واسعة ، تدر عليهم واردات وافرة ، تتبيح لهم وسائل العيش والبقاء بعض الوقت . اما في الهند فليس لهؤلاء الأسياد سوى مرتباتهم .. التي باستطاعة الملك ان يقطعها او ان يوقفهاعنهم ، ساعة يشاء ، وبذلك يهوون الى الحضيض ، دفعة واحدة ، ويفقدون ما كان لهم من شأن واعتبار ويصبحون نسسياً منسيباً ملا يجدون لهم مجيراً يستظلون تحت كنفه.. فكل الارض ومن عليها وما فيها هي ملك المغول الكبير ، باستثناء بعض المنازل والحدائــــق يترك لرعاياه حرية التصرف بها بيما أو يقتسمونها فيا بينهم كما يرغبون ... لا قدّر الله أن يكون ملوكنا في اوروبا مسيطرين على الارض والممتلكات التي هي ملك رعاياهم ، كما لا قدار إلله أن تكون عمالكنا في مثل الوضع الذي تتسكع فيه عمالك الهند ، وهي على ما هي عليـــه من حسن العناية واكتظاظ السكان ، وجمال البنيان ، ووفرة الغنى وحسن الظـــرف والأدب وسعة الازدهار الذي نراها عليه . فعلوكنا هم على طراز آخر من الغنى؛ والقوة ومنعة الجانب؛ ليس منه النزر النزير هنالك . ولا يسمنا الا الاشارة الى ما يتمتعون به مـــن حسن الكلام وما يحاطون به من صدق الخدمة وصادق الآراء . ولن يلبث هؤلاء الملــوك ان يجــدوا انفسهم في البادية ، معزولين في الصحراء ، وضعهم وضع البائسين المستوحشين ، اي وضع ِ هؤلاء بالذات الذين جئت على وصف حالهم من قبل الذين طمعوا في الحصول على كل شيء ، فَفَقدوا كل شيء، وفي سعيهم الحثيث لكسب الغنى والثراء ، وجدوا انفسهم لا يملكون شروى نقير ، او أقسُّله ، يعيدين جداً عن هذه الاهداف التي وضوها نصب اعينهم الرمداء او نصب اطباعهم الاشعبية التي هدفوا من وراغًا ليصبحوا اكثر استبداداً واكثر سلطة بما تسمح بسب الشرائع الساوية والنواميس الطبيعية ؛ والا كيف يتوفر لنا مثل هـؤلاء الامراء ، وهؤلاء الاحبار ، وهــــؤلاء النبلاء وهؤلاء البورجوازيون الأثرياه وجدوا وهؤلاءالتجار الاغنياء وهؤلاءالعهال الصنعة الماهرين وهذه المدن العامرة كباريس وليون ، وتولوز وروان ، اولندن مثلاً ، وغير ذلك من المدن الحجبيرة ? فاذا ما تضعضع الجيش في البلاد ، دب اليها الفساد ، فلم يَعد من تقوم له قائمة او يتمتع بقوة خاصة تؤمن لها سلطة تتوفر لها من الوسائل والامكانيات ما يؤمن للبــــلاد نظاما دفاعيا فمالا.

اما في الصين ، حيث الامبراطور هو المسيطر مبدئياً على كل الاملاك والاراضي ، فالملكية العائلية كانت اقوى وارسخ (مما في الهند)، انما المقاومة الوطنية في هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ؛ ضعيفة ؛ وَهِنَهُ ؛ كما مرّمعنا ؛ وذلك لسبب رئيسي وهو ان كل فرد لا يهمه الا منفعته الخاصة ولا يهتم بالقضايا السياسية والوطنية ؛ ولا لقيام هذه الاسر التي تتألف من الآباء والجدود ؛ فيشكل اعضاؤها شيئاً اشبه ما يكون بجمهورية م متقلة .

الدفاع عن الوطن لا يمكن ان ينهض على مهارات العامل والمهندس. كل تفوق اوروبا التقني ملوك آسيا رأوا انفسهم مضطرين للتعاقد مسع طوبجية ومسم مهندسين عسكريين اوروبيين ، اذ ان الوسائل التقنية الآسيوية كانت في غاية الضعف. فقسد وضع الاوروبيون في خدمتهم مئات الآلات والاعتدة التقنية ، بينا لم يكن ليتوفر للآسيون منهسا سوى نزر نزبر .

لم يكن الفرس نجارون بحصر المعنى، وليس للعاملين في النجارة غير الفاس والمنشار والمقص. فلم يعرف واشيئاً عن المثقب ، وكانوا يستعملون المقدح بواسطة القوس والوتر . والعمال يعملون وفقاً للاوامر والتعليات الصادرة اليهم ، فيقبعون في زاوية الحجرة ويديرون اجهزتهم بارجلهم ، فالمبيض يعمل والى جانبه خادمه حامل كيس الفحم والمنفخ والقليل من الصودا ، وبعض روح النشادر يخزنه في قرن الثور ، وفي جيبه بضع قطع صغيرة من القصدير . واذ ذاك يعمد الى زاوية من فناء المنزل يركز فيها كوره ويوقد النار ويأخذ في العمل . وعلى هذا النحو سارت الامروبي وفياً في الهند . فقد استعانوا بآلتين او ثلاث آلات لانجاز عمل يستخدم له الاوروبي واكثر ، اينا لا يحتاج الاوروبي المكتبرة الموافقة ، ولذا تراه يجلس ينها لا يحتاج الاوروبي لاكثر من ثلاثة ايام . فالنجار لم تكن تتوفر له طاولة ، ولذا تراه يجلس الى الارض يستمين برجله لتركيز قطع الحشب ، كاكان يعالج الحجارة الكبيرة بالازميل ، وكان يقتضي له ثلاثة ايام لقطع قرمية خشب بينا يقطعها الاوروبي باقل من ساعة . اما الحداد فكان يركز عمله امام منزل الزبون ، ويوقد له النار ويبني من التراب حائطاً صغيراً ، ويركب كوره ويجلس امام النار فيدفع برجله قطمة الحديد وهو ينفخ بالكور ، وعندما يحمى الحديد يأخذ ، ويحسو جالس الى الارض ، بتطريقه بمطارق صغيرة ، فوق سندان صغير ، كا ان غذاءه كان سيئاً .

اما الصين التي كانت من هذه الناجية احسن تجهيزاً ، بعض الشيء ، فلم تكن احسن وضعاً . فالمربة ذات الدولاب المركزي الوحيد كانت تؤلف مخلاً سيئاً كما انها لم تكن مستقرة التوازن . وكانت الزراعة فيها تتطلب مجهوداً كبيراً . كان المزازع الاوروبي يستخدم في فلاحـــة ارضه حيوانات الجر فيترك العشب يغمر المحراث ، ويبذل جهداً اقل مما يبذله الفلاح في الصين او في اليابان ، في حقل الارز . فكل نشاط زراعي يقوم به يجربه بيديه باستثناء شتى الارض للوجه الاول ، ويهــد التربة ويصون الاقنية والمجاري المائية ويعشب الارض باستمرار . فالجاموس والبقرة والحمار عند الاوروبي ، ولذا تفقد والبقرة والحمار عند الاوروبي ، ولذا تفقد هذه الحيوانات نشاطها في العمل .

رفض الاسيويون اقتباس الاساليب العلمية الجديدة. فقد اساؤوا استمال فأرة النجارة التي ادخلها الاوروبيون على الاستمال. وكان البون شاسماً والفرق عظيماً في التحسس للاختراعات وطلب الكشوف العلمية الجديدة في القزنين السادس عشر والسابع عشر. وقد فضل الاسيويون ان يشتروا من الاوروبيين الاجهزة التي يرغبون فيها بدلاً من صنعها (الساعات والمدافع وغير ذلك) وقد فضل امراؤهم ان يستوردوا من اوروبا تجار الجوهرات والصاغة وشغيلة الابنوس وصناع المينا والرسامين. فالعرش المرصع الذي جلس عليه المغول الكبير كان من صنع احسد الصاغة الفرنسيين.

ولعل السبب الاكبر لهذا الركود الثقني الذي تخبط فية الفرس والهنسود تفوق العلم الادروبي هو احتقارهم للعمل اليدوي وازدراؤهم للعاملالذي كثيراًما تعرضاللضرب والاهانة ، كما كانت حصته من المعاش ضئزى . اما في الصين ؛ فعلى عكس ذلــــك ، اذ كان العمل محترماً . واشتهر عن العامل الصدى قوة احتمال وجلد طويل وصبر نادر ، يعمل دونما ملل او تعب ، ودون ثذمر او تأفف . وهنا يقوم عامل مشترك بين جميم الاقطار الاسيوية ، ميز الفكري او العلمي . فكانوا يقلدون بمهارة كلما كان بوسعهم حصر الانتباه والافادة من الخيلسة النصرية . فمنهم من افتقر لروح التحليل وللتجريد ، كما افتقروا للبحث الشخصي . والكتابــة الصنبة الـــــق كانت ايحاثية والتي كانت تتطلب حفظ الالوف من الصور والمرئيات ، وتفترض المقدرة على التمييز بين العلامات والشارات، وتفرض المضي في رسمها واستنساخها وحفظها غيبًا، لم تكن لتربي في النفس القوى العلمية والقدرات على اكتساب العلوم ، كما يفعسل فن الخط في أوروبا واللغات الاوروبية ، وهي كلها من ادهي ادوات التحليل وفك التقليد والتركيب الق تمهد للطريقة العلمة بالذات . ديانات الآسيويين توحى لهم احتقار العالم الخارجي . في مجنَّه عن الاوحـــد ﴾ عن المطلق في ذاته ، وطلبه له في القرآن ، في الشاسترا او في السي – تشيو اي ممرف ة ما هو لازم للحياة ؛ فالاسيوي لا يهتم كثيراً لعلم الظواهر بحد ذاتها ويهمــــل درسها وتفهمها . فلم يستطع الباريسيون أن يتمالكوا أنفسهم من العجب ، عندما عرفوا كيف أن سفير المجم ، بقى ، عام ١٧١٥ ، ممتزلًا في فندقه ، مستغرف في قراءة القرآن الكريم دون ان يبدى أي اهتمام بالوقوف على الحضارة الاوروبية . فآسيا قبعت راضية عند الدور الثاني من ادوار الفكر ، هذا الدور الذي يسبق العقلانية الكيفية التي ميزت اليونان ، حيث الفكر حسو قبل كل شيء اكتناه الكليات الكية . فالاسكاني الهندي لا يأخذ قياسات فهو يضع رجل زبونه في راحة يده، وتوسم في ذهنه الصورة الذهنية او الفكرية لحجم معين ، ويفصل حذاء يأتي كما يجب . والصابىء الذي برهن عن مقدرة تجارية فائقة ، يسيء الحساب ولا يفقعه شيئاً من قواعده . فهو يجهل كل شيء من القاعدة الثلاثية. والدليل على صحة اعماله الحسابية يثبت عندما يتوصل ثلاثة او اربعة الى النتائج ذاتها التي توصل اليها هــو نفسه. فالفرس والهنود والصينيون

يجهاون تماماً منطق الافكار وترابطها * كما يجهلون تهاماً الدليل وفن البرهـان ، وهي امور في الاساس مــــن كل علم . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن السابع عشر معرفة هذا الفارق ، و فالصينيون دهشوا عندما وجدوا انفسهم وجها لوجه امام مقدمات اقليدس مترجمة الىلفتهم، وتبينوا بصعوبة كلية البرهان اي الطريقة التي يتبعها المقل متنقلًا من الأمور الواضحة، اليأمور صعيحة، هي الاخرى، انما اقل وضوحاً بمن الاولى، بحيث نصل بواسطة سلسلة من المقدمات الى حقائق مجردة ، تبتعد كثيراً عن الاولى التي كانت نقطة الانطلاق . لم يكونـــوا ليقترحوا او ليعرضوا شيئًا الا ما هو عملي . . . ان عبقرية الصيني ، مع كل تقديرنا لها ، كانت دون ما تم منها للاوروبيين ... وقد قلسّت عندهم القدرة على الاختراع او على التطوير والتحسين ... ، وهكذا بقي الغرس والهنود والصينيون يتسكعون في مجوسية وشرك غليظ كثيف ولجأوا الى التعاويد يحوي آية من القرآن ضد العين الشريرة الناقصة ، وعلم النجامة لاستطلاع كل ما هو مقدر لكل ظرف من ظروف الحياة ، كالنهوض من النوم صباحاً ، وتناول وجب الاكل ، والعلاقات اضاعوا هدراً ، شهراً من الزمن لوضع هذا القرار موضع التنفيذ ، لان القمر وقع في مدار برج المقرب ، مع أن أصوات النجدة كانت تشق عنان السياء من كل مكان . وكان ألجواب يأتيهم بكل برودة : تمهلوا قليلاً : فالقمر في العقرب ، وهو قران شر ومكان شؤم تطبع ما يحدث ، يتبين ذلك بوضوح من د حكاية السموم ، . ولكن هذه الامور لم تكن لتسيطر على حياتهسم . ان طريقة التفكير او التصرف كهذه وطاقة ضعيفة على العمل كالتي اتينا على وصفها ، كان من شأنها ان تسهل ، الى حد بعيد ، عملية غزو او فتح .

> روادع الفتح لدى الاوروبيين : السراب الآسوي وبعد المسافات واكتظاظ السكان

لماذا لم يحاول الاوربيون فتح الصين ؟ فقد تهيبوا عملية الفتح هذه ؟ بعد ان وقعوا تحت سطوة هذه الامبراطوريات الضخمة السق اقتضاهم التمرف عليها وقتاً طويلاً > كما ان ملوك اوروبا وقعوا تحت تأثير السراب الشرقي ، فجهل اوروبا الطويل للقارة الاسيوية

هو فوق كل حد ويتجاوز كل خيال . فقد كتب الاب بارزيه ، من غوا ، عام ١٥٨٧ ، يقول : «استقر في روعي ان الصين او بالاحرى بلاد التتار الكبرى، استطالت حدودها بجيث جاورت المانيا . وفي سنة ١٥٨٢ ، كان الآباء اليسوعيون في كلية القديس بولس في غوا يجهلسون حتى وجود جبال همالايا وجبال الهندوكوش . وفي سنة ١٥٨٣ مط "رسامو الحرائط خريطة الصين فاوصلوها الى منتصف المحيط الهادي ، كا كانوا يجهلون قهاماً المراد بكلمة كاتاي التي طالما وردت على لسان ماركوبولو. والفضل كل الفضل يمود للاب متى رتشي الذي حدد عام ١٥٩٨ موقع الصين بين الدرجتين ١٩ – ٤٢ من خط العرض الشمالي ، واكد بأن مساحتها لا تتجاوز قط الدرجة ١٦٠ من خط الطول الى الشرق من باريس. واليه يعود الفضل كذلك ، اثر الرحلة التي قام بها بنتوده غوز بين الاقطار الاسلامية في آسيا الوسطى ، من ١٦٠٢ الى ١٦٠٧ ، حيث كانوا لا يزالون يسمون الصين باسم كاتاي وبكين باسم كمبالو ، باثباتاته ان كاتاي هي الصين كا جساء ذكرها لدى ماركو بولو. وهذا الجهل المدقع هو الذي ساعد على استمرار هذا الوم حول قوة القارة الآسيوية. »

ومن جهة اخرى ، فقد كان الاوروبيون غارقين في منافساتهم المنيفة في اوروبا وعــلى كل البحار . فلم يتوفر يوماً لأي دولة من دول اوروبا جيش من ٢٥ ألف جندي كالذي طالب به برنييه ، كما انه كان يقتضي ، بالاضافة الى هذا الجيش ، جيوش اخرى ، للعمل في بلاد فارس . والهند والهند الصينية ، والصين واليابان . كذلك لعبت المسافات الشاسعة اثرهـ السيء على نغوس الاوروبيين . وجاء ما لهذه من وقع مهيب ، في غير مصلحتهم ، اذ كان يقتضي سنتين وبضعة اشهر لرسالة في طريقها من روما الى مكاو.وقد استلم رتشي عام ١٥٩٥ رسالةمؤرخة عام ١٥٩٣ ويعلمه مراسله عن وصول رسالته المؤرخة عام ١٥٨٦. والسفير الياباني الذي ارسل لليابا؟ غادر ناغازاكي في ٢٠ شباط ١٥٨٢ ، ولم يصل لشبونة الا في ١٠ آب سنة ١٥٨٤ مم العلم انه أضاع فصلًا من الفصول الموسمية. وأكبي يعبئوا للمعركة ٢٥ ألف جندي، فما هو العدد الذي يجيب ان يتوفر ، والحالة هذه في الحاميات والقواعد البحرية والقلاع والحصون ، وعلى خطوط التموين مع هذه المسافات الشاسعة ، وضخامة آسيا ، واكتظاظ السكان ووفرتهم ؟ كل ذلك قطــع كل رغبة وقضى على كل امل بنجاح او بتأمين نصر عسكري ، في محاولة حربية على مثل هـــــذه الضخامــة ، تقوم بها اوروبا متحــدة ، متاسكة . ويجب الا ننسى ان اميركا استأثرت لوحدها ، بالكثير من الوسائــل والاعتدة الـــــلازمة لاوروبا . ولكي تتغلب اوروبا على هذه الصموبات التي لم تفطن لها ولم تدخل في الحسبان ، فقد اضطرت ان ترسل الى اميركا من الجنود والمعمرين والمبشرين ، اكثر بكثير بما ارسلت الى آسيا خلال هذين القرنين ، بحيث صع لنسا ان نؤكد بان استثار اميركا واستعمارها قد أنقذ آسيا .

م تفتح اوروبا عن اقناع آسيا . كذلك لم تعرف ان تحملها على ان تقتبس عجز اوروبا عن اقناع آسيا . نقط العيش الاوروبي والديانات الاوروبية . الاوروبي حركة دائمة ، نقاط اوروبا وجود آسيا . مثله: الجهاد والعمل والانشاء والرقى والتحول يتاكله الظمأ الذي

لا ينطفىء للجديد ، وما فيه من عدم اصطبار وعدم الخضوع او التسليم للصعوبة ، سواء أجاءت من طبيعة الاشياء او من ارادة الناس . اما الآسيوي ، ففي حلم دائم وازدراء للجهد ، وعبادة القوانين المفروضة والتقاليد المرسومة والحذر من الجديد ، واحسارام القوى البشرية الخارجية والطبيعية والاستسلام لها .

نظر الآسيويون الى الاوروبيين نظرهم الى من بهم المته او أصبوا بمس. وقد وجد الفرس النزهة والتفريج عن النفس شيئا غير معقول كما رأوا في القيام بالاسفار والنزهات اعمالا وتصرفات هي من شيم الناس الذين لا شمور لهم . فيتسائلون ما الذي قصد اليه الاوروبي من ذهبابه الى آخر الطريق و طاذا لم يتوقف هناك لو كان بحاجة ، فعلا الى شيء ما . فالرحلة لمجردالفضول وللاطلاع على الجديد من البلدان والناس شيء لا يحكن ان يتصوره . و فليس في العالم غيير الأوروبيين الذين يسافرون إشباعاً لفضولهم » (شاردين) . هل يمكن الحصول على الفضيلة والإستمتاع باللذة ، بفير إليب ? حسن للمرء ان يسافر اذا كان السفر يعود عليه بالربع . فراحوا يتوهمون ان كل غزين هم جاسوس ولا سيا اذا لم يكن قاصراً او صاحب مهنة . على فراحوا يتوهمون ان كل غزين هم والسعي وراء اشياء لا جدوى منها ، امور تتم عن الجنون واضطراب العقل و الرياضة البدنية ، والسعي وراء اشياء لا جدوى منها ، امور تتم عن الجنون واضطراب العقل ، او ان الانسان ليس في وضع طبيعي قط . فالحياة ، في نظرهم هي المختورة والمآدى ، هي الولائم والمآدب ، هي قط على عالمادى ، او الانصراف الى الأحلام والاسترسال في النظرات الدينية والفنية . فالحركة يجب ان تقتصر على ما لا 'بد" منه الأحلام والاسترسال في النظرات الدينية والفنية . فالحركة يجب ان تقتصر على ما لا 'بد" منه وعلى ما هو ضروري .

وافئية وروحاً عملية ، فلم يألفوا هذه العادة الا بعدهم بزمن طويل ، اي في اواخر القرن السابع وافئية وروحاً عملية ، فلم يألفوا هذه العادة الا بعدهم بزمن طويل ، اي في اواخر القرن السابع عشر . كذلك ادمن الفرس والهنود على التدخين ، فالعامل الذي يملك منهم خس نحاسات مثلا ، ينفق ثلاثاً منها عسلى التدخين واثنتين على اكله وشربه . كذلك كانوا يتعاطون غير ذلك من الحدرات ، فيدخنون التبغ ويفلون ورق القنت ، وبزر القنبة . وعبثاً حاولت حكومة بلاد فارش تحظير تعاطي مضغ الأفيون ، بعد ان تأصلت هذه العادة في القوم بحيث لا يمكن ان تجد بينهم من هم غير مصابين بها . ولذا كان من الصعب ان نجد في العجم شخصاً واحداً سليماً لا يتعاطى نوعاً ما من هذه المخدرات او من هذه المشروبات الكحولية ، والا فكيف تريدهم ان يعيشوا حياة هنيئة لذيذة » .

إعراض آسيا عن المسيحية وكرهها لها المسيحية في آسيا . فقـل عددهم فيها ؟ اذ فضل معظمهم المسيحية والسيحية في آسيا . فقـل عددهم فيها ؟ اذ فضل معظمهم المعمل في حقل الرسالة في اميركا . وبما يجب ملاحظته ان صلب المقيدة المسيحية اثار الشكوك بين معظم الآسيويين ؟ بعثت فيهم المقت والكره فأعرضوا عنها . فقبل الف وستائة سنة من قدوم المرسلين الى آسيا ؟ كان جليلي يدعى يسوع المسيح قـد بذل ذاته مصلوبا في القدس ؟ في قطر من اقطار آسيا الغربية . وبعد ذلك ببضع سنين ؟ راح موظف روماني يصف المسيحية الناشئة شجاراً بين اليهود حول شخص مائت يدعى يسوع ؟ بينا راح بولس يبشر به مدعيا انه حي يرزق . هذه هي المسيحية في بدء امرها ؟ فالاعتقاد بتجسد الله والايمان بانه تلبس جسد

انسان ، وانه افتداء للبشر من خطاياهم ، مسات لأجلهم على الصليب ميثة اللصوص وشذاذ الآفاق وكأحد العبيد الأرقاء . فالمسيحية تقوم على ان هذا الميت قام من القبر ناهضاً وانه صمد ألى الساء حيث يحيى الى الأبد مسمع انه موجود في قلب الكنيسة ، وانه فوق تطاول السنين والعصور هو في حياة دائمة خالدة .

والحال ان فكرة ابن الله أو الله نفسه المساوي للآب في الجوهر ، ان الاعتقاد بان الكائن العلي قد عاش حياة نجار ، خفية ، متواضعة ، وانهى حياته تحت الإهانات ، فاقوال هي مضغة في افواه الناس ، وعاش وحيداً ومات عرياناً مضرجاً بدمائه في عــــذابات مشينة ، هذه هي مفارقة الإنجيل الكبرى ، الفكرة التي لا مختمل في نظر الامم ، جنون الصليب ومدعاة الشك . فالاشمئز از من هذا القول ومن هذه التعاليم كان اقوى في الصين واليابان منه في اي مكان ، هذه البلدان العامرة بالزهو ، والنساء والولائم والمادب الشخصية ، والثياب الفاخرة والابجاعية ، تحملها معها الوظائف الرسمية الكبرى. هذا الشيء المتمم للحكة ولاحترام الآداب الاجتاعية ، هذا الجتمع الذي يعتقد ، في الصعيم ، ان الفاشل في الحياة هو هذا البائس ، التاعس ، المغلسوب على امره في الحياة ، هو هذا البائس ، التاعس ، المغلسوب على امره في الحياة ، هو هذا الانسان المديم الاخلاق الذي لم يراع حرمة الجدود والآباء الاقدمين ولم يراع النواميس البشرية والإلهية . ولذا ، كثيراً ما كان اليسوعيون يخفون صليب المسيح ، ولا يتكلمون عن المسيح مصلوباً ، الا عند العاد وبعده ، وكم من هؤلاء المعدين لم يعتموا اس جحدوا ايمانهم الجديد وعادوا الى الشك ، حتى ان خادم القديس فرنسوا كسافييه نفسه ، هذا البابي المسيحي الاول جحد ايمانه الجديد وعاد الى ايمان اجداده .

فالصعوبة الكبرى قامت في تفهم هـ ذه الافكار والتعاليم الجديدة وقبولها والاخذ بها . فقد كان في شبه المستحيل التعبير عن المعتقدات المسيحية بمبارات وتعابير الديانات الآسيوية . وهنا يكن سر هـ ذه المجادلات والمناقشات الدينية بين المرسلين في الصين ، وحول اله Tien والد التعبير عن وجود اله شخصي ، متميز عن هـ ذا العالم الذي والد الدعه وخلقه والذي يملاً كل مكان منه ، والقول بان كل انهان فيه روح خالدة متميزة عن الجسد المادي ، والمتميزة عن الهيولى كا تتميز تماماً عن الله خالقها ، والمعدة ، بعد الموت ، اذا كانت المادي ، والمتميزة عن الهيولى كا تتميز تماماً عن الله خالقها ، والمعدة ، بعد الموت ، اذا كانت خالصة ، المتنعم بمشاهدة الله الله الابد ، وبمشاهدة كالاته التي لا توصف ولا محمد ، مع بقائها متميزة عنه ، لها وجودها الشخصي . والفكرة الدينية الآسيوية ، هي عكس ذلك تماماً . فهي متميزة عنه ، لها وجودها الشخصي . والفكرة الدينية الآسيوية ، هي عكس ذلك تماماً . فهي التحولات التي قال بها تشو – هي كا قالت بها الطاوية ، فلنلق الآن نظرة حول تعاليم الهند الدينية . فاذا ما اقتصرنا على صلب المقيدة الهندوكية ، وجدنا البراهمان الكائن بذاته ، الواحد المطلق . وهذا البراهمان هو الهمال هو المقيدة الهندوكية ، وجدنا البراهمان الكائن بذاته ، الواحد و فالاتمان ، يخلق العالم بمجرد ما يفكر به ، فهو يخلق كل شيء بواسطة مايا ، او الخيلة . وليس من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعرف المها الانسان من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعرف المها الانسان من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعرف المها الانسان

بالاستبطان * اي الانسان المفكر ، هي مظهر من مظاهر ال Atman الشامل . اذا ، هنالك وحدة الشخصية بين النفس الفرد والنفس الشاملة . يجب الا نخلط بين اله Atman الانسان وبين « الأنا » الظاهري الذي هو حلقة في سلسلة الحالات الشعورية للأنا الشاعير ، الأنا المفكر ، والمنتعيز بالأنا المادي . قمل الأنسان ان يتبين ، في ما وراء ذاته ، الأنا الحقيقي ، النفس الالهية . واذ ذاك ، وبعد ان يكون الانسان رجع الى براهمان ، ينعم بالراحة الابدية ، وتضمحل فيسه الشخصية الانسانية .

ان هذه العقيدة الدينية والايمان لعلى طرفي نقيض ، وقد ترتبت عليها نتائسج باعدت كثيراً بين التفكير والحياة ، وبين الحياة الاوروبية والفكر الاوروبي. فاذا لم تكن الكائنات الخارجية والانسان نفسه سوى مظاهر متفيرة لهذا الجوهر الذات غير المتفير لافكار الاتساس الشامل المسكوني ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، الركون قط لشهادة الحواس ، وما العالم الخسارجي سوى مجموعة من الاوهام الزائلة . فهذه المظاهر تبقى حريسة بالازدراء . وما العلم والتاريخ الا تجريدات لاطائل تحتها . فالحقيقة المدركة وحدها هي الذات المفكرة . وهكذا يتسنى لنا ان ندرك وان نفسر كيف ان الهنود لم يستنبطوا العلم كالاوروبيين ولم يحاولوا قط في القرنين السادس عشر والسابع عشر ان يتفهموا العلم الاوروبي . وبامكاننا ان نطلق مثل هذا الحكم على الصينيين واليابانيين الذين قالوا بوحدانية الوجود .

فاذا ما كانت كل الكائنات مثاثلة او هي ذاتها بالاساس ، سهل علينا فهم القول بالتقمص او تناسخ الارواح ، ودورة التجسدات, فالنفس تحيى مع ما اقتبسته من فردية باتحادها بالجسم وتقتبس اكثر فردية بنسبة ما تزداد تعلقا بالظواهر ، اكثر منها بالأتمان . وبما تحتسبه من تراث خلال التجسدات الماضية يتكون اله karman ، الذي يجدد طبيعة هذه التجسدات التي سيتلبسها المرء في المستقبل ، ويوجه الفرد في كل من هذه التقمصات الجديدة . ولكي تتفادى النفس هذه التقمصات الجديدة . ولكي تتفادى النفس هذه التقمصات المتتابعة ، وبالتالي هذه الآلام التي تلازم هذه الكائنات ، عليها انتفقد او تتخلص من فرديتها ، عن طريق الزهد والتقشف والاتصال الرمزي . فاي معنى ، يبقى الكفاح يقوم به الانسان لاثبات فرديته ا فالشخصية او الذاتية هي الشر الاكبر ، واي معنى يبقى لكل مجهود يبذله المرء في سبيل التطور الاجتاعي ? لكل انسان الحياة التي استحقها في حيواته السابقة ، والسعادة لا تقوم قسط في هذا الهنساء الذي يحصل الحياة التي استحقها في حيواته السابقة ، والسعادة لا تقوم قسط في هذا الهنساء الذي يحصل عليه الانسان في هذا العالم المنفية ، رجل الحركة الانسانية ، في نظر الهندي ! او في نظر فيالبشاعة ويالفظاظة رجل النهضة ، رجل الحركة الانسانية ، في نظر الهندي ! او في نظر طرفي نقيض، في هذه الصورة التي قامت، من هنا وهناك : للعالم، لله المحياة الاخرى، للحياة الاغرى، للحياة الاغرى، للحياة الاغرى، للحياة الاغرى، للحياة الاغرى، للحياة اللنار وبا .

فالمسيحية امتزجت ؛ على مر السنين وكر العصور ؛ مع الحضارة الاوروبية ؛ ﴿ وَيُبِدُو انْ

انتشار هذه المسيحية ، يجب ان يسير وفقاً لسير الحضارة الاوروبية في تطورها وتموهـا، ، والمشكلة التي قامت بالفعل والتي كان على القرنين السادس عشر والسابع عشر مواجهة حلها ، هي تكييف الديانة المسيحية مع هذه الحضارات المتباينة دون أن تفقد شيئًا من خصائصها الميزة وطابعها المفرُّد . فقد كان الهندي والصيني والياباني مقيداً بالفعل ضمن قيود يستحيل عليـــه الافلات منها بمثلة بهذه الاوضاع الاجتاعية ؛ الحكمة الحلقات ؛ كنظام الطبقات والاسرة بمثلة بطقوس ومراسم واعراف دقيقة للغاية تضبط كل شاردة وواردة في اعمالهما اليومية. وهمده الأ'طر والقوالب الاجتاعية الجامدة التي كان لا بد للأوروبي ان يرزح تحتها لو عاش في جوها، وجد الآسيوي فيها والعيش تحت ظلالها ، النعمى وحياة مشتركة ، فوجد نفسه فيها موجها ، مُسيراً ، مشجعاً دون أن يتعرض لهذه الخاطر ولهذا الجهد المريز الذي يتعرض له الفرد الحر . فكل محاولة للتخلص من هذه الطقوس كانت بمثابة الخروج على الجتمع او بمثابة القيام بمفامرات ومجازفات تحف بها المخاطر من كل صوب ولم يكن في مقدور معظم الآسيويين ان يفكروا حديًا بالامر ، فكانت فرائصهم ترتعد لجرد التفكير بالتخلي عن عادات واعسراف وطقوس امتزجت بدمائهم امتزاج الراح بالماء . وكانت فرائص البراهمان ترتعش فرقاً ، ويذوب جسده عرقًا ، وتتقيأ نفسه بمجرد التفكير بمس احد دالمنبوذين. . فالصيني العالسسق بشباك هذه الاسر المترابطة الحلقات الشبيهة بالاسر الاغريقية القديمة في عهد هوميروس ، مثلا ، لم يكن في استطاعته ان يتخلى او ان يستغني عن طقوس علماء الآباء والجدود الذين لا يزالون يحيور مع الاسرة ، وان أشكل عليه امر رؤيتهم ، ويرون ما يجري ضمن الاسرة ، ويتتبعون خركات وسكنات اولادهم وذراريهم ، وهم يشعرون بالحاجة الى التكريم من قبل الاحياء، مع الاعتراف لهم بالقدرة على استنزال النكبات والضرائب عليهم اذا ما أحرجوا على ذلك . فلم يكسن في مقدور هذا الصيني أن يتفادى أو يتملص من الصاوات والمراسم الطقسية المحددة لكل ظرف من ظروف الحداة : كالدخول والخروج ، والوقوف والجلوس ، والنظر الى الآخسسوين ، واستقبال الضيف وتشييمه ، الخ . وكما انه لم يكن باستطاعته تفادي ضغط عبادة الجدود ، كذلك لم يكن بوسمه قط ان يتخلص من نفوذ الاب ، وضغط شيخ الاسرة أله الغد ، اذ كان عليه ارب يخفض من صوته ومن غلوائه عندما يكون في حضرته ، والذي له مــل. السلطة على كل افراد الاسرة ، يؤازر ، في الاشراف عليها ، مجلس الاختيارية المؤلف مسن شيوخ الاسرة كهاكان في الازدواجية التي وقع فيها عدد كبير من المرسلين بــــين التبشير بالانجيل وعملية التكييف.مع الطقوس ٬ رأت البابوية ان من الضرورة بمكان ان تنشىء ادارة خاصة بالاساليب الدينية هي مجمع نشر الایان (۱۹۲۲) وان تمین ، منذ عام ۱۹۵۹ قصادتین رسولیتین فرنسیتین ، لمسلم سلطات غير محدودة ، تديران ، باسم البابا ، الكنائس التي قامت في التونكين والحوشنشين، وتأخذ كل واحدة منها ، الادارة الروحية في الولايات الصينية الخس . وكان من المتوجب على هاتين القصادتين الزام المرسلين الاخذ بالفرارات المتخذة عام ١٦٤٤ م فالمرسل الكاثوليكي

مكلف بمهة دينية وليس بمهة وطنية. والتبشير بالمسيحية يجب ان يتلبس و آن يراعي صفات وعادات الشعب الذي تعمل الرسالة في محيطه . ليس المطلوب من هذه الرسالات فرض الحضارة الأوروبية على هذه البلدان وما فيها من شعوب واقدوام . و إحترزوا من ان تأتوا اي مجهود او ان تقدموا أية نصيحة يراد منها حمل هذه الشعوب على تغيير طقوسهم ومراسمهم وعاداتهم ، ما لم تكن مخالفة تماماً لمقائد الديانة المسحية واللآداب العامة » . وقد جاءت هذه التوصيات متأخرة جداً فقد كانت هذه الشعوب قد اخذت انطباعات مؤسفة للفاية ، ناهيك ان التوصيات لم تغير شيئاً في المشكلة . ان قضايا الطقوس الملابارية والطقوس الصينية لدليل قاطع على صعوبة تكييف المسيحية مع الحضارات الآسيوية . وهكذا بقيت المشكلة مستعصية دوغا حل .

اما المشكلة الكبرى فتمثلت في ان هذه الديانات الاسبوية ، بقطع النظر عن وحدة الوجود التي قالت بها ؟ ٤ ضمت شخصيات دينية قادرة على أن تشبع ما في النفس البشرية من منازع عالمة وتوق . فهذه Isthadera's الهندية التي تمشل بعض تجلبات براهمان او أميدا البوذيين ، والتي كانت تجسيداً للهادة الخالدة ، أعطت الناس الاله الحارس ، الخستير ، الجسير الخلص الواجب الحبة لما هو عليه من قداسة ، والذي لا غنى عنه لهذه النفوس العطشي للحنو والرأفة والحب والذي لاحدله . ان عدداً كبيراً من نساء الهند وجدن في الهندوكمة القواة على احتبال كل شيء ٬ والجود مجقوقهن وحياتهن لرجالهن : للباتبديفا ، هذا اليمل والآله مماً . ان نساء هنديات كثيرات غرسن في روع اولادهن انهم يحيون دوماً في حضرة كريشنا أنقياء الفكر والاعمال . ان عددًا كبيرًا من الارواج والآباء نسجوا على حياة راما وفضائله كما تأسوا بمثال الافاتار الحارس ، رمز الفضيلة والتقوى في الاسرة . أن عدداً كبيراً من الصبنين والمابانين ونقاوة . فقد رأى المرسلون في هذه الطقوس بقايا هذه الحقائق الالهية ، بقيسة الوحى الالهي البدائي ، وبنوا عليها آمـالاً عراضاً . فاي حاجة ، بعد هذا ، عند هذه النفوس التقية ، الى المسيح ، مع أنه خليق بكل محبة . لا يمكن أن يكـون ، بالاكثر ، الا وأحداً مـن هؤلاء الـ Isthadevas ، العطوف على الاوروبيــــين ، مع ان هذا المسيح في نظر المرسلين ، هو المسيح الذي وحده يستطيم أن يشبم النزعات التي تثيرها هذه الطقوس الاسبوية .

وهكذا بقيت آسيا غريبة عن اوروبا 'مقفلة ابوابها في وجه اوروبا ' رافضة بكل قواها ' ما رغبت اوروبا في تقديمه لها ' باعتباره الخير الاكبر ' وهكذا رفضت آسيا بكل ما فيها من نزعات ' المثل الاوروبية والسعادة كما فهمتها اوروبا .

هذه الجموعة التي يؤلف هذا الجزء احد اجزائها تأبى اصدار اي حكم او رأي يراد منه التقييم والموازنة . هنالك فرق كبير بين الرغبة في التمبير عن حكم او رأي وبين القيام بعملية تصنيف المجتمعات البشرية عــــلى اساس من المقاييس الوصفية . فعملية التصنيف تفضي دوماً

الى اقامـــة نظام نسبي في الحتوى وفي القوة الناميين فالجانب الذي يسجل اعلى درجته من حيث التركيب او الحتوى يقال فيه انسه اسمى وارفع او اعلى ، وهو تعبير انما يشير الى رتبته او درجته في نظام ما ولا ينم قط عن اي حكم تقييمي . فاذا ما رتبنا المجتمعات وفقاً لقدرتها على البحث العلمي ، او مجسب ما لها من طاقة التأثير على الطبيعة ، وجدنا ان اوروبا فاقت ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كل المجتمعات البشرية الاخرى التي قامت او طلعت في اي جزء من العالم ، اذ ذاك . فهناك اقوام عديدون ، كالزنوج في افريقيا والهنود الحسر في اميركا ، وغيرهم من الاقوام الاسيويين امثال Tupis guaramis ، والسيو والكريك والمياوس وغيرهم ، شاملة . هنالك شعوب اخرى٬ كالمايا والازتيك وشعوب الهند والشرق الاقصى والصين واليابان٬ بلغوا في تطورهم ، الدور الثاني ، الذي يقول بعلم الهيئة الاحيائي ، حيث تأخذ الحرف والمهن تعى نفسها وتعتمد مبدأ الذاتية ومبدأ التضاد والتباين ، وحيث تطلق على الاشارة او الرمسز مدَّلُولًا معينًا تبدو معها الاشياء والمسميات ذات خصائص بميزة تنفي او تقصي ما هو ليس منها، وحيث تشتد وتتوثق الروابط الفكرية او المنطقية ، بيـــــــــنا يبقى الاساس اكتناها او بدائياً ، والتطورات رمزية . واخيرا تأتي الشعوب التي بلغت طور العقلانية النوعية ، يرافقها منطق محكم يربط بين الافكار ، والاستدلال ، والعلة السببية وهندسة الاجسام . بلغ هذا الحد من الرقي اكثر المتطورين في الاسلام ، والاوروبيون الذين لا يزالون يترسمون هدي هذه العقلانية النوعية التي حققوها ، في بلاد الاغريق ، منذ القرن السادس . ق. م ، وتجاوزوها بعيداً ، في القرنسين السادس عشر والسابع عشر ليبلغوا معها التفكير والعصري ، مع العقلانية الكية التي تفلسف الكم في هذه المقومات الهندسية الكامنة تحت الكم ، هذه العناصر التي تتمثل في هذه الانساب العددية او في هذه الملاقات التي تربط بين العلة والمعلول ؛ او بين السبب والنتيجة ؛ واخـــــيراً يطلع في هذا الدور نوابغ امثال بسكال ونيوتن وهؤلاء الميكانيكيون الذين عرفوا ان يلائموا بين العقلانية الكمية الكرتزيانية والعقلانية التجريبية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اصبح في مكنة الاوروبي ، أن يفهم ويعلل الظواهر الطبيعية وأن يفيد منها بشكل يتجأوز بل يبز ورجسة معرفة جميع الشعوب لها ويجعله مهيب الجانب من الجميع ويرغمهم على الخضوع للاوروبي أو يحملهم على استعالهــا في محاربته ومناهضته او لمراوغته مستغلا انقسامــات الاوروبيين ومشاحناتهم .

فالا مَ نرد هذا السبق يسجله الاوروبي على غيره من سكان القارات الاخرى ، والذي يجب رده ، كما يبدو لنا ، الى تحرر الفرد تدريجياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ فالفسرد يتحرر تدريجياً من ضغط الجماعات : اي من ضغط الاسرة والمجتمعات الريفية او المدنية ، والنقابات والجامعات ، وغير ذلك من مظاهر واشكال هذه الجماعات . فشعور الفرد بذاته .

وتوعيته لحقوقه الطبيعية ، والجهد الذي يبذله لتقوية الروح الاستقلالية في الفرد المفكر ولترسيخه في النفس ، وثقته بالحكم او الرأي الشخصي ، والارادة القويسة ، والتمرد على الحسدود والسدود والقيود ، ونزعه المطلق وللامتناهي ، كل هذا يبرز هنا ، في اوروبا بوضوح اكثر من اي مكان آخر في الدنيا . صحيح ان الهيئات الاجتاعية هي الآن اقوى من قبل بما لا يقاس . فقد قيدت الفرد اكثر مما قيدته هذه الهيئات المجتمعية في القرن التاسع عشر الذي كان عبارة عن نثار من الافراد . فالسلطة الابوية ، وروابط الدم ، وتأثير النقابات والهيئات المهنية ، وضفط الكنيسة ، وتأثير الدولة ، لا يزال الفرد يشعر بها اكثر من شعوره بها في عهد الحرية الفكرية . ولكن ما عسى ان يكون هذا كله ، اذا ما قسناه بهذا الضفط والارهاق تقوم به القبيلة التي لا تزال تأخيذ بعقيدة الاحيائية ، وقوانين الطبقية المرهقة ، وطقوس الماثلة في الصيغ ؟ قالفردية الاوروبية ، وان شئت فقل تحرر الشخصية البشرية في اوروبا ، اذ ذاك ما كان التميير الاولى شديداً او قويا ، هي الحافز الاكبر والاقوى لهذه النشاطات ، ولهذه الجهود ، كان التمير الاولى شديداً او قويا ، هي الحافز الاكبر والاقوى لهذه الناعث الاول والسبب الاكبر ولهذا السعي الحثيث وراء البحث العلمي الذي يمكن ان يكون الباعث الاول والسبب الاكبر الذي يكمن وراء رقى اوروبا وتطورها .

وهذه الشخصية البشرية التي تبرز وتتجلى ، ما عسى ان تكون ، ياترى ، الدوافع الكامنة وراء بروزها?. رد بعض الأوروبين، منذ القرن السابع عشر هذا التفوق الى العرق او الجنس. هنالك عروق واجناس أوتيت القدرة على الكشف والاختراع كا اعطيت عروق اخرى ، القدرة على ألقبس والتقاليد. و ان نبوغ الابداع والخلق يؤمن لملوماتنا ومعارفنا التقدم السريع والتطور الحثيث هو من نصيب بعض الشعوب دون غيرها. اما الامم الآخرى فهي مطبوعة على التقليد والتمثل. والقدرة على الخلق والابداع هي هبة من الطبيعة تجود بها حتى على ابسط الناس واحطهم قدراً. وهمذه القوة العقلية الخارقة ، تجملنا بمد ان تخرجنا من جو الأفكار العادية ، نحلق ونرتفع لنبلغ افكاراً جديدة كانت مجهولة من قبل ، هي ولا شك ، من نصيب الأوروبيين، وحدهم تقريباً » (اكاديمة العلوم في باريس) فالقضية في القرن السابع عشر كانت من الوضوح بحيث لا يمكن نكرانه . وكان لا بد من التدليل بالبرهان القاطع والحبحة الدامغة على ان الطبيعة قد حرمت باقي الناس من موهبة الكشف العلمي والابداع ، وان التأخر الذي على ان الطبيعة قد حرمت باقي الناس من موهبة الكشف العلمي والابداع ، وان التأخر الذي مقدمة العالم ، وفي طليعة القارات الأخرى ، في القرن السابع عشر ، في تاريخ البشرية فلم يكن مقدمة العالم ، وفي طليعة القارات الأخرى ، في القرن السابع عشر ، في تاريخ البشرية فلم يكن الام معها دوماً على مثل هذا الشكل .

وقد وقع بمض الأوروبيين تحت تأثير الفوارق الجنرافية بنوع خاص ، ولا سيا فارق المناخ او الاقلم . فقد جعلوه مسؤولاً ، الى حد كبير ، عن خمول الآسيويين . فاسمع ما كتبه المالم الجفرافي الفرنسي شاردن عن الفرس : « ان ذلك ناجم عن انهم يقيمون في جو أحلم من الجو الذي نميش فيه . فليس فيهم من الدم ما فينا نحن سكان الشال ، وهذا الدم لا يغلي فيهم كا

يغلي قينًا . قالقسم الأنشط من دمائهم كان اكثر تعرقًا من دمائنًا ، وهذا ما يفسر لنا كنف انهم ليسُوا عرضة لهذه الحركات التي يأتيها الجسم والتي تلسم ، الى حد بعيد ، بالحفة والقلق ، والتي كثيراً ما تدفع بالمرء الى النزق والحدة . . . فأنا اعتمد دوماً على المناخ في كل مرة اود ان افسر عادات الناس واخلاقهم حتى ما فيهم من عبقرية ونبوغ ؛ لأنني اجد هنا في المناخ من الأسباب والدواقع القومية ما لا اجده في الدوافع الآخرى التي قد يتذرع بها المرم. فالهواء الذي يهب على أوروبا يثير فينا الشدته ، من الرغاتب والاحتياجات ما لا يتحسس بمثلها الناس العائشون في الأقاليم الشرقية . فهو يقتضي وقاية اكبر . وبما ان الهواء عندنا يولي الجسم حرارة طبيعية اقوى بما هي في غير اقليم ، فهو يجعل الدم اكثر غليانا كا يجعل نفوسنا، بالتالي ، تجيش بأحاسيس القلب التي نتملاها . والحال فان الحالات التي نشعر بها من جهة ، وهذا القلق الطبيعي الذي يساورنا من جهة اخرى . . . د يمكن ان نرد ما فينا من روح الفضول وهذا التوق الشديد للعلم والمعرفة ، بما يجيش به صدر الاوروبي . وقد رد برنييه ، من جهته، الى مناخ الهند واقليمها المسيطر، هذا الوهن وهذا الخول الذي تبينه في نفس الهندي . ﴿ فَلَا نَجُدُ فَيْهُ مِنَ الْحَيْوِيةِ وَالنَّسَاطُ مَا تَجْدُهُ في سكان بلادنا الباردة . وهذا الخول ، وهذا الانحطاط الذي يبعثه الحر في الجسم والنفس ، هما أشبه بمرض قائم باستمرار تقريباً ، وهو مرض مزعج للجميع ولا سيا في او قات القيظ الشديد، ابان الصيف ، ولا سيما للاوروبيين الذين لم تألف اجسامهم بعد ، مثل هذه الحوارة الشديدة » . واي شيء لم يكتبه الرحالة والمؤرخون ، عن هذا الانحطاط والخول الذي تلحقه الطبيعة بسكان الاقطار الآسيوية الخاضمة للرباح الموسمية ، وعما عليه هذه الجماهير الآسيوية من تبلد والتساع، امام الاوبئة الفتاكة ? قد يستنتج البعض من هذه الاقوال ان بلاد العجم كانت جد ملائمـــة للعمل الفكري وان الشمور بالحاجة الق جاشت فيصدور الاسيوبين لمقاومة الطبيمة والوثوف فيرجهها، كان يجب ان يحرك قواهم العقلية ويحملهم على الابداع. ومعترض يعترض قائلًا ان المناخ السائد في ا وسيعط اليابان لا يخدر نشاط الانسان وان اليابان كان يجب ان تكسبون منارة اختراعات واكتشافات علمية ، بدلاً من ان تقتبس من الصين ومن جزر السوند مبادىء حضارتها . كذلك يمكن للبعض ان يحتج ملاحظاً ان بعض الاجناس كالزنوج مثلًا يزدهرون فعلاً ، في المناطـــق الاستوائية ، وإن مناخ المنطفة الاستوائية الذي يلائمها كثيراً ، لا يمنع عليها إن تبلغ درجـــة عالية من الرقى .

ولما كان المرق والوسط الجفراني لا يؤلمان تفسيراً مقنماً ولا تعليلاً كافياً لظاهرة تفسوق الأوروبي ، امكن الاستعانة بالظروف التاريخية المصيرية كزوال عهد الإقطاع وتسكوين الدولة الحديثة ونشأتها ، وتطور المواصلات التجاربة والبحث عن المعادن الثمينة وتدفقها على أوروبا . اذ ان هذا الأوروبي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذي يبدو لنا انه يعاني الحرمان ، هو مع ذلك احسن سكاني الارض غذاء" . قد نتذرع ، كذلسك بنظام الدول الآخذة بالنمو

واعادة تنظيم الملاقات الدولية التي ساعدت على تقوية التبادل الثقافي والحضاري وازدهار دولة الادب ، وهذه الحرية الاصلاحية الدينية التي الهبت قلب الانسان بالنشاط ، اذ ان المسيحية ، هذه الديانة القديمة العهد والنشأة ، هي ديانة عمل تقتضي من الانسان ان يستثمر ، على الوجه الأكمل ، هذه الوزنات التي عهد الله بها اليه ، فيعيد الوزنة عشرة اضعاف ، فيدلل عن محبته لله باطعامه الجياع ، وكساء العريان ، وان يرغب عن مثالية الاعتدال الباهتة ، سعياً منسه وراء الحب الذي لا حد له وطلب المطلق واللانهائي . وهذه المؤثرات والحوافز الآتية لم تسكن لتؤمن وحدها سيادة أوروبا وتفوقها ، اذ انه كان قسد تم لأوروبا الى جانب هذه التقنيات التي اخذت باعدادها منذ القرون الوسطى، هذه الروح الكلاسيكية الناقدة ، وهذا القياس اليوناني وهندسة اقليدس ، اس العلوم ، وهذه المسيحية التي كانت خمير النشاطات . ولهذا نرانا 'نرد قضيسة المسببات الى الاصل او المحتد ، وبالتالي نعود الى العرف والى الوسط الجفسراني ، والى ظروف تاريخية جديدة ، وهكذا ندور على انفسنا في حلقة مفرغة دونها اي امل بالخلاص .

ويبدو أن قضية الاسباب التي أمنت التفوق لاوروباءفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، ان يقنم بتسجيل واقع هذا التفوق وان يجد له بمض الاسباب الاولية المعررة لتحقيقه . فهــذه الحضارة الاوروبية ؛ بها تم لهامن تقنيات متنوعة ؛ وعا تم لها من مؤسسات دولية ونظم ادارية ؛ وبما فسها من فلسفات ومعرفة تتعلق بالله ، اتاحت للانسان الامل بان 'يشبع باستمرار ، أكثر فاكثر ، ما فيه من توق للحياة والاشعاع والانتشار ومن تطلع الى العلى ، وطاب الجمهـــول ، والبحث عن المطلق واللامتناهي من الجلود . وهي كلهما نوازع دفينة في اعماق نفس الانسان الذي سمى دوماً او بالاحرى ، علل النفس دوماً بالوصول اليها . أن مثل الجياهير الآسيوية التي فجرت خلافاً لمنطق البراهمان أو خلافاً لمنطق بوذا ، ولمنطــــق فشنو وكرشنا ورامــــا أو شخصية اميدا الحبوبة ٬ ومثال السيخ ووانغ - يانغ - رمنغ نوازح الطبيمة البشرية ٬ متحررة من ربقة الطبقات وعبودية الجدود ، كل هذا دليل على أن الانسان ، أينا وجد ، أنجه بنظره إلى التعرر ؛ إلى التجلي واتيان العظائم ؛ والتوق الشديد إلى الحياة . أن ﴿ أُووَا لَمْ تَسَوَّاهُ اسْتَثَنَاءٌ ولا شذوذًا . فهي جاءت في الطليمة ، في المقدمة ، وكانت الاولى بين اقرأن مثماثلين.غيران مثل ﴿ فلسفة الاغربق ورياضياتهم ؛ وهي من بعض نتائج لقاء اوروبا وآسيا ، وهساده المسيحية التي جاءت تأليفا انصهرت فيه العقائد والنزعات الاوروبية والآسيوية ، كل ذلك كان بمثابــة اشارة الى الطريق ؟ إلى المستقبل .

ان حكاية بطولة اوروبا ٤ في القرنين السادس عشر والسابع عشر فتحت باب الرجاء والامل على مصراهيه امام البشرية جماء .

المــــــراجع ١-النهضة

- R. MOUSNIER, La Renaissance en Italie au XVI siècle. Sociétés et civilisations, cours multigraphié. Centre de Documentation universitaire, 1956 et 1957,
- André CHASTEL. Art et humanisme à Florence au temps de Laurent le Magnifique. Etudes sur la Renaissance et l'Humanisme platonicien, thèse de lettres, Paris, P.U.F., 1959.
- W. FERGUSON. The Renaissance in Historial Thought. Five centuries of interpretation, Cambridge (Mass.), 1948, trad. franc., Paris, Payot.
- J. BURCKHART, Die kultur der Renaissance in Italien, ein Versuch, Bâle, 1860, trad. franc., par M. Schmitt, sur la 2º édition.
- I. NORDSTROM, Moyen Age et Oenaissance, trad. franç., Paris, Payot, 1933.
- E. GILSON, Héloise et Abélard, Paris, Vrin, 1938.
- A. RENAUDET, Définition de l'Humanisme, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance, Travaux et Documents, Paris, Droz, 1945.
- P.O. KRISTELLER, The Philosophy of Marslio Ficino, 1943,

André CHASTEL, Marsile Ficin et l'Art, Paris, 1954.

- O. FISCHEL, Raphael, Londres, 1948.
- Ch. DE TOLNAY, Michel-Ange, 4 vol., 1943-1954, en particulier le tome II.. The Sixtine Ceiling, Princeton, 1945.
- du même, Werk und Weltbild des Michel-Angelo, coll. Albae Vigiliae, Zûrich, 1948 Ludwig PASTOR, Histoire des Papes, trad. franç., t.VI.
- B. CASTIGLIONE, Il Cortegiano, éd. V. Clan. Florence, 1894.
- W. VON SEIDLITZ, Léonard de Vinci, 2º éd., 1935.
- L. VENTURI, La critica e l'arte di Leonardo da Vinci, 1919.
- H. WÖLFFLIN, Die klassische kunst, 7°éd., 1921, trad. franç., sur 4° éd. par C. de MANDACH.
- P. DUHEM, Léonard de Vinci, ceux qu'il a lus et ceux qui l'ont lu, 3 vol., Paris, 1906; Léonard de Vinci et l'expérience scientifique du XVIº siècle, Paris, P.U.F., 1953. Colloques internationaux du C.N.B.S., Sciences humaines, Colloques des 4-7
- A. KOYRE, éd. de Copernic, Des Révolutions des orbes célestes, textes et traductions pour servir à l'histoire de la pensée moderne, Paris, Alcan, 1934.
- A. KOYRE, Etudes galiléennes, 3 vol., Paris, Hermann 1939.
- E. GUYENOT, Les sciences de la vie aux XVIº et XVII siècles, L'idée d'evolution, coll. «L'Evolution de l'Humanité», Paris, Albin Michel, 1941,
- R. LENOBLE, Morsenne et la naissance du mécanisme, Paris, Vrin, 1943.
- E. DELCAMBRE, Le concept de la sorcellerie dans le duché de Lorraine au XVIº et XVII° siècles, Nancy, Société d'Archéologie lorraine, 3 vol., 1948-1949.
- POMPONAZZI, De immortalitate Animae, éd. dans Philosophy of man, sous la dir. de E. CASSIRER, 1948; Les causes des merveilles de la nature, éd. H. Busson, Paris, 1930.

- P. MESNARD, L'essor de la philosophie politique au XVI° siècle, 2° éd., revue et augmentée, Paris, Vrin, 1952.
- A. RENAUDET, Machiavel, Paris, Gallimard, 1942.
- A. LEFRANC, La vie quotidienne au temps de la Renaissance, Paris, Hachette, 1938.
- P. LAVEDAN, Histoire de l'urbanisme, t. II, Renaissance et temps modernes, Paris, Laurens, 1941.
- E. MALE, L'art religieux à la fin du Moyen Age, Paris, Colin, 1949.
- J DELUMEAU, La vie économique et sociale de Rome dans la seconde moitié du XVI° siècle, Paris, E. de Broccard, 2 vol., 1957 et 1959.
- H. KRESTCHMAYR, Geschichte von Venedig, 2 vol., 1923 et 1934.
- P. SARDELLA, Commerce et spéculation à Venise au milieu du XVII° siècle, Paris, A. Colin.
- R. ROMANO, Aspetti economic i degli armamenti navali veneziani nel secolo XVI^o., Rivista storica Italiana, 1954.
- G. MARANINI, La costituzione di Venezia, Venise, 2 vol., 1927 et 1931,
- H. HAUVETTE, L'Arioste et la poésie chevaleresque à Ferrare, Paris, 1927.
- M. CATALANO, Vita di Ludovico Ariosto, 1930, 2 vol., «Biblioteca del Archivum Romanicum».
- A. PIROMALLI, La cultura a Ferrare al tempo de Ludovico Ariosto, Florence, 1953. PERRENS, Histoire de Florence depuis la domination des Médicis jusqu'à la chute de la République, 1485-1512, Paris, Hachette, 1888.
- R. De ROOVER, The Medici Bank, New York, 1948,
- P. VILLARI, Savonarola, 2 vol., 1898.
- R. CAGGESE, Firenze dalla decadenza di Roma al Risorgimento d'Italia, t. II, III, Florence, 1913, 1921.
- M. VALERI, La corte di Lodovico il Moro, 2 vol., Milan, 1913.
- C. SANTORO, Gli Uffici del Dominio Sforzesco, 1450-1500, Milan 1948.
- G. BARBIERI, Economia e politica nel ducato di Milano, 1356-1545, Milan, 1938.
- E. FANFANI, El origine delle spirito capitalistico in Italia, 1933.
- F. CHABOD, Lo stato di Milano nell'impero di Carlo V, Roma, 1934; Per la storia religiosa dello stato di Milano durante il regno di Carlo V, Bologne, 1938.
- B. CROCE, Storia del regno di Napoli, «Scritti di storia letteraria e politica», 9, Bari, 1925.
- G. CONIGLIO, Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto. Amministrazione e vita economico-sociale, Naples, 1952.
- A. ALTAMURA, L'umanismo nel Mezzogiormo d'Italia, Florence, 1941.

٢ _ النيضة

- A. RENAUDET, Préréforme et humanisme à Paris pendant la première guerre d'Italie, 2° éd., Librairie d'Argence, 1953; Erasme, sa pensée religieuse et son action, Paris, Alcan, 1926; Etudes érasmiennes, Paris, Droz, 1939; La pensée religieuse de Lefèvre D'Etaples, dans Mélanges Bruno Nardi, Medioevo e Rinasciments, II, 1955
- M. BATAILLON, Erasme et l'Espagne, Paris, 1936.
- P. MESNARD, La Paraclesis d'Erasme, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», t. XIII, 1951.
- J. THOMAS, Le Concordat de 1516, 3 vol., 1910.
- L. PASTOR, Histoire des Papes, vol. VI et suiv.
- P. MESNARD, La lettre d'Erasme à Paul Volz, Revue thomiste, 47, 1947; L'Essai sur le libre-arbitre d'Erasme, Paris, P.U.F., 1945.
- L. FEBVRE, Un destin; Martin Luther, Paris, P.U.F., 1945.
- LUTHER, Le serf-arbitre, éd. Denis de Rougemont, 1936.

- R. MOUSNIER, Etudes sur la France au XVI° siècle, 2° partie, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1959; Saint-Bernard et Luther, dans Témoignages, Cahiers de la Pierre-qui-Vise, Juillet 1953.
- E. GILSON, Moyen Age et Naturalisme antique, dans Héloise et Abélard, Paris, Vrin, 1938
- Saint Ignance de LOYOLA, Les exercices spirituels, éd. Iparraguire, Madrid 1952, ou éd. Jeunesseaux, nomb, éd. depuis 1853.
- L. FEBVRE, L'origine des Placards de 1534, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», 7, 1945.
- P. WENDEL, L'évolution de la pensée de Calvin, Paris, P.U.F., 1950.
- H. BUSSON, Le rationalisme dans la li'térature française de la Renaissance, 1533-1601, 2° éd., Parls, 1957.
- L. FEBVRE, Le problème de l'Incroyauce au XVI° siècle, La religion de Rabelais, coll. «L'Evolution de l'Humanité», 53, 1942.
- P. IMBART de la TOUR, Les origines de la réforme, 4 vol., Paris, depuis 1905.
- R.H. TAWNEY, La religion et l'essor du capitalisme, trad. d'O. Merlat, Paris, Rivière, 1951.
- J. BARUZI, Saint Jean de la Croix et le problème de l'expérience mystique, Paris, Alcan, 1924.
- H. HAUSER, La response de Jean Bo iin à M, de Malestroit (1568), Paris, Colin, 1932; Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800, Paris, Les Presses Modernes, 1936
- W. SOMBART, Le bourgeois, trad, Jan délévitch, Paris, Payot, 1926.
- R. EHRENBERG, Das Zeitalter des Fugger, Iéna, G. Fischer, 1896, 2 vol.
- J. STRIEDER. Die Inventar der Firma Fugger aux Jahre 1527, Zeitschrift für die Gesante Staatswissenschaft, Hgg. dr. K. Bücher, Ergänzunsheft XVII, Tübingen, 1905.
- J. STRIEDER, Studien zur Geschichte Kapitalisticher Organisations formen, München et Leipzig, Duncker and Humblot, 1914; Jacob Fugger der Reiche, Leipzig, Quelle and Meyer, s.d.

٣ _ النبضة الاقتصادية

- G. ZELLER, Aux origines de notre système douanier, Les premières taxes à l'importation, Publications de la Faculté des Lettres de Strasbourg, Mélanges, 1945, III, Etudes historiques, p. 165-217.
- G. PARENTI, Prime récerche nella rivo'uzione dei prezzi in Firenze, Firenze, 1939.
- F. SIMIAND, Recherches anciennes et nouvelles sur le mouvement général des prix, Paris, Domat-Montchrestien, 1932.
- W.H. BEVERIDGE, Prices and wages in England from the XII to the XIXth century, vol. 1, Londres, Longmans, 1939.
- A. FANFANI, La rivoluzione del prezzi a Milano nel XVI e XVII secolo, Milano, 1934.
- E.J. HAMILTON, Spanish mercantilism before 1700, Cambridge (Mass), Harvard University Press., 1932; American Treasure and the price revolution in Spain 1501-1650, ibid., 1934; The decline of Spain, Economic history review, mai 1938.
- R. DOUCET, Lyon au XVIº siècle, 1938.
- F. BRAUDEL, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, Colin, 1949.
- R. de ROOVER, L'évolution de la lettre de change (XIV° XVIII° siècle), coll. «Affaires et gens d'affaires», no 4. Paris, A. Colin, 1953.
- J. BILLIOUD, E. BARATIER, R. COLLIER, F. REYNAUD, Histoire du commerce de Marseille, t III (1480 - 1599), Paris, Plon, 1951.

- R. CARANDE, Carles Quintes y sus ban queres, 2 vol., Madrid, 1943 et 1949.
- F BENOIT, L'outillage rural et artisa nal Paris, Didier, 1947.
- H. LAPEYRE, Une famille de marchands, les Ruiz, Paris, Colin. 1955.
- J. GENTIL da SILVA, Stratégie des aflaires à Lisbonne, Paris, S.E.V.P. E.N., 1956, coll., «Affaires et gens d'affaires».
- A.G. MANKOV, Le mouvement des prix dans l'Etat russe du XVI siècle, Paris, S.E.V.P.E.N., 1957, coll. «Oeuvres étrangères», III.
- Dr. L. MERLE, La métairie et l'évolution agraire de la Gâtine poitevine du moyene Age à la Révolution, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Les hommes et la terre», II.
- R. MOUSNIER, Etudes sur la France, 1492-1559, 1ère Partie, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
- J. CRAEYBECKX, Les vins de France aux anciens Pays-Bas (XIII°-XVI° siècles)
 Paris S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Trafics».
- A. TENENTI, Naufrages, corsaires et assurances maritimes à Venise, 1592-1609, ibid., 1959.

٤ _ نبضة الدولة

- F. HARTUNG et R. MOUSNIER De quelques problèmes concernant la monarchie absolue, Rapport pour le X° congrès international des Sciences historiques, Rome, 1955.
- TASWELL-LANGMEAD, English constitutional history, 10 éd.
- NEALE, The Elizabethan House of Commons, Londres, Cape, 1949.
- R. DOUCET, Les institutions de la France au XVI° siècle, 2 vol., Paris, A. Picard, 1948
- F. OLIVIER-MARTIN, Histoire du droit français, Paris, Domat-Montachrestin, 1948,
- R. MOUSNIER, La vénalité des offices sous Henri IV et Louis XIII, 1ère Partie, XVI° siècle, Rouen, Maugard, 1945.
- W.F. CHURCH, Constitutional thought in sixteenth century France, Harvard University Press, 1941.
- P. IMBART De la TOUR, Les origines de la Réforme, I, Paris, 1905,
- R. MOUSNIER, Etudes sur la France, de 1492 à 1559, lère Partie, cours multigraphié, Centre de Documentations universitaires, 1957.
- R. FILHOL, Le Premier Président Christophle de Thou et la Réformation des Coutumes, Paris, Sirey, 1937.
- H. DROUOT, Moyenne et la Bourgogne, 2 vol., Paris, H. Picard, 1937.
- R. MERRIMAN, Rise of the Spanish Empire, t. III et IV.
- G. CONIGLIO. Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto, Naples, Edizoni scientifiche italiane, 1951.
- H. G. KOENIGSBERGER, The government of Sicily under Philippe II of Spain, London, 1951.
- J. GOUNON-LOUBENS, Essais sur l'administration de la Castille au XVI° siècle, Paris, 1860.
- F. L. CARSTEN, The origins of Prussia, Oxford, 1954.
- A. EPCK, Le Moyen Age russe, Paris, 1933.
- KUTRZECA, Grundriss der polnischen Verfassungs Geschichte, trad. sur la 3 éd., de 1911, par W. Christiani.
- Fl. HARTUNG, Deutsche Verfassungs Geschiehte, 16 ed., Stuttgart, 1959.
- G. ZELLER, La réunion de Metz à la France, Paris, les Belles-Lettres, 1926; La France et L'Allemagne depuis dix siècles, Paris, Collin, 1932.
- J. BABELON, Charles Quint, Paris, S.E.F.I., 1947.
- P. de DAINVILLE, La géographie des humanistes, Paris, Beauchesue, 1940.

- G. ZÉLLÉR, Le siège de Metz par Charles Quint, Nancy, Socia. L'Impressions typographiques, 1943.
- C.M. CIPOLLA, Mouvements monétaires dans l'Etat de Milan (1580 1700), Parls, A. Colin, 1952.
- N. W. POSTHUMUS, Inquiry into the history of prices in Holland, Leiden, E.J. Brill, 1946.
- J.A. HAMIL'I'ON, War and prices in Spain, Cambridge (Mass.) Harvard University Press, 1947.
- J. FOURASTIE, Machinisme et bien-être, Paris, Les Editions de Minuit, 1951.
- HANTISCH (H.), Die Geschichte Oesterreich, I et II, Grez, Steyrische Verlag, 1950.
- J. ANDERSSON, Schwedischte Geschiente, Munich, Oldenbourg, 1950.
- V. L. TAPIE, La France de Louis XIII et de Richelieu, Parls, Flammarion, 1952,
- R. MOUSNIER, Les réglements du Conseil du Roi sous Louis XIII, 1945.
- E. d'ORS, Du baroque, Paris, Galtinard, 1935.
- E. MALE, L'art dengieux après le Concile de Trente, Paris, Colin, 1951.
- L. HAUTECOEUR, Histoire de L'architecture classique en France, I et II, 4 vol., Paris, A. Picard, 1943-48.
- J. ORCIBAL, Jean Duvergier de Hauranne, Abbé de Saint-Cyran, et son temps, Paris, Vrin, 1947.
- A. ADAM, Histoire de la littérature française au XVII^e siècle, 5 vol., Paris, Domat-Monthrestien, depuis. 1949
- R. LEBEGUE, De la Renaissance au classicisme. Le théatre baroque en France, «Bibl d'Humanisme et Renaissance», 1941, t, I.
- J.B. DUMAS, Philosophie chimique.
- P. DUHEM, Evolution de la mécanique, Paris, Joanin, 1903.
- R. PINTARD. Le libertinage érudit, Paris, Boivin, 1943.
- P. GOUBERT, Beauvais et le Beauvaisis au XVII° siècle, étude sociale, thèse de lettres, Paris, 1958; Families marchandes sous l'Ancien Régime, les Danse et les Motte de Beauvais, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Affaires et gens d'affaires»
- P. BLET, Le clergé de France et la Monarchie, 2 vol., Rome, 1959.
- V. L. TAPIE, Baroque et classicisme, Paris, Pion, 1957, coll. «Civilisation d'hier et d'aujourd'huie».
- P. ARIES, L'enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime. ibid., 1960,
- R. BRAY, La formation et la doctrine classique en France, Paris, Hachette, 1931.
- D. MORNET, Histoire de la littérature irançaise classique, Paris, Colin, 1950.
- P. DESJARDINS, Poussin, Paris, Laurens, 1904; La méthode des classiques français, Paris, Colin, 1904.
- L. RIVAILLE, Les débuts de P. Corneille, Paris, Boivin, 1936.
- O. NADAL, De quelques mots de la langue cornélienne, Paris, Galtimard, 1943; Le sentiment de l'amour dans l'oeuvre de Corneille, ibid;
- A. SCHIMBERG, L'éducation morale dans les collèges de la compagnie de Jésus en France sous l'Anclen Régime, H. Chaniniou, 1913.
- A. KOYRE, Trois leçons sur Descartes, Le Caire, 1938.
- E. GILSON, Etudes sur le rôle de la pensée médiévale dans la formation du système cartésieu, Paris, Vrin, 1951.
- G. GILLES, Les origines de la grande industrie métallurgique en France, Paris, Domat-Montchrestien, 1947.
- H. HAUSER, La pensée et l'action économique du cardinal de Richelieu, Paris, P.U.F., 1944.
- J. ORCIBAL, Louis XIV contre Innocent XI, Paris, Vrin, 1949; Louis XIV et les Protestants, ibid., 1951.
- R. MOUSNIER. Etat et commissaire. Recherches sur la création des intendants des provinces (1634 - 1648), Forschungen zu staat und Verfassung, Festagbe für fritz Hartung, Dunchen et Humb'ot, Berlin, 1958.
- A. G. MARTIMORT, Le Gallicanisme de Bossuet, coll. Unam Sanctam, 1953.

- C. G. PICAVET, La diplomatie française au temps de Louis XIV, Páris, Alcan, 1939.
- J. BARUZI, Leibniz et l'organisation religieuse de la terre, Paris, Alcan, 1907.
- H. GILLOT, Le régne de Louis XIV et l'opinion publique ea Allemagne, Parls, Champion, 1914; La querelle des Anciens et des Modernes, Parls, Champion, 1914.
- G. ZELLER, L'organisation défensive des frontières du Nord et de l'Est au XVIII^e siècle, Paris, Berger-Levrault, 1928.
- J. SAINT-GERMAIN, Les financiers sous Louis XIV, Paris, Pion, 1950.
- P. HAZARD, La crise de la conscience europénne, Paris, Bolvin, 1935,
- P. MOUY. Les développements de la physique cartésienne, Paris Vrin, 1934.
- L. DEFOSSEZ, Les savants du XVII^o siècle et la mesure du temps, Lausanne, Ed. du Journal suisse d'Horlogerie et de Bijouterie, 1946.
- P. BRUNET, Introduction des théories de Newton en France, I, Paris, Blanchard, 1931.
- J. LOCKE, Essai sur le pouvoir civil, éd. Fyot, Bibliotheque de la Science politique, Paris, P.U.F., 1953.
- H. LUTHY, La Banque protestante en France, de la Révocation de l'Edit de Nantes à la Révolution, I, 1695-1730, Paris, SE,V.P.E.N., 1959, coll, «Affaires et gens d'affaires».
- F. MARQUET, Histoire générale de la navigation du XV° au XX° siècic, Paris, Société d'Editions géographiques, maritimes et coloniales.
- G. LA ROERIE, Navires et marins, Paris, Rombaldi, 1946.
- CASTEX, Les Idées militaires de la marine du XVIII° siècle, 1911; Synthèses de la guerre sous-marine, 1920.
- PARIS. Essai sur la construction navale des peuples extra européens, 1841.
- G. I.AFOND Des NOETTES, De la marine antique à la marine moderne, Paris, colin, 1935.
- S. E. MORISSON, Admiral of the Ocean sea. A life of Christopher Colombus, Boston, 1942, 2 vol.
- M. MOLLAT, Le navire et l'économie maritime du XV° au XVIII° slècle, Paris, 1957, S.E.V.P.E.N.
- R. MOUSNIER, Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'aà la fin du XVII° siècle, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
- KENNEDY, Jesuits and savages in New France, Yale Historical Publications, 1950.
- W.D. et R.S. WALLIS, The Micmac indians of Eastern Canada, Minneapolis, 1955.
- S. H. STITES, Economics of the Iroquois, Bryn Mawr College, 1905.
- M. BOUTEILLER, Chamanisme et guérison magique, Paris, P.U.F., 1950.
- P. METRAUX, La civilisation matérielle des Tupl-Guarani; La religion des Tupinamba, thèses de Lettres, Parls, 1928.
- S. G. MORLEY, The ancient maya. Stanford University Press, 1946.
- J. SOUSTELLE, La vie quotidienne des Aztèques à la veille de la conquête espagnole, Paris, Hachette, 1955.
- L. BAUDIN, La vie quotidienne au temps des derniers Incas, Paris, Hachette, 1955.
- J. LEONARD, Books of braves, Harvard University Press, 1949.
- P. CHAUNU, Séville et l'Atlantique, Partie interprétative, structures et conjonctures, thèse de lettres, Paris, 1960, 3vol., S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Trafics».
- R. RICARD, La conquête spirituelle du Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1933.
- M. FASSBINDER, Der Jesuiten staat in Paraguay, Studien über Amerika und Spanien 2, Halle, 1926.
- F. CHEVALIER, La formation du grand domaine au Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1952.
- L. HANKE, Colonisation et conscience chrétienne au XVI° siècle, Paris, Plon, 1957, coll. «Civilisations d'hier et d'aujourd'hui».
- C. A. JULIEN, Les Français en Amérique. Les voyages de découvertes et les premiers établissements (XV° - XVI° siècles), P.U.F., 1948, Coll. «Colonies et Empires».

- C. de BONNAULT, Histoire du Canada (rançais (1534-1763), P.U.F 1950 (même coll.)
- G. RIGAULT et G. GOYAU, Martyrs de la Nouvelle France, Bibl. des Missions, I, Paris, 1925.
- P. C. de ROCHEMONTEIX, Les Jésuites et la Nouvelle-France au XVII^o siècle, Paris, 1895, 3 vol.
- M. BREMOND, Hist. litt. du sentiment religieux, en France, VI, la conquête mystique, Marie de l'Incarnation, 1922; Les Français en Amérique pendant la première moitié du XVI° siècle, éd. par Ch. A. Julien, Herval, Th. Beauchesne, P.U.F., 1946; Les Français en Amérique pandant le seconde moitié du XVI° siècle. Le Brésil et les Brésiliens, par André THEVET, P.U.F., 1953; Les voyages de Samuel Champlain, publ. par Hubert DESCHAMPS, P.U.F., 1951.
- M. GIRAUD, Histoire de la Louisiane Française, I, Règne de Louis XIV, 1698-1615 P.U.F., 1951.
- G. FREYRE, Maîtres et esclaves, trad. Roger Bastide, Gallimard, 1952.
- G. SCELLE, La traite négrière aux Indes de Castille. Contrats et traités d'Asiento, Paris, 1906, 2 vol.
- R. KONETZKE, Coleccion de documentos para la historia de la formation social de hispano-America, I, (1493-1692), 1953.
- F. MAURO, Le Portugal et l'Atlantique au XVII° siècle, thèse de Lettres, Paris, 1959.
- V. MAGALHAES-GODINHO, L'économie de l'Empire portugais aux XV° et XVI° siècles, thèse de Lettres, Paris, 1959.
- H.R.B. GIBB et H. BOWEN, Islamic Society and the West, I, Londres, 1950.
- Ch. JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord, 1931, 2 éd., t, II, fevue par le TOURNEAU, Payot, 1952,
- G. HANOTAUX, Histoire de la nation égyptienne, T.V, Parls, Plon, 1934.
- M. DELAFOSSE, The Negroes of Africa, Washington, The Associated Publishers, 1932.
- G. HARDY, Nos grands problèmes coloniaux, Paris, Colin, 1928.
- H. LABOURET, Histoire des Noirs d'Afrique, Paris, P.U.F., 1946.
- M. J. HERSKOVITZ, Dahomey, New York, 1938,
- E. DEHERAIN, Etudes sur l'Afrique, I, Paris, Hachette, 1909.
- H. LABOURET et P. RIVET, Le royaume d'Ardres et son évangélisation au XVIII^e siècle, Paris, Institut d'Ethnologie, 1929.
- R. MOUSNIER, Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'à la fin du XVII siècle (suite), cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1953.
- J.H. HUTTON, Les castes dans l'Inde, Paris, Payot, 1949.
- E. SENART, Les castes dans l'Inde, L'effet et le système, 1927, in 4°.
- C. BOUGLE, Essai sur le régime des castes, 2º éd., 1927.
- R. GROUSSET, Histoire de la philosophie orientale.
- P. MASSON-OURSEL, Les religions de l'Inde, Paris, Bloud et Gay, 1955.
- H. VON GLASENAPP, Brahma et Bouddha, Les religions de l'Inde dans leur évolution historique, Paris, Payot.
- J. HERBERT, La mythologie hindoue, Paris, 1953.
- W.O. MORELAND, India at the death of Akbar, Londres, 1920; From Akbar to Aureng-zeb, Londres, 1923.
- P.H. BADEN-POWEL, Land Revenues and Tenure in British India, Oxford, 1894.
- L. De AZEVEDO, Epocas de Portugal Economico, 1929.
- B.H.M. VLEKKE, NUSANTARA, A history of the East Indian Archipelago, Harvard University Press, 1944.
- A. BROU, Saint François-Xavier, 2 éd., 1922.
- P. DAHMEN, Robert de Nobili, l'apûtre des Brahmes (Bibliothéque des Missions, «mémoires et documents», vol. III, 1931.).
- A. FARJENEL, Le peuple chinois, Paris, 1906, in-12,
- H. BERNARD-MAITRE, Sagesse chinoise et philosophie chrétienne, Paris, Cathorla, 1950; Pour la compréhension de l'Indochine et de l'Occident, Paris, Les Belles-

- Lettres, 1950; Aux portes de la Chine, les missionnaires du XVκ stècle (1514-1598), Tien-Tsin, Hautes Etudes; Le P.M. Ricci et la société chinoise de son temps, ibid., 1937; Les îles Philippines du grand Archipel de la Chine, ibid., 1936; Le Frère Bento de Goes chez les Musulmans de la Haute-Asie, ibid., 1934; La science européenne au tribunal astronomique de Pékin, Université de Paris, Conférences du Palais de la Découverte, série D, no 9, 1951.
- H. MASPERO, Mélanges posthumes sur les religions et l'histoire de la Chine: I, Les religions chinoises, II, Le taojsme, Publications du Musée Guimet, «Bibliothèque de diffusions», nos 57 et 58, 1950.
- J. NEEDHAN, Science and Civilisation in China, II, History of scientific thought, Cambridge, 1956.
- M. EBERHARD, Histoire de la Chine, Paris, Payot, 1952.
- P. GOUROU, La terre et l'homme en Extrême-Orient, Colin, 1949,
- MASPERO et J. ESCARRA, Les institutions de la Chine, Paris, P.U.F., 1952.
- WANG-TCH'ANG-TCHE, La philosophie morale de WANG-Yang-Ming, Paris, 1936.
- V. PINOT, La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France (1640-1740), Paris, Geuthner, 1932.
- A.H. ROWBOTHAN, Missionary and Mandarin. The Jesuits at the Court of China, 1942.
- SAMSON, Le Japon, Paris, Payot, 1938, morale de WANG-Yang, Paris, 1936.
- Nitobé INAZO, Le Bushido, Paris, 1927.
- L. BOURDON, La Compagnie de Jésus et le Japon de 1547 à 1570, thèse de Lettres, Paris, 1947.
- C.H. BOXER, Fidalgos in the Far East (1550-1570), La Haye, 1948; The Christian century in Japan (1549-1650), Londres, 1951.
- H. NAGAOKA, Histoire des relations du Japon avec l'Europe aux XVI° et XVII° siècles, Paris, 1905.
- D.T. SUZKI, An Introduction to Zen Buddhism, Kloto, The Eastern Bouddhist Society, 1934; Manual of zen Buddhism, ibid., 1935.
- KERNER. The urge to Sea, 1942.
- R. FISHER, The Russians fur Trade (1550-1770), 1943.
- P. PASCAL, Avvakum et les débuts du Raskol, thèse de Lettres, Paris, 1949.
- P. CHAUNU, Les Philippines et le Pacifique des Ibériques, Paris, S.E.V.P.E.N. 1960, coll. «Ports-Routes-Trafics».
- P. MASSON-OURSEL, La philosophie comparée, 2 éd., Paris, P.U.F., 1932.
- R. BERTHELOT, La pensée de l'Asie et l'astrobiologie, Paris, Payot, 1938.
- A. REY, De la pensée primitive à la pensée actuelle, «Encyclopédie française», t.I.

جَدول زمتينى مقارَن

- ۱۶۹۲ استیلاء الملوك الكاثولیك علی غرناطه ... « لوفیفر دیتابل » ینشر « شروح طبیعیات » ارسطو ... كریستوف كولومبوس یكتشف امیركا .
- وه و مارل الثامن في الطاليا « الدي مانوشي » يؤسس مطبعته في البندقية معاهدة « تور دي سيلاس » .
- ١٤٩٧ ليوناردو دافنشي : العشاء السري ـ سفر « فاسكو دي غاما » ـ « جان كابو » في لابرادور (8) .
 - ۱۶۹۸ « دورر » : « الجليان » _ فاسكو دي غاماير فأ الشاطيء في كاليكوت .
 - . . . ١ « اراسم »: الامثال السائرة الاولى _ بوتيشلى: مولد العلواء .
- ميكال انجلو: العائلة المقدسة ... تشييد جناح لويس الثاني عشر في قصر « بلوا » ... البوكرك يحتل كوشين في الهند ... تأسيس « دار التعاقد » في اشبيلية ... محمد شيباني يطرد بابير من بلاد ما وراء الاوكسوس .
 - ١٥٠٥ مارتن لوثر يدخل الدير .
- ١٥٠٦ ليوناردو دافنشي : الجوكوندا ـ برامنتي بباشر بناء كنيسة القديس بطرس في روما ـ روشلين : مباديء اللغة العبرية ـ ألبوكرك يستولي على سقوطرا .
- ١٥٠٩ مولد كالفين وميشال سرفيه واتيان دوليه _ ميكال انجلو يعمل في « المعبد السكستيني » _ البرتغاليون ببلغون « مالاكا » _ انشاء مجلس الهند في اسبانيا .
 - ٩٥١٠ ماتياس غرونوولد ؛ رافدة مدبح ايزنهايم ـ البوكرك يستولي على غوا ب
 - ١٥١١ اراسم: تقريظ الجنون البوكرك يستولي على مالاكا ويبلغ امبوان .
- ، ١٥١٢ فاستون دي فوا في إيطاليا ميكال انجلو : موسى لوفيفر ديتابل ينشر «رسائل» القديس بولس بالبوا يكتشف المحيط الهادي .
 - ١٥١٤ البرتغاليون في الصين ٠
- ١٥١٦ معاهدة بولونيا تأسيس رهبانية الحب الالهي ماكيافلي : الامير توماس مور : «قصد المحال» اربوستو : رولان الغضوب سليم الاول يحتل مصر .
- ١٥١٧ نشر « النظريات الخمس والتسعون » للوثر ... الاسبانيون في يوكاتان ... البرتغاليون في كانتون .
- ١٥١٩ انتخاب شارل الخامس ملكا على الرومان .. ادالة لوثر في كولونيا .. بدء رحلة ماجلان ... كورتيس في الكسيك ... غزوة بابير الاولى في الهند .
- ١٥٢١ مجمع وورمس ـ حرم لوثر ـ دورر: المجهول ـ هولباين: المسيح الميست ـ لوفيفر ديتابل يترجم « المرامير » ـ كورتيس يسترد مكسيكو ـ سليمان يستولي على بلغراد .
- ١٥٢٤ اندلاع ثورة الفلاحين في المانيا ـ لوثر: تقييد الارادة ـ اراسم: حرية الارادة ـ الشروع في تشييد قصر شامبور ـ رحلة « بيزار » الاولى الى بلاد الانكا ـ رحلة فرازانو ـ بابير يغزو البنجاب .

- ١٥٢٥ معركة « باقى » ، اسر فرنسوا الاول .
- ١٥٢٦ معاهدة مدريد _ انياس دي لويولا: تمارين روحية _ معركة موهاكس _ بابير يحتل سلطنة دلهي بعد انتصاره في بانيبات _ أمبرواز هوخستتر يلجأ للمرة الاولى الى قرض الدولة .
 - ١٥٢٩ معاهدة ساراغوسا لوضع الحدود .
- ١٥٣٠ تتويج شارل الخامس امبراطورا اعتراف اوغسبورغ وفاة بابير الفوضى في الهند .
- ١٥٣١ هنري الثامن يعلن نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية ـ تأسيس المصفق الجديد فسي انفرس .
- ١٥٣٤ نذور انياس دي لويولا في مونمارتر ـ رابليه: حياة غارغنتوا الكبير ـ جاك كارتييه في كندا ـ البرتغاليون يحصلون على « ديو » من ملك « كمباي » .
- ١٥٣٦ امتيازات القسطنطينية _ كالفين : « نظام الديانة المسيحية » _ جاك كارتيبه يستكشف نهر سان _ لوران .
- ١٥٣٩ قانون « فيليه _ كوتريه » _ «المواد الست» في انكلترا _ تنظيم الجمعية اليسوعية تنظيما نهائيا _ مركاتور يرسم خريطة العالم _ الاتراك يهاجمون « ديو » .
- ١٥٤١ « نظام » كالفين ينقل الى الفرنسية ـ انياس دي لويولا رئيس عام اليسوعيسين ـ ميكال انجلو: الدينونة الاخيرة .
- ١٥٤٢ احداث التفتيش في روما ... شرائع جديدة مراعاة للهنود ... الاسبانيون في الفيليبين ... البرتفاليون في اليابان ... مولد هيديوشي .
 - ١٥٤٣ كوبرنيك : مدارات الاجرام السماوية ... فيزال : معمل الجسم الانسائي .
 - ١٥٤٥ افتتاح المجمع التريدنتيني اكتشاف مناجم بوتوسي .
- ١٥٤٦ وفاة لوثر ـ رابليه: الكتاب الثالث ـ اليسوعيون في البرازيل ـ اليابانيون ينزلسون الى اليابسة في تشي ـ كيانغ ،
- ١٥٤٧ معركة موهلبرغ ـ ميكال انجلو يستلم ادارة اعمال كنيسة القديس بطرس في روما ـ تيسيان: فينوس وادونيس ـ ايفان المرهوب يستلم زمام الحكم .
- ١٥٤٩ وثيقة التساوي و « كتاب الصلاة » الاول ... القديس فرنسيس كسافاريوس في اليابان ... انشاء محاكم تجارة في ليون وتولوز .
- منري الثاني يحدث محاكم البداية وثيقة التساوي الثانية و « كتاب الصلاة » الثاني هنري الثاني يستولي على « الاسقفيات الثلاث » وفساة القديسس فرنسيس كسافاريوس رونسار: « فراميات » ايفان المرهوب يحتل «قازان» نشر القانون الاستعماري الاسباني اليابانيون يصعدون نهر « يانغ تسي » .
- ١٥٥٣ اعدام ميشال سرفيه ـ « دي بلاي » يبداكتابـة « آثار رومـا » ـ تأسيس جامعـة مكسيكو ـ الانكليز في « اركنجلسك » ـ الصينيون يحصرون البرتغاليين في «ماكاوو» ـ محمد المهدي سيد مراكش .
 - ١٥٥٤ اكتشباف الملغم لاستخراج الفضة من المعدن الخام .
- ١٥٥٦ تنازل شادل الخامس ـ وفاة القديس انياس دي لويولا ـ بومبونازي : « اسباب . . الطبيعية » ـ ايفان المرهوب يستولي على استراخان ـ ولاية اكبر .

- ١٥٥٧ براءة كومبيانيه معركة سان كوانتين افلاسات في فرنسا واسبائيا ازمـــهُ مالية في انفرس احداث اسففية فــى الصــين .
- وفاة هنري الثانى ـ معاهدة كاتو ـ كمبر بزيس ـ « الفهرست الفاتيكاني » الاول ـ لسكو يعمل في اللوفر « اويو » ينقل « التراجم » لبلوتارك ـ « نوبوناغا » يخضع اقطاعيي اليابان الشرقية .
- ١٥٦١ مجلس طبفات اورليسان ـ معاوضات بواسي ـ القديسة تريزبا: « كتاب حياتي » ـ حون نوكس: « كتاب النظام » ـ صك بتنظيم حركة اساطيل العالم المجديد .
 - ١٥٦٢ مجزرة « فاسي » ... بعثة جون هوكثر الى اميركا .
 - ١٥٦٣ نشر « المواد النسم والنلاثين » في انكلترا ـ انتهاء المجمع التربدسيني .
- « الرقيم « مبارك الله » يبرم اهمال المجمع التريدنتيني ـ وفاة كالفين ـ الغديسة تريزيا : « طريق الكمال » ـ رابليه : الكتاب الخامس ـ اكبر يلغي الضرائب المفروضة على غير المسلمين في الهند .
- م١٥٦٥ ثورة في الاندلس _ أيعان المرهوب ينشيء اله « أوبرتشنينا » _ نوبوناغا يصبح نائب « شوغوں » .
- ١٥٦٦ التعليم المسيحي بحسب المجمع التريدنتيني ـ العديسة تريزيا: « خطرات حول الحب الالهي » .
- ١٥٦٨ القديس يوحنا الصليب يؤسس جمعية الكرمليين الحفاة ... نشر كتاب فرض الكهنة ... جان بودين: الجواب على مفالطات السيد « دى مالستروا » .
- ١٥٧١ قمع التورة في الاندلس ... معركة « ليبانت » ... التتر يحرقون موسكو ... نوبوناغا... يقوض دير هييزيان .
- ١٥٧٢ يوم سان برتلمي ـ ثورة « الصعاليك » في المناطق المنخفضة ـ كاموانس : «لوزياد» ـ « دراك في باناما .
- ١٥٧٧ له تاس: امنتا ... هوتمن: فرنكو ... غاليا ... نوبوناغا نقضي بحرمان الد « شيكاغا » من سلطتهم .
 - ١٥٧٥ اكبر ينشيء بيت عبادة _ تأسيس رهبانية القديس فيلبوس النيري .
 - ١٥٧٦ جان بودين : «الجمهورية» ـ ناليف الحلف ـ تهدئة فنت .
- ١٥٧٧ مارنن فروبيشر يبحث عن طريق من الشمال المفربي ــ القديسة تريزيا: « المساكن » .
- ١٥٧٩ اتحاد اوترخت ـ تكون المناطق المتحدة ـ « انتقامات من المستبدين » ـ اكبر يعلس نفسه رئيسا دينيا في ولايته .
 - ١٥٨٠ مونتانيه: « المحاولات » (الطبعة الاولى) له تاس: « انقاذ اورشليم » .
- وفاة أيفان المرهوب _ بداية « زمن الاضطرابات » _ فيليب الثانسي يسستقبل اسيادا يابانيين أرسلهم الاب « فالينياني » .
- ١٥٨٧ دراك ينهب قادس سا تأسيس « مصرف ريالتو » في البندقية سا وولتر رالاي يؤسس مستعمرة في فرجينيا ساهيديوشي يطرد المرسلين .
- ١٥٨٨ كارثة « الاسطول الذي لا يقهر » ــ مونتانيه : المحاولات (الكتاب الثالث) ــ غــزو البابانيين لكوريا .

- ١٥٩٧ الطبعة النهائية للترجمة العامية السكستينية شكسبير : فينوس وادونيس هيديوشي يستولي على « يادو » .
- ١٥٩٦ كبلر: « سر الفلك » ـ شكسبير: « حلم ليلة من ليالي الصيف » ـ مولد ديكارت ـ الهولنديون يستقرون في زيلندا الجديدةوسبتزبرغ .
- ١٥٩٨ براءة نانت ... معاهدة فرفين ... لوب دي فيغا: « اركاديا » ... بوريس غودونوف بنتخب قيصرا ... وفاة هيديوشي .
- ١٦٠٠ اوليفيه دي سير: مسرح الزراعة _ اصلاح جامعة باريس _ شكسبير: « كما يطيب لك » _ تأسيس الشركة الانكليزية للهند.الشرقية _ اكبر يباشر فتح دكان .
 - ١٩٠٧ تاسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية .
- - م ١٩٠٤ شكسبير: اوتلو _ تاسيس تومسك .
- ١٩٠٥ مباشرة بناء الساحة الملكية في باريس _ شكسبير: مكبث _ سرقنتس: دون كيشوت _ وفاة أكبر .
- ١٩٠٧ اليسوعيون يستلمون زمام الحكم فيي الباراغواي ـ لقاء القديس فرنسوا دي سال والقديسة جان دي شانتال ـ بناء ساحة ولي العهد في باريس .
- ٨٠٠٨ القديس فرنسوا دي سال: مدخل الى حياة التقوى ـ شامبلين يؤسس كيبيك .
- ١٩٠٩ هدنة النتي مشرة سنة بين اسبانيا والمناطق المتحدة غروتيوس: البحر الحر كبلر: على الفليك الجديد تأسيس مصرف امستردام .
 - ١٦١٠ اغتيال هنري الرابع غاليليو يتقن المرقب .
- ١٦١٣ بيرول يدخل رهبانية القديس فيلبوس النيري الى فرنسا شكسبير: «هنري الثامن» سرفنتس: « اخبار مثالية » ولاية آل رومانوف .
- ١٦١٤ مجلس الطبقات في فرنسا ـ له غريكو: انتقال العذراء ـ تأسيس الشركة الهولندية الشمالية ،
- ١٩١٥ وليم هارفي يكتشف المدورة الدموية مسفارة انكليزية في الهند ما الورة هيديوري بن هيديوشي .
- ١٩١٦ القديس فرنسوا دي سال: « بحث في محبة الله » . طرد الاسبانيين من اليابان ـ المنشوريون يغرون لياوو تونغ .
 - ١٦١٨ ثورة بوهيميا ٠
- معركة الجبل الابيض ـ بيكون: « نوفوم اورغانوم » حجاج « مايفلور » في اميركا .
- ١٦٢١ تاسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية _ المنشوريون يستقرون في موكدن _ توماس مون: «خطاب في التجارة» _ تجدد الحرب بين اسبانيا والمناطق المتحدة .
 - ١٦٢٢ الشاه عباس يسترد اورموز من البرتغاليين .
- ١٩٢٧ سمتسو يقفل ابواب اليابان في وجه الاجانب ــ الشماه هباس يسمترد بغداد ــ فلسكيز: « رسم أوليفاريس » •
- ١٦٢٤ ريشليو يدخل المجلس فلسكيز: « السكارى » الهولنديون يدبحون الانكليز في امبوان وبندا .

- 1970 والنستين يتولى قيادة الجيوش الامبراطورية _ سبينولا يستولي على بريدا _ فروتيوس : « قانون الحرب والسلم _ الانكليز في « بارباد » .
- ١٦٢٦ فيليب دي شامبانيه: « رسم جنسينيوس » ، تاسيس امستسردام الجديدة ... الفرنسيون في سان ـ كريستوف .
- ١٦٢٧ حصار لادوشيل ـ تاسيس جمعية القرىان المقدس ـ طاي ـ تسنغ ، قائد المنشوريين، بهدد بكين .
- ١٩٢٩ براءة عفو آله _ فان ديك: ٣ رينو وارميد » _ الهولنديون بحصلون من الروس على حق تعاطى التجارة في اركنجلسك _ منع مستعمرة ماساشوستس بعض الامتيازات _ الامكليز يستولون على كيبك.
- ۱۹۳۰ فلسكيز: « كورفولكسين » ـ الهولنديون يستولون على برنمبوك وسورينام وكاراكاس ـ تأسيس مستعمرات « الماين » .
 - ١٦٣١ غوستاف ادولف على ضغاف الرين .
- ۱۹۳۲ وفاة غوستاف بد ادولف المنتصر في لوتزن جيون سلدن: « البحر المقفل » غاليليو: خطاب في النظامين الرئيسيسين للعالم رمبراندت: « درس التشريح » تأسيس مستعمرة ماريلند الهولنديون في كوراساو.
 - 1777 محكمه التفتيش تكره غالبليو على الاقلاع عن « اخطائه وهرطقاته » .
- ١٦٣٤ شارل الاول يفرض ضريبة « مال الاسطول » ـ اغتيال والنستين ـ معركة نوردلنجن _ الفديس منصور دي بول ولويز دي ماريلاك يؤسسان جمعية راهبات المحبة .
- ١٦٣٥ لويس الثالث عشر يعلن الحرب على اسبانيا _ تاسيس الاكاديمية الفرنسية _ روبئس : روضة الفرام _ فان ديك : رسم شارل الاول _ تأسيس الشركة الفرنسية للجزر الاميركية _ الفرنسيون يحتلسون فواد لوب .
- ١٦٣٦ غزو فرنسا كورناي: السيد تاسيس جامعة هادفرد تفكك امبراطورية سلالة المنسغ .
 - ١٦٣٧ ديكارت : خطاب في المنهج _ اوائل عهــد جمعية معتزلي بور ـ رويال .
- ١٦٣٨ دخول اليابان يحظر على كل اجنبي والخروج منها يحظر على كل ياباني _ القديس منصور دي بول يؤسس مشروع جمسع اللقطاء .
 - ١٦٣٩ فلسكيز: الصلب الانكليز في مادراس .
 - ١٦٤٠ بوادر الثورة الانكليزية _ جنسينيوس : اوغسطينوس _ كورناي : هوراس .
- ١٦٤١ ديكارت : « تاملات » _ كورناي : بوليوكت _ له نين : « فينوس في كور فولكين » .
- ١٦٤٢ وفاة ريشليو ثورة لندن اولييه يؤسس جمعية سان سولييس برونيس في مدغشقر تاسيس مونريال الهولنديون في تاسمانيا مولد نيوتون .
- ١٦٤٣ ولاية لويس الرابع عشر ـ معركة روكروا ـ ارتولد: بحث في المناولـة المتواتـرة ـ موليير يؤسس المسرح الشهير ،
- ١٦٤٤ انعقاد مؤتمري مونستر واوسنابروك ـ توريشلي يخترع ميزان الجـو ـ ديكارت : « مباديء الفلسفة » ـ انتحار اخر اباطرة المنغ ـ بدء زراعة قصب السكر في جزر الانتيسل .
- ۱٦٤٧ باسكال: اختبارات جديدة حول الفراغ _ فوجلاس: ملاحظات حول اللغة الفرنسية _ بوتر: « الثور » _ فلسكز: « الرماح » .

}

- ١٦٤٨ ثورة المقلاع ـ محاكمة شارل الاول واعدامه ... كرومول يحتـل أدلندا ـ معاهدتــا وستفاليا ـ اختبار باسكال في « بوي دي دوم » ـ رمبراندت : « حجاج عماوس » _ فيليب دي شامبانيه : « الام انجليكا » .
 - ١٦٥٠ المنشوريون يغزون الصين الجنوبية .
- المناف هزيمة شارل الثاني في وورسستر الغاءلقب « القائد المسكري » في المناطق المنخفضة ـ تأسيس جمعية الرسالات الاجنبية ـ غيريك يخترع آلة تفريغ الهواء ـ هوبس: لغياتان ـ التصديق على وثيقة الملاحة في انكلترا ـ الفرس يستولون على مسقط ـ نهاية السيطرة البرتفالية على الخليج الفارسي المنثوريون يستولون على كانتون ـ انهيار المقاومة الصينية .
- ١٦٥٢ اتحاد انكلترا وسكوتلندا ـ الحرب الانكليزية الهولندية ـ اقرار «حرية النقض » في جمعية بولونيا ـ الهولنديون ينتزعون مدينة « الراس » من البرتغاليين الانكليز في جزيرة القديسة هيلانة .
- ١٦٥٣ نهاية ثورة المقلاع ـ كرومول ١اللورد الحامي ـ الدالاي لاما يحضر الى بكين لتولية السلالة المنشورية ـ انهيار الامبراطوريةالهولندية في البرازيل ٠
- ۱۹۵۴ معاهدة وستمنستر ـ القوزاق ينضمون الـى روسـيا ـ السروس يصعدون الـ « سونغارى » .
 - ١٦٥٥ الانكليز يحتلون جامايكا .
 - ١٦٥٦ باسكال: « الاقليميات » محمد كبرلي رئيس وزراء .
 - ۱٦٥٧ نقولا لمرى: « كتاب الكيمياء » .
- ١٦٥٨ وفأة كرومول ــ معركة الدون ــ تأسيس اكاديمية العلوم في باريس ــ تأسيس « نرتشنسك » .
 - ١٦٥٩ الاب فربيست في الصين الاعتراف ب- « أورنغ زب » امبراطورا .
- ١٦٦٠ عودة شارل الثاني الى انكلترا ... توقيع « صيفة » تفرض في فرنسا على الجنسنيين ... « هجاء » بوالو الاول .
- ۱۹۶۱ لویس الرابع عشر یتولی الحکم شخصیا ... « منطق » بور ... رویال ... احداث « دائرة التجارة والمغارس » .
 - ١٦٦٢ وثيقة التساوي تأسيس جمعية لندن الملكية الانكليز يستلمون بومباي .
- 1774 كولبير يضع تعرفة الحماية الجمركية الاولى ... « وثيقة السنوات الثلاث » ... موليير : « المنافق » ... تأسيس شركة الهند الفرنسية ... الانكليز يستولون على امستردام الجديدة التي اصبحت نيو ... يورك .
 - 1770 تأسيس « جريدة العلماء » ـ الفرنسيون فيسان ـ دومنغ .
 - ١٦٦٦ نيوتون يحلل النور ـ موليير : « مبغض البشر » .
- ١٦٦٧ كولبير يضع تعرفة الحماية الثانية ـ لويس الرابع عشر يحتـل المناطـق المنخفضة ـ معاهدة بريدا ـ بوفندورف: نظام الامبراطورية الجرمانية ـ راسين: « اندروماك » ـ ملتون: « الفردوس المفقود » .
- ١٦٦٨ صلح اكس ــ لا ــ شابيل ــ « صلح الكنيسة » بين البابــا والجنسينيين ــ تأسيس اكاديمية فرنسا في روما . اورنغ ــ زب يسمح للفرنسيين بالاقامة في سورات ــ الاسبانيون يستولون على المريان .

- ۱۹۷۰ نشر القانون الجنائي في فرنسا ـ سبينوزا : « بحث لاهوتي سياسي » ـ باسكال : « خطرات » . ليبنيز : « نظرية الحركة » ـ كولبير يؤسس شركة اساكل الشرق الادنى .
- ١٦٧٢ الحرب الهولندية _ بوفندروف: « الحق الطبيعي وحقوق الإنسان » _ تأسيس « المركور الفرنسي » .
- ١٦٧٣ هويغنس: « رقاص الساعة » _ مولييو : « المريض الموهوم » _ بعثة جولييه والاب ماركيت الى وادي المسيسيسي .
- ١٦٧٤ مالبرانش: « البحث عن الحقيقة » ... بوالو: « الفين الشيعري » ... الهولنديون يستولون على المرتينيك ... الفرنسيون يقيمون في بونديشيري .
- ۱۹۷۵ لیبنیز یکتشف حساب الکمیة الصغری ... معرکة تورکهایم : موت تورین ... معرک...ة فهربلین .
 - ١٦٧٦ الدانمركي رومر يحسب سرعة النور ـ تأسيس صندوق الاهتداءات .
 - ١٦٧٧ سبينوزا: « علم الاخلاق » _ راسين : فيدر .
- ١٦٧٨ بوادر النزاع بين البابا وملك فرنسا _ معاهدتا نيميغ _ الجدال الديني بين بوسويه والراعي كلود _ ر. سيمون: نقد تاريمخالعهد الفديم .
- ١٦٧٩ بوسويه: « السياسة المستوحاة من الكتاب المقدس » ... ماريوت: « محاولة في نمو النباتات » .
- ١٦٨٠ بدء سياسة « الاجتماعات » الجمعية الجرمانية تعترض على « الاجتماعات » .
 - ١٦٨١ ج. مابيون: « في الدبلوماسية » ـ بوسويه: « خطاب في التاريخ العام » .
- ١٦٨٢ اعلان المواد الاربع نيوتون يكتشف سنة الجاذبية الكونية المناداة ببطرس الاكبر قيصرا كافلييه دي لاسال ينزل المسيسبي .
- ١٦٨٥ الغاء براءة نانت ـ نشر القانون الاسود ، الصينيون يرغمون الروس في الباسين على الاستسلام .
- ١٦٨٦ تأليف حلف اوغسبورغ فونتنيل: « محاورة فسي تعدد العوالم » تأسيس شندر ناغور .
 - . ۱٦٨٧ نيوتون: « مباديء الفلسفة » .
- ۱٦٨٨ الثورة الانكليزية الثانية _ لويس الراب_عشر يدخل الحرب _ لابرويير: «السجايا» _ بوسويه: « تاريخ التقلبات » _ ش.بيرو: « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » _ لــوك: « رسائل في التساهل » _الامبراطوريون يستولون على بلفراد.
- ۱۲۸۹ اعلان الحقوق ــ لوك: « محاولة فـــــــــــــــــــا المدنية » ــ « زفرات فرنســـــــا المتعبدة » ــ معاهدة نرتشنسك بـــــين الصينيين والروس .
- ١٦٩٠ معركة فلوروس وراس بيفيزييه ـ هويفنس: « بحث في النور » ـ لوك: « محاولة في الادراك البشري » ـ دنيس بابين: « مذكرة في استخدام البخار المائي » ـ تأسيس كلكوتا .
 - ١٦٩٢ كانغ ـ هي يجيز المسيحية في الصين .
 - ١٦٩٤ « قاموس » الاكاديمية تأسيس مصرف انكلتـرا .
 - ١٦٩٥ بيل: « القاموس التاريخي والنقدي » .

- ١٦٩٧ مماهدة « ريسويك » _ فبنيلون: « تفسير حكم القديسين » .
- ١٦٩٨ اضطهاد المسيحيين في كوشنشين _ تنظيم خدمة قوافل منتظمة بين الصين وروسيا . فينيلون: « تيليماك » _ مماهدة كارلوفيتز _ بطرس الاكبر يفرض الزي الاوروبسي ١٢٩٨ ويصلح الرزنامة .
- السيس الاديمية العلوم في برلين كانغ هي يعترف باتفاق الديانتين المسيحية والصينية قبول لويس الرابع عشر بوصية شارل الثاني فيليب الخامس ، ملك اسبانيا .
 - ٧٠٧٠ حرب وراثة عرش اسبائيا .
- ١٧٠٤ نيوتون: « بحث في علم النظريات » _ اكليمنضوس الحادي عشر يصدر حكمه على « الطقوس الصينية » .
- م١٧٠٥ براءة بابوية بادانة الجنسينية مندفيل: « اسطورة النحل » وفاة الامبراطور ليوبولد الاول لويس الرابع عشر يقتسرح الصلح على هنسيوس .
- ١٧٠٧ فوبان : « العشر الملكي » دنيس بابين يبني سفينة بخارية بطرس الاكبر يغزو ولونيا .
 - معركة « مالبلاكية » الروس يسحقون الاسوجيين في بولتافا.
- ١٧١٠ تقويض بور _ رويال _ لويس الرابع عشريفرض ضريبة « المشر » _ بركلي : « بحث في مبادىء المعرفة البشرية » _ السروس يحتلون استونيا _ تأسيس الشركة الانكليزية ليحر الجنوب .
- ١٧١١ مقدمات لندن ـ ستيل واديسون: السبكتاتور ـ بطرس الاكبر ينشيء مجلس الشيوخ
- ۱۷۱۷ افتتاح مؤتمر اوترخت ... معركة دنين ... بركلي : حواد هيلاس وفيلونوس ... فاتو : ركوب البحر الى « سيتير » .
- ١٧٩٣ معاهدتا اوترخت _ كولئز : خطاب في الراي الحر _ صلح ادرنا بين الروس والاتراك _ ... اقصاء المرسلين عن تونكين •
- ١٧١٤ معاهدة راستات _ ثيبنيز: « بحث في الموناد » _ بطرس الاكبر ينظم التعليسم الرسمي ويحتل فنلندا _ لويس الرابسع عشر يرغم البرلمان على تسجيل الرقيم « الولد الوحيد » .
 - ١٧١٥ وفاة لويس الرابع عشر ٠

جُدولت الاعسلام

ſ

آدم ۷۲ ، ۷۲ ، ۲۵ ، ۲۵ ، ۸۱ ، ۲۵۱ ، ۱۵۲ ، 70A 4 08. 4 8.7 4 77A 4 7Y1 آردر ، مرفأ ۲۲ه آرتو ۳۸۰ آزوف ، ۳۷۲ اسيا ۸ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ 4717 6 718 6 7V1 6 718 6 1V0 6 1VE 173 > 773 > 873 > 373 > 774 > 7.6> (00. (080 (08. (077 (077 (019 277 آسیا الصغری ۲۷٪ ، ۳۵۰ ، ۲۶۳ آلدمانوس ، ۳۲ ، ۲۲ آلند ، جزر ، ۳۷۷ آليه ، عفو ٠٠٠ ٣٣٢ ، ٣٣٣ الاب جوزف او صاحب النيافة الرمادية 217 ابراهیم الاول ، السلطان ٨١٥ الآبرة المنطيسية ٧ ابن اسکندر ۲۱۷ ابي الودية مملكة ٢٠٥ ابيقور ۲۷۰ ، ۲۷۲ ابکتیتس ۱۰۲ ، ۲۷۲ ابن رشد ۳۱ ، ۲۱ ، ۷۶ آبومی ۳۲ه ، ۲۶ه أتزوشى ٦٦٩ اتشيم ٦٠٩ ابیلار ۱۷ اتحاد ۰۰۰ (۱۵۷۹) ۱۲۵ الاتراك العثمانيون ١٦٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، 377 > 777 > 773 > 1A3 > 770 > A40> 6007 6007 6001 6084 6084 6080 600 > 100 > AFC > 750 > 740 > 960 أحاديث حول تعدد العوالم ؛ لغونتنيل **TA1 : 17A7**

احاديث حول علميسن جديدين لديكسارت **TA1 ((17A7)** أحيد أباد ٦٢١ احمد الاول ، السلطان ٥٥٦ احمد نجار ، مدينة ٣٨ ، ٨١٥ . اخوة الحياة المشتركة ١١ ، ٧٦ ، ٩. ادوارد السادس (۷) ۱۵ ــ ۱۵۸۳) ۱۵۸ ، 101 اذربیجان ۵۵۳ ، ۷۷۵ اراس ، ۱۲۵ اراغـــون ، مملكة ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٠٠ ، 001 6 00. 6 777 6 787 اراغون ، اسرة ٦٦ فردينان داراغون ٦٦ ارتوأ ، مقاطعة ٣٤٣ ارخمیدس ۳۸ ، ۱۳۱ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ اردلا ، ۲۷۱ ، ۱۲۵ ، ۱۵۵ ، ۱۵۵ ارسطو ۹ ، ۱۷ ، ۳۹ ، ۳۹ ، ۲۲ ، ۳۶ ، 33 > 70 > 30 > 04 > 74 > 75 > 77 > 6 834 الأرض الجديسدة ، جزيرة ١١٢ ، ٣٦١ ، {10 ({YI ({{ . ارضروم ۸۵۸ ، ۱۸۸ آرغوین ، جزر ۱۲۶ ار فورت ، مدینة ۱۳۹ أدمادا (٨٨ه١) ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ارمورا بربارو ۲۵ ــ ۷۲ اركنجلسك ١٧٥ ارموز ۲۲۹ أرموس ٦٢٠ ، ارمینیا ۱۲۱ که ۵۵۳ ارمینیوس ۱۸ ه ارتو ، ٥٠٥٢ ارنولد (الآب) ۱۸۶ ، اروان ۷۳ه

اسكيا ، امبراطورية ٦٤٥ اروکوییا ۷۰} اسماعيل ، الشاه ٥٥٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٥٧٢ اريجين ، فرنسوا سكوت ١٠١ اسماعیل ، السلطان مولای ۵۹۷ اريما يوشيسادا ٦٦٩ اسسوج او السويسد ٨٤ ، ١٠٩ ، ٢٣٩ ، اربوست ، صاحب ملحمة رولان الثائر ٦٤ الازتيك ٨٥٤ ــ ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ١٧١٠) ጊአ**ሪ ሩ** የሃጓ ሩ የሃአ ሩ የሃሃ ሩ የሃጓ ሩ የሃፕ V.1 601760.4 آسيا ۲۰۹ ، ۱۲۲ ، ۱۱۹ ، ۱۱۶ ، ۱۲۰ ، أزمور ، مدينة ٥٦٥ 4717 4 710 4 718 4 718 4 7X1 4 7X8 أزمير ٢٧ ٤ Y. E 4 Y. . 4 71% الازور ۽ جزر ۱۱۲ ، ۲۰۵ ، ۲۷۷ ، ۳۳۶ ، اشانتی ۲۰، ۱۳۰۰ **ገ. 1 ሩ ወገደ ሩ ወየገ ሩ ደ**ለነ اسبانیا ، ۲۳ ، ۸۸ ، ۷۷ ، ۹۰ ، ۱۱۳ ، أشبيليسة ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، 4178 4 177 4 114 4 117 4 117 4 118 171) Y73) A73) 753) AY3) 0.0) • 1A7 • 177 • 107 • 187 • 177 • 170 77. 60016014 آشیکاغا ، اسرة ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۹۵۰ ، 6 771 آشین (مضیق) ۲۱۲ ، ۲۱۵ ، ۲۱۷ اصفهان ۷۷ه ، ۷۹ه (40) (414) 434) 334) 434) (41) اطلس ، جبال ٥٦٣ اغادیر ، مدینة ۲۷ه الاغريق ٧٠١ ، ٧٠٤ 60. A 6 299 6 240 6 247 6 279 6 277 (07. 6009 6000 6007 60TY 601T أغناديل ، معركة (١٥٠٩) ١٨٩ اغناطيوس ، القديس ٢٨٠ (T) . (ToT (T. T (oYT (oTA (oTT 4771.4 709 4 70X 4 70Y 4 78. 4 788 اغناطيوس ده لويــولا . ٩ ، ٩١ ، ٦٢٢ ، 6777 79. 6 708 6 708 6 708 6 708 6 701 6 70. خلافة عرش اسبانيا 339 أغونغ 717 اسبانیولا او جزیرة هایتی ۱۲۲ ، ۷۵ ، أفراح رويسبروك الروحية ، لوفبرديتابل 343 2000 2000 2000 200 الاسبتارية ٥٥٢ آلافرودیاسی ، اسکندر ۳۶ استراکخان ۱۷۶ ، ۱۷۵ ، ۷۷۸ افریقیا ، ۸ ، ۱۲ ، ۳۱۷ ، ۳۶۵ ، ۳۲۱ ، 173 > 373 > 610 > 170 > 040 > 645 استراليا ٦١٥ استریه ، روایة لاونوره دورفیه ۲۶۸ (717 6 077 6 071 6 000 6,001 6 077 أستوريا ، ٥٥٠ افغانستان ٥٥٥ ، ٥٥٥ ، ٨١٨ ، ٥٨٥ استونيا ٢٣٩ ، ٣٧٧ استیه ، آل ۲۲ ، ۲۳ افلاطون ٩ ، ١٧ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٧٧ ، ٩٩ ، هيبوليت استيه ٦٣ الاسطرلاب ٢٣١ 290 محاورات . . . ٧ الربع البحرى ٣١] اسطفان باثوري ١٦٦ الافلاطونية الحديثة . ٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥، أسفى ٤٢٧ 77 > 77 > 77 > 77 > 77 > 77 > 77 40 (48 6 41 6 04 6 84 6 8Y اسکتلاندا ۹۹ ، ۲۲۵ الاسكندر المقدوني ٨٤، ١٧، ٦١٧ أفيقاتي ، آل ١٢٨ اسكندر الاول باللدن ١٦٦ اقليدس ٣٩ ، ٦٨٠ ، ٢٩٤ ، ٧٠٤ اسكندر السادس او الكسندروس ، البابا اقليمس السابع ، البابا ٢٠٠ 4 517 6 6AT 6 6A1 6 VE 6 7. 6 YE اقليموس الحادي عشر (البابا) ٦٢٦ اقليميات باسكال ٢٥٧ الاسكندرية ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٠٠٠ اکابولکو ۱۳ه ، ۲۰۹ ، ۲۰٫۰ ، الاسكو ، نهر ١٢٣ ، ٢٣٤ ، ٣١٤ ، ٣٥٠ اکادیا ۳۱۱ ، ۹۶ ، ۲۷۱ ، ۹۲۱ ، ۹۸۶

اليوت ، جون ٥٠٠ الاكاديمية الفرنسية (١٦٣٥) ٣٢٧ - ٣٢٨ الام الحزينة ، لميكالوانجلو ٢٠ الاكادتبية الملكية للتصويس والنقائسة اماديس غاليا طونتالغو (قصة) ٢٥} **۳۳. 4 879 (1778)** الامازون ، نسباء ٢٥ ، ٢٦٤ اكاديمية هندسة العمارة (١٦٧١) ٣٢٩ الامازون ، نهر ٣٤٣ ، ٧٦١ اكاديمية الموسيقي (١٦٧٢) ٣٢٩ اماكوسا ٦٧٢ ، اكاديمية روما (١٦٦٨) ٣٢٩ الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة اکارت ۱۰۱ 197 (190 (187 (188 (188 اكبسر ، السلطان ٥٣٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، امیوان ۱۲۲، ۱۳۲، ۱۳۲، ۲۲۳، ۲۲۳، 4718 4 719 4 098 4 091 4 09. 4 0A9 الامثال (كتاب) لايراسموس ١٥٠٠ ، ٧٦ اکرا ، مدینة ۸۲۳ ، ۲۲۱ ، ۲۲۶ الامر القدس ، كتاب ٦٤٦ أ حآمعتها ۱۷ ، ۶۱ ، ۷۲ امستسردام ۱۰۹ ، ۲۲۲ ، ۲۳۶ ، ۳۱۵ ، آکس ۔ لا شابیل ، صلح (۱۹۹۸) ۳۵۴ 717 6 079 6 8.7 6 770 6 70. 6 717 اكفائتوس ٥١ ــ مصرف ٠٠٠ ، ١٦ ، ٢١٥ الاكوادور ٧٧٤ ، ٧٠٤ امستردام الجديدة (نيوبورك) ٣١٥ الاكويني ، توما ٣٦ ، ٣٩ ، ١٠٧ أمفتريت (الباخرة) ٦٦٢ الالب ، جبال ١٦ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، البازين (قلعةً) ٦٦٢ **TTX (TTY (13**) اموی ۲۲۱ ، ۲۲۲ اليا ، جزيرة ٢٣٩ اميتآبا ٦٧٥ البانيا ٢٠٤ ، ٣٧٥ ، ٨٥٥ اميدا . ۲۶ ، ۲۹۹ ، ۲۰۶ البسرت ده براندبسورج ، دئیسس فرقسة اميركسا ٨ ، ١٠ ا ١١ / ١١٢ / ١١٣ / التيوتونيين ١٠٥ ، ١٦٨ 47Y1 4 Y18 4 Y. . 4 121 4 17 . 4 118 البريسة ، آل ١٥٣ 47. 4 071 4 874 4 874 2 70. 4 714 البوكرك ٢٠ ، ٢٩٤ ، ١٥٤. <710 < 731 < 738 < 77. < 777 < 771</p> الالتای ، نهر ۱۷۵ (V.) (717 الالـــزاس ۲۰۵ ، ۲۳۸ ، ۲۳۹ ، ۳۳۷ _ الاسبانية ۲۱۲ ، ۲۳۰ ، ۶۹۹ **TOT 6 TTA** ـ الشمالية ٣١١ ، ٣٤٤ ، ٨٢ ، السيات ٦٦ _ الجنوبية ه٣٤ ، ٣٤٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ الغارو (الاب) ۲۷۳٬ ـ الوسطى ٥١. الفاريس ، جورج ٥٥٦ أميركو فسبوشي ٣٢٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٦ الفونسو الاول ، دوق استیه ٦٣ الاناضول ٧٤٥ ، ٩١٥ الغونس داراغون 27 اناكسارخوس ١٠٢ الالغونكيون وفروعهم . } } أنا هواليا ، آخر أباطرة الانكا ٦٦٦ ألكسمي ميخالو فتسش (١٦٤٥ -- ١٦٧٧) الانتيل الصغرى ٥٧٥ ، ٨٧٤ ، ٨٠٤ الانتيل الصغري ٥٧٤ ، ٢٧٨ ، ٨٠٤ المادن ، مدينة ١٢٥ ، ١٣٠ انجو ، اسرة ٦٦ المانيا ٨، ٣٢ ، ١١٦ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ أنتينووس ٢٨٧ 47.7 4 194 4 140 4 147 4 140 4 141 3 7.73 انجو ، دوق ، الذي اصبح ملكا على اسبانيا 4.7 > 0.7 > 017 > 717 > 777 > 777 باسم فيليب الخامس (١٧٠٠) ، ٣٥٤ الانجيل ١٤٥ XYY ' Y. 3 ' . 00 ' 100 ' 770 ' 770' اندرید ده سارتو ۳۰ ، ۳۲ 718 (740 (044 الاندس ، جبال ۳۹ ، ۶۶۰ ، ۲۲۶ - الجنوبية ٨، ١٠١ ، ١١٤، ١٣٠ ، ١٣٨، الاندلىسى ١١٧ ، ١٢٦ ، ٥٠٧ ، ١٤٥ ، 77. 6 001 ـ الرينانية ٨ ، ٧٦ اندونیسیا ۱۱، ۱۱۲، ۱۱۷، ۱۱۲، ۱۱۸، الإلباذة ٢٩٥ 4 70% 4 788 4 719 اليصابات اليزايت ، الملكة ١٥٨ ، ١٥٩ ، انسبروك ٢٣٨ YTY (YOX (19Y (198 (171 (17.

137

اوربانوس الثاني ، البابا ۲۸۷ انسولند ٦١٢ انشتاین ۱ ـ الثامن ٢٧٥ اوربين ، دوقية ٣٢ ، ٣٣ ، ٨٥ ، ٦٤ انطوان کور ۳۷۲ انغادين ٢٣٨ اورتليوس ٣٤} اورسيني ، الكردينال ٧٩ انغامال ابراهيم (المطران) ٦٢٣ أورشليم ٢٨٣ انفولا ۲۲ه ، ۲۷ه ، ۸۲ه ، ۲۹ه اورلیان ، کاتدرائیة ۱۷ انفرس ۲۲ ، ۱۰۹ ، ۱۰۷ ، ۱۰۹ ، ۱۱۲ ، اورموز ، مضيق او مدينة ٢٩ ، ٥٥٥ ، «17. « 179 « 17A « 170 « 177 « 118 740 , 440 , 440 أورتكزيب ٩٩٢ 770 · 77. · 70. · 718 · 779 اوروبا ۷ ، ۸ ، ۹ ، ۱۱ ، ۱۲ ، ۱۷ ، ۱۸ ، ۱۸ ، ـ بورصة انفرس ١٢٩ · ٧٦ · ٦٢ · ٦١ · ٥٨ · ٣٥ · ٢٣ اتفیل ۱۸۶ < 17. (11Å (117 (118 (117 ٥١٦ ، ٤٦٨ - ٤٦٦ ، ٤٥٦ لك (184 (144 (144 (144 (144 الانكشارية ، فرقة ٢١٥ ، ٧١٧ ، ١٥٨ ، (177 (10) (10) (10) (10) 100 > You > Aou > 100 > 110 انكلتـــرا ٨ ، ٧٧ ، ٢٩ ، ١١٤ ، ١١١ ، 171 3 371 3 071 3 731 3 FOL 3 VOL3 44.7 4 4.. 4 174 4 1A4 4 1A4 4 10A 117 > 717 > 717 > 717 > 777 > 077 > 777> ¿455 ¢ 440 ¢ 414 ¢ 418 ¢ 4.4 ¢ 4.7 (TOT (TOT (TOV (TOE (TO) (TO. (077 (010 (0.7 (EYO (ETT (007 (00. (0TY (0TO (0TT (7.7 (DYY (DYT (DTO (EA. (E.Y (719 (718 (7.9 (OYY (OTA <7>. < 771 < 77. < 717 < 717 < 71.</p> 777 4 771 4 709 4 70X 4 70Y 4 7TX ... الملكة المتحدة ؛ اتحادها مع سكتلانــدا **٣77 (17.4)** < 111 < 1A1 < 1A1 < 1A1 < 1A. < 1YT مصرف ۱۰ (۱۲۹۶) الاهاجي ، (١٥٣٤) ٥٥ V. 8 6 V. T اوادات ، مملكة ٣٦٥ اوریجینس ۷۸ ، ۱۰۲ أوريسم ، نيقولا ١٠ ، ١٨ ، ٣٤ اوبری ۲۵۲ أوريل 177 أوبيه ، جزيرة ٥٣٧ الاورينوك ، نهر . } } اوتریخت ۱۹۰ ، ۲۳۶ ، ۸۰۳ ، ۴۰۹ ، اوزاكا ، مدينة ٢٥٢ ، ٢٦٨ TA. (TY1 (TT. -- اتحاد ... ١٦٥ أوزوكى ٦٦٩ الاوزبك ٧٢ه ، ٧٧ه ، ٨٧ه ، ٨٨ه او ــ تسونغ ٦٣٤ أوتومو يوشيما ٦٦٧ اوستراليا ٤٣٩ ، ٦١٥ اوجين ، الامير ٣٥٧ اوسنا بروك ۲۳۸ ، ۳٤٠ آود ، ۲۸۲ اوشى يوشيتاكا: ٦٦٦ ، ٦٦٧ اوغسبورج ، اعتراف او صلح (١٥٥٥) ، الاوذسية ٦٩٥ 1.1 3 .11 3 771 3 371 3 271 3 اوراسیا ۱۶۸ < 45. < 447 < 417 < 181 < 18. اوراسيوس توبرو ۲۷۰ اوراغا 779 ، ٥., _ تکتل . . . ۳۱۱ ، ۹۵۲ ، ۳۵۷ اورانج ، امراء ۲۳۶ ، ۳۱۰ ، ۳۱۱ ، ۳۳۰ - غليوم الثالث امير اورانج ٣١١ ، ٣٥١ اوغست دی ساکس ملك بولونیا ۳۷۹ 777 (77E (77. (707 (70E اوغسطس قیصر ۲}ه

ایران ۱۸ه ، ۷۷م ، ۸۵۰ ، ۱۲۸ ، ۲۷۲ ، ایرلندا ۳۰۸ ، ۳۰۹ ايزابيل ، الملكة ١٤٢ ، ٨٨٤ ، ٨٨٦ الايروكيون ٢٤) ، ٢١) ، ٥٠) ، ٢٦) ، ايطاليا ٨ ، ١٥ ، ١٧ ، ٨١ ، ٣٥ ، ٧٥ ، 1.Y < Y1 (T) < To < TY < OA
</p> * 144 * 141 * 144 * 114 * 114 4 1A1 4 1Y0 4 187 4 187 4 17A 4 117 (11. (1A1 (1AY (1AY 74. 6 777 6 00. ايغان الثالث ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ أيفان الرابع ١٧٤ ، ١٧٥ ﴿ ١٧٧ انكوسيا ١١٨ الايلب ، نهر ۱۳۸ ، ۱۵۰ ، ۲۳۸ اينوشنتيوس ٢٠١ اينوشنتيوس العاشر ٣٣٤ اینوشنتیوس الثالث ۸۰ اينوشنتيوس الحادي عشر ٣٣٥ ، ٣٤٥ ، 8.0 ايونيا ، مقاطعة ١٤٦

اوغسطينس ، القديس ٧٨ ، ١٥٤ ، ٢٧٨، **TTT 4 TY1** الاوفسطينية ٢٧٨ أوفا ، دير ١٧٦ او فرایل ۲۳۶ ، ۲۳۵ اوفید ۱۷ اوفييدو ١٨٤ : 44 - موجو في طبيعة الهند ١٨٤ - تاريخ الهند المام ١٨٤ اوکسفورد ۱۷ ، ۳۸، ۲۱۲ أوكهام ، وليم مؤسس الفلسفة الاسمي YY 6 87 6 81 6 1. اولدنبرنفلت 317 ، 317 ، اولغ على ۱۸۷ ، ۳۸ه ، ۶۹ه اولم ، مدينة ١٣٩ ، ٢٩٠ اولميدو ١٠٤ اوليغاريس الكونت ٢٣٨ ، ٣٠٠ اولييه ، الاب جان جاك ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٤٩٩ ـ له التعليم المسحى للحياة الداخلية ٢٨١ اومورا سومیتادا ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، اونوریه دورفیه ۲۶۸ ۶ ۲۶۸ اویده ، مرفأ ۲۲۵ ايراسموس ١٩. ، ٧٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٧ ، · A · / A · 7A · 7A · 3A · 6A · 7A ·

بابر ، السلطان ۸۲، ۵۸۳ ، ۸۸۶ ، ۸۸۶ بابل ۲۲۱ بادائغ ١١٥ بادوا ، مدينة ٣٦ ، ٣٨ ، ٨٨ ، ٥٤ ، **207 > 777 > 377 > 773** جامعة ٦١ ١٠١ ١٠١ باراداس ۳۰۵ باراسلموس ٢٤ باراغوای ۸۷۱ ۲۸۹ ۸۸۱ باربروسة ، الاخوة ٦١ه بارزیه (الاب) ۲۹۶ بارفکت ، کلود ۲۱۹ بارنتز ، التجار ٣٤} باروولد ، معاهدة ، (١٦٣١) ٣٣٩ باربان ۹۵۲ ، بارسیس ۱۷ ، ۷۰ ، ۸۹ ، ۹۱ ، ۱۰۹ ،

بخارس ۷۲۲ بانی ، بافیا ؛ ۱۳۲ ، ۲۰۲ ، ۲۰۵ بدحابور ۸۱۱ بافيير ٣٤٤ ، ٣٥٨ برابان ، مقاطعة ٣٥٨ باكو ، مدينة ٧٠ ، ٧٦ه برابات ، دوق ۱۲۱ بال ، مدينة ٨٦ ، ٣٣٧ ، ٣٥٤ البرازيل ۱۱۲ ، ۱۲۱ ، ۳۱۵ ، ۶۶۶ ، ۶۶۶ مجمع ۸۷۰۰۰ اکتشافه عام ۱۵۰۰ علی ید کابرال ، ۲۷۵، برن ۸۱ 113 > 113 > 770 > 770 > 770 > بالبوا ٥٧٤ 717 (71. (04. (044 بالسترينا ، فسيفساء ٠٠٠ ٢٨٧ براغ ، صلح 311 البالاتينا العليا ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٨ برافير 223 _ السفلي ٢٤١ برامنت ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۵ ، ۲۵ بالی ۲۱۷ براندبورج ۲۳۷ ، ۳۳۴ ، ۳۵۲ ، ۳۷۳ ، باليرمو ، مدينة ١١٤ **TY1 : TYY : TY1** باليولوغ ، صوفيا ١٧٢ سلالة . . . ه۲۷ ، ۲۷۳ بامبوك آ٦٣٥ بربروسا ، الامبراطور ٦١ باناما ٤٦٦ ، ٥٠٥ بربريني ، آل ۲۸۷ _ تأسيسها عام ١٥١٩ بربنیان ۲۰۴ ـ منضيق ٧٥} البوتفسال ، ۱۱۸ ، ۱۲۱ ، ۱۹۶ ، ۲۰۰ ، بانغتسی (نهر) ۱۳۳ 471 · 473 · 275 · 117 · بانغ ــ سونغ ــ كنغ ٦٤٦ < 717 < 710 < 718 < 718 < 718 بانیبورت ، معرکة (۱۵۲۱) ۸۲۳ باهاسا ، جزر ۸۰ ، < 771 (77. (707 (70A (70Y باهاما ، جزر ۷۸٪ ، ۲۸۳ (TY) (TY- (TTA (TTT (TTO باهیا ۲۹۲ ، ۶۹۶ ، ۲۲۵ ، ۲۲۵ ک 4 74. 4 7AF 4 7YE 4 7YF 4 7YF بای ۲۲ه فتح الاسبان له (۱۵۸۰) ۲۰۰ بايريد ، السلطان ٢٠١ برتلمي دي لافعاس ٣١٩ بايوس ۲۵۵ برثلماوس ، مدبحة القدسي ١٥٥ بايون ١٥٤ برجی بوراه ۲۲۱ بتانیا ۱۱۲ ، ۱۱۵ ، ۲۲۰ برشلونة ۱۸۷ ، ۲۰۵ ، ۳۳۲ بتانی ۲۱۲ برقییه ۲۹۱ ، ۲۹۵ ، ۷۰۳ بترادك ١٨ ١٩،١٩ بركار الطريق ٣٣٤ بحث في الكرة لساكرو بوسكو ٣٦٦ برکلی ۳۷۹ البحث اللاهوتي السياسي (كتاب) ٢٠٧ برمودا ، جزر ۲۷۸ ، ۸۸۶ برمنید ۲۷۸ ــ البحر الاحمر ١٢١ ، ٢٢٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٥ برناردوس ، القديس ١٠٥ 717 6 718 6 7.7 برنال دیازدل کستیلو ، فاتے الکسیک ــ الاسود ١٧٥ ، ٢٧٤ 370 070 078 _ البلطيق ١٨٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٨ برنمبوك ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ _ الشمالي ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٣٦٠ - ٣٦٠ برنو ، کونت ده غرانفیل ۱ ۱۸ ــ قزوین ۱۲۸ ، ۷۲ ، ۲۷۸ ، ۷۷۸ ، ۱۹۲ بروج ۱۰۵، ۱۰۲، ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۳۴، البحر الابيض المتوسط ٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، 4 14A 4 1AY @1AE 4 188 4 187 177. بروسيا الملكية ٨٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، 6 007 6 00. 6 084 6 87Y 6 877 برونسیا ، دوقیه ۱۲۹ ، ۲۲۰ ، ۳۷۰ ، 000) 150) 750) 050) 750 البحر الحر ، لفروتيوس (١٦٠٩) ٢٤٠ 777 بروقائسس ۱۲۱ ، ۱۳۷ ، ۱۵۱ ، ۲۰۲ ، البحر المقفل لسلدن (١٦٣٥) ٢٤٠ 6.7 > 7.7 > 183 البحيرات الكبرى ٥٩

بليني ألقديم ٦٧، ٢٧٢ بروکسل ۱۳۲ ، ۱۳۴ ، ۱۲۵ ، ۱۷۵ بلینی ، جیوفانی ۲۲ ، ۲۴ برونسويك الجديدة . } } بروتو ٣٤ بمبيو ، بيترو ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٥ بمبونازی ، ۳۱ ، ۳۷ ، ۳۷ ، ۳۸ ، ۳۶ ، بريبوف ، الاب دي ٥٠٠ 177 4 777 4 1.8 4 71 بریتانیسا ، ۱۱۸ ، ۱۹۲ ، ۱۵۳ ، ۱۹۰ ، بناما ، خلیج ۲۰۵ 7.7 بنتام ٥٥٥ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٢ بريزاخ ٣٣٨ بريشيا ، مدينة ٤٤ ، ٢٢ بندر عباس ۷۹ه البندقية ٨ ، ١ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٨ ، ٥ ير بمن ۲۳۸ بسکادور ۲۵۹ ، بسکای ۵۰۰ بسكوف ١٧٠ ، ١٧٦ ألبصرة ، ١٥٥ 731 > 7A1 > 7A1 > 3A1 > ... > 177 > 057 > 7.3 > 773 > 773 > بطرس ، القديس ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٨ ، 7.1 4 044 4 075 4 007 4 844 رسالته الثانية ١٨ کنیسة ۲۲ ، ۲۲ ، ۸۲ حلف _ (۱٤٩٥) _ ۲۰۰ بطرس الاكبر ٣٧٦ ، ٣٧٧ ... اصلاحات جامعتها ٣٦ حلف... ۱۸۲ **ጎ**ለገ ሩ **६**६٣ ሩ ሞሃል _— ሞሃሃ بنتغرويل ١٩ بطليموس الاسكندري ٥٠ ، ٢٨ ، ٣٤ ، بنثيروس ١٠٣ 777 4 277 بندا ۱۱۲ ، ۱۱۵ ، ۱۱۲ نغداد ۷۲۳ ، ۸۷۸ البندقية ٦١٤ بكيرمى ، سلطنة ٣٦٥ بکین هٔ ۳۵ ، ۱۳۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۱ ، ۲۶۲ ، بندكتوس الرابع عشر (البابا) ٦٢٦ بنزرت ۲۰ه 4 TY1 4 TTY 4 TOO 4 TOE 4 TEY السنفال ٨١١ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ٢٢٠ ، ٦٤٠ 1ÅA (1Å1 (1Å7 (1Å1 (1Å. بئو سعد ٥٦٥ 790 البنون أو مدينة الجزائر ٦١٥ بكيه ، جان ، مخترع دورة الكيلوس سنة بنيارول ٢٠٥ **1787** بنین ۲۰ ، ۲۰ ، ۲۱ بلزاك ٢٦٢ ، ٦٨٤ ، ٥٨٢ بهادور ، الامير ،٥٥ البلطيقي ، البحر ١٧٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ بهرینغ (مضیق) ۲۹۹ بلغراد ، مدينة ٣٤٧ بو ، مدینة ۱۰۶ بلياو ٢٠٥ بوابلا ۱.۵ بلجكا ٢٣ بواتو ، ۱۱۹ ، ۲۹۰ بلقور 808 بواتيه ۲۹۰ اللقان ٣٧ه ، ١٥٥ ، ٢٥٥ بلنسية ٥٥٠ ١٥٥ بوأروبيير ٣٢٧ بواغلبير ٣٧١ ، ٣٧٢ بلنهایم ، (معرکة ۱۷۰۶) ۳۵۸ بلوتارك ٢٨٧ بوالو ۲۸۶ ، ۲۰۶ بوب ، ۳۷۹ بليزانس ٣٥ اللاتينا ه.٢ بوتنا ٦٢٦ البلاد الواطنية ٧٩ ، ١٠ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، يوتنجر ١٤١ بوتسوزي ــ مناجم الفضة ١١٦ ، ١٩٩ ، < 177 (177 (171 (170 (170 01460.7 بوتیشلی ۳۰ 4 114 4 114 4 177 4 170 4 178 7.7 6 7.0 6 7.7 بوجي ٥٦٠ ، ٢١٥ بلیسون ، مؤرخ الملك لویس ۱۶ ، ۳۳۳ بودوین ، ، ۲۸۳ بليسييه ، نصير فرنسا في البندقية ١٨٣ **بودین ، جان ۳۸ ، ۱۱۷ ،**

بونا فنتورا ده برییه ۱۰۳ بودیه ، غلیوم ۱۱۴ بوسوس دي لاغاردي ٢٣٨ بوذا ١٥٥ ، ١٦٤ ٠ ١٦٨ ٠ ٧٠٤ بو حیمار ، مدرسه ۱٤٥ بوذا تشاکیامونی ۲۱۰ ۰ ۲۹۰ بونديتسري ٦٢٦ بورباخ (۱۲۲۳ – ۱۲۹۱) ۲۲۸ بونغو آالآ بوربون ، آل ده ۱۵۳ ، ۱۵۵ بونفورد (هنري) ٦٦١ بورتوریکو ۷۳۱ ، ۸۳۶ بونتبيفاسيو الثامن ، البابا ٨٧ بورج ـ معاهدة (١٤٣٩) بوهیمیا ۹۹ ، ۱٦٨ ، ٢٣٦ ، ٣٧٤ ، ٢٧٥، مدينة ١٣٥ 075 بورجي ٢٥٦ بورجيا ، آل ٨٥ بوياردو ٦٤ بوياركوف ٦٦٢ ۔ لوکریس ٦٤ بوردالو ۲۸۲ ، ۳۷۶ ، ۶۰۶ بویتیوس ۱۸ بويرباخ ٢٣٦ بور رویال ۵۵۲ ، ۳۳۴ بویل ، روبرت ۲۹۱ ، ۳۹۰ بورغوس ، قوانینها ۸۵ ، ۸۸ بوينوس ايرس ٤٨٧ ، ١٨ ه البورصة ١٢٩ بيت العبادة ١٠٠٠ بورغوان ، الاب ۲۸۱ بيت لحم ، بلدة ١١ بورغونيا ، دوقية ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٩٦ ، 787 6 777 6 7.7 6 7.7 بيدار ١٨٥ دوق بورغوبيا ١٥ ؛ ١٦ ؟ بیداسوا ، نهر ۳٤۲ بيرسك ، ۲۷۳ بورکهاردت ۱۵،۱۳،۱۷،۱۸ بیریس ، توما ۱۵۵ بورنیو ۲۱۲ ، ۲۱۲ ، ۲۲۰ ، ۸۰۲ البيرنيه ٣٣٧ ، ٣٣٨ بوريدان ، جان ١٠ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٣٠ _ معاهدة (١٦٦٠) ٣٤٢ ، ٣٥٠ _ بوسطن ۳۸۰ یوسك ، ده ۳۸۰ بيرول بوسويسه ه ۲۸ ، ۲۹۸ ، ۳٤٥ ، ۳۷۳ ، **EIA (TTI (TTI (TAI (TA.** البيرو ١١٦ ، ١٩٩ ، ٢٥٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢١٠ · 1.9 · 1.3 · 6.8 · 7.1 · 643 , LL3 , A33 , AA3 , LA4 بوسين ، الرسام ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٤٠٣ ، 011 6 018 اول مجمع اقليمي فيها (١٥٦٧) ٥٠٩ بوشار ده شامبینی ۲۵۳ بيروت ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٠٦ بو فندور ف ، مهذب ولي عهد اسوج ٥ ٣٤ ، بیروس ، آل ۱۲۸ بيزا ، (جامعة) ۲۵۷ ، ۲۲۰ ، ۳۷ بولتافا ، معركة (١٧٠٩) ٣٧٧ بیسزار ، فرنسوا ۱۱۲ ، ۱۹۹ ، ۲۲۹ ، بولس ، الرسول ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، YA. 6 1. A 6 ÅE 173 بيزنطية ١٧٢ ــ رسائل بولس ۷۲ ، ۷۷ ، ۲۷ ، ۸۲ بولس الثالث ، اليابا ٤٩ بيكارديا ٣٢٣ بولونیا ، مدینة ۳۱ ، ۸۶ ، ۱۹۸ بيكمن ٢٦٢ جامعة ٨} بيكون ، اللورد ٢٣٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، بولونیا ۲۳ ، ۹۹ ، ۱۰۶ ، ۱۲۵ ، ۱۲۸ ، XFY > FXT > Y13 بيير ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، بيل ٦٨٧ قاموسه ١١٤ ۵۷٦ ، ۲۷٧ ، ۲۷٦ بيلريك او امير الامراء ٥٦١ بولیب ٤٤٥ البيلاجية ، الهرطقة ٨٨ بوليفيا ، ٦٧ ، ١٠٥ بوميرانيا الشرقية ٥٧٥ ، ٣٧٦ بیل ، بیبر ۸۳ ، ۳۸۰ بومبيوس ٢٤}

التاجر الكامسل ، لجالة سافاري (١٦٦٩) 444 التاجه ، نهر ١١ تاريخ تحبولات الكنائس البروتستانتيسة (1777) التاريخ الطبيعي ، لبليني ١٠٢ تاريخ العالم الجديد (كتأب لسلاب برنسان كُولبو) ٢٦٦ تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر (كتاب لَجَانُ أُوتُونُ} }٧ تاسیت ۲۷۲ تافرنييه ٧٣ه تاکا ۔ راما ۲۲۲ تاكدا ، مناجم ٦٤ه تامسيب ، الشياه ٧٧٥ ، ٧٧٥ التأملات ، لديكارت (١٦٢٩) ٢٩١ تأملات ميتافيزيقية ٢٩٢ تأويلات قيصر (كتاب) ٣٣٨ تان ـ شوای ۲۵۹ ، ۲۲۰ تانغ ۱۲۵ ، ۱۲۲ ، ۲۷۲ تاي ، تسونغ ٦٤٢ تاتي ـ کي ٦٣٣ تبريز ٩٥٦ ، ٥٥٣ ، ٨٦٥ ، ٧٧٥ التتار ۱۲۷ ، ۱۲۹ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳ ، ۱۷۲ ، التحولات ، كتاب لاوفيد 331 ترافنكور ٦٢٣ ترتفليا ٣٩ ترس الدولة والعدالة للسغيسر البابوي ليزولا ٣٥٢ ترکستان ۱۷۵ ، ۳۵۵ ، ۵۶۵ ، ۷۲۵ ، 140 , 144 , 040 ـ الصيني ٥٣٥ ترکیا ۱۷۲ ترنات ۲۲۷ ، ۲۱۲ ، ۲۱۲ ، ۱۱۵ ، ۲۱۳ ترنتيوس ٦٨٢ ترنسلفانيا ٣٣٦ ، ٣٥٧ ، ٢٥٥ ، ٥٥٩ تريزيا دافيلا ٢٤٥ تر سمجیست ۷۱

تريفولت (الاب) ٦٨٤ تریف ، ۳۳۷ ، ۳۶۲ تساليا ٣٧٥ تسان ۔ تي ٦٧٤ تسبو ۔۔ تشوان ۲۶۲ تسنغ ، دولة ۲۲۹ ، ۳۵۵ ، ۹۶۲ ، ۹۶۶ (TAY (TAT (TOT تسو ۔ شیما ۱۹۸۸ تشاد ۲۳۵ تشا۔ کیا۔ نغ ۲۶۱ تشان ــ تونغ ٦٣٠ تشانسلر ، آلرحالة الانكليزي ١٧٥ تشانسي ٦٤١ تشاد ـ كنغ ـ فو ٦٧٦ تشای - کیانغ ۲۳۳ تشمر آي ، انطوني وروبرت ٧٦٥ تشوان ـ تشي ٦٤٢ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، تشوانغ ـ لي ـ ئي ٦٤٢ تشنو نہ سی ۱۷۸ تشبو ۔ هي ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٢ ؛ ٦٣٧ ، 4 774 4 771 4 70. 4 780 4 781 4 77Y 4 7AA 4 7A7 4 7YA 4 7YA 6 711 تشىي ــ تونغ ، ١٤٠ تشيجي ، مصلي ٣٤ تشی ۔ کیانغ ۲۳۰ ، ۸۸۰ ، تطوأن ٧٧٥ تمليقات ، لكوبرنيكوس ٢٠ تقدم العلوم ، لبيكون ٢٦٧ تقريظ الجنون ، كتاب لايراسموس ٧٩ حقلا القدسية ٢٥ تكسل ٢٠٥ تلمسان ۲۰۲ ، ۲۰۵ تليماك ، مفامرات (لفنلون) ١٥ ٤ تمارين الحيساة الروحيسة ، لفارسيا دى سيستروس ٩٠ تمبکتو ، مدینة ۳۱ ، ۹۲۰ ، ۹۲۶ ، 077 6 077 6 074 تناول الغربان المتواتر ، لارنو (١٦٤٣) ٥٥٠

توكومان ٧٠} تنفوس، تبائل ٦٤١ التوازن الدولي او توازن القوى ، سياسة ثول ، مدينة ٢٠٥ Y IAY . IAI تولو داس ، ۹۰۰ تولوز ۱۸۹ **٤٦٧ ، ل**وتا التوبي _ غواراني ٣٤٤ _ ٤٤٤ ، ٥٤٤ ، توليدو ، ١٢٥ V. 1 4 898 4 8A9 تومادا صوزا ٥٥٥ توبينميا ٥٤٤ ـ ٧٤٤ تومېيسل ٧٠٤ تونجور ، سلطان ٥٣٦ توتیك ، ملاحات ، ٢٥ توندیتی ، مدینة ۱۲۰ التوراة ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٥٤٠ تونس ۱۳۶ ، ۲۰۲ ، ۲۰۵ ، ۲۱۵ ، ۲۲۵ ، تود ، مدينة 222 تورد سيلاس ، (بلدة) معاهدة لتقسيب 770 ' NTO اميركا بين اسبانيا والبرتغال (١٥٩٤) تونكين ٦٩٩ EAT 6 199 6 198 التيبت ١٢١ ، ١٦٠ ، ١٢٢ التوراة: اصل وصفها ٠٠٧ -- ٠٠٨ تيت ليف ١٥ تورستنسون ٣٣٩ تيتيكاكا ، بحيرة ٢٧ ، ٢٧٠ تورفيل ، الاميرال ٥٥٥ تیخوبراهی ۲۵۸ ، ۲۵۹ ، ۲۸۲ تورنون ، الكردينال ده ١٣٠ ، ١٣١ ، تيدور ۳۷ه < 7.6. 177 · 148 تيران الابيض (كتاب) ٢٥ تورنيه ، مدينة ، ١٠١ التيرول ١٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٦٥ توریتشلی ۲۲۲ ، ۳۸۰ تيلى ، القائد ٢٤١ تورين ه . ۲ ، ۳۳۲ ، ۳۳۲ ، ۳۳۸ ، ۳۳۹ تيمور ٦١٤ 79. 6 404 6 484 تيمورلنك ، ١٨٥ التوزاما ٥٥٠ تيمون اليهودي ١٨ ، ٢٤ توسكانا ١٥٨ ، ٢٨٥ ، ٣٣٨ ، ٢٥١ تيوان ٥٩٦ ، توسکائل**ی ۲۸** تیودور ، ماری ۱۵۸ توفيه ، الرحالة }}} تيوفيل دي فيو ۲۷۵ توكسونو ، ملك اردر ٢١٥ ثيوذوثيوس ١٥٦ توكوغاؤوا اياسو ٥٥٠ ، ٢٥٢

E

- الثالث ۹۲ جان البير الاول بابلون ۱۹۳ ۱۹۳۰ جان البير الاول بابلون ۱۹۳ ۱۹۳۰ جان بار ۲۵۳ جان دارك ۲۷۱ ۱۳۳۰ جان دي فيت ۱۳۰ ۱۳۱ ۱۳۱ ۱۳۱۰ جانفيه ، القديس ۶۶ جامور ۱۱۳ ، ۱۲۳ ، ۱۲۳ ، ۱۲۳ ، ۲۲۳ ۲۰۳ جريدة فرنسا (۱۳۳) اسسمها ريتودو ۲۲۳ جريدة فرنسا (۱۳۳) اسسمها ريتودو ۲۲۳ جريدة فرنسا (۱۳۳) اسسمها ريتودو ۲۲۳ جريدة مرنسا (۱۳۳) اسسمها ريتودو ۲۲۳ الجزائر ۲۲۶ ، ۳۲۵

الجاذبية: نظريتها واكتشاف نيوتن لها ، ٣٩٣ (٣٨٧) ٣٩٣ (٣٨٧) ٣٩٣ (٣٨٧) ٣٩٣ (٣٨٧) ٣٩٣ (١٩٠١) جارفن ، الطبيب ٣٠٩ (٢٢٠) ٢٣٠ (١٦٠٠) ٢٣٠ (٢١٠) ٢٠٠ (٢٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٣٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠) ٢٠٠ (٣٠٠)

۳۸۰ ، ۵۰۰ ، ۶۴۰ ، ۴۰۰ ، ۳۸۰ جینف ، ۹۱ ، ۱۰۸ ، ۱۰۸ ، ۱۰۸ ، ۳۸۱ ، ۳۸۰ ، ۳۸۱ ، ۳

7

حافظ ، الشاعر ٥٩٩ الحبشه ٥٥٥ حرب الوردتين ١٥٨ حروب الفلاحين ١٥٢٤ ، ١٥٢١ ، ٨٦ الحرس القيصري ١٧٧ حركة القلب ، كتاب لهارفي (١٦٢٨) ٢٦٢ الحفصية ، الدولة .٥٦ حلب ، ٨٦٥ الحوار حول نظامي العالم الهامين لفاليليو ٢٦٥ حول الاقتداء (كتات) لبعبو ٣٤ حول حرية الارادة ، لابراسموس ١٥٢٤ ،

۸۲ حول خلود النفس ، ليمبونازي ٣٦ حول اسبب ومسببات لل ما يجري فسي الطبيعة والسحر ، ليمبونازي ٣٦ حول دوران الفلك ، لكوبرنيكوس ٤٩ حول طبيعة الاشياء والعرافة ، للوكريس حول عبودية الارادة ، للوثر ٨٣ حول القدر وحرية الارادة ردا على لوثر ٨٧

حول عبودية الارادة ، للوثر ٨٣ حول القدر وحرية الارادة ردا على لوثر ٨٧ حول الوظائف ، كتاب لشريشروب ٧٦ حول دوران الافلاك السماوية، لكوبزنيكوس ٢٠

ţ

خناقة القربان الاقدس ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٥٥ ، الخليسج الفارسي ١٦١ ، ٢٢٤ ، ٥٥٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨٠ ، ٥٨٠ ، ٥٨٠ ، ٦٠٩ ، ٩٠٠ ،

خراسان ۷۷۲ ، ۷۷۳ ، ۷۷۶ خربيلون (الاب) ۲۹۳ خط الاستواء ۲۱ خطاب حول اسلوب توجيه المقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، لديكارت ، ۱۹۲۷ ۲۹۲ خطبة في التاريخ المام ، لبوسوسيه الخطرات ـ كتاب باسكال (۱۲۵۸) ۲۵۵

دار فور ۳۳۵ دارون ۹ داریان ، مضیق ۷۵ ، ۲۷۱ دالای لاما ۱۹۷ دانتزيغ ۲٤٠ الدانمارك ٨٤ ، ١٠٩ ، ٢٣٨ ، ٣١٩ ، • TY7 • TOE • TOT • TEE • TTT الدانوب ٢٣٦ ، ٣٤٧ ، ١٥٥ ، ٢٥٥ داهومي والداهوميون ٢٢٥ ، ٢٥٥ داوود آلملك ، ٦٥ الداي ۲۱ه ، ۲۲۰ دجلة ٧٢٥ اللَّراف ، نهر ٣٤٧ ، ٥٥١ درالك ، القرصان الانكليزي ٢٠٥ الدردنيل ، مضيق ١٨٥ درسد ۲۰۳ دشیما . ۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۷۲ الدعار او خالعو العذار 100 دمنوة البى دراسنة الفلسفية السيحي لايراسموس ٧٩ الدنتر دار ۲۶٥ الدفيناً ، نهر ١٧٥ الدكن ١٨٥ دلا روفیر ، اسرة ۳۵ دلهی ۸۸۳ دمشق ۵۵۳ ، ۲۰۹ ، ۲۰۹ دنکرك ۱ه۲ ، ۲۵۴ الدنيبر ، نهر ۱۷۲ دنيس الاريوباجي ٧٦ ده توریس (کوسم) ۱۹۵۰ کا ۲۹۲ ده دادا ۲۷۳ ده غویس (بنتو) ۸۸۰ ، ۲۹۰ ده مندوزا غونزالیس ۱۷۳ ، ۱۸۶ دوبرا ، الكردينال ٨٩ دوتشی ، غسیار ، ۱۳۲ دوردرخت ، مجمع ۳۱۰ دورلیان ، غاستون ۲۳۲ الدوغا 11

> رابلیه ۱۹ ، ۳۸ راتسبون ۵۰۱ الراجیوث ۸۸ راجبوتانا ، مقاطعة ۸۸

دوغیه ــ تروین ۳۵۱ دوغیه دی بانیول ۳۲۹ دوف البا ١٦٤ ، ١٨٣ دوكلين ، الاميرال ٣٥٥ دولیه ، اثیان ۲۸ ، ۱۰۳ دومینکو ماریا ده نوفارا ۱۸ ، ۶۹ الدون ، معركة (١٦٥٨) ٣٤٢ الدونا ، نهر ۱۷۲ دون ــ تشانغ ــ أن ٦٣٢ دون جوان ده بريتو ٦٢٥ دیاربکر ۸هه ، ۸۸ه ، ۷۰۰ ، ۷۳۰ دیاز ، برنلمي ، ۲۳۱ ، ۲۳۲ دَيَاغُو فَيلَاسَكِيز ٢٤٤ ، ٢٥٠ دياغو كالفو ٥٥٦ ديّاغو كاوو ٢٠٥ اكتشافه مصب نهر الكونفو ٢٠٥ ديامبور ٦٢٣ ديجون ، مدينة ١٩٦ دي کانج ، ۲۰۱ دنکارت ۹ ، ۱۱ ، ۱۸ ، ۱۰۶ ، ۲۲۲ ، 1 TAP ' TAT ' TAT ' TAT ' TAT **ፕ**ለጓ **'** ፕለሃ مؤلفاتـــه ۲۹۲ ، ۳۹۵ ، ۳۹۰ ، ۳۹۹ ، **٦٨٨ : ٦٨٥ : ٤١٨ : ٤١٢ : ٤.٢** الديكارتيــة أو الكرتزيانية ٢٩٠ ــ ٢٩٨ **٣٦٣ • ٣٦. • ٣٨٣ • ٣٨. • ٣٣1** الزوابع الكرتزيانية ٣٦٠ ـ ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، 387 الكرتزيانية والنيوتونية ٣٩٥ ــ ٣٩٥ الدينونة الاخيرة ، صورة لميكالو انجلو ٦٨ ديو ، مدينة ١٥٥ ، ٥٥٥ ديوان التفتيش ١٠٠ دييب ، مدينة ٣٤} الدبيت (بولونيا) ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ الذعر العظيم ٣٧٢

الراس ، مدينة ، تأسيسها على يد فان رببيك ٢ - ٤ - ١٩٥٢ ، ٥٢٠ الـرآس الاخضـر ١١٢ ، ١٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٨١٤ ، ٢٨٠ ، ٢٢٥

رأس ده غیه ۲۶ه ، ۲۰ه روان ، مدينة ٢٢ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٣٤ ، رأس الرجاء الصالح ٦٢ ، ١٢٢ ، ٣١٨ ، 777 6 777 6 180 (or. (EX) (ETT (ETE (EY) روبر قال ۳۸۶ ِ 71. 67.4 روبنسس ، ۱۲۶ ، ۲۶۷ ، ۲۶۲ ، ۸۲۸ ، رأس سان روك ، ه٧٤ **4.3** 3 X13 رأس سان منشان ۲۰۵ ، ۲۱۱ _ آثاره **۱۲۲/۵** راستات ، معاهدة (١٧١٤) ٨٥٣ روتردام ، ۲۲۲ رأسين ٢٨٤ ، ٣٧٤ ، ١٨٨ رودوس ، جزیرة ۱۹۵ ، ۵۵ ، ۲۵۵ ــ بعض مؤلفاته: ۲۸۷ روسلينو ، انطونيو ٢٩ راغوز ، مدينة ١٢٧ روسو ، جان جاك ؟ ٩ } رافئسبورغ ، كونتية ٣٧٥ روسيون ، ٣٤٣ رافياك الراهب قاتل الملك هنري الرابع روسيا ١٢٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٢ 107 6 144 6 14X 6 144 6 140 6 148 رافینا (معرکة) ۱۵۱۰ - ۱۸۹ راکوکزی ، ثائر هنفاری ۳۷۶ **ገ**ለም ሩ ገገኛ ሩ ገገና راما ، الاله ، ، ٩٥ ، ، ٧٠ ، ٧٠٤ روشلین ۱۹ روضة التمارين والتأملات الروحية ، لجان راميرانت ٢٤٥ ممبرت ، ۹. رامبونه ۲۸۲ الراميانا . ٥٩ روك ، الاميرال الانكليزي ٥٥٥ روكسلان ، زوجة السلطان سليم الثاني رامیسی (معرکة ۱۷۰٦) ۲۵۸ رانجل ، قائد غوستاف ادولف ٣٣٩ روکروا (معرکة) (۱٦٤٣) ۳۳۹ رای ، ابیل ۴ه۶ رولان العاشق ، ملحمة لبوباردو ٦٤ رتس ، ۶۵۲ ، ۲۷۶ رولان الثائر لاربوست ٦٤ رتشى ماتيو (الاب) ۲۲۶ ، ۲۷۲ ، ۲۷۷ ، رومر مكتشف سرعة النور ٣٨٢ ، ٣٨٣ روما ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲ ، ۲۸ ، ۸۵ ، 710 (784 (788 رجل البلاط ٣٢ 311 3 411 3 441 3 431 3 134 3 رجل البلاط (كتاب) للكونت كستغليوني \$ 041 6 \$40 6 \$44 6 \$.4 6 4A\$ **TT : TT** 790 6 788 رسالة التاجر ، لرينشردستيل ٣٦٢ روما الثالثة (موسكو) 177 الرسالة اللاتينية لديكارت ٢٨٥ رومانيا ٢٥٥ رسالة الى اهل كورنتس ٩٠ الروملي ۸۵۵ رسالة بولس الى اهل تسالونيكي ٨٩ رويتر ، الاميرال الهولندي ٥٥٥ رسائل القديس بولس ٧٦ رویزبروك ۱۱،۵۰۱ الرشدية (فلُسفة ابن رشد) ١٠١ الرياضة الروحية ، لدهلويولا . ٩ ، ٩ ، رفائیل ۲۰ ، ۲۶ ، ۲۲ ، ۲۷ ، ۸۲ ، ۲۳ ، ۳۲ 0X 6 TE 6 TT ريسويك ، معاهدة ٥٦٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، رفيق الفارس المسيحي ٤ لابراسموس ٨٠ رفيق المنافل السيحي ، كتاب لايراسموس دیجیس ۸۲۱ ، ۲۸۳ ، ۲۸۲ YX (YY (10.4 رهبانية المعبد ، اسسها بيرول عام ١٦١١ الاسس الطبيعية ١٨٨٠ الجملة الفلسفية ٢٨١ 171 ريجيو موثتائوس ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤ روان ۲۹۱ روجييــري (الاب) ه٢٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، دیدی ۳۷۶ ریشلیو ۲۲۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۶ ، ۳۰۰، رودوب ، مقاطمة ٧٧٥ < 777 < 77. < 717 < 717 < 7.7

۳۲۷ ، ۳۲۷ ، ۳۲۷ ، ۳۲۷ ، ۳۲۷ ، ۳۲۲ ، ۳۲۲ ، ۳۲۲ ، ۳۲۱ ، ۳۲۱ ، ۲۸۸ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۳۲۱ ، ۲۳۱ ، ۲۰۰ ،

رینه ده فرانس ۱۰۰ رینو ده فرانس ۱۰۰ رینو دو ۲۰۱ ، ۳۲۷ رینو ده اورو ۲۲۵ ریو ده اورو ۲۲۵ ریو ده لابلاتا ، نهر ۳۶۶ ریو د ریال ۲۲۶ ریو غرانده دل نورث ۲۳۹۰ ، ۳۹۶ ریو سام کیو ، جزر ۲۵۶ ، ۳۹۶ ریو رما ، نهر ۳۹۶ ، ۵۰۶

;

زامت ۲۱۸ الزراد شتیة ۵۸۶ ، ۹۹۳ زلفا ۷۷۵ زمبینر ، نهر ۵۲۰ زن ، الدیانة ۱۲ ، ۹۲۶ ، ۳۲۷ الزنوج فی آمیرکا ۲۲۵ - ۲۹۵

زوریخ ۸۸ ، ۸۸ ، ۱۰۶ زو ماراغیا ، الاسقیف خوان دي ، اول اسقف علی مکسیکو ۵۰، ، ۵۰ ، ۵۱ ژونکلی ۸۵ ، ، ۹ ، ۹۶ ، ۹۵ ، ۲۲ ، ۱۸۲ زیلاندا ۱۱۲ ، ۱۲۵ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۳۶ س . ، الجدیدة ۲۲۶

س

سانتونج ۲۲۱ سان جرمین ۳۰۵ سان جرمین ده بریه ، دیر دئاسة بندکیتی سان ۔ مور ۲۰۶ سان دومنغ ۷۲٪ ۲۲۰ سانس ، متجمع (۱۵۲۸) ۸۹ سان سلفادور ۲۰ ، ۲۱ ه سان سولبیس ۲۸۱ سان سيمون ٣٠٥ ، ١٥} سان فنسان ، رأس ، اطالب : رأس فنسان سان کسیانو ۱۶ سان کنتین ، موقعة (۱۹۵۷) ، ۱۱۴/۱۱۳ سان لوران ، نهر ٤٤٠ ، ٧٦ ، ٥٩٥ ، سان ۔ لویس ۲۱ه سان مالو ۹۹۲ ان ۔ مدور ، بندکیتون ۳۸۱ ، ۲۰۶ مطبوغاتهم ٧٠٤ سباکتاتور ، لادیسون ۳۲۱ سبتا ، مدینة ۷۲٥

سابليه ، المركيز دي ٢٥٦ ، ٣٨٠ ساراغوسا (معاهدة ١٥٢٩) ٨١٤ سارانوف ، دیر ۱۷۲ سمارا ۱۷۳ ساغر ۲۱\$ الساف ، تهر ۷}ه ، ۱هه سافرن ۳۳۸ سافونا رولا ۲۳ ، ۲۰ ، ۲۰ سافوی بیا مونت ، دولة ۱۵۷ ، ۲۰۵ سافوی ۲۵۱ ، ۲۵۸ ساکای ۲۲۸ ، ۲۷۰ ساكرو بوسكو ٢٣٦ ساکس ، مقاطعة ۸۶ ، ۸۸ ، ۲۳۷ ساكس السقلي ٢٣٨ ساکس ، البرت ده ۱۰ ، ۱۸ ، ۲۲ سالازار ، الاسقف ععه سالوس ، مدینة ۲۵۹ مسالوین (نهر) ۹۳۳ سان ۔۔ بول دی لواندا ۲۰ه سانت ماری (الآب) ۱۸۷ سانتو ــ باولو ۸۹٪ ، ۹۰٪ ، ۹۱٪ ، ۹۲٪ 6 007 6 007 6 001 6 00. 6 084 سبولفيدا ٨٧ 000 6 000 سبير ، مدينة ٣٣٨ سليمان ، الشاه ٧٧٥ سبير ، مدينة ۲۳۸ ، ۳٥۸ سلافونيا ٥٥٩ سبينوزا ۲۹۸ ، ۲۰۷ ، ۱۱۶ سمالکلاند ، حرب ۱۲۵ ، ۱۹۷ ، ۲۰۳ سمر قند ، مدينة ٨٨٥ ، ٨٨٥ البحث اللاهوتي السياسي ٧٠٤ ، ١٧ } سمیاند ، فرنسوا ۱۱۲ سبينولا، القائد ٢٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٦٩٠ سنراي ۲۶ه ، ۲۹ه ستاتین ، مدینة ۱۲۲ سنا : مسرحية كورناي : ترجمتها السي ستراسبورغ ، مدينة ١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٣٣٨، الاسبانية عام ١٧١٣ ؟ ٣٧٤ 200 6 404 سنسوفينو ، اندريا ٣١ سترافورد ، اللورد ۲۳۳ سنسوفينو ، جاكوبو ٦٢ ستيري ٢٣٦ سنسيا (جزيرة) ٦٢٣ ستوارت ، آل ۲۳۲ ، ۳۰۹ ، ۳۰۷ ، ۳۰۹ سنغ ٦٨٣ ستيل ٣٧٩ السنفال ٥٢١ ، ٣٦٥ السنجايا (كتاب) للابروبير ٠٢} سنك مارس ۲۳۲ ، ۳۳۳ السنحر والمجوسية ٥٤ ــ ٧٤ سنكتو ۲۱۸ مخاطبة الارواح ٥٤ سن ۔ کیونغ ۔ کی (بول) ٦٨٠ المعجزات عع سنيكا ۱۷ ، ۲۵۳ ، ۲۷۲ ، النجامة }} سوامردام ۲۸۲ سردینیا ۲۳۹ ، ۳۵۸ ، ۳۷۰ سوتبير ۲۱۶ سرغسطة ١٩٩ سو ـ تشيو ٥٣٥ ٪ ٦٨٠ سرفیسه ، میشال ۱۰۳ ، ۲۶ له: السيودان ١١٦ ، ٢٢٤ ، ٣٦٥ ، ٥٦٠ ، مغالط الثالوث ١٠٣ 077 (077 (070) 078 (078 العودة بالمسيحية الىجدورها الاولى ١٠٢ سوديريني ، بيبرو ، رئيسس جمهورية سرندیب ، جزیرة ۱۲۱ فلورنسا ۲۵ ، سريزول ، معركة ، ١٤٦ ، ٢٠٦ السوربون تحرم مؤلفات ديكارت ٣٣١ ، سعدي ، الشاعر ٦٩ه السعدية ، الدولة ٥٦٥ ، ٧٧٥ سوريا ۱۲۱ ، ۵۵۰ ، ۵۵۳ سفورزا ، فرنسوا ، ۲۵ سوز ، مدینهٔ ۲۰۵ سفینیة ، مدام دی ۳۰۵ ، ۳۸۰ سوزا ، تومیه دی ، ۹۰ سقراط ۸۶ السوس ۱۱۲ ، ۲۲۷ ، ۲۲۵ ، ۲۵۵ ، ۲۵۵ سكستوس الرابع ، البابا ٢٣ ، ٣٥ سوسكس ، مقاطعة ١٣٦ السكستينية ، آلكنيسة ٣٥ ، ٦٨ سوسونام مترأم ٦١٧ سكشويادو ٥٥٠ سوسين ، لالبوس ١٠٤ ، ١٠٤ سكندىنانيا ٢٤٠ السوغار ٢٤٦ سکودري ، ده ۲۶۲ ، ۲۶۹ سوقو ۲۲۲ ، ۲۲۷ مؤلفاته القصصية ٢٤٩ سوللي (ابنه) ارتداده الي الكثالكة ، ٣٣٢ سلس ۱۰۲ سولور ۲۱۲ سلطان حسين ، الشاه ٧٨٥ السوم الاعلى ٢٠٥ سلمنكا ، جامعة ٢٠٧ السوند ، جزر ٤٢٩ ، ٢٢٥ ، ٣٧٥ ، ٥٥٥ 7.7 477 4717 4708 سلوم سلمان ، السلطان ٣٦٥ سونغ ٥٤٥ ، ٦٣٣ سليدان ، جان ۲۰۲ سليم الاول ، السلطان ٢٢ ، ١٥٥ ، سونغ ــ تشانغ ٦٣٦ سونغ ــ ينغ ـ هنغ ٦٣٣ ــ الثاني ۲۸ه ، ۸۶۸ ، ۲۵۸ السويس ١٥٥ سليمان القانوني ، السلطان ٢٢ ، ٧٤٥ ، سويسرا ٩٦ ، ١٤٣ ، ١٨٨ ، ٢٧٩

سويفت ٣٧٩ السياسة المستمدة مسن الكتساب المقدس (كتاب لبوسوسيه) ١٥} سیام ۱۵۶ السينة ، بلاد ٢٦٥ سيبيريا ١٧٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤١ ، ٣٣٥ ، 1777 سيبيو ۸۵۲ سیت ، مدینهٔ ۲۵۸ سيجسموند الاول ١٦٦ ، ١٦٦ ۔ آلکانی اوغسطس ۱۲۲ ، ۱۲۷ ــ الثالث ١٦٦ السيخ ، طبقة ١٢ السيد : صلاحياته في الكسيك ١٧/٥١٤ السيّد ، مسرحية لكّورناي ٢٥٠ سیدان ۳۰۸ سيراف ۲۱۲

سير مشاهير المهندسيسن والرساميسن ، لغاسباري ۱۹، سيراليون ٦٣٥ سیریزییه ۲۸۷ سیزارینی ۵۹ سيستروس ، فارسيا ٩٠ سي ــ كيانغ ٥٥٨ سبكيغانارا ٦٧١ سیلان ۱۱۲ ، ۱۱۵ ، ۲۲۹ سيمابو ١٩ سيميان ٢١٦ سیمولر ، وولد ۳۳} سیمون ، ریشار ، ۲۰۷ ، ۸۰۶ سي ــ نغان ، ٥٣٥ سيمون ده اندراد ۲۵۵ السيو ٧٠١ سيو ــ کوانغ ـد کې ٦٨٢

ش

شابالا ، بحيرة ٥٦ } شابلین ۲۸۶ شارتر ، كاتدرائية ١٧ شاردن ۲۸۱ ، ۲۸۲ ، ۷۰۲ شارل الجسور ١٩٦ شبارل الاول ، ملك انكلترا ٢٣٢ ، ٢٤ ، ــ الثاني ملك انكلترا ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، TTE (TTT (TO) (TO. (TIA شارل الثاني ، ملك أسبانيا . ٣٥١ ، ٣٥١ ، 401 شارل التقامس ، امبراطور النمسا ٢٥٨ شارل الخامس او شارل کنت ۲۲ ، ۲۳ ، 414X 4 140 4 1.4 6 1.0 4 X7 4 7X 4 177 4 104 4 187 4 187 4 18. 4 130 4 137 4 131 4 1AY 4 138 4 Y. 1 4 Y. 2 4 133 4 137 4 137 6 014 6 0.4 6 0.7 6 EAT 6 EAE 00Y 6 00. شارل السنادس ، اميراطور النبسيا ٣٥٨ ، ٣٦. شارل السابع ۸۷ شارل الثامن ٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ،

شارل التاسع ، ١٥٥ شارل الثاني عشير ، ملك اسوج ۲۷۷ -ب انگساره فی بولنافا (۱۷،۹) ۲۷۷ شارل مارتل ۱۱۶ شارل ده ۱۹۲ او شارل الخامس ۱۹۲ ؛ 177 شارلروا ۲۵۹ مهارلان ۲۵۲ ، ۲۵۵ م ــ ورولان ۲۵٪ شارلوت دې مونبوراني ۲۸۵ شارون ، بینیر ، ۲۷۲ ، ۱۹۱ الشناطىء اللحبين ٢٠٥٠ شائتسىيرى ١١) شال أدم (الأب) ۱۸۲ ، ۱۸۳ شائتوناي) توماس برنو ده ۱۸۳ شائغ ۔ س ۲۷۴ شانگا ۲۲۷ شاه جهان ۹۲۲ الشناهشامة للغردوسي ٦٩ه شايئر ، الاب السبوعي ٢٥٩ ، مختبرع الرقب الشمسي ٢٦٤ شتادیاس (جمعیة) ۱۱۸ شتو تغارت ۲۵۸ شرح العقمدة الكاثوليكية ، فسي المواضيع المختلف هليها ؛ لبوسويه ٥٤٣ الشرق الادني ٦١، ٤٦٠،

شماخا ، مدىنة ٧٠، الشرق الاقصى ٧ ، ٦٢ ، ٦٨٥ ، ٦٠٩ ، شميانيا ، مقاطعة ١٠٦ 4 774 4 709 4 70X 4 70Y 4 774 شنفای ۲۴۰۰ Y. 16 778 الشركة التركية ٣١٨ الشركة المسكوبية ٣١٨ شركة الهند الشرقية الهولندية تأسست ۱۷۲ سنسة ١٦٠٢ ، ٢١٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، شو ــ يونغ ــ شون ٦٤٦ شیروان ۵۵۳ ، ۷۲۵ 411 شركة الهند الشرقية الانكليزية (١٦٠٢) 77X 4 777 4 1 . 1 **TIR & TIA** شركة الهند الفربية ٣١٥ (تأسست ١٥٢١) شر وأن ۷۳ه شيغا ٦١٧ شعراء اللوفر ٣٢٧ شکسبیر ۱۸۶ شكوى السلام ، كتاب لايراسموس ١٥١٧ شيو ــ شيو ٦٧٧ 1.7

> صافی ، الشاه ۱۵۵ ، ۷۸۵ صافی ، مدینة ۲۵ ، ۲۵٪ ۲۰۰ صالح ، مدينة ٧٧٥ صحيفة العلماء ٣٢٢ صربيا ٥٥٢ الصدر ١٧٥ الصفوية ، الدولة ٦٩ه ـــ ٧١ه ، ٧٢ه ، ۵۸۲ ، ۵۷۸ ، ۵۷۳ صقلية ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، صنوج العالم ، كتاب لبونا فنتورا ده برييه 1.4 6 044/1044 ـورات ، مدينة ٧٦ه ، ٧٧ه ، ٨٤ ، 771 677. صوصة ، ليونل ده ١٥٦ صوفالا ۲۰۰، ۲۰۰، ۵۰۰ صوفيا باليولوغ ١٧٢ ، ١٧٤ الصومال ٦٥٣ صومطسرة ۱۲۱ ، ۲۰۹ ، ۲۱۲ ، ۲۱۲ ،

الطاولة المستديرة ، روايات ٢٥٤ الطاوية ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٠ ، ٦٩٧ ، 6 71X طبيعة الآلهة والعرافة ، لشبيشرون ١٠١ طرابزون ۱۲۸ طرابلس الشيام 209 طرابلس الغرب ٥٥١ ، ٢١٥ طروا ، مدينة ٣٢٢ الطريقة الموجزة والسهلة للصلاة (كتاب)

الشوغسون ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، شيشــرون ۱۷ ، ۳۶ ، ۵۵ ، ۲۷ ، ۸۸ ، الشيشيميك (قبائل) ٨٦١ ، ٨٨١ ، ٥٠٦ الشبعة ٥٥٣ ، ٨٦٨ ، ٢٥٩ عبسا شیلی ۳۵۰ ، ۲۹۶ ، ۲۹۲ شیمازو تککاهیا ۱۲۵،۴۲۹

6779 الصوند ۲۲۱ ، ۲۲۳ ، الصين ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١١ ، ١٢١ ، ٢٧١ ، · 017 · 277 · 270 · 274 · 717 4 751 6 040 6 050 6 055 6 044 < 717 (710 (718 (7.4 (707 (774 (777 (778 (778 (771 4 774 4 774 4 777 4 770 4 77E 4 11. 4 188 4 188 4 181 4 180 < 190 < 198 < 198 < 198 < 198 < 191 Y-1Y--Y-1Y-1Y-1 V. T (V. T

> 8.0 طفیلا ، مدینة ۱۹۵ ، ۷۲۵ طلفا ، اوتولغا (شـب) ۲۶ ، ۹۰ طلطلة ١٥٥ طنحة ٣٠٩ طهران ۱۸، ۵ ۷۷۰ طولر ۱۱ ، ۹۰ طولون ۱۹۸ ، ۳۵۲ ، ۳۵۳ طیماوس (کتاب لافلاطون) ۸۶

ط

عابیر ، منطقة ٥٦٤ العاصفة ، صورة لجيورجيوني ٦٢ العامور ۲۲۲ ، ۲۲۳ ، ۲۸۳ عباس الأول ، الشباه ١٥٤ ، ٧٣٥ ، ٧٧٥ ، 044 6 041 مباس الثاني ٧٨ه عبد الكريم ٣٦٥ عبدالله ، الملك ، ٢٧٥ عثمان ، السلطان ٢٥٥ عثمان الثاني ، السلطان ١٨٥ ، ٥٥٦ العثمانية ، الامبراطورية ٥٣٨ ، ٥٤٥ ، 6 07. 6 00Y 6 008 6 089 6 087 ۲۲ه ، ۱۲ه ، ۲۷ه عدن 7.9 العذراء على الصخور ، صورة 19 العراق ۱۲۱ ، ۵۰۳ ، ۵۰۸ ، ۷۸۰ العشباء السرى ، صورة لده قنشي ٦٥

العصبة الكاثوليكية ١٥٦

ع

غ غارسیا ده اورتا ۸۱۱ الفارف ، ۲۸۶ غاستون دورليان ۲۷۳ ، ۲۷۶ غاسندي او غندي ۲۷۰ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، 377 3 387 3 713 غاستدية ٣٧٣ غاغن ١٤٦ غاغو ، بلتازار (الاب) ۸۲۸ ، ۲۲۹ غاليا ٢٤٠ غاليليو ٢٠٧، ٢٥٧، ٨٤ ، ٣٥ ، ٧٥٧، **7.77 > 7.77 > 7.73** غانا ۲۳ه الغانج ، نهر ٨٦٥ غاو ۱۲۶ غرانغيل ، الكردينال ده ١٦٣ ، ١٨٣ غرغنتويا ١٩ غرفة التوقيمات ٢٦ الغرفة الكوكبــة ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، 777 غرناطة ١٤٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٥٥٠ ، ٥٦ غروتيوس ۲٤٠ ، ۲۱۲

عصر بریکلیس ۲۰۲ عصر اوغسطس ٤٠٢ عصر لويس الرابع عشر ٤٠٢ عصر الانوار ٣٧٣ عظمة الدولة ٧٤ه العفراني ٦٧٥ ملم الفلك الجديد (كتاب لكبلر ١٦٠٩) علم الغلك (كتاب لوولد سيمولر) 331 علاءالدين ، الامير ١٥٥ علي بن ابي طالب ١٨٥ ، ٧٤ه على أكبر ، الدرويش ٣٧ه على شاووش ٥٦١ المآوية ، الدولة (المغرب) ٧٦٥ عمان ۷۸۸ ممانولیل لویس ۱۲۵ الفابــة السوداء او الحرج الاسود ١٠٥ ، 477

غريغوريوس الخامس عشر (البابا) ٦٢٥ غريغوريوس لويس ١٨٨٠ غريكو ١٤٤ ، ٥٤٧ غريلون (الاب) ٦٨٣ غرینیان ، مدام دي ۳۸۰ فسنكونيا ١٨٨ ، ٢٢٦ غلىر ٢٣٤ ، ٢٣٥ الفليكانية ، الكنيسة ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٧٢ غاليليو ٦٨٢ غلاطية ، صالة (في قصر تشيجي) ٣٤ غلدان ۲۶۰ غليوم دورانج ١٦٤ ، ١٦٥ غمبي ، نهر آ١٥٥ غنت ، مدنة ١٣٤ غنفران ٦٣٥ غوا ، مدينة ٨٦٥ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ، ٢٢٢ ، 4 ToA 4 ToY 4 TYO 4 TYE 4 TYP 4 798 4 798 4 778 4 77. 4 709 _ مجمع . . (١٥٦٧) ٨٨٥ غواتيمالا . ه ٤ ، ٣٥٤ ، ٤٦٠ ، ٨٦٤ ، ١١٥ غوجيزات ٥٥٤ ، ٨٨٥ ، ٢١٦ غوزاليس غريفوريوس (الاب) ٦٧٣ غوستاف ۔ ادولف ۲۳۹ ، ۳۳۲ ، ۳۳۸ ، TVV 9 TTT غوکینای ۲۲۷ ، ۲۲۹ ،

غروننغ ۲۲۶ ، ۲۸۰

غويتشيارديني ۱۲۸ غولكوند ١٨١ه غويون ، السيدة ، ٥٠٤ غومار ـــ والغومارية ٢٨٢ ، ١٨ } القومارية ٣٣٤ ، ٣٣٥ غويين ۲۰۳ غيز ، آل ده ١٤٨ ، ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٦ غومیرات ، مقاطعة ۸۹ه فیشاردین ۲۵ غوندي ، دي ۲٥٤ غيرلانداخو ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ غونزالغو القرطبي ١٩٠ ، ١٩٢ غیلان ۷۷ه غویار ، ماري ۹۹۹ غوادلوب ۲۲ه فینیا او فینیسه ۳۱۲ ، ۳۲۱ ، ۸۱۱ ، غوبانا ٥٧٥ ، ٢٢٥ 4 709 4 078 4 088 4 08. ن فابيكون ٦٢٣ ۔ قصر ۳۳۰ الفاتحة ، صلاة ١١٥ فرغانة ٨٢ه فابر ، جان ۸۰

فرسای ۳۰۰ ، ۳۰۰ و ۳۳۰ ، ۳۳۰ فرنانديس (اخوان) ١٦٥ نرنسا ه 🕒 ۱۷ ، ۲۳ ، ۲۳ ، ۱۱۲ ، ۱۱۷ ، 4 1 3 371 3 731 3 731 3 Y31 3 < 10Y 6 107 6 101 6 10. 6 18A < 7.0 < 7.7 < 7.7 < 7.. < 17Y TTE (TTI (TOT (TO) (TO.) * 7A0 (7A7 (777 (779 (719 711 فرنسا - الشنمس ٣٥٢ قرنسا ـ الكبرى ٣٥٢ ، ٣٥٣ الفرنسواز الكبرى ، سفينة ١٨٧ فرنسوا دي سال ۲۸۰ فرنسوا الثاني ١٥٥ فرنسوا دي توليني ١٠٥ يس ألساليري ، القديس ١١ < 107 < 101 + 187 < 177 < 17. < 111 4 1AY 4 1AT 4 100 4 10T 6 7.7 6 7.1 6 7.. 6 190 6 197 001 محاولته النزول في انكلترا وغزوها 1080

فاثبور سیکای ، مدینهٔ ۸۸، ۱۹۱۰ فاجيرو ٦٦٣ ، ٦٦٥ فاجيل ، تابع غليوم اورانج ٣١١ ، ٣١٢ فارس ، بلاد او العجم ، ١٢١ ، ٣١٤ ، 173) 070) 176) 176) 770) 4 718 4 7.7 4 DAY 4 DYX 4 DY7 V. F (V. F (777 (790 (7F. فارتیز ، الکردینال ۹۹ ، ۱۹۵ فارنیز ، قصر ۳۶ فاساری ، جورج ۱۹ فاسكــو ده غاماً ١١ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ١٢٢ ، 04. 6 849 فاطمة الزهراء ١٦٨ فالغنياني ٢٢٣ ، ٦٦٨ ، ٢٦٢ ، ٥٧٥ ، فالكوني ، جان ه. } نان رئيك ٢٠٥ نانغ ۱۲۴ فانّ لنشوتن ٦١٠ فانيتي ٢٦ فانيغاً ، جزيرة ٥٦٦ فتشینو ، مارسل ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۵ ، ۲۹ ، Y0 6 TA فتریه ، مدینة ۱۱۶ فتشبیولی ، لوقا ۱۳۲ نراره ۸۶ ، ۲۳ ، ۸۲۶ فرانسش - کونتیه ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۲۳ ، 707 (701 (7EV (777 (Y.V فرجيسل ۱۷ ، ۲۲ فردون ، مدينة ٢٠٥ فردينان ، آلامبراطور ١٤٢ ، ١٩٧ ، ٢٣٦ الفسرس او العجم ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ،

4 7AA 4 7YY 4 771 4 77. 4 701 قرئسيس الساليزي ، القديس ١١ فرنسوا كسافييــه ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٦٣ ، فولتير ١٠٤ ١١٤٤ فولز ، بول ، ۸. الفولغا ، نهر ۱۷۲ : ۱۷۱ ، ۷۲۹ 4 71V 4 7VY فرنسيسكو دي توليدو ٦٦٦ فوتای ۲۲۷ - ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، فونتنبلو ٣٠٥ براءة (الفت براءة نانت) ٣٣٣ فرنسيسکو دي فيتوريو }∧} فونتيل ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٢٠١ فرنكفورت 211 تنبؤه يطيران الانسان ، في مقدمة فروبيشىر ٢٠٥ كتابه: تاريخ تجديد الاكاديمية الملكية فروین ، دار نشس ۷۹ للعلوم سنة ١٧٠٢ فريبيه (الاب) ٦٨٣ فیتر به ، جان ۷۹ فريبورغ في تريسفو ۲۳۸ ، ۲۵۲ ، ۳۵۹ فريدريك الخامس ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ فيتوريو ٢٠٧ نیجیناغار ۴۲ه ۱۸۱۸ فريدريك غليوم ٣٧٥ فيدور الكسفتش (١٦٧٦ -- ١٦٨٢) ٢٧٦ فریدریك هنری ۳۱۲ فيزا كروز ٧٨٤ ، ٨٠٨ ، ١٣٥ ، ٦٦٠ ، **ئرىز) مدىنة ؟٢** فشنواو فكتو ٦٢٦ ، ٧٠٤ فيراكوشا ٦٧} فيرفين (معاهدة ــ ١٥٩٨) ١٥٦ ، ١٩٨٠ فلسر ۲۲۶ فلسطّين ٥٥٣ فيرندو ٢٥٩ الفلسفة الاسمية فیروکیو ۳۱ ، ۷۷ ، ۵۰ Yo (YE (YT (YT ET (EI (E. فیریه ۳۸ه فلاخيا ، مقاطعة ٥٥٢ الغيزر ، نهر 238 فيغر ، لوسيان ١٠٤ ، ١٠٥ الفلانسدر ، مقاطعية ٨ ، ١٠١ ، ١٢٢ ، فيفالدي ، (اموسيتي ابطال) ٣٧٥ فيكومير كاتو ١٠١ A71 ' 101 ' 137 ' 177 ' 107 ' 777 (044 (44. (408 **کونت ده نلاندر ۱۳۱** فيلبس النيري ، القديس ٣٨١ ، ٣٨١ فلورنسیا ۸ ، ۱۹ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۲۶ ، ۲۸ ، نلرز ، ۱۲۲ ، ۱۲۸ 4 1.7 4 77 4 70 4 78 4 77 4 0A فيلمو ، الاب ٣٩٤ 371 > 731 > 471 > 7.3 فيلوغينيون }}} فلوری ، جان ۲۰۵ فيلولوس ٥١ فيليب الثاني ١١٤ أ ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، فلوريدا ٢٤٤ ، ٢٥٤ فندوم ۳۵۷ 4 111 4 114 4 1AY 6 1AT 4 177 (000 (00. (EAT (T.T (T.T) فنزويلا ، ٢٤٤ ، ٣٤٤ ، ٨٦٤ فنلندا ۲۷۷ (71. (707 (71. فوا ، امراء آل ۱۵۳ ـ الرابـع ۲۳۸ ، ۳۳۱ ، ۳۴۰ ، ۳۲۲ ، فواتور ۲۶۲ 071 4 701 4 787 4 788 - فيليب الخامس ، هو دوق انجو حفيد قوبان ۲۵۸ ، ۲۵۸ لويسس الرابع عشر ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، فوتا تورن ۳۲ه فوتا جالون ٣٦٥ ، ٣٣٥ فو – تشيو ٦٦١ فيليب الجميل ١٦١ فوجر ، آل ، ۱۰۷ ، ۱۱۳ ، ۱۱۶ ، ۱۲۶ ، ۱۲۶ الغيلبين ٨ ، ١٥١ ، ٧٩ ، ١٨١٥)، ٣٧٥ ، 17. (17) (177 (170 4 718 6710 4 707 4 718 4 718 فوجيو ارا سيكوا ٦٧١ (TOX (TOY (TTY (TT) (TT. الغودا ١٥٠ الفودو ، اله ه٢٥ ، ٢٦٥ ٦1. فورموزا ۷۹ ، ۱۲۲ ، ۱۸۲ ، ۲۵۲ ، ۲۲۱ فینیلون ، ه ، ۶ ، ۲ ، ۶ ، ه ۱ ۶ فورنبخ 177 فینیول ، حاله ۲۶۱ فورنييه ، الآب ٣٤ فيينا ٢٣٦ ، ٣٣٩ ، ٨٥٣ ، ٣٠٤ ، ٨٢٨ ، فو – کیسان ٦٣٠ ، ٦٤١ ، ٥٥٥ ، ١٥٨ ، 770 > 100 > 700 > 600

تادش ۲۱۱ - ۳۱۷ - ۷۸۶ ، ۵۰۰ قازان ، خانة ۱۷۲ ، ۱۷۵ ، ۱۳۲ ـ قصر قازان ۱۷۷ الفاهرة ٤٩ه ، ٥٥٣ ، ٢٠٩ قبرص ۱۰٤ قبطان باشا ٧٤٥ القبيلة الذهبية ١٧٠ ، ١٧٢ القديس توما ، جزر ٢٦٥ القرآن . ٤٥ ، ٢٤٥ ، ٤٤٥ ، ٧٩٥ قرار التهدئة (١٥٧٦) فسى البلاد الواطية 178 قرص ۷۳ه قرطبة ٤٦٢ قرطجنة ٣١٦ قر قائد ۸۸۰ القرم ١٧٥ قزوین ۵۵۳ ، ۹۹۶

قسطنطين ٢٤ ، ٢٩٩ ، ٢٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ المسطنطينية ٢٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥٠ قشتيليه ، قشتالة ٢١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٥٠ قشفر ١٩٠ ، ١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ القصر الصغير ، ٢٧٤ ، ١٥٥ قواعد توجيه العقل ، لديكارت ١٩٦٥ ، ١٩٦ قوس دايفز ٣٣٤ ، ١٤٥ قوس دايفز ٣٣٤ ، ١٤٥ قوس دايفر ٣٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٥ قيصر ٢٤٤ ، ١٩٥ ، ١٩٥ قيصر ١٢٠ ، ١٩٥ قيصر يات الاوروبية ١٩٥ – ١٩٩

旦

الكاب ١١٥ کابول ۸۲، ۲۸، ۲۸، ۲۸۰ کابوتو ، جیوفانی ۷۲٪ كاتاى ٢٦٦ ، ٦٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥ كاترين دي براغانس ، زوجة شارل الثاني کاترین ده مدیتشي ۱۵۵ كاتو _ كمبرسسى ، معاهدة (١٥٦٣) ١١٤ 711 > 713 کاتون ۱۶۱ کاتینا ۲۵۷ کارارتس ۲۵۵ کارتیه ، جاك ۷۱ ، ۷۹ ، ۹۰ ، ۹۰ ، ۹۰ کاردین }}} کارلونتز ، صلح (۱۲۹۹) ۳٤۷ ، ٥٥٩ کارنتیا ۳۲ ، کاریجی ۲۳ كاريليا ، صلح ٢٣٩ کاسیسانو دل بوزو ۲۸۷ كاغوشيما - خليج ٢٥٦ ، ٦٦٥ کافلیه دی لاسال ۷۹۶ كالابريا ٧٧٥ كاليفورنيا ٧٩} ، ١٠٥ كالية ، مدىنة ١٩٨ کامو ، نیقولا ۲۱۹

کامیزار ، تورهٔ ۰۰۰ ۸۵۸ کانغ ــ هی ۱۸۳ ، ۲۸۲ ، ۸۸۲ كاهور ، مدينة ١٩٢ کاون ــ ان ٦٤٠ كايرال ، مكتشف البرازيل (١٥٠٠) ٧٥ کیلر ، جان ۱۱ ، ۲۳ ، ۳۵ ، ۲۵۷ ، ۲۸۸، کتشن ۱۱۳۰ كتلونيا ، مقاطعة . ٣٤ ، ٣٧٣ ، ١٥٥ ۔ امتیازات ۰۰۰ ۳۷۴ الكرافيل ، سفينة ٨ الكرتزيانية ، انظر: الديكارتيه ، الكرج ، بلاد ١٥٥ ، ٧٤ ، ٧٨٥ کر دستان ٥٥٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٧٧٥ کردفان ۳۳۵ کرشنا ۷۰۰ ، ۷۰۶ کرناتیك ۲۲۵ کرنیول ۲۳۲ کرومویل ۳۱۲ ، ۳۲۲ ، ۳۲۳ کریت ، او کندي ، جزیرة ۲۷ ، ۴۳۷ ، 009 6 004 كريستيان الرابع ، دوق هولستي ۲۳۸ كريكي ، الدوق دي ۲۸۷ كرلباخ ، قبائل ٧١ه ، ٧٧٥ ، ١٧٥

کستفلیونی ۲۰ ، ۳۲ ، ۳۳ ، ۸۰ 777 · KYY · FFY كسيينوفون ٢٧٢ كوبليه (الاب) ٦٨٦ ، ٦٨٧ کسینی ۳۹۴ كوبنهاغن 334 کشیمیز ۱۸۵ ، ۸۸۵ كوبو ، الاب برنايا ٦٦} کلارانس ۲۰۳ _ له: تاريخ ألعالم الجديد ٦٦ } الكلاسيكية الادبية ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ : کوتون ، الآب ۲۵۷ 447 4 747 4 447 کورا ساو ۳۱۲ ... في الفن ٢٨٧ کوربی ، مدینة ، معاهد صلح ۳۰۲ ، ۳۳۹ ... الأخلاق الكلاسيكية ٨٨٨ كورتيس ، قرنانساو ۱۱ ، ۲۰ ، ۱۱۲ ، کلافیوس ۱۷۳ 4 {77 4 {0A 4 {7 4 4 7.0 4 179 کلافییه ، فیلیب ۲۲۰ 0.46 0.8 6 0.4 كلخاز ٢١٦ کوردموا ۳۸۱ ، ۳۸۲ الكلدان ٢٢١ : 41 ... کلفیسن ۲۴ ، ۹۲ ، ۹۱ ، ۱۰۳ ، ۱۰۳ ، التمييز بين الجسد والروح ٣٨١ YY0 (1.7 (1.A (1.7 کورسکا ۳۷ه کلکوت ، مدینة ۱۲۲ کورلی ۳۷۵ كلوفيس 271 كورمانديل ٦٢٠ ، ٦٢١ ، کلیبرجر ، هانر ۱۳۰ کورنسای ، ۲۲۱ ، ۲۸۲ ، ۲۸۱ ، ۲۸۰ ، ۲۸۰ کلیف ، دوتیة ۳۷۰ کلیوبطرا ، تمثال ۲۰ ــ بىش مۇلقاتە ؟٢٧ کمیالو ،۸۸ ، ۲۹۵ کوري ۱ کمبائیلا ۲۶ کوریا ۹۳۲ ، ۵۰۰ کمبروم ۲۲۱ كوزكو ، مديئة الانكا ١٦٤) ، ١٨٤ ، ١٠٠٠ ، کمبریدج ، جامعسة ۷۹ ، ۳،۷ ، ۳۸ ، كوشىنشىين ٦٩٩ ، کمبریه (معاهدة ۱۵۲۹) ۱۹۹، ۲۰۳، كمبوديا ٥٣٧ کوشس ۱۵۷ گوشین ۱۱۵ ، ۲۲۳ ، ۲۲۹ ، کناري ، بزر ، ۲۸۸ كولهائد ، ۱۸۰ کئنت ۱۰٤ کوکبا ۱۳۵ کنتور ، مدینه ۱۲۰ کوکسسنغا ۲۱۲ ، ۲۲۱ کنتون ، ۲۲ ، ۲۱۲ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴ ، ۱۵۴ ، ۲۵۳ ، 1 TYP 4 TTY 4 TT1 4 TT. 4 TOY کوکوبو ۱۲۵۰ کوکوم ۲۰۶ 785 کول ، ۲۰۷ { { , , \ lus کولیبر ؛ ادرار ۲۱۹ ، ۸۸). کئستالس ۲۳۸ كنصبو ، مقاطعة ٥٣٥ كولبيسىر ، الوزيس ٢١٩ ، ٢٨٢ ، ٣٠١ ، کئغ ۔۔۔ هی ۱۹۲۳ 4 TT. 4 TIT 4 TIT 4 T. 6 4 T. T كنيسسة نوتردام ٧٠ كوارنالماكا ٣٠٥ 777 كولكوند ٢٢١ كوانتين 101 كوائغ - تونغ ٥٣٥ ، ١١٢ ، ٥٩٥ ، ١٥٧ ، کو لمار ۲۳۸ كولمبو ١١٥ کواي ساين ۲۹۰ کولمبوس) گریستون ۲۰ (۱۲۵ ۲۱) ۱ · (* (· (* * * *) · (* *) · (* *) * (* *) * (* *) * (* *) * (* *) * (* *) * (*) * **EAT (EYA (EYA**) 7X3 > 770 کولمبیا (۲۷) ، (۲۱) ، (۷) الكوبرلي ٥٥٥ کوبرنیکوس ، کوبرنیسك ، ۲ ، ۳۸ ، ۸۱ ، کولومیل ۱۱۱

کولوپون ، مدینة ۲۱ه کولونی ۷۷ ، ۱۳۹ ، ۳۶۲ کولیت ، جون ۷۹ کومین ۱۸۳ کولینی ، کسبار دی ، ۸۲ کومورین (راس) ۲۲۳ كونت ، اوغست ٩ كونتليانوس ١٧ كُونتي ، الأميرة ، ابنة لويس الرابع عشر كوندرانييف ١١٣ کوندو ۱۵۸ کوند په ۱۳۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۶ ، ۲۳۸ ، ۳۳۹ 404 كونسبسيون ٦٦٢ ، كونستانس ٨٧ ـ مجمع ٠٠٠ ٨٧ کونفوشیوس ۲۷۱ ، ۲۶۲ ، ۱۹۶۴ ، ۲۷۸ ، ለገለ ፡ ገለሃ ፡ ገለገ ፡ ገለ٤ ፡ ገለነ الكونفوشية التشوهية ٥٤٥

لا بایریر ۱۸۶ لابرادور . } } ، ۲۷ه لابروپیر ، ۲۸۰ ، ۴۰۲ لابلاس ۵۳ لاتران ، مجمع (١٥١٦) ٨٠ ١٠٧ لاراش ٦٤ه 🕯 ٢٧ه لاروشفوكو ، الدوق ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ لا روشیل ، مدینة ۱۱۶ ، ۲۵۳ ، ۳۳۲ لاس کازاس ، برتلمایو ه۸۱ ، ۸۸۱ ، ۹۹۶ لاسكاريس ، جان ١٨٧ لاشيز ، الاب ٣٦٥ لافاييت ، مدام دي ٣٨٠ لاقلقلين 327 لافونتين 380 لاقماس ٣١٦ ، ٣٢٠ لاكازا ، دى ه . ه

لاكوادرا ، المطران الفارو ده ۱۸۳ اللامعمدانيون ٨٦ ، ١٠٥ لاموت له فاييه . ٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣، لامواتيون دي بافيل ٣٦٩ لان ـ تشايو ه٥٥ لاندا ، الاسقف إه اللانفدوق او اللنفدوق ۱۲۱ ، ۱۳۵ ، ۱۳۷ لانكشير ، مقاطعة ١٣٥ لاهای ، حلف (۱۹۷۳) ۲۰۶ ، ۲۰۶ لاهستا ١٤٧ لاهور ۸۱۱ لا هونتين ، البارون دي ١٧٤ لاو ــ تسى ٦٤٠ لاوكون ، تمثال ٦٠

الكوتفو ، نهر ٢٠ه

کونکتیکت ٥٠١

کی ۵۸۸

کوی ، تشایو ۲۳۵ کوین ۱۱۲ ، ۱۱۴

{11 6 {10

کیوسو ۵۰، ۲۵۳ کا

77. 6771

کيو ــ کاي ـ سو ٦٧٧

كيليمانه ٢٠٥

كيرللس ، القديس ١٠٢

کونغو ، دولة ۲۰ه ، ۲۱ه

کونکورداتو (۱۵۱٦) ۸۷ ، ۱۵۳

کیانغ ۔ سی ۱۳۵ ، ۱۸۲ ،

اکتشاف مصبه علی ید دییفو کاوو ۲۰۵

كيبيك ، تأسيسها سنة ١٦٠٨ ، ٧٩ ،

کیتو ، مدینة ۲۷ ، ۸۲ ، ۲۹ ، ۲۹ ، ۲۷ ، ۲۷

کیوتو ۸۶۲ ، ۱۵۰ ، ۲۵۲ ، ۸۲۲ ، ۲۲۱

کیو ــ سیو ۹۵۲ ، ۲۲۰ ، ۵۲۲ ، ۲۲۲ ،

٥٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٨١ ، ٣٦٩ ، ٢٠٥

الكيشوا ، لغة الانكا ١٦٨ ، ٢٦٩

711 (878 (8.7 (774 لنس ، معركة ١٦٤٨ لنغو باردو (الاب) ۱۸۲ ، ۱۸۷ له ثلییه ، نقولا ۲۲۷ له غاسبی ۸۵۸ ،

لشمونسية ۱۱۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۳ ، ۱۲۸ ، 371 > 654 > 473 > 473 > 178 < 078 < 771 < 077 < 071 < 07. < 110 < 177 < 108 < 11. لمبو ۲۲۰ لندن ۱۰۹ ، ۱۲۶ ، ۲۳۷ ، ۲۵۷ ، ۳.۸ ،

لونغ ــ تشانغ ٦٣٤ له كونت (الاب) ٦٨٧ لويز دي كيروال دوقة برتسموث ٣٥٠ اللوار ، نهر 130 لويس ألتاسع ، ملك فرنسا ٦٩ه لوانغو ، نهر ۲۰۵ لويس الثاني عشر ١٥١ لوبيز ، آل ۱۲۸ لويس الثالث عشر ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠ ، لوبيز ، حيرونيمو ٢٦٦ لوبرون ، الرسمام المزين ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، لويس الرابع عشر ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٩ ، لوبيك ، مدينة ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢٣٩ _ صلح ۰۰۰ (۱۹۲۹) ۲۳۹ لوتريك ٢٠٥ « ٣٣٢ « ٣٣٠ « ٣٢٦ « ٣٢٦ « ٢٢٣ لوتزن ، معركة ٣٣٦ لو تلییه ۳۰۳ ، ۳۰۶ ، ۳۲۰ ، ۳۳۹ او تیتیان ۲۲ ، ۸۸ · ٣03 · ٣04 · ٣0٧ · ٣0٤ · ٣0٣ لوثير ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٨٨ ، ٨٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، · TYY · TYE · TYT · TIE · TI. '٩٥ ' ٩٤ ' ٩٠ ' ٨٩ ' ٨٨ ' ٨٧ ' ٨٦ 4 078 4 087 4 899 4 810 4 8.0 1.8 (1.7 (1.7 (97 4 777 4 77. 4 0Y1 4 0YA 4 07A لود ، رئيس اساقفة كنتربري ٣٠٦ **٦٩٤ ٤ ٦٨٦** لودفیك لو مور ۷۷ ، ۳۵ لويس الكبير ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ لودي ، صلح (١٤٥٤) ١٨١ لوراً دیانتی کم عشیقهٔ لوکرسی بورجبا ٦٤ لويس - الشمس ٣٥٢ ۔ عصر لویس الرابع عشر ۲۰۲ لویس ⁶ ملك المجر ۵۰۱ لورنتيوس العظيم ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ لوریث ۲۹۱ اللورين ۲۰۰ ، ۳۲۷ ، ۳۲۲ ، ۳۰۰ ، ۳۵۲ لویس ده باد ۳۵۷ لوفيوك ٦٨٦ ، TOX لی ، ولیم ۱۳۶ اللورستان ١٥٥ لياج ، مدينة ١٠١ ، ١٠٧ لوسون ، جزيرة ٥٣٧ ليانغ ــ تشي ١٦٤٥. اللوقر 330 ليانكور ، الدوق دى ٢٥٦ لوفوا ، ۲۱۹ ، ۳۰۶ ، ۳۲۰ ، ۳۵۲ ليبانت ، معركة (١٩٦١) ١٩٩ ، ١٩٩ لوفیفسر دیتابل ۷۶ ، ۷۷ ، ۷۲ ، ۱۰۵ ، ليبزيغ ٢٤١ ، ٣٣٩ ، ٣٠٦ 1.7 ليبنيز ۲۹۸ ، ۳۶۳ ، ۳۵۳ ، ۲۲۳ ، ۳۸۳ ، لوقيانوس ١٠١ ገ**ለገ ' ገለ**۵ *' የ*ጓ*६ ' የ*ለሃ 나는 (7771 — 3.٧١) ٧/7 > 7٧7 > 6٧٢٠ لی ۔ تشنغ ۔ تشی ۱۹۲ \$10 6 \$17 6 \$11 6 TA. لى ـ تشيو ـ تساو (ليون) ٦٨٠ : 44-ليتوانيا ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٢٣ المحاولة الفلسفية ٣٨٠ ليدن ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۳۸۰ رسالة أولى في التساهل ١١٤ محاولة في الخَّكومة المدنَّية ١١٤ ليرى }}} محاولة في العقل البشري ١١٤ ليغورنو ، ١٣٤ ليفونيا ، بلاد ٣٧٧ اللوك ٣٣٤ لوکریس ۱۰۱ ، ۲۷۲ ليو ـ کين ٦٣٤ ، ٦٣٥ لوكسمبورغ ۲۳۷ ، ۲۳۷ لیل ۳۲۹ ليما ، مدينة ٨٦٤ ، ٧٠٤ ، ٧٨٤ ، ٥٠٥ ، دوق ده سه ۲۵۷ ۳۵۷ لوکلیر ، جان ۳۸۰ 011 6 0.1 : 4J _ - مجمع ٠٠ ٨٨٤ المكتبة الشاملة والتاريخية ٣٨٠ ليوبولد الاول ، الامبراطور ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، لومير ، مضيق ٣٤} TO1 6 TO. لوموان 4 كلية الكردينال ٧٥ ليون الماشر ، البابا ٢٤ ، ٥٩ ، ٨٧

_ عقده الكونكورداتو مع فرنسوا الاول ٨٧ ليون ، مدينة ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، < 177 < 177 < 171 < 17. < 170 ٢ ماتارام ۱۱۲ ، ۱۱۵ ماتسودا تاكانويو ٦٦٧ ، ٦٦٧ مآثر اسبلنديان (قصة لمونتالفو) ٢٥٤ مابیون ۲۷۴ ، ۲۰۱ ماجلان ، مضيق ۱۸ ، ۳۱۸ ، ۲۷۹ ، 6 841 ـ مضيق ٣٦٤ مادوره ۲۲۶ ، ۱۲۵ ، مادیرا ، جزر ۱۱۲ ، ۲۲۷ ، ۲۲۰ مارتینی (الاب) ۸۸۵ المارتينيك ، جزيرة ٥٢٢ مارشال (جزر) ۸۸۰ مارغریت ده بارم ۱۹۳ مارك ، كونتية ٥٣٧٥ مارکو بولو ۲۳۶ ، ۱۸۰ ، ۲۹۵ مارلبورو ، دوق دي ۳۵۷ ماری ستیوارت ۱۵۹ ماري ــ تريز ٣٤٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ماري دي مديسيس ۲۸۵ ماریان ، جزر ۲۹ مارینیان ، معرکة ۱۹۰ مازارين ، الكردينال ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، 788 6 787 6 78. 6 771 مازغان ۱۲۵ مازندران ۷۷۵ ماساشوستس ٥٠١ ماغادوكسو ٢٠٥

(77. (701 (70) (70) (70) 20 L

۱۹۶ ، ۱۷۵ ، ۲۷۲ ، ۱۹۰ ، ۱۹۶ ماکسار ۱۹۵

مالبيجي ٦٨٦ مالطة ٢٠٤

مافیی ۳۷۴

ماكارو ١٣٥

مالقا ۱۹۶۳ ، ۱۹۵۳ ، ۱۹۵۳ ، ۱۳۳ ،

۷۵۲ ، ۲۵۲ ، ۲۵۰ مالقان ۸۸*۸ه* مالافال ، ۲۰۰۵

مالوا ، مقاطعة ٨٩٥

۳۲۶ ، ۳۹۱ ، ۳۲۶ ، اتحاد ليون الكبير (۱۵۵۵) ۱۹۳ ليوناردو ده فشي ۱۸ ، ۶۷ ، ۸۸ ، ۵۳ ، ۲۲

مالی او مندیمان ۹۲۳ مالبرانش ۲۹۸ ، ۳۸۱ ، ۶۰۲ ، ۴۰۲ مالستروا ۱۱۷ ماليرب ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ماليزيا (العالم الماليسزي) ٢٠٩ ، ٢٠٩ ، 708 6 708 المامورا ، مدينة ٦٧ه ماندينغ ، بلاد ٣٦٥ ، ٦٣٥ المانش"، بحر 198 مانكو أنكا ١٧ه المانوسية ٨٤ مانویل ، الملك ٥٥٨ مانیلا ۷۹۱ ، ۱۳ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ـ سفينة ٠٠٠ الكبرى ٧٨٤ ، ٧٩٩ ماهیانا . ۲۶ ، ۲۹۴ (£71 (£7. (£04 (£04 ... £01 LUI 6 Y. 1 ماینس ۲۳۸ ماينغ ــ تسو ٦٣٣ مبادىء تصوير حديقة حجمها حجم حبسة خردل ۱۹۶ مبالى (عاصمة الكونفو الاولى) ٥٢٠ متر آ، مدينة ١٢٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٦ متسویکر ۱۱۵ ، ۲۱۲ المجر ، ١٥٥ مجلس اللوردات ۱۹۰، ۱۲۰ مجلس العموم ۱۹۰، ۱۹۰، مجموعة الآلات ، الجزء الاول (كتاب ١٦٧٧) محمد بك ، السفير الفارسي ٧٩ه محمود الثالث ، السلطان ٨١٥ ، ٥٥ ، محمود الرابع ، السلطان ٥٥٦ المحاولة الفلسفية ، للوك ٣٨٠ المحيط الاطلسي ٨ ، ١٢٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، 11. 6 079 6 070 6 EYA - المتجمد الشمالي ١٧٥ المحيط الهادي أو الباسفيكي ٧ ، ٨ ، • TA. • TEY • 000 • EYO • 199 318

المحيط الهندي ۱۱۲ ، ۲۰۰ ، ۲۰۰ ، ۳۵۰ · {11 · {01 · {.} 7.1 · {.} 7.1 < 71. < 7.4 < 000 < 008 < 08T 08.6011 771 مسيمي ، الكردينال ٢٨٧ مخا ۱۱۶ ، ۲۲۰ ، مسيناً ، ۱۹۸ ، ۲۷۰ ، ۲۵۰ المخزن ، قبائل ٥٦٢ ، ٢٦٥ مشهد ، مدینة ۸۲۵ ، ۷۲۶ المدخل الى الجغرافية العمومية (كتاب) مصر ۱۲۱ ، ۲۵ ، ۳۲۷ ، ۵۶۵ ، ۲۶۵ ، لفيليب كلافييه ٢٤٠ المدخل الى المنطق ، ١٤٩٦ للوفيفر ديتابل، 070 6 008 6 007 6 00. مصطفى الثاني ، السلطان ١٨٥٥ ٧0 المعبد الصغير ، لبرامنت ٢٠ ، ٢٥ مدراس ۸۸۲ معمودية السيد (صورة) لفيروكيو ٣١ معاهدة . . ٢٠٢ المغرب او المغرب الاقصى ٢٤٤ ، ٣٥٥ ، مدرید ۱۲۵ ، ۱۳۳ ، ۲۰۲ ، ۳۹۰ 300 > 100 > 770 > 370 > 070 > مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية ٢٥٢ 77. 6 07A مدغشقر ، جزيرة ٢٩١ / ٦١٨ ، المفل ، المغول ، الدولة المفولية ، ٥٤٥ ، مدلبرج ۱۲۱ ، ۲۵۸ مدیتشی ، آل ۲۵ مقدونیا ۱۲۲ ، ۳۷۸ ماري دی ۲۸۵ مکة ۱۱۷ ، ۲۳۰ المذنبات ومؤلفات بيير بيل فيها ٤٠٩ --الكتبة الرقصية ٦٢ مراد الثالث ؛ السلطان ٥٥٣ ، ٥٥٦ الكسيسك ١١٦ ، ١٩٩ ، ١٢٤ ، ٢٢١ ، مراد الرابع ، (۱۹۳۲ - ۱۹۴۰) ۵۶۸ ، OVA 6009 6 007 مراکش ۲۱ ، (018 (017 (017 (0.2 (0.A ـ مدىنة ٦٦٥ Tok < ToY < TIE < T.T < old
</p> 777 4 771 المرجام ، ثورة 6701 مرسى ، القائد ٣٣٩ مکسیکو ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲ ، المرسى الكبير 210 : 0.A (0.7 (0.0 (0.Y (§70 مرسیلیا ۱۲۷ ، ۲۰۵ ، ۲۸۵ ، ۲۳۰ ، ۷۹۰ 77. 601760.9 مرسين ۲۸۶ اول.مجمع اقلیمی فیها (۱۰۵۵) ۷۰۹ مرغریت ــ تریز ، شقیقة ماری ــ تریــز مكسيميليان ، الامبراطور ١٢٣ ، ١٢٥ ، ابنتآ فيليب الرابع ٣٥١ 114 (171 مرغريت دنفوليم ١٠٥ ـ. . . ده بافییسر ۲۳۱ ، ۲۶۱ ، ۳۳۳ ، مركاتور ٥٣٤ 137 المركور القرنسي (١٦١١) ٣٢٧ مكة ٧٤ه مرو ، مضیق ۸۸ه مکیافلی، ۳۰، ۵۰، ۲۰، ۷۰، ۸۰، مريم السدراء ۲۷ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲ ، 777 · 187 771 4 74. 4 777 4 70 4 88 4 40 ملیلا ، مدینة ۲۷ه مريم المجدلية ٤٤ ، ٩٠ ، ٢٥٢ الماليك ، ٥٥٣ المزامير ، سفر ، نشره عام ١٥١٢ الملایار ۱۲۱ ، ۲.۹ ، ۱۲۱ ، ۲۱۹ ، ۲۲۱ ، مزییر ۲۰۵ 704 4 744 6 748 مسائل حسول التكوين ، لديكارت (١٦٢٣) اللايو ٤٣ ، ١١٢ ، ١٦٢ ، ٦٦٢ ، 111 ممبرت ، جان ٩٠ مسقط ۲۵ ، ۸۷۸ ، ۲۷۵ منتسكيو ١٦٤ مسم ، هنري ده ۲۱۹ منتنون ، دی ، ه. ٤ منتوا ، مدينة ٦٣ مندن ، امارة ۲۷۵ مندناو ، ۳۷ه

مندوز ، انطونیو دی ه.ه ، ۸.۵ منریز ، بلدة . ۹ ، ۹۱ منریز منشسستر ، مدینة ۱۹۱ المنشو (۱۶۲ ، ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۳ ، ۱۶۳ ، ۱۶۳ ، 71. (784 (784 (787 منشوریا ۵۱۵ ، ۵۸۵ ، ۲۲۹ ، ۲۶۲ ، 4 77Y المنصور ، السلطان احمد ٥٦٦ ، ٧٦٥ المنغ ، اسرة ٢٢٩ ، ٦٣٢ ، ٢٣٢ ، ٣٣٣ ، 4 788 4 781 4 787 4 78A 4 78E 74. 4744 4704 4787 منغ ــ کواي ــ وانغ ٦٤٢ منفّوليا ه٤٥ ، ٩٦٢ منك ٥٥٥ مواسیه ، ده ۲۱۸ موجز علم الفلك الكوبرنيكي ، لكبار ٢٥٨ مودینو ۶ مدینة ۲۶ موراتوري ۳۷۵ مورافيا 33 موروا ۲۸۷ موریس دي بافییر ۲۹۰ موریس ده ناسو ۱۹۲، ۲۹۰، ۳۱۰ ، ۳۱۲ الموريه ۲۵۵ ، ۵۵۸ الموز ، نهر ۱۲۳ ، ۲۰۵ ، ۳۷۵ موزنبیك ۲۰ ، ۲۰ ، ۲۶ه الوزيل ، نهر ه.٢ الوسسة المسيحية لكلفين ١٩ ، ٩٩ موسکو ۱۲۸ ، ۱۷۱ ، ۱۷۲ ، ۱۷۸ ، ۲۷۸ موسی ، ۲۷۱ ، ۲۱۲ موسي ٦٦٣ الموصل ٧٠، ١٧٥، ١٧٥ مولدانيا 370 3400 مولوسك ، جزيرة ، ١٢١ ، ١٩٩ (70Y (717 (310 (718 (01Y YOK مولينوس ٥٠٤

المولينيون ۲۸۱ مومیاسا ۲۰، ۵۵۰ مونتاني ۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۷۰ ، ۲۷۱ ، ۲۷۸ ، المحاولات ١٩٤ مونیلیار ۱ کونتیة ۳۳۷ مونتسينوس ١٨٤ ، ٨٨٤ **E18 4 TA. 4 Y11** مونتسرات ، دیر ۹۰ مونتبكوكلي ٣٣٩ مونريال ٥٩٥ مونزر ۸۶ مونستر ۱۰۵ ، ۳۲۰ ، ۳۵۰ مونفوكون ، 372 موفكريتيان ٣١٩ موتوموتابا ، مناجم ٥٥٥ مونيخ ٢١٦ موهآکس ، معرکة (١٥٢٥) ٥٥١ موهليرج ، معركة (١٥٤٧) ١٩٧ موهوك ، قبائل ٢١٤ ميالنيك ١٦٧ میتوین ، معاهدة (۱۷۰۳) ۳۲۰ میسور ۲۲۵ میشال فلروفتش (۱۲۱۴ – ۱۲۶۵) ۳۷۲ میشلیه ، الوُرخ ۱۰۵ ، ۱۰۵ مشبو ، قانون (۱۹۲۹) ۳۲۸ میفرو ۸۸۸ الميكادو ٦٤٨ میکالو انجلو ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۸۵ ، 74 6 70 6 71 البكماك . ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٤٤ میکونغ (نهر) ۲۳۳ ميلانو ٧٧ ، ٥٩ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ٥٦ ، ٢٦ ، **777 > 777 > 777 : 777 > 777**

نابولیون ۳۳۹ نارا ، مدینة ۲۵۲ نارفا ، ۱۷۵ ناسو ، موریس دي ۳۳۵ ، ۲۷۰ ناغازاکسي : ۲۱۵ ، ۲۵۷ ، ۲۸۱ ،

< 110 < 177 < 17. < 11X

نافار ، ه.۱ ، ۱۵۳

ن

نورهاشو ۱۲۲ نو فغورود الكبرى ١٤٤ ، ١٧٠ ، ١٧٨ نیتشه ۲۸۰ نيجر ، مقاطعة ٥٣٦ نيراك ، ١٠٥ نیس ۱ه۲ ، ۳۵۰ نیفا بتام ۱۹۰۰ نيقول ١٠٤ نيقولا الخامس ، البابا ٢٣ نيقولا ده کوس ٤٩ ، ٧٦ نيكاتوس السيراقوزي ٥١ نيماج ، صلح ٣١١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ نیوتین ۹: ۳۵ ، ۳۲۷ ، ۳۷۹ ، ۳۸۰ ، _ مؤلفاته ه۸۳ ۶ ۲۸۸ _ له: بحث في البصيات (١٧٠٤) ٣٨٥ _ محاولة في علم البصريات (١٧٠٤) ٣٨٠ ـ المبادىء ٣٨٦ النيمن ، نهر ٣٧٥ نيوشاتل ٥٩ ، ١٠٤ نيوكسل ٣١٨ نيو يورك ٣٨٠

نانست براءة ، او فرمان (۱۰۹۸) ۱۰۹ ، · TTT · TTI · TTI · 107 · 11. 81. 6 TOT 6 TTT نان ــ تشانغ ۲۷۸ نانکین ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، ۱۹۳ ، ۱۸۲ ، ۱۸۸ الناباك ، ٨١٥ النجف ١٧٥ نرشنك ۲۲۲ ، ۲۲۳ ، ۲۸۳ نروج ۳۷۹ النساطره ٦٢١ ، ٦٢٥ النظام الجديد ، لبيكون ٢٦٧ نكسوس ، جزيرة ٥٥٢ النمسا ١٠٥ ، ١٦٨ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٣٦ · TV. · TEV · TEE · TET · TT1 377 3 777 3 100 ننغ ـ بو ۲۳۳ ، ۱۵۲ ، ۲۰۹ ، ۱۲۲ ننم ـ میا ٥٣٥ نُوبَلِي روبرت (الاب) ۲۲۶ ، ۲۲۰ ، ۲۲۲ ، نوبونَّاهًا ، اودا ۲۶۹ ، ۲۰۰ ، ۲۲۹ ، نود په ۲۷۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ نورد لنجن ، معركة (١٦٣٤) ٣٣٩ ، ٣٣٩ نورمېسرچ ۱۲۲ ، ۱۲۴ ، ۱۲۲ ، ۲۱۲ ، 717 6 878 6 877 6 878 نورمندیا ۱۰۱ ، ۱۰۱ ، ۲۲۲

هاو ــ هانغ ــ تسو ٦٣٢ هاووساس، مقاطعة ٥٦٦ ، ١٦٥ هایتی او اسبانیولا ۷۵ هېستېورچ ، آل ۲۲ ، ۱۱۳ ، ۱۲۵ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ · 170 · 177 · 1.0 · 1.. · 194 · ٣٣٦ · ٣٣٥ · ٢٣٩ · ٢٣٧ · ٢٣٦ 434 3 A34 3 A34 3 A60 3 _ اسبانیا ۲۳۷ ، ۲۳۷ ، ۳۴۲ ، ۳۴۲ - النمسا ۲۶۰ ، ۲۳۷ ، ۲۳۰ -**TYE • TEV • TEE • TET** هدسون ، و*ن* ۳۲۱ هراة ۱۸م ، ۷۲۳ الهراكيري اه٦ هركول ٢٥٢ هس }٨ _ هس _ كاسل ٣٧٩ هس ـ برونسويك ٢٤٢

هارني ، مخترع الدورة الدمويــة ٢٥٧ ، * 117 ' 177 ' 177 ' 177 ' 10A ۳۸۲ هارلم ۲۲۲ هاغنو ۳۳۸ هافانا ۱۲۸ الهافر ، مدينة ١٨٧ الهالاك فينيك ٥٦ هالبرستات ، امارة ٣٧٥ هالي ۱ ۳۹۶ هاملتون ۲۱۶ الهائس الهائزا ۱۲۲ ، ۱۳۸ ، ۱۲۰ ، 14. 6 171 هانس ليبرشغ ، مخترع المرقب (١٦٠٨) Yel هانغ ــ هي ٢١٥ ، ٢٤٧ هانو ، الكونت دى ٣٣٧ هانيبعل ۲۲۶

هوانغ ، کوانغ ۲۶۲	همالایا ۲۹۶ ۰
هویس ۳۸۶ -	همبورغ ه٣٦
هودار دي لاموت ٠.٢ _	الهند ۸ ، ۱ ، ۱۲ ، ۲۲ ، ۱۱۲ ، ۱۲۱ ،
هوذا الرَجْلِ ١٥٤٢ صورة ، للوتيتيان ١٨	
هورن ، رأس ٣٤٤	6 0.8 (\$77 (\$70 (\$78 (\$77
۔۔ فیائل ہ۶۹	6 008 6 080 6 087 6 077 6 077
هوسر ۱۰۵	٨٢٥ ، ١٨٥ ، ٢٨٥ ، ٣٨٥ ، ٥٨٥ ،
هوشسستشر ، امبروسيوس ١٣٠ ،	(710 (718 (718 (71. (7.9
هوغ كابت ١٥١	(777
هوکنز ۲۰۵	375 > 075 : 775 > 775 > 705 >
هوفعن ، کورنالیس ۲۱۰	٠ ٦٧٠ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٥٨
هولندا ۱۲۶ ، ۱۲۰ ، ۲۰۰ ، ۲۱۱ ، ۲۱۲ ،	Y.1 (Y. (11Y
٠ ٢٣٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٥	مجلس الهند ٥٠٤ ، ٢٥٣
· 440 · 410 · 41. · 411 · 441	الهند الصينية ٧٣٥ ، ٣٤٥ ، ٦١٤ ، ٩٩٥
· 408 · 401 · 40. · 480 · 484	الهندوس ۲۲۱ ، ۳۲۲ ، ۲۲۳ هندوکوش ۲۹۶
· TA. · TY. · TTE · TOT · TOT	هندوکوش ۱۲،۶ ، ۸۹ ، ۹۲۰ ، ۹۱۲ ،
1.3 > 713 > 440 > .15 > 415	V (777 (770 (778 (71))
۲۱۲ ، ۱۲ ، ۲۱۲ ، ۲۱۲ ، ۲۱۲ ،	هنری ده فالوا ۱۹۲
117) . 77) 607) . 77) 177) 177) 777) 787) 087	ھنري الثالث بابلون ١٦٦ ھنري الثالث بابلون ١٦٦
هومايون ، السلطان ، ۸۳۰ ، ۸۸۵ هومايون ، السلطان ، ۸۳۰ ، ۸۸۵	هنري الثاني ۱۹۵ ، ۱۹۳ ، ۱۹۸ ، ۲۰۲ ،
هوميروس ٨٢ ــ ٢٠٤ ، ١٩٩ ،	۶۸۲ اول د ۱۹۰۱ د ۱۹۰۱ د ۱۸۲
هوندو ۱۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۷۰	هنری الثالث ، ملك فرنسا ١٥٦ ، ٢١٩
هوندوراس ۵۱	هنرُيّ الرابــع او هنري ده نافار ١٠٩ ،
هونفلور ، مدینة ۲۰۵	٠ ١١٠ ، ١٥١ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ، ١١٠
هوهنزولرن ه۳۷ ۲۷۲	6 4 6 4YO 6 4OA 6 44A 6 41J
هوبحنيس ۲۹۸ ، ۲۸۸ ، ۹۹۲ ، ۶۰۰ ،	
\$73	777 ° 777
هیاسی رازن ۲۷۱	هنري السابع ، ملك انكلترا ١٥٨
هایدا تیادا ۱۷۲	هنري الثامن ، ملك انكلترا ه ؟ ، ١٠٥ ،
هیدا بوری ۲۷۱	171 6 17. 6 10% (107
هیدایوشی ۲۶۹ ، ۱۲۵ ، ۲۲۹ ، ۲۷۰ :	هنري البحار ٤٢١
هيدلبرغ ٤ مدينة ٨٥٣	هنري موغ ۳۳۸
هیرادو ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۷۰	هنربیت دی فرانس ۲۷۸
	هنغاریا ۲۳ ، ۹۹ ، ۱۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۲۸ ، ۱۲۸
هیراقلیدس ۱۱ هیرون ۱۸۷	071 > 777 > 737 > 377 > 770 > 700 >
-	هينو ، مقاطعة ١٠١
هیلویز ، الراهبة ۱۷	1,

•

وادي القنال ۱۲۰ الوادي الكبير ۲۸ وادي النطرون ۱۲۱ الواز ۳۵۸ والنسستين ، القائد ۲۳۷ ، ۲۳۸ ، ۲۲۱

وان ، بحيرة ٥٥٣ وانسخ – يانغ – منغ ١٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٧٧ ، ٦٨٧ ، ٧٠٤ واي – تونغ – كيان ٦٤١ ورمس او وورمز ۳۳۸ ، ۳۵۸ ، ۳۵۸ ، ۳ξο ، Εξο ، Εξο

وهران .٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ وو _ سان _ كاي ٦٨٣ وو _ سيو _ كوبي ٦٤٢ وو _ كو _ عصابات ٦٥٣ ، ١٥٤ ووليس ٣٨٣ _ له : حساب اللانهاية ٣٨٧ ويلز ، مقاطعة ٣٤٢

ي

اليابان ٨ ، ٧٥٥ ، ٣٣٥ ، ٦٤٨ ، ٢٥٠، 4 718 4 7.4 4 707 4 708 4 708 4 788 4 781 4 78. 4 710 4 71E · 778 · 771 · 77. · 709 · 708 4 794 4 790 4 797 4 7A7 4 7Y0 ياغري ، جزيرة ١٧٥ 148 6 191 یانغ: ۱۷۵ یا یازو ۲۲۱ ، ۲۷۱ ، ۱۷۲ ياما غوشى ٦٦٦ يانسك ، مدينة ١٧٦ أليانسي ، نهر ١٧٥ اليانغ ــ سي ، نهر ٦٤١ اليانيَّة ، الديَّانَة ٤٨٥ ، ٩٢٥ یشی (کونستان) ۲۲۵ يايلون ١٦٦

اليمن ٥٥٣ اليهودية ١٢١ يهُوذًا ألاسخريوطي 1} **بوان ، ۲۲۹ ، ۲۳۳** بوحنا الثالث (الملك) ٦٢٢ يُوحنا ، القديس ٢٨٠ ، ٦٧٦ يوحنا المعمدان (صورته) ٣٠ ، ٣١ يوحنا ده لاکروا ۳}ه يوستنيانوس ١٥١ ، ٢٩٩ ، ٥٤٠ يُوسف (الشيخ) ٦١٧ يوسف ، القديس ٢٩ اليوسفية ١٧٢ ، ١٧٤ يوشيمونية ٦٧٢ ، بو کاتان ۱ه ۶ ، ۷ه ۶ يوليانوس الجاحد ١٠٢ یونان ۳۵۰ يونانكي ٢٦٧ يُونغ ــ لو ١٥٣ پیدو ، مدینة ۲۵۲ ین ۱۷۰

فهرست الخرائط والنصاميم

ص	•	بانيا	في اس	اسعار	11 X	ا و حر	الثمينة	بادن		نية من	الاسباذ	ردات	ــ الوار	١٠	الشكل	
110						•	•	•		17	o• _ '	۱۵۰۰	بين			
160	•	•	•	ني.	القانر	سليان	لطان	والسا	فامس	ارل الم	عهد شا	ربا في	<u> </u>	۲۰	الشكل	
141	•	•	•			•	•		رسية	رية الرو	براطور	ر الام	تطو	۳.	الشكل	
717	•		•	٠,	طی	والوسا	ربية و	ربا الغ	۽ اورو	ىنطة في	مي للح	ر الام	ــ الــه	٠ ٤ ر	الشكل	
717		•	•	171	نة ه	والس	10	لسنة	م بین ا	مونيخ	دار في	الجاو	سعر	ه ر	الشكل	
717	•	•	سبانية	ية الأ،	سكر	ق الع	والطر	٠١٦	٠٢ ٦	في السن	رنسية	ود الف	- الحد	٦,	الشكل	
YY A			•	•			•		•	ليليو	غــا	_اص	– ر ق ـ	٧,	الشكل	
444	•	•		•	•				ن	القذائ	بليو في	ية غال	ـ نظر	٠ ٨ ر	الشكل	
134	٠	•	•	•	•	٠	•	•	تفاليا	اتي وس	۔ معاهد	ربا بعد	<u> اور</u> ر	٩,	الشكل	
434	•	•		•	•	17	د ۸ من	في الس	زاس ا	ية ، أا	الفرنس	لكات	- المتا	۱۰ ر	الشكل	
454	•	•	ت	او ترځ	مدة	ر معا	يا حتر	ستفال	دتي و	، معاه	ىي مئذ	الفرن	- الغنم	١١ ,	الشكل	
404	•	•	•		•	•	•		٠	يدية	ان الحد	د فوبا	ـ حد و	۱۲ ر	الشكل	
177	•	()	۷۱۵ ،	تزخت	دة او	معاهد	ون (ولندي	لها الم	تي احة	لهاجز ال	ون الح	– جم	14	الشكل	
ሦ ለአ	•	•	•	•	Į.	مثدقه	نذيفة	انية ا	له في ا	ر تسقم	ز الذي	وط ر	– السقر	11.	الشكل	
PA7	•	•	•			•	ي ثانية	قمر ۋ	نطه ال	ي يسأ	لا الذ	رط ل	– السقر	، ۱۵ ر	الشكل	
275	٠	•	•	•	•										الشكل	
£vY	•	•	•	•		عشر	سابع	رن ال	خر الة	في اوا	ماري	الاست	– المألم	- 17 (الشكل	
979		•	•	ئى	ے عث	الساير	عشر و	دس خ	ن السا	القرنع	المي في	الاسلا	العالم	۰ ۱۸ ر	الشكل	
110		•	•	•			•								الشكل	
7+1	٠	•	•	•	٠	•	•	•	•	تغالية	رية البرا	راطو	ـ الام ا	٠ ٢٠ ر	الشكل	
111	•	•		•											الشكل	
740	•	•	•	٠	•	•		•	ىنغ	نم والت	يهد المنا	ن في ع	- الصير	- 27	الشكل	
															•	

فهرست اللوحاسب

اللوَحة ١ ما الحفلة الموسيقية . مينا تزيينية من ليموج لِـ ﴿ ليونار ليموسين ﴾ . (متحف اللوفسسر ، تصوير جيرودون .)

اللوحة ٢ - عيد احياه هنري الثاني وكاترين دي مديسيس اكراماً لسفراء بولونيا . وشي فلمنكي من القرن السادس عشر . (فلورنسا ، متحف المقاليد . تصوير اليناري .)

> اللوحة ٣ -- مكتبة في القرن السادس عشر . نقش لر « كريسبين دي باس » . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ٤ .. و المباراة التي اصيب فيها الملك هنري الثاني بجرح بميت في آخر يوم من حزيران من السنة ١٥٥٩ .» نقش لي و جاك تورتوريسسل » و و وجسسان بريسين » (١٥٧٠) . (دار العمور المنقوشة . تصوير جيرودون .)

> اللوحة ه منظر عام لقصر شامبور . (تصوير جانب رويبيه .)

اللوحة ٧ - ... قبة كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تشاهد من حداثق الفاتيكان . (تصوير بيير جاهارني .)

> اللوحة ٧ ، مقصف آل مديسيس في روما ، (تصوير بيير جامان ،)

اللوسة ٨ مازسلقرن في تجاريف باب كنيسة القديس جرجس في الفرس (١٥٥٢). نقش لـ و حان غال ، (دار الصور المنقوشة .)

> اللوسة ١٠ - مشغل سائغ . نقش له د اتيان ديلون ، (١٥٧٦) . (دار السور المنقوشة .)

اللوسة ١١ - مجمع اوغزبورغ . و جمعية اشهر امراء المانيا في الخامس والعشرين من حزيران من السنة ١٥٣٠ ، في قاعة الاساقفة في مدينة أوغزبورغ ، بحضور الامبراطور شارل الخامس ، » نقش مغفل (١٦٣٤) . (دار الصور المنقوشة .)

اللوحة ١٢ — الجمع التريدنتيني . لوحة لـ « له تيسيان » . (متحف اللوفر . تصوير جيرودون .)

اللوحة ١٣ -- التفتيش في اسبانيا ، في فالادوليد . لوحة مغفلة رسمت في هولندا في السنة ١٥٦٠ (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٤ – اضطهاد الكاثوليك الانكليز في ولاية اليزبت (حوالى ١٥٨٠) . نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٥ – جمعية ملوك اوروبيين برئاسة الامبراطور وملك فرنسا وملك اسبانيا . نقش على خشب ينسب الى قنان فرنسي على الرغم من طغراء « البرت دورر » -(دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٦ – قصر الاسكوريال . المدرسة الاسبانية ، القرن السابع عشر . (متحف اللوفر . تصوير جيرودون) .

اللوحة ١٧ – معركة ليبانت (٧ تشرين الاول ١٥٧١) . نقش لادريان كولاير ، بجسب جوهان سترادانوس . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٨ – هجوم الاسطول الانكليري على الارمادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨ .

لوحة مأخوذة من مجموعة النقوش التي انجزها و جون بين ، في السنة ١٧٣٩ نقسلا عن مدبجات طلبها اللورد تشارلز هوارد من الرسام هنريك كورنلسزن فان فروم من هارلم وحاكها فرنسيس سبيرنغ (لندن ، ١٧٣٩). (مكتبة معهد الفن وعلم الاثار في جامعة باريس ، تصوير ريغال) .

اللوحة ١٩ – مكتبة احد الوكلاء · نقش لابراهام بوس (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٠ ــالصير في . لوحة من الفيشاني لدلفت ؟ ١٦٢٥ . (مجموعة بسول انغولفان . تصوير بيـــــير دوبوا) .

اللوحة ٢١ ــ داخل منزل بورجوازي هولندي ، في اوائل القرن السابع عشر . الاشكال من رسم « ازياس فان دى فسلده » ، والباقي من رسم ب. فسان باسن . (متحف رجكس ، امستردام . تصوير المتحف) .

اللوحة ٢٢ – معلمة المدرسة .

نقش لابراهام بوس . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٣ – دير بور ــ رويال الحقول .

نقش لنقولا بوكيه نقلاً عن صورة بالوان ممزوجة بالماء والصمغ تنسب لماجدولين دى بولونمه . (دار الصور المنقوشة) .

> اللوحة ٢٤ – احدى جلسات البرلمان الانكليزي (١٢ أيار ١٦٤١) . نقش لونسسلاس هولار . (دار الصور المنقوشة).

اللوحة ٢٥ – قاعة بيننهوف الكبرى في لاهاي اثناء انعقاد مجلس جمعية الطبقات برئاسة جاكوب كاتس في السنة ١٦٥١ .

الاشكال من رسم بالامدسز ، والباقي من رسم ديرك فسان ديلن . (متحف مورتسشويز . تصوير براون) .

اللوحة ٢٦ - تجاوزات المرتزقة :

١ – الشنق .

۲ – الهجوم على عربة المسافرين .
 نقشان لجاك كالو ، نقلا عن د بلايا الحرب الكبرى ، (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٧ - استسلام بريدا .

رسم لفيلا سكيز . (متحف البرادو . تصوير جيرودون .)

اللوحة ٢٨ – منظر لقصر فرساي مأخوذ من جادة باريس في السنة ١٦٦٨ .

لوحة لباتل . (متحف فرساي . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفـــن والتاريخ) .

اللوحة ٢٩ – قصر فرساي . منظر للقسم الاوسط من القصر ماخوذ من زهراء الجهة الجنوبية . (تصوير جان روبيه) .

اللوحة ٣٠ ــ التمثيل الاول للمأساة الفنائية « السست » لرِ « كينو » و « لولتي » ، في البهــــو الرخامي، في السنة ١٦٧٤ .

نقش لر و لبوتر ، . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٣١ - تشبيد اعدة اللوفر.

« تمثيل الآلات التي استخدمت لرفع الحجرين الكبيرين اللذين يغطيان الجبهـــة المثلثة الزوايا في مدخل اللوفر الرئيسي » .

نقش لسيبستيان له كلير (١٦٧٧) . (دار الصور المنفوشة) .

اللوحة ٣٢ – رفع صار في فناء مصنع غوبلين الملكي .

للفن والتاريخ).

- « منظر لاحد اقسام قصر غوبلين الملكي حيث توجد مصانع مفروشات التاج ». نقش لسبستمان له كلير . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٣ و تنظيم المأدبة التي اعدها جلالته لحضرات الفرسان بعد تأسيسهم ، في فونتينبلو ، في الرابع عشر من ايار من السنة ١٦٦٣ » . نقش لأبراهام بوس . دار الصور المنقوشة . (صورة من الحفوظات الفوتوغرافية
 - اللوحة ٣٤ توزيع الخبز على الجماهير في التوياري في السنة ١٦٦٢ . رسم مغفل . (دار الصور المنقوشة) .
 - اللوحة ٣٥ رواق القصر .
- نقش لابراهام بوس . (دار الصور المنقوشة . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- اللوحة ٣٦ زيارة لويس الرابع عشر للمرصد (١٦٦٤) . نقش لغواتون نقلا عن سيبستيان له كلير (١٦٨٢) . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٧ عائلة فلاحين في داخل منزل . رسم للويس له نين . (متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفسن والتاريخ) .
 - اللوحة ٣٨ ابطال براءة نانث (٨ تشرين الاول ١٦٨٥) . نقش لجان لوبكن . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٩ ــ راس سابق لاكتشاف كولومبوس لاميركا مصدره المكسيك . الفن التوتوني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (?) (متحف الانسان . تصوير روجيه باري) .
- اللوحة و ع نزول الاسبانيين الى العسالم الجديد : الامير و غواكانا رياد ، يستقبل خريستوف كولومبوس . نقش لتيودور دي بري (فرانكفورت ؟ ١٥٩٤) . (دار الصور المنقوشة) .
- الوحة ٤١ البرازيل في السنة ١٥١٩ . مرفأ صغير انشأه و لوبو هومن ، للك البرتغال ثم اصبح ملك كاترين دي مديسيس (دار الكتب الوطنية) .

اللوحة ٤٢ ــ جزء من خريطة العالم الملكية التي رسمـــت على رق غزال في السنة ١٥٤٢ بامر فرنسوا الاول .

(دار الكتب الوطنية .) .

اللوحة ٣٧ - زنوج استخدمهم اسبانيو اميركا في مطاحن السكر .

لوحة منقولة من كتاب الاسفار الكبرى لجان تبودور دي بري . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٤٤ - (. . . مكذا تكلم زردشت، .

النبي زردشت يهدي فيشتاسبا ملك بلق .

لوحة قيشانية متعددة الالوان ، فارس ، اواخر القرن السادس عشر . (مجموعة يول انغولفان . تصوير بيير دوبور) .

اللوحة ١٥ - عبد ملكى في حديقة فارسية .

رسم متعمدد الالوان الممزوجة بالماء والصمغ ، المدرسة الصفوية ، اوائل الغرب. السابـم عشر .

(متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٢٦ ــ منظر طبيمي في ايام الشتاء .

صورة منقوشة من القرن السابسع عشر . (مجموعة فيفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٧٧ — وصول البرتغاليين الى اليابان في القرن السادس عشر .

رسم مغفل . (متحف غيمه) .

اللوحة ٨١ – حاكم مياكو في اليابان يذهب لملاقاة السفراء الهولنديين:

نقش لارنولد مونتانوس نقلا عن كتــاب و وفود شركة الهند الشرقية ... الى المطرة اليابان ... » المستردام ، جاكوب فون مورز ، ١٦٦٩ . (دار الكتب الوطنية) .

فهرست عسام

ص	
Y	مدخل
	القست والأوك
	اوروبا الجديدة
	الكتاب الأول
	القرن السادس عشرٌ (۱٤٩٢ ـــ ۱٥٩٨)
	المؤسسات الجديدة
10	الفصل الأول المباني الفكرية الجديدة ، النهضة الكبرى مشكلة النهضة وعقدتها ـ العالم الجديد ـ الانسان والكون حسب الأفلاطونية الحديثة ـ روما والافلاطونية الحديثة ـ المباني الحديثة ـ كنيسة القديس بطرس في روما ـ غرفة التوقيعات ـ رجل البلاط ـ قصر فارنيز ومصلى تشيجي ـ الحكنيسة السكستينية ـ المقلانية البدوانية ، بمبونازي ـ العلم ونظرته الجديدة على العالم ، فتشينو وكوبرنيكوس ـ المعجزات ـ النجامة ـ عاطبة الأرواح ـ السحر والجوسية ـ الروح الرياضية ـ السياسة ومفهومها الجديد : مكيافلي ـ الارضاع الاجتاعية والجاري الفكرية الجديدة .
44	القصل الثاني المجتمعات الدينية الجديدة . عاولات الاصلاح
***	الفصل الثالث النظم الاقتصادية الجديدة

111	الفصل الرابع . ـ الدولة ونظمها الاقتصادية
	بين دول كبيرة وصغيرة _ الجغرافية السياسية وزوال المدينة الدولة .
111	١ – تطور الملكية المطلقة : اوضاعها
	حب الوطن ــ عبادة البطل ــ صراع الأمم ــ النزعــــات الاقليمية ــ المنافسات السيادية ــ الصراع الطبقي ــ حدود السلطة المطلقة .
101	٧ – الملكية الفرنسية اكثر هذه الناذج تطوراً ، ، ، ، ، ،
	وسائل العمل المتوفرة للملك ـ الحكم المطلق والكنيسة ـ الحكم المطلق ونظام الاقطاع ـ الحـكم المطلق والمجتمعات المحلية ـ الحـكم المطلق والحياة الاقتصادية ـ حدود الملكية في فرنسا ـ بيـع الوظائف العامة والاتجار بها ـ الحووب الدينية ـ الملكيات الاوروبية عل شاكلة الملكية الفرنسية .
104	٣ – الملكيات المعتبلة والجمهوريات البورجوازية ، ، ، ، ، ،
	انكاتراً ـ مبادىء الدستور الانكليزي ـ الحــــكم المطلق القائم بالفعل ـ الازدهار الرأسمالي في المجتمع البريطاني يشدد حقوي الحكم المطلق ـ معارضة الحـــكم المطلق ـ البلاد الواطية ؛ النهضة البورجوازية والحـــكم المطلق الفملي ـ الآمة ضد الملك ـ الدولة البورجوازية الدستورية والاتحادية المتحررة ـ الدحكتاتورية الشعبية الكلفينية ـ القطيمة بين الشمال والجنوب .
177	 ع ملكيات الغرون الوسطى
	بولونيا _ وهن الحكومة وعجزها _ تسلط الارستوقراطية _ اضعاف الأمة _ موسكوفيا _ روسيا بلد ريفي منعزل _ النجاح الذي اصابه امير موسكو _ الايدبولوجيا الامبريالية البيزنطية ورسالة روسيا _ الدولة المسكرية الروسية المطلقة _ ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية _ تطور الاقتصاد النقدي _ ازمة المجتمع الروسي _ الانتقال من الادارة السيادية الى الادارة الحكومية _ الدولة البوليسية _ بين الملكية المسكوبية والملكيات الفربية .
141	الفصل الخامس النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية
187	١ – الظروف العامة
	الديبلوماسية الثابتة ـ العهارة التجارية : بين الثلاثية والمركب الشراعي ـ الثلاثية ، المركب، الريب والبحرية ـ السفينة الثلاثية والمركب والمرحلات البحرية ـ السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب ـ تطور الثلاثية والمركب الجيش : جيش شارل الثالث ـ جيش المرتوقة ـ فن الحرب ـ تأثير الحروب الايطالية على تطوير الاسلحة ـ الاصلاح الحربي الذي قام به غونزالفو القرطبي ـ من البندقية الى الطبنجة ـ المـــدفمية ـ التحصينات الحربية ـ المربنة ـ المربنة . الاعتصادة والمالية .
198	۲ – امبراطوریات وقیصریات
	اليابا ـ الامبراطور ـ اوروبا والتيصريات ـ القيصرية الالمانية ـ القيصرية الفرنسية ـ القيصرية
	البورغونية - القيصرية القشتــالية - القيصريات البعرية - قيصرية البحر المتوسط -
	القيصريات الحميطية ــ التوازن الدوني ــ البسياسة الايجابية ــ مسيحيون وخوارج ــ رأي عام ودعارة ــ الاصلاح والامم :
	ر الله الله الله الله الله الله الله الل

ض

-

بين الحرب الطويلة والحرب القصيرة .. التخوم الآسيوية - العمليات الحربية ليس لها من جبهة معينة - ستراتيجية التوابع - الثغرر - الطرقات - الاتصال بين ساحـــات العمليات الحربية - اعمال المبارزة - الاسرى - الحراب واعمـــال التخريب التدخل الاجنبي - الدعوة السلام الحق الدولي .

الكتاب الثاني

القرن السابع عشر (١٥٩٨ -- ١٧١٥)

*11			•							الفصل الأول ازمة القرن
*11	•	•	•					•		١ - الازمة الاقتصادية .
	به شم	ع البطر	لارتفا	سن _ ا	مدن الث	. في الم	ر المتزآي	_ النقم	لاسعار . ـ بطء ا	السكان رمواد التقلية التا الاقتصادية ــ حركة ا! الانخفاض في الاسعار . المشؤرم في الاقتصاد .
YÍV	•		•				•			٧ ــ الازمة الاجتباعية .
	ضد مات	لاسياد بالخصو المجتم	يين _ ا ستاعية رة عل	رجواز ت الاج والسيط	ضد البو الخصوما ليون	ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ	بين ـ النب والعال ـ انكلترا .	الصناع ب المهن دلى في	نجار لد أربار اعية الا	المثال الفرنسي ـ تحويل رؤ والضباط ـ ارتقاء ال الفلاحين ـ الكبار ض الدينية ـ الثورة الصنا الانكليزي ـ اصطدام
۲ ۲٦	•						•			٣ ـــ ازمة الدولة
	مالس المثال	ر _ الج مامة _ ا	الدستو ات ال	العليا و _ الثور	الجالس تستانق	لضباط ، ب البرو	ـ درر اا ي للحز	الدولة ر الثور بة البور	اعية عل : - الدر ، الفردي	المثل الفرنسي ، ثورات الف اتفاق الطبقات الاجم العليا رثورتها الرجمية الانكليزي ؛ الدولة ط الدستوري ـ المثال اله
740			•						. آي	٤ ـــ الازمة السياسية الدول
	نيا :	غ اسبا	ببسبود	مسا و	بورغ الد للطيكية) - هبسب مضلة الب	۱٦٤۸ مرية - ال	۱٦ - بة والب	(۱۸ مسکر	خطر 17 هبسبورغ ـ الفوة سحرب الثلاثـــين سنة السيطرة على الطرق ال الحطر يهدد فرنسا - ا

ص	
717	ه ـــ ازمة الحس الغني
	مصادر الفن المستهجن - الفن المستهجن - مثال الفن المستهجن : روبنسن - الفن المستهجن
	عند معارضيه - الفن المستهجن الفرنسي - الفن المستهجن اليومي - الفن المستهجن .
Y0.	٣ ـــ الازمة الاخلاقية والدينية
	البطل - النهضة الادبية الورعة - الصوفية - النهضة الادبية الورعـــة تتعرض الخطر بفصل
	الايمان عن الحياة - الجلسيلية .
Y 0 Y	٧ _ ازمة العلم ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ،
	الفن المستهجن والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء - سنن كبلر - وحســـدة الكورــــ ؛
	غاليليو وشاينر - مولد علم الآليات : غاليليو وعلم النوى - هارفي والدورة الدموية ـ
	اصطدام الكوبرنيكيين بالارمطاطاليسيين - الكنيسة تقاوم المجددين-التعول الفكري -
	استمرار الارسطاطاليسية ، فقدان نظام كوني آلي - تقصير بيكون - ازمة العقل .
779	A الملحدون
	ظروف الالحماد السياسية - إلحمســـاد الفكر ، ارتيابية الملحدين - الشعوب الغريبة والديانة
	الطبيعية - الاقدمون يحلون محل الديانة المسيحية ، الابيتوريون والرواقيون - الفجور .
344	٩ ـــ الحركة الفكرية والعاطفية في السياسة
777	الفصل الثاني مقاومة الأزمة
YYA	 ١ المدرسة الفرنسية ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية
	بيرول - مركزية الله - الصلاة البيرولية - رهبانية المعبد - افر البيرولية الشامل .
YAY	٢ ــ الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية
	اليسوهيون والكلاسيكية - الكلاسيكية الادبية ; الفواعد والكلاسيكية _ الكلاسيكية -
	الكلاسكية في الفن . الاخلاق الكلاسيكية .
Y9 •	٣ ــ الكرتزيانية (الديكارتية)
•	تقافة ديكارت _ هدف ديكارت احداث علم سام _ مؤلفات ديكارت - المسلم الشامل -
	الاسارب - الشك المنهجي - الافكار المطبرعة ، الله خمانة العلم - الفحكر والابعاد _ علم
	الآلياتُ الشامل ـ الزُرْابِع ـ الحيوان الآلة والانسان الآلة - الاهواء والارادة ـ حرية
	الارادة ، النجابة - انتصار ديكارت .
744	٤ ــ الملكية المطلقة
	المثال الفرنسي ؛ المفهوم الملكي للسلطة المطلقة _ اسلوب الحكم الوزاري واسلوب الحكم الذاتي -
	المان الفرنسي ؛ المفورم الملتى المسلمة المقلعة _ السوب الحرم الورازي والسارب الحرم الداني _
	تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتفهقرها في عهد الحركم الذاتي - الاراس الملحكية
	تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحسكم الذاتي - الاراس الملحكية بالسجن رمفوضو الشرطـة السياسية - لويس الرابـع عشـر سيد اوحد - الاستفــــادة من
	تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتفهقرها في عهد الحسكم الذاتي - الاواس الملحقية بالسجن ومفوضو الشرطمة السياسية - لويس الرابع عشر سيد اوحد - الاستفسادة من البورجوازية - ترويض النبلاء ـ ملوك سلالة ستيوارت والمدولة ـ المجلس الحسساس ـ
	تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحسكم الذاتي - الاراس الملحكية بالسجن رمفوضو الشرطة السياسية - لويس الرابع عشر سيد اوحد - الاستفسادة من البورجوا زية - ترويض النبلاء ـ ملوك سلالة ستيوارت والدولة ـ المجلس الحسساس ـ سلطة الملك التشريعية - السلطات القضائية الخاصة ـ سلطة إحداث الفرائب ـ الجيش
	تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتفهقرها في عهد الحسكم الذاتي - الاواس الملحقية بالسجن ومفوضو الشرطمة السياسية - لويس الرابع عشر سيد اوحد - الاستفسادة من البورجوازية - ترويض النبلاء ـ ملوك سلالة ستيوارت والمدولة ـ المجلس الحسساس ـ

Tل هوهنزولرن ـ روسيا واوروبا ـ اصلاحــات بطرس الاكبر الاول ـ هزائم السلطة

الاسوجية المطلقة والهيارها .

ď

113	٣ ازمه الفحكر واخس ، ، ، ، ، ، ، ، ،
	العلم الكواترياني والنيواوني_جهورية الاداب_انتشار الكواتريانية_الكنيسة ضد الكواتريانية_
	تشويهات الكوتزيانية _ تقدم العاوم ضد الكوتزيانية ، الآليون ونقد ديكارت _ رومو
	وسه عة النور لمنتز والحركة باسكال ونظرية رجحان الاقتراض منهج الاليين
	ناليف نبرن _ منبع نمرنون _ حـاب الكممة الصغرى _ مسألة الجاذبية _ نظرية
	شه و ن ــ ساجة نمو ون المزراب الكراتزيانية ـ آلية الفراغ الذرية ـ الأثير ـ النور ــ
	« الساهـــاتي الازلي » ـ مقاومة الكرتزيانيين ـ الكرتزيانية والنيوتونية والكيمياء ـ
	المستر تزمانية والآلمة والعارم الطبيعية ، علم الوظائف الحيوانية : الحيوان الآلة -
	ط الوظائف النباتية - اصاغر الاجسام - مسألة التوالد - مسألة النوع .
	العلوم الاجتاعية ، الحساب السيامي ، الاحصائيات ـ النفعية ، الآلات ـ فكرة التقدم
	والثقة المبياء في الملم .
1-1	 ١٤ - ازمة الفكر والحس ، جماليات المماصرين ، جفاف الأدب .
	ملاجر، الشعر ، الرسم واللَّزيين ، الاوبرا ، النظام الحيالي ـ انحطاط تعليم الآداب القديمة .
1.1	 ازمة الفكر والحس ، ازمة الدين
	وأجع الصوفيين.مذهب التجرد.التاريخ ضد الدين ـ البندكتيون ــ البحث اللاهوتي السياسي
	كسبيتورُ _ ريشارُ سيمُونَ _ بوسوية والعلل الثانويةُ _بيلُ واراؤهُ في المذنب اللحدونُ .
113	٧ - ازمة الآراء السياسية والاجتماعية
	الميورجوازيون ؛ لوك مبتدعو الانظمة الخيالية ، الارستوقراطيون الرجميون ، فينيلون ـ
	مَيتُدُمُو الانظمة الحيالية الرومنطيقية السيامية ، الديوقراطيون والاَشتزاكيون-الحَلَاصة.
	•
	العِستُمُالتَانِ
	اوروبا والعالم
tri	مدخل اتصال اوروبا بالعالم
	لماذا اقتحم الاوروبيون الارقيانوسات ـ تفوق السفينة الاوروبية ـ مسألة تحديد المكان ـ
	الاساليب في اواخر القرن الحامس عشر ــ النجاحات المحققة ــ الكرات والحرائط ــ
	مسقط مركاتور ــ تقدم الجغرافيا ـ اخطان الاسفار البحرية .
	الكتاب الأول
	اوروبا والعالم الجديد
179	القصل الأول . ـ الحصارات البلاية عند قدوم الأوروبيين . • • • •
ii-	١ حضارات العهد النيوليق
	الالغونكيتيون ـ التوبي غواراني ـ ديانة التوبينمبا ـ التطورات حين وصول الاوروبيين ـ
	الايرُو كَيون_المَاياً_الميزاتُ الطبيعية والاُخلاقية ـ الادوات المادية ـ التجهيز الفكري_
	ميانة الماياً ـ التنظيم السياس والاجتاعي ـ انحطاط المايا .

ص	
£ o A	٢ – حضارة العصر النحامي ٤ حضارة الازتيك
	حكان المكسيك كرجه التشابه بين الازتيكو والمـايا ـ خصائص الازتيك، البــلاد
	والديموقراطية التسلطية _ مكسيكو تنوشتتلان _ من الديموقراطية الشيوعية إلى الملكية
	الارستوقر اطية _ تذلل الديانة ، تكاثر الذبائع البشرية .
£77	٣ حضارات عصر الشبه 6 حضارة الانكا
£40 '	القصل الثاني . ــ الاوروبيون والاعراق الملونة في اميركا
140	١ – الاوروبيون في اميركا . الفضاء الاوروبي الجديد
	اكتشافات عقبة : قــارة اميركا الجديدة ــ الفضاء العالمي الاوروبي الجديد ــ مــفينة مانيــلا
	الكبرى - اسباب توزع الادروبيين ، الادعماءات الاسبانية البرتفالية بالاستكار_
	الاستعبار الفرنسي .
£AY.	٢ الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليكية
	الاسبانيون وهنود الحضارة النيوليتية ـ البرتغاليون وهنود الحضارة النيوليتية ـ الفرنسيون
	وهنود الحضارة النيوليتية ــ الانكايز وهنود الحضارة النيوليتية .
0.4	٣ الاوروبيون وهنود حضارة عصر النجاس
	الكسيك ـ عهد المركزية الملكية ، المؤسسات السياسية ـ اقتصاد علائق المسافات الكبرى
	المبني عل المصادن الثمينة ـ معضلة المواصلات والمؤن ـ فتح حيوانات اوروبا الداجنة
	العالم الجديد ــ فتح نباتات اوروبا العالم الجديد ــ المركزية والعمل التيشري ، الوعامة
	الملكية ـ الاديرة ـ التربية الدينية عوائق التبشير حياية الهنود ومن السلطة المكنية،
	زمن اللامركزية _ اقتصاد الاملاك العامة _ صلاحيات « السيد » وتفتت العالم الجديد
	على طريقة القرون الوسطى .
710	ع – الاوروپيون وشعوب حضارة عصر الشبه
	ه – الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الحديد٬ تعايش اوروبا٬ افريقيا السوداء٬
019	امیرکا
	الادروبيون وافريقيا السوداء ــ فشل التبشير ــ حضارات افريقيا السوداء، المثال الداهوميـــ الزفرج في اميركا .
	الكتاب الثاني
	اوروبا والعالم القديم
	1
040	الفصل الأول اوروبا والاسلام
۰ ۵۲۵	٠ - الاسلام
	قيادة الإسلام وحضوره في كل مكان ـ حيوية الإسلام وانتشاره ـ الإسلام ومغريـــاته ـ
	الإسلام تتمة المسيحية ـ وحدانية الله ـ علاقة الانسان بالله ، الصلاة الاسلامية ـ رجاء
	المسلم والتسليم لمشيئة الله ـ التصوف الاسلامي ـ انتشار الاسلام والتجار المسلموت ـ
	دعاه الاسلام .

OAL

oii	•	•	•					٧ - المالك الاسلامية ، السلطنة العثانية .	,
-----	---	---	---	--	--	--	--	---	---

الدولة ومعتمدية الجيش ـ القوة التركية رمن باصحاب التقنيات من الأوروبيين ـ الخطر التركي على اوروبا ومسلمو اسبانيا ـ تقدم الأتراك في البلقات ـ الاسباب الكامنة دراء فشل محاولات الاتراك العنانيين ضد المسيحية ـ الحرب ضد الفوس ـ الاصطدام مسع البرتفاليين والازمات الاقتصادية ـ بين ناخر الاتراك والنظام المائلي في الاسرة المالكة ـ هدم كفاءة السلاطين ـ تنظيم الاسرة في الدولة ؛ الفوض ـ تقهقر العنانيين ـ المغرب ولمد القبلي ـ الممتلكات التركية في الجزائر وثونس ـ المفرب المستقل من البحر المتوسط الى السودان .

المذهب الشيمي ـ الدعوة الفارسية ـ الدولة الصفوية والبدو في الحكم ـ الدولة مزوعة المطافو يستغل فيها المغلوبين على امرجمـ الاسرة الصفوية في الارج: الشأه عباس التحبير وفتوحاته المطفرة ـ تقوية الروح الاستبدادية ـ جهوده في سبيل تقوية الاسرة الملكية من الوجهة القومية ـ جهوده في سبيل تقوية الروح المركزية ـ اقتباس الفنون الاوروبية ونشاط المعركة التجارية ـ نهضة الفن الوطني: اصفهان وادروبا ـ انمطاط الدولة الصفوية ـ بين رفض الاسلام لاوروبا وعدم استغنائه عنها .

الفصل الثاني . ــ العالم الحندي ، الاسلام وأوروبا

الدولة الاسلامية ــ المسفون الفاتحون ونظام الطبقات .

بابر _ مشكلة تكيف المغول مع الهند: السلطان اكبر _ الدولة هي معتمدية الجيش المغولي، استفلال المنتجين _ استهلاك الانتاج واستحالة الادخار _ الفلاح : وسائل الانتاج عنده ومستوى الميش لديه _ السلطان اكبر واصلاح ضريبة الاملاك _ السلطان أكبر يعمل على ايقاظ الهندوكية وبعثها _ عارلة صهر الشعوب ، أكبر والتوحيد الالهي _ انحطاط الدولة المفولية: النفكك الاداري وتقهقر العامل الهندوسي _ اضطهاد المسلمين السنيين _ ردة الفعل الهندوسي - فانان والقول بديانة وتسائية عامة _ تنظيم السيخ _ السيخ حد المسلمين .

الحركة التجارية في الحيط الهندي عند ظهور البرتفاليين فيه - الامبراطورية البرتفالية ؛ احتكار تجاري - الحولنديون في الحيط الهندي - اوروبا والتجارة الآسيوية - الامبراطورية البرتفالية وكالة تبشير بالانجيل - القديس فرانسوا كسافيه - توجيهات الاب فالفيناني - روبرت نوبلي وطفوس ملابار - قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية وفشل عملة التبشير بالانجيل .

ص	
779	لفصل الثالث العالم الصيني واوروبا
774	١ ــ الصين واليابان . الصين
	انكاش الصين وانطواؤها على نفسها - تكاثر السكان - ازدهار البورجوازية - فلسفة دافغ يافغ منغ في وجه الكونفرشية التشرهية - طغيان الحصيان وصولتهم - الازمة الاجتماعية ، ازدهار البوذية والطارية - تفكك الامبراطورية وانحلالها في القرن السابع عشر : المنشو - سيطرة النشو العرقية - استسلام الصينيين، المنشو اداة الثورة وحدتها - المنشو اتباع حميمون الكونفوشية التشوهية - المنشو والسيطرة الصينية على السيا الوسطى .
711	اليابان اليابان .
	انهيار النظام الاقطاعي ـ نظام الاقتصاد ونظام المقايضة ـ الرجوع إلى نظام السلطة العامة في القرن السادس عشر ـ كل تشوغائو يحاولون تجميد اليابان في القرن السابع عشر .
704	٢ – الأوروبيون ومحاولاتهم التجارية في الصين واليابان
	البرثفاليون ــ الاسبان في الفيلميين ــ دخول الهولنديين الميدان التجاري وما كان له من أثر .
774	٣ ــ التبشير بالمسيحية في اليابان والصين
	التبشير في اليابان وفلسفة الانوار ـ نشر المسيحية في الصين والاوضاع التي أحاطت بها ــ الديانة الصينية ـ أسلوب اليسوعيين ـ اليسوعيون في البلاط الامبراطوري ــ أثر الصين في تطوير الحركة الفكرية في أوروبا .
٦٨٩	الفصل الرابع آسيا تعرض عن اوروبا
	التحجر الآسيوي ــ لماذا لم يعمد الاوروبيون إلى فتح آسيا بعد أن تم لهم التفوق الحربي ــ النظم الاجتباعية في أوروبا تولي الدولة قوة أكبر ــ تفوق أوروبا التفني ــ تفوق العلم الاوروبي ــ روادع الفتح لدى الاوروبيين، السراب الآسيوي وبعد المسافات واكتظاظ السكان ــ عجز أوروبا عن إقناع آسيا ، نشاط أوروبا وجمود آسيا ــ أعواض آسيا عن المسيحية وكرهها لها .
Y14	المراجع ه ٧٠ جدول زمني مقارن
101	جدولُ الاعلام · · · · ٧٢١ فهرست الخرائط والتصاميم · ·
Y0Y	فهرست الصور فهرست عام

انهى المجلد الرابع، ويليه الجلد الخامس القريف الشامن عشر

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de MAURICE CROUZET Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME IV

LES XVI° ET XVII° SIÈCLES

LA GRANDE MUTATION INTELLECTUELLE DE L'HUMANITÉ

L'AVÈNEMENT DE LA SCIENCE MODERNE ET L'EXPANSION DE L'EUROPE

(TROISTÈME ÉDITION, REVUE, CORRIGÉE, AUGMENTÉE)

par

Roland MOUSNIER
Professeur à la Sorbonne

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS QUEIDAT

Beyrouth - Paris

